مجمع القرآن الكريم بالشارقة

# موسوعة التفسير البلاغي

## المُجَلَّدُ الحَادِي والخَمسُون

سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76

مَوسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

# مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

## المُجَلَّدُ الحَادِي والخَمسُون

سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2026

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م

الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
--------------------------------------------------------------------------
227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 51 ، 822 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-97-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 51 : المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث
--------------------------------------------------------------------------
الترقيم الدولي : 978-9948-642-97-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4644027 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# الجُزْءُ
# الرَّابِعُ وَالعِشْرُونَ

# سُورَةُ الزُّمَرِ

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزمر: 73]

### مناسبةُ الآية لما قبلها:

الانتقالُ من سَوقِ الكافرين إلى ذِكر سوقِ المؤمنين

لما ذكرتِ الآياتُ السّابقة أحوالَ الكافرين؛ ناسبَ ذِكر أحوال أضدادِهم فقال سبحانه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾، وسوقُهم إلى المكان الطَّيب يدلُّ على أنَّ موقفَهم كان طيِّبًا؛ لأنَّ مَن كان في أدنى نكدٍ، ودُعي إلى مكان هنيءٍ، لا يحتاج في الذَّهاب إليه إلى سوق، فشتّان ما بين السَّوقين! هذا سوقُ إكرام، وذاك سوقُ إهانةٍ وانتقام، ولمّا كان هذا ليس لجميع السُّعداء بل للخُلَّص منهم؛ دلَّ على ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾، أي: الَّذين كلَّما زادهم إحسانًا؛ زادوا له هيبةً وتعظيمًا[1].

### شرح المفردات:

1) ﴿سَلَٰمٌ﴾: (سلم) مُعظَمُ بابِهِ مِنَ الصِّحَّةِ والعافيَةِ، ويَكونُ فيهِ ما يَشِذُّ، والشّاذُّ عَنهُ قَليلٌ، فالسَّلامَةُ: أن يَسلَمَ الإنسانُ مِنَ العاهَةِ والأذَى، والسَّلامُ هوَ اللهُ جَلَّ ثناؤُهُ، ودارُهُ الجَنَّةُ، قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25]، قيلَ للجنَّة: دارُ السَّلام؛ لأنَّها دارُ السَّلامَةِ مِنَ الآفاتِ[2]، ومِنَ البابِ الإسلامُ، وهوَ الانقيادُ؛ لأنَّهُ يَسلَمُ مِنَ الإباءِ والامتِناعِ، والسِّلامُ: المُسالَمَةُ، وفِعالٌ تَجيءُ في المُفاعَلَةِ كَثيرًا نَحوَ القِتالِ والمُقاتَلَةِ[3]، والمقصودُ في الآيةِ الدُّعاءُ لهم بأن يسلموا من جميعِ المكارِه والآلام[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 566.
(2) ابن الأثير النهاية: (سلم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلم).
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 264.

2) ﴿طِبۡتُمۡ﴾: (طيب) أصلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى خِلافِ الخَبيثِ، مِن ذَلِكَ الطَّيِّبُ: ضِدُّ الخَبيثِ[1]، والطَّيِّبُ: الحلالُ، وطاب الشَّيءُ: زكا، وطهر، وجاد، وحسن، ولذَّ، وصارَ حَلالًا، وطابت نفسُهُ بالشَّيء: وافقها، وارتاحت إليه، أو سمَحَت بِهِ، وعنهُ نفسًا: تَركَهُ[2]، وطوبى: فُعلَى مِنَ الطّيبِ، والمعنَى: العيشُ الطَّيّب[3]، ومعنى ﴿طِبۡتُمۡ﴾: طهرتم مِن دَنَسِ المعاصي، أو طِبتُم نَفْسًا بما أُتيح لكُم مِنَ النَّعيم[4].

## المعنى الإجماليُّ:

الجنَّةُ دارُ المتَّقين ومنتهى أملِ المؤمنين

تُبيِّن الآيةُ الكريمة - بعد بيانِ مصيرِ الكافرين - ما سيُساق إليه المتَّقون في الآخرة على هيئةِ جماعاتٍ مرتَّبة حسب ترتُّب طبقاتِهم في الفضل؛ إذ يُحشَر الَّذين اتَّقوا ربَّهم - بأداء فرائضِه، واجتناب معاصيه في الدُّنيا، وأخلصوا له فيها، فلم يشركوا في عبادتِهم - إلى الجنَّة جماعاتٍ، فكان سوقُ هؤلاءِ إلى منازِلهم مِنَ الجنَّة وفدًا على نجائبَ مِن نجائبِ الجنَّة، حتى إذا جاؤوها، وشُفِعَ لهم بدخولها؛ فُتِحَت أبوابُها، فترحِّب بهم الملائكةُ الموكَّلون بالجنَّة، ويُحَيّونهم بالبِشر والسُّرور؛ لطهارتِهم مِن آثارِ المعاصي قائلين لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ من كلِّ آفةٍ، طابت أحوالُكم، فادخلوا الجنَّة خالدين فيها[5]. وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ التَّقوى سببٌ لدُخول الجَنَّة، وإلى أنَّ الجَنَّة دارُ السَّلام، السَّلام من كلِّ آفَةٍ، وأنَّ اللّه جمَعَ لأهْلِ الجَنَّة بين السَّلامة مِنَ الآفات وطيب الأحوال والأوقات، وإلى أنَّ الإذْنَ لهم بدُخول الجَنَّة يكونُ على وجهِ الإكرام[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طيب).
(2) ابن سيده، المحيط: (طاب).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (طيب).
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 264.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 730.
(6) العثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 502 - 503.

## ۞ الإيضاح اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

### دلالةُ العطفِ البلاغيَّة:

إظهارُ التَّقابل الضِّدّي في مآلاتِ المختلفين

عطفتِ الواو قولَهُ تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ على ما قبلَها؛ ليكتملَ التَّقابل بين الفريقين: فريقِ الجنَّة وفريق الجحيم، فهذا العطفُ يقتضي التَّوحيد في المشاركة؛ لذا اقتضى التَّقابل بين المصيرين، مع ما يبرزُهُ مِنَ الاختلاف بين الجزاءين: العذابِ والهوانِ مقابل النَّعيم والكرامة، والعطف يُبرز أنَّ الجميعَ يُساقون أمامَ اللّه، سواءٌ إلى الجنَّة أم النار، ممّا يعزِّز رهبةَ الموقف، وهيبة يوم القيامة، مع اختلافِ الأحوال بين ذلِّ الكافرين وفرح المتَّقين، وهو يوضِّح بيانَ عدلِ اللّه تعالى، الذي يُجازي كلَّ فريقٍ بما يستحقُّه.

### بلاغةُ المشاكلةِ في مفردةِ (سيق):

تومِئُ المشاكلةُ إلى الفرقِ بين النِّهايتَين مع تشابُهِ البدايتين

سبقَ بيانُ أنَّ السَّوقَ يكون بعنفٍ وإذلالٍ لأهل النّار، وهنا أُطلِقَ على تقدمة المتَّقين إلى الجنَّة فعلُ السَّوق على طريقةِ المشاكلة لفعل (سيقَ) الأوَّل، والمشاكلةُ من المحسِّنات، وهي عند التَّحقيق مِن قبيل الاستعارةِ الَّتي لا علاقة لها إلّا المشابهة الجمليَّة الَّتي تُحمل عليها مجانسة اللَّفظ[1]، وفي هذه المشاكلةِ تفويضُ الأمرِ للّه تعالى، فهو العالِمُ بمصير المُساقين على الحقيقةِ في شأنِ الجميع، وهذا مِن بدائع أنواع البديع، وهو أن يأتيَ سبحانه بكلمة في حقِّ الكفّار، فتدلُّ على هوانِهم بعقابِهم، ويأتي بتلك الكلمةِ بعينها وهيئتها في حقِّ المؤمنين، فتدلُّ على إكرامِهم بحسن ثوابهم، فسبحان مَن أنزله معجزَ المباني ومتمكِّنَ المعاني عذْبَ الموارد والمثاني[2]!.

### نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ السَّوق:

التَّعبيرُ بصيغة ﴿وَسِيقَ﴾ تدلُّ على حتميَّة السَّوْق، مع المبالغة في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 71.
(2) الخطيب، السراج المنير: 3/ 463.

الحفاوة والإكرام والتَّشريف، ممّا يعكس المشهدَ العظيم للمتَّقين، وهم يمضون موفدين إلى الجنَّة في زمَرٍ مهيبةٍ مشرِّفة، وتضفي صيغة المبني للمفعول عظمةً وجلالًا على المشهد، وتُبرز أنَّ الملائكة مأمورون بسوق المتَّقين واصطحابِهم إلى دار السَّلام؛ تكريمًا لهم وسرورًا بهم، دون التَّصريح بالفاعلِ أو الآمر؛ لأنَّ العِبرةَ في السَّوقِ.

العِبرةُ في معرفةِ مآل المؤمنين لا في ذكرِ الفاعلِ

**غرضُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول:**

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ دون الاسم الظّاهرِ (المتقون)؛ لبيانِ سببِ سوقِهم إلى الجنَّةِ، وهي التَّقوى، لتُقابِلَ ذِكرَ سببِ إيراد الكافرين النّار.

**لطيفةُ استعمالِ عنوانِ الرُّبوبيَّة:**

تشريفُ المتَّقين يُقابل تقريع الكافرين

أُضيفَ لفظُ الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير العائد على المتَّقين في قولهِ تعالى: ﴿ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾؛ لتشريف المتَّقين وتكريمهم بهذه الإضافة، فهو ربُّهم الَّذي يؤمنون به، ويعبدونه، ولتقع المقابلةُ بين مَن آمن بربِّهِ، واتَّقاه، فسيق إلى الجنَّة، وبين مَن كفر بربِّه، فعاندَ، وجحدَ، فسيق إلى النّار، فنال تقريعًا وتوبيخًا وتبكيتًا.

**معنى تعريف لفظِ ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾:**

الجنَّةُ غاية العبد الفالح ومآلُ العملِ الصالح

تعريفُ لفظ ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ للعهد الذِّهني، فهي تلكمُ الجنَّة المعروفة الَّتي هي جنَّة النَّعيم الأبديَّة الَّتي وعد اللّه بها المؤمنين، ودلالة الألف واللّام في هذا السّياق تأتي مقصودًا بها التَّخصيص والتَّعريف، وإضافة الفخامة والعظمة؛ لتظهرَ وكأنَّها جنَّةٌ خاصَّة لا مثل لها وهي كذلك، كيف لا؟ وهي دارُ ثوابِ المؤمنين وجزاؤهم في الآخرة.

**نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿زُمَرًاۖ﴾:**

نُكِّر لفظُ ﴿زُمَرًاۖ﴾؛ لِتَفخيم حالِ جماعات المتَّقين عند سوقهم إلى الجنَّة، وتفخيم أمرهِم لدى السّامع، فيرجو أن يكون معهم في ذلك اليوم المشهودِ.

تشويق المُخاطَبين وترقُّب المؤمنين لمعرفةِ الغاية

**دلالةُ استعمال ﴿حَتَّىٰٓ﴾:**

يأتي السّياقُ القُرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾، معبِّرًا عن انتهاء مشهدِ السَّوق بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ المفيدة للغاية[1]، معلنةً الانفصالَ التّام عن مشاهد القيامة، ومسدِلةً السِّتارَ على ذلكم العناء والكبد، الذي تحمَّله المؤمن في سبيل اللّهِ تعالى؛ ليُدخَل مكرَّمًا إلى دار الكرامةِ الجنَّة، ممّا يحملُ على التَّشويق والتَّرقُّب، وتصوير المؤمنين، وهم يسيرون نحو الجنَّة يُشعل في النَّفس حماسًا، وشوقًا لرؤية النَّتيجة النِّهائيَّة، وهي دخولها، وكأنَّ التّالي لهذه الآيةِ تتوق نفسُهُ لمعرفة تلك العاقبةِ، وهو في تركيز شديدٍ على اللحظةِ الحاسمة باستخدام ﴿حَتَّىٰٓ﴾ تحديدًا للحظة الفتح البهيجة، الَّتي هي قمَّة الجزاء.

تأكيدُ يقينيَّة وقوع الحدثِ

**فائدةُ استعمالِ أداةِ ﴿إِذَا﴾:**

آثرَ النَّظم الكريمُ استعمالَ أداة ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾، دون (إن) لما تحملُهُ مِن دلالةٍ ظرفيَّةٍ ويقينٍ على وقوع الحدث، وهي تفيدُ تحديدَ زمنِ تحقُّق الشَّرطِ، وهو (المجيء)، ممّا يدلُّ على حتميَّة وقوعِ الحدث، بخلاف (إن) الَّتي تدلُّ على الاحتمال، فاختيارُ ﴿إِذَا﴾ يتناسب مع السّياق الَّذي يهدف إلى تأكيد يقينيَّة وقوعِ المشهد، ومجيءُ أبوابِ الجنَّة.

**وجهُ تعدية فعلِ المجيء بنفسِهِ:**

آثرَ النَّظْمُ الكريم في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ أن يتعدَّى فعل (جاء) إلى المفعولِ به بنفسِهِ؛ لبيانِ غاية المجيءِ، وأنَّه إنَّما كان لأجلِ الجنَّة الَّتي وُعِدوها.

**نوعُ الواوِ ودلالتها:**

اختلف النّاسُ في شأنِ الواو في قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتۡ﴾ على

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 372.

تفتيحُ أبوابِ الجنَّة قبل مجيءِ أهلها مُشعرٌ بالحفاوة والإجلالِ

أقوالٍ، فأدنى الأوجه للبلاغةِ وحسن النَّظم والبيان أن تكونَ حاليَّة، أي: جاؤوها، وقد فُتحت لهم أبوابُها، ونظيرُ ذلك قولُهُ تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ٥٠﴾ [ص: 50]، وهو يُشعرُ بتقدُّم فتح الأبواب على مجيئهم، كما تفتحُ الخدمُ بابَ المنزلِ للمدعوِّ للضِّيافة قبل قدومِه، ويقف أصحابُ المنزل منتظرين قدومَهُ، ولا يبعد كونها للعطف[1]، على أن يكونَ المعطوف عليه محذوفًا، أي: سُعِدوا وفُتِحَت[2]، وما قيل مِن أنَّها واو الثَّمانية، وهو ما وقع في كلام بعض النَّحويّين؛ فقولٌ ضعيفٌ لا يقوى[3]، ومثله القول بالزّيادة.

### فصاحةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

ما لا يُحيطُ به الوصفُ يُترك بلا وصفٍ

جواب الشَّرطِ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ يحتمل ثلاثةَ أوجهٍ، أن يكونَ (فُتحت)، وذلك على اعتبارِ الواو زائدةً، فتكون هذه الآية نظيرَ آيةِ سوق الكافرين، أو أن يكونَ جوابُ الشرط: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا﴾، أي: حتّى إذا جاؤوها؛ قال لهم خزنتها[4]، أي: جاؤوها، فوجدوا أبوابَها مفتوحةً، أو أن يكونَ الجواب محذوفًا، يقدَّرُ باطمأنّوا، أو سُعِدوا، ويُقدَّر بعد ﴿خَٰلِدِينَ﴾، وجملة ﴿وَفُتِحَتۡ﴾ حالٌ منصوبٌ، وذلك للإيذان بأنَّ لهم حينئذٍ مِن فنونِ الكرامات ما لا يحيط به نطاقُ العِبارات، كأنَّه قيل: إذا جاؤوها مفتَّحةً لهم أبوابُها، فلم يُذكرِ الجواب مباشرةً لإبراز عظمة النَّعيم وسرور أهل الجنَّة؛ إيجازًا للمعنى دون الإخلالِ بالدَّلالة، وللتَّناسب مع الموقفِ[5].

فجاءَ التَّعبيرُ بالجملة الشَّرطيَّة في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ محذوفَ الجوابِ؛ لأنَّ الحذفَ أبلغُ، قال سيبويه: سألت

(1) الأحنف، البستان: 2/ 370.
(2) ابن الشجري، أمالي ابن الشجري: 1/ 358، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 285.
(3) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 474، والمرادي، الجنى الداني، ص: 167، والسيوطي، همع الهوامع: 3/ 191.
(4) السمين، الدر المصون: 9/ 477، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 288.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 288.

الخليلَ عن قوله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ أين جوابُها؟ فقال: إنَّ العربَ قد تترك في مثل هذا الخبرِ الجوابَ في كلامهم؛ لِعِلْمِ المُخْبَرِ لأيِّ شَيءٍ وُضِعَ هذا الكلامُ[1]، فتُرِكَ للمخاطَب تقديرُ الجواب لعلمه به؛ لأنَّه لا تُماري نفسُهُ في معرفته، وثباته تصديقًا بوعد اللّه تعالى، ودلَّ بحذفهِ على أنَّه شيءٌ، لا يُكتنه، ولا يحيط به الوصف[2]، وإنَّما صار الحذفُ في مثل هذا أبلغَ مِن الذِّكْرِ؛ لأنَّ النَّفس تذهبُ فيه كلَّ مذهبٍ، ولو ذُكِرَ الجوابُ لقصر عن الوجهِ الَّذي تضمَّنه البيانُ[3]، فحَذْفُ الجواب في مثل هذه المواضع أفْخَمُ؛ لأنَّ المخاطبَ يَتَوَهَّمُ كُلَّ شيءٍ، فإذا ذُكِرَ شيءٌ بعينِه؛ حَضَرَهُ فَهْمُهُ[4].

### غرضُ بناء الفعل للمفعول:

بُني فعلُ الفتحِ للمفعول في قولهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الحدث وحصولهِ وأنَّه أولى بالذِّكرِ ورعاية الذِّهن مِن ذكرِ مَن فتحه.

### نوعُ الواوِ ودلالتُها:

بعد دخول الجنَّةِ يقع التَّرحيب ويطيبُ القولُ الحسن

الواو في قولهِ تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا﴾ عاطفةٌ، ودلَّت على أنَّ هناك تتابعًا للأحداث، ولقاءً بين الذين اتَّقوا ربَّهم وخزنة الجنَّة؛ إذ يأتي المشهدُ في سياقٍ متسلسل؛ ليُشيرَ إلى ما بعد دخول المؤمنين الجنَّة؛ إذ يتلقَّون كلماتِ التَّرحابِ مِن خزنة الجنَّة بعد أن وصلوها، وفي ذلك تأكيدُ كلِّ جانبٍ مِن جوانبِ الرِّحلة الإيمانيَّة.

### نوعُ اللّام ومعناها:

اللّامُ في قولهِ تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا﴾ المضافةُ للضَّمير

---

(1) سيبويه، الكتاب: 3/ 103، وبه قال المبرد، المقتضب: 2/ 77- 99، والزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 364.

(2) درويش، إعراب القرآن: 8/ 449.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 121.

(4) الفارسي، التعليقة: 2/ 211.

العائد على تلك الكوكبة الدّاخلة للجنَّة، هي لام الاختصاص، وتدلُّ على أنَّ القولَ موجَّهٌ لأهل الجنَّة على وجه الخصوص.

**نكتةُ تقديم شبهِ الجملةِ:**

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ في قولهِ تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا﴾ على الفاعل؛ لإبراز اختصاص القولِ بتوجيههِ مباشرةً إلى أهل الجنَّة، لبيان كمال تكريمهم وتشريفهم.

**فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّة:**

رسوُّ الطُّمأنينة والسَّلام في دارِ السَّلام

الجملةُ الاسميَّة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ المكوَّنة من المبتدأ والخبر في محلِّ نصبٍ؛ لأنَّها وقعت مفعولًا به للفعلِ (قال)، وجعْلُ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ جملةً محكيَّةً يُبرزُ محتوى القول، ويجعلُه مباشرًا ومؤكَّدًا، ممّا يُشعِرُ المُتلقّي بوقوع السَّلام وطمأنينته، فهو يُقال لهم شخصيًّا، كما أنَّها تُفيد أنَّ السَّلام الَّذي يُلقى على أهلِ الجنَّة هو سلامٌ دائمٌ ومستمرٌّ، وليس مجرَّد فعلٍ عابرٍ يحدث مرَّةً واحدةً؛ وذلك أنَّ الجملةَ الاسميَّة تفيد الدَّوام والثَّبات(1).

**نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿سَلَٰمٌ﴾:**

سـلامٌ عظيمٌ متجدِّدٌ يتلقّاه أهلُ الجنَّة

نُكِّر لفظُ ﴿سَلَٰمٌ﴾ للتَّفخيم؛ إفادةً لقصد التَّنويع والتوسُّع في المعنى؛ ليضفي على المشهد عمقًا بلاغيًّا وجمالًا معنويًّا، وليُشعر المُتلقّي بعظمة السَّلام، الَّذي يُلقى على أهل الجنَّة، وخصوصيَّته، وكماله المطلق، وليبرزَ الشُّموليَّة والتَّفخيم في السَّلام الموجَّه لأهل الجنَّة، وليظهر معنى التَّعظيم(2).

**علَّةُ فصلِ جملة ﴿طِبۡتُمۡ﴾ عن السّابق:**

آثرَ النَّظمُ الكريم مجيءَ الجملةِ في قوله تعالى: ﴿طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ مفصولةً عن سابقتها؛ لاختلافِهما خبرًا وإنشاءً، فجملةُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/ 175.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 546.

تعزيزُ الشُّعور بـالارتـقـاء في المكانة وازدحام كلمات التَّرحيب

﴿طِبۡتُمۡ﴾ إنشاءُ تكريمٍ ودعاءٍ[1]؛ إذ يشيرُ الفصل إلى الانتقال مِن حالةٍ إلى حالةٍ أخرى، ليعطي عمقًا أكبرَ، وأهمّيَّة لكلِّ جزءٍ من الكلام، ممّا يجعلُ الثَّناء والدَّعوة منفصلين، وإن كانا مترابطين في المعنى، كما أنَّ الفصل يُضفي إعلانًا ببراءتِهم مِنَ الذُّنوب ورضا اللّه عنهم[2].

## بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿طِبۡتُمۡ﴾:

مـن طـاب مِـن دنـس المـعـاصي طاب له النَّعيم في الجنَّة

آثرَ النَّظمُ الكريم أن يكونَ سياق خطاب الملائكة للمؤمنين بقوله: ﴿طِبۡتُمۡ﴾، وهذا الفعلُ تتجاذبه ثلاثةُ معانٍ، وهي: نعمتُم، وكرمتُم، وزكوتُم[3]، وهذه المعاني كلُّها صحيحٌ مراد، ويحتملُهُ اللَّفظ والسّياق، فجمعَ هذا اللَّفظُ المفرد هذه الوفرةَ من المعاني الكريمة، في نظْمٍ كريم، فالطَّيّب اسمٌ جامع لمعاني الطُّهر والسَّلامة والنَّعيم، ومفارقة الأضدادِ مِنَ الذُّنوب والمعاصي والخبائث والمِحَن، وهو إخبارٌ بما سيكون لهم في جنَّة الخُلد.

## نوعُ الفاء ودلالتُها:

دخــولُ الـجـنَّـة مقرون بمَن مُنِحَ الطِّيب

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ إمّا أن تكونَ الفصيحةَ، فهي الَّتي تُفصحُ عن شرطٍ مقدَّرٍ يُفهم مِنَ السّياق، والمعنى: إذا طِبتم؛ فادخلوها[4]، ودلالتُها أنَّها تربط بين السَّبب والنَّتيجة؛ إذ إنَّ طهارتَهم واستحقاقَهم النَّعيم بسببِ أعمالِهم الصّالحة، وهو ما أدى إلى الأمرِ بدخولِهم الجنَّة، وهي تُبرِزُ هذا التَّرابط بشكلٍ واضحٍ، وتُظهر النِّعمة الإلهيَّة بمنحهم الخلودَ في الجنَّة، وتحتمل أن تكونَ تعليليَّة[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 72.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 7/ 202، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 286.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 138.
(4) الدرة، تفسير القرآن الكريم: 8/ 297.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 449.

**غرضُ الأمرِ ودلالتُه:**

الأمرُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ جاءَ تعبيرًا عن منتهى التَّشريفِ والإكرام للمؤمنين، وليس الأمرُ تكليفيًّا بقدر ما أنَّه تشريفٌ للمخاطَبين، فهو دالٌّ على الإذنِ الإلهيِّ بدخول الجنَّة، كما أنَّه كنايةٌ عن الرِّضا الكامل عن المؤمنين.

**الأمـرُ بدخولِ الجنَّة كنايةٌ عن الرِّضا الكامل والاستحقاق التّامِّ**

**فائدةُ الحالِ ﴿خَٰلِدِينَ﴾:**

بعد أن نالَ أهلُ الجنَّةِ التَّشريف والتَّكريم، وخوطِبوا بالسَّلام، ونودوا بدخول الجنَّة ووراثتها، بُشِّروا بالخلودِ، في قولهِ تعالى: ﴿طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، فلفظُ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ جاء منصوبًا على الحال، وصاحبُ الحال واو الجماعة في ﴿فَٱدۡخُلُوهَا﴾، وهو يعود على أهل الجنَّة، وهذه الحالُ تصفُ أهلَ الجنَّة عند دخولهم الجنَّة، أي: إنَّهم يدخلونها في حال كونِهم مبشَّرين بالخلودِ فيها، ممّا يُعزِّز الشُّعور بالطُّمأنينة والفرح، فدخولُ الجنَّة كمال السَّعادة، فجمع لهم بين الدُّخول والخلود، في مشهدٍ مهيبٍ أضفى على التّالي للقرآن جمالًا وطمأنينة معنويَّة عميقة.

**الانتقالُ مِنَ الدُّخول إلى الخلودِ تكميلٌ للسَّعادةِ وتتميمٌ للطُّمأنينة**

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾ [الزمر: 74]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

هدايةُ المؤمنين إلى القول الطَّيِّب بعد تحقيقِ الوعد الطّيّب

لمّا ذُكِرَتِ الآيةُ السّابقة ما جوزي به المتَّقون عند دخولِ الجنَّة؛ ناسبَ بيان موقفِهم بعد ذلك، وما قالوه عند دخولِها، وهو: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، وهذا هو القولُ الطَّيِّبُ الَّذي قال اللّه فيه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [الحج: 24]، فالهدايَةُ إلى القولِ الطَّيِّب إن كانتْ في الدُّنيا؛ فهوَ قَولُ: (لا إلَهَ إلّا اللّهُ)، والأقوالُ الطَّيِّبَةُ مِنَ الأذكارِ وغَيرِها، ويَكونُ الصِّراطُ طَريقَ الإسلام، وإن كانَ إخبارًا عَمّا يَقَعُ مِنهُم في الآخِرَةِ؛ فهوَ قولُهُم هذا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا﴾[1].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَوۡرَثَنَا﴾: (ورث) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، هيَ الورثُ، والميراثُ أصلُهُ الواوُ، وهوَ أن يَكونَ الشَّيءُ لقَوم، ثُمَّ يَصيرَ إلى آخَرينَ بِنَسَبٍ أو سَبَبٍ[2]، والإيراث: الإبقاءُ للشَّيء، ويورثُ، أي: يُبقي ميراثًا[3]، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾ [المؤمنون: 10 - 11]، يُقالُ: إنَّه لَيسَ في الأرضِ إنسانٌ إلّا ولَهُ مَنْزِلٌ في الجَنَّةِ، فإذا لَم يَدخُلْهُ هو؛ ورِثَهُ غَيرُهُ[4].

2) ﴿نَتَبَوَّأُ﴾: (بوأ) أصلانِ: أحَدُهُما الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ، والآخَرُ المساواةُ بين الشَّيئين، فالباءَةُ والمَباءَةُ، وهي مَنزِلَةُ القَوم، حَيثُ يَتَبَوَّؤونَ، ويقالُ: قَد تَبَوَّؤوا، وبَوَّأَهُمُ اللّهُ تعالَى مَنْزِلَ صِدْقٍ،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 498.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ورث).
(3) الخليل، العين: (ورث).
(4) ابن منظور، اللسان: (ورث).

والمَباءَةُ: مَنزِلُ الإبِلِ حَيثُ تُناخُ في المَوارِدِ[1]، والتَّبوُّؤ: أصلُ البَواء: يُطلق على مساواة الأجزاءِ في المكان، خلاف النَّبوِّ الَّذي هو منافاةُ الأجزاءِ، يقال: مكانٌ بَواءٌ؛ إذا لم يَكن نابيًا بنازلِه، وبَوَّأْتُ لَهُ مكانًا: سَوَّيتُه، فَتَبَوَّأ[2].

## ۞ المَعنى الإجْماليُّ:

إعــلانُ الحمد لله على تمام النِّعمة

تُبيِّن الآيةُ الكريمة ما يقولُهُ المؤمنون عند دخولِ الجنَّة، مِن حَمْدِ اللهِ تعالى الَّذي صَدَقَهُم ما وعدهم به في الدُّنيا، وصَدَحَت أفواههم بحمْدِ الملك الوهّاب على ما أولاهُم، ومنَّ عليهم، وهداهم، ثم ذَكَرَ تلك النِّعمة والمنَّة مِن وراثة الأرض والتَّبوُّؤِ فيها والتَّنقُّل فيها، حيثُ شاؤوا، وعندها يسمعونَ الجواب: ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ أي: الجنَّةُ، نِعم ثوابُ المطيعين للهِ، العاملين له في الدُّنيا، الَّذين اجتهدوا بطاعة ربِّهم، في زمنٍ قليل منقطع، فنالوا بذلك خيرًا عظيمًا باقيًا مستمرًّا.

وترشدُ الآيةُ إلى الثَّناء على اللهِ بالكَمال والإفضال؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾؛ فإنَّ صِدْقَ الوَعدِ كَمال، ثُمَّ إنَّ إيراثَهُم الجَنَّة إفْضالٌ، فجمَعوا في هذا بين الحَمْدِ على الكَمال والحَمْدِ على الإفْضالِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يُحمَدُ على الأمرَيْن جميعًا، على كَمالهِ وعلى إفْضالِهِ، فيَكونون بقولهم هذا جامعين بين الحمدِ والشُّكْرِ، وإلى الحثِّ على العمَلِ الصّالِح الَّذي يورِث الجَنَّةَ، وأنَّ الإنسان لا يَنبَغي أن يَكون كَسولًا مُتراخيَ الهِمَّةِ في الأعمالِ الصّالِحة[3].

## ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### نوعُ الواو ودلالتُها:

الواو في قولهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾ للعطف، وما بعدها كلامٌ معطوف

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بوء).

(2) الجوهري، الصحاح: (باء).

(3) العثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 511 - 512.

على جواب (إذا) المحذوف، أي: دخلوها وقالوا[1]، فقولُهم هذا مترتِّبٌ على دخول الجنَّة.

### فائدة التَّعبير بالاسميَّة:

الحمدُ في الجنَّة لـذَّةٌ دائمةٌ لا كلفة عابرة

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالجملة الاسميَّة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ دون الفعليَّة، فلم يقل: (نحمد اللّه) ونحوه؛ للدَّلالةِ على الثُّبوت واستمراريَّة الحمد لسانًا ومقامًا، ممّا يُبرز الدَّوامَ في حالةِ الحمدِ للّه، والمعنى هنا لا يقتصرُ على لحظةِ الحمد، بل هو تعبيرٌ عن حمدٍ دائم للّه تعالى مِن أهل الجنَّة؛ لما أولاهم سبحانه مِنَ الرِّضا التّامِّ في الجنَّة حيث أنعم عليهم، والتَّعبيرُ بالاسميَّة يُبيِّن أنَّ حمْدَهم نطقوا بهِ على وجه اللَّذَّة لا الكلفة[2].

### معنى تعريفِ لفظ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾:

جنسُ الحمدِ للّه تعالى مستغرقٌ كلَّ ما يُحمد عليه

التَّعريفُ في لفظِ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ للجنس؛ لأنَّ المصدرَ في الأصلِ عوضٌ عن الفعل، فلا جرم أن يكونَ الدالُّ على الفعل والسّادّ مسدَّهُ دالًّا على الجنس، فإذا دخلت عليه اللّامُ؛ فهو لتعريف مدلولِهِ؛ لأنَّ اللّام تدلُّ على التَّعريف للمُسمّى، فإذا كان المُسمّى جنسًا، فاللام تدلُّ على تعريفه، ومعنى تعريفِ الجنسِ أنَّ هذا الجنسَ هو معروفٌ عند السّامع، فإذا قلتَ: الحمدُ للّه؛ فكأنَّك تريد أنَّ هذا الجنسَ معروفٌ لديك ولدى مخاطَبك لا يلتبس بغيرِهِ[3].

### نوعُ اللّامِ ودلالتُها:

جزاءُ أهل الجنَّة ونعيمهم إنَّما هو بفضل الله ورحمته

دلَّت اللام الدّاخلة على اسم الجلالةِ ﴿لِلَّهِ﴾ على الاختِصاص المفيد للحصر، وتشير إلى أنَّ الحمدَ يعودُ بالكامل إلى اللّه، دون أن يُشاركَهُ فيه أحدٌ، فهي تُحدِّد الاستحقاقَ، ومِن ثَمَّ فهو المستحقُّ لجميعِ أنواع الحمْدِ والشُّكر من خلقِهِ، سواء في الدُّنيا أم في الآخرة،

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 449.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 12/ 101.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 159.

ممّا يُعزِّز مِن إحساس أهل الجنَّة بأنَّ جزاءهم ونعيمهم هو بفضل اللّه ورحمته.

**فائدةُ استعمال الاسم الموصول:**

جاء التَّعبيرُ بالاسم الموصول في قول الحقِّ سبحانه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾، وهو صفةٌ لاسم الجلالة ﴿لِلَّهِ﴾؛ لبيانِ ما يستحضرُه الحامدُ من أسباب الحمْدِ، وهو دخول الجنَّة.

**غرضُ ترتيبِ المفعولَيْن:**

**الشُّعورُ بالحمدِ يكشفُ سرورَ الحامدِ وبهجته**

جاء النَّظمُ الكريم في قوله تعالى: ﴿صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ بتقديم المفعول الأوَّل، وهو ضميرُ الجمع في ﴿صَدَقَنَا﴾ على المفعول الثاني ﴿وَعۡدَهُۥ﴾، فلم يقل: (صدق وعده إيّانا)؛ لأنَّ أهلَ الجنَّة يحمدون اللّه تعالى على أن صَدَقَهم هم دخولَ الجنَّة، فالاعتناءُ والاهتمام بما صوَّر حالَهم عن استشعار الحمدِ في كونهِ قد لحقهم الفضلُ بما لحق، ولذلك قُدِّم ضميرُهم، ثمَّ الإشارةُ إلى المفعول الثّاني (الوعد) الَّذي تحقَّق لهم تتميمًا وتكميلًا، فالتَّقديم يعكس استبشارَ المؤمنين بجزاء اللّهِ تعالى وإكرامه لهم.

**نكتةُ إضافةِ الوعد إلى الضَّمير:**

جاء الوعدُ مضافًا إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾؛ لتشريفِ الوعد وتفخيمِه، فهو الوعد الَّذي لا يتخلَّف، والأمرُ الَّذي لا يتردَّد.

**نوعُ الواو ودلالتُها:**

**وراثـةُ الأرض مـرحـلـةٌ مِـن مراحل النَّعيم**

جاء النَّظمُ الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ بالواو قبل الفعل أورث؛ دلالةً على العطف؛ لإفادة الرَّبط بين الجمل والأحداث؛ إذ عطف (أورثنا) على ما سبقَهُ، وسياق الآية يُبيِّن نعيمَ أهلِ الجنَّة، والإرث جزءٌ من هذا النَّعيم العظيم، كما أنَّ العطف يُشير إلى أنَّ ما يحصل عليه المؤمنون من ميراث الجنَّة والتَّبوُّؤِ فيها، هو نتيجةُ

أعمالِهم وطاعتهم للّه تعالى في الدُّنيا، وهو جزء من سياق النَّعيم والجزاء الإلهيِّ للمؤمنين.

### بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحية:

كلُّ توريثٍ يُسكن دون العكس

في قولهِ تعالى: ﴿وَأَوۡرَثَنَا﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ إذ استعارَ لفظ الإرث لمعنى السُّكنى؛ تشبيهًا للسُّكنى بالتوريث، وقيل: تشبيهًا للإعطاء بالتَّوريث في سلامته من تعبِ الاكتسابِ[1]، والاستعارة أبلغُ مِنَ الحقيقةِ لما فيها مِنَ الإشعارِ بتمامِ الفضل، وجمال التَّمليك، فإنَّ الميراثَ تمليكٌ، وهو يُشعر بالطُّمأنينة وكمال التَّصرُّف، فهو بيانٌ للسُّكنى، وهو أعمُّ منها، فكلُّ ميراث يُسكن، وليس كلُّ سكنٍ يورث.

### نكتةُ تقديم صِدق الوعدِ على توريث الأرض:

المؤمنُ واثقٌ في صِدق الوعد الإلهيِّ

قُدِّم ذِكرُ صِدق الوعد في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ على توريث الأرض، حاملًا التَّرتيب للأحداث، فالمؤمن يثق في صدق الوعدِ الإلهيِّ، ثمَّ تأتي الثَّمرات والنَّتائج الطبيعيَّة لهذا الوعد، كالتَّوريث في الأرض، فالوعدُ هو الأساس الَّذي يقوم عليه التَّمكين، والنَّتائج الكبرى في حياة المؤمنين، ولا يأتي التَّوريث في الأرض إلّا كنتيجةٍ مؤكِّدةٍ للوعد الصّادق مِنَ اللّه.

### لفظُ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

لفظُ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ في الآية تحتمل أن تكونَ من باب الاستعارةِ تشبيهًا له بأرض الدُّنيا؛ لأنَّها قرارُهم، كما أنَّ الأرضَ قرارُ النّاس في الحياة الأولى[2]، وقيل: إنَّها أرضُ الدُّنيا على التَّقديم والتَّأخير، والظّاهر الأوَّل[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 73.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 73.

(3) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 18، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 289.

**دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع:**

نعيمُ الجنَّة في الاستقرارِ جارٍ على نهجِ الاستمرار

جاء التَّعبيرُ بصيغة الفعل المضارعِ ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ عن نزول أهل الجنَّة في غُرفهم، وبساتينهم، وأنَّهم يتنقَّلون في الغرف والبساتين، تفنُّنًا في النَّعيم.

والتَّبوُّؤُ: هو السُّكنى والحلول، ومن المعلوم أنَّ الأفعالَ في أساليب القرآن الكريم إنَّما تُكتسب دلالتُها الزَّمنيَّة من السّياق الواردة فيه، لا مِن بنيتها الصَّرفيَّة فحسب، فالتَّبوُّؤُ هنا وإن كان حصل إلّا أنَّه ممتدٌّ ومستمرٌّ لا انقطاع له، فهُم في خلودٍ، لا يعقبُهُ موتٌ[1]، واستخدامُ ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ يوحي بأنَّ الجنَّة هي أعلى وأرفعُ مِن أيِّ مكانٍ آخرَ، ممّا يعزِّز مِن مكانتِها السّامية في الذِّهن، ويدلُّ على عظمة جزاء المؤمنين.

**نوعُ ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:**

احـتـمـالُ التَّـبـعـيـض والبيان باعتبارِ القائل

حرفُ ﴿مِنَ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ يدلُّ على التَّبعيض، مع الإيماء إلى سَعة الجنَّة، ويُشير إلى أنَّ التَّبوُّؤَ - أي: اتِّخاذ المنازلِ والمساكن - يكون في بعض أجزاءِ الجنَّة الَّتي كتب الله لهم، فالجنَّة واسعةٌ جدًّا فيها درجات مختلفة تناسب مراتب أهلها، والمؤمنون يتبوَّؤون مِن أماكنها وأجزائها ما يشاؤون، فهي دارُ نعيمٍ لا حدودَ له، ويحتمل أن يكونَ للبيان باعتبارِ أنَّ هذا القولَ صادرٌ عن جميعِ أهل الجنَّةِ.

**نكتةُ تقديم شبه الجملة:**

نطقُ اللِّسانِ بحسبِ السّابق إلى القلبِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ على الظَّرف في قولهِ تعالى: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾؛ لما له مِن غرضٍ يعكس جمالَ التَّعبير القُرآني وعمقه؛ إذ تقديمُ شبهِ الجملة هنا ليس فقط ترتيبًا نحويًّا، بل هو ترتيب دلاليٌّ يخدم غايات معنويَّة يجملها السّياق؛ إذ تتكثَّف المعاني دون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 74.

تطويلٍ، وذلك للاهتمام بمحل التَّبوُّؤ، وهو الجنَّة، ولتعجيل المسرَّة بدخولها، فإنَّ اللِّسان ينطلق بالسّابق إلى القلبِ.

### دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع:

تبوُّؤُ الجنَّة له مقاماتٌ معنويَّة لا يمنع ورودها

جاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع ﴿نَشَآءُۖ﴾؛ للدَّلالة على كمال الكرامةِ لهم في التنقُّل في الجنَّة، وتبوُّئِها، والتصرُّف حسب المشيئة، من غير قيدٍ، وذلك أنَّ لكلِّ واحد منهم جنَّة لا توصف سعةً، وقد جاء السّياق ناسبًا إليهم التَّبوُّؤَ مقرونًا بمشيئتِهم زيادةً في حسن إكرامِه لهم، ولسعةِ تلك الجنَّة، لا تجده يحتاج إلى جنَّة غيره[1]، وفي تبوُّؤِ الجنة مقاماتٌ معنويَّةٌ لا يمنع ورودها[2].

### نوعُ الفاءِ ومعناها:

نِعمَ المشهدُ اجتيازُ النار والمضي إلى الجنَّة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَنِعۡمَ﴾ استئنافيَّة، وحسَّن كونها للاستئناف أنَّ أهل الجنَّة يخاطبهم اللّٰهُ بقوله: ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ هذا الكلام يسمعه أهل الجنَّةِ مِنَ اللّٰه الخالق الوهّاب؛ زيادةً في تشريفهم وإكرامهم، وإظهارًا لسرورِهم وبهجتهم، فالملائكةُ تخاطبهم أوَّل الدُّخول للجنَّة، فإذا دخلوها؛ أعلنوا للّٰه وحدَهُ الشُّكر والحمد والثَّناء، ثم يُسمعهم الحقُّ سبحانه ثناءَهُ عليهم ورضاه بهم وإكرامه لهم بدار المقامة.

### نكتةُ حذفِ المخصوص بالمدح:

طاب أجرُ مَن أُكرِمَ بدخولِ الجنَّة

(نِعْمَ): فعلٌ ماضٍ جامد، وهو من أفعال المدح العام، ودلالتُهُ في هذا الموضع إفادةُ المدحِ كلِّه؛ لما لأهل الجنَّة من مكانةٍ عظيمة في اجتياز النّار والمضي إلى الجنَّة، والمخصوص بالمدح في قوله تعالى: ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ﴾ محذوف، تقديره: الجنَّة، أي: طاب أجرُهم[3]، وما

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 147.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 264.
(3) درويش، إعراب القرآن: 6/ 455.

ذُكِرَ مِن المغفرة والجنّاتِ، والتَّعبيرُ عنهما بالأجر المشعرِ بأنَّهما يُستحقّان بمقابلة العمل، وإن كان بطريق التَّفضُّل لمزيد التَّرغيبِ في الطاعات، والزَّجرِ عن المعاصي.

**بلاغةُ جملة التَّذييل:**

جملةُ ﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ تذييلٌ مختصٌّ بالتّائبين، حسبَ اختصاصِ التَّذييلِ السّابق بالأوَّلين، وناهيك مضمونها دليلًا على ما بين الفريقين من التَّفاوت النَّيِّرِ والتَّباين البيِّن شتّانَ بين المحسنين الفائزين بمحبَّة اللّهِ ﷻ وبين العاملين الحائزين لأُجرتهم وعمالتِهم[1].

**نكتةُ إضافةِ الأجر للعاملين:**

أُضيف لفظُ ﴿أَجۡرُ﴾ إلى لفظِ ﴿ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ للتَّخصيص والتَّعظيم، فلا أجر إلّا لِمن عمل صالحًا؛ دلالةً على عدالة الجزاء، وتخصيص بأهله المستحقّين له، وهي تؤكِّد أنَّ الأجر جاء نتيجةً مباشرة لأعمالهم، ممّا يُبرز العلاقةَ بين العمل الصّالح والجزاء الأخروي، وتحفِّز العاملين لحملهم على المثابرةِ في الاجتهاد، ترغيبًا في الأعمال، وحثًّا على عدم الاتِّكال[2].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/ 87.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 570.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٥﴾ [الزمر: 75]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ذِكرُ حالِ الملائكةِ بعدَ ذِكرِ جزاءِ الإنسِ

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى منزلةَ المُؤمنينَ ومكانتَهم بالتَّبوُّؤِ من الجنَّةِ حيثُ يَشاؤونَ؛ أرادَ أن يبيِّنَ منزلةَ النَّبيِّ ﷺ العاليةَ ومكانتَهُ العظيمةَ، فذكر أنَّه في أعلى مكانٍ وأعظمِ مقامٍ؛ إذ يرى الملائكةَ حافّينَ مِن حَولِ العرشِ مُستغرقينَ بالتَّسبيحِ والتَّقديس للمولى الجليل تعالى(1).

وهنالك مناسبةٌ أيضًا بينَ ذِكرِ زُمَرِ الكافرينَ وجماعاتِهم وأحوالِهم، وذكرِ زُمَرِ المُؤمنينَ المُتَّقينَ ووفودِهم وأمورِهم، وذكرِ زُمَرِ الملائكةِ وأحوالِهم وأوضاعِهم في ذلك اليومِ، وأشار الرّازي إلى وجهِ التَّعقيب بين حال المتَّقين وحال الملائكة، بقوله: "كَما أنَّ دارَ ثَوابِ المُتَّقينَ المُؤمنينَ هيَ الجَنَّةُ، فَكَذَلِكَ دارُ ثَوابِ المَلائِكَةِ جَوانِبُ العَرْشِ وأطرافُهُ"(2)، ولا يبعُدُ أنَّ الزُّمَرَ ثلاثٌ: جماعةُ الكافرينَ، وجماعةُ المؤمنينَ وجماعةُ الملائكة، ولا يخفى أنَّ تعقيبَ الزُّمرتينِ بذكرِ زمرةٍ همُّها التَّسبيحُ والتَّقديسُ للّه ربِّ العالمين فيه إجلالٌ عظيمٌ بالحَكَم الفَصْل تعالى، وإظهارٌ لاستغنائِهِ عن مَخلوقاتِهِ المُؤمنةِ وغيرِها.

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَآفِّينَ﴾: (حفف) أصلٌ يدلُّ على الإحاطةِ بالشَّيءِ من جوانبِهِ(3)، ومن ذلكَ يقالُ: حفَّ القومُ بسيِّدِهم، أي: أطافوا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 74.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 480.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حفف).

بهِ، وعَكَفوا[1]، ويَحُفُّ: يُسمَعُ لهُ حفيفٌ[2]، والمُحفَّفُ: الضَّرعُ الممتلِئُ الَّذي لهُ جوانبُ[3]، و﴿حَآفِّينَ﴾، أي: مُحدِقينَ ومستديرينَ وكائنينَ بجوانبِهِ[4]، حتَّى يُسمَعَ لهُم صوتٌ بسببِ كثرتِهم، ومعنى حافّينَ في الآية: أنَّ الملائكةَ يُحيطونَ بالعَرش طَوافًا حتى يُسمعَ لتلك الحالةِ صوتُ الحفيفِ؛ دلالةً على كثرةِ الطّائفينَ بالعرش.

2) ﴿حَوْلِ﴾: (حول) أصلٌ يدلُّ على تحرُّكٍ في دَوْرٍ، فالحَوْلُ: العامُ؛ لأنَّهُ يَحولُ، أي: يدورُ[5]، والحَوْلُ أيضًا: السَّنةُ اعتبارًا بانقلابِها ودَوَرانِ الشَّمسِ في مَطالعِها ومَغاربِها، وحَول الشَّيءِ: جانبُهُ الَّذي يمكنُهُ أن يَحولَ إليه، وقد يقالُ: حَوالَيكَ، وحَولَيك، ويرادُ الإحاطةُ مِن كلِّ وجهٍ[6]، والحَوْلُ في الآية بمعنى الجانبِ المحيطِ بالعَرْشِ.

3) ﴿ٱلْعَرْشِ﴾: (عرش) أصلٌ يدلُّ على ارتفاعٍ في شيءٍ مبنيٍّ، ثمَّ يُستعارُ في غيرِ ذلكَ[7]، ويظهرُ مِن استعمالاتِهِ الدَّلالةُ على القوَّةِ والمتانة، ولذا يُسمَّى بالعرشِ: سريرُ المَلِكِ[8] اعتبارًا بعُلوِّه، ويُسمَّى به أيضًا: السَّقفُ، والبيتُ، والأركانُ، والبناءُ[9]، ويُكنَّى بهِ عن العِزِّ والسُّلطانِ والمملكة، فيقالُ: فلانٌ ثُلَّ عَرْشُهُ[10]؛ إذا زالَ عِزُّهُ وسلطانُهُ، وعَرْشُ اللّهِ ممّا لا يعلمُهُ البشرُ إلّا بالاسمِ لا على الحقيقةِ[11]، أو هو اسمٌ لعالَمٍ يحيطُ بجميعِ السَّماواتِ، سُمّيَ عرشًا؛ لأنَّهُ دالٌّ على عظمةِ اللّهِ تعالى، كما يدلُّ العرشُ على أنَّ صاحبَهُ مِنَ الملوكِ[12].

4) ﴿وَقُضِيَ﴾: (قضي) أصلٌ يدلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتقانِهِ[13]، ومِن ذلكَ: قولُهُ تعالى:

---

(1) الخليل، العين: (حفف).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (حفف).
(3) ابن سيده، المحكم: (حفف).
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 147، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 287، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 74.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حول).
(6) الزبيدي، تاج العروس: (حول).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرش).
(8) الخليل، العين: (عرش).
(9) الزبيدي، تاج العروس: (عرش).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (عرش).
(11) الزبيدي، تاج العروس: (عرش).
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 249.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قضي).

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: 12]، أي: أحكمَ خَلْقَهنَّ[1]، والقضاءُ: فصلُ الأمرِ قولًا كانَ ذلكَ أو فعلًا[2]، يقالُ: قضَى القاضي بينَ الخصوم، أي: قطعَ النِّزاعَ بينَهم[3]، والمرادُ بالقضاءِ هنا: القضاءُ بينَ الخلقِ بإدخالِ بعضِهم النَّارَ، وبعضِهم الجنَّةَ، أو بينَ الملائكةِ بإقامتِهم في منازِلهم على حسَبِ تفاضلِهم[4].

5) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: (حقق) أصلٌ يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصحَّتِه[5]، وتمكُّنِه في مَقَرِّه[6]، ومِن ذلكَ قولُهم: ثوبٌ مُحقَّقٌ؛ إذا كانَ مُحكَمَ النَّسْجِ[7]، وحَقَقْتُ العُقْدةَ، أي: أحكمتُ شَدَّها[8]، وحقَّ الشَّيءُ؛ إذا وجبَ[9]، والحقُّ: نقيضُ الباطلِ، أي: الشَّيءُ الثّابتُ الرّاسخُ المتمكِّنُ[10]، وهو المرادُ هنا[11].

6) ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: (علم) أصلٌ يدلُّ على أثَرٍ بالشَّيءِ، يتميَّزُ بِه عن غيرِه، ومِنْ ذلكَ: العلامةُ الَّتي تُجعَلُ على الشَّيءِ لتمييزِه عن غيرِه، ومنهُ أيضًا: العالَمونَ، أي: الخلائقُ كلُّها؛ لأنَّ كلَّ جنسٍ مِنَ الخَلْقِ فهوَ في نفسهِ مَعْلَمٌ يتميَّزُ عن غيرِه[12]، ويُطلَقُ العالَمونَ أيضًا على العُقَلاءِ مِنَ الجنِّ والإنسِ، أو الجنِّ والإنسِ والملائكةِ[13]، والمرادُ بالعالَمِينَ في الآيةِ: الخلائقُ كافَّةً.

## ❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

جاءتِ الآيةُ الكريمة مُبيِّنة أنَّ اللّهَ تعالى يخاطبُ نبيَّهُ أو مَن يتأتّى منهم الرُّؤية، فيقولُ: وترَى الملائكةَ محيطينَ بجوانبِ العَرْشِ، قائمينَ بجميعِ ما يُطلَبُ منهُم، فيُسمَعُ

(1) الخليل، العين: (قضي).
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (قضي).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (قضي).
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 265.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حقق).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حقق).
(7) الجوهري، الصحاح: (حقق).
(8) الزبيدي، تاج العروس: (حقق).
(9) الخليل، العين: (حقق).
(10) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حقق).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 296.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (علم).
(13) الزبيدي، تاج العروس: (حق).

لهُم صوتُ التَّسبيحِ والتَّعظيمِ والتَّقديسِ؛ شكرًا لربِّهم وتنزيهًا لهُ عن كلِّ نقصٍ، وقد حكمَ بالعدلِ بينَ الخلائقِ، ونطقَ الكونُ أو العبادُ أو الملائكةُ بالحمدِ للهِ ربِّ العالمينَ في حُكْمِهِ وعدلِهِ[1].

اللهُ أحكمُ الحاكمينَ في عدلِهِ وقضائِهِ

## ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَتَرَى﴾:

الظّاهرُ أنَّ الواوَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾؛ لعطفِ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها، وهي مندرجةٌ في سياقِ الجُمَلِ الَّتي تتحدَّثُ عن أحوالِ يومِ القيامةِ[2]، والغرضُ من هذهِ الجملةِ بيانُ حالِ المَلائكةِ في ذلكَ المشهدِ العظيمِ، الَّذي حكمَ اللّهُ تعالى فيهِ بينَ العبادِ، وبيَّنَ مصيرَ كلٍّ منهُم.

بيانُ حالِ الملائكةِ في جملةِ أحوالِ يومِ القيامةِ

ويحتملُ أنْ تكونَ الواوُ للاستئنافِ[3]، والجملةُ مستأنفةٌ؛ للدَّلالةِ على حالٍ مِن أحوالِ القيامةِ، يستحقُّ أن يكونَ مستقلًّا بالإخبارِ بهِ.

### نكتةُ التَّعبيرِ بالرُّؤيةِ في قولِه: ﴿وَتَرَى﴾:

افتُتِحَ قولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ بفعلِ الرُّؤيةِ البصريَّةِ[4]؛ للإشارةِ إلى أنَّ الرّائيَ يرَى أمرًا غريبًا لم يتوقَّعْ أنْ يراهُ، وهو مشهدٌ مِنْ أعظمِ مشاهدِ الجلالِ، وقد جرَتْ عادةُ القرآنِ الكريمِ بأنْ تأتيَ هذهِ الصّيغةُ في المشاهدِ الغريبةِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ﴾ [الجاثية: 28]، وقولِه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الأنعام: 93]، وقولِه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ [الأنعام: 30]، ومَشاهدُها في الدُّنيا

مشهدُ الملائكةِ الحافّينَ مِن حولِ العرشِ مشهدٌ غريبٌ

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 125، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 604.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 74.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 449.

(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 101.

مَشاهدُ تحتاجُ إلى مزيدٍ مِنَ اليقَظةِ والتَّدبُّرِ والاعتبارِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: 12][1].

### سرُّ التَّعبيرِ بالرُّؤيةِ دونَ غيرِها:

أعلى درجاتِ المشاهَدةِ الرُّؤيةُ

عُبِّرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ بالرُّؤيةِ دونَ النَّظرِ والبصرِ؛ للدَّلالةِ على حصولِ المشاهَدةِ وتحقُّقِها عن قُرْبٍ ودُنوٍّ، بخلافِ النَّظرِ والبصرِ اللَّذينِ لا يلزمُ منهما حصولُ الرُّؤيةِ؛ إذ قد ينظرُ النّاظرُ إلى الشَّيءِ، ولا يُدرِكُهُ.

### بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿وَتَرَى﴾:

استمرارُ تسبيحِ الملائكةِ وحمدِهم

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَى﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ الرُّؤيةِ واستمرارِها، وفي ذلكَ تنبيهٌ على استمرارِ اجتماعِ الملائكةِ حولَ العَرْشِ، واستمرارِ التَّسبيحِ والحمدِ والتَّنزيهِ، وفيه إشعار بقُربِ الرّائي وعلوِّ منزلته، حتى إنَّه لا يُفارقُ ذلك المَنظرَ المَهيب، وفي صيغةِ المضارعِ أيضًا استحضارٌ لصورةِ هذا الحدثِ المستقبليِّ، وكأنَّهُ يقعُ في زمنِ الخطابِ، وفي ذلكَ تنبيهٌ على تحقُّقِ الوقوعِ وتيقُّنِهِ.

### تعيينُ المخاطَبِ بـ ﴿وَتَرَى﴾:

عظمةُ النَّبيِّ ﷺ وعُلُوُّ منزلتِهِ

يحتملُ أنْ يكونَ الخطابُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾؛ للنَّبيِّ ﷺ، أي: وترَى يا محمَّدُ الملائكةَ[2]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على تكريمِ اللّهِ لهُ ﷺ؛ إذ بلغَ مِن رفعةِ المقامِ عندَ ربِّهِ وعُلوِّ المنزلةِ أنَّهُ دنا حتَّى حواهُ موكبُ الملائكةِ الَّذينَ حولَ العرشِ، فيراهُم ببصرِهِ، ويطَّلعُ على تسبيحِهم وتمجيدِهم للّهِ تعالى[3].

ثمَّ هذا الخطابُ ممّا يُرَدُّ بهِ العَجُزُ على الصَّدرِ؛ لأنَّ السّورةَ

(1) أبو موسى، الزمر ومحمد وعلاقتهما بآل حم، ص: 495.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 343.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 74.

خُتِمَتْ بخطابِهِ ﷺ خطابَ كرامةٍ، كما افتُتِحَتْ بخطابِهِ خطابَ كرامةٍ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر: 2]، فأوَّلُ السّورةِ إكرامٌ بنزولِ الكتابِ، وبدعوتِهِ ﷺ إلى إخلاصِ العبادةِ، وآخرُها إكرامٌ بالحضرةِ والشُّهودِ عندَ العرشِ ورؤيةِ الملائكةِ حافّينَ حولَهُ[1].

**تكريمُ اللهِ للمؤمنينَ أهلِ الجِنانِ**

ويحتملُ أنْ يكونَ الخطابُ عامًّا لكلِّ مَنْ تتأتَّى منهُ الرُّؤيةُ[2]، مِنَ المؤمنينَ، أي: وترى أيُّها الرّائي الملائكةَ إلخ...[3]؛ إذ يبلغونَ من علوِّ المنزلة في الجِنانِ أنَّهم يرونَ الملائكةَ الحافّينَ بالعرش، فيكونُ مِصداقًا لقوله تعالى قبلُ: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾ [الزمر: 74]، فيكونُ الإضمارُ دالًّا على العمومِ؛ حتى إنَّه ليتأتَّى لكلِّ ناظرٍ إليه بمجرَّدِ الرُّؤيةِ والإقبالِ للمُشاهدة، والمرادُ تكريمُ أهلِ الجنَّةِ بأنَّ مَنْ أرادَ منهُم رؤيةَ الملائكةِ حافّينَ مِنْ حولِ العرشِ يكونُ لهُ ذلكَ[4].

### نكتةُ التَّعريفِ بـ(أل) في: ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾:

**المحيطونَ بالعرشِ في حالةِ استغراقٍ بالتَّنزيهِ**

تحتملُ (أل) التَّعريفيَّةُ الواردةُ في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ أنْ تكونَ للجنس، فتفيدُ رؤيةَ هذه الحقيقةِ المتميِّزةِ عن حقيقةِ الإنسِ والجنِّ، الَّذينَ سيقوا إلى النّارِ والجنَّة، والغرضُ من ذِكرِ تلك الحقيقة بيانُ وظيفتِها الَّتي لا تنفكُّ تصدرُ عنها من تسبيحٍ وتمجيدٍ وتقديسٍ للّٰه تعالى، ويحتملُ أنْ تكونَ (أل) للاستغراق والشُّمول؛ فتفيد أنَّ جميع الملائكةِ مُنشغلونَ بتعظيم اللّٰه تعالى، وينتظرونَ منه أيَّ أمرٍ ليقوموا به، ويحتملُ أنْ تكون (أل) للعهدِ الخارجيِّ، فيكون الاختصاص بنوعٍ من الملائكةِ الّذين هم يُحدقونَ بالعرشِ مُسبِّحينَ ومُعظِّمين للّٰه تعالى، كما يحتملُ أنْ تكونَ للعهد

(1) أبو موسى، الزمر ومحمد وعلاقتهما بآل حم، ص: 495.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 590.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 289.
(4) أبو موسى، الزمر ومحمد وعلاقتهما بآل حم، ص: 495.

الذِّهنيِّ الصّادق بنوعٍ غيرِ معيَّنٍ من الملائكة، وهم الحافّونَ بالعرش دونَ مَن سِواهم، ولعلَّ دلالةَ العهدِ الخارجيِّ أولى مِن غيرها؛ إذ للعرشِ ملائكةٌ جلُّ همِّهم التَّسبيحُ والتَّنزيهُ للمَولى الجليلِ تعالى، بقي أنَّ إيرادَ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ بصيغةِ الجمع المعرَّف بـ(أل) دالٌّ على الشُّمول لجميعِ أولئك الملائكةِ المخصوصينَ بالإحداقِ بالعرش، والإحاطةِ به تسبيحًا وتمجيدًا للّه تعالى.

**بلاغةُ التَّعبير بالحالِ في: ﴿حَآفِّينَ﴾:**

حفوفُ الملائكةِ بالعرشِ حُفوفُ تعظيمٍ

انتصبَ ﴿حَآفِّينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ على الحاليَّة[1] مِنَ المفعولِ به؛ لوصفِ هيئةِ الملائكةِ عندَ تعلُّقِ الرُّؤيةِ بهم؛ إذ الحالُ وصفٌ لصاحبِه، كما أنَّهُ قيدٌ لعامِلِه، أي: عندَ تعلُّقِ الرُّؤيةِ بهم يكونونَ في حالةِ إحاطةٍ وطوافٍ بجوانبِ العرشِ وجهاتِه المُترامِيةِ الأطرافِ، وفي ذلكَ تنبيهٌ على كثرةِ خلقِه تعالى وعِظَمِ مَلَكوتِه، وذلكَ أنَّ عرشَهُ أعظمُ المخلوقاتِ، ومعَ ذلكَ خلقَ ملائكةً يحفّونَ بِهِ[2]، وفي تقييدِ فعلِ الرُّؤيةِ بهذهِ الهيئةِ دلالةٌ على استمرارِ الملائكةِ على الطَّوافِ بجوانبِ العرشِ وجهاتِهِ، وأنَّهم لا ينفكّونَ عن التَّنزيهِ والتَّسبيحِ والتَّعظيمِ للّهِ تعالى، فكلَّما تعلَّقَ فعلُ الرُّؤيةِ بهم يكونونَ على تلكَ الهيئةِ العظيمةِ.

**نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿حَآفِّينَ﴾:**

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ المجموعِ في قولِه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾؛ لدلالةِ هذهِ الصّيغةِ على الثَّباتِ، ففيها تنبيهٌ على ثبوتِ الحفِّ ودوامِه، كما هو مقتضَى مقامِ التَّعظيمِ.

**معنى ﴿مِنۡ﴾ في قولِه: ﴿مِنۡ حَوۡلِ﴾:**

العـجـزُ عن الإحاطةِ تصويرٌ بليغٌ لعظمةِ العرشِ

اختُلِفَ في معنى ﴿مِنۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 449.
(2) السمين، عمدة الحفاظ: 1/ 433.

﴿مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾، فذهبَ بعضُهم إلى أنَّها صلةٌ للتَّوكيدِ[1]، وأنَّ المرادَ أنَّهم يحفّونَ حولَ العرشِ، وهو قولٌ ضعيفٌ[2]؛ لأنَّ المطَّردَ زيادةُ (مِنْ) في النَّفي دونَ الإثباتِ، وذهبَ بعضُهم إلى أنَّها أصليَّةٌ للتَّبعيضِ، والمعنى: أنَّ الملائكةَ معَ كثرتِهم لا يملؤونَ حولَ العرشِ[3]، والظّاهرُ أنَّها أصليَّةٌ للابتداءِ، والمعنى: أنَّ الحفَّ يبدأُ مِن جوانبِ العرشِ إلى حيثُ شاءَ اللّهُ، وفي ذلكَ دلالةٌ على كثرةِ الملائكةِ، ولذا ذُكِرَ الابتداءُ دونَ الانتهاءِ[4].

### بلاغةُ الموقعِ الإعرابيِّ لـ ﴿مِنۡ حَوۡلِ﴾:

كثرةُ زُمَرِ الملائكةِ حولَ العرشِ

الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ إمّا في محلِّ نصبٍ على الحاليَّةِ، والتَّقديرُ: مستقرّينَ مِنْ حولِ العرشِ، وفي توالي الحالَينِ المفردِ وشبهِ الجُملةِ دلالةٌ على الاهتمامِ بوصفِ زُمَرِ الملائكةِ الَّذينَ شأنُهم الإحاطةُ بجوانبِ العرشِ على سبيلِ الاستقرارِ، وفي ذلكَ تنبيهٌ على القُرْبِ والتَّعظيمِ لذلكَ الحَرَمِ العظيمِ، وإمّا ظرفٌ لغوٌ متعلِّقٌ باسمِ الفاعلِ (حافّينَ)، أو بـ (ترى)[5]؛ لتحديدِ مكانِ الحفِّ أو مكانِ الرُّؤيةِ.

### نكتةُ التَّعريفِ بـ (أل) في قولِه: ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾:

عرشُ اللهِ تعالى هو المرادُ عندَ الإطلاقِ

تعريفُ العرشِ في قولِه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾ للعهدِ العلميِّ؛ لأنَّ العرشَ في الأصلِ يدلُّ على سريرِ المَلِكِ والبناءِ العالي والسَّقفِ المرتفعِ ونحوِ ذلك، ثمَّ صارَ علَمًا على عرشِ اللّهِ ﷻ على الاختلافِ في المرادِ بهِ، فإذا أُطلِقَ في القرآنِ؛ فلا يتبادرُ إلى الذِّهنِ غيرُهُ.

(1) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 497، وابن جرير، جامع البيان: 20/ 272.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 544.
(3) القنوجي، فتح البيان: 12/ 154.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 196.
(5) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 17.

المـلائـكـةُ مسـتـغـرقـونَ بـالـتَّـعـظـيـم والتَّسبيحِ

### بلاغةُ الحالِ في ﴿يُسَبِّحُونَ﴾:

جملةُ: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ﴾ حالٌ ثانيةٌ(1)، تفيدُ بيانَ هيئةٍ أُخرى للملائكةِ، أي: تراهُم حافّينَ ومُسبِّحينَ على هيئةِ الجمعِ بينَ الأمرينِ أو التَّفريقِ بينَهما، وتُسمَّى الحالَ المترادفةَ، ويحتملُ أنْ تكونَ الحالُ متداخلةً بمعنى أنَّ الجملةَ حالٌ مِنَ الضَّميرِ المُستترِ في ﴿حَآفِّينَ﴾(2)، والغرضُ مِنْ ذلكَ تقييدُ ذلكَ الحُفوفِ بهيئةِ التَّسبيحِ والتَّنزيهِ للّهِ تعالى(3)، والمعنى: تراهُم حافّينَ مُتلبِّسينَ عندَ حُفوفِهم بالتَّنزيهِ، وأيًّا ما كانَ؛ فالمرادُ بيانُ تذلُّلِ الملائكةِ للّهِ تعالى، فتسبيحُهم للتَّذلُّلِ لا على سبيلِ التَّكليفِ بالعبادةِ(4).

اللهُ تعالى غنيٌّ عن كلِّ شيءٍ

وهنالكَ إشارةٌ أُخرى للحالِ، وهي أنَّهُ لمّا كانَ ربَّما وقعَ في وهمٍ أنَّهُ ﷻ محتاجٌ إلى حملِ الملائكةِ للعرشِ أو إلى العرشِ أو إلى شيءٍ؛ نُبِّهَ بالتَّسبيحِ على أنَّهُ متنزِّهٌ عن ذلكَ، وغنيٌّ عن كلِّ شيءٍ(5).

الملائكةُ مواظبونَ على تسبيحِ اللهِ تعالى

### نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يُسَبِّحُونَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾؛ للتَّنبيهِ على صدورِ التَّسبيحِ مِنَ الملائكةِ على سبيلِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ، وفي ذلكَ ما لا يخفى مِنَ التَّنبيهِ على استغراقِهم في تعظيمِ اللّهِ ﷻ(6).

### دلالةُ التَّسبيحِ بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

الظّاهرُ أنَّ التَّسبيحَ في قولِه تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ على حقيقتِه، وأنَّ الملائكةَ يقولونَ: سُبحانَ اللّهِ؛ والفعلُ حكايةٌ لأقوالِهم الَّتي تتردَّدُ منهُم، وتُسمَعُ مِنْ قِبَلِهم.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 290.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 16/ 557.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 50.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 147.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 12.
(6) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 293، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 591.

الملائكةُ يصلّونَ شكرًا للهِ تعالى

ويحتملُ أنْ يكونَ التَّسبيحُ مجازًا مرسَلًا، أُريدَ بِه الصَّلاةُ، أي: يُصلّونَ حولَ عرشِ اللّهِ شُكرًا لَهُ[1]. وأيًّا ما كانَ ففي ذلكَ حثٌّ للرّائي على الاقتداءِ بالملائكةِ الملازمينَ للتَّسبيحِ والتَّنزيهِ، أو الصَّلاةِ.

### غرضُ تقديمِ التَّسبيحِ على الحمدِ:

التَّخليةُ مقدَّمةٌ على التَّحليةِ

قُدِّمَ التَّسبيحُ على الحمدِ في قولِهِ تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۚ﴾؛ لأنَّهُ تخليةٌ، والتَّخليةُ مقدَّمةٌ على التَّحليةِ[2]؛ إذ التَّسبيحُ تنزيهٌ للّهِ تعالى عن الشَّريكِ والنَّظيرِ، والتَّحميدُ والثَّناءُ تحليةٌ لهُ تعالى بكلِّ نعوتِ الكمالِ والجمالِ والجلالِ.

### معنى الباءِ في ﴿بِحَمْدِ﴾:

التَّسبيحُ والحمدُ قرينانِ

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۚ﴾ للمُلابَسةِ، وهي تتعلَّقُ بـ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾[3]، فتفيدُ أنَّ الملائكةَ يقولونَ عباراتِ التَّسبيحِ الممتزجةِ بعباراتِ التَّحميدِ للّهِ تعالى والثَّناءِ عليهِ، بالألفاظِ المشعرةِ بذلكَ؛ كأنْ يقولوا: سبحانَ اللّهِ وبحمدِهِ، أو: سُبحانَ اللّهِ، والحمدُ للّهِ[4]، وفي ذلكَ ربطٌ بينَ التَّسبيحِ والتَّحميدِ، حتَّى كأنَّهما متقارنانِ معًا في النُّطقِ، وإنْ كانَ بينَهما ترتُّبٌ في الواقعِ.

### نكتةُ إضافةِ الحمدِ إلى الرَّبِّ:

استغراقُ الملائكةِ في صفاتِ الحقِّ سبحانَهُ

أفادَتْ إضافةُ الحمدِ إلى الرَّبِّ في قولِهِ ﷻ: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۚ﴾ تعليلَ صدورِ ذلكَ الحمدِ منَ الملائكةِ؛ إذ الرَّبُّ يستحقُّ الحمدَ والثَّناءَ لإحسانِهِ إلى خَلْقِهِ، فيكونُ في الكلامِ تعليقٌ للحُكمِ بعلَّتِهِ؛ للبرهنةِ على صحَّتِهِ وصدْقِهِ، والإضافةُ منْ إضافةِ المصدرِ إلى مفعولِهِ، والفاعلُ معلومٌ يدلُّ عليهِ الواوُ في ﴿يُسَبِّحُونَ﴾، وفي ذلكَ إشعارٌ بأنَّ مُنتهَى درجاتِ الملائكةِ وأعلى لذائذِهم هو الاستغراقُ في صفاتِ الحقِّ[5].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 343.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 591.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 21/ 343، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 74.

(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 147.

(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 50.

## غرضُ التَّعبيرِ بالرَّبِّ مضافًا إلى ضميرِهم:

القُربُ مِنَ العرشِ مِن درجاتِ العبوديَّةِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضميرِ المُسبِّحينَ في قولِهِ تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۚ﴾؛ إعلامًا بأنَّ الكلَّ عبيدُهُ، وتحتَ تصرُّفِه، وللدَّلالةِ على استحقاقِهِ تعالى الحمدَ، فهو السَّيِّدُ الَّذي يُربّي الأشياءَ، ويُبلِّغُها كمالَها على سبيلِ التَّدريجِ، وللإيماءِ إلى أنَّ قُرْبَهم مِنَ العرشِ ترفيعٌ في مقامِ العبوديَّةِ الملازمةِ للخلائقِ[1]، وفي ذلكَ أيضًا مدحٌ للمسبِّحينَ بالمواظبةِ على التَّسبيحِ والتَّلذُّذِ بذكرِ المُحسنِ ﷻ[2].

## بلاغةُ عطفِ ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم﴾:

محكمةُ القيامةِ لا ظلمَ فيها

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾؛ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾، وفيها تأكيدٌ لِما سبقَ في قولِهِ: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ [الزمر: 69][3]، ببيانِ أنَّ الحكمَ بينَ العبادِ - حتَّى آلَ أمرُ المؤمنينَ إلى الجنَّةِ، وأمرُ الكافرينَ إلى جهنَّمَ - عدلٌ وحقٌّ ثابتٌ، فأفادَ التَّكرارُ نفيَ كلِّ شكٍّ في عدالةِ محكمةِ القيامةِ.

عمومُ القضاءِ يومَ القيامةِ

ويحتملُ ألّا تكونَ الجملةُ تكرارًا لِما سبقَ، والمرادُ بالقضاءِ: القضاءُ بينَ الملائكةِ بالحقِّ، وذلكَ إذا كانتِ الآيةُ تستقصي أحوالَ يومِ القيامةِ، وأنَّهُ قضاءٌ بينَ مَن دخلوا في النَّفختينِ مِنَ الإنسِ والملائكةِ، وأنَّ القضاءَ يعني: إعطاءَ كلِّ مَلَكٍ حقَّهُ، وأنَّهُ كانَ لكلٍّ عملٌ لا يتخطّاهُ، وأنَّهم ليسوا سواءً في العملِ، فليسوا سواءً في الأجرِ[4]، فقال البيضاوي: "قضي بين الخلق بإدخال بعضهم النّار وبعضهم الجنَّة، أو بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب تفاضلهم"[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 74.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 567.

(3) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 196، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 74.

(4) أبو موسى، محمد والزمر وعلاقتهما بآل حم، ص: 493.

(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 50.

### سرُّ التَّعبيرِ بالقضاءِ دونَ الحكمِ:

لا رادَّ لقضاءِ الله تعالى وحُكمِهِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالقضاءِ دونَ الحكمِ في قولِه تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾؛ للدَّلالةِ على الإحكامِ والإتقانِ في الحكمِ، مع صِدْقِ الحكمِ ووضوحِهِ، وصفاءِ بُرهانِهِ ونَصاعةِ حُجَجِهِ، مع كونِ الحُكمِ الصّادرِ باتًّا قاضيًا لا يحتملُ نَقْضًا ولا مُراجعةً؛ لأنَّهُ صادرٌ مِنَ الحكيمِ الخبيرِ.

### نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿وَقُضِيَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ هذا القضاءَ، وإنْ لم يقعْ بعدُ؛ فهو متحقِّقٌ يقينًا؛ لأنَّهُ إخبارُ ذي العظمةِ والجلالِ الَّذي لا خُلْفَ في إخبارِهِ.

### نكتةُ بناءِ ﴿وَقُضِيَ﴾ للمفعولِ:

القضاءُ يومَ الدّينِ للهِ وحدَهُ

اختيرَتْ صيغةُ المبنيِّ للمفعولِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾؛ للعلمِ بالفاعلِ، وهو اللّهُ ﷻ، فلا يُحتاجُ إلى التَّصريحِ بهِ؛ إذ هو المالكُ والمتصرِّفُ والحاكمُ في ذلكَ اليومِ، وفي ذلكَ مِن تعظيمِهِ تعالى وتفخيمِ قضائِهِ ما لا يخفَى.

### بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿بَيۡنَهُم﴾:

محكمةُ القيامةِ محكمةُ عدلٍ وإنصافٍ

ظرفُ المكانِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ نائبٌ عن الفاعلِ أو مُتعلِّقٌ بـ (قُضيَ)، ونائبُ الفاعلِ مصدرٌ مفهومٌ مِنَ الفعلِ، أي: قُضيَ القضاءُ بينَهم[1]، وفي التَّعبيرِ بالبينِ دلالةٌ على تحديدِ جهةِ وقوعِ القضاءِ بينَ النّاسِ، وأنَّ القاضيَ لا يميلُ إلى جهةٍ دونَ أخرى، بل يتحرَّى العدلَ والإنصافَ، فيقتصُّ مِنَ الظّالمِ، ويُنصِفُ المظلومَ.

### مرجعُ الضَّميرِ في ﴿بَيۡنَهُم﴾:

القضاءُ بينَ الخلائقِ يومَ القيامةِ

يجوزُ أن يرجعَ الضَّميرُ المجرورُ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ إلى البشرِ، والقضاءُ بينَهم يكونُ بإدخالِ بعضِهم

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 101.

النّارَ، وإدخالِ بعضِهِم الجنَّةَ، ويجوزُ أنْ يرجِعَ إلى الملائكةِ؛ بناءً على أنَّ ثوابَهم - وإن كانوا مَعصومينَ جميعًا - لا يكونُ على سَنَنٍ واحدٍ، ولكن يُفاضَلُ بينَ مراتبِهم على حسَبِ تفاضلِهم في أعمالِهم، فهو القضاءُ بينَهُم بالحقِّ[1]، ويجوزُ أنْ يعودَ إلى البشرِ والملائكةِ جميعًا، والقضاءُ بينَهم هو إنزالُ البشرِ منازلَهم مِنَ الجنَّةِ أو النّارِ، وإنزالُ الملائكةِ حولَ العرشِ[2].

### معنى الباءِ في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

القضاءُ بلا عدلٍ ظلمٌ مَحْضٌ

الباءُ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ للملابسةِ، وهي تفيدُ في أصلِ معناها الإلصاقَ، فدلَّ ذلكَ على أنَّ القضاءَ فيما بينَهم مُلتبِسٌ بالحقِّ ومُلتصِقٌ بهِ، وفي ذلكَ إظهارٌ لمكانةِ الحقِّ في مقامِ القضاءِ وإعطاءِ الحقوقِ؛ إذ الحكمُ بلا عدلٍ ولا حقٍّ ظُلمٌ مَحْضٌ، وعاقبةٌ وخيمةٌ.

### نكتةُ تعريفِ الحقِّ:

تعريفُ الحقِّ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ للجنسِ، وفيهِ دلالةٌ على كمالِ الحقِّ وتمامِهِ، وكأنَّ ماهيَّةَ الحقِّ بكمالِهِ متحقِّقةٌ في ذلكَ القضاءِ الكاملِ، ولا حقَّ في غيرِهِ.

### بلاغةُ الموقعِ الإعرابيِّ لـ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

الحقُّ مصاحبٌ قضاءَ اللهِ

الجارُّ والمجرورُ في قولِهِ تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ متعلّقانِ بحالٍ محذوفةٍ، والتَّقديرُ: مُلتبِسًا بالحقِّ، والغرضُ مِنَ الحالِ تقييدُ فعلِ القضاءِ بكونِهِ مُمتزِجًا بالحقِّ في جميعِ أجزائِهِ، حتَّى لا يخلوَ في أيِّ صورةٍ مِنْ صوَرِهِ عن كونِهِ متداخلًا بالحقِّ الثّابتِ والعدلِ الرّاسخِ.

### توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ:

عُبِّرَ بالحقِّ في قولِهِ تعالى هنا: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾، وعُبِّرَ

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 147، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 50.

(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 17.

بالقِسْطِ في قولِهِ: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ [يونس: 54]؛ لأنَّ السّياقَ هنا عامٌّ في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ عَدلًا وفَضلًا، فقيلَ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، بأن طوبِقَ الواقعُ بما أنزَلْنا فيهم في الكتبِ الَّتي وضَعناها لحسابِهم، فمَنْ طغَى منهُم أسكنّاهُ لَظًى بعَدْلِنا، ومَنِ اتَّقى نعَّمناهُ في جنَّةِ المأوَى بفضلِنا[1]، وأمّا سياقُ سورةِ يونُسَ ﵇؛ فليسَ كذلكَ، فعُبِّرَ فيهِ بالقِسْطِ - أي: العدلِ - لا بالحقِّ الشّاملِ للعدلِ والفضلِ.

الحقُّ هنا شاملٌ للعدلِ والفضلِ

### دلالةُ الواوِ في ﴿وَقِيلَ﴾:

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عاطفةٌ لهذه الجملةِ على ما قبلَها عطْفَ ترتُّبٍ وتسبُّبٍ؛ فإنَّ مِن دواعي الحمدِ القضاءَ بينَ الخلائقِ بالحقِّ، وما يتضمَّنُهُ هذا القضاءُ مِن دخولِ أهلِ الحقِّ الجنَّةَ ودخولِ أهلِ الباطلِ النّارَ، فيصدحُ أهلُ الحقِّ بحمدِ اللّهِ والثَّناءِ عليه، ويجوزُ أنْ تكونَ الجملةُ توكيدًا لجملةِ: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: 74].

الحَكَمُ العادلُ يستحقُّ الشُّكرَ والثَّناءَ

ويجوزُ أنْ تكونَ حكايةَ قولٍ آخرَ لقائلينَ مِنَ الملائكةِ والرُّسُلِ وأهلِ الجنَّةِ، فهو أعمُّ مِنَ القولِ المتقدِّمِ الَّذي هو قولُ المَسوقينَ إلى الجنَّةِ مِنَ المتَّقينَ، فهذا قولُهم يحمدونَ اللّهَ على عدلِ قضائِهِ وجميعِ صفاتِ كمالِهِ[2].

### نكتةُ صيغةِ الماضي في ﴿وَقِيلَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا القولَ - وإنْ لم يقعْ بعدُ - واقعٌ - لا محالةَ - كما هو شأنُ كلِّ ما أخبرَ بِهِ اللّهُ تعالى.

### نكتةُ بناءِ ﴿وَقِيلَ﴾ للمفعولِ:

يحتملُ أنْ يكونَ بناءُ الفعلِ للمفعولِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 572.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 74.

الكونُ كلُّهُ ناطقٌ بحمدِ اللهِ بعد القضاء بين الخلائق

﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ جميعَ المخلوقاتِ قد نطقَتْ للّهِ ربِّ العالمينَ بالحمد في حُكمِه وعدلِه؛ ولهذا لم يُسنَدِ القولُ إلى قائلٍ[1]، ويحتملُ أنْ يكونَ القائلُ العبادَ المقضيَّ بينَهم، وتكريرُ الحمدِ لإناطةِ معنًى زائدٍ به؛ لأنَّ الأوَّلَ للتَّفضيلِ بينَ الفريقينِ بحسَبِ السُّخطِ والرِّضوانِ، والثّاني للتَّفرقةِ بينَهما بحسَبِ الأبدانِ: فريقٌ في الجنَّةِ، وفريقٌ في النّارِ، فتكونُ الآيةُ كالتَّتميم بالنِّسبةِ إلى الأولى في إتمام القضاءِ، كما يحتملُ أنْ يكونَ القائلُ الملائكةَ، والجملةُ كالتَّكميلِ؛ لأنَّ ذلكَ القضاءَ في حقِّ بني آدمَ، وهذا في حقِّ الملائكةِ[2]، والمقصودُ من هذا الإبهامِ التَّنبيهُ على أنَّ خاتمةَ كلامِ العُقَلاءِ في الثَّناءِ على اللّهِ تعالى هي أن يقولوا: الحمدُ للّهِ ربِّ العالمينَ[3]، ويحتملُ أنْ يكونَ القائلُ هم المؤمنينَ فقط، وعدمُ ذكرِهم لتعيُّنِهم وتعظيمِهم[4].

### نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

الحمدُ ثابتٌ للهِ على الدَّوامِ

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على الثُّبوتِ والدَّوامِ؛ إذ اللّائقُ بمقامِ فضِّ الخصوماتِ إلى الأبدِ وانتزاعِ الحقِّ الدّائمِ أنْ يكونَ الحمدُ ثابتًا؛ ليضارعَ الحمدُ دوامَ نعمةِ الحقِّ العائدِ إلى أهلِهِ وأصحابِهِ.

### نكتةُ تعريفِ الحمدِ:

جميعُ أفرادِ الحَمْدِ للهِ تعالى

تعريفُ الحمدِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ للجنسِ الدّالِّ بمعونةِ مقامِ المدحِ على الاستغراقِ الكلِّيِّ[5]، فتكونُ جميعُ أفرادِ الحمدِ ثابتةً للّهِ ربِّ العالمينَ؛ إذ مَرَدُّ جميعِ النِّعَمِ إليهِ، ومنها نعمةُ القضاءِ بالحقِّ.

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 125.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 147، والطيبي، فتوح الغيب: 13/ 449 - 450.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 481.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 50.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 572.

### معنى اللّامِ في ﴿لِلَّهِ﴾:

لا يستحقُّ الحمدَ والثَّناءَ إلّا اللهُ تعالى

اللّامُ الجارَّةُ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ للاستحقاقِ والاختصاصِ، فتفيدُ أنَّ جميعَ أفرادِ الحمدِ مُختصَّةٌ باللّهِ تعالى ومُستحَقَّةٌ لهُ، وتفيدُ أيضًا بمعونةِ لامِ الجنسِ في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ قصرَ جميعِ أفرادِ الحمدِ على اللّهِ تعالى.

### نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الجلالةِ:

عُبِّرَ باسمِ الجلالةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّ هذا الاسمَ جامعٌ لجميعِ صفاتِ الجلالِ والكمالِ الَّتي ينفردُ بها الإلهُ الحقُّ[1].

### بلاغةُ الوصفِ بالرُّبوبيَّةِ دونَ غيرِها:

الرَّبُّ هو المستحِقُّ للحمدِ

جيءَ بوصفِ الرَّبِّ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لدلالتِهِ على المدحِ والتَّعظيمِ، وملاءمتِهِ للفظِ الجلالةِ؛ إذ لفظُ الجلالةِ خاصٌّ بهِ تعالى، وكذلكَ كونُهُ ربَّ العالمِينَ، ولمّا كانَ ذلكَ اليومُ أحقَّ الأيّامِ بمعرفةِ شمولِ الرُّبوبيَّةِ لاجتماعِ الخلائقِ وانفتاحِ البصائرِ؛ وُصِفَ سبحانَهُ بأقربِ الصِّفاتِ إلى الاسمِ الأعظمِ، أي: الَّذي ابتدأهم أوَّلًا مِنَ العدمِ، وأقامَهم ثانيًا بما ربّاهم بهِ مِنَ التَّدبيرِ[2]، وفي التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ أيضًا تعليلٌ لاستحقاقِهِ تعالى الحمدَ، والمعنى: الحمدُ مقصورٌ على اللّهِ، ومستحَقٌّ لهُ؛ لأنَّهُ ربُّ جميعِ العالَمِينَ وخالقُ أفعالِهم والمُتصرِّفُ في ملكوتِهِ كما يريدُ.

### دلالةُ الإضافةِ في ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

اشتهارُ اللهِ بكونِهِ ربَّ العالمِينَ

إضافةُ الرَّبِّ إلى العالمِينَ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ للتَّعريفِ العهديِّ؛ إذ عُهِدَ أنَّ اللّهَ تعالى هو ربُّ العالمِينَ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 572.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 573.

ولا يُطلَقُ هذا التَّركيبُ الإضافيُّ على غيرِهِ تعالى، وفي هذهِ الإضافةِ إشعارٌ بافتقارِ العالمينَ إلى ربوبيَّتِهِ سبحانَهُ.

**نكتةُ تعريفِ العالَمينَ:**

الرُّبوبيَّةُ الشّاملةُ إثباتٌ لاختصاصِ الحمدِ بِهِ تعالى

تعريفُ العالَمينَ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ للاستغراقِ والشُّمولِ؛ إذ ما مِنْ عالَمٍ إلّا وهو خالقُهُ وسيِّدُهُ والمُتصرِّفُ فيهِ، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لقصرِ الحمدِ على اللهِ تعالى؛ إذ ربوبيَّتُهُ لجميعِ العوالِمِ تعني: استحقاقَهُ وحدَهُ للحمدِ، وفي ذلكَ أيضًا ردٌّ على مَنِ اعتقدَ مشاركةَ غيرِهِ لهُ بالخالقيَّةِ، واعتقدَ النَّفعَ والضُّرَّ ممَّنْ سواهُ.

**نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:**

الخلائقُ كلُّها دليلٌ على الخالقِ سبحانَهُ

عبَّرَ النَّظمُ بلفظِ العالَمينَ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّهُ دالٌّ على جميعِ المخلوقاتِ والمصنوعاتِ، وإنَّما سُمّيَتْ بالعالَمينَ؛ لأنَّها علاماتٌ على وجودِ الخالقِ والرَّبِّ ﷻ؛ إذ المصنوعاتُ العجيبةُ دليلٌ على وجودِ الصّانعِ الحكيمِ، وعلى أنَّهُ ربُّها القائمُ بشؤونِها والمُتصرِّفُ فيها إيجادًا وإعدامًا.

**سرُّ التَّعبيرِ بالعالَمينَ دونَ العوالِمِ:**

تغليبُ العُقَلاءِ على غيرِهم

عُبِّرَ بالعالَمينَ دونَ العوالِمِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ تغليبًا للعُقَلاءِ على غيرِهم[1]، ولأنَّ العالَمينَ جمعُ قلَّةٍ، والعوالِمَ جمعُ كثرةٍ، وفي التَّعبيرِ بجمعِ القلَّةِ إشارةٌ إلى أنَّهم وإنْ كَثُروا؛ فهُم قليلٌ في جانبِ عظمتِهِ تعالى وكِبْريائِهِ[2].

**بلاغةُ ردِّ عَجُزِ السّورةِ على صَدْرِها:**

تكريمُ النَّبيِّ ﷺ في الافتتاحِ والاختتامِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۚ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ممّا

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/ 28.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 1/ 57.

يُرَدُّ بهِ العَجُزُ على الصَّدرِ؛ لأنَّ السّورةَ خُتِمَتْ بخطابِهِ ﷺ خطابَ كرامة، كما بُدِئَتْ بخطابِهِ ﷺ خطابَ كرامةٍ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾ [الزمر: 2]، فرأسُ السّورةِ إكرامٌ بنزولِ الكتاب، وإكرامٌ بدعوتِهِ ﷺ إلى إخلاصِ العبادةِ، وآخرُها إكرامٌ بالشُّهودِ عندَ العرشِ ورؤيةِ الملائكةِ حافّينَ حولَهُ[1].

تـنـزيـلُ الكـتـابِ مِن أجلِّ النِّعَمِ الَّتي تستوجبُ الحمدَ

ولأنَّ السّورةَ صُدِّرَتْ بالإخبارِ بتنزيلِ الكتابِ، وخُتِمَتْ باستحقاقِ الحمدِ على تنزيلِهِ؛ تنبيهًا على أنَّ إنزالَهُ مِنْ أعظمِ نِعَمِهِ تعالى؛ لأنَّهُ الهادي إلى ما فيهِ كمالُ العبادِ، والدّاعي إلى ما بِهِ ينتظمُ صلاحُ المَعاشِ والمَعادِ[2].

الإخـــلاصُ للـهِ تـعـالى أسـاسُ الـعـبـادةِ وسـرُّ السَّعادةِ

وشيءٌ آخرُ في علاقةِ مقطعِ السّورةِ بمطلعِها، وهو أنَّ مطلعَ السّورةِ لمّا أوجزَ المقصودَ منها - وهو إخلاصُ العبادةِ للّهِ ربِّ العالمينَ - ذكرَ الَّذينَ اتَّخذوا مِن دونِهِ أولياءَ، ثمَّ أعقبَ ذلكَ بالإخبارِ بأنَّ اللّهَ يحكمُ بينَهم فيما هم فيهِ يختلفونَ، وآخرَ السّورةِ مِن أوَّلِ قولِهِ: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: 69] إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ هو الحُكمُ الَّذي جاءَ في أوَّلِها[3].

## الفروقُ المعجميَّةُ:

### الحفُّ والإحاطةُ:

كمالُ السَّكينةِ عـنـدَ الـطَّـوافِ بالعرشِ

الحفُّ: إحاطةُ الكمِّ الكثيرِ بالشَّيءِ مِن جميعِ جوانبِهِ، بخلافِ الإحاطةِ، فإنَّها لا تدلُّ على كثرةِ المُحيطينَ.

وقد عُبِّرَ بالحفِّ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾؛ لِما يدلُّ عليهِ هذا اللَّفظُ مِن كثرةِ الملائكةِ وإحاطتِهم

(1) أبو موسى، الزمر ومحمد وعلاقتهما بآل حم، ص: 495.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 591.
(3) أبو موسى، الزمر ومحمد وعلاقتهما بآل حم، ص: 495.

بالعرشِ مِنْ جميعِ جوانبِهِ[1]، كما تحيطُ الحَدقةُ بالعَيْنِ[2]، حتَّى يُسمعَ لهُم صوتٌ بما ذُكِرَ مِنَ التَّسبيحِ والتَّحميدِ، وفي ذلكَ مِنَ التَّعظيمِ والطُّمأنينةِ والسَّكينةِ ما لا تحيطُ بهِ العبارةُ.

### الحمدُ والشُّكرُ:

بينَ الحمدِ والشُّكرِ عمومٌ وخصوصٌ مِنْ وجهٍ

الحمدُ أعمُّ مِنَ الشُّكرِ باعتبارِ المُتعلِّقِ، فإنَّهُ يكونُ على النِّعمةِ وغيرِها، بخلافِ الشُّكرِ الَّذي يكونُ في مقابلةِ النِّعمةِ فقط، كما أنَّ الحمدَ أخصُّ مِنَ الشُّكرِ باعتبارِ المَوردِ؛ إذ الحمدُ خاصٌّ باللِّسانِ، والشُّكرُ يكونُ باللِّسانِ والقلبِ والفعلِ[3]، وقد عُبِّرَ بالحمدِ هنا؛ لدلالتِهِ على أنَّ الألسنةَ تلهَجُ بحمدِ اللّهِ وتسبيحِهِ.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 544، والسمعاني، تفسير القرآن العظيم: 4/ 483.

(2) الشهاب، عناية القاضي: 7/ 354.

(3) التفتازاني، المختصر، ص: 91.

# سُورَةُ غَافِرٍ

# سُورَةُ غَافِرٍ

## ❁ التَّعريفُ العامُّ بالسّورةِ:

سورةُ غافر كلُّها مكّيَّةٌ على الرّاجحِ

سورةُ غافر كلُّها مكّيَّةٌ على الرّاجح[1]، وذكرَ السُّيوطيُّ أنَّهُ قد استُثنيَ مِن ذلك بعض آياتها، فذُكر أنَّها مدنيَّة، وهي قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: 56 - 57][2]، وزادَ بعضُهم قولَهُ: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٥٥﴾ [غافر: 55][3]، وقد ردَّ ذلك ابن عاشور، وعقَّبَ على هذهِ الأقوالِ بقوله: "وهوَ مِن بناءِ ضَعيفٍ عَلى ضَعيفٍ"[4].

### ترتيب النُّزول وترتيب المصحف وعدُّ الآي:

سورة غافر هي السّورة الأربعونَ في ترتيب المصحف الشَّريف، وهو التَّرتيب الثّابت والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، جاءت بين سورتَي الزُّمَرِ وفُصِّلت، وهي السورة السِّتّون في ترتيبها النُّزوليِّ، نزلَتْ بين سورتَي الزُّمَرِ وفُصِّلت[5]، فسورة الزُّمَرِ والحواميم بعدها قد تتابعت في ترتيبها المصحفيِّ وفي ترتيبها النُّزوليِّ كذلك.

وقد عُدَّتْ آيُها أَرْبَعًا وثَمانين في عدِّ أهلِ المدينةِ وأهلِ مكَّةَ، وخمسًا وثمانينَ في عدِّ أهل الشّامِ - وقيل: ستًّا وثمانين - والكوفة،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 545، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 75.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 1/ 64.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 75.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 74.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 75، ودروزة، التفسير الحديث: 4/ 297.

واثنتَين وثمانينَ في عدِّ أهلِ البصرَة(1)، وسببُ اختلافِهم في عددها هو اختلافُهم في تحديد فواصل تسع آياتٍ منها.

**فضائل السورة:**

عند البحثِ في آثارِ فضلِها نجد أنَّها تدخلُ في الأحاديث التي نصَّت على فضائل السّور المثاني، والَّتي قال فيها النَّبيُّ ﷺ فيما رواه عنه واثلةُ بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئينَ، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»(2)، وقد أخرج الإمام التِّرمذيُّ في فضلها عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رَسولُ اللّه ﷺ: «مَنْ قرأ حم المُؤْمِنَ إلى ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، وآيَةَ الكُرسيِّ حينَ يُصبِحُ حُفِظَ بِهِما حَتَّى يُمْسيَ، ومَن قَرَأهُما حينَ يُمْسي حُفِظَ بِهما حَتَّى يُصْبِحَ»(3).

**اسمُ السّورةِ ومناسبة تسميتها:**

اشتهارُ السّورة بأكثرَ مِن اسمٍ

وردت تسميتُها بسورة (غافر) و(المؤمن) في كُتُبِ السُّنَّة والتَّفسير، فقد ذكر البخاريُّ تسميتها بسورة المؤمن(4)، ولعلَّ السَّبب في ذلك ورودُ هذه اللَّفظة فيها في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ [غافر: 28]، ولَم تُذكَر هذه القصَّة في سورةٍ أُخرَى بوَجهٍ صَريحٍ، وذكر بعضُهم تسميتَها بسورة (حم المؤمن)؛ لما تقدَّم في حديث التِّرمذيِّ في فضائلها، وقال ابن عاشور: "وبذلكَ اشتهرت في مَصاحفِ المشرِقِ"(5)، وذكر بعضُهم تسميتَها بسورة (الطَّوْل)(6)؛ لوروده في أوَّلِها في قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ

(1) الداني، البيان في عد آي القرآن، ص: 218، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 77.
(2) ابن حنبل، المسند، الحديث رقم: (16982)، والطبراني في المعجم: 22/ 76، الحديث رقم: (187)، والبيهقي في شعب الإيمان، الحديث رقم: (2415).
(3) الترمذي، سنن الترمذي، رقم: (2879)، قال عنه التّرمذي: هذا حديث غريب.
(4) البخاري، صحيح البخاري: 6/ 126.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 75.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 75.

﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾، قال ابن عاشور: "وقد تُنوسي هذا الاسمُ"[1]، وتُسمَّى (حم الأولى)؛ لأنَّها السّورة الأولى في الحواميم[2]، وأمّا تسمية هذه السورة سورةَ (غافر)؛ فلأنَّ هذا اللَّفظ قد ذُكِرَ في أوَّلِها[3]، وقال ابن عاشور: "وبهذا الاسم اشتُهِرَتْ في مَصاحفِ المَغرِبِ"[4].

وقد ربطَ البقاعيُّ بين أسمائها ومقصودِها، فقالَ: "دلَّتْ تسميتها بـ (غافر)؛ إشارةً إلى الآية الَّتي فيها هذه الصِّفة؛ فإنَّهُ لا يقدر على غُفران ما يشاء، لكلِّ من يشاء، إلّا كاملُ العزَّة، ولا يعلم جميع الذُّنوب - ليُسمَّى غافرًا لها - إلّا بالغُ العلم، وكذا في المَتابِ والعقاب، وكذا الدَّلالةُ بتسميتها بالطَّوْلِ بمثل ذلك، وبالمؤمن؛ فإنَّ قصَّته تدلُّ على هذا المقصد، ولا سيَّما أمر القيامة الَّذي هو جلُّ المقصود والمدار الأعظم، لمعرفة المعبود[5].

ويمكن أن يُضاف إلى ذلك أنَّ تسميتها بسورة غافر إنَّما جاء مرتبطًا مع محورها العامِّ الَّذي يجمع آياتها، ومحورُها العامُّ يقوم على بيان أثر الوسائل الدَّعويَّة الفاعلة، وعلى رأسها الحوار العلميُّ والجدال الهادف في تحقيق الإصلاح والتَّغيير المطلوب، ولذا فإنَّ تسميتها بسورة غافر إنَّما جاء منسجمًا مع صفة الحقِّ ﷻ في التَّعامل مع أولئك المخاطَبينَ بدعوة الأنبياء والمصلحين، ممَّن كثُرت ذنوبُهم، وتعاظمَتْ معاصيهم، فاستهلَّ صفاتَهُ في مطلع السّورة الكريمة بصفة (غافر) الَّتي سُمّيت السّورة بها ترغيبًا لهُم بالتَّوبة، ولذا فإنَّ وصفه بأنَّهُ ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ إنَّما جاء مُحاطًا بصفات الرَّحمة؛ تحفيزًا لهُم على التَّوبة؛ حتَّى يستحقّوا المغفرة من ربِّهم، فقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾، فمع أنَّ المغفرة تأتي بعد قبول التَّوب إلّا أنَّ الحقَّ ﷻ قد قدَّمها على التَّوبة تأنيسًا لهم وترغيبًا في اتِّباع الحقِّ، فتسميتُها بهذا الاسم إنَّما كانَتْ من أجل بيان شعار هذه الدَّعوة الَّتي حملَها أنبياؤُهُ ﵈ إلى أقوامِهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 75.
(2) شرف الدّين، الموسوعة القرآنيّة: 8/ 3.
(3) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 24/ 68.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 75.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 1 - 2.

**المحور العام للسورة:**

السّورةُ قائمةٌ على بيانِ أثرِ الوسائلِ الدَّعويَّةِ الفاعلةِ في تحقيقِ الإصلاحِ

قامت سورة غافر على بيان أثر الوسائل الدَّعويَّة الفاعلة وعلى رأسها الحوارُ العلميُّ والجدالُ الهادف في تحقيق الإصلاح والتَّغيير المطلوب، فآياتُ السّورة تدورُ حول مناقشة المجادلين في آياتِ اللّه المشتملة على التَّوحيد وإثبات البعث والرِّسالة، ويتطرَّقُ الكلامُ إلى وصف حال المشركين والمجادلين يوم القيامة، ثمَّ ذكر قصَّة فرعونَ وهامانَ وقارونَ للمشركين، وفي خلال ذلك سيقت آياتٌ تُثبتُ وصف اللّه بكلِّ كمالٍ، وتنزيهَهُ عن كلِّ نقصٍ[1].

لذا فإنَّ هذا المحور قد اقتضَى أن تتناول السّورةُ النقاط الآتية:

**أوَّلًا:** بيَّنت السور أهدافَ الدَّعوة الَّتي جاء بها الأنبياءُ عليهم السلام، وحمل لواءَها بعدهم الدُّعاةُ والمصلحون، وكان على رأس هذه الأهدافِ بناءُ العقيدة السَّليمةِ من خلال تعريفهم باللّه سبحانه وتعالى وتقرير وحدانيَّتِهِ ونفيِ الشُّرَكاء عنه، فأكثرت السّورة من ذكر شأن المبدأ والمعاد[2].

**ثانيًا:** اقتضَى محور السّورة أن تُبيِّنَ في أكثر من موضع موانعَ الاستجابة لدعوة الأنبياءِ والمُصلِحينَ، وعلى رأسها الاستكبارُ[3].

**ثالثًا:** بيَّنت السّورة أهمَّ وسائلِ الدَّعوة الفاعلة في مواجهة المستكبرينَ، وعلى رأسِها تذكيرُهم بمصارعِ السّابقينَ[4].

**رابعًا:** بيَّنت السّورةُ الكريمة أنَّ الحوار النّاجح والجدالَ الهادف من أهمِّ وسائل الدَّعوة، لذلك ذكرَتْ جانبًا من قصَّة موسى عليه السلام مع فرعون، ومشهدًا قصصيًّا من دعوة مؤمن آل فرعون للملأ من قومه، فضلًا عن المشاهد الحواريَّة الأخرى في السّورة.

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 288.
(2) انظر الآيات: 12 - 15، 59.
(3) انظر الآيات: 27، 29، 35، 47 - 48، 56، 60، 76.
(4) انظر الآيات: 5،21 - 22، 30 - 31، 82 - 85.

**خامسًا**: لفتتِ السّورة الأنظارَ إلى الآيات الكونيَّة في الأنفُسِ والآفاق؛ للاستدلالِ على الخالق وصفاته[1].

**سادسًا**: بيَّنت السّورةُ كذلك أهمّيَّةَ استعمال أسلوبَيِ التَّرغيبِ والتَّرهيب في الدَّعوة[2].

**سابعًا**: ذكرت السّورة أنموذجًا للدُّعاة والمُصلِحينَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وهو مؤمنُ آل فرعون الَّذي حاور الملأ مِن قومه، مستعرضةً من خلال هذا الأنموذج صفاتِ الدّاعية وأساليبَهُ؛ إذ إنَّهُ استعمل معهم أساليبَ كثيرة في الدَّعوة، تدلُّ على تمكُّن الإيمان من قلبه، وعلى حكمته ورسوخه في العلم، وقد قدَّمت هذه القصَّة لمؤمن آل فرعون الكثيرَ مِنَ العِبَرِ والعِظاتِ للدُّعاةِ في كلِّ زمانٍ

**ثامنًا**: بيَّنت السّورةُ المخاطرَ الَّتي يمكن أن يتعرَّض لها الدُّعاةُ، ورعايةَ اللّه لهم[3].

**تاسعًا**: اقتضَى هذا المحور أخيرًا أن تُبيِّنَ السّورةُ ثمرة الدَّعوة القائمة على الوسائل الفاعلة المؤثِّرة، وذلك من خلال بيان الجزاء الأخرويِّ لكلٍّ من الدُّعاة والمدعوّينَ[4].

### موضوعات السورة وخصائصها:

السّورة قائمةٌ على بيان الوسائل الفاعلة في الدَّعوة

جاءت آيات السّورة شديدة التَّأثير لإثبات وحدانيَّة اللّه وتنزيلِ القرآن والبعث، ووصفِ ملائكة العرش، وإنهاءِ الصِّراع بين أهل الحقِّ وبين أهل الباطل، وتفصيل ذلك على النَّحو الآتي:

**أولًا**: ابتدأت السورة بإعلان تنزيل الكتاب الكريم من اللّه المتَّصف بالصِّفات الحسنى.

---

(1) انظر الآيات: 57، 61، 64، 67 - 68، 79 - 81.
(2) انظر الآيات: 15، 16، 18.
(3) انظر الآيات: 25 - 26، 45، 45.
(4) انظر الآيات: 6، 7.

**ثانيًا**: أقامت الأدلَّةَ على وجود الله القادر، وخوَّفت من أهوال القيامة، وأنذرت الكفّارَ من شدائد ذلك اليوم.

**ثالثًا**: وصفت السورة مهامَّ ملائكة العرش.

**رابعًا**: بيَّنت السورة حال الكفّار الَّذين يجادلون بالباطل، وأخبرت عن طلب أهل النّار الخروجَ منها لشدَّة العذاب، ورفضِ هذا الطَّلب.

**خامسًا**: لفتت السورة الأنظارَ لموضع العِبْرة من إهلاك الأمم الغابرة، وهو كفرُهم بالآيات البيِّنات الَّتي جاؤوا بها، وخصَّت بالذِّكر قصَّةَ موسى عليه السلام مع فرعون وهامان وقارون، وما دارَ من حوارٍ بين فرعون وقومه وبين رجلٍ من آل فرعون يكتم إيمانه، وما فعله فرعونُ الطّاغيةُ من قتل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم؛ خشيةَ انتشارِ الإيمان في قومه، وانتهاءُ القصَّة بهلاك فرعون بالغرق في البحر مع جنوده، ونجاة موسى وقومه جُندِ الإيمان في ذلك العصر، وتلك هي قصَّةُ الإيمان والطُّغيان.

وقد أردف ذلك بإعلان خذلانِ الكافرينَ، ونصرِ الرُّسل والمؤمنين نصرًا مؤزَّرًا في الدُّنيا والآخرة، وخُتمت القصَّةُ بأمر النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بالصَّبر على أذى قومه، كما صبر موسى وغيرُهُ من أولي العزم.

**سادسًا**: أوردت السّورةُ الأدلَّة الكونيَّة الدّالَّة على وحدانيَّة الله وقدرته، وضربت المثل للمؤمن بالبصير، وللكافر بالأعمى، فالمؤمن نيِّرُ القلب والبصيرة بنور الله، والكافرُ مظلِم النَّفس، يعيشُ في ظلمة الكفر، أتبعَتْ ذلك ببيان نِعَمِ الله على عباده من الأنعام والفُلك وغيرها.

**سابعًا**: خُتِمت السّورةُ بما يؤكِّد الغرض المهمَّ منها، وهو الاعتبار بمصرع الظّالمين المكذِّبين، وما يلقَوْنه من أصناف العذاب، ومبادرتهم إلى الإيمان عند رؤية العذاب، ولكن لا ينفعُهم ذلك؛ فإنَّ سنَّة الله الثّابتة ألّا يقبل الإيمانَ عند حلول البأس[1].

### الخصائصُ الموضوعيَّةُ لسورة غافر:

تميَّزت السّورة الكريمة بموضوعات لم تَرِدْ في غيرها من السّوَرِ، وهي:

(1) الزحيليّ، التّفسير المنير: 24/ 69 - 70.

امـتـيــازُ ســـورة غافر عن غيرِها بخصائصَ

**أوّلًا**: انفردت السّورة بالحديث عن قصَّة مؤمن آل فرعون الَّذي تسمَّت السّورة في بعض أسمائها به، حيث تُعَدُّ هذه القصَّة أنموذجًا فريدًا في الدَّعوة إلى اللّٰه بأفضل الوسائل والسُّبل.

**ثانيًا**: تفرَّدت السورة بخصوصيَّةِ مشهدِ الحوار بين المستكبرينَ والمستضعفينَ يوم القيامة، وطلبِ المستضعفينَ التَّخفيفَ عنهم، ولو يومًا من العذاب.

**ثالثًا**: تفرَّدت ببعض القضايا أثناء عرض مظاهر قدرة اللّٰه تعالى في الكون، كذِكر أنَّ خلْقَ السَّماوات والأرض أكبرُ من خلق النّاس، وتفرَّدت ببعض مشاهد العذاب في الآخرة، مثل أنَّهم يُسجَرونَ في النّار.

### الخصائصُ الأسلوبيَّةُ لسورة غافر:

تميَّزت السّورة الكريمة بأساليب تعبيريَّة لم تَرِدْ في غيرها من السّوَرِ، وهي:

**أوّلًا**: تفرَّدت السّورة بتعبيرات فريدة كثيرة، حتَّى إنَّهُ يمكن أن يقال: إنَّ أغلب تراكيب هذه السّورة وتعبيراتها كانت خاصَّة بها، وإنَّ محاولة حصرها أمرٌ صعبٌ للغاية، ومنها قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾، وقوله: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾ [غافر: 9]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [غافر: 10]، وغير ذلك.

**ثانيًا**: تكرَّرت فيها بعضُ الألفاظ بشكل لافت، مثل كلمة (يوم) الَّتي تكرَّرت ستَّ عشرة مرَّة[1]، ولفظة (المجادلة) ومشتقّاتها؛ إذ ورَدَتْ نحو خمس مرّات[2]، ولفظة (الكِبْر) ومشتقّاتها؛ إذ وردت

---

(1) الآيات: 9، 15، 16(2)، 17(2)، 18، 27، 29، 30، 32، 33، 46، 49، 51، 52.
(2) الآيات: 4، 5، 35، 56، 69.

سبع مرّات[1]، ونداء (يا قوم)؛ إذ تكرَّر ستَّ مرّات[2]، وذُيِّلت فيها ثلاث آيات متتابعة بوصفه تعالى بكونه ربَّ العالمين[3]، وكلُّ ذلك مرتبطٌ بمحورها العامِّ.

**ثالثًا**: كثُر فيها ذِكرُ أسماء يوم القيامة، نحو: يوم التَّلاقي، يوم الآزفة، يوم الحساب، يوم التَّناد، السّاعة، فضلًا عن إضافته إلى بعض الجمل، نحو: ﴿يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ﴾ [غافر: 16]، ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ [غافر: 33]، وكلُّ ذلك مرتبط بأسلوب الوعيد الَّذي كثُر في السّورة.

**رابعًا**: تميَّزت السّورة الكريمة بذكرها لفظًا فريدًا في جذره اللُّغويِّ، لم يَرِدْ في غيرها من السّوَرِ، وهو ﴿وَأُفَوِّضُ﴾ [غافر: 44] في قوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر: 44]، ولا شكَّ أنَّ هذه اللَّفظة الفريدة مرتبطة تمامًا بمحور السّورة، وهو أثرُ أساليب الدَّعوة الفاعلة في تحقيق الإصلاح، فإنَّ من شأن الدّاعية أن يأخذ بكلِّ الوسائل المفيدة له في دعوة قومه، وأن يتحلَّى بالصِّفات الَّتي تؤهِّله لخوض هذه المهمَّة، ثمَّ بعد ذلك يُفوِّضُ أمرَهُ إلى الله في النَّتائج، ولا يذهب بنفسه حَسَراتٍ عليهم.

## مناسبةُ السورةِ لما قبلها:

سـورةُ غافر متَّصلة بسورة الزُّمَرِ مضمونًا وأسلوبًا

هذه السّورة متمِّمة لما تقدَّم في سورة الزُّمَرِ، ومِنْ وجوهِ الاتِّصال بين السّورتين:

**الأوَّل**: التَّشابه في الموضوع، فقد ذُكر في كلٍّ من السّورتين أحوالُ يوم القيامة، وأحوالُ الكفّار في يوم المَحْشَرِ.

(1) الآيات: 27، 35، 47، 48، 56، 60، 76.
(2) الآيات: 29، 30، 32، 38، 39، 41.
(3) الآيات: 64، 65، 66.

**الثّاني**: التَّرابط بين خاتمة السّورة السّابقة ومطلع هذه السّورة، فقد ذُكِر في نهاية سورة الزُّمَرِ أحوالُ الكفّار الأشقياء والمتَّقين السُّعَداء، وافتُتِحت سورة غافر ببيان أنَّ اللّٰه غافر الذَّنب؛ لحثِّ الكافر على الإيمان وترك الكفر[1].

(1) الزّحيلي، التفسير المنير: 24/ 68.

﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾ [غافر: 1 - 3]

## ❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الكتابُ المشتملُ علـى الـوعـدِ والوعيدِ جامعٌ لصفاتِ الكمال

في مناسبة الآيات لِما قبلها وجوه؛ **أحدُها**: لمّا كانَ ختامُ السّورةِ الَّتي قبلها إثباتَ الكمال للّه بصِدْقِهِ في وعده ووعيده، بإنزال كلِّ فريق في داره الَّتي أعدَّها له؛ ثبتَ أنَّ الكتابَ الَّذي فيه ذلك منهُ، وأنَّهُ جامعٌ لجميع صفات الكمال، فقال: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ إلخ[1].

الإيمانُ بالكتابِ سرُّ السَّعادة، والكفرُ به سرُّ الشَّقاوة

**الثّاني**: لمّا ذكرَ المَولى تعالى في أواخرِ سورة الزُّمَرِ مُنقلَبَ الكافرينَ ومآلَ المؤمنينَ يومَ الجزاءِ والدّين، وسَرى إلى الأذهانِ أنَّ هذا الحكمَ الموعودَ نافذٌ - لا محالةَ - وأنَّ هذا التصويرَ ناجزٌ لا ريبَ فيه، أرادَ بيانَ السَّببِ في هذه الخاتمةِ المُحزِنةِ للكافرينَ والسَّعيدةِ للمؤمنينَ، فأخبر عن الآياتِ بأنَّها تنزيلٌ من اللّهِ العزيزِ العَليم، والإيمانُ بها سرُّ السَّعادةِ والنَّجاة، والكفرُ بها سببُ الشَّقاوةِ والهَوان.

حثُّ الكافرينَ على الإيمانِ

**الثّالث**: لمّا ذكر ﷻ هناك ما يؤولُ إليه حالُ الكافرينَ وحالُ المؤمنين؛ ذكرَ هنا أنَّه غافرُ الذَّنب وقابلُ التَّوب؛ ليكون ذلك استدعاءً للكافرين إلى الإيمانِ وتركِ ما هم فيه[2].

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَنزِيلُ﴾: (نزل) أصلٌ يدلُّ على هبوطِ شيءٍ من عُلوٍ إلى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 2.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 232، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 608.

سُفْلٍ[1]، ومِن ذلكَ يقالُ: نزلَ في مكانِ كذا، أي: حطَّ رَحْلَهُ فيهِ[2]، وقد يرادُ بالنُّزولِ مجرَّدُ الحُلولِ، وإنْ لم يكنْ فيهِ هبوطٌ[3]، وإنزالُ اللّهِ تعالى نِعَمَهُ ونِقَمَهُ على خَلْقِهِ وإعطاؤُهم إيّاها: إمّا بإنزالِ الشَّيءِ نفسِهِ، كإنزالِ القرآنِ، وإمّا بإنزالِ أسبابِهِ والهِدايةِ إليهِ، كإنزالِ الحديدِ واللِّباسِ ونحوِ ذلكَ[4].

2) ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: (كتب) أصلٌ يدلُّ على جمعِ شيءٍ إلى شيءٍ[5]، ومِنْ ذلكَ يقال: تكتَّبت الخيلُ، أي: تجمَّعَتْ[6]، والكَتْبُ، وهو ضمُّ أديم إلى أديم بالخياطةِ، والكَتْبُ في العُرْفِ: ضمُّ الحروفِ بعضها إلى بعضٍ بالخطِّ، وقد يقالُ ذلكَ للمضموم بعضها إلى بعضٍ باللَّفظِ، والكِتابُ في الأصلِ مصدرٌ، ثمَّ سُمّيَ المكتوبُ فيهِ كِتابًا، والكِتابُ أيضًا: اسمٌ للصَّحيفةِ معَ المكتوبِ فيها[7]، والمرادُ بالكتابِ هنا: القرآنُ[8].

3) ﴿غَافِرِ﴾: (غفر) أصلٌ يدلُّ على السَّتْرِ[9]، ومِنْ ذلكَ: الغَفْرُ، وهو السَّتْرُ والتَّغطيةُ[10]، والغُفرانُ والمغفرةُ مِنَ اللّهِ تعالى: أن يَصونَ العبدَ مِن أن يمسَّهُ العذابُ[11]، والاستغفارُ: طلبُ سَترِ الذُّنوبِ ومَحوِها[12]، والغافرُ وصفٌ لهُ ﷻ؛ لأنَّهُ يسترُ الذُّنوبَ، ويَمْحوها.

4) ﴿ٱلذَّنۢبِ﴾: (ذنب) أصلٌ يدلُّ على الجُرْمِ ومؤخَّرِ الشَّيءِ[13]، ومِنْ ذلكَ: الذِّنابُ بكسرِ الذّالِ، وهو عَقِبُ كلِّ شيءٍ[14]، والذَّنْبُ في الأصلِ: الأخذُ بذَنَبِ الشَّيءِ، ويُستعملُ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزل).
(2) الراغب، المفردات: (نزل).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (نزل).
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/ 749.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كتب).
(6) الجوهري، الصحاح: (كتب).
(7) الراغب، المفردات: (كتب).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 78.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(10) الخليل، العين: (غفر).
(11) الراغب، المفردات: (غفر).
(12) السمين، عمدة الحفاظ: (غفر).
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي: (ذنب).
(14) الجوهري، الصحاح: (ذنب).

في كلِّ فعلٍ تُستوخَمُ عُقْباهُ، اعتبارًا بذَنَبِ الشَّيءِ، ولهذا يُسمَّى الذَّنْبُ تَبِعةً؛ اعتبارًا لِما يحصلُ مِنْ عاقبتِهِ[1]، والمرادُ بالذَّنب هنا: الإثمُ والمعصيةُ.

5) ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾: (عقب) أصلٌ يدلُّ على تأخيرِ الشَّيءِ وإتيانه بعدَ غيرِهِ[2]، وكلُّ شيءٍ يَعْقُبُ شيئًا؛ فهو عَقيبُهُ، وعاقبةُ كلِّ شيءٍ: آخِرُهُ[3]، وسُمّيتِ العقوبةُ بذلك؛ لأنَّها تكونُ بعدَ الذَّنبِ[4]، والعقابُ: العذابُ[5]، وهو المرادُ هنا.

6) ﴿ٱلطَّوۡلِۖ﴾: (طول) أصلٌ يدلُّ على فضلٍ وامتدادٍ في الشَّيءِ[6]، ومِنْ ذلك يقالُ: تطاولَ فلانٌ، أي: أظهرَ الطَّوْلَ، وتمدَّدَ قائمًا لينظرَ إلى بعيدٍ[7]، والطَّولُ: الفضلُ والمَنُّ[8]، والغِنى[9]، والقدرةُ، والمرادُ هنا: الإطلاقُ الشّاملُ لكلِّ هذهِ المعاني[10]، أو الفضلُ بتركِ العقابِ المستحَقِّ[11].

## ۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

القرآنُ كتابٌ المتَّصفِ بصفاتِ الكمالِ

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن القرآنِ الكريمِ بأنَّهُ كتابٌ مُنزَّلٌ مِنَ اللّهِ تعالى المُتَّصفِ بالقوَّةِ والغلَبةِ في كلِّ شيءٍ، وبالعِلْمِ المُحيطِ بجميع المَعلوماتِ، وهو الَّذي يغفرُ الذُّنوبَ، ويقبلُ توبةَ التّائبينَ، ويفتحُ بابَ القبولِ للعائدينَ مِنَ الكفرِ إلى الإيمانِ، ومِنَ العصيانِ إلى أنوارِ

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (ذنب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(3) الجوهري، الصحاح: (عقب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(5) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (عقب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طول).
(7) الزمخشري، أساس البلاغة: (طول).
(8) الراغب، المفردات: (طول).
(9) السمين، عمدة الحفاظ: (طول).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 80.
(11) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 546، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 51.

الهدايةِ، ويتوعَّدُ المُصرّينَ على الكفر والضَّلالِ بأنَّهُ شديدٌ عقابُهُ، لا يُعجِزُهُ أحدٌ عن إيصالِ العذابِ إليهم؛ لأنَّهُ ذو قدرةٍ عظيمةٍ.

## ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### دلالةُ التَّعبيرِ بالحروفِ المُقَطَّعةِ في بدايةِ السّورةِ:

المُتحدَّى بِهِ واقعٌ ملموسٌ

ابتدأتِ السّورةُ الكريمةُ بالحروفِ المقطَّعةِ في قولِهِ تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾؛ لتكونَ هذهِ الحروفُ تنبيهًا على تحدّي كلِّ مَنْ يجادلُ في آياتِ القرآنِ، بأنْ يأتيَ بمثلِها إحكامًا ونظْمًا وبَيانًا، فما هذه الآياتُ إلّا مجموعةٌ من هذه الحروفِ العربيَّة الَّتي يتكلَّمُ بها العربُ الفُصحاء، وهي حروفٌ مسموعةٌ وواقعيَّةٌ، لكنَّهم يعجزونَ عن نظمِها مثلَ هذا النَّظمِ المُعجِزِ البليغ، ومِن ثمَّ نلحظُ أنَّهُ يأتي ذكرُ الكتابِ وتنزيلِهِ وبيانِ مَكانتِهِ بعدَ ذكرِ هذه الحروف، فتكونُ هذه الحروفُ ذاتَ صلةٍ بالكتابِ المُتحدَّى به، وأنَّهُ من جنسِ هذه الحروف الَّتي يتكلَّمُ بها المُخاطَبونَ العاجزونَ عن المعارضة.

### سرُّ تركِ التَّأكيدِ في ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

أدلَّـةُ حقّيَّةِ القرآنِ ظاهرةٌ لِمَنْ تأمَّلَ

المقصودُ بتوجيهِ الخبرِ في قولِهِ تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ هم المشركونَ المنكرونَ أنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ مِنْ عندِ اللهِ تعالى، فتجريدُ الخبرِ عن المؤكِّدِ إخراجٌ لهُ على خلافِ مقتضَى الظّاهرِ، بجعلِ المنكرِ كغيرِ المنكرِ؛ لأنَّهُ يَحُفُّ بهِ مِنَ الأدلَّةِ ما إنْ تأمَّلَهُ ارتدعَ عن إنكارِهِ، فما كانَ مِنْ حقِّهِ أنْ يُنكِرَ ذلكَ(1).

### نكتةُ التَّعبيرِ بالتَّنزيلِ:

الـرَّدُّ على مَنْ طلبَ نزولَ القرآنِ جملةً واحدةً

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالتَّنزيلِ في قولِهِ تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾، وهو مصدرُ (نزَّلَ) المضاعف؛ لأنَّهُ مُشعِرٌ بأنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 78.

القرآن أُنزِلَ مُنجَّمًا، وفي ذلكَ ردٌّ على الطّاعنينَ؛ لأنَّ مِن جملةِ ما تعلَّلوا بِهِ قولَهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: 32](1).

**بلاغةُ موقعِ ﴿تَنزِيلُ﴾ مِن حيثُ الإعرابُ:**

**الابتداءُ بموضعِ الشَّكِّ أبلغُ في الرَّدِّ**

﴿تَنزِيلُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ مبتدأٌ، والخبرُ قولُهُ: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾(2)، وفي تقديمِ المبتدأ - وهو الأصلُ - إشارةٌ إلى أنَّ التَّنزيلَ هو محطُّ الاهتمامِ؛ إذ المُكذِّبونَ تنصبُّ دعوتُهم على التَّشكيكِ في تنزيلِهِ، فكانَ تقديمُهُ ردًّا على تشكيكِهم، وفيهِ أيضًا حثٌّ على الإصغاءِ بعدَ التَّشويقِ إلى سماعِ الخبرِ، وهذا التَّوجيهُ يتَّسقُ معَ إعرابِ ﴿حمٓ﴾ خبرًا لمبتدأٍ محذوف، تقديره: هذهِ السّورةُ حم، أي: مُسمّاةٌ بـ (حم)(3).

**معجزةُ النَّبيِّ ﷺ خالدةٌ**

ويحتمل أن يكون ﴿تَنزِيلُ﴾ خبرًا عن ﴿حمٓ﴾، والتقدير: هذه السّورةُ المسمّاة بـ (حم) تنزيلُ الكتابِ من اللّه(4)، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ القرآن أنزله اللّه، وليس منقولًا، ولا مكذوبًا(5)، وأيضًا الإخبار عن السّورة المسمّاة حم بأنَّها تنزيل، إعلانٌ دائم وجهير بالتَّحدّي، ووراء هذا القطعُ بأنَّهُ لا يُؤتَى بسورةٍ من مثله، وأنَّ ذلك ليس في طَوْقِ أحد يسمع هذا القرآنَ في كلِّ جيلٍ وكلِّ أمَّة، ولا تجد برهانًا أقربَ ولا أيسرَ من هذا البرهانِ، وعلى هذا وبه يكون عليه الصلاة والسلام أكثر الأنبياء تابعًا يوم القيامة(6).

ويحتمل أن يكون ﴿تَنزِيلُ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف، والتَّقدير: هذا تنزيلُ الكتاب(7)، فيكونُ في الكلام إيجازٌ بالحذف.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 314.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 349، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 546.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 144.
(4) مجير الدين الحنبلي، فتح الرحمن: 6/ 96.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 290.
(6) أبو موسى، محمد والزمر وعلاقتهما بآل حم، ص: 19.
(7) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 30، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 232.

### نكتةُ الإضافةِ في قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

تشريفُ القرآنِ المنـزَّلِ مِـن عندِ اللهِ

إضافةُ ﴿تَنزِيلُ﴾ إلى ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول[1]؛ لبيانِ المنزَّلِ، وهو الكتابُ دونَ الملائكةِ أو الرِّزقِ أو القضاءِ أو غيرِ ذلكَ، وفي ذلكَ تشريفٌ للقرآنِ بإيقاعِ التَّنزيلِ عليهِ الملائم لرفعةِ شأنِه.

### دلالةُ التعريفِ بـ (أل) في قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾:

التَّنـويهُ بشأنِ الكتابِ والإعلاءُ مِنْ قَدْرِه

تعريفُ الكتابِ في قولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ للعهدِ، والمرادُ بهِ القرآنُ المعهودُ بينَهم عندَ كلِّ تذكيرٍ وكلِّ مجادلةٍ[2]، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّعريفُ للجنسِ المرادِ به التَّنبيهُ على الكمالِ المطلقِ، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ مَنْ يخالجُهُ شكٌّ في كمالاتِهِ المطلقةِ؛ فليضَعِ اليدَ على شيءٍ ممّا لا يُرَى فيه الكمالُ المطلق، من لغة وقصص أو تشريع أو في أيِّ باب من أبواب معانيه، فإذا لم يستطع، ولم يستطع من سبقوه من المجادلين في كلام اللّه؛ فليتَّقِ النّارَ الَّتي وقودُها النّاسُ والحجارة[3].

### سرُّ التَّعبيرِ بالكتابِ دونَ القرآنِ:

الـقـرآنُ المـنـزَّلُ مكتوبٌ متناسبٌ

عُبِّرَ بالكتاب دون القرآن في قوله عزَّ من قائلٍ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ هذه الآياتِ المقروءةَ المنزَّلة بالتَّدريجِ ستتحوَّلُ بعدَ الجمعِ الكاملِ إلى كتابٍ مجموعٍ متناسبٍ، فهو وإنْ نزلَ تدريجيًّا كما توحي به كلمةُ التَّنزيل إلّا أنَّهُ سيكون مكتوبًا مُنتظِمًا، وهي لطيفةٌ من لطائفِ أسماءِ القرآنِ الكريم.

### معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾:

الـكـتـابُ ربّـانيُّ المصدرِ

تدلُّ ﴿مِنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ على الابتداءِ، والمعنى: أنَّ ابتداءَ تنزيلِ الكتابِ مِنَ اللّهِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 314.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 314، وحبنكة، معارج التفكر: 12/ 318.

(3) أبو موسى، محمد والزمر وعلاقتهما بآل حم، ص: 17.

تعالى، وفي ذلكَ بيانٌ لمصدرِ الكتابِ، وأنَّهُ مِنَ اللّه تعالى لا مِنْ عندِ النَّبيِّ ﷺ ولا مِنْ عند غيره كما يعتقدُ المُكذِّبون، والمعنى: أنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ مِنْ عندِ اللّه، وليسَ بكذبٍ عليهِ[1]، وفي ذلك زيادةُ تأكيدٍ لمعنى التَّحدّي بالإتيان بمثل سورة من القرآنِ[2].

### فائدةُ التَّعبيرِ باسمِ الجلالةِ:

تنـزيلُ الكتابِ يسيرٌ على اللهِ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ باسم الجلالةِ في قولِهِ تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ الدّالِّ على كلِّ صفاتِ الجَلال والعظَمة[3]؛ ليكون دالًّا على التَّعليلِ لذلك الحدثِ العظيم، وأنَّهُ وقعَ لكونه صادرًا من اللّه تعالى، فيكونُ من دعوى الشَّيءِ ببيِّنةٍ وبُرهان، وأفادَ اسم الجلالة إمكانَ التَّنزيلِ ويُسْرَهُ؛ إذ فاعلُهُ هو العظيم القدير.

### نكتةُ الوصفِ بالعزيزِ العليمِ دونَ غيرِهما:

اشتمالُ القرآنِ على الإعجازِ والحِكَمِ البالغةِ والحُكمِ النّافذِ

جيءَ بوصفَي العزيز العليم دون غيرهما في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾؛ لمناسبتهما ما في القرآن من الإعجاز والحكم الدّالِّ على القدرة الكاملة والحكمة البالغة[4]، فإعجازه لأنَّهُ كلام إلهٍ قدير لا يُغالَبُ؛ فلذا ذُكِرَ العزيز، ولاشتماله على الحِكَم البليغة البالغة ذُكر العليم؛ لأنَّ البليغَ علمُهُ بالأشياء يكون حكيمًا، وناطقًا بالحكمة[5]، وللإيذان بظهور أثرَيِ الوصفين في الكتاب، بحريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه، من غير مُدافِع ولا مُمانِع، وبابتناء جميع ما فيه على أساس الحِكَم الباهرة[6]، وفي وصف اللّه بهما تعريضٌ بأنَّ منكِري تنزيل الكتاب منه مغلوبون مقهورون، وبأنَّ اللّه يعلم ما تُكِنُّهُ نفوسُهم، فهو محاسبُهم على ذلك، ورمزٌ إلى أنَّ

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 551.
(2) أبو موسى، محمد والزمر وعلاقتهما بآل حم، ص: 17.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 3.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 51، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 295.
(5) الشهاب، عناية القاضي: 7/ 355.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 240.

القرآنَ كلام العزيز العليم، فلا يقدر غيرُ اللّه على مثله، ولا يعلم غيرُ اللّه أن يأتيَ بمثله[1].

### نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾:

كمالُ عزَّة اللهِ وعلمِه

وردَ وصفا ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ معرَّفينِ في قولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾؛ للدَّلالةِ على رسوخِ اتِّصافه تعالى بهذينِ الوصفينِ الجليلين، وكمالِ اتِّصافه بهما؛ إذ هو العزيزُ والعليمُ على الحقيقةِ والكمالِ.

### نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ على ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾:

الوحيُ أثرُ العزَّةِ والعلمِ

آثرَ النَّظمُ الجليلُ تقديمَ وصفِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ على وصفِ ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾؛ ليكونَ مُنسجِمًا مع ترتيب ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ إذ التَّنزيلُ يحتاجُ إلى قوَّةٍ غالبة، والكلامُ المحكَم يحتاجُ إلى علمٍ مُحيط.

### نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ (فعيل):

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن الوصفينِ الجليلينِ بصيغةِ (فعيل) الدّالَّة على المبالغةِ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾؛ للدَّلالة على المُبالغةِ في اتِّصافه تعالى ذكره بالقدرة والغلَبة والعلم[2].

### توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

اللهُ تعالى عليمٌ بما في صدور المكذِّبينَ

قال تعالى في مطلَع سورةِ الزُّمَر: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [الزمر: 1]، ومثله في الجاثية (2) والأحقاف (2)، وقال هنا: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾، فوقعَ اختلاف في الوصفِ الثّاني؛ لمناسبة العليم لاطِّلاعه تعالى على ما تُكِنُّهُ صدور المكذِّبينَ المعرِضينَ[3]، وللتَّفنُّن في التَّعبيرِ الَّذي هو من فنون البلاغة[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 79.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 233.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 79.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 17/ 4.

**بلاغةُ موقعِ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾:**

السّياقُ مُرجِّحٌ إرادةَ الثُّبوتِ والاستمرارِ

بعدَ أنْ وصفَ المولى تعالى ذاتَهُ بـ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ وصفَها بوصفين معطوف أحدهما على الآخر، فقالَ: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾، وهما مؤلَّفان من اسمَي فاعلٍ مُضافٍ إلى معموليهما، وهذه الإضافةُ: إمّا أنْ تكونَ معنويَّةً محضةً؛ بأنْ يكون ﴿غَافِرِ﴾ ﴿وَقَابِلِ﴾ دالَّين على الثُّبوتِ والاستمرار، أو على المضيِّ، فيكتسبان من المُضاف إليه التَّعريفَ، ويتطابقان حينئذٍ مع المنعوتِ المُعرَّف كما هو قانونُ النَّعت، فالإضافة حقيقيَّة؛ لأنَّه لم يُرَدْ بهما زمانٌ مخصوص، واسمُ الفاعل يجوزُ أن يرادَ به الاستمرار[1].

وإمّا أن تكونَ الإضافةُ لفظيَّةً غيرَ محضةٍ، بأن يكونا دالَّين على الحال أو الاستقبال، فلا يكتسبان التَّعريفَ من المضاف إليه، فيكونان بدلين[2]، ولا يُشترطُ فيهما التَّطابقُ تعريفًا وتنكيرًا مع المُبدَل منه.

رحمته سبحانه للتائبين ثابتة وشاملة للعالمين

والظّاهر النَّعت؛ إذ السّياقُ في إطارِ مَدْحِ الذّات الإلهيَّة بجملةٍ من الأوصاف الَّتي يتَّصفُ بها على سبيلِ الثُّبوت والاستمرار[3]، وأفادَ النَّعتُ البِشارةَ للمُؤمنينَ بغُفرانِ ذُنوبهم وقبول توبتهم؛ إكرامًا لإيمانِهم، وأيضًا قد تقدَّم أنَّ الوصفَ بوصفَي العزيز العليم فيه تعريضٌ بأنَّ منكِري تنزيل الكتاب من اللّه مغلوبون مقهورون، وبأنَّ اللّه يعلم ما تُكِنُّهُ نفوسُهم، فهو محاسبهم على ذلك، وفي إتباع الوصفين العظيمين بأوصافِ غافر الذنب وقابل التَّوب شديد العقاب ذي الطّول ترشيحٌ وتقويةٌ لذلك التَّعريضِ، كأنَّهُ يقول: إن كنتم أذنبتم بالكفر بالقرآن؛ فإنَّ تدارك ذنبكم في مُكنتِكم؛ لأنَّ اللّه مقرَّرٌ اتِّصافُهُ بقبول التَّوبة وبغُفران الذَّنب، فكما غفر لِمَنْ تابوا

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 290، والهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 118.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 148 - 149، والطيبي، فتوح الغيب: 13/ 454.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 233.

من الأمم، فقبلَ إيمانَهم يغفر لمن يتوبُ منكم[1]، والحاصل: أنَّ هذه الأوصاف تجمع الوعدَ والوعيدَ، والتَّرهيبَ والتَّرغيبَ[2].

**نكتةُ التَّعبيرِ بالغُفرانِ:**

الغُفرانُ سترٌ للذَّنبِ وعدمُ محاسبةٍ عليه

عبَّر النَّظم الجليلُ بلفظ ﴿غَافِرِ﴾، في قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾؛ لما يدلُّ عليه بحسب معناه اللُّغويِّ من ستر الذَّنب[3]، ومَحْوِهِ عينًا وأثرًا[4]، ويلزم منه على سبيل الكناية عدمُ المحاسبة عليه[5]، وهذا أقصى ما يحتاجه المؤمنُ المذنب.

**سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿غَافِرِ﴾ دون (غَفّار) و(غَفور):**

مغفرةُ ذنوبِ العبادِ دائمةٌ

بينَ ﴿غَافِرِ﴾ و(غفّار) و(غَفور) اتِّفاقٌ في أصلِ المادَّة، وهو تغطيةُ الذَّنبِ وسَتْرُهُ، وما يلزمُهُ من عدم المحاسبةِ عليها، لكنْ يظهرُ الفرقُ بينَ الألفاظِ الثَّلاثة في الدَّلالة على نوعِ المغفرة عِظَمًا وكثرةً؛ إذ يشيرُ ﴿غَافِرِ﴾ إلى الثُّبوتُ والدَّوام[6]، وعلى غُفران الذُّنوب مطلقًا، وأمّا (غَفور)؛ فوزنُهُ من أوزان المبالغة، وهو يدلُّ على المبالغة نظرًا إلى الذَّنبِ باعتبارِ عظمتِهِ، فالغفورُ للذَّنبِ الجسيمِ الَّذي لوحِظَ فيه جانبُ الكَيْفِ للذَّنب، وأمّا الغفّار؛ فهو يدلُّ على المبالغةِ أيضًا، لكنْ نظرًا إلى الذُّنوب باعتبارِ كَثرتها، أي: بالنَّظر إلى جانبِ الكَمِّ.

وقد عُبِّرَ بـ ﴿غَافِرِ﴾ في قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾؛ للدَّلالة على الثُّبوت، ولأنَّه أنسبُ بـ ﴿وَقَابِلِ﴾ من ناحية الوزن.

**دلالةُ الإضافةِ في ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾:**

شأنُ المولَى الجليلِ غُفرانُ الذُّنوبِ

لمّا كان الرّاجحُ في سياقِ المدح دلالةَ الوصفِ بـ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ على الثُّبوت والاستمرار؛ فإنَّ الإضافة فيهما معنويَّةٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 97.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 438.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 197.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 5.
(5) حبنكة، معارج التفكر: 12/ 318.
(6) داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن، ص: 454.

مَحْضةٌ - وهو ما رجحه ابن عطية - وهي من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وهي لاميَّةٌ، أي: غافرٌ للذَّنب وقابلٌ للتَّوب.

وربما يُراد بـ﴿غَافِرِ﴾: الاِسْتِقْبالَ؛ أَيْ: غُفْرانُهُ يَوْمَ القيامَةِ؛ فالإضافَةُ غَيْرُ مَحْضَةٍ، و﴿غَافِرِ﴾ نَكِرَةٌ، فَلا يَكونُ نَعْتًا؛ لِأَنَّ المَعْرِفَةَ لا تُنْعَتُ بِالنَكِرَةِ، وفي هَذا نَظَرٌ[1].

### نكتةُ التَّعريفِ بـ(أل) في قوله: ﴿ٱلذَّنۢبِ﴾:

سَـعَـةُ مغـفـرة اللهِ تعالى

تعريف ﴿ٱلذَّنۢبِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ للجنسِ المرادِ به الاستغراقُ في مقامِ المدحِ والتَّرغيب في التَّوبة والإنابة، أي: غافر جميع ذنوبِ عبادِهِ المؤمنينَ المصدِّقينَ بشرط التوبة، أو دون توبة لمن يشاء، وفي ذلك مدحٌ عظيمٌ لكرمِهِ سبحانه وإحسانِهِ بما يتلاءَمُ مع دلالةِ ﴿غَافِرِ﴾ على الثُّبوتِ والدَّوام، فمَنْ شأنُهُ الغُفرانُ يكونُ غُفرانُهُ لجميعِ الذُّنوبِ، وسَتْرُهُ لكثيرِ العُيوب، ودَفعُهُ لمُشكِلات الكُروب، ولا كَرْبَ أعلى من السَّيِّئةِ وجريرتِها.

### نكتةُ الإفرادِ في قوله: ﴿ٱلذَّنۢبِ﴾:

الـذُّنـوبُ عـنـدَ الغـافـرِ بمنزلةِ ذنبٍ واحدٍ

آثرَ النَّظمُ إفرادَ الذَّنب على جمعِهِ في قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ جميعَ الذُّنوب الَّتي يُظَنُّ عِظَمُها بمنزلة ذنبٍ واحدٍ عند المَولى العفوِّ الرَّحيم، فلا يقنطُ المؤمنُ من كثرةِ ذنوبِهِ وسيِّئاتِه؛ فللذَّنبِ العظيم ربٌّ غفورٌ رحيم، وللذُّنوبِ الكثيرةِ غفّارٌ يتكرَّرُ الغُفرانُ منه على سبيلِ الثُّبوتِ والاستمرار.

### نكتةُ تقديمِ غُفرانِ الذَّنبِ على قَبولِ التَّوب:

التَّخليةُ عن ذنبِ الـعـبـدِ تحليةٌ بقبولِ توبتِهِ

قُدِّمَ في قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ غُفرانُ الذَّنبِ على قَبول التَّوب؛ للاهتمام بتعجيل الإعلام به لِمَن استعدَّ لتدارك

(1) ابن عطية، البحر المحيط: 4/ 546.

أمره[1]، ولأنَّ التَّخلية مقدَّمة على التَّحلية[2]؛ لأنَّ سِترَ الذَّنبِ والعفوَ عنه تخليةٌ لساحةِ العبد وترغيبٌ له بالرُّجوعِ والإنابةِ، وإطماعٌ له بالتَّطلُّعِ إلى القبولِ لتوبتِهِ وأوْبتِهِ، وبعدَ التَّخلية تحصلُ التَّحليةُ والتَّشريفُ بالقبولِ والموافقة.

الكبيرةُ قد تُغفَرُ بلا توبةٍ

ويحتمل أنَّ مجيء ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ بعد ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ يفيد معنًى عظيمًا؛ لأنَّ غُفرانَ الذَّنب هنا يعني غُفرانَ الكبائر؛ لأنَّ اللّه مَنَّ على العباد بغُفران الصَّغائر، فلا يكون قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ راجعًا إلى غُفران الصَّغائر؛ لأنَّهُ حينئذٍ يكون لا مِنَّةَ فيه، ثمَّ إنَّ مجيء قوله: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ يعني: أنَّ الذَّنب المغفور في قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ هو الكبيرة المغفورة بلا توبة، ولو كانت الكبيرة لا تُغفَرُ إلّا بالتَّوبة؛ لَما كان لقوله: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ معنًى جديدٌ[3].

### سرُّ العطفِ بالواوِ في قوله: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾:

اللهُ سبحانَهُ كريمٌ لا يتعاظمُهُ ذنبٌ

جيء بواو العطف في قوله تعالى: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ دون باقي الصِّفات؛ لإفادة الجمع للمذنب التّائبِ بين رحمتين: بين أن يقبلَ توبتَهُ، فيكتبَها له طاعةً من الطّاعات، وأن يجعلَها مَحْوًا للذُّنوب، كأنْ لم تكن، كأنَّهُ قال: جامع المغفرة والقبول[4]، أو للاستدلالِ بالواو على تغايرِ الوصفين؛ إذ ربَّما يُتوهَّمُ الاتِّحادُ وتغاير موقع الفعلين؛ لأنَّ الغَفْرَ هو السَّترُ، فيكون الذَّنبُ باقيًا، وهو لِمَنْ لم يَتُبْ، فإنَّ التّائب من الذَّنب كمَنْ لا ذنبَ له[5]، فلمّا ذُكِرت؛ تبيَّن التَّغايرُ؛ لأنَّ عطف الشَّيء على نفسه محالٌ[6]، أو للدَّلالة على تمكُّن الوصف إعلامًا بأنَّهُ سبحانه لا يتعاظمه ذنبٌ[7].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 79.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 297، وأطفيش، تفسير أطفيش: 9/ 210.
(3) أبو موسى، محمد والزمر وعلاقتهما بآل حم، ص: 22.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 149، والهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 119.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 51.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 485.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 5.

**نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلتَّوۡبِ﴾:**

باب التَّوبة مفتوحٌ على مِصْراعَيْه

التعريفُ بـ (أل) في قوله تعالى: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ للجنسِ الدّالِّ بمعونةِ مقامِ التَّرغيب على الاستغراقِ والشُّمولِ، فهو يشمل كلَّ توبة، فيقبلُ سبحانه جميعَ أفرادِ التَّوبةِ المستوفيةِ الشُّروط من مختلف المذنبينَ والعُصاة؛ إذ بابُ التَّوبة مفتوحٌ على مِصراعَيهِ؛ ليدخلَ منه كلُّ مُتطلِّعٍ للتَّوبة والرُّجوعِ عن الضَّلالِ والانحراف، فليسَتْ هناك توبةٌ صادقةٌ تُرَدُّ، ولا رجعةٌ إلى طريقِ الحقِّ تُرفَضُ.

**بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّوبِ:**

وجوبُ الرُّجوعِ إلى اللهِ بعدَ العصيانِ

عُبِّرَ بالتَّوب في قوله ﷻ: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾؛ لدلالته على الرُّجوع، وفيه إيماء إلى أنَّ العاصيَ مهما شَرَدَ عن طريق الحقِّ، فينبغي عليه أن يرجع إلى الحقِّ سبحانه بعد الابتعاد عنه[1]، وعُبِّرَ بالتَّوب دون التَّوبة؛ لأنَّهُ أنسبُ بالتَّجانس بينه وبين الذَّنب، ولأنَّهُ أخفُّ في اللَّفظ أيضًا.

**بلاغةُ الوصفِ بقوله: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾:**

التَّرهيبُ بعدَ التَّرغيبِ عادةٌ قرآنيَّةٌ

قولُه تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ نعتٌ آخر للاسم الجليل؛ بناءً على أنَّ التَّعريف الدّاخل على فاعل الصِّفة يقوم مقام تعريف الصِّفة، فاتَّحد النَّعتُ والمنعوت في التَّعريفِ[2]، والغرضُ مِنْ هذا النَّعت التَّرهيب بعد التَّرغيب[3]، كما هي عادة القرآن، ففي ذكر هذا الوصف تحذيرٌ شديد من الوقوع في الذُّنوب والمعاصي، وإثارةٌ لمخاوف ذوي الإدراك السَّليم من الإصرار على ارتكاب الذُّنوب والآثام[4].

**نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ (فعيل):**

الغافرُ للذُّنوبِ شديدُ العقاب أيضًا

انتقلَ النَّظمُ في قولِهِ تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ من صيغة (فاعل) في الصِّفتين السّابقتين إلى صيغة (فعيل)؛ للدَّلالة على المُبالغةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 80.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 80.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 265.
(4) حبنكة، معارج التفكر: 12/ 319.

في شدَّةِ عقابِهِ تعالى للجاحدين؛ إذ قد يُتوهَّمُ مِن تقديم الغُفرانِ للذُّنوب وقبولِ توبةِ التّائبينَ أنَّهُ تعالى لا يعاقبُ على الكفر والمعصية، فدُفِعَ هذا الوهم بالتَّنصيص على قوَّة الرّادع.

**نوعُ الإضافةِ في قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾:**

عِظَمُ العقابِ رادعٌ للعُصاةِ والكفرةِ

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ لفظية من إضافة الصِّفة المشبَّهة إلى فاعلها، وهي تفيد اتِّصافَ عقابه ﷻ بالشِّدَّة، وفي ذلك ملاءمة لمقام زَجْرِ العُصاة والكفرة عمّا هم عليه من العصيان والكفر، والمراد بـ ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾: مُشدِّده، فيكون بمعنى اسم الفاعل، أو الشَّديد عقابُهُ، فحُذِفَتِ اللّام لأمنِ اللَّبْس، ولتتلاءم هذه الصِّفةُ مع الصِّفات السّابقة(1).

**نكتةُ التعريفِ بـ (أل) في قوله: ﴿ٱلْعِقَابِ﴾:**

تعريفُ العقاب في قول الباري ﷻ: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ للعهد، والمراد به عقابه ﷻ الَّذي هو مناطُ التَّرهيب والتَّخويف.

**نكتةُ تأخيرِ الوعيدِ عن الوعدِ:**

جانبُ الرَّحمة غالبٌ جانبَ العقابِ

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ غُفرانَ الذُّنوبِ وقَبولَ التَّوبِ على العقابِ الشَّديدِ في قولِهِ تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ للإشعارِ بترجيح جانب الرَّحمة والفضل؛ لأنَّهُ تعالى لمّا أراد أن يصفَ نفسه بأنَّهُ: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ ذكر قبله أمرين كلُّ واحد منهما يقتضي زوالَ العقاب، وهو كونُهُ: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾، وذكر بعده ما يدلُّ على حصول الرَّحمة العظيمة، وهو قوله: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾، فكونه شديد العقاب لمّا كان مسبوقًا بتينك الصِّفتين وملحوقًا بهذه الصِّفة؛ دلَّ ذلك على أنَّ جانب الرَّحمة والكرم أرجح(2)، وظاهر أنَّ هذا مبنيٌّ على تفسير الطَّول بالفضل.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 51.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 484.

ولأنَّ الوعدَ مقدَّمٌ على الوعيد في الدَّعوة إلى الله تعالى، فيكونُ منَ المُناسب للتأثيرِ في النَّفس البدءُ بالإطماعِ والتَّرغيبِ بالإيمان والعمَلِ الصّالح، ثمَّ يعقبُهُ التَّرهيبُ والتَّهديدُ من عدم الاستغفار منَ الذَّنب وعدمِ الإنابةِ إلى الله تعالى، وهذا منهجٌ قرآنيٌّ سديدٌ في النُّصحِ والإرشاد، ينبغي أن ينتفعَ منه الدُّعاةُ إلى الله تعالى.

منهجيَّةُ الدَّعوةِ تقتضي تقديمَ التَّرغيبِ على التَّرهيبِ

**نكتةُ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾:**

الظّاهر أنَّ قوله تعالى: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ نعتٌ آخر للفظ الجلالة[1]، ونكتةُ الإتيان به: أنَّهُ سبحانه لمّا أتمَّ التَّرغيبَ بالعفو والتَّرهيبَ من الأخذ؛ أتبعَهُ التَّشويقَ إلى المنِّ والفضلِ[2]، وهذا على تفسير الطَّول بالفضل والمنِّ، وإن فُسِّر بالقدرة؛ فالنُّكتة في هذا الوصف تقويةُ ما أفادته الصِّفة السّابقةُ - وهي ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ - من التَّرهيب، وذهب بعضُهم إلى أنَّهُ يجوز أن يكون بدلًا[3]، والرّاجح الأول.

التَّشويقُ للفضلِ بعدَ التَّرهيبِ

**سرُّ التَّعبير بـ ﴿ذِي﴾ دونَ غيرِه:**

عبَّر في قوله تعالى: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾ بكلمة ﴿ذِي﴾ دون (عظيم الطَّول)، أو (كثير الطَّول)، أو نحو ذلك ممّا يلائم ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ لأنَّ كلمة ﴿ذِي﴾ تدلُّ على ملازمةِ الطَّول وسَعَةِ العطاء، وكلُّ ذلكَ شاملٌ لخَلْقِهِ تعالى جميعًا، فكلُّ مَنْ خلقَهُ ربُّنا جعل سبحانه على نفسِه رزقَهُ[4].

اللهُ تعالى واسعُ العطاءِ

**سرُّ المغايرةِ بينَ هذه الصِّفة وسابقاتها:**

عبَّر النَّظم الكريم عن الصِّفات السّابقة بالمشتقّات، فقال: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾، وقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾، وقال هنا: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾، ولم يقلْ فيما سبق: ذي العزَّةِ والعِلْم إلخ...؛

التَّفنُّنُ بالتَّعبيرِ مِنْ جمالِ النَّظمِ

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 458.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 6.
(3) السمين، الدر المصون: 9/ 458.
(4) أبو موسى، آل حم، ص: 26.

للتَّفنُّن بالتَّعبير عن بعض الصِّفات بما يفيد الثُّبوتَ والاستقرار، والتَّعبيرِ عن بعضِها بما يفيد الملازمةَ من خلال كلمة ﴿ذِى﴾ الَّتي تفيد ذلك، حتَّى كأنَّ الطَّول مختصٌّ به سبحانه.

**نكتةُ التعريفِ بـ(أل) في قوله: ﴿ٱلطَّوۡلِۖ﴾:**

الفضلُ والقوَّةُ للهِ سبحانَهُ

التعريفُ بـ (أل) في قوله تعالى: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾ للجنس؛ لأنَّ اللّام داخلة على الطَّول، وهو مصدر، وهو من أسماءِ الأجناس، فيكونُ المرادُ أنَّه تعالى صاحبُ حقيقةِ الطَّوْلِ، وهو المنُّ والفضل، أو القوَّة، أو ما يشمل ذلك كلَّهُ.

**بلاغةُ التَّعبير بقوله: ﴿ٱلطَّوۡلِۖ﴾:**

اتِّصافُ الله بكمال الفضل والقوَّة

عُبِّرَ بلفظ الطَّوْلِ في قوله تعالى: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾؛ لدلالته في أصلِ وضعِهِ على الامتدادِ، تقول: (زيدٌ أطولُ من عمرو)، بمعنى: أنَّه يفضُلُه في الامتدادِ الطّوليِّ، فيفيد الطَّوْلُ هنا أنَّهُ ﷻ يَفْضُلُ غيره في المنِّ والإنعام[1]، أو في القوَّةِ، أو فيهما معًا، ولا غَرْوَ في ذلك، فهو سبحانه الغنيُّ القويُّ المتين، ويفيد أيضًا أن نِعَمَهُ سبحانه مبسوطة[2].

**بلاغةُ ترتيبِ الصِّفاتِ الأربع:**

كلُّ صفةٍ تستدعي الَّتي بعدَها

ترتيبُ الصِّفات الأربع في قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾ ترتيبٌ بديع، فإنَّ قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ يفتح بابَ رحمةِ اللّٰه لَمِن عاند تنزيلَ الكتاب من اللّٰه العزيز العليم؛ إذا فكَّر في الرُّجوعِ، ومغفرةُ الذَّنب، تعني: مغفرةَ الكبائر بدون توبة إلّا كبيرةَ الشِّرك، فيأتي قوله: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾، ويفتح البابَ لمَنْ سقط في هذه الكبيرة، ثمَّ يأتي ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾، فيُلوِّحُ بالانتقام ممَّنْ أصرَّ، ثمَّ يأتي ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 291.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 351.

فيتجاوز حالة الثَّوابِ والعقاب إلى حالة المنِّ والعطاء المتَّسعِ لمَن آمنَ، ومَن كفرَ[1].

**نكتةُ فصلِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾:**

تقريرُ الوحدانيَّةِ بعد ذكرِ صفات الكمال

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها مستأنفةٌ عقبها؛ للتَّنصيص على التَّفرُّد بالألوهيَّة بعد ذكر النُّعوت الجليلة السّابقة[2]، ويحتمل أن يكون الفصل؛ لأنَّ هذه الجملةَ بمنزلةِ التَّوكيدِ لسابقتِها؛ فالعلاقةُ بينَ الجملتينِ كمالُ الاتِّصال؛ إذ لمّا أفادتِ الجملةُ السّابقةُ أنَّهُ سبحانه المتفرِّدُ بتلك الصِّفات الكماليَّة، الَّتي لا يُنازِعُهُ فيها أحدٌ، ولا يُغالِبُهُ فيها مُغالِبٌ؛ ثبتَ أنَّهُ لا إلهَ إلّا هو، كما أنَّ هذه الجملة تُنزَّلُ ممّا قبلَها منزلةَ النَّتيجةِ من مُقدِّماتها، ويحتمل أن يكون الفصل لشِبْهِ كمال الاتِّصال، بأن تكون الجملة تعليلًا لتمكُّنِهِ تعالى في كلِّ شيءٍ[3].

**بلاغةُ القصرِ في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾:**

لا إلهَ إلّا المتَّصفُ بصفاتِ الكمالِ

اشتملَ قولُهُ تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ على القصرِ بالنَّفي والاستثناء، وهو من قَصْرِ الصِّفةِ على الموصوفِ قَصْرًا حقيقيًّا؛ إذِ الألوهيَّةُ مُنحصِرةٌ في ذاتِ اللّه تعالى، وكلُّ مَن نسبَ الألوهيَّةَ لغيره؛ فقد جحدَ حقًّا مُختصًّا به تعالى وحدَه، وفي ذلك ردٌّ وإبطالٌ لِمَنْ كذَّب بتنزيلِ الكتابِ من اللّه تعالى، الَّذي يعتقدُ ظُلمًا أنَّ اللّه لا يخاطبُ العالَم، ولا يُنزِلُ شريعةً، وأنَّ الأصنام آلهةٌ تضرُّ، وتنفعُ وتقرِّبُ إليه زُلفى، فردَّ عليهم أبلغَ ردٍّ بإثبات كمالِ الأوصافِ له تعالى على سبيلِ الانفرادِ حتى لا يستحقَّ الألوهيَّةَ سِواه؛ ليكونَ إبطالًا لألوهيَّةِ أصنامِهم وافترائِهم الباطل.

---

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 26.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 235، والشهاب، عناية القاضي: 7/ 357.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 6.

**نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:**

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ قصرَ الأُلوهيَّةِ على اللّهِ تعالى أمرٌ ثابتٌ دائمٌ، لا شكَّ فيهِ، وهو حقيقةٌ لا يعرفُ النَّقْضُ إليها طريقًا.

**معنى ﴿لَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾:**

الألوهيَّةُ منتفيةٌ عن سواهُ تعالى

﴿لَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ نافيةٌ للجنس، دالَّةٌ على سلبِ الألوهيَّةِ الحقَّةِ على سبيلِ الاستغراقِ والشُّمول عن كلِّ ما سِواهُ تعالى، ولذا صرَّحَ النَّحويّونَ بأنَّها تتضمَّنُ معنى (مِن) الاستغراقيَّةِ، فتكونُ نصًّا في نفيِ الجنس وحقيقتِهِ على سبيلِ القطعِ لا الاحتمالِ.

**نكتةُ تنكيرِ ﴿إِلَٰهَ﴾:**

تنكيرُ ﴿إِلَٰهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ لإفادة العموم؛ إذ النَّكرة في سياق النَّفي تعمُّ، وبذلك يتحقَّقُ السَّلبُ الكلّيُّ لجميعِ أفرادِ الإلهِ الحقِّ سوى اللّه تعالى، وهذا السَّلبُ مدخَلٌ للإثبات.

**سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿إِلَٰهَ﴾ دونَ غيره:**

الإلـٰـهُ أنـسـبُ بـمـقـامِ تـقـريـرِ الوحدانيَّةِ

عُبِّرَ بـ ﴿إِلَٰهَ﴾ دونَ (ربّ) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ لأنَّ المقامَ لتقريرِ وحدانيَّةِ اللّهِ تعالى، وانفرادِهِ باستحقاقِ العبادةِ، ولفظُ الإلهِ أنسبُ بهِ؛ لأنَّهُ يدلُّ على العبادةِ بحسَبِ أصلِ وضعِهِ، وقد اشتهرَتْ كلمةُ التَّوحيد الَّتي هي علَمٌ على الإسلام بهذا اللَّفظ.

**بلاغةُ الاستثناءِ في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾:**

حكمُ المستثنَى مخالفٌ لحُكمِ المستثنَى منهُ

الاستثناءُ الواردُ في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ تامٌّ متَّصلٌ؛ إذِ المُستثنى منه وهو ﴿إِلَٰهَ﴾ مذكورٌ، والمُستثنَى بعضٌ منه، وفائدةُ الاستثناءِ إفادةُ حُكم إيجابيٍّ مُخالفٍ لحُكم النَّفي السّابق، وهو أنَّ الألوهيَّةَ المَسلوبةَ عن كلِّ ما سواه تعالى ثابتةٌ له سبحانه ومُختصَّةٌ به، ولذا فإنَّ أسلوبَ القصرِ يتضمَّنُ حُكمين مُختلفينِ إثباتًا ونفيًا، وبذلك يتحقَّقُ انحصارُ الألوهيَّة في اللّه تعالى وحدَهُ.

### نكتةُ فصلِ ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ عمّا قبله:

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ استئناف[1]، بمنزلةِ النَّتيجةِ لِما سبقَ من تفرُّدِهِ تعالى بالألوهيَّة، واتِّصافِهِ بتلك الكمالات[2]؛ لأنَّ من تفرَّدَ بالألوهيَّة وصفات الكمال حَرِيٌّ بأنْ يكون مرجعُ الخلق كلِّهم إليه للحسابِ والجزاءِ، وأيضًا: لمّا أُجريَتِ الصِّفات السّابقة عليه تعالى؛ أُثيرَ في الكلام الإطماعُ والتَّخويف، فكان حقيقًا بأن يشعُروا بأنَّ المصير إمّا إلى ثوابه، وإمّا إلى عقابه، فليَزِنوا أنفُسَهم؛ ليضعوها حيثُ يلوحُ مِنْ حالِهم[3]، فتكون الجملةُ تذييلًا مقرِّرًا لِما قبله[4].

مَــنْ تــفــرَّدَ بــالألــوهــيَّــةِ فميزانُ العدلِ عندَهُ

### سرُّ تركِ التَّوكيدِ في ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

جاء قولُهُ تعالى: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ دون توكيد مع أنَّ حكمَهُ محلُّ إنكارٍ وتكذيب؛ لتنزيلِ المُنكِر منزلةَ غيرِ المُنكِر؛ تنبيهًا على أنَّ مَنْ أدركَ أنَّ اللّٰه تعالى هو المُتَّصِفُ بالوحدانيَّة، وأنَّهُ متَّصف بصفات الكمال الَّتي ذُكِرَ هنا بعضُها، ينبغي أنْ يؤمنَ بأنَّ كلَّ ما يُخبِرُ سبحانه عن حصوله، فهو حقٌّ، لا ريبَ فيه؛ إذ الَّذي خلقَ النَّشأةَ الأولى قادرٌ على أنْ يُنشِئَ النَّشأةَ الآخرةَ.

أمرُ البعثِ ظاهرٌ لا يحتاجُ إلى برهانٍ

### معنى (إلى) في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

حرفُ الجرِّ (إلى) في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ دالٌّ على انتهاءِ الغايةِ المكانيَّة، فيفيدُ أنَّ المآلَ إلى اللّٰه تعالى، وأنَّ طُرُقَ الخلائق على كثرتها تعود إليه سبحانه يوم القيامة، وفي الكلام مجازُ حذفٍ، والتَّقديرُ: إلى جزاءِ اللّٰه المصيرُ.

الحسابُ موعدُ الخلائقِ أجمعينَ

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 297.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 6.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 81.

(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 10.

المرجعُ يومَ القيامةِ إلى اللهِ وحدَهُ

### غرضُ تقديمِ ﴿إِلَيۡهِ﴾:

قُدِّمَ ﴿إِلَيۡهِ﴾ على ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ للدَّلالةِ على الحصر، والمعنى: إليه وحدَهُ المصيرُ، لا إلى غيره لا استقلالًا ولا اشتراكًا، فيجزي كلًّا مِنَ المُطيع والعاصي(1).

ويحتملُ أن يكونَ التَّقديم للاهتمام والرِّعاية على الفاصلة بحرفين: حرف لينٍ، وحرف صحيح، نحو: العليم، والبلاد، وعقاب(2).

كلُّ ما في الوجود مصيرُهُ إلى الله في الدُّنيا والآخرةِ

### نكتةُ التعريفِ بـ(أل) في قوله: ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾:

تعريفُ المصير في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ للحقيقة والجنس، وإطلاقُها من غير قيدٍ يُحدِّدُ الَّذين مصيرُهم إلى الله من إنسانٍ وحيوان وطير وسماء وأرض، فأفاد هذا الإطلاقُ وهذا التَّعريفُ أنَّ مصير كلِّ كائنٍ إليه في حياته وفي مماته، وفي وجوده وفي عدمه، وفي رزقه وسَعْيِه وهدايته وضلاله، وأنَّه ليس في الوجود شيءٌ إلّا ومصيرُهُ في يد خالقِهِ جلَّ شأنُهُ(3).

## الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

مَن غُفِرَ لهُ فلا تَبِعةَ عليهِ

### الإثمُ والحوْبُ والجُرْمُ والخطيئةُ والذَّنبُ والسَّيِّئةُ والوِزْرُ:

الإثمُ: هو البُطءُ في عملِ الخيرِ والتَّأخُّرُ عنهُ، والحوْبُ: هو الذَّنْبُ المزجورُ عنهُ، والجُرْمُ: هو أعظمُ الذُّنوب، والذَّنْبُ: سُمّيَ بذلكَ؛ لأنَّ عقوبتَهُ تَعْقُبُ مَنْ أذنبَ، والسَّيِّئةُ: الفَعْلَةُ القبيحةُ، والوِزْرُ: هو في الأصلِ حَمْلُ شيءٍ ثقيل، واستُعمِلَ في المعاني، كحَمْلِ ما ثَقُلَ مِنَ الإثم(4).

وقد عُبِّرَ بالذَّنبِ هنا؛ لِما يدلُّ عليهِ من ترتُّبِ العقوبةِ عليه، ففي التَّعبيرِ به مناسبةٌ لمقامِ الحثِّ على التَّوبةِ، ومقامِ إزالةِ الخوفِ من تَبِعةِ العصيانِ.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 266.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 81.

(3) أبو موسى، محمد والزمر وعلاقتهما بآل حم، ص: 26.

(4) زيدان، الفروق اللغوية: 68 - 73.

### التَّوْبُ والإنابةُ والأَوْبُ:

الأَوْبُ: الرُّجوعُ إلى اللّهِ بطاعةٍ مِنَ الطّاعاتِ بعدَ كلِّ انشغالٍ عن الطّاعةِ، أو بعدَ كلِّ زلَّةٍ ومعصيةٍ، والتَّوْبُ: الرُّجوعُ إلى اللّهِ بعدَ معصيةٍ، والإنابةُ: الرُّجوعُ بقلبٍ مُنكسِرٍ[1]، أو يقالُ: التّائبُ يرجعُ مِن خوفِ العقوبةِ، والمنيبُ يرجعُ استحياءً لكرمِهِ تعالى[2].

وقد عُبِّرَ بالتَّوْبِ هنا؛ لمناسبته لعموم العصاةِ الَّذين يتركون العصيانَ خوفًا من العقوبة، ولا يُشترطُ أن يرجعوا بطاعةٍ.

(1) زيدان، الفروق اللغوية: 4 - 7.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 271.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤﴾ [غافر: 4]

ذِكرُ موقفِ المجادلينَ بعدَ تفخيمِ شأنِ القرآنِ

### مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا فخَّمَ ﷻ أمر القرآنِ بكونه نازلًا من ذي العظمة والجلال، المتَّصفِ بصفات الكمال؛ ذكرَ أحوالَ مَن يُجادلُ فيه لغرضِ إبطالِه، وإخفاءِ نورِه[1].

### شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُجَٰدِلُ﴾: (جدل) أصلٌ يدلُّ على استحكامِ الشَّيءِ في استرسالٍ يكونُ فيه[2]، وعلى امتدادِ الخصومةِ ومراجعةِ الكلامِ، ومِنْ ذلكَ: الجَدْوَلُ: نهرٌ صغيرٌ، وهو ممتدٌّ، وماؤُهُ أقوى في اجتماعِ أجزائِهِ مِنَ المُنبطِحِ السّائحِ[3]، ورجل جَدِلٌ مِجدالٌ، أي: خَصِمٌ مِخصام، والفعلُ جادلَ يُجادِلُ مُجادَلةً، وجَدَلْتُه جدلًا، مجزومٌ، فانجدلَ صريعًا، وأكثرُ ما يقال: جدَّلته تجديلًا، أي: صرعته[4]، وجَدَلَهُ وجَدَّله فانْجَدَلَ، وتَجَدَّلَ: صَرَعَهُ على الجَدالَةِ، وجَدَلَ جُدولًا، فهو جَدِلٌ، ككَتِفٍ وعَدْلٍ: صَلُبَ، والجَدَلُ محرَّكةً: اللَّدَدُ في الخصومَةِ، والقُدْرَةُ عليها[5]، والجَدالةُ: الأرضُ الصُّلْبَةُ[6]، والجِدالُ: المُفاوَضةُ على سبيلِ المُنازَعةِ والمُغالَبةِ، وأصلُهُ من جَدَلْتُ الحَبلَ، أي: أحكمتُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 485، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 552.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جدل)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (جدل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جدل).
(4) الخليل، العين: (جدل).
(5) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (جدل).
(6) الزبيدي، تاج العروس: (جدل).

فَتلَهُ، فكأنَّ المتجادلَين يَفتِلُ كلُّ واحدٍ الآخرَ عن رأيِهِ[1]، والمرادُ بالمجادلةِ هنا: شدَّةُ الخصومةِ في الباطلِ[2].

2) ﴿يَغْرُرْكَ﴾: (غرر) أصلٌ يدلُّ على النُّقصانِ، ومِن ذلك يقالُ: غارتِ النّاقةُ؛ إذا نقصَ لَبَنُها، والغِرارُ: النَّومُ القليلُ[3]، والغرُّ: الإطماعُ في أمرٍ محبوبٍ على نيَّةِ عدمِ وقوعِه، أو إظهارُ الأمرِ المُضِرِّ في صورةِ النّافعِ بالقولِ أو بتحسينِ صورةِ الأمرِ القبيحِ[4]، والمرادُ هنا: عدمُ الانخداعِ بأحوالِ الكافرينَ وما هم فيه مِن مباهجِ الدُّنيا الفانية.

3) ﴿تَقَلُّبُهُمْ﴾: (قلب) أصلٌ يدلُّ على ردِّ الشَّيءِ مِن جهةٍ إلى جهةٍ[5]، كقلبِ الثَّوبِ، وقلبِ الإنسانِ، أي: صرفِه عن طريقتِه، والانقلابُ: الانصرافُ، وتقليبُ الشَّيءِ: تغييرُهُ مِن حالٍ إلى حالٍ[6]، والتَّقلُّبُ: السَّعيُ في شؤونِ الحياةِ مِن متاجرةٍ ومعاملةٍ وسفرٍ ومحادثةٍ ومزاحمةٍ[7]، وهو المرادُ هنا[8].

4) ﴿ٱلْبِلَٰدِ﴾: (بلد) يقالُ: بَلَدَ بالمكانِ، أي: أقامَ بِه، فهو بالِدٌ[9]، والبَلَدُ: المكانُ المحدودُ المُتأثِّرُ باجتماعِ قُطّانِهِ وإقامتِهم فيه، أو هو كلُّ موضعٍ محدودٍ مِنَ الأرضِ، عامرٍ أو غيرِ عامرٍ، خالٍ أو مسكونٍ، والقِطعةُ منهُ: بَلْدَةٌ[10]، والمرادُ به في الآيةِ: تنعُّمُ الكافرينَ في الأماكنِ الَّتي يُقيمونَ بها، ويَرتادونَها.

### ۞ المَعنى الإجماليُّ:

الكفرةُ المُعرِضونَ عن الحقِّ مآلُهم الهلاكُ

يُخبِرُ اللّٰهُ تعالى عن حالِ المُعرِضينَ عن هدايةِ القرآنِ، فيقولُ: ما

---

(1) الراغب، المفردات: (جدل).
(2) المراغي، تفسير المراغي: 24/ 43.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غرر).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (غرر)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/ 205، 24/ 83.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).
(6) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (قلب).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 166.
(8) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 547.
(9) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (بلد).
(10) الخليل، العين، والزبيدي، تاج العروس: (بلد).

يخاصمُ في حُجَجِ اللّهِ وأدلَّتِهِ على وحدانيَّتِهِ بالإنكارِ لها بعد البيانِ وظهور البرهان إلّا الَّذينَ جحدوا توحيدَهُ، فلا يَخْدَعْكَ تصرُّفُهم في البلادِ وبقاؤُهم فيها مع كفرِهم بربِّهم، فتحسبَ أنَّهم على شيءٍ من الحقِّ؛ فإنّا لم نُمهِلْهم لذلكَ، ولكنْ ليبلُغَ الكتابُ أجلَهُ، ولتَحِقَّ عليهم كلمةُ عذابِ ربِّكَ(1).

## الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

الـجـدالُ شأنُ أهلِ الكفرِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عمّا سبقَهُ؛ لِما بينَهما مِن شِبْهِ كمال الاتِّصال؛ لأنَّ هذه الجملة استئناف بيانيٌّ؛ جوابًا عن سؤالٍ نشأ بعدَ وصفِ القرآن بأنَّهُ تنزيلٌ من اللّه العزيزِ العليم، مفادُهُ: فما بالُ هؤلاء المجادلينَ في صِدق نسبةِ القرآن إلى اللّه، لم تُقنِعْهم دلائلُ نزولِ القرآنِ من اللّه؟ فأُجيبَ بأنَّهُ ما يجادل في صدق القرآن إلّا الَّذينَ كفروا باللّه(2).

### دلالةُ الجملةِ الخبريَّةِ في الآية:

لا عـجـبَ مِـن مجادلةِ المشركينَ في الآياتِ

قولُه تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، دائرةٌ بينَ فائدةِ الخبر ولازمِ الفائدة، ولمّا حملَ ابنُ عاشور (الكفر) على الكفرِ باللّه ووحدانيَّته؛ فلا تكونُ فائدةُ الخبرِ مُرادةً؛ إذ مِن المعلوم أنَّ الَّذي يُجادِلُ بالآياتِ وصِدقِها هم الكافرونَ باللّه تعالى، فقرَّرَ أنْ يكون المرادُ به لازمَ الفائدة، والمرادُ: لا تعجَبْ من صدورِ الجدال بالآيات وصِدقِها منهم؛ فهُم قد كفروا باللّه، وأشركوا به، وذلك أعظمُ من الجدالِ بالآيات، أو أنَّ المرادَ بالكافرين الجميعُ من السّابقينَ والحاضرين، فيكونُ الجدالُ في الآيات من شأنِ أهلِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 352، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 117.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 81.

الكفر[1]، والذي يمكن أن يقال في توجيه الجملة: إنَّ الكفر في الآية لم يتعلَّق باللّه تعالى، فلا يبعدُ أنْ يكونَ المرادُ به مُطلقَ جَحْدِ الحقيقةِ الواضحةِ وتغطيتِها، ويكونَ المعنى: لا يتأتّى الجدالُ في صدقِ الآيات إلّا مِن جاحدٍ للحقِّ والحقيقة، ويكونَ في ذلك إشارةٌ إلى أنَّ مَن نظر في دلائلِ الآياتِ نظرةَ إنصافٍ ما وسِعَهُ إلّا الإيمانُ والتَّسليمُ.

**بلاغةُ القصرِ في الآية:**

لا يجادلُ في الحقِّ إلّا مطموسُ البصيرةِ

في قولِهِ تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قصرٌ بالنَّفي والاستثناء، وهو مِنْ قصرِ الصِّفة على الموصوفِ قصرًا حقيقيًّا؛ إذ التَّكذيبُ والجَدَلُ مقتصران على الجاحدينَ للحقيقةِ الرّافضينَ لها؛ لأنَّ من عادتِهم أنْ يقفوا بوجهِ الآياتِ والبراهينِ الواضحةِ موقفَ المُجادِلِ والمُخاصِمِ بكلِّ شدَّة؛ لِما ينبني على الإيمانِ بها من خساراتٍ ماديَّةٍ ومعنويَّةٍ بحسَبِ وهمِهم وظنِّهم.

**نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ:**

استمرارُ الكافرينَ على كفرِهم

عُبِّرَ بصيغة المضارع المنفيِّ في قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للتَّنبيه على استمرار انتفاء المجادلة عن غير الكافرينَ، ومآلُ الكلامِ إثباتُ استمرارِ الكافرين في مجادلتِهم في آياتِ اللّهِ، ورفضِهم لها كِبْرًا وعنادًا.

**بلاغةُ صيغةِ المفاعلةِ:**

كثرةُ مجادلة المشركينَ في آيات الله

عُبِّرَ بصيغةِ المفاعلة في قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المجادلةَ الواقعةَ من جانبِ الكافرينَ عظيمةٌ وكثيرةٌ، فصيغةُ المفاعلة هنا للمبالغة في الفعل من جانبٍ واحدٍ؛ لإفادة التَّكرُّر، مثل: سافر، وعافاه اللّه، وهم يتلوَّنونَ في الاختلاقِ، ويعاودون التَّكذيبَ بوصف الحقِّ بأساطير

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 82.

الأوَّلينَ، وبالشِّعرِ والكهانة، ونحو ذلك، وباقتراح الآيات على النَّبيِّ ﷺ[1].

### دلالةُ ﴿فِيٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

استعمالُ المشركينَ جميعَ وسائلِ الجدالِ الباطلِ

يدلُّ التَّعبيرُ بحرف الجرِّ ﴿فِيٓ﴾ المفيدِ للظَّرفيَّة المكانيَّة في قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ - وهي هنا ظرفيَّةٌ مجازيَّةٌ - على المبالغةِ في عمليَّة المُجادلة، حيث جعلوا آياتِ اللّه بمنزلةِ موضعٍ للمجادلة، بحيثُ لم يتركوا آيةً من الآيات إلّا وقد جادلوا فيها بجميع أصناف الجدال[2]؛ إظهارًا لشدَّةِ إعراضِهم وكُفرِهم بالحُجَجِ والبيِّنات، وفي التَّعبير بـ ﴿فِيٓ﴾ أيضًا تنبيهٌ على أنَّ المجادلة بالباطل؛ إذ المجادلةُ بالحقِّ تتعدَّى بـ (عن)[3].

### نكتةُ دخولِ الظَّرفيَّةِ على الآياتِ نفسِها:

شــدَّةُ شكيمةِ الكفّارِ في الجدلِ في الآياتِ

الحرفُ الدّالُّ على الظَّرفيَّةِ في قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ باشرَ الآياتِ أنفُسَها دونَ أحوالِها وخصائصِها، فالكفرةُ لا يُجادِلونَ في صفاتِ الآياتِ وأحوالِها العارضةِ لها، كصِدْقِها ووقوعِها وصنفِها، بل من شدَّةِ جدالِهم يكونُ جدالُهم في الآيات ذاتِها، فكانَ لدخولِه كما يذكر ابن عاشور: "عَلَى نَفسِ الآياتِ دونَ أحوالِها في قَوْلِه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وجُعِلَ مَجرورُ الحَرفِ نفسَ الآياتِ دونَ تَعْيين نَحو صِدقِها أو وقوعِها أو صِنفِها، فكانَ قَولُهُ: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جامعًا لِلجَدَلِ بأنواعِه ولِمُتَعَلِّقِ الجَدلِ باختلافِ أحوالِه"[4]، فهُم لا يتأمَّلون في الحقِّ أدنى تأمُّلٍ.

### نكتةُ إضافةِ الآياتِ إلى اسم الجلالةِ:

أُضيفَتِ الآياتُ إلى الاسمِ الجليلِ في قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 82.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 82.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 458.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 82.

حقُّ آياتِ اللهِ البيّناتِ الإيمانُ بها لا تكذيبُها

﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للدَّلالة على تشريفِها وتكريمِها، وتقبيحًا لحالِ المشركينَ؛ لأنَّ هذهِ الإضافةَ تعني أنَّها آياتٌ بيِّناتٌ، لا يداخلُها لَبْسٌ ولا فسادٌ ولا شُبهةٌ، وأنَّها حقٌّ مِنْ مَحْضِ الحقِّ، فيجب أنْ يتلقّاها مَنْ أُنزلَتْ لهُم بالقَبولِ والإذعانِ، وهذه الإضافةُ هي وجهُ مجيءِ الكلامِ على طريقِ القصرِ؛ لأنَّها مادامَت آياتِ اللّه؛ فلا يجادلُ فيها إلّا ضالٌّ[1].

## نكتةُ إظهارِ اسم الجلالةِ:

آياتُ العظيمِ عظيمةٌ

مقتضَى الظّاهر أن يقال: (ما يجادل في آياته)؛ لتقدُّمِ ذِكر اسم الجلالة، لكنْ عُدِلَ عن الإضمار إلى الإظهار في قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لتفظيعِ أمرِها بالصَّريح؛ لأنَّ ذِكر اسم الجلالةِ مُؤذِنٌ بتفظيعِ جدالِهم وكفرِهم، وللتَّصريحِ بزيادة التَّنويهِ بالقرآنِ[2].

## بلاغةُ الاستثناءِ في الآيةِ:

استثناءُ الكافرينَ تصويرٌ لشدَّة مُناقضتِهم الحقَّ

الاستثناءُ بـ ﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مفرَّغٌ؛ وذلك لحذفِ المستثنَى منه لفظًا، وإن كان المعنى: ما يُجادلُ في آيات اللّه أحدٌ إلّا الكفرة، وقد أفادَ حرفُ الاستثناء تمييزَ الكفرة وإخراجَهم من مجموعِ غيرِ المجادلينَ، والتَّسجيلَ عليهم بأنَّهم أهلُ جدالٍ في الآياتِ تكذيبًا ورَفْضًا ونَقْضًا.

## غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

الكفرُ أصلُ كلِّ خسيسةٍ

عُبِّرَ بالاسم الموصولِ في قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للتَّنبيهِ بما في حيِّز الصِّلة على سببِ جدالِ الكفرة الشَّديدِ، وهو كفرُهم الذي هو أصلُ كلِّ قبيحة، وللإيماء إلى أنَّهم معروفون بالصِّلةِ، مشهورٌ أمرُهم بها، كأنَّهم معروفون

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 27.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 7، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 81.

في النَّاس بهذه الخليقة الخسيسة، وليس في الخساسة أخسُّ من إخفاء الحقِّ وجحده[1].

**نكتةُ صيغةِ الماضي في ﴿كَفَرُواْ﴾:**

اختيرَتْ صيغةُ الماضي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للتَّنبيه على ممارستِهم الكفرَ، وتحقُّقِ وقوعِهِ منهم، ولذلكَ عُرِفوا به.

**معنى الفاءِ في: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ﴾:**

نعيمُ الدُّنيا ليسَ دليلًا على رِضا اللهِ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ للسَّببيَّة، فتفيد تسبُّبَ ما بعدها عمّا قبلها، أي: إذا علمتَ أنَّ هؤلاء كفرةٌ، خَسِروا الدُّنيا والآخرة؛ فلا تلتفتْ لاستدراجهم بتوسعةِ الرِّزق عليهم، وإمهالهم؛ فإنَّ عاقبتَهم الهلاكُ، كما فُعِلَ بمَنْ قبلَهم[2].

**بلاغةُ النَّهيِ في ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ﴾:**

النَّهيُ عامٌّ لكلِّ مَنْ يُتوقَّعُ منهُ الغرورُ

يجوزُ أن يكونَ المخاطَبُ بالنَّهي في قوله: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ غيرَ مُعيَّن، فيعمُّ كلَّ مَن شأنُهُ أن يغرَّهُ تقلُّبُ الَّذين كفروا في البلاد، وعلى هذا يكون النَّهيُ جاريًا على حقيقتِه، أي: موجَّهًا إلى مَنْ يُتوقَّعُ منه الغرورُ.

حزنُ النَّبيِّ ﷺ على كفرِ قومِهِ

ويجوزُ أن يكونَ الخطابُ موجَّهًا للنَّبيِّ ﷺ، وصيغةُ النَّهي تمثيليَّةٌ، بتمثيل حال النَّبيِّ ﷺ في استبطائِه عقابَ الكافرين بحال مَن غرَّهُ تقلُّبُهم في البلاد سالمين، والمعنى: لا يوهِمَنَّك تناولُهم مختلفَ النِّعَم واللَّذّات في حياتهم أنَّنا لا نعاقبُهم على جدالهم في آياتنا[3].

**نكتةُ التَّعبيرِ بالغرورِ:**

النَّهيُ عن الانخداعِ بظاهرِ أحوالِ الكافرينَ

أصلُ الغرورِ الانخداعُ بالظّاهر، والغفلةُ عن حقائق الأشياء، وقد عُبِّرَ به في قول الحقِّ ﷻ: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾؛ للمبالغة

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 28.
(2) الشهاب، عناية القاضي: 7/ 357.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 83.

في النَّهي عن الانخداع بما يظهرُ مِن أحوال الكفرة في تمتُّعِهم وعدمِ معاجلةِ اللّه لهم بالعقوباتِ على كفرِهم وتكذيبِهم.

### بلاغةُ الكنايةِ في التَّقلُّبِ:

تناولُ الكفرة كلَّ محبوبٍ ومرغوبٍ

التَّقلُّبُ في الأصل: اختلافُ الأحوال، واستُعمل في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ على سبيل الكناية؛ للتَّعبير عن تناولِ محبوبٍ ومرغوبٍ[1]، وذلك بذكر الملزوم، وهو التَّقلُّبُ في البلاد، وإرادةِ اللّازم، وهو التَّنعُّمُ بمباهجِ الحياةِ الدُّنيا؛ إذ يتنقَّلُ الكفرة في تجاراتِهم، ويربحونَ أموالًا طائلةً تكونُ سببًا للتَّمتُّعِ بالدُّنيا ونعيمِها.

### دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ التَّفعُّلِ:

انغماسُ الكفّارِ في النَّعيمِ الدُّنيويِّ

عُبِّرَ بصيغة التَّفعُّلِ في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾؛ لدلالةِ التَّقلُّب على حصول تنعُّم الكفرة بالنَّعيم الدُّنيوي على سبيلِ الكثرةِ، والانتقالِ من لونٍ من ألوان النَّعيم إلى آخر، كما تقول: زيدٌ يتقلَّبُ في النَّعيم، وكأنَّهُ يتمرَّغُ به، وفي ذلكَ تقبيحٌ لحالِهم.

### معنى ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾ الدّالِّ على الظَّرفيَّة المكانيَّة في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ على كمالِ تنعُّم الكفرة، وكثرةِ تنقُّلِهم في البلاد، حيث جعلوها ظرفًا لتقلُّبِهم.

### دلالةُ التعريفِ بـ(أل) في قوله: ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾:

الشّامُ واليمنُ متقلَّبُ كفّارِ قريشٍ

الظّاهرُ أنَّ تعريف ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ للعهد، والمرادُ بالبلاد: بلادُ الشّام واليمن، فإنَّ الآية في كفّار قريشٍ، وهم كانوا يتقلَّبون بالتِّجارة في هذه البلاد، ولهم رحلةُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 83.

الشِّتاء لليمن، ورحلةُ الصَّيف للشّام، ويحتمل أن يكون المرادُ ما يعمُّ ذلكَ وغيرَهُ[1]، ويحتملُ أن تكون البلادُ كنايةً عن الدُّنيا[2].

## الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### الجدالُ والحوارُ:

عنادُ المشركينَ وشدَّةُ خصومتِهم

يلتقي الحوارُ والجدال في كونِ كلٍّ منهما عبارة عن حديثٍ يدورُ بينَ طرفينِ؛ لكنَّ الحوار تكون غايتُهُ عادةً التَّوصُّلَ إلى الحقِّ بالأسلوبِ الهادئِ والثَّقافةِ العاليةِ، مع سلامةِ القصدِ والنّيَّة، وأمّا الجدالُ؛ فكثيرًا ما تكون غايتُهُ الدِّفاعَ عن الباطلِ، مع التَّعصُّب للرَّأي، ومع اللُّغة الانفعاليَّة.

وقد عُبِّر هنا بالجدال؛ لدلالته على خصومةِ المشركين، وشدَّةِ تمسُّكهم في الباطل، ومحاولتِهم مَحْوَ الآياتِ البيِّنات.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 298.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 83.

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥﴾ [غافر: 5]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ما حلَّ بمُكذِّبي الأمـمِ السّابقةِ درسٌ بليغٌ لكفّارِ مكّةَ

لمّا كان جدال الكفّار ناشئًا عن تكذيبِ ما جاء به الرَّسولُ ﷺ من آيات اللّه؛ ذكر مَنْ كذَّب قبلهم من الأمم السّالفة، وما صار إليه حالُهم من حلول العذابِ بهم؛ ليرتدع بهم كفّارُ مكّة ومن على شاكلتِهم[1].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡأَحۡزَابُ﴾: (حزب) أصلٌ يدلُّ على تجمُّعِ الشَّيءِ[2]، ومِن ذلكَ يقالُ: تحزَّبوا، أي: تجمَّعوا[3]، وحزَّبتُ أحزابًا: جمعتُهم[4]، والحزبُ: الجماعةُ المجتمعةُ على أمرٍ[5]، والمراد بالأحزابِ هنا: الأممُ الَّتي كانَتْ كلُّ أمَّةٍ منهُم متَّفقةً في الدّينِ، كعادٍ وثمودَ وغيرِهم[6].

2) ﴿وَهَمَّتۡ﴾: (همم) أصلٌ يدلُّ على ذَوْبٍ وجَرَيانٍ ودبيبٍ وما أشبهَ ذلكَ[7]، ومِنْ ذلكَ: الهمُّ، وهو الحُزنُ الَّذي يُذيبُ الإنسانَ، والهمُّ أيضًا: ما هَمَمْتَ بهِ في نفسِكَ لتفعلَهُ[8]، والمرادُ بهِ هنا: العزمُ[9].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 236.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حزب).
(3) الجوهري، الصحاح، والسمين، عمدة الحفاظ: (حزب).
(4) الخليل، العين: (حزب).
(5) الراغب، المفردات: (حزب).
(6) الزمخشري، الكشاف: 4/ 150، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 85.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (همم).
(8) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (همم).
(9) المراغي، تفسير المراغي: 24/ 43، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 85.

3) ﴿لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾: (أخذ) أصلٌ يدلُّ على حَوْزِ الشَّيءِ وتحصيلِه[1]، وذلكَ يكونُ تارةً بالتَّناولِ، نحوُ قولِه تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً يكونُ بالقَهْرِ، كقولِه تعالى: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: 255]، ويُعبَّرُ عن الأسيرِ بالأخيذِ والمأخوذِ[2]، ويُستعملُ الأخذُ بمعنى: التَّصرُّفِ في الشَّيءِ بالعقابِ والتَّعذيبِ والقتلِ، وهو المرادُ هنا[3].

4) ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: (بطل) أصلٌ يدلُّ على ذهابِ الشَّيءِ وقلَّةِ مُكْثِه[4]، ومِنْ ذلكَ: الباطلُ نقيضُ الحقِّ[5]، وهو الزّائلُ، وما لا ثباتَ لهُ عندَ الفحصِ عنهُ[6]، والإبطالُ يقالُ في إفسادِ الشَّيءِ وإزالتِه، حقًّا كانَ أو باطلًا[7]، والمرادُ بالباطلِ هنا: نقيضُ الحقِّ.

5) ﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾: (دحض) أصلٌ يدلُّ على زوالٍ وزَلَقٍ[8]، ومِنْ ذلكَ قولُهم: دَحَضَتْ رِجلُه، أي: زلقَتْ[9]، ودحضَتِ الشَّمسُ، أي: زالَتْ، ودحضَتْ حُجَّتُه: إذا لم تثبُتْ[10]، والمرادُ بالإدحاضِ هنا: إبطالُ الحُجَّةِ[11].

## المَعْنى الإجْماليُّ:

**مآلُ المتمتِّعينَ بالدُّنيا من المُكذِّبينَ العذابُ المُهينُ**

مثَّلَ اللهُ تعالى حالَ المُتنعِّمينَ بالدُّنيا الزّائلةِ بحالِ الأُمَمِ السّابقةِ، كقومِ نوحٍ ومَن جاءَ بعدَه من الأنبياءِ الَّذينَ كُذِّبوا، وتعرَّضوا للجدالِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).
(2) الراغب، المفردات: (أخذ).
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 151.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بطل).
(5) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح: (بطل).
(6) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (بطل).
(7) الزبيدي، تاج العروس: (بطل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دحض).
(9) الزمخشري، أساس البلاغة: (دحض).
(10) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (دحض).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 86.

من أقوامِهم بالباطلِ؛ ليُفسِدوا الحقَّ، ويَحْجُبوا الحقيقةَ، بل تآمروا عليهم بقتلِهم وإهلاكِهم، وكانوا مُتنعِّمينَ بمباهجِ الحياة ومتاعِها الزّائل، لكنَّهم بعد ذلك تعرَّضوا للعذابِ المُهين والعقابِ الشَّديد.

## ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

مَنْ عرفَ سنَّةَ اللهِ في المكذِّبينَ عرفَ سببَ النَّهيِ عن الغرورِ

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ عمّا قبله؛ لِما بينهما من شِبْهِ كمال الاتِّصال؛ لأنَّ هذه الجملةَ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ نشأ من قوله: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، وهو سؤالٌ عن سببِ النَّهي، فأُجيبَ ببيانِ أنَّ الأمم السّابقة قد كذَّبَتْ، وأصابَها العقابُ، فهؤلاء المتمتِّعونَ بنعيم الدُّنيا كذلك[1].

نهايةُ طريقِ المكذِّبينَ الهلاكُ

ويحتملُ أنْ يكونَ الفصلُ؛ لِما بينهما من كمال الاتِّصالِ، فجملةُ: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ وما بعدها بيانٌ لجملة: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ باعتبار التَّفريع الواقع عَقِبَ هاته الجمل، من قوله: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾، فالمعنى: سبقَتْهم أُمَمٌ بتكذيب الرُّسل، كما كذَّبوكَ، وجادلوا بالباطل رُسُلَهم، كما جادلكَ هؤلاء، فأخذتُهم، كذلك مثل هؤلاء في إمهالِهم إلى وقت أخذِهم[2].

### نكتةُ التَّعبير بالماضي في ﴿كَذَّبَتۡ﴾:

وقوعُ التَّكذيبِ السّابقِ ينفي الاستغرابَ عن الحالي

عبَّر النَّظمُ الكريم عن التَّكذيبِ بصيغةِ الفعلِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّق التَّكذيب ووقوعِه من الأُمَمِ السّابقة يقينًا، وفي ذلك تهوينٌ ورفعٌ للاستغرابِ عن تكذيبِ الأُمَمِ اللّاحقة.

### وجهُ تأنيثِ فعلِ ﴿كَذَّبَتۡ﴾:

أُنِّثَ فعلُ ﴿كَذَّبَتۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾، مع

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 8، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 12.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 84.

القومُ بتأويلِ الجماعةِ

أنَّهُ مسندٌ إلى مذكَّر، وهو ﴿قَوۡمُ﴾؛ لأنَّه اسمُ جمعٍ، ويجوزُ أنْ يُعامَلَ معاملةَ المؤنَّث بالنَّظر إلى معناه، وهو الجماعةُ والأمَّةُ من النّاس(1)، وللإشارة إلى ضعفِهم عن المقاومة، وتلاشيهم عند المصادمة، وإن كانوا في غاية القوَّة بالنِّسبة إلى أبناء جنسهم(2).

### سرُّ تركِ التَّعدية في قوله: ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾:

عِظَمُ تكذيبِ قومِ نوحٍ وقِدَمُ زمانِه

قيلَ: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾، ولم يقل: (مِنْ قبلِهم) بزيادةِ حرفِ الجرِّ؛ للتَّنبيهِ على البُعدِ بينَ قريشٍ وقومِ نوحٍ عليه السلام في الزَّمان، ولمّا كانَ تكذيبُهم عظيمًا، وكان زمانُهُ قديمًا، وما قبلَهُ من الزَّمان قليلًا بالنِّسبةِ إلى ما بعدَهُ، وطال البلاء بهم؛ جُعِلَ مستغرقًا بجميع الزَّمان، فقيلَ من غير خافضٍ: ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾، ولم يقل: (مِنْ قبلِهم).

### غرضُ تقديم ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾:

محطُّ الاهتمام ما يتعلَّقُ بالمكذِّبينَ السّابقينَ

قُدِّمَ الظَّرفُ ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾ على المسندِ إليهِ في قولِهِ تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾؛ للاهتمام بِهِ، وذلكَ أنَّ محطَّ التَّمثيل هو أحوالُ السّابقينَ الَّذينَ كذَّبوا مِثلَ تكذيبِ كفّار مكّة، فقُدِّمَ ما يدلُّ على أسبقيَّتِهم في الزَّمان.

### سرُّ البدءِ بذكرِ قومِ نوحٍ عليه السلام:

نوحٌ عليه السلام أوَّلُ رسولٍ مكذَّبٍ

بُدِئَ بقومِ نوحٍ عليه السلام في قولِهِ تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾؛ لأنَّهُ عليه السلام كان أوَّلَ رسولٍ في الأرضِ(3)، ولأنَّهُ طويلُ العُمُرِ في تكذيبِهم إيّاه تكذيبًا شديدًا(4)، وليتلاءمَ الكلامُ بذكر أوَّلِ من كُذِّبَ، وآخرِ من كُذِّبَ، وهو نبيُّنا صلى الله عليه وسلم(5).

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 293، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 611.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 8.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 236.
(4) أطفيش، تفسير أطفيش: 9/ 212.
(5) أبو موسى، آل حم، ص: 29.

**سرُّ التَّعبيرِ بالقومِ:**

**الاجتماعُ على التَّكذيب مِن أُسُسِ الأقوامِ**

لمّا كان النّاس على زمن نوحٍ ﷺ حزبًا واحدًا، مجتمعينَ على أمرٍ واحدٍ ولسانٍ جامع؛ وُحِّدوا في قوله تعالى: ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾، أي: وقد كانوا في غايةِ القوَّة والقدرة، وكانوا حزبًا واحدًا، لم يُفرِّقْهم شيءٌ(1).

**نكتةُ الإضافةِ في ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾:**

**تسويةُ حالِ النَّبيِّ ﷺ بحالِ الأنبياءِ أكملُ في التَّسليةِ**

أُضيفَ ﴿قَوۡمُ﴾ إلى ﴿نُوحٖ﴾ في قولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾؛ للدَّلالةِ على شدَّةِ الاتِّصال بينَهُ وبينَهم، ومع ذلك لم يستجيبوا له، بل كذَّبوهُ، وجادلوهُ، وشأنُ النَّبيِّ ﷺ مع عشيرته الأقربينَ كذلك.

**بلاغةُ عطفِ ﴿وَٱلۡأَحۡزَابُ﴾:**

**تكذيبُ المرسلينَ سنَّةُ الكفرةِ**

الواوُ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ عاطفةٌ، فتفيد التَّشريكَ في حُكم التَّكذيب بين قوم نوحٍ وبين مَنْ جاء بعدَهم مِن الأُمَم، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ الأنبياء السّابقين تعرَّضوا جميعًا للتَّكذيبِ من أقوامِهم والجماعاتِ التي أُرسِلوا فيها، ولا عَجَبَ في ذلك؛ فالتَّكذيبُ سنَّةُ الكفرة في كلِّ عصرٍ من العصور.

**نكتةُ تعريفِ (الأحزابِ):**

تعريفُ (الأحزاب) في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ للعهد؛ إذ المرادُ بهم: الَّذينَ تحزَّبوا على الرُّسُلِ، وناصبوهم العداءَ بعد قوم نوحٍ، مثل عادٍ وثمودَ وأضرابِهم(2).

**بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ (الأحزابِ) مجموعًا:**

**أهلُ الباطلِ فِرَقٌ مختلفةٌ**

عُبِّرَ بلفظ (الأحزاب) في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾؛ لِما يدلُّ عليه هذا اللَّفظُ مِنْ أنَّ كلَّ أمَّةٍ منهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 8.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 199.

قد اجتمعَتْ، وتحزَّبَتْ على مُعاداة نبيِّها والمؤمنينَ به، واختيرَتْ صيغةُ الجمع؛ لأنَّ النّاس من بعد قوم نوحٍ قد كثُروا، وفرَّقهم اختلافُ الألسنة والأديان، وللإجمال من الرَّوْع في بعض المواطن ما ليس للتَّفصيلِ[1]، ولأنَّ الكافرينَ لا يجمعُهم حزبٌ واحدٌ، بل هم أحزابٌ متعدِّدة، وأمّا المؤمنونَ الصّادقون؛ فهُم حزبٌ واحدٌ[2].

**نكتةُ التَّعبير بـ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾:**

قومُ نوحٍ كانوا حِزْبًا أيضًا

في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾، أي: مِن بعدِ قومِ نوحٍ، إشارةٌ إلى أنَّ قومَ نوحٍ كانوا حِزْبًا أيضًا، فكانوا يدينونَ بعبادة الأصنام: يَغوثَ، ويَعوقَ، ونَسْرٍ، ووَدٍّ، وسواعٍ، وكذلك كانَتْ كلُّ أمَّةٍ من الأُمَمِ الَّتي كذَّبَتِ الرُّسُلَ حِزْبًا متَّفقين في الدِّينِ[3].

**بلاغةُ حرفِ الجرِّ في ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾:**

يدلُّ التَّعبيرُ بحرف الابتداء ﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ على قُرْبِ زمان الكفر مِنْ إنجاء نوحٍ والمؤمنينَ معَهُ من الغرَقِ[4].

**براعةُ الطِّباقِ بينَ القبليَّةِ والبعديَّةِ:**

التَّكذيبُ للحقِّ مُستمِرٌّ

اشتملَ قولُهُ تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ على الطِّباقِ بينَ القبليَّة والبعديَّة؛ للدِّلالةِ على استمرارِ التَّكذيبِ للحقِّ قَبْلًا وبَعْدًا، وما على الدُّعاةِ إلى اللهِ إلّا الصَّبرُ على مَشاقِّ التَّبليغ، والعُكوفُ على الدَّعوة.

**نكتةُ العطفِ في قوله: ﴿وَهَمَّتۡ﴾:**

مِنْ خُلُقِ الظّالمينَ التَّكذيبُ والمكرُ بالدُّعاةِ إلى اللهِ

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾ على ما قبله؛ للدَّلالة على عدمِ اكتفائِهم بالتَّكذيب، بل ضمّوا إليهِ الهمَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 9.
(2) حبنكة، معارج التفكر: 12/ 321.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 83.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 9.

بالرُّسُلِ لإهلاكِهم وقتلِهم، والغرضُ مِن تفصيلِ تلك الأفعال الشَّنيعةِ زيادةُ التَّقبيح لحال المكذِّبينَ[1]، وتسليةُ النَّبيِّ ﷺ بأفعالِ أولئك الأقوامِ؛ ليقلَّ حزنُهُ على تكذيبِهم له، وإيذائِهم له ولأتباعه.

### سرُّ التَّعبير بالماضي في ﴿وَهَمَّتْ﴾:

عُبِّرَ بصيغة الماضي في قوله ﷺ: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّق همِّهم بالرُّسُلِ، وفي ذلك ملاءمةٌ لمقام تقبيح حالهم.

### بلاغةُ التَّعبيرِ بالهمِّ:

عُبِّرَ بالهمِّ في قوله تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ﴾؛ لدلالتِهِ على معنى الإرادةِ الجازمةِ، مع التَّدبيرِ للقتلِ والإهلاكِ، ومُباشرةِ الفعل والتَّحرُّكِ للتَّنفيذِ، والحقد والإصرار على الجريمة[2].

### نكتةُ الإضافةِ في ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾:

عادةُ الظّالمينَ قتلُ المصلِحينَ

عبَّرَ النَّظمُ بالمركَّبِ الإضافيِّ ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ المكوَّنِ من أداةِ العموم والاستغراقِ الكلّيِّ ﴿كُلُّ﴾ والنَّكرةِ ﴿أُمَّةٍ﴾؛ للدَّلالة على العموم والشُّمول لكلِّ أمَّةٍ من الأُمَمِ المكذِّبةِ، وأنَّ كلَّ واحدة منها قد همَّتْ بأخذِ نبيِّها بالقتل ووسائل الإجرام، كما هي عادةُ المجرمينَ الظّالمينَ الَّذينَ يقتلونَ المصلِحينَ.

معنى الباءِ في ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ﴾ للتَّعديةِ، وهي تدلُّ على تعليقِ فعلِ العزمِ والإرادةِ بالمُرسَلينَ إيذاءً وقتلًا وإهلاكًا.

التَّفصيلُ بعدَ الإجمالِ داعيةٌ إلى الإصغاءِ للكلامِ

### نكتةُ تعديةِ فعلِ الهَمِّ إلى الذَّواتِ:

الهمُّ: العزمُ، وحقُّهُ أنْ يُعدَّى بالباء إلى المعاني؛ لأنَّ العزم فعلٌ نفسانيٌّ، لا يتعلَّقُ إلّا بالمعاني، ولا يتعدَّى إلى الذَّوات، فإذا عُدّيَ إلى اسمِ ذاتٍ؛ تعيَّنَ تقديرُ معنًى من المعاني الَّتي تلابسُ الذّاتَ، يدلُّ عليها المقامُ، وقد يُذكَرُ بعد اسم الذّاتِ ما يدلُّ على المعنى الَّذي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 9.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 30.

يُهَمُّ بهِ، كما في قولِهِ هنا: ﴿لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾، فهو يفيد أنَّ الهمَّ المذكور في قوله: ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ﴾ هو الهمُّ بأخذِهِ، وارتكابُ هذا الأسلوب لقصد التَّفصيلِ بعد الإجمال[1].

**نكتةُ الإضافةِ في قوله: ﴿بِرَسُولِهِمۡ﴾:**

إضافةُ الرَّسولِ إلى الأمَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الرَّسولَ يكونُ من القوم وواحدًا منهم، فكان ينبغي الاحتفاءُ به والتَّعظيمُ لقَدْرِهِ، لا تكذيبُهُ والعزمُ على إيذائِهِ.

**نكتةُ التَّعبيرِ بالرَّسولِ دونَ النَّبيِّ:**

**الـرَّسـولُ حاملُ أمانةٍ إلى أمَّتِهِ**

عُبِّرَ بالرَّسولِ دونَ النَّبيِّ في قوله تعالى: ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهُ صاحبُ رسالةٍ، ومحمَّلٌ بأمانةٍ يجبُ عليه إيصالُها، وهم لم يتَّبِعوا الرِّسالةَ، بل نابذوهُ العداءَ، ونَسوا أنَّهُ رسولُ ربِّ العالمينَ.

**توجيهُ جمعِ الضَّميرِ في ﴿بِرَسُولِهِمۡ﴾:**

قيل: ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ﴾ بالجمع، ولم يقل: (برسولها) بالتَّأنيث؛ رعايةً لمعنى الأمَّة؛ لأنَّها أشخاصٌ متعدِّدون[2].

**نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾:**

**أخذُ الرُّسلِ غايةُ المكذِّبينَ**

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾؛ لأنَّ الأخذَ أمرٌ مستقبلٌ بالنِّسبة لهمِّهم؛ لأنَّهُ نتيجةٌ تترتَّبُ على عزمِهم وتصميمِهم، كما تدلُّ عليهِ لامُ التَّعليلِ المقترنةُ بالفعلِ، وما أقبحَ أنْ تكونَ غايةُ الأمَّةِ أخْذَ مُصلِحيها!

**بلاغةُ التَّعبيرِ بالأخذِ في قوله: ﴿لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾:**

**الأخذُ كنايةٌ عن القتلِ والتَّعذيبِ ونحوِ ذلكَ**

يحتملُ أنْ يكونَ الأخذُ في قوله تعالى: ﴿لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾ كنايةً عن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 85.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 547.

القتل والتَّعذيب[1]، أو عن التَّمكُّن من إيقاع ما يريدونه به؛ لأنَّ مَن أخذ شيئًا؛ تمكَّنَ من الفعل فيه[2].

ويحتملُ أنْ يكون الأخذ مجازًا بمعنى التَّصرُّفِ في الشَّيءِ بالعقاب والتَّعذيبِ والقتلِ ونحو ذلك من التَّنكيلِ، واختير هذا الفعلُ هنا ليشملَ مختلفَ ما همَّتْ به كلُّ أمَّةٍ برسولِها من قتلٍ أو غيرِه[3]، ولو قيل: ليقتلوهُ، أو ليطردوهُ، أو ليُعذِّبوه، أو قيل كلُّ ذلك؛ لم يكن وافيًا بما وفَتْ به كلمةُ: ﴿لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾[4].

### نكتةُ العطفِ في ﴿وَجَٰدَلُواْ﴾:

جمعُ المشركينَ لأصنافِ القبائحِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾؛ لعطف هذه الجملةِ على ما قبلها، وفائدةُ هذا العطف التَّنبيهُ على أنَّ الأُمَمَ السّابقة لم تكتفِ بالتَّكذيبِ والهمِّ بالأخذ، بل أضافَتْ إلى ذلك مجادلةَ الحقِّ بالباطل الَّذي لا قيمةَ له، وبهذا تحقَّقَ في أحوالِهم التَّكذيبُ القلبيُّ، والمعصيةُ الفعليَّةُ، والمعصيةُ القوليَّةُ، والمقصودُ من تعدادِ جرائم الأُمَمِ السّابقةِ: تنظيرُ حالِ المشركينَ بحالِ الأُمَم السّابقةِ؛ لينطبق الوعيدُ على حالهم أكملَ انطباقٍ في قوله: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾[5].

### مرجعُ الضَّميرِ في قوله: ﴿وَجَٰدَلُواْ﴾:

اتِّفاقُ المكذِّبينَ على المجادلةِ بالباطلِ

الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ عائدٌ على ﴿كُلُّ أُمَّةِۭ﴾[6]، ودلَّ الإسنادُ إلى ضمير الجماعةِ على أنَّ الجدال كان حالةً توافقيَّةً بين المكذِّبينَ، وقد صارت معهودةً عندهم، يُمارسونَها بكُلِّ جُرأةٍ وقوَّة، وفي التَّعبير بضمير الجماعة ملاءمة لقوله: ﴿لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾.

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 461.

(2) الشهاب، عناية القاضي: 7/ 357.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 85.

(4) أبو موسى، آل حم، ص: 30.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 86.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 86.

### نكتةُ الماضي في ﴿وَجَٰدَلُواْ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ جدالَ الأُمَمِ السّابقةِ أمرٌ قد تحقَّقَ وقوعُهُ منهم في الماضي، ولذلك استوجبوا العقابَ.

### بلاغةُ التَّعبيرِ بالمجادلةِ:

غرضُ المكذِّبينَ الانتصارُ على الخصمِ ولو بالكلامِ الباطلِ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ عن فعلِ المجابهةِ القوليَّةِ بمادَّةِ المجادلة في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾؛ للدَّلالة على الغِلظةِ في الحِوار، والشِّدَّةِ فيه، وأنَّ غايةَ المشركين من الجدالِ إبطالُ كلامِ الخصم من دونِ نظرٍ في الأدلَّة الواضحةِ البيِّنة الدّالَّةِ على صِدْقِ المتكلِّم، وهم يبذلونَ كلَّ جهدِهم في الخِصامِ.

### سرُّ حذفِ مفعولِ ﴿وَجَٰدَلُواْ﴾:

المكذِّبونَ يجادلونَ كلَّ مَنْ يتَّبعُ الحقَّ

حُذِفَ مفعولُ الفعل في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ مع أنَّ الظّاهر أنَّهم جادلوا رُسُلَهم؛ لأنَّ سياق الكلام دالٌّ على أنَّهم عجزوا عن الأخذ، فبذلوا جهدَهم في المغالبة بغيره، فحُذِفَ المفعولُ تعميمًا[1]، وكأنَّهم جادلوا في إثبات باطلهم كلَّ متَّبعٍ للحقِّ.

### معنى الباءِ في ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾:

جدالُ المكذِّبينَ ملتبِسٌ بالباطلِ

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ للملابسة، أي: جادلوا ملابسينَ للباطل الَّذي لا حقيقةَ له، فالمجرورُ في موضع الحال من الضَّمير، أو الباءُ للآلةِ، بتنزيل الباطلِ منزلةَ الآلة لجدالهم، فيكون الظَّرفُ لغوًا متعلِّقًا بـ ﴿وَجَٰدَلُواْ﴾[2].

### دلالةُ التَّعريفِ في قوله: ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾:

انغماسُ جدالِ المشركينَ بالباطلِ

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ الباطل في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ للجنس، والمراد التَّنبيهُ على أنَّ جدالهم مقترنٌ بالباطل، حتَّى كأنَّهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 9.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 86.

لا فردَ من أفراد الباطل إلّا وهو ملتبسٌ بجدالهم، وفي ذلك من تقبيح حالِهم ما لا يخفى.

### نكتةُ تقديمِ الهمِّ على المجادلةِ:

مَنْ عجزَ عن الأخذِ؛ لجأ إلى الجدالِ بالباطلِ

قُدِّمَ الهمُّ بأخذ الرُّسُلِ على مجادلتِهم بالباطل في قوله تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾، مع أنَّ الهمَّ بالقتلِ والإهلاكِ يكونُ في آخرِ المَطافِ عادةً؛ لأنَّ الرُّسُلَ لمّا عصمَهم اللّٰهُ منهم أن يقتلوهم؛ رجعوا إلى الجدالِ بالباطلِ[1]، ولأنَّ قصد الإهلاكِ أوَّلُ ما يريدُهُ العدوُّ، فإن عجز عنه؛ نزل إلى ما دونه[2].

### نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قوله: ﴿لِيُدْحِضُواْ﴾:

إدحاضُ الحقِّ غايةُ المجادلينَ بالباطلِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾؛ لأنَّ إدحاضَ الحقِّ أمرٌ مستقبلٌ بالنِّسبة للمجادلة بالباطل؛ لأنَّهُ نتيجةٌ تترتَّبُ على جدالهم بالباطلِ، كما تدلُّ عليهِ لامُ التَّعليلِ المقترنةُ بالفعلِ، وما أقبحَ أنْ تكونَ غايةُ المجادلِ إدحاضَ الحقِّ!

### بلاغةُ التَّعبيرِ بالإدحاضِ:

غايةُ المشركينَ إبعادُ الحقِّ عن ساحةِ الوجودِ

عُبِّرَ بالإدحاضِ في قوله تعالى: ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾؛ لأنَّهُ في الأصلِ بمعنى الإزلاقِ والإزالةِ والإذهابِ[3]، فيفيدُ أنَّ غايةَ المجادلينَ بالباطل إزالةُ الحقِّ ومَحْوُهُ، حتَّى يكونَ أثرًا بعدَ عَيْنٍ، وفي ذلكَ ما لا يخفى من الدِّلالة على شدَّة حِقْدِ المشركينَ المجادلينَ على الحقِّ، وأنَّهم يريدون إبعادَهُ عن ساحة الوجود.

### معنى الباءِ في قوله: ﴿بِهِ﴾:

الباءُ في قوله جلَّ ذكرُهُ: ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ للسَّببيَّة، والمعنى:

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 236.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 9.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 547.

ليُزيلوا بسبب إيراد تلك الشُّبهاتِ الحقَّ والصِّدْقَ[1]، وهذه الشُّبهات بمنزلة الآلة التي يستعملونها في إزالة الحقِّ.

المشركون مُفلِسون مِنَ الأدلَّةِ والبراهينِ

### غرضُ تقديمِ شبه الجملة ﴿بِهِ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ في قوله تعالى: ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾؛ لإفادةِ الحصرِ، فلم يكنْ للمشركين آلةٌ سوى الباطل لمحاربةِ الحقِّ وهَدْمِه، ولا عجبَ في ذلك؛ إذ المشركون مفلِسونَ من الأدلَّة والبراهين.

### نكتةُ التعريفِ بـ(أل) في قوله: ﴿ٱلۡحَقَّ﴾:

تعريفُ الحقِّ في قوله تعالى: ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ للجنسِ، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ المشركين لشدَّة كراهيتهم للحقِّ أرادوا إزالةَ جنسِهِ من الوجود؛ لأنَّهُ يُناقضُ رغباتِهم وشَهَواتِهم.

ضلالُ سَعْيِ مَنْ يعاندُ الحقَّ

### بلاغةُ التَّعبيرِ بالحقِّ:

عُبِّرَ بالحقِّ في قوله تعالى: ﴿لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾؛ لدلالة هذه الكلمة بحسَبِ الأصل على الثَّبات، وفيها إيماءٌ إلى ضلال سَعْيِ المشركينَ؛ لأنَّهم استندوا إلى الباطلِ والوَهمِ لدَحْضِ الحقِّ الثّابتِ المُتقرِّرِ بذاته[2].

### بلاغةُ الطِّباقِ بينَ الحقِّ والباطِل:

اشتمل قولُهُ تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ على فنِّ الطِّباق البديعيِّ، يرسم صراعٍ بين الحقِّ والباطل، يسعَى فيه الباطلُ إلى إزالة الحقِّ دون جَدْوَى.

سنَّةُ اللهِ تعقيبُ التَّكذيبِ بالعقابِ

### معنى الفاءِ في ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ تفريعيَّةٌ، تدلُّ على أنَّ الأخذَ والإهلاكَ تسبَّبَ عمّا سبق مِنَ التَّكذيبِ والهمِّ بأخذِ الرُّسُل والجدالِ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 486.

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 302.

بالباطل، من غير مهلة[1]، ويُفهَمُ من ذلك إنذارُ المشركين بأنَّ همَّهم بقتل الرَّسولِ ﷺ هو مُنتهَى أمَدُ الإمهال لهم، فإذا صمَّموا العزمَ على ذلك؛ أخذَهم اللّهُ، كما أخذ الأُمَمَ المكذِّبة قبلهم حين همَّتْ كلُّ أمَّةٍ برسولهم ليأخذوه؛ فإنَّ قريشًا لمّا همّوا بقتل الرَّسول ﷺ؛ أنجاه اللّه منهم بالهجرة، ثمَّ أمكنَهُ منهم يومَ بدرٍ[2].

### نكتةُ صيغةِ الماضي في ﴿فَأَخَذْتُهُمْۖ﴾:

جيءَ بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتُهُمْۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ أخْذَ اللّهِ تعالى لهم أمرٌ قد تحقَّق، ومضَى، وقد اشتهرَتْ أخبارُ إهلاك الظّالمينَ من الأُمَمِ السّابقة.

### نكتةُ الالتفاتِ عن الغيبةِ إلى الخطابِ:

صِغَرُ شأنِ المشركينَ أمامَ قدرةِ اللهِ

الظّاهرُ أن يُقال: (فأخذَهم)، لكنْ عُدِلَ عن الغيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتُهُمْۖ﴾؛ لأنَّهُ لمّا كان من المعلوم لكلِّ عاقلٍ أنَّ فاعل ذلك مغلوبٌ، وأنَّ فعله مسبِّب لغضب المرسِل عليه؛ صُرِفَ القولُ إلى المتكلِّم؛ دفعًا للإلباسِ، وإشارةً إلى شدَّة الغضب، وجُرِّدَ الكلام عن مظهر العظمة استصغارًا لهم، فلم يقل: (فأخذناهم)[3].

### بلاغةُ المجازِ في فعلِ الأخْذِ:

الجزاءُ مِن جنسِ العمَلِ

عبَّر النَّظمُ عن إهلاكِ القوم المُكذِّبين بالأخذِ في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، وهو إمّا استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ بتشبيهِ الإهلاكِ والإماتةِ بالأخذِ بجامعِ الإذهابِ والإفناءِ، أو كنايةٌ عن إلحاقِ العذابِ بهم وتخليصِ المُؤمنينَ والرُّسُل من مَكرِهم[4]، فكأنَّه تعالى يأخُذُهم لمحلٍّ آخَرَ يكونُ دارَ عذابٍ لهم بعدَ تمتُّعهم بمباهجِ الحياة التي أغاظتِ الرُّسُلَ منهم، ويوحي فعلُ الأخذِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 266.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 86.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 9.
(4) الشهاب، عناية القاضي: 7/ 357.

بالسَّيطرةِ والتَّسلُّط على الشَّيء المأخوذِ، فهو في محلِّ القُدرةِ يتصرَّفُ فيه إطلاقًا وأخْذًا، بقي أنَّ اختيارَ الإهلاكِ بفعلِ الأخْذِ من الجزاءِ بجنسِ العمَل؛ إذ همّوا بالرُّسُل ليَأخذوهم، ويَقتلوهم، فكانَ العقابُ موافِقًا لتدبيرِهم ومَكْرِهم، قال الزَّمخشري: "فأخذْتُهم يعني: أنَّهم قصدوا أخْذَه، فجعلت جزاءهم على إرادة أخْذِه أن أخذتهم"(1).

### معنى الفاءِ في ﴿فَكَيْفَ﴾:

مَــــنْ رأى العقابَ؛ تعجَّبَ مِنْ هَوْلِهِ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ تفريعيَّةٌ، تدلُّ على ترتُّبِ ما بعدَها على ما قبلَها؛ إذ نجمَ عن الأخذِ تعجيبٌ من شدَّةِ عِقابهم وعظيمِ عُقوبتِهم، وكأنَّ كلَّ مَن يرى هذا العقابَ يتعجَّبُ مِنْ هَوْلِه.

### بلاغةُ الاستفهامِ في قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾:

التَّعجيبُ مِن شــدَّةِ الـعـذابِ تحقيقٌ وتثبيتٌ لمضمون الكلامِ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ليس على حقيقتِه، فهو ليس استفهامًا عن كيفيَّة عقابهم(2)، بل هو مستعمَلٌ في التَّعجيب من حالة العقاب(3)، وذلك يقتضي أنَّ المخاطَبَ بالاستفهام قد شاهد ذلك الأخذَ، وإنَّما بُنِيَ ذلك على مشاهدة آثارِ ذلك الأخذِ في مرور الكثير على ديارِهم في الأسفار، وفي سماعِ الأخبار عن نزول العقاب بهم وتوصيفِهم، فنُزِّلَ جميعُ المخاطَبينَ منزلةَ مَن شاهد نزولَ العذاب بهم، ففي هذا الاستفهام تحقيقٌ وتثبيتٌ لمضمون جملة: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾.

تقريرُ المشركينَ بمصيرِ أسلافِهم

ويجوزُ أن يكونَ في هذا الاستفهام معنى التَّقرير؛ بناءً على أنَّ المقصود بقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ التَّعريضُ بتهديد المشركينَ من قريش، بتنبيههم على ما حلَّ بالأُمَم قبلَهم؛ لأنَّهم أمثالُهم في الإشراك والتَّكذيب، فلذلك يكون

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 151.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 236.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 547.

الاستفهامُ عمّا حلّ بنُظَرائِهم تقريريًّا لهم بذلك[1]، أي: حملًا لهم على الإقرار بذلك.

**نكتةُ التَّعبير بـ ﴿كَانَ﴾:**

كيفيَّةُ وقوعِ العقابِ مَناطُ التَّعجيبِ أو التَّقرير

أُدخِلَ لفظُ ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾؛ للدَّلالةِ على ثبوتِ العقابِ في الزَّمنِ الماضي، وتحقُّقِه ووقوعِه، فلم يكن الاستفهامُ الدّالُّ على التَّقريرِ أو التَّعجيبِ من العِقاب نفسِه، وإنَّما من كيفيَّةِ وقوعِ ذلك العقابِ وثبوتِه لهم، وكأنَّ العقابَ أمرٌ مفروغٌ منه، والَّذي هو مدارُ التَّعجيبِ أو التَّقريرِ هو كيفيَّةُ حدوثِ العقاب.

## ۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

**الأخذُ والتَّدميرُ والإهلاكُ والإذهابُ:**

الجزاءُ مِن جنسِ العملِ

الأخذُ يُستعارُ للاستئصالِ والإفناءِ، والتَّدميرُ: إدخالُ الهلاكِ على الشَّيءِ[2]، والإهلاكُ: الاستئصالُ والإفناءُ[3]، فيكونُ أشدَّ مِنَ التَّدميرِ، والإذهابُ: المُضيُّ بالشَّيءِ[4].

وقد عبَّرَ النَّظمُ عن إهلاكِ القومِ المُكذِّبينَ بالأخذِ في قولهِ تعالى: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ﴾؛ لما فيه من البلاغة، فهو إمّا استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ بتشبيهِ الإهلاكِ بالأخذِ بجامعِ الإذهابِ والإفناءِ، أو كنايةٌ عن إلحاقِ العذابِ بهم وتخليصِ المؤمنينَ والرُّسُل من مَكرِهم؛ لأنَّ مَن أُخِذَ فُعِلَ به ما يشاء الآخِذُ[5]، وفي التَّعبير بالأخذ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ اللّه جازاهم بمِثلِ صنيعِهم، فهُم قد همّوا بالرُّسُل ليأخذوهُم، ويقتلوهُم، فكان العقابُ موافقًا لتدبيرِهم ومَكْرِهم[6]، وكذلك كلمةُ:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 87.
(2) الراغب، المفردات: (دمر).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 113.
(4) الراغب، المفردات: (ذهب).
(5) الشهاب، عناية القاضي: 7/ 357.
(6) الزمخشري، الكشاف: 4/ 151، وأبو موسى، آل حم، ص: 31.

﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ كلمةٌ جامعةٌ لمعانٍ كثيرة جدًّا؛ لأنَّها تعني: إغراقَ قوم نوحٍ، وتعني: الرّيحَ الصَّرصرَ الَّتي أهلكَتْ عادًا، والصَّيحةَ الَّتي أهلكَتْ ثمودَ، وما كان لقُرى قوم لوطٍ وأصحاب الأيكة، وفلْقِ البحر، فكان كالطَّوْدِ العظيم، ثمَّ غَشيَهم من اليَمِّ ما غَشيَهم[1].

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 13.

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٦﴾ [غافر: 6]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ذِكرُ العقابِ الأُخرويِّ بعد ذكرِ العقابِ الدُّنيويِّ

لمّا ذكرَ اللّه تعالى الأقوامَ الَّتي كذَّبتْ قبلَ قريشٍ من قومِ نوحٍ والأحزابِ مِن بعدِهم رُسُلَهم الَّذين دَعَوهم إلى نبذِ الأوثان، وحاولَ كلٌّ منهم حبسَ رسولِهم ليقتلوه، وهمّوا بذلك، وخاصَموا بالباطلِ منَ القولِ؛ ليَقضوا به على الحقِّ، فأهلكتُهُم، واستأصلتُهُم، وذكر أفعالَهم القبيحةَ، وعاقبتَها الشَّنيعةَ؛ ذُكِرَ على سبيل التَّهديد لقريش أنَّهُ حكم على الكفرة بالعذاب والنّارِ[1].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَلِمَتُ﴾: (كلم) أصلٌ يدلُّ على نُطْقٍ مُفهِمٍ[2]، ومِن ذلكَ يقالُ: كلَّمَهُ تكليمًا، أي: حدَّثَهُ، والكَلِمةُ: اللَّفظةُ الواحدةُ، وفي اصطلاحِ النَّحويّينَ: لفظٌ وُضِعَ لمعنًى مُفْرَدٍ، ومِنَ المجازِ إطلاقُ الكَلِمةِ على القصيدةِ بطولِها[3]، والمرادُ بكلمةِ اللّهِ هنا: الحكمُ بالإهلاكِ[4]، أو كلماتُ الوعيدِ؛ إذا لم يُقلِعوا عن كفرِهم[5].

2) ﴿أَصۡحَٰبُ﴾: (صحب) أصلٌ يدلُّ على مقارنةِ شيءٍ ومقاربتِه[6]، ومِن ذلكَ: الصّاحبُ، وهو الذي يقارنك، ويلازمك، يجمعُ بالصَّحب والصُّحبانِ والصُّحْبة والصِّحاب، والأصحابُ: جماعةُ الصَّحْبِ[7]، والمرادُ بأصحابِ النّار: مُلازِموها وقُرَناؤُها.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 486، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 612.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كلم).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (كلم).
(4) المراغي، تفسير المراغي: 24/ 43.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 88.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صحب).
(7) الخليل، العين: (صحب).

## ۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن عاقبةِ كفّارِ قريشٍ، فيقول: كما حقَّ على الأُمَم المكذِّبةِ عذابي، وحلَّ بها عقابي، كذلك وجبَتْ كلمةُ ربِّكَ على الكفرةِ مِن قومِك الَّذينَ يكذِّبونَ، ويجادلونَ في آيات اللّه(1).

الاتِّحادُ في السَّببِ يوجِبُ اتِّحادَ المصيرِ

## ۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### بلاغةُ عطفِ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ لعطفِ هذه الجملةِ على جملة: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾(2)؛ بناءً على جوازِ عطفِ الإخبارِ على الإنشاءِ، أو لعطفِ هذه الجملة على مجموع قوله: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾، وأيًّا ما كانَ؛ ففي هذا العطف تأكيدٌ لِما يُفهَمُ من الكلام السّابق من اتِّحادِ مصيرِ الكفرة.

اتِّحادُ مصيرِ الكفرة في الآخرة

ويحتملُ أنْ تكونَ الواوُ للاستئنافِ؛ لبيان حالهم في الآخرة، وإلحاقِهِ ببيان حالِهم في الدُّنيا(3).

### بلاغةُ التَّشبيهِ في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

الكافُ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ للتَّشبيهِ، والتَّشبيهُ واقعٌ في حالتهم، والوجهُ الجامعُ للطَّرفينِ إيجابُ العذاب، يعني: كما وجبَ عليهم عذابُ الاستئصال في الدُّنيا لأجل الكفر، كذلك وجبَ عليهم عذابُ النّارِ في الآخرة.

الكفرةُ مجموعٌ لهم بينَ عذابِ الدُّنيا وعذابِ الآخرة

أو التَّشبيهُ واقع بين حالتَي أولئك الكفرةِ وهؤلاء الحاضرينَ، والوجهُ الجامعُ قوله: ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، والمعنى: كما وجب إهلاكُ أولئك الأُمَم، كذلك وجب إهلاكُ هؤلاء؛ لأنَّهم تجمعُهم علَّة واحدة، وهي أنَّهم من أصحاب النّار(4).

كفّارُ مكَّةَ على خُطا أسلافِهم المُهلَكينَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 354، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 302.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 87.
(3) أبو موسى، آل حم، ص: 33.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 151، والطيبي، فتوح الغيب: 13/ 462.

### دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ البعيدِ:

تفخيمُ شأنِ الأخذِ أو الوجوبِ

يحتملُ أنْ يكون المشارُ إليه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ المصدرَ المأخوذ من قوله: ﴿حَقَّتۡ﴾، والمعنى: ومثلَ ذلكَ الحقِّ حقَّتْ كلمةُ ربِّك، وهو يفيدُ أنَّ المشبَّهَ بلغ الغايةَ في وجه الشَّبه، حتَّى لو أراد أحدٌ أن يُشبِّهَهُ لم يُشبِّهْهُ إلّا بنفسه، ويحتملُ أن يكون المشارُ إليه الأخذَ المأخوذَ من قوله: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ﴾، أي: ومثلَ ذلكَ الأخذِ الَّذي أخذ اللّهُ به قومَ نوحٍ والأحزابَ مِنْ بعدِهم حقَّتْ كلمةُ اللّه على الَّذينَ كفروا[1].

### نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿حَقَّتۡ﴾:

عبَّر النَّظمُ بالفعلِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ للدَّلالةِ على ثبوتِ الحكمِ الإلهيِّ عليهم بالنّار، وأنَّ ذلك أمرٌ مفروغٌ منه، إلّا مَنْ شاء اللّه تعالى له الهدايةَ بعد ذلك.

### بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿حَقَّتۡ﴾:

استحقاقُ المشركينَ للعذابِ

في اختيارِ الحقِّ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ - الدّالِّ على الأمرِ الواجبِ الثّابتِ، الَّذي له أساسٌ صحيحٌ وغرضٌ مستقيمٌ - دلالةٌ على أنَّ الحُكمَ عليهم بالعذاب أمرٌ ثابتٌ، يستحقّونَهُ؛ إن لم يتوبوا.

### بلاغةُ تعدُّدِ القراءاتِ في ﴿كَلِمَتُ﴾:

قرأ الجمهورُ: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بالإفراد، وقرأ نافعٌ وابنُ عامر وأبو جعفر: ﴿كَلِمَٰتُ رَبِّكَ﴾ بالجمع[2]، والإفرادُ للجنسِ[3]، فيكون مساويًا للجمع[4]، "بقرينَةِ أنَّ الضَّميرَ المجرورَ بـ (عَلى) تَعَلَّقَ بِفعلِ حَقَّتْ، وهوَ ضَميرُ جمعٍ، فلا جَرمَ أنْ تَكونَ الكلمَةُ جنسًا صادقًا بالمتعدِّدِ بِحسَبِ تعدُّدِ أزْمانِ كَلماتِ الوعيدِ وتَعَدُّدِ الأُمَمِ المتوعَّدة".

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 87.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 262.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 547.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 88.

### دلالةُ الإضافةِ في ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾:

أُضيفَتِ الكلمةُ إلى الرَّبِّ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّها كلمةٌ عظيمةُ الشَّأن، فهي صادرةٌ من الرَّبِّ العظيم المُتصرِّفِ بالعالَم، وفي ذلك تقويةٌ لوجوبها وثبوتها.

### نكتةُ التَّعبيرِ بالرَّبِّ مضافًا إلى ضميرِ المُخاطَبِ:

كمالُ الرِّفقِ والمحبَّةِ الإلهيَّةِ للنَّبيِّ ﷺ

عُبِّرَ بلفظِ الرَّبِّ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ لدلالتِهِ بحسَبِ أصلِهِ اللُّغويِّ على الإحسانِ والتَّربيةِ والرِّفقِ والإنعام، وفي إضافته إلى ضمير المخاطَبِ تلطُّفٌ بالنَّبيِّ ﷺ[1]، أي: حقَّتْ كلمةُ المُحسِنِ إليكَ بجميعِ أنواعِ الإحسانِ، فهو لا يدعُ أعداءَك[2]، وفيها أيضًا إشعارٌ بأنَّ وجوبَ كلمةِ العذاب عليهم من أحكام تربيتِهِ تعالى، الَّتي مِن جملتها نُصرتُهُ ﷺ، وتعذيبُ أعدائِه، وذلك إنَّما يتحقَّق بكون الموصول عبارةً عن كفّار قومه، لا عن الأُمَمِ المُهلَكةِ[3].

### سرُّ الالتفاتِ مِنَ التَّكلُّمِ إلى الخطاب:

الخطابُ يستدعي التَّشريفَ بعِزِّ الحضورِ

الظّاهر أن يقال: (كلمتي)، لكن عُدِلَ عن التَّكلُّم إلى الخطاب في قولِهِ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ لأنَّ السّياقَ للتَّشريف والتَّكريم، والخطابُ أنسبُ به؛ لِما فيه من شرفِ الحضورِ وعِزِّهِ، وليتأتّى التَّعبيرُ بلفظ الرُّبوبيَّةِ المضاف إلى ضمير المخاطَبِ، وفي ذلك ما تقدَّم مِنَ النُّكتِ البديعةِ.

### نكتةُ تعديةِ ﴿حَقَّتۡ﴾ بـ ﴿عَلَى﴾:

الوعيدُ مُتمكِّنٌ ومُستعلٍ على الظّالمِينَ

في تعديةِ الفعلِ ﴿حَقَّتۡ﴾ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ دلالةٌ على أنَّ وجوبَ الموعود به - وهو نزولُ العذاب - عليهم لا لهم؛ لأنَّ ﴿عَلَى﴾ تُستعمل

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 14.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 10.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 266.

في الضَّرر، وفيها أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ الوعيد مُستعلٍ عليهم، ومُتمكِّنٌ منهم تمكُّنَ المُستعلي مِنَ المُستعلَى عليه، فهو لا يتخلَّف.

### غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

الكفرُ علَّةُ استحقاقِ العذابِ

عبَّر النَّظمُ بالموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ للدَّلالةِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ على علَّةِ استحقاقِهم حلولَ العذابِ بهم، وهو كفرُهم[1]، ولأنَّ السّياقَ للمجادلة بالباطل، وهي صرف الخصم من اعتقاده الحق، وذلكَ تغطيةٌ للدَّليل الحقِّ، وتلبيسٌ عليه، فكانَ الحالُ أحقَّ بالتَّعبيرِ بالكفرِ الَّذي معناهُ التَّغطيةُ[2].

### نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿كَفَرُوٓاْ﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ عزَّ مِن قائلٍ: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ للتَّنبيهِ على تحقُّقِ الكفرِ الَّذي هو مَناطُ العذابِ، وتيقُّنِهِ، وأنَّهُ أمرٌ ثابتٌ، لا شكَّ فيهِ ولا ارتيابَ.

### سرُّ حذفِ مُتعلِّقِ ﴿كَفَرُوٓاْ﴾:

الكفرةُ مُنكِرونَ لكلِّ الحقائقِ

قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، تقديرُهُ: كفروا بكَ[3]، وقد حُذِفَ المتعلِّقُ إيجازًا، وإظهارًا؛ لكونهم من شأنِهم الكفرُ بكلِّ ما يُكفَرُ بِهِ من الحقائقِ، وهذا إذا كانَ المرادُ بهم كفّارَ قريشٍ، أمّا إذا كانَ المرادُ بهم عمومَ الكفرةِ؛ فالتَّقديرُ: كفروا بالأنبياء، والحذفُ لإظهارِ ما سبق.

### نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

عُبِّرَ بالمصدر المؤول بـ (أنَّ) في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ لتأكيدِ الحُكمِ على الكفرة بأنَّهم أصحابُ النّار، وفي ذلك تقويةٌ لوعيد المشركينَ، ولتسليةِ النَّبيِّ ﷺ والمؤمنينَ.

---

(1) الشهاب، عناية القاضي: 7/ 357.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 10.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 266.

### بلاغةُ موقعِ ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ مِنْ حيثُ الإعرابُ:

كلمةُ اللهِ مُقرَّرةٌ مُؤكَّدةٌ

إذا كان المرادُ بالَّذينَ كفروا في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ الكفرةَ من الأُمَم السّابقة، فـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ مُظهَر وُضِعَ موضعَ المُضمَرِ للتَّعليلِ، فلم يحتجْ إلى تعليلٍ آخر، و﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ بدلٌ مِنْ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ للتَّقريرِ والتَّوكيدِ.

الكفرُ علّةٌ جامعةٌ لجميعِ الكفّارِ

وإذا كان المرادُ بهم كفرةَ قريش، فـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ تعليلٌ يُبيِّنُ وجهَ تشبيهِ حالة هؤلاء بحالة أولئك، فيكونُ في محلِّ النَّصبِ بحذف حرف التَّعليل، ويحتمل أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ عامًّا متناولًا للمذكورينَ وغيرِهم، و﴿أَنَّهُمۡ﴾ تعليلٌ أو بدلٌ[1].

### بلاغةُ الإضافةِ في قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾:

إضافةُ الأصحابِ إلى النّار في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ للدَّلالةِ على شدَّةِ ملازمة الكفرةِ للنّار، حتَّى توطَّدتْ بينَهم وبينَها صحبةٌ دائمةٌ، فهُم ملازمون لها، لا يفارقونَها[2].

### نكتةُ التعريفِ بـ(أل) في قوله: ﴿ٱلنَّارِ﴾:

نارُ الآخرةِ مآلُ الكفرةِ

تعريفُ النّار في قولِه تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ للعهد؛ إذ المرادُ بها نارٌ مخصوصة، وهي نارُ الآخرة، أو للجنسِ الدّالِّ على أنَّها نارٌ متَّصفةٌ بالكمالِ، ليسَتْ كالنّارِ المعهودةِ في الدُّنيا؛ إذ ليس بينَهما تشابهٌ إلّا في أصل الإحراق، فكأنَّ نار الآخرة هي المُستحِقَّةُ لهذا الاسم دون غيرها.

## ❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### النّارُ والجحيمُ والسَّعيرُ وجهنَّمُ:

النّارُ في الأصل اسمُ جنسٍ تُطلَقُ على نارِ الدُّنيا ونارِ الآخرة، وأمّا

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 151، والطيبي، فتوح الغيب: 13/ 462.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 266.

(جهنَّمُ)؛ فهي اسمُ علَمٍ على النّار المخصوصةِ المعيَّنة، وتُطلَقُ على النّار مع ملاحظةِ وصفٍ، وهو بُعْدُ قَعْرِها، وأمّا الجحيمُ؛ فوصفٌ للنّار، يُطلَقُ عليها باعتبارِ شدَّةِ اللهبِ والإحراقِ، وكذلك السَّعيرُ، ولهذا يقالُ: فلانٌ مُسعِرٌ حربًا، كأنَّهُ يُشعِلُها، ويُلهِبُها[1].

جهنَّمُ اسمُ علَمٍ، والنّارُ اسمُ جنسٍ، والجحيمُ والسَّعيرُ وصفانِ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 311.

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾ [غافر: 7]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

في مناسبة الآية لِما قبلها وجهان؛ **أحدهما**: لمّا بيَّن تعالى أنَّ الكفّار يبالغون في إظهار العداوة مع المؤمنين؛ بيَّنَ أنَّ أشرف طبقات المخلوقات هم الملائكةُ الَّذينَ هم حَمَلَةُ العرشِ والحافّونَ حولَهُ يبالغونَ في إظهارِ المحبَّةِ والنُّصرةِ للمؤمنينَ[1].

**والآخر**: لمّا ذكرَ سبحانَهُ جدالَ الكفّارِ في آياتِ اللّه وعصيانَهم؛ ذكر طاعة حَمَلَةِ العرش والحافّينَ به من الملائكة[2].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسِعۡتَ﴾: (وسع) أصلٌ يدلُّ على خلاف الضّيقِ والعُسْرِ، ومِنْ ذلك: السَّعَةُ، وهي ضدُّ الضّيق[3]، والوُسْعُ، وهو الغِنى، والجِدَّةُ والطّاقةُ، وأوسعَ الرَّجلُ؛ إذا صارَ ذا سَعَةٍ وغِنًى[4]، والمرادُ بالسَّعةِ في الآية: الشُّمول.

2) ﴿سَبِيلَكَ﴾: (سبل) أصلٌ يدلُّ على امتدادِ شيءٍ[5]، ومن ذلك: السَّبيلُ، وهو الطَّريقُ، سُمّيَ بذلك لامتداده، والسّابلةُ: المختلفةُ في السُّبُلِ جائيةً وذاهبةً، وسُمّيَ السُّنبلُ سُنبلًا لامتدادِه، يقال: أسبلَ الزَّرعُ؛ إذا خرجَ سُنبلُهُ[6]، والمرادُ بالسَّبيل هنا: طريقُ اللّه تعالى، وهو الإسلامُ.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 487، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 11.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 237.
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (وسع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (وسع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).
(6) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (سبل).

## ۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

شَفَقَةُ الملائكةِ بالتّائبينَ إحسانٌ إلهيٌّ مُبينٌ

يُخبِرُ اللّه تعالى عن حال الملائكة الطّائعينَ الَّذين يحملونَ العرشَ ومَنْ حولَهُ بأنَّهم لا ينفكّونَ عن تسبيحِ اللّه تعالى وتنزيهِهِ عمّا يقولُهُ الكافرونَ، مع الحمدِ له تعالى والثَّناءِ عليه والإيمانِ به، وهم يطلبونَ منه غُفرانَ سيِّئاتِ المؤمنينَ، وقبولَ توبةِ التّائبينَ الَّذينَ سَلكوا طريقَهُ، ويطلبونَ منه أيضًا أنْ يصرفَ عنهم عذابَ الجحيم[1].

## ۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

ذِكرُ الثَّناء على المؤمنين بعد ذكرِ وعيدِ المشركينَ

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتُقِلَ فيه مِن ذكرِ الوعيد المُؤذِنِ بذمِّ الَّذينَ كفروا إلى ذكرِ الثَّناء على المؤمنين؛ فإنَّ الكلام الجاريَ على ألسنة الملائكة مِثلُ الكلامِ الجاري على ألسنةِ الرُّسُلِ؛ إذ الجميعُ من وحيِ اللّه، والمناسبةُ المضادَّةُ بينَ الحالَينِ والمقالين[2].

تسليةُ النَّبيِّ ﷺ

أو هو استئنافٌ مَسوقٌ لتسليةِ رسولِ اللّه ﷺ، ببيان أنَّ الملائكة الَّذين هم في المحلِّ الأعلى مثابرونَ على ولاية مَن معه من المؤمنين ونُصرتِهم واستدعاءِ ما يُسعِدُهم في الدّارين[3].

بيانُ حالِ غيرِ المجادلينَ بالباطلِ

ويجوز أن يكون استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن وعيد المجادلينَ في آيات اللّه، وذلك بأنْ يسألَ سائلٌ عن حال الَّذينَ لا يجادلون في آياتِ اللّه، بل يؤمنون بها[4].

### غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

تشريفُ حَمَلَةِ العرشِ من الملائكةِ

عبَّر النَّظمُ بالاسمِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 354، والمراغي، تفسير المراغي: 24/ 47.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 89.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 300.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 89.

﴿ٱلۡعَرۡشَ﴾؛ للدَّلالةِ بما في حيِّزِ الصِّلة على شرفِ هذه الطَّائفةِ من الملائكة؛ إذ هي مختصَّةٌ بحَمْلِ العَرْشِ الَّذي هو أعظمُ المخلوقات، وهذه الدَّلالةُ لا تُستفادُ من التَّعبير بلفظِ الملائكة.

**نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قوله: ﴿يَحۡمِلُونَ﴾:**

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بصيغة المُضارعِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الحملَ واقعٌ على سبيلِ التَّجدُّدِ والاستمرار.

**نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلۡعَرۡشَ﴾:**

تشريفُ الملائكةِ بحملِ عرشِ الرَّحمنِ

تعريفُ ﴿ٱلۡعَرۡشَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ للعهدِ العلميِّ؛ لأنَّ العرشَ في الأصلِ يدلُّ على سريرِ المَلِك والبناءِ العالي والسَّقفِ المرتفع ونحوِ ذلك، ثمَّ صارَ علَمًا على عرشِ اللّهِ ﷻ على الاختلافِ في المرادِ بِه، فإذا أُطلِقَ في القرآنِ؛ فلا يتبادرُ الذِّهنُ إلى غيرِه.

**بلاغةُ عطفِ: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾:**

ذِكرُ صنفٍ آخرَ مِن الملائكةِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾؛ لعطفِ الاسم الموصول على الموصول الأوَّل في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾، فيدلُّ على جنسٍ آخرَ من الملائكةِ، وهم الَّذينَ يطوفونَ بالعرشِ مُهلِّلينَ مُكبِّرينَ[1]؛ إظهارًا لتعظيم الخالقِ الجليلِ الَّذي خلقَهُ[2].

**غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:**

الإبهامُ يوحي بالفخامةِ والجلالةِ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالموصولِ وصلته في قوله: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾؛ لبيانِ شرفِ المذكورينَ الَّذينَ أُبهِموا في الاسم الموصول، ثمَّ فُسِّروا بالصِّلة تفسيرًا يكشفُ عن مدحِهم والثَّناءِ عليهم بأنَّهم من حولِ العرشِ المعظَّم، وفي إبهامِهم ما يُشعِرُ بكثرةٍ لا يُحيطُ بها عقلٌ، ولا يُحصيها عدٌّ.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 553.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 89.

### دلالةُ التَّعبيرِ بالأفعالِ المضارعةِ:

أذكــارُ الملائكـةِ دائمةٌ مُستمِرَّةٌ

عُبِّرَ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾؛ للتَّنبيه على تجدُّدِ وقوعِ التَّسبيحِ والإيمانِ والاستغفارِ منهم، واستمرارِهِ وتكرُّرِهِ، كما أنَّ حَمۡلَهم العرشَ مُستمِرٌّ أيضًا، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ تعظيمَهم مُستمِرٌّ قولًا وفعلًا، ومعنى تجدُّدِ الإيمان: تجدُّدُ ملاحظته في نفوس الملائكة، وإلّا فإنَّ الإيمان عقدٌ ثابتٌ في النُّفوس، وإنَّما تجدُّدُهُ بتجدُّدِ دلائله وآثاره(1).

### غرضُ حذفِ مفعولِ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ إيجازٌ بحذف مفعول ﴿يُسَبِّحُونَ﴾، والتَّقديرُ: يُسبِّحونَ اللّهَ تسبيحًا مُصاحِبًا للحمدِ، فحُذِفَ المفعولُ لدلالة المتعلِّقِ به عليه(2).

### معنى الباءِ في ﴿بِحَمۡدِ﴾:

اقـترانُ تسبيحِ المـلائـكــةِ بحمدِهم

الباءُ في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ للملابسةِ، أي: يُنزِّهونَ اللّهَ سبحانه عن كلِّ شائبةِ نقص مُلتبِسينَ بحمده(3)، فهُم يَقرِنونَ الحمدَ والثَّناءَ على اللّه تعالى بالتَّنزيهِ والتَّسبيحِ والأوصافِ الجليلةِ والجميلةِ.

### بلاغةُ الإضافةِ في ﴿بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾:

الحمدُ مُستحَقٌّ للهِ تعالى

إضافةُ الحمدِ إلى الرَّبِّ في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على اختصاصِ اللّه تعالى بالحمد واستحقاقِهِ له، والإضافةُ من قبيل إضافةِ المصدرِ لمفعولِه، والفاعلُ معلومٌ، وهم الملائكة.

### دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ الرَّبِّ مضافًا إلى ضميرِهم:

في اختيارِ لفظ الرَّبِّ في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 90، وحبنكة، معارج التفكر: 12/ 325.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 90.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 200، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 267.

اجتماعُ التَّعليلِ والتَّشريفِ مِن مـزايـا الـكـلامِ المُنيفِ

إشعارٌ بسببِ استحقاقِهِ تعالى الحمدَ، وهو كونُهُ رَبًّا للملائكة مُحسِنًا إليهم، ففيه تعليقُ الحُكم بالمُشتقِّ الدّالِّ على عليَّةِ الحُكم، وفي إضافته إلى ضميرهم تشريفٌ لهم وإكرامٌ لهم، وبيانٌ لكونِهم مقهورينَ تحت قدرتِهِ وتصرُّفِهِ[1].

### فائدةُ ذكرِ الإيمانِ مع أنَّهُ مُسلَّمٌ بِهِ:

علوُّ شأنِ الإيمانِ

وصفَ اللّه تعالى الملائكةَ بالإيمان في قوله: ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾، مع أنَّ اتِّصافَهم به معلومٌ لكلِّ أحدٍ؛ إظهارًا لشرفِ الإيمانِ وفضلِهِ، وترغيبًا فيه، وتنبيهًا على أنَّ الأمرَ لو كان كما تقول المجسِّمة؛ لكان حَمَلَةُ العرش ومن حوله مشاهدينَ معاينينَ، ولمّا وُصِفوا بالإيمان - لأنَّهُ إنَّما يوصَفُ بالإيمانِ الغائبُ - فلمّا وُصِفوا به على سبيل الثَّناء عليهم؛ عُلِمَ أنَّ إيمانَهم وإيمانَ مَن في الأرض سواءٌ في أنَّ إيمان الجميع بطريق النَّظر والاستدلال لا غير، وأنَّهُ مُنزَّهٌ عن صفات الأجرام[2]، وفي ذلك أيضًا تعريضٌ بالمشركين أن لم يكونوا مِثلَ أشرفِ أجناس المخلوقات[3].

### معنى الباءِ في قوله تعالى: ﴿بِهِۦ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾؛ لتعديةِ الفعل إلى المفعولِ به، وفائدتُهُ تقييدُ فعلِ الإيمان ببيانِ من وقع عليه الفعلُ، كما أفادتِ التَّعديةُ تحديدَ دلالةِ الإيمانِ بأنَّهُ التَّصديقُ والاعترافُ.

### بلاغةُ عطفِ ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ﴾:

تسليةُ المُؤمنينَ بـاسـتـغـفـارِ الملائكةِ المُقرَّبينَ

قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ معطوفٌ على ما قبله، وفيه نظم استغفارِ الملائكة للمؤمنين في سِلْكِ وظائفهم المفروضة عليهم من تسبيحِهم وتحميدهم وإيمانهم؛ إيذانٌ بكمال اعتنائهم

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 12.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 152، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 237.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 90.

به، وإشعارٌ بوقوعه عند اللّه تعالى في موقع القبول[1]، وتنبيهٌ على معرفتِهم بعظمة النَّوع الإنسانيِّ عند اللّه، ولذلك طلبوا مَحْوَ ذنوب المؤمنين أعيانًا وآثارًا[2].

### دلالةُ التَّرتيبِ بينَ الأفعالِ الثَّلاثةِ:

تقديمُ ما يتعلَّقُ باللهِ تعالى على ما يتعلَّقُ بالعبادِ

روعيَ في ترتيب الأفعال في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾ تقديمُ ما يتعلّقُ باللّه تعالى - وهو التَّسبيحُ والحمدُ والإيمانُ - على ما يتعلَّقُ بالعباد، وهو الاستغفارُ، فكمالُ السَّعادة مربوطٌ بأمرين: التَّعظيمُ لأمر اللّه، والشَّفقةُ على خلقِ اللّه، ويجب أن يكون التَّعظيمُ لأمر اللّه مقدَّمًا على الشَّفقةِ على خلق اللّه[3]، ولأنَّ الإخبارَ عن صنفَيِ الملائكة بأنَّهم يُسبِّحونَ، ويؤمنونَ باللّه، تمهيدٌ للإخبار عنهم بأنَّهم يستغفرون للَّذينَ آمنوا، فذلك هو المقصودُ من الخبر، فقُدِّمَ له ما فيه تحقيقُ استجابةِ استغفارهم؛ لصدوره ممَّن دَأْبُهم التَّسبيحُ، وصفتُهم الإيمان[4].

### معنى اللّامِ في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾:

استغفارُ الملائكةِ لأجلِ المؤمنينَ

اللّامُ الجارَّةُ في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾ لامُ التَّعليلِ، فتفيد أنَّ استغفارَ الملائكة لأجلِ الَّذينَ آمنوا.

ويحتملُ أن تكون اللّامُ للاستحقاق والنَّفعِ، فتفيد استحقاقَ المؤمنين استغفارَ الملائكة بسبب إيمانِهم.

### غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

الإيمانُ سببُ نَيلِ الكراماتِ

عُبِّرَ بالموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾؛ للدَّلالة بما في حيِّزِ الصِّلة على أنَّ علَّةَ الاستغفارِ هي الإيمانُ، كأنَّهُ قيل: ويؤمنون به، ويستغفرون لمَنْ في مِثلِ حالهم، وفيه دليلٌ على أنَّ الاشتراكَ في

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 267، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 303.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 13.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 488.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 89، وأبو موسى، آل حم، ص: 35.

الإيمان يجب أن يكون أدعى شيءٍ إلى النَّصيحة والشَّفقة؛ وإن تباعدت الأجناس والأماكنُ[1]، وأنَّ الاشتراك في الإيمان أشدُّ من الاتِّحاد في النَّسَبِ[2]، وفيه أيضًا تكريمٌ للمؤمنين لا تكريمَ بعده[3].

### نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿ءَامَنُواْ﴾:

جيءَ بصيغة الماضي في قول الحقِّ ﷻ: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ إيمانَهم قد صدرَ منهم على سبيلِ التَّحقُّقِ، وأنَّهم أوقعوا هذه الحقيقةَ[4]، ولذلكَ استحقّوا الاستغفارَ.

### نكتةُ حذفِ مُتعلِّقِ الإيمان:

الإيمانُ باللهِ تعالى قيمةٌ عُليا

حُذِفَ مُتعلِّقُ الفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّهم يؤمنون بكلِّ ما يجب الإيمانُ به، ويحتمل أن يكونَ الفعلُ قد نُزِّلَ منزلةَ اللّازم، والمعنى: للَّذينَ تحقَّقَ فيهم الإيمانُ.

### سرُّ عدمِ استغفارِ الملائكةِ لأنفُسِهم:

الملائكةُ لا يحتاجون الاستغفارَ

ذُكِرَ في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ استغفارُ الملائكة للمؤمنين، ولم يُذكَرِ استغفارُ الملائكة لأنفُسِهم؛ لأنَّهُ لا حاجة لهم إلى الاستغفار؛ لأنَّهم لا يعصونَ اللّٰه ما أمرَهم، ويفعلون ما يؤمرون، ولو كانوا في حاجة إلى الاستغفار؛ لذكروا أنفسهم أوَّلًا[5].

### علَّةُ فصلِ: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾:

بيانُ استغفارِ الملائكةِ

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ عمّا قبلَه؛ لما بينهما من كمال الاتِّصال؛ لأنَّ هذه الجملةَ بيانٌ وتفسيرٌ لاستغفار الملائكة[6] بتقدير القول، أي: يقولون: ربَّنا وسعتَ كلَّ شيءٍ رحمةً[7].

---

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 200.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 13.
(3) أبو موسى، آل حم، ص: 34.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 13.
(5) أبو موسى، آل حم، ص: 35.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 490.
(7) الشهاب، عناية القاضي: 7/ 359.

بيانُ التَّسبيحِ والتَّحميدِ والإيمانِ والاستغفارِ

ويجوز أن تكون الجملة بيانًا لقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ لأنَّ كلَّ ما دخل في مقول القول المحذوف يصحُّ أن يكون تسبيحًا وتحميدًا وإيمانًا واستغفارًا؛ لأنَّك لو قلت: اللّهمَّ اغفرْ لفلان؛ لكان هذا تسبيحًا ودعاءً وتحميدًا وإيمانًا؛ لأنَّ التَّوجُّهَ إلى اللّه بالحاجة جامعٌ لهذا كلِّه[1]، ويجوز أن تكونَ الجملةُ في محلِّ نصبٍ حالًا[2].

**نكتةُ حذفِ حرفِ النِّداءِ:**

حذفُ حرفِ النِّداء في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ يفيد قوَّةَ إحساس الدّاعي بقُرْبِهِ من ربِّه، وأنَّ استحضارَهُ لنِعَمِ ربِّهِ جعل له دالَّةً على اللّه[3].

**غرضُ النِّداءِ بلفظِ الرَّبِّ:**

الرُّبوبيَّةُ منبعُ الفُيوضِ والكمالاتِ

آثرَ النَّظمُ توجيهَ الدُّعاءِ بلفظ الرَّبِّ في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾؛ لأنَّهُ المناسبُ لمقامِ طلب غُفرانِ الذُّنوب؛ إذ الرَّبُّ من التَّربيةِ، وهي تبليغُ الشَّيءِ إلى الكمالِ، وغُفرانُ الذُّنوب كمالٌ، ولأنَّهُ أدخلُ في التَّضرُّعِ وأرجَى للإجابةِ[4]، وفيه استعطافٌ من العبد لمولاه الَّذي ربّاه، وقام بمصالحه من لَدُنْ نشأته إلى وقت ندائه، فهو جدير بألّا يُناديَهُ إلّا بلفظ الرَّبِّ[5].

**دلالةُ الإضافةِ في ﴿رَبَّنَا﴾:**

الاعترافُ بالرُّبوبيَّةِ في مقامِ الدُّعاءِ أدعَى للإجابةِ

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ الرَّبِّ إلى الضَّميرِ العائدِ إلى الملائكة الدّاعينَ في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾؛ إظهارًا لمزيد القُرْبِ والاستعطافِ، وليكونَ الدُّعاءُ في محلِّ القبولِ والإجابة؛ إذ الإضافةُ تتضمَّن الاعترافَ بالرَّبِّ تعالى.

---

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 38.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 301.
(3) أبو موسى، آل حم، ص: 39.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 90.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 238.

سَعَةُ الرَّحمةِ والعلمِ مِن دواعي الاستجابةِ

### بلاغةُ التَّعبيرِ بسَعَةِ الرَّحمةِ والعلمِ:

التَّوجُّهُ إلى اللّه بالثَّناءِ بسَعَةِ رحمتِه وعلمِه في قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾؛ لأنَّ سَعَةَ الرَّحمة ممّا يُطمِعُ باستجابة الغُفرانِ، وسعةَ العلم تتعلَّقُ بثبوتِ إيمانِ المؤمنينَ، وفي ذِكرِ سَعَةِ العلم كنايةٌ عن يقينهم بصدق إيمان المؤمنينَ، فهو بمنزلة قولِهم: أنت تعلمُ أنَّهم آمَنوا بكَ، ووحَّدوكَ[1].

المُحيطُ بكلِّ شيءٍ يفرحُ بتوبةِ الآيبينَ

### نكتةُ الإضافةِ في قوله: ﴿كُلَّ شَيۡءٖ﴾:

أُضيف لفظُ ﴿كُلَّ﴾ إلى لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾ النَّكرة في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾؛ للدَّلالةِ على العُموم والشُّمولِ والإحاطة؛ أمّا كونه سبحانه قد وسِعَ كلَّ شيءٍ علمًا؛ فهو ظاهرٌ، وأمّا كونُهُ قد وسِعَ كلَّ شيءٍ رحمةً؛ فمعناه: في حدود مداركِنا أنَّ رحمتَهُ وسِعَتْ كلَّ شيءٍ ذي حاجةٍ إلى مقدارٍ ما من رحمة اللّه[2].

المبالغةُ في الاتِّصافِ أرْجى للتَّفضُّلِ بالإجابةِ

### بلاغةُ التَّمييزِ في الآية:

قوله: ﴿رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾، في قوله تعالى: ﴿وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ تمييزٌ مُحوَّلٌ عن الفاعلِ، وأصلُ التَّركيب: وسِعَتْ رحمتُكَ وعلمُكَ كلَّ شيءٍ، وإنَّما جيء بالتَّمييز؛ لِما في تركيبه من المبالغة بإسنادِ السَّعَةِ إلى الذّاتِ ظاهرًا، حتَّى كأنَّ ذاتَهُ هي الَّتي وسِعَتْ، فذلك إجمالٌ يستشرفُ بِه السّامعُ إلى ما يردُ بعدَهُ، فيجيء بعده التَّمييزُ المبيِّنُ لنسبة السَّعَةِ أنَّها من جانب الرَّحمة وجانب العلم، والتَّفصيلُ بعد الإجمال تمكينٌ للصِّفة في النَّفس[3].

الرَّحمةُ أنسبُ بذكرِ الرَّحمةِ

### نكتةُ تقديمِ الرَّحمةِ على العلمِ:

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الرَّحمةَ على العلم في قوله تعالى: ﴿وَسِعۡتَ كُلَّ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 91.

(2) حبنكة، معارج التفكر: 12/ 326.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 52، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 91.

﴿شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾؛ لأنَّها المقصودةُ بالذّات ها هنا[1]؛ إذ المقام لطلب المغفرة لهم، وهي مناسبةٌ لِذكر الرَّحمة؛ إذ هي من ثمراتها، وإنَّما ذُكِرَ العلم للإشارة إلى أنَّهُ تعالى عالمٌ بهم، واستحقاقِهم لذلكَ[2].

### بلاغةُ الكنايةِ في سَعَةِ العلم:

ذِكرُ سَعَةِ العلمِ في قوله جلَّ ذكره: ﴿وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ كنايةٌ عن يقينهم بصدق إيمان المؤمنينَ، فهو بمنزلة قولِهم: أنت تعلمُ أنَّهم آمَنوا بكَ، ووحَّدوكَ[3].

### معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾:

مَنْ عَلِمَ ورَحِمَ حَريٌّ بإجابةِ الدُّعاءِ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ عاطفةٌ للتَّفريع، فتفيد ترتيبَ الدُّعاء على ما قبلها من سَعَةِ الرَّحمةِ والعلم[4]؛ لأنَّهُ إذا كان قد عَلِمَ صِدقَ توبةِ مَنْ تابَ مِنهم، وكانت رحمتُهُ وسِعَتْ كلَّ شيء؛ فقد استحقّوا أن تشملَهم رحمتُهُ؛ لأنَّهم أحرياءُ بها[5]، وفي الكلام تنبيهٌ على أنَّ السُّنَّة في الدُّعاء أن يُبدأ فيه بالثَّناء على الله تعالى، ثمَّ يُذكَرَ الدُّعاءُ عَقيبَهُ[6].

### دلالةُ التَّعبير بالأمرِ في قوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾:

الأمرُ الواردُ في قوله تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ للدُّعاءِ؛ لأنَّه أمرٌ من الأدنى إلى الأعلى، وقد سُبِقَ بثناء السّائل على المسؤول؛ تضرُّعًا وتوسُّلًا.

### نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾:

مَنْ قصدَ الكريمَ؛ أطلقَ المسألةَ

حُذِفَ مفعولُ ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾؛

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 52، والهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 126.
(2) الشهاب، عناية القاضي: 7/ 359.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 91.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 267.
(5) ابن عاشور، التحرير والتَّنوير: 24/ 91.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 491.

للعلم به، أي: فاغفِرْ ذنوبَ الَّذين تابوا[1]، وللإيماء إلى أنَّ مَنْ طلبَ الغُفرانَ من الكريم الرَّحيم؛ فإنَّهُ لا يُقيِّدُ مطلبَهُ إلّا بأوصافِ المُكرَمينَ دونَ أعمالِهم الَّتي تستدعي المغفرةَ.

### معنى اللّامِ في قوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ للتَّعدية، وتفيد أنَّ غايةَ الغُفرانِ وصولُهُ إلى الَّذينَ تابوا.

### غرضُ العدولِ عن الضَّميرِ إلى الموصولِ:

الإيماءُ إلى علَّةِ الغُفرانِ

الظّاهرُ أن يقال: (فاغفِرْ لهم)، لكن عُدِلَ إلى التَّعبير بالموصول في قوله تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾؛ إشارةً بما في حيِّز الصِّلةِ إلى علَّة الغُفرانِ للمدعوِّ لهم، وهي كونُهم قد تابوا، واتَّبعوا سبيلَ الحقِّ، ومن لطائف هذا التَّعليل: أنَّ الملائكةَ كما علَّلوا الغُفرانَ في حقِّ مُفيضِ الخيراتِ بالعلم الشّاملِ والرَّحمةِ الواسعةِ؛ علَّلوا قابلَ الفَيْضِ أيضًا بالتَّوبة واتِّباعِ سبيل الحقِّ[2].

### نكتةُ صيغةِ الماضي في ﴿تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ﴾:

جيءَ بصيغة الماضي في قوله عزَّ وعلا: ﴿تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾؛ دلالةً على صدورِ التَّوبةِ والاتِّباع منهم وتحقُّقِهما، وفي ذلكَ تأكيدٌ للتَّضرُّع وطلبِ الغُفران.

### بلاغةُ عطفِ ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾:

التّائبُ المتَّبِعُ لسبيلِ اللهِ لا يخيبُ

عُطِفَ اتِّباعُ السَّبيل على التَّوبة في قوله تعالى: ﴿تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾؛ للتَّنبيه على أهمّيَّةِ الجمع بينَ ترك الشِّركِ المُعبَّر عنه بالتَّوبةِ وبينَ اتِّباع سبيل الحقِّ الشّاملِ للإيمان وعملِ الصّالحاتِ وتركِ المعاصي.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 91.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 470.

**بلاغةُ التَّعبيرِ بالاتِّباعِ:**

طالبُ الغُفرانِ يتحرَّى الحقَّ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ الاتِّباعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾؛ لدلالته بحسَبِ الأصل على الجَرْيِ خلفَ الشَّيءِ، والاقتداءِ به، فالمُتَّبِعُ طالبٌ للحقِّ، لا يَكُفُّ عن ملاحظتِهِ وطلبِهِ حيثُ كانَ.

**دلالةُ صيغةِ الافتعالِ:**

جيء بصيغة الافتعال في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾؛ للإيماءِ إلى مبالغة المؤمنين في الانقيادِ للحقِّ، وأنَّهم يجاهدون أنفسَهم على ذلك[1].

**نكتةُ الإضافةِ في قوله: ﴿سَبِيلَكَ﴾:**

عِظَمُ شأنِ الإسلامِ

إضافةُ السَّبيل إلى ضمير المخاطَبِ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾؛ لتشريفِ السَّبيل وتفخيمِهِ، وبيان عُلوِّهِ على باقي السُّبُلِ، فهو سبيلُ ذي العظمة والجلالِ، وفي ذلكَ مِن تعظيم شأنِ الإسلام، ما لا يخفى؛ إذ هو المرادُ بالسَّبيل هنا[2].

**سرُّ العطفِ في قولِهِ: ﴿وَقِهِمْ﴾:**

تأكيدُ الغُفرانِ بطلبِ لازمِهِ

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ للعطفِ على الغُفرانِ عطفَ اللّازمِ على الملزوم؛ إذ يلزمُ من غُفرانِ الذُّنوبِ الوِقايةُ من عذابِ الجحيمِ؛ إلّا أنَّهم عضَّدوا دلالةَ الالتزام بدلالةِ المطابقةِ؛ إظهارًا لحرصهم على المطلوب[3]، وتأكيدًا واحتراسًا من غُفرانِ بعضِ الذُّنوبِ الَّتي لا تُؤدّي إلى الوِقايةِ من الجحيم، ومن وقوعِ الغُفران دونَ الوِقايةِ المذكورة؛ إذ للّه تعالى أنْ يُعذِّبَ من يشاءُ بعَدْلِه[4]، وفي العطف أيضًا التَّهويلُ من عذاب الجحيم، وبيانُ أنَّ الدُّعاءَ بالوِقاية منه لا يُكتفَى فيه بالدِّلالة المتضمِّنة؛ لأنَّهُ أمرٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 14.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 20.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 52، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 92.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 14.

عظيم، فجاء النَّصُّ عليه بالدُّعاء الصَّريح[1]، وبذلك يُعلَمُ أنَّ تقديم الغُفران على الوِقاية من باب تقديم الضِّمنيِّ على الصَّريح.

**دلالةُ الأمرِ في قوله: ﴿وَقِهِمُ﴾:**

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ للدُّعاء؛ لأنَّه أمرٌ من الأدنى إلى الأعلى، وهو واردٌ على سبيل التَّضرُّع والتَّوسُّل.

**بلاغةُ الإضافةِ في قوله: ﴿عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾:**

تـهـويـلُ شـأنِ العذابِ

إضافةُ لفظِ العذابِ إلى الجحيم في قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ للاختصاصِ وبيانِ حقيقةِ العذابِ المطلوبِ الوِقايةُ منه، وتفيدُ الإضافةُ أيضًا أنَّه عذابٌ عظيمٌ خارجٌ عن حدود الاحتمالِ والتَّصوُّرِ.

**نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾:**

تعريفُ الجحيم في قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ للعهد؛ إذ هي علَمٌ على محلِّ اللهيب المشتعلِ بقوَّةٍ وعُنْفٍ.

**نكتةُ التَّعبيرِ بالجحيمِ دونَ النّار:**

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ بالجحيم دونَ النّار؛ لأنَّ في الجحيم دلالةً على النّار مع شدَّةِ لهيبها واتِّقادِها، وبُعْدِ قَعْرِها[2]، فتكونَ الوِقايةُ منه أعظمَ مطلوبٍ.

## الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

**السَّبيلُ والصِّراطُ والطَّريقُ:**

الطَّريقُ إلى اللهِ مُمهَّدٌ سَهْلٌ

الطَّريقُ: ما يُسلَكُ مطلَقًا، والسَّبيلُ: ما هو معتادُ السُّلوكِ، ولذلكَ يُستعمَلُ كثيرًا في الطَّريقِ الَّذي فيه سهولةٌ، وتكثرُ إضافتُهُ في القرآنِ إلى لفظِ الجلالةِ؛ إشارةً إلى سهولةِ الوصولِ إليهِ سبحانَهُ، والصِّراطُ: ما لا اعوجاجَ فيهِ يمنةً ويسرةً[3]، وقد اختيرَ السَّبيلُ هنا لدلالتِهِ على أنَّ طريقَ الحق والإيمان فيه سهولة؛ لأنَّه معتاد السُّلوك.

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 42.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 92، وحبنكة، معارج التفكر: 12/ 327.

(3) داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 281 - 284.

﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨﴾ [غافر: 8]

## ۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّخليةُ طريقُ التَّحلية

لمّا طلب الملائكةُ مِن اللهِ تعالى إزالةَ العذابِ عن المؤمنين، فقال تعالى على لسانِهم: ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾ [غافر: 7]، وكانت النَّجاةُ من العذاب لا تستلزم الثَّواب؛ قالوا مكرِّرين للنِّداء زيادةً في الرِّقَّة في طلب الامتنان لإدخالِهم مكان النَّعيم: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾[1]، فهو زيادةٌ في الدُّعاء؛ لاستجماع أسباب النَّعيم، بذكر التَّحلية بعد التَّخلية.

## ۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَدۡنٍ﴾: أصلُ (عدن) يدُلُّ على الإقامة[2]، وأصلُه مِن عدن الإبلِ[3]، وعَدَنَ الرَّجلُ بالـمَكانِ يَعدِن ويعدُن عَدْنًا وعُدونًا، فَهوَ عادنٌ؛ إذا أقامَ بِهِ، ومِنه اشتقاقُ المَعْدِن، وهوَ المَكان الَّذي يثبت فيه النّاس، ولا يتحوَّلون عَنهُ شتاءً ولا صيفًا[4]، وجنَّة عَدْنٍ، أي: دار مُقام[5]، والمقصودُ بالعَدْنِ في الآيةِ: الإقامةُ، أي: الخُلودُ[6].

2) ﴿صَلَحَ﴾: أصل (صلح) يدُلُّ على خِلافِ الفسادِ، يُقالُ: صَلُحَ الشَّيءُ يَصلُحُ صلاحًا[7]، ويُقالُ: صَلَحَ بعد أنْ كان فاسدًا، ويُقالُ: صَلَحَ بمعنى وُجِدَ مِن أوَّل وهلةٍ صالحًا، فهو موضوعٌ للقَدْرِ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 14 - 15.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدن).
(3) الخليل، العين: (عدن).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (عدن).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (عدن).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 92.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلح).

المُشترَكِ[1]، والصَّلاحُ: استقامةُ الأعمالِ وطهارةُ النَّفْسِ، والصّالح في نَفْسه، والمُصلح في أعماله وأُموره[2]، والمقصودُ بالصَّلاح في الآية: تغييرُ الحالِ إلى الاستِقامة.

3) ﴿ءَابَآئِهِمۡ﴾: أصلُ (أبو) يدُلُّ على التَّربية والغَذْو، أبَوْتُ الشَّيء آبوهُ أبْوًا؛ إذا غذوتُه، وبذلك سُمّيَ الأبُ أبًا[3]، والنِّسبةُ إليه أبَويٌّ، ويُقالُ: ما لَهُ أبٌ يَأبوه، أي: يَغْذوه، ويُرَبّيه، وبَيْني وبَيْنَ فُلانٍ أُبوَّةٌ، والأُبوَّة أيضًا: الآباءُ، وتصغيرُ الآباءِ: أُبَيّون وأُبَيّاءُ[4]، والأبُ: يُطلَقُ على مُلازِمِ ما أُضيفَ إليه، كأبي الضّيفانِ، وأبي هُريرةَ، وأبي البركات[5].

4) ﴿وَأَزۡوَٰجِهِمۡ﴾: أصلُ (زوج) يدُلُّ على مُقارَنةِ شيءٍ لشيءٍ[6]، فالزَّوج كلُّ شيءٍ ثانٍ مع شيءٍ آخَرَ، بينهما تقارُنٌ في حالٍ ما، وسُمّيت الأنثى القرينة للرَّجُل بنكاحٍ زوجًا؛ لأنَّها اقترنت به، وصيَّرته ثانيًا، ويُسمَّى الرَّجُلُ زوجًا لها لذلك بلا فَرْقٍ، فمِن ثَمَّ لا يُقالُ للمرأةِ: زوجة بهاءِ تَأْنيثٍ؛ لأنَّهُ اسْم، وليسَ بوصف[7]، والأزواجُ في الآية: جمعُ زوجٍ، المُراد بها: حلائلُهم.

5) ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ﴾: أصلُ (ذرر) يدُلُّ على لطافةٍ وانتشارٍ[8]، ومصدرُهُ: ذَرَرْتُ، وهو أخذُك الشَّيءَ بأطراف أصابعك تَذُرُّهُ ذَرَّ المِلْح المسحوقِ على الطَّعام[9]، والذُّرّيَّةُ: الخَلْقُ والنَّسْلُ، مأخوذةٌ من الذَّرْءِ، فتقول: ذَرأ اللهُ الخَلْقَ، أي: خلقَهُم، وذُرّيَّةُ الرَّجُلِ: ولَدُهُ[10]، وقيل: هو مأخوذٌ مِن الذَّرِّ، وهو: النَّشْرُ، فيُقال: ذَرَّ الشَّيءَ، يَذُرُّهُ، أيْ: نَشَرَهُ، أو مِنْ صِغارِ النَّمْلِ؛ لأنَّ اللّهَ أخرَجَ الخَلْقَ من صُلْبِ آدمَ كالذَّرِّ[11]، والجمعُ: الذَّراري والذُّرّيّاتُ، والمقصود بالذُّرّيَّة في الآية: نسلُ الإنسان من ذُكورٍ وإناثٍ.

6) ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: أصل (عزَّ) يدلُّ على القوَّةِ والشِّدَّةِ والغَلَبَة، خِلاف الذُّلِّ[12]، يقال: عَزَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 285.
(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (صلح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أبو).
(4) ابن سيده، المحكم، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (أبو - أبب).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 601.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (زوج).
(7) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 428.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرَّ).
(9) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (ذرر).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرَّ).
(11) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرَّ - ذرر).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (دون).

يَعَزُّ بالفتح للمُضارع؛ إذا اشتَدَّ، وقَوِيَ، وبالكسر للمُضارع؛ إذا قَوِيَ، وامتَنَع، وبالضَّمِّ؛ إذا غَلَب، وقَهَر[1]، والعَزيز: من صِفات اللّه تعالى وأسمائِه الحُسنى[2]، والمُرادُ بالعزيز في الآيةِ: القويُّ الَّذي لا يُغلب، ولا ينال بضيم مَن توكَّل عليه[3].

7) ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: أصلُ (حكم) يدلُّ على الـمَنْع، وأوَّلُ ذلك الحُكْمُ، وهو الـمَنْعُ مِنَ الظُّلْم، وكُلُّ شَيْءٍ مَنَعْتَهُ مِن الفَساد؛ فقد حَكَمْتَهُ، وأحكَمْتَهُ[4]، والإحكامُ: الحُسْنُ والإتقانُ، والحَكيمُ: المُتْقِنُ للأُمور[5]، والحِكمة من اللّه تعالى: العلمُ بالأشياء وإيجادُها على غاية الإحكام والإتقان، ومن الإنسان: معرفةُ الموجودات وفِعل الخيرات[6]، والمقصودُ بالحكيم في الآية: المُدَبِّرُ عن حِكمةٍ وإتقان.

## المَعْنى الإجْماليُّ:

ذِكرُ دعاءِ الملائكة للمؤمنين بُشرى وإكرامٌ

تُتابعُ الآيةُ ما جاء في الآيةِ السّابقة مِن ذِكر طلبِ الملائكة مِن اللّهِ تعالى المَغفِرةَ للَّذين آمَنوا قائلينَ: ربَّنا وأدخلهم الجنّات الَّتي وعدتهم إيّاها على ألسنةِ رُسلك، وأدخِلْ جنّاتِ عَدْنٍ مَنْ صَلَح في الدُّنيا مِن آبائِهم وأزواجِهم وذُرّيّاتِهم، فآمَنَ وعَمِلَ الصّالحاتِ؛ لتقرَّ بهم أعينُهم، فإنَّ الاجتماع بالأهل والعشيرة في موضع السُّرور يكون أكملَ للبهجةِ وأتمَّ للأُنْس، إنَّك أنت العزيزُ الَّذي لا يُغالَبُ، ولا يُرامُ جَنابُه، فأنت ذو القَدْرِ والسّيادةِ، الغالبُ القاهرُ لكُلِّ شَيءٍ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقص، الحَكيمُ في شَرْعِك وقَدَرِك وتدبيرِ خَلْقِك، فتَضَعُ كلَّ شَيءٍ في مَوضِعه اللّائِق به[7].

---

(1) النحاس، معاني القرآن: 1/ 379.
(2) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (عز).
(3) المراغي، تفسير القرآن: 1/ 217.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حكم).
(6) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (حكم).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 286، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 296، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 732.

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### نكتةُ توسيط الاعتراض بالنِّداء:

المبالغةُ في الطَّلب بقصدِ التَّضرُّع والالتجاءِ

النِّداء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾ اعتراضٌ جاء متوسِّطًا بين دعاءين؛ ليفيدَ الاعتراضُ أنَّ الدُّعاء الثّاني غيرُ الدُّعاء الأوَّل، وأنَّ إجابةَ الدُّعاء الثّاني إحسانٌ آخرُ غير الإحسان الأوَّل؛ لأنَّهُ جاء على سبيل الارتقاء من وقايةِ المؤمنين مِنَ العذاب إلى إيصال الثَّواب إليهم في دار النَّعيم(1)؛ تكريمًا لهم وتشريفًا، ففي إعادة النِّداء بطريق الاعتراضِ مبالغة في التَّضرُّع والاستعطاف، وإيذان بتعظيم منَّة اللّه تعالى وتكثُّرها على المؤمنين.

### نكتةُ حذفِ حرف النِّداء:

حُذِفَ حرفُ النِّداء في قوله: ﴿رَبَّنَا﴾؛ إشعارًا بقرب المدعوِّ مِنَ الدّاعي، فاللّهُ تعالى ليس ببعيد عمَّن يدعوه، بل هو قريبٌ يُجيب دعوةَ الدّاعي؛ إذا دعاه.

### مناسبةُ النِّداء بعنوانِ الرُّبوبيَّة:

إدخالُ المؤمنين الجنَّةَ من آثار إحسانِ الله وفضلِه عليهم

لمّا كانت وقايةُ المؤمنين من عذاب الجحيم وإدخالُهم الجنَّة من إحسانِهِ تعالى وفضله؛ ناسب التَّعبير عن ذلك بعنوان الرُّبوبيَّة في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾ على معنى أنَّه دعاءٌ بالمحسِن المربّي المتفضِّل، فأفادَ أنَّ إدخالَ المؤمنين جنَّةَ عدنٍ مِن آثار تربيةِ اللّه وإحسانِه وفضلِه عليهم، كما أنَّ الدُّعاءَ بقولِ الملائكة: ﴿رَبَّنَا﴾ - وأكثر ما يكون الدُّعاء بذكر الرَّبِّ - مناسبٌ لمقام الاستعطاف؛ فإنَّ الملائكة ليس لهم إلّا التَّضرُّع وإظهار التَّذلُّل، وليفيد أنَّ قبولَ الدُّعاء مِن آثار التَّربية.

### نكتةُ إضافة لفظِ الرُّبوبيَّة للضَّمير:

أُضيف لفظُ الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير في قولِه: ﴿رَبَّنَا﴾؛ لبيانِ مزيد الاستعطاف والتَّضرُّع، وحرصهم على إدخالِ المؤمنين الجنَّة.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 92.

**فائدةُ عطفِ الدُّعاء بدخولِ الجنَّة على الوقاية من النّار:**

**تكميلُ الدُّعاء الجامع بين دفع العذاب وإيصال الثّواب**

لمّا طلب الملائكةُ مِن الله تعالى إزالةَ العذاب عن المؤمنين في قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾ [غافر: 7]، جاء قوله تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ بطريق الوصلِ بالواو؛ ليكونَ الدُّعاء جامعًا بين دفعِ العذاب عنهم وإيصال الثَّواب إليهم، كما أنَّ الجملتين تشتركان في كونِهما إنشائيَّتين لمجيئِهما في صورة الأمرِ على معنى الدُّعاء، ولمّا كان العَطفُ يَقتضي ثُبوتَ المَعطوفِ عليه وكَونَه أصلًا؛ أفاد أنَّه إذا تحقَّقت مغفرةُ الله؛ تحقَّق ما بعدَها بفضلٍ من الله وإحسانِه.

كما أفادَ العطفُ معنى التَّأكيد والتَّقرير بالتَّصريح بما علِمَ ضمنًا من الدُّعاء بوقايتِهم من عذابِ الجحيم، فذِكرُ الجنَّة تنشيطٌ للمؤمنين وإدخال السُّرور في قلوبِهم، وللدَّلالة على أنَّ دخول الجنَّة ممّا يتنافس فيه المتنافسون، فاقتضى التَّصريح به[1]، وليكون تمهيدًا لذكر اجتماعِهم بمن صلح مِن آبائِهم وأزواجِهم وذرّيّاتِهم.

**نكتةُ إسنادِ فعل الإدخال لضمير الجلالةِ:**

**ما كان المؤمنون ليدخلوا الجنَّة بتوبتِهم لولا إحسانُ الله إليهم**

لمّا دعا الملائكةُ بالمغفرة للَّذين تابوا، وترقَّوا في الدُّعاء، فقالوا: ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾ [غافر: 7]؛ ترقّوا بعد ذلك، فقالوا: ﴿وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾، فطلبوا إدخالَهم الجنَّة، بإسناد الفعلِ لضمير الجلالةِ، وهو ما دلَّ على أنَّ دخولَ الجنَّةِ إنَّما كان بفضل الله تعالى ورحمته، فما كانوا ليدخلوها بالتَّوبةِ لولا أنَّ ربَّهم المحسِنَ إليهم هو الَّذي أدخلَهم.

**غرضُ الطَّلب ودلالته:**

أوثِرَ الدُّعاء للمؤمنين بإدخالِهم جنّات عدنٍ في قولِه: ﴿وَأَدۡخِلۡهُمۡ﴾ مَعَ تحقُّقهم أنَّه تعالى وعدهم به، كَما تَقَدَّمَ في قولِه: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 21.

﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: 194]، من بابِ التَّأدُّبِ مع اللّه تعالى؛ لأنَّه لا يُسألُ عَمّا يَفعَلُ، ويحتمل أن يكونَ الطَّلب في ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ على معنى: عَجِّلْ لَهُم بِالدُّخولِ، كما يحتملُ أن يَكونَ ذَلِكَ تَمهيدًا لِقَولِهِم: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾؛ فَإنَّ أولَئِكَ لَم يَكونوا مَوعودينَ بِهِ صَريحًا[1]، كما أنَّه يُفيد بيان حرص الملائكةِ على الدُّعاء للمؤمنين ليكونوا من أهل الجنَّة.

حرصُ الملائكةِ على دخول المؤمنين الجنَّة دليلُ حبِّهم لهم وشفقتهم عليهم

**دلالةُ تعيينِ عود الضَّمير:**

يعود الضَّميرُ (هُم) في قوله: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ إلى الاسم الموصول وصلتِه ﴿لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: 7]، والتَّقديرُ: وأدخل الَّذين تابوا، واتَّبعوا سبيلك جنّات عدن، ليفيد عود الضَّمير إلى الاسم الموصول الإيماءَ إلى أنَّ التَّوبةَ واتِّباع سبيل اللّه سببٌ في المغفرة والوقاية من عذابِ الجحيم، ودخولِ جنَّة ربِّ العالمين.

التَّوبةُ واتِّباع سبيل الله سببٌ في المغفرة ودخول الجنَّة

**نكتةُ تعديةِ فعل الإدخال بنفسِه:**

آثرَ النَّظمُ الكريم تعديةَ فعل ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ بنفسِهِ لا بحرف الجرِّ (في)، فلم يقل: (وأدخلهم في جنّات عدنٍ)، فجاء قوله: ﴿جَنَّٰتِ﴾ مفعولًا به ثانيًا على التَّوسُّع، ومناسبةُ العدولِ عن أن يُقال: (أدخلهم في جنّات عدنٍ) إلى ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ الإشعارُ بأنَّ دخولَهم جنّات عدنٍ يكون فيها كلها، فهُم يُمتَّعون في مواضعَ متنوِّعةٍ فيها، وهذا فيه من مزيدِ الكرامةِ وعظيم الامتنان.

الجنَّةُ كلُّها يُمتَّع فيها المؤمنون

**نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة الجمع:**

لَمّا جاء قولُهُ: ﴿جَنَّٰتِ﴾ مفعولًا به على التَّوسُّع؛ لإفادة تنوُّع مواضعِ أهل الجنَّة فيها؛ ناسبَ أن يأتي لفظ ﴿جَنَّٰتِ﴾ بصيغة الجمعِ؛ ليُفيد أنَّ كلَّ موضعٍ هو جنَّة، كما أنَّه لَمّا كان الدُّعاء بصيغة

كلُّ موضعٍ في الجنّات هو جنَّةٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 92.

الجمعِ في قولِه: ﴿وَأَدۡخِلۡهُمۡ﴾ وما قبلَهُ؛ أفاد تنوُّع مواضعِهم ومراتبِهم في جنّات عدنٍ، التي هي درجاتٌ عظيمة، فلكلّ درجةٍ موضعٌ لأهلِها.

**فائدةُ الإضافة:**

أفادتِ الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ معنى الاختصاص، بمعنى: أنَّها جنّاتٌ مختصَّةٌ بالإقامة والاستقرارِ فيها.

**براعةُ استعمال مفردة ﴿عَدۡنٍ﴾:**

لا يعلمُ بحقيقةِ جنّات عدنٍ إلّا مَن خلقها وشاهدها عيانًا

جاء استعمالُ مفردةِ ﴿عَدۡنٍ﴾ الذي هو بمعنى الاستقرار والثَّبات؛ ليُفيد ثباتَ إقامتِهم في الجنّات، بمعنى أنَّ مَن يدخلها يقيمُ فيها ولا يتحوَّل عنها، فيفيد بلازمِهِ خلودُهم فيها، وأوثِرَت ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾؛ لأنَّها عومِلت معاملةَ الاسم العلم، ولم تردْ في القرآن الكريم إلّا إخبارًا من اللّه تعالى عمّا أعدَّه للمؤمنين، أو على لسانِ الملائكة في الدُّعاءِ للمؤمنين، وذلك يدلُّ على أنَّ هذه الجنّاتِ ممّا لا يعلم حقيقةَ الخلود فيها على وجه اليقين إلّا مَن خلقها، وشاهدها، فالملائكةُ تدعو للمؤمنين بما شاهدوهُ من عظيم النَّعيم المُقيم.

**نكتةُ استعمال الاسم الموصول:**

دعاءُ الملائكة كان بناءً على وعدٍ معهودٍ مخصوص

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ الاسم الموصول: ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ صفةً لقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾، وذلك لإفادة الاختصاصِ المُشير إلى أنَّ سؤال الملائكة لم يكن متجاوزًا حدودَهم، بل أقاموه على وعد اللّهِ تعالى، وهو وعدٌ معهودٌ لديهم، وفيه إيماءٌ إلى عظيم هذه الجنّات الَّتي وعد اللّه عبادَهُ المتَّقين، فهي الجنّات الَّتي وعد الرَّحمن عبادَه بالغيب، وللإيماء إلى سبب دعائِهم بإدخال اللّهِ تعالى المؤمنين الجنَّة، أي: لأنَّك وعدتَهم بالجنَّة طلبنا منك إدخالَهم جنّات عدنٍ، ففيه إشارةٌ إلى إعلامِ اللّه تعالى بما وعدَهُ للمؤمنين وإشعارٌ بقربهم منه تعالى.

### بلاغةُ فنِّ الإسجال:

ذِكرُ الوعدِ إسجالًا بغرضِ تحقيق الاستجابة إفضالًا

في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ فنٌّ من فنونِ البديع، وهو الإسجال، حيث سجَّلَ الملائكة بذكرِ وعد اللّه تعالى المؤمنين دخولَ الجنَّة لتحقيق غرضِ الاستجابة، فهُم إنَّما يُسجِّلون ذلك لمزيد التَّقرُّب مِن اللّه تعالى، وتعليم المؤمنين كيف يكون الدُّعاء، وكيف يكون الالتجاء والتَّضرُّع، وأنَّ وعدَ اللّه تعالى، وهو الوعد المتحقِّق يلزم معه الالتجاء والدُّعاء، فإنَّ الوعدَ كان فضلًا ورحمةً، لا واجبًا ولزومًا، فيحسن مع ذلك حسن الدُّعاء، بذكر الوعد إسجالًا، لتحقيق الموعودِ إفضالًا، كما أنَّ في الإسجال بالوعد إيذانًا بأنَّ دخولَهم الجنَّة بمقتضى وعد اللّه تعالى، وليس بعملِهم وكسبِهم(1).

### نكتةُ إسنادِ فعل الوعد لضميرِ الجلالة:

وعدُ اللّه تعالى ثابتٌ لا انفكاك له عن التَّحقُّقِ

جاءت جملةُ الصِّلة: ﴿وَعَدتَّهُمۡ﴾ بصيغة الماضي مسندًا إلى ضمير الخطابِ العائد إلى اللّه تعالى؛ لإفادةِ أنَّ الوعدَ ثابتٌ، وهو مُبرَمٌ لا انفكاكَ لإبرامِه، وهذا هو الغرضُ الحقيقيُّ مِن الدُّعاءِ للمؤمنينَ، فبان بذلك تقريرُ هذا الغرضِ وتأكيدُه، وأنَّ الحقَّ سبحانَه سَيَفي به لعِبادِه المؤمنينَ في الآخِرةِ، كما وعَدَهم.

### تعيينُ المعطوفِ عليه:

إذا تآلفت المعاني؛ صحَّ العطفُ عليها جميعًا

واو العطفِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾؛ لعطفِ الاسم الموصول مع صلتِه على الضَّمير (هم) مع ما تعلَّق به، والمعنى: (وأدخل من صلح منهم جنّات عدنٍ الَّتي وعدتَهم جميعًا)، ويحتمل أن يكون العطف على ﴿وَأَدۡخِلۡهُمۡ﴾، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾ [الرعد: 23]، ويحتمل أن يكون على ﴿وَعَدتَّهُمۡ﴾، والمعنى: ربَّنا وأدخلهم جنّات عدنٍ الَّتي

---

(1) ابن أبي الأصبع، تحرير التّحبير، ص: 574 - 575، والسيوطي، الإتقان: 4/ 65، ودرويش، إعراب القرآن: 2/ 148، 8/ 462.

وعدْتَهم ووعدتَ مَن صلح مِن آبائِهم[1]؛ لبيان عمومِ الوعدِ لهم ولمن صلح مِن آبائِهم وأزواجِهم وذرّيّاتِهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطور: 21]؛ ليُفيد بلازمه طلبَ إدخالِهم الجنَّة، والاحتمالان متآيلان في النَّظمِ وفي القرآنِ كلِّهِ.

### دلالةُ العطف وفائدته:

المؤمنُ يعودُ خيرُه على أهلِه وأقاربِه المشتركين معه في الإيمان

أفاد عطف ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ أنَّهم سألوه أيضًا إدخالَ هؤلاءِ في ذلك الوعدِ[2]، ففيه بيانُ حرصِ الملائكة ورحمتهم بعبادِ الله تعالى، وهو ما يُعزِّز العلاقةَ بين المؤمنين والملائكة، ومن فوائد العطفِ الإشارةُ إلى أنَّهم متَّبَعون، وأنَّ مَن صلح مِن آبائِهم ومَن معهم تابعون لهم، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ المؤمن يعودُ خيرُه على أهلِه وأقاربِه، الَّذين يشتركون معه في أصل الإيمان، ولمّا كان الصَّلاحُ مستلزمًا الإيمانَ، وكان أصلُ دخولِ الجنَّة بالإيمانِ؛ كان المرادُ إدخالَهم معهم في الدَّرجة بمعنى رفعِهم ورقيِّهم في الجنّات؛ ليكونوا مَعَهم[3].

### غرضُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول:

عُبِّرَ بالموصول وصلتِه ﴿وَمَن صَلَحَ﴾؛ للإيماء إلى وجه بناءِ الخبرِ، وهو أنَّ صلاحَ الآباء والأزواج والذّرّياتِ سببٌ لدخولِهم جَنَّةَ عدنٍ، وجاء الاسمُ الموصول بلفظ (مَنْ)؛ للدَّلالةِ على العمومِ.

### بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿صَلَحَ﴾:

الإيماءُ إلى ضرورة المسارعة في الصَّلاح بعد الفسادِ

جاء استعمالُ مفردة ﴿صَلَحَ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ صلاحَ المؤمن لا ينفع غيره، وإن قرب منه، فلا ينفعُهُ حتّى يكونَ صالحًا في نفسِه، بمعنى أنَّ صلاحَ الوالد أو القريب لا يُجدي نفعًا في الآخرة ما لم يكن الإنسان نفسُهُ صالحًا[4]، وللإيماءِ إلى أنَّ تغيُّر حالِ الآباء

(1) النّحاس، إعراب القرآن: 2/ 223، والزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 368، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 239.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 9.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 21.

(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 6/ 333.

والأزواج والذُّرّيَّة إلى الاستقامة والصَّلاح مع استمرارِهم عليها، هو طريقُ القَبول.

لفظُ الصَّلاح شرعًا يستلزم الإيمانَ

وجاء استعمالُ ﴿صَلَحَ﴾ دون (آمن)؛ للإشعار بأنَّ استحقاقَ الإلحاق بالرُّجل المؤمن أو المرأة المؤمنة في رفعِ الدَّرجة يوم القيامةِ يكون بالإيمان والعمل الصّالح في الدُّنيا، فإنَّ الصَّلاحَ يستلزمُ الإيمانَ، ولهذا عبَّر كثيرٌ مِنَ المفسِّرين عن الصَّلاح بالإيمان[1]، وبهذا يُجمَعُ بين قول مَن قال: إنَّ ﴿صَلَحَ﴾ بمعنى: صدَّق، وآمن، ووحَّد، ومَن قال: إنَّه بمعنى: صلح في عملِه[2].

### نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي:

الأنسابُ لا تنفع يوم القيامة مِن غير أعمالٍ صالحةٍ

عبَّر بصيغة الماضي ﴿صَلَحَ﴾؛ لإفادة وقوعِ الصَّلاح منه وتحقُّقه، وإن كان قليلًا، أي: إنَّ اللّه تعالى يُلحِقُهُ بالمؤمن من أهل بيتِهِ، وإن لم يكن صلاحُهُ مثلَ صلاح مَنْ يلحقُ به في الجنَّة، أي: وإن لم يعمل مثل عملِهِ، ولذلك أطلق فعل ﴿صَلَحَ﴾ دونَ تقييدٍ؛ للتَّنبيهِ على عموم صلاحِهم في أنفسِهم ومع النّاس.

### نوعُ ﴿مِنۡ﴾ ودلالته:

﴿مِنۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ﴾ للتَّبعيض، فليس جميعُ الآباء والأزواج والذُّرّيات صالحين لدخول الجنَّة.

### نكتةُ التَّغليب بلفظِ الأب:

التَّغليبُ في الأصل للأبِ وتغليب الوالديَّة في سياق الرَّحمة والبرِّ

المرادُ بقوله تعالى: ﴿ءَابَآئِهِمۡ﴾ الآباء والأمَّهات، لكن جاء ذِكرُ الآباء على طريق تغليب المذكَّر على المؤنَّث بسبب تماثلهم، فكأنَّه قال: ومَن صلح مِن آبائِهم وأمَّهاتِهم[3]، ونكتةُ التَّغليب بالأبوَّة لا الوالديَّة:

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 356، والعسكري، الوجوه والنّظائر، ص: 283، وابن الجوزي، نزهة الأعين النّواظر، ص: 397.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/ 342، والسمعاني، تفسير السمعاني: 5/ 8، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 310.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 382.

هو مراعاةُ الأصل، فالأصلُ هو تغليب الأبِ، لكن إن كان السّياق سياقَ رحمةٍ وبرٍّ؛ فإنَّ الوالديَّة الملحوظ بها الأمُّ هي الَّتي تُغلَّب.

**نكتةُ الإضافة ودلالتُها:**

الانتسابُ مع صلاح العمل نافعٌ يوم القيامةِ

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ﴾ بمعنى اللّام؛ فدلَّ على الاختصاصِ، وفيه إشعارٌ بأنَّ تمامَ سرورِهم بأنْ يَجمَعَ اللّه تعالى بينهم وبين آبائهم ونسائهم وأولادهم.

**دلالةُ ترتيبِ المعطوفات:**

حظُّ برِّ الآباءِ ملحوظٌ عند الملائكة في دعائهم

التَّرتيبُ في قولِه تعالى: ﴿مِن ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ﴾ جاء على التَّرتيب الطَّبيعي المعهود مِن واقع البشر، من حيثُ زمانُ الوجود والاجتماع، فإنَّ الآباءَ أسبَقُ عَلاقةً بالأبناءِ، ثمَّ الأزواجُ، ثمَّ الذُّرّيّاتُ[1]، والتَّرتيب يدلُّ على أنَّهم أوَّل ابتداء الطَّلب كان بإلحاقِ آبائِهم بهم؛ مراعاةً لعاطفةِ المؤمنين مع آبائِهم، ولمّا كان دعاءُ الملائكة مجابًا عند ربِّهم؛ أفادَ أنَّ الآباء أوَّلُ الأهلِ لحوقًا بالمؤمنين في الجنَّة، وهذا يدلُّ على أنَّ الملائكةَ بدعائهم قد لحظت ما للآباء من حقٍّ وحظوة، وقد يُقال: قُدِّمَ الآباءُ؛ لأنَّ الآباءَ أحَقُّ النّاسِ بالإجلالِ، وقدِّمَ الأزواجُ في اللَّفظِ على الذُّرّيَّةِ؛ لأنَّهم أشَدُّ إلصاقًا بالشَّخصِ[2].

**علَّةُ فصلِ الجملة:**

تعليلُ حكمةِ معاملةِ المحسن والمصلح

جاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ مفصولًا عن السّابق؛ لبيان السَّبب والعلَّة لما قبلها[3]، فـ(إنَّ) في مثل هذا الموضعِ تغني غناء فاءِ السَّبَبيَّةِ، أي: "فَعِزَّتُك وحِكْمَتُك هُما اللَّتانِ جَرَّأتانا عَلى سُؤالِ ذَلِكَ مِنْ جَلالِكَ، فالعِزَّةُ تَقتَضي الاستِغناءَ عنِ الانتِفاعِ بالأشياءِ النَّفيسَةِ، فَلَمّا وعَدَ الصّالِحينَ الجَنَّةَ لَم يَكُن للّه

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/ 429، والبسيلي، النكت والتنبيهات: 2/ 279.

(2) الخطيب الشّربيني، السراج المنير: 3/ 471.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 268.

ما يَضِنُّه بذَلِكَ، فَلا يَصدُرُ مِنهُ مَطْلٌ، والحِكْمَةُ تقتَضي مُعامَلَةَ المُحْسِنِ بالإحْسانِ"[1]، ونكتةُ عدم مجيء الفاء الإشعارُ باستقلاليَّة الجملة؛ لتكونَ جملةً تذييليَّة تُفيد معنى العموم والكلّيَّة، ويُتمثَّل بها في الكلام.

### بلاغةُ التَّذييلِ بالتَّأكيد:

إثباتُ الأوصاف الجليلة لله تعالى مِنَ الحقائق العظيمة

تتابعتِ المؤكِّدات في جملة التَّذييل: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بمجيء (إنَّ) وضمير الفصل ﴿أَنتَ﴾، والتَّعبير بالجملة الاسميَّة، وفائدةُ تتابع المؤكِّدات تقريرُ هذه الحقيقةِ العظيمة، وهي إثباتُ الوصفين الجليلين للّه تعالى وما يصدُر عنهما من واسع الرَّحمة وجليل الحكمة، وذلك للرَّدِّ على مَن يُنكر هذه الحقيقةَ الَّتي تؤول إلى خير المؤمنين في الآخرة.

### نوعُ القصْرِ وبلاغتُه:

لن يدخلَ أحدٌ الجنَّة إلّا بجلالِ صفاته وجمالِ كماله

جاءت جملة: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بطريق القصر بضمير الفصل ﴿أَنتَ﴾[2]، الَّذي يفيدُ اختصاص الوصفين ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ باللّه تعالى، وتقرَّر القصرُ بمجيء المسند والمسند إليه معرفتَين؛ ليفيدَ تأكيدُ القصر وتحقيقه، وهو قصرٌ حقيقيٌّ إفراديٌّ، ليفيدَ أنَّ العزَّة المطلقة والحكمة المطلقة هما للّه تعالى وحده، وأنَّه لا أحدَ غيرُ اللّه تعالى متَّصفٌ بهذين الوصفين الجليلين على الإطلاق، وللإشعارِ بأنَّ إدخالَ الجنَّة مختصٌّ باللّه العزيز الحكيم، ففيه تعظيمٌ لشأنِ دخول الجنَّة.

### نكتةُ اقترانِ الوصفين في الفاصلة:

ذُيِّل الكلامُ بذكر هذين الوصفين الجليلين: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ دون غيرِهما؛ لأنَّه لمّا كان الدُّعاء على معنى الطَّلب بإدخالِهم الجنَّة،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 93.
(2) البهاء السّبكي، عروس الأفراح: 1/ 226.

وكان العزيز بمعنى الَّذي لا يُغلَب، ولا يمتنع عليه مقدورٌ[1]؛ أفادَ أنَّه لا أحدَ قادرٌ على إدخالِهم الجنَّة إلّا اللّهُ العزيز الحكيم، كما أفادَ أنَّه لَو لَم يَكُن عَزيزًا، بَل كانَ بِحَيثُ يُغلَبُ، ويُمنَعُ؛ لَما صَحَّ وُقوعُ المَطلوبِ مِنهُ، وهو طلبُ إدخالِهم الجنَّة[2]، فظهر كمالُ الارتباط بالتَّذييل بهذين الوصفين الجليلَين.

العزيزُ الَّذي لا يُقهر هو الحكيم الَّذي يضع الأمورَ في نصابها

### نكتةُ التَّقديم والتَّأخير بين الوصفين:

قدَّمَ النَّظمُ الكريم ذِكرَ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على وصفِ ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ للإشعار بأنَّ إدخالَ الجنَّة لا يكون إلّا مِن العزيز ذي الغلبَة والمنعَة، وأنَّ حصولَ هَذا المَطلوبُ هو عَلى وفْقِ الحِكْمَةِ والمَصْلَحَة، وأنَّه مع ملكِه وعزَّتِه لا يفعل شيئًا إلّا بداعي الحكمة، ومن مقتضى الحكمة الوفاءُ بالوعدِ[3].

من مقتضى الحكمة الوفاءُ بالوعدِ

### معنى تعريف الوصفين:

(أل) الدّاخلة على الوصفين الجليلين: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ دالَّةٌ على معنى الكمال، ففي مجيئِها تقريرٌ لمعنى المبالغة في الوصفين.

### فائدةُ التَّعبير بصيغة المبالغة:

جاء الوصفان الجليلان: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ بصيغة المبالغة للإيذانِ بأنَّ اللّه تعالى له كمالُ العزَّة والحكمةِ، وأنَّه هو المتَّصف بهما على الحقيقةِ؛ لثبوتِ الوصف وكمالِه، مع انتفاءِ اتِّصافِ أحدٍ بهما على التَّحقيق الحقيق بالحقِّ ﷻ.

لا يوصف بالعزيز الحكيم على التَّحقيق الحقيق بالحقِّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 268.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 493.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 153، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 493.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾ [غافر: 9]

الوقاية من السّيّئات من كمال الدُّعاء بالرَّحمة

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا سأل الملائكةُ النَّجاةَ للمؤمنين مِن العذاب، وإدخال دار النَّعيم؛ ناسب أن يُعقِّبوا دعاءَهم بالسَّلامة من عموم ما يسوء المؤمنين يومَ القيامةِ، فقالوا: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾[1]، فهو مِن تمام الدُّعاء وبليغ الحرص، ذلك أنَّ الإنسانَ قد يُغفَرُ له، ويُكرَمُ، ويكون عنده مِن الأخلاق ما ربَّما حمله على بعض الأفعال النّاقصة، فدعوا لهم بالكمالِ[2]، وبأن يقيَهم في الآخرةِ شرَّ السَّيّئات الَّتي اقترفوها في الدُّنيا.

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقِهِمُ﴾: أصلُ (وقي) كلمةٌ واحدةٌ تدُلُّ على دَفْعِ شيءٍ عن شيءٍ بغيره، ومنه الوِقايَةُ: ما يَقي الشَّيءَ، ومعنى: اتَّقِ اللّٰه: تَوَقَّهُ، أي: اجعَلْ بينك وبَيْنَهُ كالوقايةِ[3]، وتَأتي بِمعنى الحِفْظِ مِن الأذى والضَّرَرِ[4]، والتَّقوى: اتِّخاذُ الوقايةِ والحِمايَةِ مِن الشَّيءِ، والتَّوَقّي: جعْلُ النَّفْسِ في وقايةٍ ممّا يُخاف، والواقي: الحائلُ دون الضُّرِّ[5]، ومعنى الوِقايةِ في الآية: الصّيانةُ والحِفْظُ من المكروه.

2) ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾: أصلُ (سوء) يَدُلُّ على القُبْحِ، تقولُ: رَجُلٌ أسوَأُ، أي: قَبيحٌ، وامرأةٌ سوءاء، أي: قبيحةٌ، وسُمّيَتِ النّارُ: سوءَى،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 93.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 15 - 16.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (وقى).
(4) السمين، عمدة الحفاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وقى)، والمناوي، التوقيف، ص: 340.
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (وقى)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 226.

لقُبْحِ منظرها[1]، والسَّيِّئ والسَّيِّئةُ: عَمَلان قبيحان، يصيرُ السَّيِّئ نَعْتًا للذَّكرِ مِنَ الأعمال، والسَّيِّئة للأُنثى، واللّه يَعفو عَنِ السَّيِّئات، والسَّيِّئةُ: اسمٌ كالخطيئة[2]، والسّوءُ: الشَّرُّ والفَسادُ، يُقالُ: عَمِلَ سوءًا، أي: شَرًّا وفَسادًا[3]، والسّوءُ أيضًا: الحُزْنُ والغَمُّ، ويأتي بمعنى الضَّرَرِ والأذَى، كقولِهم: بَلَغَهُ السّوءُ، أي: الضُّرُّ، وكُلُّ ما يُكْرَهُ؛ فهو سوءٌ[4]، والمرادُ بـ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ في الآية: الفواحشُ الموجبةُ للنّار.

3) ﴿ٱلْفَوْزُ﴾: أصلُ (فوز) يدلُّ على النَّجاةِ ممّا يُحذَرُ، والظَّفَرِ بما يُؤَمَّلُ مع حُصول السَّلامة[5]، يُقالُ: فازَ يفوزُ؛ إذا نجا، وهو فائزٌ، وفاز بالأمرِ؛ إذا ذَهبَ بِهِ، وخَلَصَ[6]، ويُقالُ لِمَنْ ظَفِرَ بخَيْرٍ، وذَهَبَ بِهِ، قال اللّه تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: 185]، وسُمّيَتِ الأرضُ القَفْرُ البَعيدَةُ المَخوفُ مِنَ الهلاكِ فيها مَفازةٌ على سَبيلِ التَّفاؤُلِ؛ لأنَّ مَنْ قطَعها فازَ[7]، والمقصود بـ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ في الآية: النَّجاةُ من العذاب والتَّنعُّم بِنَعيمِ الجنَّة.

## ۞ المَعنى الإجْماليُّ:

النَّجاةُ مِنَ النّارِ ودُخولُ الجنَّةِ هو الفَوزُ العظيم

تُتابعُ الآيةُ الكريمة ذِكرَ ما دعا به الملائكةُ للمؤمنين، وقد دعوا أن يحفظَ اللّهُ المؤمنينَ الَّذين تابوا، واتَّبَعوا السَّبيلَ الحقَّ من شرِّ السَّيّئات في الآخرة، فإنَّ هذا قرينُ الاستغفار للمؤمنين، فإنَّ مَنْ تَصْرِفْ عنه سوءَ عاقبةِ سَيِّئاتِه يومَ القيامة؛ فقد رَحِمْتَهُ بالنَّجاةِ من عَذابِك، ودُخولِ جنَّتك، وهو الفوزُ الكبيرُ الَّذي لا فَوْزَ مِثلُهُ[8].

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سوأ - سوء).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوأ).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (سوأ).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط: (سوأ).
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 3/ 454.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فوز).
(7) الميداني، مجمع الأمثال: 2/ 390، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/ 454.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 286، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 296، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 732.

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### نكتةُ العطفِ بالواو:

كمالُ السَّعادةِ بدخولِ الجنَّة مع الوقاية من النّار

جاءتِ الآيةُ: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ موصولةً بجملِ الدُّعاءِ السّابق؛ للاشتراكِ في الطَّلبيَّة على سبيل الدُّعاء، فإنَّ دعاءَهم بـ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ على سبيل التَّرقّي بأن يقيَهم شرَّ السَّيّئات في الآخرة، فقصدوا الجمعَ في دعائِهم بين إدخالِهم الجنّات والسَّلامة مِنَ الأذى، فبمجموع الأمرين ينتجُ الفوز العظيم.

### بلاغةُ استعمالِ لفظ ﴿وَقِهِمُ﴾:

الوقايةُ من شرِّ السَّيِّئات في الآخرة بسبب التَّقوى في الدُّنيا

استعمل النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿وَقِهِمُ﴾ دون رديفاتِه؛ لما يُفيده لفظُ الوقايةِ مِن معنى حفظِ الشَّيء ممّا يؤذيه، ويضرُّهُ، مع تصوير ذلك بوجودِ حاجزٍ واقٍ مِنَ السَّيّئات، كأنَّ بينهما حاجزًا، ومنه توقّى الشَّيء: تجنَّبَهُ، وابتعد عنه[1]، فهُم يدعونَ للمؤمنين بالحفظ التّامِّ الَّذي لا يعترضُهُ شرُّ السّيِّئات، فأفادَ لفظُ الوقاية الحفظَ والصّيانة، وتصويرُ ذلك بوجودِ حاجزٍ، مع الإشارة إلى أنَّ المؤمنَ كان يتَّقي السّيِّئات في الدُّنيا بصلاحِه، وما فاته منها بسبب بشريَّتِه؛ فإنَّ اللّهَ يقيه شرَّه في الآخرة.

### تعيينُ مرجعِ الضَّمير:

اجتماعُ الشَّملِ في لفظِ الضَّمير يُشير إلى اجتماعه في دار النَّعيم

لمّا جاء قولُه تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ بعد الدُّعاء للمؤمنين بإدخالِهم جنّات عدنٍ مع مَن صلح مِن آبائِهم وأزواجِهم وذرّيّاتِهم؛ أفاد أنَّ الضَّميرَ المنصوب في ﴿وَقِهِمُ﴾ يعود إلى المؤمنين ومَن صلح على سبيل الاجتماع، والتَّقدير: وقِ الَّذين آمنوا، ومَن صلَح مِن آبائِهم وأزواجِهم وذرّيّاتِهم السَّيّئاتِ؛ ليفيدَ الدُّعاء للمؤمنين وأقربائِهم بوقايتِهم مِنَ السَّيّئات على سبيل الاجتماع، ففي التَّعبير

(1) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وقي).

بالضَّمير إيجازٌ لطيف بديع، لِما فيه من الإشارةِ إلى أنَّ الدُّعاءَ باجتماعِهم مقبولٌ بإذن الله.

**معنى تعريفِ لفظ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾:**

المــؤمــنــون لا يــعــتريــهــم مــا يــكــدِّرهــم مــن الــتَّــوبــيــخ والفضيحة يوم القيامة

(أل) في قولِه: ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ للجنسِ، فيقصد باللَّفظ عموم السَّيِّئاتِ، ولمّا جاء اللَّفظ في سياق الدُّعاء؛ أفادَ الاستغراق، بمعنى: قِهِم جميع السَّيِّئات أو جميع ما يسوؤهم؛ ليفيد إبلاغَ هؤلاء المؤمنين ومن صلح مِن أهلهم "أعلى دَرَجاتِ الرِّضا والقَبولِ يَومَ الجَزاءِ بحَيثُ لا يَنالُهُمُ العَذابُ، ويَكونونَ في بُحبوحَةِ النَّعيم ولا يَعتَريهم ما يُكَدِّرُهم مِن نَحوِ التَّوبيخِ والفَضيحَةِ، كما قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ [الإنسان: 11]"[(1)].

**لفظُ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ بين الحقيقة والمجاز:**

تــنــوُّع المعــنــى القرآنيّ أصلٌ في تنوُّع التَّوجيه

يحتمل لفظُ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ أن يكونَ مِن باب المجاز بالحذف، والتَّقدير: (جزاءَ السَّيِّئات)، أو (عاقبة السَّيِّئات)، أي: السَّيِّئات الَّتي كانوا أتوها قبل توبتهم وإنابتهم[(2)]، أو التَّقدير: وقِهِم فعل السَّيِّئات[(3)]؛ ليفيد اجتنابَها في الدُّنيا بحفظهم من مواقعتِها؛ حَتَّى لا يَتَرَتَّبَ عَلَيها جزاؤها، أي: عقوبة فاعلِها في الآخرة.

ويحتمل أن يكونَ على طريق المجازِ المرسلِ بأن يكونَ قد ذكر السَّبب، وأراد المسبَّب، أو ذكر اللَّفظ، وأراد ما يؤول إليه، والمعنى: وقِهِم العقوباتِ، أي: في يوم القيامةِ[(4)]؛ لأنَّ العقوباتِ مسبَّبةٌ عن السَّيِّئات وتؤول - أي: السَّيِّئات - إليها، فيتناولُ اللَّفظ عذابَ الجحيم وعذاب الموقفِ وعذاب الحسابِ والسُّؤال وغيرها من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 94.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 357، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 107، والزمخشري، الكشاف: 4/ 153، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 548.
(3) مكي بن أبي طالب، الهداية: 10/ 6405.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 302.

المواقف المؤذية يوم القيامة، ونكتةُ ذِكرِ السَّببِ على طريق المجاز المرسل التَّنبيهُ إلى أنَّ السَّيِّئات هي سببُ العقوبات، ومآلُها إليها يومَ القيامة، ففيه تحذيرٌ مِن الوقوع فيها وتقبيح فعلِها.

ويحتمل أن يكونَ لفظ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾على الحقيقةِ، والمرادُ: وقِهم السَّيّئات، أي: المعاصي في الدُّنيا، ووقايتُهم منها: حِفظُهم عن ارتكابها(1)؛ لأنَّ الملائكةَ الَّذين يحملون العرشَ لمّا طلبوا المسبَّبَ، وهو دخولُ المؤمنين الجنَّة؛ طلبوا لهم السَّببَ الَّذي يؤهِّلهم لدخول الجنَّة؛ إرشادًا للمخاطَبين إلى سبب دخول الجنَّة، أو يكون المرادُ من ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ ما يسوء، أي: وقِهم ما يسوءهم مِن عقابِك وغضبك، ومنه قوله: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ﴾ [الأعراف: 131]، أي: إن يصبهم ما يسوءهم؛ يطيَّروا بموسى(2)، وهذا الوجهُ راجعٌ إلى المعنى في المجازِ المرسلِ.

### نوعُ الواو وفائدتُها:

مرجعُ الأمـرِ في دخـول المؤمنين الجنَّة إلى رحمةِ الله تعالى وحده

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَمَن تَقِ﴾ تحتمل أن تكونَ استئنافيَّةً؛ لتكون جملة الشَّرط وجوابها بمنزلة الجملة المستقلَّة؛ لتفيدَ العمومَ والكلّيَّة، وتكون بمنزلةِ المثلِ في حكايتِها والتَّمثُّل بها، ومع كون الواو استئنافيَّةً فإنَّ الجملةَ غيرُ منقطعةٍ عمّا قبلَها، فكأنَّها بمنزلةِ التَّدليل على سبب اختيارِهم هذا الدُّعاء دون غيرِه؛ ليكون مرجعُ الأمرِ في دخول المؤمنين الجنَّةَ إلى رحمةِ الله تعالى وحدَه، كما تحتمل أن تكونَ عاطفةً على جملة الطَّلب: (قِهِمُ السَّيِّئاتِ)، فتكونَ مقرِّرةً للتَّدليل المذكور.

### نوعُ (مَنْ) ودلالتها:

يفيدُ اسم الشَّرط في قولِه: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ العمومَ على

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 9، وابن عطيَّة، المحرر الوجيز، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 302.
(2) أبو حفص النَّسفي، التيسير في التفسير: 13/ 91، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 94.

الإفراد، ولمّا جاء اسمُ الشَّرط مقيَّدًا بالفعل ﴿تَقِ﴾؛ أفاد شمولَ اللَّفظ لكلِّ مؤمنٍ يقيه اللّه السَّيّئاتِ.

## نكتةُ حذف المفعول:

حُذِف مفعولُ فعل ﴿تَقِ﴾؛ لإفادةِ العموم، والمعنى: ومن تقِ أيَّ إنسانٍ السَّيّئات؛ فقد رحمتَه؛ ليُفيد أنَّ كلَّ مَن يقيه اللّهُ السَّيّئاتِ يومَ القيامة؛ فقد نالته رحمةُ اللّهِ[1].

## بلاغةُ التَّذييلِ بالجملة الشَّرطيَّة:

تأكيدُ أنَّ الاتِّقاءَ مِـنَ العقوبات إنَّما هو برحمة الله تعالى

لّما كان الشَّرطُ على معنى تعليق وقوع الجزاء على وقوع الشَّرط؛ أفادَ أنَّ سؤالَ الملائكة أن يقيَ اللّه تعالى المؤمنين السَّيّئات لا يوجب وقوعَه بمجرَّد دعائِهم، بل الأمرُ معلَّقٌ بمن يقِهِ السَّيّئاتِ، وراجعٌ إلى رحمة اللّه تعالى، وأنَّ رحمةَ اللّهِ للمؤمنين تحصل عند وقايتِهم مِنَ السَّيّئات، فالاتِّقاءُ مِنَ العُقوبات رحمةٌ مِنَ اللّه تعالى، كما أنَّه لّما كان المقصدُ الأهمُّ هو الجزاءَ؛ أفاد عظم رحمة اللّه تعالى، وأنَّها سببُ كلِّ فضلٍ ودفعِ كلِّ سيِّئٍ ومكروه، وكذلك جاءت جملةُ الشَّرط تذييلًا لما قبلها وتقريرًا له وتأكيدًا، بمعنى: أنَّ دعاءَ الملائكة بأن يقيَ اللّه المؤمنين السَّيّئاتِ هو دعاءٌ لهم بأن ينالوا رحمتَهُ تعالى.

## نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع:

لّما جاء فعل الشَّرط ﴿تَقِ﴾ بصيغة المضارع؛ لأنَّه مستقبلُ الوقوع، ولتصوير وقايةِ اللّه تعالى عبادَه المؤمنين السَّيّئات، فيتشوَّقون لنيل رحمتِها.

## معنى تعريف لفظ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

(أل) في قولِه تعالى: ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ للعهد الذِّكري، بمعنى: ومَن تقِ السَّيّئات الَّتي سألناك أن تقيَ المؤمنين منها؛ فقد رحمتَهُ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 94.

### نكتةُ تَكرار لفظ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

ما يراه الملائكةُ مِنَ الأهوال لا يُحيط به الوصف

نكتةُ تَكرارِ لفظ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بيانُ أنَّ مَن وُقيها، فقد وقي الشَّرَّ كلَّهُ، وللإيماء إلى شديد أمرِها في الآخرة، وما تجلبُهُ لِمَن لم يوقَّها من الشَّرِّ العريض، فما يجري على ألسنةِ الملائكة إنَّما يجري بما يرونه، لا بما يسمع بِهِ النّاس، فما يرونه لا يُحيط به الوصفُ، ولا يدركه عقلُ البشرِ.

### نوعُ التَّنوين وأثره في تقدير المحذوف:

تهويلُ موقف المؤاخذةِ على السَّيّئات ووقوع العقوبات يوم القيامة

في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ جاء لفظ (إذٍ) منوَّنًا؛ ليكونَ التَّنوين عوضًا عن جملةٍ محذوفة، والتَّقديرُ: ومَن تقِ السَّيّئات يومَ إذْ يؤاخذُ بها؛ فقد رحمتَهُ، ونكتةُ حذفِ الجملة الَّتي يكون التَّنوين عوضًا عنها تهويلُ موقفِ المؤاخذةِ على السَّيّئات ووقوع العقوبات[1]، وعلى القول بأنَّ المرادَ مِنَ السَّيّئاتِ المعاصي مِنَ الصَّغائر والكبائر[2]، يكون التَّقديرُ: ومن تقِ السَّيّئات يومَ إذْ هم في الدُّنيا؛ فقد رحمتَهُ[3].

### نوعُ الفاءِ ودلالتها:

وقعتِ الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾ في جواب الشَّرط؛ للرَّبط بين الشَّرط وجوابه، أي: إن حصلتِ الوقايةُ؛ فقد تحقَّقت الرَّحمة الإلهيَّة.

### فائدةُ استعمال أداةِ (قَدْ):

أفادَت أداةُ التَّوكيد (قَدْ) تحقيقَ وقوعِ رحمة اللّٰه بمن يقيه جزاءَ السَّيّئات وعقوباتِها في الآخرة، فإنَّ الرَّحمةَ حينئذٍ تكون متحقِّقةً، ولا رحمة سواها.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 239.

(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 153.

(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 25.

### نكتةُ التَّعبير بصيغة الماضي:

جاء الفعل ﴿رَحِمۡتَهُۥ﴾ بصيغة الماضي؛ لإبراز ما دُعي بوقوعِه قبل أن يقعَ؛ لتهيئة النُّفوس وتشويقها إلى وقوعه؛ تفاؤلًا بوقوع الرَّحمة وإظهارًا للرَّغبة فيها، وإشعارًا بأنَّ رحمةَ اللّٰه للمؤمنين يومَ القيامةِ بمنزلةِ وعدٍ مِنَ اللّٰه تعالى لهم.

تشويقُ المؤمنين للرَّحمةِ مهمازُ الاستغفار والإقبال

### نوعُ الواوِ ودلالتها:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ استئنافيَّةٌ، وجملةُ: (ذَٰلِكَ هوَ الفَوزُ العَظيمُ) تذييليَّة؛ توكيدًا وتقريرًا لعظم الرَّحمة ودخول الجنَّة والوقاية من النّار.

### دلالةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة البعيد المذكَّر:

جاء استعمالُ اسم الإشارة (ذلِكَ) الَّذي هو للبعيد؛ إشعارًا بعظم المُشار إليه وفخامتِه وعلوِّ مكانتِه ورفعتِه، والمشارُ إليه هو رحمةُ اللّٰه تعالى، الَّتي تنشأ عنها المغفرةُ، والوقاية مِنَ النّارِ، ودخول الجنَّة، وجيء باللَّفظِ بصورة المذكَّر؛ تنبيهًا إلى مجموعِ ما يصدر عن رحمتِه تعالى، ففي اسم الإشارة تعظيمٌ لرحمة اللّٰه تعالى، فإنَّ مَن ينالُها يوم القيامة يكون قد فاز فوزًا عظيمًا[1].

التَّنبيهُ إلى علوِّ شأنِ رحمةِ اللّٰه ورفعتِها وتعظيمِها

### بلاغةُ القصرِ:

جاء قولُه تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ بطريق القصر بضمير الفصلِ، وتقرَّر القصرُ بمجيء المسند والمسند إليه معرفتين، والتَّقدير: ذلك هو وحده وخاصَّةً الفوز العظيم، فلا فوزَ غيره، بمعنى قصرِ الفوز العظيم على المشار إليه؛ ليفيدَ أنَّ مَن ينال رحمتَهُ تعالى، أو أنَّ غفران ذنوبِهم ووقايتَهم مِنَ العقوبة، وما يسوؤُهم يومَ القيامةِ مِنَ الوقوع في النّار، أو رؤيتِها هو الَّذي يفوز

الفوزُ العظيمُ هو نيلُ الرَّحمةِ بدخول الجنَّة

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 52، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 302، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 94.

الفوز العظيم، وأنَّ غيرَه قد خسرَ خسرانًا مبينًا، ففيه تشوُّفٌ إلى نيل رحمة اللّه وتوقّي المعاصي والذُّنوب الَّتي توجب العقوبةَ، وفيه إشعارٌ بأنَّ الفوزَ العظيم هو الَّذي يكون في العقبى بنيل رحمةِ اللّه تعالى ودخول الجنَّةِ.

**معنى تعريف لفظِ ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾:**

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ للكمال، بمعنى كمالِ الفوز الَّذي لا يعدلُهُ فوزٌ آخر، وهو الَّذي يستحقُّ أن يُسمَّى فوزًا عند إطلاق اللَّفظ.

**نكتةُ وصف الفوز بالعظم:**

الفوزُ العظيم لا يوقَفُ على كنهِهِ ولا تُدرَك عظمتُهُ

وُصِفَ الفوز بصفةِ ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾؛ إشعارًا بأنَّ هذا الفوزَ لا يعدلُهُ فوزٌ في الدُّنيا ولا في الآخرة؛ لأنَّ المؤمنين وجَدوا في جنّات عدنٍ بأعمالٍ مُنقَطِعَةٍ في الدُّنيا نَعيمًا لا يَنقَطِعُ في الآخرة، وبأعمالٍ حَقيرَةٍ قليلة مُلكًا لا تَصِلُ العقولُ إلى كنهِهِ ووسعه[1]، فمهما حاول العبادُ أن يصلوا بتفكيرِها القاصر لفهم كنهِهِ، فهُم عاجزون عن بلوغِ عظمتِهِ.

**توجيهُ علَّةِ حذف استجابة الدُّعاء:**

طـيُّ ذِكـر استجابة الدُّعاء إيـذانٌ بظهوره وإشعارٌ بقبولِهِ

لمّا جاءت جملة التَّذييل: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ مؤذنةً في طيّها بأنَّ المؤمنين يظفرون بالجنَّة والنَّعيم العظيم فيها برحمة اللّه تعالى؛ أفاد الكلام استجابةَ الدُّعاء، فطيُّ ذِكر استجابة دعاء الملائكة ضربٌ من الإيجاز[2]، بالإشارة إليه في ضمن جملة التَّذييل، كما أنَّه لمّا عدل عن التَّصريح باستجابة الدُّعاءِ إلى ذِكر حال الكافرين في الآية التّالية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [غافر: 10]؛ كان في العدول ضربٌ مِنَ الأسلوب الحكيم، بمعنى: أنَّ حالَ المؤمنين معروفٌ، ولا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 493.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 94.

يحتاج إلى سؤالٍ، والأولى السُّؤالُ عن حال أضدادِهم من الكافرين يوم القيامة، ولهذا طوى ذِكرَ استجابة الدُّعاء.

## ❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### الوقايةُ والحفظ والمنع:

الوقايةُ تجنُّبُ الأذى، والحفظُ هو التَّعهُّدُ والرِّعاية، والمنع هو الحماية

الوقاية: هي حفظُ الشَّيءِ ممّا يؤذيه، ويضرُّه على جهة دفعِه أو الابتعاد عنه وتجنُّبه بسترٍ وواقٍ يقيه منه أو بغيرِه، والوقاية لا تكون إلّا ممّا هو ظاهرٌ أذاه وضرُّه، ومنه المتَّقي؛ لأنَّه يدفع عنه المعاصي، ويجتنبها، والتَّقوى كذلك، ونكتةُ إيثار لفظ الوقاية في قوله تعالى: ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾ [غافر: 7]، وقوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾، هو أنَّ المقصودَ تجنيبُهم عذابَ الجحيمِ وابتعادُهم مِنَ السَّيّئات ودفعُها عنهم، بمعنى: أنَّه لولا أنَّ اللّٰه تعالى هو الَّذي يدفعها عنهم؛ لوقعوا فيها، فكأنَّ بينهم وبين الجحيم والسَّيّئات ساترًا يدفع عنهم الضُّرَّ[1].

وأمّا الحفظُ؛ فيُستعمل في التَّفقُّد والتَّعهُّد والرِّعاية والمواظبة والاستمرار، ويفيد معنى عدم النِّسيان والغفلة، قال اللّٰه تعالى في بيان حفظِه للقرآن الكريم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]، وقال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ [البقرة: 238]، وأمّا المنعُ؛ فهو الحماية، ومنه مكانٌ منيعٌ وفلان ذو منعةٍ.

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وقى، حفظ، منع).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ١٠﴾ [غافر: 10]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

من عاداتِ القرآن المعاقبةُ بين التَّرغيب والتَّرهيب

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى الذين آمنوا، وسرورَهم باجتماعِهم بالمقرَّبين من أهليهم، وبيَّن صفاتِهم التي أهَّلتهم للفوز العظيم المقتضي رضا الله عنهم؛ تشوَّفَتِ النَّفسُ إلى معرفةِ ما لأضدادهم الأشقياء مِنَ الكافرين، كما هي عادة القرآن من تشفيع التَّرغيبِ بذكرِ شيءٍ مِن أحوال المؤمنين يوم القيامة بالتَّرهيبِ، بذكر شيءٍ مِن أحوال الكافرين ذلك اليوم، فقال مستأنفًا مؤكِّدًا لإنكارهم هذه المناداةَ بإنكار يومها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ﴾[1].

وأيضًا لمّا ذكرَ المؤمنين واشتهار فرحهم وسرورهم بين الملائكة؛ ناسب أن يُعقِبَهُ ذِكر الكافرين واشتهار ذلَّتهم ومهانتهم بين الأشهاد يوم القيامة.

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَمَقۡتُ﴾: أصلُ (مقت) يَدُلُّ على شناءةٍ وقُبْحٍ[2]، والمَقْتُ: البُغضُ الشَّديد لمن تراه تعاطى القَبيحَ[3]، وهو أخصُّ مِن البُغض[4]، واسم المفعول منه المقيتُ أو الممقوتُ، ونِكاح المَقْتِ كان في الجاهليَّة أن يتزوَّج الرَّجُلُ امرأةَ أبيه لشدَّة بغضِهِ في الفطرةِ، ولِما في ذلك

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 240، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 17، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 268.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مقت).
(3) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (مقت).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (مقت).

الزَّواج مِنَ الإمساك في الذِّمَّة على وجه غليظٍ مستقبحٍ[1]، والمُراد بالمَقْتِ في الآية: شِدَّةُ البُغْض.

2) ﴿تُدۡعَوۡنَ﴾: (دعو) أصلٌ واحدٌ، وهو أنْ تُميلَ الشَّيءَ إليكَ بصوتٍ وكلامٍ يكونُ منكَ، تقولُ: دعَوتُ أدعو دُعاءً[2]، واستجاب اللّه دعاءَهُ ودَعوته[3]، والدَّعوة: هي الوليمةُ، والدُّعاة: قومٌ يَدْعون إلَى بَيْعةِ هدًى أو ضَلالَة، واحدهم داعٍ، ورجل داعيَة؛ إذا كانَ يدعو النّاس إلى بِدعة أو دين، أُدخلت الهاء فيه للمُبالَغة[4]، والدَّعوى: الادِّعاءُ[5]، وهي أيضًا: الدُّعاء[6]، والمقصودُ بالدَّعوة في الآية: القولُ الدّالُّ على طلَبِ عمَلٍ من المُخاطَبِ.

### المَعْنى الإجْماليُّ:

مـقـتُ الـكـافـرِ الـعـظـيـم يـوم العذابِ العظيم

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ ما يُقالُ للكافِرينَ، وهم يُعذَّبونَ في النّار، فيُنادى فيهم: لَبُغْضُ اللّهِ الشَّديدُ لكم في الدُّنيا حينَ كُنتُم تُدْعَونَ فيها إلى الإيمانِ، فتَكفُرونَ، أعظَمُ مِن بُغضِكم الشَّديدِ اليَومَ لأنفُسِكم[7]، وهذه المقارنةُ لبيان لطفِ اللّه لهم في الدُّنيا، وشديد عذابِهِ يوم القيامةِ، الَّذي يُلحق بأصحاب النّار النَّدم الشَّديد، وذكر هذا النِّداء لترهيب الكافرين، وحثِّهم على سرعة النَّدم قبل مجيء يوم الحسرة.

### الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

#### بلاغةُ الاستئناف البيانيِّ:

بـيـانُ رحـمـةِ الملائكة بالمؤمنين وإهـمـالـهـم للكافرين

جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (مقت).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (دعو).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (دعا - دعو).
(5) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (دعا).
(6) الراغب، المفردات: (دعا).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 288، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 132، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 733.

﴿مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ مفصولًا عن السّابق؛ ليكون على طريق الاستئناف البيانيِّ[1]؛ تعظيمًا لخطر ما يكون عليه أهل الكفر والضَّلال، فيكون الكلام جوابًا لسؤالٍ، تقديره: إذا كان حالُ الملائكة مع المؤمنين هو الدُّعاء لهم، فكيف يكون حالُهم مع الكافرين؟ فأجيب بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾، ففيه استدرارٌ لأسماعِ المخاطَبين، وتنبيهٌ لعظم الهول الَّذي يصيب الَّذين كفروا والذِّلَّة الَّتي تعتريهم، والمهانة الَّتي يكونون عليها، ففيه بيانُ حال الملائكة مع الكافرين.

### فائدةُ تأكيدِ صدرِ الآية:

تفيدُ ﴿إِنَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تأكيدَ مضمون الجملةِ وتحقيقها، بمعنى: إنَّ هذا النِّداء للكافرين واقع - لامحالةَ - وهو تحقيقٌ لما قد يشكُّ فيه شاكٌّ.

### مناسبةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

الكفرُ بالله أصلُ البلاء وعلّة الدّاء

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالاسم الموصول دون الظّاهر في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ﴾؛ للإيماء إلى وجهِ بناء الخبر، بمعنى: إنَّ كفرَهم هو سبب ندائِهم النِّداء المذكور، وسبب إهانتِهم وذلِّهم يوم القيامة، وفيه لطيفةٌ أخرى، وهي أنَّهم ينادَون بوسمِ الكفرِ، ففيه مِنَ الخِزي والنَّدامة على الكافرين ما فيه.

### نكتةُ حذف متعلّق الفعل:

الكفرُ الموجبُ لدخول النّار أعمُّ من أن يُذكر

حُذِف متعلِّق فعل ﴿كَفَرُواْ﴾، فلم يقل: (كفروا باللّهِ، أو كفروا باللّه ورسلِهِ، أو كفروا باليوم الآخر)؛ وذلك لبيانِ عموم كفرِهم بكلِّ ما يقود الكفر به إلى النّار، ولإفادة أنَّ مَن كفرَ بواحدٍ ممّا يجب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 17.

الإيمانُ به؛ فقد كفر بالجميع، كما يُفيد حذفُ المتعلِّق أنَّ الكفرَ صار سجيَّةً يُعرَفون به، وللإيماءِ إلى أنَّ الَّذين كفروا هم قومٌ معهودو الصِّفات، معروفو السِّمات.

**غرضُ تقديم المسند إليه على المسندِ الفعلي:**

قُدِّم ذكرُ المسندِ إليه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على المسند الفعليِّ ﴿يُنَادَوۡنَ﴾؛ لإفادةِ تقوّي الحكمِ وتحقيقِهِ، ولتقرير مضمونِهِ.

**نكتةُ استعمال مفردة النِّداء:**

نداءُ الكفّار افتضاحٌ بما تُخفيه النُّفوس

لمّا كان النِّداء بمعنى الدُّعاء بأعلى صوتٍ؛ أفاد التَّعبير بلفظ ﴿يُنَادَوۡنَ﴾ أنَّهم يُنادى عليهم بصوتٍ عالٍ مرتفع، بمعنى أنَّهم يُصاحُ بهم أمامَ الملَأ يوم القيامةِ؛ ليُفضَحوا على رؤوس الخلائق، فيكونَ أعظمَ في توبيخهم وإهانتِهم، ولمّا كان النِّداءُ يقتضي بُعدَ المنادَى عنِ المنادي حسًّا أو معنًى؛ أفاد لفظ ﴿يُنَادَوۡنَ﴾ بُعدَهم عن الحقِّ بسبب كفرِهم.

**نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة المبني للمفعول:**

جاء التَّعبيرُ بصيغة المبني للمفعول في فعل ﴿يُنَادَوۡنَ﴾؛ لعدم الاعتناءِ بتعيين الفاعلِ، وللإشعار بهول النِّداء؛ فإنَّ إبهامَ المنادي يزيد مِن هول الموقف.

**نوعُ اللام ودلالتُها:**

مقتُ الكافرين يلفُّ الكافرين مِنَ الأنفسِ والخارج

تحتمل اللّام في قوله تعالى: ﴿لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ أن تكونَ لامَ الابتداء المُفيدة للتَّأكيد والتَّقرير، بمعنى: أنَّ المقت لاحقٌ بهم - لا محالةَ - ولمّا كان النِّداء بمعنى القول؛ كان التَّقدير: يُنادون مقولًا لهم: لمقتُ اللّه أكبرُ من مقتِكم أنفسَكم، أو يُنادون، فيُقال لهم: لمقتُ اللّه أكبر[1]، وتحتمل أن تكونَ لامَ القسم، فتفيد التَّأكيد وتحقُّق

(1) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 499، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 303.

الوقوع[1]، وعلى الوجهين يكون قد جمعَ عليهم المقتَ بالحالِ والمقال، أي: بما يكون عليه حالُهم يوم القيامة، وبالقول الَّذي يكون على رؤوس الأشهاد.

### نكتةُ إضافة لفظ المقت إلى لفظ الجلالة:

مقتُ الله ليس كمقتٍ آخر

أُضيف لفظُ المقتِ إلى لفظ الجلالة في قولِه تعالى: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾، وهو من إضافة المصدر لفاعلِه، فأفادتِ الإضافةُ تعظيمَ مقتِ اللّه تعالى وتفخيمه؛ ترهيبًا للمخاطَبين وتوبيخًا لهم، فإنَّ مَن يلحقُهُ مقتُ اللّه تعالى، لا ناصر ولا وليَّ له.

### نكتةُ حذفِ متعلِّق المقت:

مقتُ الله تعالى عـمَّ جميعَ أحوالِ الكافرين وأعمالِهم بسبب كفرِهم

لمّا كان لفظُ المقت في قولِه تعالى: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ مصدرًا يعمل عملَ فعلِه المتعدّي؛ دلَّ على أنَّ متعلَّقه محذوفٌ، وحُذِف لإفادة العموم، وتقدير الكلام: مقتَ اللّهُ عملَكم، أو مقتَ اللّهُ كفرَكم؛ ليُفيد أنَّ مقتَهُ تعالى عمَّ جميعَ أحوالِهم وأعمالِهم، أي: إنَّ اللّه تعالى قد مقتَ كلَّ شيءٍ فيهم حتَّى أنفسَهم، ويحتمل أن يُقال في تقدير الكلام: مقتُ اللّهِ أنفسَكم أكبرُ من مقتكم أنفسَكم، فاستغنى بذكرِها مرَّةً[2]، فحذف من الأوَّل بدلالة الثّاني عليه للإيجاز، ولبلاغة النَّظم في الكلام، فإنَّ تكرار الأنفس في مثل هذا الموضع غير لائق بالنَّظم، وإنَّما ذكر الأنفس مع مقت الكافرين للتَّسجيل عليهم بالاعتراف باستحقاقِهم العذابَ.

### دلالةُ التَّعبيرِ المجازيِّ في إضافة لفظ المقتِ إلى الله:

أعظمُ الخسارة نزولُ غضب الله وارتفاع الرَّحمة

المرادُ بالمقتِ في قولِه تعالى: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾: أشدُّ البغضِ، وهو مجاز مرسلٌ أُطلق على المعاملة بآثار البغض من التَّحقير والعقاب، فهو أقربُ إلى حقيقة البُغضِ؛ لأنَّ المرادَ به أثره، وهو المعاملةُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 359، وابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 4/ 549، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 95.
(2) الشربيني، السراج المنير: 3/ 472.

بالنَّكال، وهو شائع شيوعَ نظائرِه، ممّا يُضاف إلى اللّه ممّا تستحيل حقيقتُهُ عليه[1]، ويحتمل أن يكونَ المرادُ مِنَ المقت ظاهره، والمعنى الإبعاد على جهة الغضبِ، وعلى الوجهين؛ فإنَّ التَّعبيرَ بمقتِ اللّهِ إيّاهم هو أعظمُ العقابِ عند أولي الألباب؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّ مولاه غضبانُ عليه؛ عَلِم أنَّه لا ينفعه بكاءٌ، ولا تُغني عنه شفاعةٌ ولا حيلة له في خلاصه أبدًا[2].

### لطيفةُ اقترانِ النِّداء بالمقت:

الائتلافُ بين المفردات تعانقٌ في المعنى وارتباطٌ في الدَّلالة

في قوله تعالى: ﴿يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ﴾ مناسبةٌ لطيفةٌ في اقترانِ النِّداء بالمقت، فالنِّداء يفيد بُعد المنادى، والمقتُ يقتضي الإبعاد على جهة البُغض وشدَّة الغضب، فالكافرُ بعيدٌ عنِ اللّه بعيدٌ عنِ الملائكة بعيدٌ عن المؤمنين، فناسب نداءَهُ لبعدِه في الحسِّ والمعنى، وهذا مِن مناسبات اقترانِ الكلمة بأختها في السّياق؛ ولهذا لم يقل: (إنَّ الذين كفروا يقال لهم: لمقتُ اللّهِ أكبرُ مِن مقتِكم أنفسَكم).

### بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿أَكۡبَرُ﴾ مادَّةً وصيغة:

مقتُ الكافرين شعورٌ باطنيٌّ ومقتُ اللّه عذابٌ سرمديٌّ

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿أَكۡبَرُ﴾ دون رديفَيها مِن مثل أعظم وأشد؛ لأنَّ المقتَ الَّذي هو أشدُّ البغضِ من قبيل المعاني، وغلب استعمالُ أكبرَ في الأعيان المحسوسة، فكان ذلك من باب تصويرِ حجم المقتِ وفظاعتِه، والمرادُ لمقتُ اللّهِ أشدُّ وأكثر وأخطرُ في الأثرِ؛ فإنَّ مقتَ الكافرين أنفسَهم مقتصرٌ على الغيظ الدّاخلي، أمّا آثارُ مقتِ اللّه تعالى؛ فهي أعظمُ في أثرها في العقاب والحساب والجزاء، وهذه أمورٌ مشاهدةٌ محسوسة، فمقتُ الكافرين لا يُرى، وإنَّما يشعرُ به الكافر، وأمّا مقتُ اللّه فإنَّ آثارَهُ سيراها الكافرون في أبدانهم وأنفسِهم يوم القيامةِ، وعليه فالكِبَرُ هنا مقابلة بين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 96.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 18.

ما يُرى وما لا يُرى آثاره، كما أفادَ أنَّهم مهما مقتوا أنفسَهم يوم القيامة إشعارًا بندمِهم؛ فإنَّ هذا المقتَ لن ينفعَهُم؛ لأنَّ مقتَ اللّهِ أشدُّ وأنكى من مقتِهم أنفسَهم[1].

**لفظُ المقتِ في ﴿مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ بين الحقيقة والمجاز:**

مقتُ الكافرين أنفسَهم يلحقهم في الدُّنيا والآخرة

إن كان المرادُ من قوله تعالى: ﴿مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾: لمقتُ اللّه في الدُّنيا أعمالَكم وكفرَكم أكبرُ من مقتِكم أنفسَكم، وأنتم في النّار تعاينون العذاب[2]؛ كان لفظُ المقت على الحقيقة؛ لأنَّهم يمقتون أنفسَهم ويمقت بعضُهم بعضًا، فيكون زمانُ مقتِ اللّه في الدُّنيا وزمان مقتهم أنفسَهم في الآخرة، وإن كان المرادُ: لمقتُ اللّه أعمالَكم وكفرَكم أكبرُ من مقتِكم أنفسَكم في الدُّنيا، بمعنى: كان مَقْتُ اللّه لكم وقتَ كفركم أكبرَ من بُغْضِكم أنفسَكم حينئذٍ، فيكون زمانُ المقتين واحدًا؛ كان المقت على المجاز بطريق الاستعارة، بمعنى: أنَّهم "فعلوا لأنفُسِهم ما يُشبِهُ المَقْتَ؛ إذ حَرَموها من فَضيلَةِ الإيمانِ ومَحاسِنِ شَرائِعِهِ، ورَضوا لِأنفُسِهِم دينَ الكُفرِ بَعدَ أن أوقِظوا عَلى ما فيهِ مِن ضَلالٍ ومَغَبَّةِ سوءٍ، فَكانَ فِعْلُهُم ذَلِكَ شَبيهًا بِفِعلِ المَرْءِ لِبَغيضِهِ مِنَ الضُّرِّ والكَيْدِ، وهَذا كَما يُقالُ: فُلانٌ عَدوُّ نَفسِهِ، فالمَقْتُ مُستَعارٌ لِقِلَّةِ التَّدَبُّرِ فيما يَضُرُّ، وقَد أشارَ إلى وجهِ هذِهِ الاستِعارَةِ قَوْلُهُ: ﴿إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ﴾، فَمَناطُ الكَلامِ هوَ ﴿فَتَكۡفُرُونَ﴾"[3]، والمعنى: أنَّكم بتَرْكِ الإيمان فعلتُم بأنفسِكم فِعْلَ الأعداء[4].

**دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ الأنفس بين الحقيقة والمجاز:**

مقتُ الكافر يلحق نفسَهُ وغيرَهُ في الدُّنيا والآخرة

الظّاهر أنَّ المرادَ مِن لفظ ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ هو عينُ الأنفس،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 96.

(2) البغوي، معالم التنزيل: 4/ 108، والزمخشري، الكشاف: 4/ 154.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 95.

(4) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 13/ 92.

بمعنى: أنَّهم مقتوا أنفسَهم الأمّارة بالسّوء؛ لِما كان من عصيانِهم وكفرِهم، ويحتمل أن يكون اللَّفظُ على المجاز بأن يكونَ المرادُ من ﴿مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾: مقتَ بعضِكم بعضًا، أي: لمقتُ اللهِ أكبرُ من مقت بعضِكم بعضًا، فالأتباع يشتدُّ مقتُهم للرُّؤساءِ الَّذين يدعونهم إلى الكفر في الدُّنيا، والرُّؤساء كذلك يشتدُّ مقتهم للأتباع، فعبَّر عن مقتِ بعضِهم بعضًا بأنَّهم مقتوا أنفسَهم، ومثله في المجاز قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [النّساء: 29]، وقولُه: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ﴾ [النّور: 61]؛ ليفيدَ أنَّ شدَّة قربِ بعضِ الكافرين من بعضٍ في الدُّنيا لم ينفعهم، ولم يأتِ منه سوى بغضِ بعضِهم لبعضٍ أشدَّ البغض ولعن بعضِهم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت: 25]، وإنَّما احتمل هذين الوجهين؛ لأنَّ المنع لهم من طاعةِ اللّه تعالى واتِّباع أمره ونهيه، يكون بأنفسهم، ويكون من بعضِهم بعضًا؛ فيكون محتملًا لكلا الوجهين[1]، ولا يمتنع حملُ اللَّفظ على الحقيقة والمجاز معًا، فيكونُ المرادُ هو الوجهين معًا، وهذا أوسع دلالةً، ولا مانع منه على التَّحقيق.

### التَّوجيه النَّحوي للفظ ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾:

وقعتِ المفاضلةُ بين مقتين مقتِ اللهِ تعالى ومقتِ الجاني على نفسِه

الظّاهر أنَّ ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ في قوله: ﴿مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ مفعولٌ به منصوب بالمصدر ﴿مَّقۡتِكُمۡ﴾[2]، والتَّقديرُ: لمقتُ اللّه أكبرُ من أن تمقتوا أنفسَكم، وذهب ابن عاشور إلى أنَّ ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ يتنازعه المصدران ﴿لَمَقۡتُ ٱللَّهِ﴾ و﴿مَّقۡتِكُمۡ﴾، فهو مفعولُ المصدرين المضافين إلى فاعلِهما[3]، وهذا القولُ ضعيف بحسب قواعد

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 10، والزّمخشري، الكشاف: 13/ 472، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 268.
(2) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1116.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 96.

النَّحو لتمام الكلام عند قولِه تعالى: ﴿لَمَقۡتُ ٱللَّهِ﴾ بالإخبار عنه بقوله: ﴿أَكۡبَرُ﴾، ولعلَّ ابن عاشور ذهبَ إلى هذا القول بناءً على ما أشار إليه الخطيب الشَّربيني في قولِه في تقدير الكلام: لمقتُ اللّه لأنفسكم أكبرُ: ﴿مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾، فاستغنى بذكرها مرَّةً(1)، وهو تفسيرُ معنًى لا تفسيرُ إعرابٍ، وهو وإن كان صحيحًا في الجملةِ، إلّا أنَّ حمْلَ الكلامِ على أن يكون العامل في ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ هو ﴿مَّقۡتِكُمۡ﴾ هو الصَّحيح، وذلك لوجود المفاضلة بين مقتَين.

### نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدر الصَّريح دون المؤوَّل:

مقتُ الكافرين أنفسهم ثابتٌ دائمٌ

جاء التَّعبيرُ بالمصدر الصَّريح دون المؤوَّل في قوله تعالى: ﴿مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ فلم يقل: (أكبرُ مِن أن تمقتوا أنفسَكم)؛ لبيانِ أنَّ مقتَهم الَّذي كان في الدَّنيا ما زال قائمًا في الآخرة، أو أسباب مقتهم في الدُّنيا قد صاحبتهم في الآخرة، فمقتوا أنفسَهم، فالمصدر أوضحُ دلالةً على الثَّبات والدَّوام من الفعل، وفيه مزيدُ ترهيبٍ ووعيد.

### نكتةُ التَّقييد بظرف الزَّمان ﴿إِذۡ﴾:

علَّةُ المقتِ الإلهيِّ العنادُ على الكفر بعد إقامةِ أدلَّة الإيمان

لمّا كان ظرفُ الزَّمان ﴿إِذۡ﴾ يفيد معنى التَّعليل لمَا بينَ الظَّرفِ والسَّببِ مِن علاقةِ اللُّزوم؛ كان استعمالُ ﴿إِذۡ﴾ يفيد معنى الظَّرفيَّة والتَّعليل للمصدر ﴿لَمَقۡتُ ٱللَّهِ﴾، والمعنى: لمقتُ اللّه عملَكم وكفركم وأنفسَكم في الدُّنيا وقتَ أن دُعيتم إلى الإيمان، فكفرتم، أكبرُ مِنْ مقتكم أنفسَكم يوم القيامةِ(2)، فأفاد ﴿إِذۡ﴾ أنَّ وقتَ مقتِ اللّه هو وقتُ دعائِهم إلى الإيمان، وأنَّ سببَ مقتِ اللّه لهم هو عدمُ قَبولِهم الإيمانَ والاستمرار على كفرِهم، وذهب بعضُ المفسِّرين والنُّحّاة إلى أنَّ ﴿إِذۡ﴾ ظرفٌ متعلِّقٌ بفعلٍ مضمرٍ دلَّ على المقت الأوَّل، ولا يكون

---

(1) الشربيني، السراج المنير: 3/ 472.

(2) الزمخشري، الكشاف: 13/ 472، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 268.

المقت الأوَّل ظرفًا له لوقوع الخبر ﴿أَكۡبَرُ﴾ فاصلًا بينهما، والمصدر لا يُفصل بينه وبين معمولِه بالخبر، والتقدير: مقتَكمُ اللّه؛ إذ تُدعون إلى الإيمان، فتكفرون، ويحتمل أن يكون ﴿إِذۡ﴾ ظرفًا للمقت الثّاني، فيكون ظرفُ المقتين واحدًا، وهو الدُّنيا، ويكون مقتهم أنفسَهم في الدُّنيا على المجاز، كما تقدَّم.

### نكتةُ الإيماءِ باستعمال مفردة الدَّعوة:

من قَبِل دعوةَ الرُّسل لحقَهُ دعاءُ الملائكة ومَن أبى؛ لحقَهُ مقتُ الله

استعمل النَّظم الكريم لفظَ ﴿تُدۡعَوۡنَ﴾؛ للإشعار بأنَّ ما يقدِّمه الأنبياء للنّاس هو خيرٌ ومنفعةٌ لهم، كما يُفيد قربَ الأنبياء منهم حين دعائِهم، وأنَّ الدَّعوة وصلت إليهم، فالدَّعوة هي إيصال المقصود بالحكم للمدعوِّ، وناسب هذا اللَّفظ على طريق الإيماءِ ما جاء في السّياق مِن ذِكر دُعاء الملائكة للمؤمنين، فإنَّ الذي قَبِل دعوةَ الرُّسل، فإنَّ دعوةَ الملائكة تلحقُهُ، ومَن أبى، فإنَّ مقتَ اللّه يلحقه.

### نكتةُ التَّعبير بصيغة المضارع:

الدُّعاةُ يؤثرون مواصلة الدَّعوة دون الانقطاع

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارعِ في الفعلين: ﴿تُدۡعَوۡنَ﴾ و﴿فَتَكۡفُرُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى تصوير الاستمرارِ التَّجدُّديِّ، كأنَّه قيل: لمقتُ اللّه تعالى أنفسَكم أكبرُ مِن مقتِكم إيّاها؛ لأنَّكم دعيتم مرَّةً بعد مرَّةٍ إلى الإيمان، فتكرَّرَ منكم الكفرُ[1]، ففيه دلالةٌ على تكرُّر دعوتِهم إلى الإيمان وتكرُّر كفرِهم، وتجدُّده، كما أنَّ صيغةَ المضارع أفادت عن طريق الإيماء الحثَّ على تَكرار الدَّعوة إلى الإيمان وعدم الاكتفاء بمرَّة واحدةٍ من قِبَل الدُّعاة إلى دين اللّه تعالى.

### نكتةُ التَّعبير بصيغة المبني للمفعول:

جاء التَّعبيرُ بصيغة المبني للمفعول في الفعل: ﴿تُدۡعَوۡنَ﴾؛ للإشارة إلى تعدُّد الدُّعاة من الرُّسل عليهم السلام ومِن عموم المؤمنين، وأنَّهم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 304، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 95.

الدُّعاةُ المقبولةُ دعوتهم في الحجَّة هم الملتزمون بنهج النُّبوَّة

مع تعدُّد الدُّعاة إلى الإيمان باللّه كانوا يكفرون، كما أنَّ في التَّعبير بصيغة المبني للمفعول إشارةً إلى أنَّ الإيمانَ لظهور دلائله ينبغي أن يُقبل من أيِّ داعٍ كان[1]، مع ملاحظة أنَّ الدّاعي إلى اللّه تعالى معلومٌ، وهو رسولُ اللّه ﷺ، وجميع الدُّعاة على نهجِه سائرون[2].

**دلالةُ تعديةِ فعل الدَّعوة بحرف ﴿إِلَى﴾:**

غايةُ دعوةِ المؤمنين تنتهي إلى دائرةِ الإيمان

عُدّيَ فعلُ ﴿تُدۡعَوۡنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ بحرفِ ﴿إِلَى﴾؛ للإيذان بأنَّ المرادَ الدَّعوة إلى الإيمان، والحثُّ على قصدِه على سبيل جرِّهم إليه بالكلامِ والموعظة الحسنة، ولمّا كان حرف الجرِّ (إلى) لانتهاء الغاية؛ أفادَ أنَّ منتهى دعوتِهم وغاية أملِهم ورجائِهم هو إيمان القوم.

**معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡإِيمَٰنِ﴾:**

(أل) في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ للعهدِ، فهو الإيمانُ المعهود في القرآن، وهو الإيمانُ باللّه تعالى وبرسلِه، بقرينة مقابلتِه بقوله: ﴿فَتَكۡفُرُونَ﴾.

**بديع المقابلة:**

الكشفُ عن حماقة الكافر باختيار الشَّقاء الدائم على النَّعيم السَّرمدي

أفادت المقابلةُ على طريق التَّضادِّ في لفظَي ﴿ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ و﴿فَتَكۡفُرُونَ﴾ الإشارةَ إلى شديد باطل الكافرين، وكبير حماقتهم، فحالُهم كحال من يُدعى إلى الخيرِ الوفيرِ، والنَّعيم المقيم، فيختار البؤسَ والشَّقاء، والمقابلة أظهرت الفرقَ بين حالي الإيمانِ والكفر من حيثُ السَّبقُ بذكر المآل.

**نوعُ الفاء وفائدتها:**

تحملُ الفاءُ معنى المفاجأة بحسب السّياق

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَتَكۡفُرُونَ﴾ للتَّفريع، وهي تفيد أنَّهم أعقبوا الدَّعوة إلى الإيمان بتجديد كفرِهم السّابق وتمسُّكهم به وبإعلانِهم به دون أن يتمهَّلوا بالنَّظر والتَّدبُّر فيما دُعوا إليه، ففيه

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 17.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 96.

إشعارٌ بأنَّهم لم يُعملوا عقولَهم عنادًا وتكبُّرًا[1]، ويُلمح في الفاء معنى المفاجأة والإنكار، أي: بعد أن أُقيمت عليكم الحُجَّة، وبُيِّنت لكم المحجَّة، كفرتم باللّه تعالى؟.

### نكتةُ حذف متعلّق الكفر:

حُذِفَ متعلِّقُ فعل: ﴿فَتَكۡفُرُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّ الكفرَ صار وصفًا لازمًا وسجيَّةً لهم، كما يحتمل أن يكونَ حذْفُ المتعلّق لإفادة عموم كفرِهم، أي: فتكفرونَ باللّه وبرسولِه وبكتبِه وباليوم الآخر.

## ❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### النِّداء والدُّعاء:

النِّداءُ برفع الصَّوت مع إشهار، والدُّعاء برفع الصَّوت أو بخفضِه

النِّداء هوَ رفع الصَّوْت بِما لَهُ معنى، والدُّعاء يكون بِرَفْع الصَّوْت وخفضه، يُقال: دَعوته مِن بعيد، ودعوت اللّه في نَفسي، ولا يُقال: ناديته في نَفسي، وقد يكون الدُّعاء بغير صوتٍ بأن يكون بإشارة، والدُّعاء هو طلب الفعل والإقبال إليه، وفيه معنى الاستمالة، ومنه تداعى البناء، أي: يَدْعو بعضه بَعْضًا إِلَى السُّقوط[2]، ولهذا استعمل النِّداء في معرض الإشهار والإظهار، وبُعدهم عن الحقِّ، فقال تعالى: ﴿يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾، ولأنَّه من أعلى إلى أدنى، وأمّا الدُّعاء؛ فهو ما يدعو به المسلم ربَّهُ، وهو مِن أدنى إلى أعلى.

### البغضُ والمقتُ والكرهُ:

المقتُ يكون في فعل القبيح مِنَ الأفعال، ويقتضي البُعد، ففارقَ البُغضَ والكُره

البُغض: هو نِفار النَّفس عن الشَّيء الَّذي ترغب عنه، وهو ضدُّ الحبِّ، وإذا وُصِفَ اللّهُ تعالى به؛ فالمرادُ به ما يقتضي العقاب، وأمّا المقتُ؛ فهو البغضُ الشَّديد، أو هو أشدُّ البغض لمن تراه يتعاطى القبيح، فلا يُقال: المقتُ إلّا والممقوت يفعل القبيحَ، ممّا يقتضي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 96.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 38، والراغب، المفردات وجبل، المعجم الاشتقاقي: (دعا).

غضبَ الماقت على الممقوت، ولهذا استُعمِل لفظُ المقتِ في قولِه تعالى: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾؛ للإشعار بقبحِ ما يفعلون؛ إذ يردّون الإيمان الَّذي دعاهم إليه الرُّسل، ويستمرّون على كفرِهم، وأمّا الكرهُ؛ فهو في الأصل ما يعافُهُ الإنسان من حيثُ الطَّبعُ أو مِن حيثُ العقلُ والشَّرع، أي: لا يرغبه، ولا تقبله النَّفس، ولهذا يصحُّ أن يقول قائل: إنّي أريده، وأكْرَهُهُ، بمعنى: أنّي أريده مِن حيثُ الطَّبعُ، وأكرهه من حيث العقلُ أو الشَّرع، أو أريده مِن حيثُ العقلُ أو الشَّرع، وأكْرَهُهُ من حيث الطَّبعُ، ومِن الكُره الَّذي هو عدم قَبولِ النَّفس للشَّيء جاء لفظ الإكراه، وهو المشقَّة الَّتي تنال الإنسان مِن خارج مِمّا يُحمل عَليهِ من غير رغبةٍ منه ولا قَبول لنفسِه له، والكَراهَة تُستَعمل فيما لا يُستَعمل فيهِ البغض والمقت، فيقال: أكرهُ هَذا الطَّعام، ولا يُقال: أبغضُهُ، أو أمقتُهُ، كَما تَقول: أحبُّه، والمراد أنّي أكره أكله(1).

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 129، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بغض، كره، مقت).

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١١﴾ [غافر: 11]

### مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

**الانتقالُ مِن بيانِ مآلِ الكفرِ في الدُّنيا إلى انقطاعِ الأملِ في الآخرة**

لمّا كان النِّداءُ الموجَّه مِنَ الله تعالى إلى الكافرين في الآية السّابقة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ موهمًا أنَّ فيه إقبالًا عليهم، ممّا يورِّث الطَّمعَ في الكريمِ، فظنّوا أنَّ اعترافَهم بذنوبهم وسيلةٌ إلى منجِهم خروجًا من العذاب واستراحةً منه؛ ناسب بيان ذلك الوهم في ذِكر ما يقولونه: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾.

### شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱثۡنَتَيۡنِ﴾: أصلُ (ثني): يدلُّ على تَكريرِ الشَّيءِ مَرَّتَين، أو جَعْله شيئَين مُتواليَين أو مُتبايِنَين، وذلك قولُك: ثَنَيْتُ الشَّيءَ ثَنْيًا[1]، والاثنان أصلٌ لمُتصرِّفات هذه الكلمة، ويُقال ذلك باعتبار العدَدِ، أو باعتبار التَّكرير الموجود فيه أو باعتبارهما معًا[2]، والثِّني: الأمرُ يُعادُ مَرَّتَين، وقوله تعالى: ﴿أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ إشارةٌ إلى الأدوار الَّتي مرَّ بها الإنسان، ومعناه: أَمَتَّنا موتَتَينِ اثنتَينِ قبْلَ نَفخ الرّوح، وعندَ انتهاءِ الآجالِ، وأحيَيْتَنا إحياءتَين اثنتَينِ بنَفخِ الرّوحِ في الدُّنيا، وحينَ البَعثِ يومَ القيامةِ.

2) ﴿خُرُوجٖ﴾: أصلُ (خرج) النَّفاذُ عن الشَّيءِ، يُقالُ: خَرَجَ يَخرُجُ خُروجًا[3]، والإخراجُ: فَصلُ شيءٍ مَحْويٍّ عَن حاويهِ، والخُروجُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثني).

(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (ثني).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خرج).

من الشَّيء: ضدُّ الدُّخول فيهِ[1]، والخُروجُ أيضًا: البُروزُ والظُّهورُ، والمقصود بالخروج في الآية: الخروجُ من النّار والرُّجوع إلى الدُّنيا[2].

3) ﴿سَبِيلٍ﴾: أصلُ (سبل) يدُلُّ على إرسالِ شيءٍ مِن عُلوٍّ إلى سُفْلٍ، وعلى امتدادِ شيءٍ، فالأوَّلُ مِن قيلِك: أسبلْتُ السِّتْرَ، وأسبلَتِ السَّحابةُ ماءَها وبمائها، وأمّا الثّاني؛ فالمُمتَدُّ طولًا: السَّبيلُ وما وضَحَ منه، وهو الطَّريقُ، سُمّيَ بذلك لامتدادِه[3]، يُذَكَّرُ، ويُؤَنَّثُ، والتَّأنيثُ أغلَبُ، وجمعُه: سُبُلٌ[4]، والمقصودُ بالسَّبيل في الآية: الطَّريقُ، واستُعيرَ للوسيلة الَّتي يحصُلُ بها الأمرُ المرغوبُ[5].

## ❁ المَعنى الإجماليُّ:

يَحكي الحقُّ ﷻ ما يقولُه الكافرونَ بعدَ أنْ أنزَل بهم عِقابَه، فيقولُ سبحانه: قال أولئك الكافِرونَ من أهلِ النّارِ: يا رَبَّنا أمَتَّنا مَوتَتَينِ اثنتَينِ - حينَ كنا نُطَفًا قبْلَ نَفخِ الرّوح، ثمَّ عندَ انتهاءِ الآجالِ في الدُّنيا - وأحيَيْتَنا إحياءَتَينِ اثنتَينِ، بنَفخِ الرّوحِ في الدُّنيا، وحينَ البَعثِ يومَ القيامةِ، فأقرَرْنا بما اقترَفْناه مِنَ الذُّنوبِ في الدُّنيا، فهل أنت مجيبُنا إلى أن نخرجَ مِنَ العذاب، وأن تعيدَنا للدّار الدُّنيا؟ فإنَّك قادرٌ على ذلك[6].

ذُلُّ الآخــرةِ لا يُـغـنـي عـن ذلِّ الدُّنيا فمَن لم يـذلَّ في دنيـاه لمـــولاه ذلَّ في أُخراه

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### توجيهُ فصلِ الآية:

جاء قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ﴾ الآيةَ على طريق الفصلِ؛ ليكونَ

النَّدمُ والاعتراف بـكـامـل الـــدّاء لا ينفع في دار الجزاء

(1) ابن دريد، جمهرة الله: (خرج).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 361.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبيل).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 99.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 292، والزمخشري، تفسير الكشاف: 4/ 155، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 733، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 618.

كالجوابِ عن النِّداء الَّذي نودوا به في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ﴾، فحكى اللهُ مقالتَهم على طريق حكاية المحاورات بطريق الجواب بالقول، ولهذا حذف حرفَ العطفِ[1]، وفي الجواب بالقول إيذانٌ بأنَّهم نودوا، وهم في النّار، وأنَّهم قد سمعوا النِّداء، وأنَّهم لمّا سمعوه؛ توهَّموا أنَّ اعترافَهم بذنبِهم قد ينفعهم للخروج من عذاب النّار.

### تعيينُ مرجعِ الضَّمير:

بعد سماعِ حقائقِ الألمِ يرتفع صوتُ النَّدم

يعود الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ إلى الاسم الموصول مع صلتِه في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما أخبرَ عنه، أي: قال الذين كفروا: - المخبَر عنهم بأنَّهم يُنادَون لمقتُ الله أكبرُ من مقتكم أنفسَكم - ربَّنا أمتَّنا اثنتين، وأحييتنا اثنتين، فيكون قولُهم على سبيل التَّنديم.

### نكتةُ حذفِ حرفِ النِّداء:

عند وقوعِ الهلعِ يدلُّ اللَّفظ على الجزع

لمّا كان النِّداء موجَّهًا إلى الكفّار؛ توهَّموا أنَّ في النِّداء إقبالًا عليهم، وأنَّهم قريبون من المنادي، فنادوا مباشرةً قائلين: ﴿رَبَّنَآ﴾، وذلك أنَّ حذف حرفِ النِّداء يُصوِّر حالةَ الهلع التي يعيشها الكافر يوم القيامة، فهو يتكلَّم مباشرةً دون مقدِّماتٍ.

### نكتةُ التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة:

الاعـتراف بالذَّنب يقتضي الاستعطافَ بعنوان الإحسان

جاء التَّعبيرُ بعنوان الرُّبوبيَّة في محاورتِهم في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ﴾ استعطافًا منهم؛ لأنَّهم في معرض الاعتراف بذنوبِهم، وإشارةً إلى إقرارِهم بإحسانِ الله إليهم في الدُّنيا، ولو نادوا بعنوان الألوهيَّة؛ لأبانوا عن جهلهم وكفرهم بحقوق العبادة والطّاعة، فذكروا ما اعترفوا به، وهو عنوانُ الرُّبوبيَّة.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 97.

### دلالةُ الإضافة:

أُضيف لفظُ الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير (نا) تحقيقًا لها، والمبالغة في الاستعطاف والاعتراف بعظيم الإحسان، والإضافة بمعنى اللام المفيدة للاختصاص.

### بديعُ فنِّ الإدماج:

إدماجُ الإقرارِ بعد المشاهدة لا يُجدي عند المحاسبة

لمّا كان المقصودُ من الاعتراف هو الاعترافَ بالحياة الثّانية، وهي الحياة بعد البعث؛ لأنَّهم كانوا يُنكرونها، كان ذكرُ الموتَتَين والحياة الدُّنيا في قوله: ﴿أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ على سبيل الإدماج؛ للاستدلال على تيقُّنهم واعترافِهم بالحياة الدُّنيا تزلُّفًا منهم، وكأنَّهم قصدوا تعظيمَ قدرتِهِ تعالى واسترضاءَه بذلك، وهذا كما تكلِّفُ إنسانًا أنْ يُقرَّ لك بحقٍّ، وهو يُنكرُه، فإذا رأى الغَلَبَةَ؛ أقرَّ بذلك الأمر متمِّمًا أوفى ممّا كنت تطلب به أوَّلًا[1]، أي: كما أيقنّا أنَّ الموتةَ الأولى والثانية والحياة الأولى حقٌّ؛ فإنَّ الحياةَ الثّانية حقٌّ، ففيه تعريضٌ منهم بأنَّ إقرارَهم صِدقٌ لا مواربةَ فيه ولا تصنُّعَ؛ لأنَّه حاصلٌ عن دليلٍ يقينيٍّ[2].

### فائدةُ الاكتفاءِ بالعددِ دون المصدر:

نفيُ توهُّم المجازِ وتحقيق الاختلاف بين الإماتتين والإحياءتين

جاء التَّعبير بالنَّعت العدد ﴿ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ في الموضعَين من قوله: ﴿أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾، ولم يقل: (أمتَّنا إماتتين وأحييتنا إحياءتين)، أو (أمتَّنا موتتين وأحييتنا حياتين)؛ لأنَّ المرادَ بيانُ عددِ المرّات على سبيل القطع لا التجوُّز بالكثرةِ والتَّكرير[3]، والمعنى: أمتَّنا موتتَين اثنتَين، أي: مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، وأحييتَنا حياتَين اثنتَين، أي: مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، كما أفادَ ذِكرُ العددِ ﴿ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ الاختلافَ والتَّنوُّع، فالموتةُ الأولى تختلف عن الموتة الثّانية والحياة الأولى تختلف عن الحياة

---

(1) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 4/ 549.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 97.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 307.

الثّانية، وفائدةُ الاكتفاء بالنَّعت دون ذكر المنعوت: الإيجازُ بقرينة دلالةِ السّياق على المنعوت، فيكون ﴿ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ نعتًا لمصدر محذوف، أو يقال: هو نائبٌ عن المفعول المطلق، وتقديرُ الكلام: أمتّنا إماتتين اثنتين، وأحييتنا إحياءتين اثنتين(1).

### بلاغةُ الحقيقةِ والمجاز في إطلاق الإماتةِ على المرَّة الأولى:

تعدُّد التَّوجيهات مناسبٌ مع تعدُّدِ الاحتمالات

في بيان المقصودِ مِنَ الإماتتين والإحياءتين في قولِه تعالى: ﴿أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ قولان، **الأوَّل**: أنَّهم كانوا أمواتًا، وهم نطفٌ في أصلاب آبائِهم، أو وهم أجنَّة في أرحام أمَّهاتِهم قبل نفخ الرّوح، فأحياهم الله تعالى في الدُّنيا، ثمَّ أماتهم الموتةَ الَّتي لا بدَّ منها عند خروجِهم من الدُّنيا، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، فهما إماتتان، وإحياءتان، وهو قول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم وكثير مِنَ المفسِّرين، فيكون كقوله تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾ [البقرة: 28].

وعلى هذا القول يكون في إطلاق الموت على النُّطف الَّتي في الأصلاب أو على الجنين قبل تخلُّقه ونفخ الرّوح فيه مجازٌ بطريق الاستعارة التَّبعيَّة، بتشبيه الحالة الَّتي تكون قبل نفخ الرّوح بحالة الموت بعد نفخِ الرّوح بجامع الإنشاء على صفة عدم القدرة على الحركة، وتوجيه ثانٍ أن يكون مجازًا بـ"إطلاق الإماتة على عادم الحياة ابتداءً بتنزيلِ إمكانِ الحياة فيه منزلة الحياةِ مجازًا، ثمَّ غُيِّر، وأُزيلت عنه الحياة، فصار إماتةً مجازًا"(2).

وتوجيه ثالث أن يُقال: المرادُ من الإماتة الأولى الإنشاءُ على تلك الصِّفة، كما يُقال: سبحان مَن صغَّر جسمَ البعوضة، وكبَّر جسمَ الفيل! إذ ليس ثمَّ نقلٌ من وضعٍ إلى وضعٍ آخر، فإنَّه إذا اختار

(1) المُنتَجَب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 479.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 27.

الصّانع أحد الجائزين، أو أحد المفعولين، وهو متمكِّنٌ منهما على السَّواء، فقد صرف المصنوع الذي اختار إنشاءَه عن الجائز الآخر، فجعل صرْفَهُ عنه كنقله[1]، وتوجيه رابع: أن يكون ذلك محمولًا على التَّغليب، فيكون تثنيةُ الإماتتين في قولِه: ﴿أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ جمعًا بين الحقيقة والمجاز في لفظ واحد بتغليب الاسم الحقيقيِّ على الاسم المجازي[2].

**والقول الآخر** أنَّ الموتةَ الأولى هي الَّتي تكون بانقضاء الأجل، ثمَّ يحييهم اللّه تعالى في القبر عند السُّؤال، ثم يُميتهم، ثم يُحييهم للبعث يوم القيامة، فهما إماتتان وإحياءتان، وعلى هذا القول، فلا مجاز، ويُحتجُّ بهذا القول على إثبات عذاب القبر، وسببُ هذا التَّوجيه هو أنَّه جاء بصيغة الفعل الماضي ﴿أَمَتَّنَا﴾ المفيدِ وقوعَ فعل الموت؛ لأنَّهم بكونِهم في أصلاب آبائهم أمواتًا، لا يقال: (أماتنا) بصيغة الفعل الماضي، وهم كانوا أمواتًا[3].

### بديع فنِّ الطِّباق:

قولُه تعالى: ﴿أَمَتَّنَا﴾ و﴿وَأَحۡيَيۡتَنَا﴾ على طريق طباق الضِّدِّ؛ للإيذانِ بإقرارِهم بقدرة اللّه تعالى على التَّصرُّف فيهم مع تكرار الأمر، أي: إحياءً وإماتةً.

### نوعُ الفاء ودلالتُها:

مَنْ لم يخشَ العاقبةَ؛ اقترفَ المعاصي، ثمَّ بها اعترف

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا﴾؛ للتَّفريع على الإقرار السّابق الذي جاء في مضمون جملة النِّداء، وفي الفاء معنى السَّببيَّة، بمعنى تسبَّب عن اعترافِهم بالإماتتين والإحياءتين، وأنَّهم تركوا دعوةَ الأنبياء، وداوموا على الكفر والمعاصي، الاعترافُ بذنوبِهم، أي: قد

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 154، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 35.

(2) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 2/ 110، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 98.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 10، ومكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 10/ 6408، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 494، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 35.

أريتنا من الآيات والدَّلائل ما أوجب أنَّ علينا أن نعترفَ بذنوبِنا، وليفيدَ كذلك أنَّ إنكارَهم للبعثِ كانَ سببًا لكسبِ المعاصي[1]، أي: إنَّ وجهَ السَّببيَّة هو أنَّهم "كانوا منكرين البعثَ، فلمّا شاهدوا الإحياء بعد الإماتةِ مرَّتين؛ لم يبقَ لهم عذرٌ في الإقرار بالبعث، فلا جرمَ وقع هذا الإقرارُ كالمسبَّب عن تلك الإماتة والإحياء"[2].

### نكتةُ استعمال لفظ ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا﴾:

الاعتراف دليلٌ صارخ على جرم الاقتراف

استعمل النَّظم الكريم لفظَ ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا﴾؛ لما يدلُّ عليه اللَّفظ من إظهارِ الإقرارِ بذنوبِهم وإعلانِهم ارتكابِهم لها بعد إدراكٍ للأمر وتفكُّر وتدبُّر لأثرِه بما رأوا من إحيائِهم يوم البعثِ[3]، أي: عرفوا، فأقرّوا، وأظهروا هذا الإقرار أمامَ الأشهاد يوم القيامة، ولمّا كان الاعتراف ضدَّ الإنكار؛ أفاد أنَّهم لا يأتي منهم إنكارٌ بعدَ ذلك أبدًا، كما أنَّ في التَّعبير بلفظِ ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا﴾ ردًّا على إنكارِهم ألوهيَّة اللّٰه تعالى وتوحيده في الدُّنيا، وإنكارِهم دعوة رسلِ اللّٰه عليهم الصَّلاة والسَّلامُ، فكأنَّهم قالوا: اعترفنا بعد أن أنكرنا، ففيه تنديمٌ لهم وتوبيخ لأنفسِهم.

### بلاغةُ الإنشاء بصيغة الإخبار:

الاعترافُ بالواقع المشهود كعدمهِ عند قيام الشُّهود

جاء التَّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ بصيغة الإخبار عن الماضي، والمقصود إنشاء الاعتراف بذنوبِهم، أي: نعترف بذنوبنا[4]، وفائدةُ مجيء إنشاء الاعترافِ بصيغة الإخبارِ بصيغة الماضي إثباتُ الاعتراف وتقريرُهُ، بمعنى: أنَّ قولَهم هذا لا يحتمل التَّصديق والتَّكذيب؛ لأنَّه إقرارٌ قد وقعَ، كما يقال: بعتُ، واشتريت والمقصود إنشاء البيع أو الشِّراء وليس الإخبار عن بيع قد وقع أو شراء قد حصل.

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 368.
(2) الشربيني، السراج المنير: 3/ 473.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (عرف).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 98.

### نوعُ الباء ودلالتُها:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِذُنُوبِنَا﴾ سببيَّة، والمعنى: قد تحقَّق الاعترافُ منّا بسبب ذنوبنا التي اقترفناها في الدُّنيا؛ إشعارًا بقوَّة الاعتراف والإقرار وعدم الإنكار.

### فائدة التَّعبيرِ بصيغة الجمع:

الإيـمـاءُ إلى عظيم النَّدم وكبير الحسرة

جاء التَّعبيرُ بصيغة جمع الذُّنوب في قولِه تعالى: ﴿بِذُنُوبِنَا﴾، ولم يقل: (فاعترفنا بذنبِنا) على أن يُحمل على الكفرِ الأكبر، وسببُهُ أنَّه لمّا كان المقامُ مقامَ إقرارٍ وتنديم؛ كان الأقضى بحقِّ البلاغة الإتيانَ بصيغة الجمع؛ إشعارًا بكثرة ذنوبِهم وتنوُّعها مِن الكفر والتَّكذيب وارتكاب أنواع المعاصي، والاستغراقُ يومِئ إلى شديد النَّدم، وكبير الحسرة.

### نكتةُ إضافة الذُّنوب إلى ضميرهم:

النَّظمُ القرآنيُّ يكشف عن خفايا النُّفوس وبواطن القلوب

أضيف لفظ الذُّنوب إلى ضمير المتكلِّمين في قولِه تعالى: ﴿بِذُنُوبِنَا﴾، وهم الذين كفروا لإفادة الاختصاص؛ إمعانًا في الاعتراف والإقرار بالذُّنوب التي ارتكبوها، فكأنَّهم اختصّوا بها، وفائدة الإمعان في الاعتراف توهُّمهم أنَّ فيه استرضاءً للّٰه تعالى لعلَّهم يخرجون من النّار.

### نوعُ الفاء وفائدتها:

طلبُ الخروج من النّار وهْمٌ تفرَّع عن اعتراف البُهم

الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَهَلۡ﴾ تفريعٌ على الاعتراف بالذَّنب، بمعنى ترتُّب طلب الخروج من النّار على الاعتراف بذنوبهم، فيكون في الكلام ترتُّبٌ مبنيٌّ على آخر، وبيانه أنَّه لمّا كان اعترافُهم بذنوبِهم مبنيًّا على عدم إيمانِهم واستمرارِهم على كفرِهم باللّٰه وبالبعثِ؛ ترتَّب على اعترافِهم طلبُ الخروجِ مِن النّار والرُّجوع إلى الدُّنيا، حتَّى يكونوا من المؤمنين الصّالحين، فجعلوا اعترافَهم

ضربًا من التَّوبة توهُّمًا منهم أنَّ توبتَهم تنفعهم يومَئِذٍ[1]؛ ليفيد أنَّ غايتَهم ومقصدَهم هو الخروج من النّار، والرَّدُّ إلى الدُّنيا ليؤمنوا، ويجتنبوا الذُّنوب.

### بلاغةُ الاستفهامِ في قياس المطلوب على المتحقِّق:

هـولُ الموقفِ يُفقد الكافرَ اتِّزانه ويُلجلج لسانه

الاستفهامُ الواقع من الكافرين بما صدر عنهم في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾، جاء قياسًا على ما ذكروه من الاعتراف بالإماتتين والإحياءتين، على معنى طلب الخروج من النّار والرُّجوع إلى الدُّنيا للإيمان والعمل الصالح؛ لأنَّهم لما رأوا الإماتةَ والإحياء قد تكرَّرا عليهم؛ علموا بأنَّ الله قادرٌ على الإعادة كقدرته على الإنشاء[2]، فطالبوا بالرُّجوعِ إلى الدُّنيا؛ لتتكرَّر الإماتة والإحياء، فهم قاسوا إمكانيَّة تحقُّق الأمر في المستقبل، كما تحقَّق الأمر في الماضي، ويكون الاستفهام على هذا محمولًا على الاستعطاف والتَّحايل في الوصول إلى المقصود، وهو يدلُّ على أنَّ أخلاقَهم صاحبتهم في الآخرة.

### غرضُ الاستفهام بين الحقيقة والمجاز:

احتمالُ الحقيقة والمجازِ تنوُّعٌ في المعنى وتصويرٌ للمشهد

يحتمل أن يكونَ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ على طريق المجاز؛ للإيذان بفرط قنوطِهم ويأسِهم، فيأتي المتحيِّر بهذا الأسلوب تعبيرًا عن قنوطِه وانعدام حيلتِه واليأس الكلّي الذي ينقطع فيه أيُّ رجاء في الخروج من النّار[3]، أو مجازٌ جاء بطريق العرض والاستعطاف بعد اعترافِهم بذنوبِهم[4]، ويحتمل أن يكون الاستفهامُ على الحقيقة، بأن يكونوا قصدوا طلبَ الخروجِ؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 98.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 155.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 155، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 53، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 29.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 98.

ليعملوا بمقتضى اعترافِهم بذنوبِهم، مع استبعادِهم للخروجِ واستشعارِهم اليأسَ منه تعلُّلًا عسى أن يُتاحَ لهم الفرج[1].

**براعةُ استعمالِ حرف ﴿إِلَىٰ﴾:**

شدَّةُ عذابِ النّار يُصوِّر تعلُّقَ الكافرين بأيِّ خروج

حرفُ الجرِّ في قولِه تعالى: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ لانتهاء الغاية، بمعنى: أنَّ انتهاء غايتهم هو الخروج، فكأنَّهم جعلوا الخروجَ موضعًا هو منتهى غايتهم؛ تعلُّقًا منهم بأيِّ نوعٍ من الخروج وهربًا ممّا هم فيه، فيكون التَّعبيرُ بقوله: ﴿إِلَىٰ خُرُوجٖ﴾ على المجاز؛ لأنَّ الخروجَ حدثٌ، فهو مصدرٌ، وليس موضعًا أو مكانًا تنتهي الغاية إليه.

**نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿خُرُوجٖ﴾:**

أيُّ خروجٍ يُسهم في الإنقاذ مِنَ النّار فهو الغاية الأسمى

نُكِّر لفظُ ﴿خُرُوجٖ﴾ للنَّوعيَّة، فيكون التَّنوين للنَّوع[2]، بمعنى: أنَّهم طلبوا أيَّ نوعٍ من الخروج من النّار سريعٍ أو بطيءٍ تلطُّفًا في السُّؤال، فالمقصودُ تحصيلُ الخروجِ، ولو كان على أدنى نوعٍ منه، وبأيِّ طريقٍ كان؛ إشعارًا بشدَّة عذابِهم في النّار، وعظمِ الهولِ الذي هم فيه.

**فائدةُ حذفِ متعلِّق الخروج:**

بيانُ اجتماعِ أنواعِ البلاءِ على الكافرين في النّار

لمّا كان الخروجُ يقتضي مَخْرجًا؛ كان في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ حذفٌ لمتعلِّق المصدر ﴿خُرُوجٖ﴾؛ ليفيد عمومَ الخروج، أي: فهل إلى خروجٍ مِنَ النّار ومِنَ العذاب ومِنَ الهول ومِنَ الشِّدَّة ومِنَ البلاء؟ فلمّا حُذِفَ متعلِّقُ المصدرِ؛ أفاد اجتماع أنواع البلاء في النّار.

**غرضُ تقديم المسند على المسند إليه:**

ما يجولُ في النَّفسِ يُسارع إلى اللِّسان

لمّا كان قولُه تعالى: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ على تقدير: فهل مِن سبيلٍ إلى خروجٍ؟ كان الكلام على طريق تقديم المسند على المسند

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 269، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 307، والمراغي، تفسير المراغي: 24/ 51.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 53.

إليه ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ وهو مجرور لفظًا مرفوع محلًّا، ومناسبة التَّقديم هي اهتمامُهم بالخروج وتعلُّقهم به، كما أنَّ في التَّقديم رعايةً للفاصلة.

### دلالة ﴿مِّن﴾:

﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ جاء لتأكيد العموم في لفظ ﴿سَبِيلٍ﴾، والمعنى: فهل إلى خروجٍ من العذاب مِن أيِّ سبيلٍ كان بقطع النَّظر عن وصفه؟.

### بلاغةُ استعمال مفردة ﴿سَبِيلٍ﴾:

تنوُّعُ معنى السَّبيل بين الوسيلة والطَّريق

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿سَبِيلٍ﴾ على طريق الاستعارة بتشبيه السَّبيل، وهو الطَّريق بالوسيلة، ووجه الشَّبه بينهما: هو أنَّه بهما يحصل بلوغ المقصود، وكثر إطلاقُ السَّبيل والطَّريق على الوسيلة وحصول المقصود[1]، وتقدير الكلام في الآية: فهل إلى خروج مِن وسيلةٍ يحصل بها المقصودُ، وهو الخروجُ مِنَ العذاب، وفائدةُ التَّعبيرِ بالسَّبيل دون الوسيلة: الإيماءُ إلى أنَّهم يريدون أقصرَ طريق وأقربه للخروج من العذاب، ويُحتمل أن يكون لفظُ ﴿سَبِيلٍ﴾ على الحقيقة، وقصدوا أيَّ طريق من الطُّرق التي يمكن بها الخروج من النّار، أي: طريق نسلكه، فنخرج به مِنَ النّار[2].

### نكتةُ تنكير ﴿سَبِيلٍ﴾:

عندما تُغلق السُّبُل يتمنَّى الكافر أدنى السُّبُل

نُكِّر لفظ ﴿سَبِيلٍ﴾ في سياق الاستفهام؛ لإفادة العموم المؤكَّد بحرف الجرِّ ﴿مِّن﴾؛ ليفيدَ أنَّهم قصدوا خروجًا من النّار من أيِّ وسيلةٍ مِنَ الوسائل بعفوٍ أو تخفيفٍ أو غيرهما، أو يكون المعنى من أيِّ طريقٍ مِنَ الطُّرق، قصيرًا أو طويلًا بعيدًا أو قريبًا؛ ليسلكوه، فيخرجوا من النّار إلى مكانٍ آخر، أو يرجعوا إلى الدُّنيا، فيؤمنوا، ويعملوا صالحًا[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 98.

(2) البيضاوي، أنوارُ التنزيل: 5/ 53، والشربيني، السراج المنير: 3/ 473.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 269.

### توجيهُ المتشابهِ اللَّفظي:

جاء في سورة غافر: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾، وجاء في سورة الشّورى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ٤٤﴾ [الشورى: 44]، فذكروا في آية غافرٍ الخروجَ، وفي آية الشّورى المردَّ، ووجهُ ما جاء في آية غافر أنَّ الذين كفروا قصدوا أيَّ نوعٍ من الخروج من النّار ومن العذاب الذي هم فيه بناءً على اعترافِهم بذنوبِهم؛ لتوهُّمهم أنَّ الاعترافَ يوم القيامة ينفعهم، وأمّا الَّذي في آية الشّورى؛ فإنَّه في سياق الكلام عن الظّالمين، وبيانُه أنَّه لمّا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ [الشورى: 42 - 43]؛ جاء بعده: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ٤٤﴾ [الشورى: 44]، أي: هل إلى رجعةٍ إلى الدُّنيا حتَّى نؤمن، ونرجع عن ظلمنا[1]؛ ليفيدَ أنَّ الظّالمين طلبوا الرُّجوع إلى الدُّنيا؛ ليردّوا الظُّلم عن النّاس، وترك الباطل، ففيه نجاةٌ يوم القيامة؛ إشعارًا بأنَّ من أعظم ما يصيب أهل النّار ما يكون جزاء ظلمِهم النّاس وبغيهم في الأرض بغير الحقِّ.

أعظمُ عذابِ أهل النّار ما يكون جزاءَ ظلمِهم وبغيهم في الأرض

## الفروقُ المُعجَميَّةُ:

### السَّبيلُ والطَّريق:

السَّبيل أغلب ما يقع على الخير[2]، فلا يُقال: سبيل الشَّرِّ، أو سبيل الشَّيطان، كما أنَّ السَّبيل ما يوصل إلى مكانٍ آخر، ويكون معتاد السُّلوك بين النّاس، بمعنى: أنَّه سهلٌ واضحٌ، وأمّا الطَّريق؛ فلا يكاد يراد به الخير إلّا مقترنًا بوصف أو إضافة تخلِّصُه لذلك،

السَّبيلُ يغلب على طريق الخير، والطَّريق يغلب على الخير

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 41، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 84، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 35.

(2) الكفوي، الكليات، ص: 512.

ومنه طريق الخير وطريق الشَّرِّ، كما أنَّ الطَّريق اسمٌ لكلِّ ما يطرقه طارق، مُعْتادًا كانَ ذلك الطَّريق أو غير مُعْتاد، وسهلًا كان أو صعبًا، وقد يُطلق الطَّريق بحيث يوصل إلى مكانٍ آخر، وقد يكون ممتدًّا من غير أن يوصلَ إلى مكانٍ آخر، والصِّراط من السَّبيل ما لا التواءَ فيهِ ولا اعوجاجَ، بل يكون على سَبيل القَصد، فهوَ أخصُّ مِنها[1]، ونكتةُ التَّعبير بالسَّبيل غير مضافٍ في قولِه تعالى: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾، ودون أن يقال: (فهل إلى خروجٍ من طريق)، هو بيان أنَّ أيَّ خروج من النّار هو سبيل خيرٍ لهم، كما أنَّ في التَّعبير بالسَّبيل إشعارًا بأنَّهم يطلبون أن يخرجوا من موضع النّار إلى موضعٍ آخر لا عذابَ فيه، كما أنَّ في التَّعبير بالسَّبيل إيماءً إلى طلبِ تيسير خروجِهم، فالسَّبيلُ أيسرُ وألين مِنَ الطَّريق.

(1) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (سبل، طرق)، والكفوي، الكليات، ص: 512 - 513.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢﴾ [غافر: 12]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تعليلُ منع الخروج من النّار مفيدٌ لأصحاب العقول

لمّا سأل الَّذين كفروا الخروج مِنَ النّار، وكان الجوابُ: لا سبيل إلى خروج؛ ناسب أن يذكر التَّعليلَ بقولِه: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾؛ ليعتبر السّامعون في الدُّنيا، ولمّا سألوا الخروجَ مِنَ النّار؛ أجابَهم باستحالةِ حصولِ ما يرجونه ببيانِ ما يوجبُها مِن أعمالِهم السَّيِّئةِ مؤذنًا بعدم استجابة سؤالِهم الخروج من النّار بإعادة التَّوقيف على أعظم ذنوبهم على وجهٍ يشعر بتحقيرِهم، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾ الآيةَ[1].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱلۡحُكۡمُ﴾: أصلُ (حكم): المَنْعُ، وأوَّلُ ذلك الحُكْمُ، وهو المَنْعُ مِنَ الظُّلْم، وكلُّ شيءٍ منَعتَهُ من الفساد؛ فقد حكمتَه، وأحكمتَه[2]، والحُكْمُ أيضًا: القَضاءُ والفَصلُ، تقولُ: حكمتُ بينهما؛ إذا قضيتُ، ويأتي بمعنى الشَّيءِ الحسَنِ المُتقَنِ، والجمعُ: أحكامٌ، والإحكامُ: الحُسْنُ والإتْقانُ، والحَكيمُ: المُتْقِنُ للأُمورِ[3]، والمراد بالحُكم في الآية: القضاءُ والفَصْلُ بالحقِّ والصَّواب.

2) ﴿ٱلۡعَلِيِّ﴾: أصلُ (علو) يدُلُّ على السُّموِّ والارتفاع، لا يَشِذُّ عنه شيءٌ[4]، والعُلْو: أصلُ البناء، ومنه العَلاءُ والعُلوُّ، فالعَلاءُ الرِّفْعَةُ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 269، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 99 - 100.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).

(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حكم).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علو).

والعُلوُّ العَظَمَةُ والتَّجبُّر[1]، والعَليُّ: هو الرَّفيع القَدْرِ، مِنْ عَليَ، وإذا وُصِف اللّه تعالى بِهِ؛ فمعناه: يعلو أن يحيطَ به وصف الواصفين بل عِلم العارفين، وعلى ذلك يُقال: تَعالى، وعلى ما سبق فالمقصودُ بـ﴿ٱلْعَلِيِّ﴾ في الآية: صفةٌ مُشتقَّةٌ مِنَ العُلوِّ المعنويِّ المجازيِّ، وهو القُدسيَّةُ والشَّرفُ[2].

3) ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾: أصلُ (كبر) يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ[3]، يُقالُ: كَبُرَ كِبَرًا وكُبْرًا؛ فهو كبيرٌ وكُبار وكُبّار بالتَّشديدِ؛ إذا أفرط، وكَبُرَ بالضَّمِّ يَكْبُر، أي: عَظُمَ، وكَبَّرَ الأمر: جعله كبيرًا، واستكبره: رآهُ كبيرًا[4]، والكبيرُ: مجازٌ في العظَمَةِ، والمرادُ به في الآيةِ: وصْفٌ مُشتقٌّ من الكِبَرِ المجازيِّ، وهو عَظَمَةُ الشَّأْنِ[5].

### ۞ المَعنى الإجْماليُّ:

طَبْعُ الكافرِ بالله تعالى أنَّه يردُّ الحقَّ ولا يقبلُه

تُعلِّل الآيةُ الكريمة السَّببَ الذي لأجله لن يخرجَ أهلُ النّار مِنَ النّار، وهو أنَّهم كانوا في الدُّنيا إذا دُعيَ اللّهُ وحْدَهُ؛ كفَروا بوَحدانيَّته، وإن يُجعَلْ له شَريكٌ في عبادتِه؛ يُؤمِنوا بالشِّركِ، فالحُكمُ حينئذٍ للّه الَّذي لا يحكم إلّا بالحقِّ، ولا يقضي إلّا بما تقتضيه الحكمةُ، وهو ذو الكبرياء والعظمة الَّذي ليس كمثلِه شيء[6].

### ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

#### علَّةُ فصل الآية:

جاء قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾

(1) الخليل، العين: (علو).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 188.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (كبر).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/ 98، 21/ 188.
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 298، والمراغي، تفسير القرآن: 24/ 52، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 733.

مفصولًا؛ لأنَّ الكلامَ جاء تعليلًا لعدم خروجهم مِنَ العذاب، فاقتضى الكلامُ الفصلَ.

**بلاغةُ الأسلوب الحكيم:**

التّغافلُ عن علّة العذابِ يُناسبه إهمالُ السُّؤال

على القول بأنَّ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ على حقيقته، وأنَّ المشركين ظنّوا لفرط حماقتهم أنَّهم سيخرجون من النّار، عدل عن جوابِهم إلى ذِكر سببِ وقوعِهم في العذاب وعلَّةِ عدم استجابة سؤالهم الخروجَ مِنَ النّار، فقال: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾؛ ليكون الكلامُ على طريق الأسلوب الحكيم[1]، أي: كان ينبغي لكم أن تسألوا عن سببِ دخولِكم النّار، وسبب وقوعِكم في العذاب، وسببِ عدم قَبول اعترافِكم بذنوبِكم، وليس أن تسألوا الخروج منها.

**نكتةُ حذفِ ما يدلُّ عليه الكلام:**

الإمعان في المحاورات يقود إلى معرفة مضامين الإجابات

يحتمل أن يكون العدولُ عن ذكر جواب ما سأله المشركون في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ استغناءً عنه، بتقدير محذوفٍ، أي: فأجيبوا أنَّه لا سبيل إلى الخروج[2]، واستغني عن المحذوف بقرينة ذِكر السَّبب في قوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾، وفي عدم ذكر الجوابِ الصَّريح إشعارٌ بأنَّهم لا يؤبَهُ لهم، فلا يستحقّون أن يُجابوا إلى ما سألوا، بل يُجابوا بسببِ دخولِ النّار؛ ليعلموا استحالةَ الخروج.

**فائدةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة للبعيدِ:**

عبَّر باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُم﴾؛ لتمييز المشار إليه أكملَ تمييزٍ، أي: ذلك العذابُ الَّذي لكم[3]، أو ذلك المقت[4]، أو هو إشارةٌ إلى عدم

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 29.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 362، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 108.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 362.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 10.

كثرةُ المعاني المُشار إليها تُلفُّ وتُطوى تحت لواء اسم الإشارة

استجابة سؤالِهم، أو إلى لا سبيل لكم في الخروج[1]، أو إلى الإهانة والزَّجر الذي يحفُّ بهم يوم القيامة[2]، والأولى أن يكون ﴿ذَٰلِكُم﴾ إشارةً إلى المجموع، أي: إلى كلِّ ما يقتضيه المقام، أي: ذلك الَّذي أنتم فيه من العذاب ومن المقت ومِنَ الإهانة والزَّجر ومِنَ عدم استجابة سؤالِكم، وأنَّه لا سبيل لكم إلى خروجٍ قطُّ، وعبَّر بصيغة الإشارة للبعيد؛ للتَّنبيه إلى عظم البلاء الذي هم فيه، أي: ذلك الأمرُ العظيم الذي أنتم فيه.

### نكتةُ الإشارةِ بصيغةِ الجمع:

إبهـاتُ الكافرين بقطعِ مراجعتِهم للجواب

عبَّرَ بصيغة الجمع في ﴿ذَٰلِكُم﴾ بلحاقِ ميمِ الجمع لاسم الإشارة؛ للإيذانِ بأنَّ السَّبب المذكور يشمل جميعَ الذين كفروا، كما أنَّ خطاب المجموع يقطع أيَّ مراجعةٍ من الكافرين للجواب، ففيهِ إبهاتٌ للكافرين.

### سرُّ استعمال الباء للدَّلالة على السَّببيَّة:

سببُ دخول النَّار عنادُ الكافرين والتصاقِهم بكفرِهم

الباء في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾ للسَّببيَّة، والتَّقدير: ذلكم بسبب كفرِكم باللّه؛ إذا دُعي اللّه وحده، وإيمانِكم بالشَّريك؛ إن أُشرِك به، فالسَّبَبُ هو مضمون القصَّة المعبَّر عنه بضمير الشأنِ[3]، واستُعمل الباء دون اللّام في الدَّلالة على السَّببيَّة؛ لِما تفيده الباء من معنى الملاصقة، فيكون المعنى على تضمين الملاصقةِ معنى السَّببيَّة، أي: بسبب التصاقِكم بالكفر، ولو استعمل اللّام بأن قيل: (ذلكم لأنَّه إذا دعي اللّه وحده)؛ لفاتَ هذا المعنى الَّذي دلَّ عليه اعترافُهم بذنوبِهم، والَّذي بموجبِه استحقّوا العقابَ وعدمَ الخروجِ من النّار.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 155.

(2) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 4/ 549.

(3) البيضاوي، أنوارُ التنزيل: 5/ 53، وابن عاشور، التحرير والتّنوير: 24/ 100.

التَّعجيبُ من تمسُّك الكافرين بكفرهم مع ظهور دلائل الحقّ

### نكتةُ استعمال ضمير الشأن:

جاء استعمالُ ضمير الشَّأن في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾[1]؛ للإشعار بعظم شأنِ ما يعود إليه الضَّمير، وهي الحالة الَّتي ذكرها، وتقدير الكلام: ذلكم بأنَّ الشأنَ والأمرَ: ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾، ففيه إشعارٌ بقُبحِ الحالة التي يكونون عليها، وبعظمِ السَّببِ الَّذي استحقّوا به العذابَ وعدم الخروج مِنَ النّار، كما يُفيد التَّعبيرُ بضمير الشَّأن التَّعجيبَ مِن حالِهم ومن ملازمتهم للكفرِ واتِّخاذهم الشَّريك.

### نكتةُ استعمال أداة ﴿إِذَا﴾:

استعملَ النَّظم الكريم أداة الشرط ﴿إِذَا﴾ دون (إن) في قوله تعالى: ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ﴾؛ لبيان تحقُّقِ وقوع الدَّعوة، وأنَّه قد أُقيمت الحجَّة على المشركين.

الدَّعوةُ إلى توحيد الله تكون بلطفٍ واستعطاف

### نكتةُ استعمال مفردة ﴿دُعِيَ﴾:

لمّا كان الدُّعاءُ بمعنى النِّداء بالاسم؛ كان إسنادُ فعل ﴿دُعِيَ﴾ إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ مفيدًا أنَّ المراد إذا نودي اللّه نداءً، وتوجِّه إليه بالخطابِ على أنَّه إلهٌ واحدٌ، ولهذا السَّببِ اقترن بالدُّعاء الاسمُ الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ الدّالُّ على الألوهيَّة دون غيرِه من الأسماء الجليلة والأوصافِ المجيدةِ، كما يُطلق لفظُ الدُّعاء على العبادة وعلى سؤال الحاجاتِ[2]، كما أنَّ لفظ ﴿دُعِيَ﴾ يفيد أنَّ دعاءَهم كان على طريق الاستمالةِ بلطفٍ، فكان التَّعبيرُ بلفظ ﴿دُعِيَ﴾ مفيدًا عمومَ الدُّعاء والتَّوجُّه إلى اللّه تعالى على أنّه الواحدُ الأحد بلطفٍ واستعطافٍ.

### نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة المبني للمفعول:

جاء التَّعبيرُ بصيغة المبني للمفعول في الفعلين ﴿دُعِيَ﴾ و﴿يُشۡرَكۡ﴾؛

---

(1) المنتجب، الكتاب الفريد: 2/ 479، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 269.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 101.

تمسُّكُ الكافرين بعقيدة الشِّركِ أصلٌ وما سواه فرفْضٌ

للإشعار بأنَّ الكافرين يكفرون بتوحيدِ اللّه تعالى سواءٌ كان الدّاعي معلومًا أم مجهولًا لديهم، فلا يؤثِّر نوعُ الدّاعي ووصفُهُ في كفرِهم بتوحيد اللّه، فأيُّ داعٍ دعا إلى توحيدِ اللّه؛ يكفروا به، وأيُّ إشراكٍ باللّه تعالى يقعْ؛ يؤمنوا به، ففيه دلالةٌ على أنَّ الشِّرك الَّذي يتَّبعون به آباءهم هو الأصلُ، لا البحثُ عن الحقِّ.

## سرُّ المخالفةِ بين أداتي الشَّرط:

تـنـاقـضَ المـشـركـون فـكـفـروا فيما يـجـب الإيـمـانُ بهِ، وآمنوا فيما يجب الكفر به

في الجملة الشَّرطيَّة الأولى عبَّر بـ﴿إِذَا﴾ وصيغة الماضي في فعل الشَّرط، فقال: ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾، وفي الجملة الشَّرطيَّة الثانية عبَّر بـ(إنْ) وصيغة المضارع في فعل الشَّرط، فقال: ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾، وسِرُّه أنَّه لمّا كان المقصود تحقُّقَ الدَّعوة إلى توحيد اللّه والتَّرغيب في حصولِه؛ عبَّر بأداة الشَّرط ﴿إِذَا﴾؛ لما تُفيده مِنَ الدَّلالة على الجزم بوقوع الشَّرط، وأمّا في مقام ذمِّ الشِّرك؛ فعبَّر بأداةِ (إنْ)؛ ليفيد أنَّهم بأدنى ملابسة تحقَّقت، أو لم تتحقَّق، فإنَّهم يُشركون، فيكون التَّعبيرُ بأداة الشَّرط (إنْ) تنزيلًا للمحقَّق الوقوع منزلةَ المشكوك المرفوض الَّذي ينبغي أن يكون محالًا؛ "للتَّنبيهِ على أنَّ دلائلَ بطلانِ الشِّرك واضحةٌ بأدنى تأمُّل؛ فنُزِّلَ إشراكُهم المحقَّق منزلةَ المفروضِ؛ لأنَّ المَقامَ مُشتَمِلٌ عَلى ما يَقلَعُ مَضمونَ الشَّرطِ مِن أصلِه، فَلا يَصلُحُ إلّا لِفَرضِهِ عَلى نَحوِ ما يُفرض المَعدومُ مَوجودًا أوِ المُحالُ مُمكِنًا"[1]، ولهذا أورد معه فعلَ ﴿يُشۡرَكۡ﴾ بصيغة المضارع الدّالِّ على احتمال الوقوع؛ لأنَّه متردِّد بين الحال والاستقبال، فلمّا خولفَ في الأداتين في الجملتَين الشَّرطيَّتين؛ أفادَ بطريق الدَّليل وإقامة الحجَّة أنَّ الكافرين خالفوا الأمر، فكفروا فيما يجب الإيمان به، وآمنوا فيما يجب الكفر به، فدلَّ ذلك على كمالِ سوءِ حالِهم[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 101.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 270، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 100.

### لطيفةٌ في توجيه إعراب ﴿وَحۡدَهُۥ﴾:

حال الوحدانيَّة ثابتٌ على جميع الأوجه الإعرابيَّة

لمّا كان لفظ ﴿وَحۡدَهُۥ﴾ جامدًا، وهو حالٌ، وكان الأصلُ في الحال أن يكونَ مشتقًّا؛ ذهب بعضُ النُّحّاة إلى تأويل الاسم الجامد ﴿وَحۡدَهُۥ﴾ بالمشتقِّ، أي: مفردًا[1]، وجاز كونُهُ معرفة لفظًا؛ لكونِهِ في قوَّة النَّكرة، وهذا هو المشهور عندهم، وأجاز آخرون أن يكونَ ﴿وَحۡدَهُۥ﴾ مصدرًا لفعل محذوف؛ دلَّ عليه المصدر، وتقدير الكلام: توحَّد وحده، والجملة الفعليَّة في محلِّ نصب حال، ولمّا حُذِفَ الفعلُ؛ أقيم مصدرُهُ مقامَه في إفادة معنى الحال بدلالتِه عليه[2]، فمآلُ التأويلين واحد، وهو أن يكونَ ﴿وَحۡدَهُۥ﴾ حالًا، والتَّقديرُ: إذا دُعي اللّه منفرِدًا، بمعنى: إذا دُعي مُنفردًا دون غيرِه.

### فائدةُ التَّقييد بالحال:

كُفرُ الكافرين بسبب عدم قَبولِهم إفرادَ اللّه تعالى بالدُّعاء

لمّا كان ﴿وَحۡدَهُۥ﴾ حالًا مِن لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، وكان الحكمُ منوطًا بالقيد؛ أفاد قوله: ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ أنَّ كفرَهم بسبب إفرادِ اللّه تعالى بالدُّعاء، أي: كفرتم بسبب الدُّعاء إلى توحيدِهِ سبحانه، وليس بسبب دعاءِ اللّه مطلقًا، بمعنى: أنَّهم يدعونَ اللّه، ولكنَّهم لا يرضون إفرادَه سبحانه بالدُّعاء والعبادة؛ فحكم عليهم بالكفر لعدم توحيدِهم اللّه تعالى.

### دلالةُ استعمالِ لفظ ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾ دون (أشركتم):

المقصودُ بيانُ حكمِ الكفر لا وصف حقيقة الشِّرك

استعمل النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾ دون (أشركتم)، والجملةُ الأخرى ذكرت الشِّرك، وذلك أنَّ الكفرَ هو المقصود؛ إذ عند دعوتِهم إلى عبادة اللّه تعالى وحده يكفرون بالتَّوحيد، وإن أشرك به غيره؛ آمنوا، فكان مقصودُ النَّظم إبرازَ الشِّرك باعتبارِه الحكميِّ، وهو الكفرُ باللّه تعالى، لا وصف حقيقةِ الشِّرك.

---

(1) العكبري، التبيان: 2/ 1116.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 53، وابن يعيش، شرح المفصل: 2/ 19، وابن عادل، اللباب: 17/ 21، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 29، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 29.

### نكتةُ حذفِ متعلِّق ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾:

أفاد حذفُ متعلِّق فعل ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾ العموم، أي: كفرتم باللّه وبجميع الأصول المتعلِّقة بالإيمان والإسلام، فكفرْتم بما يجب أن تصدِّقوه، وبالأقوال والأفعال.

### فائدةُ التَّصريح بما هو ظاهرٌ ضمنًا بين المعطوفات:

الإنسانُ إمّا مشركٌ محض وإمّا موحِّدٌ محض

لّما كان قوله تعالى: ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ يفيد بلازمِه أنَّه إن يُدعَ غيرُ اللّهِ معه؛ يؤمنوا؛ كان العطفُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾ من قبيل التَّصريح بما علم ضمنًا، وفي التَّصريح به فوائدُ: الأولى: تقريرُ قبحِ قُبحهم وسوء أعمالِهم بتعديد أفعالِهم الشَّنيعة الَّتي استحقّوا بها العذابَ وعدم الخروج مِنَ النّار، والثانية: التَّنبيهُ على أنَّ الإشراك باللّه تعالى ينبغي أن يكونَ محالَ الوقوعِ، والثّالثة: الإيذانُ بأنَّه ليس ثمَّة إلّا حالتان: حالةُ توحيدِ اللّه تعالى وحالةُ الإشراكِ به سبحانه، فالمؤمنُ لا يشركُ باللّه تعالى، والكافرُ لا يوحِّد اللّهَ، والرّابعة: تقبيحُ الحالةِ الَّتي هم عليها؛ بتصوير حالةِ الإشراكِ وحالةِ إيمانِهم عن طريق مجيءِ الفعلين ﴿يُشۡرَكۡ﴾ ﴿تُؤۡمِنُواْۚ﴾ بصيغة المضارع.

### نكتةُ الاختلافِ بين جمل المقابلة:

المشركون يطيرون إلى الشِّرك زُرافاتٍ ووحدانًا

لّما قال في جملة الشِّرط الأولى: ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾، فعبَّر بالفعل ﴿دُعِيَ﴾؛ كان الظّاهر أن يقالَ في جملة الشَّرط الثّانية: وإن دُعي إلى الإشراك به؛ آمنتم، لكنَّه عدل إلى قوله: ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾؛ للإشعار بأنَّهم يشركون باللّه تعالى، وإن لم يسمعوا الدَّعوة إلى الإشراك، فكأنَّهم يؤمنون بمن يشركُ باللّه وبالشَّريك بمجرَّد عِلمِهم بصدور الإشراكِ باللّه تعالى وشمِّهم رائحةَ الشِّرك بالقول أو بالفعل، ففيه إيذانٌ بشدَّة قبحِ حالِهم وسوء عملِهم وتعجيب مِن أمرِهم، وعظيم ظلمِهم.

### نكتةُ مجيءِ جواب الشَّرط بصيغة المضارع:

جاء التَّعبيرُ في جواب الشَّرط بصيغة المضارع ﴿تُؤۡمِنُواْۚ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾، مع أنَّه مؤوَّلٌ بالماضي لوقوع الأمر في الدُّنيا؛ لتصوير الحالة القبيحة - كما تقدَّم - ولإفادة تجدُّد إيمانِهم بالشَّريك وبمن يُشرك باللّه واستمرارِهم على شركِهم وتكرُّره منهم، فإنَّ لتكرُّرِهِ أثرًا في مضاعفة العذاب لهم[1].

تصويرُ قبائح المشركين في الدُّنيا عذابٌ نفسيٌّ

### نوعُ الباء وفائدتها:

الباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ للإلصاق؛ ليفيدَ شدَّة التصاقِهم بشريك الباري، بمعنى: أنَّهم جعلوا الشِّرك ملتصقًا باللّه تعالى، فلا يتصوَّرون توحيدًا للّه تعالى أبدًا.

### نكتةُ حذف المتعلِّق في الآية:

أفاد حذفُ متعلِّق فعل ﴿تُؤۡمِنُواْۚ﴾ العمومَ، أي: تؤمنوا بكلِّ متعلِّقات الشِّرك، ويصبح الإيمانُ سجيَّةً لكم، فلا تتردَّدوا فيه.

### نوعُ الفاءِ ودلالتها:

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ﴾ عاطفةٌ؛ لأنَّ هذا الكلامَ مِن جملة ما يُقال لهم في الآخرة[2]، وتحتمل أن تكونَ فصيحةً، والتَّقديرُ: إن علمتم ما صدر عنكم في الدُّنيا؛ فاعلموا أنَّ الحكمَ للّه العليِّ الكبير، وفيه إيماءٌ بالتَّهديد والوعيد للمخاطَبين في الدُّنيا، والتَّعجيز للمخاطَبين في الآخرة.

إن عَلِمَ المشركونَ ما صدر عنهم في الدُّنيا فليعلموا أنَّ الحكم لله

### معنى تعريف لفظِ ﴿فَٱلۡحُكۡمُ﴾:

(أل) في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ﴾ للجنس[3]، فيُفيد العمومَ؛ ليشمل كلَّ حكم في هذا الكونِ، ويدخل فيه دخولًا أوَّليًّا الحكمُ في

الحكمُ لله وحده سيراه المشركون يوم القيامة حقًّا وصدقًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 100.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 465.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 101.

مجازاة الكفّار، وعقاب العصاة وإدخالِهم النّار، والحكمُ في ثواب المؤمنين وإدخالِهم الجنَّة؛ فإذا كان الحكمُ له في الدُّنيا؛ فعامَلَكم بحلمهِ، فاليوم سيُجازيكم بعدلهِ.

### نوعُ اللّام ودلالتها:

اللام في قولِه: ﴿لِلَّهِ﴾ للاختصاص، بمعنى: اختصاصِ الحكم المذكور باللّه تعالى، وتحتمل أن تكونَ للملك، ليكون المعنى: (جنسُ الحُكم ملكٌ للّه تعالى).

### بلاغةُ الإظهار في مقام الإضمار:

لمّا كان الاسم الجليل ﴿لِلَّهِ﴾ قد ذُكِرَ في السّياق في قولِه تعالى: ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾، وأُعيد على الأصلِ بصيغة الضَّمير في قولِهِ: ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ﴾؛ كان الظّاهر أن يُقال: فالحكمُ له، فلمّا قال: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ﴾؛ كان من قبيل إقامة الظّاهر مقام الضَّميرِ، والغرض منه أن تكونَ جملةُ: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ مستقلَّةً بنفسِها؛ لتكونَ جملةً تذييليَّة، ولتقرير أنَّ الحُكمَ خاصٌّ بوصف الألوهيَّة، وللتَّمهيد لِذكر الوصفين الكريمين: ﴿ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾، فلو قيل: فالحكم له، لَمَا انتظم ذِكرُ الوصفين وتتابعهما.

### دلالةُ صفة ﴿ٱلۡعَلِيِّ﴾:

علوُّ اللهِ تعالى يفيد علوَّهُ في الأوصاف والكمالات كلِّها

يحتمل أن يكونَ لفظُ ﴿ٱلۡعَلِيِّ﴾ على وزن فعيل بمعنى فاعلٍ، أي: العالي المنزلةِ، وقد يكونُ مِنَ العلوِّ الَّذي هو مصدر: علا يعلو، فهو عالٍ، بمعنى علوِّ المنزلةِ كذلك[1]، فعلى وجهي الاشتقاق مآلُ المعنى واحدٌ، فهو علوٌّ مجازيٌّ اعتباريٌّ يفيد العلوَّ في الأوصاف والكمالات كلِّها[2].

---

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/ 230.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 101.

حكمُ اللهِ ليس كحكمِ المخلوقين لعلوِّ الله وعظمتِه وجلالِه

### دلالةُ صفة ﴿ٱلۡكَبِيرِ﴾:

صفة ﴿ٱلۡكَبِيرِ﴾ من الكِبَر، وهو مجازٌ عن العظمة والجلال، وكِبَرِ الشَّأنِ، فيصغرُ دون جلالِهِ كلُّ كبير؛ ليفيدَ الوصفُ معنى كِبَرِ قَدْرِهِ تعالى واستحقاقه صفاتِ العلوِّ، فالكبيرُ يدلُّ على قوَّةِ صفات كمالِه، فهو الغنيُّ المطلقُ، ويُقال: الكبيرُ هو الَّذي كَبُرَ عن مشابهة المخلوقين في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ(1)، فحكمُهُ ليس كحكم المخلوقين.

### معنى تعريفِ الوصفين الكريمين:

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ للكمال، بمعنى: كمال الوصف بعلوِّ الشَّأنِ وكمال الوصف بالكِبَرِ، فهو سبحانه الَّذي لا أعلى منه ولا أكبرَ.

المبالغةُ في إثباتِ صفات الكمال كمالٌ في الاستدلال

### دلالةُ مجيء الوصفين بصيغة الصِّفة المشبَّهة:

جاء الوصفان ﴿ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ بصيغة فعيلٍ على مثال الصِّفة المشبَّهة؛ للدَّلالة على الاتِّصاف الذّاتيِّ المكين لهذين الوصفين، ويفيد بلازمه المبالغة في علوِّه ورفعةِ شأنِه والمبالغة في كبَرِه وعظمتِه.

إثباتُ أنَّ الحكمَ لله تعالى وأنَّه لا أحدَ قادرٌ على نقضِه

### نكتةُ تتابع الوصفين ﴿ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾:

تَتابُعُ الوصفينِ الجليلين ﴿ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ هو الأنسبُ لسياق الآية؛ لأنَّه بمنزلةِ إقامة الدَّليل على إثبات أنَّ الحكمَ للّه تعالى، وأنَّه لا أحدَ قادرٌ على نقضِه، وبيانُه أنَّه إنَّما يكون نقْضَ الحكم ومنْعَهُ لأحدِ أمرين: إمّا لجري الحكم على خلاف الحقِّ، فعبَّر بالعليِّ للإشارة إلى أنَّ الحكم حقٌّ، وإمّا لأنَّ الحكم جورٌ ومجاوزٌ للحدِّ، فعبَّر بالكبير؛ لأنَّ الوصف بالكبير يقتضي الغنى عن الجَورِ(2)، كما أنَّ في الوصفين الجليلين دلالةً على الكبرياء والعظمة، وعلى أنَّ عقابَ العليِّ الكبير لا يكون إلّا كذلك، وأنَّ عدمَ الخروج مِنَ العذاب هو الذي يُطابق

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/ 403، 2/ 485.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 101.

كبرياءه، ويُناسب جبروته[1]، كما أنَّ في مجيء الوصفين الجليلين تعجيبًا من الكافرين في شركِهم باللّه وكفرِهم به، والمعنى: كيف يشركون باللّه العليِّ الكبير؟.

### نكتةُ التَّقديم والتَّأخير بين الوصفين:

لمّا كان حكمُ الله هو حكم العليِّ الكبير؛ أفادَ أنَّ حكمَه لا يُردُّ

تقديم وصف العليِّ على وصف الكبير في قولِه تعالى: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ فيه فائدةٌ لطيفةٌ، وهي أنَّه لمّا كان الكافرون قد أشركوا باللّه تعالى، وحكم اللّهُ عليهم بعد ذلك بالعقابِ؛ أفاد مجيءُ الوصفين الجليلين الرَّدَّ عليهم وإثبات الحكم المذكور، فإنَّه لمّا قال: ﴿ٱلۡعَلِيِّ﴾ أفاد أنَّه هو العليُّ عن أن يشركَ به، ويسوَّى بغيره، ففيه ردٌّ على الكافرين، ولمّا قال: ﴿ٱلۡكَبِيرِ﴾؛ أفادَ أنَّهُ هو الكبيرُ، الَّذي حَكَمَ على مَن أشركَ، وسوّى به بعض مخلوقاتِهِ في استحقاق العبادةِ، بالعذاب المقيم السَّرمديِّ[2]، ففيه إثباتٌ لحكم اللّه وتقريرٌ له، وأنَّ حكمَهُ تعالى لا يُردُّ.

### بلاغةُ جملة التَّذييل:

لا سبيلَ إلى نجاة الكافرين من النّار؛ لأنَّ الحكمَ حكمُ الله العليِّ الكبير

أفادت جملةُ التَّذييل في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ تقييدَ الحكم باللّه تعالى وقصرَهُ عليه، ولمّا كان المسندُ إليه (الحُكْمُ) على معنى العموم؛ أفادَتْ جملةُ التَّذييل معنى العموم والكلِّيَّة، والمعنى: كلُّ حكم هو للّه وحدَهُ، فالقصرُ حقيقيٌّ؛ إذ لا حكمَ يوم القيامة لغير اللّه تعالى، أي: فليس الحكمُ لما أشركتم به، وفي جملة التَّذييل تقريرٌ؛ لأنَّه لا سبيلَ لهم إلى الخروج مِنَ العذاب[3]، فإنَّه لمّا كان مِن معاني جملة التَّذييل أنَّه لا أحدَ يُنازع اللّهَ العليَّ الكبير في حكمِه؛ أفاد أنَّهم خالدون في العذاب لا يخرجون منه، فلا سبيل إلى نجاة الكافرين من النّار؛ لأنَّ الحكمَ حكمُ اللّه العليِّ الكبير.

---

(1) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 155، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 496.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 53.

(3) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 13/ 94.

## ❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### الحكمُ والقضاء:

كـلُّ مـا يحكمُ بـه الـلـه تعالى هـو مِـن مقتضى الـحـكـمـةِ، فلا مـخـاصـمـةَ في حكمِه

القضاءُ يقتضي فصلَ الأمرِ على التَّمام، وهو مشتقٌّ من قولهم: قضاه؛ إذا أتمَّه، وقطع عمله، وأمّا الحكمُ؛ فيقتضي المنعَ عن الخصومة، وهو مشتقٌّ من قولِهم: أحكمْتُهُ؛ إذا منعته، أو يُقال: الحكمُ فصلُ الأمر على الإحكام بما يقتضيه العقلُ والشَّرع[1]، فعبَّر في الآية بالحُكم دون القضاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾؛ للإشعار بأنَّ كلَّ ما يحكمُ بهِ اللّهُ تعالى هو مِن مُقتضى الحكمةِ، وأنَّه إذا عرف السَّبب؛ فلا يخاصم فيه أحدٌ، فناسبَ ذِكر الحُكم في سياق الفصل يوم القيامة، بمعنى: أنَّه لا خصومةَ في حكمِهِ، وأنَّ حكمَهُ على مقتضى العقل والحِكمة.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 190.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [غافر: 13]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن ذِكر حقيقة المآل إلى واقع الحال للمسارعة في التَّوبة

لَمّا ذكرَتِ الآياتُ السّابقة حالَ أهلِ النّار يومَ القيامة، بقصدِ التَّهديد الشَّديد في حقِّ المشركينَ، وأنَّ الآخرةَ هي دارُ جزاءٍ لا دارُ تكليفٍ، ودار الجزاءِ إنَّما تقومُ على الجزاءِ العادل، لا على الإمهال، فزمنُ الإمهالِ انتهى بالموت، فناسبَ حينئذٍ تذكير المُخاطَبين بما يدلُّ على كمالِ قدرتِهِ وحكمتِهِ ورحمتِه، وأنَّهم في الدّار الَّتي يحسُن فيها العمل، قبل الدُّخول في دارٍ يُنادي فيها المشركون: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾، فهو انتقالٌ مِن ذِكر حقيقة المآلِ، إلى ذِكر واقع الحال، للمسارعة في التَّوبة والإنابة.

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رِزْقًاۚ﴾: أصلُ (رزق) يدُلُّ على عَطاءٍ لِوَقتٍ، ثُمَّ يُحمَلُ عليهِ غَيرُ المَوقوتِ، فالرِّزْقُ: عطاءُ اللّه جلَّ ثناؤُه[1]، وهو كلُّ ما يُنتَفعُ به مِن مالٍ ونحوه، والجَمْعُ: أرزاقٌ[2]، والرَّزْقُ بِفَتْحِ الرّاء: العطاءُ الدّائم، والرّازِقُ: المُعْطي، وهو اللّهُ تعالى[3]، والمقصودُ بالرِّزق في الآية: اسمٌ لِما يَنتَفعُ به الإنسانُ في حاجاته، سَواءٌ كانَ حالًا بما ينبت بالمطر، أم مآلًا بالأعيانِ والأثمان[4].

2) ﴿يُنِيبُ﴾: أصلُ (نوب) يدُلُّ على اعتيادِ مكانٍ ورُجوعٍ إليه[5]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (رزق).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رزق).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 331.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نوب).

ناب نَوْبًا ونَوْبة، وسُمّي النَّحل نَوْبًا لرجوعها إلى مقارِّها، والإنابةُ إلى اللّه تعالى: الرُّجوع إليه بالتَّوبة وإخلاص العمل[1]، والمُنيبُ مَن أنابَ؛ إذا رَجَعَ[2]، والمقصود بالإنابةِ في الآية: التَّوبةُ إلى اللّه، والرُّجوع إليه.

## المَعْنى الإجْماليُّ:

آياتُ الله المبثوثةُ أسبابُ الإنابةِ والأوبة

تُبيِّنُ الآية الكريمة ما يدُلُّ على وحدانيَّتِه تعالى وكمالِ قُدرتِه وكبريائه، فهو الَّذي يُظهر قدرته لخلقه، بما يشاهدونه في العالم العلويِّ والسُّفليِّ من الآيات العظام الدّالَّة على كمال خالقِها وقدرة مبدعها وتفرُّده بالألوهيَّة، ثم خصَّص من هذه الآياتِ ما هم في أشدِّ الحاجة إليه، وهو المطر، فقال: ويُنَزِّلُ لأجْلِكم - أيُّها النّاسُ - رِزقًا مِنَ السَّماءِ، وما يَتذكَّرُ بالآياتِ، فيَعتَبِرُ، ويَتَّعِظُ حينَ يُذكَّرُ بها إلّا مَن يُنيبُ إلى اللّهِ سبحانه بالرُّجوعِ عن الكُفرِ والشِّركِ والمعاصي، إلى الإيمانِ والتَّوحيدِ والطّاعةِ، والإقبالِ على مَحبَّتِه وخَشيتِه، والتَّضَرُّعِ إليه[3].

## الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### بلاغةُ الاستئنافِ ودلالته:

الــحـــثُّ عـلى النَّظرِ في الآياتِ الكونيَّة للإيمانِ بالآيات القرآنيَّة

جاءتِ الآيةُ على طريق الفصل؛ لتكونَ استئنافًا يرادُ منهُ خطاب النّاس جميعًا[4]؛ لبيانِ أنَّ الحكمَ للّه العليِّ الكبير ممّا يُشاهده النّاس؛ تذكيرًا لهم وتنبيهًا بغرضِ الحثِّ على النَّظر في آياتِه ودلائلِه الدالَّة على توحيدِه وتذكُّر نعمِه الَّتي لا غنى لهم عنها؛ بيانًا للدَّليل على وحدانيَّتِه تعالى، وهو المناسب للمقام؛ لأنَّه جاء

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (نوب).
(2) ابن عباد، المحيط في اللغة: (نوب).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 134، والمراغي، تفسير القرآن: 24/ 52، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 734.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 362.

بعد توبيخ الكافرين على كفرِهم باللّٰه وإيمانِهم بالشَّريك، ويحتمل أن يكون الخطابُ خاصًّا لرسولِ اللّٰه ﷺ والمؤمنين، بعدَ أنِ انقضى وصفُ ما يلاقي المشركون من العذاب يوم القيامة[1].

**بديعُ فنِّ الإدماج:**

عطفُ الخاصِّ على العامِّ بغرضِ الامتنان

لمّا قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ﴾، والرِّزقُ آيةٌ من آياتِ اللّٰه تعالى الَّتي ينتفع منها العبادُ، فيدخل في مفهوم الآيات الَّتي يراها النّاس، فهو مِن عطف الخاصِّ على العامِّ، وغرضُ العطف إدماجُ الامتنان على العبادِ بأوضح ما يرون آثارَهُ، ويلمسونه في حياتهم المباشرة، ولذلك ذكَّر بالإنابة الَّتي تنفع المتذكِّرين.

**بلاغةُ القصر ودلالته:**

في القصرِ دلائل التَّوحيد وبراهين التَّمجيد

لمّا جاء المسند والمسند إليه معرفتين في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أفاد الإسنادُ القصرَ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ، ولمّا كان المسندُ اسمًا موصولًا؛ كان مناط القصر صلةَ الموصول بمعنى هو وحدَهُ الَّذي يريكم آياتِه، وينزِّل لكم مِنَ السَّماء رزقًا، أي: لا غيره، ففي القصر تضمينٌ لتوحيد اللّٰه تعالى، وتقريرٌ له على الوجه الحقيق به، ونزع هذا الحق عن غيرِه؛ لما عُلِمَ مِن استحقاقه ذلك بما أرى عبادَهُ مِن الآيات الكونيَّة، والدلائل الرَّبّانيَّة.

**علَّةُ استعمال الاسم الموصول:**

القادرُ على إراءةِ الآياتِ المُشاهدة هو الحقيق بالإذعان لآياته المسموعة

جاء استعمالُ الاسم الموصول في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ﴾، لما فيه مِن معنى التَّعليل والاختصاص، فلمّا كانت صلة الموصول جملةً معلومةَ الانتساب إلى مشارٍ إليه عند المخاطَبين؛ أفاد أنَّ المخاطَبين على علم بمضمون الصِّلة، بمعنى أنَّهم على علمٍ بأنَّ الآياتِ الظّاهرة في السَّماء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 102.

والأرض وما بينهما هي آياتُ اللّه تعالى، وأنَّه تعالى هو الذي ينزِّل الرِّزق من السَّماء، فكان ذِكر الصِّلة لزيادة تقريرِ الغرض الَّذي سيق له الكلام، وهو توحيدُ اللّه تعالى والإخلاص له في العبادة، كما أنَّ في ذِكرِ الصِّلة تعظيمًا لشأنِ المخبَر عنه، فمَن هذا شأنُهُ ينبغي أن يُعبَدَ، ويوحَّدَ، ويُخلَصَ له في العبادة.

### دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع:

نِعَمُ اللهِ تعالى متجدِّدةٌ لا تُمنع بكفرٍ ولا تُمدُّ بإيمان

جاء التَّعبيرُ بصيغة الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿يُرِيكُمْ﴾ و(يُنَزِّلُ)؛ لإفادة تجدُّد إراءَته تعالى للنّاس آياتِه العظيمة الدالَّة عليه سبحانه، وتجدُّد إنزالِه الرِّزق من السَّماء وقتًا فوقتًا وحالًا فحالًا؛ ليفيدَ التَّعبير بصيغة المضارع الاستمرار وعدم الانقطاع، المقتضي استمرار الإنعام وتجدُّده[1]، ففيه إيذانٌ بأنَّه لا إيقافَ لهذه الآيات، ولا منع لهذه النِّعم عن أحدٍ من النّاس، مع الإشارة إلى أنَّ رؤيةَ الآيات متجدِّدة في حياةِ النّاس، كما يشهدُ لهذا الواقعِ العلميِّ المعاصر.

### نكتةُ استعمال مفردة ﴿يُرِيكُمْ﴾:

الإراءةُ منَّةٌ إلهيَّةٌ يُراد منها الاهتداءُ إلى الحقائق لا الغفلة عنها

نوعُ الإراءة في فعل ﴿يُرِيكُمْ﴾ هي البصريَّةُ، ويفيد التَّعبيرُ بـ﴿يُرِيكُمْ﴾ أنَّه خلقَ في النّاس ما يُعينهم على رؤية الآياتِ؛ لتكونَ وسيلةً للتَّفكُّر والاهتداء، ففي إراءَتِه تعالى الآيات تفضُّلٌ منه وإحسانٌ، وفي تعدية الفعل ﴿يُرِيكُمْ﴾ بالهمزةِ - إذ أصلُهُ رأى، فلمّا اقترنت به همزةُ التَّعدية؛ صار يُري - إشارةٌ إلى أنْ ليس للإنسان أنْ يرى ببصيرتِهِ حقائقَ الأشياء إلّا بإراءة الحقِّ تعالى إيّاه[2]، ولو حجبَ ﷻ القدرة على الرُّؤية من أبصار العبادِ؛ لما استطاعوا بلوغَ شيءٍ ممّا ينتفعون بهِ إثرَ هذه الإراءةِ، وهو ما يعرفُهُ الإنسان المعاصر، فإنَّ ما وصل إليه العصر الحديث، إنَّما هو بفضلِ اللّه

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 270.

(2) حقّي، روح البيان: 8/ 163.

تعالى وإحسانِه، فكلُّ ما بلغَهُ الإنسان من تقدُّم هو نتيجةُ الإراءة الإلهيَّة، لكنَّ قليلًا من النّاس مَنِ اعتبر؛ فاهتدى إلى المطلوب، وهو الإيمان، وغالبهم فرح بظاهر الحياة الدُّنيا، وغفل عن المقصود.

### فائدةُ الإضافة ودلالتها:

المقصودُ بالآيات كلُّ ما يصحُّ أن يوصفَ بأنَّه آيةٌ دالَّةٌ على العليِّ الكبير

أُضيف لفظُ الآيات إلى الضَّمير العائد إلى الله تعالى، فهي آياتُ الله العليِّ الكبير، ففي الإضافة إيماءٌ إلى رفعةِ هذه الآيات وعِظَمِها وكونِها آياتٍ عجيبةً، ويؤيِّده التَّعبير بالآيات الَّتي تُفيد أنَّها علاماتٌ باهرة ظاهرةٌ، ولمّا كانت الإضافةُ على معنى الاختصاص؛ أفاد لفظ ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ عمومَ آياتِ الله تعالى، فشملت آيات قدرتِه كالسَّماوات والأرض والشَّمس والقمر والجبال والسَّحاب والرَّعد والبرق ونحوها وآيات قرآنِه المجيد والمعجزات الظّاهرة على أيدي رسلِه وبقايا ديارِ القوم الَّذين هلكوا وسائر ما يجب أن يُعلَم[1]، وذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بالآيات الآياتُ التَّكوينيَّة الَّتي جعلها الله سبحانه في سماواتِه وأرضِه وما بينهما وما فيهما مِنَ الشَّمسِ والقمر والنُّجوم والرِّياح والسَّحاب والبحار والأنهار[2]، فهي أظهرُ الآياتِ وأعمُّها لجميع النّاس، وأيَّده العطف في قولِه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ﴾؛ ليكونَ العطفُ من قبيل عطف ما يظهر بالعيان على ما يصيب الأبدانَ.

### مناسبةُ العطفِ بين الجملتَين:

بإظهارِ الآيات إقامةُ الأديان، وبإنزال الأرزاق إقامةُ الأبدان

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ﴾ بالواو على طريق الوصل، لاشتراكِ المعطوف والمعطوف عليه في كون الجملتَين خبريَّتين وفي الجامع الخياليِّ، وبيانُهُ أنَّه تعالى ذَكَرَ في المعطوف عليه ﴿يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ما يتعلَّق بمصالح أديان العباد بإظهار

(1) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 4/ 550، والقرطبي، الجامع في أحكام القرآن: 15/ 299، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 243.

(2) النّسفي، مدارك التنزيل: 3/ 203، والشّوكاني، فتح القدير: 4/ 555.

البيّنات والآيات وعطف عليه ما يتعلّق بمصالحِ أبدانِهم بإنزال الرِّزق من السَّماء، "فَمَوقِعُ الآياتِ مِنَ الأديانِ كَمَوقِعِ الأرزاقِ مِنَ الأبدانِ، فالآياتُ لِحَياةِ الأديانِ، والأرزاقُ لِحَياةِ الأبدانِ، وعِندَ حُصولِهِما يَحصُلُ الإنعامُ عَلى أقوَى الاعتِباراتِ وأكمَلِ الجِهاتِ"(1)، فجمعَ بين إظهارِ الآيات وإنزال الأرزاق؛ لأنَّ بإظهارِ الآيات إقامةَ الأديانِ ومراعاة المعاد، وبإنزال الأرزاق إقامة الأبدان ومراعاة المعاش الَّذي به يكونُ العونُ على أمر الدّين.

### نكتةُ عطفِ الخاصِّ على العام:

الـرِّزقُ أقـربُ الآيات في إقناع العقلِ البشريِّ

قد يُقال: ما سببُ إفرادِ المعطوف في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ﴾، على المعطوف عليه ﴿يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ مع كونِه من آياتِ اللّهِ الدّالَّة على قدرته ووحدانيَّتِه؟ والجوابُ هو أنَّه لمّا كان تنزيلُ اللّه تعالى المطر من السَّماء، فينتفع منه النّاس ممّا هو ظاهرٌ في تفرُّد اللّه تعالى به؛ كان ذِكرُهُ لأجلِ ظهور تفرُّده تعالى بعنوانِ كونِ الرِّزق مِن آثارِ رحمتِه وجلائلِ نعمتِه الموجبةِ لشُكرِه والإنابة إليه(2).

### نوعُ اللّام ودلالتُها:

اللّام في ﴿لَكُم﴾ للاختصاص المفيد معنى النَّفع، وتُسمّى هذه اللّام لامَ النَّفع، أي: لأجل أن تنتفعوا به، وهذا هو موضعُ الامتنان.

### غرضُ تقديم ﴿لَكُم﴾ على المفعول:

تـخـصـيـصُ المـخـاطَـبـين بموضع الامتنان

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَكُم﴾ على المفعولِ به في قولِه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ﴾، فلم يقل: (وينزل رزقًا من السَّماء لكم)؛ للتَّخصيص الإضافيِّ، بمعنى: أنَّ إنزالَ المطر من السَّماء، وإن كان ينتفعُ منه النَّبات والحيوان، لكنَّه إنَّما أُنزِلَ مِن أجلِكم، وما ينتفع به الحيوان والنَّبات، فمآلُهُ عليكم، ففيه استعطافٌ للمخاطَبين

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 497.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 270.

وتعظيمُ الامتنان عليهم، ولو أخَّر ﴿لَكُم﴾ عن المفعول به ﴿رِزْقًاۚ﴾؛ لصار صفةً له، فلا تقوى دلالةُ الاختصاص - كما في التَّقديم - بل يفيد أنَّ الرِّزقَ صالحٌ لانتفاع المخاطَبين منه، وبين المعنيَين فرقٌ كبير[1].

### فائدة ﴿مِّنَ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ابتدائيَّة، والمعنى: ابتدأ إنزال الرِّزق من السَّماء، ففيه تنبيهٌ إلى عظم هذه الآيةِ، وإيماءٌ إلى عموم الفضلِ والمنَّة.

### معنى تعريف لفظ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

(أل) في لفظ: ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ عهديَّةٌ، فهي السَّماء المعهودة في الأذهان، ليفيد التَّعبيرُ إراءَةَ اللّٰه تعالى المخاطَبين لهذه الآيةِ الظّاهرة العجيبة.

### نكتةُ التَّقديم والتَّأخير بين أشباه الجمل على المفعول:

قُدِّم ﴿لَكُم﴾ على ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، فلم يقل: (وينزِّل من السَّماء لكم رزقًا)، ونكتةُ ذلك الاهتمام بالمنزَّل لهم، فالأهمُّ في كونه نازلًا لهم لا في كونه نازلًا من السَّماء.

### نكتةُ تنكير ﴿رِزْقًاۚ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿رِزْقًاۚ﴾؛ لبيان أنَّ المقصودَ هو عمومُ الرِّزق الَّذي يكون من ماء السَّماء؛ لأنَّ النَّكرة في سياق الامتنان تفيد العموم.

### بلاغةُ المجازِ المرسل:

ذِكرُ الرِّزق دون الماءِ للتَّنبيه إلى عظيم نِعَمِ الله ورفعتِها

قولُه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ﴾ مِن أمثلة المجاز المرسل المشهورة، فالرِّزق لا ينزل من السَّماء، وإنَّما ينزل الماء الَّذي ينبت به الزَّرع، فيأكل منه النّاس، وينتفعون منه، فيكون قد عبَّر عن المطر بالرِّزق، على طريق المجازِ المرسل بذكر المسبَّب وإرادة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 104.

السَّبب[1]، ونكتةُ ذِكر المسبَّب التَّنبيهُ إلى عموم الرِّزق الَّذي يكون مِن ماء السَّماء، وإلى أنَّ ما يعتاش به النّاس ممّا هو قوام أبدانِهم هو مِن نِعَم اللّه تعالى العليِّ الكبير عليهم، ويحتمل أن يكونَ الكلامُ على المجاز بالحذف، والتَّقديرُ: وينزِّل لكم من السَّماء أسباب الرِّزق، والوجه الأَوَّلُ أولى وأظهر.

### نوعُ الواو ودلالتها:

مـدحُ المُنيبين والتَّعجيب من حال الغافلين

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ تحتمل أن تكونَ عاطفةً؛ لتكونَ الجملةُ تذييليَّةً، وتحتمل أن تكونَ حاليَّةً، بمعنى هو وحده تعالى الَّذي يُريكم آياتِهِ، وينزِّل لكم من السَّماء ماءً، فيكون سببًا في الرِّزق، والحالُ أنَّه لا يتذكَّر إلّا مَن يُنيب، ففي الحالِ تنويهٌ بالمنيبين، وتعجيبٌ ممَّن لا يتذكَّر هذه الآياتِ الباهرة، ولا يتَّعظ بها، وعلى الوجهين فيه اعتناءٌ بالمنيبين وإنكار على المعاندين.

### نكتةُ التَّصريح بالتَّذكير بعد التَّلميح:

التَّذكُّر النّافع هو الـذي يُقيم في القلب الإيمان ويمحو الكفران

لمّا تقدَّم أنَّ في صلةِ الموصول تلميحًا إلى أنَّ ذِكْرَ آياتِ اللّه وإنزال الرِّزق من السَّماء لأجلِ التَّذكير؛ كان التَّصريحُ بالتَّذكيرِ في قولهِ تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ على معنى التَّذكُّر التّامِّ[2] النّافع الَّذي يقتضي الإنابةَ إلى اللّه تعالى، الَّذي يُري آياتِهِ العظيمة العجيبة، وينزِّل من السَّماء رزقًا.

### نوعُ القصرِ وبلاغتُهُ:

المتذكِّر يُنيب إلى مولاهُ عند وقوع مزالق السَّهو

جاء قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ على طريق القصرِ، ونوعُ القصر إفرادٌ؛ ليُفيد أنَّ التَّذكُّر مقصورٌ على من يُنيب، لا يتجاوزه إلى غيره، لِما بين التَّذكُّر والإنابة من التَّلازم في الواقع والعادة، ففيه دلالةٌ على أنَّ التَّذكيرَ بالآيات الظّاهرة الَّتي يُريها

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 156، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 53.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 21.

اللّهُ تعالى للمخاطَبين، وبتنزيل المطرِ مِن السَّماء، فيكونُ سببًا في الرِّزق لا ينتفع منهما إلّا من ينيب، ويتَّعظ، وليفيد أنَّ المرادَ بالتَّذكُّر هو التَّذكُّر الَّذي يُعتدُّ به، وينفع صاحبَه، فمَن تذكَّر، ولم ينفعْهُ تذكُّره؛ كان تذكُّره غيرَ نافعٍ، فكأنَّه لم يكن(1)، وجاء القصرُ بطريق النَّفي وأداة الاستثناء؛ فالتَّنبيهُ إلى أنَّه أقامَ مَن لم يتذكَّر بمثل هذه الآياتِ، ولم ينتفع منها، مقامَ المنكِرِ للآيات الظّاهرة الباهرة، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ سببَ إنكارِهِ انهماكُهُ في الغفلةِ، فالمتذكِّر لا يغفل.

### دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع:

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ و﴿يُنِيبُ﴾؛ للإشارة إلى تجدُّد التَّذكُّر واستمرارِه، وأنَّ الإنابةَ المطلوبةَ هي الإنابة المتجدِّدة المتكرِّرة(2).

### نكتةُ حذف مفعول التَّذكُّر:

كلُّ آيةٍ تقوم مقامَ كتابٍ يقرَؤُهُ المُنيب إلى الله تعالى

حُذِفَ متعلِّق فعل ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ لإفادة العموم، بمعنى يتذكَّر جميعَ أنواع الآيات وأنواع الرِّزق، فأيُّ آيةٍ من آياتِ اللّه تكفي المُنيب في التَّذكُّر، كما أنَّ أيَّ نوعٍ من الرِّزق يكفي لتذكُّر نِعَمِ اللّه المسبَّبة عن المطر، ويحتمل أن يكونَ حذفُ المفعول لإقامة الفعل المتعدّي مقامَ اللّازم، بمعنى: أنَّ المُنيبَ هو الَّذي يكون تذكُّره للآيات وصفًا لازمًا له.

### نوعُ الاستثناء ودلالته:

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ مفرَّغٌ مِن أعمِّ الأحوال، بمعنى: وما يتذكَّر في أيِّ حالٍ مِنَ الأحوال زمانًا ومكانًا إلّا مَن يُنيب.

(1) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 4/ 550.
(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 24/ 24/ 103.

### نكتةُ استعمالِ الاسم الموصول:

الــعــاقــلُ هــو مُختصٌّ بالإنابةِ موفَّقٌ للتَّوبة

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ الاسم الموصول ﴿مَن﴾ الَّذي يُستعمل للعاقل؛ لإفادة العموم، فإنَّ العاقلَ مهما كان علمُهُ ومعرفته وعمرُهُ ومكانه وزمانه؛ فإنَّهُ هو الَّذي يُنيب إلى الله تعالى، ومَن لا يُنيب كان كمن لا عقلَ له؛ لعدم انتفاعِهِ به، وللإيماء إلى وجه بناء الخبر ولبيان سببه، بمعنى: أنَّ الإنابةَ المتجدِّدة المتكرِّرة هي سبب التَّذكُّر.

### بلاغةُ استعمالِ مفردة الإنابة:

الإنـابـةُ خـاصَّـةٌ بالعباد المؤمنين عند عودتهم إلى ربِّ العالمين

جاء استعمالُ مفردة الإنابة في قوله تعالى: ﴿مَن يُنِيبُ﴾ دون أن يُقالَ: (وما يتذكَّر إلّا مَن يتوب)؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تذكُّر للآيات والنَّظر فيها، ومراجعتِها مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، وهي خاصَّةٌ بالمؤمنين؛ فناسب ذِكرُ الإنابة المفيد الرُّجوع إلى الله تعالى مرَّةً بعدَ مرَّةٍ بالإقبال إليه قاصدًا له مهما بعُد عنه بسبب المعاصي والذُّنوب؛ ليفيد ذكر الإنابة وقوع التَّوبة، فالمنيبُ تائبٌ لله تعالى، ولكلِّ كلمةٍ في القرآن مع صاحبتِها مقامٌ يناسبها نظمًا ومعنًى.

### نكتةُ حذفِ متعلِّق فعل ﴿يُنِيبُ﴾:

إذا عُلِمَ المعنى؛ نُـزِّل عند حذفِهِ كذكرِه

حُذِفَ متعلِّق فعل: ﴿يُنِيبُ﴾؛ لظهور المعنى بقرينة المقام، وكأنَّ الإنابةَ لا تكون إلّا إلى الله تعالى، والمعنى: وما يتذكَّر إلّا مَن ينيب إلى الله بطاعتِه وبقَبول أمره، كما أنَّ في حذف متعلِّق الفعل من الجار والمجرور رعايةً للفاصلة ومناسبةً لرؤوس الآي.

### بلاغة فنِّ التَّعريض:

كلُّ مدحٍ يُقابله قـدحٌ للمخالفِ المعارضِ

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ تعريضٌ بالمعاندين من الكافرين، وبمن تمرَّد، وعصى، وأشرك بالله تعالى وعتا عن أمرِه، بأنَّهم ليسوا منيبين إليه، أي: إنَّ المعاندَ لا سبيل إلى تذكُّره

واتِّعاظه[1]، ففيها تثبيتٌ للمؤمنين على البقاءِ والاستمرار، وتبكيتٌ للمعاندين على ما هم عليه.

**بلاغةُ التَّذييل:**

توكيدُ مضامين الكلامِ تقويةٌ للمقاصدِ وربطٌ للدَّلالات

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ تذييلٌ[2]، فجملة القصر تذييليَّة، لتأكيد مضمون ما قبلها من الحثِّ على التَّذكُّر بما ألمح إليه إراءَة الآيات وتنزيل الرِّزق من الأمرِ بتذكُّرها والاتِّعاظ بها، كما أنَّه لمّا كانت الجملةُ على معنى العموم بمجيء الاستثناء مفرَّغًا، والتَّعبير بالاسم الموصول ﴿مَن﴾ المفيد العموم، فلمّا كانت الجملةُ كذلك؛ أفادت جملة التَّذييل معنى العمومِ والكلّيَّة؛ لتكونَ كالمثل في جريانِها والتَّمثُّل بها في الكلام.

## الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

**التَّوبة والأَوبة والإنابة:**

الإنابةُ إشعارٌ بتكرُّر الرُّجوع، والتوبة النَّدم على السابق، والأوبة الرُّجوع إلى المكان

التَّوبةُ: هي النَّدم على فعل ما سبق، والأوبُ: هو الرُّجوع إلى المكان الَّذي كان فيه، وكُلُّ شَيءٍ رجَعَ إلَى مَكانِه؛ فَقَد آبَ، ومنه في دعاء الرُّجوع من السَّفر: «آيِبونَ تائِبون عابِدون، لِرَبِّنا حامِدونَ»[3].

وأمّا الإنابةُ؛ فهي الرُّجوع إلى الشَّيء مرَّةً بعد مرَّةٍ بأن يكونَ مقبلًا إليه قاصدًا له، وإن كان بعيدًا عنه، والنّوبُ بالضمِّ: النَّحل؛ لأنَّها تعود إلى خلاياها مهما بَعُدت في سروحها لارتشاف رحيق الأزهار[4].

(1) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 156، والطيبي، حاشية على الكشّاف: 13/ 478.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 103.

(3) صحيح مسلم، رقم الحديث: (1342).

(4) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (توب، نوب).

﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾ [غافر: 14]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

النَّظرُ يقودُ إلى الإنابةِ، والإنابةُ تثمر التَّذكُّرَ، والتَّذكُّرُ يوجبُ الإخلاص

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة منَّةَ اللّه في إراءة الآياتِ الباهرة المتضمِّنة للأدلَّة الظّاهرة والنِّعم المتواترة؛ ناسب أن يذكر ما يتسبَّب عن ذلك من التَّذكُّر والاتِّعاظِ، ممّا يقود إلى أمرِ عبادهِ بتوحيدِه وإخلاص الدّين له، أي: فإذا كان الأمرُ كما ذُكِرَ مِن اختصاص التَّذكُّر بِمَن يُنيبُ: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1]، فالنَّظرُ في الآيات يُثمر الإنابةَ، والإنابةُ تثمر التَّذكُّرَ، والتَّذكُّرُ يوجب الإخلاص للّه تعالى[2]، قال تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، أي: إذ تذكَّرتم: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾.

## شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُخۡلِصِينَ﴾: أصلُ (خلص) يدلُّ على تنقيةِ الشَّيءِ وتهذيبِه[3]، وخَلَصَ الشَّيءُ بِالفَتْحِ، يَخلُصُ خُلوصًا، أي: صارَ خالِصًا[4]، وأخلَصه، وخلَّصه، وأخلَص للّه دينَهُ: أَمْحَضَهُ، وأخلَصَ الشَّيءَ: اختارَهُ، والمُخلَصون المُختارون، والمُخْلِصون الموَحِّدون، وخَلَص إليه الشَّيءُ: وصَلَ، والمرادُ بالإخلاص في الآية: إمحاضُ العبادةِ للّه وعَدَمُ الشَّوْبِ بمُغايرٍ[5].

2) ﴿ٱلدِّينَ﴾: (دين) أصلٌ واحِدٌ إليه يَرجِعُ فُروعُهُ كُلُّها، وهو جنسٌ مِن الانقيادِ، والذُّلِّ، فالدّينُ: الطّاعَةُ، يُقالُ: دانَ له يَدينُ دينًا؛ إذا

(1) حقّي، روح البيان: 8/ 163.
(2) السعدي، تفسير السعدي، ص: 734.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلص).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (خلص).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 316.

أَصْحَبَ، وانقادَ، وطاعَ[1]، ودانَ نَفْسَهُ، أي: أذَلَّها، واستعبدها[2]، واستُعير الدِّين للشَّريعة، وهو كالملَّة، لكنَّه يُقال اعتبارًا بالطّاعة والانقياد للشَّريعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19][3]، والمرادُ بالدّين في الآية: المُعامَلَةُ، أي: مُعاملةُ المَخْلوقِ رَبَّهُ، وهي عِبادتُهُ[4].

## المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّوحيد حقُّ اللهِ على العبيد

لمّا ذَكَرَ اللّه تعالى من الأدلَّة على التَّوحيد؛ أَمَرَ عبادَهُ بدعائه وإخلاص الدّين له، فقال: إذا علمتُم أنَّ التَّذكُّر خاصٌّ بمَن ينيب؛ فادعوه تعالى وحْدَه مُخلِصينَ له، غيرَ مُشرِكينَ به شَيئًا في كُلِّ حالٍ، حتَّى في حالِ كَراهةِ الكافِرينَ إفرادَكم العبادةَ للّهِ وحدَه[5].

## الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### نوعُ الفاء ودلالتها:

عند تحقُّق المعرفة بإقامة الأدلَّة فالتَّوحيد واجبُ الوجود

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ تحتمل أن تكون فصيحةً، والمعنى: إذا علمتم ما تقدَّم مِنَ الأدلَّة الموجبة للتَّوحيد؛ فادعوه وحده، وتحتمل التَّفريع على ما قبلها، بمعنى: أنَّه لمّا كانَ النَّظر في آياتِ اللّه تعالى مقتضيًا الإنابة إليه، وكان كلُّ مَن ينيب إليه يتذكَّر هذه الآيات الظّاهرة والنِّعم الباهرة؛ رتَّب الأمر على ذلك، والتَّفريع والفصيحة متكاملان.

### غرضُ الأمر ودلالته:

الدُّعاء على معنى سؤال الحاجة من الله تعالى والتَّوجُّه إليه سبحانه

صيغةُ الأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ﴾ تفيد وجوب الامتثال والمداومة عليه، ولمّا كان الخطابُ للمؤمنين المنيبين؛ كان الأمر

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دين).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (دين).
(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (دين).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 316.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 294، والمراغي، تفسير القرآن: 24/ 53.

مستعملًا في طلب الدَّوام على هذا الدُّعاء والاستزادةِ منه؛ لأنَّ المُؤمِنينَ قد دَعَوا اللّه مُخلِصينَ لَهُ، فالمَقصودُ: دوموا عَلَى ذَلِكَ، واستزيدوا منه، فالأمر في الآية كالأمر في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النّساء: 136][1]، ولمّا جاء الأمرُ بعد ذكر حالِ الكافرين؛ أفاد أنَّ المرادَ الإعلانُ بذكرِ اللّه وعبادته، ودعاؤُه على معنى سؤال الحاجة والتَّوجُّهُ إليه سبحانه، فاللَّفظ يعمُّ المعنيين.

الاختلافُ في تعيينِ مرجع الضَّمير مردودٌ إلى احتمال السّياق والنَّظم

### تعيينُ مرجع الضَّمير ودلالته:

الظّاهر أنَّ ضميرَ الجمع في ﴿فَٱدۡعُواْ﴾ يعودُ إلى المنيبين المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[2]، وهو الَّذي عليه جمهور المفسِّرين، ويدلُّ عليه السّياق سباقًا ولحاقًا؛ لأنَّ الأمرَ بالدُّعاء مسبَّبٌ عن الإنابة، ولأنَّه جاء في اللَّحاق: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ فيكون في الكلامِ التفاتٌ بليغ، فبعد أن ذكرَ إراءةَ الآياتِ وتنزيل الرِّزق؛ لينتفع بمدلولها جميعُ النّاس من المؤمنين والكافرين، خصَّ التَّذكُّر بمن يُنيب، فقال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾، فنبَّه بالقصر إلى أنَّ المؤمنين هم الذين يُنيبون، ويتذكَّرون، فالتفت الخطاب إليهم تنويهًا بهم، فكأنَّه قال: (فادعوا اللّه أيُّها المنيبون).

وأجاز بعضُ المفسِّرين أن يكونَ الضَّمير في ﴿فَٱدۡعُواْ﴾ عائدًا إلى عموم النّاس من المؤمنين والكافرين[3]، كما هو الحال مع الضَّمير في ﴿يُرِيكُمۡ﴾ و﴿لَكُم﴾، وعلى هذا الوجهِ يكون لفظُ ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ على العموم في المعنى؛ لأنَّه يفيد أمر المؤمنين بالاستمرار على الإخلاص للّه تعالى والزّيادة فيه، وأمرَ الكافرين بتركِ الكفر والإقبالِ إلى عبادة اللّه والإخلاص له، والوجه الأوَّل هو الظّاهر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 105.

(2) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 3/ 708، والزّمخشري، الكشاف: 4/ 156، وحقّي، روح البيان: 8/ 163.

(3) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 362، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 308.

بقرينة السّياق، والقول الآخر له احتمالُهُ مِن جهة عموم السّياق، وبقرينة لِحاظ مقصد الآيات، وإنشاءُ الأمر يقتضي ذلك، وأمّا خصوص السّياق؛ فإنَّ الكافرَ إن آمن؛ أصبح مِنَ المنيبين، وعليه أن يواجهَ بقوَّةٍ كراهة بقيَّة الكافرين لذلك.

**بلاغةُ الإظهار في موضع الإضمار:**

تفريعُ الأمرِ على الاستدلال إنشاءٌ لجملةٍ مستقلَّة في نظمها ومقصدها

جاء قوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ بإظهار الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾، مع أنَّه قد جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ﴾ بصيغة المضمر، فكان الظّاهر أن يُقال: (فادعوه مخلصين له الدّين)، فلمّا جاء مظهرًا؛ كان على خلاف مقتضى الظّاهر، وتوجيهُ ذلك أنَّه لمّا كان الكلامُ مفرَّعًا على ما قبله لاستجدادِ غرضٍ آخرَ؛ جُعِلَ مستقلًّا عمّا قبله[1]، وهو إنشاءُ طلبِ الإقبال عليه سبحانه وعبادته.

**فائدةُ التَّعبير بالاسم الجليل:**

الاسمُ الجليل عنوان العبادةِ والطّاعة

جاء ذِكرُ الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ دون ذكر (الرَّبِّ)؛ لتمكين الاسم الجليل من المخاطَبين فضلَ تمكُّنٍ، وللإشعارِ بأنَّ مقتضى ألوهيَّته تعالى أن يكون هو المعبود بحقٍّ، وأن يُعبدَ سبحانه وحده، وأن يُخلصَ له في العبادةِ[2].

**مناسبةُ اختيارِ مفردة ﴿مُخۡلِصِينَ﴾:**

الإخلاصُ تمحيصٌ للحقِّ بعد الاختلاط بالباطلِ

لمّا كان الخالصُ هو ما زال عنه شوبهُ بعد أن كان فيه، وأفاد معنى التَّصفية ممّا يخالطُهُ؛ كان مجيء لفظ: ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ حالًا مفيدًا معنى: اجعلوا دينكم خالصًا للّه تعالى في دعائِكم، أي: إنَّ دعاء اللّه تعالى يجب أن يكونَ صافيًا من كلِّ ما سواه، فالمخلصُ في دعائِهِ متبرِّئٌ عن كلِّ ما سوى اللّه تعالى، وهو المتَّسق مع السّياق

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 105.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 308.

الذي جاء فيه ذمُّ الشِّرك وأهله، فإنَّ الشِّرك خلطٌ للحقِّ بالباطل، بحيث يتمحَّض فيما بعد للباطل، والإخلاص تمحيضُ الحقِّ للحقِّ.

### نوعُ اللّام وفائدتُها:

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لَهُ﴾ للاختصاص؛ ليفيدَ اختصاص الإخلاصِ في الدُّعاء والعبادة باللّه تعالى وحده، وفائدتُها في تَعيينِ موضعِ الإخلاص.

### فائدةُ تقديم ﴿لَهُ﴾ على المفعول:

ازدحـامُ النَّصِّ بأدلَّة الإخلاصِ دليـلُ الأهمّيَّة والـعـنـايـة بالمطلوب

قدَّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَهُ﴾ على مفعول اسم الفاعل في قولِه تعالى: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ للاختصاص، وهو ترشيحٌ آخر لبناء الدّين على الإخلاص، بعد اختيار المفردة، ودلالة حرف اللام، وهنا التَّقديم، بمعنى: أنَّ إخلاص الدّين لا يكون إلّا للّه تعالى، فإن شاركَهُ غيرُه؛ فقد المخلص شرطَ القَبولِ.

### معنى تعريف لفظ ﴿ٱلدِّينَ﴾:

كـلُّ مـا يخضع بـه الـعـبـدُ على سبيل العبادةِ فهو دينٌ

(أل) في لفظِ ﴿ٱلدِّينَ﴾ للاستغراق، والمراد من ﴿ٱلدِّينَ﴾ ما يدين به الإنسان في طاعتِه للّه وعبادتِه له، أي: أخلصوا للّه تعالى في كلِّ ما تدينون به له، وتتقرَّبون به إليه، ففي هذا المعنى تقريرٌ لأن يكون الدُّعاء في قولِه: ﴿فَٱدۡعُواْ﴾ شاملًا للدُّعاء الَّذي هو العبادة ولِدعاء المسألة والتَّوجُّه له سبحانه[1]، والدّين الحق الذي يدين به العباد للّه تعالى هو دين الإسلام.

### نوعُ الواو ودلالتها:

ثـبـاتُ الـقـلـبِ عـلى الإخـلاص واجبٌ مع أقوى الصُّعوبات

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ حاليَّة، والمعنى: اعبدوه في كلِّ حال حتى في حال كراهية الكافرين ذلك؛ لأنَّ كراهية الكافرين ذلك - والمؤمنون بين ظهرانيهم، وفي بلاد فيه سلطانُ الكافرين - مظنَّةٌ لأن يصدَّهم ذلك عن دعاءِ اللّه مخلصين له الدين[2].

---

(1) السعدي، تفسير السعدي، ص: 734.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 105.

### نوعُ (لَوْ) ومعناها:

وجوبُ استدامة الدُّعاء وعدم التَّخلّي عنه في أيِّ حالٍ من الأحوال

(لَوْ) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ شرطيَّةٌ وصليَّةٌ، بمعنى: أنَّ الشَّرط الذي بعدها يفرضهُ المتكلِّم؛ ليكون غايةَ ما يتوقَّعُ معه انتفاءُ الحكم الذي قبلها، فيكون ذكرُ ما بعدَ (لَوْ) مقصودًا منه وجوبُ تحقُّق الحكم في سائر الأحوال، وإن وصل الأمر إلى الحال الَّتي تكون على أشدِّها لتمنع تحقيق الحكم وإنجازِه[1]، فلا تطلب (لَوْ) الوصليَّة جوابًا، ولا يقصدُه المتكلِّم؛ ليفيد مجيء (لَوْ) وجوبَ استدامة الدُّعاء وعدم التَّخلّي عنه في أيِّ حالٍ من الأحوال، والمعنى: فادعوا اللّه مخلصين له الدّين وإن وصل الحالُ إلى كره الكافرين ذلك، وذهب بعض النُّحّاة والمفسِّرين إلى أنَّ (لَوْ) الوصليَّة ما دامت شرطيَّة؛ فإنَّها تقتضي جوابًا مقدَّرًا من السّياق، وتقديرُ الكلام: ولو كره الكافرون، فادعوا اللّه مخلصين له الدّين، أي: استديموا على الأمر، ولا تنقطعوا عنه، فيكون في تقدير الجواب تقريرًا للأمر بالدُّعاء وتأكيدًا له لمجيئِه تحقيقًا قبل الشَّرط وتقديرًا بعده.

### دلالةُ الإيماءِ في صيغة الماضي:

كُـرْهُ الكافرين للتَّوحيد واقعٌ قطعيٌّ ومعرفتُه واجبٌ شرعي

لمّا كان الأصلُ في زمان الفعل الذي يأتي بعدَ (لَوْ) الاستقبال؛ لأنَّها بمنزلةِ (إنْ) الشَّرطيَّة التي تكون للمستقبل، فإذا جاء الفعل بعدها ماضيًا؛ انصرف إلى المستقبل[2]؛ كان مجيء الفعل ﴿كَرِهَ﴾ بصيغة الماضي على خلاف مقتضى الظّاهر؛ للإيماء بأنَّه بمنزلة الذي وقع، وحصلَ؛ تقريرًا لِكره الكافرين، وأنَّه واقعٌ - لا محالة - فعدَمُ توقُّعه من الضَّعف في إدراك ما تُكِنُّه نفوس الكفّار.

### نكتةُ حذف مفعول ﴿كَرِهَ﴾:

حُذِف مفعول فعل ﴿كَرِهَ﴾ لإفادة العموم، والتَّقدير: ولو كره

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 307.
(2) الجيش، تمهيد القواعد: 1/ 207.

كراهيَّةُ الكافرين للعبادةِ الحقَّة تختلف بحسب الواقع والمصالح

الكافرون دعاءَكم وعبادتكم وإخلاصَكم للّه في دينكم؛ ليفيد أنَّ الكافرين يشقُّ عليهم إخلاصُ المؤمنين في دينهم، وأنَّهم يكرهون الإخلاص للّه وحده غايةَ الكراهة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [الزمر: 45]، كما أنَّ حذْفَ المفعول يدلُّ على تقدير المحذوف في كلِّ زمانٍ، فإنَّ لكلِّ زمان ما يكرهه الكافرون مِنَ المؤمنين، فزمانُ انتشار الوثنيَّة والشِّرك، ليس كزمان انتشار الإلحاد والفسق، فالكراهية نابعةٌ ممّا يتعارض مع مصالح الكافرين على مدى الزَّمان، وهذا مِن أرشق ما تُحذف له مفعولاتُ الأفعال، ممّا يدركها أربابُ الدَّعوة إلى دين التَّوحيد، بربط ذلك بواقعهم.

### معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ للاستغراق، فيدخل فيها كلُّ كافرٍ يكره ما يراه من إخلاص العبادة للّه وحده.

### بلاغةُ الكناية:

كـرهُ الكـافرين أصـــــلٌ في تحرُّكهم ما دام السَّبب قائمًا، وهو التَّوحيد

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ كنايةٌ عن الصَّدِّ والمقاومة وما يقع من آثار الكراهيَّة، فإنَّه يلزم عن الكراهية الفعل، ويتمثَّل ذلك في الصَّدِّ والرَّدِّ وإعلان الحرب، فالكارهُ لا يصبر على دوام أسباب ما يكرهه[1]، فإنَّ كراهةَ الشَّيء تدلُّ على مشقَّة الكارهِ منه وعدم قَبولِه إيّاه، فكراهيَّة الكافرين ذلك من المؤمنين تكون سببًا لتألُّبِهم وتظاهرِهم لمحاولتِهم صرْفَ المؤمنين عن ذلك وصدِّهم عنه بكلِّ وسيلةٍ يجدونها وفي جميع الأحوال، كما أنَّ مجرَّد الكراهةِ في القلب لا قيمةَ لها حتَّى يُبالغَ بها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 105.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾

[غافر: 15 - 16]

## مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قبلَهُما:

بعد ذِكرِ الأدلَّة الموجبة لإخلاص العبادة؛ انتقل إلى ذِكر صفات المعبود

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة أدلَّةَ التَّوحيدِ مِنَ الآيات الكونيَّة ممّا يراه النّاس ليعتبروا به، ثم جاء الأمرُ لهم بوجوب الإخلاصِ في عبادة اللّه تعالى وحده وطاعته، وأنَّه لا يَقبَلُ عملًا دونه؛ ذكرَ من صفاتِ جلالِه وكمالِه ما يقتضي إخلاصَ العبادة له؛ حثًّا عليه وتشويقًا إليه، فقال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾، ولمّا أفهمَ قوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أنَّه لا حجابَ يومئذٍ من بيوتٍ أو جبالٍ أو أشجارٍ أو تلالٍ؛ نبَّه عليه معيدًا ذِكرَ اليوم بوصفٍ هو أهول منه، فقال: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ﴾[1].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَفِيعُ﴾: أصلُ (رفع) أصلٌ واحِدٌ، يدُلُّ على خِلافِ الوَضْع، تقولُ: رفعتُ الشَّيءَ رفْعًا، وهو خِلافُ الخَفْضِ[2]. الرَّفْعُ يقال تارةً في الأجسام الموضوعة؛ إذا أعليتها عن مقرِّها، نحو: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: 93]، وتارةً في البناء؛ إذا طوَّلته، نحو قوله: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [البقرة: 127]، وتارةً في الذِّكر؛ إذا نوَّهته، نحو قوله: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤﴾ [الشرح: 4]، وتارةً في المنزلة؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 27.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رفع).

إذا شرَّفتها، نحو قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: 76][1]، ولا يُقال: رَفُعَ، ولَكِن ارتَفَعَ، وقيل: رَفُعَ رِفْعَةً بالكسر، أي: شَرُفَ وعَلا، وارتفعَ قَدْرُهُ، فهو رفيعٌ، والأُنثى رفيعةٌ، وهو مجازٌ، ويُقال: هو رفيعُ الحَسَبِ والقَدْرِ[2]، والمقصود بـ ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾: عَليُّ القَدْرِ، جليلُ الشَّأنِ في ذاتِهِ وفي صفاته[3].

2) ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾: أصلُ (عرش): يدُلُّ على ارتفاع في شيءٍ مَبْنيٍّ، يُقالُ: عَرَشْتُ الشَّيءَ، وعَرَّشْتُهُ، أعرُشُهُ، تَعريشًا، أي: رفَعتُه[4]، والعَرْشُ حَقيقَتُهُ: الكُرسيُّ المُرتَفِعُ الَّذي يَجلِسُ عليه المَلِكُ، قالَ تَعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسُف: 100]، وكُنّي به عن العِزِّ والسُّلطان والمملكة، قيل: فلان ثُلَّ عَرْشُهُ، وعَرْشُ اللّهِ: ما لا يعلمه البشرُ على الحقيقة إلّا بالاسم[5]، والمقصودُ بالعرش في الآية: مركزُ التَّدبير، ولا نعلم كنهه ولا صفته، والمرادُ بذي العَرْشِ: اللّه تَعالَى، مالكهُ وخالقُهُ لا عن حاجة إليه[6].

3) ﴿يُلْقِى﴾: أصلُ (لقي) يدلُّ على طَرْحِ شيءٍ[7]، والإلقاءُ: طَرْحُ الشَّيء حيثُ تلقاه، أي: تراه، ثمَّ صارَ في التَّعارف اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[8]، ويُطلَقُ على الإفضاءِ بالكلام: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [الشُّعراء: 223]، وعلى حُصولِ الشَّيءِ في النَّفْسِ كأنَّ مُلقيًا ألقاهُ، أي: مِنْ غير سَبْقِ تهيُّؤ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائِدَة: 64][9]، كما يُطلق على الإعطاء؛ إذا كانَ غيرَ مُترقَّبٍ، ومثاله: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٨٦ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ [النَّحل: 86 - 87]، والمقصود في الآية: إنزالُ الوحي على مَن يشاء مِنَ الرُّسل.

4) ﴿ٱلرُّوحَ﴾: (روح): أصلٌ مُطَّرِدٌ، يَدُلُّ على سَعَةٍ وفُسْحَةٍ واطِّرادٍ، والرّوحُ روحُ الإنسانِ، وهو مُشْتَقٌّ مِنَ الرّيحِ، وكذلكَ البابُ كُلُّهُ[10]، والرّوحُ: النَّفْسُ الَّتي يحيا بها البدنُ،

---

(1) الراغب، المفردات: (رفع).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (رفع).
(3) مجمع البحوث، التفسير البسيط: 8/ 619.
(4) الخليل، والعين، والأزهري، تهذيب اللغة: (عرش).
(5) الراغب، المفردات: (عرش).
(6) المراغي، تفسير القرآن: 11/ 62.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(8) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (لقى).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/ 123.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (روح).

يُذَكَّرُ، ويُؤنَّثُ، يُقالُ: خرجت روحُهُ، أي: نَفْسُه[1]، والرّوحُ: المَلَكُ، قالَ تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مَريَم: 17]، أي: مَلَكًا من مَلائِكتِنا، والمرادُ بالرّوحِ في الآية: الوحْيُ، وسُمّيَ الوحْيُ روحًا؛ لأنَّ حياةَ القُلوبِ والأرواحِ به، كما أنَّ حياةَ الأبدانِ بالأرواح[2].

5) ﴿ٱلتَّلَاقِ﴾: أصلُ (لقي) يدلُّ على توافي شيئَيْنِ[3]، واللِّقاءُ: مُقابلةُ الشَّيءِ ومصادفته معًا، ويُقال ذلك في الإدراك بالحسِّ، وبالبَصر، وبالبصيرة[4]، ولقيتُه لَقْوَةً، أي: مَرَّةً واحِدَةً ولقاءةً، واللُّقْيَةُ فُعْلَةٌ من اللِّقاءِ، والجَمْعُ لُقًى[5]، والالتِقاءُ: المُحاذاةُ[6]، والتَّلَقّي: استقبالُ ما يُلْقَى[7]، والمقصودُ بيوم التَّلاقي: هو يومُ الحَشْرِ، وسُمّي بذلك؛ لأنَّ النّاس كلَّهُم يلتقون فيه، أو لأنَّهُم يلْقَونَ ربَّهُم لِقاءً مجازيًّا، بمعنى حضورِهم عنده سبحانه[8].

6) ﴿بَٰرِزُونَۖ﴾: أصلُ (برز) يدلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ وبُدوِّه، قياسٌ لا يُخْلِفُ، يُقالُ: بَرَزَ الشَّيءُ، فهو بارزٌ، وكذلكَ انفرادُ الشَّيءِ مِنْ أمثاله، نحو: تَبارُزِ الفارسَيْنِ، وذلك أنَّ كلَّ واحدٍ منهما ينفردُ عَنْ جماعتِهِ إلى صاحبِهِ، والبَرازُ المُتَّسِعُ من الأرضِ؛ لأنَّهُ بادٍ ليس بغائطٍ ولا دَحْلٍ ولا هوَّةٍ[9]، وبرَزَ فلانٌ يَبْرُزُ بالتَّخفيف، أي: ظهَر بعد الخفاء، وأبرَزتُ الكتاب والشَّيء، أي: أظهرته[10]، والمقصودُ بالبروز في الآية: الظُّهورُ والانكشاف، أي: ظاهرون لا يخفى على الله منهم شيء، أو لا يسترهم شيءٌ من جبَلٍ أو أكمة أو بناء[11].

7) ﴿ٱلْمُلْكُ﴾: أصلُ (ملك) يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ وصِحَّةٍ، يُقالُ: أَمْلَكَ عجينَهُ: قَوَّى عَجْنَهُ وشَدَّهُ، ومَلَّكْتُ الشَّيءَ: قَوَّيْتُهُ، والأصلُ هذا، ثُمَّ قيلَ: مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ يملِكُه مَلْكًا، والاسمُ المِلْكُ؛ لأنَّ يَدَهُ فيه قويَّةٌ صحيحةٌ[12]، والمُلْك: نَوْعٌ من المِلْكِ - بِكَسْرِ الميم -

---

(1) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (روح).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 198.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).

(4) الراغب، المفردات: (لقي).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).

(6) الزبيدي، تاج العروس: (لقي).

(7) الأزهري، تهذيب اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (لقي).

(8) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لقي)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 109.

(9) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (برز).

(10) الخليل، العين: (برز).

(11) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 620، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 272.

(12) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (ملك).

فالمِلْكُ جِنْسٌ والمُلْكُ بِالضَّمِّ: نَوْعٌ مِنْهُ، وهو أعلَى أنواعِه[1]، والمُرادُ بِالمُلْكِ في الآية: الحقُّ الدّائمُ للّه تعالى.

8) ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾: أصلُ (قهر) يدُلُّ على غلَبةٍ وعُلوٍّ، يُقالُ: قَهَره يَقْهَره قَهْرًا؛ فهو قاهِرٌ، وقهّار للمُبالَغة، وأقهرتُ الرَّجُل؛ إذا وجَدْتَهُ مَقهورًا، أو صارَ أمرُه إلى القَهْر[2]، والقَهّار صفةٌ للّه ﷻ ثابتةٌ بالكتاب، وهو الَّذي يقهر كلَّ شيءٍ، فيغلبه ويصرِفه لما يشاء كيف يشاء[3]. والمقصود بـ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ في الآية: الغَلَبةُ والتَّذليلُ معًا[4].

## ۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

السُّلطانُ المُطلق والمُلك التّام لله الواحد القهّار

تُبيِّن الآية الكريمة الصِّفات التي لأجلها استحقَّ ﷻ أن يُعبدَ دون سواه، في كونه هو وحده صاحب الرِّفعة والمقام العالي، وهو وحده صاحبُ العرش العظيم، الَّذي لا يعلم مقدار عظمته إلّا هو، يُنزِّلُ الوحيَ مِن أمرِه على مَن يَشاءُ مِن عبادِه، وهم الرُّسلُ؛ ليُخوِّفَ النّاسَ، ويُحذِّرَهم يومَ القيامة، ثمَّ بيَّنتِ الآيةُ التي تليها ذِكرَ بعضِ أحوالِ النّاسِ في هذا اليومِ الَّذي يَبرُزُ فيه النّاسُ بعدَ خُروجِهم مِن قُبورِهم في صَعيدٍ واحِدٍ، لا يَخفَى على اللّهِ مِنَ النّاسِ شَيءٌ، ثمَّ يَقولُ اللّهُ يومَ القيامةِ: لِمَنِ المُلْكُ اليومَ؟ فيُجيبُ نَفْسَه تعالى، فيَقولُ: للّه الواحِدِ الَّذي لا شَريكَ له، القَهّارِ الَّذي قَهَر، وغَلَب كُلَّ شَيءٍ[5].

## ۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### موقعُ الجملة من السّابق:

توالي الأخبارِ عن الله تعالى بيانٌ لعظيم أوصافِه وجميل نعوتِه

قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ استئنافٌ؛ والجملةُ خبرٌ

(1) الراغب، المفردات: (ملك)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 213.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (قهر).
(3) الخطابي، شأن الدعاء، ص: 315، والبيهقي، الأسماء والصفات، ص: 315.
(4) الراغب، المفردات: (قهر).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 294، 296، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 498، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 734، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 271.

آخر عن اللّه تعالى بعد أن أخبر عنه في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ﴾، فالجملةُ على معنى البيان والإيضاح لصفاتِ المخبَر عنه، وهو اللّه تعالى، سواء أكانت الجملةُ خبرًا بعدَ خبرٍ، أم كان قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ خبرًا لمبتدأٍ محذوف.

**المسندُ إليه بين التَّقدُّم والحذف:**

معرفةُ المسند إليه تُغني عن ذكره، فيأتي المسندُ واضحًا في البيان

الظّاهر أنَّ التَّراكيب الثَّلاثة في قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ أخبارٌ لمبتدأٍ محذوف، تقديرُهُ: هو[1]، وسبب الحذف ونكتتُهُ هو أنَّه لمّا كانَ المحدَّثُ عنه - وهو اللّه تعالى - مستحضَرًا في أذهان السّامعين بما أُخبرَ عنه في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ﴾، وكان قوله: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ تفريعًا لِما تقدَّمه، فلمّا رجعَ الكلام إلى ذِكر أوصاف اللّه تعالى والإخبار عنه؛ كان حذفُ المبتدأ هو قلادةَ الجيد، وقاعدة التَّجويد، وفيه من اللُّطف والظَّرف والأنس والحسن ما لا تجده لو أُظهِرَ المحذوفُ بأن قيل: (هو رفيعُ الدَّرجات ذو العرش يلقي الرّوح من أمره)، وهذه طريقةٌ في الكلام البليغ معتادة ومستمرَّة، والقصد منها مدح المخبَر عنه، كما أنَّ في حذف المبتدأ إيذانًا بأنَّ الخبرَ لا يصلح إلّا للّه تعالى حقيقةً[2]، وذهب بعض النُّحّاة والمفسِّرين إلى أنَّه خبرٌ بعد خبر بمعنى: أنَّ قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أخبارٌ للمبتدأ ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾، فيكون قد أخبر عن المبتدأ أربعة أخبار[3]، فيكون من باب تعدُّد الخبر؛ إشعارًا بعظم شأنِ المسندِ إليه، وتنوُّع أوصافِه الجليلة.

(1) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 156، والمنتجب، الكتاب الفريد: 5/ 480.
(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 147 وما بعدها، والسكاكي، مفتاح العلوم، ص: 176، والتفتازاني، المطول، ص: 212.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 156.

### بلاغةُ نمط التَّعديد:

تعدُّدُ الأخبار تعظيمٌ لِشأنِ المخبَرِ عنه وإخطارٌ بعظم حاله

جاء الإخبارُ عن صفات الله تعالى في قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ على نمط تعديد الأخبارِ، لا على طريق العطفِ، ونكتةُ ذلك هو أنَّه لمّا كانت هذ الأخبارُ تجري مجرى الأوصافِ لذاتٍ واحدةٍ؛ دلَّ عدمُ العطف على أنَّها كلَّها تصدقُ على ذاتٍ واحدةٍ وبدرجة واحدة؛ ليُفيد تعدُّد الأخبار تعظيمَ شأنِ المخبَر عنه، فإن أخبرت عنه بأيِّ تركيب؛ تلقَّته العقول بالقَبول، وكان له من القوَّة ما لبقيَّة الأخبار، والتَّقديم والتَّأخير بين الأخبار باعتبار السّياق، ولكلِّ سياقٍ خصوصيَّةٌ يُكشف فيها حسنُ الاختيار بين نمط التَّعديد، والعطف، والتَّقديم والتَّأخير.

### دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المبالغة:

رفعةُ شأنِ الله وعلوُّ سلطانِه مؤذنٌ بكمالِ صفاتِه الجليلة

الظّاهر أنَّ ﴿رَفِيعُ﴾ صفةٌ مشبَّهة، والمعنى: رفيعٌ درجاتُه؛ ليدلَّ بقولِه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ بطريق الكنايةِ[1] على رِفعة شأنه وعلوِّ سلطانه، ويحتمل أن يكون ﴿رَفِيعُ﴾ من أمثلةِ المبالغة؛ للدَّلالة على الكثرة والمبالغة، فيكون مِنَ الإضافة إلى المفعول، والمعنى: كثيرُ رفعِ الدَّرجات، فيكون راجعًا إلى صفاتِ فعل الله تعالى؛ ليدلَّ على التَّفاوت في رفع الدَّرجات، وفيه أوجهٌ في بيان المقصود من المعنى، منها أن يكونَ المعنى رافعَ السَّماوات، أي: سماء فوق سماء، فيكون كنايةً عن عزِّهِ وعظيم سلطانِه، فالمآلُ في الوجهين واحد.

### بلاغةُ المجاز في لفظ ﴿ٱلدَّرَجَٰتِ﴾:

ارتفاعُ درجات العليِّ علوٌّ للمؤمنين في جنّات النَّعيم

التَّعبيرُ بلفظ ﴿ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ مجازٌ بتشبيه المجد والعظمة بعلوِّ الدَّرجات، وجَمْعُ ﴿ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ إيذانٌ بكثرة العظَمات باعتبارِ صفات مجدِ الله وكمالاتِه الَّتي لا تُحصى[2]، أي: ارتفعت درجات كمالِهِ بحيثُ لا يظهر دونها كمال.

---

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 13/ 480.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 106.

وإذا كان معنى ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾: رافعَ درجاتِ المؤمنين في الجنَّة، فيكون الكلامُ على طريق الاستعارة، باستعارة الدَّرجات لمراتب القرب إن كان المرادُ الدَّرجاتِ في الدُّنيا، أو باستعارة الدَّرجات لمراتب الثَّواب استعارةَ محسوسٍ لمعقول؛ ليُفيدَ أنَّ كلَّ درجةٍ وفضيلةٍ تحصل للمؤمنين في الجنَّة، فإنَّما تحصل بإيجادِه وفضلِه ورحمتِه[1].

### نكتةُ استعمال ﴿ذُو﴾:

﴿ذُو﴾ في قولِه تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ بمعنى صاحب، وعبَّر بـ﴿ذُو﴾ دون (صاحب)؛ لِما تفيده ﴿ذُو﴾ من معنى تمكُّن الموصوف من اسم الجنس الذي أُضيفت إليه ﴿ذُو﴾؛ ليفيد قولُه: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ ثباتَ ملكِه وسلطانِه عليه وتمكُّنه تعالى منه.

### معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْعَرْشِ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ للعهد، وهو العرشُ المعهود المذكور في القرآن في قولِه تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: 5].

### مناسبةُ التَّعقيب بين الوصفين ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾:

تقويةُ المعنى للمعنى من أوثق الصِّلات وأرجح الاستدلالات

لمّا كان المقامُ في بيان تفرُّده سبحانه بالألوهيَّة، ووجوب الإخلاص له تعالى والاستدلال عليه؛ ناسب أن يعقِّبَ ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ بقولِه: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾؛ للدَّلالة على علوِّ صمديَّته وعدم حاجتِه إلى أيِّ مخلوق، وأنَّ الخلقَ كلَّه محتاجٌ إليه في كلِّ الأمور، وبيانُه أنَّه لمّا دلَّ قوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ على عزَّته وملكوته، وأنَّه لا كمالَ سوى كمالِه تعالى؛ دلَّ هذا على تفرُّده بالألوهيَّة وصمديَّتِه من حيثُ المعقولُ، فلمّا أعقبَهُ بالخبر الثّاني ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾، الدّالِّ على ملكِه جميع العوالم من حيثُ المحسوسُ، دلَّ على أنَّه لا يصحُّ أن يُشرَك به[2]، كما

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 13/ 480.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 156، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 53.

أنَّه لمّا كان ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ دالًّا على علوِّ شأنِه ورفعة مجدِه؛ ناسبَ تعقيبَهُ بقولِه تعالى: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ الدّالِّ على عظيم سلطانِه وواسع ملكه وملكوتِه، فلكلِّ كلمةٍ في القرآن مع صاحبتِها مقامٌ.

### نكتةُ تأخير الخبر الثالث ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ﴾:

بعد ذكرِ صفات المرسلِ تُذكر صفة الإرسال

جاء الخبرُ الثّالث: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ﴾ عقبَ ذِكر الخبرين: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾؛ لأنَّه لمّا ذكر من صفاتِ عزَّتِه وملكوتِه؛ ناسب أن يذكر عظيم نعمِهِ على العبادِ بإلقاء الوحي إليهم؛ ليكونَ تمهيدًا لِذكر النُّبوَّة وما يكون من الحساب يوم القيامةِ، ولإفادةِ أنَّ الرَّوحانيّاتِ أيضًا مسخَّراتٌ لأمرِه بإظهار آثارِها، وهو الوحي، كما أنَّ في الإخبار بقوله: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ﴾ نكتةً أخرى، وهي أنَّه لمّا ذكر إنزالَ الرِّزقِ الجسمانيِّ الذي هو المطر في قولِه: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ﴾؛ ناسبَ ذِكرَ إنزالِ الرِّزقِ الرّوحانيِّ الذي هو الوحيُ[1].

### فائدةُ التَّعبير بصيغةِ المضارع:

إلقاءُ الوحي متجدِّدٌ في الزَّمان كلِّه بأصل إنزالِه أو بأصل إفهامه

يفيد التَّعبيرُ بصيغة المضارع ﴿يُلۡقِي﴾ الاستمرارَ التَّجدُّديَّ للوحي من لدن آدم إلى انتهاءِ زمنِ سيِّدنا رسول اللّه ﷺ، وهو في حكم المستمرِّ إلى يوم القيامةِ، بإقامة مَن يقوم بالدَّعوة، بإحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسُّنَّة والأمر بمقتضاهما، وهو مناسبٌ لقوله تعالى: ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾، أي: من أمرِ الوحي الَّذي هو أمرٌ بالخير وبعْثٌ إليه[2]، ويؤيِّد هذا المعنى ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن سيِّدنا محمَّد رسول اللّه ﷺ أنَّه قال: «إنَّ اللّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مئةِ سَنَةٍ مَن يُجَدِّدُ لَها دينَها»[3].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 53، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 270.
(2) الطيبي، حاشية على الكشاف: 13/ 479، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 109.
(3) أبو داود، سنن أبي داود، الحديث رقم: 4219.

اجتمعَ في لفظِ الإلقاء سرعةُ الإنزال وقوّته وثقله على المتلقّي

**بلاغةُ الاستعارة في فعل الإلقاء:**

جاء التَّعبيرُ عن فعل الإنزال بلفظِ الإلقاء في قوله تعالى: ﴿يُلۡقِى ٱلرُّوحَ﴾ على طريق الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وبيانُها أنَّ حقيقة الإلقاء هي رمي الشَّيء من اليدِ إلى الأرضِ، أو طرْحُهُ بحيث تلقاه، وتراه، ففيه معنى الاستقبال، ولا ينفكُّ الإلقاء من القوَّة في الطَّرح أو الرَّمي حسًّا أو معنًى(1)، واستُعير لفظ الإلقاء للإعطاء مطلقًا؛ إذا كان غيرَ مترقَّب، واستُعير الإلقاءُ هنا للوحيِ للإيذانِ بأنَّه يجيءُ فجأةً على غير ترقُّبٍ كإلقاء الشَّيء إلى الأرضِ(2)، ولمّا كان الإلقاءُ على وجه التَّلقّي والاستقبال؛ أفاد أنَّه منَّةٌ وفضلٌ مِنَ اللّه تعالى، وقُرِّر هذا الفضل في مقيِّدات الإسناد في قولِه تعالى: ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، فالرّوح ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾، فهو فضلٌ وكرامةٌ، ثمَّ زادَهُ تقريرًا حينما ذكرَ أنَّه يلقيه: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، كما أنَّ في استعارةِ لفظ الإلقاء إشعارًا بقوَّة المُلقى وثقله على مَن يشاء مِن عبادِه، فإلقاءُ اللّه تعالى الرّوحَ من أمرِه على مَن يشاء من عبادِهِ تكريمٌ وتكليفٌ؛ لأنَّ المُلقى عليه مأمورٌ بتحمُّله وتبليغه، كما أنَّ فيه إيماءً إلى ثقلِه على المكلَّفين؛ لأنَّه ينطوي على العذاب لمن كذَّب، وكفر به؛ ولهذا ناسبه أن يعقبَهُ بذِكر الإنذار دون ذِكرِ البشارة في قولِه: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾؛ فاجتمع في الاستعارة معنى المفاجأة، وثقل الوحي، ويعزِّز هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِى عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: 5].

**بلاغةُ الاستعارة في لفظِ ﴿ٱلرُّوحَ﴾:**

الصَّحيح أنَّ المرادَ من ﴿ٱلرُّوحَ﴾ الوحيُ(3)، وهو الشَّريعة الَّتي

---

(1) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (لقي).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 107.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 363، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 108، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 498، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 53.

الوحيُ روحٌ؛ لأنَّه حياةُ القلوبِ فإذا أُعرِض عنه ماتت القلوب

بلَّغها الرُّسل إلى أقوامِهم، والتَّعبيرُ عن الوحي بالرّوح استعارةٌ تصريحيَّة بتشبيه الوحي الَّذي تحيا به القلوب بالرّوح الَّتي بها حياةُ الأبدان، وبها انتظام أمورِهم وحياتِهم، ولا تستعارُ الرّوح إلّا لما كان نفيسًا، وبه يكون قوام الشَّيء وبقاؤه، فالجامعُ بين المستعار والمستعار له هو الحياة، "فَكَما تُستَعارُ الحَياةُ لِلإيمانِ والعِلْم، كَذَلِكَ يُستَعارُ الرّوحُ الَّذي هوَ سَبَبُ الحَياةِ لِكَمالِ النُّفوسِ وسَلامَتِها مِنَ الطَّوايا السَّيِّئَة"[1]، والمعنى: يُلقي الوحي الَّذي تحيا به القلوب، وفي الاستعارة إشارةٌ لطيفة إلى أنَّ كلَّ مهتدٍ حيٌّ، وكلَّ ضالٍّ ميِّتٌ[2]، وبه تكونُ الاستعارةُ أبلغَ في إيصال المعنى من الحقيقة؛ لأنَّها بيانٌ للمعنى، مع مزيد إيضاح للمقصود.

### معنى تعريف لفظِ ﴿ٱلرُّوحَ﴾:

التَّعريفُ في لفظ ﴿ٱلرُّوحَ﴾ للعهد الذِّهني بقرينة السّياق، والمعنى: يلقي الوحي على رسلِه عليهم الصَّلاة والسَّلام، وهي الشَّريعة الَّتي بلَّغها الرُّسل لأقوامِهم.

### نوعُ ﴿مِنْ﴾ وفائدةُ استعمالِها:

تحتمل (مِنْ) الابتداء والبيان والسَّببيَّة والتَّبعيض

الظّاهر أنَّ ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ ابتدائيَّةٌ[3]، وعليه فيحتمل المعنى توجيهين، **الأوَّل**: يُلقي الرّوح، وهو الوحيُ من جهةِ أمرِ اللّٰه تعالى؛ إيذانًا بعظم الأمرِ وبخَصوصيَّته، فالإلقاءُ ابتداءً من عند اللّٰه تعالى، وهو ما يدلُّ على الاختصاص، **والثاني**: يلقي الرّوحَ، وهو الملك المبلِّغ للوحي، أي: يُلقي الرّوحَ الَّذي مبدؤه المَلَك المبلِّغ إلى مختار النُّبوَّةِ، وعليه يكون المَلَك مبدءًا للوحي باعتبار تلقّيه منه[4]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 107.

(2) الزجاج، معاني القرآن وبيانه: 4/ 369، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 108، والزمخشري، الكشاف: 4/ 156، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 32.

(3) الواحدي، التفسير الوجيز: أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 244، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 17/ 23.

(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 156، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 53، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 309.

ويكون إطلاقُ الأمر على الملَك؛ لكونِه من جهة اللّٰه تعالى، أي: بأمرِه، أو لكونِه مأمورًا به ليكون على سبيل المبالغة(1).

وتحتمل ﴿مِنۡ﴾ أن تكون بيانيَّةً، فيكون قوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ بيانًا لِلرّوح وهو الوحي، ولمّا كان الوحيُ أمرًا بالخيرِ؛ كان المعنى: يلقي الرّوح الذي هو أمرٌ بالخير من اللّٰه على مَن يشاء مِن عبادِه، فالأمر هنا على معناه(2)، أو المعنى: يُلقي الرّوح، وهو الوحي الَّذي هو من عالمِ أمرِه(3) المقابل لعالم خلقِه.

وتحتمل أن تكونَ سببيَّة، والمعنى: يُلقي الرّوحَ بسبب أمرِه الملك المبلِّغ(4).

وأجاز ابن عاشور أن تكون تبعيضيَّةً، والمعنى: يلقي الرّوح من بعض شؤونه الَّتي لا يطَّلِعُ عليها أحدٌ غيرُه إلّا مَنِ ارتضى ممَّن يشاء مِن عبادِه، فيكون الأمر بمعنى الشَّأن، أي: الشُّؤون العجيبة(5)، وهذه المعاني الأربعة، وهي الابتداءُ والبيان والسَّببيَّة والتَّبعيض صحيحةٌ في ذاتِها، لا ينافر بعضها بعضًا، ولا يناقض معنى أحدها بقيَّة المعاني في غيرِها.

### نكتةُ إضافة الأمر إلى الضَّمير:

لمّا كان الضَّمير في قوله تعالى: ﴿أَمۡرِهِۦ﴾ عائدًا إلى اللّٰه بما اتَّصف به من أنَّه رفيع الدَّرجات ذو العرش يلقي الرّوح؛ أفادَ عظَمَ أمرِه ورفعتَه وفخامتَه.

### دلالةُ القيد ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾:

يحتمل الجارُّ والمجرور ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ أن يكون بيانًا للرّوح، ويحتمل أن يكون حالًا مِنَ المفعول ﴿ٱلرُّوحَ﴾، كما سبق في بيان نوع ﴿مِنۡ﴾ ومعانيها.

### نكتةُ تعدية فعل الإلقاء بحرف الاستعلاء:

عُدّي فعلُ الإلقاء في قولِه تعالى: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ بحرف الاستعلاء

(1) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 33.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 53، والطيبي، حاشية على الكشاف: 13/ 481.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 27.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 271.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 107.

إلقاءُ الرّوح يأتي متمكّنًا راسخًا في الملْقى عليه

﴿عَلَىٰ﴾ للإشعار بتمكُّن الوحي ممَّن يختاره اللّه تعالى للنُّبوَّة، كما أنَّه لمّا كانَ أمره تعالى غالبًا على كلِّ أمرٍ؛ عبَّر بأداة الاستعلاء[1].

**بلاغةُ التَّعريضِ باستعمال الاسم الموصول:**

مدحُ الأنبياء يوجب القدحَ بمعارضيهم

جاء التَّعبيرُ بالاسم الموصول وصلتِه في قولِه تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾؛ لبيانِ أنَّ النُّبوَّة عطائيَّة وموهبة إلهيَّةٌ غير مكتسبةٍ، وأنَّها بمحضِ اختيار اللّه تعالى وعلمِه، ولبيانِ أنَّ إلقاء الرّوح راجعٌ إلى مشيئته تعالى، وليس لأحدٍ أن يعترضَ على مشيئة اللّه تعالى، ففيه مدحٌ لمن اختارهم اللّه تعالى، وقدحٌ بالتَّعريض بالمشركين، الذين قالوا: (أبشرًا)؟ وطالبوا بإنزال الملائكة.

**نوعُ ﴿مِنْ﴾ ودلالتها:**

الأنبياء اتَّصفوا بالعبوديَّة بعد أن شُرِّفوا بالرِّسالة

﴿مِنْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ للتَّبعيض، بمعنى يُلقي الرّوح على مَن يشاءُ مِن بعضِ عبادِه؛ للدَّلالةِ على أنَّ الرُّسل لا يخرجون عن وصف العبوديَّة للّه تعالى، وإن خُصّوا بتشريفِهم بإلقاء الوحي عليهم، فاجتمع لهم وصفان: العبوديَّة الحقَّة، والتَّشريف الإلهيُّ.

**علَّةُ حذفِ مفعول المشيئة:**

حُذِفَ مفعول فعل ﴿يَشَآءُ﴾ للإيجاز، ومفعول المشيئة الأصل فيه الحذف، وتقدير الكلام: يُلقي الرّوح مِن أمرِه على من يشاءُ إلقاءَه عليه من عبادِه.

**نوعُ الإضافة وفائدتها:**

أُضيفَ لفظُ العباد إلى الضَّمير العائد إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿عِبَادِهِۦ﴾، والإضافةُ بمعنى اللّام، أي: عباد له، فأفادتِ الاختصاص.

**نوعُ اللّام ودلالتها بناءً على تعيين مرجع الضَّمير:**

يختلف معنى اللّام على وفقِ عود الضَّمير في فعل الإنذار، فإن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 52، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 474.

كان الضَّمير في قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ﴾ عائدًا إلى اللّه تعالى، فاللّام للعاقبة، وتُسمّى لام الغرض أو الغاية، أي: يترتَّب على الإلقاء، ويعقبه، ويكون غايةً له هو أن ينذرَ اللّه تعالى يومَ التَّلاقي، وإن كان الضَّمير عائدًا إلى مَن يُلقى عليه الرّوح وهو الرَّسول، فاللّام سببيَّة، أي: يُلقي الرّوح مِن أمرِه على من يشاء مِن عبادِه؛ ليكون هذا الإلقاءُ سببًا في أن ينذرَ الرَّسول يوم التَّلاقي، والمعنيان صحيحان، والنَّظم يحتملهما، وإرادتهما أولى مِنَ الاقتصار على أحدهما.

تـنـوُّعُ المـعـاني لحروفِ المعاني أولـى مـن الاقـتـصـار على بعضِها

### دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع:

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع في قولِه تعالى: ﴿لِيُنذِرَ﴾؛ لإفادةِ تجدُّد الإنذار واستمراره؛ ففيه وجوبُ الإنذار ودوامه على الرُّسل وأتباعهم.

### نكتةُ استعمال مفردة الإنذار:

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الإنذار في قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ﴾، والإنذارُ: تبليغٌ مع تخويف، دون ما يدلُّ على البشارة؛ لأنَّ السياق في الرَّدِّ على المشركين؛ فناسب ذلك ذِكر مادَّة الإنذار دون ما يقابله، وهو البشارة.

من عللِ اختيارِ الألفاظ مناسبةُ السّياقِ

### بلاغةُ التَّضمين في فعل الإنذار:

لّما كان أصلُ فعل ﴿لِيُنذِرَ﴾ لازمًا؛ لأنَّه مِن نذرَ، وكان دخولُ همزة التَّعدية تجعلُهُ متعدّيًا إلى مفعول واحدٍ، كأن يقال: أنذرتُ النّاسَ بالعدوِّ؛ كانت تعديةُ الفعل (أنذر) إلى مفعولين على تقدير تضمينِهِ معنى الفعل حذَّر[1]، فيكون قول القائل: أنذرت النّاسَ العذابَ على معنى إنذار النّاس وتحذيرهم من المفعول الثّاني، وهو العذابُ، فيكون حذفُ المفعول الأوَّل، وتعديةُ الفعل إلى المفعولِ الثّاني في قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ على هذا المعنى، أي: ليُنذِر، ويحذِّر

الظّاهرُ من فعل الإنـذار التَّبليغ مـع التَّخويف وضُـمِّـنَ معنى التَّحذير

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 109.

النّاسَ يومَ التَّلاقي، فليس المقصودُ هو تخويفَ النّاس فقط، بل المرادُ كذلك تحذيرُهم ممّا يوقعهم في الهلاك يوم القيامة، والتَّحذير هو التَّبليغ مع التَّخويف الَّذي هو معنى الإنذار، لكنَّ التعديةَ التَّضمينيَّة تجعلُهُ واضحًا كالملفوظ به.

**بلاغة المجاز بالحذف:**

تقديرُ المحذوفات منساقٌ باعتبارِ اختيار المفردات

حُذِفَ المفعول الأوَّل لفعل ﴿لِيُنذِرَ﴾ لظهورهِ بقرينة ذِكر المفعول الثاني الذي يفيد تلاقي عموم النّاس، والتَّقديرُ: لينذرَ النّاس يومَ التَّلاقي، ويحتمل أن يكونَ ﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ ظرفًا لمفعول ثانٍ محذوف، والتَّقدير: لينذرَ النّاس العذاب يوم التَّلاقي، فيكون الظَّرف ظرفًا للعذاب لا للإنذار، وتقديرُ العذاب منساقٌ مع لفظ الإنذار، ففيه مجازٌ بالحذف.

**نكتةُ عمل الفعل في اسم الزمان:**

لشدَّةِ هولِ يوم التَّلاقي حقيقٌ بأن يكون المنذرَ به

الظّاهر أنَّ اسم الزَّمان ﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ هو المفعول الثاني للفعل ﴿لِيُنذِرَ﴾؛ لأنَّ الإنذارَ لا يكون في يوم التَّلاقي بل يكون به، أي: صار يوم التَّلاقي نفسه، هو المنذَر به، فيفيد المبالغة في المعنى، أي: إنَّه مِن شدَّةِ هولِهِ وفظاعتِهِ حقيقٌ بأن يكونَ هو المنذرَ به[1].

**فائدة الإضافة:**

اختصاصُ يوم القيامة بالتَّلاقي إضافيٌّ

الإضافة في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ على معنى الاختصاص، أي: اختصاص هذا اليوم بتلاقي النّاس فيه، والاختصاص الذي تفيده الإضافةُ هنا إضافيٌّ؛ لأنَّ هذا اليوم سُمّي بيوم الحشرِ ويوم القيامة ويوم التَّغابن وغيرها، فتكونُ التَّسميةُ لها علاقة بسياق الكلام ومقامِه.

**نوعُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلتَّلَاقِ﴾:**

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلتَّلَاقِ﴾ عِوضٌ عن المضاف إليه المحذوف،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 271، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 109.

كلُّ تلاقٍ سوى تلاقي القيامة فمجازيٌّ؛ إذ هو الموصوف بالتَّلاقي على الحقيقةِ

أي: يوم تلاقي النّاس، ويحتمل أن تكون عهديَّة، بمعنى اليوم المعهود فيه تلاقي النّاس، وسُمّي بيوم التَّلاقي لالتقاء جميع العالَم أوَّلهم وآخرهم فيه، فيلتقي بعضُهم ببعضٍ، ففيه من التَّعظيم والتَّهويل ما فيه؛ لأنَّ ذلك أمرٌ لم يتَّفق قبل ذلك اليوم، وليشمل التَّلاقي التقاء الظّالم والمظلوم والخصوم، ويلتقي فيه المؤمنون مع بعضِهم، والكافرون مع أقرانِهم، فلا حيلةَ لأحدٍ منهم في فراق غريمِه بغير فصل على وجه العدلِ، فسمّاه يوم التَّلاقي؛ لالتقاء جميع أفراد العالم وأصنافِهم، ففيه كلُّ أنواع التَّلاقي، فيقفُ الخلقُ بعضُهم على حالِ بعضٍ[1]، وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ عمومُ التَّلاقي، فيشمل تلاقي الأرواح والأجساد وأهل السَّماء والأرض، أو المراد المعبودونَ والعباد أو الأعمال والعمال[2]، وأجاز آخرون أن يكونَ المرادُ يومَ تلاقي النّاس بربِّ العالمين، أي: تلاقي الخَلق بالخالق[3]؛ لأنَّهم يلاقون ربَّهم مجازيًّا، أي: إنَّهم يقفون أمامَ حضرتِهِ يسألهم، ويحاسبهم، فهُم أمامَ أمرِه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [يونُس: 7]، أي: لا يَرجونَ يومَ الحَشرِ[4]، واللَّفظ يحتمل جميع المعاني المذكورة، ولا تقاطع في معانيها؛ فلا يستحقُّ أن يوصف بالتَّلاقي على الحقيقة غير ذلك اليوم، وكأنَّ كلَّ يومٍ سوى هذا اليوم التَّلاقي فيه مجازيٌّ، وهو اليوم الحقيق بالوصف على التَّحقيق.

### توجيهُ القراءات القرآنيَّة:

القراءاتُ تتلاقى في معانيها ولا تتعارض في دلالاتها

قرأ يعقوبُ الحضرمي وحده: (لِتُنْذِرَ يومَ التَّلاقِ) بالتّاء، وقرأ الباقون: ﴿لِيُنذِرَ﴾ بالياء، فعلى قراءة: (لِتُنْذِرَ) يكون الخطاب للنَّبيِّ

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 33، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 499.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 54.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 300.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 109.

ﷺ، والفاعل أي: الضَّمير المستتر يعود إليه[1]، والمعنى: لتنذرَ يا محمَّدُ ﷺ يوم التَّلاقي، فتكون هذه القراءة قرينةً على أنَّ الضَّمير في قراءة ﴿لِيُنذِرَ﴾ يعود إلى المُلقى عليه الرّوح، ولا مانع مِنَ الجمع بين القراءتين، على معنى الجمع بين المعنيين.

**بلاغةُ البدلِ في الأزمان:**

الإيــذانُ بهول الموقف يوم تلاقي النّاس وبروزِهم وانكشافهم

قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ بدلٌ من المفعول به ﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[2]، فكأنَّه قيل: لينذرَ يومَ هم بارزون؛ لأنَّ البدلَ على نيَّة تَكرار العامل، فيكون هذا اليوم نفسُهُ هو المنذَر بهِ؛ إشعارًا بهولِ موقفِ بروزِهم وظهور أعمالِهم، وليس البدل هنا على نيَّة سقوط المبدلِ منه، بل كلاهما مقصودان، فيفيد الكلامُ بمجموع البدلِ والمبدلِ منه مزيدَ الاعتناء بشأنِ ذلك اليوم كما يفيد بيانه وتفصيل الحالِ فيه، والمعنى: لينذر يوم التَّلاقي، وينذرَ يومَ هم بارزون.

**دلالةُ إضافةِ الزَّمن إلى الاسميَّة:**

أُضيف ﴿يَوۡمَ﴾ إلى الجملة الاسميَّة ﴿هُم بَٰرِزُونَۖ﴾؛ لإفادةِ أنَّه ممّا نزِّل فيه المستقبل منزلةَ الماضي، أي: قد وقع ومضى؛ للإيذانِ بتحقُّقِ وقوعِه.

**بلاغةُ استعمال مفردة ﴿بَٰرِزُونَۖ﴾ بين الحقيقة والكناية:**

بروزُ النّاس يوم القيامة يدلُّ على انكشاف الأبدان وظهور الأعمال

لَمّا كان البروزُ هو الظُّهور في فضاءٍ والخروج من موضعٍ إلى ما يكون فيه الظُّهور واضحًا مكشوفًا[3]، أخبر عن الخلقِ بأنَّهم بارزون؛ ليفيد اللَّفظ عموم البروز، فيشمل خروجَهم من قبورِهم بحيث لا يسترهم شيءٌ، وكونهم ظاهرين في براز من الأرض، ينفذهم البصرُ، ويسمعهم الداعي، لا يسترهم شيءٌ من جبلٍ أو بناءٍ أو

(1) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 344، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 180، وهي قراءة شاذة عن يعقوب.
(2) العكبري، التبيان: 2/ 1117، وابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 4/ 551.
(3) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (برز).

مرتفع؛ لأنَّ الأرضَ حينئذٍ قاعٌ صفصفٌ، وليس عليهم ثيابٌ، لكونِهم عراةً مكشوفين، ويحتمل أن يكونَ لفظُ ﴿بَٰرِزُونَۖ﴾ كنايةً عن ظهور أعمالِهم وانكشاف أسرارِهم، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾ [الطارق: 9][1]، ولا يمتنع أن يكونَ المرادُ جميعَ ما ذكر، بأن يراد من ﴿بَٰرِزُونَۖ﴾ الملزومُ: وهو ظهور ذواتِهم، ولازمُه: وهو ظهور أعمالِهم.

### نكتةُ إيثارِ التَّعبير بصيغة اسم الفاعل:

إذا برز العبادُ فلا ساتر لهم إلّا الله

أوثرَ التَّعبير بصيغة اسم الفاعل في لفظ ﴿بَٰرِزُونَۖ﴾ على الفعل (يبرزون) لِما في صيغة اسم الفاعل من الدَّلالة على ثبوت البروز واستقرارِه وتمكُّنه من الخلق جميعًا، فالبروزُ قائم بهم لا ينفكُّ عنهم؛ إظهارًا لقهرِ الله وقدرتِه على جميع العباد، فبروزُهم ثابتٌ لا يتغيَّر إلّا بإذنه ﷻ.

### نكتةُ حذفِ متعلِّق اسم الفاعل:

حُذِفَ متعلِّق اسم الفاعل: ﴿بَٰرِزُونَۖ﴾؛ ليفيدَ تقرير عموم البروز، أي: ما يشملُ جميع المعاني المذكورة[2]، من ظهور الأبدان والمعاني والأعمال.

### بلاغةُ الفصل وفائدته:

الإحاطةُ والشُّمولُ لجميع البشر فلا مهرب ولا مسرب

جاءت جملة: ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ﴾ مفصولةً عمّا قبلها، وذلك لما بينهما مِن كمال الاتِّصال؛ لأنَّها بيانٌ وإيضاحٌ لجملة: ﴿هُم بَٰرِزُونَۖ﴾[3]، وقد يقالُ: مجيء الجملة بيانًا وإيضاحًا لما قبلها إنَّما يكون إذا كان في الجملة الأولى نوعُ خفاءٍ، وكانَ المقامُ مقامَ إزالةٍ له، والله تعالى لا يخفى عليه منهم شيءٌ، فما سببُ مجيء: ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ﴾ بيانًا لما قبلها؟.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 156، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 499، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 54، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 271.

(2) الشربيني، السراج المنير: 3/ 474 - 475.

(3) الزَّمخشري، الكشاف: 4/ 156، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 271، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 121.

والجوابُ هو أنَّهم كانوا يتوهَّمون في الدُّنيا - إذا استتروا بالحيطان والحجب - أنَّ اللّه لا يراهم، وتخفى عليه أعمالُهم، فهُم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهَّمون فيها مثل ما كانوا يتوهَّمونه في الدُّنيا، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت: 22][1]، فالبيانُ لدفع ما يتوهَّمه الجهلةُ من المعاني، ولتأكيد ذلك الأمر، وللإحاطةِ والشُّمول لجميع البشر البارزين له يوم القيامة، فلا منفذ لأحد ولا مهرب.

أعمال العبادِ مفضوحةٌ يوم التَّلاقي لا يسترها إلّا صاحب الموقف سبحانه

### فائدةُ إيثارِ أسلوب النَّفي على أسلوب الإثبات:

جاء قولُه تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ على أسلوب النَّفي دون الإثبات، وذلك لإزالةِ وهمهم في أنَّ بعض أعمالِهم قد لا تنكشف يوم القيامة، كما أنَّ في الجمعِ بين إثبات بروزِهم ونفي خفاء أيِّ شيءٍ منهم فيه بيانٌ لتمام ظهورهم وانكشاف أعمالِهم، ففيه تقريرٌ لِتمام الظُّهور وغايتِه، كما أنَّ في جملة النَّفي إشعارًا بالوعيد للمخاطَبين والتَّبكيت للَّذين لا يؤمنون باللّه ولا باليوم الآخر بظهور ما كانوا يخفونه بعد أن أنذرَهم ذلك اليوم، وللإيماءِ إلى بقيَّة النّاس الَّذين يظنّون أنَّهم لن يُفضحوا في ذلك اليوم المشهودِ الَّذي يوم التَّلاقي، ليحذروا مِن عقاب اللّه وجزائه.

الكشفُ عن خفايا نفوس الجاهلين

### فائدةُ التَّعبير بصيغة المضارع:

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ﴾ دون أن يقول: (غير خافٍ) ونحوه؛ للتَّعريض بما يظنُّه المشركون أنَّهم يخفون على اللّه تعالى، فنفى ﷻ أن يصدرَ عنهم فعلٌ يخفون به عن اللّه تعالى، والظُّهور متجدِّدٌ لا يتوقَّف عند حدٍّ، وهو بأمر اللّه تعالى يكون.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 156.

**نكتةُ إظهارِ لفظ الجلالة بعد إضماره:**

تقدَّم أنَّه لمّا كان الضَّمير المستتر في الفعلين ﴿يُلۡقِي﴾ و﴿يَشَآءُ﴾ عائدًا إلى اللّه تعالى، وكان الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ محتملًا أن يكونَ عائدًا إلى الرَّسول ﷺ، اقتضى ذلك إظهارَ اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾، فلو قيل: (لا يخفى عليه)؛ لَتوهِّمَ عودُ الضَّمير إلى فاعل الإنذار، كما أنَّ في إظهار الاسم الجليل الجامع لصفات الكمال والجلال زيادةً في ترهيبِ المخاطَبين وتخويفِهم، والمقام يقتضيه، بل هو المقصود الأوضح من الإظهار.

ترهيبُ المخاطَبين يقتضي إظهار الاسم الجليل

**نكتةُ تعدية فعل الإخفاء بحرف الاستعلاء:**

عُدّي الفعل ﴿لَا يَخۡفَىٰ﴾ بحرف الجرِّ ﴿عَلَى﴾؛ لإفادة إحاطةِ اللّه تعالى بهم؛ فنفيُ الخفاء على اللّه تعالى يلزم منه انكشافُ ذواتِهم وأحوالِهم وأعمالِهم على طريق الاستيعاب والتَّمكُّن.

**فائدةُ تقديم ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على الفاعل:**

قدِّمَ الجار والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على الفاعل ﴿شَيۡءٞ﴾ على خلاف مقتضى الظّاهر؛ لأنَّ أصلَ الكلام: لا يخفى شيءٌ على اللّه منهم، ومناسبة التَّقديم هي التَّخصيص والتَّأكيد، بمعنى: تخصيص عدم خفاء شيءٍ منهم بكونِه على اللّه وحده، ففيه تقريرٌ لوحدانيَّة اللّه تعالى وقهرِه لهم، لظهور خضوعِهم له وحدَهُ، وهذا من مناسباتِ تذييلِ الآية بالوصفين الجليلين في قولِه: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾.

تخصيصُ نفي الخفاء على الله تعالى

**نوعُ (مِنْ) وفائدتها:**

حرفُ الجرِّ (مِنْ) في قولِه تعالى: ﴿مِنۡهُمۡ﴾ للتَّبيين، فهي بيانٌ للمراد ممَّن نفى اللّه تعالى الخفاءَ عليه؛ لأنَّ السّياقَ في بيان ظهور العباد وانكشافِهم عند اللّه تعالى لأجلِ المجازاة، وليس لمجرَّد الظُّهور فقط، فأفاد ذِكرُ حرفِ الجرِّ (مِنْ) بيانَ مَن يقع عليه

الجزاءُ يوم القيامة إنَّما هو للعباد دون ما لا يصحُّ له من غيرِهم

الجزاءُ؛ ليفيد تخصيص الجزاء لمن يستحقُّه دون ما لا يصحُّ له من غير العباد[1].

صلاحُ الضَّمير ليرجع على مجموعِ الذَّوات والأحوال

## تعيينُ مرجع الضَّمير وفائدة مجيئِهِ جمعًا:

يعود الضَّمير في ﴿مِنۡهُمۡ﴾ إلى العباد في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، والمعنى مِن مجموعِهم، أي: مجموع ذواتِهم وأحوالِهم وشؤونِهم فيشمل بواطنهم وسرائرهم، ولهذا أوثِرَ ضميرُ الجمع على ذكر العباد أو النّاس؛ لِما في الضَّمير من الإجمال الصالح لتقدير مضافٍ مناسب للمقام[2].

اللهُ تعالى لا تخفى عليه ذواتُ النّاس ولا أعمالُهم ولا أحوالُهم

## سرُّ تقديم ﴿مِنۡهُمۡ﴾ على الفاعل:

قدِّمَ الجار والمجرور ﴿مِنۡهُمۡ﴾ على الفاعل ﴿شَيۡءٞۚ﴾؛ ليفيد بالتَّقديم الحاليَّة، ولو أُخِّرَ؛ كان صفةً، فأفاد بالحاليَّة معنيين: أحدهما لا يخفى على اللّه شيءٌ، ففيه إثباتُ نفي خفاءِ أيِّ شيءٍ على اللّه تعالى وحده، أي: مِنهم ومن غيرِهم ومِن جميع الأكوان، والثّاني: لا يخفى على اللّه من ذواتِهم وأحوالِهم وأعمالِهم شيءٌ، وهو الَّذي جاء له السّياق المقتضي العناية والاهتمام بهم.

الاستغراقُ الشُّمولي لكلِّ ما يُطلق عليه شيء

## نكتةُ استعمالِ مفردة ﴿شَيۡءٞۚ﴾:

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿شَيۡءٞۚ﴾ دون (أحد) في قوله تعالى: ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ﴾، ولم يقل: (لا يخفى على اللّه منهم أحدٌ)[3]؛ لأنَّه لو قيل: (أحد)؛ لكان المقصود الأعيان، أي: نفي خفاء أجزاء جسمِه، مع أنَّ الحسابَ يكون على الأعمال والأحوال الَّتي كانت في الدُّنيا، والعذاب أو الثَّواب للذَّوات والأعيان.

(1) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 2/ 350 - 351.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 109.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 109 - 110.

**نكتةُ تنكير ﴿شَيۡءٞۚ﴾:**

جاء لفظُ ﴿شَيۡءٞۚ﴾ نكرةً في سياق النَّفي أفاد العموم للأعيان والأحوال، الَّتي عملوها في الدُّنيا وأحوالهم الجليَّة والخفيَّةِ السّابقةِ واللّاحقةِ[1].

**توجيهُ جملة: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ بين الاستئنافِ والحاليَّةِ:**

أعظمُ قولٍ وأكبرُهُ وأجمعُهُ يسمعه العباد ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾

قولُهُ تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ إمّا أن يكون مستأنفًا استئنافًا بيانيًّا؛ إشعارًا بعدم علم السّائل بما سُيقال في ذلك اليوم وتشويقًا له إلى السُّؤال، فإنَّه لمّا أخبرَ أنَّ جميع العباد بارزون، وبيَّن أنَّه لا يخفى على اللّه منهم شيءٌ؛ تشوَّق المخاطَبون إلى معرفة ما يقال، فكأنَّه قيل: فماذا يُقال عند بروزِ عباد اللّه تعالى وظهور أعمالِهم في ذلك اليوم[2]، أو: فماذا يكون بعد ظهورِ النّاس وأعمالهم وانكشافهم جميعًا[3]؟ تنبيهًا للمخاطَبين إلى هول الموقف، فقيل: يُقال: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾، فالجملة استئنافٌ عن السَّبب العام.

وإمّا أن تكون جملةُ: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ مع جوابها مقولةً لقول محذوفٍ، حكايةً لما يسأل عنه في ذلك اليوم ولما يُجابُ به، فيكون القولُ والمقول بتمامِهِ جملة في موضع الحال، وصاحبُ الحال لفظُ الجلالة في ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾، والتَّقدير: يقولُ اللّهُ لمن الملك اليوم[4].

**نكتةُ حذف قائل: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾:**

حُذِفَ قائل القول: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾؛ للتَّهويل والتَّفخيم، فإنَّ المقام مقامُ بيانِ صعوبةِ الأمر وشدَّة ذلك اليوم، أي: إنَّ اللّه

---

(1) الشربيني، السراج المنير: 3/ 475، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 271، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 309.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 556.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 310.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 53، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 271، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 111.

أقوالُ التّهويلِ والتّفخيم تقتضي حذف القائل وتسليط الضّوء على القول

تعالى يقرِّر هذا التَّقريرَ، ويقول: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾، ويسكتُ العالَمُ هيبةً وجزعًا، فيجيب هو نفسُهُ: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾[1]، وذكر بعضُ المفسِّرين أنَّ السّائل هو الله، والمجيب هو ملَكٌ مِنَ الملائكة أو مجموعة منهم أو أهل المحشر، أو السّائل هو ملكٌ أو مجموعة من الملائكة، والمجيب أهل المحشر قولًا أو حالًا، أي: بما دلَّ عليه ظاهرُ حالِهم من الخضوع والذِّلَّة والعبوديَّة[2]، وأيًّا ما كان وجه تعيينِ السّائل والمجيب، فإنَّ المقصودَ ظهورُ قهرِ الله تعالى على جميع الخلقِ وخضوعِهم له إجلالًا لهيبته وإعظامًا لكبريائِه، وخاصَّة ملوكَ الدُّنيا وجبابرتهم، فإنَّهم ينحنون لعظمتهِ سبحانه حياءً وخجلًا وندمًا، لا يتكلَّم منهم أحدٌ.

### نوعُ اللّام وفائدتها:

اللّام في قولِه تعالى: ﴿لِّمَنِ﴾ للملك، فيكون السُّؤال عن مالك الملك، وما يدلُّ عليه من بيانِ نزعِ الملك من جميعِ العبادِ في الأرض.

### بلاغةُ الاستفهامِ المجازي وغرضه:

الاستفهام لتقرير المخاطَبين في نفي الملك عن الخلائق وإثباته لله وحدَه

جاء الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ على طريق المجاز، وهو استفهامٌ تقريريٌّ لجميع الخلائق يوم القيامة على ظهور المالك المقتضي وحدانيَّته وقهرَه لجميع العباد، وظهورَ عظمتهِ وكبريائِه سبحانه؛ ليشهدَ الطُّغاةُ والمتكبِّرون والجبابرة الَّذين كانوا في الدُّنيا أنَّهم كانوا مخطئين فيما يزعمونه لأنفسِهم مِن ملكٍ لأصنامِهم، حين يضيفون إليها التَّصرُّف في شؤون الأرض والسَّماء، وأنَّهم كانوا مخطئين فيما يزعمونه أنفسهم مِن سلطانٍ على النّاس، لا يشاركهم فيه غيرُهم، وتقرير لأتباعِهم في بيان خطأ

(1) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 4/ 551.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 500، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 53، والشربيني، السراج المنير: 3/ 475، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 34.

اتِّباعِهم للطُّغاة المتجبِّرين، كما أنَّ في الاستفهام تشويقًا إلى معرفة الجواب؛ لأنَّ من يسمع استفهامًا - ولا سيَّما في ذلك المقام المهيب المهول العظيم - يترقَّب جوابه، فيتمكَّن منه فضلَ تمكُّنٍ لا يحصل في غيرِه[1].

كما أنَّ الاستفهامَ أفاد معنى النَّفي؛ فإنَّ غرضَ التَّقرير إثباتُ الملك لله تعالى وحده، ونفيه عمَّن سواهُ مِن الخلائق.

### معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾:

(أل) في لفظِ ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ للجنس المفيد للاستغراق، فيدخل فيه كلُّ ما يصلح أن يوصفَ بأنَّه ملكٌ، فلا يبقى لأحدٍ زعمٌ بأنَّه يملك شيئًا.

### مناسبةُ تقديم المسندِ على المسند إليه:

مناسبةُ الجوابِ للاستفهام في مجيئِهما بأسلوب القصر

قُدِّمَ المسندُ، أي: الخبر مِنَ الجار والمجرور على المسند إليه، أي: المبتدأ في قولِه تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ﴾؛ لإفادة أنَّ الاستفهام عن قصر المسند على المسند إليه المقتضي تخصيصه به، فيكون الجواب مفيدًا تخصيصَ الملك بالله الواحد القهّار.

### غرضُ ذِكر ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ مع بدهيَّته:

توريثُ الكافرين الحسرة والنَّدامة بعد تعيين الزَّمن الَّذي أنكروه

﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ ظرفُ زمان، قصد به بيانَ الوقتِ الَّذي يقع فيه الاستفهام، أي: قولُه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ﴾، ولمّا كان السّياق في بيان ما يقع للعباد يوم التَّلاقي يوم هم بارزون؛ أفادَ أنَّ المرادَ باليوم يوم تلاقي الخلق أو الخلق بالخالق، وهو عينُه يوم بروزِهم وظهور أعمالِهم وأحوالِهم لله تعالى، وإنَّما خُصَّ التَّقرير بذلك اليوم مع أنَّ الملكَ لله الواحد القهّار في الزَّمان كلِّه وأيّام الدَّهر أجمع، أي: في ذلك اليوم وغيرِه؛ لظهور ذلك لِلكفرةِ والجبابرة ووضوحِه ذلك اليوم، فهُم المعنيّون بالتَّوبيخ والتَّبكيت[2]، فغرضُ ذِكر ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ توريثُ الحسرةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 110.

(2) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 4/ 551، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 245.

والنَّدامة على ما فرَط به الكافرون في الدُّنيا، وتضييعهم لدنياهم في اكتساب الإجرام والفسق والمعصية.

### معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ للحضور، وحضوره بالنِّسبة للقول المحكيِّ أنَّه يقال فيه، أي: اليَومُ الَّذي وقَعَ فيهِ هَذا القَولُ[1].

### نكتةُ ذِكر جواب الاستفهام التَّقريري:

تعيينُ الحكم بصدوره عن الواحد القهّار ليُعلَمَ حالُ الحكم على المشركين

لمّا كان الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ مجازيًّا تقريريًّا، وكان الأصلُ فيه ألّا يكونَ له جوابٌ؛ لأنَّه مسوقٌ لتقرير المخاطَبين في أنفسِهم، كان التَّصريح بالجواب وذكره لنكتةٍ، وهي أنَّه لمّا كان الكلامُ في سياق إثبات وحدانيَّة اللّه تعالى وظهور ملكِه ببروز الخلق وانتفاء خفاء أيِّ شيءٍ مِن أحوالِهم وأعمالِهم؛ ناسب ذكر الحقيقة وإظهارها، وليكون ذِكرُ الجواب أشدَّ على المخاطَبين مِنَ الكفرة من إقرارِهم بملكِ اللّه تعالى، فيتيقَّنون بسماع الجوابِ أنَّه لا حيلةَ لهم عندَ أحدٍ غير اللّه، وأنَّهم في قبضةِ قهرِه سبحانه، كما أنَّ في ذكر الجواب تعييناً لصفتين مِن صفات اللّه تعالى، وهما ﴿ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾، وهما موضع الكلامِ ومقصده، فالحكمُ للواحد القهّار.

### نوعُ اللّام ودلالتها:

اللّامِ في قولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ للملك؛ لأنَّه لمّا كان السُّؤال عن الملك؛ أُجيب بما يوافقه، أي: الملكُ للّه الواحد القهّار، وبه يقع الاختصاصُ، ونفيه عمّا سواه.

### مناسبةُ تذييلِ الآية بالوصفين الجليلين:

ذُيِّلت الآيةُ بالوصفين الجليلين: ﴿ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ لمناسبتِهما لسياق الكلام ومقامِه، فإنَّ سياقَ الآياتِ هو في إثبات وحدانيَّة اللّه تعالى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 110.

القيامةُ تتجلّى فيها مظاهرُ الوحدانيَّة وأحكام القهار

والإخلاص له، فناسبَ ذِكرُ وصف ﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾، ولمّا ذكر اللّه تعالى يوم الحشر المفيد لقهرِه تعالى العباد بإماتتهم، ثم قهرِه في تلاقيهم بخروجِهم من قبورِهم وبروزِهم جميعًا وقهرِه في ظهور خضوعِهم له سبحانه في ذلك اليوم العظيم، وكونهم في قبضتِه؛ ناسب ذِكر وصف ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾، فكان ذِكر الوصفين مناسبًا لِما شاهدَه الخلقُ جميعًا من دلائل وحدانيَّتِه وقهرِه جميع الطُّغاة والجبابرة المتكبِّرين[1].

### نكتةُ تقديم أحدِ الوصفين على الآخر:

تقديمُ ما له حكمُ الموصوف على الوصف

قُدِّمَ وصف ﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾ على وصف ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾؛ لأنَّ قهّاريَّته تعالى من وصف وحدانيَّتِه، كما أنَّ الكلامَ على الوحدانيَّة سبق الكلام على ما يفيد قهرَهُ للعباد وخضوعهم له سبحانه، وفي التَّقديم نكتةٌ أخرى، وهي رعاية الفاصلة.

### نكتةُ تعريفِ الوصفين:

الكمالُ صفةٌ تتجلّى في جميع أوصاف صاحب الكمال

لمّا جاء الاسمان الجليلان ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ وصفَين للاسم الأعرف ﴿لِلَّهِ﴾؛ اقتضى أن يكونا معرَّفين، و(أل) في الوصفَين لإفادة كمال الوصف، بمعنى كمال وحدانيَّتِه وكمال قاهريَّتِه تعالى، فلا شريكَ له ولا قاهرَ غيرُه.

### نكتةُ المبالغة في ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾:

وصف ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ على معنى المبالغة لمجيئِه بصيغة (فعّال)، والمعنى كثيرُ القهر عظيمُه مع كمالِ قهرِه، فجميع الخلقِ مسخَّرٌ في قدرتِهِ عاجزٌ في قبضتِهِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 111.

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾ [غافر: 17]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيان كيفيّة الحساب يوم القيامة بعد إقرار المُلك فيه لله تعالى

بعد أن أكّد الله سبحانه في الآية السّابقة أنَّ المُلكَ يومَ القيامة له وحدَه، لا يشاركه فيه أحدٌ غيرُه؛ ناسبَ أن يُتبعَ ذلك ببيان ما سيحدث فيه من مجازاةٍ للمؤمنين والكافرين، والعصاةِ والمُطيعين على الأعمال التي عملوها في الدّنيا، جزاءً عادلًا لا ظُلمَ فيه، سريعًا لا بُطءَ معه[1].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَسَبَتۡۚ﴾: (كسب) أَصْلٌ صَحِيحٌ يدُلُّ عَلَى ابْتِغاءٍ وطَلَبٍ وإصابَةٍ. ومِنْ ذَلِكَ الكَسْبُ[2]، ويُطْلَق على ما يتحرّاه الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نفعٍ، وتحصيلُ حظّ، وقد ورد في القرآن في فعل الصّالحات والسيِّئات. فمما استُعمِل في الصّالحات قولُه تعالى: ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأنعام: 158]، وممّا استعمل في العكس قولُه: ﴿أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ [الأنعام: 70][3]، وقولُه تعالى هنا مُتناوِلٌ لهما.

2) ﴿ظُلۡمَ﴾: (ظلم) أصلانِ؛ فالأوّلُ: الظُّلْمَةُ، والجَمعُ ظُلُماتٌ. والظَّلامُ: اسْمُ الظُّلْمَةِ، وقد أَظْلَمَ المَكانُ إِظْلامًا، والثّاني: وضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ بزيادَةٍ أَوْ بنَقْصٍ تَعَدّيًا، يقال: ظَلَمَهُ يَظْلِمُهُ ظُلْمًا، ويُقالُ: ظَلَّمتُ فُلانًا: نَسَبْتُهُ إِلَى الظُّلْمِ. وظَلَمتُ فُلانًا فاظَّلَمَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 157، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 111، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 273.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).

(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (كسب)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 349.

وانْظَلَمَ، إذا احْتَمَلَ الظُّلْمَ(1)، والمعنى المحوريّ: حجبُ ما ينبغي أو ما يُسْتَحَق؛ أي: منعُه أو انتقاصُه، وهو المعنى المراد في الآية الكريمة(2).

3) ﴿سَرِيعُ﴾: (سرع) أَصْلٌ صَحِيحٌ يدُلُّ على خِلافِ البُطْءِ، وسَرَعانُ النّاسِ: أوائِلُهُمُ الّذينَ يتَقَدَّمونَ سِراعًا(3)، والمعنى المحوريّ: اختراقٌ أو امتداد بقوّةٍ ودِقّةٍ أو حِدّةٍ، وكلّ ما في القرآن من التّركيب ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ هو من السّرعة ضِدّ البِطْء(4).

## ❁ المَعنى الإجْماليُّ:

توضِّحُ الآيةُ الكريمة أنَّه في يوم القيامة الهائل الشّديد تُجازَى كلُّ نفسٍ منَ النّفوس المؤمنة والكافرة، والبارَّة والفاجرة، بما كسبت في دنياها من خير أو شَرّ، ومن طاعة أو معصية، من غير ظُلْم ولا جَوْرٍ، ولا مُحاباةٍ ولا وساطاتٍ، وأنّ هذه النّفوسَ تُعْطَى ما تستحِقُّه من ثوابٍ أو عقابٍ، في وقتٍ واحدٍ، لأنَّ اللّه تعالى لا يَشْغَلُه حسابٌ عن حسابٍ، ولا يحتاج إلى تفكير عند محاسبته لخلقه، بل هو سبحانه قد أحاط بكلّ شيء علمًا، كما قال: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣﴾ [سبأ: 3](5).

الحسابُ يومَ القيامةِ عادلٌ لا ظُلمَ فيه، سريعٌ لا بُطْءَ معه

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### عِلّةُ فصل قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ﴾ عمّا قبله:

جاءت جملة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ﴾ مفصولةً عن جُملَة: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [غافر: 16]؛ لما بينهما من كمال اتّصالٍ يغنيهما عن الواصل اللّفظيّ، ذلك أنّها تُنزّل منها مَنزلةَ التّابع من المتبوع، فتُبَيِّن وتُفصِّل

بيانُ أحداث يوم القيامة يُؤثِّر في نفوس المتلَقّين

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ظلم).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ظلم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سرع).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سرع).
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 273، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 246.

ما يحدث يومَ القيامة من مجازاة للنّفوس على ما قدَّمت في الدّنيا من خير أو شَرّ، وما كسبت من طاعة أو ارتكبت من معصية[1]، ليَعملَ الحديثُ عنه عملَه في نفوس المُتلقّين.

### معنى (ألْ) في لفظ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

يومُ الحساب والجزاء هو نفسُه يوم التّلاق والبُروز

(ألْ) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ لتعريف العهد الذّكريّ، وهي تدلُّ على أنَّ اليوم الذي تُجْزَى فيه كلُّ نفسٍ بما كسبت من غير ظلمٍ ولا جَورٍ، هو يوم التّلاق الذي يُبْعَثُ فيه الخَلقُ، ولا يخفى على اللّه منهم شيءٌ، والذي سبق ذِكْرُهُ في قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ﴾ [غافر: 15 - 16].

### دلالةُ التّعبير بـ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ دون غيره:

في تعجيل العقوبة بالدّنيا تنبيهٌ وإيقاظٌ للمُعاقَبين

دلّ استخدامُ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ على الإعلام والإفهام بامتداد أمَد المجازاةِ الوافية إليه، لا انقطاعِها بما يكون قبلَه من العقوبات البدنيّة وأنواعِ الكَرْب والشّدائد بالنّسبة للكافر، كما يُلْمِح إلى ذلك الصِّفتان الحُسْنَيان ﴿ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: 16]؛ وذلك لأنّ العقوباتِ في الدّنيا مُنَبّهاتٌ للمعاقَبين وموقظاتٌ لهم كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾ [السّجدة: 21].

### دلالةُ التّعبير بـ ﴿تُجۡزَىٰ﴾ مادّةً وصيغةً:

محاسبةُ النّاس ومجازاتُهم على الأعمال أمران يَسيران على الله تعالى

في تعبير النَّظم الكريم بالفعل: ﴿تُجۡزَىٰ﴾، الموضوعِ للمُكافأة على الأعمال خيرِها وشرِّها[2]، دلالةٌ على أنّ يومَ التّلاق سيكون مُخصَّصًا لحساب النّفوس ومجازاتِها على ما قدّمت في الدّنيا من حسنات وسيّئات، وطاعاتٍ ومعاصٍ، جزاءً عادلًا لا يَشوبُه أيُّ شيءٍ مِنَ الظّلم. وأوثِرَ بناءُ الفعلِ للمفعول؛ ترهيبًا من الحساب والجزاء،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 112.

(2) الرّاغب، المفردات: (جزا).

وترغيبًا في المُداومة على المُنّجيات من شدائد هذا اليوم وأهوالِه، وللإشارة إلى سهولة الحساب والجزاء ويُسْرِهما على الله ﷻ[1].

### غرض التّعبير بفعل الجزاء مبنيًّا للمفعول:

بُني الفعلُ ﴿تُجۡزَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾ للمفعول ترهيبًا من الحساب والجزاء؛ إذِ الظّاهر أنّ المعدول عنه بإسناد الفعل إلى الله أعظمُ في التّرهيب، وذلك لوجوه؛ **أوّلها:** التّذكير بصفة ذلك الجزاء، باستدعاء قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ٤١﴾ [النّجم: 39 - 41]، بقرينة البناء للمفعول في الفعلين. **وثانيها:** أنّ ذِكْر المُسنَد إليه يستدعي صفاتِ الجمالِ من الوُدّ والرّأفة، كما يستدعي صفات الجلال من القهر والانتقام؛ فكان بناءُ الفعل لما لم يُسمّ فاعلُه داعيًا إلى حبس الأنفاس من حصر الفكر في الجزاء، دونَ التّعلّق بصفات جمالِ المُجازيّ سبحانَه، وأنّ رحمته سبقت غضبَه. **وثالث هذه الوجوه:** توسيع دائرة المَرْهوب من كلّ ما يُرَى يومَ القيامة ويكون، حتّى منَ العشراء والأصدقاء، والتّهييب من جمعهم للجزاء، وأنّ الملائكة وُكِّلت بهم.

إذا كان الله هو مَن يجزي الخَلْق على أعمالهم؛ فحقيقٌ بهم أن يهابوا ذلك

### نُكْتَةُ دخول ﴿كُلُّ﴾:

في التّعبير عن نائب الفاعل بـ ﴿كُلُّ﴾ في قوله: ﴿تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾ دلالةٌ على شموليّة الجزاء وعمومِه كلَّ النّفوس، سواء أكانت مؤمنةً أم كافرةً، مطيعةً أم عاصيةً، بارّةً أم فاجرةً، "فلا تُتْرك نفسٌ واحدةٌ؛ لأنّ العِلْم قد شملهم، والقدرةَ قد أحاطت بهم وعمَّتهم، والحكمة قد منعت من إهمال أحد منهم"[2]، وللدّلالة على إحاطته بالنّفس الواحدة من جميع أقطارها من بابٍ أولى، ما دام يحيط

الحساب والجزاء سيشملان العصاةَ والمُطيعين والمؤمنين والكافرين

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 28.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 28.

بجميع الأنفس، ولبيان أنّه ما ثَمّ إلّا مكروب؛ فليكن التّعلّق للنّجاة من هول ذلك اليوم باللّه وحده، ونبذِ الشّركاء والأنداد المزعومين.

### نُكْتَةُ تنكير ﴿نَفۡسِۭ﴾ وإفرادها:

جاء البيانُ بلفظ ﴿نَفۡسِۭ﴾ نكرةً؛ لما يُفيده التّنكير من تأكيد عموم الحساب والجزاء وشمولِهما كلَّ النّفوس، وفي التّعبير بها مفردةً دلالةٌ على أنَّ كلَّ نفس ستُحاسب حسابًا خاصًّا على ما فعلت، وستُجازى جزاءً عادلًا بما قدَّمت، ولن يحول بينها وبين الحساب والجزاء أحدٌ، كما أنّ في تنكير ﴿نَفۡسِۭ﴾ وإفرادِها إلماحًا بالإشارة إلى الآيات المُقرّرة لعدم قبولِ الفداء وفرديّة الجزاء، وأنّه لا يُغني مولًى عن مولًى شيئًا، ولا يَجْزي والدٌ عن ولده، ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئًا، وحَقّ ذلك كلّه أن يُتّقى وأن يُعمل له، وتقديم ذلك في مدد الإمهال هو ممّا يقتضي محبَّة العِباد ربَّهم، وأنّه يُحبّ العُذْرَ ويُقدّمُه قبلَ المؤاخذة، وأنّ رحمتَه سبقت غضبَه.

كلُّ نفسٍ ستُحاسَب بمفردها، وستُجازى على أعمالِها

### معنى الباء في ﴿بِمَا﴾:

الباء في ﴿بِمَا﴾ في قوله: ﴿تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾ للسَّببيَّة[1]، وفي التّعبير بها دلالةٌ على أنَّ كلَّ النفوس ستُجازى على ما فعلت من خير أو شرٍّ في الدّنيا، جزاءً مناسبًا يومَ التّلاق، وأنَّ الذي سيتسبّب في شقائها أو نعيمها في ذلك اليوم هو الأعمالُ التي فعلتها، وليس شيئًا غيرَ ذلك، وفيه ما لا يخفى من الدّعوة إلى إحسان العمل وإصلاحه، ليكون جزاؤُه الفوزَ والسّعادةَ في الآخرة.

كلُّ نَفْسٍ ستُجازى بالنّعيم على فعل الخير، وبالعذاب على فعل الشّرّ

### سِرُّ إيثار الباء على اللّام في ﴿بِمَا﴾:

إن شَوْبَ السَّببيَّة بالتَّعليل مُشعِرٌ أنَّ الأمر مُبيّتٌ لهم، فهم فيه كالمُتربَّص بهم، لا يملكون شيئًا إزاءَه، وهذا خلافُ الواقع؛ فإنَّ اللّه قدَّم إرسالَ الرّسلِ وإنزالَ الكتبِ وهدايةَ البيانِ بإقامة الحُجَّة وقطْعِ

اللّه يقيم الحُجَّة على عباده وينذرُهم قبلَ أن تكون المحاسبة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 28، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 112.

المَعذرة وبشارةِ المؤمنين، ولا يرضى لعبادِهِ الكُفر، وإنْ يشكروا يَرضَهُ لهم، وبذلك كلّه آياتٌ من التّنزيل العزيز والذّكر الحكيم ناطقاتٌ به مُنبآتٌ عنه.

### معنى (ما) وموقع الجملة بعدها:

لن يُترَك عملٌ من أعمال الدّنيا من غير حسابٍ ولا مُجازاةٍ في الآخرة

(ما) في قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾ اسمُ موصول، والجملة بعدَه لا محلَّ لها من الإعراب صلةُ الموصول، وأوثِر التّعبير به لدلالته على عموم الجزاء وشمولِه جميعَ الأعمال التي عملها النّاسُ في دنياهم، وعدم تَرْك شيءٍ منها من غير حساب ولا مُجازاة، بما من شأنه أنْ يدفع النّفوسَ إلى التّفكير والتّروّي قبلَ القيام بأيٍّ عملٍ، صغيرًا كان أو كبيرًا.

الإيمان نافع لأهله، والكفرُ مودٍ بهم

ويجوز أن تكون (ما) نكرةً تامةً لمعنى (شيء)، ويكون المعنى: (اليوم تُجزى كلُّ نفسٍ بشيءٍ كسبت)، ويكون ذلكم الشّيء هو الإيمان والكفر، والمعنى عليه: أنّ الجزاء على ما دونَ الكفر داخلٌ ضِمْنَه، على نحو ما قيل: "ليس بعد الكفر ذنب"، وأنّ الجزاء على الإيمان لا يستلزم إيقاعَ الوعيدِ على ما لا يحِلّ بحقيقته وثُبوته، وكلّ ذلك فيه الإقناع بسعة رحمة الله، والإطماعِ في عفوه لِمَنْ وافى بالإيمان، والجملة على هذا - بعدُ - صفةٌ لشيءٍ الذي هو معنى (ما)، ومن فوائده أيضًا: أن الإيمان ينفع أهلَه ولو كان اقتُصر على أصله، وأنَّ الكفر يُردي أصحابَه، ولو كان مُتَقَلَّلًا منه في المعتقد.

### نُكْتَةُ حذف مفعول ﴿كَسَبَتۡۚ﴾:

الكيلُ الذي كالت به النّفوسُ في الدّنيا، سيُكالُ لها به يومَ التّلاق

في التّعبير بالفعل: ﴿كَسَبَتۡۚ﴾ الذي يعني: عملت، من غير مفعول فيه، دلالةٌ على أنّ المُجازاة ستشمل كلَّ ما عمله الإنسانُ في الدّنيا من خير أو شَرّ، ومن حسنات وسيّئات، والمعنى: ستُجازى على ما "عملت، وهي تظنّ أنّه يفيدُها سواءً بسواء؛ فبالكيل الذي كالت يُكال لها"[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 28.

## دلالة التّعبير بلفظ الكسب ومادّتِه:

لمّا ذُكِرَ من معاني الكسب القصدُ إليه والعَمْدُ له، والتّعلّقُ بثمرته ونشوته، والتّلذّذُ به، أو إنفاذُ غيظِه تشفيًا وانتقامًا إن كان من قبيل ما تبعث عليه القوّة الغضبيّة، ففي طي ذلك أنّ اللّه لا يُؤاخِذ على ما لم يُتعمَّد؛ وفيه لطائفُ تُلمح إلى ألطافٍ وسعةِ رحمةٍ تجعل تعاليمَ الإسلام وتكاليفَه داخلةً في الطّوْق، وأنَّ مَنْزِعها الوعيُ والقَصْدُ، والإرادةُ وحضورُ القلبِ.

اللّـه لطيفٌ بعباده، عالِمٌ بنواياهم وأسرارهم

## نُكْتَةُ حذفِ مفعولِ الكسب:

يُلْمِحُ حَذفُ مفعولِ الكسب إلى ما ذُكر معه المفعول؛ ليُستَحضَر ويُتذَكّرَ نحوُ قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأنعام: 158]، وذلك حاملٌ على أخذ الدّين كلِّه جملةً، وأن لا يُجعل القرآنُ عضين، وفيه تثويرُ الفكرِ إلى استحضار نصوصِه، كما في حديث ابن عمر: "قد عِشْنا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنا وإنَّ أحَدَنَا[1] يُؤْتَى الإيمانَ قَبْلَ القُرْآنِ، وتَنْزِلُ السّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فيتَعَلَّمُ حَلالَها وحَرامَها، وما ينْبَغي أنْ يوقَف عِنْدَهُ فيها كَما تَعْلَمونَ أنْتُمُ القُرْآنَ"[2].

الدّينُ يُؤْخَذ كلّه جملةً واحدةً، لا يُنتقى منه ولا يتجزَّأ

## نُكْتَةُ فصلِ جملة: ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ﴾:

جاءت جُملَةُ: ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ﴾ مفصولةً عن جملة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾؛ لأنّها واقِعَةٌ منها مَوْقِعَ بَدَلِ الاِشْتِمالِ[3]، ما يعني أنّها فُصِلت عنها كما يُفصل التّابعُ عن المتبوع، فيما يُعْرَف بلاغيًّا بكمال الاتّصال، الذي تقوى فيه العلاقاتُ والرّوابطُ المعنويّة بين الجمل، لدرجةٍ تُغنيها عن

يومُ التّلاق سيشتمل على الجزاء العادل الذي لا ظُلمَ فيه

(1) في رواية الطبرانيّ: وإنّ أحدنا.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك: 1/ 35، وقال: على شرطهما، ووافقه الذّهبيّ، وذكره الهيثميّ في مجمع الزّوائد، برقم: (755)، وقال: رواه الطبرانيّ في الأوسط، ورجاله رجال الصّحيح.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 112.

الرّوابط اللّفظيّة، والمعنى: أنّ يوم التّلاقِ سيشتمل على الجزاء العادل الذي لا ظُلمَ فيه.

**معنى ﴿لَا﴾، وموقع الجملة بعدَها:**

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ﴾ نافيةٌ للجنس، و﴿ظُلْمَ﴾ اسمُها المبني على الفتح، و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ظرفٌ متعلّق بمحذوفِ خبرها، والمعنى: أنَّ الظُّلم بكلّ أنواعِه وجميعِ أشكالِه لا وجودَ له في هذا اليوم، ومنفيٌّ حصولُه نفيًا لا شكَّ فيه، ولا ريبَ معه.

لا وجود للظّلم بكلّ أنواعِه وجميعِ أشكالِه يومَ الجزاء

**معنى (ألْ) في ﴿ٱلْيَوْمَۚ﴾:**

(ألْ) في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَۚ﴾ لتعريف العهد، وهي تدلُّ على أنَّ اليوم الخالي من الظّلم بكلّ أنواعِه ومقاديره هو يومُ الجَزاء، الذي تأتي هذه الجملة في سياق الحديث عنه، وفي سياق إقرار الجميع بأنَّ المُلك فيه للّه ربِّ العالَمين، كما يحكيه قولُه تعالى فيما سبق: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: 16].

اليوم الخالي من الظّلم بكلّ أنواعِه ومقاديره هو يومُ الجَزاء

**فائدة التّعبير بالجملة الخبريّة:**

كثيرًا ما يُعبّر البيانُ القرآنيُّ عند حديثه عن القيامة بصيغة الخبر أو الفعل الماضي، وقد جاء التّعبير بجملة: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ﴾ في سياق الحديث عن يوم الجزاء الواقعِ فيما يأتي منَ الزّمان بأسلوب الخبر؛ للدّلالة على أنّه حاصلٌ حصولًا لا شكَّ فيه. كما أنَّ هذه الجملة تدلُّ بمفهوم المخالفة على أنَّ يوم الجزاء هو يومُ العدالة الحَقَّة التي لم يرَ النّاسُ مثلَها في حياتهم، وأنّه لا ظُلمَ فيه أبدًا، "بنقصِ ثوابٍ، ولا بزيادةِ عذابٍ"(1). ولا تقتصر دلالةُ التّعبير على نفي الظّلم عن اللّه؛ بل تتّسِع لتَدلّ على أنّ من معانيها أنّه لا يُقَرُّ ظالمٌ على ما بيده ممّا ظلمه؛ بل يُنزَع منه ويُجزَى به.

عادةُ البيان القرآنيّ عند حديثه عن القيامة أنْ يُعَبِّرَ بصيغة الخبر أو الماضي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 271.

اللهُ تعالى سريعٌ في محاسبة عبادِه ومُجازاتِهم

**نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾:**

جاءت جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ "لأنّها واقِعَةٌ مَوْقِعَ التَّعْليلِ، لِوُقوعِ الجَزاءِ في هَذا اليَوْمِ، ولِانْتِفاءِ الظُّلْمِ عَنْ ذَلِكَ الجَزاءِ"[1]، ما يعني أنّها فُصِلت عمّا قبلها لشِبهِ كمالِ الاتّصال، الذي تُفصل فيه الجملةُ الثّانية عمّا قبلَها، كما يُفصل الجوابُ عن السّؤال.

ما يُسنَد إلى الله تعالى يكون على غير ما ألِفَه النّاس وعَهِدوه

**نُكْتَةُ التّأكيد في فاصلة الآية:**

جيء بجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ مؤكدَةً بـ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسميّة؛ لإزالة ما هو معهودٌ لدى المُتلقّين، وراسخٌ في عقولهم من أنَّ "استيفاءَ الخلائق بالمُجازاة أمرٌ لا يمكن في العادة ضَبْطُه، ولا يتأتّى حِفظُه ورَبطُه، ما من شأنه أن يَبُثَّ في النّفوس القَلَقَ من خوف الجَوْر؛ فكان التّأكيد للإشارة إلى أنّ ما يُسنَد إلى الله تعالى يكون على غير ما ألِفَه النّاسُ وعَهِدوه"[2]، ولتقويةِ نَفْيِ الخوفِ والقَلَق من حصول الظّلم في هذا اليوم بأيِّ شكلٍ من الأشكال.

المُسنَدُ إليه المُقَدَّمُ يدخل خَبرُه على القلب دخولَ المأنوسِ به المُطْمَأنِّ إليه

**غرض تقديم المُسنَد إليه على المُسنَد المُشتقّ:**

في جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ قُدِّم المسند إليه ﴿ٱللَّهَ﴾ على الخبر المشتَقّ: ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ زيادةً في تقوية انتفاءِ الظّلم يومَ القيامة وتأكيدِه؛ وذلك أنَّ تقديم اسم الجلالة يُشعِر المُتلقّي بأنّ هناك ما يُراد الإخبارُ به عنه، وهذا الإشعار توطئةٌ له وتقدِمةٌ للإعلام به، فإذا جيء بقوله: ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ دخلَ على القلب دخولَ المأنوس به، وقَبِلَه قَبولَ المُتهيّئ له المُطْمَئنِّ إليه، وذلك أشدّ لثبوته، وأنفى للشّبهة، وأمنع للشّكّ، وأدخل في التّحقيق[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 112.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 28.

(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز: 1/ 132.

### بلاغة إظهار الاسم الجليل في موضع إضماره:

كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (إنّه سريعُ الحساب)، ولكنَّ البيانَ القرآني عدلَ عن التّعبير بالضّمير إلى إظهار الاسم الجليل، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ لما يُفيدُه الإظهارُ من التّعظيم والتّفخيم الدّالِّ على تمام القدرة وشمولِ العِلْم، مع الإشعار بسهولة الأمر على الله الذي يقدر على كلّ شيء، ولا يُعجزُه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، ولأنّ تفكُّرَ المُتلقّي فيما ورد من أمر الآخرة في الآيات، من شأنه أن يُؤَهّل ويُذْهِل، فاحتيج إلى تنبيهه بإظهار الاسم الجليل الأعظم له؛ ليَرُدّ ممّا جَرَّه الفكر إليه وجرى به نحوَه من أهوالٍ، ليُعادَ إلى التّلقّي ثانيةً.

أمر الحساب سهلٌ على الله؛ لما له سبحانه من تمام القُدرة وشمولِ العِلْم

### نُكْتَةُ التّعبير عن الخبر بصيغة (فعيل):

جاء النّظم الكريم بالخبر ﴿سَرِيعُ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ مصوغًا بزنة (فعيل)؛ للدّلالة على أنَّ الله تعالى "بليغُ السّرعة في الحساب، فلا يَشغله حسابُ أحد عن حساب غيره في وقت حساب ذلك الغير، ولا يُلهيه شأنٌ عن شأن؛ لأنّه لا يحتاج إلى تكلُّف عدٍّ، ولا يفتقر إلى مراجعة كتابٍ ولا شيء"[1]، ممّا يجعل الحسابَ بطيئًا غيرَ سريع.

الله تعالى لا يَشغلُه حسابٌ عن حسابٍ، ولا يُلهيه شأنٌ عن شأنٍ

### معنى (ألْ) في ﴿ٱلْحِسَابِ﴾:

(ألْ) في ﴿ٱلْحِسَابِ﴾ للعهد، ما يعني أنَّ المراد به: الحساب على الأعمال التي عملها النّاس في الدّنيا بقصد مجازاتهم عليها بالعدل، والذي تحدّث القرآنُ عنه في أكثر من موضع، وأعْلَمَ النّاسَ بوقوعه وقوعًا مؤكّدًا، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ①﴾ [الأنبياء: 1]، وقولُه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ⑧﴾ [الزّلزلة: 7 - 8]، ولأنّ

الإخبار بحساب النّاس على أعمالهم ومجازاتهم عليها أمرٌ تكرّر ذكرُه في القرآن الكريم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 29.

المرادَ الحسابُ الكامل الذي لا يدع المحاسَبين حتّى يفضيَ بهم إلى مصائرهم مسوقين، بعدما اقتُص لبعضهم من بعضٍ.

### دلالة الإضافة:

**الإخبار بسُرعة الحساب فيه ترجيَةٌ للمؤمنين، وتخويفٌ للظّالِمين**

في إضافة ﴿سَرِيعُ﴾ إلى ﴿ٱلْحِسَابِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ دلالةٌ على اختصاص الله تعالى بهذه السُّرعة، وعدمِ اتّصاف أحدٍ آخر بها، وفيه أيضًا: "ترجيَةٌ للفريقين وتخويفٌ؛ لأنّ الظّالم يخشى إسراعَ الأخذِ بالعذاب، والمؤمنَ يرجو إسراعَ البَسطِ بالثّواب"(1).

### فائدة تذييل الآية بهذا الوصف:

**سُرْعَةُ الحِساب تَقْتَضي سُرْعَةَ الحُكْمِ، والأخيرة تَقْتَضي تَمَلُّؤَ الحاكِمِ مِنَ العِلْمِ بالحَقِّ**

في تذييل الآية بجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ تأكيدٌ لما سبق من كَوْن يوم التّلاق هو يومُ الجزاء العادل، الذي لا تشوبه شائبةٌ من الظّلم؛ لأنّ سُرْعَةَ الحِساب تَقْتَضي سُرْعَةَ الحُكْم، وسُرْعَةَ الحُكْم تَقْتَضي تَمَلُّؤَ الحاكِم مِنَ العِلْم بالحَقِّ، ومِنْ تَقْديرِ جَزاءِ كُلِّ عامِلٍ عَلَى عَمَلِه دونَ تَرَدُّدٍ ولا بَحْثٍ؛ لِأنَّ الحاكِمَ عَلّامُ الغُيوب، فكانَ في قَوْلِهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ - بجانب ما سبق توضيحُه - تأكيدٌ لِجَميعِ ما تَقَدَّمَهُ في هذا الغَرَضِ(2).

### فائدة التّعبير بأسلوب الخبر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾:

**تَأْخيرُ القَضاءِ بالحَقِّ بَعْدَ تَبَيُّنِهِ لِلْقاضي بدونِ عُذْرٍ ضربٌ من ضروب الجَوْرِ**

مجيءُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ في صورة الخبر له فوائد جمّةٌ - فبجانبِ التّرجية والتّخويف الذي سبق ذكره - فيه دلالةٌ على أنَّ حصول الحساب والمجازاة على الأعمال في يوم التّلاق أمرٌ واقع لا محالةَ، من غير شَكٍّ ولا ريب، وفيه أيضًا: "إيماءٌ إلى أنَّ تَأْخيرَ القَضاءِ بالحَقِّ بَعْدَ تَبَيُّنِه لِلْقاضي بدونِ عُذْرٍ ضربٌ من ضروب الجَوْرِ؛ لِأنَّ الحَقَّ إنْ كانَ حَقَّ العِبادِ فتَأْخيرُ الحُكْمِ لِصاحِب

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 29، 30.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 112.

الحَقِّ إبْقاءٌ لِحَقِّه بيدِ غَيْرِه، ففيهِ تَعْطيلُ انْتِفاعِه بحَقِّه بُرْهَةً مِنَ الزَّمانِ، وذَلِكَ ظُلْمٌ، وقد يكونُ صاحِبُ الحَقِّ في حاجَةٍ إلى تَعْجيلِ حَقِّه لِنَفْعٍ مُعَطَّلٍ، أوْ لِدَفْعِ ضُرٍّ جاثِمٍ، ولَعَلَّهُ أنْ يهْلَكَ في مُدَّةِ تَأْخيرِ حَقِّه فلا ينْتَفِعُ بهِ، أوْ لَعَلَّ الشَّيْءَ المَحْكومَ بهِ يتْلَفُ بعارِضٍ أوْ قَصْدٍ، فلا يصِلُ إلَيْه صاحِبُهُ بَعْدُ. وإنْ كانَ الحَقُّ حَقَّ اللّه كانَ تَأْخيرُ القَضاءِ فيهِ إقْرارًا لِلْمُنْكرِ"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 112، 113.

﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ١٨﴾ [غافر: 18]

### مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الإعلامُ بقُرْب يومِ التَّلاق، وبيانُ حالِ الظّالِمين فيه

بعد أن أكّدتِ الآيةُ السّابقة أنَّ الله تعالى سيُجازي الخلائقَ يوم التّلاق على ما عملوه في الدّنيا، جزاءً عادلًا لا ظُلمَ فيه، ولا بُطءَ معه؛ ناسبَ أن يُؤمَر الرّسولُ ﷺ بإعلام النّاس بشدّة اقترابه، مع ذِكْر بعضِ أهواله، وبيانِ أحوال الظّالمين فيه؛ ليتأكّد أنّه - مع ثبوته وثبوت التّلاقي فيه - قريبٌ جِدًّا؛ تحذيرًا من تَزيين إبليسَ للشّهوات، وإغرائه بالتّسويف بالتّوبة، وعدم الاستعداد[1].

### شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأٓزِفَةِ﴾: (أزف) يدُلُّ على الدُّنوِّ والمُقارَبَة، يُقالُ: أزِف الرَّحيلُ: إذا اقْتَرَبَ ودَنا. قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ٥٧﴾ [النّجم: 57]، يعْني: القيامَةَ، وسمّيت به لقُرْب وقوعِها، ولذلك عُبِّر بها عن السّاعة، وعبّر بالماضي لقُربِها وضيقِ وقتِها، قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]، وقال: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾[2].

2) ﴿لَدَى﴾: (لدى) كـ(على)، وهو ظرف مكانٍ كـ(عِنْد)[3]، ومعناه: المكان الذي يكون فيه الشّيء، أي: يحتبس فيه الشّيءُ ويمتَسِك، قال تعالى: ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ [يوسف: 25]؛ أيْ: عنده[4]، غير أنّه يختصّ بالقريب، وهو المعنى المراد بالآية.

3) ﴿ٱلۡحَنَاجِرِ﴾: جمع حَنْجَرَة، وهي رأس الغَلْصَمَة من الخارج،

(1) البقاعيّ: نظم الدّرر: 17/ 30، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 113.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أزف).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 426.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لدى).

وقيل: جَوْفُ الحُلْقوم. ومعناه المحوريّ: فراغٌ مستطيلٌ كأنّه قناة، يمتد في جَوْفِ كثيف: كما في الحَنْجورة والحَنْجَرة، وبلوغُ القلوبِ الحناجرَ: مبالغةٌ في اضطرابها ووجيفها دون أن تنتقل من مَقرّها إلى الحَنْجَرة، وقيل: إذا انتفخت الرّئةُ من شدّةِ الفَزَع أو الغضب، رَبَتْ وارتفع القلبُ بارتفاعها إلى رأس الحَنْجَرة[1]، وهو المعنى المراد هنا.

4) ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾: (كظم) أَصْلٌ صَحيحٌ يدُلُّ على الإمساك والجَمع لِلشَّيْءِ. مِنْ ذَلِكَ: الكَظْمُ: اجْتِراعُ الغَيْظِ والإمساكُ عَنْ إبْدائِهِ، وكَأَنَّهُ يجْمَعُهُ الكاظِمُ في جَوْفِهِ. قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ [آل عمران: 134][2]، والكَظْمُ: مَخْرَج النَّفَس، يقال: أخذ بكَظَمِهِ، والكُظومُ: احتباسُ النّفَسِ، ويُعَبّر به عن السّكوت، وكُظِمَ فلانٌ: حبس نفسَه[3]، وهو المعنى المراد في الآية.

5) ﴿حَمِيمٖ﴾: (حم) أَحَدُ أُصولِهِ الحَرارَةُ، والآخَرُ: الدُّنُوُّ والحُضورُ[4]، فالحميم: الماءُ شديدُ الحرارة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ [يونس: 4]، ومن الآخر قولُه: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ١٠١﴾ [الشّعراء: 100 - 101]، والمعنى الأخير هو المقصود في الآية[5].

6) ﴿شَفِيعٖ﴾: (شفع) أَصْلٌ صَحيحٌ يدُلُّ على مُقارَنَةِ الشَّيْئَيْنِ. مِنْ ذَلِكَ: الشَّفْعُ خِلافُ الوِتْرِ. تَقولُ: كانَ فَرْدًا فشَفَعْتُهُ، وشَفَعَ فُلانٌ لِفُلانٍ إذا جاءَ ثانيهُ مُلْتَمِسًا مَطْلَبَهُ ومُعِينًا لَهُ[6]. قال تعالى: ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ [النّجم: 26]. وقوله هنا: ﴿وَلَا شَفِيعٖ﴾[7]؛ أيْ: مساعد معين.

## ۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

في هذه الآية يأمرُ اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ بإنذار النّاس وتحذيرِهم من أهوال يوم عظيمٍ، قريبِ الوقوع، تكون قلوبُهم فيه مرتفعةً عن مواضعها من صدورهم، ومُتشبّثةً

(1) الرّاغب، مفردات القرآن، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حنجر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كظم).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (كظم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حم).
(5) الرّاغب، مفردات القرآن: (حم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شفع).
(7) الرّاغب، مفردات القرآن: (شفع).

ليس للظّالمين حَبيبٌ ولا شفيعٌ يومَ التّلاق، الذي تبلغ فيه قلوبُهم الحناجرَ

بحناجرهم، وهم يُمسكون بها ويكتمون أنفاسهم، حتّى لا تخرجَ قلوبُهم معها، كما يمسكُ صاحبُ القُرْبة فمَها لكي لا يتسربَ منها الماءُ، كما تُبيّنُ الآيةُ الكريمةُ أنَّ الظّالمين ليس لهم في هذا اليوم قريبٌ أو مُحِبٌّ يَعطِف عليهم، ولا شفيعٌ يُطاع في الشّفاعة لهم؛ لأنّهم في هذا اليوم يكونون محلَّ غضبِ الجميع ونقمتِهم؛ بسبب ظُلمِهم وإصرارِهم على كفرهم[1].

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### معنى الواو في صدر الآية:

يـوم التّـلاقِ قريبٌ وإن بدا أنّه بعيد، فكلّ آتٍ قريبٌ

الواو في قوله: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾ يمكن أن تكون لعطف ما بعدَها على جملة: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ [غافر: 15]، بقصد بيان شدّة اقتراب هذا اليوم، وتوضيحِ أحوالِ الظّالمين فيه؛ تحذيرًا للنّاس من الظّلم، وترغيبًا لهم في اتّباع الحقّ. ويمكن أن تكون الواو استئنافيّةً، والكلام بعدَها مستأنفٌ للتّنبيه إلى شدّة اقتراب يوم التّلاق، وأنّ أحوال الظّالمين فيه عصيبةٌ، ولن يكون بإمكان أحدٍ إنقاذُهم ممّا هم فيه.

### دلالةُ الأمر في ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾:

كُلّما كانَت المخافةُ أشدَّ، كانَت النِّعْمَةُ بالإنذار أعظمَ

الأمر بالإنذار في قوله: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾ الدّالِّ على الإعلام المقترن بالتّخويف والتّحذير، فيه تكليفٌ للرّسول بإنذار النّاس باقتراب يوم التّلاق والمداومةِ عليه، لما فيه من إحسانٍ من المُنْذِر، ولأنّه كلّما كانَت المخافةُ أشدَّ كانَت النِّعْمَةُ بالإنذار أعظمَ[2]؛ لما يترتّب عليه من الاستعداد لهذا اليوم بعمل الصّالحات، واجتنابِ المظالم والسّيّئات.

### مرجعُ الضّمائر في ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾:

فاعلُ الإنذار في: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾ هو الضّمير المستَتِرُ وجوبًا، والعائدُ

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 274، 275.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 242.

إلى الرّسول ﷺ ، والذي يدخل فيه أتباعُه والمؤمنون به في كلّ زمان ومكان بالائْتِساء، و(هُم) ضميرٌ مبنيٌّ في محلّ نصبٍ، مفعولٌ به أوّل لفعل الإنذار، يُقصَد به: النّاس أجمعون، ويدخل فيهم الكافرون والعُصاةُ من قوم الرّسول وأُمّتِه دخولًا أوّليًا بُرهانيًا.

الرّسولُ وأتباعُه مُكلّفون بتخويف النّاس جميعًا من أهوال يوم التّلاق

**بيانُ مفعولَيّ الإنذار:**

الضّمير (هُم) في قوله: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾ هو المفعولُ الأوّل لفعل الإنذار، أمّا قولُه: ﴿يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ فيجوزُ أنْ يكونَ مفعولًا به ثانيًا على سبيل التّوسّع في معنى فعل الإنذار، بتضمينه معنى التّخويف، ويجوز أنْ يكونَ ظرفًا، والمفعولُ محذوفٌ، تقديرُه: (عذابَ يوم الآزفة)[1]. وأيًّا كان الإعرابُ فالمُراد توجيهُ الرّسول ﷺ إلى تخويف النّاس بعامّةٍ، ومشركي قومِه بخاصّةٍ من يوم التّلاق، وبيانُ ما فيه من شدائدَ وأهوالٍ، يُعَدُّ الجميع عُرضةً لها إذا لم يُحسنوا الاستعدادَ له.

النّاسُ جميعًا عُرْضَةٌ لأهوال يوم التّلاق إذا لم يُحْسنوا الاستعدادَ له

**نُكْتَةُ التّقديم والتّأخير بين مفعولَيّ الإنذار:**

جاء البيانُ الكريم بضمير الغائب العائد إلى النّاس (هُم) مُقَدَّمًا على ﴿يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾؛ لأنّ الاهتمام موجّهٌ إلى تخويف النّاس من أهوال ذلك اليوم وشدائده، كما أنّه مُنصبٌّ على تنبيههم إلى ضرورة الحَذَر وعدمِ التّسويف في الاستعداد له.

القرآنُ الكريمُ مُهتمٌّ بإنذار النّاس وتخويفِهم من هول يوم التّلاق

**معنى (ألْ) في ﴿ٱلۡأٓزِفَةِ﴾:**

(ألْ) في ﴿ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ لتعريف العهد، وفيها دلالةٌ على أنَّ المراد بـ ﴿يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ هو يومُ التّلاق الذي سبق حديثُ القرآن عنه فيما تَقَدَّم من آيات، ووجهُ تسميتِه بـ ﴿يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ الإشارةُ إلى قُرْبِ وقوعِه، والإشعارُ بضيق الوقت بين النّاس وبينَه[2].

الوقت الباقي على وقوع يوم التّلاق ضيقٌ جِدًّا

---

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 9/ 466، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 108.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 272.

### سِرّ العُدول عن ذِكْر الموصوف:

مَن مات فقد حضرت ساعتُه، وقَرَّبَهُ الموتُ من قيامته

عُدِلَ عن ذِكْر الموصوف وأُقيمت الصّفةُ مقامَه لِعدّة أمور؛ منها: أنّ الموصوف المحذوف قد قام الدّليلُ عليه، وشهدت الحالُ به؛ فصار ذِكْره من الإطناب، والمقامُ للإيجاز والاختصار، فحَسُنَ الحذفُ ووقعَ من الكلام موقعَهُ؛ ومنها: انتفاءُ اللّبْس مع الحذف فَحَسُن. ومنها: أنّ الصّفة هنا مظروف، واليوم مفعولٌ فيه ظرف، وبدهيٌّ أنّ في الإطلاق المُجرّد للنّعْتِ بلفظه برهانَ وقوعِه المقتضي التّصديقَ به، من حيثُ إنّ معنى ﴿ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ المُقتربة، وأوّلُ مبادئ ذلك ومَداخلِه الموتُ، وهو دائمُ الوقوع متعدّدٌ، ومَن مات فقد حضرت ساعتُه، وقرَّبه الموتُ من قيامته، كما قال تعالى على معنًى من التّأويل سائغ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: 1]؛ فتَمّ المقصودُ بذِكْره مُقتَصَرًا عليه؛ فبلغ مبلغَه في الإيجاز والإعجاز.

### معنى ﴿إِذِ﴾، وموقعُها الإعرابيّ:

وصولُ القلوب للحناجر هو الحال الحاصلةُ للنّاس طيلة يوم التّلاق

﴿إِذِ﴾ في قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿يَوْمَ﴾، فهو اسْمُ زَمانٍ مَنْصوبٌ، مُضافٌ إلى جُملَةِ: ﴿ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾. ويمكن أن يكون بدلَ اشتمالٍ مِنْ (هُم) في ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾[1]. وأيًّا كان الإعرابُ، ففي التّعبير به دلالةٌ على أنَّ ارتفاع قلوبِ النّاس من أماكنها، ووصولَها إلى حناجرهم، هو الحالةُ الحاصلة لهم طيلةَ يومِ التّلاق، بسبب ما فيه من شدائدَ وأهوالٍ، ما يدلُّ على أنّ النّاس في هذا اليوم يجتمع عليهم أمران يزيدان خوفَهم ورُعبَهم؛ أوّلهما: أهوال يوم التّلاق وشدائدُه. والآخر: مقاومتُهم خُروجَ الرّوح، ومحاولةُ إمساكِها في الحناجر، وبدلالة النّصِ عليهما يبلغُ الخَوفُ قِمتَه، ويحدثُ الأثرُ المَرجوُّ، وهو عدم التّكذيب بهذا اليوم، واتّباعُ الرّسول الذي يُنذر باقترابه.

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 9/ 467، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 113.

### معنى (ألْ) في ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾:

أهـوال القيامة تـنخـلـع منـهـا قـلـوبُ الـنّـاس بعامَّةٍ، وقلوبُ منكريه بخاصّة

(ألْ) في ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ في قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ لتعريف العهد، وبها عوِّضَ تَعْريفُ الإضافةِ بتَعْريفِ العَهْدِ، لأنّ التّقدير: إذِ قُلوبُهُم، والمعنى: إذْ قُلوبُ الَّذينَ تُنْذِرُهُم، يعْني المُشْرِكينَ، فأمّا قُلوبُ الصّالِحينَ يوْمَئِذٍ فمُطْمَئِنَّةٌ[1]. ويمكن أن يكون المُراد قلوبَ كلِّ مَنْ حضر في هذا اليوم إلّا مَن شاء الله[2]، فتكون (ألْ) لتعريف الجنس. وأيًّا كان المراد ففي التّعبير دلالةٌ على أنّ أهوال هذا اليوم تنخلع منها قلوبُ النّاس بعامّةٍ، وقلوبُ منكريه بخاصّة.

### الموقع النّحويّ لـ ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ وما بعدَها:

قـلـوبُ كثير من النّاس لن تكون فـي أماكـنها المُـعـتـادة يـوم التّلاق

جملة: ﴿ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ في محلّ جَرٍّ بالإضافة إلى ﴿إِذِ﴾، و﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ مبتدأ، و﴿لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ خبرُه[3]، وفيها دلالةٌ على أنَّ قلوبَ كثير من النّاس لن تكون في أماكنها المعتادة من الأبدان يومَ التّلاق، وأنّها ستَترك تلك الأماكنَ من فَرْط الهَوْل وشِدّة الكَرْب، وترتفعُ إلى الحناجر والحلاقيم.

### دلالة التّعبير بـ ﴿لَدَى﴾:

الرّعبُ والهَلَعُ يـحـدث يـومَ الـتّـلاق في بواطن الأجسام ودواخلها

التّعبير بـ ﴿لَدَى﴾ يدلُّ على أنَّ "القُلوبَ يشْتَدُّ اضْطِرابُ حَرَكَتِها مِنْ فرْطِ الرُّعْبِ والجَزَعِ، مِمّا يُشاهِدُهُ أهْلُها مِنْ بَوارِقِ الأهْوالِ، حَتَّى تَتَجاوَزَ القُلوبُ مَواضِعَها صاعِدَةً إلى الحَناجِرِ، وتَسْتَقِرَّ عندها، كما قالَ تعالى في ذِكْرِ يوْمِ الأحْزاب: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10]"[4]، وفي التّعبير به أيضًا دلالةٌ على أنَّ هذا الرّعب يحدث على وجه غريب في بواطن الأجسام ودواخلها[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 113.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 31.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 157، والسّمين، الدّرّ المصون: 9/ 467.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 114.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 31.

من عادة البيان القرآنيّ بثُّ الرُّعب في النّفوس بقصْد التّنبيه والتّحذير من يوم التلاق

**معنى (ألْ) في ﴿ٱلۡحَنَاجِرِ﴾:**

(ألْ) في ﴿ٱلۡحَنَاجِرِ﴾ يمكن أن تكون لتعريف العهد، والتّعريف بها عِوَضٌ عَن التَّعْريفِ بالإضافةِ، لأنّ التّقدير: (إذِ قُلوبُهم وحَناجِرُهُم)(1)، والمعنى: تبلغُ قلوبُ منكري البعث والحساب حناجرَهم المعروفةَ المعهودة لهم ولغيرهم. ويمكن أن تكون لتعريف الجنس، فيكون المُراد: تبلغ قلوبُ النّاس جميعًا في يوم التّلاق حناجرَهم، إلّا من شاء اللّه سبحانه، وفيه من زيادة الرّعب المُفضي إلى الحذَر والتّنبُّه والاستعداد، ما لا يحتاج إلى مزيد بيان.

الظّالمون في رُعبٍ وفَزعٍ طيلةَ يوم التّلاق

**دلالة التّعبير بـ ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾ مادّةً وصيغةً:**

في التّعبير بـ ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾ في قوله: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ﴾ الدّالِّ على شدّة الإمساك والحرص على عدم الإفلات، اسمًا مشتقًّا، إشارةٌ إلى ثبوت الظّالمين على هذا الفعل، ومداومتهم على "كظم حَناجِرِهِم إشْفاقًا مِنْ أَنْ تَخْرُجَ مِنْها قُلوبُهُم مِنْ شِدَّةِ الاِضْطِراب"(2)، ما يَدلُّ على أنَّهم في رُعبٍ وفَزعٍ طيلةَ اليوم المُتَحَدَّثِ عنه. وأوثِر التّعبير عنه بصيغة جمع المُذكّر السّالم؛ لأنّ الحديث - وإن كان في الظّاهر عن القلوب - فإنّه في الحقيقة عن أصحابها، ومن ثَمّ جُمِعَ على طريقة جمع العقلاء، وزاده حسنًا أنّ القلوب محلُّ الكَظْم، وبها صلاحُ الجملة وفسادُها(3). يزاد على ذلك: أنّه "وصَفَها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء"(4).

الظّالمون يوم التّلاق يكونون في هولٍ مضاعَفٍ، وكَرْبٍ مُرَكَّبٍ

**الموقع النّحويّ لقوله: ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾:**

اختلف النّحاةُ في إعراب: ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾، فقيل: حالٌ من الضّميرِ المُستَكِنِّ فيه، وقيل: حالٌ من ﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾، والمعنى: أنَّ القلوبَ كاظمةٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 113.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 114.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 31.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 157.

على غَمٍّ وكَربٍ فيها، مع بلوغها الحناجر، وقيل: حالٌ مِنْ أصحاب القلوب، على معنى: إذْ قلوبُهم لدى الحناجر كاظمين عليها، وقيل أيضًا: حال مِنْ (هُم) في ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾، وهي حالٌ مقدَّرةٌ؛ لأنّهم وقتَ الإنذارِ غيرُ كاظمين[1]. وأيًّا كان الإعراب، ففي التّعبير دلالةٌ على أنَّ الظّالمين يجتمع عليهم يوم التّلاق هولان: هولُ يومِ الحساب نفسِه، وهولُ كونِ قلوبهم لدى حناجرِهم، وهم كاظمون عليها، ما يعني: أنّهم في هولٍ مضاعفٍ، وكَربٍ مُركَّبٍ.

**بلاغة الكناية في قوله: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾:**

ليس في الكناية ما يمنع من وصول القلوب إلى الحناجر على سبيل الحقيقة

التّعبير بقوله: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾ كنايةٌ عن صعوبة أهوال يوم التّلاق، واشتدادِ فَزَعِ النّاس واضطرابهم فيه، وبلوغِه في ذلك مبلغًا لا تتحمَّلُه قلوبُهم، ولا تطيقُه أفئدتُهم، فترتفع عن أماكنها حتّى تصلَ إلى حناجرهم وحلاقيمهم وصولًا حقيقيًّا، لأنّ الكناية ليس فيها ما يمنع من إرادة المعنى الحقيقيّ؛ بل إنّها تُعطي المعنى بدليله كما هنا.

**نُكْتَةُ فصلِ جملة: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ﴾:**

بلوغ القلوب الحناجر يدفع الظّالمين إلى استشراف مَنْ يشفعُ لهم فلا يجدون

جاءت جملة: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ﴾ مفصولةً عن جملة: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾؛ لأنّها تُنَزّل منها منزلةَ بدلِ الاشتمال، وذلك أنَّ تِلْكَ الحالَةَ تَقْتَضي أنْ يسْتَشْرِف الظّالِمونَ إلى شَفاعَةِ مَنِ اتَّخَذوهُم ليشْفعوا لَهُم عِنْدَ اللهِ، فلا يُلْفون صَديقًا ولا شَفيعًا[2]، ما يعني: أنّها فُصِلت عنها لكمال الاتّصال، الذي تُنزّل فيه الجملةُ الثّانيةُ ممّا قبلها منزلةَ التّابع من متبوعه، فتُفْصَل عنها لما بينهما من اتّصال معنويّ قويّ، يستغنيان به عن الواصل اللّفظيّ.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 157، والسّمين، الدّرّ المصون: 9/ 467.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 114.

### معنى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ﴾:

لن يكون للظّالمين حميمٌ ولا شفيعٌ يوم التّلاق بصورة قاطعة

﴿مَا﴾ في جملة: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ﴾ هي النّافية العاملةُ عملَ (ليس)، وأوثِر النّفيُ بها لأنَّ من خصائصها نفيَ الجُمَل الاسميّة والفعليّة، كما أنّها آكدُ في النّفي من (ليس)، وأوسعُ استعمالًا منها؛ لاختصاص (ليس) بنفي الجُمَل الاسميّة فقط[1]، والنّفيُ بـ ﴿مَا﴾ أنسب هنا؛ لأنّها تُفيد بمعناها ومبناها المختوم بألف المدَّ نفيَ أن يكون للظّالمين حميم أو شفيع يوم التّلاق نفيًا قاطعًا لا حدود له.

### معنى اللّام في ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾:

الظّالمون دون غيرهم من الخَلْق لن يكون لهم حميمٌ ولا شفيعٌ يوم التّلاق

اللّام في قوله: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ حرفُ جرٍّ يُفيد الاختصاص أو الاستحقاق، وفيه دلالةٌ على أنَّ الظّالمين دون غيرهم مِنْ خَلْق اللّه لن يكون لهم شفعاءُ ولا أحبّاءُ يمكنهم الدّفاعُ عنهم والشّفاعةُ لهم عند اللّه يوم التّلاق؛ بسبب ظُلمهم وعدم استعدادهم لهذا اليوم، وعصيانِهمُ الرّسولَ الذي أنذرهم باقترابه.

### معنى (ألْ) في (الظّالِمِينَ):

بلوغ القلوب الحناجر سيحصل لجميع الظّالمين

(ألْ) في (الظّالمِينَ) للاستغراق وتعريف الجنس، وأوثِر التّعبيرُ بها ليَعُمَّ البَيانُ كُلَّ ظالم، أيْ: مُشْرِكٍ، فيَشْمَلُ الظّالِمينَ المُنْذَرينَ، ومَنْ مَضَى مِنْ أمثالِهم[2]، ويُحذِّر المخاطَبين ومَنْ يأتي بعدَهم مِن أن ينهجوا نهجَهم، أو يسيروا على منوالهم.

### دلالة التّعبير بـ (الظّالِمِينَ) دون (الكافرين):

الكافرون ارتكبوا بكفرهم أبشعَ أنواعِ الظّلم وأشنعَها

آثَر البيانُ الكريم التّعبير بـ (الظّالمِينَ) دون (الكافرين)؛ للتّخسيس بأثر الكفر والتّنفير منه، والتّشنيعِ بهم، والدّلالةِ على استحقاقهم ما هم فيه من هولٍ واضطرابٍ وفزعٍ؛ لأنّهم ارتكبوا

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 191.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 114.

بكفرهم أبشعَ أنواعِ الظّلم وأشنعَها، وليكون البيانُ شاملًا الكافرين وكلَّ الظّالمين على اختلاف أنواعهم وجناياتهم، كما أوثِر التّعبير بصيغة الاسم المشتق؛ لدلالته على عراقتهم في الظّلم[1]، وثبوتِهم عليه، وتمسُّكِهم به حتّى الممات.

**نُكْتَةُ تقديم شِبه الجملة ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾:**

مِن أغراضِ التّقديم تعجيلُ المساءة للظّالمين، والتّنفيرُ من الظّلم

﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ في قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ جارٌّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر لـ ﴿مَا﴾ النّافية، وأوثِر تقديمُه على الاسم المجرور بحرف الجر ﴿مِنۡ حَمِيمٖ﴾؛ لأجل التّسبيب للعقوبة ببيان سبب الاستحقاق، ولأجل التّعجيل بمساءة الظّالمين، وقطعِ رجائِهم في أن يكون لهم حميمٌ أو شفيعٌ في ذلك اليوم العصيب، وفيه ما لا يخفى من تنفير المتلقّي من الظّلم بمعناه الواسع، الذي يشمل الكفرَ وغيره.

**معنى ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ﴾:**

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ هي البيانيّة المُؤكِّدة عدمَ وجودِ صديقٍ حميم، ولا شفيعٍ حبيب للظّالمين يوم التّلاق، بأيِّ حالٍ من الأحوال.

**نُكْتَةُ تنكير ﴿حَمِيمٖ﴾ و﴿شَفِيعٖ﴾:**

لن يكون للظّالمين حميمٌ ولا شفيعٌ من الملائكة ولا من الجِنّ ولا من البشر

أوْثِر تنكيرُ ﴿حَمِيمٖ﴾ و﴿شَفِيعٖ﴾ لما يُفيدُه تنكيرُ الاسمِ الواقع في سياق النّفي من العموم الذي يشمل كلَّ المُحِبّين والشُّفعاء أيًّا كانوا، ما يعني: أنّ الظّالمين لن يكون لهم حميمٌ ولا شفيعٌ من الملائكة، ولا من الجِنِّ، ولا من البشر، ولا من الأنبياء والمُرسلين، ولا من غيرهم.

**معنى الواو في قوله: ﴿وَلَا شَفِيعٖ﴾:**

الواو في قوله: ﴿وَلَا شَفِيعٖ﴾ حرفُ عطفٍ يُفيد الاشتراكَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 31.

الـحـمـيـم والشّفيع ينتفي وجودُهما يوم التّلاق

في الحُكْم، أوثِر عطفُ ﴿شَفِيعٍ﴾ على ﴿حَمِيمٍ﴾ به؛ للدّلالة على اشتراكهما في الانتفاء، إذ لو اكتفى البيانُ بالحميم لفُهم إمكانُ وجود الشّفيع وعدمِ انتفائِه، فجيءَ بالثّاني معطوفًا على الأوّل بالواو؛ للدّلالة على انتفائهما معًا يوم التّلاق.

### معنى (لا) في ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾:

النّفي بـ(لا) يمنع تـوهُّـمَ وجـودِ الـشّـفـيـع يـوم القيامة

(لا) في قوله: ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ حرفُ نفي، عبَّر به البيانُ ولم يكتف بـ ﴿مَا﴾ العاملةِ عملَ (ليس)؛ لتأكيد نفي وجود الشّفيع، كما تأكَّد نفيُ وجودِ الحميم، إذ من الممكن أن يُتَوهَّمَ وجودُ الشّفيع المُطاعِ إذا لم يتمّ التّعبير بـ (لا) الذي يمنع وجودَه في التّركيب هذا الاحتمالَ، وينفيه نفيًا قاطعًا لا حدودَ له أيضًا.

### نُكْتَةُ تقديم الحميم على الشّفيع:

الحميم يُبادر من غير طلب، أمّا الشّفيع فلا يُبادِر غالبًا إلّا بعد طلب

سبق القول بأنّ الحميم: هو القريب المُشْفِق الذي يَحْتَدُّ حمايةً لذَويه، ويكون من خاصّة الرّجل ومُحِبّيه[1]. والشّفيع: هو من يُلْتَمَس منه العَونُ والمساعدةُ[2]. وقدَّمَ النّظمُ الأوّلَ؛ لأنّه أكثرُ حرصًا وأشدُّ قُربًا، كما أنَّ مبادرتَه تكون من غير طلب، بخلاف الشّفيع الذي قد لا يُبادِر بالشّفاعة، ولا يقوم بها - غالبًا - إلّا بعد طلب.

### نُكْتَةُ وصفِ الشّفيع:

ذِكـرُ الصّفة في سـيـاق الـنّـفـي يُفيد انتفاءَها مَـرّتَـيْن، من وجهَين مختلِفَين

وصف النّظمُ الشّفيعَ في قوله: ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ بجملة ﴿يُطَاعُ﴾؛ ليكون النّفي شاملًا الموصوف والصّفة، وبه يتحقّق نفيُ الصّفة مَرّتين، إذ "يحتمل أن يكون المنفيُّ الشّفيعَ الذي هو الموصوف، وصفتَه وهي الطّاعة، ويحتمل أن يكون المنفيُّ الصفةَ وهي الطّاعة، والشّفيعُ ثابتٌ. قال ابن المُنَيِّر: "إنّما جاء الاحتمالُ من دخول النّفي على مجموع الموصوف والصّفة، ونفى المجموع، كما يكون بنفي كلّ

(1) الرّاغب، المفردات: (حمم).
(2) الرّاغب، المفردات: (شفع).

واحد من جُزئيه، وكذلك يكون بنفي أحدِهما، على أنّ المراد هنا نفيُ الأمرَين جميعًا، وفائدةُ ذِكْر الموصوف أنّه كالدّليل على نفي الصّفة؛ لأنّه إذا انتفى الموصوف انتفت الصّفة قطعًا، فكأنّه نفى الصّفة مرّتين من وجهين مختلفَين"[1].

### نُكْتَةُ بناء ﴿يُطَاعُ﴾ لما لم يُسمّ فاعلُه:

جيء بالمضارع: ﴿يُطَاعُ﴾ مبنيًّا لما لم يُسمَّ فاعلُه؛ للدّلالة على عدم قَبول شفاعةِ أيِّ أحدٍ من الشّافعين -إن وُجِدوا وطَلَبَهم الظّالمون للشّفاعة-؛ لأنّهم "يكونون في هذا اليوم محلَّ غضبِ الجميع ونقمتِهم؛ بسببِ ظُلْمِهم وإصرارِهم على كُفْرِهم باللّه ﷻ"[2]، وعدمِ طاعتِهمُ الرّسولَ المنذِرَ باقتراب يوم التّلاق.

الظّالمون يكونون محلَّ غضبِ الجميع ونقمتِهم يوم التّلاق

### بلاغة الكناية في قوله: ﴿يُطَاعُ﴾:

وَصْفُ ﴿شَفِيعٍ﴾ بجملة: ﴿يُطَاعُ﴾ كنايةٌ عنِ امتناع الشّفيع عن الشّفاعة؛ "لأنّه يعلم أنّه لو شفع ما أُطيعَ فهو لا ينفع، وقد يشفع في بعضهم بعضُ المُقَرّبين لعلامة فيهم، يحصل بها اشتباهٌ يُظَنّ بهم أنّهم ممّن يستحِقّ الشّفاعة، فيُنَبَّهُ على أنّهم ليسوا بذلك، فيبرأ منهم"[3].

الظّالمون تجاوزوا الحَدّ فلا تُقبل فيهم شفاعة الشّافعين

### فائدة الجملة الخبريّة:

اصطفى النّظمُ الأسلوبَ الخبريّ للتّعبير عن قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ﴾، بدلًا من النّهي عن الظّلم -الذي يعني الكفر- بصورة صريحة، لما يمتاز به من توجيه المخاطَبين إلى معاملته معاملةَ الخبرِ المقطوعِ بحصوله، المُؤكّدِ وقوعُه يومَ التّلاق من غير مناقشة ولا جِدال، كأنّه وقع فعلًا، وحصل حصولًا أكيدًا،

الأسلوب الخبريّ يمتاز بجمعه بين دلالة الخبر وفائدةِ الإنشاء

(1) ابن المُنَيِّر، الانتصاف من الكشّاف: 4/ 158.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 275.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 32.

كما أنّه يجمع بين النّهي عن الكفر، والإعلامِ بعاقبته، و بيانِ جزاءِ مُرتكبيه يومَ القيامة، وذلك أكثر تأثيرًا في الموعظة، وأنجعُ في الزّجر والنّهي.

## الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### الآزفة والحساب والبعث:

ألفاظٌ تصف يومًا واحدًا، لكن تختلف دلالتُها باختلاف سياقاتها

ثلاثتُها من أسماء يوم القيامة، لكنّ الأوّل روعيَ في تسميته شدّةُ الاقتراب والدّنو، بما يثير المخاطَبين إلى ضرورة الاستعداد له، وتركِ التّغافل عن التّوبة والتّسويف بها.

والثّاني: روعيَ في تسميته جزئيّةُ الحساب التي هي"أعظم ما يقع في يوم القيامة، وأشدّه وقعًا فى القلوب؛ لكونه الكاشف عن حال المرء"[1]، كما أنّ وقوع الحساب مُفصِحٌ عن تحقق القيام[2].

والثّالث: روعيَ في تسميته جزئيّةُ البعث، التي هي أوّل ما يحدث في القيامة، وكلّ ما فيه من أحداث وأهوال يأتي تبعًا لها، فمن أنكرها أنكر ما في يوم القيامة كلّه.

البعث والحساب واقعان لا ريب فيهما

ولمّا كان السّياق للإنذار باقتراب يوم التّلاق؛ بقصد تحذير النّاس بعامّة، ومُنكريه بخاصّة من الغفلة عنه، والتّسويفِ في التّوبة، والإقلاعِ عن الكفر الذي تبلغ قلوبُ فاعليه فيه حناجرَهم، وليس لهم من دون اللّه حميمٌ ولا شفيع؛ ناسبَ التّعبيرُ بـ ﴿يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾؛ لدلالته على شدّة الاقتراب، وحتميّةِ الوقوع، بجانب تأكّد حصولِ البعث والحساب والعذاب، وغيرِ ذلك ممّا أخبر القرآنُ بحصوله فيه.

(1) حقّي، روح البيان: 5/ 346.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 399.

## الحَنْجَرة والحُلْقوم:

الحَنْجَرَة: هي رأس الغَلْصَمَة من الخارج، ومعناها: فراغٌ مستطيلٌ كأنّه قناة، يمتد في جَوْفٍ كثيف، يقال له: الحُنْجورة والحَنْجَرة[1].

الحَنْجَرة رأسُ الغَلْصَمَة من الخارج، والحُلْقوم هو مجرى النّفس والسّعال

أمّا الحُلقوم: فهو مجرى النَفس والسّعال من الجوف، وهو أطباقُ غراضيف (جمع غضروف)، ليس دونَه من ظاهرِ باطنِ العُنُقِ إلّا الجِلْد، وطَرفُه الأسفل في الرّئة، وطَرفُه الأعلى في أصل عَكَدة اللّسانِ، ومنه مخرج النّفس والرّيح والبُصاق والصّوت، وأعلاه الحَنْجَرةُ، يليها إلى أسفل: القَصَبةُ الهوائيّةُ وشُعَبُها[2].

فَزَعُ الظّالمين يومَ القيامة لا حَدّ له

ولمّا كان السّياقُ لبيان أهوالِ يوم الآزفة وشدّته؛ كان التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡحَنَاجِرِ﴾ أنسبَ؛ لدلالته على أنَّ القلوب تنخلع من أماكنها، وتتحركُ صاعدةً لتصلَ إلى أبعد مدًى يمكن أن تصل إليه داخلَ القَصَبة الهوائيّة، وهو أمرٌ يجعل مَنْ يحصل له ذلك في حالة شديدة من الاختناق والألم، فلا هو يموت، ولا هو يستطيع التّنفُّسَ بسلاسة، فيكون فَزَعُه وكَرْبُه يوم التّلاق مُركَّبا.

## الحميم والشّفيع والوليّ والنّصير:

الحميم: هو القريب المُشْفِق الذي يَحتدُّ حمايةً لذويه، ويكون من خاصّة الرّجل ومُحبّيه[3].

انتفاءُ وجودِ الحميم والشّفيع يعني انتفاءَ وجودِ غيرِهما

والشّفيع: هو من يُلْتَمَس منه العَونُ والمساعدةُ[4]. والوليُّ: مَن يخلص في مَودّته ومحبّته. والنّصير: من يقوم بالمعونة والتّقوية، وقد لا تُمكن النُّصْرَةُ مَعَ حُصول الولاية[5].

(1) الرّاغب، مفردات القرآن، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حنجر).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حلقم).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (حمم).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (شفع).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 189.

ولمّا كان الحديثُ معقودًا لبيان أهوال يوم التّلاق الذي يتلاقى فيه الناسُ ويبصر بعضُهم بعضًا، ناسبَ نفيُ وجودِ (الحميم والشفيع) في هذا اليوم؛ لكونهما الأقرب والأحرص، لئَلّا يُتَوَهَّمَ وجودُهما أو وجودُ أحدِهما، وليُفهمَ من انتفائهما انتفاءُ وجودِ غيرهما من الأولياء والنّاصرين وغيرهم؛ لأنّ هذا اليوم لا ينفع فيه سوى الإيمان باللّه، واتّباعِ الرّسول المُنذِر باقترابه، والباقياتِ الصّالحات التي أكْثَر منها مَنْ أراد الاستعداد له.

﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: 19]

### ❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

إحاطةُ اللهِ بدواخلِ الصّدورِ سببُ عدمِ قَبولِه الشّفاعةَ في الظّالمين

بعد أن بيّنت الآيةُ السّابقةُ اقترابَ يوم التّلاق، ونفت وجودَ الصّديقِ الذي يهتم بأمر الظّالمين، والشّفيع الذي يشفع لهم، وتُسمع كلمتُه في شأنهم؛ ناسبَ أن توضّح هذه الآيةُ أنّ سببَ ذلك هو شمولُ عِلْمِ اللّه جميعَ أعمال خَلْقِه - بما فيهم الظّالمون - سواء ما كان من هذه الأعمال خافيًا وما كان ظاهرًا[1].

تيئيس الكافرين من خفاء أعمالهم على الله، بعد تيئيسهم من الحميم والشّفيع

ويمكن أن يُقال في المناسبة بينهما: إنّه بَعْدَ أنْ أيأسهم اللّهُ تعالى من شَفيع يَسْعَى لَهُم في عدم المُؤاخَذَة بذُنوبِهم؛ أَيْأَسَهُم مِنْ أَنْ يَتوهَّموا أنَّهُم يسْتَطيعونَ إخْفاءَ شَيْءٍ مِنْ نَواياهُم أَوْ أَدْنَى حَرَكاتِ أَعْمالِهِم عَلَى رَبِّهِم ﷻ[2].

### ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَآئِنَةَ﴾: (خون) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو التَّنَقُّصُ. يُقالُ: خانَهُ يخونُهُ خَوْنًا. وذَلِكَ نُقْصانُ الوفاءِ. ويُقالُ: تَخَوَّنَني فُلانٌ حَقّي؛ أيْ: تَنَقَّصَني[3]، والمعنى المحوريّ: نقصُ خطيرٍ - في خِفْيةٍ أو لُطفٍ - مِنْ باطِنٍ أو حَوْزَةٍ كان في داخِلِها، كذَهاب الحِدَّة مِنَ النّظَر، والقوّة من الرِّجْلَين، ومن ذلك: خَوْنُ الأمانة المادّيّة بانتقاصها، أو أخذِها في خُفيَة، كالسّرقة. ومن معنويِّه: خيانةُ العهود والمواثيق، فعدمُ الوفاء نقصٌ، قال تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: 10]؛ أي: انتقصتا حقَّهما بالكُفر[4]. وقولُه: ﴿خَآئِنَةَ﴾ يعني: ما انتقصتْه هذه الأعين.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 275.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 115.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خون).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خون).

2) ﴿ٱلصُّدُورُ﴾: (صدر) أَصْلانِ صَحيحانِ؛ أَحَدُهُما: يَدُلُّ على خلاف الورد، والآخر: صَدْرِ الإِنْسانِ، وهو الجارحة، وجَمعُهُ: صُدورٌ[1]، والمعنى المحوريّ: مُقَدّم جسم الشّيء أو أعلاه، الذي يبْدأ منه أضْخَمُه، كصدر الإنسان، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ٢٥﴾ [طه: 25][2]، وهو المعنى المراد هنا.

## المَعنى الإجْماليُّ:

حسابُ النّاس يـوم الـتّـلاق سيكونُ شاملًا مـا ظـهـر من أعمـالـهـم وما استتر

توضِّحُ الآيةُ الكريمة أنّ الله الذي يحاسب النّاسَ يومَ القيامة، يعلم الأعينَ الخائنة التي تسترق النّظر إلى المُحَرم، وتختلسه اختلاسًا حتّى لا يشعر بها أحدٌ من النّاس، ويعلم كذلك ما تُخفيه الصّدور من الرّغبات والحاجات والنّوايا، ما يفيد أنّه تعالى يعلم أيضًا ما يصدر عن الجوارح من سعي الرِّجْلين، وبطشِ اليَدَين، ونظرِ العينين، وسماعِ الأُذنين، وكلامِ اللّسان من باب أولى، وأنّه سبحانه لن يترك شيئًا من ذلك بدون حساب، ولا جزاء[3].

## الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### نُكْتَةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

لو عَلِمَ الشّفعاءُ ببواطن الأُمور، لَمَا أقدموا على الشّفاعة ولَمَا قاموا بها

جاءت جملة: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لأنّها تُجيب عن سؤال أثارته في نفس المتلقّي جملةُ: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ عن السّبب في عدم قَبول الشّفاعة في الظّالمين، فتأتي هذه الجملةُ لتوضّحَ أنَّ هؤلاء الشّفعاءَ لا يعلمون بواطنَ الأمور، ولو عَلِموها لَما أقدموا على الشّفاعة، ولَما قاموا بها؛ لأنَّ المشفوع له ليس أهلًا لأن يَشْفَعَ فيه أحدٌ[4]، ومن ثَمّ فُصِلت

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (صدر).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صدر).
(3) حجازيّ، التّفسير الواضح: 3/ 297.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 32.

عمّا قبلَها، كما يُفصل الجوابُ عن السّؤال، فيما يُعرف بشِبه كمالِ الاتّصال.

**نُكْتَةُ حَذْفِ فاعل ﴿يَعۡلَمُ﴾:**

لا قُدرةَ لأحدٍ على العِلمِ بخائنةِ الأعين وما تُخفيه الصّدورُ إلّا اللهَ تعالى

قولُه تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ جملة في محلّ رفعٍ، خبرٌ من أخبار ﴿هُوَ﴾ [غافر: 13] في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ﴾ [غافر: 13][1]، ويجوزُ أنْ تَكونَ خَبَرًا ثانيًا عَنِ اسْمِ (إنَّ) في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[2]، ويمكن أن تكون جملةً تعليليّة لا محلّ لها من الإعراب[3].

وأوثِر إضمارُ فاعل ﴿يَعۡلَمُ﴾، أو حَذْفُه منها للعِلم به، إذ من البَدهي أنّه لا قدرةَ لأحدٍ على العِلم بخائنة الأعين، ولا على الإحاطة بما تُخْفيه الصّدور من الأغراض والنّوايا إلّا اللّهَ جلّ في عُلاه، ما من شأنه أن يُزيل الشّكّ في قضائه، ويُؤكّد العدلَ في حسابه، وينفيَ الظّلمَ عن المُجازاة التي ستكون يوم التّلاق بأمره.

**دلالة التّعبير بالفعل المضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾:**

عِلْمُ اللهِ تعالى يتجدّد بتجدُّد النّظر

عبَّر النّظمُ الكريم عن اطِّلاع الحقّ سبحانه على خائنة الأعين وما تُخفيه الصّدور بالفعل: ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ لإفادته أنَّ هذا الاطلاع يكون على دقائق الأمور وتفاصيلها، جزئيّاتها وكليِّاتها[4]، وفي إيثار الفعل المضارع دلالةٌ على أنَّ علمَه تعالى وإحاطتَه يتجدّدان بتَجدّد النّظرة الخائنة، وتَعدُّد المقاصد والنّوايا التي تنطوي عليها صدورُ خَلْقه وقلوبُهم، ما يعني: أنَّ اللّهَ تعالى يعلمُ نظراتِ الأعين المُسْتَرَقَةَ وإن كَثُرت، ويحيطُ بما يدور في الصّدور مهما تغيَّر أو تلوَّن. ودلالةُ المضارع في مثل ذلك ونحوه لا تقف عند حدود تَجدُّدِ العِلْم به بتَجدُّدِ حدوثه؛ بل يدخل في هذه الدّلالة بقاءُ العِلْم، وعدمُ طُروءِ ما ينتقصه، تعالى اللّهُ عن كلّ ذلك.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 159.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 115.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانُه: 8/ 473.

(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 80، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 32.

**نُكْتَةُ إضافة ﴿خَآئِنَةَ﴾ إلى ﴿ٱلۡأَعۡيُنِ﴾:**

إضافةُ (خائِنَةَ) إلى (الأعْيُنِ) مِنْ إضافةِ الشَّيْءِ إلى آلَتِهِ

قولُه: ﴿خَآئِنَةَ﴾ مَصْدَرٌ مُضافٌ إلى فاعِلِه، فالخائِنَةُ مَصْدَرٌ على وزْنِ اسْمِ الفاعِلِ، مِثْلُ: العافيةِ لِلْمُعافاة، والعاقِبَة، والكاذِبَةِ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ [الواقعة: 2]، ويجوزُ إبْقاءُ ﴿خَآئِنَةَ﴾ عَلَى ظاهِرِ اسْمِ الفاعِلِ، فيكونُ صِفةً لِمَوْصوفٍ مَحْذوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ ﴿ٱلۡأَعۡيُنِ﴾، أيْ: يعْلَمُ نَظْرَةَ الأعْيُنِ الخائِنَة، ومَعْنَى: ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾: خيانَةَ النَّظَرِ، أيْ: مُسارَقَةَ النَّظَرِ لِشَيْءٍ بِحَضْرَةِ مَنْ لا يُحِبُّ النَّظَرَ إلَيْه. فإضافةُ ﴿خَآئِنَةَ﴾ إلَى ﴿ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ مِنْ إضافةِ الشَّيْءِ إلَى آلَتِه، كَقَوْلِهِم: ضَرْبَ السَّيْفِ[1]، وهذه الإضافة تدلُّ على أنّ الأعين تخون الآخرين وتغافلُهم بهذه النّظرة التي لا تُحِبُّ أن يلحظها أحدٌ، وكأنّها تُدْرِكُ خطأها عند القيام بها.

**بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾:**

اللهُ تعالى مُحيطٌ بالنَّظْرَةِ المُخْتَلَسَةِ التي هي أخفى الأفعالِ الظّاهرة

في قوله تعالى: ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ استعارةٌ مكنيّةٌ، شُبِّهَ فيها الجَليسُ بالحَليفِ، في أنَّهُ لَمّا جَلَسَ إلَيْكَ أوْ جَلَسْتَ إلَيْهِ فكأنَّهُ عاهَدَكَ على السَّلامَةِ، ألا تَرَى أنَّ المُجالَسَةَ يتَقَدَّمُها السَّلامُ، وهو في الأصْلِ: إنْباءٌ بالمُسالَمَةِ، فإذا نَظَرْتَ إلى آخَرَ غَيْرِكُما نَظَرًا خَفيًّا؛ لإشارَةٍ إلى ما لا يُرْضي الجَليسَ مِنِ اسْتِهْزاءٍ أوْ إغْراءٍ، فكَأنَّكَ نَقَضْتَ العَهْدَ المَدْخولَ عَلَيْهِ بَيْنَكُما، فإطْلاقُ الخيانَةِ على ذَلِكَ تَفْظيعٌ لَهُ، ويتَفاوتُ قُرْبُ التَّشْبيهِ بِمِقْدارِ تَفاوُتِ ما وقَعَتِ النَّظْرَةُ لأجْلِهِ في الإساءَةِ وآثارِ المَضَرَّةِ[2]. ويمكن أن يُقال: شُبِّهت الأعينُ بإنسانٍ يختلس النّظر إلى شيءٍ لا ينبغي له النّظرُ إليه، بجامع الفضول والرّغبة في معرفة هذا الشّيء بأيّ شكلٍ من الأشكال، ثمّ حُذِف المُشبَّهُ به، ورُمِز إليه بشيءٍ من لوازمه وهي الخيانة، على سبيل الاستعارة المَكنيّة التي توَضِّح

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 116.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 116.

قُدرةَ اللّه تعالى على الإحاطة بهذا الفعل، الذي هو "أخفى الأفعال التي يقوم بها الإنسانُ من الأعمال الظّاهرة"[1].

**معنى (ألْ) في ﴿ٱلۡأَعۡيُنِ﴾:**

**اللـــه تـعـالى عــالِــمٌ بـمـا تُخفيه النّفوسُ وتـخـتـلـسُـهُ الأنظار**

(ألْ) في ﴿ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ لتعريف الجنس، ما يعني أنّ اللّه تعالى يعلم خائنةَ أعينِ الخلائق كلّهم بلا استثناء، مَن خانَ منها متى خان، ويدخل فيهم الظّالمون دخولًا أوّليًّا بُرهانيًّا، ويمكن أن تكون لتعريف العهد، والمُراد بها: أعينُ النّاس التي عُهِد منها الخيانة، ويختلسون بواسطتها النّظرَ إلى ما لا ينبغي لهم النّظرُ إليه.

**نُكْتَةُ جمعِ ﴿ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ جمعَ قِلّة:**

**عِلمُ اللهِ تعالى بالكثير، كعِلمِه بالقليل تمامًا بتمام**

عَدلَ النَّظْمُ عن جمع الكثرة إلى جمع القِلّة لمجموع أمور؛ منها: أنّ القرآن كتابُ حقٍّ وصدقٍ، والأمر هكذا في الواقع؛ فجاء به القرآنُ مُطابقًا له، فإنَّ غَضّ البصر المتضمّنِ الاجتنابَ التّامَّ لهذه الخيانةِ هو خُلُق فطريٌّ كريمٌ، لا يفتقر إلى تشريع يُلْزِمه، وقد كان العربُ في الجاهلية يحفظونه ويُؤدّونه. والحقيقة أنَّ الكلَّ عليه ﷻ هيّنٌ، لا صعوبةَ فيه، وأنّ الكثير عندَه في ذلك قليلٌ[2].

**فنُّ الفرائد في قوله: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾:**

**(خائِنَةَ الأعْيُنِ) من الفرائد التي لها في النّفوس وقـع، بحيثُ لا يـمـكـن الإتـيـانُ بمثلها**

في قوله: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ فنُّ الفرائد، وهو من فنون البديع، المُختصّ بالفصاحة دون البلاغة؛ فلفظة ﴿خَآئِنَةَ﴾ بمفردها سهلةٌ مستساغة كثيرةُ الجَرَيان على الألسن، فلمّا أُضيفت إلى ﴿ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ حصل لها من غرابة التّركيب ما جعل لها في النّفوس هذا الوقعَ، بحيثُ لا يُتاحُ الإتيان بمثلها، ولا يكاد يقع ذو فكر سليم وذِهن مستقيم على شِبهها، وقد شَغَلت هذه الكلمةُ كبارَ العلماءِ وأربابَ الفصاحة، فقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: "هو الرّجل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 33.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 33.

يكون جالسًا مع القوم، فتَمرُّ المرأةُ فيسارِقُهم النّظرَ إليها"، وقيل: "هي مسارقة نظر الأعين إلى ما قد نهى اللّهُ عنه"، وقيل: "هي قول الإنسان ما رأيتُ وقد رأى"، وقيل: "إنّه الرّمزُ بالعين"، وقيل: "هو النّظرة بعد النّظرة"، وقيل: "﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾: هي النّظرة الثّانية، ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾: النّظرة الأولى"، وقال ابن عبّاس: "وما تخفي الصّدور؛ أيّ: هل يزني بها لو خلا بها أو لا"، وقيل: "وما تخفي الصّدور: تُكِنُّه وتُضمِرُه"[1].

## مَغْزى إفرادِ ﴿خَآئِنَةَ﴾ مع جمع ﴿ٱلۡأَعۡيُنِ﴾:

**الـتّرهـيـب من سـوء الـخُـلـق بتشديد العقوبة مَلْمَحٌ قرآنيٌّ في التّربية**

ربما بدا للبعض أنّ جمع ﴿ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ يُناسبه جمع مُضافه ﴿خَآئِنَةَ﴾، التي إن جُمعت جمعَ تصحيحٍ لمؤنث على (خائنات) لم يخرج ذلك عند إفادة القِلّة في جملتنا هنا على مذهب سيبويه الذي يرى ذلك أصلًا، أو على مذهب ابن مالك والجمهور الذين يرون اعتبار الملاءمة للمقام، فيما تُفيده جموعُ السّلامة من قِلّةٍ أو كَثْرة، وأنَّ إيراد العبارة بجمع المُضاف لا يمنع فهمَ الإفرادِ من المَغْزى، وقد عدلَ التّنزيلُ العزيز عن ذلك إلى نَصِّه الحكيم؛ ليُضفيَ على العين الخائنة نعوتًا من الوقاحة والاستغفال، واستمراءِ التّسبّب في إيذاء الخَلْق.

**الـخـائـنُ صيدٌ ثمين لأنّه يكون مفردًا**

وذلك الإفراد مُؤذِنٌ أيضًا بترهيب الخائن، أنّه وقد أُفرد بات صيدًا ثمينًا لِمَنْ يترصدُه ويلحظُه، ويطَّلعُ على تَلَصُّصِه واستراقه؛ فإنّ الوَحْدَة نذيرُ شُؤم عليه، تكاد تُنبئ عن فَضْحِه وإمساكه مُتَلبّسًا بجُرْمه، وهي مَظِنّةُ كثرةِ الشّهود عليه، وتهيّؤُ الشّهادة لهم بمعاينتهم إيّاه، إذ لم يشغلهم عنه شاغلٌ، أو يتوزعْهُم عنه صارفٌ مُلِمٌّ، ففيه ترهيبٌ بعيدُ المدى، وذلك شأنُ كلِّ مَنْ لم يَخَفِ اللّهَ، يُخيفُه الخالقُ من بعض خَلْقِه؛ استهزاءً به وكيدًا له. ومثلُ هذا التَّخيُّر الحكيمُ

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 475.

في الأساليب ممّا يوِرثُ خشوعَ العقول والألباب، كما يُلْزِمُ خضوعَ الأصلابِ والأعناق لهذا القرآن مثابةً ومهابةً.

### سِرُّ إيثار تأنيث ﴿خَآئِنَةَ﴾ دون تذكيرها:

الخائنُ مغموزُ الرُّجوليّة، مَغموصٌ عليه في الشَّخصية

عمد البيانُ القرآنيُّ إلى نبذ خائن الأعين بتأنيث لفظه بالتّاء؛ لتَتَردَّدَ العِلّة في ذلك بين إفادات مُرادة مُفهِمَة؛ منها: إرادةُ تقبيحِ الخيانة وتبشيعِها، والهَوْيِ بها في أسفل دَرْكٍ، فإنّ الخيانة من الأنثى أقبحُ، والخائنَةَ أوقعُ. ومنها: أنّ خائن الأعين مغموصٌ عليه في قوّة شخصيّتِه واستقلالِ إرادتِه، من حيثُ جُبنُهُ عن الظّهور بما يخشى من افتضاح دخيلته واتّضاح جليَّته، فهو كالمنافق، في قلبه مرضٌ، وفي عقله غرضٌ، وفي نفسه حَرَضٌ، فهو هاوِ غِوايةٍ وغاو هواية. ومنها: أنّ اعتبار التّاء للمبالغة قاضيةٌ بأنّه ما وشَمَه هذه الوَشْمَة، ولا وصَمَه هذه الوَصْمَة، إثرَ إلفِه الخيانة، بأن مَرَدَ عليها استحبابًا للعَمى على الهدى، ولولا هذا ما فضحَهُ اللّهُ ﷻ.

بابُ التّوبة مفتوحٌ أمامَ الجاني؛ فإن تاب وأناب قبله الله

ومنها: أنّ التّاء قد تأتي لإفادة التّلبُّس بالفعل، كما في قوله تعالى: ﴿تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ [الحَجّ: 2]، فيكون إيرادُها أفاد معنى أنّ الجاني بجنايته، فإن تاب وأصلح قُبِلَ منه، فيكون ذلك إغراءً خفيًّا لطيفًا بالتّوبة والأوْبة من الحَوْبَة؛ وذلك مَقْصِدٌ صحيح، وغرضٌ مَليح، وذلك كلّه جارٍ على عادة القرآن في ثراء البيان، والدّلالة على المُضادّات الكثيرة، والمعاني الكبيرة.

### معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾:

عطفُ أخفى أفعال الباطن على أخفى أفعال الظّاهر

جيء بقوله: ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ معطوفًا على قوله: ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ بالواو التي تفيد الاشتراكَ في الحُكم؛ للدّلالة على دخولهما معًا في عِلْم الله تعالى وإحاطتِه، فبعد أن ذَكَر سبحانه أَخْفى أفعالِ

الظّاهر، أتبَعَه أخْفى ما في الباطن[1]؛ ليَعْلَمَ الظّالمون وغيرُهم أنّ الحساب يوم التّلاق سيكون شاملًا عادلًا خاليًا من الظّلم.

### معنى (ما) وموقع الجملة بعدَها:

عِلْمُ الله تعالى متحقّقٌ مُتجدّدٌ، فهو يعلم ما تُخْفيه الصّدور

(ما) في قوله: ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ اسمٌ موصولٌ في محلّ نصب عطفًا على ﴿خَآئِنَةَ﴾، والجملةُ بعدَه لا محلّ لها من الإعراب صِلةُ الموصول، وفي التّعبير به دلالةٌ على أنّ اختلافَ الأزمنة غيرُ مُؤَثّر فيه ﷻ، فإنّه لا يَتَجدَّد له عِلْمٌ لم يكن يعلمُه، فهو سبحانه يعلم ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وعلمُه تعالى أزليٌّ سابق قديم.

### دلالة التّعبير بالفعل المضارع ﴿تُخۡفِي﴾:

عِلْمُ اللهِ بما في الصّدور يتجدَّد بتجدُّد الإخفاء

آثَر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل ﴿تُخۡفِي﴾ مضارعًا؛ لدلالته بمعناه وزمانه على تجدُّد عِلْم اللّه تعالى، بما يتجدَّد إخفاؤه وإضماره في صدور خَلْقه، من النّوايا والأغراض والظّنون على اختلاف أنواعها، وأوقاتِها، والأسبابِ الباعثةِ عليها.

### نُكْتَةُ حَذْفِ متعلّق ﴿تُخۡفِي﴾:

عِلْمُ الله تعالى شاملٌ كلَّ ما تُخفيه الصّدورُ من الخير والشّرّ وغيرِهما

آثَر النّظمُ حذفَ متعلّقِ فعلِ الإخفاء ﴿تُخۡفِي﴾؛ لما يفيده الحَذْفُ من عموم العِلْم وشُمولِه كُلَّ ما يخفيه الخَلْق في صدورهم، إخفاءً جِبلّيًّا أو مُتعَمَّدًا من الخير والشَّرِّ، والحُبّ والبُغْضِ، والنَّفع والضَّرِّ، والحسناتِ والسّيِّئات، وكلِّ ما يدور بالخواطر والأنفس ممّا قد يَظُنُّ الإنسانُ أنه لا اطّلاع لأحدٍ عليه، ولا يمكن الإحاطةُ به.

### معنى (ألْ) في ﴿ٱلصُّدُورُ﴾:

الله تعالى يعلم ما في صدور خَلْقِه أجمعين بلا استثناء

(ألْ) في ﴿ٱلصُّدُورُ﴾ لتعريف الجنس، وهي تعني: أنَّ اللّه يعلم ما في صدور الخلائق كلِّهم بلا استثناء، ويدخل فيها صدورُ الظّالِمين

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 33.

دُخولًا أوّليًّا برهانيًّا. ويمكن أن تكون لتعريف العهد، والمراد بها: صدورُ أولي خائنةِ الأعيُنِ، ومِن ثَمَّ يحصُل منهم التّأنّي في الأقوال والأفعال والمقاصد والنَّوايا.

**بلاغةُ المجاز في التّعبير بـ ﴿ٱلصُّدُورُ﴾:**

التّعبير بـ ﴿ٱلصُّدُورُ﴾ فيه مجازٌ مرسلٌ علاقتُه المحليّةُ، حيثُ أطْلَق النّظمُ المحلَّ وهو الصّدور، وأراد الحالَّ وهو القلوب؛ لأنّ القلوبَ هي التي تنبض بالحركة، وهي التي تُضمر وتُخفي الأغراضَ والمقاصدَ والنّوايا، ولكنَّ البيانَ عدلَ في تعبيره عنها إلى ﴿ٱلصُّدُورُ﴾؛ لما يدلُّ عليه من السّعة والإحاطة والاحتواء، ما يعني: أنّ اللّه تعالى يُحيط بما في الصّدور كما يُحيط الوعاءُ بما فيه، ويَحفظُه كما تَحْفَظُ الصُّدورُ والأوعيةُ القلوبَ والأشياءَ بداخلها.

الـلــه تـعـالى يـحـفـظ مـا في الـصّـدور، كما تحفظ الصّدورُ ما فيها

وثَمَّةَ وجهٌ آخرُ، كأنّه يريد أن يقول: إنّ القلوب لمّا أُشربت ما أودِعَ فيها، فاستحبَّتْهُ ودأبت عليه وبلغَ شغافَها، تقلّبَت القلوبُ حتّى صارت هي وما أودِعَ فيها كالشّيء الواحد، كأنّ القلوبَ المودَعةَ ما فيها صارت هي وما فيها ودائعُ بالصّدور؛ فمن ثَمّ ناسبَ أن يُنسب الإخفاءُ إليها، ونسبةُ الإخفاءِ إلى الصّدور دالّةٌ على أنّ القرآن من عند اللّه، والقرآنُ الحكيم يُصَدّق بعضُه بعضًا، وهذه الآية مُصدِّقةٌ مُصدَّقةٌ، ودليلٌ على أنّ القرآن من عند اللّه وحدَه: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النّساء: 82]. وهذا يحمل في طيّاته البِشارةَ والتّرغيبَ للمؤمنين، والنّذارةَ والترهيبَ للمُنْكِرين، إذ ثَبتَ صدقُه وحَقُّه، وأنّه من عند اللّه تعالى.

القرآنُ الحكيم يُـصـدِّق بعضُه بعضًا

**بلاغة الاستعارة في جملة: ﴿تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾:**

يَصِحّ أن يكون في جملة: ﴿تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ استعارةٌ مكنيّةٌ، شُبّهت فيها الصّدورُ بإنسان يَجِدُّ ويَجتهد في إخفاء الأمور التي لا يحبُّ أن يَطّلِعَ غيرُه عليها، ثُمّ حُذِف المُشَبّه به، ورُمِز إليه بالإخفاء الذي هو

صـدورُ الـنّـاس مـمـلـوءةٌ بما لا طـاقـةَ لأحـدٍ بمعرفته إلّا الله

من لوازمه، على سبيل الاستعارة المكنيّة، التي تُؤكّد أنّ صدورَ النّاس مملوءةٌ بما لا طاقةَ لأحد بمعرفته إلّا اللّه.

### الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

#### الصُّدور والقلوب:

الصّدرُ يعني العقلَ وسائرَ القِوَى، والقلبُ يعني العقلَ والعِلْم

الصّدْر: الجارحة، ويُسَمّى به مُقَدَّمُ جسمِ الشّيء أو أعلاه، الذي يبْدأ منه أضْخَمُه، كصدر الإنسان، وصدرِ السّهم، وصَدرِ الوادي، ومن ذلك قالوا: صَدْرُ كلّ شيء أوّلُه، ويأتي بعدَه سائرُه[1].

والقَلَبُ: خالِصُ كُلِّ شَيْءٍ وشَريفُه[2]، وهو باطنُ الشّيء ولُبُّه، ومنه المُضغةُ المعروفة؛ لأنّها أهمّ ما في الباطن وأقواه[3]. قال بعض العلماءِ: حيثما ذَكَر اللّهُ (القلبَ) فإشارةٌ إلى العقل والعِلْم؛ نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]، وحيثما ذَكَر (الصّدْرَ) فإشارةٌ إلى ذلك وإلى سائر القوى؛ من الشّهوة، والهَوى، والغضب ونحوها، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحَجّ: 46]؛ أي: العقول التي هي مُندَسّة فيما بين سائر القوى، وليست بمهتدية[4].

القلوب أوعيَةٌ لما لا يعلمُهُ إلّا العليمُ بها سبحانَه

ولمّا كان مقصودُ الآيةِ الكريمة الإعلامَ بسعَةِ عِلْم اللّه ﷻ وإحاطتِه بالنّوايا والمقاصدِ والشّهوات وغيرها ممّا يخفى على النّاس؛ ناسبَ التّعبيرُ بلفظ ﴿ٱلصُّدُورُ﴾؛ لأنّها مجمَعُ ذلك ومستقرُّه.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صدر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قلب).
(4) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 392، 393.

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٢٠﴾ [غافر: 20]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

القضاء بالحقّ يوم التّلاق مَردُّه إلى الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصّدور

بعد أن بيَّنت الآيةُ السّابقةُ أنّ اللّه يعلم خائنةَ الأعين وما تخفي الصّدور؛ ناسبَ أن تُبَيِّن هذه الآيةُ أنَّ القضاء بالحقّ في يوم التّلاق مَردُّه إلى الذي يعلم ذلك، وأنَّ الذين يُعْبَدون من دونه ليس لهم من الأمر شيءٌ في هذا اليوم ولا في غيره؛ تعظيمًا للّه، وتخويفًا من الشّرك به، وتحقيرًا لمن يُعْبَدون من دونه وتهوينًا(1).

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَقۡضِي﴾: (قضى) أَصْلٌ صَحيحٌ يدُلُّ عَلَى إِحْكام أمرٍ وإتْقانِهِ وإنْفاذِهِ لِجِهَتِه، قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصّلت: 12]؛ أيْ: أَحْكَمَ خَلْقَهُنَّ، والقَضاءُ: الحُكْمُ. قال سبحانَهُ: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ [طه: 72]؛ أي: اصْنَعْ واحْكُم، وسُمّي القاضي: قاضيًا؛ لِأَنَّهُ يُحْكِمُ الأَحْكامَ ويُنْفِذُها(2)، وهذا هو المعنى المقصود في الآية.

2) ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾: (حق) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو يدُلُّ على إحْكام الشَّيْءِ وصِحَّتِهِ، يُقالُ: حَقَّ الشَّيْءُ: وجَبَ، والحَقّ: نقيضُ الباطل(3)، والحقّ: الشّيء الثّابت الرّاسخ المتمكّن، بشريعة صحيحة أو عُرفٍ عامٍّ مسلَّم، وقد يُفسَّر بالعدل، وكلُّ ما كان في سياق حُكْم أو قضاء أو فَصْلٍ كذلك(4)، والأخير هو المعنى المراد هنا.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 248، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 275.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حقق).

3) ﴿دُونِهِۦ﴾: (دون) أَصْلٌ واحِدٌ يدُلُّ على المُداناةِ والمُقارَبَةِ. يُقالُ: هَذا دونَ ذاكَ؛ أيْ: أَقْرَبُ مِنْهُ، ودون: نقيضُ فوق[1]، والمعنى المحوريّ: كَوْن الشّيء منخفضًا في أسفل شيء، ويقال للقاصر عن الشّيء: دون، وقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ﴾ [آل عمران: 118]؛ أي: ممّن لم تبلغ منزلتُه منزلتَكم في الدّيانة، ويستعمل بمعنى (غير)، كقوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المائدة: 116]؛ أيْ: غير اللّه[2].

## المَعْنى الإجْماليُّ:

الـلـه تـعـالى يـقـضي بـالـحقّ لأنّــه السّـميع البـصير، وغـيرُه ليس كذلك

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمة أنَّ اللّهَ تعالى يقضي بين عباده قضاءً ملتبسًا بالحقّ الذي لا يحوم حولَه باطلٌ، وأنَّ الآلهةَ التي يعبدها الكفارُ من دونه لا يقضون بشيء أصلًا؛ لأنّهم لا يعلمون شيئًا، ولا يقدرون على شيء، فهم أعجزُ وأتفَهُ مِن أن يُلتفت إليهم، ثمّ تُؤكّد الآيةُ أنَّ اللّه تعالى هو السَّميعُ لكلّ شيء، البَصيرُ بكلّ شيء، فلا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء[3].

## الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### معنى الواو في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾:

عِلْمُ الله تعالى خـائـنـةَ الأعـين ومـــا تـخـفـي الصدورُ يُؤكِّد أنّ قضاءَه لا يكون إلّا بالحقّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾ يمكن أن تكون لعطف ما بعدها على ما سبقها؛ استكمالًا لما يتعلّق بيوم التّلاق، والذي منه أنَّ اللّه تعالى يحاسب النّاس على أعمالهم الخافية والظّاهرة، ويقضي بينهم فيها قضاءً عادلًا مُلتبسًا بالحقّ الذي لا يشوبه أدنى باطل. ويجوز أن تكون الواو للحال والجملة بعدَها حاليّة[4]، تدلّ على أنّ حال اللّه تعالى

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (دون).

(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دون).

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 276.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 33.

الدّائمة التي لا تتبدّل ولا تتغيّر في الدّنيا ولا في الآخرة أنّه يقضي بالحقّ والعدل بين خَلْقه جميعًا. ويمكن كذلك أن تكون الواوُ استئنافيّة، جيءَ بها للتّنبيه إلى أنَّ عِلْمَ اللّه تعالى خائنةَ الأعين وما تخفي الصّدورُ يُؤكّد أنّ قضاءَه لا يكون إلّا بالحقّ الذي لا يشوبُه باطلٌ أبدًا.

## نُكْتَةُ إظهار اسم الجلالة بعد إضماره:

اسم الله العَلَم يُشعِر بما يقتضيه المُسمَّى به من صفات الكمال والجلال

كانَ مُقْتَضَى الظّاهِرِ أَنْ يُؤْتَى بجُملَةِ: ﴿يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾ مَعْطوفةً بالواوِ عَلَى جُملَةِ: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾، فيُقالُ: (ويقْضي بالحَقّ)، ولَكِنّ النّظم عَدَلَ عَنْ ذَلِك، فأظهر اسمَ الجلالة في موضع الإضمار؛ لِما في الاِسْمِ العَلَم للّه تَعالَى مِنَ الإشْعارِ بما يقْتَضيهِ المُسَمَّى بِهِ مِنْ صِفاتِ الكَمالِ، الَّتي مِنْها العَدْلُ في القَضاءِ(1).

## دلالة تقديم المُسنَد إليه على الفعل:

قضاءُ الله تعالى بين خَلْقِه بالحقِّ أمرٌ مؤكَّدٌ لا شَكَّ فيه

في جملة: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾ قُدِّم المُسنَد إليه: (اللّه) على الخبر الفعلي: ﴿يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾؛ لتقوية وتأكيد أنّ اللّه تعالى يقضي بين خَلْقه بالحقّ، كما أنَّه لا يُؤاخِذ النّاس إلّا على ما صدر منهم من أعمال، ظاهرةً كانت أو خافيةً، لأنّه سبحانه يعلم خائنةَ أعينِهم، ويعلمُ كذلك ما تُخْفيه صدورُهم، ولا يخفى عليه شيءٌ منهم، ولا من غيرهم.

## دلالة التّعبير بالفعل المضارع: ﴿يَقۡضِي﴾:

قضاءُ الله تعالى صادرٌ عن عِلْم وإدراك لطبائع الخَلْق، وإحاطةٍ بما في نفوسهم

عبّر النّظمُ عن المسند بالفعل: ﴿يَقۡضِي﴾ مُضارعًا، لما يُفيده بزمانه من تجدّد قضاء اللّه تعالى بالحقّ في كلِّ شأنٍ من شؤون خَلْقه، وعدمِ اقتصار ذلك على أمر دون أمر، أو حالٍ دون حال، ولما يفيده ببنائه المنتهي بحرف الياء من أنّ قضاءَه تعالى صادرٌ عن عِلْم وإدراك لحقائق الخَلْق، وإحاطةٍ بطبائعهم وما يَعْتَمِل في نفوسهم، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: 14].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 117.

### دلالة تجريد الفعل ﴿يَقۡضِي﴾ من المهلة والاستقبال:

لا أمانَ لخائنة الأعين وذوي الصّدور المنطوية على الشّرّ من مَكْر الله

أفهمت الآيةُ بتجرُّدها من حروف الاستقبال في الفعل ﴿يَقۡضِي﴾ أنّ هذا القضاء حالٌ حاضر، فيدخل فيه كلّ ما يَعرِض من محن وشدائدَ وأهوالٍ ومصائبَ، كالخوف والجوع والنّقص في الأموال والأنفس والثّمرات، إذًا فلا أمانَ لأحد أن يُؤخَذ بجريرته بالعقوبة البيّنة، أو بالاستدراج المَخوف؛ فإنّ معافاة الظّلمة ليست إلّا إملاءً لهم حتّى يغتالَهم الكيدُ الإلهيُّ.

### نُكْتَةُ حذفِ متعلّق ﴿يَقۡضِي﴾:

قـضـاء الـلـه تـعـالى يشمل كلَّ ما يصدر عن خَلْقه من أقوال وأفعال

حُذِف متعلّق ﴿يَقۡضِي﴾؛ لما يُفيده الحَذفُ من عموم المعنى، وشمولِه كلَّ ما يصدر عن النّاس من أقوال وأفعال، خيرًا كانت أو شرًّا، ظاهرةً كانت أو باطنةً، قليلةً كانت أو كثيرةً، سِرًّا كانت أو علانيَةً.

### معنى الباء في ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾:

قضاء الله تعالى بالحق أمرٌ دائمٌ لا يـتـغـيَّرُ ولا يتبدَّلُ

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾ الباء في ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ حرفُ جَرّ، قد يُفيد الإلصاق أو الملازمة، ما يعني: أنَّ قضاء اللّه تعالى بالحقّ أمرٌ دائمٌ لا يتغيَّرُ ولا يتبدَّلُ، مهما كان الأمر المَقضي فيه، وأيًّا كان الخَلْقُ المَقضي في شأنهم. ويحتمل أن تكون الباء للعوض، بمعنى إعطاءِ كلّ ذي حَقّ حقّه، توفيةَ أجورٍ، واقتصاصًا للبعض من بعض آخر، حسناتٍ وسيّئات، وزيادةَ فضلٍ من المولى ﷻ.

### معنى (ألْ) في ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾:

الـلـه تـعـالى لا يقضي إلّا بالحق المُتعارف على أنّه نقيض الظّلْم

(ألْ) في ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ لتعريف العهد، ما يعني أنّ اللّه تعالى لا يقضي إلّا بالحقّ المتعارفِ عليه، الذي هو نقيض الظّلم، والذي لا يُماري فيه أحدٌ أو يُجادل، "لِأنَّ الحاكِمَ إذا كانَ عالِمًا بجَميعِ الأحْوالِ، لا يقْضي إلّا بالحَقِّ في ما دَقَّ وجَلَّ"(1).

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 248.

### معنى الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ لعطف ما بعدَها على جملة: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾، جريًا على عادة البيان في القرن بين الحديث عن اللّه، والحديثِ عمّا يَعبُدهمُ الظالمون من دونه، لما يمتاز به هذا الأسلوب من إظهار الفوارق بين المُتعاطفات، وتمييز الحقّ من الباطل، والحسنِ من القبيح. والضّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَه الضّدُّ.

الــقَــرْنُ بين الأضـداد يُظهِرُ الــحــقَّ مـن الباطل، ويُمَيِّزُ الـصّـواب من الخطأ

### غرض التّعبير بالاسم الموصول وصلتِه:

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ اسمُ موصولٍ في محلّ رفعٍ مبتدأ، وقوله: ﴿يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ جملةٌ لا محلّ لها من الإعراب صلةُ الموصول، وقوله: ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾ جملةٌ في محلّ رفعٍ خبرُ الموصول، وعبَّر النّظمُ عن المُسنَد إليه بالاسم الموصول الموضوعِ للعاقل تهكُّمًا بالمشركين، وازدراءً لهم؛ حيثُ أقاموا آلهتَهم مقامَ العقلاء، وأنزلوها منازلَهم، وليتوصَّل بما في حَيّزه من الصّلة إلى ذَمّ الظّالمين، وبيانِ مدى تجاوزِهم وضَلالِهم في اتّخاذِهم آلهةً لا تقضي بشيء، ولا تملكُ من أمر نفسِها ولا من أمر مَنْ يعبدونها أدنى شيء.

المــشــركــون أقاموا آلهتَهم مقامَ العُقلاء، وأنــزلــوهــا منازلَهم

### نُكْتَةُ التّعبير بالمضارع ﴿يَدۡعُونَ﴾:

في جملة الصّلة عبَّر البيانُ الكريمُ بالفعل ﴿يَدۡعُونَ﴾ مضارعًا؛ لما يُفيدُه من تَجدّد دعوةِ الكفّارِ الآلهةَ المزعومة، وإصرارِهم على اتّخاذها آلهةً من دون اللّه سبحانه، يُزاد على ذلك ما يمتاز به المضارع من استحضار صورةِ المشركين وهم يعبدون آلهةً لا حولَ لها ولا قوّةَ، ويتوسّلون إليها بالدّعاء، ويجأرون إليها طالبين العَونَ والمساعدةَ، في حين أنّها أعجزُ من أن تُجيبَهم في ذلك بأيِّ شيءٍ.

الآلهةُ المزعومةُ أعــجــزُ مـن أن تقضـــيَ للمشركين بأيِّ شيءٍ

### توجيه القراءات القرآنيّة في ﴿يَدۡعُونَ﴾:

قُرِئَ قَولُه: ﴿يَدۡعُونَ﴾ بأكثر من قراءة، فقَرَأَهُ الجُمهورُ: ﴿يَدۡعُونَ﴾

في الالتفات قرعٌ لأسماعِ المُخاطَبين، وحثُّهم على التّفكُّر فيما هم عليه

بياءِ الغيبَةِ، جَرْيًا على الظّاهِرِ، وليُناسبَ الفعلُ الضَّمائرَ الغائِبَةَ قَبْلُ، وقَرَأ نافع وهشام وابن ذكوان بخلفه: ﴿تَدۡعُونَ﴾[1] بتاءِ الخِطاب، وفيها التفاتٌ من الغَيْبَة إلى الخطاب، يُنبّه المخاطَبين ويقرعُ أسماعَهم[2]، ويَحُثُّهم على التّفكّر في الآلهة التي يدعونها من دون اللّه، ويدعوهم للتّأمل في حالهم وهم يدعونها فلا تستجيب لهم، على معنى: "قل لهم يا محمد ﷺ: الذين تدعون أيها المشركون من دونه ..."[3].

### معنى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن دُونِهِۦ﴾:

كلُّ ما عُبِدَ من دون الله تعالى باطلٌ

أفاد حرف ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ الابتداءَ، أي: ابتداءً ممّا هو دونَ اللّه تعالى، فإنَّ المشركين اتّخذوا الآلهةَ ليَعْبدوها ممّا هي دونَ اللّه سبحانه. ويمكن أن تكون ﴿مِن﴾ بيانيّة، تُفيد أنَّ كلَّ مَنْ عَبَد غيرَ اللّه هو (دون اللّه) تعالى عن الشّبيه والنّظير.

### نُكْتَةُ اختيار لفظ ﴿دُونِهِۦ﴾ مضافًا إلى الضّمير:

نظرُ المُشركِ قاصِرٌ، وفِكْرُه عن بلوغ الحقِّ حاسِر

دلَّ التّعبير بقوله: ﴿دُونِهِۦ﴾ على أنَّ كلَّ معبودٍ هو دونَ المعبودِ الحقِّ سبحانه، وأنَّ نظر المشركين إنّما كان لما هو دونَ اللّه، فنظرُهم قاصرٌ، وفِكْرُهم حاسِرٌ، وقد أُضيفَ إلى ضمير الغَيْبَة العائدِ على اللّه؛ للتّأكيد على أنّها مخلوقاتٌ دونَ عُلوِّ اللّه تعالى في حُكمه وقضائه ومُلكه، وأنَّ مَن أراد الرّفعة والسّعادة في يوم التّلاق، فليَبْتَعِدْ عن طريق الدّون، ولْيَتَّجِه صوبَ الحَقّ سبحانه؛ لينالَ التّقدير والثّواب.

### فائدةُ استعمالِ أداة النّفي ﴿لَا﴾:

عبّر النّظم في جملة الخبر ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾ بأداة النّفي ﴿لَا﴾، ليشملَ الحاضرَ والمستقبل، ولو قال: (لم يقضوا) لاقتصر على الماضي فقط، والمرادُ شمولُ الزّمان كلِّه.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 248، وابن الجزري، النشر: 2/ 364.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 118.
(3) مكي، الكشف: 2/ 242.

### دلالة التّعبير بالمضارع المنفيّ ﴿لَا يَقۡضُونَ﴾:

الآلهةُ المزعومةُ يتجدَّدُ عجزُها مع تجدُّدِ التّوسُّل إليها والطَّلب منها

عبّر البيانُ الكريمُ في جملة الخبر بالفعل المنفي ﴿لَا يَقۡضُونَ﴾ مضارعًا؛ لما يُفيدُه نفيُ المضارعِ من إثبات تجدّد عجزِ الآلهة المزعومة عن نفع مَنْ يدّعونها بشيء، كلّما تجدّد دعاؤهم لها، وتوسُّلُهم إليها، ونفيُ قضائِها لهم بأيّ شيء، نفيًا يقطع أملَهم في أن يَجْنوا من وراء عبادتهم لها أيَّ عائد، مهما صَغُر مقدارُه.

### معنى الباء، ونُكْتَةُ التّنكير في قوله: ﴿بِشَيۡءٍۗ﴾:

تأكيد عجز الآلهة عن القضاء بأيّ شيء

الباءُ في قوله: ﴿بِشَيۡءٍۗ﴾ حرفُ جرٍّ يُفيد تأكيدَ عجزِ الآلهةِ التي يعبدُها المشركون من دون اللّه، عن القضاء بأيِّ شيءٍ مطلقًا. وجيء بالاسم المجرور (شَيۡءٍ) نكرةً، لِما يُفيدُه التّنكير الوارد في سياق النّفي من عموم نفي القضاء، وشمولِه لكلّ شيء، سواء أكان صغيرًا أم كبيرًا، حِسّيًّا كان أم معنويًّا.

### بلاغة المقابلة في الآية:

الجمع بين المعاني المتُقابلة يوجب عظيمَ الخوفِ من الله ونبذ ما سواه تعالى

قابل النّظمُ الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾ بين ثلاثة معانٍ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾، وثلاثةٍ ضِدِّها في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾، وهي مقابلة توجِبُ عَظيمَ الخَوْفِ من اللّه تعالى، لأنَّ الحاكِمَ إذا كانَ عالِمًا بجَميعِ الأحْوالِ - لا يقْضي إلّا بالحَقِّ في ما دَقَّ وجَلَّ - خافهُ الخَلْقُ غايةً، كما توجب القدحَ في أصْنامِهم والتّهَكُّمَ بهِم، لِأنَّ ما لا يوصَفُ بالقُدْرَةِ، لا يُقالُ فيهِ يَقْضي ولا يَقْضي[1].

### فوائد الجُمَل الخبريّة:

قضاءُ الله بالحقِّ، وعجزُ الآلهةِ عن القضاء بشيءٍ مِن البدهيّاتِ المُسلَّم بها

آثَر النّظمُ القرآنيّ الأسلوبَ الخبريَّ للتّعبير عن المعنى في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾، لما يُفيده من ترسيخ المعنى وتثبيتِه في أذهان المُتلقّين، من

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 248.

خلال إثارتهم إلى عَدِّه خبرًا مُؤكَّدَ الوقوع، حتميَّ الحصول، فيُنزَّل في نفوسهم منزلةَ البدهيّات التي لا تقبل الجِدالَ أو المِراءَ، مع أنّه خاصٌّ بما يكون في يوم التّلاق، الذي لمّا يأتِ أوانُه.

**نُكْتَة فَصْلِ قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾:

اللــه تعالى لا يقضي إلّا بالحقّ، والذين يدعون من دونه لا يَقضون بشيء

جاءت جُملَةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لأنَّها مُقَرِّرَةٌ لِجُمَلِ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾، ما يعني أنّها فُصِلت عنها لكمال الاتّصال، الذي تستدعي فيه الجملةُ الأولى الجملةَ الثّانية. ويمكن أن يكون الفَصْل لشِبه كمالِ الاتّصال، الذي تُجيب فيه الجملةُ الثّانية عن سؤال أثارتْه الجملةُ السّابقةُ في نفس المُتلقّي عن السّبب في أنَّ اللّه تعالى لا يقضي إلّا بالحقّ، وأنّ الذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء، ومن ثمّ فُصِلت عنها كما يُفْصَل السّبب عن المُسبَّب.

**فائدةُ تتابعِ المُؤَكِّداتِ في فاصلة الآية:**

العالِمُ بكُلِّ شَيْءٍ لا تُخطِئ أحْكامُهُ بالعِثارِ في الباطِلِ

جاءت جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ مؤكَّدة بـ ﴿إِنَّ﴾ والجملةِ الاسميّة وتوسّط ضميرِ الفَصْل؛ لِلْمُبالَغَةِ في إثبات السَّمع والبَصَرِ للّه تعالى؛ تقريرًا لِمَعْنَى: ﴿يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾؛ إذِ العالمُ بكُلِّ شَيْءٍ "تَتَعَلَّقُ حِكْمَتُهُ بإرادَةِ الباطِل بتقدير وقوعِه كونًا، ولا تخطئ أَحْكامُهُ بالعِثارِ في الباطِلِ"(1).

**بلاغة التّعبيرِ بأسلوب القَصْر:**

تأكيد اتّصاف اللـه تعالى بصفتي السّمع والبصر اللّازمَتين للعدل في القضاء

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ قَصْرُ صفةٍ على موصوف قَصْرًا حقيقيًّا، طريقُه توسيطُ ضَميرِ الفصْلِ، وتعريفُ رُكْني الجملة. وقد أوثِر التّعبير به لتقوية وتأكيد اتّصاف اللّه تعالى بصفتي السّمع والبصر اللّازمَتين للقضاء بالحقّ، بعد نفيهما عمَّن سواه، لا سيما الآلهة التي يعبدها المشركون من دونه، ما يعني أنّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 118.

فيه أيضًا تعريضًا بأنَّ "آلِهَتَهُم المَزْعومَةَ لا تَسْمَعُ ولا تُبْصِرُ، وأنَّه لا يصحّ منهم أن ينسبوا الإلَهيَّةَ إلَيْها"[1]، ولا أن يَدّعوها من دون اللّه السّميع البصير.

**معنى (ألْ) في ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ و﴿ٱلْبَصِيرُ﴾:**

(ألْ) في ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ و﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ لتعريف العهد الذّهنيّ، المُفيدِ لكمالِ صفتي السّمعِ والبصرِ في المولى ﷻ، وعدمِ بلوغ أحدٍ آخرَ مبلغَه فيهما.

**نُكْتَةُ خَتْمِ الآيةِ الكريمةِ بالاسمَين الجليلَين:**

فائدةُ التّذييل البلاغيّة تأكيدُ ما سبقه من معان

خَتْمُ الآيةِ بجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ المشتملةِ على اسمَي ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، يجعلها كالتّذييل المُؤكِّد لما سبقها من أنَّ مجازاة النّاسِ يوم التّلاق ستكون بالعَدل الذي لا يشوبُه شيءٌ من الظُّلْم، كما أنّ الحساب فيه سيكون سريعًا لا بُطءَ معه، وأنَّ اللّه تعالى لن يَتقبّل شفاعةَ أحدٍ في الظّالمين المعهودين؛ لأنّ قَبولَ الشّفاعة فيهم ليس من الحَقّ الذي يتّسم اللّهُ السّميع البصير.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 118.

﴿۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ
مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ
ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٢١ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت
تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ
ٱلۡعِقَابِ ٢٢﴾ [غافر: 21 - 22]

## مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قبلَهُما:

الانتقال من إنذار الكافرين بعذاب الآخرة إلى تحذيرهم من عذاب الدّنيا

بعد أن بيَّنتِ الآياتُ السّابقةُ أنَّ الله تعالى سيقضي بالحقّ بين عباده يوم التّلاق في كلِّ ما صدر منهم، ويدخُل في ذلك: خائنةُ الأعين، وما تخفي الصّدور، وادِّعاؤُهم آلهةً من دونه، وسيجازيهم على ذلك جزاءً عادلًا لا يشوبه نوعٌ من الظّلم مطلقًا؛ ناسبَ أن ينتقل "مِنْ المُبالَغَةِ في إنْذارِهِم بعَذاب الآخِرَةِ على كُفْرِهِم، إلى مَوْعِظَتِهِم وتَحْذيرِهِم مِنْ أنْ يَحِلَّ بهم عَذابُ الدُّنْيا قبلَ عَذابِ الآخِرَةِ، مِثْلَ ما حَلَّ بأُمَمٍ أمثالِهِم"[1]، ممّن جاؤوا قبلهم.

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: (عقب) أَصْلانِ صَحيحانِ؛ أَحَدُهُما: يدُلُّ على تَأْخيرِ شَيْءٍ وإتْيانِهِ بَعْدَ غَيْرِه، والأصل الآخر: يدلُّ على ارتفاعٍ وشدّة وصعوبة[2]، قال الخليلُ: كُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ شَيْئًا فهو عَقيبُهُ، كقولِكَ: خَلَفَ يَخْلُفُ، بمَنْزِلَةِ اللَّيْلِ والنَّهارِ، إذا مَضَى أَحَدُهُما عَقَبَ الآخَرُ[3]، والعاقبةُ إطلاقُها يختصّ بالثّواب نحو قول الله: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: 83]، وبالإضافة قد تُستعمل في العقوبة، نحوِ قولِه: ﴿ثُمَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 119.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(3) الفراهيديّ، العين: (عقب).

﴿كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ [الرّوم: 10][1]، إلّا ما كان من الإضافة نحو: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ [الأنعام: 135] [القصص: 37] وغير ذلك، والعاقبة في الآية تعني: المصير السّيئ.

2) ﴿أَشَدَّ﴾: (شد) أصلٌ واحِدٌ يدلُّ على قوّةٍ في الشَّيْءِ[2]. فالشَّدُّ: العقد القَويّ، يُقال: شَدَدْتُ الشّيءَ شَدًّا أشُدُّهُ: قوّيتُ عَقْدَه، قال اللّه: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْۖ﴾ [الإنسان: 28]، والشِّدَّةُ تُستعمل في العقد، وفي البدن، وفي قوى النّفس، وفي العذاب[3]، والمعنى الأخير هو ما تقصده الآية.

3) ﴿وَءَاثَارًا﴾: (أثر) أصلٌ يدلُّ على تَقْديم الشَّيْءِ، وذِكْر الشَّيْءِ، ورَسْم الشَّيْءِ الباقي[4]، فأثَرُ الشّيء: حصولُ ما يدلّ على وجوده، يُقال: أثَر وأثّر، والجمع: آثار، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ [الحديد: 27]، ومنه ما معنا هنا في الآية[5].

4) ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: (ذنب) أُصولٌ ثَلاثَةٌ؛ أحَدُها: الجُرْمُ، يُقالُ: أذْنَبَ يُذْنِبُ، والاِسْمُ الذَّنْبُ[6]، ويعني: الأخذ بذَنَب الشّيء، يُقال: ذَنَبْتُهُ: أصبت ذَنَبَه، ويستعمل في كلّ فعلٍ يُستوخَم عقباه، اعتبارًا بذَنَب الشّيء، ولهذا يُسَمَّى الذَّنْبُ: تَبِعَة، اعتبارًا لما يحصل من عاقبته، وجمعُ الذّنْب: ذُنوب، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ﴾ [آل عمران: 11][7]، وهو المعنى المراد في الآية.

5) ﴿وَاقٍ﴾: (وقي) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ تَدُلُّ على دَفْعِ شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ بغَيْرِهِ، يُقال: وقَيْتُهُ أقيهِ وقْيًا، والوِقايَةُ: ما يقي الشَّيْءَ، واتَّقِ اللّه: توقَّهُ، أي: اجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ كالوِقايةِ[8]، والوِقايةُ: حِفظُ الشّيءِ ممّا يُؤْذيه ويَضُرُّه، قال تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ٥٦﴾ [الدّخان: 56][9]؛ وهو المعنى المُراد هنا.

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (عقب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شدَّ).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (شدَّ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أثر).
(5) الرّاغب، مفردات القرآن: (أثر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذنب).
(7) الرّاغب، مفردات القرآن: (أذنب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقى).
(9) الرّاغب، مفردات القرآن: (وقى).

6) ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: (بين) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو بُعْدُ الشَّيْءِ وانْكِشافُهُ. يُقال: بانَ الشَّيْءُ وأبانَ، إذا اتَّضَحَ وانْكَشَف. وفُلانٌ أَبْيَنُ مِنْ فُلانٍ؛ أيْ: أَوْضَحُ كَلامًا مِنْهُ[1]، والبَيِّنَة: الدّلالةُ الواضحة، عقليّةً كانت أو محسوسةً، قال سبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: 17][2]، ومنه المعنى المقصود في الآية.

7) ﴿قَوِيٌّ﴾: (قوي) أَصْلانِ يدُلُّ أَحَدُهُما على شِدَّةٍ وخِلافِ ضَعْفٍ، ومنه: القوَّةُ، والقَويُّ: خِلافُ الضَّعيفِ[3]، والقوَّةُ تستعمل في معنى القُدرة، نحو قوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: 63]، وتارةً في القُدرة الإلَهيّة نحو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: 21][4].

8) ﴿ٱلْعِقَابِ﴾: (عقب) أَصْلانِ صَحيحانِ؛ أَحَدُهُما: يدُلُّ على تَأْخيرِ شَيْءٍ وإتْيانِهِ بَعْدَ غَيْرِهِ، ومنه: عاقَبْتُ الرَّجُلَ مُعاقَبَةً وعُقوبَةً وعِقابًا، وإنّما سُمّيتْ عُقوبَةً؛ لِأَنَّها تَكونُ آخِرًا وثاني الذَّنْبِ[5]، والعُقوبَةُ والمعاقبة والعِقاب يختصّ بالعذاب، قال تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص: 14][6]، والمعنى في الآية: العذاب.

## المَعْنى الإجْماليُّ:

الكفرُ بآيات الله البيّناتِ سببُ هلاكِ الأُمم مهما كانوا ومهما بلغوا

تستنكر الآيةُ الأولى غفلةَ مشركي مكّةَ وما حولَها من القُرى عنِ الاتّعاظ بالعذاب الذي أنزلَه اللّهُ بالأُمم السّابقة؛ كعادٍ وثمودَ وغيرِهم من الأقوام الذين كذَّبوا رُسُلَهم، وكانوا يعيشون على الأرض القريبة منهم وفي طريقهم، ومع ذلك لم يأخذوا درسًا ممّا حلَّ بهم، على الرّغم من أنّهم كانوا أشدَّ قوّة وأكثرَ أموالًا وأولادًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (بين).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (قوي).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (قوى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(6) الرّاغب، مفردات القرآن: (عقب).

من مشركي مكّة، وقد مَكّنَهمُ اللّهُ في الأرض فأثاروها وزرعوها، وصاروا أصحابَ مُدُنٍ وحضارةٍ وزراعةٍ وصناعةٍ وقوّةٍ، وغيرِ ذلك من الإمكانات التي لم تَحُلْ بينهم وبين عذابِ اللّه حين حصل لهم، وتُبيِّن الآيةُ الثانيةُ أنَّ السّبب الرّئيس في عقابهم هو كُفرُهم بالآيات البيّنات، والحُجَجِ الواضحاتِ التي أرسل اللّهُ تعالى بها رُسلَه إليهم، ما تَرتَّبَ عليه أنْ يُنْزِل اللّهُ بهم أشدَّ أنواعِ العذاب(1).

## ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### نُكْتَةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

كمال الانقطاع باختلاف الجملتين خبرًا وإنشاءً

جاءت جملة: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لاختلاف الجملتين خبرًا وإنشاءً، فيما يُسَمّى كمالَ الانقطاع، الذي تنفصل فيه الجملُ لفظيًا، إلّا أنَّ بينها من وشائج القُربى والارتباط ما يجعلها شديدةَ الاتّصال في المعنى.

### بلاغة الاستفهام في جملة: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾:

السَّيرُ الخالي من الاتِّعاظ والاعتبار يوجب التّوبيخ والإنكار

الهمزة في جملة: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ للاستفهام التّقريريّ، القاصدِ إلى تقرير مشركي مكّة بأنّهم رأوا آثار العذاب الذي نزل بالأمم السّابقة، أثناء سفرهم من مكّة إلى الشّام واليمن، ليَدْلُف من خلال ذلك الإقرار إلى أنَّ من الواجب عليهم أن يتّعظوا ويَحْذَروا، وذلك جريًا "على ما هو الشّائعُ في مِثْلِه مِنَ الِاسْتِفْهامِ الدّاخِلِ على نَفْيٍ في الماضي بحَرْفِ (لَم)"(2). ويُمكن أن يكون الاستفهام لإنكار غفلة مشركي مكّة، وتوبيخِهم على عدم اتِّعاظهم بالعذاب الذي تأكّدوا من نزوله بمَنْ سبقهم من الأقوام الذين كفروا برسلهم، وعدمِ الحَذَر من أن ينزل بهم مثلُ ما نزل بغيرهم، بسبب إصرارهم على الكفر وتمسُّكهم به(3).

(1) حجازيّ، التّفسير الواضح: 3/ 297، 298.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 119.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/ 44، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 413، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 473.

**معنى الواو ودلالتُها على المحذوف في ﴿أَوَلَمۡ﴾:**

الواو في ﴿أَوَلَمۡ﴾ من قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لعطف ما بعدها على مُقَدَّرٍ محذوفٍ يقتضيه المقام، والمعنى: أغَفلوا ولم يسيروا؟!

**دلالة التّعبير بصيغة المضارع في ﴿يَسِيرُواْ﴾ و﴿فَيَنظُرُواْ﴾:**

عبّر النّظم الكريم عن فعلي السّير والنَّظَر في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ بصيغة المضارع؛ لِما يُفيده من تجدُّد غفلتهم مع تَجدُّد سيرهم، وأنَّ الأَوْلَى بهم أن ينظروا ويتأمّلوا كلّما ساروا؛ لأنَّ تجدّد السّير يدعو إلى تجدّد النّظر، وتجدُّدَ النّظرِ يدعو إلى تجدّد الموعظة والحَذَرِ ممّا يوجب ذلك المصير، ومن ثَمّ يحصل المقصود، وهو الإيمان المُفضي للنَّجاة مِن عذابي الدُّنيا والآخرة.

تجدّد السّير يدعو إلى تجدّد النّظر، وتجدّد النّظر يدعو إلى تجدُّد العِظة والحَذَر

**نُكْتَةُ إسنادِ فعلِ السّير إلى ضمير الجماعة:**

آثَر النّظمُ الكريم إسنادَ فعلِ السّير إلى ضمير الجماعة في ﴿يَسِيرُواْ﴾، مع أنّ السّائرين هم الذين اعتادوا السّفر والانتقال، وليس جميعَ أهلِ مكّة؛ لأنّهم كانوا بعد العودة إلى مكّة يُحدِّثون الذين لم يبرحوها عمّا شاهدوه من آثار عادٍ وثمودَ وغيرهم ممّن مَرّوا عليهم، وينقلون لهم الصّورة نقلًا مطابقًا، حتّى صاروا كأنّهم رأوها بأعينهم، مع أنّهم ماكثون في مكّة لم يخرجوا منها، ما يدلُّ على أنَّ أمرَ الهالكين "غَدا مَعْلومًا لِلْجَميعِ، فبِهَذا الِاعْتِبارِ أُسْنِدَ الفِعْلُ المُقَرَّرُ بِهِ إلَى ضَميرِ الجَمعِ على الجُملَةِ"[1].

هلاكُ الكفّار السّابقين أمرٌ معلومٌ لمشركي مكّة ومَنْ حولَها

**نُكْتَة تعديةِ فعلِ السّير بـ ﴿فِي﴾ دون (على):**

جيء بفعل السّير مُتعديا إلى ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ بحرف ﴿فِي﴾ المفيدِ للظّرفيّة، في قوله تعالى: ﴿۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ دون (على)؛ لأنّ الثّاني يُشعِر بالمرور السّريع الذي لا يُعين على التّأمُّل وعمق النّظر، بخلاف حرف الوعاء ﴿فِي﴾ الدّالِّ على أنّهم كانوا يسيرون

حرفُ الوعاء (في) أدلُّ على تمكُّن السّائرين وتقلُّبهم في أرض الهالكين

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 119.

سيرَ المتمكّنِ من الأرض، المُتقلِّبِ فيها، وهو سيرٌ أدعى للتّفكّر والاعتبار[1]. وثَمَّ أمرٌ آخر؛ هو الدّلالة على أنّ آثار المشركين الهالكين كثيرةٌ، ومنتشرةٌ في الأرض انتشارًا يحيط بمَن يمشي عليها، كما يحيط الظّرف بالمظروف، ما يدلّ على أنَّ التّفكّر والاتّعاظ بمصائرهم يفرض نفسَه على كلِّ مَنْ يسير في أرضهم.

**معنى (ألْ) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:**

أيُّ أرضٍ يسير النّاسُ عليها تَعِظُهم بما تحويه من الآثار والأعلام

(ألْ) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ لتعريف الجنس، والمعنى: أنَّ "أيَّ أرضٍ ساروا فيها وعَظَتْهم بما حوتْ من الأعلام"[2]، ويمكن أن تكون للعهد الذّهنيّ، والمقصود بها أرضُ عادٍ وثمودَ وغيرِهم من الأقوام التي تقع في طريق رحلتَيهم إلى الشّام واليمن.

**معنى الفاء في ﴿فَيَنظُرُواْ﴾:**

يترتّب على السّير في الأرض النّظرُ والتّفكّر والاعتبار

الفاء في قوله: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ حرفُ عطفٍ يُفيد تَسَبُّبَ النّظرِ والاعتبار وترتُّبَه على السّير في الأرض، ما يعني: أنّ السّير والتّرحال يجب أن يكون مقرونًا بالتّفكّر والتّأمّل. وفيه كذلك تأكيدٌ لأنّ تجدّد السّير مدعاةٌ إلى تجدّد النّظر، وأنَّ أيَّ سيرٍ خالٍ من التّفكّر والاعتبار هو سيرٌ يوجِب التّوبيخَ والإنكارَ.

**بلاغة الاستفهام في قوله: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾:**

من أغراض الاستفهام التّهويل والتّفخيم، والتّنبيهُ والتّحذير

قولُه تعالى: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ جملةٌ في محلّ نصبِ مفعول ﴿فَيَنظُرُواْ﴾، و﴿كَيۡفَ﴾ اسم استفهام في محلّ نصب خبرٌ مقدّم لـ ﴿كَانَ﴾، و﴿عَٰقِبَةُ﴾ اسمها، والغرضُ من الاستفهام: تهويل ما نزل بالكافرين السّابقين من العذاب وتفخيمُه، والإشارة إلى أنّه عذابٌ من الشّدّة والقوّة والغَرابة بمكان[3]؛ وأنّه حلَّ بهم بسبب اجترائهم على الكفر باللّه، واتّخاذهم آلهةً من دونه، يُزاد على ذلك التّحذيرُ

(1) الخضريّ، من أسرار حروف الجرّ في الذّكر الحكيم، ص: 125.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 44.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 44.

من إمكان نزول مثلِه بمشركي مكّة إن همُ استمرّوا على ما هم فيه من كفرٍ بالله، وعِنادٍ لرسوله.

### نُكْتَةُ تذكيرِ الفعل ﴿كَانَ﴾:

تذكير الفعل فيه تأكيدٌ على قوّة العذاب الذي نزل بالكافرين

وردت كلمة ﴿عَـٰقِبَةُ﴾ في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرّةً بمعنى العذاب، ومنها هذه الآية، ما يعني أنَّ السِّرَّ في تذكير الفعل ﴿كَانَ﴾ هو أنّ الفاعل مُذَكّر، فيما يعرف بالحمل على المعنى[1]، يُزاد عليه أنّ تذكير الفعل فيه تأكيدٌ لقوّة العذاب الذي نزل بالكافرين السّابقين وشدّته، حيثُ أهلك الإنسانَ، وأحدث الدّمارَ بالبنيان؛ بناءً على ما هو معروف مِنْ أنَّ طبيعةَ الذَّكرِ أقوى وأشدُّ مِنَ الأُنثى[2].

### نُكْتَةُ الإضافة في قوله: ﴿عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ﴾:

الهالكون السّابقون صاروا معروفين بالعذاب الذي أُخِذوا به

أضاف النّظم لفظ ﴿عَـٰقِبَةُ﴾ إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَانُواْ﴾؛ للتّنبيه على أنّ العذاب الذي يدعو اللّهُ تعالى مشركي مكّة إلى تأمُّله والنّظرِ فيه، والنّهايةَ الأليمة التي أُخِذ بها السّابقون صارت علامةً عليهم، وملتصقةً بهم التصاقًا لا يمكن انفكاكُه، بسبب "عراقتهم في الكفر وأصالتِهم في اعتناقه"[3].

### غرض التّعبير عن الكافرين بالاسم الموصول:

ذَمُّ الكافرين والتّحقيرِ من شأنهم، وبيانُ السّبب في أخذهم

عبَّر النّظم عن الكفّار السّابقين باسم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾، دون (عاد وثمود) وغيرهما؛ ليَعُمَّ التّعبيرُ به جميعَ الكفّار المُتقدّمين من غير تخصيص؛ لأنّهم جميعًا أُخذوا بأشدِّ أنواع العذاب وأبشعِه. ويمكن أن يكون القصدُ من التّعبير بالموصول هو ذَمُّهم، والتّحقيرُ من شأنهم، وبيانُ سببِ أَخْذِهم، وازدراءُ ذِكْرهم في القرآن بأسمائهم؛ لِما في الذِّكْر مِنَ التّشريف والرِّفعة.

---

(1) الإسكافيّ، دُرّة التّنزيل وغُرّة التّأويل: 2/ 764، والسّامرائيّ، أسرار البيان في التّعبير القرآني، ص: 14، 15.

(2) المليجي، صبحي إبراهيم، من بلاغة القرآن الكريم في حديثه عن هلاك عاد وثمود، ص: 40.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 44.

### دلالة التّعبير بفعل الكينونة:

عبّر النّظمُ الكريم في جملة الصّلة بفعل الكينونة، فقال: ﴿كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾؛ للتّلميح إلى أنَّ هؤلاء الكافرين كانوا متمكّنين في الأرض التي عاشوا عليها، "عريقين في عمارتها"[1]، وكان لهم من الحَول والطَّوْل والقوّة في الكيان والتّكوين ما يجعلهم آمنين مطمئنين، لا يتوقَّعون نزولَ العذاب، ولا يظنون الهلاكَ.

الـكـافـرون الـهـالـكـون كـان لـهـم من الحَـوْل والـقـوّة مـا يـجـعـلـهـم في مـأمَـن من العذاب

### معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ هي البيانيّة، الدّالّةُ على قُرْب بعض المشركين الهالكين بعذاب اللّه تعالى - زمانًا ومكانًا - مِنْ مشركي مكّة وما حولَها، وأنَّ آثارَهم لا تزال قائمةً، تشهد بما حصل لهم ونزل بهم.

مَـنْ لـم يتعظْ بما قبلَه وجَبَ عليه الهلاكُ

### فائدة ذِكرِ الظّرفيّةِ: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

عبَّر البيانُ الكريم بالظّرف ﴿قَبۡلِهِمۡۚ﴾ المجرور بـ﴿مِن﴾ الابتدائيّة والبيانيّة، في قوله: ﴿كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾؛ لتأكيد أنَّ هؤلاء الكفّار كانوا سابقين في الزّمان على كفّار مكّة ومشركيها، وأنَّ بإمكان أهلِ مكّة أن يقفوا على ما حصل لهم من خلال المرور على أرضهم والسّفر إليها؛ ليَتأكَّدوا من صدق القرآن فيما أخبر به من عذابهم، وليَحذروا مِنْ أن يَنْزِل بهم مثلُ ما نزل بسابقيهم.

الآثـار الباقية شاهدةٌ بما كان مـن أخْـذ الله تـعـالى الـكـفارَ بعد عُتوِّهم

### نُكْتَةُ فَصْلِ قوله: ﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾:

جاءت جملة: ﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ مفصولةً عن جملة: ﴿كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾؛ لشِبه كمال الاتّصال الذي تُجيب فيه الجملةُ الثّانيةُ عن سؤالٍ أثارتْه الجملةُ السّابقةُ في نفس المتلقّي، تقديره: كيف كانوا؟ فتأتي الجملة الثّانية لتوضِّح الإجابةَ عن هذا السّؤال، ولتُفْصَلَ عن الأوْلَى كما يُفْصَلُ الجوابُ عن السّؤال.

مهما بلغ بأسُ المُـنـاوِئـين لله فهو قـادِرٌ على إهلاكِهِم

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 45.

### نُكْتَةُ دخولِ ضمير الفَصْل ﴿هُمۡ﴾:

﴿هُمۡ﴾ في قوله: ﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ﴾ ضَميرُ فصْلٍ عائِدٌ إلى الكفّار المُتقدِّمين على مشركي مكّة، المُعَبَّرِ عنهم بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، والغرضُ من التّعبير به: تقويةٌ وتأكيدُ "أنّ الَّذين مَضَوْا مِنَ الكافرين كانوا أشَدَّ قوّةً مِنَ الكُفّارِ الحاضِرينَ، وأقْوى آثارًا في الأرْضِ مِنْهُم"(1)، وأنَّهم مع ذلك لم يستعصوا على اللّه حين أراد إهلاكَهم، وهو ما يعني: سهولةَ نزولِ العذابِ بمَنْ دونَهم في القوّة، وإمكانَ أخْذِهم من باب أولى.

الكُفّارُ السّابقون لم يستعصوا على الله رَغْمَ قوّتِهم وشِدّتِهم

### دلالة التّعبير باسم التّفضيل:

﴿أَشَدَّ﴾ في قوله: ﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ خبرُ (كان) منصوب، وأوثِر التّعبير عنه بصيغة التّفضيل للدّلالة على أنّ الكفّار السّابقين كانوا أفضلَ من كفّار مكّة وما حولَها في القوّة والآثار، وأنّ هذه الشّدّة كانت في كينونتهم، بما منحهمُ اللّهُ تعالى من القوى الظّاهرة والباطنة، ما من شأنه أن يجعل هلاكَهم بأيِّ نوعٍ من أنواع العذاب أمرًا مُستغربًا ومُحَذِّرًا.

الشِّدَّةُ والقوّةُ كانت موجودةً في كينونة الكفّار المُتقدّمين

### معنى (مِنْ) في ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

(مِنْ) في قوله: ﴿أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ هي التّفضيليّة، التي تدلّ على أنّ المشركين الهالكين كانوا يتفوّقون على كُفّار مكّة وما حولَها في القوّة والآثار وغيرِها.

### توجيه القراءات في ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾، قَرَأ الجُمهورُ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ بضَميرِ الغَيْبَةِ جريًا على الظّاهر؛ ازدراءً للمخاطَبين من مشركي مكّة، وتنزيلًا لهم منزلةَ الغائب عن الوعي وحضورِ الذّهن في عدم الفهم والإدراك، "وقَرَأ ابْنُ عامِرٍ: ﴿مِنكُمۡ﴾ بضَميرِ الخِطاب على

في القراءات إثراء للمعنى وزيادة توضيح

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 505، بتصرف.

سَبيلِ الِالتِفاتِ من الغَيْبَة إلى الخطاب؛ للتّنصيص على المراد"[1]، ولقرعِ أسماع المُخاطبين وحثّهم على التّفكُّر فيما آل إليه حالُ السّابقين الذين كانوا أكثرَ منهم قوّةً وآثارًا في الأرض.

### نُكْتَةُ تقديم شبه الجملة ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿مِنۡهُمۡ﴾ على التّمييز ﴿قُوَّةٗ﴾؛ لأنّ الاهتمام موجهٌ لبيان أفضليّة الكفّار السّابقين على كفّار مكّة وما حولَها ممَّن يكفرون برسالته ﷺ.

### نُكْتَةُ تنكير ﴿قُوَّةٗ﴾:

الكفّارُ المتقدّمون كانوا يتمتّعون بالقوّة الحسيّة والقوّة المعنويّة

جيء باللّفظ الدّالّ على التّمييز ﴿قُوَّةٗ﴾ نكرةً لما يفيده التّنكير من التّفخيم والتّعظيم واتّساعِ معنى القوّة وشمولِه كلَّ ما يُستقوى به، سواء أكان حسيًّا، مثل: ضخامة البنيان وكثرةِ الجنود وتوفُّرِ الأسلحة وتنوّعِها وغيرِ ذلك، أم معنويًّا، مثل: الأمن والطّمأنينة والاستقرارِ ووفْرَةِ وسائلِ الِاسْتِغْناءِ عَنِ الغَيْرِ، وكلِّ ما يجعلُ الحياةَ آمنةً مرضيةً.

### بلاغة الكناية في لفظ ﴿قُوَّةٗ﴾:

الكفّار السّابقون كانوا شديدي النّفور من دعوة رسلهم إلى توحيد الله وعبادته

عبَّر النّظمُ الكريم بلفظ: ﴿قُوَّةٗ﴾ قاصدًا به القوّةَ بنَوعيها الحِسّيّة والمعنويّة، كما سبق بيانه، ومُكَنّيًا به عَنِ شدّةِ إباءِ الكافرين السّابقين مِنَ الحَقِّ، وتزايدِ نفورهم مِنَ دعْوةِ رسلهم إلى توحيد اللّه تعالى وعبادته[2]، ما يعني: أنّهم بلغوا في الإباء والنّفور من الاستجابة لرسل اللّه مبلغًا لا حدودَ له.

### معنى الواو في قوله: ﴿وَءَاثَارٗا﴾:

الواو في قوله: ﴿وَءَاثَارٗا﴾ لعطف ما بعدَها على ﴿قُوَّةٗ﴾، وهي

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 248، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 45، ويُنظر: ابن الجزري، النشر: 2/ 365.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 120.

الكفّار السّابقون كانوا أفضلَ من مشركي مكّة في إثارة الأرض وإعمارِها

تدلّ على أنّ السّابقين من الكفّار كانوا أفضلَ من مشركي مكّة وما حولَها في إثارة الأرض وإعمارها، كما كانوا أفضلَ منهم في القوّة، ويشهد لذلك الآثارُ الباقيةُ الدّالّة على قوّتهم وحضارتهم، من أمثال الأهرامات، ومدائنِ صالح، ومنازلِ ثمود، وغيرِها ممّا يُفيد أنّهم جمعوا بين القوّة العسكريّة والقوّة الاقتصاديّة.

### نُكْتَة تنكيرِ ﴿وَءَاثَارًا﴾:

آثارُ الأقدَمين لم يَندرس بعضُها، وقد مضى عليها ألوفُ السّنين

في قوله: ﴿كَانُوٓاْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا﴾ جيءَ بالمعطوف ﴿وَءَاثَارًا﴾ نكرةً؛ لما يفيدُه التّنكيرُ من التّعظيم والتّفخيم واتّساع معنى الأثر وتنوّعِه، ليشملَ كلَّ ما تركَه الكفّارُ المتقدّمون من قصور فارهة، ومبانٍ شاهقة، وقِلاعٍ حصينة، وتماثيلَ ضخمةٍ، وآثارِ أقدامٍ باقية، وغيرِ ذلك ممّا بَقي شاهدًا على قوّتهم؛ "فإنّ آثارَهم لم يندرس بعضُها إلى هذا الزّمان، وقد مضى عليها ألوفٌ من السّنين، وأمّا المتأخّرون فتنطمس آثارُهم في أقلّ من قرن"[(1)].

### نُكْتَةُ التّعبير بحرف الظّرفيّة ﴿فِي﴾:

بعض الآثار يُمَثّل جُزءًا من الأرض، وبعضُها يغوص في أعماق الأرض

التّعبير بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾ المفيد للظّرفية في قوله: ﴿وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، الواقع مع مجروره في محلّ نصب صفة لـ(آثارًا)، يدلُّ على رسوخ الآثار التي تركها الكفّار الأقدمون في الأرض، وشدّة التصاقها بها، يُزادُ على ذلك أنَّ بعضَها يمثل جزءًا من الأرض لا ينفصل عنها، وبعضُها الآخر يغوصُ في أعماق الأرض، ممّا جعلها ثابتةً باقيةً إلى يومنا هذا، وجعل الأرضَ تحيطُ بها كما يحيطُ الظّرفُ بالمظروف.

### معنى (ألْ) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

أرضُ الهالكين معروفةٌ معهودةٌ لمن يريد العِظةَ والاعتبارَ

(ألْ) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ لتعريف العهد، إذِ المقصود بها: الأرضُ التي كانوا يعيشون فيها، وشيّدوا عليها القلاعَ والحصون والقصور،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 45.

وأقاموا المدنَ والحضارات القديمة، مثل أرض عاد، وأرض ثمود في الجزيرة العربيّة، وأرض الفراعنة في مصر القبطيّة، وغير ذلك ممّا هو معروف للمخاطَبين.

### نُكْتَةُ إعادةِ الظّرفيّة: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

لا يمنع الكافرين من الهلاك شدّةُ بأسهم وتمكُّنُهم من أرضهم

كان مقتضى الظّاهر أن يُعَبَّر عن ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالضّمير، فيُقال: (كانوا هم أشدَّ منهم قوةً وآثارًا فيها)، لكنّ البيانَ عدلَ عن التّعبير بالضّمير وأعاد الاسم الظّاهر، فقال: ﴿كَانُوٓاْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لتأكيد تمكُّنِ الكفّار السّابقين من الأرض التي سار عليها مشركو مكّة، وتقويةِ ظهورِ آثارِهم فيها، وعدمِ خفائها على السّائرين.

### معنى الفاء في ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾:

قوّة الكافرين كانت سببًا في غرورهم وأخذهم

الفاء في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾ تُفيد تَسَبُّبَ الأخذِ والهلاكِ عن القوّة والمَنَعة، والمعنى: "لمّا كانت قوتُهم ومُكنَتُهم سببًا لإعجابهم وتَكَبُّرهم على أمر ربِّهم، وإصرارِهم على الكفر به، ومعاندة رُسلِه؛ كان ذلك سببَ هلاكهم"[1].

### بلاغة التّعبير بالأخذ:

عذابُ المشركين - مهما بلغوا من القوّة - سهلٌ يسيرٌ على الله ربِّ العالَمين

في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ استعارةٌ تصريحيّة: "شُبّهَ فيها نزولُ العذاب والاستئصال بهم بالمَأْخوذِ باليد، المُتَصَرَّفِ فيه بحُكْمِ إرادةِ الأَخْذِ"[2]، بجامع التّمكّن والاقتدارِ في كلٍّ، ثمّ استُعير الأخذُ للعذاب والاستئصال على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة، التي تُصوِّر سهولةَ أخذِ الله تعالى وإهلاكه لهؤلاء المشركين على الرّغم من قوّتهم، كما أنّها تبثُّ الرّعبَ في نفوس المُخاطَبين؛ لِما تُؤكِّده من قُدرة الله على إهلاكهم، كما أَهْلَكَ مَن سبقوهم ممّن كانوا أشدَّ منهم قوّةً وآثارًا في الأرض.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 45.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/ 39.

عذابُ الله محيط ومُحكَم، لا يمكن أن يُفلِت منه أحدٌ

والتَّعبير بالأخذ يوحي بالقوّة والشّدّة التي لا توجَد في غيره من ألفاظ العذاب؛ لدلالته في الأصل على الحَوْز والجمع[1]، ما يوحي بأنّه حصل بنوعٍ من القوّة والشّدّة التي لا نظير لها، كما أنّه اسْتُعْمِلَ لِأَنَّ "مَنْ يَنْزِلُ بِهِ العِقابُ يَصيرُ كالمَأْخوذِ المَأْسورِ الَّذي لا يَقْدِرُ على التَّخَلُّصِ"[2].

### دلالة التّعبير عن فاعل الأخذ باسم الجلالة العَلَم:

إرعابُ المشركين وتهديدُهم بما تتخلعُ به قلوبُهم، وترجُف له أفئدتُهم

التّعبير عن فاعل الأخذ باسم الجلالة العَلَم، الذي لا يُعَبّر به إلّا في مواضع التّأليه والتّعظيم، في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾، فيه تفخيمٌ للأخذ وتهويل؛ لأنَّ اللّه تعالى - بما له من صفات الكمال والقوَّة والسّطوة - هو الذي تولّاه بنفسه وأنزله بقدرته، وفيه من إرعاب المشركين وتهديدهم ما تتخلعُ به قلوبُهم، وترجُف له أفئدتُهم. وفيه كذلك دعوةٌ للإيمان باللّه وتوحيدِه وإخلاصِ العبادة له؛ فذلك المقصود الأعظم، والمُراد الأفخم من النّبوّة والكِتاب، وما أودِعَ فيه من هذه القَصَص.

### معنى الباء في قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾:

الكافرون هم الذين جلبوا العذابَ لأنفسهم

الباء في قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ تدلّ على تَسبّب الذّنوب التي ارتكبوها في نزول العذاب بهم، على وجه من القوّة والشّدّة التي سبق بيانُها، يُزاد على ذلك: الدّلالةُ على أنّ عذاب اللّه تعالى لم ينزل بهم ظُلمًا وعدوانًا، وأنّهم هم الذين جلبوه لأنفسهم.

### نُكْتَةُ جمعِ الذّنوب وإضافتِها إلى ضمير الكافرين:

ذنوب المشركين المتعدّدة المتنوّعة تدلّ على استهانتهم بالعذاب

الذُّنوبُ: جَمْعُ ذَنْبٍ، وهو المَعْصيةُ[3]، وأوثِر التّعبير عنها بلفظ الجمع؛ للإشارة إلى كثرتها وتنوّعها، وأنّها لم تقتصر على الشّرك باللّه تعالى وتكذيب رسله - الذي يُعَدّ أعظمُها وأقبحُها - وإنّما

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 7/ 154.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 120.

تنوّعت وتعدّدت بما يُفيد اجتراءَهم واستهانتَهم بما كان يُحَذِّرهم منه الرّسلُ الكرام. وفي إضافة الذّنوب إلى ضمير المشركين في قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ دلالةٌ على أنّها صارت سمةً بارزةً لهم، ووصفًا من الأوصاف التي يُعرفون بها، ولا تُصرف إلّا إليهم عند ذكرها.

### معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾:

هلاك الكفّار السّابقين كان مصحوبًا بالعجز عن الوقاية منه بأيِّ شكل

الواو في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾ لعطف ما بعدَها على جملة: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، وفي التّعبير بها دلالةٌ على أنّ العذاب الذي نزل بالسّابقين كان مصحوبًا بالعجز عن الوقاية بأيِّ صورة من الصّور، وبأيِّ شكل من الأشكال؛ فإنّه كان محيطًا، كما جاء في قوله تعالى حكايةً عن تحذير شعيبٍ قومَه: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ [هود: 84]، وقولِه ﷻ: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ [الإسراء: 60]، وقولِه سبحانه وبحمده: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ [يونس: 22].

### فائدة التّعبير بـ ﴿وَمَا كَانَ﴾:

عند نزول العذابُ بالمشركين لَم يجدوا مَنْ يُعينُهُم أو يُخَلِّصُهُم

(ما) في قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ حرفُ نفي يُفيد بمعناه ومبناه المختوم بحرف المَدّ انتفاءَ وجودِ أيِّ واقٍ يَقي المشركين من عذاب الله عند نزوله بهم، انتفاءً قاطعًا لا حدودَ له، ودخولُه على فعل الكينونة الماضي: ﴿كَانَ﴾ يدلُّ على انعدام وجودِ الواقي لكلّ الأُمم، وتحقّقِ انتفائِه من غير شَكٍّ أو ريب، والمعنى: "لَمّا نَزَلَ العَذابُ بهِم عِنْدَ أَخْذِهِ تَعالَى لَهُم، لَم يجِدوا مَنْ يُعينُهُم ويُخَلِّصُهُم"[1].

### معنى اللّام في ﴿لَهُم﴾، ونُكْتَةُ تقديمِ المُسنَد على المُسنَد إليه:

اللّام في ﴿لَهُم﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ حرفُ جرٍّ يُفيد الاختصاص، والتّعبير به يدلُّ على انتفاء وجود واقٍ خاصٍّ بهم، أو شفيعٍ يشفع عند الله فيهم، أو شيءٍ يمكن أن يُدفَع عنهم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 505.

العذابُ بسببه، ما يعني بلوغَ غضبِ اللّه عليهم درجةً لا يُرجى عندها أيُّ عفوٍ؛ لأنّه سبحانه أمهلهم بما فيه الكفاية. وقَدَّم النّظمُ الكريم المُسندَ: ﴿لَهُم﴾ على المسند إليه: ﴿وَاقٍ﴾؛ للاهتمام بنفي وجود واقٍ يقيهمُ العذابَ أو يدفعُه عنهم؛ تعجيلًا بالمساءة ومبالغةً في الخِزي والحسرة.

انتفاءُ وجودِ الواقي أو الشّفيع دالٌّ على بلوغ غضب الله درجةً لا يمكن عندها العفو

### معنى ﴿مِّنَ﴾ في ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جارٌّ ومجرور متعلّق بـ ﴿وَاقٍ﴾، و﴿مِّنَ﴾ فيه ابتدائيّةٌ تدلُّ على "أنّ الأخذ في غاية العُنف إذا لم يَبْتَدِئ من جهته تعالى لهم وقاية، لم تكن لهم باقية، بخلاف من عاقَبَه اللّهُ عقوبةَ تأديب، فإنّ عذابَه يكون سببَ بقائِه؛ لِما يحصل له منه سبحانه من الوقاية"[1].

إذا لم تكن الوقايةُ من الله تعالى، فلن تكون من أحدٍ غيرِه

### نُكْتَةُ إظهارِ اسمِ الجلالة في موضع إضماره:

كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (وما كان لهم منه من واق) أو (من عذابه من واق)، ولكنّ النّظم الكريم عدلَ عن ذلك إلى إظهار اسم ﴿ٱللَّهِ﴾ العَلَم؛ "لأنّ اسمَ الجلالة بمدلوله الكريم له وقعٌ عظيمٌ في القلوب، والمراد من التّعبير به تمكينُ الألوهيّة، وإشاعةُ هيمنتها في الضّمائر، فتتمكّن من النّفوس زيادةَ تمكُّن، وتَتَقرَّر في السّرائر أحسنَ قرارٍ، وبذلك تتربَّى مهابةُ اللّه"[2]، وتزدادُ خشيةُ كفّارِ مكّةَ وغيرِهم من غضبه ونزولِ عذابِه بهم، كما نزل بالكفّار السّابقين عليهم.

اسمُ الجلالةِ بمدلوله الكريم له وقعٌ عظيمٌ في القلوب وأثرٌ كبيرٌ في النّفوس

### معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن وَاقٍ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن وَاقٍ﴾ هي البيانيّةُ التي تُؤكّد استغراقَ النّفي وشمولَه كلَّ واقٍ يمكن أن يُتصوّر قيامُه بوقاية الكافرين، أو حمايتِهم من عذاب ربّ العالَمين.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 46.

(2) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 247.

**نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿وَاقٍ﴾:**

لم يَقِ الكافرين من عذاب الله شيءٌ ممّا يمكن أن تذهب إليه نفوسُ الكافرين

جيء بالمُسند إليه: ﴿وَاقٍ﴾ نكرةً؛ لما يُفيده تنكيرُ الاسم الواقع في سياق النّفي من العموم، الذي يشمل كلَّ واقٍ أيًّا كان ومهما كان، ما يعني: أنّه لم يَجْرُؤ على وقاية الكافرين من عذاب اللّه أحدٌ من الملائكة أو الجنّ أو الإنس، ولم يمنعهم من الهلاك بناءٌ، ولا مقاومةٌ، ولا اختباءٌ، ولا فِرارٌ، ولا غيرُ ذلك ممّا يمكن لنفس المُتلقّي أن تذهب فيه كلَّ مذهب.

**نُكْتَةُ فصلِ جملة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾:**

إذا جاء عذابُ اللهِ الكافرين فلا دافعَ له ولا رادّ

جاءت جملة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ مفصولةً؛ لأنَّها كالبيان والتّفصيل لما سبقها، ما يعني أنّها فُصلت عنها لكمال الاتّصال الذي تُنَزَّلُ فيه الجملةُ الثّانيةُ ممّا قبلَها منزلةَ الثّمرة من الشّجرة. ويمكن أن يكون الفصل لشِبه كمال الاتّصال الذي تُجيب فيه الجملةُ الثّانيةُ عن سؤال أثارتْه السّابقةُ عن السّبب في أنّه لم يوجد أحدٌ يقي الكافرين عذابَ اللّه؟ فتأتي هذه الجملةُ لتوضِّحَ الإجابةَ، ولتُفْصَل عنها كما يُفْصلُ الجوابُ عن السّؤال.

**غرضُ التّعبير باسم الإشارة البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾:**

العذابُ الذي أُخذ به الكافرون بلغ في القوة والإهلاك مبلغا كبيرا

عبَّر النظمُ الكريمُ باسم الإشارة الموضوع للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، وذلك بقصد "الإشارَةِ إلَى المَذْكورِ، وهو أخْذُ اللّه إيّاهُم بذُنوبهِم"[1]؛ لتعظيم العذاب الذي أُخِذ به الكفّارُ، والدّلالةِ على بلوغه في القوّةِ والإهلاك مبلغًا كبيرًا، وامتلائه بصنوف المُهْلِكات المُروّعةِ، الذي قاد إلى تمثُّلِه وتخيُّلِه تضامُّ الحروفِ في ﴿ذَٰلِكَ﴾ لتُؤَدّي هذا المعنى، فإنّ الذّال للإشارة، والألفَ للتّقوية، واللّامَ للبُعْد، والكافَ للخطاب.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 121.

وكلّ ذلك مبنيٌّ بما اجتمع عليهم وسيق إليهم من هلاكٍ مُطبِقٍ من أمر ذي المُلك والملَكوت.

### معنى الباء في ﴿بِأَنَّهُمْ﴾:

الباءُ في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ لِلسَّبَبِيَّةِ، والمعنى: أن ذَلِكَ الأَخْذَ حصل بسَبَبِ أَنَّهُم كانَتْ تَأْتيهِم رُسُلُهُم بالبَيِّناتِ، فكَفروا[1].

### نُكْتَةُ التّوكيدِ في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ﴾:

الكـافـرون أصَـرّوا على تكذيب الرّسل مـع مجيئهم بالبيّنات

جاء البيانُ الموضِّحُ سببَ الأخذِ والإهلاكِ مُؤَكَّدًا بـ (أنَّ) والجملةِ الاسميّة في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ للتّشنيع بهم، وتقبيحِ صنيعِهم، بتأكيد كفرِهم باللّه تعالى، واجترائِهم على تكذيبِ رسلِه، واستهانتِهم بالوعيد الذي أُنذِروا به، ولتأكيدِ أنَّهم الذين جلبوا العذابَ لأنفسهم؛ بسبب إصرارهم وعِنادهم.

### دلالة التّعبير بالفعل الماضي ﴿كَانَت﴾:

اللـه تعـالى لم يُـنـزِل الـعـذابَ بـالـكـافـريـن إلّا بـعـدَ أنْ تغلغل الكفرُ في نفوسهم

عبَّر النّظمُ الكريم في الجملة السّببيّة بالفعل الماضي ﴿كَانَت﴾؛ للدّلالة على تحقّق الإتيان، وحصولِه حصولًا مُؤكّدًا من غير شَكٍّ ولا ريب، ما يعني: أنَّ الكفر صار أمرًا مُتغلْغِلًا في كينونتهم، وأنَّ اللّه لم يُنزِل بهم العذابَ إلّا بعد أن وصلوا في الكفر درجةً لا يُرجَى معها الإيمانُ، ولا يُتَوَقَّعُ حُصولُه منهم.

### نُكْتَةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿تَّأْتِيهِمْ﴾:

كلُّ رسولٍ يُجدِّد إبـلاغَـه لقومه بما يتجدَّد نُزولُه عليه

عبَّر النّظمُ الكريم بفعل الإتيان مضارعًا فقال: ﴿تَّأْتِيهِمْ﴾؛ للدّلالة على تَجَدُّدِ الإِتْيانِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ لِمَجْموعِ تِلْكَ الأُمَمِ، أي: يأْتي لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنْهُم رَسولٌ[2]، وللدّلالة على تجدُّد الإنذار مرّة بعد مرّة، وتجدّدِ قيام كلِّ رسولٍ بإبلاغ قومِه بما يتجدّد نزولُه عليه. والتّقرير أنّ التّكذيب برسول واحد تكذيبٌ بجميع الرّسل، وهذا معلوم من الدّين بالضّرورة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 121.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 121.

### نُكْتَةُ إضافةِ الرّسل إلى ضميرهم:

جيء بلفظ (رُسُل) مضافًا إلى ضمير الكافرين السّابقين في قوله: ﴿رُسُلُهُم﴾؛ للإشارة إلى تخصيص الله تعالى رسولًا لإنذار كلِّ أُمّة من الأُمم الهالكة، حيثُ اختُصّ هودُ بإنذار عاد، واختُصّ صالح بإنذار ثمود، واختُصّ موسى بإنذار فرعون، وهكذا كان لكلّ أُمّة رسولٌ خاصٌّ بها، قام بإبلاغها وإنذارها وأُضيفت إليه.

لكلّ أُمّة رسولٌ خاصٌ بها، قام بإبلاغها وإنذارها وأضيفت إليه

### معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾:

الباء في قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ حرفُ جَرٍّ يُفيد الإلصاق، وهو أصلُ معانيه، وفي التّعبير به إشارةٌ إلى أنَّ الدّلائلَ البيّنات والمعجزاتِ الباهرات، كانت مصاحبةً لقيام رسلِ الله بإنذار أقوامهم وتبليغهم رسالةَ ربِّهم؛ حرصًا على أن يستجيبوا لهم، وأملًا في أن يُؤمنوا بهم، ويَتَّبعوا النّورَ الذي أُنزِل معهم، ليَنجوا من العقاب.

تأييدُ الرّسلِ بالبيّنات هدفُه الحِرْصُ على مصلحة أقوامهم

### معنى (ألْ) في ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾:

(ألْ) في قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ لتعريف العهد، والمقصود بها: المُعجزاتُ التي أيّد اللّهُ تعالى بها رسلَه، وذاع خبرُها وانتشر أمرُها حتّى وصل إلى أسماع مشركي مكّة وغيرِهم، كعصا موسى، وناقةِ صالح، وغيرِ ذلك ممّا هو معروف، ولا ينكرُه أحدٌ. وأوثِرَ التّعبيرُ عنها ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ "لأنّها بلغت في وضوح الأمر مبلغًا بحيثُ لا يَسَعُ مُنصِفًا إنكارُها"[1].

الأدلّةُ التي جاء بها الرّسلُ بلغت في الوضوح مبلغًا لا يَسَعُ مُنصِفًا إنكارُها

### معنى الفاء في ﴿فَكَفَرُواْ﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَكَفَرُواْ﴾ تُفيد بجانب التّسبُّب معنى التّعقيبَ، ما يفيد: أنَّهم أعلنوا كفرَهم برسل الله، وأنكروا ما جاؤوهم به، من غير أن يتدبّروه، أو يتفكّروا فيه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 47.

### نُكْتَةُ حذفِ متعلّق الكفرِ:

جيء بالفعل (كَفروا) في قوله: ﴿فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ محذوفَ المتعلّق لما يُفيدُه حَذْفُه من عموم المعنى وشمولِه كلَّ ما جاءهم به الرّسلُ الكرام من الوحي والآياتِ البيّناتِ، والوعدِ والوعيدِ وغيرِ ذلك. أو لأنّ الفعل نُزِّل منزلةَ اللّازم للدّلالة على أنَّ الكفرَ كان غايتَهم وقصدَهم من غير أن يتعرَّفوا المَكفور به أو يتبيَّنوه.

الكفّار لم يتعرَّفوا المَكفور به أو يتبيّنوه

### معنى الفاء في ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾ تُفيد بجانب التّسبّب معنى التّعقيبِ والإسراعِ، ما يعني: أنَّ الله أهلَكهم على وجْهِ السّرعة والقوّة، فلم يصعب أَخْذُهم عليه، ولم يستغرقْ منه وقتًا، بسبب كفرهم به سبحانه، وتكذيبِهم رسلَه من غير رويَّة ولا تفكير.

استئصالُ المشركين السّابقين تمَّ على وجه من السُّرعة والقوّة

### بلاغةُ المجازِ في لفظ الأخذ:

تعبيرُ البيانِ عن عقاب الكفّار السّابقين بالأخذ في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ استعارةٌ تصريحيّة؛ "شُبِّهَ فيها نزولُ العذابِ والاستئصالِ بهِم بالمَأْخوذِ باليدِ، المُتَصَرَّفِ فيهِ بحُكْمِ إرادَةِ الأخْذِ"[1]، بجامع التّمكّن والاقتدار في كلٍّ، ثمّ استُعير الأخذُ للعذاب والاستئصال على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة، التي تُصوِّر سهولةَ أخذِ اللّه تعالى وإهلاكه هؤلاء المشركين على الرّغم من قوّتِهم وشدّتِهم، كما أنّها تبثُّ الرّعبَ في نفوس المخاطَبين؛ لِما تُؤَكِّده من قدرة اللّه على إهلاكهم، كما أُهْلِكَ مَن سبقوهم ممّن كانوا أشدَّ منهم قوّةً وآثارًا في الأرض.

التّعبيرُ بالأخذ يَبثُّ الرُّعبَ في نفوس المُخاطَبين ويُحذِّرُهم من مثله

### نُكْتَةُ تكرار قولِه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾:

كَرَّرَ النّظمُ قَوْلَهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ "بَعْدَ أَنْ تَقَدَّمَ نَظيرُهُ في قَوْلِهِ: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾؛ لِتَقْريرِ أَخْذِ اللّه إيّاهُم بكُفْرِهِم

في تكرار التّعبير بالأخذ تحذيرٌ للمخاطَبين من أن يحصُلَ لهم ما حصل للسّابقين

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/ 39.

برُسُلِهِم، وتَهْويلًا على المُنْذِرينَ بهِم أنْ يُساووهُم في عاقِبَتِهِم كَما ساووهُم في أسْبابها"[1].

**نُكْتَةُ فصلِ جملة: ﴿إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾:**

الخالقُ القويّ الشّديد لا يُعجِزُه هؤلاء المَخلوقون مهما بلغت قوّتُهُم

جاءت جملة: ﴿إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ مفصولةً عمّا قبلَها لكمال الاتّصال الذي تُنَزَّلُ فيه الجملةُ الثّانية من سابقتها مَنزلَةَ الثّمرةِ من الشّجرة، إذ تُعدُّ جملةُ: ﴿إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ بمثابة التّقرير والتّأكيد لأخذ اللّه تعالى المشركين السّابقين على وجه من القوّة والسّرعة، إذِ الخالقُ القَويُّ الشّديدُ لا يُعْجِزُه هؤلاء المخلوقون مهما بلغت قوّتُهم، ولا يُعْجِزُه كذلك أحدٌ غيرُهم. ويمكن أن يكون الفصلُ لشبه كمال الاتّصال، الذي تُجيب فيه الجملةُ الثّانية عن سؤال أثارته الجملةُ السّابقة في نفس المُتلقّي عن السّبب في أخذ اللّه الكافرين السّابقين على وجه من القوّة والسُّرعة، فتأتي الجملةُ المفصولةُ لتُجيبَ عنه، ولِتُفْصَل عمّا قبلَها كما يُفْصَل الجوابُ عن السّؤال.

**غرضُ تتابع المُؤَكّدات في فاصلة الآية:**

القوّة والشِّدَّة صفتان لازمتان لردع المشركين وتحذيرهم

جيء بقوله: ﴿إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ مؤكَّدًا بـ(إنّ) والجملةِ الاسميّة؛ لتحقيق وتأكيدِ اتّصاف اللّه تعالى بالقوّة والشّدّة اللّازمَيْن لتحذير مشركي مكّة وما حولها بصفة خاصّة، وتحذيرِ المشركين بصفةٍ عامّة مِن أن يَنهجوا نهجَ السّابقين، ويستمرّوا على ما هم فيه من الإعراض والكفر، لئلّا يأخذَهم اللّهُ تعالى أخذَ غَضَبٍ وانتقام، كما أخذَ الكفّارَ الذين سبقوهم، ولأنّه سبحانه قضى أن تكون رسالةُ محمّد ﷺ رحمةً عامّةً، اشتدّ عليهم نكيرُه، واشتدّ تحذيرُه.

**نُكْتَةُ إضمارِ اسم الجلالة بعد إظهاره:**

في جملة: ﴿إِنَّهُۥ قَوِيٌّ﴾ عبّر البيانُ الكريم بالضّمير دونَ الاسم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 121.

الظّاهر؛ جريًا على الأصل في التّعبير عن العَلَم الذي سبق ذِكرُه بالضّمير، لِما يفيدُه التّعبيرُ بالضّمير مِن استحضار المُتَحَدَّث عنه وتعيينِه تعيينًا يَحول دونَ صرفِ الحديث عنه إلى شيء آخر، والمعنى: إنَّ اللّهَ الذي أخذهم قويٌّ شديدُ العقاب، وفيه القَصْدُ إلى سُرعة الإنهاء إليهم، وتنزيهِ اللّه من أن يَكْثُر ذِكْرُه باسمه الأعظم أمامَ المشركين إلّا لضرورة، وأنّ الضّمير أعرفُ المعارف، وأنّ اللّه يُثْني عليه بالإيجاز كما يُثْني عليه بالإطناب، وأنّ قطع دابرِ الذين ظلموا آيةٌ من آيات اللّه.

تعيينُ المُتَحَدَّث عنه واستحضارُه

**نُكْتَةُ خَتْمِ الآية بالاسمَين الجليلَين:**

خَتْمُ الآيةِ بجملة ﴿إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ المشتملةِ على اسمي ﴿قَوِيٌّ﴾ و﴿شَدِيدُ﴾، يجعلها كالتّذييل المُؤكِّد لِما سبقها، من أنَّ اللّه قادرٌ على أخذ الكافرين وإهلاكهم - بسبب كفرهم به وتكذيبهم رسلَه - على وجه من السّرعة والشّدّة، "فالقويّ لا يُعۡجِزُهُ شَيۡءٌ، فلا يُعَطِّلُ مُرادَهُ ولا يتَرَيَّثُ، و﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ بَيانٌ لِذَلِكَ الأَخْذِ عَلَى حَدِّ قوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ٤٢﴾ [القَمَر: 42]"[1].

القَويُّ لا يُعجِزُهُ شَــيءٌ، فلا يُعَطِّلُ مُرادَهُ ولا يَتَرَيَّثُ

**نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿قَوِيٌّ﴾:**

جيء بالخبر ﴿قَوِيٌّ﴾ نكرةً مُنوَّنًا، لما يُفيده التّنكيرُ والتّنوين من التّعظيم والتّفخيم اللّازمَين لتحذير مشركي مكّة، ومَنْ ينهَجُ نَهْجَهم من قوَّة اللّه وقُدرته على أخذهم أخذًا عظيمًا، إن هُمُ استمرّوا على الكُفر والعِناد، كما فعَلَ الذين مِن قبلهم.

قـوّةُ الله تعالى لا تَعْدِلُها قوّةٌ، ومن تَـوهّمَ غيرَ هذا فلا عقلَ له

**غرض التّرتيب بين الاسمَين الجليلَين:**

بدأ النّظمُ الكريم بذِكْر اسم اللّه القوي لمناسبته للأخذ والاستئصال، ولتأكيد قدرةِ اللّه تعالى على إنزال العذاب على وجه من الشّدَّة والسّرعة المفهومِ من التّعبير بفعل الأخْذ المعطوفِ على

الـبَـدْءُ بالـقوّة يُناسب الأخْذَ، والتّثنيةُ بالشّدّة تـدفـعُ تَـوَهُّـمَ ضَعفِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 121.

فعلِ الكُفْر بالفاء، وثَنَّى بـ ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ لدفع ما قد يُتوهَّم من أنَّ الأخذ بسُرعةٍ يُمكن أن يُقَلّل من شِدّة العقاب وقوّته، ولأنَّ ما يتعلّق بنوعيّةِ الأخذ وكيفيّته يأتي تاليًا لِما يتعلّقُ بالقُدْرة عليه.

**دلالةُ الإضافة في قوله: ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾:**

عـقـابُ الـلـه شديدٌ أليمٌ لأنّه يـأتي بعد إنـذار وتحذير وإمهال

﴿ٱلۡعِقَابِ﴾ مأخوذ من: التّعقيب والمعاقبة[1]، وفاعل الذّنب يستحقُّ العقوبةَ بعد فعلِ الذّنب مباشرةً بدون تأخير؛ أي: يستحِقُّ العقابَ مباشرةً في الدّنيا، ولكنّه سبحانه قد يُؤَخِّرُه، لَعَلَّه يتوب ويسقط عنه؛ فالعقاب: يقع في الدّنيا فقط، بينما العذابُ قد يُؤَخَّر، وقد يقع في الدّنيا والآخرة[2]، وفي قوله: ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ عبَّر النّظمُ عن وصف الشّدّة الواقع خبرًا ثانيًا للحرف النّاسخ بصيغة المبالغة مع إضافته إلى ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾؛ للدّلالة على أنَّ اللّه تعالى إذا أنزل العقابَ فإنَّ عقابَه يكون شديدًا أليمًا، لأنَّه يأتي بعد إنذارٍ وتحذيرٍ وإمهال.

**معنى (ألْ) في ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾:**

(ألْ) في ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾ لتعريف الجنس، وفي التّعريف بها دلالةٌ على أنَّ أيَّ عقابٍ يُنزِلُه اللّهُ بالمشركين يكون شديدًا أليمًا، سواء أكان ذلك فيما مضى أم فيما هو آتٍ.

## ۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

**الأخذ والإهلاك:**

الأخذُ هلاكٌ على وجـه الـسّرعـة والـشّـدّة، والإهـلاك يكون بالموت أو الشّدّة أو الفقر

الأخَذَ في الأصْلُ: حَوْزُ الشَّيءِ وجَبْيُهُ وجَمعُهُ. تَقولُ أخَذْتُ الشَّيْءَ آخُذُهُ أخْذًا[3]، تارةً بالتّناول نحو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً بالقَهْر نحو: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 240.

(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 24/ 47.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).

ﵟٱلصَّيۡحَةُﵞ [هود: 67][1]، وهو: العقاب المباغتُ السّريع، يقال: أخذ فلانٌ الموتُ، إذا نزل به بسُرعة وقوّة[2].

والهلاك يدلُّ على كَسْرٍ وسُقوطٍ. ويُقالُ لِلْمَيِّت: هَلَكَ، قال تعالى: ﵟإِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَﵞ [النّساء: 176]، وقال مُخبرًا عن الكفّار: ﵟوَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚﵞ [الجاثية: 24]، ويقال للعذاب والخوف والفقر: الهَلاكُ، وعلى هذا قولُه: ﵟوَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٢٦ﵞ [الأنعام: 26]، وقولُه: ﵟوَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍﵞ [مريم: 74][3].

ولمّا كان الحديثُ عن العذاب الموجِبِ للموعظة والاعتبار ناسبَ التّعبيرَ بمفردة (الأخذ) الدّالّة على العقوبة السّريعة على وجهٍ من القوّة والشّدّة، دونَ (الإهلاك) الذي قد لا يُفْهَم منه ذلك؛ لدلالته على الموت والشّدّة والفقر، فإنَّ كلَّ أحدٍ يهلك يعني يموت، وفي القرآن المجيد: ﵟكُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚﵞ [القصص: 88].

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (أخذ).

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/ 272.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (هلك).

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٢٣ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ٢٤﴾ [غافر: 23 - 24]

## مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قبلَهُما:

تفصيلُ خبرِ مَنْ كانوا أكثرَ السّابقين شدّةً، وأقربَهم زمانًا لمشركي مكّة

بعد أن وبَّخت الآيتان السّابقتان مشركي مكّةَ بسبب غفلتهم عنِ الاتِّعاظ بما حدث للكافرين السّابقين، وحَذَّرتْهم من أن يَنزِلَ بهم من العذاب والهلاك مثلُ ما نزل بسابقيهم؛ ناسبَ أن ينتقل البيانُ القرآنيُّ إلى تفصيل قِصّة نبيِّ اللّه موسى مع فرعونَ وهامان وقارون؛ لكونهم أشدَّ الذين كانوا من قبلُ، وأقربَهم زمانًا من مشركي مكّة؛ تسليةً للرّسول، وتثبيتًا له ولأتباعه، وتهديدًا للكافرين النّاهجين نهجَ فرعون وقومِه في اتّهام رسولِهم بالكذب والسّحر[1].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسُلۡطَٰنٖ﴾: (سلط) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو القوَّةُ والقَهْرُ. مِنْ ذَلِكَ السَّلاطَةِ، مِنَ التَّسَلُّطِ وهو القَهْرُ، ولِذَلِكَ سُمّي السُّلْطانُ سُلْطانًا، والسُّلْطانُ الحُجَّةُ[2]، سُمّي بذلك لما يلحق من الهجوم على القلوب، لكنَّ أكثرَ تسلّطِه على أهل العِلْم والحِكمة من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ [غافر: 35][3]، والمعنى في الآية هنا: حُجّة.

2) ﴿مُّبِينٍ﴾: (بين) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو بُعْدُ الشَّيْءِ وانْكِشافُهُ، يُقال: بانَ الشَّيْءُ وأبانَ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَف. وفُلانٌ أَبْيَنُ مِنْ فُلانٍ؛ أيْ: أَوْضَحُ كَلامًا مِنْهُ[4]، ويقال: بانَ كذا؛ أيِ: انفصل وظهر ما كان

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 506، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 249، والبقاعي، نَظْمُ الدُّرر: 17/ 47، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 315.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلط).

(3) الراغب، مفردات القرآن: (سلط).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).

مستترًا منه، قال تعالى: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٥٥﴾ [الأنعام: 55]، وقال: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256]. وقوله هنا: ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾[1]؛ أيَ: قويّ ظاهر.

## المَعنى الإجْماليُّ:

رسولٌ مُؤيَّدٌ بالمعجزات، يُتَّهَم بالسّحْر والكَذِب

في سياق تفصيل قصّة نبيّ اللّه موسى عليه السلام مع فرعون وقومِه التي وقعت أحداثُها على أرض مصر القبطيّة، توضّحُ الآيةُ الأولى أنَّ اللّه تعالى أرسل موسى عليه السلام إلى فرعونَ وهامان وقارون، مصحوبًا بالآيات القويّة الظّاهرة الدّالّة على صدقه في التّبليغ عن اللّه، وتُبيّن الآيةُ الثّانية أنّهم اتّهموه بأنّه ساحرٌ يُمَوّه على النّاس بسحره، وكذابٌ في دعواه أنّه رسولٌ من ربّ العالَمين[2].

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### معنى الواو في ﴿وَلَقَدۡ﴾:

في القصص تسليةٌ للنّبيّ ﷺ، وتثبيتٌ لقلبه وللمؤمنين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ﴾ استئنافيّة، والجملةُ بعدَها مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ للشّروع في تفصيل خبر نبيّ اللّه موسى عليه السلام مع فرعونَ وهامانَ وقارونَ، وكيف استقبلوا خبرَ إرسالِه إليهم؛ تسليةً للرّسول ﷺ والمؤمنين معه، وتحذيرًا للمشركين من أن يَحِلَّ بهم مثلُ ما حلَّ بفرعون وقومِه.

### معنى اللّام في (لَقد):

أفعال مشركي مكة مع الرسول تشبه أفعالَ فرعون وقومه مع موسى

اللّام في (لَقد) في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ﴾ جوابٌ لقسم محذوف، و(قد) حرفُ تحقيق[3]، عبَّر بهما النّظمُ في مُفْتَتح القصّة؛ للإبلاغ في تأكيد تفاصيلها، وتأكيدِ ما حدث لآل فرعون في

---

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (بين).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 278.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 476.

نهايتها؛ للتّشابه الكبيرِ بين ما فعلوه مع نبيّ اللّه موسى، وما يفعله مشركو مكّة مع رسول اللّه وأصحابِه، مع وجود فارقٍ كبير في القوّة بين فرعونَ ومشركي مكّة.

### نُكْتَةُ تتابعِ المؤكِّدات في خبر إرسال موسى عليه السلام:

جميعُ الرّسل السّابقين تمَّ تكذيبُهم واتهامُهم بما ليس فيهم

جاء الخبرُ بإرسال اللّه موسى عليه السلام إلى فرعونَ وهامانَ وقارونَ وأتباعِهم مُؤَكَّدًا بالقَسَم و(قد)، وتكرار ضمير العظّمة؛ لِما سبق بيانُه، ولتأكيد حصول إرسالِه مصحوبًا بالآيات البيّنات والمعجزاتِ الباهرات - الدّافعة لتصديقه والإيمان بما جاء به - حصولًا مُؤكّدًا لا شكَّ فيه ولا افتراء؛ بقصد تسليةِ الرّسول، ودعوتِه للتّحلّي بالصّبر على تكذيب قومِه واتهاماتِهم له، من خلال تأكيد حصولِ التّكذيب والاتّهام للأنبياء السّابقين بعامّة، ولنبيّ اللّهِ موسى بخاصّة.

### نُكْتَةُ إسناد فعل الإرسال إلى ضمير العظّمة:

إنّه إرسالٌ يليق بقدرة الله تعالى وعَظَمتِه

جاء فعلُ الإرسال مُسْنَدًا إلى ضمير اللّه تعالى في قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ بصيغة التّعظيم؛ لتفخيم الإرسال وتشريفِ الرّسولِ المُرسَلِ إلى فرعون "المتعاظِم، الذي تصاغرت به نفسُه، وتحاقرت عنده همَّتُه، وانطمس حِسُّه"[1]، والمعنى: إنّه إرسالٌ يليق بجلال اللّه تعالى وعَظَمتِه.

### بلاغةُ الالتفات من الغيبة إلى التّكلّم:

الالتفات في البيان وتلوينُ الأسلوب، فيه تنشيطٌ للسّامع وإيقاظٌ للإصغاء إليه

انتقل النّظمُ الكريم من التّعبير بضمائر الغَيبة واسم الجلالة العَلَم في الآية السّابقة، إلى التّعبير بضمير المتكلّم في قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، وقولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ "لأنّ الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسنَ؛ تطريةً لنشاط السّامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد"[2]، ولما يفيدُه العُدولُ إلى أسلوب

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 48.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 14.

التّكلُّم من تفخيم المُتَحَدَّث عنه وتعظيمِه، وتنبيهِ المُخاطَبين إلى أنّ ما يتمُّ إسنادُه أو إضافتُه إلى ضمير الحقّ بما له من العظّمة والاقتدار، يجب أن ينالَ حقَّه من التّقديس والتّقدير، ومن الواجب أيضًا الإيمانُ به وتصديقُ مَن حَمَلَه وبلَّغه.

### معنى الباء في ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

إرسالُ موسى كان مصحوبًا بالآيات البيِّنات والمعجزات الباهرات

الباء في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ حرف جَرّ يفيد الإلصاق، وفي التّعبير به إشارةٌ إلى أنَّ الدّلائلَ البيّناتِ، والمُعجزاتِ الباهرات، كانت مصاحبةً لقيام موسى بإنذار فرعونَ وهامانَ وقارونَ وتبليغِهم رسالةَ اللّه؛ حرصًا على أن يستجيبوا له، وأملًا في أن يُؤمنوا به، ويتّبعوا النّورَ الذي أُنزِل معه.

### نُكْتَةُ إضافةِ الآيات إلى ضمير العظَمة:

اللهُ تعالى يختصُّ الأنبياءَ بالمعجزات؛ لتكون بُرهانًا على أنَّهم رُسُلُه

جيء بلفظ (الآيات) مضافًا إلى ضمير العظَمة في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ لتفخيم المعجزات وتعظيمِها، والدّلالة على أنّها مِنْ عند اللّه، وأنّه سبحانه هو الذي اختصَّ بها نبيَّه موسى، وأظهرَها على يديه؛ لتكون برهانًا على أنَّه رسولٌ مِنْ عنده، ولحماية جناب التّوحيد، فلا يُعبَد بها غيرُ اللّه، لما فيها من خَرْقِ العادة، كإحياء القتيل، وانقلاب العصا حيَّةً تَلْقَفُ ما يَأْفِكون.. إلخ.

### معنى الواو في قوله: ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾:

إيمان المؤمنين ليس مجازفةً ولا إشفاقًا على النّبيّ المُرسَل؛ بل انصياعٌ للحُجَّة

الواو في قوله: ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ لعطف ما بعدها على ما قبلها ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، من قبيل عطف الخاصّ على العامّ؛ نظرًا لأهمية المعطوف وتميُّزِه عن غيره من الآيات، بكونه يُثير مَنْ خوطِب به ويَدفعُه إلى الإيمان والاتِّباع إذا كان نَقيَّ الفطرةِ غيرَ مغرورٍ ولا مُتكبِّرٍ. وفيه التّنبيهُ على أنّ إيمان المؤمنين ليس مجازفةً ولا إشفاقًا على النّبيّ المُرسَل أو تعطّفا عليه، وإنّما هو انصياع للحُجّة، واتّباع للبراهين.

### نُكْتَةُ تنكير (سُلْطانٍ):

الغرض من تنكير المعطوف: (سُلْطانٍ) هو التّعظيم والتّفخيم، والدّلالةُ على أنَّه "أمرٌ قاهرٌ عظيمٌ جدًّا، لا حيلةَ لهم في مُدافعةِ شيءٍ منه"، والتّنكير دليلٌ على تَعدُّده، فهو لكلّ رسولٍ بحسبه، لا أنَّه واحد لجميع الرّسل، فهو مُتضَمّنٌ الحَثّ على تَعلُّمِه واستقرائِه واستخراجِه من السّتر.

سلطانُ الله تعالى قاهرٌ لا يَعْدِلُه سلطانٌ مهما أوتيَ من شِدّة البأس

### نُكْتَةُ تقديمِ الآيات على السُّلْطان:

قَدَّم النّظمُ الآيات على السّلطان في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾؛ لأن المُقدَّم عامٌّ، والمُؤَخَّر خاصٌّ، وبه يتحقّق التّنويه بالسّلطان المبين، ويتمُّ تفخيمُه، من خلال ذِكْره مَرّتين؛ إحداهما: في العامّ، والأُخرى: على وجه الخصوص.

تفخيمُ السّلطانِ المبين والتّنويه به لذِكْره مَرّتَين

### غرض وصف ﴿وَسُلۡطَٰنٖ﴾ بـ ﴿مُّبِينٍ﴾:

آثَر النّظمُ وصفَ ﴿وَسُلۡطَٰنٖ﴾ بـ ﴿مُّبِينٍ﴾؛ للدّلالة على أنّه "بيِّنٌ في نفسه، مُنادٍ لكلّ مَنْ يمكن إطلاعُه عليه أنّه ظاهرٌ جدًّا، وذلك الأمر هو الذي كان يمنع فرعونَ من الوصول إلى إيذاء موسى، مع ما له من القوّة والسّلطان"(1).

ما أيَّدَ اللهُ به موسى كان أمرًا بيِّنا في نفسه يمنعُ فرعونَ مِنْ إيذائه

### نُكْتَةُ تقديمِ الإرسال بالآيات والسّلطان على المُرسل إليهم:

آثَر النّظمُ تقديمَ الآياتِ والسّلطانِ على المُرسَلِ إليهم: ﴿فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾؛ لأنَّ تقديمَ البراهين والأدلّة التي تُؤكّد صِدقَ الرّسول أهمُّ وأولى من تقديم المُرسَل إليهم، كما أنَّ فيه تشنيعًا بهم وتقبيحًا لصنيعهم؛ لأنّهم كفروا بموسى مع أنّه مُؤَيَّدٌ بالمعجزات، واتّهموه بالكذب مع أنَّه اصطحب معه الآياتِ الدّالّةَ على صدقِه. وللمناسبة، فإنّه لمّا قُدِّم ذِكْر موسى عليه؛ قُدِّم ما هو ألْحَقُ به وأصْحَبُ له؛ وهو الآيات والسّلطان المُبين.

تقديم البراهين على صدق الرّسول أولى من تقديم المُرْسَل إليهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 48.

### نُكْتَةُ ذِكْر (هامانَ) و(قارونَ) مع ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾:

ذَكَرَ البيانُ الكريمُ (هامانَ) و(قارونَ) دونَ غيرهما من قوم فرعون؛ "لِمَكانَتِهما في الكُفْرِ، ولِأَنَّهُما أشْهَرُ أتْباعِه"[1]، وأكثرُهم عونًا له واشتراكًا معه في كثير من المكائد والمؤامرات ضِدّ نبيّ اللّه موسى وبني إسرائيل.

هامانُ وقارونُ أشهرُ أتباعِ فرعونَ، وأكثرُهم عونًا له، واشتراكًا معه في المكائد

### دلالة التّرتيب بين هذه الأسماء:

اقتصر النّظمُ في تعديته لفعل الإرسال على ﴿فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾؛ لأنّ الأكابر أوّلُ مَنْ يُتَوجَّهُ إليهم بالأمر؛ إذ بانقيادهم ينقادُ غيرُهم[2]، وبدأ بذكر ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾؛ لأنّه الأكثرُ تأثيرًا في القِبْط، بوصفه الملكَ الآمرَ النّاهي، وثنّى بـ (هامانَ)؛ لأنّه وزيرُه وشريكُه في التّوجيه والتّأثير، وبوصفه واحدًا من أهل مصرَ، وصاحبَ رأي مَلِكهم ومَوضِعَ مشورته، وثَلَّث بـ (قارونَ)؛ لأنَّه كان من أتباع موسى ولكنّه انصاعَ لفرعونَ، وانضمّ إليه وآزره في مُعاداة نبيِّ اللّه ورَميهِ بالسّحر والكذب، وأبطره غناه؛ فاستغله في الصَّدِّ عن دين اللّه؛ فكان كذلك شريكًا مُهِمًّا في التّأثير، وقبولِ ما يُتَّهَمُ به نبيُّ اللّه.

التّرتيب في الآية تنازليٌّ من حيث الأهميّةُ والتّأثيرُ

### معنى الفاء في قوله: ﴿فَقَالُواْ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ﴾ حرف عطف يُفيد التّعقيبَ والإسراعَ في قولهم: ﴿سَٰحِرٞ كَذَّابٞ﴾، ما يعني أنّ فرعون وهامان وقارون سارعوا في اتّهام نبيِّ اللّه موسى بالسّحر والكَذِب من غير فِكْرٍ، ولا رَويّةٍ، ولا تَدَبُّرٍ أو تَوقُّفٍ، مع ما جاءهم به بشيء من الاهتمام ومراجعة النّفس.

الثّلاثةُ سارعوا في اتِّهام نبيِّ الله بالسّحر والكَذِبِ مِنْ غير فكرٍ ولا رَويّةٍ

### نُكْتَةُ الاتهامِ بالسّحر، وتنكيرِ ﴿سَٰحِرٞ﴾:

قوله: ﴿سَٰحِرٞ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو ساحِر، ورَمَوه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 249.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 48.

ظهور المعجزات على يد نبيّ الله موسى أدّى إلى رَمْيه بالسّحر

به "لِما ظَهَرَ عَلَى يدَيْهِ مِنَ قَلْب العَصا حَيَّةً، وظُهورِ النّورِ السّاطِعِ عَلَى يدِهِ"[1]، و"لعجزهم عن مقاهرته"[2]، وفي تنكيره دلالةٌ على أنّهم يرونَهُ ساحِرًا عظيمًا لا يُقادَر قَدْرُه، ولا يبلغ أحدٌ في السّحر مبلَغَه، وأنّ هذا يدعوهم ويدعو غيرَهم من الرّعية إلى الحَذَر منه، وعدمِ الخَديعةِ بما يقولُ ويدَّعي.

### نُكْتَةُ وصفِ ﴿سَٰحِرٌ﴾ بـ ﴿كَذَّابٌ﴾:

الكفّار يتّهمون أنبياءَهم بأخَسّ الصّفات وأكثرِها تنفيرًا

يحكي النّظمُ الكريم وصفَ فرعونَ وهامان وقارون وأتباعَهم موسى عليه السلام بـ ﴿سَٰحِرٌ﴾، وإتّباعِهم هذا الوصفَ بـ ﴿كَذَّابٌ﴾؛ ليجمعوا له أخسَّ الصّفات وأكثرها تنفيرًا؛ بسبب "خوفهم من تصديق النّاس له، واجتماعِهم عليه"[3].

### نُكْتَةُ المبالغةِ في قولهم: ﴿كَذَّابٌ﴾:

كما يحكي البيانُ الكريم أنّهم صاغوا اتِّهامه بالكذب بصيغة المبالغة، لادِّعاء أصالته فيه، وبلوغِه مبلغًا كبيرًا في ممارسته، و"كأنَّ حِرْفتَه الكذبُ، أو دائمًا يكذب"[4]، أو لجُرأته في مواجهة فرعونَ وهامانَ وقارونَ به.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 249.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 49.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 49.
(4) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 24/ 68.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥﴾

[غافر: 25]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تفصيلُ خبرِ موسى مع فرعون وقومِه بعد إجماله

بعد أن أجمل البيانُ القرآنيُّ في الآيتين السّابقتين خبرَ موسى مع فرعونَ وهامان وقارون وقومِهم؛ ناسبَ أن يشرع في تفاصيله، جَرْيًا على عادة السّورة الكريمة في البيان والتّفصيل، تسليَةً وتثبيًا للرّسول ﷺ وأتباعِه، وتحذيرًا لمشركي مكّة منِ الاستمرار على كفرهم، وتهديدًا بإنزال العذاب بهم(1).

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱسۡتَحۡيُواْ﴾: (حيي) أصْلانِ؛ أحَدُهُما: خِلافُ المَوْتِ، كالحَياة والحَيوان، وهُما ضِدُّ المَوْتِ والمَوتانِ(2). والمعنى المحوريّ: امتلاءٌ بالطّراءة التي لها حِدّةٌ ما، أو فاعليّةٌ تتمثّل في رهافة الحِسّ وفي النّمو حركةً أوِ امتدادًا، وكلُّ ما في القرآن من التّركيب من الحياة: ضِدّ الموت، ومنه: الاستحياء، أي: إبقاءُ الشّخصِ حيًّا وعدمُ قتلِه، قال: ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 49](3)، وهو المعنى المُراد في الآية.

2) ﴿كَيۡدُ﴾: (كيد) أصْلٌ صَحيحٌ يدُلُّ على مُعالَجَةٍ لِشَيْءٍ بشِدَّةٍ، قالوا: وكُلُّ شَيْءٍ تُعالِجُهُ فأنْتَ تَكيدُهُ. هَذا هو الأصْلُ في الباب(4)، ثُمَّ يُسَمّونَ المَكْرَ كَيْدًا، تقول: كاد يكيد كَيْدًا ومَكيدةً. قال تعالى:

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 49.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حي).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كيد).

﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ [يوسف: 5]؛ أيْ: فيحتالوا احتيالًا، وقال: ﴿فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ٦٠﴾ [طه: 60] أي: حيلتَهُ(1)، وهو المراد في الآية.

## ۞ المَعنى الإجْماليُّ:

مــؤامَــراتٌ وتـهـديـداتٌ لن تنجح في الإضرار بدعوة الحقّ

تُبيِّن الآيةُ الكريمة أنَّ نبيَّ اللّه موسى عليه السلام واصَلَ دعوتَه لفرعونَ وقومِه على الرّغم من أنّهم اتّهموه بالسّحر والكَذِب، وتوَضِّح أنّه حين خاطبهم بما أمره اللّهُ أن يخاطبهم به، وجابههم بالحقّ الذي زوَّده اللّهُ تعالى به، ما كان منهم إلّا أن قالوا مُتوعِّدين ومُهدِّدين: اقتلوا الذّكورَ من أبناء الذين آمنوا مع موسى، واتركوا الإناثَ بدون قتلٍ لخِدمتِكم؛ ليكون ذلك أبلغَ في إذلالهم؛ فإنّ بقاء النّساء بدون رجالٍ فتنةٌ كبيرة، وذُلٌّ عظيم، كما توضّح الآيةُ أنّ كيدَ الكافرين ومؤامراتِهم ضدَّ أنبياءِ اللّه ورسلِه لن يوّقِفَ دعوةَ الحقّ، ولن يَضرَّ أحدًا من المؤمنين السّائرين في طريقه أدنى ضَررٍ(2).

## ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### معنى الفاء في ﴿فَلَمَّا﴾:

الأنـبـيـاء لا يـكـترثـون بـتـهـديـدات المـشـركـين ومؤامراتهم

الفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ هي فاء الاستئناف، الدّالّة على أنّ موسى عليه السلام واصل دعوته لفرعونَ وهامانَ وقارونَ وأتباعِهم، "غيرَ مُكترث بقولهم: ﴿سَٰحِرٞ كَذَّابٞ﴾"(3). ويمكن أن تكون الفاء للعطف والتّرتيب، والمعنى: إنّ قولهم عن موسى: إنّه ساحر كذّاب ترتَّب عليه أن جاءهم بالبيّنات الدّالّة على صدقه فيما يُبلّغُه عن اللّه تعالى.

### معنى (لَمّا) وأثر التّعبير بها:

(لمّا) في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ هي الظّرفيّة الحينيّة،

(1) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 399.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 278.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 315.

استحضار المشاهد الماضية يدعَمُ أهلَ الحق ويُحذِّر أهلَ الباطل

التي ترجع بالمُتلقّين إلى الزّمان الذي جاء فيه موسى فرعونَ وقومَه بالبيّنات، أملًا في أن يُصدِّقوه، ويَتَّبعوا النّورَ الذي أُنزل معه، ليَنْجوا من عذاب الله وسَخَطه؛ لِما لاستحضار الصّورة من أثرٍ داعم للرّسول والمؤمنين معه، مُنذرٍ مُهدّدٍ للكافرين الذين يفعلون مع رسول الله فِعلَ فرعونَ وهامانَ وقارونَ وأتباعِهم مع نبيّ الله موسى، حيثُ يستلهمون منه الصّبرَ والثّباتَ، أُسوةً بأتباع الرّسالات، ويزدادون إيمانًا ويقينًا بأنّ ما امتُحِنوا به لن يقضيَ بهم إلى خُذلان أو وهْن، أو يجعلَهم ينفضّون عن نبيّهم؛ فإنّهم خير الأُمم، كما أنّ نبيّهم ﷺ خيرُ الأنبياء.

### بلاغةُ التّعبير بأسلوب الشّرط:

إثارة المُتلقّي وتنبيهُه لمتابعة الحَدَث والتقاطِ الدّرس والعِبرة

ويمكن في (لَمّا) أن تكون شرطيّةً غيرَ جازمة، وقوله: ﴿جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ هو فعل الشّرط، وجملة: ﴿قَالُواْ﴾ جوابُه، وأوثِر التّعبيرُ عمّا حدث من فرعونَ وقومِه عندما جاءهم موسى بالبيّنات بأسلوب الشّرط؛ لِما يمتاز به من بيان المعنى وإيضاحه، وإثارةِ المُتلقّي وتنبيهِه إلى متابعة الأحداث، والتقاطِ الدّرسِ المناسب لحاله، والعبرةِ المُؤثّرة في أمره؛ لتكوُّنِه من جملتين، ترتبطُ الثّانيةُ منهما بالأولى ارتباطَ المُسبّب بالسّبب، ما من شأنه أن يدفع المشركين إلى العُدول عمّا هم فيه من سَيْرٍ على خُطى فرعونَ وشركائِه؛ لئلّا ينزلَ بهم مثلُ العذاب الذي أصابهم.

### دلالة التّعبير بفعل المَجيء:

مجيء موسى بالبيّنات كان ذا خطر وشأن؛ لإقامته الحُجّة على فرعونَ وقومِه

قوله: ﴿جَآءَهُم﴾ جملةٌ مكوّنة من فعل وفاعل مستترٍ يَرجع إلى نبيّ الله موسى، وضميرٍ غائبٍ في محلّ نصبٍ مفعول به، يرجع إلى فرعونَ وهامانَ وقارونَ وأتباعِهم. وآثَر البيانُ الكريم التّعبير بالفعل: ﴿جَآءَهُم﴾ دون (أتاهم)؛ لما في المجيء من صعوبة[1] تدلُّ

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (جاء).

على أنّه كان مجيئًا ذا خَطَرٍ وشأنٍ وهيبةٍ؛ لإلزامه مَن يخاطبُهم الدّليلَ على صدقِه، والإيمانَ بما أُرسِل به، بسبب قوّة الأدلّة التي أتى بها، وشدّةِ ظهورِ البراهين التي ساقها. والفعل ﴿جَآءَهُم﴾ أيضًا مُتضمِّنٌ الإخبارَ بأنَّه رسولٌ من ربِّ العالَمين، قد جاء ببيّنةٍ وبُرهان وآيةٍ وسلطان، فإذا سُئِل عن آيته أظهرَها؛ وهي المدلولُ عليها هنا ضمنَ بلاغِه الدّعاءَ إلى اللّه وحدَه بقوله جلّ وعزّ: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

### معنى ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ عِندِنَا﴾:

﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الابتداء، والمعنى: أنّ الأدلّة التي جاء بها موسى من عند اللّه تعالى ابتداءً، وليست من عند أحدٍ غيرِه سبحانه.

### فائدة التّعبيرِ بالظّرفيّة في ﴿مِنْ عِندِنَا﴾:

قوله تعالى: ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ جارٌّ ومجرور متعلّق بمحذوف في محلّ نصب حال، وفائدةُ كون الحقّ من عند اللّه: الدّلالةُ على "أنَّهُ حُقٌّ خارِقٌ لِلْعادَةِ لا يَكونُ إلّا مِنْ تَسْخيرِ اللّه وتَأْييدِه، وهو آياتُ نُبوَّتِهِ التِّسْعُ"[1].

الحقُّ الخارق للعادة لا يكون إلّا من تسخير الله وتأييده

### نُكْتَةُ التّرتيب بين أشباه الجُمَل:

قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ جارٌّ ومجرور متعلّق بـ ﴿جَآءَهُم﴾، وقولُه: ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال كما سبق بيانه، ووجهُ تقديم قولِه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ على ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ أنَّ الاهتمامَ منصبٌّ على بيان كونِ المجيء مصحوبًا بأدلّةٍ وبراهينَ حقيقيّة لا يشوبُها شيءٌ من الكذب أوِ الادّعاء.

التّقديم في الغالب يكون للدّلالة على الاهتمام بالمُقدَّم

### مرجع الضّمير في ﴿قَالُوٓاْ﴾، ودلالتُه:

سبق القول بأنّ جملة: ﴿قَالُوٓاْ﴾ هي جواب (لمّا) الشّرطيّة الحينيّة، والضّميرُ المرفوع فيها يرجع إلى "فرعونَ ومَن معه، وقيل:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 122.

مَــنْ لــم يأمر بالقتل بلسان المقـال، أمـرَ به بلسان الحال

إنّ قارون لم يصْدُر منه هذه المقالة لكنّهم غلبوا عليه"[1]، ويرى ابنُ عاشور أنّ الضّمير المرفوع فيه "عائِدٌ إِلَى غَيْرِ مَذْكورٍ في اللَّفْظِ؛ لِأنَّهُ ضَميرُ جَمعٍ يدُلُّ عَلَيْهِ المَقامُ، وهُم أهْلُ مَجْلِسِ فِرْعَوْنَ الَّذينَ لا يخْلو عَنْهُم مَجْلِسُ الملك في مِثْلِ هَذِهِ الحَوادِثِ العَظيمَةِ ... ، وإنَّما أُبْهِمَ القائِلونَ لِعَدَمِ تَعَلُّقِ الغَرَضِ بِعِلْمِه، ففِعْلُ ﴿قَالُوٓاْ﴾ بِمَنْزِلَةِ المَبْنيِّ لِلنّائِبِ أوْ بِمَنْزِلَةِ: (قالَ قائِلٌ)"[2]، وأيًّا كان القائلُ ففي إسناد الفعل إلى ضمير الجماعة دلالةٌ على أنّ مَنْ لم يأمُر بالقتل بلسان المقال أمَرَ به بلسان الحال، إذ رَضيَ به القومُ أجمعون، ورأوه مناسبًا.

### دلالة الأمر في ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ﴾:

يلجأ المجرمون إلــى التّهـديد والــوعـيـد؛ ظنًّا منهم أن ذلك سيؤثّر في أصحاب الرّسالة

قوله تعالى: ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ﴾ فعلُ أمر، والضّمير المرفوع فيه عائد إلى ملأِ فرعونَ وجنودِه باعتبار أنَّ الأمر بالقتل صادرٌ منه إليهم، ويمكن أن يعود الضّمير إلى فرعون باعتبار أنَّ القائل هم الملأ الذين حضروا مجلسَه، خاطبوه به "خِطابَ تَعْظيم، مِثْلَ: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩﴾ [المؤمنون: 99]"[3]، وأيًّا كان مرجعُ الضّمير فالغَرَضُ من الأمر بقتل أبناء الذين آمنوا مع نبيّ اللّه موسى تهديدُه وزَجْرُه؛ ليتراجعَ عن ادّعاء الرّسالة، وفي ذِكْره أيضًا تشنيعٌ بفرعون وقومِه، وتقبيحٌ لصنيعهم، ودلالةٌ على بلوغهم في الشّدّة والفجور مبلغًا فاقَ كفّار مكّة، ومع ذلك أخذهمُ اللّهُ تعالى أخذَ عزيزٍ مقتدر.

### نُكْتَةُ جمعِ ﴿أَبۡنَآءَ﴾:

قتلُ الذكور أشدُّ فجيعةً، وأكثرُ مهانةً وإذلالًا، وأقطع للنسل

في قوله: ﴿قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ جيء بمعمول فعلِ القتل: ﴿أَبۡنَآءَ﴾ جمعًا؛ لرغبة القائلين في أن يَعُمَّ القتلُ كلَّ أبناءِ الذين آمنوا مع نبيّ اللّه موسى من الذّكور، من غير استثناء لأحدٍ أيًّا كان، والمعنى: "خُصّوهم بذلك واتركوا مَنْ عداهم؛ لعلّهم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 316.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 123.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 123.

يُكَذِّبونَه"[1]، وخُصَّ الذُّكورُ بالقتل لأنَّ قتلَهم أشدُّ فجيعةً، وأكثرُ مهانةً وإذلالًا، وأقْطَعُ للنّسل، "ولِئَلّا ينْشَؤوا عَلَى دينِ موسَى فيقْوى بهِم، وتستمرَ دعوتُه من بعده"[2].

**غرض التّعبير بالاسم الموصول وصلته ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾:**

**من عادة المجرمين ترهيبُ النّاس منَ الاستجابة للأنبياء والمُصلحين**

عبَّر القائلون عن المضاف إليه باسم الموصول وصلته في قولهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾؛ ليتوصَّلوا من خلالهما إلى أنَّ السّبب في قتل الأبناء هو معاقبةُ آبائهم، والانتقامُ منهم؛ لأنّهم آمنوا بموسى واتّبعوه، فيكون ذلك رادعًا لكلِّ من تُسوِّل له نفسُه أن يفعل فعلَهم، وينهجَ نهجَهم، وفيه من تفظيع الجُرم وتقبيحِه ما لا يخفى.

**نُكْتَةُ التّعبير بالفعل الماضي، وحَذْفِ معموله:**

**لا يكون الإيمانُ حقيقيًّا إلّا إذا كان شاملًا**

عبّر القائلون بالفعل الماضي: ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ لدلالته بزمانه وبنائه على تحقُّقِ إيمانِهم وحصولِه حصولًا أكيدًا، وبلوغِهم فيه مبلغًا كبيرًا، وفي حَذْف متعلّقِه دلالةٌ على أنّهم آمنوا بكلّ ما جاءهم به موسى، واتّبعوه في سائر ما يدعوهم إليه.

**فائدةُ ذِكْر شِبهِ الجملة ﴿مَعَهُۥ﴾:**

**الإيمانُ الحقيقيُّ يستلزم المعيَّةَ والمؤازرةَ والنُّصرة**

﴿مَعَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ ظرفُ مكانٍ متعلّق بالفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾، أوثِر التّعبيرُ به دونَ غيره؛ لِما يفيده من المَعيّة والمصاحبة، الدّالَّة على أنَّ هؤلاء المؤمنين لا يتوقّفون عند الإيمان النّظري، وإنّما يتعدَّونَه إلى الإيمان العمليّ، المتمثّلِ في المعيّة والصّحبة والنّصرة، ما من شأنه أنْ يُقوّي شوكةَ موسى، ويساعدَ في انتشار دعوته.

**فائدة عطف قوله: ﴿وَٱسْتَحْيُواْ﴾:**

عَطَف القائلون الأمرَ باستحياء النّساء على الأمر بقتل الأبناء

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 50.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 506، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 249، بتصرف.

بالواو التي تُفيد المصاحبة؛ للإشارة إلى ضرورة حصول الأمرَين معًا، وألّا يتأخَّرَ استحياءُ النّساء "للخدمة في البيوت والاسترقاق"[1] عن قتل الأبناء، لأنَّ حصولَهما معًا أشدُّ وأنكى من حصولهما متفرِّقين أو متعاقبَين، كما أنَّه أكثرُ إلهاءً، وأقوى صرفًا وزجرًا لموسى عن دعوى الرّسالة، وللنّاس عن الإيمان به.

حصول قتلِ الأبناء واستحياء النّساء في آنٍ واحدٍ أشدُّ وأنكى من حصولهما متفرِّقَيْن

**دلالة الأمر** ﴿وَٱسۡتَحۡيُواْ﴾:

الأمرُ باستحياء النّساء يعني: إبقاءَهنّ على قيد الحياة وعدمَ قتلِهُنّ مثلَ الرّجال، لِما لإبقائِهنّ على قيد الحياة من فوائدَ لفرعون وقومِه، أهمُّها: استخدامُهُنّ في البيوت، ومعاشرتُهُنّ معاشرةَ الأزواجِ. وأضرارٍ تُؤذي موسى ومَنْ آمن به، منها: زَجْرُهم وإلهاؤُهم عن دعوتهم، والإبلاغُ في إذلالهم وإهانتهم.

استحياءُ النّساء واسترقاقُهُنّ إذلالٌ للرّجال وتشتيتٌ لفكرهم

**بلاغة المقابلة في الآية:**

فيما يَحكيه النّظمُ من قول المجرمين مقابلةٌ بين معنيين في قولهم: ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، ومعنَيين آخَرين في قولهم: ﴿وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ﴾، وهي مقابلةٌ تُبرِز مدى الكيدِ والإجرامِ الذي بلغه فرعونُ وأتباعُه، ومدى الشّدّةِ والقوّة التي تفوَّقوا فيها على غيرهم عبر العصورِ والأزمان، إذ لم يفعل ذلك أحدٌ ممّن كانوا قبلهم، ولا أحدٌ ممّن جاؤوا بعدَهم، ومع ذلك أبطل اللّهُ كيدَهم وأضلَّ سعيَهم.

بَلَغَ فرعونُ وقومُه في الشّدّة والإجرام ما لم يبلغه أحدٌ قبلَهم ولا بعدَهم

**معنى الواو في قوله:** ﴿وَمَا كَيۡدُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ للحال، والجملةُ بعدَها حاليّةٌ، جيء بها لبيان "أنَّ جَميعَ ما يسْعَوْنَ فيهِ مِنْ مُكايدَةِ موسَى ومُكايدَةِ مَنْ آمَنَ مَعَهُ، يبْطُلُ"[2]. ويمكن أن تكون

مَن أبطَلَ كيدَ فرعونَ قادرٌ على إبطالِ كيدِ غيرِهم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 249.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 506.

الواو اعتراضيّةً، والجملةُ بعدَها اعتراضٌ "جيءَ به في تضاعيف ما حُكيَ عنهم من الأباطيل؛ للمسارعة إلى بيان بُطلان ما أظهروه من الإبراق والإرعاد واضمحلالِه بالمَرّة"(1). وأيًّا كانت الواو والجملةُ التي تليها ففي التّعبير دلالةٌ على بُطلان ما يسعى فيه كفّارُ قريشٍ من كيدٍ لرسول الله ﷺ والمؤمنين معه، كما بَطَلَ كيدُ فرعونَ وقومِه لموسى وأتباعِه.

### بلاغة القَصْر ونَوْعِه وغَرضِه:

تأكيد بُطلانِ كيدِ الكافرين مهما بلغ من المكر والحيلة

في جملة: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ قُصِرَ كيدُ الكافرين على كونه في ضلال، قَصْرَ موصوفٍ على صفة، وهو قَصْرٌ حقيقيّ بطريق النّفي والاستثناء، عبَّر به النّظمُ الكريم للإبلاغ في تأكيد بُطلان كيدِ الكافرين، مهما بلغ من المكر والحيلة، وتحقيقِ عدمِ جدواه في الإضرار بالمؤمنين بأيِّ صورة من الصّور.

كيدُ الكفّار لا يُساوي شيئًا أمامَ كيدِ اللهِ القادرِ على إبطالِ كلّ كيدٍ

وأوثِر النّفي والاستثناء طريقًا للقَصْر؛ لأنَّه يمتاز عن غيره من الطّرق بأنّه يُستعمل عندما يكون الكلامُ موجَّهًا إلى مُخاطَبٍ مُنكرٍ للأمر أو شاكٍّ فيه، فيستلزمُ ذلك تأكيدَ المعنى من خلال نفي ثبوتِ أيِّ صفةٍ من الصّفات لكيد الكفّار ومكرِهم، ثمّ قَصْرُه على صفة الضّلال والفشل دونَ غيرِها من الصّفات؛ ليَطمئنّ المؤمنون ويمضوا في طريق إيمانهم، غيرَ عابئين بما يُدبَّر لهم، وليزدادَ الكافرون إحباطًا وفشلًا في الإضرار بالرّسل وأتباعِهم.

### نُكْتَةُ إظهارِهم بوصف الكفر:

ذَمُّ الكائدين، والتّشنيعُ بصنيعهم، والإشعارُ بعِلّة إبطالِ كيدهم

كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (وما كيد فرعون وقومِه إلّا في ضلال)، أو يقال: (وما كيدُهم إلّا في ضلال)، ولكنَّ البيان القرآنيَّ عدلَ عن ذلك إلى التّعبير عنهم بوصف الكافرين، فقال: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾؛ ليشملَ التّعبيرُ فرعونَ وقومَه، وكل مَنْ يكيد

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 316.

مثلَهم من الكافرين في مختلف العصور والأزمان[1]، يُزاد على ذلك أنّ "التّعبير بوصف الكفر فيه ذَمٌّ لهم، وتشنيعٌ بصنيعهم، وإشعارٌ بالعِلّة والسّبب في إبطال كيدهم"[2].

### دلالةُ إضافة الكيد إلى الكافرين:

كيدُ الكافرين كلُّه في ضلالٍ ونهايتُه الفشلُ

في إضافة الكيد إلى الكافرين في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّ الكيد الذي يكيده الكافرون فقط هو المقصور على الضّلال، أمّا كيدُ المؤمنين فهو - إن وُجِد - فليس في ضلال ولا ضياع، لأنَّ كيدَهم ليس ككيد الكافرين.

### معنى (ألْ) في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

مهما كَبُر الكيدُ أو تضاءَل؛ فالله تعالى كفيلٌ بإبطاله

(ألْ) في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يمكن أن تكون للعهد الذّكريّ، والمعنى: وما كيدُ فرعونَ وهامانَ وقارونَ وقومِهما إلّا في ضلال. ويمكن أن تكون لتعريف الجنس، فيشمل جنسَ الكافرين إلى أن تقومَ السّاعةُ، ويدخل فيه المذكورون دخولًا أوليًّا بُرهانيًّا[3]. وأيًّا كانت اللّام ففي التّعبير دلالةٌ على أنَّ كيد مَن هم أقلُّ شدّةً وقوّةً من فرعونَ وهامانَ وقارونَ سيكون أيضًا في ضلال وضياع، ولن يَضُرَّ الرّسولَ والمؤمنين في شيء.

### مزيّةُ التّعبير بـ ﴿إِلَّا﴾:

التّشويقُ إلى معرفة حقيقة كيدِ الكافرين، لتثبت في نفوس المتلقين

التّعبير بـ ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ يمنح الأسلوبَ مزيّةَ الإثارةِ والتّشويق إلى الخبر الذي يأتي بعدَها، والموضِّح حقيقةَ كيدِ الكافرين، وأنّه لن يكون شيء غيرَ الضّلال والسّراب، ولن يترتّب عليه أدنى ضرر بالمؤمنين، فإذا ورد بعد تطلّع النّفوس إليه، ثبت فيها وتمكّن منها؛ لأنَّ المعنى إذا أُلْقيَ على

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 50.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 316، بتصرف.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 316.

سبيل التّشويق، تطلّعت النّفسُ إلى معرفته على سبيل التّصريح، فتتوجَّهُ إلى ما يَرِدُ بعدَ ذلك، فإذا أُلقيَ تمكّنَ فيها فضلَ تمكُّنٍ، وكان شعورُها به أتمّ، وفي إيثار هذه الطّريقة الأسلوبيّةِ دلالةٌ على أهميّة المعنى المرادِ ترسيخُه.

**بلاغة المجاز في قوله: ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾:**

كيدُ الكافرين محاصَرٌ حصار المَظروف في الظّرف

في قوله تعالى: ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾ استعارةٌ مكنيّةٌ، شُبّه فيها الضّلالُ بالحُفرة العميقة التي سقط فيها كيدُ الكافرين، وأصبح محاصرًا حصارَ المظروفِ في الظّرف، ما يعني أنّه فَقَدَ التّأثيرَ والإضرارَ بأيِّ أحدٍ بصفة عامّة، وبالمؤمنين بصفة خاصّة، ثمّ حُذِفَ المُشَبَّهُ به بعدَ تناسي التّشبيه، ورُمِزَ إليه بشيء من لوازمه وهو الظّرفيّة، على سبيل الاستعارة المَكنيّة التي تَبُثُّ الخيبةَ والخُسرانَ في نفوس الكافرين، وتُحَقِّقُ الأمنَ والاطمئنانِ للرُّسل والمؤمنين.

**نُكْتَةُ تنكير ﴿ضَلَٰلٖ﴾:**

فَشَلُ الكافرين في الإضرار بالمؤمنين لا يَعْرِف أحدٌ مداه ولا مُنتهاه

جيء بالمجرور ﴿ضَلَٰلٖ﴾ نكرةً؛ لما يُفيدُه التّنكير من التّعظيم والتّفخيم، والإشارةِ إلى أنّه ضلالٌ وفشلٌ لا تُحيط به العبارةُ، ولا يعرف أحدٌ مداه ولا منتهاه، ما يعني أنّه ضلالٌ لا أملَ معه في تحقيق المُراد، وإيقاعِ الضّرِّ بالمؤمنين الأبرار، لما فيه من "مجانبةٍ للسّداد المؤصِل إلى الظّفر والفوز؛ لأنّه ما أفادَهم أوّلًا في الحذر من موسى عليه السلام، ولا آخِرًا في صدٍّ من آمن به مرادهم، بل كان فيه تبارُهم وهلاكُهم، وكذا أفعالُ الفجرةِ مع أولياء اللّه، ما حَفَر أحدٌ منهم لأحدٍ منهم حُفرةَ مَكْرٍ إلّا أكبَّه اللّهُ فيها"[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 50.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ٢٦﴾ [غافر: 26]

### مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بَعْدَ الاسْتِقْواءِ على المُسْتَضْعَفينَ جاءَ التَّبَجُّحُ بالقوّةِ وقَلْبُ الحَقائِقِ

لَمّا أخْبَرَ اللهُ تَعالى بِفِعْلِ فِرْعَونَ بِنِساءِ مَنْ آمَنَ مَعَ موسى عليه السلام وأبْنائِهم، وبِضَلالِ كَيْدِهم أخْبَرَ كذلك عَنْ فِعْلِه مَعَهُ، بقوله لِرُؤَساءِ أتْباعِهِ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾... ، دافِعًا عَنْ نَفْسِه تهمةَ العجز عن مواجهة موسى عليه السلام، موهِمًا أنَّ آلَه هُمُ الَّذينَ يَرُدّونَهُ عَنْهُ، وأنَّهُ لَوْلا ذَلِكَ لَقَتَلَهُ[1]، فبَعْدَ أنِ انْتَهَتْ حيَلُ فِرْعَونَ وأباطيلُهُ، وبَعْدَ أنْ ضاقَ موسى ومَنْ مَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ تَبَجَّحَ بادِّعاءاتِ القوَّةِ والبَطْشِ والطُّغيانِ والاسْتِبْدادِ.

### شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذَرُونِيٓ﴾: (وذر) كَلِمَتانِ: إحْداهُما الوَذْرَةُ، وهي القِطعةُ الصَّغيرةُ مِنَ اللَّحم، ولا علاقةَ لها بالمرادِ هنا. والأُخرى قَوْلُهُمْ: ذَرْ ذا[2]؛ بمعنى: دَعْ ذا، ولا يُقالُ: وذَرْتُه وذْرًا؛ فقَدْ أماتَ العَرَبُ المَصْدَرَ مِنْ (يَذَرُ) والفعلَ الماضيَ، فلا يُقالُ: (وذرَهُ) ولا (واذِرٌ)، ولَكِنْ (تَرَكَهُ) وهوَ (تارِكٌ)، وحُكْمُ (يَذَرُ) في التَّصْريفِ حُكْمُ (يَدَعُ)، ولِذَلِكَ جاءَ على لَفْظِ (يَفْعَلُ)[3]. وكُلُّ ما في القُرْآنِ مِنَ هذا التَّرْكيبِ فهوَ بِمَعْنى التَّرْكِ[4]. والمُرادُ: بـ﴿ذَرُونِيٓ﴾ هَهُنا: اتْرُكوني على أيِّ حالَةٍ كانَتْ[5].

2) ﴿يُبَدِّلَ﴾: (بدل) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ قيامُ الشَّيْءِ مَقامَ الشَّيْءِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 50 (بتصرف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وذر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وذر).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وذر).
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 50.

الذّاهِب. وبَدَّلْتُ الشَّيْءَ: إذا غَيَّرْتَهُ وإنْ لَمْ تَأْتِ لَهُ بِبَدَلٍ. وأَبْدَلْتُهُ: إذا أَتَيْتَ لَهُ بِبَدَلٍ[1]. وقد جاء (بدَّلْتُ) بِمَعْنى (أبدلتُ)، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفرقان: 70]، فقد أزال السَّيِّئاتِ وجعل مَكانها حسناتٍ[2]. فالتَّبديلُ: حُلولُ شَيْءٍ مَحَلَّ شَيْءٍ؛ أي: وُجودُ هَذا لاخْتِفاءِ ذاكَ؛ ليدلّ على مُجَرَّدِ تَغْييرِ الشَّيْءِ عَمّا كانَ عليه إلى وضْعٍ جَديدٍ غَيْرِ الأوَّلِ كَقَوْلِه تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ [البقرة: 59][3]. والمُرادُ بِقَوْلِ فِرْعَونَ هَهُنا: "أنْ يُغَيِّرَ حالَكُمُ الَّذي أنْتُمْ عليه مِن عِبادَتي وعِبادَةِ الأصْنام"[4].

3) ﴿دِينَكُمۡ﴾: (دين) أَصْلٌ واحِدٌ. وهوَ جِنْسٌ مِنَ الانْقيادِ والذُّلِّ. فالدّينُ: الطّاعةُ، والانْقيادُ[5]، والعادةُ والشَّأْن، تَقولُ العَرَبُ: ما زالَ ذَلِكَ ديني ودَيْدَني؛ أي: عادَتي[6]. واسْتُعيرَ لِلشَّريعةِ والدّين كالمِلّة، لَكِنَّهُ يُقالُ اعْتبارًا بالطّاعةِ والانْقيادِ لِلشَّريعة، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19][7]. والمُرادُ بالدّينِ هَهُنا: الَّذي هُمْ عليه مِن نِسْبَةِ الفِعْلِ إلى الطَّبيعةِ بِما يَدْعو إلَيْه مِن عِبادَةِ إلَهِه[8].

4) ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾: المُرادُ بالفَسادِ: خُروجُ الشَّيْءِ عَنِ الاعْتِدالِ، قَليلًا كانَ الخُروجُ عَنْهُ أو كَثيرًا، ويُضادُّهُ الصَّلاحُ، ويُسْتَعْمَلُ ذَلِكَ في النَّفْسِ، والبَدَنِ، والأشْياءِ الخارِجَةِ عَنِ الاسْتِقامَةِ[9]. ومعناه المحوريّ: ذَهابُ نَفْعِ الشَّيْءِ المَقْصودِ مِنْهُ؛ أي: تَلَفُهُ وهَلاكُهُ؛ لِحِدَّةٍ ضارَّةٍ تَسْري في أثْنائِه[10]. ومَعْنى إظْهارِ موسى الفَسادَ عِنْدَهم: أنّ دَعْوَتَه تغييرُ ما هم عليه مِنَ الدّيانَةِ والعَوائِدِ؛ لِظَنِّه أنَّ ما خالَفَ دينَهم يُعَدُّ فسادًا[11].

## المَعْنى الإجْماليُّ:

بَيَّنَتِ الآيَةُ طَرَفًا مِنْ حَديثِ فِرْعَوْنَ لِحاشِيَتِهِ ومُسْتَشاريهِ وخاصَّتِهِ، بسعيه للخلاص

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدل).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (بدل).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بدل).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 316.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دين).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (دين).
(7) الراغب، مفردات القرآن: (دين).
(8) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 50.
(9) الراغب، مفردات القرآن: (فسد).
(10) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فسد).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 125.

دَيدَنُ الطُّغاةِ البَطْشُ وقَلبُ الحَقائِقِ وتأليبُ العامَّةِ وتَخويفُهم منَ المُصْلِحينَ

من موسى عليه السلام مع مُعارَضَتِهم لقتله؛ لأنَّهُمْ يَرَوْنَ أنَّ قَتْلَهُ لا يُنْهي المَتاعِبَ، بَلْ قَدْ يَزيدُها اشْتِعالًا؛ لأنَّ عامَّةَ النّاسِ سَيَفْهَمونَ أنَّ قَتْلَ موسى كانَ بِسَبَبِ أنَّهُ على الحَقِّ، فتَثورُ ثائِرَتُهُمْ بسببِ قَتْلِه، أو لأنَّهُمْ كانوا يَخافونَ أنَّ قَتْلَهُ سَيُؤَدّي إلى نُزولِ العَذابِ بِهِمْ، غَضَبًا مِنْ رَبِّ موسى، ولَعَلَّ بَعْضَهُمْ كانَ يَعْتَقِدُ أنَّ موسى على حَقٍّ ولَكِنَّ الخَوْفَ مَنَعَهُ مِنَ الجَهْرِ بِذَلِكَ، أو لأنَّهُمْ كانوا يَرَوْنَ أنَّ قَتْلَ موسى سَيُؤَدّي إلى تَفَرُّغِ فِرْعَوْنَ لَهُمْ، وهُمْ لا يُريدونَ هَذا التَّفَرُّغَ؛ لأنَّهُ يُؤَدّي إلى ضَياعِ الكَثيرِ مِنْ مَنافِعِهِمْ.

ثُمَّ تَظاهَرَ هَذا الطّاغيَةُ بأنَّهُ لا يُبالي بِما يَكونُ مِنْ وراءِ قَتْلِهِ لِموسى، وأنَّهُ غَيْرُ مُكْتَرِثٍ لا بِهِ ولا بِرَبِّه، مُظهرًا ما جُبِلَ عليه مِنْ فُجورٍ وتَكَبُّرٍ واسْتِهْزاءٍ بالحَقِّ، فكَأنَّهُ يَقولُ: إنّي قاتِلٌ لِموسى ولْيَدْعُ رَبَّهُ لِكَيْ يُخَلِّصَهُ مِنّي! وأنَّهُ ما حَمَلَهُ على إرادَةِ قَتْلِ موسى إلّا الحِرْصُ على مَنْفَعة حاشيته؛ خوفًا من أنْ يُبَدِّلَ دينَهم الَّذي هم عليه بِدينٍ آخَرَ، أو بأنْ يُظْهِرَ في الأرْضِ الَّتي تَعيشونَ عَلَيْها الفَسادَ، عَنْ طَريقِ بَثِّ الفِتَنِ بَيْنَكُمْ وإيقادِ نارِ العَداوَةِ في صُفوفِكُمْ. والعَمَلِ على اضْطِرابِ أمْرِ دُنْياكُمْ ومَعاشِكُمْ. وهَكَذا الطُّغاةُ الماكِرونَ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ؛ يَضْرِبونَ الحَقَّ بِكُلِّ سِلاحٍ مِنْ أسْلِحَتِهِمُ الباطِلَةِ، ثُمَّ يَزْعُمونَ بَعْدَ ذَلِكَ أمامَ العامَّةِ والبُسَطاءِ والمَغْلوبينَ على أمْرِهِمْ أنَّهُمْ ما فعَلوا ذَلِكَ إلّا مِنْ أجْلِ الحِرْصِ على مَصالِحِهِمُ الدّينيَّةِ والدُّنْيَويَّةِ[1].

## ۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### مَعْنى الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ﴾:

في قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ جاءت الواوُ استئنافيَّةً تفصلُ هذه الجملة عمّا قبلَها من حيث الإعرابُ، وهو

(1) محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 279 - 280 (بتلخيص وتصرف).

حَـــيْرَةُ أهْـل الضَّلالِ وكَـثْرَةُ نِـقـاشِـهـم في طُرُقِ وأْدِ الحَقِّ وإزْهاقِه

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥﴾ [غافر: 25]؛ وذلِكَ لانْقِطاعِها عنها؛ فقدْ جاءتِ الجملة السّابِقَةُ تَذْييلًا للآيةِ السّابِقَةِ الَّتي بَيَّنَتْ بَطْشَ آلِ فِرْعَونَ بالمُسْتَضْعَفينَ منْ أتْباعِ موسى عليه السلام، ثُمَّ استَأْنَفَتْ هَذِه الجملة ذِكْرَ طَرَفٍ مِمّا دارَ بينَ فِرْعَونَ ومَلَئِه منْ نِقاشٍ حَوْلَ طَريقَةِ التَّخَلُّصِ مِنْ موسى عليه السلام.

وذَكَرَ الجَمَلُ عنْ شَيْخِه: أنَّها حَرْفُ عَطفَ هَذِهِ الجملة على جملة جَوابِ ﴿فَلَمَّا﴾ [غافر: 25] في الآيَةِ السّابِقَة، وهيَ قَوْلُهُ: ﴿قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ﴾ [غافر: 25][1]. وفي هَذا الأُسْلوبِ إيماءٌ إلى أنَّ فِرْعَوْنَ لَمْ يَعْمَلْ بنصيحةِ الملأ الَّذين أشاروا عليه بقتل مَنْ مع موسى عليه السلام، وأنَّهُ سَكَتَ ولَمْ يُراجِعْهم بِتَأْييدٍ ولا إعْراض، ثُمَّ رَأى أنَّ الأجْدَرَ قَتْلُ موسى دونَ الَّذينَ آمَنوا مَعَهُ؛ لأنَّ قَتْلَهُ أقْطَعُ لِفتْنَتِهِمْ[2]. فالواوُ تَدُلُّ على أنَّهُمْ قالوا كَذا وقالَ فِرْعَوْنُ كَذا، ولَيْسَ بِلازِمٍ أنْ يَكونَ قَوْلُهُ مُرَتَّبًا على قَوْلِهِمْ، ويُرَجَّحُ أنْ يَكونَ القَوْلانِ في زَمَنٍ واحِدٍ[3].

### دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿ذَرُونِيٓ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

إيـهـامُ فِـرْعَـونَ بِـقـوَّةِ إرادَتِـه، وبــأنَّ ثَـمَّـةَ ما يَـحــولُ دَونَ إمْـضـائِـهـا مِـنْ شَـفـاعَـةٍ أوْ سياسَةٍ

استُعملَ الفِعْلُ ﴿ذَرُونِيٓ﴾ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾؛ لما فيه مِنْ مَعْنى التَّرْك؛ إذْ هوَ مُفارَقَةٌ لِلشَّيْءِ وانْفِصالٌ أو تَخَلٍّ عَنْهُ. وإيثارُ التَّعْبيرَ بهذا اللَّفظِ دونَ غَيْرِه مِنَ الألفاظِ الدّالَّةِ على التَّرْكِ والتَّخْلِيَةِ لِقِلَّةِ تَصَرُّفِ مادَّةِ (وَذَر)، فهيَ أشَدُّ دَلالَةً على قوَّةِ الرَّغْبَةِ في تَنْفيذِ ما هو مُقْبِلٌ عليه مِنَ إرادَةِ قَتْلِ موسى عليه السلام، فضلًا عمّا فيه من بيانٍ لإيهامِ فِرْعَونَ لِمَلَئِه بِقوَّةِ إرادَتِه، برغْمِ ما امْتَلأَتْ به نَفْسُهُ منْ رُعْبٍ شديد وما تَغَشّاهُ مِن فزع هائل؛ لاسْتيْقانِهِ أنَّ موسى عليه السلام نَبِيٌّ، وليس بساحرٍ، لكنّه

(1) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 4/ 11.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 126.

(3) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 96.

يوهِمُ مَنْ حَوْلَه بأنَّ مِنْ أتْباعِه مَنْ يُعارِضُ قَتْلَه، أو يتَشَفَّعُ في عَدَمِ المَساسِ به[1].

ومن المُحتَمَلِ أنْ يَكونَ المَلَأُ مِنْ حَوْلِه كانوا يَكُفّونَهُ عَنْ قَتْلِ موسى؛ لأنَّهُ لَوْ قَتَلَهُ لَظَهَرَ أمْرُهُ، ووَقَعَ في أوْهامِ النّاسِ أنَّ هَذا عَجْزٌ عَنِ الحِوارِ ومُقارَعَةِ الحُجَّةِ بالحُجَّةِ. ويحْتَملُ أنْ يَكونَ المرادُ بَيانَ قُدْرَتِه في قَتْلِ موسى عليه السلام، كَما يَقولُ الرَّجُلُ: ذَرْني أفْعَلْ كَذا، مِنْ غَيْرِ أنْ يَكونَ هُناكَ مَنْ يَمْنَعُهُ، وإنَّما هوَ المُبالَغَةُ في حِرْصِه على فِعْلِ الشَّيْءِ[2].

وجاءَ الفِعْلُ بصيغَةِ الأمْرِ للإيهامِ بنَفاذِ أمْرِه، وكَمالِ سُلْطانِه وقَهْرِه للخانِعينَ مِنْ حَوْلِه، إمْعانًا في التَّجَبُّرِ والاستِكْبارِ.

## بَلاغَةُ الكِنايَةِ في الفِعْلِ ﴿ذَرُونِيٓ﴾:

تَـهَـوُّرُ الطُّـغـاةِ مَـقْـرونٌ باسْتِخْفافِهِم بالعَوامِّ وتَلْبيسِ الأُمورِ كأنَّها إرادَةُ المَحْكومينَ

أفادَ الفِعْلُ في قَوْلِه: ﴿ذَرُونِيٓ﴾ إعْلامَ فرعونَ ملأهُ بإظْهارِ مَيْلِه لقتلِ موسى عليه السلام وانْتِظارِه الموافَقَةَ عليه، بحَيْثُ يُمَثِّلُ حالَهُ وحالَ المُخاطِبينَ بحالِ مَنْ يُريدُ فِعْلَ شَيْءٍ فيُصَدُّ عَنْهُ، فلِرَغْبَتِه فيه يَقولُ لِمَنْ يَصُدُّهُ: دَعْني أفْعَلْ كَذا وخَلِّني؛ لأنَّ ذَلِكَ التَّرْكيبَ مِمّا يُخاطَبُ بِهِ المُمانِعُ والمُلائِمُ ونَحْوُهُما، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ هَذا في التَّعْبيرِ عَنِ الرَّغْبَةِ ولَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ مُعارِضٌ، وهوَ اسْتِعْمالٌ شائعٌ كما في قَوْلِه تَعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾ [المُدَّثِّر: 11]، وقَوْلِه: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المُزَّمِّل: 11]، وذَلِكَ يَسْتَتْبِعُ كِنايَةً عَنْ خَطَرِ ذَلِكَ العَمَلِ وصُعوبَةِ تَحْصيلِه؛ لأنَّ مِثْلَهُ مِمّا يَمْنَعُ المُسْتَشارُ مُسْتَشيرَهُ مِنَ الإقْدامِ عليه[3].

## نُكْتَةُ الاقْتِصارِ على الرَّغْبَةِ في قَتْلِ موسى:

زُعَماءُ الدَّعْوَةِ والإصْـلاحِ هُمْ حـامِـلـو لِـواءِ الحَقِّ

إيماءُ جملة ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ بغايةِ فِرْعَوْنَ قَتْلَ موسى دونَ الَّذينَ آمَنوا مَعَهُ؛ لأنَّ قَتْلَهُ أقْطَعُ لِفِتْنَتِهِمْ ينمُّ عن دَهائه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 273، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 316.

(2) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 96.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 126.

ومَكْرِه؛ لإدراكه أنَّ زُعَماءَ الدَّعْوَةِ والإصْلاحِ هُمْ حامِلو لواءِ الحَقِّ، وبِمَوْتِهِم تَتَعَرَّضُ الدَّعَواتُ الإلَهيَّةُ والإصْلاحيَّةُ إلى الانْتِكاثِ والتَّفَرُّقِ والتَّشَرْذُمِ، فضلًا عن حرصه على اسْتِبْقاءِ بَني إسْرائيلَ تَحْتَ نيْرِ العُبوديَّةِ ليَقوموا على خِدْمَةِ دَوْلَتِه، ومِنْ ثَمَّ فإنَّ قَتْلَهم ضارٌ لِمُلْكِه، فرَأى أنَّ قَتْلَ موسى عليه السلام وحْدَه كافٍ ليَخْلُصَ لَه ما أرادَ.

### مَعْنى الواوِ في ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾:

اضْطِرابُ فِرْعونَ بينَ إظْهارِ الاسْتِهانَةِ، وخَوْفِه مِنْ مَغَبَّةِ قَتْلِ موسى عليه السلام

جاءَتِ الواوُ في جملة: ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ عاطِفَةً، فعَطَفَتْ هَذِه الجملة على سابِقَتِها؛ لبيانِ تَرَدُّدِ فِرْعَونَ وهَلَعِه مِنْ إرادَةِ قَتْلِ موسى عليه السلام، وسعيهِ الى إشْعارِ أتْباعِه باسْتِهانَتِه بِمَقامِ مموسى عليه السلام ودَعْوَتِه؛ لأنَّ ظاهِرَ الجملة "الاسْتِهانَةُ بِموسى عليه السلام بِدُعائِه رَبَّهُ سُبْحانَهُ، كما يُقالُ: ادْعُ ناصِرَكَ فإنّي مُنْتَقِمٌ منكَ، وباطِنُه أنَّهُ كانَ تَرْعُدُ فرائِصُهُ من دُعاءِ رَبِّه، فلِهَذا تَكلَّمَ بِهِ أوَّلَ ما تَكلَّمَ، وأظْهَرَ أنَّهُ لا يُبالي بِدُعاءِ رَبِّه"[1].

وَيُحْتَمَلُ أنَّه كانَ مِنْ بينِ حاشيَةِ فِرْعَونَ مَنْ يُحَذِّرُهُ مِنَ الإقْدامِ على هَذا الصَّنيعِ؛ لاعتِقادِه صِحَّةَ نُبوَّةِ موسى عليه السلام، وأنَّ اللّه مُنْجيه من كيدِ فِرْعَونَ، ويُرَشِّحُ لِهَذا ما سَيأتي بَعْدَ ذَلِكَ من كَلامِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعونَ.

### مَعْنى اللّامِ في ﴿وَلۡيَدۡعُ﴾ وغَرَضُها:

التَّسْويَةُ وعَدَمُ الاكْتِراثِ، أوِ المُبالَغَةُ في التَّحَدّي والإنْكارِ

جاءَتِ اللّامُ في جملة ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ للأمْرِ؛ يَعْني: أنّي أقْتُلُه فلْيَقُلْ لِرَبِّه حَتّى يُخَلِّصَهُ منّي[2]، فاللّامُ هَهُنا مُسْتَعْمَلَةٌ في التَّسْوِيَةِ وعَدَمِ الاكْتِراثِ[3]، فهو مَحْضُ تَجَلُّدٍ منهُ، وإظْهارٌ لِعَدَمِ المُبالاةِ بِدُعائِه، ولَكِنَّهُ أخْوَفُ ما يَخافُهُ[4]. فالأمْرُ هَهُنا للمُبالَغَةِ في التَّحَدّي وإنْكارِ أنْ يَكونَ لِموسى عليه السلام إلَهٌ قادِرٌ على حِمايَتِه مِنْ فِرْعَوْنَ وللتَّهَكُّمِ بِموسى ورَبِّه. وذَهبَ بَعْضُهُم إلى أنَّ اللّامَ للتَّعْجيزِ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 316.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 507.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 126.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 273.

مُداوَمَةُ موسى عليه السلام على الدُّعاءِ والتَّضَرُّعِ

**نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ (يَدْعُ) وحَذْفِ الفاعِلِ:**

التَّعبيرُ بصيغَةِ المُضارَعَةِ في جملة ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾، للإشارَةِ إلى تهكُّمِ فرعونَ بالتَّلميحِ إلى مُداوَمَةِ موسى عليه السلام على الدُّعاءِ والتَّضَرُّعِ؛ أي: فليُدِمْ دعاءَه لِمَن يَدْعوهُ ويَدَّعي إحْسانَهُ إلَيْهِ بما يَظْهَرُ على يَدَيْهِ من هَذِهِ الخَوارِقِ[1]. فلا يَهولَنَّكُمْ ما يَذْكُرُ مِنْ رَبِّهِ؛ فإنَّهُ لا حَقيقَةَ لَهُ، وأنا رَبُّكُمُ الأعْلَى[2].

وحَذَفَ النَّظْمُ فاعِلَ ﴿وَلْيَدْعُ﴾ لِسَبْقِ ذِكْرِه في قَوْلِه: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾؛ لأنَّ إظْهارَهُ مِنَ الإطْنابِ الَّذي لا داعيَ لهُ، فيَتَنَزَّهُ عَنْهُ النَّظْمُ القُرْآنيُّ البَديعُ، فضلًا عمّا فيه مِن تأكيدِ التَّهكُّمِ؛ لأنَّ في حَذْفِ الفاعِلِ تقليلًا من شأنه، واستهانَةً به.

ادِّعاءُ فِرْعَونَ الأُلوهيَّةَ مانِعٌ مِنَ الإقْرارِ بِربِّ موسى عليه السلام

**دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ الرُّبوبيَّةِ مُضافًا إلى ضَميرِ موسى:**

في جملة: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أضافَ النَّظْمُ الحَكيمُ لَفْظَ الرُّبوبيَّةِ إلى ضَميرِ الهاءِ العائِدِ على موسى عليه السلام؛ للدَّلالَةِ على أنَّ فِرْعَونَ اللَّعينَ كانَ سادِرًا في غَيِّه، لا يَرْعَوي عَنِ اسْتِكْبارِه في ادِّعائه الأُلوهيَّةَ كَما صَرَّحَ في مَواضِعَ أُخْرى كقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: 38]، وقوله: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النّازعات: 24]. وهو مع ذَلِكَ يُقِرُّ بأنَّ لِموسى عليه السلام إلَهًا آخَرَ، فلَمْ يَنْسِبْهُ إلى ادِّعاءاته الباطِلَةِ وأكاذيبه الفارِغَةِ، وهو مِنْ بابِ عِصْمَةِ مَقامِ النُّبوَّةِ، فلا تُنْسَبُ إلى غيرِ اللّهِ تعالى.

وفي إيثارِ لفظ الرُّبوبيّة دون الألوهيّة إظهارٌ لمعنى الإنعام على موسى عليه السلام، والتَّدبيرِ له؛ وإضمارٌ لمعنى الألوهيّة الَّتي لا يُقِرُّها إلّا لنفسِه.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 50.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 305.

### بلاغةُ التَّوريةِ في ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ﴾:

إيهامُ المعبودين شيمةُ الكَفَرة الجاحدين

صَدَرَ من فرعونَ قولُه: ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ﴾ على سبيل الإيهام والتَّوريةِ، وهي: أن يُطلَقَ لفظٌ له معنيان: قريبٌ وبعيدٌ، ويُرادَ البعيدُ منهما. فأوهَمَ اللَّعينُ قومَه المعنى القريبَ وهو التَّهكُّمُ، وأضمَرَ في نفسِه البعيدَ، وهو إظهارُ أنْ ليس لموسى عليه السلام ربٌّ، والَّذي يدعوه ليس بربٍّ، ومِن ثَمَّ فإنَّ دعاءَهُ لا يُجدي شيئًا؛ لأنَّه يدعو ما لا حقيقةَ له، على حدِّ قولِكَ لمن ظفرتَ به وليس له ناصرٌ: أنا أنتقمُ منك فادْعُ ناصرَكَ؛ تهكُّمًا به[1].

### نُكْتَةُ فصْلِ قَوْلِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾:

سَوْقُ فِرْعَونَ لِمُبَرِّراتِ عَزْمِهِ على قَتْلِ موسى دليلٌ على مُحاوَلَتِه إقناعَ مَنْ حَوْلَهُ

فَصَلَ النَّظْمُ الحَكيمُ جملة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ عَنِ الجملة السّابِقَةِ عَلَيْها، وهي: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ﴾؛ لِشِبْهِ كَمالِ الاتِّصالِ بَيْنَهُما، فقَدْ جاءَتْ هَذِه الجملة تَعْليليَّةً، فساقَ بَعْدَها فِرْعَونُ مُبَرِّراتِ إرادَةِ قَتْلِه موسى عليه السلام، فكَأنَّهُ سُئِلَ: ولمَ هَذا الإصْرارُ على قَتْلِ موسى عليه السلام؟ فكانَ الجَواب ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾، فالجملة تَعْليلٌ لِلعَزْمِ على قَتْلِ موسى[2].

وفي سَوْقِ فِرْعَونَ لِمُبَرِّراتِ عَزْمِه على قَتْلِ موسى دليلٌ على مُحاوَلَتِه إقْناعَ مَنْ حَوْلَهُ، وعلى عَدَمِ قناعتِه بما يفعلُهُ في قرارةِ نفسِه، ولَكنَّ الغَيَّ والطُّغْيانَ والاسْتِبْدادَ يَسوقُ المُتَكَبِّرينَ إلى الكَذِبِ والإفْكِ والبُهْتانِ.

### نُكْتَةُ التَّوْكيدِ بِـ(إنَّ) والجملة الاسْميَّةِ:

تنوَّعَتْ أساليبُ التَّوكيدِ لاسْتِمالَةِ والإقْناعِ وإزالَةِ التَّرَدُّدِ عن النَّفْسِ

في جملة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ جاءَ النَّظْمُ القُرآنيُّ بأُسْلوبَيْنِ مِنْ أساليبِ التَّوْكيدِ، الأوَّلُ التَّوكيدُ بـ(إنَّ)، والآخَرُ التَّوْكيدُ بالجملة الاسْميَّةِ، وفي التَّعْبيرِ بِهَذَينِ الأُسْلوبينِ بيانٌ لِحِرْصِ فِرْعَونَ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 495.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 126.

على اسْتِمالَةِ مَلَئِه وإقْناعِهِم بِخُطورَةِ دَعْوَةِ موسى عليه السلام على مُلْكِه، وهوَ في هَذا السّياقِ يُشيرُ كَذلِكَ إلى عَدَمِ قناعتِه بما هوَ مُقْدِمٌ عليه مِنْ إرادَةِ قَتْلِ موسى عليه السلام، فهوَ يَحْشُدُ مَنْ أساليبِ التَّوكيدِ في خِطابِه ما يُقْنِعُ به نَفْسَهُ، ويُزيلُ خَوْفَهُ وتَرَدُّدَه.

مَهما بَلَغَ تَجَبُّرُ المُتَجَبِّرينَ فإنَّ خَوْفَهم عَظيمٌ مِن دَعْوَةِ الأنبياءِ والمُصْلِحينَ

والافتتاحُ بـ(إنَّ) ناصبةً لضميرِ فرعونَ وتأخيرُ الفعل ﴿أَخَافُ﴾ لِتَخْصيصِ الخَوْفِ بِفِرْعَونَ دونَ غَيْرِه، ولِتأكيدِ نِسْبَةِ الخَوْفِ إلَيْه، بحَسْبِ زَعْمِه، وفيه كذلك دَلالَةٌ على أنَّه مَهما بَلَغَ تَجَبُّرُ المُتَجَبِّرينَ والطُّغاة المتسلّطين فإنَّهُم على خَوْفٍ عَظيمٍ من دَعْوَةِ الأنْبياءِ والمُصْلِحينَ.

### دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿أَخَافُ﴾:

خَوفُ فرعونَ متجدِّدٌ لا ينفكُّ عنه؛ لعلمِهِ بنبوَّةِ موسى عليه السلام

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ استِعْمالَ الفِعْلِ المُضارِعِ ﴿أَخَافُ﴾ للتَّعبيرِ عَنِ استِشْعارِ فِرعَونَ الخَطَرَ لَمّا رَأى انْتِشارَ دَعْوَةِ موسى عليه السلام، وعَبَّرَ بَصيغَةِ المُضارَعةِ ليُفيدَ تَجَدُّدَ خَوْفِه واسْتِمرارَهُ. ومَثارُ خَوْفِه على دينِهِمْ علمُهُ أنَّهُ دينٌ فاسدٌ، أملاهُ المَلَأُ المُتَفَرِّقونَ لَهُ، وجَماعَةُ المُنافِقينَ المُتَرَبِّحينَ بِنِفاقِ أصْحابِ السُّلْطانِ[1].

### دلالةُ المصدرِ المؤوَّل ﴿أَن يُبَدِّلَ﴾:

ادِّعاءُ الخَوْفِ مِنْ تَبديلِ النَّهْجِ والدّينِ والعادَةِ دَأْبُ المُتَجَبِّرينَ

وَقَعَ المَصْدَرُ المُؤَوَّلُ مِنْ ﴿أَن﴾ وما بَعْدَها في جملة ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ منصوبًا على المَفْعوليَّةِ لِلفِعْلِ ﴿أَخَافُ﴾، أو هو نَصْبٌ على نَزْعِ الخافِضِ على الخِلافِ فيه[2].

وفي التَّعبيرِ بالمَصْدَرِ المُؤَوَّلِ دَلالَةٌ على الاسْتِقْبالِ، وإشارَةٌ إلى عُلوِّ فِرْعَونَ وثَباتِ طُغْيانِه، وأنَّهُ يَخْشى تَبَدُّلَ هذا الطُّغْيانِ أوِ انْتِقاصَ قَدْرِه بِسَبَبِ دَعْوَةِ موسى عليه السلام، فلِذَلِكَ عَدَلَ عَنِ المَصْدَرِ الصَّريحِ فلَمْ يَقُلْ: (إنّي أخافُ تَبَدُّلَ دينِكم) لِدَلالَتِه على الحَدَثِ دونَ الزَّمَنِ[3]،

---

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 97.

(2) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 24/ 141.

(3) السامرائي، معاني النحو: 3/ 147.

فضلًا عن التَّركيزِ على تبديلِ الدّينِ دون بيان كيفيّته، فحالةُ الخوفِ يَكفيها أنْ تُثارَ بعموم التَّعبيرِ عن الحدث؛ والمصدرُ المؤوَّلُ - ولا سيَّما مع (أنْ) - يدلُّ على مجرَّدِ معنى الحدثِ دون احتمالٍ زائد عليه من صفةٍ أو هيئَةٍ أو كيفيَّةٍ، ففي ﴿أَن﴾ تحصينٌ من الإشكال، وتخليصٌ من شوائب الإجمال[1].

**دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ﴿يُبَدِّلَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:**

استـمـرارُ خـوفِ فرعونَ مِنْ زاولِ سُلطانِه وعـدمِ خُـضـوعِ الـنّـاسِ لـه

التَّبديلُ هوَ إقامَةُ شيْءٍ مُقامَ شيْءٍ ذاهِبٍ. ومُرادُ فِرْعَونَ أنّه سيُغيِّرُ الحالَ مِن عِبادَتِه وعِبادَةِ الأَصْنام، فقَدْ أَمَرَهم بِنَحْتِها وأنْ تُجْعَلَ شُفَعاءَ لَهم عِنْدَهُ كفعل كُفّارِ مَكَّةَ[2]. وقَدْ تَوَسَّمَ فِرْعَوْنُ مِن إنْكارِ موسى عَلَيْه زَعْمَهُ أنَّهُ إلَهٌ لِقَوْمِه أنَّ صَنيعَ موسى تَبْديلٌ للأُصولِ يَقْتَضي تَبْديلَ فُروعِ شريعَتِه كُلِّها[3].

وآثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعبيرَ عنْ مُرادِ فِرْعَونَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - بِصيغَةِ المُضارَعَةِ للدَّلالَةِ على استمرارِ خَوْفِه مِنْ تَجَدُّدِ هذا التَّبديلِ الَّذي بَدَأتْ بَوادِرُهُ في الظُّهورِ والحُدوثِ بانْتِشارِ دَعْوَةِ موسى عليه السلام بينَ بَني إسْرائيلَ.

**نُكْتَةُ إضافَةِ الدّينِ إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ:**

إلْـهـابُ مشاعرِ المُخاطَبين تنفيذًا لمآربِ اللَّعين

في جملة ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أضافَ النَّظْمُ الحَكيمُ - على لِسانِ فِرْعَونَ - الدّينَ إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ، وفي ذَلِكَ تَعْريضٌ بأنَّهم أوْلى بالذَّبِّ عَنِ الدّينِ وإنْ كانَ دينَهُ أيْضًا، لَكِنَّهُ تَجَرَّدَ في مُشاوَرَتِهِم عَنْ أنْ يَكونَ فيه مُراعاةٌ لِحَظِّ نَفْسِه، كَما قالوا هم: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [الأعراف: 127]، وذَلِكَ كُلُّه إلْهابٌ وتَحْضيضٌ[4]. وفيه كذلك اسْتِخْفافٌ بِعُقولِهِمُ الضَّعيفَةِ، الَّتي تَسيرُ وراءَ كُلِّ ناعِقٍ أظْهَرَ زورًا وكَذِبًا أنَّهُ مُشْفِقٌ عليهم.

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/ 148.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 316.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 126.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 126.

### سرّ العطف بـ﴿أَوۡ﴾:

مِن مَكرِ فِرعَونَ بأتباعِهِ استِخفافُهُ بِعُقولِهِم وإيهامُهُ لهم

عَطَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ جملة ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ على جملة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾ بحَرفِ العَطْفِ ﴿أَوۡ﴾ الدّالِّ على التَّرَدُّدِ والإبْهام، وذَلِكَ إذا كانَ المُتَكَلِّمُ عالِمًا بالأمْرِ ولكِنَّه يُريدُ أنْ يُبْهِمَهُ على السّامِعِ[1].

وقدْ عَبَّرَ البيانُ القُرْآنيُّ عَنْ مُرادِ فِرْعَونَ بأداةِ العَطْفِ ﴿أَوۡ﴾ لبيانِ مَكْرِهِ بأتْباعِهِ واسْتِخْفافِهِ بِعُقولِهم، وإيهامِهِ لَهُم بتَرْديدِ الخَوْفِ بَيْنَ تَبْديلِ الدّينِ أوْ ظُهورِ الفَسادِ[2].

### المَوْقِعُ النَّحويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿أَن يُظۡهِرَ﴾:

اتِّهامُ دَعْوَةِ الأنْبِياءِ والصّالِحينَ بالفسادِ دَأْبُ المُتَجَبِّرينَ وأهلِ العِنادِ

في جملة ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ وقَعَ المَصْدَرُ المُؤَوَّلُ مِنَ ﴿أَن﴾ وما بَعْدَها مَعْطوفًا على المَصْدَرِ السّابِقِ، أي: أخافُ تَبْديلَهُ دينَكُمْ، أو إظْهارَهُ الفَسادَ في الأرض[3].

وفي التَّعبيرِ به دَلالَةٌ على الاسْتِقْبالِ، وإشارَةٌ إلى عُلوِّ فِرْعَونَ وثَباتِ طُغْيانه، وأنَّهُ يَخْشى تَبَدُّلَ هذا الطُّغْيانِ أو انْتِقاصَ قَدْرِه بِسَبَبِ دَعْوَةِ موسى عليه السلام، فلِذَلِكَ عَدَلَ عَنِ المَصْدَرِ الصَّريحِ فلَمْ يَقُلْ: (إنّي أخافُ إظْهارَ الفَسادِ)؛ لِدَلالَتِه على الحَدَثِ دونَ الزَّمَنِ[4]، فضلًا عن التَّركيزِ على إظْهارِ الفَسادِ من دونِ بيانِ كيفيّته.

والمَقْصودُ من هَذا الكَلامِ بيانُ السَّبَبِ الموجِبِ لِقَتْلِه، وهو إفسادُهُ الدُّنْيا إنْ لم يكن إفسادَهُ الدّينَ؛ إذ لا بُدَّ أنْ يَجْتَمِعَ عليه قَوْمٌ ويَصيرَ ذَلِكَ سَبَبًا لِوُقوعِ الخُصوماتِ وإثارَةِ الفِتَنِ[5].

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 251.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 250.
(3) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 24/ 141.
(4) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 147.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 507.

### دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِ ﴿يُظۡهِرَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

اسْتِعانةُ فرعونَ بكلِّ ما يَستطيعُ لِتَخْويفِ القَومِ مِنْ دَعْوَةِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

في جملة ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ عَن ادِّعاءاتِ فِرْعَونَ في حَقِّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بإظْهارِ الفَسادِ، لِلْمبالَغَةِ في تَخْويفِ النّاسِ مِنْ دَعْوَتِه. وقَدْ آثَرَ البيانُ مادَّةَ (الظُّهورِ)؛ لأنَّها أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ وانْكِشافٍ[1]، فاسْتِعْمالُ هَذِهِ المُفْرَدَةِ يُشيرُ إلى مَكْرِ فِرْعَوْنَ بأتْباعِهِ وإرادَةِ تَبْريرِ قَتْلِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَما يَظْهَرُ فيها مِنْ خُبْثِ فِرْعَوْنَ ودَهائِهِ الكَثيرُ؛ لأَنَّ مَعْناهُ: أنَّهُ إنْ تَرَدَّدَ وآمَنَ مَعَهُ مَنْ آمَنَ مِنْ قَوْمِهِ أو مِنْ غَيْرِ قَوْمِه فسَيَظْهَرُ في البِلادِ دينٌ آخَرُ لَهُ طائِفَةٌ أُخْرى، وبِذَلِكَ تَحْدُثُ الفُرْقَةُ الطّائفيَّةُ النّاجِمَةُ عَنْ تَعَدُّدِ الدّينِ، وتَحْدُثُ انْشِقاقاتٌ في الصَّفِّ الواحِدِ، وهَذا هوَ إظْهارُ الفَسادِ، فهوَ يَرى أنَّ الوَحْدَةَ مَعَ الدّينِ الباطِلِ أفْضَلُ مِنَ التَّفَرُّقِ بالحَقِّ[2]، وهوَ دَيْدَنُ الطُّغاةِ في كلِّ وقْتٍ وحينٍ.

وصيغةُ المضارعِ تدلُّ - بحسب زَعْمِ فرعونَ - على استمرارِه في إظهارِ الفساد، ودوامِه على ذلك؛ ممّا يزيدُ من خطرِه، وهو أدْعى للتَّأليبِ عليه.

### نُكْتَةُ تَعْدِيَةِ ﴿يُظۡهِرَ﴾ بِ ﴿فِي﴾:

خَشْيَةُ فِرْعَونَ مِن انْتِشارِ دَعْوَةِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في رُبوعِ البِلادِ

عَدّى النَّظْمُ الحَكيمُ الفِعْلَ ﴿يُظۡهِرَ﴾ في جملة: ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ بِحَرْفِ الجَرِّ ﴿فِي﴾؛ للدَّلالَةِ على الظَّرفيَّةِ المَكانيَّةِ؛ إشارَةً إلى دَعْوى فِرْعَونَ اللَّعينِ الَّتي يَسوقُ فيها مُسوِّغاتِ إرادَتِه قَتْلَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ بأنَّ إفْسادَهُ سَيَنْتَشِرُ في رُبوعِ مِصْرَ، فيُفْسِدُ عليه طاعَةَ النّاسِ لَه، ويُحْتَمَلُ أنْ يَكونَ في استِعْمالِه إشارَةٌ إلى ذيوعِ دَعْوَةِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وانْتِشارِها في طولِ البلادِ وعَرْضِها.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).

(2) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 98.

### بَلاغَةُ الاِسْتِعارَةِ فِي التَّعْبيرِ عَنِ الاِنْتِشارِ بالظُّهورِ:

حِرْصُ فِرْعَونَ على تَحْضيضِ أتْباعِهِ وتأْليبِهِم على موسى عليه السلام

في جملة ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ على لسانِ فِرْعَونَ اللَّعينِ عن انْتِشارِ دَعْوَةِ موسى عليه السلام بإظْهارِ الفَسادِ، وأُطْلِقَ الإظْهارُ على الفُشوِّ والانْتِشارِ على سَبيلِ الاسْتِعارَةِ[1]، فصَوَّرَ الفَسادَ بِشَيءٍ ماديٍّ يَظْهَرُ للعيانِ في صورَةٍ مَحْسوسَةٍ مَرْئيَّةٍ. وفيها بَيانٌ لِحِرْصِ فِرْعَونَ على تَحْضيضِ أتْباعِهِ وتأْليبِهم على موسى عليه السلام.

### مَعْنى (اللّام) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

هَمُّ فِرْعَونَ الأوّلُ بَسْطُ نُفوذِهِ على مَمْلَكَتِه

جاءَتْ لَفْظَةُ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في جملة ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ مُعَرَّفَةً باللّام، إشارَةً إلى الأرْضِ المَعْهودَةِ عِنْدَهم، وهي مَمْلَكَةُ فِرْعَوْنَ[2]. وأشارَ البقاعيُّ إلى أنَّ المُرادَ بالأرْضِ هَهُنا الأرْضُ كُلُّها[3].

### نُكْتَةُ تَقْديمِ شِبْهِ الجملة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

ادِّعاءُ إظْهارِ الفَسادِ حُجَّةٌ داحِضَةٌ

في جملة ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ قَدَّمَ النَّظْمُ الحَكيمُ شِبْهَ الجملة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على المَفْعولِ به ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾؛ لأنَّ الغايَةَ الأولى لِفِرْعَونَ هيَ السَّيْطَرَةُ على الأرْضِ بِوَصْفِها مَجالًا لإظْهارِ بَطْشِهِ وطُغْيانِه.

وفي هذا التَّقْديمِ كذلك إيماءٌ إلى أنَّ اهْتِمامَهُ بما يَدَّعيه مِنْ إزالَةِ الفَسادِ المَزْعومِ أقَلُّ مِن اهْتِمامِه بِبَسْطِ نُفوذِهِ على رُبوعِ مَمْلَكَتِهِ الَّتي نَصَبَ نَفْسَهُ إلَهًا عليْها.

### مَعْنى (اللّام) في ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾:

إرادةُ فرعونَ عُمومَ الفسادِ لشتّى صنوفِهِ مبالغةً في تحريضِ قومِهِ على موسى عليه السلام

جاءَتْ لَفْظَةُ ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾ في جملة ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ مُعَرَّفَةً باللّام، وهذه (اللّامُ) إمّا أنْ تكونَ لتَعْريفِ العَهْدِ؛ لفَسادٍ مَعْهودٍ لَدى المُخاطَبينَ، وإمّا أنْ تكونَ لتَعْريفِ الجِنْسِ الشّامِلِ لِكُلِّ فسادٍ[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 126.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 126.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 51.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 126.

**نُكْتَةُ تَقْديمِ خَوْفِهِ مِنْ تَبْديلِهِ الدّينَ على إظْهارِهِ الفَسادَ:**

الدّينُ هوَ خَيْرُ عاصِمٍ يَعْصِمُ الجَماعَةَ، وخَيْرُ جامِعٍ يَجْمَعُها

في جملة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ قَدَّمَ النَّظْمُ الحَكيمُ - على لسانِ فِرْعَوْنَ - الخَوْفَ مِن تَبْديلِ الدّينِ على الخَوْفِ مِن إظْهارِ الفَسادِ في الأرْضِ؛ لأَنَّهُ كانَ مَلِكًا يَعْرِفُ كَيْفَ يُضْبَطُ المُلْكُ، فالدّينَ خير من يعصم الجَماعَةَ وخَيْرُ من يَجْمَعُها وخَيْرُ دافِعٍ يَدْفَعُها، والسّياسَةُ النّاجِحَةُ هيَ الَّتي تَغْرِسُ هَذا الدّينَ في قَلْبِ الجَماعَةِ لا الَّتي تُحارِبُهُ وتُؤْذي أَهْلَهُ وتُهَدِّدُهُمْ، حَتّى إنَّ النّاسَ يُخْفونَ في مُجْتَمَعِهِمْ سَمْتَ التَّدَيُّنِ، ولا نَنْسى أنَّ فِرْعَوْنَ موسى عليه السلام - وَهوَ كافِرٌ هالِكٌ - كانَ رَجُلَ سياسَةٍ ووَعْيٍ، وتاريخُهُ مِنْ بَيْنِ الفَراعِنَةِ تاريخٌ سياسيٌّ مُحَنَّكٌ[1].

بَلاغَةُ تَوْجيهِ القِراءاتِ القُرْآنيَّةِ في ﴿يُظۡهِرَ﴾:

زيادَةُ التَّحْضيضِ على قَتْلِ موسى عليه السلام والتَّحْذيرِ من دَعْوَتِه

قَرَأَ الكوفيّونَ، ويَعْقوبُ ﴿أَوۡ أَن﴾ بزيادَةِ هَمْزَةٍ مَفْتوحَةٍ قَبْلَ الواوِ، وإسْكانِ الواوِ، وكَذلِكَ هيَ في مَصاحِفِ الكوفَةِ. وقَرَأَ الباقونَ بِغَيْرِ ألِفٍ: ﴿وَأَن﴾، وكَذَلِكَ هي في مَصاحِفِهِمْ. واخْتَلَفَ القُرّاءُ في قراءة الفعل ﴿يُظۡهِرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ فقَرَأَ المَدَنيّانِ والبَصْريّانِ وحَفْصٌ: ﴿يُظۡهِرَ﴾ بِضَمِّ الياءِ وكَسْرِ الهاءِ وبنصْبِ ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾، وقَرَأَ الباقونَ بِفَتْحِ الياءِ والهاءِ ﴿يَظۡهَرَ﴾ وبرفْعِ ﴿ٱلۡفَسَادُ﴾[2]، فتلخَّص من هذا القراءات الآتية على التركيب:

1. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ وَأَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾: نافع وأبو عمرو وأبو جعفر.

2. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ وَأَن يَظۡهَرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادُ﴾: ابن كثير وابن عامر.

---

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 98.

(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 365.

3. ﴿إِنِّيَ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يَظۡهَرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادُ﴾:
شعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر.

4. ﴿إِنِّيَ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾:
حفص ويعقوب.

وفي تَنَوُّعِ هَذِه القِراءاتِ تَظْهَرُ بَعْضُ الفُروقِ الدِّلاليَّةِ الدَّقيقَة، فتارَةً يَكونَ موسى عليه السلام - بحسبِ ادِّعاءِ فِرْعَونَ - سَبَبًا في ظُهورِ الفَسادِ. وتارَةً يَكونُ المَعْنى أنَّ الفَسادَ يَظْهَرُ بِسَبَبِ ظُهورِ أتْباعِ موسى، أو بأنْ يَجْتَرِئَ غَيْرُهُ على مِثْلِ دَعْواهُ فتَزولَ حُرْمَةُ الدَّوْلَة؛ لأَنَّ شَأْنَ أَهْلِ الخَوْفِ مِن عَمَلٍ أنْ يَنْقَلِبَ جُبْنُهم شَجاعَةً إذا رَأَوْا نَجاحَ مَنِ اجْتَرَأَ على العَمَلِ الَّذي يُريدونَ مِثْلَهُ[1].

وفي المُزاوَجَةِ بينَ أداةِ العَطْفِ ﴿أَوۡ﴾ والواوِ، يَكونُ المُرادُ نِسْبَةَ الأَمْرَينِ جَميعًا لِموسى عليه السلام؛ لِزيادَةِ التَّحْضيضِ والتَّخْويفِ مِنْ دَعْوَتِه، ولإِقْناعِهِم بِمُبَرِّراتِ قَتْلِهِ والتَّخَلُّصِ مِنْه.

## الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### (ذَروني) و(دَعوني) و(اتْرُكوني):

الـتَّرْكُ التَّخَلّي عَنِ الـشَّيءِ مَعَ الـزُّهْدِ فيه أو الحِرْصِ عليه

(التَّرْكُ) عامٌّ يُطْلَقُ على التَّخَلّي عَنِ الشَّيْءِ مَعَ حِرْصِكَ عليه أو مَعَ زَهادَتِكَ فيهِ. و(يَدَعُ) فعلٌ يدلُّ على تَرْكِ الشَّيْءِ مَعَ الاهْتِمامِ بِهِ والحِرْصِ عليه، ومِنْهُ (الإيداعُ)، و(الوَديعَةُ) عِنْدَ الشَّخْصِ المُؤْتَمَنِ حِرْصًا عَلَيْها. و(يَذَرُ) فعلٌ يدلُّ على التَّخَلّي عَنِ الشَّيْءِ إهْمالًا لَهُ لِعَدَمِ الاعْتِناءِ بِشَأْنِه، يُقالُ: فُلانٌ يَذَرُ الشَّيْءَ؛ أي: يَقْذِفُهُ لِقِلَّةِ الاعْتِدادِ بِهِ، والوَذْرَةُ قِطْعَةٌ مِنَ اللَّحْمِ وتَسْمِيَتُها بِذَلِكَ لِقِلَّةِ الاعْتِدادِ بِها[2]، قالَ تَعالى: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 126.
(2) الراغب، مفردات القرآن: (وذر).

ﵟءَابَآؤُنَاﵞ [الأعراف: 70]، وقالَ تَعالى: ﵟوَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚﵞ [الأعراف: 127]، وقالَ تَعالى: ﵟفَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢ﵞ [الأنعام: 112].

وفي جملة: ﵟوَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰﵞ اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحَكيمُ الفِعْلَ ﵟذَرُونِيٓﵞ لِما فيه مِنْ مَعْنى التَّرْكِ، إذْ هوَ مُفارَقَةٌ لِلشَّيْءِ وانْفِصالٌ أو تَخَلٍّ عَنْهُ. وقَدْ آثَرَ البيانُ القُرآنيُّ التَّعْبيرَ بِهذِه الصّيغةِ دونَ غَيْرِها مِنَ الصّيغِ الدّالَّةِ على التَّرْكِ والتَّخْليَةِ لِقِلَّةِ تَصَرُّفِ مادَّةِ (وَذَرَ)، فهيَ أشَدُّ دَلالَةً على قوَّةِ الرَّغْبَةِ في تَنْفيذِ ما هو مُقْبِلٌ عليه مِن إرادَةِ قَتْلِ موسى[1] عليه السلام.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (وذر).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ٢٧﴾ [غافر: 27]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الاسْتِعاذَةُ بِجَنابِ الرَّبِّ القَوِيِّ الجَبّارِ سبيلُ النَّجاةِ مِنْ كُلِّ شَرٍّ واسْتِكْبارٍ

لَمّا أعْلَمَ النَّظْمُ الحَكيمُ بِمَقالَةِ العَدوِّ الجَبّارِ الرّامي إلى قَتْلِ موسى عليه السلام وإنْهاءِ دَعْوَتِه المُبارَكَةِ أتْبَعَهُ بالإعْلامِ بقَوْلِ الوَلِيِّ موسى عليه السلام إبْطالًا لِهَذا القَوْلِ وإزالَةً لآثارِه، مُؤَكِّدًا ما اسْتَقَرَّ في النُّفوسِ مِن قُدْرَةِ فِرْعَوْنَ بالاسْتِعاذَةِ بِرَبِّ العالَمينَ من شرِّ المتكبِّرين، ومنهم فِرْعَونُ اللَّعينُ، فأعْلَمَهُم أنَّهُ لا وُصولَ لأحَدٍ إلى قَتْلِه بِسَبَبِ هذه الاسْتِعاذَةِ الحافِظَةِ بأمْرِ اللهِ، ورَغَّبَهم في الاعْتِصامِ بِهِ، وثَبَّتَهم بتَذْكيرِهم بِرَبِّ الخَلْقِ أجْمَعينَ، الَّذي أرْسَلَهُ لاسْتِنْقاذِ بَني إسْرائيلَ من أعْداءِ الدّينِ والدُّنْيا؛ من كُلِّ مُتَكَبِّرٍ عاتٍ طاغٍ مُتَعَظِّمٍ على الحَقِّ وغَيْرِهِ ممَّنْ لا يُؤمِنُ بيَوْمِ الحِسابِ[1]، فكانَ في إتْباعِ النَّظْمِ الحَكيمِ مَقالَةَ فِرْعَونَ اللَّعينِ بمَقالَةِ موسى عليه السلام بَيانٌ لِسُبُلِ الوِقايةِ مِنَ الأذى والشَّرِّ.

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عُذْتُ﴾: (عوذ) أصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، معناه: الالتِجاءُ إلى الشَّيْءِ، والاحْتِماءُ بِهِ، ثُمَّ يُحْمَلُ عليه كُلُّ شَيْءٍ لَصِقَ بِشَيْءٍ أو لازَمَهُ[2]. تَقولُ: أعوذُ باللّه جَلَّ ثَناؤُهُ؛ أي: ألْجَأُ إلَيْهِ عَوْذًا أو عِياذًا، ويَقولونَ: فُلانٌ عِياذٌ لَكَ؛ أي: مَلْجَأٌ. وقَوْلُهُم: مَعاذَ اللهِ، مَعْناهُ: أعوذُ باللهِ. وكَذا أسْتَعيذُ باللّه. والعوذَةُ والمَعاذَةُ: الَّتي يُعَوَّذُ بها الإنْسانُ مِنْ فزَعٍ أو جُنونٍ[3]. وغالِبُ ما في القُرْآنِ مِنَ التَّرْكيبِ هوَ بِمَعْنى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 52، (بتصرف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عوذ).
(3) الخليل، كتاب العين: (عوذ).

العياذِ باللّه احْتِماءً بِهِ سُبْحانَهُ[1]. والمَعْنى المُرادُ هَهُنا: إنّي ألْتَجِئُ إلى اللّهِ مُحْتَميًا بِقوَّتِه القاهِرَةِ وسُلْطانِه العَزيزِ.

2) ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾: (كبر) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ. والكِبْرُ: العَظَمَةُ، وكَذَلِكَ الكِبْرِياءُ. يُقالُ: أكْبَرْتُ الشَّيْءَ: اسْتَعْظَمْتُهُ[2]. والاستكْبارُ: الامْتِناعُ عَن قبولِ الحقِّ معاندةً وتكبُّرًا، والمُتكبّرون: هم الّذين يرَوْنَ أنَّهُم أفْضَلُ الخَلْقِ، وأنَّ لَهُم من الحقِّ ما لَيْسَ لغيرهم. وهَذِه الصّفة لا تكونُ إلّا للّه خاصَّة؛ لأنَّ اللّه جلَّ وعزَّ هوَ الَّذي لَهُ القدرةُ والفضلُ الَّذي لَيْسَ لأحدٍ مثله، وذَلِكَ الَّذي يستحقُّ أن يقالَ لَهُ: المتكبِّر، ولَيْسَ لأحدٍ أن يتكبَّر؛ لأنَّ النّاس في الحقوقِ سواءٌ، فلَيْسَ لأحد ما لَيْسَ لغيره، فاللّهُ المتكَبِّرُ جلّ وعزّ[3]. ووَصْفُ اللّه تَعالى بالتَّكَبُّرِ بمعنى: أنْ تَكونَ الأفْعالُ الحَسَنَةُ كَثيرَةً في الحَقيقَةِ وزائِدَةً على مَحاسِنِ غَيْرِه[4].

## المَعْنى الإجْماليُّ:

الاعْتِصامُ بِجَنابِ الباري خَيرُ مَلْجأٍ للنَّجاةِ مِنْ شَرِّ أيِّ طاغيَةٍ مُتَجَبِّرٍ

بَعْدَ صُدورِ هَذا التَّهْديدِ المُتَجَبِّرِ مِنْ فِرْعَونَ اللَّعينِ قالَ موسى عليه السلام لِقَوْمِه على سَبيلِ التَّثْبيتِ لَهُمْ على الحَقِّ: يا قَوْمِ، إنّي اسْتَجَرْتُ وتَحَصَّنْتُ بِرَبّي ورَبِّكُمْ مِنْ شَرِّ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ عَنِ الإيمانِ بالحَقِّ، كافِرٍ بيَوْمِ الحِسابِ وما فيهِ مِنْ ثَوابٍ وعِقابٍ. وفي هَذا القَوْلِ الَّذي قالَهُ موسى لِقَوْمِهِ يَتَجَلّى صِدْقُ إيمانِهِ وقوَّةُ يَقينِه ووُثوقِه برعايَةِ اللّه تعالى لَهُ، كَما يَتَجَلّى فيهِ حِرْصُهُ على نُصْحِ قَوْمِهِ بالثَّباتِ على الحَقِّ؛ لأنَّ اللّه تعالى - الَّذي هوَ رَبُّهُ ورَبُّهُمْ - كَفيلٌ برعايَتِهِمْ جميعًا وبإنْجائِهِمْ مِنْ فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ، ويَتَجَلّى فيهِ أيضًا أنَّ الاسْتِكْبارَ عَنِ اتِّباعِ الحَقِّ والتَّكْذيبَ بالبَعْثِ على رَأْسِ الأسْبابِ الَّتي تُعينُ على قَسْوَةِ القَلْبِ وفَسادِ النَّفْسِ[5].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عوذ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (كبر).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (كبر).
(5) محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 281.

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### مَعْنى الواوِ في مطلع الآية:

لا ملجأ للمُصلحين عند الشّدائد إلّا الله تعالى

جاءَتِ الواوُ في مفتتح جملة: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ عاطِفَةً، رَبَطَتْ هَذِهِ الجملة بالجملة السّابِقَةِ عَلَيْها؛ لاتِّفاقِ الجملتينِ في الخبريَّةِ، مع اتِّحادِ المناسبةِ بينهما، وليس ثَمَّةَ ما يمنعُ من العطف، فهَذا حِكايَةُ كَلامٍ صَدَرَ من موسى في غَيْرِ حَضْرَةِ فِرْعَوْنَ لا مَحالَةَ؛ ولِذَلِكَ حُكِيَ مَعْطوفًا بالواوِ؛ لأَنَّ ذَلِكَ القَوْلَ لَمْ يَقَعْ في مُحاوَرَةٍ مَعَ مَقالِ فِرْعَوْنَ، بِخِلافِ الأَقْوالِ المَحْكِيَّةِ في سورَةِ الشُّعَراءِ مِن قَوْلِه: ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا﴾ [الشعراء: 18] إلى قَوْلِه: ﴿قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣١﴾ [الشّعراء: 31][1]. فالواوُ دالَّةٌ على أنَّ هَذا القَوْلَ لَمْ يَكُنْ رَدًّا على فِرْعَوْنَ في زَمَنٍ واحِدٍ، وإنَّما هوَ كَلامٌ مَعْطوفٌ على كَلام، ولَيْسَ كَلامًا مُتَوَلِّدًا مِنْ كَلامٍ كَما هيَ قاعِدَةُ الفَصْلِ والوَصْلِ. ثُمَّ إنَّهُ دالٌّ على أنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَمِعَ مَقالَةَ فِرْعَوْنَ أو بَلَغَتْهُ، فلَمْ يَزِدْ على أنَّهُ اسْتَعاذَ بِمَنْ لا يُخالِجُهُ رَيْبٌ في أنَّهُ سيُعيذُهُ؛ لأنَّهُ سَمِعَ مِنْ رَبِّهِ لَمّا قالَ لَهُ هوَ وهارونُ: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ٤٥﴾ [طه: 45][2].

### نُكْتَةُ التَّوْكيدِ بِـ(إنَّ) والجملة الاسْميَّة:

لا دافِعَ للشَّرِ والأذى سِوى العِياذِ بالله تعالى

في قَوْلِ اللهِ تباركتْ آلاؤُه على لِسانِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ جاءَ النَّظْمُ الحَكيمُ باسْتِعْمالِ أداةِ التَّوْكيدِ (إنَّ) في صَدْرِ الكَلامِ؛ تَأْكيدًا وتَنْبيهًا على أنَّ السَّبَبَ المُؤَكَّدَ في دَفْعِ الشَّرِّ هو العِياذُ بالله تعالى[3]، فهَذا يُدَلِّلُ على أنَّ الطَّريقَ المُؤَكَّدَ المُعْتَبَرَ في دَفْعِ الشُّرورِ والآفاتِ عَنِ النَّفْسِ هو الاعْتِمادُ على اللهِ والتَّوَكُّلُ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 126.
(2) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 98.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 316.

عِصْمَةِ اللّه تَعالى[1]. وتَأْكيدُ الخَبَرِ بِحَرْفِ (إنَّ) مُتَوَجِّهٌ إلى لازِمِ الخَبَرِ وهو أنَّ اللّه ضَمِنَ لَهُ السَّلامَةَ، وأكَّدَ ذَلِكَ لِتَنْزيلِ بَعْضِ قَوْمِهِ أوْ جُلِّهِمْ مَنزِلَةَ مَن يَتَرَدَّدُ في ذَلِكَ؛ لِما رَأى مِن إشْفاقِهِمْ عليه[2].

### دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿عُذْتُ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

احتِماءُ موسى بِرَبِّهِ في كُلِّ وقْتٍ وحِينٍ

آثَرَ النَّظْمُ الحَكيمُ التَّعبيرَ بالفِعْلِ ﴿عُذْتُ﴾ في جملة ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾؛ لأنَّ المُرادَ به: ألْجَأُ إلَيْهِ وأحتمي بِهِ. فالمَعْنى هَهُنا: إنِّي ألْتَجِئُ إلى اللّهِ مُحْتَمِيًا بِقوَّتِه القاهِرَةِ وسُلْطانه العَزيزِ، فهوَ مَلْجَأُ الضُّعَفاءِ مِنْ بَطْشِ كُلِّ جبّارٍ عَنيدٍ.

وقَدْ آثَرَ النَّظْمُ كذلك صيغَةَ المُضيِّ للدَّلالَةِ على تأْكيدِ اسْتِعاذَةِ موسى عليه السلام باللّهِ في كُلِّ أوْقاته. فالتَّعبيرُ بالفِعْلِ الماضي أدَلُّ على الإنْشاءِ المُناسِبِ لِلمَقام، والدَّلالَةِ على تَحقُّقِ العِياذِ باللّهِ، وأنَّهُ مَقْطوعٌ بِهِ قَدْ وقَعَ وتَحَقَّقَ، فهوَ غَيْرُ قابِلٍ لِلنَّقْضِ.

### مَعْنى الباءِ في قَوْلِهِ: ﴿بِرَبِّي﴾:

الالتِصاقُ بِجَنابِ اللهِ العَزيزِ والاسْتِعانَةُ بِفَضْلِهِ سبيلُ النَّجاةِ

جاءَتِ الباءُ في جملة ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ للإلصاقِ، ففيها تأْكيدٌ على الالتِجاءِ إلى اللهِ واللَّوْذِ بِجَنابه الكريم، وقيلَ: إنَّ مَعْنى الباءِ هَهُنا الاسْتِعانَةُ به تعالى على شَرِّ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ باغٍ[3]، ذلك أنَّ اسْتِعاذةَ موسى عليه السلام باللّه سبحانه واعْتِمادَهُ على فضْلِهِ هي علّةُ دَفْعِ الشَّرِّ عنه، وصونِه عَنْ كُلِّ بَلِيَّةٍ وإيصاله إلى كُلِّ أُمْنِيَةٍ. فاللّه تعالى يَصونُ دينَ عبده وإخْلاصَهُ عَنْ وساوِسِ شَياطينِ الجِنِّ، وعِنْدَ تَوَجُّهِ الآفاتِ والمَخافاتِ مِن شَياطينِ الإنْسِ، ومِنْ كُلِّ شَرٍّ يُرادُ به، وذلك إذا قالَ: أعوذُ باللّه[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 507.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 127.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 1/ 48.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 507.

### دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ الرُّبوبيَّةِ مُضافًا إلى ضَميرِ المتكلِّم:

افْتِخارُ موسى بِمَقامِ العُبوديَّةِ للرَّبِّ سُبحانه رَدٌّ على اسْتِخْفافِ فِرْعَوْنَ وتَبَجُّحِهِ

أضافَ النَّظْمُ الحَكيمُ لَفْظَ الرُّبوبيَّةِ إلى ضمير ياءِ المُتَكَلِّم العائِدِ على موسى عليه السلام في جملة: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾؛ لِتأْكيدِ تَعَبُّدِ موسى عليه السلام لِرَبِّهِ تعالى وتَشرُّفِهِ به، وفيه إشارَةٌ إلى مَعْنى التَّفَضُّلِ بالتَّرْبيةِ والرِّعايةِ، فكَأنَّه يَقولُ: إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ هو الَّذي رَبّاني وإلى دَرَجاتِ الخَيْرِ رَقّاني، ومِنَ الآفاتِ وقاني، وأعْطاني نِعَمًا لا حَدَّ لَها ولا حَصْرَ، فلَمّا كانَ المَوْلى لَيْسَ إلّا اللهَ وجَبَ أنْ لا يَرْجِعَ العاقِلُ في دَفْعِ كُلِّ الآفاتِ إلّا إلى حِفْظِ اللهِ تَعالى[1].

وفي إضافَةِ الرُّبوبيَّةِ إلى ياءِ المُتَكَلِّم تَصْريحٌ بالافْتِخارِ بِهَذِهِ العُبوديَّةِ الَّتي تُشَرِّفُ قَدْرَ موسى عليه السلام، ورَدٌّ على تَبَجُّحِ فِرْعَونَ اللَّعينِ واسْتِخْفافِهِ بِدَعائِهِ في الآيَةِ السّابِقَةِ في قَوْلِهِ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾.

### مَعْنى الواوِ في قَوْلِهِ: ﴿وَرَبِّكُم﴾ ونُكْتَةُ الإضافَةِ فيه:

اللهُ تعالى ربُّ الخَلْقِ أجْمَعينَ، سواءٌ آمَنوا بِهِ تعالى أم لَمْ يُؤْمِنوا

في قولِهِ تعالى على لِسانِ موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ عَطَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ قَوْلَه: ﴿وَرَبِّكُم﴾ على ﴿بِرَبِّي﴾، وخُصَّ اسْمُ الرَّبِّ؛ لأنَّ المَطْلوبَ هو الحِفْظُ والتَّرْبِيَةُ، وأضافَهُ إلَيْهِ وإلَيْهِمْ حَثًّا لَهم على موافَقَتِهِ في العِياذِ بِهِ سُبْحانَهُ والتَّوَجُّهِ التّامِّ بالرّوحِ إلَيْهِ جَلَّ شَأْنُهُ؛ لِما في تَظاهُرِ الأرْواحِ مِنِ اسْتِجْلابِ الإجابَةِ، وهَذه هي الحِكْمَةُ في مَشْروعيَّةِ الجَماعَةِ في العِباداتِ[2]. كَما أنَّ في زِيادَةِ وَصْفِهِ بِرَبِّ المُخاطَبينَ إيماءً إلى أنَّ عليهِمْ أنْ لا يَجْزَعوا من مُناوأةِ فِرْعَوْنَ لَهم، وأنَّ عليهِمْ أنْ يَعوذوا باللهِ مِن كُلِّ ما يُفْظِعُهم[3]. ففي هَذِهِ الزّيادَةِ كثيرٌ مِنَ المَعاني الجَليلَةِ المُرَسِّخَةِ لِحُسْنِ الاعْتِقادِ باللهِ تعالى.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 507.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 316.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 127.

### نُكْتَةُ تَقْديمِ رُبوبيَّةِ اللهِ لِموسى عليه السلام على غيْرِه:

رُبوبيَّةُ اللهِ تشملُ الخلقَ أجمعين

قُدِّمَ إثْباتُ رُبوبيَّةِ اللّه تَعالى لِموسى عليه السلام على إثْباتِها لَهُمْ لعدَّةِ لطائفَ: أنْ يَكونَ الكَلامُ جاريًا على طَريقةِ التَّدلّي، وأنْ يُسْتَدَلَّ بِرُبوبيَّةِ اللّه تَعالى لَهُ على رُبوبيَّتِهِ لَهُمْ مِنْ بابٍ أوْلى وأحْرى، فيَكونُ قَوْلُهُ بَعْدُ: ﴿وَرَبِّكُم﴾ بِمَنْزِلَةِ التَّأْكيدِ والتَّقْويَةِ، ولأنَّ فِرْعَونَ قَدِ ادَّعى الأُلوهيَّةَ، فكانَ الأنْسَبُ إثْباتَ كَوْنِهِ مَرْبوبًا؛ رَدًّا لِهَذِهِ الفِرْيَةِ العَظيمَةِ، الَّتي تَبَجَّحَ بها في قولِه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: 38]، وقَوْلِه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ٢٤﴾ [النّازعات: 24]، فكانَ إثْباتُ رُبوبيَّةِ اللّه تعالى لِموسى عليه السلام أوَّلًا ولقومِه من بعدِهِ من بابِ دَفْعِ هَذِهِ الفِرْيَةِ.

### مَعْنى ﴿مِن﴾ الجارَّةِ في قولِه: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾:

معظمُ الشُّرورِ مبدؤُها الكِبْر

جاءَتْ ﴿مِّن﴾ في جملة ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ لِلابْتِداءِ، فجَعَلَتِ ابْتِداءَ الغايَةِ في الاسْتِعاذَةِ كُلَّ مُتَكَبِّرٍ. وفي الجملة مَحْذوفٌ، يُمْكِنُ تَقْديرُه بِـ(شَرِّ)؛ أي: (مِنْ شَرِّ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ أو أذاهُ).

### نُكْتَةُ دُخولِ ﴿كُلِّ﴾:

الاسْتِعاذَةُ شامِلَةٌ لِكُلِّ المُتَكَبِّرينَ لا فِرْعَونَ وحْدَه

في جملة ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أضافَ النَّظْمُ الجَليلُ لَفْظَ ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ إلى كَلِمَةِ ﴿كُلِّ﴾، لإفادَةِ الإحاطَةِ والشُّمولِ؛ لِتَشْمَلَ اسْتِعاذَتُهُ فِرْعَوْنَ وغَيْرَهُ مِنَ الجَبابِرَةِ.

ولَعَلَّ التَّصْريحَ بِذِكْرِ هامانَ وقارونَ في قَوْلِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ٢٣ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ٢٤﴾ [غافر: 23 - 24] مِنْ أسْبابِ دُخولِ لَفْظِ ﴿كُلِّ﴾، فإنَّ فِرْعَونَ لَمْ يَكُنِ المُتَكَبِّرَ الأوْحَدَ الَّذي جابَهَ دَعْوَةَ موسى عليه السلام، بَلْ كانَ هامانُ وقارون كذلك مِنْ رؤوسِ المُتَكَبِّرينَ، فجاءَ لَفْظُ ﴿كُلِّ﴾ لِيَشْمَلَهُما إلى جوارِ فِرْعَونَ، لَعَنَهُمُ اللّهُ أجْمَعين.

### دَلالَةُ التَّعْبيرِ بلفظ ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾، ونُكْتَةُ تَنْكيرِه:

الاسْتِكْبارُ عَنِ الإِذْعانِ لِلحَقِّ سبيلُ الطُّغاةِ والمُتَجَبِّرينَ

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ نَكِرَةً لإفادَةِ العُمومِ والشُّمولِ، ولِلتَّعْريضِ بِفِرْعَونَ دونَ التَّصْريحِ باسْمِه، فشَمَلَ الوَصْفُ كُلَّ مُتَكَبِّرٍ طاغٍ، وأرادَ بالتَّكَبُّرِ الاسْتِكْبارَ عَنِ الإِذْعانِ لِلْحَقِّ وهو أقْبَحُ اسْتِكْبارٍ وأدَلُّهُ على دَناءَةِ ومَهانَةِ نَفْسِهِ وعَلى فرْطِ ظُلْمِهِ وعَسْفِهِ[1].

### نُكْتَةُ التَّعْميمِ والعُدولِ عنْ ذِكْرِ فِرْعَونَ:

أدبُ الخِطابِ زينةُ الأنْبياءِ، وسوءُ الخطابِ طبعُ المتكبِّرينَ الطُّغاة

وجهُ التَّعميم في قَوْلُ موسى عليه السلام: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ دون التَّصريح باسم فِرْعَوْنَ الإشارةُ إلى اتّصافِ موسى بِمَكارِمِ أخْلاقِ أهْلِ الحَقِّ، الَّذين تَبْتَعِدُ ألْسِنَتُهُمْ عَنِ الأشْخاصِ إلى صفاتهم، فالمُسْتَعاذُ باللّه مِنْهُ لَيْسَ هوَ شَخْصَ فِرْعَوْنَ، وإنَّما هوَ المُتَكَبِّرُ الَّذي لا يُؤْمِنُ بيَوْمِ الحِسابِ السّاكِنُ في شَخْصِ فِرْعَوْنَ، فلَوْ لَمْ يَكُنْ مُتَكَبِّرًا جاحِدًا لَما كانَ بَيْنَ موسى وبَيْنَهُ ما يُكْرَهُ، وهَذا هوَ الأُسْلوبُ العالي، ولَوْ وضَعْتَهُ بإزاءِ خُشونَةِ فِرْعَوْنَ وغَطْرَسَتِهِ وسوءِ أدَبِهِ في قَوْلِه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ﴾ لَوَجَدْتَ الفَرْقَ الكبيرَ بَيْنَ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِلِسانِ النُّبوَّةِ، ومَنْ يَتَكَلَّمُ بِلِسانِ الغَطْرَسَةِ.

وفي عدمِ التَّصريحِ باسمِ فرعونَ إشارةٌ إلى خُلُقِ الوفاءِ لدى سيِّدِنا موسى؛ لأنَّهُ كانَ قَدْ سَبَقَ لَهُ حَقُّ تَرْبيَةٍ على موسى مِن بَعْضِ الوُجوهِ، فتَرَكَ التَّعْيينَ رِعايَةً لِذَلِكَ الحَقِّ[2]. ذَلِكَ أنَّ موسى عليه السلام لَمْ يَنْسَ أنَّهُ رُبّيَ في بَيْتِ هَذا الرَّجُلِ وأكَلَ طَعامَهُ وسَكَنَ في مَسْكَنِهِ وعاشَ في رِعايَتِهِ[3].

ثُمَّ إنَّ موسى عليه السلام بِهَذا العُدولِ يُعَلِّمُنا أنْ نَحْذَرَ من نوعٍ معيَّنٍ مِنَ البَشَرِ، وأنْ نَسْتَعيذَ باللّه مِنْهُ، وهوَ المُتَكَبِّرُ، فالكِبْرُ ولَوازِمُهُ مِنَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 317.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 507.

(3) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 99.

الإفْراطِ والطُّغْيانِ، هوَ شَرٌّ كُلُّه، وبَلاءٌ كُلُّه، وجَهْلٌ كُلُّه، وعَلى هَذا يَجِبُ أنْ يُدْفَعَ؛ لأنَّهُ ضِدُّ الحَياةِ الإنْسانيَّةِ الطَّبيعيَّةِ، وضِدُّ حُرُماتِ النّاسِ في المُجْتَمَعِ الإنسانيِّ"[1].

**المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾:**

**التَّجَبُّرُ والتَّكْذيبُ بـالـجَـزاءِ مِـنْ أسْبابِ القَسْوَةِ والـجُـرْأةِ على رُسُلِ الله**

جاءَتْ جملة ﴿لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ صِفَةً لـ﴿مُتَكَبِّرٖ﴾، وجُعِلَتْ مُغْنِيَةً عَنْ صِفَةِ الكُفْرِ أوِ الإشْراكِ؛ لأنَّها تَتَضَمَّنُ الإشْراكَ وزِيادَةً؛ لأنَّهُ إذا اجْتَمَعَ في المَرْءِ التَّجَبُّرُ والتَّكْذيبُ بالجَزاءِ وقِلَّةُ المُبالاةِ بِعَواقِبِ أعْمالِهِ كَمُلَتْ فيهِ أسْبابُ القَسْوَةِ والجُرْأةِ على اللهِ تَعالى وعلى النّاسِ[2]، فلَمْ يَتْرُكْ عَظيمَةً إلّا ارْتَكَبَها.

**دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿لَّا يُؤۡمِنُ﴾:**

**عَـدَمُ الإيـمـانِ مُـتَـجَـدِّدٌ ما دامَ الـتَّـجَـبُّرُ والاسْـتِـكْـبـارُ يسكنانِ القلبَ**

آثَرَ النَّظْمُ الجَليلُ التَّعبيرَ بِصيغَةِ المُضارَعَةِ في جملة: ﴿لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ لأنَّ المُرادَ الإشارَةُ إلى أنَّ فِرْعَونَ اللَّعينَ ومنْ مَعَهُ لا يَتَجَدَّدُ لَهُم تَصديقٌ بيَوْمِ الحِسابِ[3]، ففي صيغَةِ المُضارَعَةِ دَلالَةٌ على اسْتِمْرارِ عَدَمِ إيمانِ المُتَجَبِّرينَ ما دامَ التَّجَبُّرُ والاسْتِكْبارُ في قُلوبِهم.

**دَلالَةُ إضافَةِ (يومِ) لِلَفْظِ ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾:**

**سَفاهَةُ عَقولِ المُتَجَبِّرينَ الَّذينَ لا يُصَدِّقونَ بيومِ الحِسابِ**

أضافَ النَّظْمُ الحكيمُ كَلِمَةَ (يَوْمِ) لِلَفْظِ ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾ للدَّلالَةِ على أنَّ هذا اليومَ هوَ الَّذي يَقَعُ فيه الحسابُ، والمُرادُ منَ الإضافَةِ بيانُ سفاهَةِ عقولِ هؤلاءِ المتكبِّرينَ المتجبِّرينَ الَّذينَ اسْتَعاذَ موسى عليه السلام مِنْهُم، حيث لم يُصَدِّقوا بوقوعِ هَذا اليَوْمِ العَظيمِ الَّذي إليه مَصيرُ البَشَرِ أجْمَعينَ.

**مَعْنى اللّامِ في لَفْظِ ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾:**

جاءَتِ اللّامُ في كَلِمة ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾ للعَهْدِ الذِّهْنيِّ؛ أي: ذَلِكَ

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 99.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 317، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 127.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 52.

يَوْمُ الحِسابِ مِنَ الأمُورِ المَعلومَةِ المستقرَّةِ في قلبِ كلِّ مُسْلِمٍ

الحِسابِ المَعْلوم الَّذي تحدَّث عَنْهُ المُرْسَلونَ والأنْبياءُ كثيرًا، حَتّى غَدا أمْرًا مَعْلومًا منَ الدّينِ بالضَّرورَةِ، فكانَ مَفْهومًا في سياقِ النَّظْمِ وإنْ لَمْ يجِئْ لَهُ ذِكْرٌ قَريبٌ.

**سرُّ إيثار لفظ ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾ مادَّةً وصيغَةً:**

يَوْمُ الحسابِ هوَ اليَوْمُ الَّذي يَظْهَرُ فيه الجَزاءُ على الأعْمالِ

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ لفظَ ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾ دونَ بَقيَّةِ أسْماءِ القيامَةِ؛ لأنَّ تَوْفيَةَ عِقابِ المُتَجَبِّرينَ تَظْهَرُ في هَذا اليَوْمِ، ولأنّ اللّٰه تعالى يجمع فيه أعْمالَ العِبادِ، فلا تَغيبُ عَنْهُ شارِدَةٌ ولا وارِدَةٌ إلّا يُحْصيها على عِباده؛ إذِ المَعْنى المِحْوَريُّ لِمادَّةِ (حسب) هوَ جَمْعُ ما هوَ مُنْتَشِرٌ في حَيِّزٍ يَضُمُّهُ حَتّى يَمْتَلِئَ به[1].

التَّعْبيرُ بيَوْمِ الحِسابِ أشَدُّ تَخْويفًا مِنْ بَقيَّةِ أسْماءِ القيامَةِ

وإنَّما ذُكِرَ الحِسابُ دونَ القيامَةِ؛ لأنَّهُ أشَدُّ تَخْويفًا، فإنَّ الإنْسانَ إذا عَلِمَ أنَّهُ سَيُحاسَبُ على عَمَلِهِ يُرْجى لَهُ أنْ يَرْتَدِعَ عَنِ المَعاصي وأنْ يَقومَ بالأوامِرِ[2].

**نُكْتَةُ الاقْتِصارِ على عَدَمِ الإيمانِ بيَوْمِ الحِسابِ:**

عَدَمُ التَّصْديقِ بيَوْمِ الحِسابِ مُتَضَمِّنٌ للكُفْرِ وزيادَةٍ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ عَنْ صِفاتِ المُتَكَبِّرينَ بعَدَمِ الإيمانِ بيوم الحِسابِ مِنْ دونِ سائِرِ الأرْكانِ الأُخْرى؛ لأنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ مُغْنيَةٌ عَنْ صِفَةِ الكُفْرِ أوِ الإشْراكِ؛ جامِعةٌ لهما؛ لتضمُّنِها الإشْراكَ وزيادَةً.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حسب).
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة غافر، ص: 237.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر: 28]

### مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا انْقَضى كَلامُ فرْعَونَ رَأسِ الكُفْرِ والتَّكبُّرِ، وكَلامُ موسى عليه السلام رَأسِ الإيمانِ والإخْباتِ، بَيَّنَ اللّه تعالى أنَّهُ قيَّضَ إنْسانًا أجْنَبيًّا غَيْرَ موسى ذَبَّ عَنْهُ على أحْسَنِ الوُجوهِ، وبالَغَ في تَسْكينِ تِلْكَ الفِتْنَةِ واجْتَهَدَ في إزالَةِ ذَلِكَ الشَّرِّ(1).

مِنْ حِكمَةِ الله تعالى إذا اشْتَدَّ الإيــذاء تأييدُ المُرسَلينَ بالأتْباعِ الـصّـادقـينَ الأذكياء

فعَلَّلَ هَذا المُؤمِنُ قَوْلَهُ في شِقَّيِ التَّقْسيمِ بما يَنْطَبِقُ على فِرْعَوْنَ مُنَفِّرًا منه، مَعَ صَلاحيتِهِ لإرادَةِ موسى عليه السلام على ما زَعَمَهُ فيهِ فِرْعَوْنُ؛ لأنَّ أوَّلَ خِذْلانِهِ وضَلالِهِ تَعَمُّقُهُ في الكَذِبِ، فإنْ كانَ كاذِبًا كَما زَعَمْتُمْ ضَرَّهُ كَذِبُهُ، ولَمْ يَهْتَدِ لِوَجْهٍ يُخَلِّصُهُ، وإنْ كانَ صادِقًا أصابَتْكُمُ العُقوبَةُ ولَمْ تَهْتَدوا لِما يُنْجيكُمْ؛ لاتِّصافِكم بالوَصْفَيْنِ(2).

### شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: (بين) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ بُعْدُ الشَّيْءِ وانْكِشافُهُ، وبانَ الشَّيْءُ وأبانَ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ(3). ومِنْ معنى بُعد الشَّيء والفَصْلِ والتَّمْييزِ جاءَ مَعْنى الوُضوحِ والظُّهورِ؛ لأنَّ المَفْصولَ المُتَمَيِّزَ مِنْ غَيْرِهِ يَلْفِتُ النَّظَرَ. وهوَ المَعْنى الَّذي جاءَتْ بِهِ كُلُّ مُفْرَداتِ التَّرْكيبِ القُرْآنيَّةِ ما عَدا الظَّرْفَ (بَيْنَ)(4). والبَيِّنَةُ: الدِّلالَةُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 508.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 56.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بين).

الواضِحَةُ؛ عَقْلِيَّةً كانَتْ أو حِسِّيَّةً، وهي: الحُجَّةُ؛ لأنَّ الحَقَّ يَنْكَشِفُ ويَتَّضِحُ بها[1]. فلا يُنازِعُ فيها مُنازِعٌ لِوُضوحِها، وهي: أظْهَرُ بُرْهانٍ في الطَّبْعِ والعِلْمِ والعَقْلِ بِحَيْثُ لا مَنْدوحَةَ مِنْ شُهودِ وُجودِهِ[2]. والمُرادُ بالبَيِّناتِ هَهُنا: الحُجَجُ الظّاهِراتُ مِنْ تَوْحيدِ اللّه تعالى وطاعَتِه، وكذَلِكَ: عَصا موسى ويَدُهُ[3].

2) ﴿يُصِبْكُم﴾: (صوب) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على نُزولِ شَيْءٍ واسْتِقْرارِهِ قَرارَهُ[4]. والمَعْنى المِحْوَرِيُّ: هويٌّ إلى شَيْءٍ مَعَ موافَقَتِهِ؛ أيْ: الوُقوعُ والاصْطِدامُ بِهِ. والإصابة: النُّزولُ بالشَّيْءِ واللَّحاقُ بِهِ خَيْرًا كانَ النّازِلُ أو شَرًّا، ثُمَّ كَثُرَ في الشَّرِّ. وقد ورد في القُرْآنِ مِنَ اللَّفظ معنى الحَدَث الَّذي يَنْزِلُ بالإنْسانِ خَيْرًا أو شَرًّا، أمّا كَلِمَةُ (مُصيبة) فلَمْ تُسْتَعْمَلْ في القُرْآنِ إلّا في التَّعْبيرِ عَمّا يَعُدُّهُ الإنْسانُ شَرًّا[5]. فالإصابَةُ في الخَيْرِ باعْتِبارِ الصَّوْبِ، - أي: المَطَرِ - وفي الشَّرِّ باعْتِبارِ إصابَةِ السَّهْمِ، وكِلاهُما يَرْجِعُ إلى أصْلٍ[6]. ومعنى ﴿يُصِبْكُم﴾ في الآية: يحلَّ بكم.

3) ﴿مُسْرِفٌ﴾: (سرف) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على تَعَدّي الحَدِّ والإغْفالِ والخطأ، وتَجاوُزِ الحَدِّ أوِ الحَقِّ في الأَخْذِ مِنَ الشَّيْءِ إلى الإهْدارِ والإفْسادِ، تقولُ: في الأَمْرِ سَرَفٌ؛ أي: مُجاوَزَةُ القَدْرِ[7]. والَّذي في القُرْآنِ مِنَ التَّرْكيبِ بِمَعْنى التَّجاوُزِ في إنْفاقِ المالِ والأكْلِ والتَّجاوُزِ في ارْتِكابِ الذُّنوبِ والإفْسادِ في الأَرْضِ[8]. واخْتُلِفَ في المُرادِ بالإسرافِ هَهُنا: فذَهَبَ بَعْضُهُم إلى أنَّه الشِّرْكُ، وذَهَبَ آخرون إلى أنَّهُ القِتالُ بِغَيْرِ حَقٍّ[9]. وقالَ الطَّبَرِيُّ: والشِّرْكُ مِنَ الإسْرافِ، وسَفْكُ الدَّمِ بِغَيْرِ حَقٍّ مِنَ الإسْرافِ، وقَدْ كانَ مُجْتَمِعًا في فِرْعَوْنَ الأمْرانِ كِلاهُما، فالحَقُّ أنْ يَعُمَّ ذَلِكَ[10].

(1) الراغب، مفردات القرآن، وابن منظور، لسان العرب: (بين).
(2) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 88.
(3) مكي بين أبي طالب، الهداية: 10/ 6422.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صوب).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (صوب).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (صوب).
(7) الأزهري، مقاييس اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سرف).
(8) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (سرف).
(9) مكي بين أبي طالب، الهداية: 10/ 6424.
(10) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 377.

## ۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَوْقِفٌ خالِدٌ لِرَجُلٍ مُؤْمِنٍ حَصيفٍ حَكيمٍ، مُبينٍ لِسانُه جَريءٍ قَلْبُه

هَذا مَوْقِفٌ خالِدٌ لِرَجُلٍ مُؤْمِنٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إيمانَهُ، أَثْبَتَهُ اللّه في المَصاحِفِ، بِكَلامٍ قالَهُ في مَجْلِسٍ مِنْ مَجالِسِ الكُفْرِ، وأَثْنى عليه إلى الأبَدِ، لَقَدْ قالَ هَذا الرَّجُلُ: كَيْفَ تَقْتُلونَ رَجُلًا لا ذَنْبَ لَهُ إلّا أَنَّهُ قالَ: اللّه رَبّي؟! وقَدْ جاءَكُمْ بالمُعْجِزاتِ الواضِحاتِ الدّالَّةِ على صِدْقِ نُبوَّتِهِ ورِسالَتِهِ، فهَذا لا يَسْتَدْعي القَتْلَ، فتَوَقَّفَ فِرْعَوْنُ عَنْ قَتْلِهِ. وزادَ الرَّجُلُ حُجَجًا سِتًّا أُخْرى لِتَأْييدِ كَلامِهِ، جاءَ مِنْها في هَذِهِ الآيةِ حُجَّتانِ، الأولى: إنْ كانَ هَذا الرَّجُلُ - أيْ: موسى عليه السلام - كاذِبًا في دَعْوَتِهِ كانَ وبالُ كَذِبِهِ عليه فاتْرُكوهُ، وإنْ كانَ صادِقًا في دَعْواهُ يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذي يَعِدُكُمْ بِهِ إنْ خالَفْتُموهُ مِنَ العِقابِ الدُّنْيَويِّ والأُخْرَويِّ، فاتْرُكوهُ أَيْضًا في دَعْوَتِهِ. والأُخْرى: لَوْ كانَ موسى مُسْرِفًا مُتَجاوِزًا الحَدَّ في قَوْلِهِ، كاذِبًا في ادِّعائِهِ النُّبوَّةَ لَما هَداهُ اللّه إلى المُعْجِزاتِ المُؤَيِّدَةِ لَهُ، ولَخَذَلَهُ اللّه وأَهْلَكَهُ[1].

## ۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### مَعْنى الواوِ في ﴿وَقَالَ﴾:

المؤمنُ يَصدَعُ بِقَوْلِ الحَقِّ في كُلِّ الأحْوالِ والمَواقِفِ، شَهِدَها أو لَمْ يَشْهَدْها

جاءَتِ الجملة ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ موصولةً بما قبلَها - وهي جملة ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ - لاتِّفاق الجملتين في الخبريَّةِ مع وجودِ مناسبةٍ تامَّةٍ تجمعُ بينهما وليس في الكلام ما يمنعُ من العطف.

وأفادَ العَطْفُ أنَّ مُؤمنَ آلِ فِرْعَونَ قالَ قَوْلَهُ هَذا في غَيْرِ مَجْلِسِ شورى فِرْعَوْنَ؛ لأنَّهُ لَوْ كانَ قَوْلُهُ جاريًا مَجْرى المُحاوَرَةِ مَعَ فِرْعَوْنَ في مَجْلِسِ اسْتِشارَتِهِ، أَوْ كانَ أجابَ بِهِ عَنْ قَوْلِ فِرْعَوْنَ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ لَكانَتْ حِكايَةُ قَوْلِهِ بدونِ عَطْفٍ على طَريقَةِ المُحاوَرات[2].

وأَصْلُ هَذا: ما ذكرَهُ البَلاغيّونَ مِنْ أَنَّ أساليبَ المُقاوَلَةِ يَأْتي بَعْضُها

(1) وهبة الزحيلي، التفسير الوسيط: 3/ 2272.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 130.

في إِثْرِ بَعْضٍ مِن دونِ واوٍ؛ لأَنَّ قَوْلَ الأَوَّلِ يُثيرُ في النَّفْسِ سُؤالًا يَقولُ: وماذا قالَ الثّاني؟ فيأْتي الكَلامُ بِدونِ واوٍ على طَريقَةِ شِبْهِ كَمالِ الاتِّصالِ، فإذا جاءَتِ الواوُ دَلَّتْ على أنَّهُ كَلامٌ يُضَمُّ بَعْضُهُ إلى بَعْضٍ، ولَيْسَ كَلامًا يَتَوَلَّدُ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ. وهَذا مِنَ النَّظَرِ الدَّقيقِ في طَرائِقِ العَرَبيَّةِ في الإبانَةِ[1].

والَّذي يَظْهَرُ: أنَّ اللّٰه أَلْهَمَ هَذا الرَّجُلَ أَنْ يَقولَ مَقالَتَهُ إلْهامًا، فكانَ أَوَّلَ مَظْهَرٍ مِن تَحْقيقِ اللّٰه لاسْتِعاذَةِ موسى بِهِ سبحانه، فلَمّا شاعَ تَوَعُّدُ فِرْعَوْنَ بِقَتْلِ موسى ﵇ جاءَ هَذا الرَّجُلُ إلى فِرْعَوْنَ ناصِحًا، ولَمْ يَكُنْ يَتَّهِمُهُ فِرْعَوْنُ؛ لأَنَّهُ كانَ مِن آلِهِ[2]. فصَدَعَ بالحَقِّ رَغْمَ عَدَمِ شُهودِهِ مَقالَةَ فِرْعَونَ في حينِها، ذَلِكَ أَنَّ الصَّدْعَ بِقَوْلِ الحَقِّ يَكونُ في كُلِّ الأَحْوالِ والمَواقِفِ، شَهِدَها المُؤْمِنُ أو لَمْ يَشْهَدْها، دُعيَ إلَيْها أو لَمْ يُدْعَ، قيامًا بِواجِبِ الأَمانَةِ والتَّبْليغِ، ورَدِّ العُدْوانِ بِما اسْتَطاعَ إليه سَبيلًا.

### دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿رَجُلٌ﴾ ونُكْتَةُ تَنْكيرِه:

تَشَرُّفُ الرُّجولَةِ وارْتِفاعُ قَدْرِها بِمِقْدارِ عَظَمَةِ مَواقِفِ المُنْتَسِبينَ إلَيْها لا بأسمائِهِم

عَدَلَ النَّظْمُ الحَكيمُ عَنْ ذِكْرِ اسمِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَونَ، وآثَرَ أَنْ يَذْكُرَهُ بِوَصْفِ الرُّجولَةِ، فقالَ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ﴾؛ أيْ: كامِلٌ في رُجولَتِهِ[3]. وجاءَتْ لَفْظَةُ ﴿رَجُلٌ﴾ للتَّعْظيمِ، فهو رَجُلٌ عَظيمُ القَدْرِ، جاءَ تَصَرُّفُه على قَدْرِ هَوْلِ المَوْقِفِ وخُطورَتِه، فرفَعَ مِنْ قَدْرِ الرُّجولَةِ وأَعْلى مِنْ شَأْنِها بِهَذا المَوْقِفِ النَّبيلِ الحَكيمِ الجَريءِ. فالبَيانُ القُرْآنيُّ الحَكيمُ أَبْهَمَ اسْمَه عَمْدًا؛ لإِبْرازِ قوَّةِ مَوْقِفِه دونَ اسْمِه، وتَنْويهًا بأَنَّ مِنَ النّاسِ مَنْ يَخوضُ غِمارَ الدَّعْوَةِ إلى اللّٰه تعالى ولا يَعْلَمُ باسمِهِ أَحَدٌ، ومَعَ ذَلِكَ فإنَّ مَوْقِفَه خالِدٌ عِندَ اللّٰهِ إلى يَومِ الدّينِ؛ فإنَّ العِبْرَةَ

---

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 103.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 130.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 53.

لَيْسَتْ بالأسماءِ، بل بالمَواقِفِ الحقَّةِ الَّتي يَكونُ لَها في ميزانِ الحَقِّ أعْظَمُ قَدْرٍ وتأثيرٍ.

**فائِدَةُ وصْفِهِ بالإيمانِ وتَقْديمِهِ على نسبتِهِ لآلِ فِرْعَوْنَ:**

**الإيمانُ باللهِ العَليِّ الكَبيرِ أعْظَمُ مَناقِبِ الإنْسانِ**

في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤۡمِنٌ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ وصَفَ النَّظْمُ الكريمُ هذا الرَّجُلَ الحَكيمَ بالإيمانِ، وقَدَّمَ هَذا الوَصْفَ على نِسْبَتِه إلى آلِ فِرْعَونَ، فذَكَرَتْهُ الآيَةُ بِصِفَتِهِ ولَمْ تَذْكُرِ اسْمَهُ كَما ذَكَرَتِ الآياتُ السّابِقَةُ هامانَ وقارونَ، وذَلِكَ لِلإعْلامِ مِنْ أوَّلِ الأمْرِ بأعْظَمِ مَناقِبِهِ وهوَ الإيمانُ.

ويَدُلُّ كَلامُهُ على أنَّهُ آمَنَ بِما جاءَ بِهِ موسى ﷺ مُنْذُ زَمَنٍ، وأنَّهُ ظَلَّ يَكْتُمُ إيمانَهُ زَمَنًا، وذَلِكَ لِوَفْرَةِ عُلومِهِ في الدّين؛ إذ كانَ يُحَدِّثُ بِحَقائِقَ لا تُعْرَفُ إلّا مِنَ الوَحْيِ[1].

**مَعْنى ﴿مِّنۡ﴾ في قوله: ﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾:**

**نورُ الهِدايةِ ليس حَكْرًا على قومِ موسى**

جاءَتْ ﴿مِّنۡ﴾ في قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ لِبيانِ الجِنْس؛ أي: رَجُلٌ مَنْسوبٌ إلى آلِ فِرْعَونَ، وفيها مَعنى التَّبْعيضِ؛ أي: هو بَعْضٌ منْ آلِ فِرعَونَ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ اللّه ﷻ قد جَرَتْ سنّتُهُ في خلقه أنْ يقذفَ نورَ الهدايةِ في قلوبِ أهلِ وأقرباءِ أشدِّ النّاس كفرًا. وقد تكونُ ﴿مِّنۡ﴾ تَعْليليَّةً[2]؛ لِبيانِ عِلَّةِ كَتْمِ إيمانِه.

**نُكْتَةُ تقديمِ الوَصْفِ ﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ على قوله: ﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾:**

**تَقْديمُ نِسْبَةِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَونَ على الكِتْمانِ لأهَمّيَّةِ نَسَبِهِ في استِماعِ القَومِ لَهُ**

وَصَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ هَذا الرَّجُلَ المُؤْمِنَ بأنَّهُ ﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، وقَدْ رَجَّحَ البَلاغيّونَ أنَّ قَوْلَهُ سُبْحانَهُ: ﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ وصْفٌ لِلرَّجُلِ، ولا يَجوزُ تَأْخيرُهُ؛ لئلّا يَلْتَبِسَ المَعْنى ويُظَنَّ أنَّ قَوْلَهُ: ﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ صِلَةٌ لِقَوْلِه: ﴿يَكۡتُمُ﴾، ولا يُفْهَمُ مِنَ الآيَةِ - والحالُ هذه - أنَّهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ. ولَمْ يُعَلِّقْ ﴿مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ بـ﴿يَكۡتُمُ﴾ إلّا

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 104.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/ 421.

قِلَّةٌ قَليلَةٌ مِنْ أهْلِ العِلْمِ، وعَلى هَذا التَّوْجيهِ الَّذي ذَهَبَ إلَيْهِ بَعْضُهم يُحْتَمَلُ أنْ يَكونَ الرَّجُلُ مِنْ عامَّةِ القِبْطِ أو مِنْ بَني إسْرائيلَ. وإنْ كانَ يُعَكِّرُ على هَذا الأخيرِ أنَّ السَّحَرَةَ - وهُمْ مِنْ بَني إسْرائيلَ - لَمْ يَكْتُموا إيمانَهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ، وما إنْ رَأَوْا آيَةَ اللهِ لِموسى إلّا انْقَلَبوا ساجِدينَ وكَأنَّهُمُ ابْتَهَجوا لِنُبوَّةٍ جَديدَةٍ في بَني إسْرائيلَ. وقَدْ تَهَدَّدَهُمْ فِرْعَوْنُ بأشْنَعِ ضُروبِ النَّكالِ كِقِلَّةٍ مُسْتَضْعَفَةٍ ولَمْ يَتَراجَعوا، وأجابوا طُغْيانَهُ وتَسَلُّطَهُ وقَوْلَهُ لَهُمْ: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه: 71] بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَا ضَيۡرَۖ﴾ [الشُّعَراء: 50]؛ أي: لا ضَيْرَ عَلَيْنا[1].

وكذلك في تأخيرِ وصْفِ كِتْمانِ الإيمانِ في قَوْلِه: ﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ بيانٌ لأهَمِّيَّةِ نَسَبِهِ في استِماعِ القَومِ لَهُ.

### دلالةُ لفظ ﴿ءَالِ﴾:

الَّذي عليه الجُمْهورُ أنَّ الرَّجُلَ المُؤْمِنَ لَيْسَ مِنْ بَني إسْرائيلَ وإنَّما هوَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وآلُ فِرْعَوْنَ هُمْ أهْلُهُ وخاصَّتُهُ؛ إذ لا يُقالُ: (آلُ فُلانٍ) إلّا لِمَنْ هُمْ مِنْهُ بِمَكانٍ، كَآلِ نَبيِّنا ﷺ وهُمُ الَّذينَ مِنْهُ بِمَكانٍ. وفي كَلامِ هَذا الرَّجُلِ المُؤْمِنِ ما يُؤَكِّدُ أنَّهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ولَيْسَ مِنْ بَني إسْرائيلَ، ولَيْسَ هوَ الرَّجُلَ الَّذي جاءَ يَسْعى ويَقولُ لِموسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ﴾ [القَصَص: 20][2]؛ فإنَّ تِلْكَ القِصَّةَ كانَتْ قُبَيْلَ خُروجِ موسى من مِصْرَ، وهَذِهِ القِصَّةُ في مَبْدَإِ دُخولِهِ مِصْرَ[3]، وقَوْلُه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ دالٌّ على أنَّهُ لَيْسَ مِنْ بَني إسْرائيلَ؛ لأنَّ بَني إسْرائيلَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مُلْكٌ في مِصْرَ[4].

**الحَقُّ أبْلَجُ يُسَخِّرُ لَهُ اللهُ مِنَ الجُنودِ والمُؤَيِّدينَ مَنْ يُدافِعُ عَنْهُ ولَوْ في عَرينِ الباطِلِ**

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 105، وينظر في تفصيل مرجعه وقربه من موسى عليه السلام كل من: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 306، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 317.

(2) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 103.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 130.

(4) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 104.

ونُكْتَةُ نِسْبَةِ هَذا الرَّجُلِ المُبارَكِ إلى آلِ فِرْعَونَ بيانُ أنَّ الحَقَّ أبْلَجُ، وأنَّ اللّٰهَ يُسَخِّرُ لَهُ مِنَ الجُنودِ والمُؤَيِّدينَ مَنْ يُدافِعُ عَنْهُ ولَوْ في عَرينِ الباطِلِ.

**المَوْقِعُ النَّحويُّ لِجملة ﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾:**

صِفةُ المؤمنِ وحالُهُ كتمُ الإيمانِ حرصًا على نفسه

نَصَّ النُّحاةُ على أنَّ في جملة ﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ وجْهَيْنِ؛ **الأوَّلُ:** أنَّها نَعْتٌ ثالِثٌ لـ﴿رَجُلٌ﴾، فهيَ في مَحَلِّ رَفْعٍ، **والآخَرُ:** أنَّها حالٌ من ﴿رَجُلٌ﴾، وهوَ نَكِرَةٌ مُخْتَصَّةٌ، فالجملة في مَحَلِّ نَصْبِ حالٌ[1]. وعلى كِلا التَّقْديرينِ فيها بَيانٌ لِسِمَةٍ أُخْرى مِنْ سِماتِ هَذا الرَّجُلِ وخَصّيصَةٌ مِنْ خَصائِصِه، ألا وهي صفةُ كتمِ الإيمان.

**نُكْتَةُ العُدولِ عَنِ الوصفِ بالمفرد إلى الوصفِ بالجملة الفِعْلِيَّةِ:**

تَجَدُّدُ خَوْفِ مُؤْمِنِ آلِ فِرعَوْنَ واسْتِمْرارُ كتمِ إيمانه

عَدَلَ النَّظْمُ الحَكيمُ عَنِ الوصف بالمفردِ - فلَمْ يَقُلْ: (كاتِمٌ إيمانَهُ) - إلى الوصفِ بالجملة الفعليَّة؛ لِما في الوصفِ بالمفرد مِنْ مَعْنى الثَّباتِ والدَّوام، وهو ما كَسَرَهُ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَونَ عِنْدَما خَرَجَ عَنْ صَمْتِه، وجابَهَ خَوْفَهُ في اللَّحْظَةِ الحاسِمَةِ. وجاء التَّعبيرُ بِصيغة المضارِعِ في قَوْلِه تعالى: ﴿يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾؛ لِما في هذه الصّيغة مِنَ الدَّلالةِ على تجَدُّدِ الكِتْمانِ واسْتِمرارِهِ إلى لحظة التَّكلُّم، فخَوفُ الرَّجُلِ المُؤْمِنِ مستمرٌّ في ظلِّ وُجودِه في بَلاطِ فِرْعَونَ، وهو مُحاطٌ بِقُيودِ مَسْؤوليَّتِه في بَلاطِ مَلِكٍ مُتَجَبِّرٍ يُحْصي أنْفاسَ مَنْ حَوْلَهُ بِسَطْوَتِه وجَواسيسِه.

**نُكْتَةُ إضافَةِ الإيمانِ إلى ضَميرِ مؤمنِ آلِ فرعونَ:**

الإيمانُ النّابعُ مِنْ قَلْبٍ تَقيٍّ وعَقْلٍ ذَكيٍّ راسخٌ يُؤْمَنُ به مِنَ الرِّدَّةِ إلى الكفرِ والضَّلالِ

أضافَ النَّظْمُ الجَليلُ الإيمانَ إلى ضَميرِ الغائِبِ العائِدِ على مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَونَ، ولَمْ يَقُلْ: (يَكْتُمُ الإيمانَ)؛ لِما في نِسْبَةِ الإيمانِ إليْهِ مِنْ رَفْعٍ لِقَدْرِه، ولِبيانِ اخْتِصاصِه بِهَذا الإيمانِ، فهو إيمانٌ راسِخٌ نابِعٌ مِنْ قَلْبٍ تَقيٍّ وعَقْلٍ ذَكيٍّ؛ ذَلِكَ أنَّ هَذا الرَّجُلَ الحَكيمَ المُثَقَّفَ

(1) الخطيب، ومصلوح، والعلوش، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 24/ 144.

اليَقِظَ النَّظّارَ لَمّا رأى آياتِ موسى عليه السلام لَمْ يَكْذِبْ على نَفْسِهِ كَما كَذَبَ فِرْعَوْنُ وهامانُ وقارونُ، بل أَنْصَفَ ودَخَلَ في دينِ اللّٰه، وعندما رَأى موسى عليه السلام مُعَرَّضًا لِلخطَرِ دَعَتْهُ الحِكْمَةُ الى عدم الكشفِ عَنْ دُخولِهِ في الدّينِ كَشْفًا ظاهِرًا، وإنَّما وارى ولَوَّحَ وعَرَّضَ ودَخَلَ بِحَسْمٍ لإنْقاذِ حَياةِ موسى عليه السلام[1].

**بَلاغَةُ الاسْتِفْهامِ في قَوْلِهِ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾:**

إنكارُ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَونَ، وتَوْبيخُهُ لفرعونَ ومَلَئِهِ على هَمِّهِمُ الذَّميم

افْتَتَحَ النَّظْمُ الجَليلُ كَلامَ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَونَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ بِهَمْزَةِ الاستفهامِ الدّالَّة على الإنْكارِ والتَّعْجيبِ والتَّجْهيلِ والتَّوْبيخِ، والمَعْنى: هَذا الَّذي لا يَنْبَغي أنْ يَكونَ؛ لأنَّهُ فِعْلٌ شَنيعٌ، لَيْسَ لَهُ ما يُبَرِّرُهُ في مَنْطِقِ العُقَلاءِ. فوَقَفَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَونَ بِحَذَرٍ وحِكْمَةٍ في جانِبِ موسى عليه السلام، في اللَّحْظَةِ الَّتي أدرَكَ فيها أنّه لا يَجوزُ أنْ يَتَخَلّى عَنْه[2]، فأظْهَرَ كَمالَ رُجولتِهِ قائلًا:

يَقْبُحُ بِكم أنْ تَقْتُلوا رجلًا لأنَّهُ يَقولُ: رَبّيَ اللّٰه، من غير أنْ يُجْبِرَكم على الإيمان بِهِ، فلكم أنْ تقبلوا قولَهُ أو ترفضوه، لا أنْ تقتلوه[3].

**دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ (تَقْتُلونَ) ووجهُ المَجازِ فيه:**

عَـزْمُ فِـرْعَـونَ وإصرارُهُ على قَتْلِ موسى عليه السلام شديدٌ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ بالفِعْلِ المُضارِعِ في قَوْلِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَونَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، وهُمْ لَمْ يَقْتُلوا موسى عليه السلام، والأَصْلُ أنْ يَقولَ: (أتَهُمّونَ بِقَتْلِ رَجُلٍ يَقولُ رَبّي اللّٰه)، ولَكِنَّهُ لَمّا وجَدَ عَزيمَةً منهم على قتلِه، وفِرْعَوْنُ مُصِرٌّ عليه ومُشارِفٌ لَهُ عَبَّرَ بالقَتْلِ عَنْ عَزيمَةِ القَتْلِ وإرادَتِه، أو يُقالُ: عَبَّرَ بالفِعْلِ عَنْ مُشارَفَةِ الفِعْلِ، فدَلَّ ذَلِكَ على قوَّةِ إرادَتِهِمْ في تَنْفيذِهِ، وقُرْبِ مُشارَفَتِهِمْ

---

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 105.
(2) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 105.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 130.

لِوُقوعِهِ[1]. فالتَّعبيرُ بالمُضارَعَةِ يوحي بانعقادِ عَزْمِ فِرْعَونَ على قَتْلِ موسى وبِتَجَدُّدِ نيَّتِهِ واستِمْرارها، وفي الجملة مَجازٌ مُرْسَلٌ، ذُكِرَ فيهِ المُسَبَّبُ وهو (القتل)، وأُريدَ السَّبَبُ، وهو (قَصْدُ القتلِ)[2].

### غَرَضُ التَّعْبيرِ بلفظِ ﴿رَجُلًا﴾ منكّرًا:

كليمُ الله تعالى عظيمٌ في الرِّجال

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ عنْ موسى عليه السلام بِكَلِمَةِ: ﴿رَجُلًا﴾ في جملة: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، فعَدَلَ خِطابُ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَونَ عَنْ ذِكْرِ اسْمِهِ صَريحًا إلى وصْفِهِ بالرُّجولة، والغَرَضُ بَيانُ كَمالِهِ عليه السلام فيها؛ أيْ: هو عَظيمٌ في الرِّجالِ حِسًّا ومَعْنًى[3]. وجاءَتِ الكَلِمَةُ نَكِرَةً مع أنّ موسى عليه السلام - الَّذي رُبّيَ في بَيْتِ فِرْعَوْنَ وجاءَهُمْ بالآياتِ البَيِّناتِ وبالحَقِّ - لَمْ يَكُنْ نَكِرَةً، وعِلَّةُ ذلك التَّعْظيمُ، فكأنّه أراد أنْ يَقولَ: أَعْظِمْ بموسى عليه السلام رَجُلًا! فقَدِ اكْتَمَلَتْ بِهِ مَعالِمُ الرُّجولَة.

أو أنَّ هَذا الحَكيمَ الأريبَ أرادَ أنْ يَقولَ: إنَّ هَذا المَسْلَكَ الَّذي تَسْلُكونَهُ - وهوَ قَتْلُ موسى - لا يَجوزَ أنْ يُقْبَلَ مَع أيِّ رجل سواءٌ كان موسى أم غيرَهُ، وأنا لا أُدافِعُ عَنْ شَخْصِ موسى بعَيْنِه، ولا أُنْكِرُ عَلَيْكُمْ قَتْلَهُ لِخُصوصيَّةٍ فيه، وإنَّما أُنْكِرُ أنْ يَكونَ هَذا مِنْكُمْ لأيِّ رَجُلٍ، وهَذا مَعْنًى جَليلٌ وراءَ ذِكْرِ كَلِمَةِ ﴿رَجُلًا﴾ بالتَّنكيرِ الَّذي أفاد العُمومَ[4].

### عِلَّةُ حَذْفِ لامِ التَّعْليلِ في ﴿أَن يَقُولَ﴾:

مَقامُ التَّدارُكِ يَحْتاجُ إلى إيجازٍ وسرعةٍ في الخطابِ

كانَ مُقْتَضى الظّاهِرِ في مِثْلِ قَوْلِه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ أنْ يَأتيَ بلامِ التَّعْليلِ فيَقولَ: (أتقتُلونَ رَجُلًا لأنْ يقولَ رَبّيَ اللّهُ)، فالمَصْدَرُ المُؤَوَّلُ مَجرورٌ بلامِ التَّعْليلِ المُقَدَّرَة؛ لأنَّها تُحْذَفُ

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 105.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 317.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 53.

(4) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 107.

مَعَ (أنْ) كثيرًا[1]. والباعثُ على حَذفِها هنا أنَّ المقامَ مقامُ تداركٍ يحتاجُ إلى الإيجازِ السَّريعِ.

ويجوزُ أن يكونَ المصدرُ المؤوَّلُ مَفعولًا لأجْلِه على تقْدير: (كَراهَةَ أنْ يَقولَ)؛ أي: كَراهَةَ قَوْلِه، فهوَ في مَوْضِعِ نَصْبٍ بنَزْعِ الخافِضِ[2].

كما يجوزُ أنْ نُقَدِّرَ ظرفًا مُضافًا مَحْذوفًا؛ أي: (وَقْتَ قولِه)، والمَعْنى: أتَقْتُلونَهُ ساعَةَ سَمِعْتُمْ مِنْهُ هَذا القَوْلَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ ولا فِكْرٍ؟.

وعلى كلِّ هذه الأوجُهِ لا بدَّ من تقديرِ محذوفٍ، وفي ذلك إشارةٌ خَفيَّةٌ إلى أنَّ لِسانَ هَذا الكَريمِ الصّالِحِ أرادَ أنْ يَنْفُذَ بِسُرْعَةٍ إلى تِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتي هيَ بَرْدٌ على قُلوبِ العارِفينَ، وهيَ ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾[3]. فلَمْ يُطِلِ الكَلامَ بِذِكْرِ اللّامِ؛ لِيَصِلَ إلى مُرادِهِ مِنْ أقْرَبِ طَريقٍ، ثُمَّ شَرَعَ بعدَ ذَلِكَ في وعْظِهِم وعْظًا بَليغًا.

### دَلالَةُ التَّعْبيرِ بالمصدرِ المؤوَّل: ﴿أَن يَقُولَ﴾:

تَجَدُّدُ صَدْعِ موسى عليه السلام بِكَلِمَةِ التَّوحيدِ وإظْهارِ العُبوديَّةِ للهِ

أوثِرَ التَّعبيرُ بالمصدرِ المؤوَّلِ ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ للدَّلالةِ على الزَّمنِ مع الحَدَثِ، بخلافِ المصدرِ الصَّريحِ، فليسَ في صيغتِه ما يدلُّ على زمنٍ لدلالتِه على مجرَّدِ الحدثِ، وجاءَ التَّعْبيرُ بصيغَةِ المُضارَعَةِ ﴿يَقُولَ﴾ لِبيانِ تَجَدُّدِ قَوْلِ موسى عليه السلام لِهَذِهِ الكَلِمَةِ العَظيمَةِ، واسْتِمْرارِ صَدْعِهِ بها، أداءً لِواجِبِ التَّبْليغِ، فهو لا يَني يُرَدِّدُها في كُلِّ وقْتٍ وحينٍ.

### توجيهُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ في قَولِهِ: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾:

كَلِمَةُ التَّوحيدِ أشْرَفُ ما نَطَقَ بِهِ عَبدٌ مُؤمِنٌ أو نَبيٌّ مُرسَلٌ

كَلِمَةُ ﴿رَبِّيَ﴾ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ مُبتَدَأٌ، وكَلِمَةُ ﴿ٱللَّهُ﴾ خَبَرُ المُبتَدَأِ[4]. ويجوزُ العَكسِ، فتَكونُ كَلِمَةُ ﴿ٱللَّهُ﴾ مُبتَدَأً مُؤَخَّرًا، و وكلمةُ ﴿رَبِّيَ﴾ خَبَرًا مُقَدَّمًا[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 129.

(2) الخطيب، وآخران، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 24/ 144.

(3) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 107.

(4) الخطيب، وآخران، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 24/ 144.

(5) الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 8/ 479.

والكلامُ على التَّوجيهِ الأوَّلِ هوَ الأصلُ، وفيه على إيجازِهِ الشَّديدِ مَنطِقٌ لا يُغالَبُ؛ وحِكمَةٌ لا تُدفَعُ، وعَقلٌ لا يُنازَعُ؛ لأنَّ مَعناها أنَّ رَبّيَ الَّذي رَبّاني وأنشَأني مِنَ العَدَمِ، وجَعَلَ لي السَّمعَ والبصرَ والفؤادَ، وجَعَلَ الأرضَ مِهادًا ومَعاشًا، وأنزَلَ مِنَ السَّماءِ رِزقي إلى آخِرِهِ؛ هوَ لا غَيرُهُ الحَقيقُ بالأُلوهيَّةِ وبأن يُعبَدَ؛ لأنَّ تَربيَتي وإخراجي مِنَ العَدَمِ وفِعلَ كُلِّ ما يَلزَمُ لَمعيشَتي مِن تَسخيرِ ما في الأرضِ الَّتي جَعَلَ فيها أقواتَها الَّتي هيَ أقواتي، كُلُّ ذَلِكَ لا يَكونُ إلّا مِنَ الحَيِّ القادِرِ القاهِرِ الغالِبِ المُتَّصِفِ بِكَمالاتِ الأُلوهيَّةِ، فهَلِ الَّذي يُفَكِّرُ هَذا التَّفكيرَ يُقتَلُ؟!

حـرّيَّةُ الاعـتـقـاد حقٌّ لكلِّ إنسان

ثُمَّ يَقولُ مِن وراءِ ذَلِكَ أيضًا: ما لَكُم وما لِعَقائِدِ النّاسِ؟! لِمَ تُحارِبونَ الَّذينَ يَعبُدونَ اللّه رَبَّهُم؟! دَعوا النّاسَ وما يَختارونَ مِن عَقائِدَ، ولا يَجوزُ في عَقلِ مَن لَهُ عَقلٌ أن يُقتَلَ الرَّجُلُ مِن أجلِ أنَّهُ اعتَقَدَ عَقيدَةً تُغايِرُ عَقيدَةَ جُمهورِ النّاسِ، ويَجِبُ أن تَرفَعوا سُلطانَكُم عَن قُلوبِ النّاسِ وعَقائِدِهِم، وهَذا مُستَوًى مِنَ الوَعيِ قَد بَلَغَهُ هَذا الرَّجُلُ في هَذا الزَّمَنِ الموغِلِ قَبلَ فلسَفاتِ اليونانِ وغَيرِ اليونانِ بِقُرونٍ رُبَّما قارَبَتِ العَشَرَةَ. ولَيسَ في كلامِهِ ما يُشيرُ إلى مَيلِهِ إلى ما جاءَ بِهِ موسى عليه السلام، وإنَّما هيَ حَقيقَةٌ عَقليَّةٌ ومَوضوعيَّةٌ مَحضَةٌ يَقولُها كُلُّ عاقِلٍ، حكيمًا كانَ أو عامَّةً مِنَ النّاسِ[1].

### دَلالَةُ التَّعبيرِ بِلَفظِ الرُّبوبيَّةِ مُضافًا إلى ضَميرِ المتكلِّم:

بَـيـانُ اعـتـقـادِ مـوسى عليه السلام، وأنَّه مِنَ الإفسادِ بِمَنأًى بَعيدٍ

في قَولِ اللّه تعالى: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ عبَّرَ النَّظمُ الجَليلُ بلَفظِ الرُّبوبيَّةِ مضافًا إلى ضميرِ ياءِ المُتَكَلِّمِ العائِدِ على موسى عليه السلام؛ لبيانِ أنَّ دَعوَةَ موسى عليه السلام إنَّما هيَ التَّوحيدُ الخالِصُ للّٰه، وأنَّه إنَّما جاءَ داعيًا إلى عِبادَةِ اللّٰهِ الواحِدِ القَهّارِ، فبدَأَ بِبَيانِ اعتِقادِهِ في نَفسِهِ بتشريفِها بالعُبوديَّةِ للرَّبِّ المُنعِمِ المُرَبّي له، وأنَّ مَن كانَ هذا شَأنُه

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 108.

لا يَجوزُ التَّقَوُّلُ عليه بأنَّهُ يَبغي الفَسادَ في الأرضِ؛ لأنَّه مِنَ الإفسادِ بِمَنأًى بَعيدٍ.

ثُمَّ أخبَرَ بِحَقيقَةِ هذا الاعتِقادِ الشَّريفِ، فصَرَّحَ باسمِ ﴿ٱللَّهُ﴾ العَزيزِ، وقَد ذَكَرَ اسمَ ﴿ٱللَّهُ﴾ لأنَّهُ الاسمُ الَّذي ذَكَرَهُ موسى عليه السلام، ولَم يَكُن مِن أسماءِ آلِهَةِ القِبطِ[1].

مَقامُ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ يشابهُ مَقامَ أبي بَكرٍ الصِّدّيقِ رضي الله عنه

وهناك وجهُ شبهٍ بينَ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ وبينَ أبي بَكرٍ الصِّدّيقِ رضي الله عنه؛ وهو أنّه آمَنَ بالنَّبيِّ ﷺ حينَ سَمِعَ دَعوَتَهُ ولَم يَكُن مِن آلِهِ، ويَومَ جاءَ عُقبَةُ بنُ أبي مُعَيطٍ إلى النَّبيِّ ﷺ والنَّبيُّ ﷺ بفِناءِ الكَعبَةِ، فجعَلَ ابنُ أبي مُعَيطٍ يَخنُقُ النَّبيَّ بثَوبِهِ أقبَلَ أبو بَكرٍ فأخَذَ بِمَنكِبِ عُقبةَ ودَفَعَهُ، وقالَ: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾. قالَ عَليُّ بنُ أبي طالِبٍ رضي الله عنه: "واللهِ لَيَومُ أبي بَكرٍ خَيرٌ مِن مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ؛ إنَّ مُؤمِنَ آلِ فِرعَونَ رَجُلٌ يَكتُمُ إيمانَهُ، وإنَّ أبا بَكرٍ كانَ يُظهِرُ إيمانَهُ وبَذَلَ مالَهُ ودَمَهُ". ولذلك كانَ رضي الله عنه أقوى يَقينًا مِن مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ؛ لأنّه أظهَرَ إيمانَهُ[2].

### مَعنى الواوِ في قَولِهِ: ﴿وَقَدۡ﴾ ومَوقِعُ الجملة بَعدَها:

التَّرَقّي في الاحتِجاجِ مِن سِماتِ الكَلامِ البَليغِ المُؤَثِّرِ

جاءَتْ جملة ﴿وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ حالًا من المفعولِ ﴿رَجُلًا﴾ أو من فاعلِ ﴿يَقُولَ﴾ المستتر، والمعنى: (أتقتُلونَ رجُلًا لأنَّه يقول: ربّيَ اللهُ، آتيًا بحججٍ بيِّنةٍ تُثبتُ صدقَ دَعْواهُ؟!).

وفي جملة الحالِ ﴿وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ ارتِقاءٌ في الحِجِ، فبعدَ أنِ استَأنَسَ في خِطابِ قَومِهِ بالكَلامِ المَوَجَّهِ ارتَقى إلى التَّصريحِ بتَصديقِ موسى عليه السلام بِعِلَّةِ أنَّهُ قَد جاءَ بالبَيِّناتِ؛ أي: الحُجَجِ الواضِحَةِ بِصِدقِهِ، وإلى التَّصريحِ بأنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 129

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 129، والحديث رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم: (3722).

الَّذي سَمّاهُ اللّه في قَولِهِ: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ هوَ رَبُّ المُخاطَبينَ فقالَ: ﴿مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾[1].

فالجملة حاليَّةٌ تَعودُ إلى الإنكارِ الَّذي ابتَدَأ بِهِ كَلامَهُ وتَزيدُهُ إنكارًا واستِبشاعًا، وتَعودُ إلى هَذا الرَّجُلِ الَّذي قالَ أعلى وأرفَعَ ما يَقولُهُ لسانٌ، وهوَ ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وتَرفَعُهُ إلى مَقامِ المُصطَفَينَ الأخيارِ الَّذينَ هَداهُمُ اللّه، فبِهُداهُمُ اقتَدِه، والَّذينَ آتاهُمُ اللّه الكِتابَ والحُكمَ والنُّبوَّةَ؛ لأنَّهُ لا يَأتي بالبَيِّناتِ مِن رَبِّهِ إلّا نَبِيٌّ مُختارٌ.

وفي هَذِهِ الجملة الحاليَّةِ يَكشِفُ هَذا المُؤمِنُ الغِطاءَ عَن حالِهِ أو يُميلُ الغِطاءَ قَليلًا عَنِ الَّذي كانَ يَكتُمُهُ؛ لأنَّهُ ذَكَرَ البَيِّناتِ ولَم يَذكُر أنَّهُ آمَنَ بِها، وإنَّما ذَكَرَها في سياقِ التَّشنيعِ بِمَن يُصِرُّ على قَتلِ مَن جاءَ بالبَيِّناتِ، وهَذِهِ الكَلِمَةُ راجِعَةٌ إلى أوَّلِ القِصَّةِ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٢٣ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ٢٤ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا﴾ [غافر: 23 - 25] الآياتِ[2].

**نُكتَةُ دُخولِ (قَد):**

تـوكـيـدُ إبـلاغِ القَومِ بالحُجَجِ، وقُـربُ عَـهـدِهِـم بِها

جاءَت (قَد) في قَولِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ ﴿وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ لِتُفيدَ التَّحقيقَ والتَّوكيدَ، فأكَّدَت أنَّ موسى عليه السلام قَد أبلَغَهُم بما جاءَ بِه مِن الحُجَجِ الواضِحَةِ البَيِّنَة، وأنَّه قَد أدّى ما أوجَبَهُ اللّهُ عليه مِن أداءِ الرِّسالَةِ؛ أي: والحالُ أنَّهُ قَد جاءَكم بالمُعجِزاتِ الظّاهِرَةِ الَّتي شاهَدتُموها وعَهِدتُموها[3].

وأفادَت (قَد) أيضًا في هذا السّياقِ تَقريبَ الماضي مِنَ الحالِ[4]، فأنبَأت عَن قُربِ عَهدِ القَومِ مِنَ مُشاهَدَةِ هَذه الحُجَجِ الواضِحاتِ، فحَمَلَتِ الجملة مَعنى التَّعليلِ لمنعِ إرادَةِ القَتلِ الذَّميمِ الَّذي هَمّوا بِه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 129.
(2) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 108.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 274.
(4) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/ 228.

### نُكتَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ ﴿جَآءَكُم﴾ دونَ الفِعلِ (أتى):

الـدَّلالـةُ على مَشَقَّةِ البَيِّناتِ عـلى نُـفـوسِ القَومِ

جاءَ التَّعبيرُ بالفِعلِ ﴿جَآءَكُم﴾ على خِلافِ آياتٍ أُخرى جاءَتْ بالفِعلِ (أتى)، وذَلِكَ أنَّ سياقَ الفِعلِ (جاءَ) فيهِ - عادَةً - مَعانٍ أشَقُّ وأصعَبُ مِنَ السّياقِ الَّذي يُعبَّرُ فيهِ بالفِعلِ (أتى) الَّذي يَدُلُّ على قَدرٍ مِنَ السُّهولَةِ واليُسرِ.

ولَعَلَّ مِن أسبابِ ذَلِكَ أنَّ الفِعلَ (جاءَ) أثقَلُ مِنَ الفِعلِ (أتى) لَفظًا، فلَم يَرِد في القُرآنِ فِعلٌ مُضارِعٌ لـ(جاءَ) ولا أمرٌ ولا اسمُ فاعِلٍ أو مَفعولٍ، ولَم يَرِد إلّا الماضي وحدَهُ، بِخِلافِ (أتى) الَّذي ورَدَت كُلُّ تَصريفاتِه، فناسَبَ بَينَ ثِقلِ اللَّفظِ وثِقلِ المَوقِفِ في (جاءَ)، وخِفَّةِ اللَّفظِ وخِفَّةِ المَوقِفِ في (أتى)[1]. وقدَ جاءَهُم موسى عليه السلام بِبَيِّناتٍ دامِغَةٍ ثَقيلَةٍ على نُفوسِهم، فكانَ التَّعبيرُ بالفِعلِ (جاءَ) أنسَبَ في هذا المَقامِ مِنَ الفعلِ (أتى).

ما جاء به موسى واقعٌ متحقِّقٌ

و"الإتيانُ قد يقال باعتبار القصدِ وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيءُ يقالُ اعتبارًا بالحصول"[2]. فالبيِّناتُ الَّتي جاء بها موسى والمعجزاتُ الَّتي صاحبَتْهُ، والآياتُ الباهراتُ الَّتي رافقَتْهُ وقعَتْ كلُّها، وتحقَّقَ حصولُها، والتَّعبيرُ بفعلِ المجيءِ بصيغةِ المضيِّ فضلًا عن اعتبارِ الحصولِ فيه يؤكِّدُ هذا الوقوعَ ويُرسِّخُهُ.

### مَعنى الباءِ في ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

لا بُدَّ للنَّبيِّ من حُـجَـجٍ دامِـغَـةٍ ومُعجِزاتٍ باهِرَةٍ تُؤَيِّدُه

أفادَتِ الباءُ في قَولِه: ﴿وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ مَعنى المُصاحَبَةِ[3]؛ أي: جاءَكُم موسى عليه السلام مُصاحِبًا تلكَ البَيِّناتِ، ولَم يأتِ دونَ حُجَّةٍ دامِغَةٍ على صِدقِ قَولِه، بَل أتى بالمُعجِزاتِ الباهِرَةِ الدّالَّةِ على أنَّهُ نَبيٌّ مِن عِندِ اللّهِ تعالى، وفي هَذا دَليلٌ على شِدّةِ الالتِّصاقِ والاتِّصالِ بَينَ الرَّسولِ والبيئَةِ الَّتي تَلَبَّسَت بِهِ تَأكيدًا على قوَّةِ حُجَجِهِ وبَراهينِه.

---

(1) فاضل السامرائي، لمسات بيانية، ص: 114، 123.

(2) الراغب، المفردات: (جاء).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 129.

### مَعنى (أل) في (البَيِّناتِ):

جاءَت كَلِمَةُ (البَيِّناتِ) مُعَرَّفَةً باللّام، وهيَ هَهُنا للعَهدِ الذِّهنيِّ، فهي بَيِّناتٌ مَعروفَةٌ قَد شَهِدوها بأعيُنِهم، ولذلك عَدَلَ النَّظمُ الحَكيمُ عن التَّعبيرِ بها نَكِرَةً، فلَم يَقُل: (وقد جاءَكَم بِبَيِّناتٍ) لقُربِ عَهدِهِم بها، ولَكِنَّهُم كَذَّبوا واستَكبَروا وعانَدوا كَما هو دأبُ المُتَجَبِّرينَ في كلِّ الأُمَمِ.

جاءَهُم موسى عليه السلام بـبَـيِّـنـاتٍ مَـعـروفَـةٍ قَـد شَـهِـدوهـا بأعيُنِهِم عَهدُهُم قَريبٌ بها

### نُكتَةُ جمعِ (البَيِّناتِ) ومَوقِعُها النَّحويُّ:

جاءَت كَلِمَةُ (البَيِّناتِ) مَجموعَةً جَمعَ المُؤَنَّثِ السّالم، وهوَ - وإن شاعَ أنَّهُ للقِلَّةِ - إذا دَخَلَت عليه (أل) أفادَ الكَثرَةَ بِمَعونَةِ المَقامِ. والمُرادُ بِها الحُجَجُ والبَراهينُ الشّاهِدَةُ على صِدقِهِ؛ مِنَ المُعجِزاتِ والاستِدلالاتِ الكَثيرَةِ، وهَذِه الكَثرَةُ دليلٌ على قَساوَةِ قُلوبِ القَومِ وشِدَّةِ استِكبارِهِم. والجملة حاليَّةٌ مِنَ الفاعِلِ أوِ المَفعولِ كما ذكرنا، وهَذا إنكارٌ عَظيمٌ من ذَلِكَ الرَّجُلِ وتَبكيتٌ لَهم شَديدٌ، كَأنَّهُ قالَ: أتَرتَكِبونَ الفَعْلَةَ الشَّنعاءَ الَّتي هي قَتلُ نَفسٍ مُحَرَّمَةٍ وما لَكم عليه في ارتِكابِها إلّا كَلِمَةُ الحَقِّ الَّتي نَطَقَ بِها، وهي قَولُهُ: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ مَعَ أنَّهُ قَد جاءَكم بالبَيِّناتِ[1]؟!

كَـثرَةُ الـحُـجَـجِ والـمُـعـجِـزاتِ دلـيـلٌ عـلى قَـسـاوَةِ قُـلـوبِ الـقَـومِ وشِـدَّةِ استِكبارِهم

### مَعنى ﴿مِن﴾ في قَولِهِ ﴿مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾:

جاءَت ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ جارَّةً ابتِدائيَّةً؛ للدَّلالَةِ على أنَّ ابتداءَ الهُدى مِنَ اللهِ تعالى، وأنَّهُ تعالى هو الَّذي بيدِه الهِدايَةُ والإرشادُ، لا بيدِ أحَدٍ سِواه، وأنَّهُم إنْ فتَحوا عُقولَهم وقُلوبَهُم وضَمائِرَهُم فإنَّهُ سبحانه سَيَهديهِم إلى سَواءِ الصِّراطِ المُستَقيمِ.

ابـتـداءُ الـهِـدايَـةِ مِـنَ الـلـهِ لا مِن أحَدٍ سِواه

### نُكتَةُ التَّعبيرِ بِلَفظِ الرَّبوبيَّةِ مُضافًا إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ:

أضافَ النَّظمُ الجَليلُ لَفظَ الرُّبوبِيَّةِ إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ، أي:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 317.

التَّذكيرُ بِرُبوبيَّةِ اللهِ تعالى لَهُم استِدراجٌ للإيمانِ وتوبيخٌ لهَم على هَمِّهِمُ الأثيمِ

مِن عِندِ مَن شرَّفَكم بِرُبوبيَّتِهِ لكم، فهو رَبُّكم لا رَبُّهُ وحدَهُ، وهَذا استِدراجٌ إلى الاعتِرافِ.

ومِن ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ إلى ﴿مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ نُكتَةٌ جليلَةٌ، وهي: أنَّ الاعتِرافَ بِرُبوبيَّةِ اللهِ لا يَقتَضي أن يُقابَلَ بالقَتلِ، كَما لا تُقابَلونَ بالقَتلِ إذا قُلتُم: رَبُّنا فِرعَونُ، كَيفَ وقَد جَعَلَ رَبَّهُ مَن هو رَبُّكم؟! فكانَ عَلَيكم أنْ تُعَزِّروهُ وتوَقِّروهُ لا أن تَخذُلوهُ وتَقتُلوهُ[1].

وفي هَذِهِ الإضافَةِ حِكمَةٌ بليغةٌ ومَوعِظَةٌ دقيقة، فلَم يَقُل مَثَلًا: (مِن رَبِّه) أو (مِنَ اللّه) أو (مِن رَبِّ العالَمينَ)، وإنَّما اتَّجَهَ إلَيهِم وذَكَّرَهُم بالَّذي أنشَأهُم ورَزَقَهُم، وأنشَأ لَهُمُ السَّمعَ والأبصارَ، وهُم يَتَقَلَّبونَ في نِعَمِه، ولا يَستَطيعُ فِرعَونُ الَّذي يَزعُمُ أنَّهُ الإلَهُ أن يَرزُقَهُم إن أمسَكَ اللّه رِزقَهُم، فهوَ يدُلُّهُم على رَبِّهِم المالِكِ لأمرِهِم، المُمسِكِ للسَّماواتِ والأرضِ أن تَزولا، الَّذي جَعَلَ لَهُم جَنّاتٍ وأنهارًا[2].

### بلاغةُ الوصلِ بالواوِ في قَولِه: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾:

استِكمالُ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ لِحُجَجِهِ في الدِّفاعِ عَن موسى عَلَيهِ السَّلامُ

عَطَفَ النَّظمُ الجَليلُ جملة ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾ على جملة ﴿وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ بالواوِ، وذَلِكَ للتَّناسُبِ بينَ الجُملَتينِ واتِّفاقِهِما في الخبريَّةِ مع قصدِ تشريكِهما في الحكم الإعرابيِّ، فكلتاهما في محلِّ نصبٍ على الحالِ، والمُسنَدُ إلَيهِ في الجُملَتينِ واحِدٌ وهو موسى عَلَيهِ السَّلامُ، ووُجِدَتِ المُناسَبَةُ المُسَوِّغَةُ للعَطفِ، ولَم يَمنَع مِن ذَلِكَ مانِعٌ[3]؛ إذِ الجملة استِكمالٌ لِحُجَجِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ في الدِّفاعِ عَن موسى؛ لإثناءِ فِرعَونَ ومَلَئِه عن قَتلِهِ عَلَيهِ السَّلامُ.

### بَلاغَةُ التَّعبيرِ بالجُمَلِ الشَّرطيَّةِ:

عَبَّرَ النَّظمُ الحَكيمُ في قَولِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 317.
(2) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 108.
(3) بسيوني فيود، علم المعاني، ص: 475.

إيهامُ الشَّكِّ؛ ليَكونَ كَلامُهُ مُشتَمِلًا على احتِمالَي تَصديقٍ وتَكذيبٍ

فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾ بـ(إنِ) الشَّرطيَّة؛ لأنَّهُ لمّا كانَ في كَلامِهِ هَذا يَكادُ يُصَرِّحُ بإيمانِهِ وصَلَهُ بما يُشَكِّكُهم في أمرِهِ ويوقِفُهم عَن ضُرِّه، فقالَ ذلك مُشيرًا إلى أنَّهُ لا يَخلو حالُ موسى عليه السلام من أن يَكونَ صادِقًا أو كاذِبًا، مُقَدِّمًا القِسمَ الَّذي هو أنفى للتُّهمَةِ عَنهُ وأدعى للقَبولِ مِنهُ[1]. فأفادَتِ الجملة الرُّجوعَ إلى ضَربٍ مِن إيهام الشَّكِّ في صِدقِ موسى عليه السلام؛ ليَكونَ كَلامُهُ مُشتَمِلًا على احتِمالَي تَصديقٍ وتَكذيبٍ يَتَداوَلُهُما في كَلامِه، فلا يُؤخَذُ عليه أنَّهُ مُصَدِّقٌ لموسى، بَل يُخَيِّلُ إلَيهِم أنَّهُ في حالَةِ نَظَرٍ وتَأمُّلٍ؛ ليَسوقَ فِرعَونَ ومَلَأَهُ إلى أدِلَّةِ صِدقِ موسى عليه السلام بوَجهٍ لا يُثيرُ نُفورَهم[2]، مختارًا القَولَ اللَّيِّنَ، والنُّصحَ، والمجاراةَ، والافتراضَ، وهوَ يَعلَمُ أنَّهُ صادِقٌ؛ لأنَّ الكاذِبَ لا يَجيءُ وفي صُحبَتِهِ بَيِّناتٌ مِن رَبِّه، ولَكِنْ لحكمتهِ افتَرَضَ هَذا مُجاراةً لَهُم واقترابًا مِنهُم ومُناصَحَةً لَهُم، وليُبعِدَ نَفسَهُ عَن تُهمَةِ الانحيازِ إلى موسى؛ لأنَّ هَذا الانحيازَ يُفقِدُ نُصحَهُ القُبولَ[3].

## نُكتَةُ الشَّرطِ بِـ(إنْ) دونَ (إذا):

مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ موقِنٌ بِصِدقِ موسى عليه السلام

تُستَعمَلُ (إنِ) الشَّرطيَّة في المَعاني المُحتَمَلَةِ الوُقوعِ، والمَشكوكِ في حُصولِها، والمَوهومَةِ، والنّادِرَةِ، والمُستَحيلَةِ، وسائِرِ الافتِراضاتِ الأُخرى. أمّا (إذا) فالأصلُ فيها أن تَكونَ للمَقطوعِ بِحُصولِه، ولِلكَثيرِ الوُقوعِ[4].

وقَد آثَرَ البيانُ القُرآنيُّ استِعمالَ (إنْ) دونَ (إذا)؛ لأنَّ مُؤمِنَ آلِ فِرعَونَ - وإنْ كانَ يَعتَقِدُ يَقينًا صِدقَ موسى عليه السلام فيما جاءَ بِهِ مِن بَيِّناتٍ واضِحَةٍ، ومُعجِزاتٍ باهِرَةٍ، فلَم يَكُن ذَلكَ لشَكٍّ مِنهُ في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 54.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 129.
(3) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 109.
(4) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 69 - 71.

رِسالَتِه وصِدقِه، وحاشاهُ وهوَ المُؤمِنُ الصّادِقُ الإيمانِ - إلّا أنَّهُ قالَ ذَلِكَ تَلَطُّفًا في الاستِكفافِ واستِنزالًا عَنِ الأذى[1].

ثمّ إنّ استحالةَ كذبِ موسى على وجهِ الحقيقةِ يناسبُهُ استعمالُ (إن) الدّالَّةِ على الشَّكِّ، فحاشاه أن يكون كاذبًا.

**نُكتَةُ تَخفيفِ الفِعلِ ﴿يَكُ﴾:**

ضيقُ المَقامِ مُلجِئٌ إلى الإيجازِ والاختصارِ خَوفًا على حياةِ موسى عليه السلام

خَفَّفَ النَّظمُ الحَكيمُ الفِعلَ (يَكُنْ) فحَذَفَ النّونَ مِنه، وحَذفُها هنا جائِزٌ؛ لاستيفائِها شُروطَ الحذفِ المذكورةَ في كتبِ النَّحو.

وفي التَّعليلِ لحذفِها في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ وجهانِ؛ أحَدُهُما: أنَّها حُذِفَت لكَثرَةِ الاستِعمالِ، وإلَيه ذَهَبَ أكثَرُ النَّحويّين تبعًا لسيبويه. والثّاني: أن تَكونَ حُذِفَتْ تَشبيهًا لَها بِنونِ الإعرابِ في نَحوِ (يَضرِبونَ) على ما ذهَبَ إليه المبرِّدُ، أو تَشبيهًا بِحَرفِ العِلَّةِ المحذوفِ جزمًا على مذهبِ الفارسيِّ[2].

ولِحَذفِ النّونِ هَهُنا نُكتَةٌ بَلاغيَّةٌ دَقيقَةٌ؛ إذ لَمّا كانَ المَقامُ لضيقِه غايَةَ الضّيقِ دائرًا بَينَ شُرورٍ ثَلاثَةٍ عَظيمَةٍ: قَتلِهم خَيرَ النّاسِ إذ ذاكَ، وإتيانِهم بالعَذابِ، واطِّلاعِهم على إيمانِه؛ كان من الحكمةِ الإقلالُ ممّا يَدعوهم إلى اتّهامِه إنْ لَم يَحمِلهم على إعدامِه داعيَةٌ؛ للإيجازِ في الوَعظِ والمُسارَعَةِ إلى الإتيانِ بأقَلِّ ما يُمكِنُ، فحَذَفَ النّونَ فقالَ: ﴿وَإِن يَكُ﴾[3].

**دَلالَةُ التَّعبيرِ بفعلِ الكَونِ المُضارِعِ:**

تَقويةُ الكَلامِ زيادَةً في إيهامِ قَومِ فِرعَون

عَبَّرَ النَّظمُ الجَليلُ بِفعلِ الكَونِ ﴿يَكُ﴾؛ لتَقويةِ الكَلامِ زيادَةً في إيهامِ قَومِ فِرعَونَ بأنَّهُ لا يَقولُ بِقَولِ موسى عليه السلام، ليَطمَئِنّوا إلى أنَّهُ لا يَنحازُ انحيازًا كامِلًا لدَعوَتِه، ولِكَي يَستَميلَهم إلى ما سَيأتي مِنَ الخِطاب.

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 307.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 556، والخطيب، ومصلوح، والعلوش، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 24/ 146 - 147.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 54.

### سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿كَٰذِبٗا﴾ دلالةً وصيغةً:

التَّقليلُ من نسبةِ الكذب إلى موسى مع تحرّي مَظهَرِ العدالةِ أمامَ آل فوعون

جاءَت كَلِمَةُ ﴿كَٰذِبٗا﴾ خَبَرًا للفعلِ النّاسِخ ﴿يَكُ﴾، وعَدَلَ النَّظمُ الجَليلُ عن تَعريفِها باللّام، فلَم يَقُل: (إن يَكُنِ الكاذِبَ) أو (إن يَكُ مِنَ الكاذِبينَ)؛ للتَّقليلِ من إثباتِ الكذب إلى موسى عليه السلام؛ لأنَّه صادِقٌ بلا ريب.

وأوثِرَ في النَّظمِ الكريمِ استعمالُ صيغةِ اسم الفاعل الدّالَّةِ على التَّقطُّعِ والحدوثِ من دونِ مبالغةٍ في وصفه بالكذب لأنَّه في معرض الافتراض أمامَهم تحرّيًا لمظهر العدالة.

### نُكتَةُ تقديمِ شِبهِ الجملة ﴿فَعَلَيۡهِ﴾:

تخصيصُ عاقبَةِ الكَذِبِ بالكاذب

جاءَت جملة ﴿فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾ في مَحَلِّ جَزم جَوابًا للشَّرطِ، ودَخَلَتِ الفاءُ الرّابطةُ في أوَّلِها لأنَّها جملة جَوابٍ اسميَّةٌ، والمَعنى: (فعَلَيه عاقبَةُ كَذِبِه)، ولَكِنَّ العِبارَةَ جَعَلَتِ الكَذِبَ عليه حِملًا يَحمِلُهُ وثِقلًا يُثقِلُهُ، ووَراءَ ذَلِكَ مِنَ التَّصويرِ والإيجازِ والمَجازِ ما وراءَهُ، والمُهِمُّ أنَّ هَذا الكَذِبَ عليه لا عَلَيكُم، ولِهَذا كانَ تَقديمُ الخَبَرِ الجارِّ والمَجرورِ هُنا مُفيدًا للاختِصاصِ بمَعونَةِ قَرائِنِ الأحوالِ، وهَذا أعدَلُ كَلامٍ يُقالُ في التَّنبيهِ على الخَطَأ، فالقَومُ غارِقونَ في مُستَنقَعِ الإفراطِ؛ لأنَّهُم يَقتُلونَ مَن قالَ رَبِّيَ اللّٰه وجاءَهُم بالبَيِّناتِ مِن رَبِّهِم، فهَمّوا بِقَتلِ رَسولِ رَبِّهِم إلَيهِم[1].

### عِلَّةُ تَقديمِ فرضيَّةِ الكَذِبِ على الصِّدقِ:

زيادةُ الإيهامِ في إظهارِ نَفسِه بِمَظهَرِ المُهتَمِّ بأمرِ قومِه

في قَولِ اللّٰه تعالى: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾ قَدَّمَ النَّظمُ الجَليلُ على لسانِ مُؤمِنِ فِرعَونَ احتمالَ كَذِبِ موسى عليه السلام على احتمالِ صِدقِه؛ زيادَةً في التَّباعُدِ عَن ظَنِّهِم بِهِ أنَّه يريدُ الانتِصارَ لموسى، فأرادَ أن يَظهَرَ في مَظهَرِ المُهتَمِّ بأمرِ قومِهِ ابتِداءً[2].

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 109.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 129.

### مَعنى الواوِ في قَولِهِ: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾:

استكمالُ التَّقسيمِ السّابِقِ؛ لما بَينَهُما مِنَ التَّناسُبِ والتَّكامُلِ

عَطَفَ النَّظمُ الحَكيمُ جملة ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ بالواوِ، على جملة ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾؛ لأنَّ هَذِهِ الجملة استِكمالٌ للتَّقسيمِ الَّذي بَدَأَتْهُ الجملة السّابِقَةُ، فكانَ بَينَهُما مِنَ التَّناسُبِ والتَّكامُلِ ما يُعَيِّنُ الوَصلَ بالواوِ دونَ غَيرِها، كَما أنَّ اتِّحادِ المُسنَدِ إليه في الجُملَتَينِ - وَهوَ موسى عليه السلام - مُعينٌ على ذَلِكَ الوَصلِ. فقَولُهُ: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ جملة مُقابِلَةٌ للجملة الَّتي قَبلَها وحَذَتْ على حَذوِها، وفيها الرِّفقُ الشَّديدُ والمُلايَنَةُ. وقَولُهُ: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ مَعطوفٌ على قَولِهِ: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾، وكِلاهما مَعطوفٌ على قَولِه: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وداخِلٌ في حَيِّزِ الحالِ، وكُلُّ هَذا تَشنيعٌ على العَزمِ على قَتلِ مَن يَقولُ ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، والحالُ أنَّهُ قد جاءَكُم بالبَيِّناتِ مِن رَبِّكُم الَّذي رَبّاكُم، لا مِن رَبِّكُمُ المزعومِ الَّذي يَقولُ لَكُم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات: 24]، والحالُ أيضًا أنَّهُ إن يَكُ كاذِبًا فعَلَيهِ كَذِبُهُ، وكُلُّ هَذِهِ الأحوالِ تُبعِدُ أن يُؤذَى فضلًا عَن أن يُقتَلَ(1).

### عِلَّة استِعمالِ (إنْ) للمَقطوعِ بِهِ:

ظُهورُهُ أمامَ قَومِهِ بمَظهَرِ المُحايِدِ

ذكَرَ أبو موسى عِلَّةَ مَجيءِ (إن) الشَّرطيَّةِ للمَقطوعِ بِهِ، فقال: "ثُمَّ إنَّ كَلِمَةَ (إن) الشَّرطيَّةِ الَّتي بُنِيَت عَلَيها الجُملَتانِ المُتَقابِلَتانِ تَأتي في الأمرِ النّادِرِ المَشكوكِ فيه، وهيَ هُنا جاءَت في مَعنَيَينِ؛ الأوَّلُ مَقطوعٌ بنَفيِهِ وهوَ كَونُهُ كاذِبًا، والثّاني مَقطوعٌ بإثباتِهِ وهوَ كَونُهُ صادِقًا، وذَلِكَ لبِناءِ الكَلامِ على سَبيلِ الفَرْضِ والتَّقديرِ؛ لأنَّ الرَّجُلَ المُؤمِنَ لَم يُحَدِّثْهُم عَمّا يَراهُ في موسى عليه السلام، وإنَّما يُحَدِّثُهُم بالَّذي يَنبَغي أن يَكونَ مَعَ الَّذي يَقولُ: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وقَد جاءَ بالبَيِّناتِ

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 109.

مِن رَبِّهِ إلى آخِرِهِ، وهَذا الفَرْضُ والتَّقديرُ يُتيحُ لَهُم فُرصَةَ المُراجَعَةِ والتَّحَقُّقِ مِنَ الحالَةِ الَّتي هوَ عَلَيها. ثُمَّ إنَّ الكَلامَ فيهِ إدانَةٌ لَمسلَكِهم مِن موسى على كُلِّ حالٍ؛ لأنَّهُ لا يَخلو مِن أن يَكونَ كاذِبًا أو صادِقًا ولا ثالِثَ لَهُ، وهوَ في الحالَينِ لا يَجوزُ قَتلُهُ"[1].

**المَوقِعُ النَّحويُّ لقَولِه: ﴿صَادِقًا﴾ ونُكتَةُ تنكيرِها:**

تعظيمُ مؤمنِ آلِ فرعونَ لموسى مــع ظــهــورِهِ بمَظهَرِ المُحايِدِ

جاءَت كَلِمَةُ ﴿صَادِقًا﴾ في قَولِ اللّٰه تعالى: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ خَبَرًا للفِعلِ النّاسِخِ ﴿يَكُ﴾، ووردتْ بصيغةِ اسم الفاعل الدّالَّة على التَّقطُّعِ والحدوثِ من دونِ مبالغةٍ في وصفه بالصِّدقِ لتصحَّ مقابلتُهُ بالكذبِ؛ ولأنَّه في معرض الافتراض أمامَهم تحرّيًا لمظهر العدالة.

وعَدَلَ النَّظمُ الجَليلُ عن تَعريفِها باللّامِ، فلَم يَقُل: (إن يَكُنِ الصّادِقَ) أو (إن يَكُ مِنَ الصّادِقينَ)، وآثَرَ إيرادَها نَكِرَةً للتَّعظيم، على خِلافِ المَوقِعِ السّابِقِ، الَّذي دَلَّت فيهِ على التَّقليلِ؛ لأنَّ مُؤمِنَ آلِ فِرعَونَ صادِقُ الإيمانِ، فهوَ يَعتَقِدُ صِدقَ موسى عليه السلام فيما بَلَّغَهُ عَن رَبِّهِ تعالى.

**بلاغةُ الطِّباقِ بينَ ﴿كَٰذِبًا﴾ و﴿صَادِقًا﴾:**

تحرّي العدالةِ في الـكـلامِ من طُرُقِ الإقناعِ

عبّر النَّظْمُ الحكيمُ بلفظَي (الكذب) و(الصِّدق) على أسلوبِ الطِّباق في قوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ تحقيقًا لمبدأ عدالةِ الوصف وعدم الانحيازِ المطلق، وتحرّي أسلوبِ المُناصَحَةِ في محضرِ الإقناعِ، فضلًا عن قصدِ استِماعِ القَومِ لهُ لإقناعِهم، ولذلك هو (يكتُمُ إيمانَهُ)، فضلًا عن كونِهِ في بَلاطِ فِرعَونَ المشهورِ بسَطوتِهِ وإجرامِه، فالحذرُ واجبٌ، والخوفُ حاضرٌ.

**بَلاغَةُ التَّعبيرِ بقَولِه: ﴿يُصِبۡكُم﴾ مادَّةً وصيغَةً:**

جاءَت جملة ﴿يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ جَوابَ شَرطٍ جازم غَيرَ مُقتَرِنةٍ بالفاءِ، وآثَرَ النَّظمُ الحَكيمُ التَّعبيرَ بمادَّةِ ﴿يُصِبۡكُم﴾؛ لأنَّهُ

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 110.

تصديقُ المُرسَلِ سبيلُ إصابةِ الخيرات، وتكذيبُهُ مَناطُ تنزُّلِ الويلات

أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على نُزولِ شَيءٍ واستِقرارِهِ قَرارَهُ[1]، خَيرًا كانَ النّازِلُ أم شَرًّا كما يَحتَمِلُ اللَّفظُ هنا، فالمَعنى: وإن يَكُ صادِقًا وصَدَّقتُموهُ أصابَكُم بَعضُ الخَيرِ الَّذي وعَدَكم به، بحسبِ دَرَجَةِ تَصديقِكم بما جاءَ به واستِمساكِكُم به، وإلّا دَهاكم ما تَوَعَّدَكُم مِنَ الشَّرِّ.

وآثَرَ البيانُ القُرآنيُّ التَّعبيرَ بِصيغَةِ المُضارَعَةِ ﴿يُصِبۡكُم﴾؛ لما فيها مِنَ الدَّلالَةِ على الحُدوثِ والتَّجَدُّدِ والاستِمرارِ؛ أي: استمرارِ تنزُّلِ الخيراتِ إنْ آمنوا، والعَذابِ إنِ هُم قَتَلوا موسى ﵇. وهو الرّاجِحُ عند العلماء، ويناسبُ شيوعَ استعمالِ الإصابةِ مع النّازلِ شرًّا.

### نُكتَةُ تَقديمِ المَفعولِ على الفاعِلِ في قَولِهِ: ﴿يُصِبۡكُم بَعۡضُ﴾:

اختِصاصُ الوَعيدِ بآلِ فِرعَونَ المُتَجَبِّرينَ السّاعينَ في قَتلِ موسى ﵇

في قَولِ اللهِ تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ قَدَّمَ النَّظمُ الحَكيمُ المَفعولَ على الفاعِلِ، وعَدلَ عَن مُقتَضى الظّاهِرِ من تقديمِ الفاعِلِ وتأخيرِ المفعولِ؛ لإفادَةِ الاختِصاصِ، إذ إنَّ هَؤلاءِ المُتَجَبِّرينَ السّاعينَ في قَتلِ موسى ﵇ هُمُ المَخصوصونَ بالخِطابِ دونَ غَيرِهم.

### نُكتَةُ ذِكرِ لفظةِ ﴿بَعۡضُ﴾:

تبعيضُ الإصابة توخّيًا للإنصافِ في الخطاب والتَّلطُّفِ فيه

في قَولِ اللهِ تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ استَعمَلَ النَّظمُ الحَكيمُ لَفظَ ﴿بَعۡضُ﴾ دونَ لَفظَي (كُلّ) أو (الذي) مثلًا، ووُجِّهَ المعنى بأنَّه إمّا أن يَكونَ للمُداراةِ، أو للمُبالَغَةِ، أو للتَّبعيضِ، أو أنَّه على ظاهِرِهِ.

أمّا المُداراةُ؛ فلأنَّ مُؤمِنَ آلِ فِرعَونَ احتاجَ في مُقاوَلَةِ خُصومِ موسى ﵇ ومُناكِريهِ إلى أن يُلاوِصَهُم[2] ويُداريَهُم، ويَسلُكَ مَعَهُم طَريقَ الإنصافِ في القَولِ، وعدمِ التَّعصُّبِ، ويأتيَهُم من وِجهَةِ المُناصَحَةِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صوب).

(2) اللَّوْصُ مِنَ المُلاوَصةِ وهوَ النَّظَرُ كأنه يَختِلُ ليَروم أَمرًا، والإنسان يُلاوِصُ الشَّجَرَةَ إذا أَرادَ قَلْعَها بالفأسِ، فتَراهُ يُلاوِصُ في نَظَرِهِ يَمْنَةً ويَسْرَةً كَيْفَ يضربُها وكَيْفَ يأتيها ليقلَعها، يُنظر: الأزهَري، تهذيب اللغة: (لوص).

فجاءَ بِما عَلِمَ أنَّهُ أقرَبُ إلى تَسليمِهِم لقَولِه، وأدخَلُ في تَصديقِهِم لَهُ وقَبولِهِم مِنهُ، واستماعِهِم إليه، وعدمِ الرَّدِّ عَلَيه، ولِذا قَدَّمَ احتمالَ كَونِه كاذِبًا، وحينَ فرَضَهُ صادِقًا أثبَتَ أنَّهُ صادِقٌ في جَميعِ ما يَعِدُ، ولَكِنَّهُ أردَفَهُ بقولِه: ﴿يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ لِيَهضِمَهُ بَعضَ حَقِّهِ في ظاهِرِ الكَلامِ، فيُرِيَهُم أنَّهُ لَيسَ بِكَلامِ مَن أعطاهُ حَقَّهُ وافيًا، فضلًا عن أن يَتَعَصَّبَ لَهُ، أو يَرمِيَ بالحَصى مِن ورائِهِ[1].

وأمّا المبالغةُ في التَّحذيرِ فإنَّهُ إذا حَذَّرَهم مِن إصابَةِ البَعضِ أفادَ أنَّهُ مُهلِكٌ مَخوفٌ، فما بالُ الكُلِّ؟! وهو بَعضُ مَواعيدِه، كَأنَّهُ خَوَّفَهم بِما هو أظهَرُ احتِمالًا عِندَهم[2]، ومن هنا جاز أن يكون فيه معنى (كلّ)؛ لأنَّ البَعضَ إذا أصابَهُم أصابَهُمُ الكُلُّ لا مَحالَةَ لدُخولِهِ في الوَعيدِ، وهَذا تَرقيقُ الكَلامِ في الوَعظِ. وتَلَطُّفٌ في الخِطابِ وتَوَسُّعٌ في الكَلامِ.

وأمّا التَّبعيضُ فعلى تقديرِ: يُصِبكم بَعضُ ما تَوَعَّدَكم بِهِ؛ أي: تُصِبكم بَوارِقُهُ فتَعلَموا صِدقَهُ فتَتَّبِعوهُ، وهَذا وجهُ التَّعبيرِ بـ﴿بَعۡضُ﴾ دونَ أن يَقولَ: يُصِبكُمُ الَّذي يَعِدُكم بِهِ[3]. ويُحتَمَلُ أنَّهُ حَذَّرَهُم أنواعًا مِنَ العَذابِ، كُلُّ نَوعٍ مِنها مُهلِكٌ، فكَأنَّهُ حَذَّرَهُم أن يُصيبَهُم بَعضُ تِلكَ الأنواعِ، أو وعَدَهُم بِعَذابِ الدُّنيا أو بِعَذابِ الآخِرَةِ إنْ كَفَروا، فالمَعنى: يُصِبكُم أحَدُ العَذابَينِ؛ عَذابِ الدُّنيا وهوَ بَعضُ الوَعيدِ، ثُمَّ يَتَرادَفُ العَذابُ في الآخِرَةِ أيضًا. أو وعَدَهُمُ العَذابَ إن كَفَروا والثَّوابَ إن آمَنوا، فإذا كَفَروا أصابَهُم بَعضُ ما وُعِدوا[4].

### غَرَضُ التَّعبيرِ بالاسمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾:

عَبَّرَ النَّظمُ الحَكيمُ في قَولِ اللّٰه تعالى: ﴿يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي

التَّخصيصُ أدعَى للتَّخويف

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 163، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 318.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 318.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 130.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 307.

﴿يَعِدُكُمۡۖ﴾ بالاسم المَوصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾ دونَ غَيرِه منَ الأسماءِ المَوصولَةِ مثلِ (ما)، وذَلِكَ لأنَّ اسمَ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾ اسمٌ مُختَصٌّ بالمُفرَدِ المُذَكَّرِ، بِخِلافِ (ما) الَّتي تَأتي للمُفرَدِ والمُثَنّى والجَمعِ لعُمومِها. ففي التَّعبيرِ بالاسمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾ نَوعٌ مِنَ التَّخصيصِ، والمُرادُ العَذابُ الَّذي تَوَعَّدَهُم بِهِ في الدُّنيا و الآخِرَةِ.

**دَلالَةُ التَّعبيرِ بِـ﴿يَعِدُكُمۡۖ﴾ مادَّةً وصيغَةً:**

احتِمالُ الوَعدِ بالشَّرِّ والخَيرِ كِلَيهِما

في التَّعبيرِ بِكَلِمَةِ ﴿يَعِدُكُمۡۖ﴾ دونَ (يتوعَّدُكُم) في قَولِ اللّٰه تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فرعَونَ: ﴿يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ إشارَةٌ إلى أنَّهم إنْ وافَقوهُ أصابَهم جَميعُ ما وعَدَهُم به مِنَ الخَيرِ، وإلّا دَهاهُمُ ما تَوَعَّدَهُم مِنَ الشَّرِّ[1]. وذَهَبَ الطّاهِرُ ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ المُرادُ بالوَعدِ هُنا الوَعدُ بالسّوءِ وهو المُسَمّى بالوَعيدِ؛ أي: فإنِ استَمرَرتُم على العِنادِ أصابكم جَميعُ ما تَوَعَّدَكم بِهِ بِطَريقِ الأولى[2].

**بَلاغَةُ الاحتِباكِ في الآيةِ الكَريمَةِ:**

ذِكرُ اختِصاصِهِ بِضُرِّ الكَذِبِ أوَّلًا دَليلٌ على ضِدِّهِ، وهو اختِصاصُهُ بِنَفعِ الصِّدقِ ثانِيًا

جاءَ الاحتباكُ في قَولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾؛ إذ ذِكرُ اختِصاصِه بِضُرِّ الكَذِبِ أوَّلًا دَليلٌ على ضِدِّهِ، وهو اختِصاصُهُ بِنَفعِ الصِّدقِ ثانِيًا، وإصابَتُهم ثانيًا دَليلٌ على إصابَتِهِ أوَّلًا.

وسِرُّهُ: أنَّهُ ذَكَرَ الضّارَّ في المَوضِعَينِ؛ لأنَّهُ أنفَعُ في الوَعظِ؛ لأنَّ من شَأنِ النَّفسِ الإسراعَ في الهَرَبِ منهُ[3].

**بَلاغَةُ التَّذييلِ في جملة الفاصلةِ، ونُكتَةُ فصلها:**

فَصَلَ النَّظمُ الحَكيمُ قَولَ اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾، ورَبَطَ بين المعنيينِ من دونِ أداةِ عَطفٍ؛ ليَدُلَّ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 57.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 130.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 57.

فَصلُ الجملة عَن سابِقَتِها دَليلٌ على مَزيدٍ مِنَ الحَفاوَةِ بالمعنى

دَلالَةً ظاهِرَةً على مَزيدٍ مِنَ الحَفاوَةِ بالمَعنى؛ لأنَّ الكَلامَ السّابِقَ آثَرَ فيهِ المُؤمِنُ أن يَبتَعِدَ عَنِ الانحيازِ لموسى، فإذا وجَدَ فيهِ ما لا سَبيلَ إلى تَجاهُلِه كَمَجيئِه بالبَيِّناتِ مِن رَبِّهِ رَأيتَهُ بعدَ ذِكرِ هَذا الَّذي هوَ بِطَبيعَتِه دالٌّ على المَيلِ نَحوَ موسى عليه السلام يَحرِصُ على أن يَأخُذَ مَكانًا وسَطًا، حَتّى إنَّهُ لَيَميلُ أحيانًا عَن موسى فيُقَدِّمُ ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ على ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾، ثُمَّ يَأتي القَطعُ والاستِئنافُ بِجملة هيَ في ظاهِرِها جملة مُحايِدَةٌ، ولَكِنَّها في الحَقيقَةِ لِصالِحِ مَوقِفِ موسى وإدانَةِ مَوقِفِ فِرعَونَ، فإذا كانَ اللّه لا يَهدي مَن هوَ مُسرِفٌ كَذّابٌ فموسى لَيسَ مُسرِفًا ولا كَذّابًا؛ لأنَّهُ جاءَ بالبَيِّناتِ مِن رَبِّكُم واللّه سبحانه وتعالى لا يَمنَحُ آياتِهِ البَيِّناتِ ودَلائِلَ النُّبوَّةِ لِمُسرِفٍ كَذّابٍ.

فهَذا التَّذييلُ مُتَناسِبٌ جِدًّا مَعَ طَريقَةِ المُؤمِنِ في عِلاجِه لِلمَوقِفِ؛ لأنَّ كَلامَهُ مَوسومٌ بالأناةِ والوَعيِ والصِّدقِ والبُعدِ عَنِ الإسرافِ، ثُمَّ هوَ مِن أوَّلِ كَلامِهِ يَنهى عَنِ الإسرافِ وقَتلِ رَجُلٍ لا ذَنبَ لَهُ إلّا أنَّهُ قالَ: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾[1]. هذا إنْ قلنا: إنَّ هذه الجملة مِن تمامِ قولِ مُؤمِنِ آلِ فرعون.

ويَجوزُ أن تَكونَ جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ جملة مُعتَرِضَةً بَينَ كَلامَي مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ ولَيسَت مِن حِكايَةِ كَلامِهِ، وإنَّما هي قَولٌ مِن جَنابِ اللّه في قُرآنِه، يُقصَدُ بها تَزكيَةُ هَذا الرَّجُلِ المُؤمِنِ إذ هَداهُ اللّه لِلحَقِّ، وأنَّهُ تَقيٌّ صادِقٌ، فيَكونُ نَفيُ الهِدايَةِ عَنِ المُسرِفِ الكَذّابِ كِنايَةً عَن تَقوى هَذا الرَّجُلِ وصِدقِه؛ لأنَّهُ نَطَقَ عَن هُدًى؛ واللّه لا يُعطي الهُدى مَن هو مُسرِفٌ كَذّابٌ[2].

### فائِدَةُ تَتابُعِ المُؤَكِّداتِ في فاصِلَةِ الآيَةِ:

تُفصِحُ المؤَكِّداتُ عن مَزيدِ عُمقِ إحساسِ هَذا الرَّجُلِ المُؤمِنِ

حَفَلَ قَولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ بِعَدَدٍ مِنَ المُؤَكِّداتِ الأُسلوبيَّةِ، وذَلِكَ لِبَيانِ مَزيدٍ مِنَ العِنايَةِ بالمَعنى،

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 111.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 131.

ومَزيدٍ مِن عُمقِ إحساسِ هَذا الرَّجُلِ المُؤمِنِ بِهِ، ومِن ذَلِكَ التَّوكيدُ بـ﴿إِنَّ﴾، وبِتَقديمِ المُسنَدِ إلَيهِ على الخَبَرِ الفِعليِّ، وباسميَّةِ الجملة، وبالمَجيءِ بِلَفظِ الجَلالَةِ الدّالِّ على كَمالِ الكَمالاتِ، ثُمَّ نَجِدُ تَلويحًا خَفيًّا في قَولِهِ: ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾؛ لأنَّ ﴿مَنْ﴾ اسمٌ مَوصولٌ في محلِّ نصبِ مفعولٌ به، و﴿هُوَ﴾ مُبتَدَأٌ، و﴿مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ خَبَرٌ، والجملة صِلَةُ المَوصولِ، وفَرقٌ دَقيقٌ بَينَ هَذا التَّعبيرِ وبَينَ قَولِنا: (إنَّ اللّه لا يَهدي المُسرِفَ الكَذّابَ)؛ لأنَّ مَجيءَ الاسم المَوصولِ وصِلَتِه في قَولِهِ سُبحانَهُ: ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ يَعني: أنَّ هَذِهِ الصِّلَةَ أمرٌ مَشهورٌ مَعلومٌ، وأنَّ ثَمَّةَ شَخصًا عُرِفَ بِهِ[1].

### نُكتَةُ تَوَسُّطِ النَّفيِ بَينَ المُسنَدِ والمُسنَدِ إلَيهِ:

قَضيَّةُ الأُلوهيَّةِ مِـحْـوَريَّـةٌ، والإثباتُ والنَّفيُ مِـنِ اختِصاصِهِ تعالى وحدَه

مُقتَضى الظّاهِرِ وأصلُ المَعنى أن يُقال: (لا يَهدي اللّهُ المُسرِفُ الكذّاب)، ولَكِنَّ البيانَ القُرآنيَّ الجَليلَ صَدَّرَ الجملة بِلَفظِ الجَلالَةِ؛ لأنَّ القَضيَّةَ المِحْوَريَّةَ الَّتي يَدورُ حَولَها كلامُ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ هيَ قَضيَّةُ الأُلوهيَّةِ ومَوقِفُ فِرعَونَ ومَلَئِه منها وإنكارُهُم لَها، وهَمُّهُم بِقَتلِ الدّاعي لَها وهو موسى ﵇، فكانَ تَصديرُ الجملة بِلَفظِ الجَلالَةِ أنسَبَ للتَّذكيرِ بمحوَريَّةِ هَذِه القَضيَّة، ثَمَّ أعقَبَ بِحرفِ النَّفيِ ﴿لَا﴾ لبيانِ أنَّ الأمرَ والنَّهي، والإثباتَ والنَّفيَ مِن اختِصاصِهِ تعالى وحدَه، لا يُنازِعُهُ فيها مُنازِعٌ.

### دَلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿يَهْدِى﴾:

الـهُـدى هـو الرَّشادُ والبَيانُ والدَّلالَةُ بِلُطفٍ إلى ما يوصِلُ إلى المَطلوبِ

آثَرَ النَّظمُ الحَكيمُ استِعمالَ الفِعلَ ﴿يَهْدِى﴾؛ لما فيه مِنَ المَعاني اللَّطيفة الدَّقيقَة؛ إذِ الهُدى هو الرَّشادُ والبَيانُ والدَّلالَةُ بِلُطفٍ إلى ما يوصِلُ إلى المَطلوبِ، فالهدى إلى الدّين: الإرشادُ إلَيه، والتَّبيينُ لَهُ، والتَّعريفُ بِهِ، وضِدُّهُ الضَّلالُ[2]. ولَمّا كانَ مُرادُ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ نَفيَ

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 111.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (هدى).

الكَذِبَ عَن موسى عليه السلام بَعدَ أن أظهرَ لفرعَونَ ومَلَئِه نَوعًا منَ الإنصافِ في خِطابِهم والتَّوسُّطِ في القَولِ ليَستَميلَهُم إلى الاستِماعِ لخِطابِه ذَيَّلَ خِطابَه بِفعلِ ﴿يَهۡدِي﴾؛ لبَيانِ أنَّ الهاديَ هو اللّهُ، وأنَّهُ تعالى لا يَهدي المُسرِفينَ الكاذِبينَ؛ كَي يَقِفوا أمامَ أنفُسِهم وِقفَةَ تَدبُّرٍ وتفَكُّرٍ، لَعَلَّهُم يَفقَهونَ أنَّ موسى عليه السلام ذَلكَ الدّاعي إلى اللّهِ على بَصيرَةٍ لَم يَكُنْ ليَفتَريَ على اللّهِ، وهوَ يَسألُه الإرشادَ إلى الحَقِّ والصَّوابِ.

**فائِدَةُ الخَبرِ في قَولِه: ﴿لَا يَهۡدِي﴾:**

هدايةُ الله مَنفيَّةٌ عَـنِ المُسـرِفـينَ الكاذِبينَ

جاءَتْ جملة ﴿لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ في مَحَلِّ رَفعِ خَبَرَ ﴿إِنَّ﴾، والغَرَضُ منَ الخَبَرِ في الجملة الكَريمَةِ التَّعليلُ والتَّقريرُ، وقَد أفادَ العُمومَ في كُلِّ مُسرِفٍ كَذّابٍ؛ لأنَّهُ بِسُلوكِهِ المشينِ في طَريقِ الكَذِبِ والإسرافِ والبُهتانِ قَد أغلَقَ بابَ الهِدايَةِ على نَفسِه، وكَسَرَ جُسورَ العَودَةِ إلى الطَّريقِ القَويم.

**معنى ﴿مَنۡ﴾، وغَرَضُ التَّعبيرِ بالاسمِ المَوصولِ وصِلَتِهِ:**

إنَّ اللهَ تعالى لا يهدي مَن يُصِرُّ على الكذب

استَعمَلَ النَّظمُ الحَكيمُ الاسمَ المَوصولَ ﴿مَنۡ﴾ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ دونَ غيرِه؛ لأنَّ هُناكَ فرقًا دَقيقًا بَينَ هَذا وبَينَ قَولِنا: (إنَّ اللّه لا يَهدي المُسرِفَ الكَذّابَ)؛ لأنَّ مَجيءَ الاسمِ المَوصولِ وصِلَتِهِ في قَولِهِ سُبحانَهُ: ﴿مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ يَعني: أنَّ هَذِهِ الصِّلَةَ أمرٌ مَشهورٌ مَعلومٌ، وأنَّ ثَمَّةَ شَخصًا عُرِفَ بِهَذِهِ الصِّلَةِ وشُهِرَ بها، وهوَ بالقَطعِ لَيسَ موسى عليه السلام الَّذي آتاهُ رَبُّهُ البُرهانَ، وإنْ لم يكنْ موسى عليه السلام فلا بُدَّ أن يَنصَرِفَ الكَلامُ إلى المُقابِلِ وهوَ فِرعَونُ[1].

**المَوقِعُ النَّحويُّ لقَولِه: ﴿مُسۡرِفٞ﴾ و﴿كَذَّابٞ﴾:**

ذَهَبَ جُمهورُ المَعرِبينَ إلى أنَّ ﴿هُوَ﴾ ضَميرٌ في مَحَلِّ رَفعٍ مُبتَدَأٌ،

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 111.

أعظمُ الكَذِبِ هو الَّذي يَكونُ على الله

و﴿مُسْرِفٌ﴾: خَبَرٌ أوَّلُ مَرفوعٌ، و﴿كَذَّابٌ﴾ خَبَرٌ ثانٍ مَرفوعٌ، وجملة ﴿هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ صِلَةُ المَوصولِ لا مَحَلَّ لَها مِنَ الإعراب[1]، وثَمَّ رأيٌ آخَرُ، وهو أنَّ الإسرافَ هنا واقعٌ على تجاوُزِ الحدِّ في الكذبِ ولا يرادُ به العمومُ؛ لأنَّ أعظَمَ الكَذِبِ أن يَكونَ على اللهِ، قالَ تَعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: 93]، وإذا كانَ المُرادُ الإسرافَ في الكَذِبِ تَعَيَّنَ أنَّ قَولَهُ: ﴿كَذَّابٌ﴾ عَطفُ بَيانٍ لا خَبَرٌ ثانٍ؛ إذ لَيسَ ثَمَّةَ إسرافٌ هُنا غيرُ إسرافِ الكَذِبِ[2].

### سرُّ إيثارِ لفظَيِ (الإسراف والكذب):

الإسرافُ تَجاوُزٌ للحَدِّ أوِ الحَقِّ في الأخذِ مِنَ الشَّيءِ إلى الإهدارِ والإفسادِ

سرُّ إيثار النَّظم الكريم الوصفَ بـ﴿مُسْرِفٌ﴾ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أنَّهُ يَدُلُّ على تَجاوُزِ الحَدِّ أوِ الحَقِّ في الأخذِ مِنَ الشَّيءِ إلى الإهدارِ والإفسادِ، والَّذي في القُرآنِ مِنَ هذا التَّركيبِ هو بِمَعنى التَّجاوُزِ في إنفاقِ المالِ والأكلِ والتَّجاوُزِ في ارتِكابِ الذُّنوبِ والإفسادِ في الأرضِ[3]. ومع اشتهارِ دلالةِ الإسرافِ على سَفك الدَّمِ بِغَيرِ حَقٍّ إلّا أنّه قد يُرادُ به الشِّركُ[4]. وأيًّا كان فالشِّركُ مِنَ الإسرافِ، وقَد اجتمع في فِرعَونَ الأمرانِ كِلاهُما[5].

مَن يَقتُلِ النَّفسَ الزَّكيَّةَ ويدَّعِ الأُلوهيَّةَ يكنْ أشدَّ المُسرفينَ وأكذبَ الكاذبين

وأوثِرَ لفظُ ﴿مُسْرِفٌ﴾ أيضًا؛ لأنّه لَيسَ في الإسرافِ أشنَعُ ولا أبشَعُ من سَفكِ دَمِ مَن لا ذَنبَ لَهُ إلّا أنَّهُ يَقولُ: ﴿رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾، وقَد أرسَلَهُ رَبُّهُ مُؤَيَّدًا بالبُرهانِ والسُّلطانِ والآياتِ البَيِّناتِ.

ثُمَّ إنَّ الرَّجُلَ المُؤمِنَ الَّذي أكرمَهُ اللّهُ بهذا العَقلِ وهذا الفَهمِ حينَ

---

(1) الخطيب، ومصلوح، والعلوش، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 24/ 147 - 148.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 131.

(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (سرف).

(4) مكي بين أبي طالب، الهداية: 10/ 6424.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 377.

يَسمَعُ فِرعَونَ يَقولُ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ [النّازعات: 24]، و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القَصَص: 38] لا يَشُكُّ في أنَّهُ أكذبُ الكَذّابينَ[1]. فآثَرَ لفظَ الكذبِ لشدَّةِ اتِّصافِ فرعونَ به.

**نُكتَةُ المبالَغَةِ بِصيغَةِ ﴿كَذَّابٌ﴾:**

في قَولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ عُبِّرَ عن الكذبِ بصيغَةِ المُبالَغَةِ مِن اسم الفاعِلِ (كاذِبٌ)؛ وذَلِكَ لأنَّ صيغَةَ (فَعّالٍ) تَدُلُّ على فِعلٍ حادثٍ مُتَكَرِّرٍ، فهَذا البِناءُ يَقتَضي المُزاوَلَةَ والتَّجديدَ؛ لأنَّ صاحِبَ الصَّنعَةِ مُداوِمٌ على صَنعَتِه مُلازِمٌ لَها، فهِيَ تَدُلُّ على الحِرفَةِ والصِّناعَةِ، وتَقتَضي الاستمرارَ والتَّكرارَ والإعادَةَ والتَّجَدُّدَ والمُلازَمَةَ؛ فإذا قلنا: (هوَ كَذّابٌ) فإنَّ معناه: كَأنَّما هوَ شَخصٌ حِرفَتُهُ الكَذِبُ وهوَ مُداوِمٌ على هَذِهِ الصَّنعَةِ مُلازِمٌ لَها مُستَمِرٌّ على ذَلِكَ لَم يَنقَطِع[2].

اتَّخَذَ فِرعَونُ اللَّعينُ مِنَ الكَذِبِ حِرفَةً لهُ ودَيدَنًا لا يَنفَكُّ عَنهُ

وقَدِ اتَّخَذَ فِرعَونُ اللَّعينُ مِنَ الكَذِبِ حِرفَةً لهُ ودَيدَنًا لا يَنفَكُّ عَنهُ، فقَد أكثَرَ مِنَ الكَذِبِ على اللّه تعالى، فادَّعى الأُلوهِيَّةَ مَرّاتٍ عَديدَةً في القُرآنِ، وأكثَرَ مِنَ الكَذِبِ على موسى عليه السلام، فاتَّهَمَه بالفَسادِ والطُّغيانِ وهو منهما بَراءٌ، وأكثَرَ مِنَ الكَذِبِ على أتباعِه في ادِّعائه القُدرَةَ على قَتلِ موسى عليه السلام.

**نُكتَةُ تَنكيرِ الوَصفَينِ ﴿مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾:**

صفتا الإسراف والكذب بشعتان مذمومتان قبيحٌ مَن اتَّصَفَ بهما

جاءَت كَلِمَتا ﴿مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ في جملة الفاصلة نَكِرَتينِ للتَّهويلِ مِن بَشاعَةِ هاتَينِ الصِّفَتَينِ الذَّميمَتَينِ، لذلك فإنَّ مَن هداهُ اللّه تَعالى إلى الإتيانِ بهَذِهِ المُعجِزاتِ الباهِرَةِ لا يَكونُ مُسرِفًا كَذّابًا. ويجوز أن يكون التَّنكيرُ للعموم، والجملة مِنَ خِطابِ اللّهِ، والمُرادُ نَفيُ الهِدايَةِ الإلهيَّةِ عن كُلِّ مَن اتَّصَفَ بهاتَينِ الصِّفَتَينِ.

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 111.
(2) فاضل السامرائي، معاني الأبنية في العربية، ص: 96.

### بلاغةُ التَّعريضِ في التَّعبيرِ بالوصفين:

تشريفُ موسى عليه السلام وإبطالُ ادِّعاءِ فرعون

التَّعبيرُ بصفتَي (الإسراف والكذب) يَدُلُّ على أنَّ موسى ﷺ لَيسَ مِنَ الكاذِبينَ، فكانَ قَولُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ إشارَةً إلى عُلوِّ شَأنِ موسى ﷺ على طَريقِ الرَّمزِ والتَّعريضِ. وفي الصِّفتَينِ تعريضٌ أيضًا بِفرعَونَ اللَّعينِ بأنَّهُ مُسرِفٌ في عَزمِهِ على قَتلِ موسى، كَذّابٌ في إقدامِهِ على ادِّعاءِ الأُلوهيَّةِ، واللّه لا يَهدي مَن هَذا شَأنُهُ وصِفتُهُ، بَل يُبطِلُهُ ويَهدِمُ أمرَهُ[1].

### بلاغةُ الكنايةِ في التَّعبيرِ بالوصفين:

النّاطقُ على هدًى يُعصَمُ من الإسرافِ والكذب

يجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بصفتَي (الإسراف والكذب) مُؤمِنَ آلِ فرعَونَ نَفسَه كما ذكرنا سابقًا، فيَكونُ نَفيُ الهدايَةِ عَنِ المُسرِفِ الكَذّابِ كِنايةً عَن تَقوى هَذا الرَّجُلِ وصِدقِهِ؛ لأنَّهُ نَطَقَ عَن هُدًى؛ واللّه لا يُعطي الهُدى مَن هو مُسرِفٌ كَذّابٌ[2]. وفي هَذِه الحالَةِ تكونُ الجملة من خِطابِ اللّه تعالى مُعتَرِضَةً بينَ خِطابَيْ مُؤمِنِ آلِ فِرعَون.

### نُكتَةُ تَقديمِ الإسرافِ على الكَذِبِ:

الإسرافُ إمّا صِفَةٌ مُستَقِلَّةٌ وإمّا مُتَعَلِّقَةٌ بالكَذِبِ

في قَولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ قَدَّمَ النَّظمُ الجَليلُ الوَصفَ بالإسرافِ على الوَصفِ بالكَذِبِ، وسِرُّ تقديمِهِ هو الاهتمامُ به؛ لأنَّ إسرافَهُ في القتلِ والفسادِ في الأرضِ ضَرَرُهُ مُتَعدٍّ إلى مَن حولَهُ مِن البلادِ والعباد، أمّا كَذِبُهُ في ادِّعاءِ الأُلوهيَّةِ فضررُهُ قاصرٌ على نفسِهِ، حيث جعَلَ نفسَهُ شريكًا لمالكِ المُلكِ، بل أنكَرَ أُلوهيَّةَ الحقِّ سبحانَهُ وجعَلَ من نفسه الإلهَ الأوحدَ الأعلى لهذا الكون، وفي ذلك هلاكُهُ وخسرانُهُ.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 510.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 131.

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾ [غافر: 29]

### مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بَعدَ مُحاولَتِهِ إثنـاءَهـم عن قَتلِ موسى جاءَ التَّذكيرُ بِنِعمَةِ المُلْكِ والتَّخويفُ مِن سَلبِهِ

لَمّا خَيَّلَهم مُؤمِنُ آلِ فِرعونَ بِهَذا الكَلامِ الَّذي أمكَنَهُ تَوجيهُهُ إِلَيهِم في مُحاولَةٍ مِنهُ لإثنائِهم عَن قَتلِ موسى عليه السلام؛ شَرَعَ في وعظِهِم إظهارًا للنَّصيحَةِ لَهم والتَّحَسُّرِ عَلَيهِم، مُذَكِّرًا لَهم بِنِعمَةِ اللهِ عَلَيهِم، مُحَذِّرًا لَهم مِن سَلبِها، مُستَعطِفًا بِذِكرِ أنَّهُ مِنهُم، فناداهُم نداءَ المُحبِّ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، وذَكَّرهم بأشَدِّ ما يعِزُّ عَلَيهِم وهو المُلْكُ، ونَبَّهَ على ما يَعرِفونَهُ مِن تَقَلُّباتِ الدَّهرِ، فأشارَ إلى ما عَهِدوهُ مِنَ ظُهورِهِم على بَني إسرائيلَ وغَيرِهِم، وهوَ ما يَتَضَمَّنُ احتمالَ غَلَبَتِهِم ولو بَعدَ حينٍ، فنَبَّهَ على أنَّ المالِكَ للكُلِّ هو الإِلَهُ الحَقُّ والمَلِكُ المُطلَقُ الَّذي لا مانِعَ لِما يُريدُ، فلا يَنبَغي لأحَدٍ مِن عَبيدِهِ أن يَتَعَرَّضَ إلى ما لا قِبَلَ لَهُ بِهِ مِن سُخطِهِ، فلِذَلِكَ ساقَ إِلَيهِم سُؤالًا مُهِمًّا حَولَ قُدرَةِ اللهِ تعالى عليهِم، وعَدَمِ قُدرَتِهِم على الانتِصارِ لأنفُسِهِم إنَ جاءَهُم بَأسُه وعَذابُه؛ إذ لا عاصِمَ لَهُم مِنَ اللهِ إن أرادَهم بِسوءٍ جرّاءَ تَكذيبِهِم وهَمِّهِم بقتلِ موسى عليه السلام.

ولَمّا سَمِعَ فِرعَونُ ما لا طَعْنَ لَهُ فيهِ ولا قُدرَةَ لَه على دَفعِه والحِجاجِ عَنهُ، وكانَ بِحَيثُ يَخافُ مِن انقِلابِ بَقيَّةِ قَومِهِ إنْ أفحَشَ في أمرِ هَذا المُؤمِنِ البَليغِ الحَكيمِ رَدَّ رَدًّا لا يَصلُحُ جَوابًا شافِيًا لما قالَهُ هَذا المُؤمِنُ، فقال: إنَّ الصَّوابَ على قَدرِ مَبلَغِ عِلمِه هو ما أشارَ بِهِ مِن قَتلِ موسى عليه السلام، وإنَّ الرَّشادَ كُلَّ الرَّشادِ فيما ذَهَبَ إليه، دونَ حُجَّةٍ

أو بُرهانٍ، فدَلَّ جَوابُه على حيادِهِ عَنِ الحَقِّ، وعَلى الانقِطاعِ بالعَجزِ عَن نَقضِ شَيءٍ مِن كَلامِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ[1].

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظَٰهِرِينَ﴾: (ظهر) أصلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ، والظُّهورُ: الغَلَبَةُ، والعلوُّ[2]. فالمَعنى المحوَريُّ للظُّهور: بُروزٌ مِن أثناءٍ أو باطِنٍ إلى سَطحٍ، مَعَ شِدَّةٍ وغِلَظٍ أو قوَّةٍ[3]. والمُرادُ بِقَولِه: ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: لَكُمُ السُّلطانُ فيها غالِبينَ على أهلِها مِن بَني إسرائيلَ وغَيرِهِم[4].

2) ﴿سَبِيلَ﴾: (سبل) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على إرسالِ شَيءٍ مِن عُلوٍّ إلى سُفلٍ، وعَلى امتِدادِ شَيءٍ. وهوَ الطَّريقُ، سُمّيَ بِذَلِكَ لامتِدادِهِ[5]. فالمَعنى المِحوَريُّ للسَّبيل: امتِدادٌ إلى أسفَلَ مَع اتِّصالٍ[6]. والمُرادُ بالسَّبيل في الآية طَريقُ الصَّوابِ والصَّلاحِ[7].

3) ﴿ٱلرَّشَادِ﴾: (رشد) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على استِقامَةِ الطَّريقِ. والرُّشدُ والرَّشَدُ: خِلافُ الغَيِّ[8]. وإرشادُ الضّالِّ: هِدايَتُهُ الطَّريقَ وتَعريفُهُ[9]. والمُرادُ بالرَّشادِ هَهُنا: طريقُ خيرٍ وهدايةٍ، وقصدُهُ قتلُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[10].

## ❁ المَعنى الإجماليُّ:

**استِمرارُ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ في تَذكيرِهِم بالحَقِّ، واستِكبارُ فِرعَونَ في رَدِّهِ الفارِغِ**

أخَذَ مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ في تَذكيرِهِم بِنِعَمِ اللهِ عَلَيهِم، وفي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 57 (بتصرُّفٍ).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ظهر).
(4) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 10/ 6424.
(5) الخليل بن أحمد، كتاب العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (سبل).
(7) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 319.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رشد).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (رشد).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 133.

تَحذيرِهم مِن نِقَمِه، فقالَ لقَومِه: يا أهلي ويا عَشيرَتي، أنتُمُ اليَومَ لَكُمُ المُلْكُ، حالَةَ كَونِكُم غالِبينَ ومُنتَصِرينَ في أرضِ مِصرَ، عالينَ فيها على بَني إسرائيلَ قَومِ موسى، وإذا كانَ أمرُنا كَذَلِكَ فمَن يَستَطيعُ أن يَنصُرَنا مِن عَذابِ اللهِ إن أرسَلَهُ عَلَينا بِسَبَبِ عَدَمِ شُكرِنا لَهُ، واعتِدائِنا على خَلقِه؟ وبَعدَ أن استَمَعَ فِرعَونُ إلى نَصيحَةِ الرَّجُلِ المُؤمِنِ أخَذَتهُ العِزَّةُ بالإثم، وقالَ ما يَقولُهُ كُلُّ طاغيَةٍ مُعجَبٍ بِنَفسِهِ في رَدِّهِ على النَّصيحَة، مُتَّخِذًا سبيلَ المكرِ والكذبِ والتَّدليسِ والتَّمويهِ، بزعمِهِ أنَّهُ لا يُريدُ إلّا مَنفَعَتَهُم بِقَتلِ موسى، بوصفه طَريقَ السَّدادِ والرَّشادِ، مَعَ أنَّ الدّافِعَ الحَقيقيَّ لقَولِهِ هَذا هوَ التَّخَلُّصُ مِن موسى عليه السلام حَتّى يَخلوَ لَهُ الجَوُّ في تَأليهِ نَفسِهِ على جُهَلاءِ قَومِهِ[1].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### بلاغةُ الفصل في الآيَةِ:

إذا تـرَكَـتْ أُمَّـةٌ القِيَمَ الأخلاقيَّةَ سَقَطَ مُلكُها

فَصَلَ النَّظمُ الحَكيمُ قولَ اللّه تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عن سابقتِها دون حُروفِ العَطف، لكَمالِ الانقطاعِ بلا إيهامٍ، فقَد جاءَت بدايةُ هَذِهِ الجملة إنشائيَّةً لَفظًا ومَعنًى ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، عَقِبَ جملة خَبَريَّةٍ لَفظًا ومَعنًى، والفَصلُ بَينَهُما لا يوهِمُ خَلافَ المَقصودِ.

انتَقَلَ الكَلامُ في هَذِهِ الآياتِ مِن مَعنًى إلى مَعنًى ومِن أُسلوبٍ إلى أُسلوبٍ، فقَد كانَتِ الآياتُ السّابِقَةُ في إنكارِ أن يَقتُلوا رَجُلًا يَقولُ: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، وتَفَرَّعَ مِنها ما تَفرَّعَ، وكَأنَّ كُلَّ الآيَةِ وما تَفرَّعَ مِنها داخِلَةٌ ومُضمَرَةٌ في هَمزَةِ الاستِفهامِ المَشحونَةِ بالإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّعَجُّبِ والتَّجهيلِ إلى آخرِهِ، ثُمَّ يَنتَقِلُ الكَلامُ إلى الدَّولَةِ والمُلكِ والغَلَبَةِ والظُّهورِ في الأرضِ. والفَجوَةُ تَبدو بَعيدَةً بَينَ الكَلامَينِ[2].

(1) محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 286 - 287.

(2) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 112.

لكنَّ المتمعِّنَ يُدرك التَّرتيبِ المنطقيَّ بينَ الآيتينِ؛ ذلك أنَّ بَقاءَ المُلْكِ مَشروطٌ بالأُسُسِ والقيَمِ الأخلاقيَّةِ، لا بالبَطشِ وسَفكِ الدِّماءِ والقوَّةِ؛ لأنَّ هَذِهِ القوَّةَ المادّيَّةَ وحدَها لا تَكفي لبَقائِهِ ظاهِرًا في الأرضِ، بل لا بُدَّ مِنَ الأساسِ الأخلاقيِّ الَّذي هوَ الرَّحمَةُ والعَدلُ والحَقُّ واحترامُ الإنسانِ، واحترامُ اختياراتِ الإنسانِ، فلا يُؤَثَّمُ مَن يَقولُ: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ فضلًا عَن أنْ يُقتَلَ، فالمُؤمِنُ الصّالِحُ هنا يَنفُذُ بذَكائِهِ ومَكانَتِهِ، وعِلمِهِ وخِبرَتِهِ إلى هَذِهِ الحَقيقَةِ التّاريخيَّةِ والسّياسيَّةِ والأخلاقيَّةِ، فإنَّ الأساسَ الأخلاقيَّ إذا تركَتْهُ أُمَّةٌ سَقَطَ مُلكُها ولَو كانَت ظاهِرَةً في الأرضِ. وهَذِهِ قاعِدَةٌ لا تَتَخَلَّفُ وتُطَبَّقُ في كُلِّ زَمانٍ وفي كُلِّ مَكانٍ، وبِهَذا تَكونُ قَد رُدِمَتِ الفَجوَةُ الَّتي بَينَ الكَلامَينِ الجَليلَينِ، وصارَ المُختَلِفُ مُؤتَلِفًا[1].

### غَرَضُ النِّداءِ بِـ(يا):

تنبيهُ المُنادى لأمرٍ خَطيرٍ ذي بالٍ

في قَولِ اللهِ تعالى على لسانِ مُؤمِنَ آلِ فِرعَونَ: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ استعمَلَ النَّظمُ الحَكيمُ أداةَ النِّداءِ (يا) الَّتي هي لنَداءِ البَعيدِ، ووَراءَ ذَلِكَ إشعارٌ بأنَّ مَعنًى جَلَلًا يُنادي قَومَهُ لَهُ؛ لأنَّ النِّداءَ تنبيهٌ للمُنادى حَتّى يَسمَعَ ما يُقالُ، ولا يَكونُ ذَلِكَ إلّا لأمرٍ لَهُ خَطَرٌ ولَهُ بالٌ[2].

### نُكتَةُ النِّداءِ بِوَصفِ القَوميَّةِ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

بيانُ شِدَّةِ الصِّلَةِ مع الاستِمالَةِ والاستِعطافِ

في جملة: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ آثَرَ النَّظمُ الحَكيمُ التَّعبيرَ بِلَفظِ (القوم)؛ فأدخَلَ قومَهُ في الخِطابِ؛ لتذكيرِهم بأواصِرِ القَرابةِ؛ ليتحقَّقوا أنَّه ناصِحٌ ومريدٌ الخيرَ لهم ومشفقٌ عليهم، وليَستَهويَهم إلى تَعضيدِهِ أمامَ فِرعَونَ، فلا يَجِدَ فِرعَونُ بُدًّا مِنَ الانصياعِ إلى اتِّفاقِهِم وتَظاهُرِهِم، وأيضًا فإنَّ

---

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 112.
(2) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 114.

تَشريكَ قَومِهِ في المَوعِظَةِ أدخَلُ في بابِ النَّصيحَةِ، فابتَدَأ بنُصحِ فِرعَونَ؛ لأنَّهُ الَّذي بيَدِهِ الأمرُ والنَّهيُ، وثَنَّى بنَصيحَةِ الحاضِرينَ مِن قَومِهِ تَحذيرًا لَهم مِن مَصائِبَ تُصيبُهم إنِ امتَثَلوا أمرَ فِرعَونَ بقَتلِ موسى. وهَذا التَّرتيبُ في إسداءِ النَّصيحَةِ نَظيرُ التَّرتيبِ في قَولِ النَّبيِّ ﷺ: «ولأئمَّةِ المُسلِمينَ وعامَّتِهم»[1].

## مَعنى اللّامِ في ﴿لَكُمُ﴾:

التَّذكيرُ بنِعمَةٍ عَظيمَةٍ ومِنحَةٍ جَليلَةٍ، وهي تَمَكُّنُ المُلكِ لَهُم في أرضِ مصر

جاءَتِ اللّامُ مِن كَلِمَةِ ﴿لَكُمُ﴾ في قَولِ اللّهِ تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ لإفادَةِ المِلكِ، فدَلَّت على تَمَكُّنِ المُلكِ لَهُم في أرضِ مِصرَ، وظُهورِهِم على مَن ناوَأهُم، وفيها تَذكيرٌ بنِعمَةٍ عَظيمَةٍ ومِنحَةٍ جَليلَةٍ مِنَ اللّهِ تعالى لهَؤُلاءِ القَومِ، ومِن ثَمَّ فلا يَنبَغي أن يَكونَ المُقابِلُ هو التَّكذيبَ والاستِكبارَ والهَمَّ بِقَتلِ نَبيِّ اللّهِ موسى عليه السلام.

## نُكتَةُ تَقديمِ شِبهِ الجملة ﴿لَكُمُ﴾:

اختِصاصُ آلِ فِرعَونَ بنِعمَةِ المُلكِ، وتَذكيرُهم بما مَنَّ الله تعالى عليهم

قَدَّمَ النَّظمُ الجَليلُ شِبهَ الجملة ﴿لَكُمُ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾، وكانَ مُقتَضى الظّاهِرِ أن يُقال: (يا قَومِ المُلكُ لَكُم اليَومَ)، وعَدَلَ البَيانُ القُرآنيُّ عَن هَذا الظّاهِرِ لإفادَةِ الاختِصاصِ - أي: اختِصاصِ آلِ فِرعَونَ بهَذِهِ النِّعمَةِ - وتَذكيرِهم بما مَنَّ اللّهُ تعالى عَلَيهم. وفيها إثارَةٌ لنَخوَتِهِم للمُحافَظَةِ على عِزِّهِم وسُلطانِهِم وغَلَبَتِهِم، ولَيسَ في حَياةِ المَرءِ أفضَلُ مِن أن يَكونَ في وطَنٍ عَزيزٍ ظاهِرٍ غالِبٍ، وقَد كانَ الرَّجُلُ المُؤمِنُ صاحِبَ بَصيرَةٍ حينَ ذَكَّرَ قَومَهُ بِعِزِّهِم وسُلطانِهِم وقوَّتِهِم وأنَّهُم ظاهِرونَ في الأرضِ، وأنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِمّا يَجِبُ أن يُحافِظوا عَلَيهِ[2].

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، حديث رقم: (205).
(2) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 112.

### مَعنى (أل) في ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾:

هبةُ الملكِ سبيلُ عِزِّهم وكَرامَتِهم، والسَّعيُ إلى الحفاظِ عليه واجبٌ

جاءَتِ اللّامُ في لَفظَةِ ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ من قَولِ اللّه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ للعَهدِ الذِّهنيِّ؛ أي: لَكُم ذَلِكَ المُلكُ الَّذي عَهِدۡتُموه، ودَرَجتُم في رُبوعِه، والَّذي هوَ مَناطُ عِزِّكُم وكرامَتِكم في الدُّنيا، فلا يَنبَغي لَكُم أن تَتَهاوَنوا في الحِفاظِ عَلَيه، ويَجِبُ عَلَيكُم أن تَنهَضوا لِمَنعِ فِرعَونَ مِنَ الإقدامِ على قَتلِ موسى عليه السلام؛ لئلّا يَتَسبَّبَ في ضَياعِ مُلكِكُم، وذَهابِ دَولَتِكُم. وقَد "ناداهُم بالمُلكِ الَّذي هوَ أعظَمُ مَراتِبِ الدُّنيا وأجَلُّها، وهو من جِهَةِ شَهَواتِهِم"[1].

### فائِدَةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّةِ ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ﴾:

مِن نِعَمِ الله عليهم طولُ مُلكِهِم، وعَراقَةُ عِزِّهِمُ الدُّنيَوِيِّ

عَدَلَ النَّظمُ الحَكيمُ عَنِ التَّعبيرِ بالجملة الفِعليَّةِ في قَولِ اللّه تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾، فلَم يَقُل: (يا قوم قَد مَلَكتُمُ الأرضَ)، وآثَرَ التَّعبيرَ بالجملة الاسميَّةِ ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ﴾؛ لِما في التَّعبيرِ بها مِنَ الدَّلالَةِ على الثَّباتِ والدَّوامِ، بِخِلافِ الجملة الفِعليَّةِ الَّتي تَدُلُّ على التَّجَدُّدِ والحُدوثِ، ودلالتها هنا الإشارَةُ إلى طولِ مُلكِهِم، وعَراقَةِ عِزِّهِمُ الدُّنيَوِيِّ، فإذا أرادوا الحِفاظَ على هَذا الدَّوامِ والثَّباتِ فإنَّه يَنبَغي عَلَيهِمُ الكَفُّ عنِ الفَسادِ والاستِكبارِ؛ لئلّا تَكونَ العاقِبَةُ وخيمَةً بِزَوالِ مُلكِهِم وتَشَتُّتِ جَمعِهِم.

### فائِدَةُ ذِكرِ الظَّرفِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

التَّعبيرُ بالظَّرفِ إمّا لِلتَّذكيرِ بالماضي، وإمّا لِلتَّحذيرِ مِنَ القادِمِ، وإمّا لِلامتِنانِ بالحاضِرِ

زادَ النَّظمُ الحَكيمُ على أصلِ المَعنى التَّعبيرَ بالظَّرفِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾؛ إذ مُقتَضى الظّاهِرِ أنَّه قَد يُكتَفى بالقَولِ: (لَكُمُ المُلكُ ظاهِرينَ في الأرضِ)، ولَكِنَّ البَيانَ القُرآنيَّ أضافَ الظَّرفَ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ لأحَدِ أُمورٍ ثَلاثَةٍ، أو لَها مُجتَمِعَةً، **فالأوَّلُ**: التَّنبيهُ إلى ما يَعرِفونَهُ من تَقَلُّباتِ الدَّهرِ وما عَهِدوهُ مِنَ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 254.

الخِذلانِ في بَعضِ الأزمانِ[1]. **والثّاني**: التَّحذيرُ مِنَ الاغترارِ بِقوَّتِهِم في لَحظَتِهِمُ الرّاهِنَةِ، فقَد يُعاقِبُهُمُ اللّهُ أشَدَّ العِقابِ في أيّامِهِم القادِمَةِ جَرّاءَ تَكذيبِهِم واستِكبارِهِم. والثّالِثُ: الإشارَةُ إلى أنَّ عِزَّهُم ومُلكَهُمُ الظّاهِرَ والغالِبَ لَم يَكُن في يَومٍ مِن أيّامِهِم كَما هوَ الحالُ اليَومَ، وأنَّ لَهم في يَومِهِم هَذا ما يَجِبُ أن يُحافِظوا عَلَيهِ.

**المَوقِعُ النَّحويُّ لِقَولِهِ: ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:**

**الـدّلالـةُ على سيـطـرتِـهـم وغَـلَـبـتِـهـم واتِّـسـاعِ رُقْـعـةِ مُلْكِهِم**

جاءَت لَفظَةُ ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ حالًا من الضَّميرِ في ﴿لَكُمُ﴾، والعامِلُ في الحالِ هوَ العامِلُ في ﴿لَكُمُ﴾. و﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: جارٌّ ومَجرورٌ مُتَعَلِّقانِ بِـ ﴿ظَٰهِرِينَ﴾[2]، فهيَ بَيانٌ لِحالِ القَومِ في حاضِرِهِم الَّذي يُكَذِّبونَ فيه الأنبياءَ والمُرسَلينَ، وأنَّ مُلكَهم عظيمٌ واسعٌ، فلْيَحذروا مِن زوالِه بقتلِ موسى والإفسادِ في الأرض.

**دَلالَةُ التَّعبيرِ بِـ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:**

**نِـعـمَـةُ الظُّـهـورِ والغَلَبَةِ تَقتَضي شُـكـرَ المُـنـعِـمِ، لا مُـجـازاتَـهـا بـالـجَـفـاءِ والاستِكبارِ**

عَبَّرَ النَّظمُ الحَكيمُ على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ عن تَمَكُّنِ آلِ فِرعَونَ في أوجِ مُلكِهِم واستِعبادِهِم لبَني إسرائيلَ وغيرِهم بقَولِه: ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، والمُرادُ: غالِبينَ فيها، وتَعني: أنَّ سُلطانَكُم على أرضِكُم وثَرَواتِكُم وتُرابِكُم سُلطانٌ ظاهِرٌ، وبِجِوارِ هَذا غَلَبَتُكُم في الأرضِ ومَكانَةُ قوَّتِكُم وهَيبَتِكُم في صُدورِ الأُمَمِ مِن حَولِكُم[3].

وقد آثَرَ البَيانُ القُرآنيُّ التَّعبيرَ بِمادَّةِ الظُّهورِ؛ لدلالتِه على قوَّةٍ وبُروزٍ، وغَلَبَةٍ، وعلوٍّ. وهَذا الظُّهورُ والبُروزُ والقوَّةُ يَقتَضي شُكرَ المُنعِمِ الجليلِ تعالى، لا مُقابَلَةَ إنعامِهِ بالجَفاءِ والاستِكبارِ والتَّكذيبِ والعِصيانِ والهَمِّ بَقتلِ موسى عليه السلام.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 57.
(2) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 24/ 148.
(3) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 10/ 6424.

### بَلاغَةُ الكِنايَةِ والمجَازِ في قَولِهِ: ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

نُكْرانُ مِنَّةِ اللهِ تعالى عليهم بالنَّصر والغَلَبة مَدْعاةٌ لغضبِه جلَّ شأنُه

في قَولِ اللّه تعالى: ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ صَوَّرَ النَّظمُ الحَكيمُ النَّصرَ والغَلَبَةَ كَأنَّهُما أمرانِ مادّيّانِ مَحسوسانِ تَراهُما الأعيُنُ وتُدرِكُهُما الأبصارُ، وفي ذَلِك بَيانٌ لِمَنَّةِ اللّه تعالى عليهم وإحسانِهِ إلَيهم، لعلَّهُم يَرتَدِعونَ عَن غَيِّهِم. وفي هذِه المَوعِظَةِ تَذكيرٌ بِنِعمَةِ اللّه عَلَيهِم، وتَمهيدٌ لتَخويفِهِم مِن غَضَبِ اللّه؛ أي: لا تَغُرَّنَّكم عَظَمَتُكم ومُلكُكم؛ فإنَّهُما مُعَرَّضانِ للزَّوالِ إنْ غَضِبَ اللّه عَلَيكم، والمَقصودُ: تَخويفُ فِرعَونَ مِن زَوالِ مُلكِهِ، ولَكِنَّهُ جَعَلَ المُلكَ لقَومِه لتَجَنُّبِ مواجَهَةِ فِرعَونَ بِفَرضِ زَوالِ مُلكِهِ[1].

### فائِدَةُ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

المُلكُ للهِ وحدَهُ لا لأحَدٍ سِواهُ

جاءَ حَرفُ الجَرِّ ﴿فِي﴾ في قَولِ اللّه تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مُفيدًا للظَّرفيَّة، فنَبَّهَ على الإلَه الواحِدِ القَهّارِ الَّذي لَهُ مُلكُ السَّماواتِ والأرض بِقَولِه هذا، مُعَبِّرًا بأداةِ الظَّرفِ الدّالَّةِ على الاحتياجِ تَرهيبًا لَهُم ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: أرضِ مِصرَ الَّتي هي لحُسنِها وجَمعِها المَنافِعَ كالأرضِ كُلِّها الَّتي غَلَبتُمُ النّاسَ عَلَيها[2].

### معنى الفاءِ في ﴿فَمَن﴾:

يَجِبُ أن يُصانَ المُلكُ بِغَيرِ أُسلوبِ التَّحريضِ والتَّآمُرِ

أشارَ الطّاهِرُ ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ الفاءَ في جملة ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾ تَفريعيَّةٌ، فقال: وفَرَّعَ على هَذا التَّمهيدِ: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾[3].

والّذي نَراه أنَّ الفاءَ هنا فَصيحَةٌ؛ فهيَ مُفصِحَةٌ عَن شَرطٍ مُقَدَّرٍ، والتَّقدير: فإذا أسَأْنا استخدامَ مُلكِنا وقوَّتِنا وقَتَلْنا رسلَ اللّه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 133.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 57.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 131.

وأفسَدْنا في الأرض فمَن يَنصُرُنا مِن بَأسِ اللّه إن جاءَنا؟ وقد حَذَفَ النَّظمُ الحَكيمُ الشَّرطَ المُقدَّرَ بُغيَةَ الاختِصارِ والإيجازِ.

وثَمَّةَ فراغٌ بَينَ هَذِهِ الجملة وبَينَ الجملة الَّتي تَرَتَّبَت عَلَيها؛ لأنَّ قيامَ المُلكِ والسُّلطانِ والقوَّةِ الظّاهِرَةِ لا يَتَرَتَّبُ عَلَيه مَجيءُ البَأسِ مِنَ اللّه، فلا بُدَّ أن يَكونَ بَينَ الكَلامَينِ مَعنًى مَطويٌّ مِن جِنسِ المَعنى الَّذي بَيَّنّاهُ بَينَ إنكارِ جَريمَةِ العَزمِ على قَتلِ مَن جاءَ بالبَيِّناتِ وبينَ الحَديثِ عَنِ المُلكِ، وكَأنَّ المُلكَ يَجِبُ أن يُصانَ بغَيرِ هَذا الأُسلوبِ الَّذي تَتَّبِعونَهُ؛ مِن تَحريضِ كِبارِ الدَّولَةِ على موسى، والقَولِ بأنَّهُ سَيُبَدِّلُ دينَكُم ويُظهِرُ في الأرضِ الفَسادَ، ثُمَّ الهَمِّ بِقَتلِهِ، كُلُّ ذَلِكَ لَيسَ حِمايَةً للمُلكِ، وإنَّما هوَ تَدميرٌ للمُلكِ؛ لأنَّ الظُّلمَ والبَغيَ وسَفكَ دِماءِ الكِرامِ هوَ المِعْوَلُ الَّذي لا تُخطِئُ ضَرَباتُهُ مَفاصِلَ المُلكِ[1].

### بَلاغَةُ الاستِفهامِ ونَوعُهُ وغَرَضُهُ:

التَّنبيهُ البَليغُ، والمَوعِظَةُ المُؤَثِّرَةُ، والتَّذكيرُ بِقُدرَةِ اللهِ

جاءَت (مَن) في قَولِ اللّه تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ عَن كُلِّ ناصِرٍ، والمَعنى: فلا نَصرَ لَنا مِن بَأسِ اللّه[2]. والمُرادُ التَّنبيهُ البَليغُ والمَوعِظَةُ المُؤَثِّرَةُ والتَّذكيرُ بِقُدرَةِ اللّه تعالى عليهم، لَعَلَّهُم يَرتَدِعونَ عَن غَيِّهِم وهَمِّهِم بقَتلِ موسى عليه السلام. ومِن حِكمَةِ هَذا الرَّجُلِ الصّالِحِ أنَّهُ يَعلَمُ أنَّ بَأسَ اللّه لا يُدفَعُ ولا يُرَدُّ، فأتى بالاستِفهامِ الإنكاريِّ الَّذي يُفيدُ أنَّهُ لا أحَدَ عاصِمٌ لَهُم مِن بأسِ اللّهِ، وأنَّ قوَّتَهُم هَذِهِ الظّاهِرَةَ واللَّغوَ الفاسِدَ المُحيطَ بها مِن مِثلِ ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: 38] كُلُّ هَذا لا يَمُدُّ بِنَصرٍ، وإنَّما العَدلُ والرَّحمَةُ والمُحافَظَةُ على أُصولِ القِيَمِ الإنسانيَّةِ الرَّحيمَةِ الَّتي لا تَمُدُّ يَدًا

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 114 - 115.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 131.

بالإيذاءِ للصّالِحينَ مِنَ النّاسِ هو الكفيلُ بدوامِ المُلكِ، وهَذِهِ مَعانٍ مِن أكرَمِ المَعاني[1].

### دَلالَةُ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ ﴿يَنصُرُنَا﴾:

امتِناعُ حُدوثِ النَّصرِ أو تَجَدُّدِ مَعالِمِهِ؛ لتَكذيبِهِم واستِكبارِهِم وفَسادِهِم

التَّعبيرُ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿يَنصُرُنَا﴾ للدَّلالَةِ على امتِناعِ حُدوثِ النَّصرِ فضلًا عن تَجَدُّدِ مَعالِمِه، فهُم إن انتَصَروا في مَوقِعَةٍ أو حادِثَةٍ فإنَّ النَّصرَ مُمتَنِعٌ عَنهُم في بَقيَّةِ المَواقِعِ والحَوادِثِ، وذَلِكَ لتَكذيبِهِم واستِكبارِهِم وفَسادِهِم وهَمِّهِم بقَتلِ النَّبيِّ الكَريمِ الَّذي جاءَ ليستَنقِذَ بَني إسرائيلَ مِن بَراثِنِهِمُ الآثِمَة.

### مَعنى ﴿مِنۢ﴾ في قَولِهِ: ﴿مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ﴾:

سُنَّةُ اللهِ في المُكَذِّبينَ ابتِداؤُهُم بالعَذابِ، فإنْ رَجَعوا نَجّاهُم مِمّا ابتَدَأهُم بِه

جاءَت ﴿مِنۢ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ ابتِدائيَّةً، فأفادتِ ابتِداءَ بَأسِ اللّهِ وعَذابِهِ الشَّديدِ للمُكَذِّبينَ المُستكبِرينَ المُتَجَبِّرينَ في الأرضِ على غَيرِ مُرادِ اللّه تعالى. وفيهَا دَلالَةٌ على تَدَرُّجِ العَذابِ والبَأسِ بِهِم، وأنَّ سُنَّةَ اللّهِ في المُكَذِّبينَ أن يَبتَدِئَهُم بالعَذاب، فإن رَجَعوا وأنابوا خَفَّفَ اللّهُ عَنهُم ولَطَفَ بِهِم ونَجّاهُم مِمّا ابتَدَأهُم به مِنَ العَذاب.

### نَوعُ الإضافَةِ في ﴿بَأۡسِ ٱللَّهِ﴾، وفائِدَةُ ذِكرِ اسمِ الجَلالَةِ:

تَخصيصُ البَأسِ بأنَّهُ مِنَ اللهِ وحدَهُ؛ لإفادَةِ عِظَمِ البَأسِ وللتَّخويفِ والتَّرهيبِ

في قَولِ اللّه تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ أضافَ النَّظمُ الحَكيمُ كَلِمَةَ ﴿بَأۡسِ﴾ إلى لَفظِ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهِ﴾، وهيَ إضافَةٌ مَعنَويَّةٌ، على مَعنى اللّامِ الجارَّةِ المُفيدةِ للاختصاص؛ أي: مِن بَأسٍ للّه، فأفادَتْ تَخصيصَ البَأسِ بأنَّهُ مِنَ اللّه تعالى لا مِن أحدٍ غَيرِه؛ لبيانِ عِظَمِ هَذا البَأسِ وشِدَّته، وللتَّخويفِ والتَّرهيب. وعَبَّرَ باسمِ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ لبيانِ أنَّ بلاءَ اللّهِ إنْ نزَلَ لا يُرَدُّ ولا يُصَدُّ، فاسمُ الجلالة خاصٌّ بالذّاتِ الإلهيَّةِ، واللّهُ

---

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 115.

هوَ الَّذي لَهُ المُلكُ كُلُّه، فلا يَنبَغي لأحَدٍ أن يَتَجَبَّرَ في مُلكِهِ تعالى، بَل يَنبَغي أن يُذعِنَ لهُ بالخُضوعِ والاستِسلامِ.

**نُكتَةُ إيثارِ الشَّرطِ بِـ ﴿إن﴾:**

التَّنبيهُ على إمكانِ العَذابِ مَعَ إتاحَةِ فُرصَةِ النَّجاةِ بالتَّوبَةِ والأوبَةِ

في قَولِ اللّه تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ استعمَلَ النَّظمُ الحَكيمُ أداةَ الشَّرطِ ﴿إن﴾ الَّتي تُفيدُ الشَّكَ وعَدَمَ القَطعِ، دونَ أداةِ الشَّرطِ (إذا) الَّتي تُفيدُ رُجحانَ الظَّنِّ والقَطعَ، وذَلِكَ للتَّنبيهِ على أنَّ عَذابَهُ لَهم أمرٌ مُمكِنٌ، والعاقِلُ مَن يُجَوِّزُ الجائِزَ ويَسعى في التَّدَرُّعِ مِنهُ[1]، فلَم يَقطَع مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ بِمَجيءِ عَذابِ اللّهِ؛ لأنَّ أداةَ الشَّرطِ ﴿إن﴾ تَأتي في المَعنى المَشكوكِ فيهِ، وبِهَذا ابتَعَدَ عَنِ التَّهديدِ والتَّخويفِ الأشَدِّ، وجَعَلَ فُرصَةَ النَّجاةِ مَفتوحَةً. ثُمَّ إنَّهُ قالَ: ﴿يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ وهوَ يَعلَمُ أنَّ بَأسَ اللّهِ لا يُدفَعُ ولا يُرَدُّ[2]؛ لفَتحِ بابِ الرَّجاءِ.

**بَلاغَةُ المَجازِ في إسنادِ المَجيءِ إلى البَأسِ:**

تَشخيصُ التَّرهيبِ والتَّخويفِ أدْعَى إلى العِظَةِ

في قَولِ اللّه تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ أسنَدَ النَّظمُ الحَكيمُ المَجيءَ إلى البَأسِ، فشَبَّهَ البَأسَ بِشَيءٍ مادّيٍّ يَروحُ ويَجيءُ، والأصلُ أنَّ البَأسَ لا يَجيءُ، فالمَجيءُ مُستَعارٌ للحُدوثِ والحُصولِ بَعدَ أن لَم يَكُن، تَشبيهًا لحُدوثِ الشَّيءِ بِوُصولِ القادِمِ مِن مَكانٍ آخَرَ بِنَقلِ الخُطواتِ؛ إذ هوَ مِن صِفاتِ الأحياءِ، وإنَّما أخبَرَ بِذَلِكَ مَجازًا، ففي الصّورَةِ المَجازيَّةِ تَشخيصٌ للتَّرهيبِ والتَّخويفِ، وإسنادُ المَجيءِ إلى البَأسِ مَجازٌ عَن وُصولِهِ إلَيهِم، والمُرادُ أوائِلُ البَأسِ وعَلاماتُهُ[3].

**بَلاغَةُ استعمالِ ضميرِ المتكلِّمين في ﴿يَنصُرُنَا﴾ و﴿جَآءَنَاۚ﴾:**

الحَسَنَةُ تَخُصُّ، والسَّيِّئَةُ تَعُمُّ

اختَلَفَ الإسنادُ في جملة ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 57.

(2) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 115.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 228.

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ عَن جملة ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾، فلَم يُدخِلِ الرَّجُلُ الصّالِحُ نَفسَهُ في قَضيَّةِ المُلك؛ لِعلمِهِ وحِكمَتِه؛ فإنَّ المُلكَ لا يُحبُّ الشُّرَكاءَ والأندادَ، فنَسَبَ ما يَسُرُّهم مِنَ المُلكِ والظُّهورِ في الأرضِ إليهم خاصَّةً، ثُمَّ أدمَجَ نَفسَهُ مَعَ قَومِهِ في ﴿يَنصُرُنَا﴾ و﴿جَآءَنَاۚ﴾؛ ليُريَهم أنَّهُ يَأبى لقَومِهِ ما يَأباهُ لنَفسِهِ، وأنَّ المُصيبَةَ إن حَلَّت لا تُصيبُ بَعضَهم دونَ بَعضٍ، وإبعادًا للتُّهمَةِ، وحَثًّا على قَبولِ النَّصيحَةِ[1]، فنَظَمَ نَفسَهُ في سِلكِهم فيما يَسوءُهم مِن مَجيءِ بَأسِ اللّه تَعالى تَطييبًا لقُلوبِهم، وإيذانًا بأنَّهُ مُناصِحٌ لَهم ساعٍ في تَحصيلِ ما يُجديهم ودَفعِ ما يُرديهم سَعيَهُ في حَقِّ نَفسِهِ؛ ليَتَأثَّروا بِنُصحِهِ[2].

### نُكتَةُ حذفِ جَوابِ الشَّرطِ وتقديمِ ما يدلُّ عليه:

حَذَفَ النَّظمُ الجَليلُ جَوابَ الشَّرطِ في قولِ اللّه تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ ﴿إِن جَآءَنَاۚ﴾، وقدَّمَ ما يدلُّ عليه وهو قولُهُ: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾، والتَّقديرُ: (إنْ جاءَنا بأسُ اللّه وعذابُهُ فَمَن يَنصُرُنا منه؟)، وفي تقديمِ ما يدلُّ على جوابِ الشَّرطِ وحذفِهِ بعد أداةِ الشَّرطِ دلالةٌ على اهتمامِ النَّظمِ القرآنيِّ بالمتقدِّمِ، وفي ذلك تمامُ التَّخويفِ والتَّرهيبِ؛ فلا ناصرَ مِن بأسِ اللّه إلّا اللّه؛ لتَذهَبَ نُفوسُ آلِ فِرعَونَ في الخوفِ من بأسِ اللّه كُلَّ مَذهَبٍ، لَعَلَّهُم يَرتَدِعونَ عَن غَيِّهم وطُغيانِهم.

تمامُ التَّخويفِ والتَّرهيبِ؛ فلا ناصرَ مِن بأسِ الله إلّا الله

### نُكتَةُ فصلِ قَولِه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾:

فَصَلَ النَّظمُ الحَكيمُ جملة ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ عَن سابقتها، فلم يَعطِفْها بالواوِ، وفي ضَوءِ القاعِدَةِ يَكونُ قَولُ فِرعَونَ تَعقيبًا على قَولِ مُؤمِنِ آل فرعون، ثُمَّ جاءَتِ الآيَةُ بَعدَها بالواوِ للإشارَةِ إلى أنَّ الرَّجُلَ المُؤمِنَ لَم يَشَأ أن يُطاوِلَ الحِوارَ مَعَ

مُسارَعَةُ فِرعَونَ إلى الهَمِّ بإبطالِ مَفعولِ حَديثِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 57.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 318.

فِرعَونَ، فقالَ ما قالَ في مَقام آخَر، ولَم يُعَقِّبْ على قَولِ فِرعَونَ في المَجلِسِ كَما عَقَّبَ فِرعَونُ على قَولِه[1].

وفي حَذفِ الواوِ ما يُنبِئُ عَن مُسارَعَةِ فِرعَونَ إلى إبطالِ مَفعولِ حَديثِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ في نُفوسِ الحاضِرينَ مِنَ المَلَإِ المُحتَشِدينَ لِمُناقَشَةِ قَضيَّةِ موسى عليه السلام وهَمِّ فِرعَونَ بِقَتلِه، فقد تَفَطَّنَ فِرعَونُ اللَّعينُ إلى أنَّهُ المُعَرَّضُ بِهِ في خِطابِ الرَّجُلِ المُؤمِنِ المَوَجَّهِ إلى قَومِهُ، فسارَعَ إلى مُقاطَعَةِ كَلامِه، وبَيَّنَ سَبَبَ عَزمِهِ على قَتلِ موسى عليه السلام؛ بأنَّهُ ما عَرَضَ عَلَيهِم ذَلِكَ إلّا لأنَّهُ لا يَرى النَّفعَ إلّا في قَتلِ موسى ولا يَستَصوِبُ غَيرَ ذَلِكَ، ويَرى ذَلِكَ هو سَبيلَ الرَّشادِ، وكَأنَّهُ أرادَ ألّا يَترُكَ لِنَصيحَةِ مُؤمِنِهِم مَدخَلًا إلى نُفوسِ مَلَئِهِ، خيفَةَ أن يَتَأثَّروا بِنُصحِهِ فلا يُساعِدوا فِرعَونَ على قَتلِ موسى عليه السلام.

ولِكَونِ كَلامِ فِرعَونَ صَدَرَ مَصدَرَ المُقاطَعَةِ لِكَلامِ المُؤمِنِ جاءَ كَلامُ فِرعَونَ في النَّظمِ القرآنيِّ مَفصولًا غَيرَ مَعطوفٍ، وهي طَريقَةُ حِكايَةِ المُقاوَلاتِ والمُحاوَرَة[2].

### نوعُ القَصرِ وطريقَتُهُ والغَرَضُ مِنهُ:

في جملة ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ جاءَت ﴿مَآ﴾ نافيَةً، و﴿إِلَّا﴾ أداةَ حَصرٍ وتَوكيدٍ[3]، وكَذَلِكَ الحالُ في الجملة التّاليَةِ، فجاءَ النَّظمُ الجَليلُ بِجُملَتَينِ مَبنيَّتَينِ على قَصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، بطريقةِ النَّفيِ والاستِثناءِ، الأولى تأكيدُ ما يَراهُ، وأنَّهُ لا يُريهِم إلّا ما يَراهُ، والثّانيَةُ تَأييدُ ما يَراهُ وأنَّهُ لا يَهديهِم إلّا سَبيلَ الرَّشادِ، ولَيسَ الأمرُ كَما سَمِعوا مِنَ الرَّجُلِ المُؤمِنِ؛ ولِذَلِكَ تَرى هَذِهِ الجملة المُؤَكَّدَةَ بالنَّفيِ والاستِثناءِ، الدّالَّةَ على أنَّهُ لا يُريهِم إلّا ما يَراهُ غِطاءً لِلحَقيقَةِ، ولَيسَت هي الحَقيقَةَ.

**اللُّجوءُ إلى أُسلوبِ الغَطرَسَةِ والمُبالَغَةُ في التَّوكيدِ دَليلٌ على فُقدانِ الحُجَّةِ**

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 116.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 133.

(3) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 24/ 149.

## دَلالَةُ التَّعبيرِ بِفِعلِ الرُّؤيَةِ مادَّةً وصيغَةً في المَوضِعَين:

تَدليس فرعَونَ بِتَكريرِ فِعلِ الرُّؤيَةِ إمعانٌ في التَّضليلِ

في جملة ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ عَبَّرَ البيانُ القُرآنيُّ بِفعلِ الرُّؤيَةِ في المَوضِعَين، والمَعنى: ما أجعَلُكم رائينَ إلّا ما أراهُ لنَفسي؛ أي: ما أُشيرُ عَلَيكم بأن تعتَقِدوا إلّا ما أعتَقِدُهُ، فالرُّؤيَةُ عِلميَّةٌ؛ أي: لا أُشيرُ إلّا بما هو مُعتَقَدي[1]. فكَلِمَةُ ﴿أُرِيكُمْ﴾ بضَمِّ هَمزَةِ المُضارَعَةِ مِن قَولِهِم: (أراهُ كَذا)؛ أي: جَعَلَهُ يَراهُ، فإنْ كانَ مِمّا يُرى بالقَلبِ كالرَّأيِ تَعَدَّى لثلاثةِ مفاعيلَ، وإنْ كان مِمّا يُشاهَدُ بالبصرِ تَعَدَّتْ لمفعولين، ولمّا دَلَّ السّياقُ هنا على أنَّهُ استَيقَنَهُ عبَّرَ عنه كَأنَّهُ يَراهُ بِعَينِهِ، فهو وإنْ كان قلبيًّا إلّا أنّه لوُضوحِهِ لديهِ صارَ مُجسَّدًا مَرْئيًّا بالعين.

وجملة فِرعَونَ مَعناها: لا أُبَيِّنُ لَكُم إلّا الّذي أراهُ بعيني؛ يَعني: أنّي أُقَدِّمُ لَكُم خالِصَ نُصحي، وتَحتَ هَذِهِ الجملة نَفيُ أن أكونَ كاذِبًا لَكُم؛ لأنَّ الّذي يُريكَ غيرَ ما يَراهُ - وهوَ ما يَحرِصُ فِرعَونُ على نَفيِهِ - يَكذِبُكَ في الرَّأيِ، والقُرآنُ دالٌّ على أنَّ فِرعَونَ كانَ يَكذِبُ على نَفسِهِ، فموسى عليه السلام أراهُ الآيَةَ الكُبرى فكَذَّبَ، وقالَ لَهُ موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: 102][2].

## بلاغةُ الاستِثناء:

شِدَّةُ المُبالَغَةِ في الخطابِ بِسَبَبِ فُقدانِ البرهانِ والافتقارِ إلى البيان

جاءَ الاستِثناءُ في جُملَتَي فِرعَونَ: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ استِثناءً مُفَرَّغًا؛ فحذَفَ المُستثنى منه ولم يَذكُرْهُ لئلّا يرتسمَ أذهانِهم وتصوُّرِهم رأيٌ إلّا رأيُهُ، ولا يَدخُلَ إلى قلوبِهم هدايةٌ إلّا هدايتُهُ، وفي ذلك شِدَّةُ مُبالَغَةٍ من فِرعَونَ في تَوكيدِ كَلامِهِ لَمّا أعيَتْهُ الحُجَّةُ، ولَم يَجِد مِنَ البَراهينِ والأدِلَّةِ ما يَدعَمُ إرادَتَهُ الآثِمَةَ وسَعيَهُ الخَسيسَ في قَتلِ موسى عليه السلام، وهَذا شَأنُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 133.

(2) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 116.

الطُّغاةِ؛ فإنَّهُم يَجعَلونَ دأبَهُم تَرسيخَ كَلامِهِم في أذهانِ الشُّعوبِ مِن دونِ بَيِّنَةٍ أو حُجَّةٍ، باعتمادِ التَّكرارِ والتَّرديدِ ما استَطاعوا إلى ذَلِكَ سَبيلًا.

**مَعنى ﴿مَآ﴾ ومَوقِعُ الجملة بَعدَها:**

المُستبدُّ لا يَرى الصِّحَّةَ إلّا في قوله

﴿مَآ﴾ الثّانيَةُ في قولِهِ سبحانه ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ اسمٌ مَوصولٌ في مَحَلِّ نَصبِ مَفعولٌ بِهِ ثانٍ. والتَّعبيرُ به يدلُّ على إرادةِ العمومِ؛ لأنَّه اسمٌ موصولٌ دالٌّ على العُمومِ؛ أي: مِن بين كلِّ الآراءِ رأيي هو الصَّوابُ، فلا يُخالِفْني أحدٌ أو يُعارِضْني فردٌ. وهذا دَيْدَنُ الطُّغاةِ المُستكبِرينَ استبدادًا بالرَّأيِ، وتفرُّدًا بالقرار.

**نُكتَةُ حَذفِ مَفعولِ ﴿أَرَىٰ﴾:**

سِمَةُ كلامِ فِرعَونَ الغُموضُ، وذلك أدْعَى الى عَدَمِ الثِّقَةِ به

حَذَفَ النَّظمُ الحَكيمُ مفعولَ الفعلِ ﴿أَرَىٰ﴾ في جملة ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، والتَّقديرُ: (ما أُريكُم إلّا ما أراه)، قالَ ابنُ عَطيَّةَ: ﴿أَرَىٰ﴾: مُتَعَدّيَةٌ إلى مَفعولٍ واحِدٍ، وهوَ الضَّميرُ الَّذي فيه. وحَذفُ هَذا المَفعولِ مِنَ الصِّلَةِ حَسَنٌ لطولِ الصِّلَةِ[1]. وفي حَذفِ المَفعولِ كذلك إشارَةٌ إلى العُمومِ والغُموضِ وعَدَمِ الثِّقَةِ في كلامِ فِرعَونَ اللَّعينِ.

**بَلاغَةُ الكِنايَةِ في قَولِهِ: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾:**

المُستبِدُّ يَتَظاهَرُ بالشّورى، لكنَّه لا يَعتَدُّ بقولِ مخالفٍ لرأيِهِ

أشارَت جملة ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ إلى انفرادِ فِرعَونَ بالرَّأيِ، فهيَ كِنايَةٌ عَنِ الطُّغيانِ والاستبدادِ، ففي الوَقتِ نَفسِه الَّذي يَطلُبُ فيه فِرعَونُ مَشورَةَ قَومِهِ ومُؤازرتَهُم يُصَرِّحُ بأنَّ الرَّأيَ لَهُ وحدَهُ دونَ سِواهُ، فيَكشِفُ حَقيقَةَ دَعواهُ بأنَّهُ ما طَلَبَ مَشورتَهم إلّا ليوافِقوهُ على رَأيِه دونَ اعتِبارٍ لأقوالِهِم.

**مَعنى الواوِ في قَولِهِ: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ﴾:**

جاءَتِ الواوُ في جملة الفاصلة ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ عاطِفَةً؛ لقصدِ إشراكِ الجملة الثّانية مع الجملة الأولى في المحلِّ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 557.

إبعادُ فِرعَونَ الخَطَأَ عَن رأيِهِ إمعانٌ في تَضليلِ قَومِهِ وتَزيينِ الباطِلِ لَهُم

الإعرابيِّ، ولعدم المانع من العطف، فالجُملَتانِ خَبَرِيَّتانِ، وهما مقولُ فرعونَ، قاطَعَ بِهِما فِرعَونُ حَديثَ الرَّجُلِ الحَكيمِ خَشيَةَ تَأثيرِه في قُلوبِ مَلَئِه، فكانَت وظيفَةُ الجملة الثّانيَةِ تأكيدَ مَعنى الجملة الأولى مِن وجهٍ، ومِن وجهٍ آخَرَ فإنَّ مَهَمَّتَها إبعادُ الخَطَأِ والضَّلالِ عَن رأيِ فِرعَونَ اللَّعينِ إمعانًا في تَضليلِ قَومِهِ وتَزيينِ الباطِلِ والفَسادِ لَهُم.

فالمَعنى الحاصِلُ مِنَ الجملة الثّانيَةِ غَيرُ المَعنى الحاصِلِ مِنَ الجملة الأولى وفاقَ كما لا يخفى، وكما يقتضيه العَطفُ[1].

## بَلاغَةُ القَصرِ ونَوعُهُ وغَرَضُهُ في جملة الفاصلة:

حَصرُ الرَّشادِ في رأيِ فِرعَونَ دونَ بُرهانٍ دَليلٌ على فُقدانِ البيّنة

بُنيَتْ جملة ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ على القَصرِ المُؤَكَّد بالنَّفي والاستِثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾؛ وذلك لتَأييد ما يَراهُ فرعون وأنَّهُ لا يَهديهم إلّا سَبيلَ الرَّشادِ ولَيسَ كَما سَمِعوا مِنَ الرَّجُلِ المُؤمِنِ، ولِذَلِكَ تَرى هَذِهِ الجملة غِطاءً للحَقيقَةِ ولَيسَت هيَ الحَقيقَةَ. وقَد حَذَتْ هَذِهِ الجملة حَذوَ الجملة السّابِقَةِ في نَمَطِها الأُسلوبيِّ، وهيَ مِن وجهٍ تَوكيدٌ لَها، ومِن وجهٍ آخَرَ إبعادٌ للخَطَأِ والضَّلالِ عَنِ الَّذي يَرى. وقَولُهُ: ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ يُقابِلُ قَولَهُ ﴿مَآ أَرَىٰ﴾، وكَأنَّ الَّذي يَراهُ هوَ سَبيلُ الرَّشادِ، لا ما قالَه الرَّجلُ المُؤمِنُ مِن أنَّ رَأيَ فِرعَونَ بقَتلِ موسى إنَّما هوَ سَبيلُ الهَلاكِ والاستِئصالِ[2].

## دَلالَةُ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ ﴿أَهۡدِيكُمۡ﴾:

زِيادَةُ تَدليسِ فِرعَونَ على قَومِهِ بِإيهامِ تَجَدُّدِ هِدايَتِهِ لَهُم

عَبَّرَ النَّظمُ الجَليلُ عَن مَقالَةِ فِرعَونَ باستِعمالِ صيغَةِ المُضارَعَةِ ﴿أَهۡدِيكُمۡ﴾؛ زيادَةً في تَدليسِهِ على قَومِه؛ إذ مُرادُه أنَّهُ لا يَتَجَدَّدُ منهُ لَهُم سِوى الهِدايَةِ، كَما في قَولِه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ﴾؛ لأنَّ الَّذي يُريكَ الشَّيءَ يَهديكَ إلَيهِ، وإن كانَ في ﴿أَهۡدِيكُمۡ﴾ مَعنًى زائدٌ؛ لأنَّ الهِدايَةَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 133.

(2) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 116 - 117.

خُطوَةٌ عَمَليَّةٌ تَلي الإراءَةَ[1]، والمَعنى: وما أدعوكُم إلّا إلى طَريقِ الحَقِّ والصِّدقِ والرُّشدِ. وقَد كَذَبَ في كلّ ذَلِكَ، وإن كانَ قَومُهُ قَد أطاعوهُ واتَّبعوهُ، قالَ اللّه تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧﴾ [هود: 97]، وقالَ تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: 79][2].

## نَوعُ الإضافَةِ في ﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾:

زيادةُ الإضلالِ والتَّعميَة

في جملة ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أضافَ النَّظمُ الحَكيمُ لَفظَ ﴿سَبِيلَ﴾ إلى كَلِمَةِ ﴿ٱلرَّشَادِ﴾، وهيَ إضافَةٌ مَعنَويَّةٌ على مَعنى (اللّام)؛ أي: سَبيلًا للرَّشادِ، فأفادَتْ حصرَ السَّبيلِ بالرَّشادِ، وكأنَّه لا رشادَ إلّا في سبيلِهِ الَّذي هدى قومَهُ إليه على حَدِّ زعمِهِ.

وفي هَذِهِ الإضافَةِ زيادَةُ بَيانٍ لمَدى إضلالِ فِرعَونَ لِهَؤُلاءِ الأتباعِ الَّذينَ استَخَفَّ بِهِم وأمعَنَ في الكَذِبِ عَلَيهِم.

## بَلاغَةُ الاستِعارَةِ في لَفظِ ﴿سَبِيلَ﴾:

تَصويرُ طَريقِ الباطِلِ بأنَّه الحَقُّ المُبينُ زيادَةٌ في التَّعميَةِ والإضلالِ

في جملة ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ استُعيرَ لَفظُ ﴿سَبِيلَ﴾ للدَّلالَةِ على العَمَلِ؛ إذِ السَّبيلُ وسيلَةٌ للوصولِ إلى الرَّشادِ، وكانَت إضافَتُهُ إلى الرَّشادِ قَرينَةً على هَذِهِ الدَّلالَةِ؛ أي: ما أهديكم وأُشيرُ عَلَيكم إلّا بِعَمَلٍ فيهِ رَشادٌ، وكَأنَّهُ يُعَرِّضُ بأنَّ كَلامَ مُؤمِنِهم سَفاهَةُ رَأيٍ[3]. وهَذِهِ الجملة من أعجَبِ الجُملِ الَّتي تَقطَعُ بِتَبَجُّحِ الباطِلِ، واستِخفافِهِ بِعُقولِ أتباعِهِ، ومُزايَداتِه على أهلِ الحَقِّ بالتَّمويهِ والادِّعاءِ، فيُصَوِّرُ طَريقَ الباطِلِ الأثيمِ في صورَةِ طَريقِ الحَقِّ المُبينِ، زيادَةً في التَّعميَةِ والإضلالِ لِهَؤُلاءِ الأغرارِ المُخدوعينَ الَّذينَ عَطَّلوا عُقولَهم وطَمَسوا بَصائِرَهُم، فلا يَستَطيعونَ أن يُمَيِّزوا بينَ ما فيه صَلاحُهم وما فيه هَلاكُهُم.

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 116.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 142.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 133.

### مَعنى (أل) في ﴿ٱلرَّشَادِ﴾:

حصرُ الرَّشاد برأي الطّاغية زيادةٌ في التَّضليلِ والتَّعميَةِ

أورَدَ النَّظمُ الحَكيمُ لَفظَ ﴿ٱلرَّشَادِ﴾ في جملة الفاصلة مُعرَّفًا بِلامِ التَّعريفِ؛ لتفيدَ هَهُنا أنَّ المُرادَ جِنسُ الرَّشادِ على الحَقيقَةِ؛ أي: أنَّ مُرادَ فِرعَونَ أنَّهُ يهديهم إلى جِنسِ الرَّشادِ وأصلِ مَعدِنِه. وقد تكونُ اللّامُ للعهدِ الذِّهنيِّ؛ أي: الرَّشادِ الَّذي في ذهنِ فرعونَ، فكأنَّهُ يُقول: لا رَشادَ إلّا فيما أشَرتُ عَلَيكُم به، فما يقولُهُ لهم ويأمرُهُم به هو الرَّشادُ دون غيره. وفي ذَلكَ زيادَةٌ في التَّضليلِ والتَّعميَةِ على هَؤُلاءِ الأتباعِ المَخدوعينَ، فقد كَذَبَ اللَّعينُ عَليهم وأضَلَّهُم، كَما صَرَّحَ بِذَلِكَ القُرآنُ فقال: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: 79].

## ۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### البَأسُ والعَذابُ والعقابُ:

البَأسُ أخَصُّ مِن مُطلَقِ العَذابِ

نُكتَةُ استِعمالِ (البَأسِ) دونَ (العُقوبَةِ) أو (العَذابِ): أنّ العَذابَ والعِقابَ يَدُلّانِ على الجَزاءِ على وجهِ العُمومِ، ولَكِنَّ البَأسَ هوَ الجَزاءُ الشَّديدُ، فهوَ أخَصُّ في الدَّلالَةِ، فالبَأسُ: شِدَّةُ العَذابِ، ومِنهُ قَولُه تَعالى: ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ [الأعراف: 165][1]، والمُرادُ بِهِ هُنا: القوَّةُ على العَدوِّ والمُعانِدِ، فهو القوَّةُ على الضُّرِّ، وكَذَلكَ هوَ نُزولُ العَذابِ[2]. ولذلك كان أنسبَ لسياقِ غضبِ اللّه عليهم وتشديدِ الوعيدِ عليهم.

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 555.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 133.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١﴾ [غافر: 30 - 31]

## ❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بعدَ مُحاولَةِ فِرعَونَ إفسادَ الأمرِ ارتَفَعَ الخِطابُ إلى أُسلوبِ التَّخويفِ والتَّهديدِ

بَعدَ أن قالَ فِرعَونُ هَذا الكَلامَ الدّالَّ على جَهلِهِ وعَجزِهِ وذُلِّه وفقدانِ الحُجَّةِ مِن جِهَةٍ، وعلى استِبدادِه وطُغيانِه مِن جِهَةٍ أخرى ظَهَرَ لهَذا المُؤمِنِ أنَّ فِرعَونَ ذُلَّ لكَلامِه، ولَم يَستَطِع مُصارَحَتَهُ ولا مُقارَعتَهُ الحُجَّةَ بالحُجَّةِ، فارتَفَعَ إلى أُسلوبٍ أصرَحَ مِنَ الأُسلوبِ الأوَّلِ، وهوَ أُسلوبُ التَّخويفِ والتَّهديدِ، فأخبَرَنا اللّه تعالى عَن استِمرارِ هَذا الدّاعيَةِ المُؤمِنِ الحَكيمِ في الدَّعوَةِ والنُّصحِ والإرشادِ، فخَوَّفَهُم مِن مَغَبَّةِ السَّيرِ وراءَ ادّعاءِ فِرعَونَ، وحَذَّرَهُم مِنَ المُكابَرَةِ في أمرِ موسى عليه السلام.

ولَمّا كانَ أقَلُّ ما يُخشى يَكفي العاقِلَ، وكانَت قُدرَةُ اللّه سُبحانَهُ عَلَيهِم كُلِّهِم على حَدٍّ سَواءٍ لا تَفاوُتَ فيها، فكانَ هَلاكُهم كُلِّهم كَهَلاكِ نَفسٍ واحِدَةٍ ضَرَبَ لَهُم مَثَلًا مُجمَلًا بيَومِ الأحزابِ، ثُمَّ فصَّلَ وبَيَّنَ، أو بَدَّلَ بَعدَ أن هَوَّلَ، فبَيَّنَ سُنَّةَ اللّهِ العَزيزِ المُتَعالِ في دأبِ الأقوامِ المُكَذِّبينَ مِنَ الأُمَمِ السّابِقَةِ، مثلِ قَومِ نوحٍ فيما دَهَمَهم مِنَ الهَلاكِ الَّذي مَحَقَهم، ومثلِ عادٍ وثَمودَ مَعَ ما بَلَغَهُم مِن جَبَروتِهِم.

ولَمّا كانَ هَؤُلاءِ أقوى الأُمَمِ اكتَفى بِهِم وأجمَلَ مَنْ جاؤوا مِن بعدِهم.

ولَمّا كانَ في مَقامِ الوَعظِ لَهم ومُرادُهُ رَدُّهم عَن غَيِّهم بِكُلِّ حالٍ عَلَّقَ أمرَ الهَلاكِ بالإرادَةِ؛ لأنَّها مَتى ارتَفَعَت انتَفى الظُّلمُ؛ لأنَّ أحَدًا لا يَتَوَجَّهُ أبَدًا إلى أنَّهُ يَظلِمُ عَبيدَهُ الَّذينَ هم تَحتَ قَهرِه، وطَوعُ

مَشيئَتِهِ وأمرِهِ، ومَتى لَم يَعرِفوا حَقَّهُ وأرادوا البَغيَ على مَن يَعرِفُ حَقَّهُ عاقَبَهم بلا شكّ، وإلّا كان كَفُّهُ ظُلمًا للمَبغيِّ عَلَيهِم[1].

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾: (حزب) أصلٌ واحِدٌ، وهوَ تَجَمُّعُ الشَّيءِ، فمِن ذَلِكَ الحِزبُ: الجَماعَةُ مِنَ النّاسِ، قالَ اللّه تَعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: 53]، والطّائِفَةُ من كُلِّ شَيءٍ حِزبٌ. يُقالُ: قَرَأ حِزبَهُ مِنَ القُرآنِ. وتَحَزَّبَ القَومُ: تَجَمَّعوا. والحِزبُ: أصحابُ الرَّجلِ على رَأيه وأمره، والمُؤمِنونَ حِزبُ اللّه، والكافِرونَ حِزبُ الشَّيطانِ. وكُلُّ طائِفَةٍ تَكونُ أهواؤُهُم واحِدَةً فهُم حِزبٌ[2]. والمَعنى المِحوَريُّ تَجَمُّعُ الشَّيءِ مُتَماسِكًا مُتَكَتِّلًا شَديدًا أو مُتَمَيِّزًا عَمّا حَولَهُ[3]. والمُرادُ بأيّامِ الأحزابِ أيّامُ إهلاكِهِم، والعَرَبُ يُطلِقونَ (اليَومَ) على يَومِ الغالِبِ ويَومِ المَغلوبِ، والأحزابُ الأُمَمُ؛ لأنَّ كُلَّ أُمَّةٍ حِزبٌ تَجمَعُهم أحوالٌ واحِدَةٌ وتَناصُرٌ بَينَهم، فلِذَلِكَ تُسَمّى الأُمَّةُ حِزبًا[4].

2) ﴿دَأْبِ﴾: (دأب) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على مُلازَمَةٍ ودَوامٍ، فالدَّأبُ: العادَةُ المُستَمِرَّةُ دائِمًا على حالَةٍ، ودَأَبَ الرَّجُلُ في عَمَلِهِ إذا جَدَّ، إلّا أنَّ العَرَبَ حَوَّلَت مَعناهُ إلى الشَّأنِ[5]. والمَعنى المِحوَريُّ له: الاستِمرارُ في إتيانِ الشَّيءِ بِجِدٍّ لِدَفعٍ يَمنَعُ الفُتورَ[6]. والدَّأبُ في الآيَةِ: اجتِهادُهُم في كُفرِهِم وتَظاهُرِهِم على موسى عليه السلام[7]، وعادَتُهم ودَيدَنُهم في الكُفرِ والمَعاصي[8] وتَكذيبِ الأنبياءِ.

## ❁ المَعنى الإجماليُّ:

لَم يَسكُتِ الرَّجُلُ المُؤمِنُ أمامَ تَدليسِ فِرعَونَ وتَمويهِهِ الَّذي نَطَقَ بِهِ، بَل استَرسَلَ في نُصحِهِ لِقَومِهِ، فقالَ لَهُم: يا قَومِ إنّي أخافُ عَلَيكُم إذا تَعَرَّضتُم لموسى عليه السلام بالقَتلِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 59 - 61.
(2) الخليل بن أحمد، كتاب العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حزب).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حزب).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 134.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (دأب).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (دأب).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (دأب).
(8) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 255.

أو بالتَّكذيبِ أن يَنزِلَ بِكُم عَذابٌ مِثلُ العَذابِ الَّذي نَزَلَ على الأُمَمِ الماضيَةِ الَّتي تَحَزَّبَتْ على أنبيائِها، وأعرَضَتْ عَن دَعوَتِهِم، فكانَتْ عاقِبَتُها خُسرًا، بِسَبَبِ وُقوفِهِم مِن أنبيائِهِم مَوقِفَ العِداءِ والبَغضاءِ، فكأنَّ تلكَ الأُمَمَ مِن حِزبٍ والأنبياءَ مِن حِزبٍ آخَرَ، ثُمَّ أردَفَ قائلًا: إنّي أخافُ عَلَيكُم أن يَكونَ حالُكُم وشَأنُكُم كَحالِ قَومِ نوحٍ وعادٍ وثَمودَ والَّذينَ مِن بَعدِهِم كَقَومِ لوطٍ، فهَؤُلاءِ الأقوامُ كَذَّبوا أنبياءَهُم فدَمَّرَهُمُ اللّه تعالى تَدميرًا، فاحذَروا أن تَسيروا على نَهجِهِم، بأن تَقصِدوا موسى عليه السلام بالقَتلِ أوِ الإيذاءِ، فيَنزِلَ بِكُمُ العَذابُ مِثلَما نَزَلَ بِهِم. وما اللّه تعالى يُريدُ ظُلمًا للعِبادِ، ذَلِكَ أنَّ ما أنزَلَهُ تعالى بِهِم مِن عَذابٍ، إنَّما هوَ بِسَبَبِ إصرارِهِم على شِركِهِم، وعَلى الإعراضِ عَن دَعوَةِ أنبيائِهِم، وما ظَلَمَهُمُ اللّه، ولَكِن كانوا أنفُسَهُم يَظلِمونَ[1].

التَّخويفُ مِن عاقِبَةٍ مثلِ عاقِبَةِ السّابِقين، فالعاقِلُ مَنِ اعتَبَرَ بِغَيرِه

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### بلاغةُ الوصلِ بالواوِ في الآيةِ:

وَصَلَ النَّظمُ الحَكيمُ قَولَ اللّه تعالى على لِسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ بالجملة السّابِقَةِ؛ لكونه تكمِلَةً لكَلامِه الَّذي لَم يَكُن فيه تَعريجٌ على مُحاوَرَةِ فِرعَونَ على قَولِه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، وذلك لمقاطعة فِرعَونَ خِطابَهُ، فاستَرسَلَ الرَّجُلُ المُؤمِنُ يُكمِلُ مَقالَتَهُ، فعَطَفَ فِعلَ قَولِه بالواوِ ليَتَّصِلَ كَلامُهُ هذا بالكَلامِ الَّذي قَبلَهُ، ولِئَلّا يُتَوَهَّمَ أنَّهُ قَصَدَ بِهِ مُراجَعَةَ فِرعَونَ، ولَكِنَّهُ قَصَدَ إكمالَ خِطابِه[2]؛ ليُدخِلَ الكَلامَ مُدخَلًا جَديدًا بِطَريقَةٍ أكثَرَ وُضوحًا وأبيَنَ تَصريحًا، وخُلاصَتُها: أنَّ سُلوكَ الطّاغيَةِ والصَّمتَ عَنهُ يُدَمِّرُ الكُلَّ ويَستَأصِلُ

استِكمالُ الخِطابِ دونَ التِفاتٍ للمُقاطَعَةِ الفَجَّةِ من فِرعَونَ

(1) محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 287 - 288.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 134.

الكُلَّ، وإذا كانَ الرَّجُلُ المُؤمِنُ يُلَوِّحُ بِذَلِكَ في مِثلِ قَولِه: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ فإنَّهُ هُنا يُصَرِّحُ بِعَذابِ الاستِئصالِ[1].

### غَرَضُ التَّعبيرِ بالاسمِ المَوصولِ وصِلَتِه:

مؤمنُ آلِ فرعونَ عريقٌ في إيمانِه

في قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ عَدَلَ النَّظمُ الحَكيمُ عَنِ الصّيغَةِ الأولى الَّتي وصَفَ بها مُؤمِنَ آلِ فِرعَونَ - وهي ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ﴾ - إلى التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾؛ وذَلِكَ لأنَّهُ قَد عُرِفَ بِمَضمونِ الصِّلَةِ بَعدَ ما تَقَدَّمَ[2] مِن حَديثِه ومَواقِفِه الإيمانيَّةِ الرّاسِخَةِ، إذِ الوَصفُ بالاسمِ المَوصولِ يُشيرُ إلى عَراقَتِه في الإيمانِ.

وَأشارَ البقاعيُّ إلى أنَّ النَّظمَ الجَليلَ إنَّما جاءَ مُكتَفيًا في وصفِه بالفِعلِ الماضي لأنَّهُ في مَقامِ الوَعظِ الَّذي يَنبَغي أن يَكونَ مِن أدنى مُتَّصِفٍ بالإيمانِ، بَعدَ أن ذَكَرَ عَراقَتَهُ في الوَصفِ لأجلِ أنَّهُ كانَ في مَقامِ المُجاهَدَةِ والمُدافَعَةِ عَن موسى ﷺ الَّذي لا يُقْدِمُ عليه إلّا راسِخُ القَدَمِ في الدّينِ[3].

### نُكتَةُ حَذفِ مُتَعَلِّقِ الإيمانِ:

الحَذفُ لظُهورِ الدَّلالَةِ ولكَثرةِ مُتَعَلِّقاتِ الإيمانِ

حَذَفَ البيانُ القُرآنيُّ مُتَعَلِّقَ الإيمانِ في جملة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾، وذلك لوُضوحِه وُضوحًا شَديدًا، ولِدَلالَةِ المَقامِ عَليهِ دَلالَةً ظاهِرَةً جَليَّةً، فضلًا عن أنَّ في حَذفِه إيجازًا جَميلًا واختِصارًا بَليغًا؛ إذ إنَّ مُتَعَلِّقاتِ الإيمانِ كَثيرَةٌ جِدًّا، ومِنها الإيمانُ باللّه تعالى، ومَلائِكَتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليَومِ الآخِرِ، والقَدَرِ خَيرِهِ وشَرِّهِ، وغَيرُها كَثيرٌ مِن قَضايا الإيمانِ الأصليَّةِ والفَرعيَّةِ، فاكتَفى النَّظمُ الجَليلُ بِوَصفِ الإيمانِ مُجَرَّدًا؛ لِدَلالَتِه على كُلِّ ما اشتَمَلَ عليه.

---

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 117.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 134.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 59.

### غَرَضُ تكرار النِّداءِ بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

عدمُ الاهتمامِ بمقاطعةِ فرعونَ له، مع بيانِ خطورةِ الحَدَث

أعادَ الرَّجُلُ المُؤمِنُ نداءَ قَومِهِ مَرَّةً أُخرى في جملة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ﴾، وهيَ لازِمَةٌ أُسلوبيَّةٌ تَكَرَّرَتْ خَمسَ مَرّاتٍ في حديثِه في السّورَةِ الكَريمَةِ؛ لِما فيها مِنَ الدَّلالَةِ على القُربِ والإخلاصِ وصِدقِ المُناصَحَةِ، فضلًا عن الإشعارِ بأنَّ حدثًا ذا بالٍ يوجِبُ مناداتَهُ لقَومِه[1]، وفي النِّداءِ كذلك إشعارٌ بعدمِ اهتمامِ مؤمنِ آلِ فرعونَ بمقاطعةِ فرعونَ له، فهو مع قومِهِ قلبًا وقالبًا، يكملُ حديثَهُ معهم غيرَ آبِهٍ بفرعونَ وما قاله.

### فائِدَةُ تَوالي المُؤَكِّداتِ في قَولِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم﴾ والباعِثُ عليها:

للمؤكّداتِ أثَرٌ في مَزيدِ العِنايَةِ بالمَعنى، وبَيانٌ لإشفاقِ المُؤمِنِ على قَومِهِ

تضمَّنَ قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم﴾ مُؤَكِّداتٍ أُسلوبيَّةً؛ لبَيانِ مَدى عنايةِ الرَّجُلِ المُؤمِنِ بقَومِهِ وإشفاقِه عليهم، مِن ذَلِكَ التَّوكيدُ بـ (إنَّ)، وبالجملة الاسميّة، وتعبيرُهُ بصيغَةِ المُضارَعَةِ؛ للدَّلالَةِ على تَجَدُّدِ خَوفِهِ واستِمرارِه، فأكَّدَ كلامَهُ لِما رَأى عِندَهم مِن إنكارِ أمرِه، وخافَ مِنهم أنْ يتَّهِموه[2] بِعَدَمِ المَوضوعيَّةِ والمَيلِ عَن مَصلَحَتِهِم.

### نُكتَةُ تَعدِيَةِ فِعلِ الخَوفِ بـ (على):

استِعلاءُ الخَوفِ وإحاطَتُهُ بِجَوانِحِ الرَّجُلِ المُؤمِنِ إشفاقًا عَلَيهِم

عَدَّى النَّظمُ الحَكيمُ الفِعلَ ﴿أَخَافُ﴾ بِحَرفِ الجَرِّ (على) الدّالِّ على الاستعلاءِ، فكأنَّ الخَوفَ قد غَشيَ الخائفَ نفسَهُ والمَخوفَ عليهِم، وعَلاهُم وأحاطَ بِهِم مِن جَميعِ أقطارِه ونَواحيه. وفيه بَيانٌ لِمَدى إشفاقِهِ عليهم وإحسانِهِ إليهم، ورَحمَتِهِ بِهِم.

### وجهُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿أَخَافُ﴾ دَلالةً وصيغةً:

بيانُ تَجَدُّدِ الخَوفِ واستِمرارِهِ

آثَرَ النَّظمُ الحَكيمُ استِعمالَ الفِعلِ المُضارِعِ ﴿أَخَافُ﴾ للتَّعبيرِ عَن استِشعارِ المُؤمِنِ كَذِبَ فِرعَونَ، ولإفادةِ تَجَدُّدِ خَوفِهِ واستِمرارِه من أن

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 114، وتمّ فيما سبق بيان علّة حذف ياء المتكلّم بما يغني عن تكراره هنا.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 59.

يَتَمادَوا في إرادَةِ قَتلِ موسى عليه السلام وتَكذيبِه، فيَحِلَّ بهم ما حَلَّ بالأُمَمِ السّابقَةِ مِن عَذابٍ ونَكالٍ جَرّاءَ تَكذيبِهم لأنبيائِهم، فالآيَةُ بَيانٌ لِما سَبَقَ في صَدرِ السّورَةِ في قَولِه تعالى في الآيتين: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾ [غافر: 4 - 5].

### نُكتَةُ تَقديمِ شِبهِ الجملة ﴿عَلَيۡكُم﴾:

الاهتمامُ بهم وإظهارُ شَفَقَتِه عليهم في المَقامِ الأوَّلِ

قَدَّمَ النَّظمُ الحَكيمُ شِبهَ الجملة ﴿عَلَيۡكُم﴾ على المَفعولِ ﴿مِّثۡلَ﴾ في قَولِ اللّه تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾؛ للاهتمامِ بهم، ولإبرازِ مَدى شَفَقَتِه عَلَيهِم، ورَحمَتِه بِهِم في المَقامِ الأوَّلِ.

### المُرادُ بالمِثليَّةِ وموقِعُ ﴿مِّثۡلَ﴾ النَّحويُّ:

التَّماثُلُ في صِفَةِ ما نَزَلَ بالأُمَمِ المَذكورَةِ مِن عَذابٍ وعِقاب

المُرادُ بالمِثليَّةِ في جملة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ التَّماثُلُ في صِفَةِ ما نَزَلَ بالأُمَمِ المَذكورَةِ من عَذابٍ وعِقابٍ، بِسَبَبِ تَكذيبِهم وكُفرِهِم بأنبيائِهم وهَمِّهم بالفَتكِ بِهِم وقَتلِهِم.

وذَهَبَ أغلَبُ المُعرِبينَ إلى أنَّ كَلِمَةَ ﴿مِّثۡلَ﴾ مَفعولٌ بِه مَنصوبٌ، وذَهَبَ بَعضُهُم إلى أنَّه نَعتٌ للمَفعولِ؛ أي: أخافُ عَلَيكُم يَومًا مِثلَ أيّامِ الأحزابِ[1]. فحُذِفَ المَوصوفُ الَّذي هو المفعولُ ودَلَّتِ الصِّفَةُ عَلَيهِ، وفي حَذفِهِ إشارَةٌ إلى استِهوالِه وشَناعَةِ ما يَقَعُ بِهِم وعَلَيهِم فيهِ مِن عَذابِ الاستِئصالِ، ولِذَلِكَ لَم يُظهِرهُ؛ لأنَّهُ لا يُريدُ أن يَجريَ على لِسانِهِ يَومٌ يُستَأصَلُ فيه قَومُهُ.

### نُكتَةُ إفرادِ ﴿يَوۡمِ﴾ مَعَ الأحزاب:

أفرَدَ النَّظمُ الحَكيمُ لَفظَ ﴿يَوۡمِ﴾ هَهُنا؛ لأنَّ اليَومَ واحِدُ الأيّامِ

(1) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 24/ 151.

إفرادُ (اليومِ) أروَعُ وأقوى في التَّخويفِ وأفظَعُ للإشارَةِ إلى قوَّةِ الله تعالى

بِمَعنى الوَقائِع، أو كانَ لكُلِّ حِزبٍ يَومٌ، أو جَمعُ الأحزابِ يُغني عَن جَمعِ اليَومِ. وقَد كَثُرَ استِعمالُها بِذَلِكَ حَتّى صارَ حَقيقةً عُرفيَّةً أو بِمَعناها المَعروفِ لُغَةً، والكَلامُ عليه على حَذفِ مُضافٍ؛ أي: مِثلَ حادِثِ يَومِ الأحزابِ.

وأيًّا يكنِ الأمرُ فالظّاهِرُ جَمعُ اليَومِ، لَكِنَّ جَمعَ الأحزابِ مفسَّرٌ بِما بعدَهُ، فأغنى عَن جَمعِهِ، والمَعنى على إرادة الجمعِ، ورُجِّحَ الإفرادُ للخِفَّةِ والاختِصارِ، أو المُرادُ: يَومَ حُزِّبَ حِزبٌ، بِمَعنى أنَّ جَمعَ حِزبٍ مُرادٌ بِهِ شُمولُ أفرادِهِ على طَريقِ البَدَلِ، وهو تَأويلٌ في الثّاني، وما تَقَدَّمَ أظهَرُ[1]، فيَومُ الأحزابِ مُرادٌ بِهِ جِنسُ الأيّامِ لا يَومٌ مُعَيَّنٌ مُحَدَّدٌ، بِقَرينَةِ إضافَتِهِ إلى جَمعِ أزمانُهم مُتَباعِدَةٌ[2].

وذَهَبَ البقاعيُّ إلى أنَّ إفرادَهُ أروَعُ وأقوى في التَّخويفِ وأفظَعُ للإشارَةِ إلى قوَّةِ اللّه تَعالى، وأنَّهُ قادرٌ على إهلاكِهِم في أقلِّ زَمانٍ[3].

## مَعنى (أل) في ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾:

في معرفةِ أخبارِ السّالفينَ تخويفٌ مِن مُلاقاةِ مَصيرِهِم

جاءَت كَلِمَةُ ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ في جملة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ مُعَرَّفَةً باللّام، والمُرادُ باللّامِ هَهُنا العَهدُ الذِّكريُّ للفظَةِ ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ في قَولِ اللّهِ تَبارَكَتْ آلاؤُهُ في أوَّلِ السّورَةِ: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ [غافر: 5]. وقَد تَكونُ للعَهدِ الذِّهنيِّ؛ أي: الأحزابِ مِنَ الأُمَمِ الَّتي خَلَت مِن قَبلِهِم، وقَد عَرَفوا مِن أخبارِهِم ما يُخَوِّفُهُم مِن مُلاقاةِ مَصيرِهِم، وهَذا يَقتَضي أنَّ القِبطَ كانوا على عِلمٍ بِما حَلَّ بِقَومِ نوحٍ وعادٍ وثَمودَ، فأمّا قَومُ نوحٍ فكانَ طوفانُهم مَشهورًا، وأمّا عادٌ وثَمودُ فلِقُربِ بِلادِهِم من البِلادِ المِصريَّةِ، وكانَ يومُهُم عَظيمًا لا يَخفى على مُجاوِريهِم[4].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 319.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 133.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 59.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 135.

الجَزاءُ مِن جِنسِ العَمَلِ، والعاقِلُ مَن اعتَبَر

**المَوقِعُ النَّحويُّ لقَولِه: ﴿مِثْلَ دَأْبِ﴾ الآية:**

ذَهَبَ المُعرِبونَ إلى أنَّ كَلِمَةَ ﴿مِّثْلَ﴾ في جملة ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾ فيها وجهانِ؛ **الأوَّلُ**: أنَّها بَدَلٌ مِن ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ في الآيَةِ المُتَقَدِّمَةِ مَنصوبَةٌ مثلها، **والآخَرُ**: أنَّها عَطفُ بَيانٍ؛ قالوا: أي: مِثلَ جَزاءِ عادَةِ مَن كفَرَ قَبلَكُم مِن تَعذيبِهِم في الدُّنيا. فهُنا مُضافٌ مُقَدَّرٌ مَحذوفٌ[1]. قالَ الطّاهِرُ ابن عاشورٍ: "انتَصَبَ ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ على عَطفِ البَيانِ مِن (مَثَلَ يَومِ الأحزابِ)، ولَمّا كانَ بَيانًا لَهُ كانَ ما يُضافانِ إلَيهِ مُتَّحِدًا لا مَحالَةَ، فصارَ الأحزابُ والدَّأبُ بمعنًى واحِدٍ، وإنَّما يَتِمُّ ذَلِكَ بِتَقديرِ مُضافٍ مُتَّحِدٍ فيهِما، فالتَّقديرُ: مِثلَ يَومِ جَزاءِ الأحزابِ؛ مِثلَ يَومِ جَزاءِ دأبِ قَومِ نوحٍ وعادٍ وثَمودَ؛ أي: جَزاءِ عَمَلِهِم، ودَأْبُهُمُ الَّذي اشتَرَكوا فيهِ هو الإشراكُ باللّه[2].

الاستِمرارُ في التَّكذيبِ والعِنادِ ورَدِّ البَيِّناتِ سَبَبُ الهَلاكِ والاستِئصالِ

**دَلالَةُ التَّعبيرِ بالدَّأبِ ونَوعُ الإضافَةِ فيه:**

في قوله سبحانه: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أضافَ النَّظمُ الحَكيمُ لفظَ ﴿دَأْبِ﴾ إلى ﴿قَوْمِ﴾ إضافَةً مَحضَةً؛ فاكتَسَبَتِ التَّعريفَ بما أوضَحَ المُرادَ بها، ولَم يَقُل: (مِثلَ يومِ قومِ نوحٍ) أو (مِثلَ قومِ نوحٍ)، وعَبَّرَ بالدَّأبِ لأنَّ الدَّأبَ هوَ العادَةُ والشَّأنُ، والاستمرارُ في إتيانِ الشَّيءِ بِجِدٍّ لدَفعِ يَمنَعُ الفُتورَ، وهو هَهُنا اجتِهادُهُم في كُفرِهِم وتَظاهُرِهِم على أنبيائِهِم[3]، فهي عادَتُهم ودَيدَنُهم في الكُفرِ والمَعاصي[4] وتَكذيبِ الأنبياءِ.

وفيها إشارَةٌ إلى أنَّ الهَلاكَ لَم يَكُن مُسَبَّبًا عَنِ الأقوام، وإنَّما هوَ مُسَبَّبٌ عَمّا ألِفوهُ مِن رَدِّ البَيِّناتِ، وأنَّ هَذا الرَّدَّ كانَ لَهُم دَأبًا ودَيدَنًا

---

(1) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 24/ 152.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 135.

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (دأب).

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 255.

وعادَةً. وإنَّ في هَذا إشارَةً خَفيَّةً إلى قَولِه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾؛ لأنَّهُ رَجَعَ إلى قَولِه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ ولَم يَتَزَحزَح عَنهُ، وبِذَلِكَ يَصيرُ رَدُّكم لِلَّذي جاءَ بالبَيِّناتِ مِن رَبِّكُم وهَمُّكُم بِهِ لِتَقتُلوهُ قَريبًا مِنَ الدَّأبِ إن لَم يَكُن دَأبًا وديدَنًا؛ لأنَّ فِرعَونَ اللَّعينَ أصَرَّ على ما أرادَ.

ثُمَّ إنَّ هَذا وإن كانَ يَدُلُّ مِن وجهٍ على عِلمِ هَذا الرَّجُلِ المُؤمِنِ بالتّاريخِ القَديمِ وأحوالِ الأُمَمِ، ومَصارِعِ مَن حادّوا اللهَ ورَسولَهُ - يَعني: العِلمَ بِسُنَّةِ اللهِ في خَلقِهِ وتاريخِ الأنبياءِ، وأنَّهُ دالٌّ على طولِ مُلازَمَتِهِ لموسى عليه السلام - فإنَّهُ دالٌّ مِن وجهٍ آخَرَ على أنَّ قَومَهُ على مِثلِ هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ العِلمِ بالتّاريخِ القَديمِ وأحوالِ الأُمَمِ البائِدَةِ؛ لأنَّهُ ما كانَ لَهُ أن يُخَوِّفَهُم إلّا مِن شَيءٍ يَعلَمونَهُ[1].

### نُكتَةُ ذِكرِ ﴿قَوۡمِ﴾ مَعَ ﴿نُوحٖ﴾ دونَ البَقيَّةِ:

تَـقَـدُّمُ الـذِّكـرِ أغنى عنِ الإعادَةِ وأجـزَأَ عَـنِ الإطنابِ

في عِبارَةِ ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ ذَكَرَ النَّظمُ الحَكيمُ كَلِمَةَ ﴿قَوۡمِ﴾ مَعَ نَوحٍ دَونَ بَقيَّةِ الأُمَمِ المَذكورَةِ، وذَلِكَ لأنَّهُ لَمّا ذُكِرَتْ مَعَ نوحٍ أغنى ذَلِكَ عَن إعادَتِها مَعَ ما عُطِفَ عَلَيهِ، ففُهِمَ مِنَ السّياقِ أنَّ المُرادَ: قَومُ نوحٍ وقَومُ عادٍ وقَومُ ثَمودَ. وهو أسلوبٌ تَكَرَّرَ في القرآنِ الكريمِ في أكثَرَ مِن موضِعٍ، مثل [التوبة: 70]، و[إبراهيم: 9]، و[الحج: 42]، و[ص: 12 - 13]؛ جَريًا على قاعِدَةِ الإيجازِ.

ولَعَلَّ ذَلِكَ يَرجِعُ إلى أنَّ هاتَينِ القَبيلَتَينِ كانَتا خالِصَتَينِ لِعادٍ وثَمودَ، فلَم يَدخُلْ فيهِما أحَدٌ سِواهُما.

ويُلاحَظُ أنَّ النَّظمَ القُرآنيَّ إذا أرادَ التَّفصيلَ والبَيانَ ذَكَرَ نِسبَتَهُم إلى نَبيِّهِم بلَفظِ القَومِ، كَما في قَولِه تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هود: 89].

---

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 118 - 119.

ثُمَّ يُلاحَظُ أنَّ الرَّجُلَ الصّالِحَ غَيَّرَ مُغايَرَةً خَفيفَةً بَينَ ذِكرِ قَومِ نوحٍ وذِكرِ عادٍ وثَمودَ والَّذينَ مِن بَعدِهِم؛ لأنَّهُ لَم يَقُل: (مِثل دَأبِ قَومِ نوحٍ وهودٍ وصالِحٍ)، وإنَّما ذَكَرَ الأقوامَ وتَرَكَ ذِكرَ الأنبياءِ بَعدَ نوحٍ عليه السلام. ووَجهُ ذَلِكَ أنَّ نوحًا عليه السلام كانَ في بَدءِ الخَليقَةِ ولَم تَكُن هُناكَ قَبائِلُ قَد اتَّسَعَت وصارَت أُمَمًا وبُعِثَ فيها أنبياءُ، فلَم يَكُن لِقَومِ نوحٍ جَدٌّ يُعرَفونَ بِهِ بَينَ غَيرِهِم كَما هوَ الحالُ في عادٍ وثَمودَ والَّذينَ مِن بَعدِهِم[1].

### دَلالَةُ التَّرتيبِ بَينَ الأقوامِ المَذكورين:

كُلُّ النّاسِ الَّذينَ على الأرضِ بَعدَ الطّوفانِ هُم ذُرِّيَّةُ مَن حُمِلوا مَعَ نوحٍ

في قوله تعالى: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾ رَتَّبَ النَّظمُ الحَكيمُ ذِكرَ الأقوامِ الَّذينَ خَوَّفَ الرَّجُلُ المُؤمِنُ قَومَهُ مِن مُلاقاةِ مَصيرِهِم، مُبتَدِئًا بِذِكرِ قَومِ نوحٍ عليه السلام، الَّذينَ أُغرِقوا بِخَطيئاتِهِم، وكَأنَّ فيهِ تَلويحًا بإغراقِ فِرعَونَ وقَومِه، ثُمَّ ذَكَرَ عادًا ويَومَهُم لَمّا قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت: 15]، فأرسَلَ اللهُ عَلَيهِم ريحًا صَرصَرًا في أيّامٍ نَحِساتٍ، ثُمَّ ذَكَرَ ثَمودَ وقَد أُهلِكوا بالطّاغيَةِ، ثُمَّ اختَصَرَ وقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾؛ مِثلِ قَومِ لوطٍ الَّذينَ أرسَلَ اللهُ عَلَيهِم حاصِبًا وأصحابِ الأيكَةِ وغَيرِهِم.

والقُرآنُ الكَريمُ يَبدَأُ ذِكرَ الأنبياءِ بِنوحٍ عليه السلام، ويَقولُ العُلَماءُ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: 7]: إنَّهُ سُبحانَهُ لَمّا قالَ: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: 7] ذَكَرَ أوَّلَ الأنبياءِ وآخِرَهُم.

ولا بُدَّ أن يَكونَ هُناكَ زَمَنٌ مُتَطاوِلٌ بَينَ نوحٍ وهودٍ عليهما السلام، ولَم يَذكُرِ القُرآنُ نَبِيًّا بَينَهُما، وكانَ كُلُّ النّاسِ الَّذينَ على الأرضِ بَعدَ الطّوفانِ هُم ذُرِّيَّةَ ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ﴾ [الإسراء: 3]، وهَذِهِ الذُّرِّيَّةُ تَكاثَرَت، حَتّى صارَ وَلَدُ عادٍ - وهوَ واحِدٌ مِن أحفادِ نوحٍ عليه السلام - أُمَّةً وحدَهُم، ومِثلُ

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 118 - 119.

هذا يقالُ في ثَمودَ إلى آخِرِه، وكُلُّ هَذا مُتَضَمَّنٌ في عُدولِ هَذا الرَّجُلِ المُؤمِنِ عَن ذِكرِ الأنبياءِ[1].

### مَعنى الواوِ في قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾:

شُمولُ العُقوبَةِ للأبعَدِ والأقرَبِ على حَدٍّ سَواءٍ

في قَولِ اللّه تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ عَطَفَ النَّظمُ الحَكيمُ ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ على (ثَمودَ)، فخَصَّصَ بَعضَ الأقوامِ بالذِّكرِ دونَ بَعضٍ، بِقَصدِ تَذكيرِ آلِ فرعونَ بِما أصابَ أولَئِكَ المَعدودينَ مَعَ قُربِ غَيرِهِم إلَيهِم؛ للإشارَةِ إلى أنَّ إهلاكَ اللّه تعالى للظّالِمينَ ونَصرَهُ المُؤمِنين سُنَّةٌ ماضيَةٌ. وعَطَفَ البَيانُ القُرآنيُّ ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ بالواوِ؛ لتشمَلَ المماثلةُ عُقوبَةَ الأقرَبِ والأبعَدِ على نَحوٍ سَواءٍ.

### نُكتَةُ التَّعبيرِ بالاسمِ المَوصولِ وصِلَتِهِ:

الأقوامُ الَّذين جاؤوا مِن بَعدِهِمْ اشتُهروا بالصِّفَةِ نَفسِها، وهيَ التَّكذيبُ والكُفرُ

عَبَّرَ النَّظمُ الحَكيمُ بالاسمِ المَوصولِ في قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾؛ للدَّلالَةِ على أنَّ مَن جاؤوا بَعدَ هَؤلاءِ الأقوامِ كانوا مَشهورينَ بالصِّفَةِ نَفسِها الَّتي بها استَحَقَّ هَؤُلاءِ ما حَلَّ بِهِم مِنَ العَذابِ، فشَمِلَهُمُ التَّذكيرُ والتَّخَوُّفُ نَفسُه، فاكتَفى بِهِم وأجمَلَ مَن بَعدَهُم، فعَبَّرَ بالاسمِ المَوصولِ[2] إشارَةً إلى أنَّ الَّذينَ مِن بَعدِهِم كانوا مِنَ الكَثرَةِ بِحَيثُ لا يَتَّسِعُ المَقامُ لذِكرِهِم كُلِّهِم، لكنَّهم اشتركوا مع المذكورين بالكفرِ والتَّكذيبِ، فأجمَلَهُم؛ لمَعرِفَةِ القَومِ بِهِم لقُربِ عَهدِهِم، وكانَ مصيرُهُم كلِّهم واحدًا.

### فائِدَةُ جرِّ الظَّرف بِـ﴿مِنۢ﴾ في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾:

الإشارَةُ إلى هلاكِهِم بالعذابِ كسابِقيهِم

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ جُرَّ الظَّرفُ بـ﴿مِنۢ﴾ الدّالَّةِ على ابتداءِ الغايةِ؛ للدَّلالةِ على قُربِ عَهْدِهم بهم، وبذلك يشيرُ النَّظمُ الحَكيمُ إلى تخصيصِ هلاكِهم بالعَذابِ؛ لئَلّا يُقالَ:

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 118 - 119.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 60.

هَذِهِ عادَةُ الدَّهرِ، فقالَ: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾؛ أي: بالقُربِ مِن زَمانِهم، لا جَميعِ مَن جاؤوا بَعدَهم[1].

### مَعنى الواوِ في قَولِه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ﴾:

الله سُبحانَهُ لَم يَظلِمِ الهالكين، وعقابُهم بما اكتسبَتْهُ أيديهم

جاءَ قَولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ فاصِلَةً في خِتامِ الآيَةِ على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ، فوَصَلَ بَينَها وبَينَ بَقيَّةِ الآيَةِ بالواوِ، وهيَ هَهُنا اعتِراضيَّةٌ، فهيَ اعتِراضٌ بَينَ كَلامَيهِ المُتَعاطِفَين، والمُرادُ: أخافُ عَلَيكم جَزاءً عادِلًا مِنَ اللّه وهو جَزاءُ الإشراكِ[2].

وفائدةُ الاعتِراضِ بالواوِ وما بعدَها: بيانُ أنَّ هَلاكَ هَذِهِ الأُمَمِ الكَثيرَةِ ذاتِ العَدَدِ والشِّدَّةِ والقوَّةِ والثَّراءِ - كَما وصَفَت آياتُ القُرآنِ، وكَما كانَ يَعلَمُ الرَّجُلُ الَّذي آمَنَ، وكَما يَعلَمُ قَومُهُ الَّذينَ يُخاطِبُهُم بِما يَعلَمونَ - يَحتاجُ إلى بَيانِ أنَّ اللّه سُبحانَهُ لَم يَظلِمهُم، وأنَّهُم الظّالِمونَ لأنفُسِهِم، كَما قالَ تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ [هود: 101]، فبَعدَ التَّخويفِ من سوءِ المَصيرِ يأتي بَيانُ طَلاقَةِ العَدالَةِ الإلَهيَّةِ؛ لئَلّا يَمتَري مُمتَرٍ فيَظُنَّ أنَّ جَزاءَهُم فوقَ جُرمِهِم، فأتى النَّظمُ القُرآنيُّ بهذا البَيانِ الشّافي؛ ليُثبِتَ أنّ صنيعَهُ سُبحانَهُ بِهَؤُلاءِ الأحزابِ لَم يَكُن ظُلمًا، بَل كانَ عَدلًا وقِسطًا؛ لأنَّهُ ﷻ أرسَلَ إلَيهِم رُسُلَهم بالبَيِّناتِ فكَذَّبوهم وتَحَزَّبوا عَلَيهِم، فاقتَضى ذَلكَ إهلاكَهم[3].

### غَرَضُ الافتتاحِ بالنَّفي متبوعًا بالإرادة ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ﴾:

نَفيُ إرادَةِ الظُّلمِ أبلَغُ مِن نَفيِ الظُّلمِ، والتَّقديمُ لإفادَةِ الاختِصاصِ

في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ تَقَدَّمَ النَّفيُ على المُسنَدِ والمُسنَدِ إليهِ، ولَم يَدخُل على الظُّلمِ، بل على إرادَةِ الظُّلمِ؛ لأنَّ نَفيَ إرادَةِ الظُّلمِ أبلَغُ مِن نَفيِ الظُّلمِ، وهَذا مَعناهُ تَفظيعُ وتَشنيعُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 60.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 135.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 320.

ما ارتَكَبَتهُ هَذِهِ الأُمَمُ، وأنَّ جَزاءَهُم هو الجَزاءُ العادِلُ دونَ حَيفٍ أو تَرَبُّصٍ.

والتَّقديمُ لإفادَةِ الاختِصاصِ قَطعًا، فالنَّفيُ مَقصورٌ على المَذكورِ دونَ غَيرِه[1]، فتَقديمُ اسمِ اللّه على الخَبَرِ الفِعليِّ لإفادَةِ قَصرِ مَدلولِ المُسنَدِ على المُسنَدِ إلَيه، وإذ كانَ المُسنَدُ واقِعًا في سياقِ النَّفيِ كانَ المَعنى قَصرَ نَفيِ إرادَةِ الظُّلمِ على اللّه تَعالى قَصرَ قَلبٍ؛ أي: إنَّ اللّه لا يُريدُ ظُلمًا للعِبادِ بَل غَيرُهُ يُريدونَهُ لَهم، وهم قادَةُ الشِّركِ وأئمَّتُهُ؛ إذ يَدعونَهم إلَيه ويَزعُمونَ أنَّ اللّه أمَرَهم بِه[2]. فهَلاكُ هَذِهِ الأُمَمِ إنَّما وقَعَ بِهِم؛ لأنَّهُم رَدّوا مَقالَةَ مَن جاءَ بالبَيِّناتِ، فكَيفَ بالمُصِرِّ على قَتلِ مَن لا ذَنبَ لَهُ إلّا أنَّهُ قالَ: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾؟ ففيهِ دَلالَةٌ واضِحَةٌ على تَعنيفِهِم ولَومِهِم، ولَم يَكُن عِقابُهُم مِن جِهَةِ أنَّ اللّه يُريدُ ظُلمَهُم أو ظُلمَ أحَدٍ مِنَ العِبادِ، وإنَّما هوَ مِن جُرمِ أخطائِهِم وبَشاعَةِ سُلوكِهِم، ولَيسَ في البَشاعَةِ أبشَعُ مِن رَدِّ الدَّليلِ البَيِّنِ والبُرهانِ المُستَقيمِ[3].

### دَلالَةُ إيثارِ اسمِ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

**التَّعبيرُ بالاسمِ الأعظَمِ في مَقامِ نَفـيِ الظُّـلـمِ إشعـارٌ بكَمالِ التَّنَزُّهِ**

في جملة ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ آثَرَ النَّظمُ الحَكيمُ التَّعبيرَ باسمِ الجَلالَةِ الأعظَمِ الجامِعِ لكُلِّ صِفاتِهِ الجَليلَةِ؛ أي: الَّذي لَهُ الإحاطَةُ بأوصافِ الكَمالِ[4]؛ إشعارًا بِعِلَّةِ الحُكمِ وبَيانًا لكَمالِ تَنَزُّهِهِ عَنِ الظُّلمِ بما لا مَزيدَ عَلَيه؛ أي: ما يُريدُ صورَةً مِن صوَرِ الظُّلمِ لفَردٍ مِنَ العِبادِ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ فضلًا عَن أن يَظلِمَهُم؛ وكَيفَ يَظلِمُهُم وهو تَعالى لا يُحِبُّ الظّالِمينَ ولا يَهديهِم؟ كَما قالَ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾ [آلِ عِمران: 57]، وقال أيضًا: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦﴾ [آلِ عِمران: 86]، بَل يَدعو عَلَيهِم كَما في قَولِه: ﴿فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١﴾ [المؤمنون: 41].

---

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 121 - 122.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 135.

(3) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 121 - 122.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 60.

ولّما كانت قضيَّةُ الظُّلم أخطرَ قضيَّةٍ في سياقِ كَلام مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ كانَ مِنَ المُناسِبِ أن يَكونَ التَّعبيرُ بالاسمِ الأعظَمِ؛ دَفعًا لأيِّ وهمٍ في الفِكْرِ أو شَطَطٍ في التَّصوُّرِ.

**دَلالَةُ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ ﴿يُرِيدُ﴾:**

تَجَدُّدُ نَفيِ الظُّلمِ عَن رَبِّ العِزَّةِ

عَبَّرَ النَّظمُ الحَكيمُ في جملة ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ بِصيغَةِ المُضارَعَةِ ﴿يُرِيدُ﴾؛ للدَّلالَةِ على تَجَدُّدِ النَّفيِ واستِمرارِهِ، فيَتَجَدَّدُ مِنهُ نفيُ أن يُعَلِّقَ إرادَتَهُ وقتًا ما بِنَوعٍ من أنواعِ الظُّلم[1].

**نُكتَةُ تَنكيرِ ﴿ظُلۡمٗا﴾:**

تَنْزيهُ الإرادةِ الإلَهيَّةِ عَن تعلُّقِها بأدنى جنسٍ للظُّلم

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿ظُلۡمٗا﴾ نَكِرَةً مَسبوقةً بالنَّفيِ لإفادَةِ العُمومِ؛ أي: لا يُريدُ تعالى أيَّ نَوعٍ مِنَ الظُّلمِ ولو بمقدارِ ذَرَّة، إذ هوَ تعالى مُنَزَّهٌ عَنِ الظُّلم، فدَلَّ سياقُ النَّفيِ على انتِفاءِ جِنسِ الظُّلمِ كلِّه عَن أن تَتَعَلَّقَ بِهِ إرادَةُ اللهِ تَعالى، فكُلُّ ما يُعَدُّ ظُلمًا في مَجالِ العُقولِ السَّليمَةِ يَنتفي أن يَكونَ مُرادَ اللهِ تعالى.

**الجَمعُ بَينَ المُشتَرَكِ في مَعنَيَيهِ في ﴿ظُلۡمٗا﴾:**

حرّمَ الله تَعالى الظُّلمَ على نفسِه، ولا يُحِبُّ صُدورَهُ مِن عبادِه

الظُّلمُ يُطلَقُ على الشِّرك، كَما في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، ويُطلَقُ على المُعامَلَةِ بِغَيرِ الحَقِّ، وقَد جَمَعَ قَولُهُ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ نَفيَ الظُّلمِ بِمَعنَيَيهِ على طَريقَةِ استِعمالِ المُشتَرَكِ في مَعنَيَيه.

وكَذَلِكَ الفِعلُ ﴿يُرِيدُ﴾ يُطلَقُ بِمَعنى المَشيئَةِ كَقَولِه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾ [المائدة: 6]، ويُطلَقُ بِمَعنى المَحَبَّةِ كَقَولِه: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ [الذّاريات: 57]، فلَمّا وقَعَ فِعلُ الإرادَةِ في حَيِّزِ النَّفيِ اقتَضى عُمومَ نَفيِ الإرادَةِ بِمَعنَيَيها على طَريقَةِ استِعمالِ المُشتَرَكِ في مَعنَيَيه، فاللهُ تَعالى لا يُحِبُّ صُدورَ ظُلمٍ مِن عِبادِه، ولا يَشاءُ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 60.

أن يَظلِمَ عِبادَهُ. وأوَّلُ المَعْنَيَين في الإرادَةِ وفي الظُّلم أعلَقُ بِمَقام الإنذارِ، والمعنى الثّاني تابعٌ للأوَّلِ؛ لأنَّهُ يَدُلُّ على أنَّ اللّه تَعالى لا يَترُكُ عِقابَ أهلِ الشِّركِ؛ لأنَّهُ عَدلٌ، ولأنَّ التَّوَعُّدَ بالعِقابِ على الشِّركِ والظُّلم أقوى الأسبابِ في إقلاعِ النّاسِ عَنهُ، وصِدقُ الوَعيدِ مِن مُتَمِّماتِ ذَلِكَ مَعَ كَونِهِ مُقتَضى الحِكمَةِ لإقامَةِ العَدلِ. هذا على المَعنى الأوَّلِ للظُّلم. وأمّا على المَعنى الثّاني فالمرادُ: ما اللّه يُريدُ أن يَظلِمَ عِبادَهُ، ولَكِنَّهم يَظلِمونَ أنفُسَهم باتِّباعِ أئِمَّتِهم على غيرِ بَصيرَةٍ كَقَولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤﴾ [يونس: 44]، وبِظُلمِهم دُعاتَهم وأئمَّتَهم كَما قالَ تَعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١﴾ [هود: 101][1].

### مَعنى اللّامِ الجارَّةِ في ﴿لِّلۡعِبَادِ﴾:

جاءَتِ اللّامُ في قَولِهِ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ للاختِصاصِ؛ أي: لا تَتَعَلَّقُ الإرادَةُ الإلَهيّةُ المُنَزَّهَةُ بأيِّ ظُلمٍ لأيِّ عَبدٍ مِن عِبادِ اللّهِ تعالى.

### مَعنى (أل) في (العِبادِ):

عَرَّفَ النَّظمُ الحَكيمُ لفظَ (العِبادِ) باللّامِ في قَولِهِ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾، وهي هَهُنا جِنسيَّةٌ لإفادَةِ كَمالِ التَّنزيهِ؛ أي: جِنسِ العِبادِ كُلِّهم، فهيَ أبلَغُ في نَفيِ تَعَلُّقِ الإرادَةِ الإلَهيَّةِ بِظُلمِ أيِّ عَبدٍ مِن عِبادِ اللّهِ تعالى.

(أل) هَهُنا جِنسيَّةٌ لإفادَةِ كَمالِ التَّنزيهِ

### بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

يَدُلُّ التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة عادةً على دَوامِ الثُّبوتِ، وعِندَ دُخولِ حَرفِ النَّفيِ عَلَيها كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ تَدُلُّ على دَوامِ الانتِفاءِ لا على انتِفاءِ الدَّوامِ، فعدمُ إرادةِ اللّهِ الظُّلمَ لعبادِهِ دائمٌ.

المُكَذِّبون لموسى عليه السلام هُمُ الظّالِمون؛ ظَلَموا أنفُسَهُم بِتَعريضِها للعَذابِ الخالِدِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 136.

وسياقُ الجملة القُرآنيَّةِ وسَبكُهُ على النَّحوِ المَذكورِ فيهِ نَوعُ إيماءٍ إلى التَّعريضِ بأنَّ المُكَذِّبينَ لموسى ﵇ هُمُ الظّالِمونَ؛ لأنَّهم ظَلَموا أنفُسَهُم بِتَعريضِها للعَذابِ الخالِدِ، كَما في قَولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤﴾ [يونُس: 44].

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾

[غافر: 32 - 33]

## مُناسَبةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بَعدَ التَّخويفِ بالاستِئصالِ وذَهابِ الدَّولَةِ والمُلكِ جاءَ التَّرهيبُ بيومِ الحَشرِ وأهوالِهِ

أشرَقَ مِن آفاقِ هذا الوَعظِ شَمسُ البَعثِ ونورُ الحَشرِ؛ لأنَّهُ لا يَسوغُ أصلًا أنَّ مَلِكًا يَدَعُ عَبيدَهُ يَبغي بَعضُهم على بَعضٍ مِن غَيرِ إنصافٍ بَينَهم، ونَحنُ نَرى أكثَرَ الخَلقِ يَموتُ مَقهورًا مِن ظالِمِه، ومَكسورًا مَن حاكِمِه، فعُلِمَ قَطعًا أنَّ المَوتَ الَّذي لَم يَقدِرْ ولَن يَقدِرَ أحَدٌ أصلًا أن يَسلَمَ مِنهُ، إنَّما هو سَوقٌ إلى دارِ العَرضِ وساحَةِ الجَزاءِ، كَما جَرَت بِهِ عادَةُ المُلوكِ إذا وكَّلوا بِمَن يَأمُرونَ بإحضارِهِ إلَيهِم لعَرضِه عَلَيهِم لِيَظهَرَ التَّجَلّي في صِفاتِ الجَبَروتِ والعَدلِ، ومَظاهِرِ الكَرَمِ والفَضلِ. ولَمّا كانَ قَد سَمّاهُ فيما مَضى بالتَّلاقي والآزِفَةِ بيَّنَ هُنا أنَّ الخَلقَ فيهِ وجِلونَ خائِفونَ، وأنَّهم لكَثرَةِ الجَمعِ يُنادونَ ويُنادَونَ للرِّفعَةِ أوِ الضَّعَةِ وغَيرِ ذَلِكَ مِنَ الأُمورِ المُتَنَوِّعَةِ الَّتي مَجموعُها يَدُلُّ على ظُهورِ الجَبَروتِ وذُلِّ الخَلقِ؛ لِما يَظهَرُ لَهم مِنَ الكِبرياءِ والعَظَمةِ، فَسَمّاهُ هَهُنا يَومَ التَّنادي، اليَومَ الَّذي يُذَلُّ فيهِ العُصاةُ العُتاةُ، ويُعَزُّ المُنكَسِرَةُ قُلوبُهم مِن أجلِ اللهِ تَعالى[1]، فأعقَبَ تَخويفَهم بِعِقابِ الدُّنيا الَّذي حَلَّ مِثلُهُ بِقَومِ نوحٍ وعادٍ وثَمودَ والَّذينَ مِن بَعدِهم بأن خَوَّفَهم وأنذَرَهم عَذابَ الآخِرَةِ عاطِفًا جُملَتَهُ على جملةِ عَذابِ الدُّنيا[2].

## شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ٱلتَّنَادِ﴾: (ندي) يَدُلُّ على تَجَمُّعٍ، ومنه النّادي والنَّديُّ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 61 - 62 (بتصرف).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 136.

المَجلِسُ يَندو القَومُ حَوالَيه، ومِنهُ دارُ النَّدوَةِ بِمَكَّةَ؛ لأَنَّهُم كانوا يَندونَ فيها؛ أي: يَجتَمِعونَ[1]. والتَّنادي: مَصدَرُ تَنادى القَومُ؛ أي: نادى بَعضُهم بَعضًا[2]. ويَومُ التَّنادِ هوَ يَومُ الحِسابِ والحَشرِ، سُمّيَ بذلك لأنَّ الخَلقَ يجتمعون ويَتَنادونَ يَومَئِذٍ: فمِن مُستَشفِعٍ، ومِن مُتَضَرِّعٍ، ومِن مُسلِمٍ ومُهَنِّئٍ، ومِن مُوبِّخٍ، ومِن مُعتَذِرٍ، ومِن آمِرٍ، ومِن مُعلِنٍ بالطّاعَةِ[3].

2) ﴿تُوَلُّونَ﴾: ولّى الشَّيءُ وتَوَلّى: أدبَرَ، ووَلّى عَنهُ: أعرَضَ عَنهُ أو نَأى، وانصَرَفَ، وذَهَبَ هارِبًا ومُدبِرًا، وتَوَلّى عَنهُ إذا أعرَضَ، والتَّوَلّي يَكونُ بِمَعنى الإعراضِ ويَكونُ بِمَعنى الاتِّباعِ، قالَ اللّه تَعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ [محمد: 38]؛ أي: إن تُعرِضوا عَنِ الإسلام. ثُمَّ تُعَيَّنُ الجِهَةُ بالحَرفِ كَ (وَلّى إلَيهِ) بِمَعنى الإقبالِ والاتِّجاهِ إلى الشَّيءِ[4]. وكُلٌّ مِن (تَوَلّى عَن)، و(تَوَلَّ عَن) و(وَلّى) هو بِمَعنى الانصِرافِ إعراضًا وإدبارًا، والحالُ تُبَيِّنُ ذَلِكَ غالِبًا نَحوَ: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾ [النّمل: 10][5]، وقَد يَكونُ الإعراضُ بالجِسمِ، وقَد يَكونُ بِتَركِ الإصغاءِ والائتِمارِ، ووَلّاهُ دُبُرَهُ إذا انهَزَمَ[6].

3) ﴿مُدۡبِرِينَ﴾: (دبر) أصلٌ يدلُّ على آخِرِ الشَّيءِ، ودَبَرَ النَّهارُ وأدبَرَ، وذَلِكَ إذا جاءَ آخِرُهُ، وهوَ دُبُرُهُ. والتَّدبيرُ: أن يُدَبِّرَ الإنسانُ أمرَهُ، وذَلِكَ أنَّهُ يَنظُرُ إلى ما تَصيرُ عاقِبَتُهُ وآخِرُهُ، وهوَ دُبُرُهُ[7]. والإدبارُ: أن يَرجِعَ مِنَ الطَّريقِ الَّتي وراءَهُ؛ أي: مِن حَيثُ أتى هَرَبًا مِنَ الجِهَةِ الَّتي ورَدَ إلَيها؛ لأَنَّهُ وجَدَ فيها ما يَكرَهُ؛ أي: يَومَ تَفِرّونَ مِن هَولِ ما تَجِدونَهُ[8].

4) ﴿عَاصِمٖۗ﴾: (عصم) أصلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على إمساكٍ ومَنعٍ ومُلازَمَةٍ. والمَعنى في ذَلِكَ كُلِّهِ واحِدٌ. مِن ذَلِكَ العِصمَةُ: أن يَعصِمَ اللّه تعالى عَبدَهُ مِن سوءٍ يَقَعُ فيهِ، واعتَصَمَ العَبدُ باللّه تعالى إذا امتَنَعَ. واستَعصَمَ: التَجأ،[9]. والاعتِصامُ: التَّمَسُّكُ بالشَّيءِ، قالَ تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا﴾ [آل عمران: 103]، وعِصمَةُ الأنبياءِ: حِفظُهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (ندي).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 320.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 136.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ولي).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (ولي).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دبر).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 137.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عصم).

تعالى إيّاهُم بما خَصَّهُم بِهِ مِن صَفاءِ الجَوهَرِ، ثُمَّ بما أولاهُم مِنَ الفَضائِلِ الجِسميَّة، ثُمَّ بالنُّصرَةِ وبتَثبيتِ أقدامِهِم، ثُمَّ بإنزالِ السَّكينَةِ عَلَيهِم وبِحِفظِ قُلوبِهِم وبالتَّوفيقِ[1]. ومعنى ﴿عَاصِمٍۗ﴾ في الآية: الحافظُ والمانعُ مِن عقابِ اللّه.

### ❁ المَعنى الإجْماليُّ:

واصَلَ الرَّجُلُ المُؤمِنُ تَذكيرَ قَومِه بأهوالِ يَومِ القيامَةِ بَعدَ أن خَوَّفَهُم سوءَ المَصيرِ بالاستِئصالِ في العاجِلَة، فقال: أخافُ عَلَيكُم يَومَ القيامَةِ الَّذي يَكثُرُ فيه نداءُ أهلِ الجَنَّةِ لأهلِ النّارِ، ونِداءُ أهلِ النّارِ لأهلِ الجَنَّةِ، ونِداءُ المَلائِكَةِ لأهلِ السَّعادَةِ وأهلِ الشَّقاوَةِ؛ أي: أخافُ عَلَيكُم مِن أهوالِ يَومِ القيامَةِ، يَومَ تَنصَرِفونَ عَن مَوقِفِ الحِسابِ والجَزاءِ فتَتَلَقّاكُمُ النّارُ بِلَهيبِها وسَعيرِها، وتُحاوِلونَ الهَرَبَ مِنها فلا تَستَطيعونَ؛ لأنَّهُ لا عاصِمَ لَكُم ولا مانِعَ في هَذا اليَومِ مِن عَذابِ اللّه تَعالى وعِقابِه.

**بَعدَ التَّخويفِ بالعَذابِ الدُّنيَويِّ جاءَ التَّخويفُ مِن هَولِ العَذابِ الأُخرَويِّ**

ثُمَّ ذَكَّرَهُم بِحَقيقَةٍ خالِدَةٍ لا يُجادِلُ فيها مُجادِلٌ، وهيَ: مَن يُضلِلْهُ اللّه تَعالى عَن طَريقِ الحَقِّ بِسَبَبِ سوءِ استِعدادِه، واستِحبابِهِ العَمى على الهُدى فما لَهُ مِن هادٍ يَهديهِ إلى الصِّراطِ المُستَقيم. وهَكَذا نَجِدُ الرَّجُلَ المُؤمِنَ بَعدَ أن خَوَّفَ قَومَهُ مِنَ العَذابِ الدُّنيَويِّ أتبَعَ ذَلِكَ بِتَخويفِهِم مِنَ العَذابِ الأُخرَويِّ[2].

### ❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

**بلاغةُ الوصلِ بالواوِ في ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾:**

وَصَلَ النَّظمُ الحَكيمُ قَولَ اللّه تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ بالآيَةِ السّابِقَةِ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾؛ لكونِ هَذا الكَلامِ

---

(1) الراغب، مفردات القرآن: (عصم).

(2) محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 288.

استكمالُ الخِطابِ وحُسنُ تَقسيمِه سبيلًا إلى الإقناع بالهداية

تَكمِلَةً لكَلام الَّذي آمَنَ، وفيهِ تَعريجٌ على نَمَطٍ آخَرَ مِنَ الإنذارِ والوَعظِ والتَّخويفِ؛ إذِ انتَقَلَ إلى التَّخويفِ من عَذابِ الآخِرَةِ بَعدَ أن خَوَّفَهُم من عَذابِ الدُّنيا، فكانَ بَينَ الجُملَتَينِ تَوَسُّطٌ بَينَ الكَمالَينِ: كَمالِ الاتِّصالِ، وكَمالِ الانقِطاعِ، فهُما مُتَّصِلَتانِ من حَيثِ إنَّهُما مِن كَلامِ الرَّجُلِ المُؤمِنِ واستِكمالٌ لوَعظِهِ ونُصحِه وإرشادِه، وهُما مُنقَطِعَتانِ من حَيثُ الانتِقالُ إلى وِجهَةٍ جَديدَةٍ في التَّخويفِ والإنذارِ، وهوَ التَّخويفُ بأهوالِ الآخِرَةِ، فقَد انتَقَلَ بِكُلِّ هَذا الهَمِّ وهَذا الإحساسِ وهَذا الاقترابِ البالِغِ حَدَّ الاندِماجِ من حالَةٍ من حالاتِ الخَوفِ عَلَيهِم إلى حالَةٍ أُخرى، فهو يَتَدَرَّجُ في وعظِه بِحِكمَةٍ بالِغَةٍ، فقَد بَدَأ الكَلامَ بِفَداحَةِ قَتلِ رَجُلٍ يَقولُ: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، ثُمَّ رَبَطَ هَذا بِبَقاءِ المُلكِ الظّاهِرِ في الأرضِ، وأنَّ الظُّلمَ وقَتلَ الصّالِحينَ يُزَلزِلُ أركانَ المُلكِ، ثُمَّ انتَقَلَ إلى التَّخويفِ من عَذابِ اللّه تعالى بالاستِئصالِ للأُمَمِ المُعانِدَةِ للحَقِّ، فذكَرَ الأحزابَ من قَومِ نوحٍ وعادٍ وثَمودَ والَّذينَ من بَعدِهِم، ثُمَّ ترَكَ هَذِهِ المَخاوِفَ المُتَذَبِّبَةَ على ظَهرِ الأرضِ وفي الدُّنيا، إلى باطِنِ الأرضِ في الآخِرَةِ وهُم بَينَ يَدَي اللّه، وهَذا تَرتيبٌ عَجيبٌ وكَلامٌ مِن أبلَغِ الكَلامِ وأعلاهُ، ولَيسَ فوقَ هَذا المُؤمِنِ الصّالِحِ إلّا أنبياءُ اللّه صلواتُ اللّهِ وسَلامُه عَلَيهِم(1).

### المَوقِعُ النَّحويُّ لقَولِه: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾:

خوفُ المؤمنِ من عَذابِ قومِه في يوم الحساب

انتَصَبَ قَولُهُ: ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ لوَجهَينِ؛ **أحَدُهُما**: الظَّرفُ للخَوفِ، كَأنَّهُ خافَ عَلَيهِم في ذَلِكَ اليَومِ؛ لِما يَلحَقُهم مِنَ العَذابِ إن لَم يُؤمِنوا. **والآخَرُ**: أن يَكونَ التَّقديرُ: (إنّي أخافُ عَلَيكم عَذابَ يَومِ التَّنادِ)، وإذا كانَ كَذَلِكَ كانَ انتِصابُ ﴿يَوۡمَ﴾ انتِصابَ المَفعولِ بِهِ، لا انتِصابَ الظَّرفِ؛ لأنَّه قائمٌ مَقامَ المُضافِ المَحذوفِ مُعرَبٌ بإعرابِهِ(2).

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 122 - 123.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 512.

والتَّنادِ: مُضافٌ إلَيهِ مَجرورٌ وعَلامَةُ جَرِّهِ الكَسرَةُ المُقَدَّرَةُ على الياءِ المَحذوفَةِ، وأصلُهُ: (التَّنادي)[1].

**مَعنى (أل) في ﴿ٱلتَّنَادِ﴾:**

مَـعـرِفَـةُ آلِ فِرعَونَ بأهوالِ يَـومِ الحَشرِ وشِدَّةِ التَّنادي فيه

جاءَت كَلِمَةُ ﴿ٱلتَّنَادِ﴾ مُعَرَّفَةً باللّامِ، وهيَ هَهُنا للعَهدِ الذِّهنيِّ؛ أي: ذَلِكَ التَّنادي الَّذي عَهِدتُموه فيما وصَلَكُم عَنِ الأُمَمِ السّابِقَةِ، وما أخبَرَكُم بِهِ نبيُّكم من شِدَّةِ التَّنادي واختِلاطِ الأصواتِ في يَومِ المَحشَرِ، وسَيأتي ما يُؤَكِّدُ مَعرِفَتَهُم عَقِبَ ذَلِكَ مُباشَرَةً في قَولِه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ۝٣٤﴾ [غافر: 34]، وهوَ ما يَدُلُّ على عِلمِهِم بأهوالِ الآخِرَةِ، فلذا كانَ التَّعبيرُ بـ(أل) العَهدِيَّةِ في ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ مُناسِبًا للسّياقِ وإنِ لَم يَجرِ لهُ ذِكرٌ في القُرآنِ كُلِّهِ سِوى في هَذا المَوضِعِ.

**دَلالَةُ التَّعبيرِ بِـ﴿ٱلتَّنَادِ﴾:**

يَتَنادى الخَلقُ يَومَ التَّنادِ بينَ مُستَشفِعٍ، ومُتَضَرِّعٍ، ومُسلِمٍ، ومُهَنِّئٍ

عَبَّرَ النَّظمُ الحَكيمُ في قَولِه: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ بِمادَّةِ النِّداءِ كِنايَةً عَن يَومِ الحَشرِ، وذَلِكَ لأنَّهُ يُنادي فيهِ بَعضُهم بَعضًا للاستِغاثَةِ، أو يَتَصايَحونَ فيهِ بالوَيلِ والثُّبورِ، أو لتَنادي أهلِ الجَنَّةِ وأهلِ النّارِ كَما حُكِيَ في سورَةِ الأعرافِ، أو لأنَّ الخَلقَ يُنادَونَ إلى المَحشَرِ، أو لنِداءِ المُؤمِنِ ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩﴾ [الحاقَّة: 19] والكافِرِ ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥﴾ [الحاقَّة: 25][2]، ويُحتَمَلُ أن يُرادَ التَّذكيرُ بكُلِّ نِداءٍ في القِيامَةِ فيهِ مَشَقَّةٌ على الكُفّارِ والعُصاةِ[3]، بما يبيّن أهوالَهُ وما يَقَعُ فيهِ من مناداةِ الجَبّارِ تعالى، والمَلائِكَةِ، وأصحابِ الأعرافِ، وأهلِ الجَنَّةِ أهلَ النّارِ، وأهلِ النّارِ أهلَ الجَنَّةِ، وتُنادي ألسُنُ النّيرانِ:

(1) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 24/ 153.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 320.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 558.

(أينَ الجَبّارونَ؟ أينَ المُتَكَبِّرونَ؟)، وتُنادي الجَنَّةُ: (أينَ المُشَمِّرونَ في مَرضاةِ اللّه والصّابِرونَ؟!)... فيا لَهُ مِن يَوم يُذَلُّ فيه العُصاةُ العُتاةُ، ويُعَزُّ فيه المُنكَسِرَةُ قُلوبُهم مِن أجلِ اللّه تعالى[1]!

**نُكتَةُ التَّعبيرِ بـ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾:**

آثَرَ النَّظمُ الحَكيمُ التَّعبيرَ بـ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾، مَعَ أنَّ القيامَةَ لَها أسماءٌ أُخرى كَثيرَةٌ أكثَرُ تَخويفًا، مِثل: يَوم الرّاجِفَةِ، والطّامَّةِ، ويَوم تَشَقُّقِ السَّماءِ بالغَمامِ، ويَوم الصَّيحَةِ، ويَوم تَسييرِ الجِبال، ومِثلُهُ كَثيرٌ في الكِتابِ العَزيزِ؛ لأنَّ مِن بَديعِ البَلاغَةِ ذِكرَ هَذا الوَصفِ لليَوم في هَذا المَقامِ؛ ليُذَكِّرَهم أنَّهُ في مَوقِفِهِ بَينَهم يُناديهم بـ(يا قَوم) ناصِحًا ومُريدًا خَلاصَهم مِن كُلِّ نِداءٍ مُفزِعٍ يَومَ القيامَةِ، وتَأهيلَهم لكُلِّ نِداءٍ سارٍّ فيه[2]. وعِلَّةُ الإيثارِ أيضًا أنَّ فِرعَونَ كانَ يُنادي في قَومِهِ في مَواطِنَ كَثيرَةٍ، وقَد نادى مُنذُ قَليلٍ وقالَ: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، كَما نادى وقالَ: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القَصَص: 38]، وقالَ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النّازِعات: 24]، وقالَ: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٌ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢﴾ [الزُّخرُف: 52] إلى آخِرِ ما حَكى القُرآنُ عَنهُ، وكانَ خَطيبًا يَخطُبُ بِمَعانٍ رَديئَةٍ ويَستَخِفُّ قَومَهُ فيُطيعونَهُ ويَستَتبِعُهُم فيَتبَعونَهُ.

**آثَرَ (يَومَ التَّنادِ) إمّا لكَثرَةِ نِداءِ الرَّجُلِ المُؤمِنِ، وإمّا لكَثرَةِ نِداءِ فِرعَونَ بالأكاذيبِ**

ومِن أهَمِّ ما في يَوم التَّنادِ هوَ التَّنادِ الَّذي يَكونُ بَينَ الَّذينَ استَضعَفَهُمُ الطُّغاةُ مِن أمثالِ فِرعَونَ فأورَدوهُمُ النّارَ وهُم يَتَحاجّونَ فيها، ويَقولُ الضُّعفاءُ للَّذينَ استَكبَروا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧﴾ [غافر: 47]، وكَأنَّ اختيارَ يَوم التَّنادِ لتَنبيهِ هَؤُلاءِ المُستَهلَكينَ في التَّبَعيَّةِ والمُغَيَّبينَ تَحتَ ضُغوطِ القَهرِ والغَطرَسَةِ والاستِبدادِ، ولا مَناصَ لَهُم مِن أن يَستَحضِروا الوَيلاتِ الَّتي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 61 - 62.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 137.

يُفضي بِهِم إلَيها هَذا التَّغييبُ وهَذِهِ التَّبَعيَّةُ الَّتي استَهلَكَت عُقولَهُم واختيارَهُم ونَظَرَهُم وكُلَّ طاقاتِهِم[1].

وقَد صَرَّحَ القُرآنُ بِفِعلِ النِّداءِ في خِطابِ فِرعَونَ في قَومِهِ، فقال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٥١﴾ [الزُّخرف: 51].

## نَوعُ الإضافَةِ في ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾:

**الاستِمرارُ في التَّكذيبِ والعِنادِ ورَدِّ البَيِّناتِ سَبَبُ العَذابِ في الآخِرَةِ**

في جملة ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ أضافَ النَّظمُ الحَكيمُ لَفظَ ﴿يَوْمَ﴾ إلى لَفظِ ﴿ٱلتَّنَادِ﴾، وهيّ إضافَةٌ مَحضَةٌ مَعنَويَّةٌ؛ فاكتَسَبَ التَّعريفَ بها، بِما أوضَحَ المُرادَ مِنها، فهوَ يُخَوِّفُهُم هَذا اليَومَ على وجهِ الخُصوصِ، لِشِدَّةِ هَولِه وفَزَعِ النّاسِ فيه، وعِظَمِ الخَوفِ في كُلِّ لَحظَةٍ مِنه.

## بَلاغَةُ التَّدَرُّجِ في البيانِ بـ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾:

**التَّدَرُّجُ في الإبانَةِ عَن أهوالِ القِيامَةِ مِن الفَزَعِ والصُّراخِ إلى الفِرارِ الفاقِدِ للعَقلِ**

في قَولِ اللَّه تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أردَفَ النَّظمُ الحَكيمُ قَولَهُ: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ بِما يَكشِفُ عَن شَيءٍ هوَ مِن أسوَإِ أشياءِ هَذا اليَومِ، وذَلِكَ قَولُهُ سُبحانَهُ: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾، وهَذِهِ عِبارَةٌ بالِغَةُ السَّخاءِ، وفيها صورَةٌ حَيَّةٌ مِنَ التَّدافُعِ والفَزَعِ والارتِباكِ وفِقدانِ السَّيطَرَةِ، وذَلِكَ لأنَّها تَصِفُ حالَةَ مَن يُساقونَ إلى النّارِ، فيَسمَعونَ زَئيرَها فيوَلّونَ مُدبِرينَ، والتَّوَلّي: الفِرارُ، والمُدبِرُ هوَ الَّذي يَفِرُّ إلى الجِهَةِ الَّتي جاءَ مِنها، وهُناكَ يَجِدونَ المَلائِكَةَ يَزُخّونَهُم زَخًّا لِيَعودوا إلى ما فَرّوا مِنهُ، وهَذا مِن أهوَلِ ما في هَذا اليَومِ، ولِذَلِكَ كانَ بَيانُ يَومِ التَّنادِ بِقَولِه: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ تَدَرُّجًا في الإبانَةِ عَن أهوالِ هَذا اليَومِ، وانتِقالًا مِن حالَةِ الصّياحِ والفَزَعِ والصُّراخِ إلى حالَةِ

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 123 - 124.

الفِرارِ الفاقِدِ للعَقلِ مِن هَولِ ما يَجِدُ، ووَراءَ كُلِّ ذلك أنَّ هَذا الَّذي تَتَّبِعونَهُ لَن يُغنيَ عَنكُم في هَذا اليَومِ شَيئًا، فراجِعوا مَوقِفَكُم قَبلَ أن تُداهِمَكُم هَذِهِ الأهوالُ[1].

### دَلالَةُ التَّعبيرِ بِـ﴿تُوَلُّونَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

تَجَدُّدُ التَّوَلّي لِتَجَدُّدِ الفَزَعِ والخَوفِ

في قَولِه: ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ آثَرَ البيانُ القُرآنيُّ الجَليلُ التَّعبيرَ بمادَّةِ التَّوَلّي الَّتي تُفيدُ الإعراضَ والذَّهابَ والانهِزامَ[2]، وهيَ كِنايَةٌ عَنِ الهَوانِ والضَّعةِ والخُسرانِ، وآثَرَ كذلك التَّعبيرَ بِصيغَةِ المُضارَعَةِ ﴿تُوَلُّونَ﴾؛ لأنَّ هَذا التَّوَلّيَ يَتَجَدَّدُ وهُم يُساقونَ إلى النّارِ، فكُلَّما سَمِعوا زَئيرَها تَوَلَّوا، وذَلِكَ حينَ تَخرُجُ ألسِنَةُ النّيرانِ فتَخطِفُ أهلَ الكُفرانِ، وتَزفِرُ زَفَراتٍ يَخِرُّ أهلُ المَوقِفِ مِن خَشيَتِها، فتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثيَةً، ويَفِرّونَ فلا يَقصِدونَ مَكانًا إلّا وجَدوا بِهِ المَلائِكَةَ صافّينَ كَما قالَ تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَآۚ﴾ [الحاقَّة: 17]، ويُنادي المُنادي: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣﴾ [الرَّحمن: 33][3].

### دَلالَةُ التَّعبيرِ بِـ﴿مُدۡبِرِينَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

الرُّجوعُ والفِرارُ على ضَربٍ واحِدٍ مِنَ الثَّباتِ والاستِمرارِ

في قَولِه: ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ آثَرَ البَيانُ القُرآنيُّ الجَليلُ التَّعبيرَ بمادَّةِ الإدبارِ؛ لأنَّ الإدبارَ هوَ الرُّجوعُ إلى الطَّريقِ الَّتي وراءَهُ؛ أي: مِن حَيثُ أتى، هَرَبًا مِنَ الجِهَةِ الَّتي ورَدَ إليها؛ لأنَّهُ وجَدَ فيها ما يَكرَهُ؛ أي: يَومَ تَفِرّونَ مِن هَولِ ما تَجِدونَهُ[4]. وقَد جاءَ قَولُهُ: ﴿مُدۡبِرِينَ﴾ بِصيغَةِ اسمِ الفاعِلِ؛ وذَلِكَ لأنَّ الإدبارَ كانَ على ضَربٍ واحِدٍ مِنَ الثَّباتِ والاستِمرارِ، وأنَّهُم كانوا في إدبارِهِم على حالَةٍ واحِدَةٍ ثابِتَةٍ لا تَتَجَدَّدُ[5].

---

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 124.
(2) الراغب، مفردات القرآن: (ولي).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 63.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 137.
(5) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 124.

### نُكتَةُ فصلِ قَولِهِ: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾:

الجمعُ بينَ التَّولّي ومنعِ العاصمِ مِن أشدِّ العذاب

جاءَت جملة ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾ في مَوضِعِ الحالِ، ففصَلَ النَّظمُ بَينَها وبينَ الجملة السّابِقة؛ لِما بَينَهُما من كَمالِ الاتِّصالِ، فكِلا الجُملتَين جملة خَبَريَّةٌ لفظًا ومَعنًى، وبَينَهُما مِنَ الاتِّصالِ المَعنَويِّ والتَّلاحُمِ اللَّفظيِّ والانسِجام البَلاغيِّ ما يُغني عَنِ الرَّبطِ بِحَرفِ الواو، والمَعنى: ما لَكُم مِنَ اللّه مانِعٌ يَمنَعُكم حالَةَ التَّوَلّي(1).

### مَعنى ﴿مَا﴾ وإيثارُ استِعمالِها:

تأكيدُ نَفيِ عِصمَةِ المُستَكبِرينَ مِن عَذابِ الله رَدًّا على ادِّعاءاتِ فِرعَونَ

جاءَت ﴿مَا﴾ في قَولِه: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾ نافيَةً لا عَمَلَ لَها، فنَفَتْ أن تكونَ ثَمَّةَ عِصمَةٌ لقَوم فرعَونَ من سَخَط اللّه تعالى وعَذابِهِ يَومَ القيامَة. وقَد آثَرَ البَيانُ الإلَهيُّ في قَولِه: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾ النَّفيَ بِـ﴿مَا﴾ لقوَّةِ النَّفيِ بها؛ إذ إنَّها آكَدُ مِن (لَيسَ) ومِن (لَم)، ويَدُلُّ على ذَلِكَ أيضًا أنَّ مَنْفيَّها كَثيرًا ما يَقتَرِنُ بِـ(مِنْ) الاستِغراقيَّةِ المُؤَكِّدَة، وكَذَلِكَ فإنَّ (ما) كَثيرًا ما تَكونُ رَدًّا على كَلامٍ أو ما نُزِّلَ هَذِهِ المَنزِلَةَ(2)، وقَد جاءَتْ في هَذِهِ الآيَةِ رَدًّا على ما نُزِّلَ بِمَنزِلَةِ الجَوابِ على تَجَبُّرِ القَوم، وجَرأتِهِم على الهَمِّ بِقَتلِ نَبيِّ اللّهِ موسى عليه السلام، وناسَبَتِ الجملة كُلُّها الرَّدَّ على استِكبارِ قوى البَغيِ والعُدوانِ والظُّلم، مُمَثَّلَةً في فِرعَونَ وهامانَ وقارونَ.

### مَعنى اللّامِ في ﴿لَكُم﴾:

تأكيدُ نَفيِ العِصمَةِ مِنَ العَذابِ عَنِ المُستَكبِرينَ على وجهِ الخُصوص

في قَولِه: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾ جاءَتِ اللّامُ لِتُفيدَ الاختِصاصَ؛ أي: ليسَ لكم على وجهِ الخُصوص عاصِمٌ مِنَ اللّه تعالى، فإذا كانَ الخَلقُ أجمَعونَ لَيسَ لَهُم عاصِمٌ مِنَ اللّه تعالى ولا مِن عَذابِه؛ فإنَّ نَفيَ العِصمة مُؤَكَّدٌ في حَقِّ المُستَكبِرينَ أكثرَ مِن غَيرِهم، لِتَجَرُّئِهِم على مَقامِ النُّبوَّةِ وهَمِّهِم بِقَتلِ نَبيِّ اللّهِ موسى عليه السلام.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 321.

(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 191، 194.

### مَعنى ﴿مِّنَ﴾ في قَولِه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

لا ملجَأ مِن الله إلّا إلى الله

﴿مِّنَ﴾ في قَولِه سبحانه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: حَرفُ جَرٍّ، واسمُ الجَلالَةِ مَجرورٌ بها مُتَعَلِّقٌ بالخَبَرِ أو بـ﴿عَاصِمٍۗ﴾، و﴿مِّنَ﴾ الجارَّةُ لاسم الجَلالَةِ هَهُنا للابتِداءِ، تَقولُ: عَصَمَهُ مِنَ الظّالِمِ؛ أي: جَعَلَهُ في مُبتَدإ مَنَعَةٍ مِنَ الظّالم(1).

### نُكتَةُ تَقديمِ شِبهِ الجملة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

الشَّأنُ كُلُّهُ بيدِ اللهِ تعالى، ولا يكون إلّا ما يشاء

في جملة ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٍۗ﴾ دَخَلَ النَّفيُ على الخَبَرِ الجارِّ والمَجرورِ المُقَدَّم ﴿لَكُم﴾، والمُبتَدَأُ نَكِرَةٌ، و﴿مِّنَ﴾ الدّاخِلَةُ على المُبتَدَأِ زائِدَةٌ لتَأكيدِ الاستِقصاءِ، وأنَّهُ (ما لَكُم عاصِمٌ أيُّ عاصِم)، و﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ﴿عَاصِمٍۗ﴾، فتَكاثَرَت عَناصِرُ التَّوكيدِ وداخَلَت الجملة خُصوصيّاتٌ في صياغَتِها.

والتَّقديمُ في الجملة لَيسَ دالًّا على الاختِصاصِ؛ لأنَّ المَعنى لا يَستَقيمُ عَلَيهِ؛ لأنَّهُ يُؤَدّي إلى أن يَكونَ لهم مِن غيرِ اللهِ عاصِمٌ، ولَيسَ هَذا صَحيحًا(2)، ومِن ثَمَّ فإنَّ التَّقديمَ هَهُنا أفادَ تَوكيدَ نَفي العِصمَةِ مِن حَيثُ كَونُها مُتَعَلِّقَةً بِمَشيئَةِ اللهِ تعالى، فأصلُ التَّعبيرِ (ما عاصِمٌ مِنَ اللهِ لَكُم)، فقَدَّمَ النَّظمُ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لتَوكيدِ أنَّ الشَّأنَ كُلَّهُ بيدِ اللهِ تعالى الَّذي كَذَّبتُمُ رَسولَهُ وهَمَمتُم بقتلِهِ. وأوثِرَ التَّعبيرُ باسم الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّهُ المَلِكُ الجَبّارُ الَّذي لا نِدَّ لَهُ تعالى(3).

### مَعنى ﴿مِنۡ﴾ في قَولِهِ: ﴿مِنۡ عَاصِمٍۗ﴾:

استِغراقُ نَفيِ العِصمَةِ عَنهُم مِن عَذابِ اللهِ وتَوكيدُ عُمومِ هَذا النَّفيِ

جاءَتْ ﴿مِنۡ﴾ صِلَةً في قَولِه: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٍۗ﴾؛ أي: حَرفَ جَرٍّ زِيْدَ في الآيَةِ لغَرَضَينِ؛ **الأوَّلُ**: التَّنصيصُ على استِغراقِ عُمومِ النَّفيِ؛ إذ لَو قُلتَ قَبلَ زيادَتِها: (ما جاءَني رَجُلٌ) احتَمَلَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 137.
(2) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 125.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 63.

كلامُك أن تكونَ نافيَةً لرَجُلٍ واحِدٍ وقَد جاءَ أكثَرُ مِنهُ، واحتَمَلَ أن تكونَ نافيَةً لجَميعِ الجِنسِ، فإذا زِدتَ (مِن) أخرَجتَهُ مِن حَيِّزِ الاحتِمالِ إلى حَيِّزِ التَّنصيصِ على عُمومِ النَّفيِ، ومِنهُ قَولُهُ تَعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ﴾ [المؤمنون: 91]. **والغَرَضُ الثّاني**: تَوكيدُ عُمومِ النَّفيِ؛ لأنَّها دَخَلَت على تَركيبٍ هوَ نَصٌّ في عُمومِ النَّفيِ[1]؛ ومن هنا فـ﴿مِنۡ﴾ الدّاخِلَةُ على ﴿عَاصِمٖۗ﴾ مَزيدَةٌ لتَأكيدِ النَّفيِ[2].

### سرُّ صَوْغِ ﴿عَاصِمٖۗ﴾ اسمَ فاعِلٍ منكّرًا:

دوامُ نَفـــــيِ الـعِـصـمَـةِ وعُمومُها وجهٌ مِن وُجوهِ تأكيدِ العقاب

في قَولِه: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾ عبَّرَ البَيانُ الإلَهيُّ بالمُبتَدَإِ ﴿عَاصِمٖۗ﴾ في الجملة الاسميَّة بصيغةِ اسمِ الفاعِلِ، وهوَ مِنَ المُشتَقّاتِ الَّتي توَضِّحُ المَعنى وتُحَدِّدُ الدَّلالَةَ عليه بِشَكلٍ أدَقَّ، والَّذي يَأتي في الجملة الاسميَّةِ يدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوامِ والاستِمرارِ في الغالِبِ؛ فهو دالٌّ في الآيَةِ على ثَباتِ ودَوامِ نَفيِ عِصمَتِهم مِن عَذابِ اللّه تعالى وانتِقامِه؛ إذ النَّكِرَةُ في سياقِ النَّفيِ تُفيدُ العُمومَ، و﴿مَا﴾ نافيَةٌ، قَد دَخَلَت على نَكِرَةٍ هيَ ﴿عَاصِمٖۗ﴾، وبذَلِكَ أفادَ هَذا التَّركيبُ عُمومَ نَفيِ عِصمَتِهِم مِن عَذابِ اللّه تعالى، وتَأكيدَ هَذا العُمومِ؛ أي: عَمَّمَتْ وأكَّدَتْ وبالَغَتْ في نَفيِ عِصمَتِهِم مِن عَذابِ اللّه تعالى، وما ذاكَ إلّا لمَزيدِ استِكبارِهم.

### دلالةُ الجملة الحاليَّة:

سَـدُّ جَـمـيـعِ مَـنـافِذِ الـهُـروبِ مِن عَـذابِ اللهِ، فـلـيـسَ ثَـمَّـةَ مَهرَبٌ

ذَهَبَ المُعرِبونَ الى أنّ جملة ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾ في مَحَلِّ نَصبٍ على الحالِ مِن ضَميرِ ﴿تُوَلُّونَ﴾[3]، وجاءَتْ جملة الحالِ لتَسُدَّ أمامَ هَذا الإدبارِ كُلَّ المَنافِذِ؛ لأنَّهُم بِهَذا الإدبارِ يُريدونَ الفِرارَ مِنَ العَذابِ، والحالُ أنَّه ليسَ ثَمَّةَ مَهرَبٌ ولا عاصِمٌ لَهُم مِنَ اللّه[4].

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 81، 84.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 137.
(3) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 24/ 154 - 155.
(4) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 125.

### توجيهُ العطفِ بالواوِ في جملة الفاصلة:

عَطَفَ النَّظْمُ الحَكيمُ جملة ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ على جملة ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾، وعَلى جملة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾؛ لتَضمُّنِها مَعنى: إنّي أُرشِدُكم إلى الحَذَرِ من يَومِ التَّنادي، وقَد وصَلَها النَّظمُ بِحَرفِ الواوِ، لتَوَسُّطِها بينَ الكَمالَين: كَمالِ الاتِّصال وكَمالِ الانقِطاع؛ فهيَ جملة مُستَأنَفَةٌ، يختَلِفُ معناها عَن مَعنى الَّتي قَبلَها ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾، ووَجهُ مُناسَبَتِها لَها: أنَّهُ يَدعوهُم إلى الهُدى ويُلِحُّ في الدُّعاءِ ويُخَوِّفُهُم يومَ الأحزابِ ويُخَوِّفُهم يومَ التَّنادِ، وكَأنَّهُ يَقولُ لَهُم: هَذا كُلُّ ما أملِكُهُ لَكُم، أمّا تَحويلُ قُلوبِكُم مِمّا هيَ عليه إلى الهُدى فذَلِكَ لَيسَ لي، ومَن يُضلِلِ اللهُ فما لَهُ من هادٍ.

وبِناءُ الكَلامِ في قَولِهِ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ هوَ بِناءُ الكَلامِ في قَولِهِ: ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾[1].

**تَحويلُ القُلوبِ مِنَ الضَّلالِ إلى الهُدى بيدِ اللهِ وحدَهُ**

### بلاغةُ الحذفِ في جملة الفاصلة:

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ إيجازٌ بِحَذفِ جُمَلٍ تَدُلُّ عَلَيها الجملة المَعطوفَةُ، والتَّقديرُ: هَذا إرشادٌ لَكم، فإنْ هَداكُمُ اللهُ عَمِلتُم بِهِ، وإنْ أعرَضتُم عَنهُ فذَلِكَ لأنَّ اللهَ أضَلَّكم، ومَن يُضلِلِ اللهُ فما لَهُ من هادٍ. وفي هَذِهِ الجملة مَعنى التَّذييلِ[2].

**لا هاديَ لِمَن يَختِمُ اللهُ تعالى على قلبِهِ بالضَّلالِ**

### بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملة الشَّرطيَّةِ:

آثَرَ النَّظمُ الحَكيمُ الإتيانَ بجملة الفاصلة ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ شرطيَّةً؛ كِنايَةً عَن نَفيِ أسبابِ النَّجاةِ عَنِ الضَّلالَةِ وعَواقِبِ العُقوبَةِ عَلَيها؛ لأنَّ الضَّلالَ جاءَ بَعدَ خُطواتٍ وئيدَةٍ مِنَ الضّالِّ في طَريقِ الضَّلالِ، فكَأنَّ الضّالَّ غيرُ سَريعٍ

**الحِرمانُ مِن إدراكِ التَّوفيقِ؛ لتَوَغُّلِ الضّالِّ في غَيِّهِ**

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 125.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 137.

للاهتِداءِ أو غيرُ قابلٍ لَهُ، وحِرمانُهُ مِن تدارُكِهِ إيّاهُ بالتَّوفيقِ كُلَّما تَوَغَّلَ في الضَّلالَةِ.

### سِرُّ التَّعبيرِ بِ(مَن) الشَّرطيَّةِ دونَ غيرِها:

كُلُّ إنسانٍ لا يوَفِّقُهُ اللهُ فضلالُهُ حَتْميٌّ

آثر النَّظمُ الجَليلُ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ استِعمالَ (مَن) الشَّرطيَّةِ دونَ غيرِها؛ لأنَّ (مَن) تَحمِلُ في دَلالَتِها العُمومَ بالاتِّفاقِ، فضلًا عن كونِها دالَّةً على شَيئَينِ؛ **أحدُهما**: الشَّخصُ العاقِل، وهَذا هوَ المَعنى الَّذي جعَلَها اسمًا؛ لأنَّهُ مَعنًى في نَفسِها، وهوَ مَعناها الوضعيُّ. **والآخرُ**: معنى الشَّرطيَّة[1]، ومِن ثَمَّ فقَد دَلَّتْ هَهُنا على عُمومِ ضَلالِ سَبيلِ كُلِّ إنسانٍ لا يوَفِّقُهُ اللّهُ إلى الخَيرِ، مَعَ كَثرَةِ طَرائِقِ هَذا الخَيرِ الَّذي لا يَخفى إلّا على مَطموسِ البَصيرَةِ، وهوَ مُتناسِبٌ أتَمَّ التَّناسُبِ معَ حالِ هَؤُلاءِ المُكَذِّبينَ المَعانِدينَ الَّذينَ همّوا بِقتلِ نَبيِّهِم.

### دَلالَةُ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ ﴿يُضۡلِلِ﴾:

تَجَدُّدُ الإضلالِ بِتَجَدُّدِ العِنادِ والاستِكبارِ

عَبَّرَ النَّظمُ الحَكيمُ في قَولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ عَن مَعنى الشَّرطِ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿يُضۡلِلِ﴾؛ للدَّلالَةِ على أنَّ مَن استَكبَرَ وعانَدَ وأبى فإنَّ إضلالَ اللّهِ لهُ مُتَجَدِّدٌ مُستَمِرٌّ، فلا يَخرُجُ مِن ضَلالٍ إلّا ليدخُلَ في ضَلالٍ آخَرَ، جَزاءً وِفاقًا لعِنادِهِ واستِكبارِه.

### نُكتَةُ حذفِ مَفعولِ ﴿يُضۡلِلِ﴾:

الإيجازُ؛ لِدَلالَةِ السّياقِ عَلَيه

حَذَفَ النَّظمُ الحَكيمُ مَفعولَ ﴿يُضۡلِلِ﴾؛ إذِ الأَصلُ: (وَمَن يُضلِلْهُ اللّهُ) تَخفيفًا لطولِ الكَلامِ بالصِّلَةِ، ألا تَرى أنَّهُ لَولا إرادَةُ الهاءِ لبَقيَ المَوصولُ بِلا عائِدٍ؟ فكانَ في حُكمِ المَنطوقِ بِهِ؛ لأنَّ الدَّلالَةَ عليه مِن جِهَتَينِ: مِن جِهَةِ اقتِضاءِ الفِعلِ لَهُ، ومِن جِهَةِ اقتِضاءِ الصِّلَةِ

(1) ابن هشام، المباحث المرضية المتعلقة بِ(من) الشرطية، ص: 33.

له؛ إذ هو العائِدُ[1]. وفي حَذفِ المَفعولِ أيضًا إشارَةٌ إلى امتِهانِه واستِحقارِه[2]، فأهلُ الضَّلالِ لا يستَحِقّونَ أن يَطولَ المَقامُ بِذِكرِهِم.

**نُكتَةُ إظهارِ اسمِ الجَلالَةِ في مَوضِعِ إضمارِه:**

العُدولُ عَنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ لخُطورَةِ قَضيَّةِ الإضلالِ

أظهَرَ النَّظمُ الحَكيمُ اسمَ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قَولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾، وكانَ مِنَ المُمكِنِ أن يُضمِرَهُ فيَقولَ: (وَمَن يُضلِلهُ فما لَهُ مِن هادٍ)؛ لسَبْقِ وُرودِهِ في الجملة السّابِقَةِ، ولَكِنَّ النَّظمَ عَدَلَ عَنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ لخُطورَةِ قَضيَّةِ الإضلالِ، فتطلَّبَ التَّعبيرَ باسم "﴿ٱللَّهُ﴾ المَلِك المُحيط بِكُلِّ شَيءٍ، الباطِن في أرديَةِ الجَلالِ، الظّاهِر في مَظاهِرِ القَهرِ والجَمال"[3].

**دَلالَةُ الإسنادِ في ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾:**

ضَلالُ المستكبرينَ مَطمورٌ في جِبِلَّتِهِم، وعِلمُ الله تعالى بذلك أزَليٌّ

أسنَدَ النَّظمُ الحَكيمُ الإضلالَ إلى اللّه تعالى، ومَعنى إسنادِ الإضلالِ والإغواءِ ونَحوِهِما إلى اللّه: أن يَكونَ قَد خَلَقَ نَفْسَ الشَّخصِ وعَقْلَهُ خَلْقًا غيرَ قابِلٍ لمَعاني الحَقِّ والصَّوابِ، ولا يَنفَعِلُ لدَلائِلِ الاعتِقادِ الصَّحيحِ.

وآثَرَ لَهم هَذا دونَ أن يَقولَ: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾ [الزمر: 37]؛ لأنَّهُ أحَسَّ مِنهُمُ الإعراضَ، ولَم يَتَوَسَّمْ فيهِم مَخايِلَ الانتِفاعِ بِنُصحِهِ ومَوعِظَتِه.

**دَلالَةُ فكِّ الإدغامِ في الفِعلِ ﴿يُضۡلِلِ﴾:**

ما أضَلَّهُمُ اللهُ إلّا بَعدَ أن رَفَضوا كُلَّ أسبابِ الهِدايَةِ

التَّعبيرُ بالفَكِّ في ﴿يُضۡلِلِ﴾ فيهِ إشارَةٌ إلى أنَّ الإضلالَ لا يَكونُ إلّا بَعدَ حِرصِ المَرءِ نَفسِهِ على أن يَكونَ ضالًّا، بابتِعادِهِ عَن كُلِّ أسبابِ الهِدايَةِ الَّتي يَسَّرَها اللّه لَهُ، لَكِنَّهُ أبى واستَكبَرَ، وكَأنَّ فكَّ الإدغامِ دالٌّ على أنَّ الإضلالَ لا يَكونُ مُباشَرَةً، لَكِنَّهُ يَكونُ بَعدَ أن يُرسِلَ اللّه الرُّسُلَ للهِدايَةِ فيَأبى المَرءُ الهِدايَةَ، فيَزيدُهُ اللّه ضَلالًا على ضَلالٍ.

---

(1) ابن يعيش، شرح المفصل: 1/ 419.

(2) محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 462.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 63.

### مَعنى الفاءِ في قَولِهِ: ﴿فَمَا لَهُۥ﴾:

بَيانُ التَّوكيدِ مَعَ رَبْطِ أوصالِ التَّركيبِ

الفاءُ في قَولِه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ رابِطَةٌ، أُتي بها لتُفيدَ أنَّ ما بعدَها مُسبَّبٌ عن فعلِ الشَّرطِ الَّذي قبلَها، كما أنَّها تُعَيِّنُ الجَزاءَ وتوَضِّحُ المَعنى[1]، فضلًا عن أنَّ دُخولَها يَدُلُّ على زيادَةِ التَّوكيدِ؛ لأنَّ زيادَةَ المَبنى في الغالب دالَّةٌ على زيادَةِ المَعنى. ومِن كُلِّ هَذا يَتَبَيَّنُ سَبَبُ نَفيِ هِدايَتِهِم وهوَ إضلالُ اللهِ تَعالى، فالإضلالُ قَويٌّ شَديدٌ، لذا انتَفى الهادي.

### نُكتَةُ العُدولِ إلى الاسميَّةِ في جَوابِ الشَّرطِ:

دَوامُ الضَّلالِ بِدَوامِ التَّكذيبِ والاستِكبارِ

في قَولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ جاءَ جَوابُ الشَّرطِ جملة اسميَّةً مُقتَرِنَةً بالفاءِ، وعَدَلَ عَنِ التَّعبيرِ بالجملة الفِعليَّةِ، فلَم يَقُل: (وَمَن يُضلِلِ اللّهُ يَفقِد رُشدَهُ) مثلًا؛ لِما في الجملة الاسميَّةِ مِن مَعنى الثَّباتِ والدَّوامِ، فضَلالُهُ دائِمٌ بِدوامِ إصرارِهِ على الكَذِبِ والاستِكبارِ والطُّغيانِ.

### دَلالَةُ النَّفيِ بِ(ما):

تَأكيدُ نَفيِ عِصمَةِ المُستَكبِرينَ مِن عَذابِ اللهِ رَدًّا على ادِّعاءاتِ فِرعَونَ

جاءَت (ما) في قَولِه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ نافيَةً؛ نَفَتْ أن يَكونَ ثَمَّةَ هِدايَةٌ لِمَن يُضِلُّهُ اللّهُ تعالى. وقَد آثَرَ البَيانُ الإلَهيُّ النَّفيَ بِـ (ما)؛ لقوَّةِ النَّفيِ بِها؛ بحسبِ ما تمَّ بيانُهُ فيما مضى، وفي ذلك دلالةٌ على شدَّةِ نفيِ الهِدايَة.

### مَعنى اللّامِ في ﴿لَهُۥ﴾:

نَفيُ الهِدايَةِ على وجهِ الخُصوصِ عَمَّن كَذَّبَ وعانَدَ

في قَولِه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ جاءَتِ اللّامُ لتُفيدَ الاختِصاصَ؛ أي: لَيسَ لَهُ على وجهِ الخُصوصِ هادٍ يَهديه، فإذا كانَ الخَلقُ أجمَعونَ لَيسَ لَهُم هادٍ يَهديهِم سِوى اللّهِ تعالى فإنَّ المُستَكبِرينَ على وجهِ الخُصوصِ لَيسَ لَهُم هادٍ يَهديهِم من ضَلالِهِمُ الأثيمِ؛ لتَجَرُّئِهِم على مَقامِ النُّبوَّةِ وهَمِّهِم بِقَتلِ نَبيِّ اللّهِ موسى عليه السلام.

---

(1) ابن يعيش، شرح المفصل: 5/ 111، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 106.

**نُكتَةُ تَقديمِ شِبهِ الجملة ﴿لَهُۥ﴾:**

اللهُ تعالى هو وحدَهُ المُختَصُّ بالهِدايَةِ

في جملة ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ دَخَلَ النَّفيُ على الخَبَرِ الجارِّ والمَجرورِ المُقدَّمِ والمُبتَدَأُ نَكِرَةٌ، و﴿مِنْ﴾ الدّاخِلَةُ على المُبتَدَإ صلةٌ لتَأكيدِ الاستِقصاءِ.

وقد أفادَ تقديمُ الخبرِ هَهُنا مَعنى الحصرِ؛ لأنَّ تقديمَ ما حقُّهُ التَّأخيرُ مِن أساليبِ الحصرِ، والمَعنى: عدمُ الهدايةِ محصورٌ بمَن أضلَّهُ اللّهُ، بخِلافِ مَن يُضِلُّهُ غيرُ اللّه مِنَ البَشَرِ، فقَد تُكتَبُ له الهدايةُ. وتَحتَ هَذا المَعنى مَعنًى آخَرُ، وهوَ أنَّ الَّذي أضَلَّكُم لَيسَ هوَ المَعبودَ بحَقٍّ، إنَّما الَّذي أضَلَّكُم هوَ فِرعَونُ، فلا تَيْأَسوا مِن هِدايَةِ اللّه لَكُم[1].

**مَعنى ﴿مِنْ﴾ في قَولِهِ: ﴿مِنْ هَادٍ﴾:**

استِغراقُ نَفيِ العِصمةِ مِن عَذابِ اللهِ عَنهُم، وتَوكيدُ عُمومِ هَذا النَّفيِ

﴿مِنْ﴾ في قَولِه: ﴿مِنْ هَادٍ﴾ صلةٌ تفيدُ التَّنصيصَ على استِغراقِ عُمومِ النَّفيِ؛ وتَوكيدَ هذا العُمومِ؛ لأنَّها دَخَلَتْ على تَركيبٍ هوَ نَصٌّ في عُمومِ النَّفيِ؛ أي: ليس له من هادٍ أيِّ هادٍ؛ إذ لا هاديَ بعدَ اللّهِ[2] يَهديهِ إلى طَريقِ النَّجاةِ أصلًا، وكَأنَّ الرَّجُلَ يَئِسَ مِن قَبولِهِم نُصحَهُ[3]، فأرادَ مِن هَذِهِ الصِّلَةِ العُمومَ الشّامِلَ لكُلِّ مَن حَرَمَهُ اللّه التَّوفيقَ، وفيهِ تَعريضٌ بتَوَقُّعِهِ أن يَكونَ فِرعَونُ وقَومُهُ من جملة هَذا العُمومِ[4].

**سِرُّ التَّعبيرِ باسمِ الفاعِلِ ﴿هَادٍ﴾:**

نَفيُ جنسِ الهُداةِ وقَصرُهُ على الله تعالى

اسمُ الفاعِلِ ﴿هَادٍ﴾ في قَولِهِ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، دالٌّ بصيغَتِه على الثَّباتِ مُقارَنَةً بالفِعلِ المُضارِعِ، فاسمُ الفاعِلِ أَشَدُّ ثَباتًا على الأمرِ مِنَ المُضارِعِ (يَهدي). وكَذلك قَولُنا: (هو هادٍ) أبلَغُ في

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 125.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 3959.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 320.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 138.

الدَّلالةِ على معنى الهِدايَةِ مِن (هوَ يَهدي)، وكَأنَّ الهِدايَةَ صارَت شَيئًا مُلازِمًا للهادي. يُضافُ إلى ذَلِكَ أنَّ لَفظَةَ ﴿هَادٍ﴾ كانت سَبَبًا في دُخولِ ﴿مِنْ﴾ الاستِغراقيَّةِ الَّتي تَنفي جِنسَ الهُداةِ.

### نُكتَةُ تَنكيرِ ﴿هَادٍ﴾:

إفادَةُ نَفيِ جنسِ الهُداةِ عُمومًا

في قَولِه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ جاءَت كَلِمَةُ ﴿هَادٍ﴾ نَكِرَةً للدَّلالَةِ على العُمومِ والشُّمولِ، فمَن أضَلَّهُ اللّهُ فلَيسَ لهُ أيُّ هادٍ - مِنَ الإنسِ أوِ مِن الجِنِّ أو مِن نَفسِه - إلى شَيءٍ يَنفَعُهُ بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ، وأمّا الضَّلالُ العارِضُ فيُزيلُه اللّه لمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، وهَذا لا يُعرَفُ إلّا بالخاتِمَةِ؛ فمَن ماتَ على شَيءٍ فهو مَجبولٌ عَلَيه(1).

### نُكتَةُ الاقتِصارِ على ذكرِ الضَّلالِ دونَ ذكرِ الهِدايَةِ:

الهِدايَةُ لمَن صَفا قَلبُهُ وخَشَعَتْ جَوارِحُه

اكتَفَتِ الآيَةُ بهَذا التَّذييلِ دونَ القَولِ: (ومَن يَهدِ اللّه فما لَهُ مِن مُضِلٍّ)؛ لأنَّهُ أحَسَّ مِنهُمُ الإعراضَ، ولَم يَتَوَسَّمْ فيهِم مَخائِلَ الانتِفاعِ بنُصحِه ومَوعِظَتِه(2).

وهَذِهِ الفاصِلَةُ ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ لَها قَرينَةٌ تُلازِمُها في أكثَرِ مَواقِعِها، وهيَ المَعنى المُقابِلُ، ومنه قَولُهُ سُبحانَهُ: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾ [الزُّمَر: 37]، فبِناءُ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾ كبِناءِ ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾، ورُبَّما كانَ هَذا وأشباهُهُ مِن بابِ تَأليفِ المُختَلِفِ بشَريفِ النَّظمِ؛ يعني: حَذوَ الكَلامِ على وجهٍ واحِدٍ ليُقَرِّبَ بَينَ المَعاني المُختَلِفَةِ ويَصيرَ بِهِ المُختَلِفُ مُؤتَلِفًا، وهَذِهِ القَرينَةُ لَم تُذكَر هُنا؛ لأنَّ الرَّجُلَ يَرى قَومَهُ غارِقينَ في ضَلالاتٍ يَقودُهُم إلَيها فِرعَونُ، ولَم يَرَ في آخِرِ الطَّريقِ ما يُعينُ على الإحساسِ بالأمَلِ، وإنَّما هوَ الإفراطُ في التَّبَعيَّةِ لفِرعَونَ الَّذي يَكتَفي بأن يَقولَ: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، وبِهَذِهِ الكَلِمَةِ المُختَصَرَةِ يُحبِطُ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 63.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 138.

كُلَّ اجتِهادِ هَذا المُجتَهِدِ، وسَيَظهَرُ لَنا ذَلِكَ في آخِرِ كَلامِهِ، والمُشكِلَةُ أنَّ النّاسَ كانوا ولا يَزالونَ يَتَّبِعونَ صَوتَ القوَّةِ لا صَوتَ الحَقِّ[1].

**بَلاغَةُ الطِّباقِ بَينَ الضَّلالِ والهِدايَةِ:**

الطِّباقُ يَستَرعي انتِباهَ المُتَلَقّي لِخِطابِ الرَّجُلِ المُؤمِنِ ويُلَخِّصُ فَحْواه

في قَولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ أبرَزَ الطِّباقُ بينَ الضَّلالِ والهِدايَةِ خِطابَ الرَّجُلِ المُؤمِنِ على نَحوٍ جَليٍّ، يَستَرعي انتِباهَ المُتَلَقّي، ويَستَثيرُه لإدراكِ عُمقِ الهوَّةِ بَينَ مَن استجابَ لِنداءِ النَّبيِّ الكَريمِ موسى عليه السلام فكانَ مِنَ المُهتَدينَ، وبينَ مَن اتَّبَعَ هَواهُ فكَذَّبَ واستَكبَرَ، بَل هَمَّ بِقَتلِه. فعَمِلَ الطِّباقُ على تَجليةِ ما احتَواهُ هَذا المَقطَعُ مِن كَلامِ الرَّجُلِ الصّالِحِ، الَّذي سيأتي بنَوعٍ آخَرَ مِنَ البَيانِ في الآيَةِ التّاليَةِ.

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 126.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: 34 - 35]

### مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بيانُ عادَتِهم في الشَّكِّ مِمّا جاء به الأنبياءُ عليهم السلام

لَمّا كان حاصلُ ما تقدّم مِن حالِهم في أمرِ موسى عليه السلام أنَّه جاءهم بالبَيِّنات، فارْتابوا وشَكّوا فيها، وخُتِمَ ذلك بتَحْذيرِهم مِن عذابِ الدُّنيا والآخرة؛ أعْقَبَهُ ببَيان ما كانَ عليه آباؤُهُم مِنَ الشَّكِّ في مِثْلِ هَذا، فقالَ سُبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ﴾؛ مُبَيِّنًا أنَّهم مُسْتَحِقّون للعذاب، ليَكونَ ذلك حثًّا لَهُم عَلى شُكْرِ نِعْمَةِ اللّه تعالى في إمْهالِه إيّاهُم، وتَحْذيرًا مِن نِقْمَةِ اللّه سبحانه إن تَمادوا في باطِلِهم[1].

### شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: (بين) تدلُّ تصاريفُها على بُعْدِ شَيْءٍ وانكشافِه[2]، ومِنَ الانكشافِ قولُهم: بانَ الشَّيءُ؛ إذا اتَّضَحَ[3]، وتبيَّنَ؛ إذا ظَهَرَ[4]. والبيِّنَةُ: الدّلالة الواضحةُ، عَقْلِيَّةً كانَت أو حسّيَّةً[5]، والبيِّناتُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ معناها: الحُجَجُ الواضحَةُ المُظهِرةُ أنَّ يوسف عليه السلام مختارٌ من عندِ اللّهِ تعالى للإرشادِ إلى الخَيْرِ[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 64.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بين).
(3) الجوهريّ، تاج اللُّغة: (بين).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (بين).
(5) الرّاغب، المفردات: (بين).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 138.

2) ﴿شَكٍّ﴾: (شك) تدلّ اشتقاقاتُها على التّداخل، ومن ذلك قولهم: شككتُه بالرُّمح؛ أي: طعنتُهُ به، فداخلَ السِّنانُ جسمَهُ، ومِنْه أيضًا: الشَّكُّ؛ وهو ضِدُّ اليقين، وإنَّما سُمّيَ بِذلِكَ لِأنَّ الشّاكَّ كَأنَّهُ شُكَّ لَهُ أمرانِ في مَشَكٍّ واحِدٍ، وهوَلا يَتَيَقَّنُ واحِدًا مِنْهُما[1]. والشَّكُّ في قول اللّه تعالى: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ﴾ هو ضدُّ القطعِ واليقينِ، وقد يُطلق على نوعٍ خاصٍّ منه، وهو استواء طرفَي التَّجويز؛ فيكون الشَّكُّ: إدراكَ الشَّيء مع احتمالِ ضدٍّ مساوٍ[2].

3) ﴿مُسْرِفٌ﴾: (سرف) تدُلُّ اشْتِقاقاتُها على تَعَدّي الحدِّ ومُجاوَزَته، ومِنْهُ قولُهُم: في الأمْرِ سَرَفٌ، أي: مجاوزَةٌ للقَدْرِ[3]. والسَّرف عامٌّ في كُلِّ فِعْلٍ يُجاوِزُ بِهِ الإنسانُ الحَدَّ، واشْتَهَر إطلاقُهُ في الإنْفاقِ. والإسرافُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ هو الشِّرك، فالمُسْرِف: المُشْرِك[4]؛ لِمُجاوَزَته الحدَّ في أعظم حقٍّ، وهو حقُّ اللّهِ تَعالى.

4) ﴿مُّرْتَابٌ﴾: (ريب) تَدُلُّ اشْتِقاقاتُها على شَكٍّ مَعَ تُهَمَةٍ[5]، ويُطلق الرَّيبُ على الشَّكِّ معَ خوفٍ، يُقال: رابَهُ الأمْرُ؛ إذا أَدْخَلَ عَلَيْهِ شَكًّا وخَوْفًا[6]، وأصلُ الرَّيْبِ: "أنْ يَنْزِلَ بالقارِّ السّاكِنِ ما يُزْعِجُه ويَسوؤُه"[7]. والمُرتاب: الشّاكُّ؛ وفي قولِ اللّه تعالى: ﴿مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ معناه: الشّاكُّ فيما جاء بِهِ الأنبياءُ عليهم السلام[8].

5) ﴿مَقْتًا﴾: (مقت) تدورُ تَصْريفاتُها على الشَّناءَةِ والقُبحِ[9]، ومِنهُ: المَقْتُ؛ وهو أشَدُّ البُغْض[10]. ومِن هذا المعنى المَقتُ الواردُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّـهِ﴾؛ إذْ هو شِدَّة البُغْضِ[11].

6) ﴿يَطْبَعُ﴾: (طبع) تدلُّ اشْتِقاقاتُها على مَثَلٍ في نهايةٍ ينتهي إليها أمرٌ ما حتّى يُختَم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شك).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 98، وابن عثيمين، الأصول من علم الأصول، ص: 16.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرف).
(4) الواحديّ، التّفسير الوجيز، ص: 945.
(5) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: 1/ 332، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 264.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/ 463.
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقِيّ المؤصَّل: 2/ 742.
(8) الواحديّ، التّفسير الوجيز، ص: 945.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مقت).
(10) ابن سيده، المحكم، والزّبيديّ، تاج العروس: (مقت).
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 143.

عندها، يقال: طبعتُ على الشّيء طابَعًا، ثمّ يُحمل عليه، فيُقال: طَبْعُ الإنسانِ؛ وهي سجيَّتُهُ. ومن هذا الباب قولُهم: طبعَ اللّهُ على قلبِ الكافر، كالوارد في قول اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾، كَأنَّهُ خَتمَ عَلَيْهِ فلا يَصلُ إلَيه هُدًى ولا نورٌ، ولا يوفَّقُ لِخيْرٍ(1).

## ۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ضَلالُ المُكابِرينَ في آيـاتِ اللـهِ تَعالى

بيَّن اللّهُ سُبْحانَه توبيخَ الرَّجلِ المؤمن لقَوْمِه قائلًا لَهُم: ولقد أرسلَ اللّهُ سُبحانَهُ إليكم النَّبيَّ الكريمَ يوسُفَ عليه السلام من قَبْلِ موسى عليه السلام، بالأدلَّةِ الظّاهرةِ على صِدْقِه، وأمَرَكُم بعبادةِ اللّهِ تَعالى وحدَهُ، فَما زِلْتُم مُرْتابينَ مِمّا جاءَكُم به في حياتِه، حَتّى إذا ماتَ؛ ازْدادَ شَكُّكُم وشِرْكِكُم، وقلتُم: إنَّ اللّهَ تَعالى لَن يُرْسِلَ رَسولًا بعدَهُ. مِثْلُ ذلك الضَّلالِ يُضِلُّ اللّهُ تَعالى كُلَّ مُتجاوِزٍ للحَقِّ، شاكٍّ في وحدانيَّةِ اللّه سُبحانَهُ، فلا يوَفِّقهُ إلى الهدى والرَّشاد.

الذين يُخاصِمون في آيات اللّهِ ﷻ وحُجَجِه لدَفْعِها من غير أن يكون لَدَيْهِم حُجَّةٌ مقبولَةٌ، كَبُرَ ذلك الجِدالُ مَقْتًا عندَ اللّهِ تَعالى وعند الذين آمَنوا، كما خَتَمَ بالضَّلال وحَجَبَ عن الهدى قلوبَ هؤلاء المُخاصِمين؛ يَخْتِمُ اللّهُ تعالى على قلبِ كُلِّ مُسْتَكْبِرٍ عن توحيدِ اللّه سُبحانَهُ وطاعَتِه، جَبّارٍ بكثرَةِ ظُلْمِه وعُدْوانِه(2).

## ۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### دلالَةُ الواوِ في ﴿وَلَقَدۡ﴾:

اشْـتِراكُ الـجُـمْـلَـتَـيْنِ في غَرَضِ الوَعْظِ

الواوُ في ﴿وَلَقَدۡ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ عاطفةُ الجملةَ بعدَها على الآيةِ قَبْلَها ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾ [غافر: 33]؛ فتكونُ مِن تمامِ مَوْعِظَةِ مُؤْمِن آلِ فِرْعَون، فالعطف هو لاشْتِراكِ الجُمْلَتَيْنِ في الخبريَّة، وبينَهُما

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طبع).

(2) نخبة من أساتذة التفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 471.

مُناسبَةٌ لَفْظيَّة ومعنويَّة؛ أمّا اللَّفظيَّة فاتِّحادهما في الفعليَّةِ، وأمّا في المَعْنى؛ لاشْتِراكِهِما في غرَضِ الوعظِ. ويَحْتَمِلُ أن تكونَ الواوُ استئنافيَّةً، والجملةُ بعدَها مستأنفة استئنافًا نحويًّا، إذا حَمَلْنا لفظَ الآيةِ على كونِه من كلام موسى عليه السلام[1]. والأوَّل أظهَرُ؛ لأنَّه أوفقُ لِسياقِ الآياتِ الكريمَة.

### نُكْتَةُ التَّوْكيدِ بِاللّامِ و(قَدْ):

التَّرَقّي في الوَعْظِ مِنَ النُّصْحِ إلى التَّذْكيرِ بِتَكْذيبِ الأَنْبياءِ

صُدِّرت الجملَةُ بتَأْكيداتٍ ثلاثةٍ: اللّام المَوطِّئة للقَسَم، والقَسَم المحذوف، و(قَد) التَّحقيقيَّة؛ وذلكَ لأَنَّ مؤمِنَ آلِ فرعونَ توسَّمَ في المُخاطبين قِلَّة جَدْوى نُصْحِهم، وأنَّهم مُصِرّون على تَكْذيبِ نَبيِّ اللّهِ تعالى موسى عليه السلام، فتَرَقَّى في وعْظِهم إلى اللَّوْمِ على ما مَضى، ولتَذْكيرِهم بأنَّهُم مِن ذُرّيَّة قوم كذَّبوا نبيَّ اللّه تعالى يوسُفَ عليه السلام لَمّا جاءَهُم بالأدِلَّة والحُجَج، فتَكْذيبُ المُصْلحينَ عادةٌ مَعْروفَةٌ في أسْلافِهم، فَتَكونُ طَبْعًا فيهم، ولذا أُكِّد الخبَرُ بهَذِهِ المُؤَكِّدات؛ تحقيقًا للخبَر؛ إذْ هُم مَظِنَّة إنْكارِه؛ لبُعْدِ عَهْدِهم به[2].

### دِلالَةُ الخِطابِ في الأفْعالِ: ﴿جَآءَكُمْ﴾ و﴿فَمَا زِلْتُمْ﴾ و﴿قُلْتُمْ﴾:

تَحْميلُهُمْ تَبِعَةَ تَكْذيبِ أسْلافِهِمْ

عُدّيت الأفعالُ ﴿جَآءَكُمْ﴾ و﴿فَمَا زِلْتُمْ﴾ و﴿قُلْتُمْ﴾ إلى ضَميرِ الخِطاب، وهُم ما كانوا مَوْجودينَ وقْتَ الخطاب؛ وذلكَ لِغَرَضِ حَمْلِ تَبِعَةِ أسْلافِهِم عَلَيْهِم، وتَسْجيلًا عَلَيْهِم بأنَّ تكذيبَ النّاصِحينَ واضْطِرابَ عُقولِهِم في الانْتِفاع بأدِلَّة الصِّدْقِ قَد ورِثوهُ عَن أسلافِهِم في طَبائِعِهم، وقَد تَرَسَّخ في نُفوسِهِم[3].

### بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في ﴿جَآءَكُمْ﴾:

التَّصْويرُ البَلاغيُّ لِظُهورِ البَيِّناتِ

المَجيءُ الذي دلَّ عليهِ الفِعْلُ ﴿جَآءَكُمْ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ هو من باب المجازُ العقليّ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 484.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 138.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 141.

أو الحُكميّ في إسناده ليوسُف عليه السلام؛ لكونه السّببَ في ظهور هذه البيّنات على يديه، وإلّا فإنّ اللّه تعالى هو الذي أيّده بهذه البيّنات. وإمّا أنّه مُسْتَعارٌ للحصولِ والظُّهور، والمَعْنى: ولَقَدْ ظَهَرَ لَكُم يوسُفُ بالبيِّناتِ[1]، فالاسْتِعارَةُ تَصريحيَّةٌ تبعيَّة، حيثُ شبّه الظّهورَ بالمَجيء، بجامع التّحقّق، وفيها تَصْويرٌ بديعٌ لظُهور البيِّناتِ في صورَةِ شَخْصٍ يَحْمِلُ رسالَةً عظيمةً؛ مِمّا يُضْفي على النَّصِّ قوَّةً في التَّأثير، ووَقْعًا في النُّفوسِ.

**نُكْتَةُ تذكيرِه لهم بيوسفَ عليه السلام:**

الحَثّ على الاستجابة لدعوة موسى عليه السلام

ذكّرهم بيوسفَ عليه السلام تحديدًا دون غيره من الأنبياء؛ لأنّهم يعرفونه في تاريخهم المحفوظ، ويعرفون قصّته، حيثُ ارتبط اسمُه بالقَحْط الذي حذّرهم منه، والذي أصاب مصر في ذلك الوقت، وارتبط اسمُه كذلك بالفرج الذي أصابهم على يديه، فحفظ اللّه على يديه البلادَ والعِباد من هلاكٍ مُحقّقٍ، فارتبط اسمُه بأحداث عظيمة، وفترةِ ازدهار عاشتها مصرُ في عهده، وإنّ من شأن هذا التّذكير لهم به أن يُحفّزَهم على اتّباع موسى عليه السلام؛ لأنّه من نفس المشكاة التي خرج منها يوسفُ عليه السلام.

**مَعْنى ﴿مِن﴾، ودِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالظَّرْفِ ﴿قَبۡلُ﴾:**

المُبالَغةُ في العِتابِ والتَّوْبيخِ

جاء التَّنصيص على القَبْليَّة في قول اللّه عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ مع أنَّ كونَ يوسفَ عليه السلام قبلُ أَمْرٌ ظاهرٌ؛ وذلك للمُبالغَةِ في العِتاب والتَّوبيخ بتَذْكيرِهم بأنَّ التَّكذيبَ لَيْسَ جديدًا حادِثًا، بَل هو مُتَجَذِّر فيهم؛ إذِ التَّكذيب دَيْدَنُ آبائِهم مِن الأنبياءِ السّابقينَ. ولَمّا لم يكن مَجيئُه مُسْتَغْرِقًا ما سبقَ موسى عليه السلام مِن الزَّمان؛ أُدْخِلَ حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾، فقال سُبحانَهُ: ﴿مِن قَبۡلُ﴾[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 138.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 64.

### مَعْنى الباءِ في ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

ظُهورُ البَيِّناتِ أَدْخَلُ في الإنْكارِ عَلى مُكَذِّبيها

الباءُ في ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ مِن قول اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ للمُصاحَبَةِ والمُلابسَة[1]، والمَعْنى: أنَّ يوسُف عليه السلام قَد ظهر لَكُم مُلابَسًا بالبَيِّناتِ مَصْحوبًا بِها، والمقصودُ: بيانُ أنَّهم حالَ تَكْذيبِهِم إيّاهُ كان مَصْحوبًا بِما يدُلُّ على صِدْقِه، وهَذا يُقَوّي لَوْمَهم وذَمَّهم على تَكْذيبِهِم.

### مَعْنى (أل) في (البَيِّناتِ):

اسْتِحْقاقُ التَّوْبيخِ في تَكْذيبِ البَيِّناتِ الواضِحَةِ

(أل) في (البَيِّنات) مِن قول اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ دالَّة على الكَمالِ؛ أي: أنَّ يوسُفَ عليه السلام ظَهَر مَصْحوبًا بالبَيِّناتِ الواضِحاتِ غايةَ الوُضوحِ في دلالَتِها عَلى الحقِّ، البالغةِ أعلى مَراتِب البيانِ، وهذا يَقْتَضي اسْتِحْقاقَ التَّوبيخِ والذَّمِّ لكُلِّ مَن لَم يُؤْمِن بِها، فالتّعريفُ للبيّنات في هذا الموضع هو تعريفٌ ذهنيٌّ حُضوريٌّ، وهو يعود على الدّلائل المعروفة التي جاء بها يوسفُ عليه السلام آباءَهم مِن قبلهم.

### دلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ(البَيِّناتِ) مادَّةً وصيغَةً:

بيانُ وفْرَةِ الأدِلَّةِ وكَثْرَةِ أصْنافِها

جاء التَّعبيرُ بالبَيِّنات في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ لِجَمْعِها بينَ قوَّة المادَّة وسَعَةِ الصّيغة؛ إذْ إنَّ مادَّة الباءِ والياءِ والنّون تدلُّ على الوُضوح والتَّمييز بَيْنَ الأشياءِ، وهَذا يدُلُّ عَلى أنَّ الأدِلَّة التي تُثْبِتُ صِدْقَ رسالَةِ يوسُف عليه السلام جليَّةٌ قويَّة، فاصلةٌ بينَ الحقِّ والباطلِ. وعُبِّر بصيغةِ الجمعِ؛ للإيماءِ إلى وفْرَةِ الأدلَّةِ وكثرة أنواعِها، ممّا يدُلُّ على شموليَّتِها وإحْكامِها، تأكيدًا لصدقِ رسالَةِ يوسُف عليه السلام، ومبالغةً في توبيخِ المُكَذِّبين به.

### الموقع النّحويّ لقوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

شِبهُ الجملة هنا في محلّ جرّ صفة لموصوف محذوف، إذ إنّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 138.

تقدير الكلام: ولقد جاءكم يوسف من قبل بالآيات البيّنات، فَحُذِفَ الموصوف وأُقيمت الصّفة مقامه؛ وذلك للدّلالة على أنّ هذه الصّفة باتت عيْن الموصوف.

حُذفَ الموصوف وأُقيمت الصّفة مقامه

**معنى الفاءِ في ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ﴾:**

الفاءُ في ﴿فَمَا﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ﴾ عاطفةٌ، وهي دالَّةٌ على التَّعْقيبِ بلا مهلةٍ، وهذا مُشْعِرٌ بِمُبادَرَتِهم إلى التَّكذيبِ واسْتِمْرارِهِم عليهِ مِن غَيْرِ نَظَرٍ في الأدِلَّة المُتَكاثِرَةِ ولا تَأمُّلِها.

العَمى عنِ النَّظَرِ في البَيِّناتِ مَعَ كَثْرَتِها

**بلاغةُ المَجازِ في قوله: ﴿فِي شَكّٖ﴾:**

﴿فِي﴾ حرفٌ دالٌّ على الظَّرفيَّة المجازيّة، وهو في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ﴾ يُفيد انْغِماسَهُم في الشَّكِّ، حتّى صار هذا الشَّكُّ كأنَّه مكانٌ مُحيط بهم، مِمّا يَقْتَضي سَطْوَةَ الشَّكِّ عليهم، وعَجْزِهِم عنِ الخُروج منهُ إلى اليَقينِ، كإحاطة الظّرف بالمظروف، على سبيل الاستعارة التّبعيّة في الحرف.

بَيانُ انْغِماسِهِمْ في الشَّكِّ والتَّكْذيبِ

**نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿شَكّٖ﴾:**

نُكِّر لفظُ ﴿شَكّٖ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ﴾: تَعْظيمًا للشَّكِّ المانِع لَهُم مِن قَبولِ الحقِّ والإقرارِ بِهِ وتهويلًا لَهُ، ويجوز أن يكونَ التَّنكيرُ لإرادَةِ النَّوعِ، أي: أنَّهم كانوا في نوعٍ غريبٍ مِنَ الشَّكِّ، مخالِفٍ ما عُهِدَ مِن أنواعِ الشُّكوك؛ وذلكَ لِفَظاعَتِه وشَناعَتِه.

فَظاعَةُ الشَّكِّ الذي كانوا عليه

**مَعْنى (مِنْ) و(ما) في قَوْلِهِ: ﴿مِّمَّا﴾:**

(مِنْ) في ﴿مِّمَّا﴾ مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ﴾ حرفٌ دالٌّ على السَّبَبِيَّة، والمعنى: أنَّ مجيءَ الحقِّ مصحوبًا بالأدِلَّة الواضِحَة كانَ سَبَبًا في وُقوعِ هؤلاءِ في الشَّكِّ والرَّيْب، وهذا دليلُ عنادٍ واستكبارٍ؛ لا بسبَبِ خَفاءِ الحقِّ؛ إذْ أدلّتُهُ

بَيانُ عِظَمِ عِنادِهِمْ واسْتِكْبارِهِمْ

ظاهِرَةٌ غايةَ الظُّهور. و(ما) في ﴿مِّمَّا﴾ اسمٌ موصولٌ بِمَعْنى: الذي؛ أي: فَما زِلْتُم في شَكٍّ مِنَ الذي جاءَكُم به، وهو يَدُلُّ على العُموم، أي: صدرَ مِنْكُمُ الشَّكُّ في مُقابِل جميعِ ما جاءَ بِهِ، فَلَم تَقْبَلوا منهُ شيئًا، وهذا مِنْكُم في غايَةِ العِنادِ والانْحِرافِ.

### المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِـ ﴿جَآءَكُم﴾:

التَّنْصيصُ على مَحَلِّ شَكِّهِمْ وهو الوَحْيُ

﴿جَآءَكُم﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ صلةٌ لـ (ما) لا محلَّ لَها مِنَ الإعراب، وفي جُمْلَةِ الصِّلة تَخْصيصٌ للمَعْنى؛ بحيثُ يُبْرِزُ محلَّ شَكِّهم وهوَ الوحيُ ذاتُهُ، وهذا يَقْتَضي تكذيبَهُم بِهِ مِن كُلِّ مَن جاءَهُم به.

### نُكْتَةُ تَكْريرِ فِعْلِ المَجيءِ:

إعْراضُهُم عنِ الحَقِّ وصاحِبِهِ موجِبٌ لَوْمَهُمْ وذَمَّهُمْ

كُرِّر فِعلُ المَجيءِ (جاءَكُمْ) في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾؛ للتَّأكيدِ عَلى وُصولِ الحقِّ لَهُم؛ بحيثُ تَحقَّق مَجيءُ الرَّسولِ إليهم، وتحقَّق مجيءُ رِسالتِهِ، مِمّا يَسْتَلْزِمُ اسْتِحْقاقَهُم اللَّومَ والذَّمَّ على إعْراضِهِم عنِ الحقِّ وصاحِبِه.

### مَعْنى الباءِ في ﴿بِهِۦ﴾:

بَيانُ اخْتِلافِ المَجيئَيْنِ

الباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ تدلُّ على المُصاحبَة - على ما هوَ الأصلُ فيها - ، وذلك للتَّنصيصِ عَلى أنَّ المَجيءَ الثّاني لا يُراد به المَجيءُ الأوَّل، وهو مجيءُ يوسُفَ عليه السلام، وإنَّما هو ما جاءَهُم بِهِ مِنَ البَيِّنات والأدِلَّة الدّالَّة على الحقِّ؛ إذْ لو جاءَ النَّظم القرآنيُّ: (فَما زِلْتُم في شَكٍّ ممّا جاءكم) مِنْ غَيْرِ (بِهِ)؛ لتُوُهِّم أنَّ (ما) مصدريَّةٌ، وأنَّ المعنى: فَما زِلْتُم في شكٍّ مِنْ مَجيئِهِ إيّاكُم، فيكونُ المَعْنى مُكَرَّرًا.

**نُكْتَةُ إفْرادِ الضَّميرِ في ﴿بِهِۦ﴾ وتَذْكيرِه:**

**التَّكْذيبُ بِشَيْءٍ مِـنَ الـبَـيِّـنـاتِ تَكْذيبٌ بِها كُلِّها**

أُفرد الضَّمير وذُكِّرَ في ﴿بِهِۦ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾؛ لِرُجوعِه إلى الاسْمِ المَوْصولِ (ما) من ﴿مِّمَّا﴾، فَروعيَ لفظُهُ دون معناهُ، ولو جاءَ على المَعْنى؛ لكانَ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (مِمّا جاءكُم بِها) أي: البَيِّناتِ. وفي إفرادِ الضَّمير إيماءٌ إلى أنَّ البيِّناتِ تُحَقِّق هدفًا واحدًا، فكانَ التَّكذيبُ بِشَيْءٍ مِنْها تكذيبًا بِها جميعِها.

**مَعْنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ودِلالَتُها:**

**اسْتِمْرارُهُمْ عَلى الشَّكِّ ودَوامُهُمْ عَـلـى الـبـاطِـلِ والعِنادِ**

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ﴾ حرفٌ دالٌّ على الغايةِ، وغايتُها هو مَضمونُ الجُمْلَةِ التي بعدَها؛ وهي: ﴿إِذَا هَلَكَ﴾[1]، وهذه الدّلالَةُ تُبْرِزُ شكَّهم في يوسُفَ عليه السلام زمنَ وجودِه بينَهم، واستمَرَّ هذا الشَّكُّ إلى وفاتِه، وهذا يدلُّ على عِنادِهم وإصْرارِهم على الباطِل.

**نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿إِذَا﴾ دونَ (إنْ):**

**اسْتِمْرارُ الشَّكِّ مَعَ تَحقُّقِ غايَةِ الحَدَثِ**

جاء التَّعبير في جُمْلَةِ الشَّرط بـ ﴿إِذَا﴾ دونَ (إنْ) مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ﴾؛ لِما تَدُلُّ عليهِ (إذا) مِنَ الجَزْمِ بِوُقوعِ مَدْخولِها، بخلافِ (إن)؛ فَهيَ تَدُلُّ على الشَّكِّ في وقوعِه، والمناسِبُ للسّياق هاهنا هو ﴿إِذَا﴾؛ لأنَّ موتَ يوسُفَ عليه السلام أمرٌ محقَّق، وفي التَّعبيرِ بـ ﴿إِذَا﴾ إيماءٌ إلى اسْتِمْرارِ شَكِّهم، حتّى معَ تحقُّقِ غايةِ الحدث.

**نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالشّرطيّة ﴿إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ﴾:**

في التّعبير بالجملة الشّرطيّة دلالةٌ على ارتباط جواب الشّرط بفعله، أي: إنّهم قالوا ما قالوه بعد تيقّنهم هلاكه، وأنّهم ما قالوا ذلك في حال حياته.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 140.

### نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالهَلاكِ:

تَمْحيضُ النُّصْحِ وإيهامُ عَدَمِ التَّعْظيمِ

عبَّر مؤمنُ آلِ فِرْعونَ عَن مَوْتِ يوسُفَ عليه السلام بـ ﴿هَلَكَ﴾، وذلك في قولِ اللّهِ تَعالى حكايةً عنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ﴾؛ وذلك لإيهامِهم أنَّه غيرُ مُعَظّم لَهُ؛ لئلّا يقال: إنَّه ينافِح عن معَظَّمِهِ لذات المعظَّم، لا للحقِّ الذي مَعَهُ، فكان التَّعبير بـ ﴿هَلَكَ﴾ موهِمًا أنَّ ما يقولُه هو محضُ نصيحةٍ ونظَرٍ في العاقِبَةِ[1].

وزعم بعضُهم أنّ التّعبير بالهلاك عائدٌ إلى ملحظٍ تاريخيٍّ، وهو أنّ يوسف عليه السلام مات ولم يُعقِّب خَلْفَه نسلًا يَسُدّ مكانَه.

### الموقع النّحويّ لقوله: ﴿قُلْتُمْ﴾:

الجملة جواب الشّرط غير الجازم، ولم ترتبط بالفاء للدّلالة على أنّ القول هو جواب الشّرط، فالقولُ ترتّب على الهلاك مباشرة دونَ توسّط.

### دلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿يَبْعَثَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

البَعْثُ بَيْنَ إحْياءِ القُلوبِ وإظْهارِ الجُحودِ

مادَّةُ البَعْث تدلُّ على الإحياءِ والإقامَةِ بعدَ الموتِ، والتَّعبير ببَعْثِ الرُّسُلِ يومِئُ إلى إحياءِ القُلوب بالوَحْي كَما يُحْيي اللّهُ تَعالى الأمواتَ، وفي قولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ﴾ إظهارٌ لشِدَّةِ جُحودِ أهل الكفر؛ حيثُ نَفَوْا وقوعَ هذا الإرسالِ المُرَتَّبِ عليهِ إحياءُ القلوب. وفي صياغَةِ البَعْثِ بصيغَةِ الفِعلِ المضارعِ دلالَةٌ على الاستمرارِ، والمُراد استمرارُ النَّفْيِ لا نَفْيُ الاستمرارِ؛ إذْ غَرَضُهُم نَفْيُ إرْسالِ الرُّسُل بعدَ يوسُفَ عليه السلام مُطْلَقًا.

### دلالَةُ ﴿مِنۢ﴾ في ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾:

إنْكارُهُمْ بَعْثَ الرُّسُلِ إنْكارًا مُطْلَقًا

لَمّا كان المُراد بالنَّفْي في قَوْلِهم: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ﴾ نفيًا مُسْتَغْرِقًا الأزمانَ المستقبلة كُلَّها؛ حتّى لا يقَعَ بعثٌ في زمَنٍ مِنَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 64.

الأزْمانِ وإنْ قلَّ؛ أُدْخِلَ حرفُ الجرِّ ﴿مِنۢ﴾، فجاء البيانُ القُرآنيُّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾[1].

**نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿رَسُولٗاۚ﴾:**

**إنْكارُ الكُفّارِ سُنَّةَ اللهِ تَعالى في إرْسالِ الرُّسُلِ**

نُكِّر لفظُ ﴿رَسُولٗاۚ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ للدّلالَة على العموم؛ لأنَّ لفظ ﴿رَسُولٗاۚ﴾ نَكِرَةٌ واقعَةٌ في سياقِ النَّفْيِ بـ ﴿لَن﴾، فالكُفّار أَنكروا بعثةَ أيِّ رسولٍ بعد وفاة يوسُفَ عليه السلام، مِمّا يُشْعِرُ بإنكارِهم سنةَ اللّه تعالى المُسْتَمِرَّةَ في إرسالِ الرُّسل لِهدايَةِ النّاس وإقامَةِ الحُجَّة عَلَيْهِم.

**عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:**

**الضَّلالُ العَظيمُ مَصيرُ المُسْرِفينَ المُرْتابينَ**

فُصِل قولُ اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِوقوعِه اسْتِئْنافًا بيانيًّا، فكانَ بينَ الجُمْلَتَيْنِ شِبهُ كمالِ الاتِّصال، وذلك لأنَّ قولَ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ يَبْعَثُ في نَفْسِ المُتَلَقّي سُؤالًا؛ وهو: هذا ضلالٌ عظيمٌ، فهل ضلَّ أحدٌ مثلَهُ؟ فجاء الجوابُ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾[2].

**دلالَةُ التَّشْبيهِ في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:**

**التَّرْهيبُ مِنْ عاقِبَةِ الإسْرافِ والارْتيابِ**

في قولِ اللّه جل جلاله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ أسلوبُ تشبيهٍ؛ حيثُ شُبِّهَ ضلالُ المُسْرِف المُرْتاب بِضَلالِ مَن أعْرَضَ عَنِ الحقِّ وزعَمَ أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ لَن يَبْعَثَ رَسولًا، وهَذا التَّشبيهُ فيهِ تَرْهيبٌ وتَحْذيرٌ؛ فَهو يُخوِّف من عاقِبَةِ مُشابهة لِمَن سبقَ مِن أهلِ الضَّلال ويُرَهِّب مِن ذلك.

**نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ لِلبَعيدِ:**

**فَظاعَةُ الإضْلالِ وشَناعَتُهُ**

عُبِّر باسْمِ الإشارة الدّالِّ على البُعْدِ (ذلك) في قولِ اللّه سُبْحانَه:

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 65.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 65.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾؛ لإنزال البُعْد المعنويّ منزلةَ البُعْد الحسّيّ؛ للدّلالة على عِظَم الإضْلالِ وفَظاعَتِه[1].

**بيانُ القائِلِ في الآيَتَيْنِ الكَريمَتَيْن:**

تكذيبُ قومِ موسى عِبْرَةٌ لِمُشْركي قُرَيْشٍ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ يَحتَمِلُ أن يكونَ مِن تمام كلامِ مُؤْمِنِ آلِ فرعونَ، واسْتَظْهَر ابنُ عاشور أنَّ ذلك كلَّه من كلامِ اللّه تَعالى، وهو مُعْتَرِضٌ بينَ كلامِ المُؤْمِنِ وكلامِ فِرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ﴾، واحتجَّ على ذلك بأنَّ المعانيَ المذكورَةَ من المَعاني الإسلاميَّة، وقد قُصِدَ مِنْ ذلك العبرةُ بحالِ المكذّبين بموسى ﷺ تَعْريضًا بِمُشْركي قُرَيْش، والمَعْنى: كَضَلالِ قَوْمِ فِرعونَ يُضِلُّ اللّهُ تعالى مَن هو مُسْرِف مرتابٌ أمثالُكم، فكذلكَ يَكونُ جَزاؤُكُم. وقَوّى هَذا بِما وَرَد في آخرِ الآيةِ: ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾، ووَجْهُ ذَلك: أنّه لَم يكُن معَهُ مُؤْمِنٌ بِموسى وهارونَ عليهما السلام غيرُهُ[2].

**دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُضِلُّ﴾:**

تَرْهيبُهُمْ وتَخْويفُهُمْ مِنَ الإسْرافِ

جاء التَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارع ﴿يُضِلُّ﴾ في قول اللّه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾؛ للدّلالة على التَّجدُّد والاستمرار، مِمّا يدُلُّ على أنَّ الإضلالَ ليسَ مِمّا يَحْدُثُ مَرَّةً مُنْفَرِدَةً، وإنَّما يتجدَّد بتجدُّد الإسرافِ والارْتيابِ، وفيه تصويرٌ للإضلالِ كأنَّه يقع زمَنَ الخطاب، وذلك أَشَدُّ تَرْهيبًا وتَخْويفًا.

**دلالةُ إسْنادِ الإضْلالِ إلى اللهِ تعالى:**

الإضْلالُ الإلَهيُّ عَدْلٌ لا ظُلْمَ فيهِ

في إسنادِ الإضْلال إلى اللّه ﷻ في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ إسنادٌ حقيقيٌّ؛ لِما تقرَّر من أنَّ ما يُضاف إلى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 276، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 321.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 141.

اللهِ سُبحانَهُ لا يدخلُهُ المجازُ - كما هو طريقةُ أهلِ الحديثِ -، وهذا الإضلالُ عدلٌ مِنْهُ سبحانَهُ، فهو تعالى يُضِلُّ مَنِ اختارَ الضَّلالَ وفعلَه، كما قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصّف: 5]، فيكون الإضلالُ ضربًا مِنَ العِقابِ الإلهيِّ الذي لا ظُلْمَ فيهِ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ.

**بلاغَةُ وضعِ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ:**

إلْقاءُ المَهابَةِ في نُفوسِ المُخاطَبينَ

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ إظهارٌ في محلِّ الإضْمارِ، وذلكَ لأنَّ مُقْتَضى الظّاهرِ أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (كذلكَ يُضِلُّ مَن هو مسرفٌ مرتاب)؛ لتقدُّمِ ذِكْرِ الاسمِ الأحسنِ قبلُ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾، ونُكتةُ ذلك: إدخالُ المَهابة، وإلقاءُ الرَّوعِ في نفوسِ المُتَلَقّين، وتعظيمُ الأمرِ لبيانِ صلاحيَّةِ الحالِ لذلك. وعُدِلَ عنِ الإضمارِ أيضًا؛ لئلّا يُخصَّ الإضلالُ بالحيثيَّةِ المتقدِّمةِ في الآيةِ، بل جُعِلَ حُكْمًا عامًّا[1].

**دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمَوْصولِ وصِلَتِهِ في قولِه: ﴿مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾:**

الإشارَةُ إلى عِلَّةِ الحُكْمِ

﴿مَنۡ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ اسمٌ موصولٌ مبنيٌّ على السُّكون في محلِّ نصبِ مفعولٌ بهِ، وجُمْلَةُ ﴿هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ صلتُهُ لا محلَّ لَها مِنَ الإعرابِ. وفي التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ وصِلتِهِ إيماءٌ إلى عِلِّيَّةِ الحُكْمِ، وأنَّ الإسرافَ والارْتيابَ وصْفانِ اسْتَحَقَّ بهما هؤلاءِ الإضْلالَ، فكانَ الإضلالُ عِقابًا إلهيًّا واقعًا على وجهِ العدلِ.

**نُكْتَةُ تَقْديمِ ﴿مُسۡرِفٞ﴾ عَلى ﴿مُّرۡتَابٌ﴾، مع تنكيرهما:**

الإسْـرافُ مَبْدَأُ الانْحِرافِ المُؤَدّي إلى الارْتيابِ

قُدِّمَ ﴿مُسۡرِفٞ﴾ على ﴿مُّرۡتَابٌ﴾ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ من باب تقديمِ السَّببِ على المُسَبَّبِ، وذلك لأنَّ الإسرافَ سببٌ مُؤَدٍّ إلى الارتيابِ، فالإسْرافُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 65.

بَدءُ الانحرافِ المُفْضي إلى الشَّكِّ والارتيابِ. وجاء هذان الاسمان مُنَكّرَيْن للدّلالة على التّحقير لمن كان هذا شأنه، فضلًا عن دلالتها على العموم لتشملَ كلَّ من كان هذا وصفُه.

**الموقع النّحويّ لقوله: ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾:**

الاستمرار في الضّلال مرتبطٌ بالإسراف والرّيب

الاسم الموصول ﴿مَنْ﴾ في محلّ نصب مفعول به لفعل الإضلال، وما بعدَه صلةُ الموصول لا محلّ لها من الإعراب، والغرض من مَجيء المفعول هنا اسمًا موصولًا هو زيادةُ النّعي على مَن كان هذا وصفُه.

**عِلَّةُ فَصْلِ قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ عَمّا قَبْلَهُ:**

الجدالُ بِغَيْرِ عِلْمٍ صِفَةٌ لازِمَةٌ لِلْمُسْرِفِينَ المُرْتابين

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ﴾ عن الجُمْلَةِ قبلَهُ؛ لِوُقوعِه بدلًا مِمّا قبلَهُ، وشأنُ البدَلِ أنْ لا يُعطفَ على المُبْدَلِ مِنْه. ويجوزُ أن يكون فَصْلُ الآيةِ عمّا قبلَها؛ لِكَوْنِها اسْتِئْنافًا بيانيًّا، فيكون بينَ الجُمْلَتَيْنِ شِبهُ كمالِ الاتّصال؛ وذلكَ لأنَّ قولَ اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ يَبْعَثُ في نَفْسِ المُتَلَقّي سؤالًا؛ وهو: ما حقيقةُ هَؤُلاء الجامِعين بينَ الإسْرافِ والارْتيابِ، فجاءَ الجوابُ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ﴾.

**غَرَضُ التَّعْبيرِ بِالاسْمِ المَوْصولِ وصِلَتِهِ:**

اشْتِهارُهُم بالجِدالِ الباطِلِ

جاء التَّعبيرُ بالمَوْصولِ وصِلَتِه في قولِ اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ﴾ زيادةً في بيان المُسْرِفينَ المُرْتابينَ، وإيماءً إلى أنَّ مضمونَ الصِّلة مِمّا عُرِفوا بِهِ[1]؛ إذْ من شَأْنِ الصِّلَةِ أن يكونَ مَضْمونُها معروفًا ومُقَرًّا به.

**المَوْقِعُ النَّحْوِيُّ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:**

أثَرُ الإعْرابِ في إثْراءِ المَعاني

﴿ٱلَّذِينَ﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ﴾ بدلٌ مِنَ المَوْصول الأوَّل ﴿مَنْ﴾ في قولِه: ﴿مَنۡ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 142.

﴿هُوَ مُسۡرِفٞ﴾ أو بيانٌ له، أو صفةٌ باعتبارِ معناهُ[1]. ويجوز أنْ يكونَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محلِّ رفعٍ على الابتداءِ، وخبرُه: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ﴾، أو خبرُه: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا﴾ ولا بُدَّ من تقديرِ مضافٍ على هذا الوجهِ يَرْجِعُ إليه الضَّمير، والتَّقدير: جِدالُ الذين يُجادِلون كَبُرَ مَقْتًا[2].

### دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾:

التَّصْريحُ بِذَمِّهِمْ وذَمِّ جِدالِهِمْ

عُبِّرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ﴾؛ للدّلالة على تَجَدُّدِ جِدالِهِم وتَكَرُّرِه مِنْهُم، وأنَّهم لا يَنْفَكّون عنه. وهذا صريحٌ في ذَمِّهِم، وكنايةٌ عن ذَمِّ جِدالِهِم الذي اقْتَضى ضلالَهُمْ[3].

### دلالَةُ الظَّرْفِيَّةِ في قوله: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

الإيماءُ إلى ظُهورِ الحَقِّ وقوَّتِهِ

﴿فِيٓ﴾ حرفُ جرٍّ يدُلُّ على الظَّرفيَّة، والظَّرفيَّة في قولِ اللّه تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مجازيَّة، وفي ذلكَ دِلالَةٌ عَلى اسْتِغْراقِ المُجادِلين في آياتِ اللّهِ تعالى، كأنَّهم داخِلَها يَتَنازَعونَها مُحاوِلين إبطالَ حُجَجِها. ففي الظّرفيّة استعارةٌ تبعيّة في الحرف. وفيه أيضًا إيماءٌ إلى قوَّة الحقِّ وظُهوره؛ حيثُ صوِّرت الآياتُ في صورَةِ ما يُحيط بِهِم إحاطَةً تامَّةً؛ فلا يُمَكِنُهُم دَفْعُ حُجَجِ الآياتِ الدّامِغَة أو الفرار من سُلْطانِها.

### نُكْتَةُ إضافَةِ الآياتِ إلى الاسْمِ الأحْسَنِ:

بَيانُ عِظَمِ جُرْمِ الـجِـدالِ في الآياتِ

أُضيفَتِ الآياتُ إلى الاسْمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ﴾؛ تعظيمًا للآياتِ بإضافَتِها إلى العَظيمِ ﷻ، وما يَصْدُرُ مِنَ العَظيمِ لا يكونُ إلّا عظيمًا. وهذهِ الإضافَةُ تُضْفي هيبةً على الآياتِ، وتُبَيِّنُ عِظَمَ جُرْمِ الجدال

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 276.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 6/ 167.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 142.

فيها؛ إذِ الذين يُجادِلونَ فيها لا يُجادِلونَ في آياتٍ مجرَّدةٍ، بل في آياتِ اللّهِ الذي لهُ جميعُ أوصافِ الكمالِ والجَلالِ[1].

**معنى الباءِ في قوله: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾:**

جِدالُ المُكَذِّبينَ بَيْنَ الأهْواءِ وغيابِ الحُجَّةِ

الباءُ في ﴿بِغَيۡرِ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌ على الاستعانةِ[2]، أي: أنَّ جِدالَهُم قائمٌ على غيرِ حُجَّة يَسْتَعينونَ بها في الجِدال، وإنَّما هو جِدالٌ يَسْتَنِدُ إلى أمْرٍ معدوم، مِمّا يدلُّ على بُطْلانِ ما هُم عليهِ، وأنَّهم يَخوضونَ في جِدالٍ مُتَّكِئينَ على أهْوائِهِم وأباطيلِهِم فَحَسْبُ. وقد تكون الباء للسّببيّة؛ لأنّ هذا الجِدال ناشِئٌ عن خُلوّهم عن البرهان والدّليل، ويمكن أن تكون أيضًا للملابسة؛ لأنّ هذا الجِدال مقترنٌ بالخُلوّ من البراهين.

**نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾:**

بَيانُ فَسادِ حُجَجِهِمْ وانْقِطاعِها مِنْ كُلِّ وجْهٍ

نُكِّر ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ لإرادةِ العُمومِ؛ لأنَّه واردٌ في سياقِ النَّفي، وذلك مِنْ ألفاظِ العُمومِ، والمَعْنى: نفيُ أيِّ نوعٍ من أنواعِ الحُجَجِ عَنْهُم، سواءٌ أكانَتْ حُجَّةً عقليَّةً أو شرعيَّةً، فليسَ لَهُم أيُّ بُرْهانٍ يُعْتَدُّ بهِ في الجِدالِ. وهذا النَّفْيُ يَقْتَضي ذَمَّهُم وتَوْبيخَهُم؛ لبيانِ فَسادِ حُجَّتِهِم وانْقِطاعِها من كُلِّ وجهٍ.

**المَوْقِعُ النَّحْويُّ لقوله: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾:**

إثْباتُ خُلوِّهِمْ مِنَ الحُجَجِ البَيِّنَةِ

شِبهُ الجُملة هنا في محل نصب على الحاليّة، على معنى أنّهم يفعلون ذلك والحالُ أنّهم لا يمتلكون دليلًا عليه، و﴿أَتَىٰهُمۡ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ في محلِّ جرٍّ صفةٌ لـ ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾[3]، وفي تقييدِ السُّلطانِ بالإتْيانِ دِلالَةٌ على انْعِدامِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 66.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 143.
(3) دعّاس، إعراب القرآن: 3/ 156.

الحُجَّة البَيِّنة الظّاهِرَة؛ إذْ لو كانَ عِنْدَهُم حُجَجٌ لكانَتْ جَليَّة، حتّى إنَّها لِوُضوحِها كأنَّها تأتي بنَفْسِها لإثباتِ الحقِّ.

### بَلاغَةُ المَجازِ في إسْنادِ الإتْيانِ إلى السُّلْطانِ:

مَجازٌ عقليٌّ علاقته السّببيّة والمسبّبيّة

الآيةُ فيها تصويرُ بطلانِ حالِهم؛ بالإيماءِ إلى أنَّ الدَّليلَ الحقَّ لو كانَ موجودًا؛ فإنَّه لا يَحْتاجُ إلى عناءٍ أو تكلُّفٍ لإظهارِه، بَل يَأْتي بِوُضوحِه وبَداهَتِه، فيكونُ في إسنادِ الإتيانِ إلى السُّلطانِ مَجازٌ عقليٌّ علاقته السّببيّة والمسبّبيّة. ويجوزُ أن يكونَ التَّركيبُ اسْتِعارةً؛ حيثُ اسْتُعيرَ الإتيانُ لِمَعْنى الظُّهور والحُصول، والاسْتِعارَةُ على هذا تَصْريحيَّة تبعيَّة.

### بَيانُ فاعِلِ ﴿كَبُرَ﴾:

بُلوغُ المَقْتِ غايَةَ دَرَجاتِهِ وأقْصاها

فاعلُ الفعل ﴿كَبُرَ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ضميرٌ مستَترٌ يعود إلى الجِدال المُسْتَفاد من ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾؛ إذْ في الفِعْلِ مَصْدَرٌ مستكِنٌّ فيه، على طريقةِ قولِه تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: 8] أي: العدلُ، المستفادُ مِنَ الفِعْلِ ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾ [المائدة: 8]. ويجوزُ أن يكونَ الضَّمير في ﴿كَبُرَ﴾ راجعًا إلى الاسم الموصول ﴿مَنۡ﴾ في قولِه تَعالى: ﴿مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾، وعاد الضَّمير مُذَكَّرًا مُفْرَدًا باعْتِبارِ لَفْظِ ﴿مَنۡ﴾[1]. وصيغةُ الماضي في الفِعْلِ ﴿كَبُرَ﴾ يُفيدُ تَحَقُّق هذا الوصف، وبُلوغَهُ غايَةَ درجاتِه ومُنْتَهاها.

### بلاغَةُ الكِنايَةِ والمَجازِ في قولِه: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا﴾:

المَقْتُ الشَّديدُ دِلالَةٌ على فَظاعَةِ الجدالِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ

في جملةِ ﴿كَبُرَ مَقۡتًا﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تصريحٌ بِذَمِّهم، وتقريرٌ بفَظاعَةِ جِدالِهم، وكانَ التَّفظيعُ قبلُ مستفادًا من صِلَةِ المَوْصولِ على وجهِ الكِناية، فكانَ في الآيةِ جمعٌ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 166 - 167، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 276، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 143.

بينَ التَّصريح والكِناية في توبيخِهم وذَمِّهم. والكبَرُ مستعارٌ للشِّدَّةِ، على جِهَةِ الاسْتِعارَةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، والمعنى: مَقَتَ اللّهُ تعالى جدالَهم مَقْتًا شديدًا؛ وذلك كنايَةٌ عَن شِدَّة العِقاب على ذلكَ مِنَ اللّهِ سُبْحانَه[1]. وجملةُ ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ خبريَّةٌ، وفيها ضربٌ مِنَ الدّلالَةِ على التَّعجُّب والاسْتِعْظام لِجدالِهم، والشَّهادةِ عليهِ بِخُروجِهِ إلى حدِّ الكبائرِ[2]، فكانَ في الجُمْلَةِ مَجازٌ مُرْسَلٌ مركَّبٌ.

## المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿مَقْتًا﴾:

شِدَّةُ غَضَبِ اللهِ تعالى عليهم بِسَبَبِ جِدالِهِمْ

﴿مَقْتًا﴾ مِن قولهِ سُبْحانَهُ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ تمييزٌ محوَّلٌ عن فاعلٍ، والتَّقدير: كَبُرَ مقتُ جدالِهم[3]، فحوِّل الفاعلِ إلى تمييزٍ، وأُقيم الجِدال مُقامَهُ، فصار التَّركيب: كَبُرَ جِدالُهُم مقتًا، ثُمَّ أُضْمِرَ الفاعلُ لدلالة الفِعْلِ ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ عليه.

## دلالَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ المَقْتِ:

في التَّعبير بلفْظِ المَقْتِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ يُشير إلى شدَّةِ البُغْضِ والكُرْه، ولازمُ ذلك العُقوبَةُ البالِغَةُ عليهِ؛ إذِ العُقوبَةُ الأُخْرَويَّة تكون ملائمَةً للجُرْم مناسِبَةً له.

## المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِـ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ودِلالَتُهُ:

شَناعَةُ الجِدالِ في آياتِ اللهِ تَعالى بِالباطِلِ

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ ظرفٌ ومضافٌ إليه مُتعلّقانِ بالفِعْلِ ﴿كَبُرَ﴾، وفي تقييدِ الفِعْلِ ﴿كَبُرَ﴾ بالظَّرف ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعظيمٌ للجدال في آياتِ اللّه تعالى بالباطِل وتَشْنيعٌ بليغٌ له؛ إذْ بلغَ جُرْمُ هذا الجدالِ إلى أنْ كانَ مُبغَضًا عند اللّهِ سُبْحانَهُ، وهو الكاملُ في حِكْمَتِه وعَدْلِه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 143.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 167.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 143.

### نُكْتَةُ عَطْفِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

موافَقَةُ فِطَرِ أهْلِ الإيـمانِ لِحُكْمِ اللهِ سُبْحانَهُ

عُطِف ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إظهارًا لهذا البُغْضِ الشَّديد؛ وذلك لأنَّ كون الجدالِ مَقْتًا عندَ اللهِ سُبْحانَهُ؛ لا يحصلُ في عِلْم النّاس إلّا بالخَبَر، فَزِيدَ الخبرُ تأكيدًا وتأييدًا بالحسِّ والمُشاهدَة؛ بأن جُعل ذلك مُبْغَضًا عند الذين آمَنوا، فإنَّ المُؤْمنين على قِلَّتِهم حينَئذٍ يَظْهَرُ بينَهُم بغضُ جدالِ المُشْركين[1]. وهذا العطفُ يَتَضَمَّن أيضًا مدحًا لأهلِ الإيمان؛ حيثُ وافَقَت فِطرتُهم المستقيمةُ حُكمَ اللّه تعالى.

### دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالاسْمِ المَوْصولِ وصِلَتِهِ:

بَـيـانُ تَـحَـقُّـقِ الإيـــمـــانِ ورُسوخِهِ فيهِمْ

جاء التَّعبيرُ بالاسْم الموصولِ وصِلَته ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون التَّعبير بـ (المُؤْمنين)؛ فلَم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (كَبُر مَقْتًا عندَ اللّهِ وعندَ المُؤْمنين)؛ لتعظيم المؤمنين، وذلك للإيماء إلى علَّةِ بُغْضِ المُؤْمنين لِجدالِ الكُفّار في آياتِ اللّهِ تَعالى بالباطلِ وهوَ الإيمانُ، فإيمانُهُم الرّاسِخُ سببٌ في مَقْتِهِم الجدالَ الباطل. وفي مجيءِ الصِّلة فِعْلًا ماضيًا دلالةٌ على تحقُّق الإيمانِ مِنْهُم، ورُسوخِهِ في نُفوسِهم.

### نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلّقِ الإيمانِ:

اسْتِقْرارُ مَعْنى الإيمانِ في أذْهانِ المُخاطَبينَ

حُذِفَ مُتَعَلَّقُ الإيمان في قول اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فلم يُذْكَر المُؤْمَنُ به؛ وذلك لِلعِلْم بِهِ؛ فَإنَّ متعلَّق الإيمانِ كان معروفًا عِنْدَ المُخاطَبينَ. ويجوزُ أن يكون الحذفُ لإفادَةِ العموم، أي: آمَنوا بجميع ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ. ولا تنافي بينَ الدّلالَتَيْنِ؛ لأَنَّ الإيمانَ المَعْهودَ عندَ المُخاطَبينَ هو جميعُ الأفرادِ التي يَجِبُ الإيمانُ بِها.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 144.

**عِلّةُ فَصلِ قَوْلِه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ﴾ عمّا قَبْلَهُ:**

بَيانُ حالِ قُلوبِ المُجادِلينَ بِالباطِلِ

فُصل قولُ اللّهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِوقوعِهِ اسْتِئْنافًا بيانيًّا، فكانَ بينَ الجُمْلَتَيْنِ شِبهُ كمالِ الاتِّصال، وذلك لأنَّ قولَ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ يَبْعَثُ في نَفْسِ المُتَلَقّي سُؤالًا؛ هذا الانحرافُ العظيمُ بالجدالِ في آيات اللّه تعالى بغَيْرِ عِلم لا يكونُ إلّا مِن مُظْلِم القلبِ، فما حالُ قلوبِ هَؤلاءِ؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾[1].

**دلالَةُ التَّشْبيهِ في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ﴾:**

التَّحْذيرُ مِنَ السَّيْرِ على نَهْجِ المُتَكَبِّرينَ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ أسلوبُ تشبيهٍ؛ حيثُ شُبِّه طَبْعُ اللّهِ تَعالى على قُلوبِ المُتَكَبِّرين الجَبابِرَةِ بالطَّبع على قُلوبِ مَن سَبَقَهُم من أهْلِ الكِبْرِ والجُحود، مِمَّن أصَرّوا على الباطِلِ ورَفَضوا الحقَّ، وهذا التَّشْبيهُ يتضمَّنُ ترهيبًا وتحذيرًا شديدًا مِنَ السَّير على نَهْجِهم؛ لِما يُؤَدّي إليهِ مِن الخَتْم على القلوبِ وحِرْمانِها نورَ الهِداية.

**نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ الدّالِّ عَلى البُعْدِ:**

عُبِّر باسْم الإشارة الدّالِّ على البُعْدِ (ذلك) في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾؛ لإنزال البُعد المعنويّ منزلة الحسّي؛ للدّلالة على عِظَم ذلك الطَّبعِ وفَظاعَتِه[2].

**دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَطۡبَعُ﴾:**

تَجَدُّدُ الطَّبْعِ على القُلوبِ بِتَجَدُّدِ الكِبْرِ فيها

جاء التَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارع ﴿يَطۡبَعُ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾؛ للدّلالة على التَّجدُّد

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 76.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 276.

والاستمرارِ، مِمّا يدُلُّ على أنَّ الطَّبْعَ على القلوبِ ليسَ مِمّا يَحْدُثُ مَرَّةً مُنْفَرِدَةً، وإنَّما يتجدَّد بتجدُّد الكِبْرِ والتَّجبُّر. وفيه تصويرٌ للطَّبْعِ كأنَّه يقع زمَنَ الخطاب، وذلك أشَدُّ تَرْهيبًا وتَخْويفًا.

**دلالَةُ إسْنادِ الطَّبْعِ إلى اللهِ تَعالى:**

**الـطَّـبْـعُ عَـلى الـقُـلـوبِ عَـدْلٌ إلَهِيٌّ لا ظُلْمَ فيهِ**

في إسنادِ الطَّبْعِ على القلوبِ إلى اللهِ ﷻ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ إسنادٌ حقيقيٌّ؛ لِما هو مُقرَّرٌ مِن أنَّ ما يُضاف إلى اللهِ تَعالى لا يدخلُه المجازُ - كما هو طريقَةُ أهلِ الحديثِ - ، وهذا الطَّبْعُ عدلٌ مِنْهُ سبحانَهُ، فهو ﷻ يطبَعُ على مَن صَمَّ عن سماعِ الحقِّ، وعَميَ عن رُؤيتِه، وعطَّلَ قلبَهُ عن تأمُّلِ أدلَّتِه، كما قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصّف: 5]، فيكون الطَّبْعُ على القلوبِ نوعًا مِنَ العقوبةِ الإلهيَّةِ الذي لا ظُلْمَ فيها بحالٍ. ويرى بعضهم أنّ إسناد الطّبع إلى اللّه من باب المجاز العقليّ؛ لأنّ اللّه تعالى هو الذي أعطاهم حرّيّة الاختيار بما أودعَه فيهم من القدرة على فعل الخير وفعل الشّرّ.

**نُكْتَةُ تَعْدِيَةِ فِعْلِ الطَّبْعِ بِحَرْفِ الاسْتِعْلاءِ:**

**شُموليَّةُ الطَّبْعِ وإحاطَتُهُ بِالقَلْبِ**

عُدّي فعلُ الطَّبْعِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾، وهو دالٌّ على الاستعلاءِ؛ وذلك ليُفيد إحكامَ الطَّبعِ وشمولَهُ، فحرفُ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ يوحي بالهَيْمَنَةِ والغلبةِ المُطْلَقَة، مِمّا يقتضي أنَّ الطَّبعَ يُغَطّي القلبَ كُلَّهُ، فلا ينفذُ إليهِ خيرٌ ولا هِدايَةٌ.

**نُكْتَةُ إيقاعِ الطَّبْعِ عَلى القَلْبِ دونَ غَيْرِهِ:**

**القَلْبُ مَوْضِعُ الإدْراكِ والهِدايَةِ**

عُلِّق الطَّبعُ بالقَلْبِ دونَ غيرِهِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾؛ لأنَّ القلبَ مَوْضِعُ الإدْراكِ والتَّفكُّرِ وأصلُ الإيمانِ، وهوَ مَصْدَرُ الهدايَةِ أو الضَّلالِ، فَجَعْلُ الطَّبْعِ عليه يدلُّ على تَعْطيلِ أعْظَم ما يُسْتَعْمَلُ في فَهْمِ الحقِّ، مِمّا يُفْضي إلى انْعِدامِ الهِدايَةِ بالكلّيَّة.

### بَلاغَةُ الكِنايَةِ في الطَّبْعِ عَلى القُلوبِ:

اسْتِحْكامُ الضَّلالِ وانْعِدامُ الهِدايَةِ

الطَّبعُ على القلوبِ المذكورُ في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ يُراد به لازِمُهُ؛ وهو عدَمُ قَبولِ التَّأثُّر بالهُدى وإدراكِ الحقِّ، فيكون الطَّبْعُ عَلى القُلوب كنايةً عن صفةٍ، وهذه الكنايةُ تُبرز اسْتِحْكامَ الضَّلال في القَلْبِ، وتُصوِّر الحالَ المعنويَّةَ لَهُ بأمْرٍ مَحْسوسٍ؛ ليكونَ أكْثَرَ وُضوحًا وأشَدَّ تَأْثيرًا.

### تَوْجيهُ القِراءاتِ القُرْآنيَّةِ:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ بَيْنَ القِراءاتِ

قرأ الجُمْهورُ: ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾، بإضافَةِ ﴿قَلۡبِ﴾ إلى ﴿مُتَكَبِّرٖ﴾، وقرأ أبو عَمْرٍو وابنُ ذَكْوانَ بِتَنْوين ﴿قَلۡبٍ﴾، على أنَّ ﴿مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ صِفَتانِ له[1]. فقراءَةُ الجُمْهورِ تَقْتَضي وصفَ صاحِبِ القَلْبِ بالتَّكبُّر والجَبروتِ، وذلكَ يَدُلُّ على فَسادِ القَلْبِ، وتوجُّهِ صاحبِه نحوَ الكُفْر والعِناد. وأمّا قِراءَة أبي عَمْرٍو وابنِ ذَكْوانَ: فعلى أنَّ التَّكبُّر والجَبروت صِفَتانِ للقَلْبِ، وذلك مجازٌ عقليٌّ؛ إذِ المَقْصودُ صاحِبُهُ، فيكون كقولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾ [البقرة: 283][2].

### نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿كُلِّ﴾:

شُمولِيَّةُ العِقابِ الإلَهيِّ لِلمُتَكَبِّرين

التَّعبيرُ بـ ﴿كُلِّ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ يُظْهِرُ شُمولَ العِقابِ الإلهيِّ لِكُلِّ مَن اتَّصف بالتَّكبُّر والجَبروت، فالطَّبْعُ ليسَ خاصًّا بأفرادٍ خاصّين، بَلْ يَعُمُّ كُلَّ مَن تلبَّس بِهَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ.

### نُكْتَةُ وصْفِهِمْ بِهَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ:

التَّكَبُّرُ والتَّجَبُّرُ وصْفانِ مُلازِمانِ لِلمُجادِلينَ بالباطِلِ في آياتِ اللهِ سُبْحانَهُ

وُصِفَ المُجادِلون في آياتِ اللّه تعالى بالباطِلِ بِوَصْفَيْنِ: التَّكبُّر والتَّجبُّر، وذلك في قولِ اللّه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾؛ وذلك لأنَّ الكِبْرَ يومِئُ إلى التَّعالي عن الحقِّ وبطَرِه،

---

(1) ابن الجزريّ، تحبير التّيسير، ص: 539.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 145.

ممّا يَقْتَضي مِن صاحبِهِ أن يكونَ مُتَمَرِّدًا على الحقِّ، مُصِرًّا عَلى الباطِلِ، غَيْرَ مُنْقادٍ للآياتِ والحُجَجِ ولَو كانَتْ في غايَةِ الظُّهور والبيانِ. وأمّا وصْفُهُم بالتَّجبُّر؛ فدالٌّ على الطُّغيان والعِنادِ، مِمّا يُشيرُ إلى اعْتِقادِ الباطِل وإلزام الآخَرينَ بِهِ، والجدالِ في سبيلِ تحقيقِ الباطِلِ. والوصفانِ معًا يُبْرِزانِ حالَ الإنسانِ المُعاندِ المُقاوِمِ للحَقِّ، وذلك مِمّا يجعَلُ جِدالَهُ بالباطِلِ أكثَرَ عِنادًا وصَلابةً.

### نُكْتَةُ تَقْديمِ صِفَةِ التَّكَبُّرِ على التّجبّر:

التَّـكَـبُّرُ ضَـلالٌ باطِنيٌّ، والتَّجَبُّرُ ضَلالٌ ظاهِريٌّ

قُدِّمت صفةُ التَّكبُّر على صفة التَّجبُّر في قولِ اللّه سُبْحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾؛ لتعلُّق التَّكبُّر بالضَّلال الباطنيِّ، والتَّجبُّر بالضَّلال الظّاهريِّ، والثّاني مسبَّبٌ عَنِ الأوَّلِ ونتيجَةٌ لَهُ.

### دلالَةُ الصّيغَةِ في الوَصْفَيْنِ:

المُـبـالَـغَـةُ في الإلْزامِ بالباطِلِ

لفظ ﴿مُتَكَبِّرٖ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ على زِنَةِ (مُتَفَعِّل)، وهذه الزِّنة تُشير إلى تكلُّف الكِبْرِ والاسْتِعْلاء، وذلك يَقْتَضي أنَّ الكِبْرَ لا يَصْدُرُ مِنْ ذاتِ الطَّبيعةِ الإنْسانيَّة، وإنَّما هو تعمُّدٌ لإظهارِ صورةٍ مِنَ العَظَمَةِ المُزَيَّفة، ممّا يَقْتَضي مخالفةَ الكِبْرِ للفِطْرَةِ الإنسانيَّة السَّليمة. وأمّا ﴿جَبَّارٖ﴾ فعلى وزْنِ (فَعّال) وهو مِن أوزانِ المُبالَغَةِ، وهيَ تَدلُّ على الشِّدَّة والقوَّة في الإلزامِ بالباطِلِ والحَمْلِ عليه.

## ❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### الشَّكُّ والرَّيْبُ:

الـشَّــكُّ أصــلُ الرَّيْبِ وسَبَبُهُ

مِن العلماءِ مَنْ يَرى الرَّيْبَ مرادِفًا لِلشَّكِّ؛ بل نَقَلَ ابنُ أبي حاتم الإجْماعَ على تَفْسير الرَّيب بالشَّكِّ الوارِدِ في صَدْرِ سورة البقرة[1]؛

(1) ابن أبي حاتِم، تفسير القرآن العظيم: 1/ 34.

وليس في هذا الإجْماع إجماعٌ بِتَرادُفِهما، وإنَّما كان الاتِّفاقُ على تفسيرِ الرَّيب بالشّكِّ مِن جهة وجودِ أصل الشَّكِّ فيه؛ إذْ كلُّ رَيْبٍ فيه شكٌّ. ولذا قال السَّمينُ الحلبيّ: "فلَيْسَ قولُ مَن قال: "الرَّيْبُ الشَّكُّ مطلقًا" بجَيِّدٍ، بل هو أخصُّ مِنَ الشَّكِّ"[1].

والتَّحقيقُ: أنَّ بين الرَّيْبِ والشَّكِّ فرقًا، وقَدِ اخْتَلَفَتْ عباراتُ العلماءِ في بيان الفرقِ بَيْنَهُما؛ فذهب جماعة إلى أنَّ الرَّيْبَ: هو الشَّكُّ مع تُهمة[2]، أو هو شكٌّ وزيادةُ ظنِّ سوءٍ[3]، وحقيقتُهُ: قَلَقُ النَّفس واضْطِرابُها[4]، والتُّهْمَةُ التي في الرَّيْبِ هي تُهمةٌ لِلمُخْبِرِ[5]. وذهب آخرونَ: إلى أنَّ الشَّكَّ وقوفُ النَّفس بين شَيْئَيْنِ مُتَقابِلَيْنِ مِن دون أمارَةٍ مُرَجِّحةٍ بينَهُما، والرَّيْبُ: أنْ يُتَوَهَّم في الشَّيءِ أمرٌ ما، ثُمَّ يَنْكَشِفَ عمّا تُوُهِّم فيه[6]، فكأنَّ في الرَّيْبِ نوعَ حُكْمٍ وإنْ لَم يَكُنْ جازمًا، بخلاف الشَّكِّ فلا حُكْمَ فيه.

والتَّحْقيقُ فيهِ: ما قرَّره ابنُ القَيِّم رحمه الله؛ فَقَد جعلَ الفَرْقَ بَيْنَهُما مِنْ سِتَّةِ أوجُهٍ؛ نُرْجِعُها إلى فَرْقَيْنِ اثنين[7]: أحَدهما: فرق لفظيٌّ، والآخر: معنويٌّ.

فأمّا اللَّفظيّ؛ فإنَّه يُقال: شَكٌّ مُريبٌ، ولا يقال: رَيْبٌ مُشَكِّكٌ، ويقال: رابَني أمرُ كذا، ولا يُقال: شكَّكَني. وأمّا المعنويّ؛ فَهوَ أنَّ الرَّيبَ بمعنى الانْزِعاج والقلَق، يُقال: رابَهُ إذا أزعجه وأقْلَقَه، ولا يكون هذا المعنى في الشَّكِّ؛ فإنَّك تقول: لا تُرِبْ فلانًا، بمعنى: لا تُزعجْهُ ولا تُقْلِقْهُ، ولا يصح أنْ يُقالَ: لا تُشَكِّكْهُ! - بِذَلِكَ المَعْنى -. والرَّيْبُ فيه - مع الشَّكِّ - مَعْنَى التُّهَمَةِ، فَيُقال: رابني مجيئُه، ولا يقال: شكَّكَني مجيئُهُ. ولذا فَإنَّ الشَّكَّ أصلٌ للرَّيْبِ وسَبَبٌ فيه؛ فَإنَّ العَبْدَ يشُكُّ أولًا، ثُمَّ يوقِعُهُ الشَّكُّ في الرَّيْبِ.

### المَجيءُ والإتْيانُ:

المجيء: إتيان محقَّق بعيدٌ عن عواملِ النَّقص، والإتيان: أعمُّ وأشملُ، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: 129]، ومجيء الرُّسل حدثٌ وتفاعلٌ

(1) السَّمين، الدُّرّ المصون: 1/ 86.
(2) السَّمين، الدُّرّ المصون: 1/ 86، والعسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 264.
(3) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/ 137.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 34.
(5) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 17/ 409.
(6) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/ 115.
(7) ابن القيِّم، بدائع الفوائد: 4/ 106.

المَـــجـــيءُ تَـمـامُ الإِتْـيـانِ واكْـتِـمـالُـهُ، والإِتْيـانُ مَجيءٌ بِسُهولَةٍ

وتعايشٌ مع الدَّعوة بالأدلَّة والبراهين، فالإتيان: بداية المَجيء زمانًا أو مكانًا، وقد لا يتمُّ، فلا يكون مجيئًا، بخلاف المجيء؛ فهو إتيانٌ محقَّق قريب زمانًا ومكانًا، كما أنَّ في المَجيءِ معنى المشقَّةِ والصُّعوبة، فكلُّ مجيءٍ إتيانٌ، وليس كلُّ إتيانٍ مجيئًا[1].

## المُجادَلَةُ والمُحاجَّةُ والمُحاوَرَةُ:

فـي المُـجـادَلَـةِ اسْتِـمْـرارٌ، وفـي الـمُـحـاجَّـةِ إرادَةُ الـغَـلَـبَـةِ، وفـي الـمُـحـاوَرَةِ هُـدوءٌ في المُراجَعَةِ

المُجادلَةُ في أصْلِ اللُّغَةِ تَدُلُّ على شدَّة الخُصومَة واسْتِمْرار مُراجعةِ الكَلام، بخِلاف المُحاجَّة فإنَّ مَعْناها: المُغالبَةُ بِالحُجَّة والبُرْهانِ، وأمّا المُحاورَةُ فَهيَ مُراجعَةُ الكَلام.

وقَد جاءَ ذِكْرُ المُجادَلَة في القُرآن الكريم كثيرًا، بَل إنَّ سورَةً من سوَرِه سُمّيت بالمُجادلَة، ومِن شَواهِدِ الجدالِ الوارِدِ في القرآنِ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: 125]. وورَدَ النَّهْيُ عَنِ الجدال إلّا بالتي هيَ أحسَنُ، كَما في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: 46]، والجِدالُ المَنْهيُّ عنهُ هو الذي يَجُرُّ إلى المُغاضبَةِ والمُشاتَمَة، وأمّا مُراجعَةُ الكلامِ بغَرَضِ الإقْناع والوُصول إلى الحَقِّ، فهذا مَنْدوبٌ إليه.

وأمّا المُحاجَّة؛ فقد وردَتْ في القرآنِ الكريم ثلاثَ عَشْرَةَ مرَّةً، منها في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦﴾ [البقرة: 76]، فالمُحاجَّة: مُحاولَةُ كُلِّ واحِدٍ أن يَغْلِبَ خَصْمَهُ بِما يُقيمُهُ من بَراهينَ وحُجَجٍ، بِقَصْدِ إقامَةِ الحَقِّ وبيانه ونُصْرَته.

وأمّا المُحاوَرَةُ؛ فَقد ذُكِرَت في القرآنِ ثلاثَ مَرّات، منها في قولِ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جيأ).

اللّه ﷻ: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف: 37]، وحقيقَتُها: مُراجعَةُ الكَلامِ، وهيَ تَخْلو من الشِّدَّةِ التي في المُجادَلَة.

والحاصِلُ: أنَّ المُجادَلَة والمُحاجَّة والمحاورَة تَجْتَمِعُ في مراجعَةِ الكلام، وتَنْفَرِدُ المُجادلَةُ بدِلالَتِها على الشِّدَّة والاسْتِمْرار، وأمّا المُحاجَّة فَهيَ مُصاحَبَةُ الكلامِ لِلحُجَجِ التي يُراد بها الغَلبَةِ على الخَصْمِ، وأمّا المُحاورة ففيها هدوءٌ في مراجعَةِ الكلامِ[1].

## السُّلْطانُ والبُرْهانُ:

البُرهان الحُجّة الفاصِلَةُ البيّنة، والسُّلطانُ أعمُّ

البُرهان: الحُجّة الفاصلة البيّنة، يقال: بَرهَن يُبَرهِنُ بَرهَنةً؛ إذا جاء بحُجّةٍ قاطعة لِدفع الخَصم، فهو مُبَرهِنٌ، ويُبَرهن بمعنى يُبَيِّن، وقد بَرهَنَ عليه؛ أي: أقام الحُجّة[2]، قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: 111]، وفي الحديث: «والصَّدقة بُرْهانٌ»[3] أي: هي دَليلٌ على صحّة إيمانِ صاحبها؛ لطيب نَفسِه بإخراجها، وذلك لعَلاقة ما بين النّفس والمال.

أمّا السُّلطان عند العرب؛ فيُطلَق على الحُجَّة، ويُذكَّر ويُؤَنَّث. والسُّلطان: الحاكِم، وإنَّما سُمّيَ سُلطانًا؛ لأنَّه حُجَّةُ اللّه تعالى في أرضه، أو هكذا ينبغي أن يكون[4]، وقول اللّه تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقّة: 29] معناه: ذهبت عنّي حُجتي[5]؛ فالسُّلطان أعمُّ.

(1) داود، معجم الفروق الدلاليّة، ص: 178 - 181.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (برهن).
(3) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (223).
(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 217.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 630.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ٣٧﴾ [غافر: 36 - 37]

### مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

فِرْعَوْنُ أُنْموذَجٌ لِلتَّكَبُّرِ والتَّجَبُّرِ

لَمّا ذُكِر الطَّبعُ على القلوبِ في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾؛ دُلَّ عليهِ بما ذُكِرَ من قولِ فِرعونَ وفِعْلِه عطفًا على ما تقدَّمَ مِن قولِه وقولِ الرَّجُلِ المُؤْمِنِ؛ فإنَّهُ قَصَدَ ما لا مَطْمَعَ في نَيْلِه من بابِ التِّيهِ والحَماقَةِ تَكَبُّرًا وتجبُّرًا؛ لفسادِ قلبِه، فقال اللهُ سُبحانَهُ: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾[1].

### شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَرۡحٗا﴾: (صرح) تدُلُّ اشْتِقاقاتُها على ظُهورِ شَيْءٍ وبُروزِه، ومِن ذلكَ: الصَّريحُ، وهو الظّاهِرُ لِخُلوصِه مِمّا يُخْفيهِ ويَسْتُرُه، ومنهُ قولُهُم: لَبَنٌ صريحٌ؛ إذا زالَتْ عنهُ الرَّغوة، والصَّرح: بيتٌ واحدٌ يُبنى مُنْفَرِدًا ضخمًا عاليًا في السَّماءِ؛ وذلكَ لِظُهورِه ظُهورًا قويًّا فلا تَحْجُبُه أبنيةٌ حولَهُ، وكُلُّ بِناءٍ عالٍ يُسَمّى: صَرْحًا[2]، وهو المَعْنى الوارِدُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾.

2) ﴿ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾: (سبب) تدلُّ تصريفاتُها على امْتِدادٍ دقيقٍ قويٍّ موَصِّلٍ، ومِنْ ذلكَ: السَّبَبُ؛ وهو: الحَبْلُ الذي يُصْعَدُ به النَّخْلُ، أو يوصَلُ به إلى الماءِ في البئرِ، وجمعُهُ: أَسْبابٌ[3]، وسُمّيَ كلُّ ما يُتَوصّل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 68.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صرح).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبب).

به إلى شَيْءٍ سَبَبًا، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ٨٤﴾ [الكهف: 84][1]. والأسبابُ في قول اللّه سبحانَهُ: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أبوابُها؛ لأنَّها منافِذُها الموصِلَةُ إلى ما بِداخِلِها[2].

3) ﴿فَأَطَّلِعَ﴾: (طلع) تدلُّ اشتقاقاتُها على ظهورٍ وبُروزٍ، يُقالُ: طَلَعَتِ الشَّمْسُ طُلوعًا ومَطْلَعًا، والمَطْلِعُ: مَوْضِعُ طُلوعِها[3]. ويُقال: أطلَعَهُ على سِرِّه؛ إذا أظهرَهُ لَهُ، واسْتَطْلَعَ رأيَه: إذا اطَّلَعَ على باطِنِ أمرِه، وطالَعَهُ بِكُتُبه، وطالعَ الشَّيءَ، أي: اطَّلَعَ عليه، والطُّلْعَةُ: الرُّؤْيَة[4]. وقولُ اللّه تعالى: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ بمعنى: أَنْظُر إليه[5].

4) ﴿زُيِّنَ﴾: (زين) تَدورُ اشْتِقاقاتُها على حُسْنِ الشَّيءِ وتَحْسينِه، ومِنْهُ: الزَّيْنُ؛ وهو ضِدُّ الشَّين[6]، وزيَّن لهُ؛ بمعنى: حسَّنَ لَهُ. وقولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: حسَّنَ الشَّيطانُ لَهُ عملَه السَّيِّء، فانْهَمَكَ فيهِ انْهماكًا بليغًا لا يَرْعَوي عنهُ بِحالٍ[7].

5) ﴿تَبَابٍ﴾: (تب) تدلُّ تصريفاتُها على مَعْنى الخَسار والهَلاك، ومنهُ: التَّباب؛ وهو الخُسْران، ويقال: تَبًّا للكافِر، أي: هلاكًا لَهُ، ومنه قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ١٠١﴾ [هود: 101]، أي: تَخْسيرٍ[8]. والتَّباب في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ هو الخَسارُ والهَلاكُ.

## المَعْنى الإجماليُّ:

دَلَّت الآيةُ الكريمةُ على مُخاطبَةِ فِرْعونَ لِهامانَ بما يَحْمِلُ في طَيّاته تكذيبًا صريحًا لِموسى عليه السلام في دَعْوَتِه، قائِلًا: يا هامانُ ابْنِ لي بنَاء عاليًا عظيمًا؛ لعَلّي أبلغُ أبوابَ السَّماوات وما يوصِلُني إلَيها، فأنْظُر إلى إلهِ موسى بِنَفْسي، وإنّي لأظنُّ موسى كاذبًا في دعواه أنَّ

(1) الرّاغب، المفردات: (سبب).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طلع).
(4) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (طلع).
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 212.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زين).
(7) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 184.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تب).

بيانُ تكذيبِ فِرْعَوْنَ لِموسى عليه السلام

لنا ربًّا، وأنَّه فوقَ السَّماواتِ. وهكذا زُيِّن لفرعونَ عملُه السَّيِّءُ فرآه حسنًا، وصُدَّ عن سبيلِ الحقِّ؛ بسبب الباطِل الذي زُيِّن له، وما احتيالُ فرعونَ وتدبيرُه لإيهامِ النَّاس أنّه مُحِقٌّ وموسى مبطِلٌ إلّا في خسارٍ وهلاكٍ[1].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### دلالَةُ الواوِ في ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾:

ذِكْرُ صورَةٍ مِنْ صوَرِ الطَّبْعِ عَلى قُلوبِ الجَبابِرَةِ

الواوُ في ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ عاطِفةٌ الجملةَ بَعْدَها على قولِ فِرْعَون وقولِ المؤمنِ، فيكون بينَ الجملةِ المعطوفَةِ والمَعْطوفِ عليها تناسُبٌ في المعنى؛ فأمّا تناسبُهُ مع مقالةِ فِرْعَون السّابقةِ فظاهرةٌ؛ لِجَريان القولِ مِن قائل واحدٍ، وإن اختلفَ مَجْلِسُ القولِ؛ إذِ الأوَّل كان في مَجْلِسِ مُحاجَّته مع موسى عليه السلام، وهذا المَوْضِعُ في مَجْلِسٍ آخرَ[2]. وأمّا تناسُبُهُ مع قولِ الرَّجُل المُؤْمن؛ فلِما فيه مِن بيانِ صورةٍ مِن صوَرِ الطَّبعِ على قلبِ المُتَكَبِّرين الجَبابِرَةِ، المَذْكورةِ قبلُ في قولِه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾[3].

### نُكْتَةُ نِدائِهِ هامانَ بِـ(يا):

تَهافُتُ دَعْوى فِرْعَوْنَ الأُلوهيَّةَ

جاء النِّداءُ في قول: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ بحرفِ النِّداء (يا)، وهو مَوْضوعٌ في الأصلِ لنِداءِ البعيدِ، والظّاهر أنَّ الأمرَ المَذْكورَ ﴿ٱبۡنِ لِي﴾ وُجِّه لهامانَ عن قُربٍ، فيكون في النِّداء بِـ (يا) تنزيلُ القريبِ منزلةَ البعيدِ؛ تعظيمًا له وتفخيمًا، وفي ذلك دلالَةٌ على شِدَّة احْتياجِ فرعونَ إليه واعتمادِهِ عليه، وذلك يومِئُ إلى تَهافُتِ دَعْوى فرعونِ الأُلوهيَّةَ؛ لافتِقارِه إلى وزيرِه في تَدْبير أمرِه، أو أنّه ناداه بنداء البعيد لإنزال البُعدِ الرّتبيّ بينهما منزلةَ البُعد الحِسّيّ.

---

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 471.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 145.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 217/ 68.

### دلالَةُ الأمْرِ في ﴿ٱبۡنِ﴾:

في الأمْرِ اسْتِعْلاءٌ ظاهِرٌ وافْتِقارٌ باطِنٌ

﴿ٱبۡنِ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ فعل أمرٍ من البناءِ، وهو أمرٌ باقٍ على دلالتِه الأصليَّةِ من إرادة الإيجاب والإلزام، ويتضمَّن ضربًا مِن ضُروبِ الافْتِقارِ المُبطَّنِ، فكان في الأمرِ استعلاءٌ ظاهرٌ وافتقارٌ باطِنٌ.

### بلاغَةُ المَجازِ في إسْنادِ البِناءِ إلى هامانَ:

شِدَّةُ عِنادِ فِرْعَوْنَ وتَعْمِيَتِه الحَقَّ عَنِ الخَلْقِ

إسنادُ البناءِ إلى هامانَ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾؛ مجازٌ عقليّ علاقتُه السّببيّة، فهو من إسناد الفِعْلِ إلى سببِه؛ إذ هامانُ وزيرٌ، ويَمْتَنِعُ بحسَبِ العُرْف والعادةِ أن يُباشِرَ الوزيرُ البناءَ، فيكون المرادُ: يا هامانُ مُرْ مَن يَبْني لي صرحًا[1]. وفي إسنادِ البِناء إلى هامانَ إيماءٌ إلى أهَمّيَّة الأمْرِ وعِظَم شأنِه عندَ فِرْعَون؛ إذْ وُجِّه خطابُهُ إلى وزيره المُقَرَّب، وذلك يَقْتَضي اهْتِمامَ فِرْعَون بتَحْقيقِ غايَتِه مِنْهُ؛ وهي غايَةٌ في ظاهِرِها الوُصولُ إلى أَسْبابِ السَّماء، وفي حَقيقَتِها عنادٌ وتَعْمِيَةُ الحقِّ عن الخَلْقِ.

### معنى اللّامِ في ﴿لِي﴾ ودِلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ:

إرادَةُ فِرْعَوْنَ تَرْسِيخَ الشُّعورِ بالتَّفَرُّدِ والعَظَمَةِ

اللّام في ﴿لِي﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ تدلُّ على الاخْتِصاص، وذلكَ دالٌّ على شدَّة اهْتِمامه بهَذا الصَّرح[2]؛ إذْ ليسَ المُرادُ بناءَ أيِّ صرحٍ، بل بناءُ صرحٍ يختصُّ به، ويكون شاهدًا على قوَّتِه وجبروتِه، فكأنَّ لسانَ حالِه يقول: ابْنُوهُ لي وحْدي؛ فَهو لي ولِعَظَمَتي. فلامُ الاخْتِصاصِ مُشْعِرَةٌ بإرادتِه تَرْسيخَ الشُّعور بالتَّفرُّد والعظَمة. ويُقَوّي هذه الدّلالة تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿لِي﴾ على المَفْعولِ به ﴿صَرۡحٗا﴾؛ فإنَّ التَّقديم مفيدُ الحَصْرَ والاخْتِصاص.

---

(1) عوني، المنهاج الواضح: 1/ 101.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 68.

**نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿صَرۡحٗا﴾:**

فَخامَةُ الصَّرْحِ وشِدَّةُ ارْتِفاعِهِ

نُكِّر لفظُ ﴿صَرۡحٗا﴾ مِن قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ لإرادة التَّعظيم والتَّفخيم، أي: ابْنِ لي صرحًا عظيمًا فخمًا يَعْلو كلَّ بناءٍ آخرَ. ويجوز أن يكونَ التَّنكيرُ لإرادةِ النَّوعيَّة، والمَعْنى: ابْنِ لي بناءً مخالِفًا المَعْهودَ مِنَ الأبْنِيَةِ؛ لغرابتِهِ وشدَّة ارْتِفاعِه.

**عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾:**

بَيانُ الهَدَفِ مِنْ بِناءِ الصَّرْحِ

فُصِلَ قولُ اللّه تَعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهُما مِن شِبْهِ كمالِ الاتِّصال؛ وذلكَ لأنَّ أمرَ فِرْعونَ ببناءِ صرحٍ يبعَثُ في نَفْسِ المُخاطَب سُؤالًا، حاصِلُه: ما سبَبُ هَذا البِناء؟ وما الغايةُ مِنْ بنائِه؟ فجاءَ الجَوابُ: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾.

**مَعْنى (لَعَلَّ)، ودِلالَتُها:**

تَلْبيسُ فِرْعَوْنَ على قَوْمِهِ

(لَعَلَّ) في قولِ اللّه تَعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ حرف دالٌّ على التَّرجّي[1]؛ وهو طلَبُ الأمرِ القَريب الحصولِ، مع أنَّ ما ذَكَرَه مِن بلوغِ أبوابِ السَّماوات متعذِّرٌ، إلّا أنَّه أخرجَ هَذا الأمرَ المُتَعَذِّر في صورَةِ القَريب الحُصول؛ إيهامًا وتَلْبيسًا على قومِهِ.

**دلالَةُ تَأْخيرِ المُسْنَدِ الفِعْليِّ:**

إيغالُ فِرْعَوْنَ في الإيهامِ والتَّلْبيسِ

أُخِّر المسنَدُ الفعليُّ ﴿أَبۡلُغُ﴾ من قول اللّه تَعالى حكايةً لقول فرعونَ: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ تأكيدًا للنِّسبةِ، ومبالغةً في قُرْبِ تحقيقِه الغايَةَ من بناءِ الصَّرحِ، ووجهُ التَّأكيد ما في الجُمْلَةِ مِن تَكْرار النِّسبة؛ إذ فعلُ البُلوغ ﴿أَبۡلُغُ﴾ أُسنِدَ إلى ياءِ المتكلِّم في ﴿لَّعَلِّيٓ﴾، وأُسنِدَ مرَّةً أُخْرى للضَّمير المُسْتَتِر فيهِ وجوبًا، والتَّقدير: أبلغُ أنا. وهذا التَّأكيدُ يُظهر إيغالَ فرعونَ في التَّلبيس والإيهامِ على قَوْمِه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 68.

### دلالَةُ التَّعبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿أَبۡلُغُ﴾:

تَصْويرُ السَّعْيِ المُسْتَمِرِّ لِبُلوغِ السَّماواتِ

عُبِّر بالفِعْلِ المُضارع ﴿أَبۡلُغُ﴾ لإفادة استحضار الحدَث، وتَصْويره في صورَةِ الأمْرِ الواقِعِ وقتَ الكلام. كما أنَّ الفِعْلَ المُضارِعَ يُشْعِرُ بالتَّجدُّد والاسْتِمْرارِ، وأنَّ السَّعْيَ نحوَ بُلوغِ الأسباب ليسَتْ فِكْرَةً عارِضَةً أو غايَةً بعيدةً، بل هو أمرٌ قائمٌ تُبْذَلُ أسبابُهُ في الحالِ، وذلك مبالغةً في التَّلبيسِ على قومِهِ.

### مَعْنى (أل) في ﴿ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾:

عِظَمُ السَّماواتِ وعِظَمُ أبْوابِها

(أل) في ﴿ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ مِن قَوْلِه: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ دالَّةٌ على العهدِ العلميِّ، والمرادُ: أسبابُ السَّماوات؛ كما جاء مصرَّحًا به بعدُ. ويجوز أن تكونَ (أل) دالَّةً على الجنسيّة الاستغراقيّة، والمَعْنى: لعلي أبلغُ الأسبابَ الكاملةَ التي لا أسبابَ غيرُها لِعظَمِها[1].

### دلالة التّعبير بـ﴿ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ مادّةً وصيغةً:

مـــواصــلــة فرعون تضليله الإعلاميّ

تدلُّ تصريفاتُ (سبب) عَلى امْتِدادٍ دقيقٍ قويٍّ موَصِّلٍ، ومِنْ ذلِكَ: السَّبَبُ؛ وهو: الحَبْلُ الذي يُصْعَدُ به النّخْلُ، أو يوصَلُ به إلى الماءِ في البئرِ، وجمعُهُ: أسْبابٌ[2]، وسمّيَ كلُّ ما يُتَوصّل به إلى شَيْءٍ سَبَبًا، وعبّر فرعون هنا بالمصدر للدّلالة على مبالغته في التّحقّق من أمر موسى عليه السلام، ومتابعتِه له في كشف الحقيقة؛ وذلك من أجل استقطابه لِثقة قومه.

### المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

تَـعْـظـيـمُ الأمْـرِ وتَفْخيمُ شَأْنِهِ

﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾ بدلَ كلٍّ من كلٍّ أو بيانٌ[3]، وفائدتُهُ هاهنا: تفخيمُ الأمر

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 69.

(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبب).

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 314.

وتهويلُهُ؛ إذ إنَّ الشَّيءَ إذا أُبْهِمَ ثُمَّ بُيِّنَ؛ كان تفخيمًا لشأنِهِ، وهذا هو مرادُ فرعونَ[1]. كما أنَّ في البَيان بعدَ الإبهامِ تَشْويقَ السّامِعِ إلى مَعْرِفَتِها[2]، وتفخيمًا لشأنِ عَمَلِه لكَوْنِهِ أمرًا عجيبًا؛ ليورَد على نَفْسٍ مُتَشَوِّقة إلى مَعْرِفَته، وهيَ نَفْسُ هامانَ[3].

### مَعْنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

إيهامُ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ بِبُلوغِهِ جَميعَ أبْعادِ السَّماواتِ

(أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من قولِ الله سُبْحانَهُ: ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يجوز أن تكونَ اسْتِغْراقيَّةً، فيكون المرادُ تعيينَ السَّماوات بكُلِّ جَوانِبِها وأبْعادِها، ويجوز أن تكونَ دالَّةً على الكَمال؛ وذلكَ لأنَّ فِرْعونَ كانَ يوهِمُ أتباعَه إلى سَعْيِهِ للوُصول إلى ما هو عظيمٌ في الكَوْنِ وهو السَّماواتُ.

### مَعْنى الفاءِ في ﴿فَأَطَّلِعَ﴾:

بَيانُ الغايَةِ مِنْ بُلوغِ السَّماواتِ

الفاءُ في ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ تفريعيَّة دالَّةٌ على التَّسبُّب، فإنَّه لمّا ذُكر السَّبَبُ - وهو سَعْيُه للوُصولِ إلى أبوابِ السَّماوات - ؛ ذكر المُسَبَّب عنهُ - وهو اطِّلاعُه على إلَهِ موسى عليه السلام - فقالَ: ﴿فَأَطَّلِعَ﴾، فالفاءُ رابِطَةٌ بينَ السَّبب والمُسَبَّب، وذلك يدلُّ على أنَّ الاطِّلاع هو الغايَةُ من رغبَةِ فِرْعونَ بُلوغَ السَّماواتِ[4].

### دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ (أطَّلِعَ) مادَّةً وصيغَةً:

سَعْيُ فِرْعَوْنَ اليائِسُ لِلاطِّلاعِ على الغَيْبِ

الفِعْلُ (أطَّلِع) مِنَ الاطِّلاعِ - بتَشْديد الطّاء - ، وهو مبالَغَةٌ في الطُّلوع، والطُّلوع: الظُّهور، والغالِبُ أن يكون الظُّهور حاصلًا مِن ارتفاعٍ[5]. وقولُ اللهِ تعالى حكايةً عن فِرْعون: ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ يُفيد إظهارَ جُهْدٍ كبيرٍ وحِرْصٍ متوهَّمٍ للكَشْفِ عَن أمرٍ غَيْبيٍّ، وفي التَّعبير بالفِعْل

---

(1) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 12/ 190، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 146، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 490.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 276، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 322.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 146.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 69، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 146.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 146.

المُضارِع ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ تَصويرٌ له في صورةِ الحاصِلِ وقتَ الخِطابِ؛ ليَكونَ أدخلَ في التَّلبيس؛ حيثُ يُصَوِّر الاطِّلاع أمرًا حاضرًا عندَهُ.

**نُكْتَةُ تَعْدِيَةِ الفِعْلِ (أَطَّلِعَ) بِـ ﴿إِلَىٰٓ﴾:**

الاعتراف الضِّمنيُّ بِعَدَمِ القُدْرَةِ على بُلوغِ العُلوِّ المُطْلَقِ

فِعْلُ الاطِّلاع يَتَعدّى بحرفينِ: (إلى)، و(على)، فإن عُدّي بحرف الجرِّ (على)؛ دلَّ على أنَّ الظُّهور يكونُ مِن ارتفاع، وإن عُدّيَ بحرف الجرِّ (إلى)؛ دلَّ على مُطْلَقِ الظُّهورِ[1]. وفي قولِ اللّه تعالى: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ عُدّي الفعلُ بـ ﴿إِلَىٰٓ﴾؛ لإفادَةِ مُطْلَقِ الظُّهور، وذلك يتضَمَّن إقرارًا ضِمْنيًّا بِعَدَمِ قُدْرَتِه على بلوغِ العلوِّ المطلقِ.

**نُكْتَةُ إضافَةِ الـ﴿إِلَٰهِ﴾ إلى ﴿مُوسَىٰ﴾:**

الإمعانُ في العِنادِ والكِبْرِ

أُضيف لفظُ ﴿إِلَٰهِ﴾ إلى ﴿مُوسَىٰ﴾ في قولِ اللّه تعالى حكايةً لقول فِرْعون: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾؛ لإظهار اسْتِهْزاءِ فرعونَ وتَهَكُّمه بما دعا إليهِ موسى عليه السلام مِنَ الحقِّ؛ حيثُ أضافَ الإلهَ إلى موسى عليه السلام؛ للدّلالة على التَّخْصيصِ؛ ليُفيد أنَّه لَو كانَ إلهًا؛ فأُلوهيَّتُه مُنْحَصِرَةٌ بِموسى وحدَهُ، وهذا مِنْهُ إنكارٌ لأنْ تَكونَ الأُلوهيَّةُ عامَّةً، إمعانًا منهُ في الكِبْرِ والعِناد.

**بلاغَةُ الجِناسِ بَيْنَ ﴿إِلَىٰٓ﴾ و﴿إِلَٰهِ﴾:**

التَّناغُمُ الصَّوْتيُّ بَيْنَ الألفاظِ القُرْآنيَّةِ

بينَ ﴿إِلَىٰٓ﴾ و﴿إِلَٰهِ﴾ في قوله: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ جناسٌ ناقصٌ[2]، وهو جناسٌ مطرَّفٌ؛ لوقوع الزّيادة بحرفٍ واحد في الآخِرِ[3]. والجناسُ في الآيةِ يُحقِّق تَناغُمًا صوتيًّا، وذلك ممّا يُعَزِّز المعانيَ المرادَ بيانُها.

**تَوْجيهُ القِراءاتِ في ﴿فَأَطَّلِعَ﴾:**

التَّكامُلُ الدّلاليُّ بَيْنَ القِراءاتِ القُرْآنيَّةِ

قرأ حفصٌ عن عاصمٍ منفردًا ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بالنَّصب، وقرأ باقي

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 146.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 146.

(3) فيّود، علم البديع، ص: 285.

العشرَةِ ﴿فَأَطَّلِعُ﴾ بالرَّفعِ[1]، فالرّفع على أنَّه معطوفٌ على ﴿أَبۡلُغُ﴾، وأمّا النَّصب فعلى الجواب؛ تنبيهًا على أنَّ ما أظهره فرعونُ في صورة المُمْكِنِ هو تمنّي محالٍ غيرِ ممكنٍ البتَّة[2]. ويجوز أن يكون ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ جوابًا للأمرِ في ﴿ٱبۡنِ لِي﴾ منصوبًا بـ (أن) مضمرة بعدَ الفاء[3].

### دلالَةُ الواوِ في ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾:

التَّظاهُرُ بِالتَّرَوّي في اتِّهام موسى بالكَذِبِ

الواوُ في ﴿وَإِنِّي﴾ مِن قَوْلِه: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ عاطفةٌ الجُملةَ بعدَها على جُملةِ مقولِ القَوْلِ[4]. ويجوز أن تكونَ الواوُ حاليَّةً، والجملَةُ بعدَهُ في محلِّ نصبِ حالٌ[5]، ومِنَ المُقَرَّر أنَّ الأصلَ في الحالِ أن لا تكونَ لازمةً، بل هي مؤقتةٌ بزمَن عاملِها، وهذا فيه تَلْبيسٌ عظيمٌ؛ إذْ يوحي كلامُه بأنَّ اتِّهامه لموسى بالكذِبِ لَيْسَ أمرًا ثابتًا مُسْتَمِرًّا، وإنَّما هو أمرٌ عارضٌ، مِمّا يُظهر عندَ قَوْمِه كَمَن قالَ ذلكَ بَعْدَ تفكيرٍ وتَجْديد نظرٍ، لا عَن تحامُلٍ متقدِّم، ممّا يجعَلُ لِكَلامِهِ رواجًا لدى السّامِعين؛ إذِ النُّفوس تميلُ إلى تصديقِ مَن يُظهر التَّرَوّي في أحكامِه.

### فائِدَةُ تَتابُعِ المُؤَكِّداتِ في ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾:

سَعْيُ فِرْعَونَ لِإِقْناعِ قَوْمِهِ بِتَكْذيبِ موسى عليه السلام

أُكِّدت جُمْلة: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ بـ (إنَّ) واللّام والجملة الاسميّة، وتكرار المسند إليه، مرّةً على أنّه اسم (إنّ)، ومرّةً على أنّه فاعل (أظنّه) المحذوف، مبالغةً في إرادةِ فرعون إقناعَ سامعيهِ بصِحَّة دعواهُ في تكذيب نبيِّ اللّه تعالى موسى عليه السلام، وليَنْفيَ عن نفسِه اتِّهامَ وزيره إيّاهُ بتَزَعْزُعِ اعْتِقادِه في دينِه، والمعنى: إنّي أفعلُ ذلك ليَظْهَرُ لَكُم كذِبُ موسى - وحاشاهُ -[6].

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 365.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 69.
(3) الحربي، توجيه مشكل القراءات، ص: 415.
(4) صافي، الجدول: 24/ 248.
(5) الدّعّاس، إعراب القرآن: 3/ 157.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 147.

**دلالَةُ التَّعبيرِ بِفِعْلِ الظَّنِّ مادَّةً وصيغَةً:**

بُطلانُ يَقينِ فِرْعونَ

الظَّنُّ في قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾ بِمَعْنى القَطع واليقين، وقرينةُ ذلكَ أنَّ اللّه سُبْحانَه سَمّى عزمَهُ هذا كيدًا، فقال ﷻ: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾[1]. وفي التَّعبيرِ عَنِ الظَّنِّ بالفِعْلِ المُضارِعِ دِلالَةٌ عَلى اسْتِمْرارِ هَذا الظَّنِّ عندَهُ ودوامِه عليه.

**مَوْقِعُ كَلِمَةِ ﴿كَٰذِبًاۚ﴾ مِنَ الإعْرابِ، ودِلالَةُ تَنْكيرِها:**

تَعْظيمُ شَأْنِ الكَذِبِ

﴿كَٰذِبًاۚ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾ مفعولٌ ثانٍ لِفعْلِ الظَّنِّ، ونُكِّرَ لفظُ ﴿كَٰذِبًاۚ﴾ لإفادَةِ التَّعظيم، أي: تعظيم شَأْنِ الكَذِبِ الذي جاء به موسى - وحاشاهُ - في زَعْمِ فِرْعون وادِّعائه. ويجوز أن يكونَ التَّنكير لإرادَةِ التَّحقير والتَّهوين، ويُؤَيِّده التَّعبيرُ بِلَفْظِ ﴿كَٰذِبًاۚ﴾ دونَ (كَذّابًا)، ولا تنافيَ بينَ الدّلالَتَيْنِ؛ إذْ يُمْكِنُ الجَمْعُ بينَهُما بأنْ يُقال: إنَّ فرعون أرادَ تَحْقيرَ موسى عليه السلام في ذاتِهِ بما جاءَ بِهِ مِن هَذا الكذبِ العَظيم - وحاشاهُ عليه السلام -.

**بلاغةُ الاحْتِراسِ في قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾:**

التَّكْذيبُ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ ولا تَأَمُّلٍ في الأدِلَّةِ

جُمْلَةُ ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾ جاءت مُعْتَرِضَةً بِغَرَضِ الاحتراس؛ لِدَفْعِ أيِّ تَوَهُّم قد يطرأُ على هامانَ وقومِه، بأنَّ دَعْوَةَ موسى عليه السلام قَد أثّرت في يقينِ فِرْعَوْن بدينِه وآلِهَتِه، أو أنَّه يتَّجِهُ إلى البحثِ بِعَيْنِ المُتَأمِّل في أدِلَّة المَعْرِفَة، فجاءَت الجُمْلَةُ لِتُؤَكِّد لَهُم أنَّ غاية فِرْعَون لَم تكُن سِوى نَفْي دَعْوى موسى بحُجَّةٍ حِسّيَّة تُقْطَعُ بها، لا لِتأملٍ أو نَظرٍ في صِدْقِ دَعْوَتِه[2].

**دلالَةُ الواوِ في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ﴾:**

الواوُ في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 147.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 147.

﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ استِئْنافيَّة[1]، والجملة بعدَها مُسْتَأْنفةٌ نَحْويًّا، جيءَ بها لزيادَةِ التَّعجيب مِن حالِ فِرْعَوْنَ وعِنادِه.

**دلالَةُ الكافِ في (كَذلِكَ):**

تَزْيينُ سوءِ عَمَلِ فِرْعَوْنَ مِثالٌ لِلضَّلالِ الشَّديدِ

في قول اللّه ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أسلوبُ تشبيهٍ[2]؛ حيثُ يُشير إلى أنَّ تزيينَ سوء العمل لفِرعون قد بلَغَ مِن القوَّة والتَّأثير مبلغًا عظيمًا، بحيثُ أصبَحَ تزيينه مثالًا في ذاته لا يُشبهه شيءٌ إلّا نفسه[3]. وهذا التَّعبيرُ يُظهر المُبالغة في شدَّة ضلال فرعون وعَمى بَصيرته بسبَب انْغماسه في الكفر والطُّغيان. ففي هذا الأسلوبِ تحذيرٌ مِنَ الوقوعِ في مِثْلِ حالِه، وإنذارٌ بعاقبةِ تزيينِ الباطلِ.

**نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ الدّالِّ على البُعْدِ:**

بَيانُ شِدَّةِ بُعْدِ شَأْنِ فِرْعَوْنَ عَنِ الحَقِّ والهُدى

جاءَ التَّعبير باسم الإشارة الدّالِّ على البُعْد (ذلك) في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ للإشارة إلى عظَمةِ التَّزيين وهَوْلِه[4]، وتأكيد شِدَّة بُعْد حال فرعون عنِ الحقِّ بسبب إيغاله في الكُفْر والطُّغْيان، وهذا يُبرز مدى تأثير التَّزيين على قَلْبه، حتَّى صار سوءُ عملِه زينَةً في عَيْنَيْه، ممّا زادَهُ ضلالًا وإعْراضًا عن سبيلِ الهدايَةِ.

**دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالتَّزْيينِ مادَّةً وصيغَةً:**

انْقِلابُ الباطِلِ حَقًّا في نَظَرِ فِرْعَوْنَ

جاء التَّعبير بمادَّةِ التَّزيين في قول اللّه تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾، للدّلالة على تَحْسين الباطل في عين فِرْعون حتّى بَدا له في صورةِ الحقِّ، وهو تزيينٌ بالِغُ التَّأثير، جعلَهُ يحسَبُ الضَّلال هُدًى والباطلَ حقًّا. واخْتيرَ بناءُ فعلِ التَّزيين لِما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُه؛ للتَّنبيه على ذاتِ التَّزيين بِصَرْفِ النَّظر عنِ المُزَيِّن[5]. فقد

---

(1) الدّعّاس، إعراب القرآن: 3/ 157.

(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 212، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 184.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 147.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 70.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 70، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 147.

يكون هذا التّزيين من قبل شيطانه، أو من قبل نفسه، أو حاشيته، كما أنَّ صيغة الماضي تُشيرُ إلى تمامِ التَّزيين وتحقُّقه فيه.

### معنى اللّامِ في ﴿لِفِرْعَوْنَ﴾:

استِقْرارُ تَزْيِين الباطِلِ في قَلْبِهِ

اللّام في ﴿لِفِرْعَوْنَ﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ تفيدُ الاختصاصَ؛ أي: أنَّ تزيينَ سوءِ العملِ كان خاصًّا بِفِرْعَون، حيثُ وقع في نَفْسِه وأثَّر عليهِ خاصَّةً، ثمّ أضلَّ قومَهُ تبعًا لضلالِهِ هو، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ التَّزيينَ قَد اسْتَقرَّ في قلبِهِ وعَقْلِه، فصار يرى سوء عملِهِ حَسَنًا، وازدادت غِوايَتُه وإعراضُه عن الحقِّ.

### نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ عَلى نائِبِ الفاعِلِ:

لَفْتُ النَّظَرِ إلى عاقِبَةِ فِرْعَوْنَ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لِفِرْعَوْنَ﴾ على نائبِ الفاعِل ﴿سُوٓءُ﴾ مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ هي إفادَةِ الاخْتِصاص والتَّوكيدِ، على أنَّ هَذا التَّزْيين كان خاصًّا بِفِرْعَوْنَ، فَهوَ المُتأثِّر الأوَّل بهذا التَّزيين، كما أنَّ هذا التَّقديم يُبرز أهمّيَّة ذِكْرِ فِرْعَونَ وموقعِه في السّياق قبلَ الإشارةِ إلى سوء عملِه، مِمّا يَلْفِتُ النَّظرَ إلى عاقِبَتِهِ بوجهٍ أقوى وأبينَ.

### نَوْعُ الإضافَةِ ودِلالَتُها في ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾:

الصِّلَةُ الوَثيقَةُ بَيْنَ فِرْعَوْنَ وعَمَلِهِ القَبيحِ

الإضافة في ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ إضافَةٌ بيانيَّة؛ حيثُ تُبيّن أنَّ السّوء هو نفسُه عملُ فِرْعونَ الذي زُيِّن له، وهيَ تُفيدُ أنَّ العملَ سَيِّئٌ وقبيحٌ في أصْلِه، وفي الإضافة إيماءٌ إلى العلاقَةِ الوثيقَةِ بينَ العَمَلِ وفِرْعَوْنَ، حيثُ يُنسب السّوء إليه، ويُحمَّل تَبِعَتَهُ.

### معنى الواوِ في قوله: ﴿وَصُدَّ﴾:

بَيانُ التَّناسُبِ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ

الواوُ في ﴿وَصُدَّ﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ عاطفَةٌ الجملةَ بعدَها على جُملَة ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾، فيكون بينَ الجُمْلتين توسُّط بينَ الكمالَيْن لاشْتِراكهما في الخبريَّة، ولما بَيْنَهُما

مِنَ التَّناسُب المَعْنَويِّ، وحسَّن الوصلَ اتِّحادُ الجملتَيْنِ في الفِعْلِيَّة، وبناءِ المُسْنَدِ فيهما لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه.

**نُكْتَةُ تقديمِ التّزيين على الصّدّ:**

قدّمتِ الآيةُ الكريمة فعلَ التّزيين على فعل الصّدّ؛ للإشارة إلى تقديم السّبب على النّتيجة، فالتّزيينُ للعمل هو الذي اقتضى بعد ذلك صَدَّه عن السّبيل الحقّ.

**تَوْجيهُ القِراءاتِ في ﴿وَصُدَّ﴾:**

التَّكامُلُ الدّلاليُّ بَيْنَ القِراءاتِ القُرْآنيَّةِ

قرأ ﴿وَصُدَّ﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ بضمِّ الصّادِ على البِناء للمَفْعولِ: عاصِمٌ وحمزةُ والكِسائيُّ ويعقوبُ وخلفُ البَزّار، وقرأ الباقون بفتحِ الباء ﴿وَصَدَّ﴾ بالبناءِ لِلفاعِل[1].

فأمّا قراءةُ البِناء للمفعولِ ﴿وَصُدَّ﴾؛ فلم يُنَصَّ على الفاعل لا لِلجَهْلِ به، وإنَّما لإرادَةِ بَيان النَّتيجة والغايةِ وهو التَّزيين بقَطْعِ النَّظر عن المُزَيِّن، وأمّا قراءةُ البناء للفاعلِ ﴿وَصَدَّ﴾، فدالٌّ على أنَّ المُزَيِّن هو اللّه تعالى؛ وذلك لأنَّ فرعونَ قد طلبَ ذلك بلِسانِ اسْتِعْداده، واقْتَضى ذلك سوءَ اخْتياره. ويجوز أن يكون الفاعلُ هو الشَّيطان، ونُسب فعلُ التَّزيين إليهِ لأنَّه المُتَسَبِّبُ في ذلك بالوَساوِسِ والخَطَرات[2].

**نُكْتَةُ تَعْدِيَةِ فِعْلِ الصَّدِّ بِـ ﴿عَنِ﴾:**

انحرافُ فِرْعَوْنَ عن سَبيلِ الهُدى والرَّشادِ

عُدّي فعلُ الصَّدِّ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ بحرف الجرِّ ﴿عَنِ﴾، وهيَ تدلُّ على المُجاوَزَة؛ للدِّلالة على أنَّ فِرْعَوْنَ قَد تَجاوَزَ سبيلَ الحقِّ وانْحَرَفَ عنهُ نَتيجَةَ تَزْيين سوءِ عَمَلِه. فَحَرْفُ الجرِّ ﴿عَنِ﴾ يُشير إلى أنَّ فِرْعَون لَم يكتفِ بالعدولِ عَن طريقِ الحقِّ، بَل أَوْغَل في الانحرافِ عنهُ إيغالًا بعيدًا.

---

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 298.

(2) ابن الجزريّ، النّشر: 12/ 323.

### معنى (ألْ) في ﴿ٱلسَّبِيلِۚ﴾:

سبيلُ الحَقِّ هيَ السَّبيلُ الكامِلَةُ لِلصَّلاحِ

(أل) في ﴿ٱلسَّبِيلِۚ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ للعهد[1]؛ أي: سبيل الحقِّ والرَّشاد الذي يعرفه السّامع[2]، ويُرادُ به الطَّريق الموصِل إلى اللّهِ تعالى. ويجوز أن تكون (أل) للكمال[3]، فتفيد أنَّ السَّبيل المقصودَةَ هي السَّبيل الكاملَةُ الصّالحة التي لا غِنى عنها للوصولِ إلى الهدايةِ والنَّجاة. ولا تَنافيَ بين المَعْنَيَيْن؛ لأنَّ سبيل الحقِّ والرَّشاد هي سبيلٌ كاملَةٌ مِنْ حيثُ صَلاحُها وكمالُها في توجيهِ النّاسِ إلى ما يُرْضي اللّه تعالى.

### بلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في ﴿ٱلسَّبِيلِۚ﴾:

الإيغالُ في البُعْدِ عن سَبيلِ الحَقِّ

في قول اللّه تعالى: ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ مجازٌ بالاستعارة؛ حيثُ عُبِّر عَمّا يؤدّي إلى الحقِّ والرَّشاد بالسَّبيل وهو الطَّريق، فشُبِّه ما يؤدّي إلى الحقِّ بالسَّبيل بجامع التَّوصيل إلى غرضٍ ما في كلٍّ منهما، على سبيلِ الاستعارَةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وهذه الاستعارةُ تجعل الطَّريق رمزًا للحقِّ والرَّشاد، وتُظْهِر أنَّ الانحراف عنه ابتعادٌ عن الطَّريق، بل إيغالٌ في هذا البُعدِ.

### معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا كَيۡدُ﴾:

التَّناسُبُ المَعْنَويُّ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ

الواو في ﴿وَمَا﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على جُمْلَة ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾[4]، وذلك لما بين الجُمْلَتَيْن مِنَ التَّوسُّط بين الكمالين؛ لاشتراكِهما في الخَبَريَّة، وما بينَهُما مِنَ التَّناسب المعنَويِّ؛ إذِ الكلامُ في كِلَيْهما عَنْ أحوالِ فِرْعَوْنَ، وحَسَّن الوصلَ اتِّفاقُ الجملتَيْن في الاسْميَّة. ويمكن أن تكون الواو للحال، والجملة بعدها حاليّة على معنى: والحال أنّ كيده في تباب.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 323.
(2) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 12/ 191.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 148.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 148.

### نُكْتَةُ الإظهار في موضع الإضمار:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ إظهارٌ لاسم فرعون في موضع إضماره، والعلّة في ذلك التّسجيلُ عليه بالكفر والضّلال.

### بلاغَةُ القَصْرِ وغَرَضُهُ:

بَيانُ حَتْمِيَّةِ خُسْرانِ كَيْدِ الظّالِمينَ

في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ قصرٌ إضافيّ، وطريقهُ: النَّفي والاستثناءُ، وذلك بقصر الموصوف على الصّفة، وهو أقْوى طُرُق القَصْر؛ لإبرازِ حَصْر كَيْدِ فِرْعَون في نتيجةٍ واحدةٍ وهيَ الهلاكُ. ويُبرز هذا الأسلوبُ يقينيَّة العاقبةِ الإلَهيَّة، ويُظهر التَّناقضَ بين قوَّة كيد فرعون في الظّاهر وعاقبتِه الحتميَّة، ممّا يُقلِّل من شأنه ويُؤَكِّد خَيْبَتَهُ. وفي جُمْلَةِ القَصْر تأكيدٌ وتنبيهٌ على حتميَّة هلاك كيدِ الظّالِمين، وتحذيرٌ من الاغْترار بِقوَّتِهم الزّائلة، وفيه بثُّ الطُّمأنينَةِ في نفوسِ المُؤمنين، بأنَّ كيد أعدائِهم مَهْما عَظُم فإنَّه لن يؤولَ إلّا إلى الخُسْرانِ.

### نُكْتَةُ إضافَةِ الـ﴿كَيۡدُ﴾ إلى ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾:

بَيانُ صِلَةِ فِرْعَوْنَ بِالكَيْدِ وتَدْبيرِ الشَّرِّ والفَسادِ

أُضيف الـ﴿كَيۡدُ﴾ إلى ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾؛ لإفادَة تَخْصيصِ الفِعْلِ به، لإبْرازِ صِلَته الكُلّيَّة بالكَيْدِ وتَدْبيرِ الشَّرِّ. ولِذا أُعيد الاسمُ الظّاهرُ ولَم يُضْمَر؛ لِئَلّا يُخَصَّ بِحَيْثيَّةٍ مِنَ الحَيْثيّات[1].

### نوع الاستثناء في الآية:

قَطْعيَّةُ العاقِبَةِ السَّيِّئَةِ لِكَيْدِ فِرْعَوْنَ

الاستثناءُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ استثناءٌ من أحوالٍ مُقَدَّرة[2]، أيْ: أنَّ في الآيةِ حصرًا لِكَيْدِ فِرْعَون في حالٍ واحدةٍ وهيَ كونُه في تبابٍ؛ أي: هلاكٍ وخُسْرانٍ. وهذا يَقْتَضي أنَّ جميع الأحوالِ الأُخْرى المحتمَلَة لكَيْدِه، كالظَّفَرِ أو الفلاحِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 71.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 148.

والنَّجاح، مستثناةٌ وغيرُ واردَةٍ. وبِهَذا يُبْرِزُ النَّصُّ يقينيَّة العاقبةِ الوحيدَةِ لكَيْدِه، ويُؤَكِّد بُطلانَ جميعِ خُطَطِه ومساعيهِ في تحقيقِ أيِّ غايَةٍ سِوى الهلاكِ.

### بلاغَةُ التَّعْبيرِ بِالظَّرْفيَّةِ المَجازيَّةِ:

ارْتِبَاطُ كَيْدِ فِرْعَوْنَ الوَثِيقِ بِالدَّمارِ والهَلاكِ

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ من قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ دالٌّ على الظَّرفيَّة، وهي ظرفيَّة مجازيَّة، فيكون التَّباب - وهو الهلاك - مستعمَلًا ظرفًا مجازيًّا؛ للدّلالَة على شِدَّة المُلابسَةِ والتَّعلُّق[1]، وفي ذلك استعارَةٌ تبعيّة تُظهر شدَّة ارْتِباطِ كيدِ فِرْعونَ بالهَلاك، وفيها تصويرُ كيدِ فرعونَ في صورةٍ ما لا يَقْتَصِرُ على مجرَّد الفعل أو التَّدبير، بل هو في حالٍ من الالتحامِ والتَّداخل التّامِّ مع الهلاكِ.

### دلالَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿تَبَابٖ﴾:

في التَّعبير بكلمة ﴿تَبَابٖ﴾ في قول اللّه تَعالى: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ دلالَةٌ على شِدَّةِ الخَيبَة وتمام الهلاك الذي آلَ إليه أمرُ فِرعون، ممّا يَقْتَضي أنَّ خُسْرانَهُ شامِلٌ مُطْلَقٌ.

### نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿تَبَابٖ﴾:

إحاطَةُ الهَلاكِ بِفِرْعَوْنَ إحاطَةً تامَّةً

نُكِّر لفظ ﴿تَبَابٖ﴾ في قول اللّه تَعالى: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾؛ للدّلالَةِ على التَّعظيم والتَّفخيم، فهو خَسارٌ عظيمٌ، وهلاكٌ جليلٌ[2]، وذلك يَقْتَضي إحاطةَ الهَلاكِ بِفِرْعون مِن كلِّ جوانبِه، بحيثُ لا يُمَكِّنُه الإفلاتُ منه بحالٍ.

## ۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### الطَّريقُ والسَّبيلُ:

السَّبيلُ: هو الطَّريقُ الذي فيه سهولةٌ، ويُطلق على الطّريق المسلوكَةِ، ومِنْهُ قولُهم: سبيلٌ سابلَةٌ، أي: مسلوكَةٌ، ولذا اقترنَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 148.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 71.

الطَّريقُ أعَمُّ مِنَ السَّبيلِ وأشْمَلُ

السُّلوكُ مع السَّبيلِ كثيرًا، كما في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗا﴾ [النّحل: 69]، وقوله سُبْحانَهُ: ﴿وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ [طه: 53]. ولسهولَةِ سلوكِ السَّبيلِ وردت في القرآنِ الكريم كثيرًا مُرادًا بها: ما يُسلَكُ لنيلِ الخير، وأمّا قولُ اللّه تعالى: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨﴾ [النّساء: 98]، كأنَّ المعنى: أنَّهم لا يَهْتَدونَ إلى طريقٍ يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ من خلالهِ الخلاصُ من أذى الكُفّار وقَهْرِهم.

وأمّا الطَّريقُ؛ فأصلُه مِنَ الطَّرْقِ بالأرجلِ، ثُمَّ استُعير لكلِّ مَسْلَك يسلكه الإنسانُ، وهو لا يستلزِمُ السّهولَةَ كالسَّبيل، والغالب في الطَّريقِ إذا أُريد به الخيرُ؛ قُرِنَ بوصفٍ أو إضافةٍ تُخَلِّصُ معناه لذلك، كقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30]، فالسَّبيلُ أخصُّ مِنَ الطَّريقِ؛ لأنَّه يستلزِمُ السُّهولةَ بخلاف الطَّريقِ فلا يستلزِمُها؛ فهو أعمُّ بِهَذا الاعتبارِ[1].

### الكَيْدُ، والمَكْرُ، والخِداعُ:

الخِداعُ أعَمُّ مِنَ الكَيْدِ، والكَيْدُ أقْوى دلالَةً مِنَ المَكْرِ

الفرقُ بَيْنَها[2]: أنَّ الخداع إظهارُ أمْرٍ لِغَيْرِكَ مع إضمار خلافه، ولا يلزم مِنْهُ أن يكونَ بعدَ نظَرٍ وتدبُّرٍ، ولذا يُقال: خَدَعَهُ في البيع؛ إذا غَشَّهُ، ولو كان ذلكَ بديهَةً من غير فِكْرٍ سابقٍ. بخلاف الكَيْدِ فإنَّه - في حقِّ المخلوقِ - لا يكونُ إلّا بعد تدبُّرٍ وفِكْرٍ ونظَرٍ. وأمّا المكر فهو مِثْلُ الكَيْدِ في كَوْنِه - في حقِّ المَخْلوق - لا يكون إلّا بَعْدَ فِكْرٍ ونَظَرٍ، إلّا أنَّ الكَيْدَ أقوَى مِنَ المَكْرِ.

(1) العسكريّ والجزائريّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 313، ودوري، دقائق الفروق، ص: 139 - 142، وداود، معجم الفروق الدِّلاليَّة، ص: 281 - 284.

(2) العسكريّ والجزائريّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 213، 508.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٤٠﴾ [غافر: 38 - 40]

### مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

دَعْـوَةُ الـرَّجُـلِ المُؤمِنِ قَوْمَهُ

لَمّا ذكر اللّهُ تعالى ما لحالِ فِرعون مِنَ الفساد، وكان ذلك الفسادُ أظهرَ مِن أن يُحتاج إلى بيانٍ؛ أعرضَ الرَّجلُ المؤمنُ عنه مُصَرِّحًا، وملوِّحًا إلى ما ذكرَهُ اللّه تعالى عن فرعونَ مِن إحاطة العذابِ بِهِ، في قولهِ مُناديًا قومَه على وجهِ الاسْتِعْطافِ لَهُمْ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[1].

### شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرَّشَادِ﴾: (رشد) تدلُّ اشتقاقاتُها على اسْتِقامَةِ الطَّريق، والرُّشْدُ والرَّشَدُ والرَّشادُ: خِلافُ الغَيِّ[2]، وحقيقتُهُ: الهُدى والاسْتِقامَة[3]. وهو المرادُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

2) ﴿مَتَٰعٞ﴾: (متع) تدور تصريفاتُها على منفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ وقوَّةٍ وكمالِ حالٍ[4]. ومِنْهُ قولُه تعالى: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [هود: 3] أي: يَبْسُطْ عَلَيْكُمْ مِنَ الدُّنيا ويرزقكم مِنْ زينتِها، ويَنْسَأْ لَكُمْ في آجالكم إلى وقتِ وفاتِكُمْ، ولا يَسْتَأْصِلْكم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 71.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والحميريّ، شمس العلوم: (رشد).
(3) الحميديّ، تفسير غريب ما في الصّحيحين، ص: 174.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (متع).

بِعذابٍ[1]. ومِنْهُ: المَتاع؛ وهو في الأَصْل: كلّ شَيْء يُنتفَع بِهِ انتفاعًا مؤجَّلًا، وهو المرادُ في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾[2].

3) ﴿ٱلْقَرَارِ﴾: (قرّ) تدلُّ كثير مِن تصاريفه على التَّمكُّنُ[3]، يُقال: قرَّ الشَّيْءُ يَقِرُّ قَرارًا؛ إذا ثَبَتَ في مَكانِه، ولم يَتَحَوَّلْ، ويأْتي بِمعنى: الاِقْتِرانِ والتَّلازُم، يُقالُ: قَرَّ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ: إذا قُرِنَ بِهِ، وتَرافَقَ مَعَهُ، ويُطْلَقُ القَرارُ على الشَّيْءِ الثّابِتِ الباقي في مَكانِهِ أو على حالِهِ كالأَرْضِ والبِناءِ، ومِنْ مَعانيه أيضًا: الإقامَةُ، والاطْمِئْنانُ، والسُّكونُ[4]. والمراد بالقَرارِ في الآية: الثُّبوتُ في المَكانِ، وذلك لخلودِها ودوامِ ما فيها[5].

4) ﴿يُرْزَقُونَ﴾: (رزق) تدلُّ تصريفاتُها على معنى العَطاء[6]، مِنْ قولهم: رَزَقَ يَرْزُقُ رَزْقًا، والمَصْدَر: الرَّزْقُ - بفتح الرّاءِ - ، والرِّزْقُ - بالكسر -: هو الاسمُ، وقد يُستعمل بمعنى المَصْدَر[7]. ويُطلق الرِّزقُ إطْلاقاتٍ متعدِّدةٍ[8]؛ أَوَّلُها: العطاءُ الجاري، ومِنْهُ قوله: رَزَقَ السُّلطانُ جُنْدَه. ثانيها: ما يَصِل إلى الجَوْف ويُتَغذّى به، ومِنْهُ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ؛ لَرَزَقَكُمْ كَما يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدو خِماصًا، وتَروحُ بِطانًا»[9]. ثالثُها: على كُلِّ خَيْرٍ وصَلَ إلى صاحبِه، ومِنْهُ قَوْلُهُم: رَزَقَ اللهُ فلانًا عِلْمًا. وحَمْلُ الرِّزْقِ في الآيةِ على العُموم أَوْلى وأَنْسَبُ لبلاغة القرآنِ القائمةِ على وفرة المعاني؛ فيكون الرِّزْقُ شامِلًا لكلِّ ما تقدَّمَ.

5) ﴿حِسَابٍ﴾: (حسب) تدُلُّ اشتقاقاتُها على معانٍ؛ منها: العَدُّ[10]، ومنه: الحِسابُ؛ وهو استعمالُ العَدَدِ[11]، ومنه أيضًا: الحَسَبُ؛ وهو الفَعال الحَسَنُ لَهُ ولآبائه، مَأْخوذ من

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 229، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (متع).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 149.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قر).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (قرر).
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 277.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رزق).
(7) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/ 82.
(8) السّمين، عمدة الحفّاظ: 2/ 87، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 324.
(9) أخرجه التِّرمذي في سننه، برقم: (2344)، وابن ماجه، برقم: (4164)، وهو صَحِيحٌ كما في السِّلسلة الصَّحيحة، ص: 310.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حسب).
(11) الرّاغب، المفردات: (حسب).

الحِساب؛ وذلك لأنَّهم يَعُدّون ذلك في مناقبهم[1]. والحِسابُ مصدرٌ بمعنى المحاسبَةِ، والحِساب في قولِه: ﴿يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ بمعنى الحَصْر؛ لأنَّ الحِساب يَسْتَلْزِمُ حصرَ الشَّيءِ المحسوبِ بحيثُ لا يَزيدُ ولا يَنْقُص[2].

## المَعْنى الإجْماليُّ:

الدَّعْوَةُ إلى لُزومِ الـدّارِ الآخِـرَةِ والزُّهْدِ في الحياةِ الزّائِلَةِ

بيَّن اللّه سبحانه في هذهِ الآياتِ دعوةَ الرَّجل المؤمنِ لقَوْمِه؛ حيثُ قال لَهُم ناصحًا: يا قومِ اتَّبعوا طريقي أَهْدِكُم سبيلَ الحقِّ والصَّواب، وذكّرهم بأنَّ الحياةَ الدُّنيا ما هي إلّا متاعٌ زائلٌ وقليلٌ، بينَما الآخرةُ هي دارُ الإقامَةِ والقَرار الدّائم، التي يَنْبغي العملُ مِن أجلها، وأوضَح لَهُم أنَّ مَن عَمِل سيِّئة فلا يُعاقب إلّا بقَدْرِها، ومَن عمِل صالحًا، سواءٌ أكان ذكرًا أو أنثى بِشَرْطِ الإيمانِ؛ فإنَّ جزاءَهُ دخولُ الجنَّة والتَّمتُّعُ بنَعيمها ورِزْقِها بلا حُدودٍ أو حِسابٍ[3].

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### دلالَةُ الواوِ في ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾:

الانْـتِـقـالُ إلى مَقالَةٍ جَديدَةٍ ضِـمْـنَ سـيـاقِ القِصَّةِ

الواو في ﴿وَقَالَ﴾ من قول اللّه سُبْحانَه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ﴾ للاستئنافِ، فهي تُفيد الانتقالَ إلى مقالةٍ جديدةٍ ضِمْنَ سياق القصَّة[4]؛ إذْ إنَّ حديثَ مؤمن آل فرعون يتألَّف من مقاطعَ متفرِّقة، قيلت بِحَسَب الحاجَةِ والمقام. فجملةُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ﴾ مستقلَّة عن سابِقَتِها مع بقائِها في سياق التَّرابط العامِّ للحِوار المَحْكيِّ.

### غرضُ التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ وصِلَتِهِ:

الـشَّـجـاعـةُ في إظْهارِ الحَقِّ

جاءَ التَّعبيرُ بالموصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ في قول اللّه ﷻ:

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حسب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 237.
(3) نخبة من أساتذة التّفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 471.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 148.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ﴾ للإيماء إلى صِفَةٍ بارزَةٍ فيه يُعرَف بها وتُمَيِّزه عن غيره؛ وهي الإيمانُ الذي يُخالِف ما عليهِ حالُ قومِه، فيكون التَّعبير القرآنيُّ - ﴿ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ - قد جَعَلَ الإيمانَ عنوانًا له، ممّا يقتضي تفرُّدَه بالشَّجاعة في إظهارِ الحقِّ. وفي مجيءِ جُملة الصِّلة فعلًا إيماءٌ إلى أنَّه ينبغي لأدنى أهل الإيمانِ أن لا يَحْقِر نفسَهُ عنِ الوَعْظِ والنُّصْح[1].

### نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الإيمان:

استِقْرارُ مَعْنى الإيمانِ عِنْدَ المُخاطَبينَ

حُذِفَ مُتَعَلَّقُ الإيمان في قوله سُبْحانَهُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾، فلم يُذْكَر بماذا آمن؛ لِلعِلْم بِهِ؛ فَإنَّ متعلَّق الإيمانِ معروفٌ عِنْدَ المُخاطَبينَ، أو أنَّهُ حُذِفَ لقصدِ إفادة العموم، أي: آمن بجميع ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ؛ لأنّ حذف المتعلّق مُؤْذِنٌ بالعموم، ولا تَنافيَ بينَ الدّلالتَيْن؛ لأنَّ الإيمانَ المَعْهودَ عندَ المُخاطَبين هو الإيمانُ بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ شَرْعًا.

### غرضُ النِّداءِ بِـ(يا) ولَفْظِ القَوْمِ:

غَفْلَةُ المُخاطَبينَ عَمّا يوعَظونَ بِهِ

جاء النِّداءُ في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ﴾ بالحرف (يا) وهو في الأصلِ لِنداءِ البَعيد؛ لا لِبُعْدِ المُخاطَبين حقيقةً، بَلْ للإشارة إلى غَفْلَتِهِم عمّا يوعَظون به، فكان أسلوبُ النِّداء جاذِبًا انْتِباهَ المخاطَبين، مُسْتَميلًا أسماعَهُم لِيُصْغوا إلى ما يُقال لَهُم، حيثُ أنزلَ القريبَ منزلة البعيد؛ تنبيهًا له لغفلته وضلاله. وفي نِدائِهِم بِلَفْظِ القَوْم في ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ﴾ إشارةٌ إلى ارْتِباطه بِهِم، وإبرازٌ أنَّه لا قِيامَ لَهُ إلّا بِهِم، ممّا يَقْطَع احتمالَ التُّهمة في نُصْحِه لهم[2]؛ فهو يُخاطِبهُم بِلِسانِ المَحبَّة والشَّفقة والانتماء.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 71.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 71.

### دِلالَةُ الأمْرِ في ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾:

تَكْمُنُ السَّعادَةُ غالِبًا فيما يَكْرَهُهُ الإنْسانُ أوْ يَجِدُ فيهِ مَشَقَّةً

﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ﴾ فعلُ أمر، وهو في الأصل يدلُّ على الإلزام بالفعل، وهو في الآية الكريمةِ دالٌّ على النُّصح والإرشادِ؛ لاشْتِمالِه على ما فيهِ مَصْلَحَةٌ لهم في الدُّنيا والآخرة. وفي استعمالِ صيغَةِ الافْتِعال (الاتِّباع) في قولِه: ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ دلالَةٌ على الدَّعوة إلى تَكْليفِ النَّفس بالاسْتِقامَةِ والهِداية، إذِ السَّعادة تكونُ غالِبًا فيما يَكْرَهُهُ الإنسانُ أو يَجِدُ فيهِ مشقَّةً[1]. فكان الأمرُ بالاتِّباعِ حثًّا لَهُم على طَرْحِ أهْوائِهِم والتِزامِهِم طَريقَ الهُدى.

### بلاغَةُ المَجازِ في الأمْرِ بِالاتِّباعِ:

اتِّباعُ الحَقِّ طَريقُ النَّجاحِ والفَلاحِ

في قول اللّه سُبْحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ مجازٌ مركَّب؛ حيثُ صوِّرت الهدايَةُ في صورَةِ طريقٍ حسّيٍّ يُسار فيه ويُسلك، والدّاعي في صورةِ دليلٍ يقودُ قومَه، بجامع أنّ كليهما يوصِل إلى غاية، وذلك على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، وهذا المَجاز يُبْرِزُ عُمْقَ الصِّلة بين الدّاعي والمَدْعوّين، ويُظْهِرُ الاتِّباعَ وسيلةً للنَّجاة والفلاحِ.

### المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿أَهۡدِكُمۡ﴾، ودلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ:

الهِدايَةُ مَسْلَكٌ جَليلٌ مُثْمِرٌ الرَّشادَ

﴿أَهۡدِكُمۡ﴾ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ﴾ فعلُ مضارع مجزومٌ؛ لوقوعِه جَوابًا للطَّلب[2]. وجوابُ الطَّلب يُبْرِزُ وثيقَ الصِّلةِ بينَ الاتِّباع والهِدايَةِ، ويَجْعَلُ الدَّعوة في مَقام الوَعْدِ الصّادق؛ فتكون الهِدايَةُ المَذْكورة هُنا يقينًا مُتَحَقّقا لا أمرًا يُرتجى. وفي التَّعبير بالفعلِ المُضارِعِ ﴿أَهۡدِكُمۡ﴾ إشعارٌ بأنَّ الهدايةَ دائمٌ نَفْعُها، مستمِرٌّ فَيْضُها، وأنَّها مسلَكٌ مُتَّصل مثمرٌ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 71.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 491.

الرَّشادَ في كلِّ خطوة يخطوها السّالك، ومفعولا الهدايةِ هنا هما ضميرُ الخطاب في ﴿أَهۡدِكُمۡ﴾ و﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

### نُكْتَةُ تَعْدِيَةِ فِعْلِ الهِدايَةِ بِنَفْسِهِ:

شُمولُ الهِدايَةِ لِـلـتَّـوْحـيـدِ والعَمَلِ الصّالِحِ

عُدّي فعلُ الهداية بنفسِه في قول اللّه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾؛ لإفادة الجَمْعِ بين الهداية إلى سبيلِ الرَّشاد، والهداية في سبيل الرَّشاد[1]، فهي تَشْمَلُ الهدايةَ إلى دين التَّوحيد وتركِ ما سِواه، والتَّوفيق للعمل الصّالح والثَّبات عليه، فلا يقتَصِرُ على الدّلالة فحسبُ، بل يشمَلُ الإعانَة المُسْتَمِرَّة على السَّير في هذا السَّبيل.

### بلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في ﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾:

تَجْسيدُ المَعاني المَعْنَويَّةِ في قالَبِ المَـحْـسـوسِ؛ تَقْريبًا لَـها إلى النُّفوسِ

في قول اللّهِ تعالى: ﴿أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ مجاز بالاستعارةِ التّصريحيّة، وذلك في تصويرِ الهداية والإيمانِ في صورةِ طَريق بيِّن المَعالم، تُفضي نِهايَتُه إلى الفَلاح والنَّجاة، فَجُعِل الرَّشادُ غايةً تُدْرَكُ بالسُّلوك في هذا السَّبيل، كأنَّما هو مَسْلَك محسوسٌ معلومٌ لا عِوَجَ فيه، يدعو السّائرين فيه بِوُضوحِه واسْتِقامَتِه. وهذه الاستعارَةُ تُجسِّد المعاني المعنويَّة في صورةٍ حسّيَّة تُقرّب المعنى إلى النُّفوس، وتُشْعِر بأنَّ الهداية سبيلٌ مُمَهَّد، مَن سار فيه وصَل، ومَن حادَ عنهُ تاهَ، ممّا يَزيدُ الخِطابَ قوَّةً وتأثيرًا.

### دلالةُ التّعبير بـ﴿ٱلرَّشَادِ﴾ مادّةً وصيغةً:

مبالغةُ مؤمنِ آلِ فـرعـونَ في دعوته قومَه

دلّت استعمالاتُ مادّة (رشد) على اسْتِقامَةِ الطَّريقِ، والرُّشْدُ والرَّشَدُ والرَّشادُ: خِلافُ الغَيِّ[2]، وحقيقتُهُ: الهُدى والاسْتِقامَة[3]. وقد جاءت هنا مصدرًا مُعَرّفًا بـ(أل)؛ للدّلالة على شدّة رغبته في

---

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 39.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والحميريّ، شمس العلوم: (رشد).

(3) الحميديّ، تفسير غريب ما في الصحيحين، ص: 174.

هداية قومه، من حيثُ دعوتُه لهم إلى اتّباع طريق الرّشاد كلّه دونَ أن يفوتَهم منه شيء.

**معنى (أل) في ﴿ٱلرَّشَادِ﴾:**

سُلوكُ الطَّريقِ المُسْتَقيمِ يُؤَدّي إلى النَّجاةِ الكامِلَةِ

(أل) في ﴿ٱلرَّشَادِ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ دالَّة على الكمالِ، والمعنى: أهدِكُم سبيلَ الرَّشادِ الكاملِ الذي لا تَسْري إليه شائبةٌ، ولا يلحقُها نقصانٌ بحالٍ، وهوَ السَّبيلُ المُستقيم لا يَضِلُّ سالِكُه، وهوَ مُفضي إلى النَّجاة التّامَّة.

**بلاغةُ التَّعْريضِ في الآيَةِ:**

ما يَسْلُكُهُ فِرْعَوْنُ هو طَريقُ الغَيِّ والضَّلالِ

في قول الله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أسلوبُ تعريضٍ؛ حيثُ جاء التَّعريضُ بديعًا في إشارةٍ غيرِ صريحَةٍ إلى أنَّ ما عليهِ فِرْعونُ وقومُه هو سبيلُ الغَيِّ والضَّلال[1]، وذلك لأنَّه إذا ذُكِر سبيلُ الرَّشاد؛ اقْتَضى ذلك ضرورةً وجودَ سبيلٍ آخرَ مخالفٍ له؛ وهو سبيلُ الضَّلال الذي يسلكُه فرعونُ. وهذا التَّعريض أتى بحُسن البيانِ ليُدْنيَ الحقيقةَ دونَ تصريحٍ، ولَم يتضمَّن مواجهةً صَريحةً معَ فرعون، بلِ اكْتُفيَ بالإشارة البليغَةِ التي تُبيِّن التَّفاوت بين السَّبيلَين: سبيلِ الرَّشاد وسبيل الغيِّ، فكان ذَلِكَ أبلغَ في التَّأثير وأرسخَ في القَبولِ.

**نُكْتَةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ عَمّا قَبْلَهُ:**

سَبيلُ الرَّشادِ الزُّهْدُ في الفانِيَةِ والرَّغْبَةُ في الباقيَةِ

فُصِل قولُ الله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾؛ لوقوعه استئنافًا بيانيًّا؛ فإنَّه لَمّا قال: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أورث ذلك في نفس السّامع سؤالًا، وهو: ما حقيقة هذه السَّبيل؟ فجاء البيانُ أنَّها العدولُ عمّا يَفْنى إلى ما يبقى، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾[2].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 168، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 277، والقِنَّوجي، فتح البيان: 12/ 192.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 168، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 72.

### غرضُ تَكْرارِ النِّداءِ بِ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

التَّذْكيرُ الحَثيثُ بِوُجوبِ النَّظَرِ إلى الأبقى والأسْمى

كُرِّر النِّداء بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ في الآيةِ الكريمةِ؛ زيادةً في الاسْتِعْطافِ، وتَذْكيرًا لَهُم بصِلة القرابة بينَه وبينَهُم، فَهو لا يُريد لَهُم إلّا ما يُريدُهُ لنَفْسِه(1). وفي تَكْرارِ النِّداء أيضًا تأكيدٌ على إقْبالِهم؛ ليُبَيِّنَ لَهُم أنَّ الدُّنيا متاع زائل، وأنَّ الحياة الأبديَّة هي الغاية، فكان التَّكرار بمنزلةِ تذكيرٍ حثيثٍ لهم بِضَرورَةِ النَّظر إلى ما هو أبقى وأسمى؛ لأنَّه عَلِمَ أنَّ شدَّة تمسُّكهم بدينهم ورفضهم له ناشِئٌ عن حبِّهم للرِّئاسة والرَّفاهيَّة، وهذه كلُّها مِن متاع الدُّنيا الفاني، وأنَّ الخير الحقيقيَّ لَهُم في السَّعي وراء ما يُحَقِّق لهم السَّعادةَ الدّائمة في الآخِرَةِ(2).

### بَلاغَةُ القَصْرِ وغَرَضُهُ في قوله: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾:

تَنْزيلُ تَكالُبِهِمْ عَلى الدُّنْيا مَنْزِلَةَ مَنْ يَتَوَهَّمُ خُلودَ مَنافِعِها

في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ قصرٌ إضافيٌّ، وهو قصرُ موصوفٍ على صفة؛ إذْ قُصرت الحياةُ الدُّنيا على كونِها متاعًا، لا تتجاوز حقيقتُها هذا الوصفَ، فليسَتْ هي إلّا نفعًا زائلًا مؤقّتًا محدودَ الأجل. وجاء هذا القصرُ قصرَ قلبٍ؛ إذْ نَزَّل قومَه في تكالُبِهم على الدُّنيا ومنافِعها منزلةَ مَن يَتَوَهَّم خلودَ هذه المَنافِع، فصُرِف هذا التَّصوُّر عَن موضعِه إلى الحقيقة التي تَقْضي بأنَّ الدُّنيا متاعٌ(3).

### نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ الدّالِّ عَلى القُرْبِ:

تَحْقيرُ أمْرِ الحَياةِ الدُّنْيا

جاء التَّعبير باسم الإشارة ﴿هَٰذِهِ﴾ الدّالِّ على القُرب في قول اللّه سُبْحانَه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾؛ لتَحْقيرِ شأنِ الدُّنيا بالقُربِ، كأنَّما يقول لَهُم: هذه الدُّنيا التي تَلْهَثون وراءَها وتُقيمون

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 72.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 149.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 149.

لها وزنًا ليست إلّا متاعًا زائلًا، يوشِكُ أن يَنْتَهيَ. فالتَّعبير باسْمِ الإشارة الدّالِّ على القُرْب يُصَوِّر الدُّنيا على حقيقَتِها، بِوَصْفِها أدْنى وأحقرَ مِن أن تُعَظَّم أو يُغْتَرَّ بها.

الحَياةُ الدُّنيا مَتاعٌ زائِلٌ

**معنى (ألْ) في ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾:**

(أل) في ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾ مِنْ قولِه ﷻ: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٌ﴾ يُراد بها العَهْدُ العِلْميُّ؛ إذْ تُشيرُ إلى الحياةِ المَعْلومَةِ المُسْتَقِرَّةِ حقيقَتُها في الأذهانِ؛ وهيَ الحياة الدُّنيا التي يَلْهَثُ وراءَها الخَلْقُ، فتَخْصيصُها بـ (أل) يُميّزها عن الحياة الأخرى الباقيَة.

الحَياةُ الدُّنيا حَقيرٌ مَرْتَبَتُها قَليلٌ شَأْنُها

**نُكْتَةُ وصْفِ الحَياةِ بِـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:**

وُصِفتِ الحياةُ بِـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ في قولِه تَعالى: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ للإشارَةِ إلى دُنوِّ مرتَبَتِها ودناءَةِ شَأْنِها، فهي أدْنى ما يكونُ مِن مراتِبِ الحَياةِ، وأحقَرُ ما يُطلب مِنَ الغاياتِ[1]. وهذا الوصفُ يَحْمِلُ في طَيّاته تحقيرًا لها وتنبيهًا للنُّفوس على حقارَتِها وزَوالِها؛ لِيَصْرِفَ الهِمَم عنها إلى ما هو أرفعُ قَدْرًا وأبقى أثرًا، وهي الحياةُ الآخِرَةُ التي تَسْتَحِقُّ أن تُبذَل لَها المَساعي.

إيقاظُ القُلوبِ مِنْ غُرورِها

**نُكْتَةُ التَّنْكيرِ في ﴿مَتَٰعٌ﴾:**

نُكِّر لفظُ ﴿مَتَٰعٌ﴾ في قولِه تَعالى: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٌ﴾؛ للإشارَةِ إلى حقارَةِ هذا المَتاعِ وضَآلَته، فليسَ هو إلّا نَفْعًا زائلًا يتمَتَّع به الإنسانُ زمنًا يسيرًا ثُمَّ يَضْمَحِلّ. فالتَّنكير هنا أفادَ التَّقليل والتَّحقير، فكأنَّما صوّرت الدُّنيا في صورة جيفَةٍ لا ينالُ منها المرءُ إلّا قدرَ الضَّرورة[2]. فكان هذا التَّعبيرُ البليغُ موقِظًا القلوبَ مِن غُرورِها، ومُبَيِّنًا أنَّ الإخلادَ إلى الدُّنيا أصلُ الشُّرور ومنبَعُ الفِتَنِ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 72.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 72.

(3) القِنّوجيّ، فتح البيان: 12/ 192.

### معنى الواوِ في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾:

الدُّنيا والآخِرَةُ بَينَ الزَّوالِ والخُلودِ

الواوُ في ﴿وَإِنَّ﴾ مِن قول الله سُبْحانَه: ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ عاطفةُ الجملة بعدها على جملة ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾؛ لِما بينَ الجُملَتَين من اتّصال، فإنَّهما قد اشْتَرَكَتا في الخبريَّة، وبينَهُما جامع وهميٌّ وهو الضِّدّيَّة في ذِكر المنزلة الدَّنيئة للحَياة الدُّنيا، والمَكانةِ الرَّفيعة للدّار الآخرة. وحَسَّن الوصلَ اشتراكُهما في الاسميَّة. والعطفُ بينَ الجُملتين يَرْبِطُ بينَ الزَّوال والخلود؛ ليوَضِّح أنَّ الآخرة - بكونِها دارَ القرارِ - هي الجديرةُ بالسَّعي، وأنَّ الدُّنيا لا تَبْلُغ شيئًا مِن مَنْزِلَتِها.

### معنى (أل) في ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾:

دلّ تعريف ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ على الحضور الذّهني العهديّ، فهي الآخرة التي أشار إليها كلّ الأنبياء السّابقون، والتي يدركونها في وجدانهم وإحساسهم الفطريّ.

### فائِدَةُ التَّوْكيدِ بِـ (إنَّ) والجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ:

الآخِرَةُ دارُ القَرارِ الدّائِمِ والخُلودِ

جاء قولُ الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ مُؤَكَّدًا بـ (إنَّ) والجملةِ الاسْميَّة؛ لتقريرِ المعنى في النُّفوس وإحكامِه؛ حيثُ أفادَت (إنَّ) تقويةَ الحُكم وتثبيتَه، وجاءتِ الجملَةُ الاسميَّة دالّةً على الدَّوام والثُّبوت؛ لتُظهر أنَّ الآخرة هي المُستقَرُّ الحقُّ الذي لا يَطْرَأ عليه زوالٌ. وهذا التَّوكيد جاء مناسبًا لجلالِ المَقام، موقِظًا القلوبَ من غَفْلَتِها، صارفًا الأبصارَ عن الدُّنيا الفانية إلى الآخرةِ الباقيَةِ.

### بلاغَةُ القَصْرِ في الآيَةِ:

إبْرازُ عَظَمَةِ الدّارِ الآخِرَةِ

في قولِ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ أسلوبُ قصرٍ بطريقِ تَعريفِ جُزْأي الجملةِ، و﴿هِيَ﴾ ضميرُ فصلٍ مؤكِّد للقَصر لا مؤسِّس له؛ إذْ قد تقرَّر في القواعد أنَّ ضميرَ الفَصْلِ لا يكونُ دالًّا على القصر إلّا إذا تعيَّن طريقًا للقَصْر، أمّا إذا وُجِد طريقٌ

آخَرُ للقَصْر - كما في هذا المَوْضِع - فَهو مؤكِّد للقَصْر لا مُنْشِئٌ له. وإيرادُ الجملةِ بأُسْلوبِ القَصْرِ فيه إبرازُ عظمةِ الآخرة وترسيخُ حقيقَتِها في النُّفوس، بكونِها المُسْتَقَرّ الذي لا زوالَ له، مع نفي كلِّ وصفٍ مُشابِهٍ عنِ الدُّنيا؛ لتُصرَف القلوبُ عنِ التَّعلُّق بها، وتُهيَّأ للزُّهد فيها والتَّوجّه إلى ما أعدّه اللّهُ سُبحانَهُ في دار البَقاء.

**نُكْتَةُ إضافَةِ ﴿دَارُ﴾ إلى ﴿ٱلْقَرَارِ﴾:**

إعْلاءُ شَأْنِ الآخِرَة

أُضيفَ لفظُ ﴿دَارُ﴾ إلى ﴿ٱلْقَرَارِ﴾ مِن قول اللّهِ تَعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾؛ لإفادَةِ الاخْتِصاص، وذلك مفيدٌ أنَّ الآخرة هي وحْدَها موطِنُ الاستقرارِ الذي لا يَعْتَريه اضطرابٌ، ولا يَطْرَأُ عليهِ زوالٌ. وفي هذهِ الإضافَةِ إعلاءٌ لشأنِ الآخرة؛ إذْ قُرِن ذِكْرُها بالقرارِ الكاملِ الثّابت، الذي يُباين اضْطِرابَ الدُّنيا وفناءَها.

**دلالةُ التَّعْبيرِ بِالقَرارِ مادَّةً وصيغَةً:**

دوامُ الآخِرَة وعَدَمُ زَوالِها

جاء التَّعبير بلفظِ ﴿ٱلْقَرَارِ﴾ في قول اللّه سُبْحانَه: ﴿وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ يَحْمِل دِلالاتٍ رفيعةً مستمدَّة من أصلِ مادَّته وصيغته؛ إذْ تُشيرُ مادَّةُ القافِ والرّاء إلى التَّمكُّن والثُّبوت، وما يتفرَّعُ عنهُ مِنَ السُّكون والاطْمِئْنان والإقامةِ الدّائِمَة، فجاءَ وصفُ الآخرة بـ ﴿دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ ليُبَيِّن أنَّها موطِنُ الخُلود نعيمًا كان أو عذابًا. والتَّعبير بصيغَةِ المَصْدَرِ ﴿ٱلْقَرَارِ﴾ يُفيد الاستقرارَ التّامَّ المُطْلَق، مُبالغًا في بيانِ ثبوت الآخرة على وجْهٍ لا يدخلُهُ الزَّوالُ بحالٍ.

**بلاغة المقابلة بين الحالَيْن:**

لا يستوي حالُ مَنِ اشْترى الدّنيا مع مَن اشْترى الآخرة

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ مقابلةٌ بين حالَيْن، حالِ الدّنيا، وحالِ الآخرة، وكلاهما جاء بأسلوب القَصْر، فبين ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلْآخِرَةَ﴾ طباقُ إيجاب، وكذلك بين ﴿مَتَٰعٌ﴾ و﴿ٱلْقَرَارِ﴾ تضادٌّ، فالأوّلُ منهما زائلٌ بخلاف الثّاني الباقي.

**نُكْتَةُ فَصْلِ قوله: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ﴾ عمّا قَبْلَهُ:**

مُناسَبَةُ الجَزاءِ في الآخِرَةِ لِأعْمالِ العِبادِ

فُصِل قولُ اللّه تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ عمّا قبلَه؛ لوُقوعِه بيانًا لجملة ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾[1]؛ فالفَصْل لكمال الاتّصال؛ لأنّها جاءت مؤكِّدة أو مفسِّرة للآية السّابقة، والقصدُ بيانُ أنَّ الجزاء في الآخرة مناسِبٌ للعمل، فلا يُزاد على ما كسبَهُ المرءُ، مِمّا يُعَزِّز العدلَ في الدّار الآخرة، وأنَّ كلَّ عملٍ في الدُّنيا له جزاؤُه في دارِ القَرارِ.

**بلاغةُ التَّعْبيرِ بِالجُمْلَةِ الشَّرْطيَّةِ:**

تَوْفِيَةُ العِبادِ جَزاءَ أعْمالِهِمْ

عُبِّر بالجملة الشَّرطيَّة في قول اللّه تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾؛ للدّلالة على أنَّ الجزاءَ مُتَوَقِّف على ما قَدَّم العبدُ مِن عمَلٍ، فلا يُزاد عليهِ ولا يُنْقَص منه. وفي هذا بيانٌ واضحٌ أنَّ الحِساب في الآخرة يكونُ بِما يُناسِب الفعل؛ فلا يُظلم أحَدٌ، بل يوفّى كُلُّ عامِلٍ جزاءَهُ.

**دلالَةُ تَقْديمِ السَّيِّئَةِ على العَمَلِ الصّالِحِ:**

تَحْذيرُ المُخاطَبينَ وإِنْذارُهُمْ

قُدِّم ذِكْرُ السَّيِّئة على العملِ الصّالح في قولِ اللّه سُبْحانَه: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾؛ لِمُلاءَمَتِه حالَ المخاطَبين، وهُم قومُ فِرْعون الذين كانوا في غَفلة وتمادٍ في الضَّلال، فكان تقديمُ السَّيِّئة أوَّلًا على وجهِ التَّحذير والإنْذار؛ إذْ هو الأنسَبُ لِما هُم عليهِ مِن الباطل[2].

**نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿سَيِّئَةٗ﴾ و﴿صَٰلِحٗا﴾:**

بَيانُ عُمومِ الجَزاءِ

نُكِّرت كَلِمَتا ﴿سَيِّئَةٗ﴾ و﴿صَٰلِحٗا﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 124/ 149.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 73.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ لإفادة العُموم والشُّمول؛ لأنَّهما نَكِرَتان واقِعَتَيْن في سياق الشَّرط، وذلك مِن ألفاظِ العُموم، فكلُّ سيِّئةٍ مَهْما كانَت نوعًا أو قَدْرًا تُجازَى بِمِثْلِها، وكلّ عمَلٍ صالِح مَهْما كانَ قليلًا؛ فإنَّه يُثاب عليه[1].

**دلالةُ قولِه: ﴿سَيِّئَةٗ﴾ و﴿صَٰلِحٗا﴾ على المحذوفات:**

إقامة الصّفتيْن مقامَ الموصوفيْن إيجازًا

جاءت هاتان اللّفظتان صفتان لموصوفَيْن محذوفَيْن، والتّقدير: من عمل عملةً سيّئة..، ومن عمل عملًا صالحًا..، فأقيمت الصّفتان مقام الموصوفَيْن إيجازًا.

**معنى الفاءِ في ﴿فَلَا﴾:**

تَقْويةُ الرَّبْطِ بَيْنَ الفِعْلِ والجَزاءِ

الفاءُ في ﴿فَلَا﴾ مِن قول اللّه سُبحانه: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرط[2]؛ لوقوعه مَنْفيًّا، وهي تفيد تقوية ارتباط الجزاء بالفعل ارتباطًا وثيقًا، حتّى كأنَّ الجزاء يأتي بعد العمل بلا مهلةٍ، ممّا يُبرز حتميَّة الوُقوع.

**دلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿يُجۡزَىٰٓ﴾ مادَّةً وصيغَةً:**

التَّناسُبُ بَيْنَ الفِعْلِ والجَزاءِ

جاء التَّعبير بـ ﴿يُجۡزَىٰٓ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ لدلالة مادَّة الجيم والزّاي والحرف المُعْتَلّ على معنى المُكافَأة والعطاء، ممّا يُبيِّن التَّناسُبَ بينَ العمل والجزاءِ. وفي بناءِ الفِعْلِ لِما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُه إظهارٌ لِصُدور الجزاءِ مِنَ اللّهِ تعالى الذي لا شَريكَ لَهُ في مُلْكِه؛ لأنَّه من المُتَقَرِّر أنَّه لا يُجازي في الآخرة على الأعمالِ إلّا هو سُبْحانه، فكانَ في طَيِّ الفاعل لفظًا تعظيمٌ للّه ﷻ[3].

**بلاغَةُ القَصْرِ وغَرَضُهُ في قوله: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾:**

إظْهارُ كَمالِ العَدْلِ الإلَهيِّ

في قول اللّه ﷻ: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وطريقُه:

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 73 - 74.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 491.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 74.

النَّفي والاستثناء، وهو أقوى طُرُقِ القَصْر، وفيه قصرُ الجزاءِ على السَّيِّئة إلّا بمِثْلِها، فلا يتجاوَزُه إلى ما هو أكبَرُ منهُ، فهو من قَصْر الموصوف على الصّفة، وهو من القصر الإضافيّ، والغرضُ مِن جملةِ القَصر بيانُ كمالِ العَدْلِ الإلهيِّ، ويُظْهِر أنَّ الجزاء لا يتجاوَزُ حَدَّ الفِعْل.

**المَوْقِعُ النَّحْويُّ لقوله: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾:**

التَّناسُبُ المُحْكَمُ بَـيْنَ الـفِـعْـلِ وعاقِبَتِهِ

جملةُ ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ في محلِّ جزم جوابُ الشَّرط[1]، وفي جملةِ الشَّرط دلالةٌ على التَّناسُب المُحْكَم بين الفِعْلِ وعاقبتِه، كأنَّ الشَّرط قد أُثبت ليكون الجزاءُ مطابقًا للسَّيِّئة، لا يزيدُ عنها أو يتجاوَزُها.

**نَوْعُ الاسْتِثْناءِ في الآيَةِ:**

إبْرازُ دِقَّةِ العَدْلِ الإلَهيِّ في الجَزاءِ

الاستثناءُ في قول الله ﷻ: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ استثناءٌ مُفَرَّغ، وجاءَ الاستثناء مؤكِّدًا أنَّ الجزاءَ لا يتجاوَزُ السَّيِّئة، ولا يَشْتَمِلُ على شيءٍ آخرَ سِوى الجزاءِ بمِثْلِها، ممّا يَعْكِسُ كمالَ التَّعيين في الجزاء.

**دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمِثْليَّة في ﴿إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾:**

المُماثَلَةُ التّامَّةُ بَـيْنَ الـعَـمَـلِ السَّيِّءِ وجَزائِهِ

في التَّعبير بالمِثْليَّة في قول الله سُبحانه: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ دلالةٌ على المُماثَلةِ في الوصف الذي دلَّ عليه اسمُ السَّيِّئة؛ وهي المُماثلةِ التّامَّة بين العمل السَّيِّء وجزائه[2]، فتكون الآيةُ مؤكِّدةً أنَّ الجزاء لا يَعْدو أن يكونَ مطابقًا لعملِ السّوء، ولا يُجزى عَنِ المعصية إلّا بمِثْلِها.

**معنى الواوِ في قوله: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾:**

الـتّـنـاسُـبُ بَـيْنَ الجُمْلَتَيْنِ

الواوُ في ﴿وَمَنۡ﴾ في قول الله ﷻ: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على جُملة ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾؛ لما

(1) الدّعّاس، إعراب القرآن: 3/ 158.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 150.

بينَ الجُملتين من التَّوسُّط بين الكمالين؛ إذِ الجملتانِ اشْتَركتا في الخبريَّة، وبينَهُما تناسُبٌ معنويٌّ وهو الجامِعُ الوهميُّ؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّضادِّ، وحَسَّن الوصلَ اتِّفاقُ الجُملتينِ في الاسميَّة.

**معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾:**

شُمولِيَّةُ الخِطابِ الإلَهيِّ

حرفُ الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قول اللّه سُبْحانَه: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ يدلُّ على البَيان[1]، وجيءَ بِهِ لإيضاح شُمول الخِطاب الإلهيِّ لجميع العِباد، فلا يَخْرُج أحدٌ عن دائرَةِ الجَزاء، سواءٌ أكان ذكرًا أم أُنْثى، وليُؤَكِّد أنَّ مناطَ القَبول هو العملُ الصّالح مقرونًا بالإيمانِ، دون اعتبارِ أمرٍ آخرَ. فحرفُ الجرِّ ﴿مِّن﴾ أفاد إحاطةَ المَعنى مع إيجاز اللَّفظ، وأبرزَ عدلَ اللّهِ تعالى المطلقَ ورحمتَه الشّاملة.

**نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿ذَكَرٍ﴾ و﴿أُنثَىٰ﴾، ودلالة ﴿أَوۡ﴾ بينهما:**

عُمومُ الجَزاءِ وشُموليَّتُهُ

نُكِّر لفظُ ﴿ذَكَرٍ﴾ و﴿أُنثَىٰ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ لإفادةِ العُموم؛ لكَوْنِهما نَكِرَتَيْنِ في سياق الشَّرط، فلا يُراد به فردٌ بعَيْنِه أو صِنفٌ مخصوصٌ، بل يُراد به كُلُّ ذكَر وكلُّ أُنْثى على أيِّ صِفَةٍ كانوا وفي أيِّ حالٍ وُجِدوا، تأكيدًا على شُمول الجزاءِ والعدل الإلهيِّ. ودلّ حرف ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ على التّسوية، أي: يستوي في ذلك الذّكرُ والأنثى، فلا فرق بينهما من حيثُ الأجرُ والثّواب، ومن حيثُ المؤاخذةُ والإثم.

**بلاغةُ الطِّباقِ بَيْنَ ﴿سَيِّئَةٗ﴾ و﴿صَٰلِحٗا﴾، وبَيْنَ ﴿ذَكَرٍ﴾ و﴿أُنثَىٰ﴾:**

التَّفاوُتُ البَيِّنُ بَيْنَ العمل السَّيِّءِ والعمل الصّالح

في قوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ يظهر الطِّباقُ بين ﴿سَيِّئَةٗ﴾ و﴿صَٰلِحٗا﴾ وبَيْنَ ﴿ذَكَرٍ﴾ و﴿أُنثَىٰ﴾؛ لإبراز التَّباين بين الضِّدَّين، وبيانِ المَعنى بوُضوح. فالطِّباقُ بين ﴿سَيِّئَةٗ﴾ و﴿صَٰلِحٗا﴾ يُبيِّنُ التَّفاوتَ بين العملِ المَذموم والعمل المَرضيّ؛ لإظهار الفرقِ بين

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 74.

عاقِبَتَيْهما. وأمّا الطِّباق بَيْنَ ﴿ذَكَرٍ﴾ و﴿أُنثَىٰ﴾؛ فيُفيد العمومَ والشُّمول، وفيه إظهارُ أنَّ الجزاء لا يختَلِفُ تبعًا للصِّفات الذّاتيَّة.

### فائدةُ قوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾:

العملُ الصّالِحُ مَقْبولٌ مِنْ كُلِّ مَنْ جاءَ بِهِ

قُيِّد عملُ الصّالحات بـ ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ في قولِه تَعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾؛ لإفادَةِ الشُّمول والعموم، وفيه احتياطٌ في الخِطاب لاحتمالِ نَقْصِ الأنثى[1]، فيكون الحكمُ شامِلًا العبادَ جميعَهم، والمقصودُ الإخبارُ بأنَّ العملَ الصّالح مقبولٌ مِن أيٍّ كان، سواءٌ أكان ذلك مِن الذَّكر أم مِنَ الأنثى، وليسَ المقصودُ بجُمْلَةِ ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ المساواةَ؛ إذْ لا مناسبةَ لِهذا المَعنى في هذا المَقام[2].

### مَعْنى الواوِ ومَوْقِعُ الجُمْلَةِ بَعْدَها في قوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾:

الإيمانُ شَرْطٌ في قَبولِ العملِ الصّالِحِ

الواوُ في ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ حاليَّةٌ، والجملة بعده في موضع نصبٍ حالٌ، وفيه تنبيه إلى أنَّ العمل الصّالح لا يُعْتَدُّ به إلّا مقرونًا بالإيمان؛ لأنَّ الحالَ قيدٌ وشرطٌ للحُكم التي وقعَت فيه، ويتضمَّن ذلك الإيماءَ إلى عِظَم شَرَفِه ومزيدِ جزائِه وثوابِه[3].

### نُكْتَةُ تقديمِ الذّكر على الأنثى:

تقدّمت لفظة ﴿ذَكَرٍ﴾ في الآية الكريمة على لفظة ﴿أُنثَىٰ﴾ من باب الغالب في استعمال القرآن والمعهود من لغة العرب في جعلها تابعةً له وداخلةً في حُكمه.

### بلاغةُ التَّعْبيرِ بالجُمْلَةِ الاسْميَّةِ ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾:

الإيمانُ النّافِعُ ما كانَ ثابِتًا مُسْتَمِرًّا

في إيراد جملة الحال اسميَّة ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الإيمان

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 323.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 151.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 323.

المقبولَ هو ما كان ثابتًا مستمرًّا مع صاحبِه حتّى يَلْقى ربَّه؛ إذْ مَن عرَّض إيمانَه للبُطلان والنَّقض؛ ذهبَت أعمالُه الصّالحة سُدًى، وحَبِطَ ثوابُها ولم يُعتدَّ بها. فكانت الجملةُ الاسميَّة دالَّةً على الثُّبوت والدَّوام، وأنَّ الإيمانَ الذي يُقبل هو الإيمان الدّائم المُلازم للعَبْدِ حتّى المَمات.

### دلالَةُ الفاءِ، وبَيانُ المَوْقِعِ النَّحْويِّ لـ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ﴾:

إبْرازُ السَّبَبيَّةِ بَيْنَ الإيمانِ والعَمَلِ الصّالِحِ وبَيْنَ الجَنَّةِ

الفاء في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ رابطةٌ للجوابِ؛ لكون الجوابِ جُملة اسميَّةً، وهي مشيرةٌ إلى معنى السَّببيَّة، أي: أنَّ دخول الجنَّة مسبَّبٌ عن الأعمال الصّالحة المَقْرونَة بالإيمان[1]، وجملةُ (أولَئِكَ يَدْخُلونَ) في محلِّ جزم جوابُ الشَّرط[2]، وذلك دالٌّ على تحقُّق الجزاء الحَسَن لأهل الإيمانِ والعمل الصّالح.

### نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ (أولَئِكَ) الدّالِّ عَلى البُعْدِ:

عَظَمَةُ شَأْنِ أهْلِ الإيمانِ والعملِ الصّالِحِ

جاء التَّعبير باسم الإشارةِ (أولئك) الدّالِّ على البُعْد في قول اللّه تَعالى: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾؛ للدّلالة على عظَمةِ الشَّأن ورِفعة المَقام، وعُلوِّ همّة مَن يحقِّق الأعمالَ الصّالحة مع الإيمان، فيكون هؤلاء في منزلٍ رفيع ومقامٍ عالٍ يليق بما اتَّصفوا به من صلاحٍ وإيمانٍ[3]. وفي التَّعبير باسم الإشارةِ (أولَئِكَ) أيضًا دلالةٌ على أنَّ مَن وُجِدَت فيه الأوصافُ المُتَقَدِّمة مِنَ العمَلِ الصّالح والإيمان؛ اسْتَحَقَّ ما يُذْكَر بعدُ من جزاءٍ عظيم؛ وذلك لأنَّ هذه الأوصافَ هي التي جَعَلَتْ له هذا الاستحقاقَ، كما أنَّ إيرادَهُ بعدَ الجُملة الشَّرطيَّة يُبرز الارتباطَ الوثيقَ بين العمل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 74.
(2) صافي، الجدول: 24/ 250.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 151.

والإيمان، وبين الجزاء المُتَرَتِّب عليهما؛ ليكونَ ذلك بِمَنزلةِ توكيدٍ على أنَّ الجزاء هو نتيجةٌ متحقِّقَةٌ لِما تقدَّم من أوصاف[1].

**غرضُ التَّعبيرِ بِالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ:**

**تَرْغيبُ النُّفوسِ لِلإقْبالِ عَلى الطّاعَةِ**

جاء التَّعبير بالجملةِ الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ لتأكيدِ مَعْنى دوامِ الجزاء واستمراره، ففيهِ إظْهار عظَمةِ الثَّواب وجلالِه، ممّا يَقْتضي تغليبَ الرَّحمة الإلَهيَّة والتَّرغيبَ في الجزاء الحسَن عند اللّه سُبْحانه، فيكون ذلك أدْعى لترغيبِ النُّفوس للإقبالِ على طاعةِ اللّهِ تعالى[2].

**نُكْتَةُ التَّعبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَدۡخُلُونَ﴾:**

**إبْرازُ تَحَقُّقِ الوَعْدِ الإلَهيِّ**

جاء البيانُ القرآنيُّ معبِّرًا بالفعلِ المُضارع ﴿يَدۡخُلُونَ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾؛ لتصويرِ فِعْلِ الدُّخول كأنَّه حاضرٌ وماثل أمامَ الأعْيُن، فيكونُ ذلك أدخلَ في بيانِ تحقُّق الوعدِ الرَّبّانيِّ وإشعارِ المُؤمن بقُرْب النَّعيم.

**تَوْجيهُ القِراءاتِ في ﴿يَدۡخُلُونَ﴾:**

**التَّكامُلُ الدّلاليُّ بَيْنَ القِراءاتِ القُرْآنيَّةِ**

قرأ ﴿يُدۡخَلُونَ﴾ بالبناء للمفعولِ: ابنُ كثيرٍ وأبو عَمْرٍو وشعبَةُ وأبو جَعْفَرٍ ويعقوبُ، وقرأ الباقونَ ﴿يَدۡخُلُونَ﴾ بالبناء للفاعل[3]، فقراءة الفعلِ بالبِناء للمفعولِ تُحَقِّق التَّناسب الصّوتيّ والمَعْنَويَّ بين فعلِ ﴿يُدۡخَلُونَ﴾ والفعلِ الوارد بعدَهُ ﴿يُرۡزَقُونَ﴾. وأمّا قراءة الفعلِ بالبناء للفاعل؛ ففيها نسبةُ الدُّخول إليهم؛ لإبراز ارتباطِ الجزاء بفاعلِ العمل[4]، حتّى كأنَّهم هم الذين يُسارِعون إلى الجنَّة بأنفُسِهم حالَ صُدور الإذنِ لَهُم.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 75.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 232.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 252.
(4) ابن خالويه، الحجّة، ص: 316.

### نُكْتَةُ تَقْدِيمِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى المُسْنَدِ الفِعْلِيِّ:

انْفِرادُ المُؤْمِنينَ بِدُخولِ الجَنَّةِ

قُدِّم المُسْنَدُ إليهِ (أوْلَئِكَ) على المُسْنَدِ الفعليِّ ﴿يَدۡخُلُونَ﴾ في جملة جوابِ الشَّرط ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ لإفادَةِ الحَصْرِ والقصْرِ، فالمَعْنى: لا يَدْخُل الجنَّةَ إلّا هؤلاء الذين اجتمعَ لَهُم شرَفُ الإيمانِ وزكاءُ العملِ الصّالح. وهذا التَّقديم يُبرز انفرادَهم بهذا الجزاءِ العَظيم، ويُرسِّخ في الأذهانِ أنَّ مَن مات على الشِّرْكِ والفسادِ؛ حُرِم هذا النَّعيم حَتْمًا[1].

### معنى (ألْ) في ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾:

الإشـارةُ إلى الجَنَّةِ المَعْهودَةِ الكامِلَةِ

(ألْ) في ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ للعهدِ العلميِّ، فهي تُشير إلى الجنَّة المعهودة عند أهل الإيمانِ، تلك التي وعدَ اللّهُ بها عبادَه الطّائعين. ويجوز أن تكون (أل) دالَّة على الكمالِ، أي: الجنَّةَ الكاملة بما فيها مِنَ النَّعيم المُقيم. ولا تنافيَ بينَ الدّلالتَيْن؛ لأنَّ الجنَّة الكاملة هي الجنَّة المعهودةُ عند أهلِ الإيمانِ.

### بلاغةُ الاحْتِباكِ في الآيَةِ:

الإيجازُ والإحْكامُ في بَيانِ الجَزاءَيْنِ

في قول اللّه ﷻ: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ احتباكٌ وهو المُسَمّى بحذفِ التَّقابل أو الحذف المُقابَليّ؛ وذلك لأنَّه حُذِفَ من طَرَفَي الكلامِ ما أُثبت في مُقابِله، فذِكْرُ المُماثَلَة في الجزاءِ عنِ السَّيِّئة عدلًا في قوله سُبحانه: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ يدلُّ على مُضاعفَةِ الأجر على الحسنَةِ فَضْلًا، كما هو مقرَّر في عدلِ اللّهِ تَعالى وفَضْله. ثُمَّ ذُكِرَ إدخالُ الجنَّة لِمَن عَمِلَ الصّالحات في قوله ﷻ: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ وهو يدلُّ بالمُقابلَةِ على أنَّ مَن عَمِلَ السَّيِّئات ولَم يُؤْمِن؛ يُجازَى بإدخالهِ النّار[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 151.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 75.

فكان الاحتباكُ هُنا سبيلًا إلى الإيجازِ مَع الإحكام؛ حيثُ اكْتَفى النَّظم القرآنيُّ بذِكْرِ أحدِ طرَفَي الجَزاء في كلِّ حالٍ، وأومأ إلى الآخر بما يَلْزَمُ مِنَ المَقام؛ ليَجْمَع بينَ التَّرغيب والتَّرهيب في أوجز لفظٍ وأبدعِ بيانٍ.

**نُكْتَةُ فَصْلِ قوله: ﴿يُرۡزَقُونَ فِيهَا﴾:**

بَيانُ نَعيمِ الجَنَّةِ بَعْدَ دُخولِها

فُصِل قولُ اللّه سُبْحانه: ﴿يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ عن قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾؛ لِما بينَهُما مِن شِبْهِ كمال الاتِّصال، فالجملةُ الثّانية مستأنفَةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ إذْ إنَّ قولهُ تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ يبعَثُ في نَفْسِ المُتلقّي سُؤالًا وهو: ماذا يكونُ لَهُم في دُخولِهم؟ فجاءَ الجوابُ في قولِه ﷻ: ﴿يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾.

**نُكْتَةُ بِناءِ الفِعْلِ ﴿يُرۡزَقُونَ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُهُ:**

إظْهارُ فَضْلِ اللهِ تَعالى في رِزْقِ الجَنَّةِ

بُني الفِعْلُ ﴿يُرۡزَقُونَ﴾ للمفعول في قول اللّه تعالى: ﴿يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ لإظهارِ الاستغناءِ التّامِّ عن الأسبابِ الدُّنْيَويَّة، فالرِّزق في الجنَّة يُساق إليهم مِنَ اللّه سُبْحانه، لا يَفْتَقِرُ إلى سببٍ، بل هو فضلٌ يتنزَّل عليهم على وجهٍ يتجاوَزُ عادةَ البَشَرِ وعُرْفِ الدُّنيا[1].

**دلالةُ التَّعْبيرِ بِالظَّرْفيَّةِ وتَقْديمِها:**

غَزارَةُ الرِّزْقِ وتَغَلْغُلُهُ في الجَنَّةِ

حرف الجرِّ (في) من قول اللّه ﷻ: ﴿يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ دالٌّ على الظَّرفيَّة، وهو مفيدٌ غزارةَ الرِّزق وتغلْغُلَه في الجنَّة، فلا يكون رِزقًا مؤقَّتًا أو عابرًا، بل متغلغِلٌ في جميع أرجائِها، فلا يَنْقَضي ولا يَنْحَسِر. وفي تقديم الجارِّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾، فلم يرد النَّظم القرآنيُّ: (يُرزقون بغير حساب فيها)؛ وذلك لإفادة اختصاصِ الرِّزق الذي لا ينقطِعُ بالجنَّة دون غيرها، فالجنَّة هي موطِنُ النَّعيم الكامل، ومستقَرُّ المِنَح والعَطايا، كما أنَّ في هذا التَّقديم مراعاةً للتَّناسب الصَّوتيِّ لرُؤوس الآيِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 75.

**معنى الباء في قوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾:**

الأصل في معنى الباء إفادةُ الإلصاق والملابسة، حتّى بات هذا المعنى علمًا لها، والمراد هنا: أنّهم يدخلون الجنّة دخولًا ملابسًا ومُلازمًا لعدم حسابهم.

**نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿حِسَابٖ﴾:**

إبْراز سَعَةِ النَّعيمِ في الجَنَّةِ

نُكِّر لفظ ﴿حِسَابٖ﴾ في قول الله سُبۡحانه: ﴿يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ لإفادَةِ العُموم؛ لوُقوعِ اللَّفظ المُنَكَّر في سياق النَّفي بـ (غير)، فيُفيد ذلك سعةَ النَّعيم وفَيۡضَه وجريانَهُ، بحيثُ لا يَنۡقَضي ولا يَنۡقُص بحالٍ مِنَ الأحوال.

**بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾:**

رِزْقُ الجَنَّةِ لا نِهايَةَ لَهُ ولا انْقِطاعَ

في قول الله سُبحانه: ﴿يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ كنايةٌ عن سعةِ الرِّزق ووَفۡرَةِ النِّعم، وأنَّ الرِّزق في الجنَّة لا نِهايةَ له، ولا يُقَيَّد بحسابٍ ولا يتوقَّف عندَ حدٍّ، بل هو مُغۡدَقٌ بهِ مِن غيرِ انقطاع، فتَظَلُّ النِّعَمُ تتجدَّد وتَتَّسِعُ بِلا حَصۡرٍ[1].

## ❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

**العَمَلُ والفِعْلُ والصُّنْعُ:**

العَمَلُ أخَصُّ مِنَ الفِعْلِ، والصُّنْعُ أخَصُّ مِنْهُما

يَجمع هذه الألفاظَ الثَّلاثةَ: معنى التَّأثير في الشَّيء، فالفِعۡلُ هو التَّأثير في الشَّيء مِن جهةِ مُؤَثِّر، وقد يقع بنيَّة أو بدونها، ويقع الفعلُ دفعةً واحدة في الغالب، والعمَلُ إيجادُ الأثَرِ في الشَّيء، كقَوۡلِهم: فلانٌ يعمَلُ الطّين خَزَفًا، ولا يُقال: يَفۡعَلُ ذلكَ؛ لأنَّ المُرادَ من ذلكَ الشَّيء هو إيجادُه. كما أنّ العمل يُطلَق لما يمتدّ زمانه، ولا يقع إلّا مقصودًا، وأمّا الصُّنۡعُ؛ فهو تأثيرٌ في شيءٍ ما على وجهِ الإتۡقانِ.

والفِعۡلُ في الاستعمالِ القُرۡآنيِّ إذا أُطۡلِقَ في موضعِ القُدۡرَةِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 151.

الإلهيَّة؛ فإنَّه يَدُلُّ على الوعيد الشَّديد وسرعة إنفاذِ الأمرِ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ [الفجر: 6]، وقولِه سُبحانَهُ: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: 1]. ويَرِدُ الفِعْلُ مُرادًا به السُّرعةُ وعدمُ الإبطاءِ، كقوله تعالى عنِ المَلائكة: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ۝٥٠﴾ [النّحل: 50]، وقولِه: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ [الحجّ: 77]؛ لأنَّه بِمَعْنى: سارعوا. والعمَلُ يَرِدُ لِما فيه امتدادٌ مِنَ الزَّمن، كما قال تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ﴾ [سبأ: 13].

وأمّا الصُّنع؛ فهو أخَصُّ مِنَ الفِعْلِ مِن جهةِ أنَّ الفعلَ يأتي في الحيِّ والجماد وغيرِهما، ولا يأتي الصُّنع إلّا في العالمِ أو العاقلِ؛ لأنَّ الصُّنع يحتاج إتقانًا في العمل وإحكامًا له[1].

(1) الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة، ص: 186 - 188.

﴿۞وَيَٰقَوۡمِ مَالِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣﴾ [غافر: 41 - 43]

## مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

حِرْصُ الدُّعاة على بذل النُّصح لأقوامهم

لمّا ذكرت الآيات السّابقة أنَّ مؤمن آل فرعون رأى تماديَ قومه في الكفر والطُّغيان؛ أعاد عليهم النُّصح مرَّة أخرى في هذه الآيات، فدعاهم إلى الإيمان باللّه الَّذي يوجب النَّجاة والدُّخول في الجنّات[1].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلنَّجَوٰةِ﴾: أصلُ النَّجاء يدلُّ على الانفصال مِنَ الشَّيء، ومِن ذلكَ قولُهم: نجا فلانٌ مِن فلانٍ، وأنجيتُهُ ونجَّيتُهُ[2]، والنَّجْوةُ: المكانُ المرتفعُ المنفصلُ بارتفاعِهِ عمّا حولَهُ، وقيل: سُمّي لكونه ناجيًا مِن السَّيل[3].

2) ﴿لَا جَرَمَ﴾: (جرم) أصلٌ يدلُّ على قطعِ الثَّمرة عن الشَّجرة[4]، ومِن ذلكَ قولُهم: ثَمَرٌ جَريمٌ، أي: مقطوعٌ، ومعنى جَرَمَ في قولِهم: لا جرمَ: كَسَبَ، أو جَنى[5]، أو حقَّ، أو وجبَ، أو حقًّا[6]، وهو المرادُ هنا[7].

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 205.
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (نجو).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (نجو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جرم).
(5) الراغب، المفردات: (جرم).
(6) الجوهري، الصحاح، والسمين، عمدة الحفاظ: (جرم).
(7) المراغي، تفسير المراغي: 24/ 73.

3) ﴿دَعۡوَةٞ﴾: (دعو) يدلُّ على إمالةِ الشَّيءِ إليكَ بصوتٍ وكلامٍ يكونُ منكَ[1]، والدُّعاء إلى الشيءِ: الحثُّ على قصده، والدُّعاءُ: الرَّغبةُ إلى اللّهِ فيما عندَهُ منَ الخيرِ، والابتهالُ إليهِ بالسُّؤالِ[2]، وتقولُ: دَعَوتُهُ؛ إذا سألتَهُ، وإذا استغثتَهُ[3]، ومعنى ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ﴾: ليسَ لهُ استجابةُ دعوةٍ لِمَنْ يدعو إليه[4].

4) ﴿مَرَدَّنَآ﴾: (ردد) أصلٌ يدلُّ على رَجْعِ الشَّيءِ، وسُمّيَ المرتدُّ بذلكَ؛ لأنَّهُ ردَّ نفسَهُ إلى الكفرِ[5]، والرَّدُّ: صرْفُ الشَّيءِ بذاتِهِ أو بحالةٍ مِن أحوالِهِ[6]، ويقالُ: استردَّ الشَّيءَ، أي: استرجعَهُ[7]، والمرادُ بالمَرَدِّ في قوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾: المرجعُ[8].

5) ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾: (سرف) أصلٌ يدلُّ على مجاوزةِ الحدِّ[9] في كلِّ فعلٍ يفعلُهُ الإنسانُ، واشتهرَ ذلكَ في الإنفاقِ[10]، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ [الفرقان: 67]، ويقال تارة اعتبارًا بالقدر، وتارة بالكيفيَّة، ويُطلَقُ الإسرافُ أيضًا على التَّقصيرِ في طاعةِ اللّهِ تعالى[11]، والمرادُ بالمسرفينَ في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: الَّذينَ تجاوزوا الحدَّ في أمورهم، فيغلبُ شرُّهم على خيرِهم[12].

## المَعنى الإجماليُّ:

يتابعُ مؤمنُ آلِ فرعونَ نُصْحَ قومِهِ، فيقولُ: ما بالي أدعوكُم إلى النَّجاةِ، وهي عبادةُ اللّهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وتصديقُ رسولِهِ، وتدعونَني إلى عمل أهل النّارِ، وهو الكفرُ والشِّركُ، تدعونَني لأشركَ باللّهِ في عبادتِهِ أوثانًا لا يدلُّ على عبادتها نقلٌ ولا عقلٌ، وأنا أدعوكُم إلى عبادةِ مَن استجمع صفات الألوهيَّة من كمال القدرة والغلبة والتَّمكُّن من

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (دعو).
(3) الراغب، المفردات: (دعو)، والسمين، عمدة الحفاظ: (دعو).
(4) المراغي، تفسير المراغي: 24/ 73.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ردد).
(6) الراغب، المفردات: (ردد).
(7) السمين، عمدة الحفاظ: (ردد).
(8) المراغي، تفسير المراغي: 24/ 73.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (سرف).
(10) الراغب، المفردات، والزمخشري، أساس البلاغة: (سرف).
(11) السمين، عمدة الحفاظ: (سرف).
(12) المراغي، تفسير المراغي: 24/ 73.

أهلُ الحقِّ أهل النَّجاة، وأهلُ الشِّركِ أهل الهلاك

المجازاة، فهو العزيز في انتقامِهِ ممَّن كفرَ بِهِ، الغفّار لمَن تابَ إليهِ بعدَ معصيتِهِ إيّاهُ.

ولا شكَّ أنَّ الَّذي تدعونَني إليهِ مِنَ الأوثانِ لا يستجيبُ الدُّعاءَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ لأنَّهُ جمادٌ لا ينطقُ، ولا يفهمُ شيئًا، ولا شكَّ أنَّ مرجعَنا بعدَ مماتِنا إلى اللهِ، وأنَّ المشركينَ هم أصحابُ نارِ جهنَّمَ الخالدونَ فيها[1].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### سرُّ مجيء الواوِ في هذا النِّداء ﴿۞وَيَٰقَوۡمِ﴾ دونَ السّابقِ:

التَّلويحُ بالوعيدِ لتاركِ سبيلِ الرَّشادِ

جيءَ بالواوِ في قولِهِ تعالى هنا: ﴿۞وَيَٰقَوۡمِ مَالِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾، ولم يُؤتَ بها في قولِهِ في النِّداءِ السّابقِ، وهو قولُهُ: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ [غافر: 39]؛ لأنَّ السّابقَ تفسيرٌ وبيانٌ لقولِهِ: ﴿أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨﴾ [غافر: 38]، فلم يُعطَفْ عليهِ؛ لأنَّ البيانَ عينُ المبيَّنِ، وبينَهما كمالُ الاتِّصالِ، وأمّا ما هنا؛ فليسَ تفسيرًا للهدايةِ إلى سبيلِ الرَّشادِ، بل هو تلويحٌ بالوعيدِ، ولذلكَ عُطِفَ على ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ [غافر: 38][2].

وممّا يُذكر في سرِّ مجيء العطف مع قوله: ﴿۞وَيَٰقَوۡمِ مَالِيٓ﴾ الإشارة إلى أنَّ هذا النِّداء اشتمل على ما يقتضي في لغتهم أنَّ الكلام قد تخطَّى من غرض إلى غرض، وأنَّه سيطرق ما يغاير أوَّل كلامه مغايرة ما يشبه مغايرة المتعاطفين في لغة العرب[3].

### بلاغةُ تكرارِ النِّداءِ:

قومُ مؤمنِ آلِ فرعونَ غارقونَ في الغفلةِ

كُرِّرَ النِّداءُ بقولِهِ تعالى: ﴿۞وَيَٰقَوۡمِ﴾ معَ تقدُّمِهِ فيما سبقَ؛ زيادةَ تنبيهٍ لهُم، ولإيقاظهم عن سَنَةِ الغفلةِ[4]، والاهتمام بالمُنادَى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 390 - 391، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 145، والمراغي، تفسير المراغي: 24/ 75.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 169، والطيبي، فتوح الغيب: 13/ 516، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 324.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 152.

(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 168.

لهُ، والمبالغة في توبيخِهم على ما يقابلونَ بهِ نُصْحَهُ[1]، بجعْلِهم لا يفيدُ فيهِم، ولا يُسمِعُهم نداءٌ واحدٌ[2]، وفيه دلالة على أنَّه سيرتقي باستدراجهم في درج الاستدلال إلى المقصود بعد المقدِّمات، فانتقل هنا إلى أن أنكر عليهم شيئًا جرى منهم نحوه، وهو أنَّهم أعقبوا موعظته إيّاهم بدعوته للإقلاع عن ذلك، وأن يتمسَّك بدينهم، وهذا شيء مطويٌّ في خلال القصَّة دلَّت عليه حكاية إنكاره عليهم[3].

### سرُّ النِّداءِ بـ (يا) دونَ غيرِها:

الغافلُ بمنزلةِ البعيدِ

اختيرَ في قولِه تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ النِّداءُ بـ (يا) دونَ غيرِها مِن أدواتِ النِّداءِ؛ لأنَّها تُستعملُ لنداءِ البعيدِ، وفي التَّعبيرِ بها إشارةٌ إلى أنَّ قومَهُ لفَرْطِ غفلتِهم بمنزلةِ البعيدِ القاصي الَّذي يُنادَى ليُقبِلَ مِن بعيدٍ.

### نكتةُ النِّداءِ بوصفِ القومِ:

مَن كانَ مِنَ القومِ رعَى مصالحَهم

اختيرَ وصفُ القومِ في النِّداء في قولِه تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾؛ لِما يدلُّ عليهِ مِنَ التَّلطُّفِ، ببيانِ أنَّ المُنادى هم قومُهُ وعشيرتُهُ، يعلمُ وجهَ خلاصِهم، وأنَّ نصيحتَهم عليهِ واجبةٌ، فهو يتحزَّنُ لهُم، ويتلطَّفُ بهِم، ويطلبُ بذلكَ ألّا يتّهموهُ، فإنَّ ما يسرُّهم يسرُّهُ، وما يَغُمُّهم يَغُمُّهُ، فعليهِم أن يستجيبوا لنُصْحِهِ[4].

### نكتةُ الإضافةِ في ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾:

أنتم منّي وأنا منكم

إضافةُ القومِ إلى ياءِ المتكلِّمِ المحذوفة في قولِه ﷻ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾؛ لإظهارِ تودُّدِ مؤمنِ آلِ فرعونَ لقومِهِ وتلطُّفِهِ بهِم، وفي ذلكَ مزيدُ حثٍّ لقومِهِ على الإقبالِ على الخطابِ، وتلقّيهِ بالقبولِ، وفي هذا تعليم للدُّعاة أن يدخلوا باب الدَّعوة من باب التَّودُّد والتَّقرُّب واللّين لا من باب الغلظة والشِّدَّة.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 58.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 372.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 152.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 168.

### غرضُ الاستفهامِ في قولهِ: ﴿مَالِيٓ﴾:

حالُ قومِ مؤمنِ آلِ فرعونَ مناطُ تعجُّبٍ وتوبيخٍ

الاستفهامُ في قولِهِ تعالى: ﴿مَالِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ ليسَ على حقيقتِهِ، بل هو للتَّعجُّبِ والتَّوبيخ، وليسَ مناطُ التَّعجُّبِ والتَّوبيخِ دعوتَهُ إيّاهم إلى النَّجاةِ، بل هو دعوتُهم إيّاهُ إلى النّارِ[1]، فهو يعجبُ من هذهِ المقابلةِ الحادَّةِ بينَ الموقفينِ[2]، كأنَّهُ قيلَ: أخبِروني كيفَ هذهِ الحالُ: أدعوكُم إلى الخيرِ، وتدعونَني إلى الشَّرِّ؟[3].

### دلالةُ اللّامِ في ﴿مَالِيٓ﴾:

التَّوبيخُ ثابتٌ لقومِ مؤمنِ آلِ فرعونَ

اللّامُ في قولِهِ تعالى: ﴿مَالِيٓ﴾ للاختصاصِ، وأصلُ استعمالِ (ما لي أفعلُ؟)، و(ما لي لا أفعلُ؟) ونحوِهِ أن يكونَ استفهامًا عن فعلٍ أو حالٍ ثبتَ للمجرورِ باللّامِ، ومعنى لامِ الاختصاصِ يُكسِبُ مدخولَها حالةً يخفَى سببُها الَّذي عُلِّقَ بمدخولِ اللّامِ، كقولِكَ لِمَن يستوقفُكَ: ما لَكَ؟ فتكونُ الجملةُ الَّتي بعدَ اسمِ الاستفهامِ وخبرِهِ جملةً فعليَّةً[4].

### بلاغةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿أَدۡعُوكُمۡ﴾:

الدّاعيةُ إلى اللهِ يدعو إليهِ باستمرارٍ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ ﴿أَدۡعُوكُمۡ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿مَالِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ مؤمنَ آلِ فرعونَ يدعو قومَهُ إلى النَّجاةِ باستمرارٍ وتجدُّدٍ، وهذا هو شأنُ الدّاعيةِ إلى الحقِّ، لا يَفْتُرُ عن دعوةِ النّاسِ إلى ما فيهِ فوزُهم وفلاحُهم.

وفي هذا أيضًا إشارة إلى تعليم الدُّعاة الصَّبرَ على المدعوّيين وتحمُّل أذاهم.

### سرُّ التَّعبيرِ بالدَّعوةِ في قولِهِ: ﴿أَدۡعُوكُمۡ﴾:

آثر القرآن الكريم التَّعبيرَ بلفظ الدَّعوة في قوله: ﴿أَدۡعُوكُمۡ﴾؛

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 66، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 152.

(2) محمد أبو موسى، آل حم غافر فصلت دراسة في أسرار البيان، ص: 158.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 277.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 152.

لأنَّه يحمل دلالات إيمانيَّة، بخلاف لفظ النِّداء مثلًا، فلا يؤدّي هذه المعاني، وأيضًا لأنَّ لفظ الدُّعاء يحمل معنى التَّضرُّع والحرص على نجاتهم ممّا هم فيه من الكفر والشِّرك.

### نكتةُ تعديةِ فعلِ الدُّعاءِ بـ ﴿إِلَى﴾ دون اللام:

غايةُ الدّاعي إلى الحقِّ النَّجاةُ

فعلُ الدَّعوةِ إذا رُبط بمتعلِّقٍ غيرِ مفعولِه؛ يتعدَّى تارةً باللّام، وهو الأكثرُ في الكلام، ويتعدَّى أخرى بحرفِ (إلى)، وهو الأكثرُ في القرآنِ؛ لِما فيهِ مِنَ الاعتباراتِ، ومِن ذلكَ أنَّهُ إذا كانَ المتعلِّقُ مِنَ المحسوساتِ؛ يتعدَّى بـ (إلى)، كما في قولِهِ هنا: ﴿أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾؛ فإنَّ النَّجاةَ هي نجاةٌ مِنَ النّارِ، فهي نجاةٌ مِن أمرٍ محسوسٍ، وحرفُ ﴿إِلَى﴾ دالٌّ على الانتهاءِ؛ لأنَّ الَّذي يدعو أحدًا إلى شيءٍ إنَّما يدعوهُ إلى أن ينتهيَ إليهِ[1]، وفي ذلكَ ترغيبٌ في اتِّباعِ دعوةِ الحقِّ الَّتي مآلُها الفوزُ والنَّجاةُ.

### دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلنَّجَوٰةِ﴾:

النَّجاةُ مِنَ النّارِ رغبةُ الداعي إلى الحقِّ

جاء لفظ ﴿ٱلنَّجَوٰةِ﴾ معرَّفًا بـ (أل) في قولِهِ تعالى: ﴿أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المرادَ بها نجاةٌ معهودةٌ، وهي النَّجاةُ مِنَ النّارِ، بخلاف التَّنكير فقد يحمل معنى النَّجاة في الدُّنيا أو عموم النَّجاة، وهذا على خلاف مقصود مؤمن آل فرعون؛ لأنَّه يدعوهم إلى الأخذ بأسباب النَّجاة في الآخرة.

### بلاغةُ المجازِ في التَّعبير بـ ﴿ٱلنَّجَوٰةِ﴾:

الإيمانُ سببُ الخلاصِ مِنَ العذابِ

في قولِهِ تعالى: ﴿أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ مجازٌ مرسَلٌ بذكرِ المسبَّبِ وإرادةِ السَّببِ؛ إذ المعنى: أدعوكُم إلى الإيمانِ باللَّه الَّذي هو سببُ النَّجاةِ مِنَ النّارِ، والغرضُ مِن ذلكَ الاختصارُ[2]، وتأكيدُ إفضاءِ الإيمانِ إلى الخلاصِ من عذابِ النّارِ، فذُكِرَ المسبَّبُ دونَ السَّببِ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 153.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 561، وأطفيش، تفسير أطفيش: 9/ 248.

النَّجاةُ مِنَ النّارِ هي الفوزُ العظيمُ

### سرُّ العدولِ عن (الجنَّةِ) إلى ﴿ٱلنَّجَوٰةِ﴾:

كانَ الظّاهرُ أن يقولَ: (أدعوكُم إلى الجنَّةِ، وتدعونَني إلى النّارِ)؛ لتتمَّ المقابلةُ، وليكونَ أقربَ إلى قولِهِ قبلَهُ: ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝٤٠﴾ [غافر: 40]، وإنَّما عدلَ إلى قولِه: ﴿أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ للتَّهويلِ مِن أمرِ النّارِ الَّتي يدعونَهُ إليها، وأنَّ النَّجاةَ منها هي الفوزُ العظيمُ، وكلُّ مَن نجا مِنَ النّارِ، وزُحْزِحَ عنها، فهو في الجنَّةِ بوعدِ اللّهِ[1]، وفي التَّعبير بلفظ النَّجاة إشارة إلى أنَّ قومه في موضع الهلاك؛ لأنَّ أصل لفظ النَّجاة يُستعمل عند إحداق الغرق؛ إذ يُطلق على المكان العالي الذي يُلجأ إليه عند شدَّة السّيول.

الدَّعوةُ إلى الهلاكِ ليسَتْ مِن شأنِ العقلاءِ

### دلالة الواوِ في ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ﴾ تحتمل عدَّة معانٍ، فيُحتملُ أن تكونَ حاليَّةً، وجملةُ: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ في موضعِ الحالِ بتقديرِ مبتدأٍ، أي: وأنتم تدعونَني إلى النّارِ[2]، أي: ما لي أدعوكُم إلى النَّجاةِ حالَ دعائِكم إيّايَ إلى النّارِ؟ ويحتملُ أن تكونَ الواوُ استئنافيَّةً، والجملةُ مستأنفةٌ، أخبرَ عنهُم بذلكَ بعدَ استفهامِهِ عن دعاءِ نفسِهِ[3]، ويحتملُ أن تكونَ الواوُ عاطفةً، والجملةُ معطوفةٌ على ﴿أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾[4]، وأيًّا ما كانَ؛ فدعاؤُهم إيّاهُ إلى النّارِ هو محلُّ التَّعجُّبِ والإنكارِ؛ إذ لا ينبغي أن يكونَ.

### بلاغةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ﴾:

دلَّ التَّعبير بصيغة المضارع (تدعونني) في قولِه: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ على استمرارِ دعوتِهم إلى النّارِ وتجدُّدِها، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ وإنكارٍ؛ إذ الإصرارُ على الباطلِ قبيحٌ.

---

(1) أبو موسى، آل حم غافر فصلت دراسة في أسرار البيان، ص: 158.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 152.

(3) السمين، الدر المصون: 9/ 484.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 492.

### سرُّ التَّعبير بالجملة الفعليَّة ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ﴾:

آثرَ القرآن الكريم التَّعبيرَ بالجملةِ الفعليَّةِ ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ﴾ دون الاسميَّة؛ لأنَّ الفعليَّة لا تقتضي توكيدًا وثبوتًا، كما في الاسميَّة، ولأنَّها مناسبة للسّياق، فدعوتُهم باطلةٌ لا ثبوتَ لها حتّى تُؤَكَّدَ(1).

### نكتةُ تعديةِ ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ﴾ بـ ﴿إِلَى﴾ دون اللّام:

مـآلُ دعـوةِ الباطلِ هو النّارُ

عُدّيَ فعلُ الدَّعوةِ في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بـ﴿إِلَى﴾ الدّالَّةِ على الانتهاء؛ لزيادةِ التَّوبيخ والتَّعجُّب، ببيانِ أنَّ منتهَى دعوةِ الكافرينَ هي النّارُ، وهم معَ ذلكَ مُصِرّونَ عليها.

### دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلنَّارِ﴾ دون التَّنكير:

نـارُ الآخـرةِ مآلُ دعوةِ الباطلِ

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلنَّارِ﴾ في قولِه: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ للعهد، فالمرادُ بها نارٌ معيَّنَةٌ معروفة، وهي نارُ الآخرة، بخلاف التَّنكير فإنَّه يدلُّ على العموم، وهذا يشمل نار الدُّنيا ونار الآخرة، والمراد هنا الحديث عن نار الآخرة دون نار الدُّنيا.

### بلاغةُ المجازِ في ﴿ٱلنَّارِ﴾:

الكفرُ هو طريقُ قـومِ مؤمنِ آلِ فرعونَ

في قولِه جلَّ من قائلٍ: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ مجازٌ مرسَلٌ بإطلاقِ المسبَّبِ وإرادةِ السَّببِ، والمعنى: تدعونني إلى أسباب النّار، أو: وتدعونَني إلى عملِ أهلِ النّارِ(2)، وهو الكفرُ والشِّركُ باللّهِ تعالى(3).

### نكتةُ فصلِ قولِه: ﴿تَدۡعُونَنِي﴾:

الكفرُ مُفْضٍ إلى النّارِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾ عن قولِه: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّهُ بدلٌ منهُ، أو عطفُ بيانٍ لهُ؛ بناءً على أنَّ عطفَ البيانِ يَجري في الجملِ كالمفرداتِ(4)، وذلكَ لأنَّ الدَّعوةَ إلى النّارِ أمرٌ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 260.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 390.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 561، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 519.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 58، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 277، والخفاجي، عناية القاضي: 7/ 372.

مُجمَلٌ مُستغرَبٌ، فبيَّنَهُ ببيانِ أنَّهم يدعونَهُ إلى التَّلبُّسِ بالأسبابِ الموجبةِ عذابَ النّارِ[1]، فيكونُ الفصلُ لكمالِ الاتِّصالِ، وفي هذا الإجمالِ ثمَّ البيانِ تأكيدٌ للمعنى، وتقريرٌ لهُ في النَّفسِ بعدَ التَّشويقِ لهُ، وبناءٌ للمعاني بعضِها على بعضٍ، فيزدادُ الارتباطُ والتَّلاحمُ[2].

ويحتملُ أن تكونَ جملةُ: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾ جملةً مستأنفةً مفسِّرةً جملةَ: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[3]، فيكونَ الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ.

**نكتةُ إعادةِ فعلِ ﴿تَدۡعُونَنِي﴾:**

عاقبةُ دعوةِ الكافرينَ الخُسْرانُ

ورد النَّظم القرآنيُّ في قوله: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾ بإعادةِ فعلِ الدَّعوةِ، ولم يقل: (لأكفرَ باللّهِ)؛ لِما في إعادةِ الفعلِ مِن زيادةِ التَّسجيلِ عليهِم بأنَّهم يدعونَ إلى ما لا خيرَ فيهِ، بل عاقبتُهُ الهلاكُ والخُسْرانُ.

ولبيان الفرق بين الدَّعوتين - وإن كان بينهما تلازم - فالأولى دعوة إلى النّار، وأسباب ذلك كثيرة، أمّا هنا؛ فالكلام مقصور على دعوتهم له؛ ليكفر باللّه تعالى، وهذا أمرٌ يوجب الهلاك والعقاب بمفرده؛ لذلك أعاد فعل ﴿تَدۡعُونَنِي﴾؛ ليفرِّق بين الدَّعوتين، وليسجِّل عليهم مزيدًا من التَّوبيخ والتَّبكيت.

**نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿تَدۡعُونَنِي﴾:**

استمرارُ دعوتِهم إلى الكفرِ والشِّركِ وتجدُّدها كلَّما حانت لهم الفرصة

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ ﷺ: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ دعوتِهم إلى الكفرِ والشِّركِ وتجدُّدِها، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ لشأنِهم؛ إذ يُصِرّونَ على الدَّعوةِ إلى الباطلِ.

وفيه تعليمٌ للدُّعاة بأن يأخذوا حِذرهم من أهل الباطل في تجديد دعوتهم للنّاس حتى يوقعوهم في ضلالهم، ويوهموهم أنَّهم على صواب.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 153.
(2) أبو موسى، آل حم غافر فصلت، ص: 159.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 342.

### نكتةُ تعديةِ ﴿تَدۡعُونَنِي﴾ باللّامِ:

الكفرُ غايةُ دعوةِ الكافرينَ

فعلُ الدَّعوةِ إذا رُبِطَ بمتعلّقٍ غيرِ مفعولِهِ يتعدَّى تارةً باللّام، وهو الأكثرُ في الكلام، ويتعدَّى أخرى بحرفِ (إلى)، وهو الأكثرُ في القرآنِ، وقد عُدّيَ باللّام في قولِهِ تعالى هنا: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ المتعلّقَ مِنَ المعنويّات[1]، وهو غايةُ دعوةِ قوم مؤمنِ آلِ فرعونَ، أي: تدعونَني لأجلِ أن أكفرَ باللّهِ[2]، وما أقبحَ الدَّعوةَ الَّتي تقودُ إلى الكفرِ!

وفي تعدية الفعل باللام كذلك بيانُ أنَّ دعوتَهم لمؤمن آل فرعون إلى الكفر هي غرضُهم الأساس، فكأنَّه لا غرض أمامهم إلّا كفْرُه.

### نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿لِأَكۡفُرَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ كفْرَ المدعوِّ هو غايةُ دعوةِ قوم مؤمنِ آلِ فرعونَ، وهو أمرٌ مستقبلٌ، يرجونَ حصولَهُ، ويحرصونَ عليه.

### نكتةُ التَّعبيرِ بالكفرِ:

الأكثرونَ مِن قومِ فرعونَ ينكرونَ وجودَ اللهِ

آثر النَّظم القرآنيُّ التَّعبيرَ بالكفر في قولِهِ تعالى: ﴿لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه يُطلق على معانٍ متعدِّدة، منها: إنكار الألوهيَّة، وعدم الإيمان بالرُّسل، ونحو ذلك، ومن معانيه الجحود، وهو المراد هنا؛ إذ جحدوا الباري ﷻ، فالتَّعبير بالكفر أنسب للسّياق؛ لأنَّ الأكثرينَ مِن قوم فرعونَ كانوا ينكرونَ وجودَ اللّهِ ﷻ[3].

### دلالةُ الباءِ في ﴿بِٱللَّهِ﴾:

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾ للإلصاقِ، فتفيدُ أنَّ غايتَهم جعْلُ الكفرِ متعلّقًا باللّهِ تعالى الَّذي لا ينبغي أنْ يُكفَرَ به.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 153.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 76، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 68.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 519.

الكفرُ بالعظيمِ عظيمٌ

### نكتةُ التَّعبيرِ باسم الجلالةِ:

عُبِّرَ باسم الجلالةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾؛ لزيادةِ تقبيحِ دعوةِ القومِ؛ لأنَّها دعوةٌ إلى الكفرِ بالعظيمِ الَّذي لهُ القهرُ والعزُّ، والعظمةُ والكِبْرياءُ[1]، والمعنى: تدعونَني لأكفرَ باللّهِ خالقِ كلِّ شيءٍ، وأنا وأنتم مِن مخلوقاتِهِ الَّتي يهيمنُ عليها، ولهُ على عبادِهِ حقُّ الإيمانِ والتَّوحيدِ[2]، ولأنَّ التَّعبير باسم الألوهيَّة (اللّه) يجمع كلَّ صفات الجلال والجمال والكمال.

كفرُ قومِ فرعون متعدِّد الصّور والأنواع

### دلالةُ عطفِ الشِّركِ على الكفرِ:

عُطِفَ الشِّركُ على الكفرِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ﴾؛ لأنَّ قومَ فرعون تعدَّدت صور كفْرِهم؛ فالأكثرون منهم كانوا ينكرونَ وجودَ اللّهِ، ومنهُم مَن كانَ يُقِرُّ بوجودِ اللّهِ، إلّا أنَّهُ كانَ يُثبِتُ عبادةَ الأصنامِ[3]، ومِنهم مَن كان يعبد فرعون، ويرون فيه أنَّه الحكيم الملهم؛ لذلك ذكرَ مؤمنُ آلِ فرعونَ الكفر والشِّرك معًا تمهيدًا لإبطالِ الدَّعوةِ إليهما.

حرْصُ قومِهِ على وقوعه في الشِّرك في الحال والاستقبال

### بلاغةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿وَأُشۡرِكَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُشۡرِكَ بِهِۦ﴾؛ لأنَّ شِرْكَ مؤمنِ آلِ فرعونَ أمرٌ يرجو قومُ فرعونَ حصولَهُ في المستقبلِ؛ إذ هو غايةُ دعوتِهم الَّتي يستمرّونَ عليها، ويُجدِّدونَها.

### معنى الباءِ في ﴿بِهِۦ﴾:

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُشۡرِكَ بِهِۦ﴾ للإلصاقِ، فتفيدُ أنَّ غايةَ قومِ فرعونَ جعلُ الشِّركِ متعلِّقًا باللّهِ تعالى الَّذي لا شريكَ لهُ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 76.
(2) حبنكة، معارج التفكر ودقائق التدبر: 12/ 380.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 51 9.

### دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على المفعول:

الإشراكُ باللهِ محلُّ إنكارٍ وتعجُّبٍ

قُدِّمَ الجار والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على المفعولِ بهِ ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾؛ للعنايةِ بالمقدَّم؛ إذ محلُّ الإنكارِ والتَّعجُّب الإشراكُ بهِ تعالى، ولأنَّ في الموصولِ وصلتِهِ نوعَ طولٍ، فربَّما يُخِلُّ تقديمُهُ بتجاوبِ أطرافِ النَّظمِ.

### دلالةُ ﴿مَا﴾:

لا ينبغي أنْ يُشرَكَ باللهِ شيءٌ

﴿مَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ اسم موصول، وأوثِر التَّعبير بها؛ لأنَّها تفيد العمومَ، وهذا يعني أنَّ كلَّ ما يُشرَكُ باللّهِ تعالى محلُّ إنكارٍ وتعجُّبٍ، وفي التَّعبيرِ بها أيضًا تحقيرٌ وتهاونٌ بما يشركونَهُ باللّهِ الواحدِ القهّارِ[1].

### معنى اللّامِ في ﴿لِي﴾:

لا يملكُ مؤمنُ آلِ فرعونَ علمًا بما يُشرَكُ باللهِ

اللّامُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ للاختصاص، فتفيدُ انتفاءَ علمِ مؤمنِ آلِ فرعونَ بما يُشرَكُ باللّهِ تعالى، أي: ليس لي علم بشركته مع اللّه في المعبوديَّة، والمراد نفي المعلوم رأسًا، وهو المعبود فضلًا عن عبادته[2].

### معنى الباءِ في ﴿بِهِۦ﴾:

الباءُ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ للإلصاقِ، فتفيدُ في هذا السّياقِ انتفاءَ تعلُّقِ العلمِ بما يُشرَكُ باللّهِ تعالى.

### دلالة تقديم الجار والمجرور ﴿لِي بِهِۦ﴾:

قُدِّمَ ﴿لِي بِهِۦ﴾ على ﴿عِلۡمٞ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾؛ للعنايةِ بالمقدَّم، وهو نفي تعلُّق علمِ مؤمنِ آلِ فرعونَ بما يُشرَكُ باللّهِ تعالى، والتَّشويقِ للمُؤخَّرِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 76.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 208.

### سرُّ التَّعبير بنفي العلم دون غيره:

الإيمانُ بالله راسخ في قلوب المؤمنين

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بنفي العلم في قوله تعالى: ﴿مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ في نفي قضيَّة الإشراك بالله دون غيره؛ للإشعار بأنَّ الألوهيَّة لا بدَّ لها من برهان، واعتقادها لا يصحُّ إلَّا عن إيقان، فإنَّها من المطالب الَّتي يُشترَط فيها اليقين، ولا يُكتفى فيها بالتَّقليد، ولمّا كان العلم صفة توجب تمييزًا لا يحتمل النَّقيض، فما لا علم له من المطالب اليقينيَّة غير ثابت؛ لذلك كان التَّعبير بنفي العلم دون نفي البطلان مع أنَّه المقصود ليعامل معاملة المنصف[1].

### نكتةُ تنكيرِ ﴿عِلۡمٞ﴾:

لا دليلَ مطلقًا على الإشراكِ باللهِ تعالى

تنكيرُ ﴿عِلۡمٞ﴾ في قولِهِ عزَّ مِن قائلٍ: ﴿لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ للعموم؛ لأنَّهُ نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ، فيفيدُ انتفاءَ كلِّ أنواعِ العلم بما يُشرَكُ باللهِ تعالى[2]، سواء كان ذلك العلم ظاهرًا أم باطنًا، نظريًّا أم عمليًّا، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ التَّعجُّبِ والتَّوبيخِ؛ إذ لا يدلُّ على هذا الإشراكِ دليلٌ ولا شُبْهةُ دليلٍ.

### بلاغةُ الكنايةِ في ﴿لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾:

ليس للمشركين أيُّ دليل على إشراكهم

في قولِهِ تعالى: ﴿لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ كنايةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ المرادَ بنفيِ العلم نفيُ وجودِ المعلوم، كأنَّهُ قالَ: وأشركَ بهِ ما ليسَ بإلهٍ، وما ليسَ بإلهٍ كيفَ يُعقَلُ جعلُهُ شريكًا للإلهِ؟[3] فهو مِن بابِ نفيِ الشَّيءِ بنفيِ لازمِهِ على سبيلِ الكنايةِ[4] الَّتي هي أبلغُ مِنَ التَّصريحِ.

### بلاغةُ عطفِ ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ﴾:

بيانُ المعبودِ بالحقِّ بعدَ إبطالِ عبادةِ غيرِه

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾، ونكتةُ العطفِ: أنَّهُ لمّا بيَّنَ أنَّهم دعوهُ إلى

(1) القونوي، حاشية القونوي على البيضاوي: 17/ 68.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 76.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 169.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 517، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 153.

ما هو عدمٌ فضلًا عن أن يكونَ لهُ نفعٌ أو ضَرٌّ؛ بيَّنَ لهُم أنَّهُ دعاهُم إلى ما لهُ الكمالُ كلُّهُ، ولا نفعَ ولا ضُرَّ إلّا بيدِهِ[1]، وفيهِ أيضًا بيانٌ لمُجمَلِ جملةِ: ﴿أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾[2].

### نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾؛ لأنَّها تدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوامِ، فتفيدُ التَّنبيهَ على ثبوتِ الدَّعوةِ وقوَّتِها[3].

### نكتةُ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ:

مؤمنُ آلِ فرعونَ داعيةٌ إلى الحقِّ يقينًا

قُدِّمَ المسندُ إليهِ (أنا) على المسندِ الفعليِّ ﴿أَدۡعُوكُمۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾؛ لإفادةِ تقوّي الحكم[4] بإسنادِ الدَّعوةِ إلى مؤمنِ آلِ فرعونَ مرَّتينَ: الأولى بإسنادِ ﴿أَدۡعُوكُمۡ﴾ إلى (أنا)، والثّانيةُ باشتمالِ ﴿أَدۡعُوكُمۡ﴾ على ضميرِ الفاعلِ الرّاجعِ إلى المبتدأِ، كأنَّهُ قد قيلَ: وأنا أدعوكُم، وأنا أدعوكُم.

### بلاغةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿أَدۡعُوكُمۡ﴾:

الدّاعيةُ إلى الحقِّ يدعو باستمرارٍ دون كلل أو ملل

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَدۡعُوكُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ دعوةِ مؤمنِ آلِ فرعونَ إلى اللهِ تعالى وتَجدُّدِها، وهكذا شأنُ الدّاعيةِ الصّادقِ، فهو يدعو إلى الحقِّ دونَ كَلَلٍ ولا مَلَلٍ؛ لأنَّ النَّفس تحتاج إلى مَن يوقظها من الغفلة، ويبعدها عن الضَّلال، كما كان الأنبياء يفعلون مع أقوامهم.

### دلالةُ تعديةِ فعلِ الدَّعوةِ بحرفِ ﴿إِلَى﴾:

الدُّعاءُ إلى اللهِ دعاءٌ إلى توحيده

فعلُ الدَّعوةِ يُعدَّى بحرفِ ﴿إِلَى﴾ الدّالَّةِ على انتهاءِ الغايةِ، إذا كانَ المتعلِّقُ مِنَ المحسوساتِ، وقد عُدّيَ بها في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَا۠

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 77.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 153.

(3) السمين، الدر المصون: 9/ 484، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 77.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 153.

﴿أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾؛ لأنَّ الدُّعاءَ إلى اللّهِ دعاءٌ إلى توحيدِهِ بالرُّبوبيَّة، فشُبِّهَ بشيءٍ محسوسٍ تشبيهَ المعقولِ بالمحسوس، وشُبِّهَ اعتقادُهُ صحَّتَهُ بالوصولِ إلى الشَّيءِ الَّذي يُسعَى إليه، وشُبِّهَتِ الدَّعوةُ إليهِ بالدَّلالةِ على الشَّيءِ المرغوبِ في الوصولِ إليه، فكانَت في حرفِ ﴿إِلَى﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ وتخييليَّةٌ وتبعيَّةٌ[1].

### نكتةُ العدولِ عن اسم الجلالةِ إلى ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾:

العزيزُ الغفّارُ هو المستحِقُّ للإفرادِ بالألوهيَّةِ

عُدِلَ عن اسمِ الجلالةِ (اللّه) إلى صفتَي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾؛ لإدماجِ الاستدلالِ على استحقاقِهِ تعالى الإفرادَ بالإلهيَّةِ والعبادة؛ لأنَّهُ العزيزُ الَّذي لا تناله النّاس، بخلافِ أصنامِهم؛ فإنَّها ذليلةٌ، توضَعُ على الأرضِ، وتُلوِّثُها الطُّيورُ بذَرْقِها، ولإدماجِ ترغيبِهم في الإقلاعِ عن الشِّركِ؛ ببيانِ أنَّ المتفرِّدَ بالإلهيَّةِ يغفرُ لهُم ما سلفَ مِن شركِهم به، حتَّى لا ييأسوا من عفوِهِ[2].

### بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ دونَ غيرِهما:

العزيزُ والغفّارُ يدلّانِ على صفاتِ الألوهيَّةِ

عُبِّرَ بـ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ دونَ غيرِهما في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾[3]؛ لدلالةِ هاتينِ الصِّفتينِ على استجماعِهِ تعالى صفاتِ الألوهيَّة، مِن كمالِ القدرةِ والغلَبةِ، والعلمِ، والإرادةِ، والتَّمكُّنِ مِنَ المجازاةِ، والقدرةِ على التَّعذيبِ والغفرانِ، ولِما فيهما مِنَ الدَّلالةِ على الخوفِ والرَّجاءِ المناسبِ لحالِهِ وحالِهم[4].

### بلاغةُ التَّعبيرِ بصيَغِ المبالغةِ في ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾:

اللهُ تعالى بالغُ العزَّةِ واسعُ المغفرةِ

عُبِّرَ بصيغتَي (فعيلٍ) و(فعّالٍ) الدّالَّتينِ على المبالغةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾؛ لمناسبتِهما لمقامِ ترهيبِ المشركينَ المصرّينَ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 153.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 154.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 324.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 519، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 324.

على شركِهم وعنادِهم، وترغيبِهم بالإيمانِ والإنابةِ إلى اللهِ، والمعنى: وأنا أدعوكم إلى البالغِ العزَّةِ الَّذي يغلبُ كلَّ شيءٍ، ولا يغلبُهُ شيءٌ، الَّذي يتكرَّرُ لهُ دائمًا مَحْوُ الذُّنوبِ عينًا وأثرًا، ولا يقدرُ على ذلكَ غيرُ مَن هو متَّصفٌ بالعزَّةِ(1).

**بلاغةُ المقابلةِ بين الدَّعوتين:**

لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون

في قولِه تعالى: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ مقابلةٌ لطيفةٌ بينَ ما يدعونَهُ إليهِ ممّا لا علمَ لهُ به، وبينَ ما يدعوهُم هو إليه، وهو العزيزُ الغفّارُ، وهذهِ المقابلةُ تفتحُ البابَ لمعنى قولِه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾(2).

**نكتةُ مخالفةِ الظّاهرِ في ترتيبِ الجملِ:**

الإنكارُ على المشركينَ محطُّ الاهتمامِ

مقتضَى التَّرتيبِ أن يكونَ قولُهُ: ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ قبلَ قولِه: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾؛ ليكونَ الكلامُ مناسبًا لما قبله على طريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المرتَّبِ، لكن عُدِلَ إلى ما جاءَ عليهِ الكلامُ؛ ليُشارَ إشارةً واضحةً إلى شدَّةِ عنايةِ هذا الرَّجلِ الصّادقِ بما آلَ إليهِ حالُ نُصحِهِ لقومِه، وأنَّ خطابَهُ لم ينفعْ بشيءٍ، ولم يتركوهُ، وإنَّما دعَوْهُ إلى ما هم عليهِ، وأنَّ ردَّهُ هنا موجَّهٌ أكثرُهُ إلى دعوتِهم لهُ للكفرِ والإشراكِ(3).

**بلاغةُ الاحتباكِ في الآيةِ:**

براعةُ الإيجاز بالحذف

في قولِه تعالى: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ فنٌّ من فنونِ الإيجازِ بالحذفِ، وهو فنُّ الاحتباكِ، وذلكَ أنَّ قولَهُ: ﴿مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ يدلُّ على أنَّهُ ليسَ لهُ عزَّةٌ ولا مغفرةٌ؛ لأنَّ ما لم يكن به علمٌ؛ لم يكن له عزَّةٌ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 77، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 68.

(2) أبو موسى، آل حم غافر فصلت، ص: 161.

(3) أبو موسى، آل حم غافر فصلت، ص: 159.

ولا مغفرة، وقولُهُ: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ يدلُّ على أنَّهُ لا يجهلُ أحدٌ ما عليهِ اللّهُ من صفاتِ الكمالِ، فالآيةُ منَ الاحتباكِ، ذُكِرَ أوَّلًا عدمُ العلمِ؛ دليلًا على العلمِ ثانيًا، وذُكِرَ ثانيًا العزَّةُ والمغفرةُ؛ دليلًا على حذفِهما أوَّلًا[1].

### نكتةُ فصلِ ﴿لَا جَرَمَ﴾:

حِرصُ مؤمنِ آلِ فرعونَ على نجاةِ قومِهِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ﴾ الآية... عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ بيانٌ لقولِهِ: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾ الآية... الَّذي هو بيانٌ لِما قبلَهُ أيضًا، فيُلحَظُ أنَّ البيانَ الأوَّلَ صارَ مجمَلًا بالنِّسبةِ للبيانِ الثّاني، وبهذا ترى المعانيَ يتواردُ بعضُها في إثرِ بعضٍ لزيادةِ الإيضاحِ، فيأتي المبهَمُ ثمَّ الواضحُ ثمَّ الأوضحُ، وكلُّ هذا لمزيدِ العنايةِ بالمعنى، ومزيدِ حرصِ الرَّجلِ الصّادقِ على نجاةِ قومِهِ من هلاكٍ لا يطيقُ أن يراهم يسقطونَ فيهِ[2].

ويحتمل أن يكونَ قولُهُ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ﴾ الآية... في موقعِ التَّعليلِ لجملتَي: ﴿مَالِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّهُ إذا تحقَّقَ أنَّه لا دعوةَ للأصنامِ في الدُّنيا بدليلِ المشاهدةِ، ولا في الآخرةِ بدلالةِ الفحوَى؛ فقد تحقَّقَ أنَّها لا تُنجي أتباعَها في الدُّنيا، ولا يفيدُهم دعاؤُها ولا نداؤُها، وتحقَّقَ أنَّ المرجوَّ للإنعامِ في الدُّنيا والآخرةِ هو الرَّبُّ الَّذي يدعوهُم المؤمنُ إليهِ[3].

### بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿لَا جَرَمَ﴾:

بطلانُ دعوةِ المشركينَ متيقَّنٌ

﴿لَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ﴾ ردٌّ لِما دعاهُ إليهِ قومُهُ، و﴿جَرَمَ﴾ بمعنى (حقَّ)، و(أنَّ) - معَ ما في

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 77.

(2) محمد أبو موسى، آل حم غافر فصلت، ص: 159.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 154.

حيِّزها - فاعلُهُ، أي: حقَّ، ووجبَ بطلانُ دعوتِهِ، أو بمعنى (كسبَ)، أي: كسبَ ذلكَ الدُّعاءُ إليهِ بطلانَ دعوتِهِ، على معنى أنَّهُ ما حصلَ مِن ذلكَ إلّا ظهورُ بطلانِ دعوتِهِ، ويجوزُ أن يقالَ: إنَّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ مثلُ (لا بدَّ)، مِنَ الجَرْمِ، وهو القطعُ[1]، وأيًّا ما كانَ؛ ففي الكلامِ تأكيدٌ لبطلانِ دعوتِهم.

### بلاغةُ التَّوكيدِ في الجملة:

لا شكَّ في بطلانِ دعوةِ المشركينَ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ بـ (أنَّ) واسميَّةِ الجملةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ عدمَ وجودِ دعوةٍ لما يدعونَهُ إليهِ أمرٌ ثابتٌ متيقَّنٌ، لا شكَّ فيهِ، وذلك لأنَّ الجملة الاسميَّة من خصائصها الدَّلالة على الثُّبوت.

### سرُّ التَّعبيرِ بـ (ما) في قوله: ﴿أَنَّمَا﴾:

كلُّ الأوثانِ لا تقدر على شيءٍ

آثرَ التَّعبيرُ بـ (ما) في قولِهِ تعالى: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ دون (الذي)؛ لأنَّها تفيد العموم، بخلاف (الذي)، وفي التَّعبيرِ بها تنبيهٌ على أنَّ بطلانَ الدَّعوةِ شاملٌ لكلِّ ما يدعونَهُ إليهِ مِنَ الأوثانِ والأندادِ، والمعنى: أنَّ الَّذي تدعونَني إليهِ - أي: إلى عبادتِهِ - ليسَ لهُ إجابة دعوة، أي: لا يستجيب لأحدٍ[2] مطلقًا.

### نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿تَدْعُونَنِيٓ﴾:

إصرارُ قومِ فرعونَ على الدُّعاءِ إلى باطلِهم

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿تَدْعُونَنِيٓ﴾؛ للدَّلالةِ على إصرارِ قومِهِ على دعوتِهِ إلى باطلِهم؛ لأنَّ صيغةَ المضارعِ تفيدُ الاستمرارَ والتَّجدُّدَ.

وفي هذا لفتُ انتباهِ الدُّعاةِ إلى اللّه تعالى إلى الإصرار على بلاغ دعوتهم للمدعوّين مهما كانت الصِّعاب؛ لأنَّه إذا كان أهل الباطل يصرّون على دعوتهم، ويجدِّدونها؛ فأهل الحقِّ من باب أولى.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 169، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 561.

(2) الوجيز، الواحدي، ص: 964.

### سرُّ التَّعبير بـ (إلى) دون اللام:

آثر القرآنُ الكريم التَّعبير بـ (إلى) في قولِه: ﴿تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ دون اللام؛ لأنَّ (إلى) لانتهاءِ الغايةِ، وهذا يدلُّ على أنَّ غايةَ دعوةِ قومِ فرعونَ هي باطلُهم الَّذي يتمسَّكونَ به.

### وجهُ إفرادِ الضَّميرِ في ﴿إِلَيۡهِ﴾:

رعايةُ لفظِ (ما) في عَوْدِ الضَّميرِ

المرادُ بـ (ما) في قولِه تعالى: ﴿أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ﴾ الأصنامُ، وأُعيدَ الضَّميرُ إليها مفردًا في ﴿إِلَيۡهِ﴾ و﴿لَهُۥ﴾؛ مراعاةً لإفرادِ لفظِ (ما)[1].

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الأصنامَ - مع اختلاف تنوُّعِها وصورِها - عجْزُها عن إجابة الدَّعوة محلُّ اتِّفاق.

### بلاغةُ أسلوب النَّفي في ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ﴾:

دعـــوةُ أصنـامِ المشركينَ لا تنفعُ

النَّفيُ في قولِه تعالى: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ﴾ ليسَ على ظاهرِه؛ إذ الدَّعوةُ مشاهدةٌ، بل يحتملُ أن يكونَ المعنى: ليسَ لهُ استجابةُ دعوةِ لَن يدعوهُ أصلًا، أو ليسَ لهُ دعوةٌ مستجابةٌ، أي: لا يُدعَى دعاءً يستجيبُهُ لداعيهِ، فالكلامُ إمّا على حذفِ المضافِ، أو على حذفِ الموصوفِ[2]، فيكون مِن قبيل الإيجازِ بالحذفِ، ويجوز أن تكونَ استجابةُ الدَّعوة قد سُمّيَت بالدَّعوة إطلاقًا لاسمِ أحدِ المتضايفينِ على الآخرِ، وذلكَ مِن بابِ المشاكلةِ[3].

### دلالةُ التَّعبير بـ (اللام) في ﴿لَهُۥ﴾:

لا يملكُ مدعوُّ الكفرةِ استجابةَ دعوتِهم

دلَّ التَّعبير بـ(اللّام) في ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ﴾ على انتفاءِ مِلْكِ مدعوِّ قومِ فرعونَ استجابةَ دعوتِهم[4]، ويكون المعنى أنَّ ما تدعونني إليه ليس له دعوة إلى نفسه قطُّ؛ لأنَّ من حقِّ المعبود بحقٍّ أن يدعو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 154.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 325، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 155.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 520، والطيبي، فتوح الغيب: 13/ 519.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 155.

إلى طاعته، ثمَّ يدعو العباد إليها إظهارًا لدعوة ربِّهم، أمّا ما تدعون إليه، وإلى عبادته لا يدعو هو إلى ذلك، ولا يدَّعي الرُّبوبيَّة[1]، أو يكون المعنى: أنَّ الَّذي تدعونَني إلى عبادتِهِ ليسَ لهُ إجابة دعوة، أي: لا يستجيب لأحدٍ[2] مطلقًا.

### غرضُ تقديمِ ﴿لَهُۥ﴾:

نفيُ استجابةِ الدَّعوةِ محطُّ الاهتمامِ

قُدِّمَ ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿دَعۡوَةٌ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٌ﴾؛ للعنايةِ بتعلُّقِ النَّفيِ بأوثانِ المشركينَ؛ تأكيدًا لانتفاء نفْعِهم ونفْعِ عبادتهم، وانتفاء قدرتهم على شيء، وفي هذا مزيد إنكار لاتِّخاذهم آلهةً تعبد من دون الله القادر على كلِّ شيءٍ سبحانه.

### سرُّ التَّعبير بالدَّعوة دون الاستجابة:

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بلفظ ﴿دَعۡوَةٌ﴾ في قوله: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٌ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بدلًا من الاستجابة؛ لأنَّ المعنى ليس له استجابة دعوة تنفع في الدُّنيا ولا في الآخرة؛ فسُمّيت الاستجابة باسم الدَّعوة من باب المشاكلة، كما في قولك: (كما تدين تدان)، أي: كما تجازي تُجازى[3]؛ لأنَّه قد ورد قبلها قوله: ﴿تَدۡعُونَنِيٓ﴾، فكان حسنًا أن تقابل، وتشاكل بما يقاربها من لفظها، وهو قوله: ﴿دَعۡوَةٌ﴾.

### نكتةُ تنكيرِ ﴿دَعۡوَةٌ﴾:

ليسَ لدعوةِ الكافرينَ سبيلٌ إلى الاستجابةِ

تنكيرُ ﴿دَعۡوَةٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٌ﴾ للعمومِ؛ لأنَّها نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ، وفي ذلكَ مبالغةٌ في بيانِ إفلاسِهم وضعفِ دعوتِهم؛ إذ ليسَ لها استجابةٌ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ[4].

وفي التَّنكير أيضًا دلالةٌ على نفي الدَّعوة عن الأصنام مطلقًا؛

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 519.
(2) الوجيز، الواحدي، ص: 964.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 519.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 78.

فلا تملك الدَّعوة لنفسها، ولا الطَّلب من معبوديها، ولا إجابة ما يطلبونه منها.

**دلالةُ التَّعبير بالظَّرفيَّة ﴿فِى﴾:**

لا تُستجابُ دعوةُ الكافرينَ في الدّارينِ

يدلُّ حرفُ الظَّرفيَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِى ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ على أنَّ الدُّنيا والآخرةَ ليستا ظرفًا لاستجابةِ الأوثانِ لدعوةِ الكافرينَ، فهي لا تنفعهم في الدُّنيا بشيء، ولا تدفع عنهم في الآخرة من عذاب اللّه شيئًا.

**دلالةُ تعريفي ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:**

غلبةُ الوصفينِ على الدّارينِ

التَّعريفُ في لفظي ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في قولِهِ: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِى ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ للعهد؛ لأنَّهما معهودان للسّامع، فلا ينصرف ذهنه إلّا إليهما، والدُّنيا والآخرةُ في الأصلِ صفةٌ لمحذوفٍ، وهو الدّارُ، ثمَّ غلبتا، واستُغنيَ بهما عن الموصوفِ لشهرتهما.

**نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ على ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:**

الأوثانُ لا تنفعُ في العاجلِ ولا في الآجلِ

قُدِّمَت ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ على ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في قولِهِ جلَّ مِن قائلٍ: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِى ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ رعايةً للتَّرتيبِ الزَّمنيِّ؛ إذ الدُّنيا قبلَ الآخرةِ، وللمسارعةِ إلى نفيِ الاستجابةِ في الدُّنيا الَّتي يعيشونَ فيها، وفي ذلكَ إقامةٌ للحجَّةِ عليهم، وبيانٌ لسَفَهِ رأيِهم في عبادةِ ما لا يملكُ لهُم شيئًا في عاجلِهم وآجلِهم.

**دلالةُ (لا):**

جيءَ بـ (لا) في قولِهِ تعالى: ﴿فِى ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لتوكيدِ النَّفيِ المستفادِ من ﴿لَيۡسَ﴾، وفي هذا التَّوكيدِ ملاءمةٌ لمقامِ توبيخِ المشركينَ على دعوتِهم إلى ما لا يضرُّ، ولا ينفعُ.

**بلاغةُ الطِّباقِ بينَ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:**

خسارةُ عبّادِ الأصنامِ في الحالِ والمآلِ

في الجمعِ بينَ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فِى ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ محسِّنٌ معنويٌّ، وهو الطِّباقُ، وهو يرسمُ صورتينِ زمنيَّتينِ

متقابلتينِ، لا تُستجابُ فيهما دعوةُ مَن يدعو الأوثانَ: إحداهما في الدُّنيا، والأخرى في الآخرة.

**بلاغةُ عطفِ ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾:**

المصيرُ إلى اللهِ في الدُّنيا والآخرة

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾[1]، ونكتةُ العطفِ: أنَّهُ لمّا ذُكِرَ انتفاءُ دعوةِ ما عُبِدَ من دونِ اللهِ؛ ذُكِرَ أنَّ مَرَدَّ الجميعِ إلى جزاءِ اللهِ وحسابِه[2]، وهو أيضًا من عطفِ اللّازمِ على ملزومِه؛ لأنَّهُ إذا تبيَّنَ أنَّ ربَّ موسى عليه السلام المُسمَّى اللهَ هو الَّذي لهُ الدَّعوةُ؛ تبيَّنَ أنَّ المصيرَ إلى اللهِ في الدُّنيا بالالتجاءِ والاستنصارِ، وفي الآخرةِ بالحكمِ والجزاءِ[3].

**سرُّ العطفِ بالواوِ دونَ الفاءِ:**

العنايةُ بالتَّنصيصِ على كونِ الرُّجوعِ إلى اللهِ

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ عطفَ اللّازمِ على الملزوم - كما تقدَّمَ - ولو عُطِفَ عليه بفاءِ التَّفريعِ؛ لصحَّ، ولكن عُدِلَ عن ذلكَ إلى العطفِ بالواوِ؛ اهتمامًا بشأنِ الجملةِ؛ لتكونَ مستقلَّةَ الدَّلالةِ بنفسِها، غيرَ باحثٍ سامعُها على ما ترتبطُ بهِ؛ لأنَّ الشَّيءَ المتفرِّعَ على شيءٍ يُعدُّ تابعًا لهُ[4].

**نكتةُ توكيدِ ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾:**

مَن كانَ إليهِ المَرَدُّ؛ فلا ينبغي أن يُعبدَ غيرُهُ

أُكِّدَ قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بـ (أنَّ) واسميَّةِ الجملةِ؛ لتأكيدِ الرُّجوعِ إلى اللهِ، وأنَّهُ أمرٌ كائنٌ - لا محالةَ[5] - وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّهُ لا ينبغي أن يُعبَدَ غيرُهُ سبحانه وتعالى؛ لأنَّ المَرَدَّ إليه[6].

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 71.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 261.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 155.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 155.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 78.
(6) محمد أبو موسى، آل حم غافر فصلت، ص: 162.

وفيه تسليةٌ لأهل الحقِّ؛ لأنَّهم يجدون الجزاء عند العرض على اللّه تعالى، وتوبيخٌ وترهيبٌ لأهل الباطل ممّا ينتظرهم من العذاب.

### سرُّ التَّعبير بالجمع ﴿مَرَدَّنَآ﴾ دون الإفراد (مردي):

مردُّ جميع المخلوقات إلى اللّه تعالى، للحساب والجزاء

جاء التَّعبير القرآنيُّ بلفظ ﴿مَرَدَّنَآ﴾ دون أن يقول: (مردّي) مع أنَّ سياق الآية بالإفراد في قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾؛ لأنَّ المقام مقام ترهيب وتخويف، ولأنَّ مرجع جميع المخلوقات إلى اللّه وحده، فهو المالك لها يبسطها، ويقبضها، وينشرها، ويطويها، وأنَّ جميع النّاس سيرجعون إلى اللّه للحساب والجزاء في الآخرة، ومنهم المسرفون؛ إذ يلقون جزاء كفرهم وضلالهم[1].

### نكتةُ الإضافةِ في ﴿مَرَدَّنَآ﴾:

سيقفُ الجميع للحساب، فهنيئًا للمطيعين، وبعدًا للمسرفين

إضافةُ المَرَدِّ إلى ضميرِ المتكلِّم المجموعِ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لزيادةِ التَّنصيصِ على أنَّهم مردودونَ جميعًا إلى اللّهِ، وهذا يشملُ المؤمنَ، ويشملُ غيرَهُ ممَّن يخالفُهُ، ويدعوهُ إلى عبادةِ الأوثانِ.

### سرُّ التَّعبير بـ ﴿إِلَى﴾ دون اللّام:

إلى اللهِ تعالى يرجع الأمر كلُّه

جاء التَّعبير القرآنيُّ بـ ﴿إِلَى﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ دون اللّام؛ لأنَّ ﴿إِلَى﴾ لانتهاءِ الغايةِ، وهذا هو المرادُ هنا: لأنَّ مرجعَ الخلائقِ كلِّهم إلى الحسابِ والجزاءِ يومَ القيامةِ، واللّه تعالى هو المالك الحقُّ في ذلك اليوم.

### بلاغةُ التَّعبيرِ باسم الجلالةِ دونَ غيرِه:

ذو العظمة والجلال متفرِّدٌ بوجوبِ العبادة

عُبِّرَ باسم الجلالةِ دونَ غيرِه في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لِما يدلُّ عليهِ هذا الاسمُ الجليلُ من صفاتِ الكمالِ[2]، والمعنى: وأنَّ مردَّنا إلى اللّهِ العالم بكلِّ المعلوماتِ، القادرِ على كلِّ الممكناتِ، الغنيِّ

(1) الخطيب، التفسير القرآنيُّ للقرآن: 12/ 1239.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 78.

عن كلِّ الحاجاتِ، فأيُّ عاقلٍ يُجوِّزُ لهُ عقلُهُ أن يشتغلَ بعبادةِ الباطلِ، وأن يُعرِضَ عن عبادةِ الإلهِ الَّذي لا بدَّ، وأن يكونَ مردُّهُ إليه؟[1].

وفي التَّعبير به ترهيبٌ للكفرة والمشركين؛ لأنَّهم سيقفون بين يدي اللّه للحساب، وتسليةٌ لدعاة الحقِّ بأنَّ ما بذلوه سيجدون ثوابه عند الوقوف بين يديه سبحانه.

**بلاغةُ عطفِ ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾:**

الحكمُ والجزاءُ يومَ القيامةِ للهِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾، داخلٌ في حكمِهِ الَّذي هو الثُّبوتُ يقينًا[2]، أو معطوفٌ على قولِهِ: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّـهِ﴾، ومضمونُهُ متفرِّعٌ عليهِ؛ لأنَّهُ إذا كانَ المصيرُ إليهِ؛ كانَ الحكمُ والجزاءُ بينَ الصّائرينَ إليه، فيتعيَّنُ أنَّ المعاقَبَ هم الكافرونَ باللّهِ[3].

**نكتةُ توالي المؤكِّداتِ في فاصلةِ الآيةِ:**

لا شكَّ في خسارةِ المسرفينَ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ بـ (أنَّ) واسميَّةِ الجملةِ وضميرِ الفصلِ؛ لتحقيقِ مضمونِهِ، ودفعِ ما قد يتبادرُ مِنَ الشَّكِّ إليهِ[4]، وفي ذلكَ من يقينِ المؤمنِ بوعدِ اللّهِ وجزائِهِ ما لا يخفَى، وفيهِ إيقاظٌ للمسرفينَ؛ لعلَّهم يتنبَّهون من غفلتِهم.

**نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾:**

جنسُ المسرفينَ محكومٌ عليهِ بالخُسْرانِ

التَّعريفُ في ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ تعريفُ الجنسِ المفيد للاستغراق، وهو تعريضٌ بالَّذينَ يخاطبُهم مؤمنُ آلِ فرعونَ؛ إذ هم مسرفونَ على كلِّ تقديرٍ، فهُم مسرفونَ في إفراطِ كفرِهم بالرَّبِّ الَّذي دعا إليهِ موسى، ومسرفونَ فيما يستتبعُهُ ذلكَ مِنَ المعاصي والجرائم[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 520.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 278، ومحمد أبو موسى، آل حم غافر وفصلت، ص: 162.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 155.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 78.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 155.

وفيه إشارة إلى فرعون؛ لأنَّه أسرف على نفسه في دعوى الألوهيَّة، وسياق الآيات التي وردت على لسان مؤمن آل فرعون يؤكِّد ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر: 28]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: 34]؛ فتكرارُ كلمة المسرف والمسرفين في كلام المؤمن ليست بمعزلٍ عمّا يراه من إسراف فرعونَ في كلِّ أمره في الكذب والكِبر والضَّلال[1].

### نكتةُ التَّعبيرِ بالإسرافِ:

**تجاوزُ قومِ فرعونَ في الكفرِ والمعاصي**

عُبِّرَ بالإسرافِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ لدلالتِه بحسَبِ وضعِه على تجاوزِ قومِه الحدَّ في الشِّركِ والعصيانِ[2]، وغُلوِّهم في ذلكَ[3]، فهُم مداومونَ عليهِ، ومصرّونَ عليهِ، بل يدعونَ غيرَهم إليهِ[4]، ولذلكَ استوجبوا النُّصْحَ والإرشادَ.

### بلاغةُ القصرِ:

**المشركونَ وحدَهم أهلُ الخلودِ في النّارِ**

في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ قصْرٌ بتعريفِ الطَّرفينِ وتوسيطِ ضميرِ الفصلِ، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ؛ لأنَّهم المتناهونَ في صحبةِ النّارِ بسببِ الخلودِ، بخلافِ عصاةِ المؤمنينَ[5].

### دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾:

**المسرفونَ مستحقّونَ للنّارِ، ملازمون لها**

جاء التَّعبير القرآنيُّ بهذا التَّركيب: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ دون (وأنَّ المسرفين في النّار)؛ لوجود فرق بينهما، فكلمة ﴿أَصْحَٰبُ﴾ تعني أنَّهم ملازمون للنّار ملازمةَ الشَّيء لما هو في صحبته، وما هو في حوزته وملكه، وكأنَّهم بإسرافهم صاروا أصحابها وأولى النّاس بها[6].

(1) محمد أبو موسى، آل حم غافر فصلت، ص: 162.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 78.
(3) عبد الرحمن حبنكة، معارج التفكر ودقائق التدبر: 12/ 382.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 520.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 155، وحبنكة، معارج التفكر ودقائق التدبر: 12/ 383.
(6) محمد أبو موسى، آل حم غافر فصلت، ص: 162.

**دلالةُ الإضافةِ في قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾:**

إسرافُهم سبب خلودهم في النّار

إضافةُ الأصحابِ إلى النّارِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ إضافةٌ مجازيَّةٌ، جُعِلوا - لشدَّةِ استحقاقِهم النّارَ - أصحابَها ومالكيها، كالإضافةِ في قولِهم: أبناءُ السَّبيلِ[1]، فإن أُريدَ بالمسرفينَ الكفرةُ؛ فالملازمةُ بمعنى الخلودِ في النّارِ، أي: يخلدون فيها لا يفارقونها، كما يقتضيه معنى الصُّحبة؛ لأنَّ إسرافهم اقتضى إسراف ملازمتهم للنّار الَّتي طبعها الإسراف[2]، وإن أُريدَ بهم ما يشملُ العصاةَ؛ فالملازمةُ شاملةٌ للمُكْثِ الطَّويل[3].

**نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلنَّارِ﴾:**

تعريفُ ﴿ٱلنَّارِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ بها نارٌ معهودةٌ، وهي نارُ الآخرة.

**بلاغةُ إيجازِ الحذفِ:**

الخلودُ في النّارِ يكونُ بعدَ الحسابِ والقضاءِ

في الآيةِ إيجازٌ بحذفِ أكثرَ من جملةٍ بينَ قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وقولِهِ: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ فالمَرَدُّ لا يَعْقُبُهُ ملازمةُ المسرفينَ للنّارِ، وإنَّما هناكَ حسابٌ، وهناكَ وضعٌ للكتابِ والميزانِ، ومجيءٌ بالنَّبيّينَ والشُّهداءِ، وقضاءٌ بينَهم بالحقِّ إلخ... وكلُّ هذا قد طويَ، وسرُّ هذا الطَّيِّ أنَّ المقصودَ الوصولُ بالتَّرهيبِ إلى غايتِهِ، فبادر الكلام إلى ذكر هذه الصّورةِ البالغةِ التَّخويفَ، وهي أنَّ المسرفينَ هم أصحابُ النّارِ، وليسَ هناكَ عبارةٌ تردعُ، وتكفُّ، وتزجرُ عن الإسرافِ كهذهِ[4].

**بلاغةُ فاصلة هذه الآيةِ:**

التَّحذيرُ من سوء مآل الشِّرك والمشركين

تظهر بلاغةُ هذه الفاصلة في تلخيص ما أراده مؤمن آل فرعون

(1) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 71.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 79.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 373، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 325.
(4) أبو موسى، آل حم غافر وفصلت، ص: 162.

في محاورته مع قومه، وذلك بتحذيرهم ممّا هم فيه من الشِّرك والجهل، وتخويفهم من مغبَّة ذلك، وهو عذاب الله تعالى.

### سرُّ عدم ذِكر المحسنين في مقابلة أصحاب النّار:

لم يذكر القرآن الكريم هنا جزاء المحسنين، وهو الفوز بالجنَّة في مقابلة عقاب المسرفين بالنّار؛ لأنَّ الموقفَ موقفُ إنقاذ وتخليص لهؤلاء الهلكى من هذا الضَّلال الَّذي هم فيه، فإذا خلصوا من النّار، فذلك كسب عظيم؛ لأنَّ الَّذي تعلق به النّار لا يعنيه شيء أكثر من أن يتخلَّص منها، وأيضًا؛ لأنَّ دفْعَ المضارِّ مقدَّمٌ على جلب المصالح[1].

(1) الخطيب، التفسير القرآنيُّ للقرآن: 12/ 1240.

﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤﴾ [غافر: 44]

## ❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ختْمُ نصائحِه بتَّخويفِهم من الوقوف بين يدي الله للحساب

لمّا بالغَ مؤمنُ آلِ فرعونَ فيما سبق من آيات في نُصْحِ قومِهِ وبيانِ الحقائقِ لهُم؛ ختمَ نصائحه في هذه الآية بخاتمةٍ لطيفةٍ فيها تخويفٌ، فقالَ: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ﴾[1]، كأنَّه استشعر من ملامحهم أو من مقاطعتهم كلامَهُ بعبارات الإنكار، ما أيأسه من تأثُّرهم بكلامه، فتحدّاهم بأنَّهم إن أعرضوا عن الانتصاح لنصحه؛ سيندمون حين يرون العذاب، إمّا في الدُّنيا أو في الآخرة[2].

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ﴾: يقالُ الذِّكْرُ تارةً، ويُرادُ بِهِ هيئةٌ للنَّفْسِ بها يُمكِنُ للإنسانِ أن يحفظَ ما يكتسبُهُ مِنَ المعرفةِ، ويقالُ تارةً لحُضورِ الشَّيءِ القلبَ أوِ القولَ، ولذلكَ قيلَ: الذِّكْرُ ذِكْرانِ: ذِكْرٌ بالقلبِ، وذِكْرٌ باللِّسانِ؛ فمِن الذِّكر باللِّسان قوله: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ﴾ [الأنبياء: 10]، ومن الذِّكر بالقلب واللِّسان معًا قوله: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ [البقرة: 200]، وكلُّ واحدٍ منهما ضربانِ: ذِكْرٌ عن نسيانٍ، وذِكْرٌ لا عن نسيانٍ، بل عن إدامةِ الحفظِ[3]، ومِنَ المجازِ: الذِّكْرُ بمعنى الشَّرَفِ، وفُسِّرَ به قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: 44][4]، والمرادُ بالذِّكر هنا: الإخطارُ بالبالِ والقلبِ[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 520، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 261.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 156.
(3) الراغب، المفردات: (ذكر).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (ذكر).
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 373.

2) ﴿وَأُفَوِّضُ﴾: (فوض) أصلٌ يدلُّ على اتِّكالٍ في الأمرِ على آخرَ، وردِّه عليه[1]، ومن ذلك قولُهم: فوَّضَ إليهِ أمرَهُ؛ إذا ردَّهُ[2]، وقولُهم: باتوا فوضَى، أي: مختلطينَ، ومعناهُ: أنَّ كلًّا فوَّضَ أمرَهُ إلى الآخرِ[3]، وقومٌ فوضَى: متساوُونَ، لا رئيسَ لهُم[4]، والمرادُ بالتَّفويضِ هنا: التَّسليمُ[5].

## ❁ المَعنى الإجماليُّ:

ليس للدّاعي إلى الله إلّا أن يسلّم أمره لله

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن قيلِ المؤمنِ من آلِ فرعونَ لفرعونَ وقومِهِ: فستذكرونَ أيُّها القومُ ما أقوله لكم؛ إذا عايَنْتم عقابَ اللّهِ، ولَقيتم ما لَقيتُموهُ من صِدْق ما أقولُ، وحقيقة ما أُخبِرُكم بهِ، وأمّا أنا؛ فأسلِّمُ أمري إلى اللّهِ، وأتوكَّلُ عليهِ؛ فإنَّهُ الكافي مَن توكَّلَ عليهِ، وهو عالمٌ بأمورِ عبادِه، ومَنِ المطيعُ منهُم، والعاصي لهُ[6].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### دلالةُ الفاءِ في ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ﴾:

ختمُ النُّصحِ بالوعيدِ، والالتجاء إلى الله المجيد

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ﴾ للتَّفريعِ على جملة: ﴿۞وَيَٰقَوۡمِ مَالِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، وبهذهِ الجملة المشتملة على التَّهديدِ يختمُ مؤمنُ آل فرعون خطابَهُ لقومه[7].

### بلاغةُ التَّعبيرِ بالذِّكْرِ دون العلم:

عند حُلولِ العذابِ تصبحُ الأخبارُ يقينًا

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ﴾ دون العِلم؛ لأنَّ الذُّكر بضمِّ الذّال - وهو ضدُّ النِّسيانِ - هو المناسب لهذا السّياق؛ إذ يطلب منهم استحضار ما قاله لهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فوض).
(2) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (فوض).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (فوض).
(4) الجوهري، الصحاح، والزمخشري، أساس البلاغة: (فوض).
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 214.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 393، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 146.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 325، ومحمد موسى، آل حم، ص: 164.

من النُّصح قبل ذلك، ولم يصدِّقوه، والمعنى: ستذكرونَ في عقولِكم، أي: ما أقولُ لكم الآنَ، يحَضُرُ نُصْبَ بصائرِكم يومَ تحقُّقِهِ[1].

وفي التَّعبير بقوله: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ﴾ إشارة إلى أنَّه في موضع النَّجاة وهم في موضع الهلاك؛ لأنَّهم صمّوا آذانهم عن سماع الحقِّ.

### بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ﴾:

سيـنـدم المشركون حين يـرون العذاب، ولات حين مندم

في قوله: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ﴾ استعارة؛ إذ شبَّهَ الإعراضَ بالنِّسيانِ، ورمزَ إلى النِّسيانِ بما هو مِن لوازمِهِ في العقلِ ملازمةَ الضِّدِّ لضدِّهِ - وهو التَّذكُّرُ - على طريقةِ الاستعارةِ المكنيَّةِ، وفي قرينتِها استعارةٌ تبعيَّةٌ، والمعنى: سيحلُّ بكُم مِنَ العذابِ ما يُذَكِّرُكُم ما أقولُ: إنَّهُ سيحلُّ بكم[2].

### نكتةُ التَّعبيرِ بالسّينِ دون (سوف):

كـلُّ آتٍ فهو قريب

عُبِّرَ بصيغة المضارع المصدَّرِ بالسّينِ في قوله تعالى: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ﴾ دون سوف؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذُكْرَهم ما يقولهُ المؤمنُ أمرٌ سيقعُ في المستقبلِ القريب في الدُّنيا عندَ حُلولِ العذابِ بهِم[3] أو في الآخرة، وعُبِّر عنها بالسّين دون سوف؛ لأنَّهما وإن اشتركا في المستقبل إلا أنَّ السّين تأتي للمستقبل القريب من باب التَّهديد، وفيها توكيدٌ لحصولِ التَّذكيرِ، أي: فستذكرونَ قطعًا بوعدٍ لا خُلْفَ فيهِ[4].

### غرضُ الإخبارِ بـ ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ﴾:

لـيـسَ بـعـدَ الإعـــراضِ عــن الـنُّـصـحِ إلّا الـتَّـلـويـحُ بالعذابِ

الغرضُ مِنَ الإخبارِ بقوله تعالى: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ﴾ التَّهديدُ والوعيدُ لقومِهِ بعدَ يأسِهِ مِن استماعِهم نُصْحَهُ، وبعدَ إعراضِهم عن كلِّ ما ذكَّرَهم بهِ[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 156.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 156.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 562.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 79.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 318، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 567.

وفيه أيضًا التَّحسُّر على قومه لعدم استجابتهم لنصحه، وفيه إشارة إلى شفقته وحِرْصه عليهم في الأخذ بأيديهم إلى أسباب النَّجاة قبل فوات الأوان، وهو مبدأ ينبغي على الدُّعاة أن يحرصوا عليه في عرض دعوتهم على أقوامهم.

**سرُّ التَّعبير بـ ﴿مَآ﴾ دون (الذي):**

شـدَّةُ وعيدِ المكذِّبين المعرِضينَ

آثر النَّظم القرآنيُّ التَّعبيرَ بـ ﴿مَآ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ﴾؛ لأنَّ ﴿مَآ﴾ أعمُّ في دلالتها من (الَّذي)، وإن اشتركتا في الموصوليَّة، ولأنَّ ﴿مَآ﴾ يتعدَّد المراد بها، فيجوزُ أن تكونَ موصولةً بمعنى (الَّذي)، أي: فستذكرونَ الَّذي أقولُهُ لكم[1]، فتكونَ دالَّةً على العموم، وأنَّهم سيذكرونَ كلَّ ما يقولُهُ المؤمنُ، وفي ذلكَ تهويلٌ للوعيدِ، ويجوزُ أن تكونَ مصدريَّةً، أي: فستذكرونَ قولي لكُم؛ إذا حلَّ بكم العذابُ[2].

**سرُّ التَّعبير بالقول مادَّة وصيغة:**

الدّاعي إلى اللهِ ينصحُ مرارًا

دلَّ التَّعبيرُ بالقول في قوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ﴾ على أنَّ مؤمن آل فرعونَ بذل جهده في دعوة قومه، وأعلى صوته؛ لكي يسمعوه، وممّا يؤكِّد ذلك مجيء فعلِ القولِ بصيغةِ المضارع؛ للدَّلالةِ على أنَّ القولَ مُستمِرٌّ متجدِّدٌ، وأنَّ المؤمنَ كان يُكرِّرُ النُّصحَ والهدايةَ لقومِهِ؛ إبعادًا لنفسِهِ عن ساحةِ الذَّنبِ والتَّقصيرِ[3]، وهكذا ينبغي أن يكونَ شأنُ الدّاعي إلى اللّهِ.

**نكتةُ حذفِ عائد الموصول:**

الحذفُ للعلم بالمحذوف وظهور المقصود

إذا كانَتْ ﴿مَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ﴾ موصولةً؛ فقد حُذِفَ الضَّميرُ الرّاجعُ إلى الاسم الموصولِ إيجازًا؛ لشيوعِ حذفِهِ، والتَّقديرُ: فستذكرونَ ما أقولُهُ لكُم مِنَ النَّصائحِ[4].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 318.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 318.
(3) حبنكة، معارج التفكر: 12/ 383.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 59.

### دلالةُ اللّامِ في ﴿لَكُمۡۚ﴾:

اللّامُ في قولِه ﷺ: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ﴾ للتَّبليغِ، فتفيدُ انتهاءَ قولِ المؤمنِ إلى قومِه، ووصوله إليهم.

نُصحُ المؤمنِ بالغٌ إلى قومِه

وقد تكون اللّام هنا دالَّةً على الاختصاص، أي: اختصاص قوله بقومه، وشدَّة حرصه عليهم، فكأنَّه يقول: هذه نصائحي لكم أنتم دون غيركم.

### بلاغةُ عطف التَّفويض على ما قبله:

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ عطفت هذهِ الجملةَ على سابقتِها، ومَساقُ هذهِ الجملة مَساقُ الانتصافِ منهُم؛ لِما أظهروهُ لهُ مِنَ الشَّرِّ، يعني: أنّي أُفَوِّضُ شأني وشأنَكم معي إلى اللّهِ، فهو يَجزي كلَّ فاعلٍ بما فعلَ، وهذا كلامُ مُنصِفٌ، ويدلُّ لمعنى الانتصافِ تعقيبُهُ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ مُعلِّلًا التَّفويضَ بأنَّ اللّهَ عليمٌ بأحوالِ جميعِ العبادِ؛ فعمومُ العبادِ يشملُهُ، ويشملُ خُصومَهُ[1]. ويُحتمل أنَّهم هدَّدوهُ بالقتلِ، وتوعَّدوهُ، ففوَّضَ أمرَهُ إلى اللّهِ[2].

ما خاب من التجأ إلى ربِّه وفوَّض أمره إليه

### نكتةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿وَأُفَوِّضُ﴾:

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ تفويضَ المؤمنِ أمرَهُ إلى اللّهِ مُستمِرٌّ مُتجدِّدٌ، فهو في جميعِ الأحوالِ والأوقاتِ مُعتمِدٌ على اللّهِ تعالى؛ لأنَّ دعوتَهُ إليهِ؛ فتفويضُهُ الأمرَ إليهِ أيضًا[3].

المؤمنُ دائم التَّعلُّق بالله، والتَّوكُّل عليه

وفيه دلالة على حسن صِلة العبد بربِّه، وأنَّ الكافر محروم من هذه العناية والكفاية.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 156.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 520.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 79.

مـؤمـنُ آلِ فرعونَ خاضعٌ مستسلمٌ للهِ

**سرُّ التَّعبيرِ بالتَّفويضِ دون التَّوكُّلِ:**

أوثِرَ التَّعبيرُ بالتَّفويض في قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ﴾ دون التَّوكُّل؛ لوجود فرق بينهما، فالتَّفويض ألطفُ إشارةً، وأوسعُ مِنَ التَّوكُّلِ، ولأنَّ التَّوكُّلَ يكونُ بعدَ وقوعِ السَّببِ، والتَّفويضُ قبلَ وقوعِهِ وبعدَهُ، وهو عينُ الاستسلامِ، والتَّوكُّلُ شُعبةٌ منهُ[1]، وفي التَّعبيرِ بالتَّفويضِ في الآيةِ إشارةٌ إلى غايةِ الخضوعِ والاستسلامِ.

**بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾:**

في تسليمِ المؤمنِ أمورَهُ للّهِ بالتَّوكُّلِ عليهِ في قولِهِ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ كنايةٌ عن عصمتِهِ؛ لأنَّهُ مَن توكَّلَ على اللّهِ؛ كَفاهُ، وحَماهُ[2].

التَّوكُّل الحقيقيُّ في تسليم الأمور كلِّها لله تعالى

**دلالةُ التَّعبيرِ بالأمرِ في قوله: ﴿أَمۡرِيٓ﴾:**

أوثِرَ التَّعبيرُ بالأمر في قوله: ﴿أَمۡرِيٓ﴾ دون غيره كالشَّأن؛ لأنَّه لفظ عامٌّ يشمل الأفعال والأقوال كلَّها، وهذا هو المناسب مع سياق التَّفويض بأن يفوِّض العبد أمره كلَّه فيما يتعلَّق بأمور الدُّنيا والدّين؛ بخلاف الشأن فإنَّه يُطلق على الأمر الَّذي يتَّفق، ويصلح، ولا يقال إلّا فيما يعظم من الأحوال والأمور[3]؛ لذلك كان التَّعبير بالأمر هو الأبلغ للسّياق.

الـتَّـسـلـيـمُ الحقيقيُّ يشملُ كلَّ شؤونِ العبدِ

**دلالةُ الإفراد في ﴿أَمۡرِيٓ﴾ دون الجمع: (أمورنا):**

جاء التَّعبير في لفظ الأمر مفردًا مضافًا إلى ياءِ المتكلِّم في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ للاستغراقِ[4]، والمعنى: وأُفوِّضُ جميعَ أمري إلى اللّهِ، وهكذا شأنُ التَّسليم الحقيقيِّ للّهِ ﷻ، ولم يأتِ التَّعبير بلفظ (أمورنا)؛ لأنَّهم لم يسلِّموا أمورهم إلى اللّه حتَّى يدخلهم في هذا التَّفويض، وفيه تحذير لهم، وتوبيخٌ على كفْرِهم وشركهم؛ لأنَّهم حُرِموا كفايةَ اللّه لهم.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 79.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 373.
(3) الراغب، المفردات: (شأن).
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 71.

### دلالةُ التَّعبير بـ ﴿إِلَى﴾:

أوثر التَّعبيرُ بحرف الجرِّ ﴿إِلَى﴾ في قولِه: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾؛ لدلالتها على انتهاءِ الغاية، وهذا يفيدُ أنَّ تفويضَ الأمرِ مُنتهاهُ هو اللهُ سبحانَهُ الَّذي لا يردُّ المكروهَ سواهُ.

### نكتةُ التَّعبيرِ باسم الجلالةِ ﴿ٱللَّهِۚ﴾:

القـادرُ العليمُ يـصرفُ الـسّوءَ عمَّنِ التجأ إليهِ

عُبِّرَ باسم الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾؛ لدلالتِهِ على سائرِ صفاتِ الكمالِ، ومنها القدرةُ والعلمُ المحيطُ، فلا يخفَى عليهِ حالُ مَن يُفوِّضُ الأمرَ إليه، ولا يُعجِزُهُ شيءٌ[1].

### بلاغةُ المقابلةِ:

هـلاكُ المُبطِـلِ ونجاةُ المُحِقِّ

بينَ قولِه تعالى: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ﴾ وقولِه: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ مقابلةٌ خفيَّةٌ، وذلكَ أنَّهم سيذكرونَ حينَ ينزلُ عليهِم بأسُ ربِّهم، وسيكونُ المؤمنُ ناجيًا مِن مكرِهم؛ لأنَّهُ فوَّضَ، وهو صادقٌ، فاستسلمَ وهو صادقٌ، واستمسكَ بالعُروةِ الوُثقَى الَّتي ليس لأهل الله غاية أعلى من أن يكونوا من أهلها.

### نكتةُ فصلِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾:

البصيرُ بالعبادِ حقيقٌ بالتَّوكُّلِ عليهِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِن كمالِ الاتِّصالِ، فهذهِ الجملةُ تعليل وتوكيدٌ لتفويضِ المؤمنِ أمرَهُ للّه تعالى، وبيانٌ لموجِبِ التَّفويضِ، وهو كونُهُ تعالى بصيرًا بأحوالِ العبادِ وبمقاديرِ حاجاتِهم[2]، فهو استئنافٌ تذييليٌّ.

### بلاغةُ الكنايةِ في الفاصلةِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ كنايةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ كونَهُ تعالى بصيرًا بأحوالِ العبادِ، مُطَّلِعًا عليها، يقتضي حِفْظَهُ لهُم[3]؛ شفقةً ورحمةً وحفظًا وعنايةً.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 79.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 80، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 157، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 261.

(3) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 374.

المؤمنُ واثقٌ بوقايةِ اللهِ لهُ

### غرضُ التَّوكيدِ في فاصلةِ الآيةِ:

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ الجملة؛ لتحقيقِ مضمونِهِ، والرَّدِّ على القوم؛ لأَنَّ عملَهم في مكرِهم بِهِ عملُ مَن يظنُّ أنَّ اللّهَ سبحانَهُ لا يُبصِرُهم، ولا ينصرُهُ[1]، وللإيماءِ إلى فَرْطِ وُثوقِ المؤمنِ بوقايةِ اللّهِ تعالى لهُ.

تعظيمُ أمرِ تفويضِ العبدِ أمره لربِّه

### بلاغةُ إظهارِ اسم الجلالةِ دون إضماره:

الظّاهرُ أن يقالَ: (إنَّهُ بصيرٌ بالعبادِ)؛ لتقدُّمِ ذكرِ اسم الجلالةِ، لكن عُدِلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾؛ لتقويةِ التَّوكُّلِ؛ لأنَّه توكُّلٌ على ذي العظمةِ والجلالِ، المتَّصفِ بصفاتِ الكمالِ، وهو يعلمُ بما لهُ مِنَ الإحاطةِ مَن يستحقُّ النُّصرةَ لاتِّصافِهِ بأوصافِ الكمالِ، ويعلمُ مَن يمكرُ، فيردُّ مَكْرَهُ عليهِ[2]، ولأنَّ إظهار اسم الجلالةِ يُقوّي استقلالَ الجملة، ويجعلُها بمنزلةِ الأمثالِ السّائرة.

المُؤمِنُ المتوكِّلُ محروسٌ مِنَ اللهِ

### فائدةُ تذييل الآيةِ بصفةِ ﴿بَصِيرُۢ﴾ مادَّةً وصيغة:

جيءَ بصفةِ البصيرِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾؛ لدلالتِها على أنَّهُ ﷻ عالمٌ بأحوالِهم وبمقاديرِ حاجاتِهم، لا يخفى عليهِ الأمرُ[3]، فيحرسُ مَن يلوذُ بهِ مِنَ المكارهِ، وهذا ما تحقَّقَ فعلًا بعدَ ذلكَ[4].

وفي هذه الصِّفة تحذيرٌ للكافرين وللمشركين بأنَّ اللّه مطَّلع عليهم، فلا تخفى عليه خافية؛ لأَنَّ عملهم في مكرهم به - أي: مؤمن آل فرعون - عمل من يظنُّ أنَّه سبحانه لا يبصرهم، ولا ينصرهم[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 80.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 80، ومحمد أبو موسى، آل حم، ص: 165.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 520، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 72.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 278، وعبد الرحمن حبنكة، معارج التفكر ودقائق التدبر: 12/ 384.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 80.

وعُبِّرَ بصيغةِ (فعيلٍ)؛ لدلالتِها على المبالغةِ في صفةِ البصرِ، والمعنى: إنَّ اللّٰهَ بالغُ البصرِ والإحاطة بالعبادِ ظاهرًا وباطنًا.

**دلالةُ الباءِ في ﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾:**

الباءُ للتَّعديةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾، كما في قولِه تعالى: ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ﴾ [القصص: 11]، فإذا أرادوا تعديةَ فعلِ البصرِ بنفسِهِ؛ قالوا: أبصرَهُ[1].

سبحان الذي لا يخفى عليه شيء من شؤون خلقِهِ

وفي التَّعبير بالباء دلالة على تضمين ﴿بَصِيرٌ﴾ معنى العلم، وفي هذا إشارة إلى عظم مراقبته سبحانه لعباده، وأنَّها لا تنفكُّ عنهم.

**دلالةُ تعريفِ العبادِ:**

تعريفُ العبادِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾؛ للجنسِ المستغرقِ لأفرادِهِ، فعِلمُ اللّٰهِ تعالى محيطٌ بجميعِ عبادِهِ، لا يخرج أحد منهم عن علمه وإحاطته.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 157.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: 45 - 46]

## مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

وقايةُ الله لأهل الحقِّ وعقاب أهل الباطل

لمّا نصح مؤمن آل فرعون قومَهُ فيما سبق، واجتهد في نصحهم، ولكنَّهم آذوه، ولم يقبلوا نُصحه، والتجأ إلى اللّه؛ ليحفظه منهم بقوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾؛ جاءت هاتان الآيتان؛ لبيان وقاية اللّه له وحِفظه منهم، بما له سبحانه من الجلال والعظمة؛ جزاءً على تفويض أمره لربِّه[1].

## شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿وَحَاقَ﴾: (حيق) أصلٌ يدلُّ على نزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[2]، ومِن ذلكَ يقالُ: حاقَ بِهِ كذا، أي: نزلَ بِه، وأصابَهُ[3]، وحلَّ بِهِ[4]، والمرادُ بـ ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ هنا: نزلَ بهم، وأحاطَ بهم[5].

2) ﴿يُعۡرَضُونَ﴾: (عرض) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الطّولِ[6]، وأصله أن يقال في الأجسام، ثم يُستعمل في غيرها، ويُطلق على اتِّساعِ ما يواجهُ النّاظرَ مِنَ الشَّيءِ الكثيفِ[7]، ومِن ذلكَ يقالُ: أعرضَ الشَّيءُ، أي: بدا عَرْضُهُ، وعَرَضْتُ الشَّيءَ على البيعِ وعلى فلانٍ، أي: أظهرتُهُ لهُ، وأبرزتُهُ إليهِ، كأنّي في ذاكَ قد أريتُهُ عَرْضَهُ[8]، ويُستعمَلُ في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 80.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيق).
(3) الراغب، المفردات: (حيق).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (حيق).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 562، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 157.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عرض).
(8) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (عرض).

إظهارِ شيءٍ لِمَن يراهُ لترغيبٍ أو لتحذيرٍ، ومعنى عرضِهم على النّار: أنَّ أرواحَهم تشاهد المواضعَ الَّتي أُعِدَّت لها في جهنَّمَ[1].

3) ﴿غُدُوًّا﴾: (غدو) أصلٌ يدلُّ على زمانٍ[2]، والغَدْوةُ والغَداة والغُدوُّ بمعنًى، وهو مِن أوَّلِ النَّهارِ إلى الزَّوالِ[3]، ويقابل بالعشيِّ وبالآصال، قال تعالى: ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ [الأنعام: 52]، وقال تعالى: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الأعراف: 205].

4) ﴿وَعَشِيّٗاۚ﴾: (عشو) أصلٌ يدلُّ على ظلامٍ وقلَّةِ وضوحٍ في الشَّيءِ[4]، والعَشيُّ مِن زوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباحِ[5]، والعشاء: من صلاة المغرب إلى العتمة، والعشاءان المغرب والعتمة.

## ❁ المَعنى الإجماليُّ:

نـجـاةُ المُـحِـقِّ وهلاكُ المُبطِلِ

يُخبرُ اللّهُ تعالى عن حمايتِه للمؤمنِ، وإنزالِ العذابِ بآلِ فرعونَ، فيقولُ: فدفعَ اللّهُ عن هذا المؤمنِ من آلِ فرعونَ ما كانَ يريدُ آلُ فرعونَ أن يوقِعوهُ به مِنَ العذابِ والبلاءِ، فنجّاهُ منهُ، وحلَّ بأتباعِ فرعونَ ما فيهِ خِزْيُهم مِن عذابِ اللّهِ، وهو الغرقُ في الدُّنيا، ثمَّ بيَّن عذابَهم في البرزخ بعرضهم على النّارِ في الغُدوِّ والعَشيِّ، ويومَ القيامةِ يُدخَلونَ نارَ جهنَّمَ الَّتي أُعِدَّت للكافرينَ[6].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### دلالةُ التَّعبير بالفاء في ﴿فَوَقَىٰهُ﴾:

كمالُ التَّفويض لـلـه وصـدق الـتَّـوكُّـل سبب الحفظ والوقاية

الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾ فصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن كلامٍ محذوفٍ يدلُّ عليهِ السّياقُ، وذلكَ أنَّهُ لمّا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 158.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غدو).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (غدو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عشو).
(5) الراغب، المفردات: (عشو).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 395، والمراغي، تفسير المراغي: 24/ 77.

صرَّحَ المؤمنُ بتقريرِ الحقِّ؛ قصدوهُ بأنواعِ السّوءِ، ومكروا بهِ[1]، والَّذي يدلُّ على ذلكَ الإشارةُ الَّتي في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾[2]، والتَّقديرُ: لمّا توعَّدوهُ بالأذى والقتلِ، وقصدوهُ بهما؛ هربَ منهُم، فلم يَقْدِروا عليهِ، فوقاهُ اللّهُ[3]، وهذا ضربٌ بليغٌ مِنَ الإيجازِ.

### بلاغةُ التَّعبيرِ بالوِقايةِ:

المؤمنُ مُحاطٌ بعنايةِ اللهِ

اختيرَ لفظُ الوِقايةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾؛ لدلالتِهِ على أنَّ المؤمنَ قد صارَ مُحاطًا بهذهِ الوِقايةِ والحمايةِ، وحالَتْ بينَهُ وبينَ ما أرادوا بهِ مِنَ الكيدِ والمكرِ والأذى[4]، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التَّنويهِ بشأنِ الإيمانِ وأهلِهِ.

### نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿فَوَقَىٰهُ﴾:

عنايةُ اللهِ بالدُّعاةِ إليهِ مُتحقِّقةٌ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذهِ الوِقايةَ قد تحقَّقَتْ، ومضَتْ، كما هو شأنُ الأحداثِ الماضيةِ، وفيها تقويةٌ لعزائمِ الدُّعاةِ إلى اللّهِ ﷻ بأنَّ اللّهَ يُنجي عبادَهُ المؤمنينَ المتوكِّلينَ عليهِ.

### نكتةُ إظهارِ اسمِ الجلالةِ:

الألوهيَّةُ الحقيقيَّةُ تملكُ الوقايةَ لأهلِ الإيمانِ

جيءَ باسمِ الجلالةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ﴾؛ لدلالةِ هذا الاسمِ على جميعِ صفاتِ الكمالِ، ومنها القدرةُ الَّتي بها يردُّ كيدَ الكائدينَ، والمعنى: جعلَ لهُ سبحانَهُ وِقايةً تُجنُّهُ منهُم بما لَهُ سبحانَهُ مِنَ الجلالِ والعظمةِ والكمالِ؛ جزاءً على تفويضِهِ الأمرَ إليهِ[5].

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 521، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 157.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 166.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 493.
(4) أبو موسى، آل حم، ص: 167.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 80.

وفيه توبيخٌ لفرعون على ادِّعائه الألوهيَّة؛ لأنَّه لا يملك وقاية لنفسه ولا لغيره.

**بلاغةُ التَّعبيرِ بالسَّيِّئاتِ:**

يسلك المشركون كلَّ قبيح للصَّدِّ عن سبيل الله تعالى

عُبِّرَ بالسَّيِّئاتِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾؛ للتَّنبيهِ على شنيع صنيعهم ومكرهم به؛ لأنَّ السَّيِّئَةَ في الأصلِ: الفَعْلَةُ القبيحةُ[1]، والسّوءُ: كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ مِنَ الأمورِ الأُخرويَّةِ والدُّنيويَّةِ[2]، وهذا ماسلكه قوم فرعون مع الرَّجل المؤمن، فجاء التَّعبير بالسَّيِّئات مطابقًا لسلوكهم.

**نكتةُ جمعِ السَّيِّئاتِ مع إفراد المكر:**

كثرةُ أذى المشركينَ ومكرِهم

جيءَ بصيغةِ الجمعِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾؛ للتَّنبيهِ على تعدُّدِ أنواعِ مكرِهم الَّتي بيَّتوها[3]، وأنَّهم قد قصدوا إلحاقَ أنواعِ العذابِ بمَن خالفَهم[4]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على شدَّةِ حِقْدِهم وعنادِهم للحقِّ، وأفرد المكر مع جمع السَّيّئات؛ لأنَّ المراد جنس المكر، أو للدَّلالة على أنَّ لمكرهم الواحد شدائد كبيرة[5].

**دلالةُ التَّعبير بـ ﴿مَا﴾:**

احتمالُ المصدريَّةِ والموصوليَّةِ

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بـ ﴿مَا﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ دون غيرها لتعدُّد معناها، فيجوز أن تكون مصدريَّةً، والمعنى: فوقاهُ اللّهُ سيِّئاتِ مكرِهم[6]، ويحتملُ أن تكونَ موصولةً بمعنى الَّذي، أي: فوقاهُ اللّهُ سيِّئاتِ الَّذي مكروهُ[7].

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (سوء).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (سوء).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 278، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 157.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 170.
(5) القونوي، حاشية القونوي: 17/ 72.
(6) الزمخشري، الكشاف: 4/ 170، والخفاجي، عناية القاضي: 7/ 347.
(7) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 493.

وفي هذين المعنيين دلالةٌ على عظيم مكرهم، وأنَّه كان ملازمًا لأفعالهم وطباعهم.

**غرضُ الإضافةِ في** ﴿سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾:

فعلُ الكافرينَ في مقابلة الإيمان سوءٌ وشناعةٌ

الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ بيانيَّةٌ، وهي هنا في قوَّةِ إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ؛ لأنَّ المكرَ سيِّئٌ[1]، وذِكرُ السوء مضافًا إلى المكر - مع أنَّ المكر لا يكون إلّا سيِّئًا - لتأكيد فظيع مكرهم، وشناعة كيدهم بالرَّجل المؤمن.

**نكتةُ صيغةِ الماضي في** ﴿مَكَرُواْ﴾:

إنجاءُ المؤمنِ من خَطَرٍ مُحقَّقٍ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مكرَهم قد مضَى، وتحقَّقَ قبلَ أن يُنجيَ اللّهُ تعالى المؤمنَ منهُم، فإنجاؤُهُ كانَ مِن خَطَرٍ داهمٍ مُحقَّقٍ.

**بلاغةُ اللَّفِّ والنَّشْرِ:**

الإخبارُ بوقايةِ اللهِ أهمُّ وأجدرُ بالتَّقديمِ

قولُه تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ راجعٌ إلى قولِهِ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، وقولُهُ: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ راجعٌ إلى قولِه: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ﴾، وقد قُدِّمَ ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ الرّاجعُ إلى المتأخِّرِ - وهو ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ - على طريقةِ اللَّفِّ والنَّشْرِ غيرِ المُرتَّبِ؛ لأنَّ الأهمَّ هو الإخبارُ بوقايةِ اللّهِ لهُ مِن سوءِ مكرِهم، وليتفرَّغَ الكلامُ للحديثِ عن تفاصيل ما حاقَ بآلِ فرعونَ؛ لأنَّ كلَّ ما سيأتي بعدَ ذلكَ هو تفصيلٌ لجملةِ: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾[2].

**دلالةُ الواوِ في قوله:** ﴿وَحَاقَ﴾:

لا يحيقُ المكرُ السَّيِّئُ إلّا بأهلِه

الظّاهرُ أنَّ الواوَ في قولِه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾، وفي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 157.
(2) محمد أبو موسى، آل حم، ص: 167.

هذا العطفِ إيماءٌ إلى أنَّ المكرَ السَّيِّئَ لا يحيقُ إلّا بأهلِهِ[1]؛ إذ ذُكِرَ نزولُ العذابِ بالماكرينَ بعدَ ذِكرِ إنجاءِ المكورِ بِهِ.

### سرُّ التَّعبير بـ(حاق) دون نزل:

الفعل (حاق) أنسبُ بمقامِ نزولِ المكروه

أوثرَ التَّعبيرُ بالفعل (حاق) في قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ دون (نزل)؛ لوجود فرق بينهما، فالنُّزولُ عامٌّ في كلِّ شيءٍ، يقالُ: نزلَ بالمكانِ، ونزلَ بهِ الضَّيفُ، ونزلَ بهِ المكروهُ، ولا يقال حاق إلّا في نزول المكروه[2]، والحوق يدلُّ على الإحاطة بالشَّيء، فلمّا كان المقام في ما حلَّ بآل فرعون من العذاب؛ عُبِّرَ بالحَوْقِ؛ لدلالتِهِ على إحاطةِ العذابِ بهِم مِن جميعِ الجوانبِ، وأنَّهم مواقِعوهُ لا محالةَ.

فالتَّعبير بالفعل (حاق) يجوز حمْلُه على المعنيين: نزولِ العذاب بهم، وهو الغرق في الدُّنيا، وإحاطته بهم في الآخرة.

### نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿وَحَاقَ﴾:

الكفرةُ بينَ العذابِ العاجلِ والعذابِ الآجلِ

أوثرَ التَّعبيرُ بالفعل الماضي (حاق) في قولِهِ تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ دون المضارع؛ لأنَّ الفعلَ يدلُّ على أمرين في تفسير سوء العذاب؛ فمنه ما حاقَ بهم، كالإغراقِ وعرضِهم على النّارِ، ومنهُ ما لم يَحِقْ بهِم بعدُ، كدخولِهم النّارَ المُرجَأِ إلى يومِ القيامةِ، فيكون بعضُ معنى الفعلِ على الحقيقةِ، وبعضُهُ على أساسِ أنَّ ما هو للوقوعِ كالواقعِ[3].

### دلالةُ الباءِ في ﴿بِـَٔالِ﴾:

لا انفكاكَ للكافرينَ عن العذابِ

الباءُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ للتَّعديةِ، أو للإلصاقِ، فتفيدُ أنَّ نزولَ سوءِ العذابِ بهِم قد اقترنَ بالإحاطةِ مِن جميعِ الجوانبِ، حتَّى كأنَّهُ التصقَ بهِم، فلا انفكاكَ لهُم عنهُ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 80.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 304، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 562.

(3) محمد أبو موسى، آل حم، ص: 173.

كلُّ مَن اتَّبع الظّالمين فهو في حكمهم

### نكتةُ التَّعبيرِ بالآلِ دونَ الأهلِ:

عُبِّرَ بالآلِ دونَ الأهلِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ لأنَّ (آل) لا تُطلق إلّا على الأتباع كلِّهم مع إيمانهم بالمتبوع واتِّباع منهجه وسيرته؛ فإذا كان المتبوع من الكفرة؛ كان المرادُ من الآل كلَّ أتباعه الموالين له، وهذا هو المراد في قوله: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ حيث يُعنى بهم كلُّ مَن اتَّبعه؛ لذا عُبِّر بالآل[1].

قائدُ الضّالّين أولى بالعذابِ

### سرُّ الاقتصارِ على ذِكرِ آلِ فرعونَ دون ذكرِه:

اقتُصِرَ على آلِ فرعونَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾، ولم يُذكَر فرعونُ؛ استغناءً بذكرِهم عن ذكرِهِ؛ للعلم بأنَّهُ أولى بذلكَ بدلالةِ النَّصِّ[2]؛ لأنَّهُ المُضلُّ لهُم[3]، ولأنَّ العادةَ قد جرَتْ أنَّهُ لا يوصَلُ إلى جميعِ أتباعِ الإنسانِ إلّا بعدَ إذلالِهِ وأخْذِهِ[4]، وفي هذا بيانٌ لخطرِ التَّبعيَّةِ الَّتي تتعصَّبُ فيها العقولُ والقلوبُ، ولبيانِ أنَّ مَنِ استجابَ الدَّعوةَ الباطلةَ يصيرُ لا فرقَ بينَهُ وبينَ مَن دعا إلى باطلٍ، والعذابُ جامعٌ وشاملٌ للجميعِ، ولا فرقَ بينَ فرعونَ ومَن دخلَ في دينِ فرعونَ[5].

التَّبعيَّةُ فقْدٌ للهويَّةِ

### بلاغةُ الإضافةِ في ﴿بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ﴾:

في إضافةِ الآلِ إلى فرعونَ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ تنبيهٌ على أنَّهم فقدوا ذواتَهم الَّتي بها يستقلّونَ، ولذلكَ جُعِلوا جميعًا آلَ فرعونَ، ونُسِبوا إليه، ولم يُنسَبوا إلى آبائِهم، كما يقالُ: آلُ فلانٍ الَّذي هو جدُّهم، وإنَّما نُسِبوا هنا إلى فرعونَ؛ لأنَّهم اتَّبعوهُ، والتزموا أوامره، واعتقدوا صِدقه، فصار مصيرهم في العذاب كمصيره.

---

(1) عبدالجبار فتحي، الفروق اللغوية في القرآن، ص: 9.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 72.

(3) أطفيش، تفسير أطفيش: 9/ 251.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 80.

(5) محمد أبو موسى، آل حم، ص: 168، 171.

**دلالة تقديمِ ﴿بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ على الفاعلِ:**

تعجيلُ مسرَّة المؤمنين بنزول العذاب بالكافرين

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ على الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ للاهتمامِ بكونِ نزولِ العذابِ مُتعلِّقًا بآلِ فرعونَ، ولتعجيلِ المَسَرَّةِ بنزولِ العذابِ بهم، ولِمَا في تأخيرِ ﴿سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ مِنِ اتِّصالِ المُبيَّنِ - وهو سوءُ العذابِ - ببيانِهِ - وهو النّارُ - على بعضِ الأقوالِ.

**بلاغةُ الإضافةِ في ﴿سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾:**

عذابُ آلِ فرعونَ عذابٌ شديدٌ

الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ بمعنى اللّامِ، أي: السّوءُ الَّذي هو العذابُ؛ لأنَّ السّوءَ يكونُ عذابًا وغيرَ عذابٍ، أو بيانيَّة، أي: سوءٌ هو العذابُ، أو إضافةُ صفةٍ لموصوفٍ، أي: العذابُ السّوءُ[1].

**سرُّ التَّعبير بسوء العذاب عن الإغراق:**

جُمِع لفرعون وآله من العذاب أسوؤه وأشدُّه

أوثر التَّعبيرُ بسوء العذاب عن الإغراق؛ لأنَّه مضمَّن فيه باعتباره أنَّه أوَّل ما حاق بآل فرعونَ من العذاب؛ أو لأنَّ الغريق يُعذَّب باحتباس النَّفَس مدَّة، وهو يطفو على الماء، ويغوص فيه، ويرعبه هول الأمواج، وهو موقن بالهلاك، ثم يكون عرضة لأكل الحيتان حيًّا وميِّتًا، وذلك ألمٌ في الحياة، وخزيٌ بعد الممات، يُذكر به بين النّاس[2].

**سرُّ التَّعبيرِ بالعذابِ ونكتة تعريفه:**

المعذَّبونَ منقطعونَ عن كلِّ لذَّةٍ

عُبِّرَ بالعذابِ في قولِه تعالى: ﴿سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ لِما فيهِ مِنَ الدَّلالةِ على العقوبةِ المانعةِ من كلِّ مُستعذَبٍ[3]، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِن تهويلِ ما أصابَهم، وتعريفه للعهد؛ لأنَّه مشهور ومعلوم على أنَّ المراد به الغرق، أو عذاب الدُّنيا بالغرق والآخرة بالنّار.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 325، وأطفيش، تفسير أطفيش: 9/ 251.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 158.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 81.

### سرُّ فصل قوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾:

النّارُ هي سوءُ العذابِ

فُصِلت جملة: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها جملة استئنافيَّة، كأنَّ قائلًا قالَ: ما سوءُ العذابِ؟ فقيلَ: هو النّارُ، أو لأنَّها بدلٌ من الجملة قبلها[1]. فالفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ، وفي هذا تعظيمٌ للنّارِ وتهويلٌ مِن عذابِها[2].

### نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلنَّارُ﴾:

نارُ الآخرةِ مآلُ آلِ فرعونَ

تعريفُ ﴿ٱلنَّارُ﴾ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾ للعهدِ؛ إذ المرادُ بها نارٌ مخصوصةٌ، وهي نارُ الآخرةِ.

وفي هذا إشارة إلى توبيخ آل فرعون على جرائمهم في تعذيب أهل الإيمان، بأنَّ ما ينتظرهم هو العذاب الأليم الذي لا يملك فرعون ولا آله منْعَهم منه.

### بلاغةُ التَّعبيرِ بالعرضِ:

الكلامُ استعارةٌ بالكنايةِ أو تمثيليَّةٌ

العرضُ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ استعارةٌ بالكنايةِ، شُبِّهَتِ النّارُ بعاقلٍ يُعرَضُ عليهِ الشَّيءُ، فيقبلُهُ، أو يردُّهُ، فرُمِزَ لذلكَ التَّشبيهِ بالعرضِ، وهو استعارةٌ تخييليَّةٌ، أو الكلامُ استعارةٌ تمثيليَّةٌ، كقولِهم: عرضَ الإمامُ الأسرى على السَّيفِ؛ إذا قتلَهم بهِ، والمرادُ إحراقُهم بها[3]، أو من تشبيه حالِهم بحالِ متاعٍ يُبْرَزُ لَمَن يريدُ أَخْذَهُ، وفي ذلكَ جعْلُ النّارِ كالطّالبِ الرّاغبِ فيهم؛ لشدَّةِ استحقاقِهم الهلاكَ[4]، وذهب ابن عاشور إلى أنَّ التَّعبير جاء على مقتضى الظّاهر؛ إذ استعمل العرض في معنى الإمرار، كما يقال: عُرِض الجيش على أميره، واستعرضه الأمير، ومعنى عَرْضِهم على النّار

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 158.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 170.

(3) أطفيش، تفسير أطفيش: 9/ 252، ومحمد أبو موسى، آل حم، ص: 169.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 326.

أنَّ أرواحهم تشاهد المواضع التي أُعِدَّت لهم في جهنَّم، وهذا ما بيَّنه الحديث: "إنَّ أحدكم إذا مات؛ عُرِض عليه مقعدُهُ بالغداة والعشيِّ، إن كان من أهل الجنَّة؛ فمن أهل الجنَّة، وإن كان من أهل النّار؛ فمن أهل النّار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك اللّه يوم القيامة"[1].

### بلاغةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿يُعۡرَضُونَ﴾:

استمرارُ العرضِ على النّارِ وتجدُّدُهُ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ العرضِ وتجدُّدِهِ، والجمهورُ على أنَّ هذا العرضَ يكونُ في البرزخِ[2]، وهو عرضٌ لأرواحِهم[3].

### نكتةُ بناءِ ﴿يُعۡرَضُونَ﴾ للمفعولِ:

جيءَ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾؛ للعلمِ بالفاعلِ، وهو اللّهُ تعالى أو الملائكةُ الموكَّلونَ بذلكَ، ولبيانِ أنَّ المقصودَ فعلُ العرضِ.

### بلاغةُ ذكرِ الغُدوِّ والعَشيِّ:

دوامُ عرْضِهم على النّارِ إلى قيامِ السّاعة

خصَّ القرآن الكريم ذِكْرَ هذين الوقتين ﴿غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾؛ لأنَّهما كنايةٌ عن الدَّوامِ؛ لأنَّ الزَّمانَ لا يخلو عن هذينِ الوقتينِ ما دامَتِ الدُّنيا، فإذا قامَتِ السّاعةُ؛ أُدخِلوا أشدَّ العذابِ[4].

ويجوزُ أن يكونَ ذِكرُ الغُدوِّ والعَشيِّ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾؛ لبيانِ أنَّهم في هذينِ الوقتينِ يُعذَّبونَ بالنّارِ، وفيما بينَ ذلكَ اللّهُ أعلمُ بحالِهم، فإمّا أنْ يُعذَّبوا بجنسٍ آخرَ مِنَ العذابِ، أو يُنفَّسَ عنهُم.

---

(1) وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 159.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 318.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 326.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 170، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 59، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 159.

### نكتةُ تنكيرِ الغُدوِّ والعَشيِّ:

تنكيرُ ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ للعموم بمعونةِ المقام، أي: في كلِّ غُدوٍّ وعَشيٍّ مِن أيّامِ الدُّنيا يُعرَضُ آلُ فرعونَ على النّارِ[1].

### غرضُ تقديمِ الغُدوِّ على العَشيِّ:

قُدِّمَ الغُدوُّ على العَشيِّ في قولِهِ جلَّ مِن قائل: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾؛ مراعاةً للأسبقِ في الزَّمنِ؛ إذ الغُدُوُّ يكونُ قبلَ العَشيِّ.

### بلاغةُ الطِّباقِ بينَ الغُدوِّ والعَشيِّ:

العرضُ محيطٌ مستغرقٌ وقتَ آلِ فرعونَ

في الجمعِ بينَ الغُدوِّ والعَشيِّ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ رعايةٌ لمُحسِّنٍ معنويٍّ، وهو الطِّباقُ، فيُصوِّرُ الكلامُ وقتينِ مختلفينِ يُعرَضُ فيهما آلُ فرعونَ على النّارِ، ويشيرانِ إلى أنَّ العرضَ محيطٌ بأوَّلِ وقتِهم وآخرِهِ.

### سرُّ التَّعبيرِ بالواوِ في ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾:

جمَعَ آلُ فرعونَ بينَ العذاب الدُّنيويِّ والأُخرويِّ

أوثِرَ التَّعبيرُ بالواو في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ دون غيرها؛ لاحتمال أن تكون عاطفةً لقوله: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ على الظَّرفينِ قبلَهُ ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، فيكون معمولًا لـ ﴿يُعۡرَضُونَ﴾، فالوقفُ على هذا على قولِهِ: ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾، و﴿أَدۡخِلُوٓاْ﴾ معمولٌ لقولٍ مُضمَرٍ، أي: يقالُ لهُم: كذا وكذا[2]، ففي العطفِ جمعٌ لآلِ فرعونَ بينَ عذابٍ دنيويٍّ وبينَ عذابٍ أُخرويٍّ.

ويجوز أن تكون الواو استئنافيَّة، ويكون الظَّرف (يوم) معمولًا لقولٍ مُضمَرٍ محكيٍّ بِهِ الجملةُ الأمريَّةُ، والتَّقديرُ: ويقالُ لهُ يومَ تقومُ السّاعةُ: أدخِلوا، ويجوز أن يكون منصوبًا بـ ﴿أَدۡخِلُوٓاْ﴾، أي: أدخلوا يومَ تقومُ، وعلى هذينِ الوجهينِ فالوقفُ تامٌّ على قولِهِ: ﴿وَعَشِيًّا﴾.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 562.

(2) السمين، الدر المصون: 9/ 485.

### نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿تَقُومُ﴾:

قيامُ السّاعةِ هولٌ عظيمٌ في حدثٍ مستقبليٍّ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ لأنَّ قيامَ السّاعةِ أمرٌ يكونُ في المستقبلِ، وصيغةُ المضارعِ تدلُّ على ذلكَ بمعونةِ المقامِ، وفي التَّعبير بالمضارع دعوةٌ لاستحضار صورة هول قيام السّاعة.

### سرُّ التَّعبيرِ بالسّاعةِ دونَ غيرِها من أسماء يوم القيامة:

ملاءمةُ السّاعةِ لتحديدِ وقتِ بدايةِ العذابِ الأُخرويِّ

عُبِّرَ عن القيامةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ بقيام السّاعةِ - مع أنَّ للقيامةِ أسماءً كثيرةً، كالطّامَّةِ، والصّاخَّةِ، والحاقَّةِ، والقارعةِ، وكلُّها أسماءٌ أشدُّ تخويفًا مِن قيام السّاعةِ - لأنَّ المرادَ تحديدُ الوقتِ الَّذي يُنقَلُ فيهِ آلُ فرعونَ مِن حالةٍ يُعرَضونَ فيها على النّارِ إلى حالةِ دخولِهم أشدَّ العذابِ، فناسبَ ذِكرُ السّاعةِ الَّتي هي نصٌّ في تحديدِ الوقتِ[1].

### سرُّ العدولِ عن المضارعِ إلى الأمرِ:

شــدَّةُ غضبِ الجبّارِ على آلِ فرعونَ

قيلَ: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾، ولم يقل: (يدخلُ آلُ فرعونَ)، كما قيلَ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾، وإنَّما عُدِلَ إلى فعلِ الأمرِ الصّادرِ مِنَ اللهِ تعالى؛ للدَّلالةِ على مزيدِ الغضبِ، ويُقوّي هذهِ الدَّلالةَ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾[2].

### سرُّ التَّعبيرِ بالأشَدّيَّةِ:

انتقالُ الكفرةِ مِن شاقٍّ إلى أشَقَّ

عُبِّرَ بالأشدّيَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ لأنَّ عذابَ جهنَّمَ أشدُّ ممّا كانوا فيهِ في الدُّنيا والبرزخِ، أو المرادُ أنَّهم يُدخَلونَ أشدَّ عذابِ جهنَّمَ؛ فإنَّ عذابَها ألوانٌ بعضُها أشدُّ من بعضٍ[3]، وأيًّا ما كانَ؛ ففي الكلامِ تنبيهٌ على أنَّهم ينتقلونَ مِن شاقٍّ إلى أشقَّ منهُ.

---

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 170.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 172.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 59، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 279.

### نكتةُ تعريفِ العذابِ:

تعريفُ العذابِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ للعهدِ[1]؛ إذ المرادُ بِهِ العذابُ الَّذي يكونُ في الآخرةِ.

### دلالة جملة: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾:

استدلَّ البعض بهذه الآية على عذاب القبر؛ لأنَّ هذا العرض ليس في الدُّنيا، وليس في القيامة، وإنَّما هو في القبر، وهو عذاب - لا محالة - ويؤكِّد هذا قوله: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ﴾، فإنَّه يدلُّ على أنَّ العرض المذكور في قوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾ إنَّما هو في حياة البرزخ[2].

## ❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### المكرُ والكيدُ:

التَّآمرُ في السِّرِّ عادةُ المجرمينَ

المَكْرُ مِثلُ الكَيْدِ في أنَّهُ لا يكونُ إلّا معَ تدبُّرٍ وفِكْرٍ، إلا أنَّ الكَيْدَ أقوى منَ المَكْرِ؛ لأنَّهُ يتعدَّى بنفسِهِ، والمَكْرَ يتعدَّى بحرفٍ، فيقالُ: كادَهُ يَكيدُهُ، ومَكَرَ بِه، ولا يقالُ: مَكَرَهُ، والَّذي يتعدَّى بنفسِهِ أقوى، والمَكْرُ إلحاقُ الضَّرَرِ بالغيرِ دونَ إعلامٍ لهُ بهِ، والكَيْدُ إيقاعُ المكروهِ بالغيرِ سواءٌ عَلِمَ أو لا[3]، وقد عُبِّرَ بالمكرِ هنا؛ لأنَّ آلَ فرعونَ كانوا يريدونَ إيقاعَ الأذى بالمؤمنِ دونَ أن يشعرَ[4].

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 374.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 522.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 508.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 157.

﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ٤٨﴾

[غافر: 47 - 48]

## مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قبلَهُما:

ذِكرُ مناظراتِ أهلِ النّارِ

لمّا كانت الآياتُ السّابقة في شرحِ أحوالِ أهلِ النّارِ؛ عُقِّبَ في هذه الآياتِ بذكرِ المناظراتِ الَّتي تَجْري فيها بينَ الرُّؤساءِ والأتباعِ من أهلِ النّارِ[1].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَحَآجُّونَ﴾: (حجج) أصلٌ يدلُّ على القصدِ، ومِن ذلكَ: الحُجَّةُ، وهي الدَّلالة المبينة للمحجَّة، والمراد المقصد المستقيم الذي يقتضي صحَّة أحد النَّقيضين، كقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ﴾ [الأنعام: 149]، وتُطلق على وجهِ الظَّفَرِ عندَ الخصومةِ، وسُمّيَتْ بذلكَ؛ لأنَّها تُقصَدُ، أو بها يُقصَدُ الحقُّ المطلوبُ[2]، والمُحاجَّةُ: أن يطلبَ كلُّ واحدٍ أنْ يردَّ الآخرَ عن مَحَجَّتِهِ[3]، والمرادُ بالمُحاجَّةِ هنا: التَّحاوُرُ بالحُجَّةِ[4]، وهي تقتضي وقوعَ خلافٍ بينَ المتحاجّينَ؛ إذ الحُجَّةُ تأييدٌ لدعوى؛ لدفعِ الشَّكِّ في صحَّتِها[5].

2) ﴿تَبَعٗا﴾: (تبع) أصلٌ يدلُّ على التِّلْوِ والقَفْوِ[6]، ومِن ذلكَ:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 522، والنيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 38.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حجج).
(3) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (حجج).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 563، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 262.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 160.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).

الاتِّباعُ، وهو اقتفاءُ الأثَرِ[1]، يقالُ: تَبِعَهُ، واتَّبَعَهُ؛ إذا قَفا أثَرَهُ، وذلكَ يكونُ تارةً بالجسم، وتارةً بالائتمارِ، كاتِّباعِ الهدى[2]، والتّابعُ: مَن يقفو أثَرَ غيرِهِ، والمرادُ بالتَّبَعِ هنا: الأتباعُ[3]، وهو جمعُ تابعٍ، أو هو مفردٌ يوصَفُ بِهِ الجمعُ[4].

3) ﴿مُّغْنُونَ﴾: (غني) أصلٌ يدلُّ على الكفايةِ[5]، ويقالُ: غَنيتُ بكذا، واستغنيتُ، وتغنَّيتُ، وتغانيتُ، ويقالُ: أغناني كذا، وأغنَى عنّي كذا؛ إذا كفاني، ومِن ذلكَ: الغِنى، وهو يقالُ على أنواعٍ: أحدُها: عدمُ الحاجاتِ، وذلكَ لا يكونُ إلّا للّهِ تعالى. والثّاني: قلَّةُ الحاجاتِ. والثّالثُ: كثرةُ القُنْياتِ، ومعنى ﴿مُّغْنُونَ﴾ هنا: متحمِّلونَ ودافعونَ[6].

4) ﴿نَصِيبًا﴾: (نصب) أصلٌ يدلُّ على إقامةِ شيءٍ في استواءٍ، ومِن ذلكَ: الأنصابُ، وهي حجارةٌ تُنصَبُ، وتُصَبُّ عليها دماءُ الذَّبائحِ[7]، والنَّصيبُ: الحظُّ مِنَ الشَّيءِ، يقالُ: هذا نصيبي، أي: حظّي، كأنَّهُ الشَّيءُ الَّذي رُفِعَ لكَ، وعُيِّنَ[8]، وهو المرادُ هنا[9].

## ❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيـانُ تخاصم أهل النّار

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن حالٍ مِن أحوالِ المعذَّبينَ في النّارِ مِنَ الأتباعِ والمتبوعينَ، فيقولُ: وإذ يتخاصمُ المشركونَ في النّارِ، فيقولُ الضُّعَفاءُ لرؤسائِهم في الشِّركِ: إنّا كنّا لكُم في الدُّنيا تَبَعًا؛ إذ أطعناكم فيما دعوتمونا إليه من الكفرِ باللّهِ، فهل أنتم رادّونَ ومتحمِّلونَ اليومَ عنّا جزءًا مِن عذابِ النّارِ؟

---

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (تبع).
(2) الراغب، المفردات: (تبع).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 83.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 563.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 321، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 215.
(7) الزمخشري، أساس البلاغة: (نصب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (نصب).
(9) المراغي، تفسير المراغي: 24/ 78، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 161.

فأجابَهم المتبوعونَ الرُّؤساءُ: إنّا أيُّها القومُ وأنتم كلُّنا في هذهِ النّارِ مخلَّدونَ، لا خلاصَ لنا منها، إنَّ اللّهَ قد قضَى بينَ الخلقِ، فأسكنَ أهلَ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلَ النّارِ النّارَ، فلا مَطْمَعَ لنا في الخلاصِ[1].

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### بلاغةُ عطفِ ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ﴾:

المُحاجَّةُ مشهدٌ مِن مشاهدِ أحوالِ المُعذَّبينَ

الواو في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ عاطفة، وفي (إذ) بعدها أوجهٌ: **أحدُها**: أنَّهُ معطوفٌ على ﴿غُدُوّٗا﴾، فيكونُ معمولًا لـ ﴿يُعۡرَضُونَ﴾، أي: يُعرَضونَ على النّارِ في هذهِ الأوقاتِ كلِّها. **الثّاني**: أنَّهُ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ﴾ [غافر: 18]، وفيهِ نظرٌ؛ لبُعدِ ما بينَهما. **الثّالث**: أنَّهُ منصوبٌ بإضمارِ (اذكُرْ)، فيكون معطوفًا على جملة: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ [غافر: 18][2].

ويجوزُ أن تكونَ جملةُ: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ عطفًا على جملةِ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ لأنَّ (إذ) و(يومَ) كليهما ظرفٌ بمعنى (حينَ)، فيكون المعنى: وحينَ تقومُ السّاعةُ يقالُ: أدخِلوا آلَ فرعونَ أشدَّ العذابِ، وحينَ يتحاجُّ أهلُ النّارِ، فيقولُ الضُّعَفاءُ إلخ[3].

### معنى (إذْ):

المحاجَّةُ أمرٌ مستقبليٌّ

(إذ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ ظرفٌ، ومعناها هنا الاستقبالُ[4]؛ لأنَّ هذهِ المحاجَّةَ أمرٌ مستقبليٌّ، يكونُ يومَ القيامةِ، وفيه أيضًا تهويلٌ وتفظيعٌ بذكرِ صورةٍ من صورِ العذابِ والمهانةِ للمشركينَ والظّالمينَ في النّارِ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 398 - 399، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 149.
(2) السمين، الدر المصون: 9/ 486.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 159.
(4) أبو موسى، آل حم، ص: 174.

### سرُّ التَّعبير بالمحاجَّة دون المجادلة:

يلقي الأتباع اللّوم على متبوعيهم لشدَّة أهوال يوم القيامة

أوثِرَ التَّعبيرُ بالمحاجَّة دون المجادلة في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ﴾؛ لوجود فرق بينهما، فالمجادلة تعني شدَّة الخصومة في مراجعة الكلام، بخلاف المحاجَّة فإنَّها تدلُّ على أنَّ كلَّ واحد يريد أن يردَّ الآخر عن حجَّته من خلال الحجَّة والبرهان، وما وقع هنا جاء في سياق محاولة إقامة الضُّعفاء الحجَّة على المستكبرين الذين أضلّوهم في الحياة الدُّنيا بسبب اتِّباعهم لهم.

### نكتةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿يَتَحَآجُّونَ﴾:

تصويرُ حديثِ المحاجَّةِ وكأنَّهُ يُسمَعُ ويُرَى

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ المحاجَّةَ أمرٌ يكونُ في المستقبلِ، ولتصويرِ الحدثِ، وكأنَّهُ بزمانِهِ وحدوثِهِ وتجدُّدِهِ قد انتقلَ إلينا، وكأنَّنا نراهم، ونسمعُهم، وهم يتحاجّونَ[1].

### سرُّ الإضمارِ في ﴿يَتَحَآجُّونَ﴾ دون الإظهارِ:

حَسْرةُ الأتباعِ وعَجْزُ المتبوعِينَ

جاء التَّعبير بالضَّمير في قولِهِ ﷻ: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ﴾ دون الإظهار (آل فرعون)؛ لتعدُّد المراد بالضَّمير؛ فيجوز أن يكون راجعًا إلى جميعِ كفّارِ الأممِ، و تكون الآيةُ ابتداء كلامٍ لا يختصُّ بآلِ فرعونَ[2]، ويجوز أن يعود إلى آلِ فرعونَ الَّذينَ يتحدَّثُ عنهُم السّياقُ[3]، ومحاجَّةُ غيرِهم ثبتَتْ في مواضعَ أُخرى مِنَ القرآنِ الكريمِ، وأيًّا ما كانَ؛ ففي الكلامِ ما لا يخفَى مِن بيانِ حَسْرةِ الأتباعِ وعجزِ المتبوعِينَ.

### بلاغةُ التَّعبيرِ بالمفاعلةِ:

تبادلُ الحُجَجِ بين الأتباعِ والمتبوعين

عُبِّرَ بصيغةِ المفاعلةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ﴾؛ لدلالتِها

---

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 175.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 563.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 262.

على المشاركةِ، والمحاجَّةُ تقتضي طرفينِ يُدلي كلٌّ منهما بحُجَّتِهِ، ويريدُ إقامةَ الحُجَّةِ على الآخرِ.

وفي التَّعبير بالمفاعلة دليلٌ على هول الموقف وشدَّته؛ إذ يتبرَّأ كلٌّ منهما من الآخر، ويريد أن يحمِّله المسؤوليَّة، كما قال تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ الآية [البقرة: 166].

## سرُّ الاقتصارِ على المُحاجَّةِ مِن أحوالِ الكفرةِ في النّارِ:

مناسبةُ المحاجَّةِ لمقصودِ السّورةِ

ذُكِرَ مِن أحوالِ الكفرةِ في النّارِ حالُ محاجَّتِهم - مع أنَّ لهُم أحوالًا كثيرةً أكثرَ ترهيبًا ورَدْعًا، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: 37]، وقولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ٥٠﴾ [إبراهيم: 49 - 50]، وقولِهِ: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١﴾ [الحج: 19 - 21] - لأنَّ سورةَ غافر قد بُنِيَتۡ على ذكرِ الَّذينَ يجادلونَ في آياتِ اللّهِ[1]، فناسبَ أن يُذكرَ هنا ما فيهِ جدالٌ وحِجاجٌ.

## سرُّ التَّعبير بالظرفيَّة ﴿فِي﴾:

لا فائدة من احتجاج مكانُهُ النَّارُ

جيءَ بحرفِ الجرِّ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ النّارَ صارَتۡ ظرفَ مكانٍ لأهلِ هذا الحِجاجِ، ولا مَطۡمَعَ لهُم في الخروجِ منها، وللإيماءِ إلى أنَّ هذا الحِجاجَ لا يُرجَى نفعُهُ؛ فهو بعدَ فواتِ الأوانِ.

## سرُّ التَّعريفِ في ﴿ٱلنَّارِ﴾:

نارُ الآخرةِ مَحلُّ مُحاجَّةِ المشركينَ

تعريفُ النّارِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ للعهدِ؛ إذ المرادُ بها نارٌ مخصوصةٌ، وهي نارُ الآخرةِ، التي حذَّر الأنبياء أقوامهم منها، وعرفوهم أوصافها وشدَّتها، وما فيها من ألوان العذاب.

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 174.

تفصيل تحاجّ الأتباعِ والمتبوعينَ

### معنى الفاءِ في ﴿فَيَقُولُ﴾:

الفاءُ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾؛ للتَّفريعِ وتفصيلِ التَّخاصمِ[1]، فتفيدُ كونَ هذا القولِ ناشئًا عن تحاجِّهم في النّارِ[2]. وفي هذا تفصيلٌ لأمر المحاجَّة بعد الإخبار عنها إجمالًا في قوله: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ﴾، وأسلوب التَّفصيل بعد الإجمال يراد به التَّهويلُ والتَّعظيم[3].

وفيها أيضًا دلالةٌ على مبادرة الضُّعفاء بالقول للمستكبرين لإلزامهم بتحمُّل مسؤوليَّة التَّبعيَّة لهم في الدُّنيا.

تصويرُ ألمِ المتخاصمينَ في النّارِ واستحضاره

### بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿فَيَقُولُ﴾:

جيءَ بكلامِ الضُّعَفاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾ مضارعًا لتصويرِ الحالِ؛ والإشارةِ إلى التَّجدُّدِ؛ لأنَّهُ أقطعُ إلى طولِ خصامِهم؛ لأنَّهُ أشدُّ في إيلامِهم[4].

وفيه إشارةٌ إلى ملاحقة المستضعفين للذين استكبروا، كلَّما رأوهم؛ ألقوا باللّائمة عليهم بكلام يزيدهم حسرة.

احتمالُ العهدِ والعمومِ

### دلالةُ التعريفِ في ﴿ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾:

تعريفُ الضُّعَفاءِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾، إمّا للعهدِ، والمرادُ ضُعَفاءُ قومِ فرعونَ؛ إن كانَ الحِجاجُ بينَ آلِ فرعونَ، وإمّا للعمومِ؛ إن كانَ الحِجاجُ بينَ الضُّعَفاءِ والمستكبرينَ مِن جميعِ الأممِ[5].

قولُ الضُّعَفاءِ مُنْتَهٍ إلى المستكبرينَ

### دلالة اللّامِ في ﴿لِلَّذِينَ﴾:

اللّامُ الجارَّةُ في قولِ الحقِّ عزَّ شأنُهُ: ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ للتَّبليغِ، فتفيدُ أنَّ قولَ الضُّعَفاءِ يَبْلُغُ الَّذينَ استكبروا، وينتهي إليهم؛ إذ هم المقصودونَ بالخطابِ دون غيرهم.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 60.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 160.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 325.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 83.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 279، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 160.

### غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

الاستكبارُ صفةٌ ذميمةٌ فيمن اتَّصف بِها

عُبِّرَ بالموصولِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾، ولم يقل: للمستكبرينَ؛ للتَّسجيلِ عليهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ، وهو الاستكبارُ، وتأكيدِ اتِّصافِهم بِهِ وصدورِهِ منهُم في الدُّنيا، وفيه إشارة إلى أنَّ هذا الاستكبار هو سبب هلاكهم وعذابهم.

### نكتةُ صيغةِ الاستفعالِ في ﴿ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾:

شـدَّةُ تـكـبُّرِ السّادةِ المتبوعينَ

جيءَ بصيغةِ الاستفعالِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾؛ للدَّلالةِ على شدَّةِ تكبُّرِ سادةِ القومِ، فالسّينُ والتّاءُ للمبالغةِ، أي: للَّذينَ تكبَّروا كِبْرًا شديدًا[1]، أو أنَّهم طلبوا الهيبةَ لأنفسهم، وهو من الكِبر، فيكون استفعل للطَّلب، وهو بابها[2].

### علَّةُ حذفِ متعلَّقِ الاستكبارِ:

امتلأت قلوبهم كـبرًا فضلّوا وأضلّوا

حُذِفَ مُتعلَّقُ الاستكبارِ، في قولِهِ تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾، والمراد به الإيمانُ واتِّباعُ الرُّسلِ[3]، أي: استكبروا عن هذينِ الأمرينِ؛ استغناءً بدلالةِ المقامِ عليهِ، وللتَّنبيهِ على أنَّ هؤلاءِ السّادةَ شأنُهم الاستكبارُ، حتَّى كأنَّهم مستكبرونَ عن كلِّ شيءٍ لا يريدونَهُ، فيكون الحذفُ دالًّا على عموم استكبارهم في كلِّ أحوالهم.

### سرُّ تقديمِ التَّبعيَّةِ على طلبِ التَّخفيفِ:

تقديمُ الوسيلةِ على الطَّلبِ

قُدِّم قولُ الضُّعفاء: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾، على طلبِ التَّخفيفِ عنهُم مِنَ النّارِ من باب تقديم الطَّلبِ؛ لقصدِ تعليلِهِ وتذكيرهم بالولاءِ الَّذي بينَهم في الدُّنيا، يُلهِمُهم اللّٰهُ هذا القولَ لافتضاحِ عجزِ المستكبرينَ[4]، ويحتملُ أن يكونَ التَّقديمُ من قبيلِ تقديمِ لَوْمِ أنفسِهم على لَوْمِ المتبوعينَ[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 161، وحبنكة، معارج التفكر ودقائق التدبر: 12/ 387.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/ 94.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 262.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 161.
(5) أبو موسى، آل حم، ص: 178.

### قولُ الضُّعفاء: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ بين الحقيقة والمجاز:

قولُ الضُّعَفاءِ للكُبَراءِ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ يحتملُ أنَّهُ على حقيقتِهِ، فهو ناشئٌ عمّا اعتادوهُ مِنَ اللُّجوءِ إليهم في المهمّاتِ حينَ كانوا في الدُّنيا، فظنّوا أنَّهم يُدبِّرونَ أمورَهم في ذلكَ المكانِ، ولهذا أجابَ الَّذينَ استكبروا بما يفيدُ أنَّهم اليومَ سواءٌ في العجزِ وعدمِ الحيلةِ، ويحتملُ أنَّه ليس مستعمَلًا في حقيقةِ الحثِّ على التَّخفيفِ عنهُم، ولكنَّهُ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ، أي: كنتُم تدعونَنا إلى دينِ الشِّركِ، فكانَتْ عاقبةُ ذلكَ أنّا صِرْنا في هذا العذابِ، فهل تستطيعونَ الدَّفعَ عنّا[1]؟.

### نكتةُ توكيدِ ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾:

عندَ الشِّدَّةِ يتنكَّرُ الصّاحبُ لصاحبِه

تأكيدُ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المتخاصمينَ في أمرٍ شديدٍ، يتبرَّأُ كلٌّ مِنهُم من صاحبِهِ، فكأنَّهُ يُنكِرُ ما بينَهما مِنَ التَّبعيَّةِ[2]، ويحتملُ أن يكونَ التَّأكيدُ للاهتمامِ بالخبرِ[3].

### دلالةُ الماضي في ﴿كُنَّا﴾:

تبعيَّةُ الضُّعَفاءِ للمستكبرينَ راسخةٌ متحقِّقةٌ

جيءَ بفعلِ الكونِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ هذهِ التَّبعيَّةَ قد مضَت، وتحقَّقَت في الدُّنيا، بحيثُ لا ينبغي أن يُشَكَّ فيها، وأنَّها كانت تبعيَّة راسخة فيهم لمتبوعيهم بحيث لا يصدرون إلّا عن رأيهم، ولا يأتمرون إلّا بأمرهم.

### دلالة اللّامِ في ﴿لَكُمۡ﴾:

التّابعُ مملوكٌ للمتبوعِ

اللّامُ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ للملْكِ والاستحقاقِ، فتفيدُ المبالغةَ في تبعيَّةِ الضُّعَفاءِ للمستكبرينَ، حتَّى كأنَّهم بمنزلةِ شيءٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 161.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 83.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 161.

مملوكٍ لهُم، وفي التَّعبير باللّام دلالةٌ على فقدان الضُّعفاء لذاتيَّتهم وشخصيَّتهم، بحيث لا يملكون رأيًا، فكأنَّهم عبيد للمستكبرين.

### غرضُ تقديمِ ﴿لَكُمۡ﴾:

قَصْرُ طاعتهم على المتبوعينَ

قُدِّمَ ﴿لَكُمۡ﴾ على ﴿تَبَعًا﴾ في قولِهِ جلَّ مِن قائلٍ: ﴿كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: كنّا لكُم تبعًا دون غيرِكم[1]، وفي التَّقديم إشارةٌ إلى أنَّ الأتباع كانوا يأملون من متبوعيهم النَّفع والحماية والرِّعاية.

### دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّبَعيَّة في قوله: ﴿تَبَعًا﴾:

الأتباعُ لا يخرجون في طاعتهم عن مراد متبوعيهم

دلَّ التَّعبير بالتَّبعيَّة في قولِهِ تعالى: ﴿كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا﴾ إلى أنَّهم كانوا في عظيمِ الطَّواعيةِ لهُم على قلبِ رجلٍ واحدٍ[2]؛ لأنَّ التَّبَع اسمٌ لِمَن يتبعُ غيرَهُ، يستوي فيهِ الواحدُ والجمعُ، أو لأنَّ أصلَهُ مصدرٌ إمّا بتقدير مضاف، أي: إنّا كنّا لكم ذوي تبعٍ، أي: أتباعًا، أو على التَّجوُّز في الظَّرف، أو الإسناد للمبالغة بجعلهم لشدَّة تبعيَّتهم كأنَّهم عين التَّبعيَّة[3].

### سرُّ حذفِ متعلِّقِ ﴿تَبَعًا﴾:

التّابعُ مُسلِّمٌ زِمامَ نفسِهِ لغيرِهِ

حُذِف مُتعلِّقُ التَّبَعِ في قولِهِ تعالى: ﴿كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا﴾ لظهورِهِ مِنَ السّياقِ، والمرادُ به الشِّركُ، والمعنى: كنّا لكُم تَبَعًا فيما دعوتُمونا إليهِ مِنَ الشِّركِ في الدُّنيا[4]، وللإيماءِ إلى أنَّهم قد سلَّموا لهُم زِمامَ قلوبِهم وعقولِهم في كلِّ شيءٍ.

### دلالةُ الفاءِ في ﴿فَهَلۡ﴾:

لا تُغني نفسٌ عن نفسٍ شيئًا يومَ القيامةِ

دلَّت الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ على السَّببيَّة، فتفيدُ تسبُّبَ طلبِ التَّخفيفِ مِنَ النّارِ عن كونِهم تَبَعًا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 83.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 83.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 327.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 321.

لهُم في الدُّنيا[1]، وإن حُمِلَ الكلامُ على سبيلِ اللَّومِ والتَّوبيخ؛ فالفاءُ تفيدُ أنَّ تبعيَّتَهم لهُم كانتِ السَّببَ فيما هم فيهِ، وأنَّهم لن يُغنوا عنهُم شيئًا[2].

**بلاغةُ الاستفهامِ:**

خذلانُ المتبوعينَ لأتباعِهم

الظّاهرُ أنَّ الاستفهامَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ ليسَ على حقيقتِهِ؛ لأنَّ الأتباعَ يعلمونَ أنَّ الرُّؤساءَ لا يقدرونَ على تخفيفِ العذابِ عنهُم، وإنَّما مقصودُهم من هذا الكلامِ المبالغةُ في تخجيلِ الرُّؤساءِ وإيلامِ قلوبِهم؛ لأنَّهم هم الَّذينَ سعَوا في إيقاعِ هؤلاءِ الأتباعِ في أنواعِ الضَّلالاتِ[3]، فيكون الاستفهام مرادًا منه اللَّومُ والتَّوبيخ.

**بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:**

العنايةُ بدوامِ الإغناءِ وثبوتِهِ

عُبِّرَ بالجملة الاسميَّة في جملة: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾؛ لما تفيدُهُ الجملةُ الاسميَّةُ من الثُّبوت والدَّوام، فعُدِلَ عن الجملةِ الفعليَّةِ إلى الاسميَّةِ؛ لأنَّ العنايةَ بدوامِ الإغناءِ وثبوتِهِ[4]، أي: هل مِن شأنِكم أنَّكم مُغنونَ عنّا؟[5].

**سرُّ تعديةِ ﴿مُّغۡنُونَ﴾ بـ ﴿عَنَّا﴾:**

تضمينُ الإغناءِ معنى الدَّفعِ والرَّدِّ

عُدّي ﴿مُّغۡنُونَ﴾ بـ ﴿عَنَّا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّه ضُمِّن معنى (دافعونَ) و(رادّونَ)، فلذلكَ عُدّيَ إلى المفعول، وهو ﴿نَصِيبٗا﴾[6]، ويكون المعنى: (فهل أنتم اليوم دافعون عنّا من عذاب اللّه شيئًا)؟.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 83.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 175.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 522.
(4) أبو موسى، آل حم، ص: 176.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 161.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 162.

**نكتةُ تنكيرِ ﴿نَصِيبٗا﴾:**

شدَّةُ هَوْلِ الخَطْبِ على أهلِ النّارِ

تنكيرُ ﴿نَصِيبٗا﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ للتَّقليلِ، والمعنى: فهل أنتم مُغنونَ عنّا شيئًا مِنَ النّارِ، وإن قلَّ؟[1] وفي ذلكَ مِن تهويلِ الخَطْبِ ما لا تحيطُ بِهِ العبارةُ.

**دلالة ﴿مِّنَ﴾:**

لا يقدر أحدٌ على دفْعِ شيءٍ من عذاب الله تعالى

دلَّ التَّعبير بـ ﴿مِّنَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ على البيان، وذلك لأنَّ ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ بيانٌ لـ ﴿نَصِيبٗا﴾[2]، ويجوز أن تكون تبعيضيَّة، ويكون المعنى: فهل أنتم مغنون عنّا بعض عذاب النّار؟.

**نكتةُ فصلِ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾:**

عجزُ المستكبرينَ عنِ التَّخفيفِ مِنَ العذابِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافُ كلامٍ جديدٍ جارٍ في مَجْرَى المحاورةِ، والعادةُ في المحاوراتِ الفصلُ[3]، وهذهِ الجملةُ جوابُ سؤالٍ مقدَّرٍ، والمعنى: إنّا نحنُ وأنتم جميعًا في جهنَّم، فكيفَ نُغني عنكم[4]؟

**نكتةُ توكيدِ ﴿إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ﴾:**

اشتراكُ الأتباعِ والمتبوعين في العذاب محقَّق

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ﴾ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ؛ لتحقيقِ مضمونِهِ، وبيانِ أنَّ الأمرَ قد انجزمَ بحصولِ الكلِّ منهُم فيها[5]، أو لتنزيلِ مَن طالبوهم بالغَناءِ عنهُم مِن عذابِ النّارِ - مع مشاهدتِهم أنَّهم في العذابِ مِثلَهم - منزلةَ مَن يحسبُهم غيرَ واقعينَ في النّارِ، وفي هذا التَّنزيلِ ضرْبٌ مِنَ التَّوبيخِ، يقولونَ: ألستُم تروننا في النّارِ مِثلَكم، فكيفَ نُغني عنكم[6]؟.

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 177.
(2) الآلوسي، روح البيان: 12/ 327.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 76، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 162.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 567.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 563.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 83، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 162.

### غرضُ الإخبارِ بـ ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾:

لا ينفع اللّوم عند وقوع العذاب

معنى قولِ المستكبرينَ: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾: نحنُ وأنتم مستوونَ في الكونِ في النّارِ، فكيفَ تطمعونَ أن ندفعَ عنكُم شيئًا مِنَ العذابِ؟ وإن كانَ قولُ الضُّعفاءِ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ توبيخًا ولَوْمًا لزعمائِهم؛ يكونُ قولُ الزُّعماءِ: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ اعترافًا بالغلطِ، أي: دَعوا لَوْمَنا وتوبيخَنا؛ فقد كفانا أنّا معَكم في النّارِ[1].

### دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كُلٌّ﴾ وتنوينه:

الرُّؤساءُ وأتباعُهم مشتركونَ في العذابِ

﴿كُلٌّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ مرفوعٌ بالابتداءِ، وخبرُهُ ﴿فِيهَآ﴾، والجملةُ مِنَ المبتدأِ والخبرِ خبرُ (إنَّ)، وفي التَّعبيرِ بـ ﴿كُلٌّ﴾ تأكيدٌ لكونِ الرُّؤساءِ وأتباعِهم مشتركينَ في العذابِ[2]، فلا تفرقة بين الأتباعِ والمتبوعين.

والتَّنوينُ في﴿كُلٌّ﴾ تنوينُ عِوَضٍ عن المضافِ إليهِ، و التَّقديرُ: إنّا كلُّنا في النّارِ[3].

### مرجعُ الضَّميرِ في ﴿فِيهَآ﴾:

النّارُ مأوَى الظّالمين وأتباعهم

الضَّميرُ المجرورُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ راجعٌ إلى النّارِ، والمعنى: إنّا كلُّنا في النّارِ[4]، وفي التَّعبيرِ بحرفِ الجرِّ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ بيانُ أنَّ النّارَ قد صارَتْ لهُم مُستقرًّا.

### سرُّ فصلِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾:

كلُّ فريقٍ مَجزيٌّ بما يستحقُّ

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ عن جملةِ: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾؛ لِما بينَهما مِن كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ هذهِ الجملةَ تتنزَّلُ منزلةَ بدلِ الاشتمالِ مِن سابقتِها، فكلتا الجملتينِ جوابٌ لهُم مُؤْيِسٌ من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 162.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 523، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 162.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 162، وأبو موسى، آل حم، ص: 177.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 321.

حصولِ التَّخفيفِ عنهُم، والمعنى: نحنُ مستوونَ في العذاب، وهو حكمُ اللّهِ، فلا مَطْمَعَ في التَّفلُّتِ مِن حُكمِهِ، فقد جوزيَ كلُّ فريقٍ بما يستحقُّ[1].

ويحتملُ أن يكونَ الفصلُ لِما بينَ الجملتينِ من شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ هذهِ الجملةَ تعليلٌ لسابقتِها، كأنَّهُ قد قيلَ: إنّا كلٌّ فيها؛ لأنَّ اللّهَ قد حكمَ بينَ العبادِ[2].

### غرضُ توالي المؤكِّداتِ في الفاصلةِ:

لا مُعقِّبَ لحُكمِ اللهِ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ و﴿قَدۡ﴾ واسميَّة الجملةِ؛ لتأكيدِ مضمونِهِ، وهو تحقُّق وقوعِ حُكم اللّهِ تعالى بينَ العبادِ، وفيهِ قطعٌ لأطماعِ مَن يظنُّ أنَّ الأمرَ جارٍ على ما عليهِ أحكامُ أهلِ الدُّنيا من فكِّ المجرمِ وإيثاقِ غيرِهِ بهِ[3]، وفيهِ أيضًا تيئيسٌ للأتباعِ مِن إغناءِ المتبوعينَ عنهُم، والمعنى: أنَّهُ تعالى حكمَ للكفّارِ بالنّارِ، وللمؤمنينَ بالجنَّةِ، وذلكَ كائنٌ لا يُمكِنُ تغييرُهُ، فلا نَقْدِرُ إغناءَ نصيبٍ مِنَ النّارِ لأنفُسِنا فضلًا لغيرِنا[4].

### بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ الجلالةِ دونَ غيرِهِ:

حُكمُ العظيمِ لا مَرَدَّ لهُ

عُبِّرَ باسمِ الجلالةِ دونَ غيرِهِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾؛ لدلالتِهِ على جميعِ صفاتِ الكمالِ والجلالِ والعظمةِ، ومنها القدرةُ التّامَّةُ على إنفاذِ ما يحكمُ بهِ، بحيثُ لا يردُّ عليهِ أحدٌ حُكْمَهُ عزَّ شأنُهُ، أي: إنَّ المحيطَ بأوصافِ الكمالِ قد حكمَ بينَ العبادِ[5].

### نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿حَكَمَ﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 162.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 84.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 84.

(4) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 38، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 77.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 84.

﴿ٱلْعِبَادِ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الحُكمِ ومُضيِّهِ، وفي ذلكَ تقويةٌ للإقناطِ مِنَ التَّخفيفِ مِنَ العذابِ.

**نكتةُ التَّعبيرِ بقولِه: بـ﴿بَيْنَ﴾:**

حُكمُ اللهِ بمحضَرِ الخلقِ

دلَّ التَّعبيرُ بكلمة ﴿بَيْنَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ على أنَّ اللهِ وقعَ حُكمُهُ وقضاؤُهُ في مَجْمَعِهِم الَّذي حضرَهُ مَن حُكِمَ عليهِ، ومَن حُكِمَ لهُ، ومَن لم يتعرَّض للحكومةِ؛ لأنَّهُ مِن أهلِ الكرامةِ بالجنَّةِ[1]، وفي هذا دليل على أنَّ حكم اللّه بين عباده يكون على رؤوس الأشهاد، فعلى كلِّ عبد أن يأخذ حذره، وأن يردَّ ما عليه من الحقوق قبل أن يُؤخذ منه على رؤوس الأشهاد.

**دلالةُ تعريفِ العبادِ:**

حُكمُ اللهِ شاملٌ للخصومِ

تعريفُ العبادِ في قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ للجنسِ الشّاملِ لجميعِ العبادِ، فلا يخرج أحد عن حكمه وقضائه.

وفي التَّعبير بلفظ العباد دليلٌ على خضوع الجميع لحكم اللّه وقضائه؛ فلا رادَّ له ولا معقِّب لحكمه؛ لأنَّ مادَّة العبوديَّة تعني التَّذلُّل والخضوع، وفيه توبيخٌ للمستكبرين في الدُّنيا على الضُّعفاء بأنَّ الكِبر قد زال، وأنَّهم قد تساووا جميعًا أمام الحكم الإلهيِّ خضوعًا وذلًّا.

**سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ دونَ (بيننا):**

عمومُ الحُكمِ أنسبُ بالتَّذييلِ

عُبِّرَ بـ﴿بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾، دونَ (بينَنا)؛ لأنَّ عمومَ تعلُّقِ فعلِ الحُكمِ يجعلُ الجملةَ بمنزلةِ التَّذييلِ، والمعنى: إنَّ اللّهَ حكمَ بينَ العبادِ كلِّهم بجزاءِ أعمالِهم، فكانَ نصيبُنا مِنَ الحُكمِ هذا العذابَ[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 162.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 162.

## ۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### التَّنازعُ والتَّخاصمُ والمحاجَّةُ:

كلماتٌ متقاربة المعنى، مختلفة الاعتبارات

نزعُ الشَّيءِ: جَذْبُهُ مِن مَقَرِّه، والتَّنازعُ والمنازعةُ: المجاذبةُ[1]، والتَّخاصمُ والخصومةُ: المنازعةُ[2]، وأصلُ ذلكَ مِنَ الخُصْمِ، وهو الجانبُ، وذلكَ أنَّ كلًّا مِنَ المتخاصمينِ يأخذُ جانبًا مِن جوانبِ المُتنازَعِ فيهِ، والمُحاجَّةُ: أن يطلبَ كلٌّ واحدٍ مِنَ المختلفينِ أن يردَّ الآخرَ عن مَحَجَّتِهِ ومقصدِهِ[3]، وقد عُبِّرَ بالمحاجَّةِ هنا للدَّلالةِ على حرصِ كلٍّ مِنَ الأتباعِ والمتبوعينَ على إقامةِ حُجَّتِهِ ودَحْضِ كلامِ خَصْمِهِ.

### الحظُّ والخَلاقُ والكِفْلُ والنَّصيبُ:

تختلف من جهة المحبوب والمكروه، والكثير والكفاية

النَّصيبُ يكونُ في المحبوبِ والمكروهِ، والحظُّ يكونُ في المحبوبِ، ولا يُستعمَلُ في المكروهِ إلّا تجوُّزًا[4]، والخَلاقُ: النَّصيبُ الوافرُ مِنَ الخيرِ، والكِفْلُ: النَّصيبُ الَّذي فيهِ الكفايةُ[5]، وقد عُبِّرَ بالنَّصيبِ هنا؛ لمناسبتِهِ للمكروهِ الَّذي يُقاسيهِ المعذَّبونَ في جهنَّمَ.

---

(1) الراغب، المفردات: (نزع).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خصم).

(3) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (حجج).

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 165.

(5) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن، ص: 480 - 485.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٤٩﴾ [غافر: 49]

### مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

اللُّجوء إلى الملائكة بعد اليأس من البشر

لمّا ذكرت الآيات السّابقةُ أنَّ الضُّعفاء قد يئسوا من إغاثة متبوعيهم، وأنَّهم كلُّهم سواء في عدم القدرة على دَفْعِ العذاب؛ ناسب أن يُذكر هنا حال الفريقين من الأتباع والمتبوعين، وأنَّهم رجعوا جميعًا إلى خَزَنةِ جهنَّمَ، وطلبوا منهُم أن يدعوا اللّهَ لهُم بالتَّخفيفِ[1].

### شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِخَزَنَةِ﴾: (خزن) أصلٌ يدلُّ على صيانةِ الشَّيءِ، وسَتْرِهِ وحِفْظِهِ[2]، والخَزْنُ في الأصلِ: حِفظُ الشَّيءِ في الخِزانةِ[3]، ثمَّ يُعبَّرُ بِهِ عن كلِّ حِفْظٍ، كحِفْظِ السِّرِّ ونحوِهِ، والخَزَنَةُ: جمعُ خازنٍ[4]، وهو الحافظُ لِما في المكانِ من مالٍ أو عُروضٍ[5]، والمرادُ بهِم هنا: مَن يقومونَ بأمرِ تعذيبِ أهلِ النّارِ[6].

2) ﴿يُخَفِّفۡ﴾: (خفف) أصلٌ يدلُّ على ضدِّ الثِّقَلِ والرَّزانة[7]، ومِن ذلكَ: الخفيفُ، وهو ضدُّ الثَّقيلِ[8]، والتَّخفيفُ: ضدُّ التَّثقيلِ، ويقالُ: استخفَّهُ، وهو خلافُ استثقلَهُ[9]، والمرادُ هنا: تَرْكُ تعذيبِهم بمقدارِ يومٍ[10].

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 522، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 84، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 163.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزن)، والسمين، عمدة الحفاظ: (خزن).
(3) الجوهري، الصحاح: (خزن).
(4) الراغب، المفردات: (خزن).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 164.
(6) الزمخشري، الكشاف: 4/ 171.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خفف).
(8) الزبيدي، تاج العروس: (خفف).
(9) الجوهري، الصحاح: (خفف).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 399.

## ❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

استغاثةُ أهل النّار بالملائكةِ لتخفيف العذاب

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن محاولةٍ أخرى لجأ إليها المشركونَ لتخفيفِ العذابِ عنهُم، فيقولُ: وقالَ أهلُ النّارِ لخَزَنةِ جهنَّمَ وقوّامِها، مستغيثين بهم من عظيمِ ما هم فيهِ مِنَ البلاءِ: ادْعوا ربَّكم لنا يخفِّف عنّا قدرَ يومٍ واحدٍ مِنَ العذابِ الشَّديدِ الَّذي نحنُ فيه[1].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### سرُّ التَّعبير بالواوِ في ﴿وَقَالَ﴾:

الانتقالُ إلى حوارٍ آخرَ في النّارِ

أوثِرَ التَّعبير بالواو في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ دون غيرها لتعدُّد المراد بها، فتحتمل أن تكون لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملة: ﴿يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾، وتدخلُ هذهِ الجملةُ في حيِّزِ كلمةِ (إذ)، والتَّقديرُ: واذكُرْ إذ يتحاجّونَ في النّارِ، واذكُرْ إذ قالَ الَّذينَ في النّارِ إلخ[2]. ويحتملُ أن تكونَ الواوُ للاستئنافِ، والجملةُ مستأنفةٌ للانتقالِ إلى حوارٍ آخرَ بعدَ ذكرِ حوارِ الأتباعِ والمتبوعينَ.

### نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿وَقَالَ﴾:

تحقُّقُ استغاثةِ أهلِ النّارِ بالخَزَنةِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾؛ للتَّنبيهِ على تحقُّقِ هذا القولِ، وتحقُّقِ استغاثةِ أهلِ النّارِ بالملائكةِ، وفي هذا زجرٌ للكفّارِ والمشركين؛ لكي يقلعوا على ما هم فيه.

### غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

قبحُ حالِ أهلِ النّارِ

عُبِّرَ بالموصولِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾؛ ليشملَ جميعَ مَن في النّارِ مِنَ الأتباعِ والمتبوعينَ[3]، وللتَّوصُّلِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ إلى تقبيحِ حالِهم، والتَّسجيلِ عليهم بأنَّهم أهلُ السَّعيرِ.

(1) الطبري، الجامع لأحكام القرآن: 21/ 399، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 149.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 179.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 77، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 163.

سوءُ حالِ مَن مَسْكَنُهُ النّارُ

### دلالة التَّعبير بالظَّرفيّة ﴿فِي﴾:

جيءَ بحرفِ الجرِّ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ﴾؛ للتَّنصيصِ على أنَّ النّارَ صارَتْ ظرفَ مكانٍ للكفرةِ المعذَّبينَ، وما أقبحَهُ مِنْ مكانٍ!

وفي التَّعبير بالظرفيَّة إشارةٌ إلى أنَّ المعذَّبين صاروا كالمظروفين في الظَّرف الذي أحاط بهم من كلِّ مكان، وهذا يدلُّ على شدَّة تلبُّسهم بالنّار وتلبُّس النّار بِهم كأنَّهم صاروا شيئًا واحدًا لا ينفكُّ أحدهما عن الآخر.

### دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلنَّارِ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلنَّارِ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ﴾ للعهدِ؛ إذ المرادُ بها نارٌ مخصوصةٌ معهودة، وهي نار الآخرةِ.

قولُ أهلِ النّارِ مُنْتَهٍ إلى الخَزَنَةِ

### دلالة اللّامِ في ﴿لِخَزَنَةِ﴾:

اللّامُ الجارَّةُ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ للتَّبليغِ، فتفيدُ أنَّ قولَ أهلِ النّارِ يَبْلُغُ الخَزَنةَ، وينتهي إليهِم؛ إذ هم المقصودونَ بالخطابِ دون غيرهم؛ طمعًا في أن يجدوا عندهم شيئًا من التَّخفيف.

### دلالة التَّعبير بقوله: (خزنة):

دلَّ التعبير بلفظ الخزنة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ على صورة ذهنيَّة لجهنَّم عند السّامع؛ إذ يُفهم من هذا التَّعبير وجود حرّاس، وهم الملائكة الموكلون بما تحويه من النّار ووقودها والمعذَّبين فيها، وموكلون بتسيير ما تحتوي عليه دار العذاب وأهلها[1].

### نكتةُ الإضافةِ في ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾:

الإضافةُ في قولِهِ تعالى: ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ لاميَّةٌ، أي: لخزنةٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 164.

لجهنَّمَ، وهم الملائكةُ القائمونَ على أمرِها وعلى تعذيب المشركين ونحو ذلك.

الخَزَنَةُ موكَّلونَ بشؤونِ جهنَّمَ

وفي هذه الإضافة مزيدُ تهويل وتخويف، تخويف من النّار وعذابها، ومن خزنتها القائمين عليها، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: 6].

## بلاغةُ إظهارِ جهنَّمَ في مقامِ الإضمارِ:

الكفرةُ في مكانِ الوَيْلِ والثُّبورِ

الظّاهرُ أن يقالَ: (لخَزَنتِها) بإرجاعِ الضَّميرِ إلى النّارِ، لكن عُدِلَ عنهُ إلى إظهارِ جهنَّمَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾؛ لأنَّ في ذكرِ جهنَّمَ تهويلًا وتفخيمًا[1]، فيكون على هذا الاحتمال ذِكرُ ﴿جَهَنَّمَ﴾ إظهارًا في مقام الإضمار، ويحتملُ أن يكونَ ذلكَ لبيانِ محلِّ الكفرةِ في النّارِ، بأن تكونَ جهنَّمُ أبعدَ دَرَكاتِها[2]، وعلى هذا الثاني فليس قوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾ إظهارًا في مقام الإضمار[3].

## دلالةُ الأمرِ في ﴿ٱدۡعُواْ﴾:

الكفرةُ في مقامِ انكسارٍ وضَراعةٍ

الأمرُ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾ للالتماسِ والضَّراعةِ؛ إذ الكفّارُ في مقام ضراعةٍ وانكسارٍ للخَزَنةِ، بعدما عاينوا ما في النّار من أهوال، ولكنَّها ضراعة لا تنفع، فقد فات وقت التَّحسُّر والنَّدم.

## دلالةُ التَّعبيرِ بالرَّبِّ مضافًا إلى ضميرِ الخَزَنةِ:

استجابةُ الدُّعاءِ مِن إحسانِ الرَّبِّ إلى عبادِهِ

في التَّعبيرِ باسم الرُّبوبيَّةِ مضافًا إلى ضميرِ الخَزَنة في قولِهِ تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾ ضربٌ مِنَ الإغراءِ بالدُّعاءِ، أي: لأنَّكم أقربُ إلى استجابتِه لكُم[4]، فهو المُحسِنُ إليكُم بأنَّكم لا تجدونَ ألمًا

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 171، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 215.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 523، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 329.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 164.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 164.

مِنَ النّارِ[1]، أو لبيان أنَّهم ليسوا مؤهَّلين لهذا المطلب من الدُّعاء لبُعدهم عن الله، ولعدم إيمانهم بالرُّسل، بل أوقعوا الإيذاء بهم بعد أن دعاهم سبحانه إلى الإيمان به وبرسله وكتبه، فكيف يدعونه، وليس لهم ما يؤهِّلهم لهذا الدُّعاء؟

**نكتةُ تخصيصِ الخَزَنَةِ بالخطاب:**

انكسارُ المشركين واستصغارُهم أنفُسَهم

قالَ الكفرةُ للخَزَنةِ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾، ولم يقولوا: (ادْعوا ربَّنا)؛ لِما سبقَ مِنَ التَّنبيهِ على قُرْبِ الخَزَنةِ مِن ربِّهم، وللإشارةِ إلى أنَّ الكفرةَ يجدونَ حرجًا لو قالوا: ربَّنا؛ لأنَّهم عاشوا يُنكِرونَ رُسُلَهُ وآياتِهِ، ويحاربونَ الحقَّ وأهلَهُ[2].

**بلاغةُ موقعِ ﴿يُخَفِّفۡ﴾ مِنْ حيثُ الإعرابُ:**

يـقـينُ الـكـفـرةِ باستجابةِ دعاءِ الخَزَنةِ

جزْمُ ﴿يُخَفِّفۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا﴾ بعدَ الأمرِ بالدُّعاءِ: إمّا بتقديرِ لامِ الأمرِ لكثرةِ الاستعمالِ، وإمّا لكونِهِ في جوابِ الطَّلبِ لتحقيقِ التَّسبُّبِ، فيكونُ فيهِ إيذانٌ بأنَّ الكفرةَ واثقونَ بأنَّ خَزَنةَ جهنَّمَ إذا دعَوا اللّهَ؛ استجابَ لهُم[3].

**بلاغةُ التَّضمينِ في ﴿يُخَفِّفۡ﴾:**

الـتَّـخـفـيـفُ مـشـتـمـلٌ على النَّقصِ

ضمِّن الفعل ﴿يُخَفِّفۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ معنى (ينقص)، فنصب ﴿يَوۡمٗا﴾، أو هو على تقدير مضاف، أي: عذاب يوم، أي: مقدار يوم، وانتصب ﴿يَوۡمٗا﴾ على المفعول به لـ ﴿يُخَفِّفۡ﴾[4].

**غرضُ تقديمِ ﴿عَنَّا﴾:**

قُدِّمَ ﴿عَنَّا﴾ على ﴿يَوۡمٗا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ للاهتمامِ بالتَّخفيفِ عنهُم، إشارة إلى شدَّة عذابهم، كأنَّهم يطلبون التَّخفيف لهم دون غيرهم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 85.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 179.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 164.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 164.

### نكتةُ تنكيرِ ﴿يَوۡمٗا﴾:

شدَّةُ عذابِ المشركين في جهنَّمَ

تنكيرُ ﴿يَوۡمٗا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ للإفرادِ، أي: يُخفِّفْ عنّا فردًا مِن أفرادِ اليومِ، أيًّا كانَ[1]، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ الإيماءِ إلى شدَّةِ عذابِهم وسوءِ حالِهم؛ إذ يطلبونَ تخفيفَ العذابِ، ولو يومًا واحدًا مِنَ الأيّامِ.

### بلاغةُ التَّعبيرِ باليومِ:

اليومُ كنايةٌ عن قلَّةِ الزَّمنِ

يحتملُ أن يكونَ التَّعبيرُ باليومِ في قولِهِ ﷻ: ﴿يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ كنايةً عن القلَّةِ، أي: يُخفِّفْ عنّا، ولو زمنًا قليلًا[2].

ويحتملُ أن يكونَ المرادُ مقدارَ يومٍ مِن أيّامِ الدُّنيا؛ لأنَّهُ ليسَ في الآخرةِ ليلٌ ولا نهارٌ[3].

### سرُّ اقتصارِهم على طلبِ تخفيفِ يوم من العذاب:

يأسُ المشركينَ مِنَ الخلاصِ مِنَ العذابِ

اقتصرَ المشركونَ في قولِهم: ﴿يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ على تخفيفِ قدرٍ يسيرٍ مِنَ العذابِ في مقدارٍ قصيرٍ مِنَ الزَّمانِ، دونَ رفعِهِ رأسًا، أو تخفيفِ قدرٍ كثيرٍ منهُ في زمانٍ مديدٍ؛ لأنَّ ذلكَ عندَهم ممّا ليسَ في حيِّزِ الإمكانِ، ولا يكادُ يدخلُ تحتَ أمانيهم[4].

وأيضًا لمّا ظنّوا الخزَنةَ أرجَى للاستجابةِ؛ سألوا التَّخفيفَ يومًا مِن أزمنةِ العذابِ، وهو أنفعُ لهُم مِن تخفيفِ قوَّةِ النّارِ الَّذي سألوهُ مِن مستكبريهم[5].

### سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿مِّنَ﴾:

احتمالُ البيانِ والتَّبعيضِ

يجوزُ أن يكونَ ﴿يَوۡمٗا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ هو المفعولَ بحذفِ المضافِ، أي: قدرَ يومٍ، و﴿مِّنَ﴾ في

(1) محمد أبو موسى، آل حم، ص: 180.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 165.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 60، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 329.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 279.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 164.

﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ بيانيَّة، ويحتملُ أنْ يكونَ ﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ هو المفعولَ على أنَّ ﴿مِنَ﴾ بمعنى البعضِ، أي: بعضَ العذابِ[1].

**دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾:**

تعريفُ العذابِ في قولِهِ تعالى: ﴿يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ بهِ عذابٌ مخصوصٌ، وهو عذابُ النّارِ.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 60، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 78.

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ٥٠﴾ [غافر: 50]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

في النّار لا إعذارٌ ولا اعتذارٌ للكفّار

هذه الآية هي ردُّ خزنة جهنَّمَ على أولئك الكفّار مِن الضُّعفاءِ والمستكبرينَ جميعًا، لمّا ضاقتْ حيلُهم، وعُدِمت عِللُهم، فتوسَّلوا إلى الملائكة خزنةِ جهنَّم أن يدعوا لهم ربَّهم؛ ليخفِّف عنهم بعض العذاب، ولو ليوم واحد؛ فأجابتهم الخزنةُ بعدم أحقّيَّتهم بهذا التَّخفيف، ولا عذرَ لهم أصلًا في طلبه، معرِّفين لهم بسياقه بالسَّبب، الجاعل لهم في محلِّ الاطِّراح والسُّفول عن التَّأهُّل لأن يُسمع لهم كلام[1]، قائلةً لهم: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾.

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾: البيّنات جمع بيِّنة، وأصل (بين) يدلُّ على بُعْد الشَّيءِ وانكِشافه، ومنه: البَيْنُ بمعنى الفِراق، يُقالُ: بانَ يَبينُ بَيْنًا وبَينونَةً، وبانَ الشَّيءُ، وأبان إذا اتَّضح، وانكشف[2]، يقال: بان كذا، أي: انفصل وظهر ما كان مستترًا منه، ولمّا عُدَّ فيه معنى الانفصال والظُّهور؛ استُعمل في كلِّ واحد منفردًا، فقيل للبئر البعيدة القعر: بَيون؛ لبُعد ما بين الشَّفير والقعر لانفصال حبلها من يد صاحبها، وبان الصُّبح: ظهر[3]، والمراد بالبيِّنات في الآية: المعجزات[4].

2) ﴿بَلَىٰۚ﴾: بلَى حرفٌ أصليُّ الألفِ، وقيل: الأصلُ (بل) والألفُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 85.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).

(3) الراغب، المفردات: (بين).

(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 215.

زائدَةٌ، وقيل: هي للتَّأنيثِ بدليلِ إمالتِها[1]، وهوَ من حُروف التَّصديق مثل (نعم)، إلّا أنَّ (نعم) يَقع تَصديقًا للإيجاب والنَّفْي في الخبر والاستفهام جميعًا، و(بلى) يختصُّ بالمنفي خبرًا أو استفهامًا على معنى أنَّها إنَّما تقع تصديقًا للمنفي على سبيل الإيجاب، ولا تقع تَصديقًا للمثبت أصلًا؛ ولِهذا قيل: قائِل (بلَى) في جواب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172] من الأرواح مُؤمنٌ؛ لأنَّهُ في قوَّة (بلى أنت ربُّنا)، وقائِل: (نعم) مِنْها كافِر؛ لأنَّهُ في قوَّة (نعم لست بربِّنا)[2].

3) ﴿ضَلَٰلٍ﴾: أصل (ضلَّ) يدلُّ على ضَياع الشَّيءِ وذَهابه في غَيرِ حَقِّهِ، يُقالُ: ضَلَّ يَضِلُّ ويَضَلُّ - لُغَتانِ - وكُلُّ جائِرٍ عَنِ القَصد ضالٌّ، والضَّلالُ والضَّلالَةُ بِمَعنًى، ورَجُلٌ ضِلّيلٌ ومُضَلَّلٌ؛ إذا كانَ صاحِبَ ضَلالٍ وباطِلٍ[3]، والضَّلالُ: العدولُ عن الطَّريق المستقيم، ويضادُّه الهداية، ويقال: الضَّلالُ لكلِّ عدولٍ عن المنهج، عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا[4]، ومعنى قوله: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾، أي: ضياع بحيث لا يُجاب[5].

## ❁ المَعنى الإجْماليُّ:

فات وقتُ الدُّعاء والاعتذار، وحان وقتُ الجزاء

قال خزنةُ جهنَّم للَّذين في النّار من الكفّار حين قالوا لهم: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝٤٩﴾ [غافر: 49]، أي: يدفع عنّا يومًا من أيّام العذاب، أو ألم يوم وشدَّته، قالوا ذلك لما أيسوا مِنَ التَّخفيف عند المحاجَّة؛ قال الخزنة لهم ردًّا لطلبهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾، أي: المعجزات المتكاثرة الدّالَّة على صِدقهم، المنذرة بهذه الشِّدَّة؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾، أي: جاؤوا بها، وأخبروا

(1) السيوطي، الإتقان: 2/ 219.
(2) الكفوي، الكليات، ص: 235.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضل).
(4) الراغب، المفردات: (ضل).
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 60.

مع البيِّنات ﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ﴾، أي: إن كان ينفعكم، وهيهات: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾، أي: في ضياع لا يجاب[1].

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### نكتةُ فصل الآية عن سابقتِها:

ردُّ الملائكةِ على أهل النّار صورةٌ من صوَرِ العذاب والتَّهكُّم

الفصل في قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾؛ للاستئناف البيانيِّ، على العادة في المقاولاتِ، وهو قول خزنة جهنَّم، فضمير فاعل ﴿قَالُوٓاْ﴾ راجعٌ لخزنة جهنَّم، قالوه جوابًا عن طلب أهل النّار منهم الشَّفاعة والدُّعاء أن يخفِّف ربُّهم عنهم يومًا من العذاب، كما جاء في الآية السابقة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٤٩﴾ [غافر: 49]، فكأنَّه قيل: وبماذا أجابهم الخزنة حين طلبوا منهم ذلك؟ فكان الجواب: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾، فبين الجملتين شبه كمال الاتِّصال[2].

### بلاغةُ الاستفهامِ ونوعه وغرضه:

الاستفهامُ تقريريٌّ إلزاميٌّ، لا يملكون معه إلّا الإقرارَ

الاستفهام في قول الخزنة: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ تقريريٌّ، غرضُهُ إلزامهم الحجَّة وتوبيخهم وتنديمهم بتفويت أوقات الدُّعاء المجاب[3]، وإلجاؤُهم إلى الاعتراف بمجيءِ الرُّسل إليهم مدعومين بالمعجزات الدّالَّة على صِدقهم، وأنَّهم بلَّغوهم رسالةَ ربِّهم إليهم، لكنَّهم هم من كفروا بهم، وجحدوا رسالاتهم، ويضاف إلى هذا التَّقرير الملزم لهم بالحجَّة من المعاني الثانية التَّبكيت والتَّيئيس من رحمة اللّه، ثمَّ الاستدراج[4].

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 313.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 469.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 85.

(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 468.

تقريعُ أهلِ النّار وتبكيتهم بعد تقريرهم بوفاء المرسلين بحقّ الدّعوة والبلاغ

### دلالة الواو في ﴿أَوَلَمۡ﴾:

قوله: ﴿أَوَلَمۡ﴾ الواو المتوسِّطة بين همزة الاستفهام و(لم) الجازمة عطفت الجملة بعدها على محذوف قبلها يُفهم تقديرُهُ من السّياق، كأن يقال: التَّقدير: "ألم تُنبَّهوا على هَذا، ولم تكُ تأتيكُم رسلُكم في الدُّنيا على الاستمرارِ بالحججِ الواضحةِ الدّالَّةِ على سوءِ مغبَّة ما كنتُم عليهِ من الكُفرِ والمَعاصي"[1]، أمّا ابن عاشور؛ فإنَّه يقول فيها:

الواو في قوله: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم﴾ لم يعرِّج المفسرون على موقعها، وهي واو العطف عطف بها (خزنة جهنم) كلامهم على كلام الَّذين في النّار، من قبيل طريقة عطف المتكلِّم كلامًا على كلام صدر من المخاطَب؛ إيماءً إلى أنَّ حقَّه أن يكون من بقيَّة كلامه وألّا يغفله، وهو ما يلقَّب بـ (عطف التَّلقين)، كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾ [البقرة: 124]، فإنَّ أهل النّار إذا تذكَّروا ذلك؛ علموا وجاهة تنصُّل خزنةِ جهنَّم من الشَّفاعة لهم[2].

### نكتةُ التَّخفيف في قوله: ﴿تَكُ﴾:

إيلامُ أهل النّار وتقريعهم بإيجاز الكلام معهم، فلا يحدث لهم أنسٌ به

حذف النّون من جهة النَّحو في قوله: ﴿تَكُ﴾ للتَّخفيف، والأصل: (تكن) وقد جاءت على الأصل في مواضع كثيرة في الكتاب العزيز كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾ [الأنعام: 23]، ولعلَّها إنَّما يؤثِّر فيها الحذف عندما يقتضي المقام الإيجاز[3]، وهو الأنسب في حوار أهل النّار مع الخزنة، أي: أن يكون ردُّ الخزنة عليهم مقتضبًا، فلا يأنسوا بحوارهم معهم، فيكون ذلك الإيجاز جزءًا من إيلامِهم وتقريعِهم.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 280.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 165.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 85.

**دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿تَكُ تَأۡتِيكُمۡ﴾:**

حججُ اللهِ تعالى على قائمةٍ لا تنقطع

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بفعل الكون في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ﴾؛ للدَّلالة على أن مجيء الرَّسل إلى الأمم أمرٌ متقرَّرٌ محقَّقٌ؛ لما يدلُّ عليه فعل الكون من الوجود بمعنى التَّحقُّق، ودخول (لم) النافية على فعل الإتيان، دلَّ وقوعه وتحقُّقه في الزَّمن الماضي؛ لأنَّ (لم) تكون للنَّفي في الماضي[1].

وأمّا إيثار كون فعل الإتيان مضارعًا؛ فللدَّلالة على الاستمرار لبعثة الرُّسل على سبيل التَّجدُّد[2]، كأنَّه قيل: (أولم تكُ تأتيكم رسلكم في الدُّنيا على الاستمرار بالحجج الواضحة الدّالَّة على سوء مغبَّة ما كنتم عليه من الكفر والمعاصي)[3].

وأوثِرَ في الجملة كونها فعليَّة، فقيل: ﴿تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم﴾، ولم يقل: (رسلكم تأتيكم) مع تقديم الفعل ﴿تَأۡتِيكُمۡ﴾ على الفاعل ﴿رُسُلُكُم﴾؛ لأهمّيَّة الإتيان، فإنَّه محلُّ الإلزام[4].

**نكتةُ تقديم المفعول على الفاعل في ﴿تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم﴾:**

في توجيه الخطاب للكافرين مزيد إنكار وتوبيخ

قدَّم المفعول على الفاعل في قوله: ﴿تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم﴾؛ لأنَّ المفعول هنا ضمير متَّصل بالفعل، والفاعل اسمٌ ظاهر، وهي إحدى حالات وجوب تقديم المفعول به على الفاعل، ومن جهة البلاغة فإنَّ المفعول هنا، وهو ضمير المخاطَبين العائد على أهل النّار، هو محور الحديث ومحلُّ الزَّجر والتَّوبيخ، ولذا قدَّمه اعتبارًا بكونه مظهرًا من مظاهر التَّعجيل بالإنكار والتَّأنيب.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 166.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 85.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 329.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 469.

جحودُ الكافرين وإعراضهم مع اجتماع كلِّ الدّواعي إلى الإسلام والإذعان

### دلالةُ إضافة ﴿تَأۡتِيكُمۡ﴾ و﴿رُسُلُكُم﴾ إلى ضمير المخاطَبين:

في قوله: ﴿تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم﴾ نُصَّ على ذِكر المفعول - ضمير المخاطَبين - ولم يُحذف، ثم أضيف الفاعل (إليه)؛ ترشيحًا للتقرير والإلزام، وما يتولَّد عنهما من التَّبكيت والتَّقنيط[1]، ففي ذِكر المفعول مع فعله في ﴿تَأۡتِيكُمۡ﴾ تنصيصٌ على بلوغ الحجج لهؤلاء المخاطَبين مِن أهل النّار، فقد بلغتهم الدَّعوة، وأتتهم الآيات البيِّنات، فلا مطمع لهم في إنكار ذلك، وفي إضافة الرُّسل كذلك إلى ضمير المخاطَبين مزيد إنكار وتقريع، كأنَّه قيل: ألم تأتِكم الرُّسل الذين هم منكم، فأنتم جديرون بالإصغاء إليهم والإقبال عليهم؛ لأنَّ الجنس إلى الجنس أمثل، والإنسان من مثله أقبل[2].

أقام اللهُ تعالى الحجج الكاملةَ بإرسال الرُّسل وتأييدهم بالبيِّنات

### دلالةُ الباء في قوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾:

قوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ الباء فيه للمصاحبة، أي: كانت الرُّسل تأتيكم بالرِّسالة مصحوبةً بدلائل الصِّدق، وهي المعجزات التي أيَّدهم بها ربُّهم، والجار والمجرور إمّا أنَّه متعلِّق بقوله: ﴿تَأۡتِيكُمۡ﴾ أو متعلِّق بمحذوف حال من ﴿رُسُلُكُم﴾[3].

الرِّسالات الإلهيَّة حجج في ذاتها كافية للموفَّقين

### دلالة (أل) في (البيّنات)، وسرُّ حذف موصوفها:

المراد بقوله: (البيّنات) الحجج الواضحة والدَّعوات الصَّريحة إلى اتِّباع الهدى التي لا شيء أوضح منها[4]؛ لتقوم بها الحجَّة على الخلق، وعليه فـ (أل) للعهد، والمعهود هي المعجزات أو الآيات، أي: إنَّ هنالك موصوفًا محذوفًا، تقديره: الآيات أو المعجزات، وسرُّ حذف الموصوف والاكتفاء بالصِّفة مزيد الاعتناء بالصِّفة، "وأنَّها

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 469.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 85.

(3) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 24/ 191.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 165، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 85.

بيِّنة ظاهرة لا ينكرها منصف"[1]، وقد تكون (أل) للاستغراق والشمول، بالنَّظر إلى مجموع المعجزات مع الرِّسالات نفسها، فإنَّ الرِّسالات الإلهيَّة من حيث هي إنَّما تحمل في ذاتها دلائل صِدقها حتّى لو لم تكن هنالك معجزات خارجيَّة، والشّاهد على ذلك القرآن الكريم، فهو الرِّسالة والمعجزة في آنٍ، فإذا أضفنا إلى ذلك كون الرُّسل من خيار النّاس وأصفيائهم كان اختيارهم في ذاته شاهدًا على صِدقهم، فقد هيَّأهم الله تعالى لتلقّي رسالته، وعصمهم من كلِّ ما يعيب البشر الكامل.

### نكتة فصل قوله: ﴿قَالُواْ بَلَىٰۚ﴾ ومرجع الضمير:

لا عــــذرَ لأهـل النار إلّا الاعترافُ والإقرار

فصل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰۚ﴾؛ لأنَّه جواب عن الاستفهام الصّادر من الخزنة إلى الكفار من أهل النّار في قوله تعالى حكاية لقولهم: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾، فالفصل بينهما لشبه كمال الاتِّصال، وضمير الفاعل في ﴿قَالُواْ﴾ يعود على أهل النّار الذين يحاورون خزنتها.

### نكتة الإجابة بـ﴿بَلَىٰۚ﴾:

أدَّى المرسلون الأمانة، وبلَّغوا الرِّسالة

لفظة ﴿بَلَىٰۚ﴾ حرف جواب لكلام فيه معنى النَّفي، فيقتضي إبطال النَّفي وتقرير المنفي، ولذلك كان الجواب بها بعد النَّفي أصرح من الجواب بحرف (نعم)[2].

و﴿بَلَىٰۚ﴾ هنا لإبطال نفي الجملة قبلها: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾؛ لأنَّ النَّفي، وإن بطل بالاستفهام الإنكاري، لكن في الجواب يُعامل معاملة النَّفي المحض، كقوله تعالى: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ﴾ [الأعراف: 172][3].

(1) أبو موسى، آل حم فصلت وغافر دراسة في البيان القرآني، ص: 181.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 168.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 78.

كمالُ الطُّغيان معرفة الحقِّ والصَّدُّ عنه، ومحاربة أهله

**نكتة فصل قوله: ﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ﴾:**

فصلت جملة: ﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ﴾ عن سابقتها للاستئناف البياني، كما هو الشَّأن في المقاولات، فكأنَّه قيل: فماذا قالت لهم الخزنة بعد قولهم: ﴿بَلَىٰۚ﴾ فكان الجواب: ﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ﴾، فضمير الفاعل في ﴿قَالُواْ﴾ يعود على خزنة النار الذين يحاورون أهلها، وعليه فبين الجملتين المفصولتين شبه كمال الاتِّصال.

دعاء المولى الجليل ممّا يتحقَّق به المستحيل

**معنى الفاء في ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾:**

الفاء في قوله: ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾ هي فاء الفصيحةِ، فقد أفصحت عن شرط مقدَّر، أي: إذا كان الأمر كذلك؛ ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾ ربَّكم أنتم بأنفسِكم، فإنَّ الدُّعاء لمن يفعل فِعلكم ذلك مستحيل صدوره عنّا[1]، وقد تكون الفاء لتفريع كلام الملائكة على اعتراف أهل النّار بمجيء الرُّسل إليهم بالبيِّنات، ومعنى تفريعه عليه هو أنَّه مفرَّع عليه باعتبار معناه الكنائي الذي هو التَّنصُّل من أن يدعوا لهم، أي: كما تولَّيتم الإعراض عن الرُّسل استبدادًا بآرائكم، فتولَّوا اليوم أمرَ أنفسكم، فادعوا أنتم، فإنَّ "من تولَّى قرَّها؛ يتولَّى حرَّها"[2].

التَّهكُّم والإقناط عـذابٌ فوق العذاب

**دلالة الأمر في ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾:**

الأمر في قوله: ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾ ليس أمْرَ طلب للدُّعاء على سبيل الحقيقة؛ إذ إنَّهم ليسوا للدُّعاء بأهل، وقد كفروا بمن يوجِّه إليه الدُّعاء، وهو اللّه تعالى، فالغرض المقصودُ إذًا بهذا الطَّلب ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾ الاستهزاء والتَّهكُّم بهم وإقناطهم من الإجابة ومضاعفة التَّبكيت والتَّحسير لهم على ما فرط منهم، وأيضًا لإظهار حقيقتهم حسبما صرَّحوا به في قولهم: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لأنفسهم ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾، أي: إلّا في ضياع وبطلان لا يجاب؛ لأنَّهم دعوا في غير وقته[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 329.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 166.

(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 217، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 469.

### نكتةُ حذف متعلِّق ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾:

حذف متعلِّق ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾؛ اختصارًا للعلم به لتقدُّم ذكره في قولهم: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٤٩﴾ [غافر: 49]، والتقدير: ادعوا أنتم ربَّكم، وقد يكون الغرض من هذا الحذف الدَّلالة على العموم، أي: نفي منفعة دعاء الكافرين أيًّا من كانوا سيدعونه، سواء كان الله تعالى، أو أهل الله من رسل البشر أو الملائكة أو غيرهم، فإنَّه لا يسمع منكم[1].

يتبرَّأ كلُّ وليٍّ من وليِّه من هول العذاب يوم القيامة

### معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

الواو للحال، والجملة بعدها حالية، أي: ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾، والحال أنَّه مهما دعوتم؛ فدعاؤكم في هلاك وضياع، فمثلكم لا يُسمَع دعاؤه، ولو سُمِع؛ فلن يجابَ، بل يُرَدَّ على صاحبه، وهذه قرينة قويَّة على كون الأمر في قولهم: ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾ هو أمر تهكُّم واستخفاف بهم.

لا ينفع في ذلك اليوم إلّا الإيمان والعمل والصّالح

### بلاغةُ الاحتراس أو التَّذييل في الآية:

في قوله: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ احتراس لدفع توهُّم أنَّ المُراد بـ (ادعوا) طلب الدُّعاء؛ لأنَّه لمّا كان أمرهم بالدُّعاء موجبًا لأن يظنّوا نفعه؛ أتبعوه بما أيأسهم؛ لأنَّ ذلك أنكأ وأوجع وأشدُّ عليهم وأفظع[2]، وعليه فالقول إنَّما هو لخزنة جهنَّم، أي: هم القائلون: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ على سبيل الاحتراس، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ تذييلًا لما فُهِم من الكَلام السّابق، وهو أنَّ دعاءكم لا ينفع أصلًا لتعطيلكم أسباب الإجابة، فيكون ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ تقريرًا لهذا المفهوم[3]، وعلى هذا يجوز أن يكون هذا القول من كلام خزنة جهنَّم

ضلَّ سعي الكافرين في الدُّنيا، فضلَّ مسعاهم في الآخرة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 86.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 86.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 78.

تذييلًا لكلامهم يبيِّن أنَّ قولهم: ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾ مستعملٌ في التَّنبيه على الخطأ، أي: دعاؤكم لم ينفعكم؛ لأنَّ دعاء الكافرين في ضلال، والواو اعتراضيَّة، ويجوز أن يكون من كلام اللّه تعالى؛ تذييلًا واعتراضًا وتقريرًا لما فُهِم، لا احتراسًا[1].

**بلاغةُ القصر ونوعه وغرضه:**

تأكيدُ الحكم مع زيادة تقنيطهم وتحسيرهم على ما فاتهم من الإيمان بالله

في قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ أسلوب قصر مقتفًى فيه أقوى طرق القصر، وهو النَّفي ثمَّ الاستثناء، والقصر فيه هو من قصر الموصوف على الصِّفة؛ ليفيد أنَّ دعاء الكافرين وحده هو في ضلال؛ ليُستثنى من هذا الحكم دعاء المؤمنين، فهو محلُّ القبول، لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: 60]، وغرض هذا القصر عدا تأكيد الحكم زيادة تقنيطهم وتحسيرهم على ما فرط منهم في الدُّنيا من عدم الإيمان الذي آل بهم في القيامة إلى الخيبة والخسران، فلا يقبل منهم بسبب ذلك دعاء، ولا يتحقَّق لهم رجاء.

**نوعُ الإضافة في ﴿دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:**

ضلال دعاء الكافرين عامٌّ في الدُّنيا والآخرة

الإضافة في قوله: ﴿دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هي من إضافة المصدر إلى فاعله، والغرض منها هو التَّخصيص، فإضافة المصدر إلى فاعله أفادت تعيين الفاعل حتى لا يدخل في الوصف كلُّ دعاء، فدعاء المؤمنين ليس في ضلال.

والمعنى: "ما دعاء الكافرين لأنفسهم إلّا في ضلال، ويجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى مفعوله، أي: وما دعاء غيرهم لهم بتخفيف العذاب عنهم إلّا في ضلال"[2]، كما أنَّ هذه الإضافة أيضًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 165، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 78.
(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 334.

تفيد عموم كون دعاء الكافرين غير مستجاب في الدُّنيا ولا في الآخرة؛ لأنَّ المصدر المضاف من صيغ العموم، فيقتضي أنَّ دعاء الكافرين غير متقبَّل في الآخرة وفي الدنيا؛ لأنَّ عموم الذوات يستلزم عموم الأزمنة والأمكنة[1]، وقيل: إنَّ الآية في دعاء الكفّار يوم القيامة، وأنَّ الكافر قد يقع في الدُّنيا ما يدعو به، ويطلبه من اللّه تعالى إثر دعائه[2]، وهنالك نزاع حول ما إن وقع ذلك؛ فهل يسمَّى إجابة للدُّعاء أو شيئًا آخر[3]؟.

### معنى(أل) في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ونكتة إظهاره:

حـالَ كفرهم بينهم وبين قبول دعائهم

(أل) في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ للجنس لا للعهد، وممّا يؤيِّد كونها للجنس إظهار لفظ الكافرين والعدول عن الإضمار؛ إذ لو كان المراد خصوص المتحاجّين في النار ممَّن عنوا في سابق الآيات؛ لكانَ التعبير بضمير المخاطَب أولى، فيقال: (وما دعاؤكم إلّا في ضلال)، كما أنَّ في ذلك الإظهار تسجيلًا عليهم بالكفر، وبيانًا لكون ما حلَّ بهم من عدم قَبولِ دعائهم، إنَّما هو بسبب كفرِهم لا غير.

### نوع الاستثناء:

الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ هو استثناء مفرَّغٌ من أعمِّ العلل والأحوال، أي: وما دعاء الكافرين في حال من الأحوال، ولا لعلَّة من العلل، إلّا في ضلال.

### معنى ﴿فِي﴾:

﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ مفيدةٌ للظرفيَّة المجازيَّة؛ للدَّلالة على التَّمكُّن في الوصف، أي: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إلّا ضائع ضياعًا شديدًا، كأنَّ الضياع قد أحاط بدعائهم، فلا ينتفعون به أدنى انتفاع.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 165.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 329.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 329، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 165.

ضلالُ دعائِهم في الآخرة، نتيجة ضلالهم في الدُّنيا

### نكتةُ تنكير ﴿ضَلَٰلٍ﴾ وإيثار مصدريّته:

نكتة تنكير كلمة ﴿ضَلَٰلٍ﴾ إفادة التَّهويل، فهو ضلال كبيرٌ مبينٌ، وكأنَّ دعاءهم هو في الضَّلال نفسه، وليس في شيء اسمه الضَّلال، وهذا ما يفيده إيثار التَّعبير بالمصدر، وفيه دلالةٌ على عظيم خسرانهم، كأنَّ دعاءهم في ذهاب في غير طريق موصل، كما كانوا هم في الدُّنيا كذلك، فإنَّ الدُّنيا مزرعة الآخرة[1].

## الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### البيِّنة والبرهان والآية والسُّلطان:

المفردات الأربع تشترك فيما بينها في الدَّلالة على الحجَّة، وتختلف في أوصافها

هذه المفردات الأربع تشترك فيما بينها بأنَّها دوالٌّ على معنى المعجزة والحجَّة والدَّليل مع فروق دقيقة بينها في الاستعمال القرآني، فكلمة (الآية) تُستعمل في صدد إعطاء الدَّلائل للرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام لمحاجَّة الأقوام، ولفظ (الآية) يستبطن معاني كثيرة من أخصِّها معنى (العلامة)؛ لأنَّ (الآية) علامة على صِدق من أتى بها وعلى عجز المتحدَّى بها، ومن استخدام القرآن الكريم لها في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [آل عمران: 49]، وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [الشعراء: 139]، ويُستعمل القرآن الكريم لفظة (البيِّنة) في معنى الدَّلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة[2] كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 86.

(2) الراغب، المفردات: (بين).

بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ [الأعراف: 73].

ويستخدم القرآن الكريم في السّياق نفسِهِ لفظة (البرهان)، كما في قوله تعالى: ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ [القصص: 32]، والبرهان بيانٌ للحجَّة، وهو أوكد الأدلَّة؛ لأنَّه يقتضي الصِّدق أبدًا - لا محالة[1] - وهو في عُرف الأُصوليّين: ما فصل الحقَّ عَن الباطِل، وميَّز الصَّحيح من الفاسِد بالبَيانِ الَّذي فيهِ، وعند أهل الميزان: هوَ قياس مؤلف من مُقَدِّمات قَطْعيَّة منتج لنتيجة قَطْعيَّة[2].

كما أنَّ القرآن الكريم يعبِّر عن الحجَّة والمعجزة أحيانًا بلفظ (السُّلطان)، كما جاء في قوله تعالى: ﴿۞قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ [إبراهيم: 10]، وفي تسمية الحجَّة سلطانًا[3] دلالةٌ على قوَّتها وتسلُّطها بالإقناع والمحاجَّة على حجج المخالفين ومنطقهم، قال الكفوي: كلُّ سُلطان في القُرآن فهو حجَّة، وأصل السَّلطنة القوَّة[4].

وعلى هذا فالمفردات الأربع إنَّما تشترك فيما بينها في الدَّلالة على الحجَّة بأوصافها المختلفة من كونها علامة على صِدق من أتى بها، كما في (الآية)، أو كونها حجَّة قطعيَّة، كما في (البرهان)، أو واضحة الدَّلالة على المراد كما في (البيّنة)، أو كونها قويَّة في طرحها وإقناعها كما في (السُّلطان).

---

(1) الراغب، المفردات: (بره).
(2) الكفوي، الكليات، ص: 249.
(3) الراغب، المفردات: (سلط).
(4) الكفوي، الكليات، ص: 493.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٥٢﴾ [غافر: 51 - 52]

## مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قبلَهُما:

قاعدةُ القرآنِ فيمن تتحقَّق لهم النُّصرة والتَّأييد من الله تعالى

بعد أن ذكر الله تعالى ما نصَّت عليه الآياتُ السّابقة من حال الكافرين ومآلهم، وعدم قبول خزنة النّار دعاءهم ولا الشَّفاعة فيهم؛ جاءت هاتان الآيتان على القاعدة التي يُحتكم إليها فيمن يُكتب لهم التَّأييد، وتتحقَّق لهم النُّصرة الإلهيَّة، وما يتبع ذلك من قَبول الدُّعاء وتحقيق الرَّجاء، فحصَرُ هؤلاء في الرُّسل ﷺ وفي المؤمنين دون الظّالمين الكافرين بربِّهم، فقال سبحانه تسليةً لرسوله ﷺ ليصبر على أذى قومه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ۝٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَنَنصُرُ﴾: أصل (نصر) يدلُّ على إتيان خير وإيتائه، فيقال مثلًا: نصر الله المسلمين، أي: آتاهم الظَّفر على عدوِّهم، ينصرهم نصرًا، وأمّا الإتيان؛ فالعرب تقول: نصرت بلد كذا، إذا أتيته[1]، والنَّصرُ والنُّصرَةُ: العَوْنُ، قال تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ [الصف: 13]، ونُصرَةُ الله للعبد ظاهرة، ونُصرَةُ العبدِ لله هو نصرته لعباده، والقيام بحفظ حدوده، ورعاية عهوده، واعتناق أحكامه، واجتناب نهيه، قال تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾ [الحديد: 25]، وقال: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: 7]، ومعنى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: يُغَلِّبهم في الدارين جميعًا بالحجَّة والظَّفر على مخالفيهم، ولو بعد حين[1].

2) ﴿ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾: أصل (شهد) يدلُّ على حضور وعلم وإعلام[2]، والشُّهودُ والشَّهادَةُ: الحضور مع المشاهدة، إمّا بالبصر، أو بالبصيرة، وقد يقال للحضور مفردًا، قال اللّه تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [السجدة: 6]، لكن الشُّهود بالحضور المجرَّد أولى، والشَّهادة مع المشاهدة أولى[3]، و﴿ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ يجوزُ أن يكونَ جمعَ شهيد كـ (شَريف وأشراف)، وهو مطابِقٌ لقولِه تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾ [النساء: 41]، وأن يكونَ جمعَ شاهِد كـ (صاحِب وأصحاب)، وهو مطابِقٌ لقولِه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ [الأحزاب: 45][4].

3) ﴿مَعۡذِرَتُهُمۡۖ﴾: (عذر) بناء صحيح له فروع كثيرة ما جعل اللّه تعالى فيه وجه قياس البتَّة، بل كلُّ كلمة منها على نحوها، وجهتها مفردة[5]، وقيل: أصله من العَذِرَةِ وهو الشَّيء النَّجس، ومنه سُمّي القُلْفَةُ (العُذْرَةُ)، فقيل: عَذَرْتُ الصَّبيَّ؛ إذا طهَّرته، وأزلت عُذْرَتَهُ، وكذا عَذَرْتُ فلانًا: أزلت نجاسة ذنبه بالعفو عنه، والعُذْرُ: تحرّي الإنسان ما يمحو به ذنوبه[6]، والاسمُ (العُذْرُ)، وتُضَمُّ الذّالُ للإتباع (العُذُر)، وتُسَكَّنُ (العُذْر)، والجَمعُ أعذارٌ، والمَعذِرَةُ والعُذرَى بمعنَى العُذْرِ وأعذَرْتُهُ بالألِفِ لُغَةٌ[7]، ومعنى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ﴾، أي: لا يقبل عذرهم، ولا ينفع[8].

## ۞ المَعنى الإجْماليُّ:

في هاتين الآيتين الكريمتين تسطع قاعدة النَّصر الإلهي وتفرض سلطانها؛ مبيِّنةً أنَّ نصره سبحانه وتأييده إنَّما يكون لرسله ﵈ وللذين آمنوا معهم، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: بالحجَّة والبرهان والنَّصر، ﴿وَيَوۡمَ

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 215.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(3) الراغب، المفردات: (شهد).
(4) السمين، الدر المصون: 9/ 491.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عذر).
(6) الراغب، المفردات: (عذر).
(7) الفيومي، المصباح المنير: (عذر).
(8) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 216.

إنَّما النَّصرُ مع الإيمان والصَّبر وإن طال الأمد

﴿يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾، أي: في الآخرة بالحُكم لهم ولأتباعِهم بالثَّواب، ولِمَن حاربَهم بشدَّة العقاب، حيث لا تُقبل لهم معذرة؛ لأنَّه في ذلك اليوم ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ﴾، هو يوم حساب وعقاب لا وقت لوم للنَّفس واعتذار، بل ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، أي: نصيبهمُ الطَّرد من رحمة اللّه، والاستقرار في الدّار السَّيِّئة التي تسوء نازليها(1)، وهي جهنَّم، فبئس دارُ قرارهم.

## ۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

تسليةُ الرَّسول ﷺ والمؤمنين بذكرِ سنَّة الله في نصر أوليائه

فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه كلام مستأنف لاستخلاص العِبرة من القصص الماضية، مسوق لتسلية الرسول ﷺ ووعده بحسن العاقبة، وتسلية المؤمنين ووعدهم بالنَّصر وحسن العاقبة في الدَّنيا والآخرة(2).

ولا يقدح في سنَّة اللّه في نصر أوليائه ما قد يتَّفق للكفرة من صورة الغلبة امتحانًا؛ إذ العِبرة إنَّما هي بالعواقب وغالب الأمر(3).

### فائدة تتابع المؤكِّدات في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ﴾:

بثُّ الطُّمأنية في قلوب المؤمنين بموعود ربِّ العالمين

أُكِّد الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ﴾ بـ(إنَّ) التوكيديَّة، واسميَّة الجملة بالإسناد إلى ضمير العظمة، وبدخول اللام المزحلقة على المسند ﴿لَنَنصُرُ﴾، وبجعل المسند فعليًّا، وذلك كلُّه؛ لتحقيق زيادة الاطمئنان واليقين في قلوب المؤمنين، ودحر ما في قلوب أعدائهم من المشركين المعرَّض بهم بأنَّ اللّه ينصر رسله عليهم، وهم المشركون؛ لأنَّهم كانوا يكذبون بذلك(4)، فنصر اللّه

(1) السعدي، تفسير السعدي، ص: 739.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 329.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 329.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 168.

لأوليائه وعدٌ مقرَّر في مواضع متعدِّدة في الكتاب العزيز، منها قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ [البقرة: 214] وقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم: 47]، وهذا فيما يخصُّ النَّصر البدنيَّ في الحروب، أمّا النَّصر بقوَّة الحجَّة والغلبة بالدليل؛ فهو كائنٌ منذُ البداية مزامن للرِّسالة لا يتأخَّر عنها؛ لأنَّه قائم فيها مضمَّن في أدلَّتها القويَّة وحججها الإقناعيَّة، وذلك أنَّ النَّصر في النَّصِّ الكريم يحتمل الأمرين معًا، أي: النَّصر في الدين بالحجَّة والغلبة، والنَّصر في الأبدان في مواجهة المعتدين ومحاربتهم[1].

### غرضُ إسنادِ فعل النَّصر إلى ضمير العظمة:

نصرُ العظيمِ عظيمٌ

ما يُسند إلى العظيم عظيم، فإسنادُ فعل النَّصر إلى ضمير العظمةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ﴾ يشعر المؤمنين بعظمة ما ينتظرهم من نصر الله لهم على أعدائهم، فيزيدهم ذلك يقينًا على يقينهم.

### دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿لَنَنصُرُ﴾:

استحضارُ حالات النَّصر العجيبةِ بإيثار صيغة المضارع

عبَّر بالمضارع ﴿لَنَنصُرُ﴾؛ استحضارًا "لحالات النَّصر العجيبة - للمرسلين والمؤمنين - التي وصف بعضها في هذه السّورة، ووصف بعض آخر في سور أخرى تقدم نزولها، وإلّا فإنَّ نصر الرُّسل الذين سبقوا محمَّدًا ﷺ قد مضى، ونصر محمَّد ﷺ مترقَّب غير حاصل حين نزول الآية"[2].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 38.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 167.

الإضافة إلى العظيم تشريف وتكريم

**فائدةُ إضافة الرُّسل إلى ضمير العظمة:**

إضافة الرُّسل إلى ضمير العظمة في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ فيه إشعارُ الرسل بعزِّ الألوهيَّة[1] الذي به يكون نصرهم وغلبتهم، كما أنَّ فيه تشريفًا لهم بهذه الإضافة إلى ضمير العظمة، وتكريمًا لهم وإعلاء لقدرهم، وكذا لمن عطف عليهم، وهم (الذين آمنوا)، فالواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

الإيمانُ بالرَّحمن طريق النَّصر والجنان

**غرضُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:**

في التَّعبير عن المؤمنين بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ثناء عليهم ومدح لهم، وبيان لكون السَّبب في قرنهم بالرُّسل في الوعد بالنَّصر المحقَّق هو كونهم قد آمنوا باللّٰه ورسوله، إيمانا محقَّقًا لا لبس فيه، كما تنبئ عن ذلك التَّحقُّق صيغة الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾، أي: إيمانًا كاملًا باللّٰه ورسوله وبكلِّ مقتضيات الإيمان، ولذلك حذف متعلِّق الإيمان؛ ليدلَّ على هذا الكمال، وأنَّه إيمان بكلِّ أركان الإيمان المعلومة.

مآل المؤمنين نصر وحبور في الدُّنيا ويوم النُّشور

**دلالةُ الظَّرفيَّة وفائدتها في قوله: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:**

قوله ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ظرفٌ للنَّصر في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ﴾، ولهذا النَّصر في الحياة الدُّنيا وجوهٌ منها: "أن ينصرهم في الدُّنيا بالحجج والآيات الَّتي أعطاهم في الدّين، حتى يدفعَ بها تسويلات الشَّيطان وتمويهات السَّحرة، وتغلبها، وتعلو على كلِّ هذا في الدُّنيا"[2]، وهذا النَّوع من النَّصر عامٌّ في كلِّ الرسل ولكلِّ الرِّسالات، فهو محقَّق في الدُّنيا لجميع الأنبياء، فالظَّرفيَّة هنا على حقيقتها من حيث كونها شاملة للمظروف ومحلًّا له، ومن وجوه النَّصر كذلك النَّصر في الحروب، فإن قيل: ليس في كلِّ معركة كان ينتصر

(1) أبو موسى، آل حم فصلت وغافر، ص: 185.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 37.

الرُّسل، فكيف توجَّه الظرفيَّة؟ قيل في الجواب: العِبرة بالنِّهاية والعاقبة، فإنَّها تكون من نصيب المرسلين، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: 128]، فإن قيل: بعض الرُّسل قتلوا وما شاهدوا في حياتهم نصرتهم على أعدائهم، كما لفت إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: 61]، ونظائره فكيف يكون التَّوجيه؟ قيل في الجواب: "إنَّ نصرة الرُّسل والأنبياء واقعةٌ، ولا بدَّ، إمّا في حياة الرسول المنصور، كنوح وموسى عليهما السلام، وإما بعد موته ألا ترى إلى ما صنع اللّه تعالى ببني إسرائيل بعد قتْلِهم يحيى عليه السلام من تسليط بختنصَّر حتى انتصر ليحيى عليه السلام؟"(1)، وتخلَّص بعضهم من هذا بالقول: والنَّصر خاصٌّ بمن أظهره اللّه تعالى على أمَّته، كنوح وموسى ومحمَّد عليهم السلام؛ لأنّا نجد من الأنبياء من قتله قومه كيحيى، ومن لَم ينصر عليهم(2).

وقيل: إنَّ التَّعبير بـ ﴿فِى﴾ الظَّرفيَّة لا يدلُّ على الاستيعاب، فلا يكون في الخبر تخلُّف، ولذلك لما كانت النُّصرة في الآخرة لا تتخلَّف مطلقًا، لم يعبَّر في ظرفيتها بحرف الجرِّ ﴿فِى﴾، ولكن بالظَّرف المنصوب، ففي حاشية الشهاب: "وهذا النَّصر في الدُّنيا، فإنَّ الحرب فيها سجال، وأمّا في الآخرة؛ فلا تتخلَّف نصرتهم، ولذا دخلت ﴿فِى﴾ على الحياة دون قرينة؛ لأنَّ الظَّرف المجرور بـ﴿فِى﴾ لا يُستوعب كالمنصوب على الظَّرفيَّة كما ذكره الأصوليّون"(3).

### معنى (أل) في ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ ونكتة وصفها بـ﴿ٱلدُّنْيَا﴾:

**اللام للعهد، ووصفت الحياة بالدُّنيا لقربها منّا وحضورنا فيها**

(أل) في ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ للعهد، وهي هذه الحياة التي يعيشها الإنسان في الدُّنيا، ووصف بالدُّنيا، وهي فُعْلى من الدُّنوِّ بمعنى القرب، وذلك

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 265، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 17/ 79.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 265.
(3) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 376.

لقربها في مقابل الآخرة، ولحضورنا فيها بينما نحن ننتظر الآخرة، كما وصف عذابها بالأدنى في مقابل وصف عذاب الآخرة بالأكبر في قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: 21]، حيث "فُسِّر الأدنى بالأقرب، فقيل: بمصائب الدُّنيا وبلاياها، وبيوم بدر، وبالجوع سبع سنين الخ..."[1]، فالدُّنيا مشتقٌّ من الدُّنوِّ بمعنى القرب[2]، وبعض النّاس يجعلونها مِنَ الدَّناءة، وهو خلاف كلام المحقِّقين من علماء اللُّغة والتَّفسير.

### معنى الواو في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾:

جمع الله لأوليائه النَّصر في الدارين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ عاطفة لما بعدها على ما قبلها، والغرض الجمع بين الوعدين: النَّصر في الدُّنيا ونصر الآخرة، و(يومَ) ظرف منصوب متعلِّق بـ (ننصر)، أو هو منصوب على نزع الخافض، والتَّقدير: (وفي يوم) لعطفه على ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾، وقيل: هو معطوف على موضع الجارِّ والمجرور ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، كما تقول: جئتم في أمسِ واليومَ[3].

### غرضُ التَّعبير عن اليوم الآخر بهذا الوصف:

رفعُ مكانة الرُّسل عليهم السلام والمؤمنين يوم القيامة بشهادة الأشهاد لهم

عُبِّر بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ في وصف يوم القيامةِ؛ "للإشعارِ بكيفيَّةِ النُّصرةِ، وأنَّها تكونُ عندَ جميع الأوَّلينَ والآخِرينَ بشهادةِ الأشهادِ للرُّسلِ بالتَّبليغِ وعلى الكفرةِ بالتَّكذيبِ"[4]، والأشهاد إنَّما يكونون من الملائكة والنَّبيِّين وسائر المقرَّبين، وهو جمع شهيد كـ (شريف وأشراف)، أو هو جمع شاهد كـ (صاحِب وأصحاب)، "ووصفهم بهذا إشارة إلى أنَّ شهادتَهم بليغة في بابها، لما لهم من الحضور التّامِّ، وإلى ذلك يشير تذكير الفعل والتَّعبير بجمع القلَّة؛

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (دنو).
(2) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (دنو).
(3) الخطيب، التفصيل في إعراب التنزيل: 24/ 193.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 280.

لأنَّهم بالنِّسبة إلى أهل الموقف كالشَّعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، فالجياد دائمًا قليل، وعُبِّر بهذا الوصف كذلك إشارة إلى أهل الحُكم بصفات الجبروت للقسط، فيرفع أولياءه بكلِّ اعتبار، ويهين أعداءهم كلَّ إهانة"[1]، ومِن أسبابه أيضًا: ما فيه من الإيذان بأنَّ السُّلطان العظيم؛ إذا خصَّ بعض أوليائه بالإكرام العظيم والتَّشريف الكامل بمحضر الأشهاد والجمع العظيم مِن أهل المشرق والمغرب، يكون ذلك ألذَّ وأبهجَ بالنِّسبة إلى الكرامة في الخلوة[2].

### نكتةُ إضافة اليوم إلى ﴿يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾:

اختصاصُ الرُّسل والمؤمنين وحدهم بالنَّصر والفوز (يوم يقوم الأشهاد)

في إضافة ﴿وَيَوۡمَ﴾ إلى جملة ﴿يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ دلالة على اختصاص الرُّسل والمؤمنين بالنَّصر والفوز في هذا اليوم دون غيرِهم، وبأنَّ الأشهاد إنَّما يشهدون لهم وحدهم دون غيرهم بالإيمان والطّاعة، وبأحقيَّتهم للفوز بدخول الجنان والنَّجاة من عذاب النّيران، وفي ذلك إكرامٌ لهم، وإهانة لأعدائهم.

### دلالةُ التَّعبير بـ﴿يَقُومُ﴾ مادَّة وصيغة:

أمانُ اللهِ لرسله والمؤمنين يوم تفزع الخلائق كلُّها

كلمة ﴿يَقُومُ﴾ من القيام، وهو الوقوفُ في الموقف[3]، والمرادُ هنا القيام من القبور بالبعث يوم القيامة، ومنه سُمّيتِ القيامةُ، و"أصلها ما يكون من الإنسان من القيام دُفْعَةً واحدة، أدخل فيها الهاء تنبيهًا على وقوعها دُفْعَة"[4]، والتَّعبير بصيغة المضارع؛ لما تفيده مِن معنى الاستقبال، وفيه كذلك تصوير لجلال ذلك اليوم ومهابته.

### معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾:

(أل) في (الأشهاد) للعهد والمراد بهم أهل القرب والتَّقوى

(أل) في ﴿ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ هنا للعهد لا للجنس؛ إذ إنَّ المرادَ بهم المقرَّبون كالملائكة والنَّبيّين وسائر المقرَّبين، وليس كلُّ من شهد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 87.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 524، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 335.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 168.
(4) الراغب، المفردات: (قوم).

القيامة، فالعاصون مع شهودهم القيامة غير داخلين في اللَّفظ بدليل أنَّه ورد على صيغة جمع القلَّة؛ "لأنَّهم بالنِّسبة إلى أهل الموقف كالشَّعرة البيضاء في جلد الثَّور الأسود، فالجيادُ دائمًا قليل"(1).

**بلاغةُ الاقتصاص في قوله: ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾:**

تركيبُ الآيةِ مقتصٌّ من أربعة مواضع في القرآن

في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ ما يُعرف في علم البديع بالاقتصاص(2)، وذلك أنَّ هذه الجملة مقتصَّة مِن أربع آيات؛ لأنَّ الأشهادَ أربعةٌ هم: الملائكةُ ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١﴾ [ق: 21]، والأنبياء ﷺ لقوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النساء: 41]، وأمَّة محمَّد ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: 143]، والأعضاء لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [النور: 24](3).

**الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:**

في تلكم الدّار لا ينفع احتجاج ولا اعتذار

قوله: ﴿يَوۡمَ﴾: منصوب إمّا على أنَّه بدلٌ مِنْ (يوم) في قوله: ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ في الآية السّابقة، أو عطف بيان له، أو أنَّه نُصِب بإضمار أعني، فهو مفعولٌ به للفعل المحذوف(4).

وعلى كلِّ الاعتبارات؛ فإنَّ الإتيانَ بجملة: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه في ذلك اليوم المشهود لن ينفع الظّالمين شيءٌ في دفع عذابِ اللّه عنهم؛ كأنَّ هذه الجملة هي المقصودُ بالذّات في ختام السّياق.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 87، بتصرف.

(2) الاقتصاص هو: أن يكون كلامٌ في سورة مقتصًّا من كلام في سورة أخرى أو في السورة نفسها، هكذا عرَّفه ابن فارس في كتابه: (الصاحبي في فقه اللغة)، ص: 181، ونقله الزركشي في البرهان: 3/ 297، والسيوطي في الإتقان: 3/ 302، ويقال له أيضًا: "الاقتناص"، ينظر: أحمد سعد الخطيب، مفاتيح التفسير: 1/ 161.

(3) ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، ص: 182، والزركشي، البرهان: 3/ 297.

(4) السمين، الدر المصون: 9/ 492.

الإضافة لاختصاص الظّالمين بعدم نفع اعتذارهم في هذا اليوم

**نكتةُ إضافةِ ﴿يَوۡمَ﴾ إلى الجملة الفعليَّة:**

وفي إضافة ﴿يَوۡمَ﴾ إلى جملة: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ﴾ دلالةٌ على اختصاص الظّالمين بعدم نفْعِ اعتذارِهم في هذا اليوم دون المؤمنين، كما يدلُّ له مفهوم المخالفة، ونحوه قوله سبحانه عنهم في موضع آخر: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ٣٦﴾ [المرسلات: 35 - 36]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [التحريم: 7]، ولا منافاة بين المقامين بحيث لا يقال: إنَّ إضافةَ المعذرة إلى ضميرهم يدلُّ على وقوع المعذرة منهم، فيعتذرون بها عن الأسباب الَّتي أوجبت لهم العذاب، مثل قولهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: 38] ونحوه، ممّا يُفهم منه أنَّ الاعتذار منه ما هو منفيٌّ من أصله، ومنه ما يؤذن فيه لإقامة الحجَّة عليهم حيث لا يبدون ما يمكن أن يكون اعتذارًا مقبولًا، أو يقال: هي مواطن للقيامة مختلفة، فيؤذن لهم في بعضها بالاعتذار، وفي بعضها لا يستطيعون الاعتذار من أصله لعدم الإذن لهم فيه، ونحو ذلك من وجوه التَّوفيق.

استمرارُ نفي نفع اعتذارهم مهما اعتذروا

**دلالة التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَنفَعُ﴾:**

عبَّر بالمضارع في قوله: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ﴾؛ لما فيه من معنى الاستقبال، وللدَّلالة على استمرار النَّفي وعمومِه، والمراد بالاعتذار المنفي نفعه، كما سلف في الفقرة الماضية، أي: الاعتذار المعقول المقبول، فإنَّهم لا يبدون أبدًا اعتذارًا مقبولًا، لكن قد يقع منهم أصل الاعتذارِ، وإن وقع؛ فهو غيرُ نافع.

الكافرون ظلموا أنفسَهم والمؤمنين، فكانوا من أهل الجحيم

**معنى(أل) في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ونكتة تقديمه على الفاعل:**

(أل) في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للجنس، فكلُّ الظّالمين الَّذي طبعوا على الظُّلم، وثبت لهم هذا الوصف، لا ينفعهم اعتذارهم عن ظلمهم في هذا اليوم، ونكتةُ تقديم المفعول على الفاعل هنا كونه الأولى بالتقديم؛ لأنَّ السّياق ومدار الحديث هو عن الظّالمين وظلمهم،

وكيف أنَّه كان السَّبب في انصرافهم عن الإيمان، فصرف الله عنهم النَّصر في الحياة الدُّنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم إنَّه - أي: الظُّلم - كان سببًا في عدم جدوى أيِّ اعتذار لهم لعدم نفعه، كلُّ هذه المعاني ناسبها تقديم المفعول، فهو محلُّ الاهتمام الأكبر في الكلام والاعتناء وليس الفاعل.

### نكتةُ إظهارهم بصفة الظُّلم بعد وصفهم بالكفر:

إبـراز السَّبب الـذي أوردهـم جهنَّم وحرمهم التَّوفيق وهو الظُّلم

وصْفُ أهلِ النار بالكفر أوَّلًا في قوله: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾، ثمَّ وصْفُهم بالظُّلم ثانيًا في قوله: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ﴾، دالٌّ على أنَّ المراد بالظُّلم هو الكفر مضافًا إليه ألوان الظُّلم المختلفة من ظلمهم لأنفسهم وللنّاس، وإنَّما أظهره في محلٍّ كان يمكن فيه الإضمار بأن يقال: (يوم لا ينفعهم معذرتهم)؛ لإبراز السَّبب الَّذي أوردهم النّار، وجعلهم في قاع جهنَّم، وحرمهم التَّوفيق الإلهيَّ، وهو كونهم ظالمين لأنفسهم قبل كلِّ شيء، كما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٥ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ٧٦﴾ [الزخرف: 74 - 76]، فقد مارسوا شتَّى أنواع الظُّلم، وأشدُّه الكفرُ والشِّرك، كما قال تعالى حكاية عن وصيَّة لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13].

### دلالةُ التَّعبير بـ﴿مَعۡذِرَتُهُمۡۖ﴾ مادَّة وصيغة:

يحاولُ الظّالمون الاعتذار بكلِّ معذرة، ولكن هيهات هيهات

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بمادة العذر في قوله: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ﴾ والتي تعني إظهار العذر - بضمِّ العين وسكون الذال - والعذر السَّبب الذي تبطل به المؤاخذة بذنب أو تقصير، فهو بمنزلة الحجَّة الَّتي يبديها المؤاخذ بذنب، ليظهر أنَّه بريء ممّا نسب إليه، أو متأوِّل فيه، ويقال: عذره؛ إذا قبل عذره، وتحقَّق براءته[1]، ونظمها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 152.

مصدرًا ميميًّا؛ ليدلَّ على أنَّهم بالغوا في الاعتذار والتَّنصُّل من جرمهم جهدَ طاقتهم، وأنَّه لا ينفعهم لا اعتذارهم ولا زمانه ولا مكانه[1].

### نكتةُ إضافة المعذرة إلى ضمير الظّالمين:

لا يعتذرُ في ذلك اليوم إلّا الظّالمون المعتدون

إضافة (معذرة) إلى ضمير الَّذين ظلموا تقتضي أنَّ المعذرةَ واقعة منهم، ثمَّ يجوز أن تكون الإضافة للتَّعريف بمعذرة معهودة، ويجوز أن يكون التَّعريف للعموم، كما هو شأن المصدر المضاف، أي: لا تنفعهم معذرة يعتذرون بها مثل قولهم: ﴿غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ [المؤمنون: 106]، وقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: 38][2].

### معنى الواو في قوله: ﴿وَلَهُمُ﴾ في الموضعين:

الــواو عاطفة جامعة لهم بين أنواع الجزاء الثّلاثة

الواو عاطفة، عطفت جملة: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ على جملة: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ﴾ بقصد الجمع بين الجزاءين، وسيأتي بعد ذلك جزاء ثالث هو في قوله: ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، فيكون قد جمع لهم بين ثلاثة أنواع من الجزاء، كلُّ واحدة منها أكثر إيحاشًا من سابقتها، وهي على التَّرتيب: عدم قَبول معذرتهم لعدم نفعها وجدواها، وأنَّهم ملعونون مطرودون من رحمة اللّه، والثّالثة: أنَّ لهم سوءَ الدار يعاقبون فيها بأقسى ألوان العقاب.

### معنى اللّام في ﴿وَلَهُمُ﴾ في الموضعين:

استعارة (اللام) محل (على) للتّهكُّم بالظّالمين والسُّخرية منهم

اللام الجارَّة في قوله: ﴿وَلَهُمُ﴾ في الموضعين من قوله: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ للتَّهكُّم والوعيد[3]، وبيان ذلك أنَّ اللام مستعارة استعارة تبعيَّة بدل (على)؛ لأنَّ الأصل: (وعليهم اللعنة) وهذه كالتي في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء: 7]، والأصل: (فعليها)، كما ينبئ عن هذا الفرق بين كلٍّ من (اللام وعلى)،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 88.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 132.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 79.

قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: 286]، فظهر بذلك أنَّ (اللام) إنَّما تُستعمل في النّافع، و(على) إنَّما تستعمل في الضّارِّ؛ وعليه فإنَّ التَّعبير بـ(اللام) الَّتي تكون في النّافع في محلِّ (على) التي تكون في الضّارِّ فيه تهكُّمٌ بهم وسخريةٌ منهم.

### نكتةُ تقديمِ شبه الجملة (لهم) في الموضعين:

ليس للظّالمين إلّا الخزي والخسران

تقديم شبه الجملة الجار والمجرور (لهم) في الموضعين من قوله: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، وهو الخبر في كلتا الجملتين يفيد الحصر والاختصاص، يعني: اللَّعنة مقصورة عليهم وحدهم دون المؤمنين، وهي الإهانة والإذلال، وكذلك سوء الدار، وهو العقاب الشَّديد(1)، ونصَّ ابن عاشور على أنَّ تقديم (لهم) في هاتين الجملتين للاهتمام بالانتقام منهم(2).

### معنى (أل) في ﴿ٱللَّعۡنَةُ﴾ ودلالة التَّعبير بها:

صدّوا عن الحقِّ، فأُبعِدوا عن الرَّحمة

(أل) في ﴿ٱللَّعۡنَةُ﴾ للجنس بما يشمل كلَّ أفراد اللَّعنة وأنواعها، وكلَّ أوقاتها، أي: في الدُّنيا والآخرة، والتَّعريف بـ(أل) هنا يفسِّرُه التَّعريف بالإضافة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾ [البقرة: 161].

واللَّعْنُ: الطَّردُ والإبعاد من الخير على سبيل السَّخط، وذلك من اللّه تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدُّنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره(3)، واللَّعنةُ الاسمُ(4)، وأوثِرَ التَّعبير بالاسم؛ للدَّلالة على ثبوت اللَّعنة لهم مع دوامها.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 524، وأبو موسى، آل حم فصل وغافر، ص: 188.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 169.
(3) الراغب، المفردات: (لعن).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (لعن).

### نوعُ الإضافةِ في قوله: ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾:

لا سوء أعظمُ من سوء عذاب النار

الإضافةُ في قوله: ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ هي من إضافة الصِّفة للموصوف، أي: الدار السّوءَى[1]، وتقديم الصِّفة هنا على موصوفها؛ لتأكيد المبالغة في وصف دار الكافرين بالسوء، وهي النّار الحاوية لكلِّ سوء، هذا مع ما يتقدَّمها من المواقف الصَّعبة[2].

### نكتةُ تقديم ﴿ٱللَّعۡنَةُ﴾ على ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾:

التَّرقّي في ترتيب الجزاءات الثَّلاثة من الأدنى إلى الأعلى

التَّرتيب بين الجزاءات الثلاثة الثابتة في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، وهو ترتيب على سبيل التَّرقّي من الأدنى إلى الأعلى، أو قل: مِنَ الشَّديد إلى الأشدِّ ثمَّ إلى أشدِّ الأشدِّ؛ إذ يبدأ بذكر عدم قَبول معذرتهم حتى إذا انتهى منه؛ انتقل إلى ما هو أشدُّ، وهو الطَّرد من الرَّحمة، ثم يأتي المستقرُّ في جهنَّم - والعياذ باللّه - وهو أشدُّ الأشدِّ، وذلك ليزدادوا سوءًا بعد سوء، فلا يبقى لهم رجاء، ولا طمع في تخفيف العذاب، ولو كان يومًا كما طلبوا في قولهم لخزنة جهنَّم: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٤٩﴾ [غافر: 49].

## الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### اللَّعن والغضب:

الغضب أشدُّ من اللَّعن؛ لأنَّه مقدِّمة الانتقام

اللَّعْنُ: الطَّرد والإبعاد من الخير على سبيل السَّخط، وذلك من اللّه تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدُّنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره[3] واللَّعنةُ الاسمُ[4].

وأصل (غضب) يدلُّ على شدَّةٍ وقوَّةٍ، والغَضْبَة: الصخرة

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 330.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 88.
(3) الراغب، المفردات: (لعن).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (لعن).

الصُّلبة، قالوا: ومنه اشتُقَّ الغضب؛ لأنَّه اشتداد السُّخط[1]، ويعرَّف الغَضَب بأنَّه: ثوران دم القلب إرادة الانتقامِ، كما قال الرّاغب الَّذي قال أيضًا: وإذا وصف الله تعالى به؛ فالمرادُ به الانتقام دون غيره[2].

وعن الموازنة بين اللَّعن والغضب، قيل: الغضب أشدُّ من اللَّعن؛ لأنَّه مقدِّمة الانتقام، واللَّعن: الإبعاد المجرَّد، وقد لا ينتقم[3]، وأكَّد هذا الفرق أيضًا البقاعي الَّذي قال: الغضب أبلغُ من اللَّعن الذي هو الطَّرد؛ لأنَّه قد يكون بسببٍ غير الغضبِ[4]، وعلى هذا، فكلٌّ مِنَ اللَّعن والغضب ممّا يقتضي الانتقام من كلٍّ مِن الملعون والمغضوب عليه غير أنَّ أثر الغضب أشدُّ أثرًا وأبلغُ إيلامًا، وهذا التَّفريق بينهما إنَّما يكون حال اجتماعهما في سياق واحد، فإن افترقا؛ اجتمع معناهما بأن يكون المذكور منهما متضمِّنًا معنى غير المذكور أيضًا، كما هو الحال مع لفظَي الإيمان والإسلام والفقير والمسكين.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غضب).
(2) الراغب، المفردات: (غضب).
(3) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 271.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 218.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٥٣ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٤﴾ [غافر: 53 - 54]

## ❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قبلَهُما:

من مصاديق نصرِ اللهِ لرسلهِ عليهم السلام في الدُّنيا

لمّا بيَّن الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ سنَّته المُنبِئة عن قدرته المطلقة في نصر الأنبياء والمؤمنين في الدُّنيا والآخرة، وهو يوم يقومُ الأشهاد، ولا ينفع الظّالمين ما يبدونه فيه من معاذير، ذكر هنا "نوعًا مِن أنواع تلك النُّصرة في الدُّنيا"[1]، ومصداقًا من مصاديقها، فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وأيضًا: لمّا سبق ذكر ما جرى لموسى وفرعون، وما آل إليه أمر فرعون وجنوده، ثمَّ ذكر الحكم العامَّ الشّامل له ولأهل النّار؛ ذكر أنَّه أعطى موسى ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾، أي: الآيات، والعلم الذي يهتدي به المهتدون[2]، وهذا من أعظم أنواع النَّصر للمرسلين والمؤمنين؛ لأنَّه نصر بالحجَّة البالغة المقنعة، وهي باقية لا تفنى.

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾: أصل (هدى) يدلُّ على معنى التَّقدُّم للإرشاد، ومنه قولهم: هديته الطَّريق هداية، أي: تقدَّمته لأرشده، وكلُّ متقدِّم لذلك هادٍ، والهدى: خلاف الضَّلالة، تقول: هديته هُدًى[3]، والهداية دلالة بلطف ... وخصَّ ما كان دلالة بهديت - الثلاثي - وما كان إعطاء بأهديت - الرباعي - [4] والهداية في اللُّغة الإرشاد، لكنَّها

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 525.
(2) السعدي، تفسير السعدي، ص: 739.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدى).
(4) الراغب، المفردات: (هدى).

تتصرَّف على وجوه يعبِّر عنها المفسِّرون بغير لفظ الإرشاد، وكلُّها إذا تؤمِّلت؛ رجعت إلى الإرشاد، هكذا قال ابن عطيَّة[1]، والمرادُ بالهدى في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ الرِّسالة، وما يُهتدَى بِه من المعجزاتِ والصُّحفِ والشَّرائع[2].

2) ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾: أورثنا: (ورث) من الوِرث، والميراثُ أصلُهُ الواو، وهو أن يكونَ الشَّيءُ لِقوم، ثُمَّ يَصيرَ إلى آخرينَ بنسبٍ أو سببٍ[3]، ويقال لكلِّ من حصل له شيء من غير تعب: قد ورِثَ كذا، ويقال لمن خوِّلَ شيئًا مهنِّئًا: أورِثَ، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الزخرف: 72]، ومعنى ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: وتركنا عليهم من بعدِه التَّوراةَ[4].

3) ﴿وَذِكْرَىٰ﴾: أصل (ذكر) يدلُّ على خلاف النِّسيان، يقال: ذكرت الشَّيء، خلاف نسيته، ثمَّ حمل عليه الذِّكْرُ باللِّسان، ويقولون: اجعله منك على ذُكْرٍ، بضمِّ الذَّالِ، أي: لا تنسه[5]، والذِّكرى: كثرةُ الذِّكر، وهو أبلغ من الذِّكر، قال تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٤٣﴾ [ص: 43]، والتَّذكِرَةُ: ما يتذكَّر به الشَّيء، وهو أعمُّ من الدَّلالة والأمارة، قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩﴾ [المدثر: 49]، ومعنى: ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، أي: إرشادًا وتذكرة لذوي العقول[6] الرَّاشدة الزَّاكية.

## ❁ المَعنى الإجْماليُّ:

تسليةُ الرَّسول ﷺ بما منحه اللـه لموسى عليه السلام من الهُدى والنَّصر

في هاتين الآيتين يُسلِّي ربُّ العزَّة سبحانه رسوله محمَّدًا ﷺ حين اشتدَّ عليه إعراضُ قومه، بما آل إليه أمرُ نبيِّه موسى عليه السلام بعدما تنكَّر

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/ 73.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 280.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ورث).
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 280.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(6) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 216.

له فرعونُ، وخرج في عقبهِ يريد الفتكَ بهِ وبمن معه، فقد أكرمه ربُّه بأن آتاه ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾، فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ﴾، أي: التَّوراة الهادية الَّتي فيها الحجَّة البالغة والهداية الكاملة لكلٍّ من تمسَّك بها عن حقٍّ، وأمّا الذين آمنوا به؛ فقد أبقى فيهم هذه التوراة يحتكم إليها أصحاب العقول الواعية الراشدة، ويهتدون بها، ويتذكَّرون بما ترشدهم إليه من الخير، ويذكِّر بعضُهم بعضًا بذلك كلِّه، ولا يشذُّ عن هذا إلّا أصحاب العقول السَّقيمةِ، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ۝٥٣ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، فهي ذكرى لهؤلاء دون غيرهم مِن أهلِ الهوى والغواية.

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### دلالةُ الواو في ﴿وَلَقَدۡ﴾:

**تثبيتُ القلوبِ بذكر سنَّة الله في نصر المؤمنين**

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ استئنافيَّة، والجملة بعدها معترضة بين ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾، وبين التَّفريع عليه في قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾[1]، والغرض من الجملة تأكيد معنى كونه سبحانه ناصرًا رسله ومؤيِّدهم مهما كانت قوَّة أعدائهم، نصرًا محقَّقًا لا يحتمل أيَّ شكٍّ فيه، ليبثَّ هذا التَّحقيق السَّكينة والطُّمأنينة في نفوس أهل اللّه، ويبثَّ التَّخويف والتَّرهيب في نفوس أعدائهم.

### فائدةُ تتابع المؤكِّدات:

**إزالـــةُ مـا في نفوس الضُّعفاء مِن اهتزاز ثقتِهم في نـصـر الـلـه المـؤمـنـين على الجبّارين**

تتابعت المؤكِّدات في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ بالقَسَم المقدَّر الذي أنبأت عنه (اللام)، وبحرف التَّحقيق (قد) الداخلة على الفعل الماضي، مع كونه واقعًا مقرَّرًا؛ لإزالة ما استقرَّ في النُّفوس من أنَّ ملوك الدُّنيا لا يغلبهم الضُّعفاء[2]، فإنَّ العاقبة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 169.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 89، بتصرف.

للرُّسل بما آتاهم اللّه من الهدى، وإن عظمت قوَّة من يعاندهم، فالمعاند ضالٌّ عن الهدى، والضّالُّ هالك وإن طال المدى.

**نكتةُ إسناد الإيتاء إلى ضمير العظمة:**

الفضلُ في النَّصر لله سبحانه والعزَّة كلُّها في الالتجاء إليه

أسند الفعل إلى ضمير العظمة في قولِه جل شأنه: ﴿ءَاتَيْنَا﴾، كما أسند النَّصر إليه، كذلك في قوله فيما سبق: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾؛ لإبراز عزَّته سبحانه وعظمته في نصْرِه لرسلِه وعباده المؤمنين؛ كي يفرحوا بنصره سبحانه، ويعتزّوا به، وأن يسندوا كلَّ فضل في ذلك إليه سبحانه، كما قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]، وقال: ﴿وَيَوْمَئِذٖ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾ [الروم: 4 - 5].

**نكتةُ التَّقديم والتَّأخير بين مفعولَي الإيتاء:**

تقديمُ الأهمِّ على المهمِّ

قوله سبحانه: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ بتقديم ﴿مُوسَى﴾ وهو المفعول الأول لـ (آتى) على ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾، وهو المفعول الثّاني وعدم العدول إلى ترتيب مغاير هو من باب تقديم الأهمِّ؛ لأنَّ الحديث الأهمَّ هو عن نصر اللّه تعالى لرسله، وليس عن وسائل هذا النَّصر مع كونه مهمًّا كذلك، فهو من باب تقديم الأهمِّ على المهمِّ.

**معنى (أل) في ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾:**

دينُ اللهِ هو الهدى للعالمين

(أل) في ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ للعهد، والمقصود الرِّسالة والكتاب فهما الهدى بما يتضمَّناه من صحَّة المنهج وقوة الحجَّة.

ويمكن حملها على الجنس، وهو اتِّجاه الطَّيبيِّ في قوله: "ألا ترى كيف أطلق الهدى في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾؛ ليكون شائعًا في جميع جنسه، فيتناول جميع ما آتاه اللّه في باب الدّين"[1].

وكلمة ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ مصدر الفعل (هَدَى)، والتَّعبير به بإيثار صيغة

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 528.

المصدر إشعار بأنَّه ﵇ قد أوتي الهدى نفسه، وهكذا الشَّأن مع كلِّ الرُّسل ﵈ فقد أيَّدهم الله تعالى بالرِّسالة وبالمعجزات الَّتي تثبت صدقهم وصدقها.

**بلاغةُ المجازِ في ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾:**

الـهُـدى الكامل هـو الـهُـدى في الـدِّيـن، وهـو الرِّسالة والكتاب

استعمال لفظ ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ من باب المجاز؛ إذ هو مصدر الفعل: هدى يهدي، تُجوِّز به عن كلِّ ما يُهتدى به من المعجزات والصُّحف والشَّرائع، أو جُعِلَ عين الهدى مبالغة فيه[1].

ومِن دلالات هذا المجاز هنا أنَّه يلزم من إيتاء هذا الهدى الكامل لنبيِّه موسى ﵇ أن يكونَ له العاقبة، وإن تناهت ضخامة من يعانده؛ لأنَّه ضالٌّ عن الهدى، والضّالُّ هالك، وإن طال المدى[2].

**معنى الواو في قوله: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا﴾:**

كـتـابُ الـلـهِ ووحـيـه أعظم الهدى

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا﴾ عاطفة، عطفت ما بعدها من توريث الكتاب على جملة ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ بقصد الجمع بينهما؛ للإيعاز بأنَّ كلًّا منهما نوعٌ مستقلٌّ من أنواع النَّصر، فالنَّصر والعزَّة لموسى ﵇ كان بإيتائه الهدى، والنَّصر والعزَّة لقومه كان بما ورثوه من الكتاب.

وفي هذا العطف دلالةٌ على عظيم الشَّيء الموروث، وهو العلم والكتاب الهادي الناطق بالحكمة والموعظة، ألا ترى كيف أطلق الهدى في قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ﴾؛ ليكون شائعًا في جميع جنسه، فيتناول جميع ما آتاه اللّه في باب الدين، ثمَّ جعل نصيب أمَّته الكتاب وحده؟[3] وأسند الفعل لضمير العظمة تأكيدًا لهذا التَّفخيم والتَّعظيم.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 330.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 89.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 528.

### بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا﴾:

التَّعبيرُ بالإيراث عن التَّرك إمّا أنَّه على سبيل الاستعارة التَّبعيَّة، أو المجاز المرسل

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا﴾ استعارة تبعيَّة؛ إذ شُبِّه ترك الكتاب عليهم بالإيراث في كونه تركًا للمال مِنَ المورِّث إلى الوارث؛ ولكونِهِ أقوى أسباب الملك اختير (أورثنا) على سائر أسباب الملكِ[1]، وقيل: عبَّر بالوراثة؛ لأنَّ بني إسرائيل طوائفُ تنتقلُ فيهم التَّوراة من جيلٍ إلى جيل، فكان بعضهم يرثها عن بعض[2]، ويصحُّ أن يكونَ الإيراث مجازًا مرسلًا عن التَّرك[3]، أي: بعلاقة المسببيَّة، فالإيراثُ مسبَّبٌ عن التَّرك، أو بعلاقة المآل.

### نكتةُ تقديم الإيتاء على التَّوريث:

تقديمُ السّابق والسَّبب على نتيجتهِ

التَّرتيب بين الإيتاءِ على التَّوريث بتقديم الإيتاء على التَّوريث هو ترتيب وجودي؛ لأنَّ إيتاءَ موسى النُّبوَّة والكتاب، وهو المكنيُّ عنهما بالهدى في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ﴾، كان سابقًا لإيراث بني إسرائيل ذلك الكتاب الذي أوتيه موسى عليه السلام مِن قبلُ.

وفي هذا التَّقديم كذلك تأنيس للنَّبيِّ ﷺ بِذِكر حال موسى عليه السلام، وما آتاه اللّه من النُّبوَّة والكتاب، ثمَّ النُّصرة والتَّمكين له على عدوِّه؛ فالنَّبيُّ ﷺ ليس بدعًا من ذلك[4]، وسنَّة اللّه تعالى في نصرة أوليائه معروفة موعودة.

### بيانُ مفعولَيِ التَّوريث ونكتة التَّرتيب بينهما:

التَّقديم للأهمِّ بحسب السياق

قوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الفعل (أورث) يتعدَّى إلى مفعولَين، الأوَّل مِنهما هو ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، ونُصب بالياء؛ لكونه ملحقًا بجمع المذكَّر السّالم، وحذفت نونه للإضافة والأصل (بنين)، والمفعول الثاني هو ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وقد روعي تقديم الأهمِّ منهما في هذا

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 80.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 398.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 330.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 564.

التَّرتيب بينهما، وذلك أنَّ مدارَ الكلام عن نصرِ اللّه ﷻ للمؤمنين، وهم هنا بنو إسرائيل، بعد الكلام عن نصرهِ لرسولهم.

### نكتةُ التَّعبير بـ﴿بَنِيٓ﴾ وإضافتها إلى إسرائيل:

عظيمُ نعمةِ اللّه على بني إسرائيل

إسرائيلُ هو يعقوب عليه السلام، وفي التَّعبير بـ ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ دون تخصيصه ببعض أصحاب الشَّرائع منهم كاليهود فقط أو النَّصارى فقط ما يفيد العموم المفهوم من عموم اللَّفظ ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، وذلك للإشارة إلى عظيم نعمة اللّه تعالى عليهم جميعًا.

### معنى(أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

أنعمَ اللّهُ تعالى على بني إسرائيل بالتَّوراة وغيرها مِنَ الكتب

(أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يجوز أن تكونَ للعهد، فيكون المرادُ بالكتاب التَّوراة فقط؛ لأنَّ سياق الآية في الحديث عن موسى عليه السلام، وكتاب موسى هو التَّوراة[1].

ويجوز أن تكونَ (أل) جنسيَّة، والتي تعني: أنَّ المرادَ باللَّفظ جنس ما أنزله اللّه على رسل بني إسرائيل مِنَ الكُتُب[2]، فيكون النَّصُّ بـ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ قرينةً تؤيِّد عموم ما أنزله اللّه على رسلهم، وهي كُتُب عديدة منها (التَّوراة والإنجيل والزَّبور)، وكلُّها نزلت من عند اللّه تعالى، فهي كُتُبٌ هاديةٌ لمن اتَّبعها مقيمة للحُجَّة على مَن خالفها، فكان فيها النَّصر والغلبة بحقٍّ، ما داموا قائمين عليها كما أنزلها اللّه.

### بلاغةُ الحذفِ في الآية:

أعظمُ الميراثِ ميراث الكتاب والعلم

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إيجاز حذف، وتقدير الكلام: (ولقد آتينا موسى الهدى والكتاب، وأورثنا بني إسرائيل الكتاب)، وذلك أنَّ موسى عليه السلام قد

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 347، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 330.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 525، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 569.

أوتي من الهدى ما لم يرثه بنو إسرائيل، وهو الرِّسالة، وأوتي من الهدى ما أورثه بنو إسرائيل، وهو الشَّريعة الَّتي في التَّوراة[1].

**الموقع النَّحويُّ لقوله: ﴿هُدَى وَذِكۡرَىٰ﴾ ودلالة تنكيرِهما:**

أعظمُ الهدى هدى الوحي والكتاب

قوله تعالى: ﴿هُدَى وَذِكۡرَىٰ﴾ منصوبان، وفيهما وجهان: أحدهما: أنَّهما مفعولٌ مِنْ أجلهما، أي: لأجلِ الهدى والذِّكر. والثاني: أنَّهما مصدران في موضعِ الحالِ[2]، أي: هاديًا ومذكِّرًا[3].

والتَّنكير في اللَّفظين للتَّعظيم والتَّكثير، أي: في الكتاب هدًى وبيانٌ عامٌّ لمن اتَّبعه من المهتدين، وذكرى عظيمة للمتدبِّرين والمستنبطين من أصحاب القلوب الصّافية والعقول الوافية الشّافية[4].

**نكتةُ التَّقديم والتَّأخير في قوله: ﴿هُدَى وَذِكۡرَىٰ﴾:**

الهُدى أعمُّ وأسبق وجودًا من الذِّكرى ولذا قُدِّم عليها

نكتةُ تقديم الهدى على الذِّكرى في قوله: ﴿هُدَى وَذِكۡرَىٰ﴾ على ما يظهر أنَّه من تقديم العامِّ على الخاصِّ، بعطف الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ الهدى إنَّما يكون لجميع الأتباع أهل العلم منهم وغيرهم، وأمّا الذِّكرى؛ فهي لأهل العلم، فيكون المعنى: في الكتاب هداية وإرشاد لجميعهم، "وفيه ذكرى لما علمه أهل العلم منهم، وتشمل الذِّكرى استنباط الأحكام من نصوص الكتاب، وهو الَّذي يختصُّ بالعلماء منهم من أنبيائهم وقضاتهم وأحبارهم"[5].

ويمكن القول بأنَّ تقديم الهدى السَّبب فيه هو كونه أسبق وجودًا، فالهدى هو الدَّلالة على الشَّيء، وأمّا الذِّكرى؛ فإنَّها تقتضي شيئًا كان موجودًا ثمَّ نُسيَ، أي: إنَّ الذِّكرى مسبوقة وجودًا بالهدى، وقد أشار إلى هذا المعنى الفخر الرازي بقوله: والفرق بين الهدى والذِّكرى أنَّ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 169.
(2) السمين، الدر المصون: 9/ 492.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 330.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 89.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 170.

الهدى ما يكون دليلًا على الشَّيء، وليس من شرطهِ أن يذكر شيئًا آخر كان معلومًا، ثم صار منسيًّا، وأمّا الذِّكرى؛ فهي الَّتي تكون كذلك، فكُتُب أنبياء اللّه مشتملةٌ على هذين القسمين بعضها دلائل في أنفسها، وبعضها مذكِّرات لما ورد في الكتب الإلهيَّة المتقدِّمة(1).

**دلالةُ اللّامِ والإضافةِ في قوله: ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:**

آياتُ اللهِ هادية لأولي العقول الواعية

اللّام في قوله: ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ هي لام الاختصاص، وذلك أنَّ الذين ينتفعون بما في الكتاب، فيكون لهم هدى وذكرى هم أولو الألباب دون غيرهم.

والمرادُ بـ(أولي الألباب) أصحابُ العقول الرّاشدة الواعية القادرة على الفهم والاستنباط، وإنَّما أضيفت (أولي) إلى ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ للبيان والتعريف؛ لأنَّ كلمة (أولي) مبهمةٌ، ولا تبيَّن إلّا بالإضافة إلى ما يعرِّفها.

## ۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

**العقل والحِجر والنُّهى واللُّبّ:**

مسمّاها واحد بناء على اعتبارات مختلفة، لكنَّها متقاربة أو متعاونة

فالعقل: هو الحابِسُ عَن ذَميم القَولِ والفِعْلِ، فالعَيْنُ والقافُ واللّامُ أصلٌ واحِدٌ مُنقاسٌ مُطَّرِدٌ، يَدُلُّ عُظْمُهُ عَلَى حُبسَةٍ في الشَّيءِ(2).

واللُّبُّ: هو الخالصُ من كلِّ شيء، فاللّامُ والباءُ أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى لُزومٍ وثَباتٍ، وعَلَى خُلوصٍ وجَوْدَةٍ(3).

ويُفهم من هذا التَّأصيل اللُّغوي أنَّه قد روعي في تسميته عقلًا كونه يحصر مَعْلومات المَوصوف بِهِ، كما روعي في تسميته لُبًّا كونه من خالص صِفات المَوصوف بِهِ(4).

فاللُّبُّ إذًا هو العقل الزّاكي الَّذي ينتفع به صاحبه، ولا يكفي أن

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 525.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: 4/ 69.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: 5/ 200.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 84.

يكون صاحبه فردًا مِن أفراد الجنس العاقل؛ لأنَّ اللُّبَّ هو الخالص المنتقى من كلِّ شيء، الخالي من الشَّوائب، فإطلاقُهُ على العقل؛ "لكونه خالص ما في الإنسان من قوَّةٍ كاللُّباب من الشَّيء"(1).

والنُّهى: جمع نُهية، هي العقول حال كونها صالحةً؛ لأن تنهى صاحبها عن فعل القبيح، وسُمّيت بذلك؛ لأنَّ "مِن شأنها النَّهي عما لا ينفع فضلًا عمّا يضرُّ"(2)، لكنَّها والحالة هذه قد لا تقوم بدورها في النَّهي، أو أنَّها تقوم به، لكن صاحبها لا يلتزم بتوجيهها، عنادًا لها ومكابرة، أو ضعفًا وانعدام همَّة، ولذلك ورد التَّعبير عن العقول بالنُّهى في مقام إنكار عدم الاهتداء بنواهي العقول في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ١٢٨﴾ [طه: 128].

والحِجر: معناه المنع والإحاطة على الشَّيء(3)، ومنه قيل للعقل: حِجْر؛ لكون الإنسان في مَنْعٍ منه ممّا تدعو إليه نفسه(4)، قال تعالى: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ٥﴾ [الفجر: 5].

فهذه المفردات هي إطلاقات على العقل كلٌّ باعتبارٍ مختلف عن الآخر، فالعقل اسم له باعتبار أنَّه يعقل صاحبه، ويحبسه على ما يوجِّهه إليه، والنُّهية اسم له باعتبار أنَّه ينهى صاحبه عمّا لا ينبغي له فعله، والحجر باعتبار أنَّه يمنعه عمّا لا ينبغي له فعله، وهو أيضًا اللُّبُّ، فاللُّبُّ باعتبار انتفاع صاحبه به، فهي إذًا أسماء متعدِّدة لمسمًّى واحد بناء على اعتبارات مختلفة لكنَّها متقاربة أو متعاونة.

---

(1) الراغب، المفردات، ص: 733.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 365.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حجر).
(4) الراغب، المفردات: (حجر).

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ۝٥٥﴾ [غافر: 55]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تطمين قلب الرّسول ﷺ بأنّ وعد الله بالنّصر قائم في حقّه كما كان مع موسى عليه السلام

بعد أن تقدَّم الوعد المؤكَّد بنصرة الرُّسل وأتباعهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾، وما تلاه من ذِكر موسى عليه السلام وأمَّته كمصداق واقع لهذا الوعد؛ انتقل الخطاب بعد ذلك إلى الرَّسول ﷺ بالقول: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾؛ ليطمئن قلبه إلى أنَّ وعد اللّه بالنَّصر قائمٌ في حقِّه وحقِّ المؤمنين معه، كما كان مع موسى عليه السلام ومن معه، على معنى: (ولننصرنَّك - يا محمَّد ﷺ- مثل ما نصرنا موسى، وإن زاد إبراق قومك وإرعادهم، فإنَّهم لا يَعْشُرون فرعونَ فيما كان فيه من الجبروت والقهر والعزِّ والسُّلطان والمكر، ولم ينفعه شيءٌ منه: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾)[1]، وأيضًا فإنَّه لمّا ذكر سبحانه؛ صبر موسى عليه السلام مع فرعون، قال لرسولِه محمَّد ﷺ: (﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ على أذى قومك، كما صبر موسى مع فرعون)[2].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَقّٞ﴾: أصل (حقّ) يدلُّ على إحكام الشَّيء وصحَّته، والحقُّ نقيض الباطل، ويقال حقَّ الشَّيءُ، أي: وجب[3]، والحقُّ يقال على أوجه، منها: أنَّه يقال لموجد الشَّيء بسبب ما تقتضيه الحكمة، ولهذا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 90.

(2) الجمل، حاشية على الجلالين: 6/ 486.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).

قيل في اللّه تعالى: هو الحقُّ، ومنها أنَّه يقال أيضًا: للموجَد بحسب مقتضى الحكمة، ولهذا يقال: فِعلُ اللّه تعالى كلُّه حقٌّ[1]، ومعنى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، يعني: أنَّ نصرة الرُّسل في ضمان اللّه، وضمان اللّه لا يخلف[2].

2) ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾: أصل (عشو) يدلُّ على ظلام وقلَّة وضوح في الشَّيء، ثمَّ يفرَّع منه ما يقاربه، فمِن ذلك العشاء، وهو أوَّل ظلام اللَّيل، وعشواء اللَّيل: ظلمته[3]، والعشيُّ قيل: ما بين الزَّوال إلى الغروب، ومنه يقال للظهر والعصر: صلاتا العشيِّ، وقيل: هو آخر النَّهار، وقيل: العشيُّ من الزَّوال إلى الصَّباح، والعِشاءُ: من صلاة المغرب إلى العتمة، والعِشاءان: المغرب والعتمة[4].

3) ﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾: أصل (بكر) يدلُّ على أوَّل الشَّيء وبدئه، ومنه: البُكْرَةُ، وهي الغداة، والجمع البُكَرُ، والتَّبكير والبكور والابتكار المضيُّ في ذلك الوقت، والإبكار: البُكْرَةُ، كما أنَّ الإصباح اسمُ الصُّبح[5]، والبَكور: المبالغ في البَكرة[6]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، أي: دم على عبادة ربِّك والثَّناء عليه بِالعَشيِّ والإبكارِ، قيل: هما صلاتا العصر والفجر، وقيل: الإبكار، عبارة عن أول النَّهار إلى النِّصف، والعشي عبارة عن النِّصف إلى آخر النَّهار، فيدخل فيه كل الأوقات[7].

## ۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

أمره ﷺ بالصَّبر مع ذكر المعينات عليه حتى بلوغ النَّصر

خاطب اللّه تعالى رسوله محمَّدًا ﷺ قائلًا له: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ يا أيُّها

(1) الراغب، المفردات: (حق).
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 173.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عشو).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (عشي)، والراغب، المفردات: (عشا).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بكر).
(6) الراغب، المفردات: (بكر).
(7) الزمخشري، الكشاف: 4/ 173، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 525.

الرَّسول كما صبر مَن قبلك مِن أولي العزم المرسلين: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾، أي: ليس مشكوكًا فيه، أو فيه ريبٌ أو كذبٌ، حتَّى يعسر عليك الصَّبر، وإنَّما هو الحقُّ المحض، والهدى الصَّرف، الَّذي يصبر عليه الصّابرون، ويجتهد في التَّمسُّك به أهل البصائر، ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ المانع لك من تحصيل فوزك وسعادتك، فأمره بالصَّبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبالاستغفار الذي فيه دفع المحذور، وبالتَّسبيح بحمد اللّه تعالى خصوصًا: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ اللَّذين هما أفضل الأوقات، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبَّة ما فيهما؛ لأنَّ في ذلك عونًا على جميع الأمور[1].

## ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### معنى الفاء في قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾:

الفاء للتَّفريع، أو هي الفاء الواقعة في جواب شرط مقدَّر

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ تفريع على قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾؛ لترتيب ما بعدها عليه، أي: فاعلم أنّا ناصروك والذين آمنوا، واصبر على ما تلاقيه من قومك ولا تهن[2]، أو أنَّ التَّقدير: إذا عرفت ما قصصناه عليك للتَّأسّي؛ ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ على ما نالك من أذيَّة المشركين، فإنَّ العاقبة لك[3]، فالفاء على هذا التَّقدير واقعةٌ في جواب شرط مقدَّر[4].

### دلالةُ الأمر في ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ وبيان المخاطَب:

الخطابُ للرَّسول ﷺ ليبرُدَ قلبُهُ الواثق بنصر الله إذا ما تعجَّل وقوعه

المخاطَب في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ هو الرَّسول محمَّد ﷺ، والأمر بالصَّبر في الآية على ما يظهر مقصود به أن يوطِّن الرَّسول ﷺ نفسه على ما هو واثق به من تحقيق وعد اللّه له بالنَّصر، وأن

(1) السعدي، تفسير السعدي، ص: 739.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 170، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 336.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 330، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 336.
(4) الخطيب وآخران، التفصيل: 24/ 196.

يطَمئِن المؤمنين على أنَّ نصر اللّه حاصلٌ - لا محالة - والأمر بالصَّبر هنا لا يعني بحال أنَّه ﷺ كان في شكٍّ من وعد اللّه، فحاشاه، ولكنَّه لتبريد قلبهِ ولتطمين أتباعه، فهو لا يعدو في حقّه أن يكون من قبيل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1]، أو يكون المقصود بالأمر المؤمنين لتعجُّلهم النَّصر، فيكون كالخطاب في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ١٤٧﴾ [البقرة: 147]، فإنَّه محال أن يكون ﷺ من المترين، ومثل هذا الخطاب الَّذي يوجَّه إلى الرَّسول ﷺ، وتكون الأمَّة هي المرادة به، إنَّما يكون في القضايا المهمَّة.

وعدُ الله آتٍ، ومَن أصدق مِن الله قيلًا؟.

### نكتةُ فصل قوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾:

فصلت جملة: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ عن سابقتها؛ لكونها جملةً تعليليَّة لها[1]، على معنى: ﴿فَٱصْبِرْ﴾، وثق في نصر اللّه ووعده لك بذلك؛ لأنَّ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، أو يقال: هي استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن سؤال عن علَّة الأمر بالصَّبر، فكان الجوابُ: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، أي: لأنَّه كذلك، فيكون بينها وبين سابقتها شبه كمال اتِّصال.

التَّأكيد للاهتمام بالخبر، لا لإزالة شكٍّ لدى المخاطَب

### نكتةُ تتابع المؤكّدات في قوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾:

تأكَّد الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ التَّوكيديَّة ثم باسميَّة الجملة، لا لإزالة شكٍّ ونحوه من قِبَل المخاطَب؛ لأنَّ ذلك غير حاصل لدى المخاطَب، ولكن للاهتمام بالخبر وإفادة تحقيقه، "وهي - أي: ﴿إِنَّ﴾ - في مثل هذا المقام تغني غناء فاء التعليل، فكأنَّه قيل: (فوعد اللّه حقٌّ)"[2].

### نكتةُ إضافة الوعد إلى لفظ الجلالة:

إضافة الوعد إلى لفظ الجلالة، هو من إضافة المصدر لفاعله، وفائدته تعيين الفاعل وتخصيصه لحصر الوصف بالحقِّ في وعده

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 170.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 170.

سبحانه، على معنى: لا وعد حقٌّ دائمًا إلّا وعد اللّه، وأيضًا لبثّ الاطمئنان في القلوب لتحقيقه، فهو وعد اللّه الذي لا يخلف وعده، وقد قال سبحانه في ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران: 9]، وقال: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦﴾ [الروم: 6].

تخصيص الفاعل، وهو اللّه تعالى وبثُّ الاطمئنان في قلوب الموعودين بالنَّصر

### نكتةُ الإضافة إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ إظهار في محلٍّ كان يمكن فيه الإضمار؛ إذ كان يمكن التّعبير بـ (إن وعدي حقٌّ)، لكنَّه عدل عنه إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه الجامع لجميع الكمالات الّتي من أعظمها إنفاذ الأمر وصِدق الوعد[1]، ولما في هذا الاسم الجليل من سمات الرَّغبة والرَّهبة، فذِكره يبثُّ الطُّمأنينة في قلوب الموعودين، كما أنَّه يبثُّ الخوف والذُّعر في قلوب أعدائهم.

إظهارُ الاسم الجليل له بواعثه من التَّرغيب والتَّرهيب

### نكتة تنكير ﴿حَقّٞ﴾:

التَّنكير في كلمة ﴿حَقّٞ﴾، وهو وصفٌ لوعد اللّه تعالى لتأكيد تحقُّق وقوعه؛ فوعد اللّه تعالى حقٌّ لا يخلفه سبحانه أصلًا، فلا بدَّ من وقوع نصره جلَّ شأنه لك وللمؤمنين[2].

نصرُ الأنبياء والمؤمنين من سنة ربِّ العالمين

والتَّنكير كذلك للتَّفخيم والتَّعظيم، والمعنى: فإنَّ اللّه ناصرك يا محمَّد والمؤمنين معك نصرًا مؤزَّرًا، فقد نصر اللّهُ رسلَهُ على ضعفهم وقلَّة ناصرهم، وأظهرهم على أشدِّ أعدائهم، كما كان في قصَّة موسى وما آتاه من أسباب الهدى والنُّصرة على فرعون وجنوده، وإبقاء آثار هداه في بني إسرائيل، واللّه ناصرك كما نصرهم، ومظهرك على الدّين كلِّه، ومبلغ ملك أمَّتك مشارق الأرض ومغاربها[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 90.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 330.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 173.

### معنى الواو في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ﴾ عاطفة للأمر بعدها على الأمر بالصَّبر؛ تنويهًا بضرورة الجمع بينهما، وأيضًا بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، وأنَّها جميعًا مِن أسباب استجلاب النَّصر.

### دلالةُ الأمرِ في ﴿وَٱسْتَغْفِرْ﴾:

**دلالةُ معنى الاستغفار منبثقة عن المعاني المعتبرة في المقصود بالذَّنب المضاف إلى جنابه ﷺ**

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ الخطاب فيه للرَّسول ﷺ، وهو أمر له بأن يطلب من الله تعالى المغفرة التي اقتضتها النُّبوءة، أي: اسأل الله دوام العصمة لتدوم المغفرة، أو هو تعريض بأنَّ أمَّته مطلوبون بذلك بالأحرى[1]، أو على جعْلِ الاستغفار كنايةً عمّا يلزمه من التَّواضع وهضم النَّفس والاعتراف بالتَّقصير؛ لأنَّه ﷺ معصوم أو مغفور، لا مصرٌّ ذاهل عن الاستغفار[2].

أو يكون المعنى الاستغفار ممّا لا يعدُّ ذنبًا في الحقيقة، ولكنَّه ما يعرف بخلاف الأولى، وقيل: "هذا تعبُّد من الله تعالى لرسوله ليزيد به درجة، وليصير ذلك سنَّة لمن بعده"[3]، أو لعلَّ الأمر بالاستغفار هو لأجل الأمَّة، أي: استغفر لذنب أمَّتك، "فهو على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه"[4].

### دلالةُ السّين والتّاء في ﴿وَٱسْتَغْفِرْ﴾، ونكتة حذف المتعلّق:

**السّين والتّاء زائدتان للطَّلب وحذف المتعلّق للعلم به**

السّين والتّاء تزادان في الألفاظ لتُحَوِّلها إلى معنى الطَّلب، فقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ﴾، معناه: اطلب المغفرة ممَّن يملكها، وهو ربُّك وحده؛ إذ لا غفّار للذُّنوب سواه، ولأجل العلم باسمه سبحانه كمتعلِّق للفعل لم تدعُ حاجة إلى ذكره، وهو مِن المواضع الَّتي يحسن فيها الحذف، فيكون أقوى وأبلغ من الذِّكر.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 171.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 211.
(3) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 336، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 570.
(4) الجمل، حاشية على الجلالين: 6/ 486، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 570.

### معنى اللّام في قوله: ﴿لِذَنۢبِكَ﴾:

غفر الله لنبيّه ﷺ ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر

اللّام في قوله: ﴿لِذَنۢبِكَ﴾ هي لام الأجل، أي: استغفر لأجل ذنبِكَ بناء على ما تقرَّر بيانه في معنى قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ﴾؛ إذ إنَّه ﷺ ليس له ذنب بالمعنى المتبادر إلى ذِهن مَن لا يعرف قدره ﷺ، وقد غفر اللّه له كلَّ ما مِن شأنه أن يؤخذَ عليه ممّا هو خلاف الأولى، كما قال تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح: 2 - 3].

### دلالةُ التَّعبير بالذَّنب وإضافته إلى ضمير المخاطَب:

النَّبيُّ ﷺ يرتقي مراتب الكمال

الذَّنْبُ في الأصل: الأخذ بذنَب الشَّيء - أي: مؤخِّره - يقال: ذَنَبْتُهُ: أصبت ذنَبه، ويُستعمل في كلِّ فعل يُستوخم عقباه اعتبارًا بذنَب الشَّيء، ولهذا يُسمّى الذَّنْبُ تبعةً، اعتبارًا لما يحصل من عاقبته[1]، ويُطلق الذَّنْب على الإثم والجُرم والمعصية[2]، وهو بِهذِه الدَّلالة لا يتلاءم وإضافته إلى ضميره ﷺ، فيحمل معناه هنا على ترك الأفضل والأولى[3]، أو هو كلُّ عملٍ كامل ترتقي مِنه إلى أكمل، وحال فاضل، فيكون ذلك شكرًا[4]، ويحتمل أن يكون الخطاب في هذه الآية له ﷺ، والمراد أمَّته، أي: إنَّه إذا أمر هو بهذا؛ فغيرُهُ أحرى بامتثاله[5].

### نكتةُ تقديم الأمر بالصَّبر على الأمر بالاستغفار والتَّسبيح:

اقـتـضـاءُ السّياق، وحاجة الاستغفار إلى الصَّبر

تقدَّم الأمر بالصَّبر في الآية الكريمة على الأمرِ بما بعدَهُ من الاستغفار والتَّسبيح؛ لاقتضاء السّياق ذلك، فالكلامُ إنَّما هو عن وعدِ اللّه لرسوله والمؤمنين بالنَّصر، وهو مع اليقين من قِبل الموعودين بوقوعِه قد يُستبطَأ لعدم معرفة الحِكمة من تأخيره،

(1) الراغب المفردات: (ذنب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والفيومي، المصباح المنير: (ذنب).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 52.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 90.
(5) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 4/ 564.

والنُّفوسُ عادةً مائلة إلى التَّعجيل بوقوعه، وربَّما ارتقى الحال إلى السُّؤال عن سبب تأخيره، كما ورد في الكتاب العزيز ما يدلُّ عليه، وذلك في قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: 214]، فجُعِلَ الأمران معطوفَين على الأمر بالصَّبر؛ لأنَّ الصَّبر هنا لانتظار النَّصر الموعود[1]، وهنالك سبب آخر هو أنَّ الصَّبر خُلُق يحتاجه المؤمن في كلِّ حالاته في العبادات والعادات، فيكون كلٌّ من الاستغفار والتَّسبيح مِمّا يحتاج فيهما إلى الصَّبر، وهو الصَّبر على الطّاعة، وهذا سببٌ آخر يرجِّح تقديمه على ما بعده.

### نكتةُ عطفِ الأمر بالتَّسبيح على الأمرَيْن السّابقَيْن:

عطف الأمر بالتَّسبيح بالواو على الأمرَيْن السّابقَيْن، وهما الأمر بالصَّبر والأمر بالاستغفار؛ للإشارة إلى أنَّ ثلاثتها من أسباب استدعاء النَّصر وتحقُّقِ وقوعه.

### نكتةُ تقديمِ الاستغفار على التَّسبيح وتأخيره عنه في سورة النَّصر:

دورُ السّياق وتأثيره في التَّقديم والتَّأخير

من اللّافت في هذه الآية تقديمُ الاستغفارِ على التَّسبيح بحمد اللّه، بينما قدَّم في سورة النَّصر التَّسبيح عليه؛ إذ قال سبحانه هنا: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾، وقال في سورة النَّصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النَّصر: 1 - 3]، والسّياق هو المتحكِّم، فآية سورة غافر كان الحديث فيها عن عوامل وقوع النَّصر واستدعائه؛ كي يقع، فقدَّم الاستغفار؛ لأنَّه يساعد على محو الذُّنوب، ثم يأتي بعد ذلك التَّسبيح لتعمير الصَّفحات بالحسنات، وعلى قاعدة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 171.

تقديم التَّخلية على التَّحلية وهي وإن كانت قاعدة عامَّة، إلّا أنَّها في استدعاء النَّصر لها فاعليَّة خاصَّة؛ إذ النَّفس التي ترنو إلى تحقيق المقاصد العالية ينبغي أن تطهِّر ذاتها من أدرانِ الخَطيئة بالاستغفار حتى تتهيَّأ بعد ذلك لرفع طاقتها وتجديد نشاطها بالتَّسبيحِ، وأمّا في سورة النَّصر؛ فكان الكلام عن النَّصر بعد وقوعه، وهذا يقتضي أن يُقدَّم ما حقُّه أن يكون شكرًا للّه على ما امتنَّ به من النَّصر، ولذا قدَّم التَّسبيح بحمد اللّه.

**معنى الباء في قوله: ﴿بِحَمۡدِ﴾:**

الباء في قوله: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ للملابسة، وهي ملابسةُ الفاعل لفعله، والمعنى: سبِّح حامدًا ربَّك، فموقع المجرور موقع الحال[1].

**نكتةُ إضافة الحمد إلى لفظ الرُّبوبيّة:**

كـامـلُ الإنـعـام سـبـحـانـه هـو المستحقُّ للحمد الكامل

أُضيفَ لفظُ الحمدِ إلى لفظ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ لإفادة الاختصاص، فإنَّه لا يُسبَّح إلّا بحمده سبحانه، ولا أحد يستحقُّ كمال الحمد إلّا كامل الإنعام والإحسان سبحانه.

وإيثار إضافة الحمد إلى اسم الرَّبِّ عند تعلُّقه بالتَّسبيح بحمد سبحانه هي عادة قرآنيَّة صادقتها آياتٌ عديدة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨﴾ [الحجر: 97 - 98]، وقوله جل شأنه: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ١٣٠﴾ [طه: 130]، وقوله تباركت أسماؤه: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨﴾ [الطور: 48]، وغيرها كثير في القرآن الكريم.

**نكتةُ التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ضمير المخاطَب:**

أوثِرَ التَّعبيرُ بلفظ الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ضمير المخاطَب، وهو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 338، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 570.

فضلُ اللهِ على نبيِّه محمَّد ﷺ عظيم

النَّبيُّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾؛ للدَّلالة على عظيم نعمة اللّه على نبيِّه محمَّد ﷺ، وإكرامه له، وإحسانه إليه، ففضلُ اللّه على نبيِّه عظيمٌ، كما قال سبحانه: ﴿وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النساء: 113]، فكأنَّه يُقال له في هذه الآية: أثبت الإحاطةَ بأوصاف الكمال للمحسن إليك المربّي لك، ولا تشتغل عنه بشيء[1].

## معنى الباءِ في قوله: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾:

الباءُ للظَّرفيَّة الخاصَّة بالوقتين المذكورين أو المستغرقة لكلِّ الأوقات

الظّاهر أنَّ الباءَ في قوله: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ للظَّرفيَّة، أي: إنَّها بمعنى (في)، وذلك جائز من حيث إنَّ الباءَ للإلصاق، والملاصق للزَّمان والمكان حاصل فيهما[2].

ثمَّ اختلفَ هل هذه الظَّرفيَّة متعلِّقة بخصوص هذين الوقتَين وقت العشيِّ ووقت الإبكار؟ فقيل: المرادُ بالعشيِّ والإبكار صلاةُ العصرِ وصلاةُ الفجرِ، أي: إنَّ "الإبكار كنايةٌ عن صلاة النَّهار، أو أن يكون (الإبكارُ) كنايةً عن صلاة الغداة، و(العَشيُّ) كنايةً عن صلاة العشاء"[3]، واتُّكِئَ في هذا على كون السّورة مكيَّة، وأنَّ الصَّلاة الواجبة في مكَّة قبل فرضيَّة الصَّلوات الخمس كانت صلاتين في وقتَي العشي والبكور، أي: "ركعتَينِ بُكرةً وركعتينِ عشيًّا"[4]، وقيل: هي الظَّرفيَّة المستغرقة لكلِّ الأوقات، على أنَّ العشيَّ والإبكار طرفان يستغرقان ما بينهما، ويكون المرادُ بالتَّسبيح حقيقته، وأنَّه ﷺ أُمر "بتسبيحِ اللّه تعالى وتنزيهه بالعشي والإبكار، أي: الأوقات كلها، فاقتصر على طرفَي أوقات العمل"[5]، ويكون تخصيص هذين الوقتين بالذِّكر؛ لكونهما أفضل الأوقات، بما يكون فيهما "مِن الأوراد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 91.
(2) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/ 13.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 41.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 281.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 171، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 41.

والوظائف الواجبة والمستحبَّة"[1]، ولكونهما من أوقات الغفلة؛ لأنَّ النّاس مشتغلون فيهما بمصالحهم المهمَّة[2]، ولكونهما مشهودين، تحضرهما ملائكة اللَّيل وملائكة النَّهار حسبما ورد في حديث: «يتعاقبون فيكم ملائكةٌ باللّيل وملائكة بالنّهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألُهم - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم، وهم يصلّون، وأتيناهم، وهم يصلّون»[3].

### نكتةُ تقديم العشيِّ على الإبكار:

السّياق ورعايةُ الفواصل هما سرُّ تقديم (العشي) على (الإبكار)

وردت كلمتا (العشي والإبكار) في مواضع متعدِّدة في الكتاب العزيز وبصيغ مختلفة، فمِنها العشيُّ والإبكار كما هو هنا في سورة غافر وفي سورة آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾ [آل عمران: 41]، ووردت في موضع آخر، لكن بكلمة الإشراق بدل الإبكار في قوله: ﴿يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨﴾ [ص: 18]، ووردت بصيغة (بكرة وعشيًّا) في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11]، وفي سورة مريم: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢﴾ [مريم: 62]، وللتّرتيب بينهما تقديمًا وتأخيرًا في كلِّ موضع أسرار يحكمها السّياق، وممّا لفت إليه البقاعي في سبب تقديم العشي على الإبكار في آية سورة غافر الّتي معنا ما جاء في قوله: ولمّا كان المقام لإثبات قيام السّاعة، وكان العشيُّ أدلَّ عليها؛ قدَّمه، فقال: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، فإنَّ تقلُّبهما دائمًا دلَّ على كمال مقلبهما وقدرته على إيجاد المعدوم

(1) السعدي، تفسير السعدي، ص: 739.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 266.
(3) صحيح البخاري، حديث رقم: (555).

الممحوق كما كان وتسويته[1]، ويمكن تعليله أيضًا بأنَّ العشي من اللَّيل والإبكار من النَّهار واللَّيل مقدَّم في الزَّمن على النَّهار، من حيث إنَّ اليوم يبدأ بليله لا بنهاره، ويلفتنا الشَّيخ أبو موسى إلى علَّة أخرى هي أنَّ وقت العشي هو وقتُ الخلود إلى الرّاحة بعد الكدِّ والعناء والدَّأب، فالحاجة فيه إلى الاستغفار أقوى لما تتطلَّبه مراجعة النَّفس ومحاسبتها في آخر اليوم، وعليه "فحمل النَّفس في هذه الحالة على الاستغفار والتَّسبيح من القربات العظيمة"[2].

**نكتةُ الطِّباق بين اللَّفظتَيْن:**

**طباقُ الإيجاب جمالٌ في التَّعبير وعمقٌ في المعنى وتحفيزٌ على أداء المطلوب فيهما**

لا شكَّ أنَّ المقابلة بالتَّضاد بين كلمتَي (العشي والإبكار) فضلًا عمّا في عموم المقابلات من جمالٍ في التَّعبير، فإنَّ المعنى الذي يبرز في ذكر هذين الوقتين الشَّريفين من جهة كونهما أفضل الأوقات للذِّكر والاستغفار والتَّسبيح، هو ممّا يحفِّز على النُّهوض فيهما بالقيام بذلك، ويضاف إليه أيضًا ما قد تدلُّ عليه هذه المقابلة مِن استغراقٍ لكلِّ الأوقات من حيثُ كونُ العشيِّ والإبكار طرفين لما يتوسَّطهما من الوقت، أي: استغراقها في الطّاعة والعبادة ومنها الاستغفار والتَّسبيح وأداء الصَّلوات وإتقان الأعمال والإخلاص فيها، وهذا النَّوع من الطِّباق هو طباق الإيجاب.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 91.

(2) أبو موسى، آل حم غافر وفصلت، ص: 196.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾ [غافر: 56]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تهوينُ شأن المشركين لجدالهم في آيات الله بغير سلطان مبين

تأتي هذه الآيةُ في سياق ما انتهجته السّورة مِنَ الرَّدِّ على المشركين ومجادلاتهم في آيات الله مع الرَّسول ﷺ، وعرْضُ المجادلة في آيات الله والرَّدُّ عليها هو رأس سورة غافر[1] ومقصودها الأعظم، وكذلك أيضًا دحْضُ ما أوردوهُ مِن شُبهات حول رسالته ﷺ، بدءًا من قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: 4]، ومرورًا بعددٍ مِن الآيات التي اهتمَّت بالسّياق نفسه، وصولًا إلى هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ التي هي بمنزلة مصداقٍ ومثلٍ واضح صريح لمجادلة المشركين له ﷺ بغير سلطان ولا حجَّة، ولكن تكبُّرًا وعنادًا[2].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾: أصل (جدل) يدلُّ على استحكامِ الشَّيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام[3]، والجِدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من: جَدَلْتُ الحبلَ، أي: أحكمت فتلَهُ، فكأنَّ المتجادلَين يفتل كلُّ واحد الآخر عن رأيه ... وقيل: الأصل في الجِدال: الصِّراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجَدالة، وهي الأرض الصُّلبة[4]، ومعنى:

(1) أبو موسى، آل حم غافر وفصلت، ص: 198.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 172.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جدل).
(4) الراغب، المفردات: (جدل).

﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: يناصبون بالعداوة أهل هذا الدّين لنقلهم عنه إلى ما هم عليه مِنَ الباطل[1].

2) ﴿كِبۡرٞ﴾: أصل (كبر) يدلُّ على خلاف الصِّغر، يقال: هو كبير وكُبارٌ، وكُبّارٌ... والكِبْرُ: العظمة، وكذلك الكِبرياء[2]، والكِبْر اسم من التَّكَبُّرِ[3]، وهو الحالةُ التي يتخصَّص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبرَ مِن غيرِه، وأعظمُ التَّكبُّرِ التَّكبُّرُ على الله بالامتناع من قَبول الحقِّ والإذعان له بالعبادةِ[4].

3) ﴿بِبَٰلِغِيهِۚ﴾: أصل (بلغ) يدلُّ على الوصول إلى الشَّيء، تقول: بلغتُ المكان؛ إذا وصلت إليه، وقد تُسمّى المشارفة بلوغًا بحقِّ المقاربة[5]، والبُلوغ والبَلاغ: الانتهاءُ إلى أقصى المقصد والمنتهى، مكانًا كان أو زمانًا، أو أمرًا من الأمور المقدَّرة[6]، تقول: بلغت المكان بلوغًا: وصلت إليه، وكذلك إذا شارفت عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ [الطلاق: 2]، أي: قاربنه، وبلغ الغلام: أدرك البلوغ[7].

ومعنى ﴿كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾، أي: "تكبُّرٌ وتعاظمٌ يمنعهم من أن يتَّبعوك، وأن ينقادوا إليك"[8].

4) ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾: أصل (عوذ) يدلُّ على الالتجاء إلى الشَّيء، ثم يحمل عليه كلُّ شيءٍ لصق بشيءٍ أو لازمه[9]، تقول: عُذْتُ بفلانٍ، واستَعَذْتُ به، أي: لجأت إليه، وهو عياذي، أي: ملجئي[10]، وقولك: أعوذ بالله - جلَّ ثناؤه - أي: ألجأ إليه عَوذًا أو عياذًا، وقولك: معاذ الله، معناه: أعوذ بالله، وكذا أستعيذ بالله[11]، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾، أي: التجئ إليه وحده، واستجِرْ به، فإنَّه كافيك.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 92.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (كبر).
(4) الراغب، المفردات: (كبر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (بلغ).
(6) الراغب، المفردات: (بلغ).
(7) الجوهري، الصحاح: (بلغ).
(8) ابن جزيّ، التسهيل: 2/ 233.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عوذ).
(10) الجوهري، الصحاح: (عوذ).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عوذ).

## ❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كلُّ مَن جادل الحقَّ مغلوبٌ، وكلُّ مَن تكبَّر عليه؛ فهو في نهايته ذليلٌ مسلوب

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ يخبر الله تعالى رسوله محمَّدًا ﷺ بأنَّ الذين يخاصمونه، ويجادلونه في آيات الله إرادة أن يبطلوها بباطلهم، وبغير بيِّنة من أمرهم ولا حجَّة تدعمهم؛ ما يحملهم على هذا الجدل إلّا كِبرٌ في صدورهم يمنعهم عن اتِّباعك وعن قَبول الحقِّ الَّذي جئتهم به، وأنَّهم يريدون الاستعلاء على الحقِّ بما معهم مِنَ الباطل، فهذا قصْدُهم ومرادهم، ولكنَّ هذا لا يتمُّ لهم، وليسوا ببالغيه، فإنَّ الله قد أذلَّهم، وحمى رسوله ﷺ من شرِّ هؤلاء المجادلين المستكبرين؛ إذ أمره بأن يستعيذ منهم، فيقيه مِن أذاهم وشرِّهم، ويكلؤه، ويحفظه منهم ومن أمثالهم، فهذا نصٌّ صريح، وبشارة، بأنَّ كلَّ من جادل الحقَّ مغلوب، وكلَّ من تكبَّر عليه؛ فهو في نهايته ذليل[1].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### نكتةُ فصل الآية عن سابقها:

أدّى النَّبيُّ ﷺ أمانةَ ربِّه أكمل أداء

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مقصودٌ به الإخبار بأنَّ إعراض الكفّار عن الإيمان بالله ورسوله جدالهم في آيات الله لم يكن أبدًا مستندًا على حجَّة قويَّة ولا قناعة عقليَّة، وأنَّه لا سبب لهذا كلِّه سوى الكبر والتَّعاظم بلا داعٍ، وعدم إدراك منهم لعاقبة كفرهم، وفي هذا إيناس للرَّسول ﷺ وإزالة لوحشة نفسه من عدم إيمانهم، بإعلامه أنَّهم لم يعرضوا عن الإيمان، ولم يجادلوا في آيات الله لسبب من جهته هو، ولكن لمرض في قلوبهم وكبر في

(1) السعدي، تفسير السعدي، ص: 740، والمراغي، تفسير المراغي: 24/ 83.

نفوسِهم، وهذا مطابق من تلك الجهة؛ لما في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾ [الأنعام: 33].

### فائدةُ تتابع المؤكِّدات في صدر الآية:

التَّأكيدُ في الآية للاهتمام بالخبر

تأكيدُ هذه الجملة الخبريَّة بـ ﴿إِنَّ﴾، وباسميَّة الجملة، مقصود به الاهتمام بالخبر من جهة تأكيده، وليس لمحو شكِّ شاكٍّ، أو إنكار منكر، فالمخاطَب بهذه الجملة هو رسول اللّه ﷺ بقرينة أمره بالاستعاذة في نفس الآية: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ﴾، ومن جملة هذا الاهتمام شرح صدر الرَّسول ﷺ؛ ليعلم الرَّسول ﷺ دخيلتهم، فلا يحسب أنَّهم يكذِّبونه تنقُّصًا له، ولا تجويزًا للكذب عليه(1).

### غرضُ التَّعبير بالاسم الموصول وصلته:

من أوصاف المبطلين كثرة الجدال والاستمرار عليه

عبَّر سبحانه عن أهل الجدال في آيات اللّه بالاسم الموصول قائلًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دون التَّعبير بالاسم الصَّريح: (المجادلين في آيات اللّه)؛ قصدًا لذمِّهم بما تضمَّنته جملة الصِّلة من كونهم يجادلون في آياته سبحانه مع عزْمٍ على الاستمرار فيه، وتجديد النَّشاط في هذا الجدال حينًا بعد حين، وهذا سرُّ إيثار التَّعبير بصيغة المضارع في جملة صلة الموصول، وكأنَّهم كلَّما جادلوا؛ ازدادوا قوَّة نحو الازدياد في هذا الجدال؛ أملًا في تحقيق غاياتهم من ورائه، وهي دحض الحقِّ وإعلاء الباطل؛ قصدَ الغلبة والاستعلاء على الرَّسول ﷺ ودعوته، وهذا سرُّ التَّعبير بالجدال الذي يعني هنا المنازعة لأجل التَّغلُّب على الآخر، ولو بالباطل، وهذا ما قاله سبحانه عنهم في محل آخر: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ﴾ [الكهف: 56].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 172.

### فائدةُ الظَّرفيَّة المجازيَّة في قوله: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

جادل الكافرون في آيات الله بجميع أصناف الجدال

الظَّرفيَّة المجازيَّة في قوله: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دالَّةٌ على استغراق جميع أنواع الجدال، حيث تعلَّقت ﴿فِيٓ﴾ الظَّرفيَّة بالجدال، وجُعِل مجرور الحرف نفس الآيات دون تعيين مضاف نحو صِدقها أو وقوعها أو صنفها، وهذا يدلُّ على استغراق الظُّرفيَّة وشمولها لجميع أصناف الجدال، فكان بذلك قوله تعالى: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جامعًا للجدل بأنواعه[1].

### نكتةُ إضافةِ الآيات إلى لفظ الجلالةِ دون ضميره:

آياتُ العظيم سبحانه جديرة بالتَّصديق والإذعان

أُظهِرَ اسمُ الجلالة في قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وأضيفت الآيات إليه عدولًا عن قوله: (في آياتنا) بإضافتها إلى ضميره سبحانه؛ لتعظيم أمر الآيات بذلك التَّصريح، ولتفظيع أمر جدال الكفار فيها وكفرِهم بها، وتهوين شأنهم بسبب فعلهم هذا؛ لأنَّ ذِكرَ اسم الجلالة مؤذن بتفظيع جدالهم وكفرهم، وللتَّصريح بزيادة التَّنويه بالقرآن وآياته[2].

### دلالةُ القيد ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾:

ليس للمجادلين في آياتِ اللهِ سلطان، إنَّما إفكٌ وبهتانٌ

الباء في قوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ للمصاحبة، والمعنى: مصاحب لهم غير سلطان، أي: غير حجَّة ولا دليل، أي: إنَّهم يجادلون مجادلةَ عنادٍ وغصبٍ[3]، "وفائدة هذا القيد تشنيع مجادلتهم، وإلّا فإنَّ المجادلة في آيات الله لا تكون إلّا بغير سلطان؛ لأنَّ آياتِ الله لا تكون مخالفةً للواقع، فهذا القيد نظير القيد في قوله: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص: 50]، وكذلك وصف ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾ بجملة: ﴿أَتَىٰهُمۡ﴾؛ لزيادة تفظيع مجادلتهم، بأنَّها عريَّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 82.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 7، 17/ 92، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 83.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 83.

عن حجَّة لديهم، فهُم يجادلون بما ليس لهم به علم"[1]، وأضاف أبو السُّعود فائدة أشمل لإيراد هذا القيد، وهي "الإيذانُ بأنَّ التَّكلُّم في أمْرِ الدّينِ لا بُدَّ مِن استنادِه إلى سلطان مبينٍ البتَّةَ، وهذا عامٌّ لكلِّ مجادلٍ مُبطلٍ، وإنْ نزلَ في مُشركي مكَّة"[2].

**نكتةُ تنكير ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾:**

لا يملكُ المجادلون حقًّا يجادلون به، قليلًا أو كثيرًا

النَّكتةُ في تنكير ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾: هو تفخيمُ أمر السُّلطان وتعظيمه؛ لكونه حجَّةً فيها مِنَ القوَّة ما فيها، فإذا أخبر عنهم أنَّهم يجادلون بغير سلطان؛ فقد سلبهم هذه القوَّة في الحجَّة، وبقي لهم أنَّهم ليسوا على شيءٍ.

**نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾:**

حال بين المجادلين والإيمان كِبْرُهُم وجحودهم

جملة: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ في جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وهذا هو سرُّ الفصل بين الجملتَين، وهو ما بينهما من (كمال الاتصال)، و﴿إِن﴾ الكائنةُ في بداية الجملة نافية، والمعنى: ما في قلوبِهم إلّا تكبُّرٌ عن الحقِّ، وتعظُّمٌ عن التَّفكُّرِ والتَّعلُّم، أو: إلّا إرادةُ الرّياسةِ والتَّقدُّم على الإطلاقِ، أو: إلّا إرادةُ أن تكونَ النُّبوَّةُ لهم دونَك حسدًا وبغيًا، حسبما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31] ونحوه[3].

**بلاغة القصر ونوعه وغرضه:**

القصر ادِّعائيٌّ وغرضه إظهار أنَّ الكِبر أبرزُ ما في قلوبهم

القصر في قوله تعالى: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ قصر موصوف على صفة على سبيل الادِّعاء؛ لكون صدورِهم منطوية على أمراضٍ كثيرةٍ غير الكِبر، وكذلك على أغراض وطموحات زائفة، لكنَّها جميعًا دون الكِبر الذي هو أبرز ما فيها، فـ" لغلبته كأنَّ ما سواه لم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 83.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 281.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 281.

يوجد"[1]، ومن فوائد القصر وأغراضه هنا نفيُ "أن يكون داعيهم إلى المجادلة شيء آخرَ غير الكِبر على وجه مؤكَّد، فإنَّ القصرَ تأكيدٌ على تأكيد، لما يتضمَّنه من إثبات الشَّيء بوجه مخصوص مؤكَّد، ومن نفي ما عداه، فتضمَّن جملتَين"[2].

**دلالةُ الظَّرفيَّة المجازيَّة ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾:**

ملأ الكِبرُ قلوبَهم فصدَّهم عن سبيل الله تعالى

دلَّ التَّعبيرُ بـ ﴿فِي﴾ الظَّرفيَّة في قوله سبحانه: ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾ على استغراق الكِبر كاملَ صدورِهم، فهو مظروف فيها، وهي له محلٌّ وظرف، وكأنَّ قلوبَهم ليس فيها مكان إلّا لكبرهم الذي ملأها، وحشاها، وفاض منها حتّى شغل الصُّدور الَّتي هي مساكنها[3].

**نكتةُ تقديم شِبه الجملة على المسندِ إليه:**

لا مكان في صدور المجادلين في آيات الله لغير الكِبر

في قوله سبحانه: ﴿فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ قدَّم الجار والمجرور، وهو الخبر على المبتدأ، وهو ﴿كِبْرٌ﴾ لمقتضى تركيب جملة القصر الادِّعائي المراد منه ادِّعاءُ قصر الموصوف على الصِّفة، ولولا أنَّ الجملةَ جزءٌ مِن تركيب أكبر، وهي جملة القصر المؤكَّد بالنَّفي والاستثناء لتحقيق الغرض المذكور؛ لكان هذا التَّقديم للخبر والتَّأخير للمبتدأ وحده كافيًا في إفادة القصر والاختصاص، والغرضُ من ذلك كلِّه الإشعارُ بأنَّه لا مكان في صدور المجادلين في آيات اللّه لغير الكِبر.

**بلاغةُ المجاز في إطلاق الصُّدور على القلوب:**

إطلاقُ الصُّدور على القلوب هو على المجاز المرسل أو الكناية

في التَّعبير بالصُّدور في قوله تعالى: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ - مرادًا بها القلوب - مجازٌ مرسل علاقته "المجاورة والملابسة"[4]، أو قل: لعلاقة المحلِّيَّة وذلك لكون القلب محلُّه الصَّدرُ، فأطلق المحلَّ،

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 82.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 173.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 92.
(4) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 377.

وأراد الحالَّ فيه، وهو القلبُ إذ هو محلُّ الضَّمائر والمعتقدات وسائر الانفعالات، ولا شكَّ أنَّ الكِبر واحدٌ من هذه الانفعلات النَّفسانيَّة "والعرب يطلقون القلب على العقل؛ لأنَّ القلب هو الَّذي يحسُّ الإنسان بحركته عند الانفعالات النَّفسيَّة من الفرح وضدِّه ومن الاهتمام بالشَّيء، والكِبر من الانفعالات النَّفسيَّة"[1]، ولك أن تقول: الصُّدور هنا كنايةٌ عن القلوب؛ لكون الصُّدور هي موضعُ القلوب[2].

**نكتةُ تنكيرِ ﴿كِبۡرٞ﴾:**

التَّـنـكـيرُ هنا مفيدٌ للتَّعظيم والشُّمول لشتَّى أنواع الكِبر

النُّكتةُ في تنكير كلمة ﴿كِبۡرٞ﴾ تعظيمه؛ فهو كِبرٌ عظيم لم يُترك في صدورهم مكانًا لشريكٍ يشاركه فيها، أو حتّى يجاوره داخل هذه الصُّدور الَّتي اتَّسعت للكِبر بأنواعِه الكثيرة ومظاهره المتعدِّدة، فكلمةُ الكِبر هنا "متَّسعة جدًّا؛ لأنَّها تعني كلَّ موانعهم"[3]، أي: كلُّ ما منعهم عن الإيمان، وصرفهم عنه من الأسباب الزّائفة.

**معنى ﴿مَّا﴾ وبيان اسمها وخبرها:**

لـن يـبـلـغَ الـكـافـرون مقتضى كِبرهم وجحودهم

﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ تحتمِلُ أن تكون التَّميميَّة النّافية مهملة العمل، الضَّمير ﴿هُم﴾ مبتدأ، والخبر قوله: ﴿بِبَٰلِغِيهِۚ﴾، وتحتمِلُ أن تكون ﴿مَّا﴾ الحجازية العاملة عمل ليس، والضَّمير ﴿هُم﴾ اسمها، وقوله: ﴿بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ خبرها، والباء في ﴿بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ زائدة، والجملة: في محل رفع نعت لـ ﴿كِبۡرٞ﴾، وقيل: معترضة[4]، والمعنى: ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكِبر، وهو ما أرادوه من الرّياسة أو النُّبوَّة[5]، أي: إنَّ الضَّمير في ﴿بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ راجعٌ إلى ذلك المقتضى من الكِبر، وليس إلى الكِبر؛ إذ لا معنى لعودِهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 173.
(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 337.
(3) أبو موسى، آل حم غافر وفصلت، ص: 202.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 174.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 173، والخطيب وآخران، التفصيل: 24/ 199.

على الكِبر، وقد أثبتَهُ لهم إثباتًا مؤكّدًا بطريق القصر، كما مضى، وجوَّز ابن عاشور عودَهُ إلى ﴿كِبۡرٞ﴾ "على وجه المجاز بعلاقة السَّببيَّة أو المسبَّبية، والداعي إلى هذا المجاز طلبُ الإيجازِ؛ لأنَّ تعليق نفي البلوغِ باسم ذات الكِبر يشملُ جميع الأحوال الَّتي يثيرها الكِبر"[1].

### فائدةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

حفظُ اللهِ تعالى لدينه دائمٌ مستمرٌّ

أوثِرَ في التَّركيب التَّعبير بالجملة الاسمية في قوله تعالى: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾؛ لإفادتها ثباتَ مدلولها ودوامَه، فالمعنى: أنَّهم محرومون من بلوغه حرمانًا مستمرًّا[2]، وأوثِرَ النَّفي بـ﴿مَّا﴾ ودخوله على الاسم لإفادة العموم والمبالغة[3] في نفي بلوغ الكافرين لمقتضى كِبرهم وجدالهم.

### دلالةُ التَّعبير بـ﴿بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ مادَّة وصيغة:

لن يبلغَ المغرضون غرضهم في النَّيل من الدّين ولن يقاربوه

أوثِرَ التَّعبير باسم الفاعل في قوله: ﴿بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ دونَ التَّعبير بالفعل؛ لما يفيده التَّعبير بالاسم من دلالة على الثُّبوت مع الدَّوام، بخلاف التَّعبير بالفعل الذي يدلُّ على التَّجدُّد والحدوث، وأمّا عن سرِّ اختيار مادة البلوغ في نفي الوصول إلى الدّين والنَّيل منه؛ فلأجل ما تفيده هذه المادَّة من معنى مشارفة الوصول بجانب دلالتها على الوصول، وعليه يكون المعنى: ما هم بواصلين إليه ولا مشارفين على ذلك الوصول.

### بلاغةُ المجاز في قوله: ﴿بِبَٰلِغِيهِۚ﴾:

في قوله (ببالغيه) مجازٌ مرسل علاقتُهُ السَّببيَّة

حقيقةُ البلوغِ: الوصول، قال تعالى: ﴿إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ [النحل: 7]، ويُطلق على نوال الشَّيء وتحصيله مجازًا مرسلًا كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ [سبأ: 45]، وهو هنا محمول على المعنى المجازيِّ - لا محالة - أي: ما هم ببالغي الكِبر[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 173.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 174.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/ 424.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 174.

### معنى الفاء في قوله: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾ واقعةٌ في جواب شرط مقدَّرٍ هي الدالَّة عليه، والتَّقدير: الأمر على ما علمت يا رسول الله، فإذا وقع منهم جدال ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾، وهو سبحانه كافيك: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ [الزمر: 36]، أو أنَّ الفاء للتَّفريع، أي: ترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهو قوله: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾، وهذا التَّرتيب يُستخرج من الكلام المرتَّب عليه معنى لا يدلُّ عليه الكلام دلالةً ظاهرة، وهو أنَّ هؤلاء المتكبِّرين قد أضمروا إيذاءَهُ ﷺ[1]، ولذا أُمِرَ بالاستعاذة بالله.

الفاءُ للتَّفريع، أو هي الواقعةُ في جواب شرط مقدَّر، ولكلٍّ تأثيره في توجيه المعنى

### دلالةُ الأمرِ في ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾ ونكتة حذف متعلِّقه:

الأمرُ في قوله سبحانه: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ هو أمرٌ بالالتجاء إلى الله تعالى والاستعانة به؛ إذا ما وقع من المغرضين جدالٌ في آيات الله أو حسد له ﷺ وكيدٌ، والباء في قوله: ﴿بِٱللَّهِۖ﴾ للاستعانة، والنُّكتة في حذف المتعلِّق هي إفادة العموم، أي: استعذ بالله من كلِّ شيء فيه إيذاء لك يا رسول الله، أو محاولة للطَّعن في دين الله.

محاولات النَّيل من الرَّسول ﷺ فعلٌ من همزات الشَّياطين

### نكتةُ فصل قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾:

فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ عن جملة: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ التي سبقتها؛ لأنَّها تعليل للأمر بالدَّوام على الاستعاذة، أي: لأنَّه المطَّلع على أقوالهم وأعمالهم وأنت لا تحيط علمًا بتصاريف مكرهم وكيدهم[2]، فبين الجملتين على ذلك شبهُ كمال اتِّصال.

الالتجاءُ إلى من بيده أمر الأرض والسَّماء

### بلاغةُ القصرِ ونوعه وغرضه في فاصلة الآية:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ توكيدٌ من عدَّة أوجه هي: (إنَّ) التَّوكيديَّة في مستهلِّ الجملة التَّعليليَّة، ثم اسميَّة الجملة،

(1) أبو موسى، آل حم غافر وفصلت، ص: 205.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 175.

ثم الإتيان بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ ثم ختم الجملة بذكر الاسمين الجليلين ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ مُعرَّفين بأداة التَّعريف (أل) الدّالَّة على الكمال، فهذه كلُّها مؤكِّدات متتابعة جاءت؛ لإفادة غرضين هما الاهتمام بالخبر؛ ليتأكَّد لكلِّ سامع أنَّ الملجأ دائمًا عند وقوع الملمّات هو اللّه تعالى وحده، والآخر أنَّ الجملة أفادَتِ القصر، وهو قصر موصوف على صفة قصرًا إضافيًّا؛ لأنَّه سبحانه له غير هاتين الصِّفتين كلُّ صفات الكمال الَّتي تليق بذاته المقدَّسة، وهذا الحصرُ "مراعًى فيه التَّعريض بالمتحدَّث عنهم، وهم الذين يجادلون في آيات اللّه بغير سلطان، والمعنى: أنَّه هو القادر على إبطال ما يصنعونه، لا أنت، فكيف يتمُّ لهم ما أضمروه لك؟"[1].

القصرُ في الآيةِ هو قصر موصوف على صفة قصرًا إضافيًّا، وغرضه التَّأكيد والتَّعريض

### نكتةُ إضمارِ اسم الجلالة بعد إظهاره:

التَّعبيرُ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ببناء الجملةِ على الضَّمير العائد إلى اسم الجلالة المذكور قبلًا يدلُّ على وثاقة الارتباط بين الجملتَين والدَّمج بينهما بما يقوّي معنى كونهِ سبحانه حارسًا حاميًا لرسوله ﷺ من كيد الكائدين ومكرهم؛ لأنَّ هذه الجملة تعليل للَّتي قبلها.

ارتباطُ الجملتَين يؤكِّد المعنى ويقوّيه

### نكتةُ تذييل الآية الكريمة بهذَين الاسمَين الجليلَين:

تذييلُ الآية الكريمة بهذين الاسمين الجليلين: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ظاهر المناسبة لمضمون الآية الكريمة؛ لكونِها في شأن المجادلين في آيات اللّه بغير حجَّة ولا سلطان، وإنَّما لسيطرة الكِبر على قلوبهم ونفوسِهم، وهذا من شأنه أن يظهر أحيانًا في أفعالهم، فيناسبُه اسم ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾، وأحيانًا تخفيه نفوسُهم، وتكنُّه صدورُهم تبعًا للمواقف والظُّروف والغايات، فيناسبه اسم ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾، ومن نكات

مقتضى التَّذييل بذكر الاسمين الجليلَين التَّهديد والوعيد لهؤلاء المجادلين المتكبِّرين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 175.

هذا التَّذييل كذلك ما فيه من التَّهديد والوعيد للمتحدَّث عنهم في الآية، وهم الذين يجادلون في آيات اللّه مدفوعين إلى ذلك بالكِبر الذي ملأ صدورَهُم، فمآل كونهِ سبحانه هو السَّميع لكلِّ ما يُسمَع؛ وإن أخفتْهُ الصُّدور، البصيرُ لكلِّ ما يُرى؛ وإن دقَّ كالنَّمل في جوف الصُّخور، مآله أنَّه سبحانه مجازٍ هؤلاء المجادلين المتكبِّرين على اللّه ورسوله وكلِّ من سلك طريقَهم بما يستحقّون.

### نكتةُ التَّقديم بينهما:

سبحانَ الَّذي يعلم السِّرَّ وأخفى

في تقديم اسم ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ على ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ هنا علَّة واضحة، وهي أنَّ الجدال في آيات اللّه تكبُّرًا وعنادًا يعتمد في الأساس على التَّدابير الخفيَّة مِن قبل المجادلين المتكبِّرين، وما يظهر عليهم مِن أفعال هو بعض ما يدبِّرونه، فالعادة أنَّ التَّدبير الماكر في الخفاء أوسع كثيرًا ممّا يظهر من الأفعال، ولذا ناسب أن يُقدَّم اسم ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾؛ لأنَّه يدلُّ على سماع ما تكتَّموا إظهاره ممّا دار في مجالسهم الخاصَّة، وأسرّوا به إلى خاصَّتهم، أمّا ما يظهر من أفعالِهم؛ فهو مرئيٌّ مُشاهدٌ ورتبته تالية بعديَّة، فناسب تأخير اسم ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾.

### نكتةُ المبالغة في صيغتيهما:

صيغةُ المبالغةِ تدلُّ على التَّناهي في معنى الصِّفة بما يليق بكمالهِ سبحانه

في قوله سبحانه: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ورد الاسمان الجليلان على طريقة المبالغةِ، فـ (فعيل) صيغةُ مبالغةٍ، والهدفُ مِن ورود الاسمين الجليلين وكذا سائر أسمائِهِ سبحانه وصفاته على طريقة المبالغة هو الدَّلالة على التَّناهي في معنى الصِّفة بما يليقُ بجلاله سبحانه وكماله، وأيضًا لكثرة متعلِّقاتهما ومفعولاتهما، وهذا هو الشَّأن في توجيه معنى المبالغة في صفات اللّه تعالى[1].

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/ 507.

## ۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### الجدال والحِجاج:

الـجـدالُ على سبيل المغالبة، والـحـجَّة سبب في ذلك

الجِدال: المفاوضةُ على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصلُهُ من: جَدَلْتُ الحبلَ، أي: أحكمتُ فتلَهُ، فكأنَّ المتجادلَين يفتل كلٌّ واحدٍ الآخرَ عن رأيه(1).

ويُعرَّف الجدَل بأنَّه: دفْعُ المرءِ خصمَهُ عن إفسادِ قولِه: بحجَّة، أو شبهة، أو يُقصَد به تصحيحُ كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة(2).

والمطلوب بالجدال: الرُّجوع عن المذهب، وهو مفهوم قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]، وقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125]، وذلك أنَّ دأب الأنبياءِ عليهم السلام كان ردع القوم عن المذاهب الباطلة، وإدخالهم في دين اللّه ببذل القوَّة والاجتهاد في إيراد الأدلَّة والحجج، وقد يراد بالجدال مطلق المخاصمة، ومنه قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: 109]، وقوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾(3).

والحجاج هو مِن إقامة الحجَّة على الآخر، والحُجَّة: الدَّلالة المبيِّنة للمحجَّة، أي: المقصد المستقيم الَّذي يقتضي صحَّة أحد النَّقيضين، قال تعالى: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ﴾ [الأنعام: 149](4)، والمطلوب بالحجاج هو ظهور الحجَّة(5)، وبهذا يفترق كلٌّ مِنَ الجدال والحجاج من حيثُ المفهوم، فمهوم الجدال أوسع؛ لأنَّه يعني المنازعة والتَّغلب، فتدخل الحجَّة فيه كسبب من أسباب التَّغلُّب، فيكون الجدال بذلك

(1) الراغب، المفردات: (جدل).
(2) الجرجاني، التعريفات، ص: 74.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 158.
(4) الراغب، المفردات: (حج).
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 158.

أعمَّ من الحجَّة، كما أنَّهما يختلفان في المقصد، فمقصدُ الجدال الرُّجوع عن المذهب، ومقصدُ الحِجاج ظهور الحجَّة، ولأجل ما كان في قصد المجادلين في آياتِ الله من العمل على صدِّ الرَّسول ﷺ والمؤمنين عن إيمانهم، ولأجل أنَّه ليست لديهم حجَّة في مجادلتهم، كان التَّعبير بالجدال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ هو الأنسب للمقام.

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [غافر: 57]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الاستدلالُ بعظم خلق السَّموات والأرض على إثبات البعث وهو أهون

لمّا كان أمرُ البعثِ هو أهمَّ ما جادل فيه المجادلون في آيات اللّه، وكان جدالُهم في إثبات البعثِ هو أكبر شبهة لهم ضلَّلت أنفسهم، وروَّجوها في عامتهم، فقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: 5]، فكانوا يسخرون من النَّبيِّ ﷺ لأجل ذلك، كما قال سبحانه عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [سبأ: 7 - 8]، ولمّا كانوا مقرّين بأنَّ اللّه هو خالق السَّماوات والأرض؛ أُقيمت عليهم الحجَّة على إثبات البعث بأنَّ بعْثَ الأموات لا يبلغ أمره مقدار أمرِ خلقِ السَّماوات والأرض بالنِّسبة إلى قدرةِ اللّه تعالى[1].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَكْثَرَ﴾: أصل (كثُر) يدلُّ على خلافِ القلَّةِ، مِن ذلك الشَّيء الكثير، وقد كثر الشَّيء، والكوثر: الرَّجل المعطاء، وهو فوعل مِنَ الكثرةِ[2]، والكثرَةَ والقلَّة يُستعملان في الكمّيَّة المنفصلة كالأعداد، ومنه قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: 249][3]، ومعنى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: أكثرهم عددًا لا ينظرون، ولا يتأمَّلون لفرط غفلتهم، واتِّباعهم أهواءهم[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 176.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كثر).
(3) الراغب، المفردات: (كثر).
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 61.

## ❁ المَعنى الإجماليُّ:

القادرُ على خلق السَّموات والأرض قادر على إعادة الأجسام بعد موتها

يخبر تعالى في قوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بما تقرَّر في العقول، أنَّ خلْق السَّماوات والأرض - على عظمهما وسعتهما - أعظمُ وأكبرُ من خلق النّاس، فإنَّ الناس بالنِّسبة إلى خلق السَّماوات والأرض من أصغر ما يكون، فالذي خلق الأجرام العظيمة، وأتقنها، قادرٌ على إعادة الناس بعد موتِهم من باب أولى وأحرى، وهذا أحدُ الأدلَّة العقليَّة الدالَّة على البعث دلالةً قاطعة، بمجرَّد نظر العاقل إليها، يستدلُّ بها استدلالًا لا يقبلُ الشَّكَّ والشُّبهة بوقوع ما أخبرت به الرُّسل من البعثِ، ولكن ليس كلُّ أحدٍ يوجِّه فكره لذلك، ويَقبَل بتدبُّره، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ ولذلك لا يعتبرون بذلك، ولا يجعلونه منهم على بالٍ[1].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

اختلافُ الجملتَين خبرًا وإنشاءً من دواعي الفصل

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾، فُصلت هذه الجملة عن سابقتها على الاستئناف الابتدائي، فبينها وبين قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ كمالُ انقطاع؛ لكون السابقة إنشائيَّةً لفظًا ومعنًى، وهذه خبريَّة لفظًا ومعنًى.

### فائدة توالي المؤكِّدات في صدر الآية الكريمة:

الرَّدُّ على منكري البعث بالخبر المؤكَّد

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أُكِّدت هذه الجملة الخبريَّة باللام التي يمكن أن تكونَ ابتدائيَّة وفائدتها التَّأكيد، وكذلك أكِّدت باسميَّة الجملة، وقيل: إنَّها اللام الواقعة في جواب القسم، فتكون مؤذنةً بقسم محذوف[2]، أي: والله ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(1) السعدي، تفسير السعدي، ص: 740.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 176.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾، والفائدة من التَّأكيد سواء باللام الابتدائيَّةِ أو بالقسم هو تأكيد الخبر؛ لأنَّ الآيةَ واردة في مقام الرَّدِّ على منكري البعث؛ لأنَّ موضوع خلق الله تعالى للسَّموات والأرض وكون خلق السَّموات والأرض أعظمَ من خلق الناس لم يكن محلَّ إنكارٍ من قبل الكفار المجادلين في آيات اللّه، فقد حكى القرآن الكريم إقرارَهم بهذا الخلقِ مرّاتٍ عديدةً منها قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ٩﴾ [الزخرف: 9]، إذًا فالمقصود ما جادلوا فيه، وهو إنكار البعث، وقضية البعث هذه لعلَّها كانت العائق الأكبر أمام عدم إيمانهم، ولذلك أشبعَها القرآنُ الكريم ذِكرًا لها واحتجاجًا لإثباتها في كثير من المواضع في الكتاب العزيز.

### بلاغةُ الطِّباق في قوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

كشفُ خطأِ المجادل أمام نفسه في إنكار البعث

المقابلةُ بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ كمثلين لعظمة الخلق الإلهيِّ، يؤكِّد للمُجادل في آيات اللّه المُنكِر لمسألة البعث كم هو مخطِئٌ حين أنكر البعث؛ استبعادًا لإمكانية إعادة الأجساد والأرواح مرَّة أخرى! فإنَّ اللّه تعالى الَّذي خلق ما هو أعظم، وهو السَّموات والأرض قادر على إعادة الأجساد والأرواح يوم القيامة لأجل الحساب والمجازاة.

### دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿أَكۡبَرُ﴾:

كيف ينكرُ الضَّعيف قدرةَ مَن خلق ما هو أعظم منه؟.

قوله تعالى: ﴿أَكۡبَرُ﴾ هو خبرُ المبتدأ الَّذي هو (خلقُ)، والمراد به الدَّلالة على عظم خلق السَّموات والأرض، وكونه أعظمَ من خلق النّاس الَّذين هم جزءٌ مِن خلق الأرض، فمادَّة الكِبَر تدلُّ على العظمة والضَّخامة في مقابل الصِّغر.

### معنى ﴿مِنۡ﴾:

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ لابتداء الغاية، كما هو مذهب سيبويه والمبرِّد فيها، أو أنَّها للمجاوزة، كما هو

مذهب ابن مالك[1]، فكأنَّه قيل: خلْقُ السَّموات والأرض جاوزَ خلْقَ النّاس عِظمًا.

### دلالةُ إضافةِ ﴿خَلۡقِ﴾ إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

توجيهُ المراد بالإضافة على كونها من إضافة المصدر إلى مفعوله أو إلى فاعله

إضافةُ ﴿خَلۡقِ﴾ إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾ هي من إضافة المصدر إلى مفعوله، أو هي من إضافة المصدر إلى فاعله، على معنى: أكبرُ ممّا يَخْلُقُه النّاسُ[2]، وعلى هذا الثّاني تكون الإضافة لافتةً إلى هوان ما يخلقُهُ النّاس، ويصنعونَهُ، فهو لا يوازن أبدًا مع ما خلقَ اللّٰه ومن أعظمه السَّموات والأرض، وعليه تكون الآيةُ في معنى قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١﴾ [لقمان: 11]، وعلى المعنى الأوَّل تكون الإضافة لافتةً إلى ضآلة خلق النّاس بالمقارن مع خلقِ السَّموات والأرض، فما النّاس إلّا مكوِّن واحد من مكوِّنات الأرض الَّتي لا تُحصى عددًا، فكيف إذا كان بجوارِها خلق السَّموات وما فيها؟.

### معنى(أل) في ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

ما خلْقُ النّاس وبعْثُهم على اللّٰه إلّا كنفس واحدة

(أل) في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ للجنس بحيث يشمل قوله تعالى: ﴿أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ كلَّ الناس الَّذين يعيد اللّٰه خِلقتَهم، كما بَدَأهم أوَّل مرَّة، ويودع فيهم أرواحهم، كما أودعها فيهم أوَّل مرَّة[3]، وكلُّ ذلك هيِّنٌ عليه سبحانه الذي قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾ [الروم: 27].

### فائدةُ الجملة الخبريَّة المتقدِّمة:

الخبرُ في قوله تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ مستعملٌ في غيرِ معناه؛ لأنَّ كون خَلقِها أكبرَ هو أمرٌ معلوم،

(1) المرادي، توضيح المقاصد: 2/ 934.
(2) السمين، الدر المصون: 9/ 492.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 176.

لا مسوِّغ لإنكار الإعادة واستعظامها بعد الإقرار بخلق ما هو أعظم منها

وإنَّما أريد التَّذكيرُ والتَّنبيهُ عليه لعدم جريهم على موجب علمهم به[1]، ذلك أنَّهم يقرّون بخلق اللّه تعالى للسَّماوات والأرض، ثمَّ ينكرون إعادةَ البعث، فأخبر سبحانه هنا أنَّ الَّذي قدر على ابتداء الخلق على عظمه قادرٌ على إعادة النّاس على حقارتِهم[2].

**دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:**

إنكارُ الآياتِ الواضحة مِن أعظمِ الجهل

الواو في ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ واو الحال، والجملة بعدها حاليَّةٌ، فهي في محلِّ نصب، أي: والحال أنَّ ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾، وهم المجادلون المنكرون للبعث: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

و(لكنَّ) حرفُ استدراكٍ ناسخ ينصب المبتدأ، ويرفع الخبر، واسمها كلمة ﴿أَكۡثَرَ﴾، وخبرها جملة: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، فهي في محلِّ رفع.

وموقع الاستدراك في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ما اقتضاه التَّوكيد بالقسم مِن اتِّضاح أنَّ خلْقَ السَّماوات والأرض أكبر مِن خلق النّاس، فالمعنى: أنَّ حجَّة إمكانِ البَعثِ واضحة، ولكنَّ الَّذين ينكرونها لا يعلمون، أي: لا يعلمون الدَّليل؛ لأنَّهم متلاهون عن النَّظر في الأدلَّة، مقتنعون ببادئ الخواطر الَّتي تبدو لهم، فيتَّخذونها عقيدة دون بحث عن معارضها[3].

**دلالةُ التَّعبير بـ﴿أَكۡثَرَ﴾ مادَّة وصيغة:**

طوبى لمن كان مِن القليل المؤمن

أصلُ ﴿أَكۡثَرَ﴾ يدلُّ على خلاف القلَّة، والكثير مقابل للقليل من حيث المعنى، وهو يُطلق على ما يُعدُّ، فيوصف بالكثرة كما يوصف بالقلَّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ [الكهف: 34]، فالمال ممّا يُعَدُّ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 176.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 94.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 176.

و﴿أَكۡثَرَ﴾ هو تفضيل منه، والمعنى: أكثر النّاس عددًا، "وهم الذين ينكرون البعث وغيره ممّا يمكن أن تتعلَّق به القدرة، وصحَّ به السَّمع ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أي: لا علم لهم أصلًا، بل هم كالبهائم لغلبة الغفلة عليهم واتِّباعهم أهواءهم"(1).

ودلَّ التَّعبيرُ بالأكثريَّة في جانب المجادلين والمنكرين على أنَّ غيرهم من أهل الإيمان والعلم قليل، فهُم أقلُّ منهم عددًا(2).

**دلالةُ التَّعبير بالمضارع في ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ وحذف متعلَّقه:**

فقدانُ المجادلين في آيـات الله المنكرين للبعث لأهـليَّة العلم من الأساس

التَّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يدلُّ على الاستمرار والتَّجدُّد، وهذا هو حال من يجادلون في آيات اللّه، فإنَّهم لا علم لهم، وليسوا للعلم بأهل؛ إذ لو كان لهم علمٌ وعقلٌ؛ لفهموا من الدَّلائل الكثيرة الموجودة في الكون من خلق السَّموات والأرض وما بينهما وما فيهما أنَّهم ماضون في طريق مظلم، ولراجعوا أنفسهم، فاستقاموا على الجادَّة، ولأجل الدَّلالة على عدم أهليَّتهم للعلم أصلًا؛ عبَّر بالفعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ دون ذِكر متعلِّق له، فهو منزَّلٌ منزلةَ اللّازم، على معنى أنَّه لا يقع منهم علم أصلًا، ولا يكون بقطع النَّظر عن المعلوم، فهو مثل قولك: فلان يعطي، أو يمنع، وأنت لا تقصد إلّا وصفه بذلك فلا تحتاج إلى تحديد ما يعطيه، أو يمنعه.

**نكتةُ توسُّط النَّفي بين المسند والمسند إليه:**

مَــن عَـــدِمَ العـلـم بـالأمـور الواضحة؛ فقد عَدِمَ العلمَ كُلَّه

دخول ﴿لَا﴾ النّافية على المسند في قوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أفاد عموم النَّفي، فهؤلاء المقصودون ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أي: لا علم لهم أصلًا، بل هم كالبهائم لغلبة الغفلة عليهم واتِّباعهم أهواءهم(3)، وإنكارهم الواضح من الآيات، والجليَّ من البراهين.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 94.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 176.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 94.

### فنُّ الإلجاءِ في الآية:

في قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ فنٌّ رفيع من فنون البلاغة، وهو فنُّ (الإلجاء)، وهو: أن يبادرَ المتكلِّم خصمه بما يلجِئُهُ إلى الاعتراف بصحَّته"، وبهذا صحَّ التحامُهُ مع ما قبلَهُ من الكلام، فإنَّ مجادلتَهُم في آيات الله كانت مشتملةً على أمورٍ كثيرةٍ، من الجدال والمغالطة واللَّجاج والسَّفسطة، وفي مقدِّمتها إنكارُ البعث، وهو في الواقع أصلُ المجادلة ومحورها الَّذي عليه تدور، فأنكر الله عليهم بما يقطع عنهم طُرُقَ المكابرة والمعاندة، ويلجِئهم إلى الاعتراف بالحقِّ، وهو خلق السَّموات والأرض، وقد كانوا مقرّين بأنَّ الله خالقها، وبأنَّها خلق عظيم، فخلق النّاس بالقياس عليها شيء هيِّن، ومن قدر على خلقها مع عظمها، كان - ولا شكَّ - على خلقِ الإنسان الضَّعيف أقدرَ، وبه أقمنَ[1].

أعظمُ الحجَّة ما قامت على الإنسان من نفسِهِ

### ❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### أكبر وأكثر:

كلٌّ من الكِبَر والكثرة يُستعملان في الزّيادة، غير أنَّ الكِبَر - ويضادُّه الصِّغَر - وصفٌ للكمّيَّة المتَّصلة كالأجسام، والكثرة ويضادُّها القلَّة وصف للكمّيَّة المنفصلة كالعدد[2]، ويُبنى على هذا في الفرق بين الكبير والكثير في الاستعمال: أنَّ الكبيرَ يكون بحسب الشَّأن والخطر كالجليل والعظيم، وأمّا الكثيرُ؛ فإنَّه بحسب الكمّيَّة والعدد، فيقال: دار واحدة كبيرة، ولا يجوز (كثيرة)، ويقال: جنودٌ كثيرةٌ، ولا يجوز (كبيرة)[3]، واستخدام (أكبر وأكثر) هو للتَّفضيل، فالأكبر تفضيلُ الكبيرِ والأكثر تفضيلُ الكثيرِ، "والأكثَر: عبارَة عَمّا فَوق النِّصف، والحكم بالأكثريَّة أو الجَميع لا يتَوَقَّف على الإحاطَة

الكِبَرُ وصفٌ للكمّيَّة المتَّصلة كالأجسام، والكثرة وصف للكمّيَّة المنفصلة كالعدد

(1) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 502.
(2) الراغب، المفردات: (كبر).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 448.

التَّفصيليَّة، بل يَكْفيهِ الإحاطَة الإجماليَّة وأصل الكَثْرَة هو الجمع الصَّحيح؛ إذ لا غايَة للكثير"[1]، وربَّما يتعاقب الكثير والكبير على شيء واحد بنظرين مختلفَين، نحو قوله تعالى: ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ [البقرة: 219]، فقد قُرِئَ أيضًا: (كثير)[2]، وهي قراءة حمزة والكسائيِّ، فالحجَّة لمن قرأ بالباء ﴿كَبِيرٞ﴾ [البقرة: 219] قوله بعد ذلك: ﴿وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ [البقرة: 219]، ولم يقل: أكثر، والحجَّة لمن قرأ بالثّاء (كثير) أنَّه لمّا وقع اللَّفظ على أعداد: وهي الخمرةُ المشروبةُ، والميسرُ، وهو: القمارُ كانت الثّاء في ذلك أولى، ودليله قولُهُ تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ [المجادلة: 7]، ولم يقل: أكبر[3]، ومن خلال ذلك يظهر أنَّ استخدامَ كلٍّ مِن (أكبر وأكثر) في الآية هو فيما يناسبُهُ من حيثُ الكمّيَّةُ المتَّصلة في ﴿أَكۡبَرُ﴾ والمنفصلة في ﴿أَكۡثَرَ﴾.

(1) الكفوي، الكليات، ص: 774.
(2) الراغب، المفردات: (كبر).
(3) ابن خالويه، الحجة، ص: 96.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ [غافر: 58]

الضِّدُّ يظهر حسنَهُ أو قبحَهُ الضِّدُّ

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد أن خُتِمَت الآيةُ السّابقة بقولِه سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ ذكر هنا مصاديقَ أولئك الَّذين لا يعلمون، وهم عميان القلب والمسيئون، وليوغلَ في الإنكار عليهم، ويظهرَ باطلَهم، قابلهم بأضدادهم من أهل الإيمان والبصيرة، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ﴾.

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسْتَوِى﴾: أصلُ (سوي) يَدُلُّ على استِقامَةٍ واعتِدالٍ بَينَ شَيئَينِ، يُقالُ: هذا لا يُساوي كذا، أي: لا يُعادِلُه، وفُلانٌ وفُلانٌ على سَويَّةٍ مِن هذا الأمرِ، أي: سَواء[1]، والتَّسويَةُ: ضِدُّ المُفاضَلَةِ، وتأتي بِمعنى العَدلِ والإنصافِ، فيُقال: سَوَّيتُ بين الشَّيئَينِ؛ إذا عَدَلت بَينَهُما[2]، وهي أيضًا: تقويمُ الشَّيءِ وتَعديلُه، تَقولُ: سَوَّيتُ الشَّيءَ، فاستَوى، أي: قَوَّمتُهُ، فاستَقامَ[3]، والمقصودُ في الآية: استنكار جعْلِ الأشياء المتضادَّة متساوية!

2) ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾: أصل (عمي) يدلُّ على ستر وتغطية[4]، العَمى يقال في افتقاد البصرِ والبصيرةِ، ويقال في الأوَّل: أعمى، وفي الثّاني: أعمى وعَمٍ، وعلى الأوَّل قوله تعالى: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ [عبس: 2]، وعلى الثّاني ما ورد من ذمِّ العَمَى في القرآن نحو قولهِ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوا).
(3) الجوهري، الصحاح: (عدل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمي).

عُمۡيٞ﴾ [البقرة: 18]، بل لم يعدَّ افتقاد البصر في جنب افتقاد البصيرة عَمًى حتّى قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: 46][1]، وعَميَ عليه الأمر؛ إذا التبس[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ﴾ [القصص: 66]، والعمى في هذه الآية: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ هو من عمى البصيرة.

3) ﴿ٱلۡمُسِيٓءُۚ﴾: أصلُ (سوأ) يدلُّ على قُبحٍ، تقول: رجل أسوأُ، أي: قبيح، وامرأة سوءاء، أي: قبيحة، ولذلك سمّيت السَّيِّئة سيِّئة، وسُمّيت النّار سوءَى؛ لقُبح منظرها[3]، والسّوءُ: كلُّ ما يغمُّ الإنسان من الأمور الدُّنيويَّة، والأخرويَّة، ومِنَ الأحوال النَّفسيَّة، والبدنيَّة، والخارجة، من فوات مال، وجاه، وفقد حميم وعبَّر عن كلِّ ما يقبح بالسّوءَى، ولذلك قوبلَ بالحُسنى، قال اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم: 10]، كما قال: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [يونس: 26][4]، والمُسيء: اسم فاعل من أساء، وهو من يعمل السوء وأشدُّه الكفر.

### ۞ المَعنى الإجْماليُّ:

ضربُ الأمثال من أرقى وسائل إبراز المعاني وإيصالها للمخاطَبين

يقرِّر المولى سبحانه في هذه الآية الكريمة أنَّه لا مساواة أبدًا بين المؤمن باللّه والكافر به، فهما ضدّان، فقال: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ﴾، أي: كما لا يستوي في الواقع، ولا في حكم العقل كلٌّ مِنَ الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي من آمن باللّه وعمل الصّالحات، ومن كان مستكبرًا على عبادة ربِّه، مقدمًا على معاصيه، ساعيًا في مساخطه، ﴿قَلِيلٗا

(1) الراغب، المفردات: (عمي).
(2) الجوهري، الصحاح: (عمي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سَوأ).
(4) الراغب، المفردات: (سوأ).

﴿مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: إنَّ تذكُّركم قليلٌ، وإلّا فلو أنَّكم تذكَّرتم مراتب الأمور، ومنازل الخير والشَّرِّ، والفرق بين الأبرار والفجّار، وكانت لكم همَّة عليه؛ لآثرتم النّافع على الضّارِّ، والهدى على الضَّلال، والسَّعادة الدّائمة، على الدُّنيا الفانية(1).

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى﴾:

عطفُ المثال على البرهان يقوّي المعنى ويثبّته

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ عاطفة للجملة بعدها على جملة: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾(2)، وقيل: الواو للاستئناف، والجملة بعدها مستأنفة(3).

### دلالةُ التَّعبير بـ﴿وَمَا يَسْتَوِى﴾ وحذف متعلّقه:

نفيُ الاستواءِ يعني إثباتَ وجود المفاضلة بين المتقابلين بطريق الكناية

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ نافيةٌ، وتأتي لنفي الحال، بخلاف (لا) التي تأتي في الأصل لنفي الاستقبال، وقيل: تنفي الحال أيضًا.

ولفظ الاستواء يَدُلُّ في أصل معناه على استِقامَةٍ واعتِدالٍ بَيْنَ شَيئَيْنِ، يُقالُ: هذا لا يُساوي كذا، أي: لا يُعادِلُهُ(4)، والتَّسويَةُ: ضِدُّ المُفاضَلَةِ، وتُطلق في الإثبات على وجود مُماثلةٍ ومشابهة بين شيئين، فيُقال: سَوَّيْتُ بين الشَّيئَيْنِ؛ إذا عَدَلت، وساويت بَيْنَهُما(5)، وتُطلق في النَّفي على وجود المفاضلة بينهما "بطريق الكنايةِ، والمقام هو الَّذي يعين الفاضل من المفضول"(6)، والتَّعبير بالمضارع دالٌّ على استمرار هذه القاعدة في نفي التَّساوي بين كلِّ نقيضين متقابلين، وحذف

(1) السعدي، تفسير السعدي، ص: 740.
(2) الخطيب وآخران، التفصيل: 24/ 201.
(3) الخراط، المجتبى: 3/ 1108.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوا).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 63.

متعلّق فعل الاستواء "يقتضي العموم في متعلّقاته، لكنَّه يخصُّ بالمتعلِّقات الَّتي يدلُّ عليها سياق الكلام، وهي آياتُ اللّه ودلائل صفاتِه، ويُسمَّى مثل هذا العموم: العموم العرفيّ"[1].

**نكتةُ تقديمِ كلٍّ من الأعمى والَّذين آمنوا على مقابلهما:**

تقديمُ ذِكرِ الأدنى على الأعلى في الأولى، والأعلى على الأدنى في الثّانية لاعتبارات سياقيّة ونظميّة

قدَّم الأعمى على البصيرِ؛ لأنَّ المرادَ نفي مساواته به، حيث قدَّم تشبيه حال الكافر وكفره على تشبيه حال المؤمن وإيمانه ابتداء، أي: بتقديم الأعمى الذي شُبِّه به الكافرُ، على البصير الَّذي شُبِّه به المؤمن؛ لأنَّ الغرضَ الأهم من هذا التَّشبيه هو تفظيعُ حال الكافر، ثم الانتقال إلى حسن حال ضدِّه[2]، وأضاف الآلوسيُّ سببًا آخر مرتبطًا بالنَّظم والسياق، فقال: وقدَّم الأعمى لمناسبة العمى ما قبلَهُ من نفي العِلم، وقدَّم الذين آمنوا بعدُ - أي: في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ﴾ - لمجاورة البصير ولشرفهم[3].

**بلاغةُ الاستعارةِ في لفظتَي ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾:**

الكفرُ بالله أعظم العمى والإساءة

في لفظتَي ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ استعارتان تصريحيَّتان، حيث استعار لفظ ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ للكافر، ولفظ (البصير) للمؤمن، وصرَّح بالمستعار - المشبَّه به - فيهما بعد حذف المشبَّه فيهما أيضًا، والغرضُ من هذا الاستعارة المبالغةُ في نفس التَّسوية بين المقامَين؛ لأنَّه مِنَ المتبادر أنَّ الأفضل هو صاحب الحال الأفضل، وهو البصير؛ إذ لا يختلف النّاس في أنَّ البصر أشرف من العمى في شخص واحد[4].

**بلاغةُ الطِّباق بين لفظَي الأعمى والبصير:**

استخدام الطِّباق لتبشيع صورة الكافرِ المجادل في آيات الله بغير سلطان

في هذا التَّقابل بالتَّضادِّ بين لفظَي ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ (طباق الإيجاب)، وهدفُهُ: إبراز الفرق بين كلِّ واحد من المتقابلَين وما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 177.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 292.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 332.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 177.

يضادُّه، ونفي التَّسوية بينهما؛ تحذيرًا وتنفيرًا من سيِّئهما، وترغيبًا وتحفيزًا للنُّهوض بطيِّبهما.

**فائدةُ الجملة الخبريّة ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾:**

إقرارُ ميزانِ العدلِ بعدم التَّساوي بين الضّالّين والمؤمنين

فائدةُ هذه الجملة الخبريَّة: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، وما عطف عليها، وهو قوله سبحانه بعدها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ إقرارُ ميزان العدلِ بعدم المساواة بين الجاهلين المقلّين المجادلين في آيات اللّه بغير سلطانٍ، وأولئك الذين آمنوا عن وعي ويقين لإفادتِهم بما ساقَهُ اللّه تعالى في هذا الكون مِن دلائل وحدانيَّته وقدرته، ولم يمشوا في ركاب الضّالّين عن الحقِّ بعدما أنار اللّه لهم طُرُقَهُ، وكشف لهم دروبه.

**نكتةُ حذفِ فعل الاستواء:**

لم يَذكرْ فِعل الاستواء مع الجملة الثّانيةِ لاشتراكهما في معنى نفي التَّساوي

الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عاطفةٌ، عطفت الجملة بعدها على الجملة التي قبلها في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، والتَّقديرُ: وما يستوي الذين آمنوا[1].

ولم يذكر فعل الاستواء مع الجملة الثانية، واكتفى بالعطف في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾؛ لإلحاقها بها في معنى نفي التساوي، أي: فكما أنَّه لا يتساوى العمى والبصر في الشخص الواحد كذلك لا يتساوى الإيمان والكفر والمعبَّر عنه بالإساءة، فكان ذِكر الفعل ﴿يَسْتَوِى﴾ مرَّةً واحدةً كافيًا؛ للدَّلالة على المراد لاشتراكهما في معنى نفي التَّساوي بين المتقابلَين، وعدم استقلال الثّانية بمعنى جديد.

**غرضُ التَّعبير بالاسم الموصول وصلته:**

الإيمانُ بالرَّحمن طريق الفوز بالجنان

عبَّر بالاسم الموصول وصلته في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للتَّنبيه على ما في حيِّز الصِّلة، وهو إيمانهم وما عطف

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 178.

عليه من عمل الصّالحات، وبيان أنَّه سببُ تميُّزهم على مقابليهم، وهم المسيئون.

### فائدةُ التَّعبير بالأفعال الماضية وسرُّ العطف بينهما:

الأعمالُ الصّالحة دليل كمال الإيمان

عبَّر بصيغة الماضي في قوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّق حصول كلٍّ منهما، فسببُ تميُّزهم هو كونهم قد تحقَّقوا بأصل الإيمان، ثمَّ تلبَّسوا بعمل الأعمال الصّالحة، ليصدِّق فعلُهم إيمانَهم، وفيه إشارةٌ إلى التَّكامل بين الإيمان والعمل الصّالح؛ لكونِ العمل الصّالح هو الدَّليل على الإيمان والعنوان المعبَّر عنه، ولذا تعاطفا.

### علَّةُ تعريفِ لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وجمعه:

ضمُّ الصّالحات بعضِها إلى بعضٍ لتكثر الحسنات وتُكفَّر السَّيِّئات

كلمةُ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ منصوبةٌ على المفعوليَّة، أو على أنَّها صفة للمفعول المحذوف، أي: الأعمال الصّالحات، والتَّعريف فيها للجنس، فليس المقصود بالصّالحات أعمالًا محدَّدة منها، بل المراد كلُّ ما هو صالح من الأعمال القلبيَّة والبدنيَّة، وسرُّ جمع اللَّفظ الدَّعوة إلى الإكثار من الأعمال الصّالحة، وألّا يُكتَفى بالقليل منها؛ ليؤازرَ بعضها بعضًا، ولتجبر ما عساه أن يقع من المؤمن من السَّيِّئات، فتكفر بهذه الصّالحات، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: 114]، فإن قيل: إنَّ جمع المؤنَّث السّالم يفيد القلَّة لا الكثرة؛ قيل: إنَّ جمع المؤنث السالم عندما يُعرَّف بـ (أل)، أو الإضافة يفيد العموم والعموم يفيد الكثرة، وجاء في حاشية الشِّهاب: جمع المؤنث السّالم وإن كان للقلَّة إذا دخلت عليه (أل)؛ يفيد الكثرة بمعونة المقام[1].

### معنى الواو في قوله: ﴿وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ﴾ هي واو العطف، عطفت المسيءَ

(1) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 368.

لا يستوي محسنٌ ومسيءٌ

على الَّذين آمنوا عطْفَ المفردِ على المفرد[1]؛ ليتمَّ بهذا العطف نفي التَّسوية بين الطَّرفين، وهم أهل الإيمان ومن يقابلهم من أهل الإساءة والكفران.

### نكتةُ النَّفي بـ (لا) بعد سبق النَّفي بـ ﴿مَّا﴾:

المبالغةُ في نفي التَّساوي دليل عظيم الخسران

أعيدت (لا) النّافية بعد واو العطف على النَّفي، وكان العطف مغنيًا عنها، فإعادتها لإفادة تأكيد نفي المساواة، ومقام التَّوبيخ يقتضي الإطناب، ولذلك تعد (لا) في مثله زائدة، كما في مغني اللَّبيب، وكان الظّاهر أن تقعَ (لا) قبل (الذين آمنوا)، فعدلَ عن ذلك للتَّنبيه على أنَّ المقصودَ عدم مساواة المسيءِ لمن عمل الصّالحات، وأنَّ ذِكرَ (الَّذين آمنوا) قبل ﴿ٱلْمُسِيٓءُ﴾؛ للاهتمام بالذين آمنوا، ولا مقتضى للعدول عنه بعد أن قُضي حقُّ الاهتمام بالَّذين سبق الكلام لأجل تمثيلهم، فحصل في الكلام اهتمامان.

وقريب منه ما في سورة فاطر في أربع جمل: اثنتين قدَّم فيهما جانب تشبيه الكافرين، واثنتين قدَّم فيهما تشبيه جانب المؤمنين، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: 19 - 22].

### دلالةُ التَّعبير بـ﴿ٱلْمُسِيٓءُ﴾ مادَّة وصيغة:

المقصود بـ(المسيء) أصحاب السجايا السَّيِّئة، وهم الثّابتون على السوء وأعلاه الكفر

أصل (سوأ) يدلُّ على قُبح، تقول: رجل أسوَأ، أي: قبيح، وامرأة سوءاء، أي: قبيحة[2]، ثمَّ انتقلت هذه الدَّلالة الحسّيَّة إلى دلالة معنويَّة؛ ليطلق اللَّفظ على ما يصدر عن المرء من أعمال غير صالحة، وعليه سمّيت السَّيِّئة سيِّئة؛ لقبحها من جهة المعنى، ومِن ثمَّ قوبل السّوءى بالحُسنى في الكتاب العزيز، فقد قال اللّه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 178.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوأ).

تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم: 10]، كما قال أيضًا: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [يونس: 26][1]، وأمّا عن إيثار صيغة اسم الفاعل ﴿ٱلۡمُسِيٓءُۚ﴾ دون التَّعبير بالفعل، فلم يقل: (ولا الذين أساؤوا)، فيتقابل التَّعبير لفظًا وتركيبًا مع قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وذلك لما في التَّعبير باسم الفاعل من دلالة على الثُّبوت والدوام، فالمقصود بلفظ ﴿ٱلۡمُسِيٓءُۚ﴾ الذين اعتادوا أن يكونوا مسيئين بكلِّ ما تحمله الكلمة من معانٍ، بما في ذلك الكفر نفسه، وهو أشدُّ أنواع الإساءة، وللإيماء إلى أنَّ المقصود به الذين تكون الإساءة فيهم كالطَّبع والسجيَّة، وليس الذين يسيئون، ويتوبون كعصاة المؤمنين.

### بلاغةُ الطِّباق في الآية بين الأحوال المختلفة:

في الآيـة طباق ظـاهـرٌ وآخـر خفيٌّ

في قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ طباق ظاهر، وهو طباق إيجاب؛ إذ قابل به بين هذين اللَّفظين مع قصديَّة ما يدلان عليه مجازًا من معنى الكفر والإيمان، ويوجد طباقٌ خفيٌّ بين المؤمنين والمسيئين في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ﴾؛ إذ قابل بينهما، والأظهر أن يقابَل الذين آمنوا بالَّذين كفروا، لكنَّه عبَّر عن الكفر بالإساءة؛ ليضيف بُعدًا آخر في وصفهم، وهو كونهم مع كفرِهم واقعين في ممارسة كافَّة أنواع الإساءة ممارسة المطبوع عليها، أو للدَّلالة على أنَّ الكفرَ هو رأسُ الإساءة وأقبحها.

### دلالةُ التَّعبير بـ ﴿قَلِيلٗا مَّا﴾:

لـو كـانـوا مِـن أهل العقول لما اختـاروا طريقَ الكفر والفجور

﴿قَلِيلٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ منصوب على أنَّه صفة لمصدر محذوف، والتَّقدير: تذكُّرًا قليلًا ما تتذكَّرون، أو على أنَّه نعت لظرف زمان محذوف، أي: وقتًا قليلًا أو زمانًا قليلًا[2]،

(1) الراغب، المفردات: (سوأ).

(2) الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 496.

و﴿مَّا﴾ مصدريَّة وهي مع الفعل بعدها في تأويل مصدر، في موضع رفْعٍ بقوله: ﴿قَلِيلًا﴾، أي: قليلًا تذكُّركم، أو قليلًا تذكُّرهُم على قراءة (يتذكرون) بياء الغيبة[1]، والتَّعبير بـ﴿قَلِيلًا﴾ منكَّرًا للتَّقليل، أو للانعدام والتَّلاشي؛ إذ إنَّ لفظ القلَّة قد يُطلق، ويراد به عدمُ الوجود، فيكون المعنى: تذكُّركم قليل جدًّا، أو أنَّه لا تذكُّر لكم من الأساس؛ "لأنَّ قلَّة التَّذكُّر تؤوَّل إلى عدم العلم، فتكون القلَّة هنا كناية عن العدم، وهو استعمال كثير، كقوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ [البقرة: 88]"[2]، أي: لا يؤمنون أصلًا.

### دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾:

جحودُ المجادلين مع كثرةِ الحججِ والآياتِ

عبَّر بصيغة المضارِع في قولِهِ تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾؛ للدَّلالة على انتفاءِ وقوع التَّذكُّر منهم والاعتبار، مع كثرة الآيات الدّالَّة على صِدق ما جاءهم مِنَ الحقِّ، فهُم لكثرة جدالهم في آيات الله بغير سلطان قد استفرغوا أوقاتهم في ذلك بحيث لم يعد لديهم وقتٌ ولا جهدٌ للتَّذكُّر والتَّدبُّر.

### نكتةُ حذفِ مفعول ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾:

ماتت قلوبُهم، فعموا عن التَّذكُّر والتَّدبُّر

حذف مفعول ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ إمّا للتَّعميم، فهُم لا يتذكَّرون أبدًا تذكُّر اتِّعاظ لأيِّ شيء ممّا يحيي القلوب الميتةَ، أو أنَّه أنزل الفعل منزلة اللازم، فكان الاهتمامُ ببيان كونهم لا يتذكَّرون، ولا يتَّعظون، بقطع النَّظر عن تعيين مفعول محدَّد.

### حسنُ النَّسق في الآية:

نظمُ القرآن عجيب، ينفع النُّفوس، ويحيي القلوب

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ﴾ فنٌّ (حسن النَّسق) وذلك أنَّ في ترتيب النَّسق ثلاثَ طُرُقٍ، **إحداها**: أن يجاورَ المناسب ما يناسبُهُ كهذه

(1) الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 496.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 197.

الآية، فالأعمى يجاورُ البَصيرَ، وهذان الوصفان مستعاران لمن غفل عن معرفة الحقِّ في مبدئه ومعاده، وقدَّم الأعمى في نفي التَّساوي لمجيئه بعد صفة الذَّمِّ في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: المحسن يجاور المُسيء، وقدَّم الذين آمنوا لمجاورته للبصير، وناهيك بهذه المجاورة شرفًا للمؤمن. **وثاني الطَّريقتين**: أن يتأخَّر المتقابلان، كقوله تعالى: ﴿۞مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ﴾ [هود: 24]. **وثالثتهما**: أن يُقدَّم مقابل الأوَّل، ويُؤخَّر مقابل الآخر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠﴾ [فاطر: 19 - 20]، وكلُّ ذلك تفنُّنٌ في البلاغة وأساليب الكلام، والمتكلِّم يتخيَّر في إيرادها إحداها حسب مقتضى الحال، ووفق نواميس البلاغة وطرائقها[1]، فالسّياق وتوخّي حسن النَّسق هو الَّذي يتحكَّم في النَّظم والتَّرتيب بين النَّظائر في الكتاب العزيز.

## ۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### الأعمى والأكمه:

الأعمى هو فاقدُ البصرِ مع وجود العينين والأكمه هـو مطـموس العينين

الأعمى وصفٌ يقالُ لفاقد البصرِ مع وجود العينين، وقد يُعبَّر به عن فقدان البصيرةِ، وهو أكثر استعمالات القرآنِ، قال الرّاغب: العَمَى يقال في افتقاد البصرِ والبصيرة، ويقالُ في الأوَّل: أعمى، وفي الثّاني: أعمَى وعَمٍ[2]، والأكمَهُ: هو الَّذي يولد مطموس العين، وقد يقال لمن تذهب عينه، كما قيل: كَمِهَتْ عيناه حتى ابيضَّتا[3]، والمراد بالعمى في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ عمى القلبِ والبصيرةِ، لا عمى العينِ.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 268، والخفاجي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 377، والدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 503.

(2) الراغب، المفردات: (عمي).

(3) الراغب، المفردات: (كمه).

## التَّذكُّر والتَّفكُّر:

التَّذكُّر هو مقصود التَّفكُّر وثمرته

التَّذَكُّر: التَّذَكُّرُ تَفَعُّلٌ من الذِّكر، وهو ضدُّ النِّسيان، وهو حضور صورة المذكور العلميَّة في القلب، واختير له بناء التَّفَعُّلِ لحصولهِ بعد مهلة وتدرُّج، كالتَّبصُّر والتَّفهُّم والتَّعلُّم[1]، وعرَّفه الكفويُّ بأنَّه: محاولةُ النَّفس استرجاع ما زالَ مِنَ المعلومات[2].

وأمّا التَّفكُّر؛ فقد عرَّفه العسكريُّ بقولهِ: التَّفكُّر: تصرُّف القلب بالنَّظر في الدَّلائل[3]، وقال الرّاغب: الفِكرَةُ: قوَّة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتَّفكُّر: جولان تلك القوَّة بحسب نظرِ العقلِ[4]، وهما متلازمان، "فالمتفكِّر ينتقل من المقدِّمات والمبادي الَّتي عنده إلى المطلوب الَّذي يريده، فإذا ظفر به، وتحصَّل له؛ تذكَّر به، وأبصر مواقع الفعل والتَّرك وما ينبغي إيثاره وما ينبغي اجتنابه، فالتَّذكُّر هو مقصود التَّفكُّر وثمرته، فإذا تذكَّر؛ عاد بتذكُّره على تفكُّره، فاستخرج ما لم يكن حاصلًا عنده، فهو لا يزال يكرِّر بتفكُّره على تذكُّره وبتذكُّره على تفكُّره ما دام عاقلًا"[5]، فبان بذلك أنَّ منزلةَ التَّذكُّر من التَّفكُّر منزلةُ حصول الشَّيء المطلوب بعد التَّفتيش عليه[6]، ولأجل أنَّ التَّذكُّر هو غاية التَّفكُّر، فقد أوثِرَ التَّعبيرُ به في قوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾، بما يومِئُ إلى أنَّه قد حصل منهم تفكُّرٌ على الأقل فيما يقرّون به مِن كونِهِ سبحانه خالق السَّموات والأرض.

(1) ابن القيم، مدارج السالكين: 1/ 440.
(2) الكفوي، الكليات، ص: 67.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 121.
(4) الراغب، المفردات: (فكر).
(5) ابن القيم، مفتاح دار السعادة: 1/ 214.
(6) ابن القيم، مدارج السالكين: 1/ 440.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٩﴾ [غافر: 59]

### مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ العدلِ الإلهيّ في البعث والجزاء

لمّا ذكَرَ في الآيات السّابقة خَلْقَ السّماوات والأرض والإنسان، وبيَّنَ استحالةَ أنْ يستويَ الأعمى والبَصير؛ فذكر فارقًا مادّيًّا حسّيًّا، ثمّ بيّن استحالةَ أنْ يستويَ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحاتِ والمسيءُ أتبَعَ ذلك بهذه الآيةِ الّتي تؤكِّدُ السّاعةَ وإتيانَها؛ فإنَّه ﷻ أرادَ من تلك الآياتِ الاستدلالَ على البعث؛ لأنّ الإلهَ الّذي خلق السّمواتِ والأرضَ قادرٌ على إعادة الأجسام بعد فنائها، ومحاسبتِها لتُجزى كلُّ نفس بما عملتْ، فقدَّم الدّليل، ثمَّ ذكر المدلول[1]. فاقتضى أنْ يأتيَ اليومُ الّذي يقفُ فيه الجميعُ أمام عدل الله وحكمه سبحانه؛ ليبيّنَ في ذلك الموقف صدقَ هذه القاعدة الّتي تمنعُ مساواةَ النّاسِ بعضِهم ببعضٍ؛ وأنّهم سيُحاسبون هناك تبعًا لِما يؤدّونه من أعمالٍ، وما يؤمنون به مِن مُعتقَداتٍ.

فناسبَ أنْ يُعلِنَ في هذه الآيةِ تأكيدَ مجيء السّاعة؛ وهي ساعةُ البعث ويوم الحساب، فلا بدَّ من مجيئها، وليس بمرتابٍ فيها، وما جادل فيه المجادلون واقعٌ لا محالةَ[2].

إعلان تحقُّق قيام السّاعة بعدَ الحجاج والاستدلال

و"لمّا أُعطيَ إثباتُ البعث ما يحقُّ مِن الحجاج والاستدلال تهيَّأ المقامُ لاستخلاص تحقيقِه كما تُستخلَصُ النّتيجةُ من القياس، فأُعلِنَ بتحقيقِ مجيء السّاعة وهي ساعة البعث"[3].

(1) ابن جزّي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 234.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 179، والبقاعي، نظم الدّرر: 17/ 97 - 98.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 179.

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾: جزء من أجزاء الزّمان، جذرها (سوع)، ويعبّر به عن القيامة، وهي القيامة المتضمّنة للبعث من القبور والحساب بين يدي اللّه تعالى، واقتران الجمع إلى الجنّة وإلى النّار[1]. ومن الآياتِ الّتي اجتمع فيها المعنيان قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ [الرّوم: 55]، فالأولى هي القيامة، والثّانية الوقت القليل من الزّمان[2]. والمراد بها هنا: القيامة.

2) ﴿رَيْبَ﴾: جذر الكلمة هو (ريب)؛ والرَّيْبُ: الشَّكُّ. وهو: ما رابَكَ من أمْرٍ تخوّفتَ عاقبتَهُ، يقال: رابَني كذا، وأرابَني، فالرَّيْبُ: أن تتوهَّمَ بالشَّيءِ أمرًا ما، فينكشفَ عمّا تتوهّمُه[3]. ومنه سمّي الموت ريبًا في قوله: ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ٣٠﴾ [الطور: 30]؛ لأنَّه مشكوك في وقت وقوعِهِ لا في كونِهِ حاصلًا. ومنه قوله ﷺ: «دَعْ ما يريبُكَ إلى ما لا يريبُك، فإنَّ الخيرَ طُمأنينَةٌ وإنَّ الشَّرَّ ريبَةٌ»[4]. ومعنى: "﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾؛ أي: لا شكَّ في إتيانها بوجهٍ من الوجوه"[5].

## ❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

السّاعةُ يقينٌ لا شكَّ فيه وإيمانٌ بالغيب

أخبرتِ الآيةُ عن مجيء السّاعة في الوقت الَّذي يختارُه اللّه تعالى لها؛ لا ريبَ ولا شكَّ في مجيئها في الوقت الَّذي يشاؤه اللّه تعالى، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك لغفلتِهم وقُصورِ نظرهم، واستحواذِ الشَّيطان عليهم. فتجدُ أكثر النّاس يجادلون في

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 566.
(2) الراغب، المفردات،: (سوع).
(3) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (ريب).
(4) الحاكم، المستدرك على الصّحيحين، حديث اسماعيل بن جعفر بن أبي كثير، رقم الحديث: (2169): 2/ 15.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 98.

إمكان حدوث ذلك[1]، فينكرون القيامة، بدواعٍ كثيرةٍ تَصرِفُهم عن الإيمان، وهو الإيمان بالغيب الَّذي هو أساس الاعتقاد.

## ۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### نكتةُ فصلِ الآية عن سابقتِها:

التَّفريقُ بين الجملتين؛ لعدمِ جامعٍ بينهما

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ﴾ عن سابقِهِ؛ لأنَّ بين الجملتين كمالَ الانقطاع؛ فمَعَ أنَّ الجملتين متَّفقتان في الخبريّة، إلّا إنَّه يجبُ الفصل بينهما لعدم وجودِ جهةٍ جامعةٍ بينهما، وهي ما لا يُتصوَّرُ العطفُ بدونها.

### فائدةُ تتابُعِ المؤكِّداتِ في صدرِ الآية:

الإيمانُ بالغيب ركنٌ مكينٌ من أركان الدّين

في الجملةِ الاسميَّةِ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ﴾ "تأكيدٌ للخبر بـ ﴿إِنَّ﴾ وبلام الابتداء؛ لزيادةِ تحقيق المعنى، وللإشارة إلى أنّ الخبر تحقَّقَ بالأدلَّةِ السّابقة. وذلك أنّ الكلام موجَّهٌ للَّذين أنكروا البعث"[2]. وهم أكثرُ النّاس، وهذه قضيَّةُ إيمان بالغيب، قال تعالى في أوّل سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 3]؛ فالإيمانُ بالغيب أحدُ أهمِّ أركان الإيمان.

### معنى (أل) في ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾:

مجيءُ يومِ القيامةِ حقٌّ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ﴾ للعهدِ الذِّهنيِّ، لأنها معروفة المعنى عند المخاطبين بها[3]. وفائدتُها بيانُ أنَّها يومُ البعث لا غيرُهُ، فالسّاعةُ مجازٌ في يوم القيامة، وهذا كثيرٌ في القرآن الكريم.

### علَّةُ إيثارِ لفظِ ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾:

أمرُ السّاعةِ محسومٌ، ودلالةُ لَحْظيَّتِها وبَغْتتِها مقصود

لمّا عَظُم أمرُ يوم القيامة، وكثُرت أهواله سمّاه الله تعالى في كتابه بأسماءٍ كثيرة ومتنوِّعة؛ تنبيهًا للعباد؛ ليخافوا منه ويستعدّوا له؛ إذ

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 12/ 304.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير(بتصرّف): 24/ 179.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/ 214.

بلغتْ نحوَ ثمانين اسمًا، منها: يوم الجمع، ويوم الفزع الأكبر، ويوم التّناد، ويوم الوعيد، ويوم الحسرة، ويوم التّلاق، ويوم المآب، ويوم الفصل، ويوم العرض على اللّه، ويوم الخروج، ويوم الخلود. ومن أوصافِهِ: يومٌ عظيم، ويومٌ عسير، ويومٌ مشهود، ويومٌ عبوس وغيرُها.

وفي هذه الآيةِ أوثِرَ تسميتُها بيوم السّاعة؛ إذ تميَّزَ هذا الاسمُ عن جميع المسمَّياتِ بالمسألة اللَّحْظيّة، أو البغتةِ الَّتي تُدرك النّاس وهم في غفلةٍ، قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ [الأعراف: 187]. قال القاسميُّ: "سُمّيت القيامة (ساعةً) لأنّها تَفْجَأُ النّاسَ بغتةً في ساعةٍ لا يعلمها أحدٌ إلّا هو تعالى[1]". فضلًا عن "سرعة الحساب فيها"[2]. وقد مَرَّ في شرح المفردات أنَّ مِن معاني السّاعة أنَّها جزءٌ من أجزاء الزّمان، وفي ذلك دلالةٌ على قِصَرِ زمنِها وقلَّتِهِ.

وإيثارُ لفظِ السّاعة أيضًا لبيانِ أنّها محسومٌ أمرُ وقوعِها، لكنَّها مسألةُ وقتٍ فحسب، وأنْ لا أحدَ يعلمُ وقتَ وقوعها، وأنَّ ذلك أمرُ اللّه.

### بلاغةُ المجازِ في إسنادِ الإتيان إلى السّاعة:

**قُدومُ السّاعةِ لا مناصَ مِنه ولا إفلات**

السّاعةُ لا تأتي بنفسِها وإنَّما يأتي بها اللّه؛ فقولُهُ سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ﴾ فيه مجازٌ عقليٌّ، حيث أُسنِدَ الفعلُ إلى غير فاعله لعلاقة المُسبَّبيّة.

ويجوزُ أن يكون في قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ﴾ استعارة، حيث شبه السّاعة بإنسانٍ يأتي على موعده، فهي استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ لأنَّه حذف

(1) القاسمي، تفسير القاسمي: 4/ 342.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/ 412.

المشبَّه به، وأتى بالمشبّه، وفائدتُها التّشخيص، فجعل يوم القيامة كشخص قادم إلى هؤلاء، مهما حاولوا الإفلات والابتعاد فإنَّه ملاقيهم وواقع بهم.

تحقيقُ وقوع السّاعة وتأكيدُ حتميَّتِها

### نكتةُ التّعبير باسم الفاعل (آتية):

في قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾؛ جيء باسم الفاعل في (آتية) الَّذي هو حقيقةٌ في الحال؛ للإيماءِ إلى أنَّها لمّا كانتْ محقَّقة الوقوعِ صارتْ كالشَّيءِ الحاضرِ المُشاهَدِ، فالأمرُ قد قُدِّرَ، وإنَّ وقوعَها محتومٌ ثابتٌ، وعِلْمُهُ عندَ اللّه تعالى، فالمراد تحقيقُ وقوعِها لا الإخبار عن وقوعها[1].

نفيُ الرَّيب عن السّاعة

### نكتةُ فصلِ قولِه: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾:

جملةُ ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ مؤكِّدة لجملةِ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾، وبين هاتين الجملتين الخبريّتين كمالُ الاتّصال، فوجَبَ الفصلُ بينهما لاتِّحادهما. ونفيُ الرَّيبِ عن نفس السّاعة مرادٌ به نفيُهُ عن إتيانها؛ لدلالةِ قوله: (آتيةٌ) على ذلك[2].

يومُ الحساب انتصافٌ للمظلوم وانتقامٌ من الظّالم

### معنى ﴿لَّا﴾ في قوله: ﴿لَّا رَيْبَ﴾:

نفى النَّظمُ الحكيمُ في قوله: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ جنسَ الرَّيبِ في وقوع السّاعةِ باستعمالِ ﴿لَّا﴾ النّافيةِ للجنس؛ لأنَّ دلائلَها واضحةٌ بحيث لا يُعتَدُّ بريبِ المُرتابين فيها؛ لأنّه ليس من الحكمةِ عند عاقلٍ أن يساويَ أحدٌ بين محسنٍ ومسيءٍ، فكيف يُظَنُّ ذلك بأحكم الحاكمين الَّذي نشاهده يُميت المُسيءَ وهو في غاية النّعمة والمعصية، والمحسنَ وهو في غاية البلاء والطّاعة، والمظلومَ قبل أن يَنتَصِفَ من الظّالم، ولهذا الأمرِ الظّاهر قال: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 180.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 180.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 529.

### غرضُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّة ﴿فِيهَا﴾:

السّاعةُ مكانُ وزمانُ تحقُّقِ العدالةِ الإلهيَّةِ

(في) الواردة في قوله تعالى: ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ ظرفيَّةٌ مجازيَّة[1]. فقولُهُ: ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في نفسها وذاتها، وإنْ وجد من العالم من يرتاب فيها فليس فيها في نفسها ريبة[2]. والمعنى: أنَّها آتيةٌ وأنَّها ليست محلًّا للرَّيبِ ولا ظرفًا له[3]، فالسّاعةُ هي مكانُ الصِّدقِ وحَتْميَّةِ التَّحقُّقِ، وليست مكانًا لأيِّ نوعٍ من أنواعِ الرَّيبِ والشَّكِّ.

### بلاغةُ المجاز في نفيِ الرَّيبِ عن نفسِ السّاعة:

السّاعةُ دليلٌ على نهايةِ الزَّمانِ الدُّنيويِّ وبدايةِ الآخرة

في قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ مجازٌ في نفي الرّيب عن نفس السّاعة؛ إذ المعنى: لا ريب في وقوعها وحدوثها، فهو مجازٌ مرسل علاقتُهُ الزَّمانيّة. وفائدةُ المجاز هنا بيانُ نهايةِ الزَّمانِ الدُّنيويِّ، وخاتمةِ الدُّنيا، ونهايةِ أيّامِها، وبداية الآخرة.

### معنى الواوِ، وفائدةُ الاستدراك في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

الاستدراكُ بنفي الإيمانِ بالسّاعةِ دليلُ الرَّيبِ والجهل

ظاهرُ جملةِ الاستدراك أنَّها معطوفةٌ على جملة ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ﴾، ولولا أنَّ (لكنَّ) يكثُرُ أنْ تقعَ بعد (واو) العطف؛ لكانت الجملةُ جديرةً بالفصل دون عطفٍ، فهذا العطفُ تحليةٌ لفظيّةٌ[4]، وهذا الاستدراكُ الَّذي خُتمتِ به الآيةُ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّه يدلُّ على سؤالٍ مقدَّرٍ، فبينَ الجملتين شبهُ كمالِ الاتِّصال، ومن حقِّه الفصلُ لا الوصلُ، لكنْ ما سوَّغَ الوصلَ هو اقترانُ (لكنَّ) الاستدراكيَّةِ بالواو كثيرًا، وموقعُ الاستدراك هو ما يثيره نفيُ الرّيب عن وقوع السّاعة؛ من التّساؤل: كيف يَنفي الرّيبَ عنها والرّيبُ حاصلٌ لكثيرِ من النّاس؟! فكان الاستدراك بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ جوابًا للسّؤال. والمعنى: ولكنَّ أكثر النّاس يمرّون بالأدلّةِ

---

(1) المُبرّد، المقتضب: 4/ 139.

(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 566.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 333.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 180.

والآيات وهم مُعرِضون عنها غيرُ مؤمنين بمدلولاتها، ولو تأمّلوا في أنفسهم واستنبطوا بعقولهم لظَهَرَ لهم من الأدلَّة ما يؤمنون بعده. أو يكون تقديره: فيجبُ على النّاس أن يؤمنوا، وإلّا فإنَّهم على خطرٍ عظيم، ولكنَّ أكثرَهم غيرُ مؤمنين. فلذلك نَفى عنهم هنا وصفَ الإيمان[1]. فالاستدراكُ على قولِه تعالى: ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ هو إمّا من تمامِ الكلامِ المأمورِ بِه، أو كلامٌ مسوقٌ من جهتِه تعالى تحقيقًا للحقّ وتنبيهًا على أنَّ ارتيابَهُم لجهلِهم وقُصورِهم في النّظرِ والتّفكُّرِ، لا لأنَّ فيه شائبةَ رَيْبٍ ما[2].

إنكارُ وُقوعِ السّاعة مِن أشدِّ أماراتِ الجحود

### معنى (لكنَّ) وبيانُ موقعها في الآية:

(لكنّ) حرفُ استدراكٍ مشبَّهٌ بالفعل؛ وفائدةُ الاستدراكِ فيها - على ما قرَّره أهل العلم باللِّسان -: أنْ تقعَ بينَ كلامَين بينَهما تنافٍ بوجهٍ ما؛ لتؤدّيَ معنى مخالفةِ حكم ما بعدَها لحكمِ ما قبلَها، ولذلك لا بدَّ أن يكون الكلامُ الّذي يتقدَّمُها نقيضًا لما بعدها، أو ضدًّا له[3]. وعدمُ إيمانِ أكثر النّاس في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ يناقضُ حَتْميَّةَ وقوع السّاعة في الآية. ووجه الاستدراكِ: أنّ مجيءَ السّاعة وعدمَ الرّيب في وقوعها مع قطعيَّتِهما يُنكِرُهُ كثيرٌ ممَّن لم يَبلُغْهُ مقاصدُ هذا الصّنيع، أو بلَغَهُ لكنْ حَمَلَهُ تكبُّرُهُ على النُّكران؛ ليظهرَ الجحودُ في أوضحِ صورةٍ وأتمِّ بيان.

### دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ التَّفضيلِ ﴿أَكۡثَرَ﴾:

عدمُ الإيمانِ بالبعثِ والحسابِ من مُعتقَدات أغلبِ البشر

تدلُّ صيغةُ التَّفضيل (أفعل) على إظهارِ التَّفوُّقِ أو التَّفضيلِ بين شيئَين، فدلَّتْ في قوله: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ على أنَّ عموم النّاس ممَّن بلغوا سنَّ التَّكليف غيرُ مؤمنين بالقيامة، وبالحساب يوم القيامة،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 74، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 180.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 74، وابن عجيبة، البحر المديد: 8/ 74.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 1/ 101، والسامرائي، معاني النحو: 1/ 307.

فيكونُ المرادُ بـ ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ الكفّارَ والَّذين ينكرون البعثَ والقيامة[1]، وهم حتمًا أكثرُ ممَّن آمَنَ وصدَّقَ بهذه الأمور الغيبيَّة، ولو قال: (ولكنَّ كثيرًا مِن النّاس) لَما دلَّ على الأغلبيَّةِ غيرِ المؤمنة.

### نوع الإضافة في ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾:

اسمُ التَّفضيل في (أكثَرَ النّاسِ) دالٌّ على الغالبيَّة

الإضافةُ نسبةُ اسم إلى اسم آخرَ ليتعرَّفَ السّابقُ باللّاحق أو يتخصَّصَ به، هذا في الإضافةِ المحضة، أمّا الإضافةُ غيرُ المحضة فلا يستفيدُ المضافُ من المضاف إليه تعريفًا ولا تخصيصًا، بل هو باقٍ على تنكيره؛ لأنَّ الغرضَ منها لفظيٌّ يرجعُ إلى تخفيف اللَّفظ بحذفِ التَّنوين[2].

واختُلفَ في إضافةِ اسم التَّفضيل لِما بعده: محضةٌ أم لا؟ والجمهورُ على أنَّها محضةٌ، فيكتسبُ اسم التَّفضيل التَّعريف أو التَّخصيص ممّا بعدَه[3].

وفي قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ الإضافةُ محضةٌ على القول الرّاجح، فاكتسَبَ من ﴿ٱلنَّاسِ﴾ التَّعريف، والمعنى هو الدّلالة على الغالبيَّةِ عمومًا.

### نكتةُ نفيِ الإيمانِ عن الأكثريَّة:

غَلَبةُ الأهواءِ على الحقِّ في كلِّ زمان

المرادُ بالنّاسِ في قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المشركون، وهم يومَئذٍ أكثرُ من المؤمنين، فدلَّ ذلك على أنَّ أكثرَ النّاسِ لا ينصاعون إلى الحقائقِ بل إلى الأهواء، ومهما جاءتهم الآياتُ البيِّنات فإنّهم لا يؤمنون، ويكونُ المؤمنون على وجهِ الأرض هم الأقلَّ في كلِّ أزمان الدُّنيا؛ كلٌّ في عصره، أو هم الأقلّ في عموم ما خلَقَ اللّه من ذرّيَّةِ آدمَ إلى قيام السّاعة.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 527.

(2) ابن عقيل، شرح ابن عقيل على الألفية: 3/ 44.

(3) رضي الدين الأستراباذي، شرح الرضي على الكافية: 2/ 247.

**معنى (أل) في ﴿ٱلنَّاسِ﴾:**

العموم في (الناس) إشارةٌ إلى كثرة البشرِ المنكرين للحساب

(أل) التّعريف في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ للجنس، فأفادت العموم، فغالبُ النّاسِ هنا مقصودون على اختلافِ أجناسِهم ولغاتهم وألوانهم، فالآيةُ تتكلَّمُ على النّاس الَّذين قدَّرَ اللّهُ لهم أنْ يحيَوا في هذه الحياة ويبلغوا سنَّ الرّشد، وهم قادرون على التَّمييّز بين الحقّ والباطل إلّا أنَّهم كذَّبوا بالسّاعة تكبُّرًا وعنادًا.

وراعى معنى الأكثرِ فجمَعَ؛ لأنَّ الجَمْعَ أدلُّ على المرادِ وأقعدُ في التَّبكيت[1].

**دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:**

إنكارُ الحقِّ مع تجدُّدِ الآياتِ دليلُ تمكُّنِ الكفر

جاء خبرُ (لَكِنَّ) في قولِه سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ جملةً فعليَّةً فعلُها مضارعٌ منفيٌّ بـ﴿لَا﴾، وهذه الصّيغةُ هنا دالَّةٌ على تجدُّدِ الكفرِ وعدمِ الإيمان مهما جاءهم من البيِّنات والهدى؛ إذ إنَّ الآياتِ البيِّناتِ تأتيهم تَتْرى، ولكنَّ أكثرَ النّاس لا يؤمنون بها، ويتجدَّدُ كفرُهم بتكذيبِها عنادًا واستكبارًا، فظاهرةُ عدمِ الإيمانِ منهم متجدِّدةٌ دائمة.

**نكتةُ نَفْيِ خبرِ (لكنَّ) بـ﴿لَا﴾ في قولِه: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:**

الكفرُ مِن أغلبِ البشرِ مستمرٌّ إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها

إذا دخلتْ ﴿لَا﴾ النّافيةُ على المضارعِ أفادَتْ نفيَهُ في الحالِ مُنسحِبًا إلى الاستقبال على قولِ فريقٍ مِن النَّحويّين، أو خَلَّصَتْهُ للاستقبالِ على قولِ فريقٍ آخرَ[2]. وعلى كلا المذهبين يكونُ المرادُ بقوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ نفيَ الإيمانِ عن أكثرِ النّاسِ مُستمرًّا استمرارَ هذه الحياةِ إلى أنْ يرثَ اللّهُ الأرض ومَن عليها.

**نكتةُ حذفِ متعلِّقِ الإيمان:**

دلَّ حذفُ متعلِّقِ الإيمان في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 529.
(2) المرادي، الجنى الداني في حروف المعاني، ص: 296.

البراهينُ على القيامةِ والبعثِ شاملةٌ واسعة

﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ على عُمومِ وشُمولِ وسَعَةِ الحُجِجِ والبراهينِ الَّتي تأتي للنّاس، الدّالَّةِ على قدومِ الحساب، وعلى عظيمِ خَلْقِ اللّه وشأنِه في التَّقديرِ والقيّوميَّة على ما خَلَقَ. وهو ما يدلُّ على وحدانيَّةِ اللّه وعظيمِ شأنه، وأنَّه مِن المُحال أنْ يتركَ هذا الخلق بلا حسابٍ، ولكنَّهم لا يؤمنون مهما جاءهم مِن الآياتِ والنُّذُرِ، قال تعالى: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس: 101]، فهم في حالةٍ لا تُغني معهم الآياتُ، ولا تنفعُ معهم الحججُ والبراهين.

### نكتةُ الاستدراكِ بالجملة الاسميَّة:

من وُجوهِ ضلالِ المنكرين ثباتُهم وإصرارُهم على الكفرِ والعمى القلبيِّ

أفادَتِ الجملةُ الاسميَّةُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ الثَّباتَ والاستقرارَ على حالةٍ معيَّنةٍ، فهم كما قال عنهم: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمَّد: 24]، فلا تُفتح هذه القلوبُ؛ لِما أصابها من العمى، وما جرى عليها من الرَّيْنِ ممّا كسبوا، قال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [المطفّفين: 14].

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: 60]

### مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

أهمّيَّةُ الدُّعاء والطَّاعة في سبيلِ الخلاص

لمّا بيّن الله تعالى أنّ القول بالقيامةِ حقٌّ وصدق، وكان من المعلوم بالضَّرورة أنّ الإنسان لا ينتفع يومَ القيامة إلّا بطاعة الله تعالى، فكان الاشتغال بالطّاعة من أهمّ المهمات، ولمّا كان أشرفُ أنواع الطّاعات الدّعاءَ والتَّضرُّعَ؛ أمَرَ الله تعالى به في هذه الآية فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ﴾[1]، وبيّن أنّه سبيلُ الخلاص فقال: ﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾، فجاءتِ الآيةُ تحذيرًا من الإشراكِ به[2].

إفرادُ الله تعالى بالعبادةِ والدُّعاءِ سبيلُ النَّجاة

ولمّا كان البعثُ قضاءً منه تعالى بين عباده بالعدل؛ فيَدخُلُ المحسنُ الجنَّةَ نصرةً له، والمسيءُ النّارَ خِذلانًا وإهانةً له كان مناسبًا أن يُردَفَ بتنبيهِ عبادِهِ كلِّهم إلى وجوبِ الإيمان له؛ ليُسلِّمَهم من غوائلِ تلك الدّار، وذلك بأنْ يدعوه وحده، ويعبُدوه وحده[3].

ذكرُ الدُّعاء بالمعنيين استكمالٌ لإفرادِهما في آياتٍ أُخَرَ

وبينَ هذه الآيةِ المباركة وما قبلَها من الآياتِ وجهُ مناسبةٍ؛ فلمّا تقدَّمَ ذكرُ الدّعاء بمعنييه: معنى العبادةِ، ومعنى سؤالِ المطلوبِ في قوله تعالى:﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ [غافر: 12]، وقولِه: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [غافر: 13]، وقولِه: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ٥٠﴾ [غافر: 50] أردَفَ بهذا الأمرِ الجامع لكلا المعنيَين[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 527.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 181.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 98.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 181.

### ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱدۡعُونِيٓ﴾: جذرُ الكلمة هو (دعو)؛ والدّعاء: الرَّغبةُ إلى اللّه ﷻ[1] فيما عنده من الخير والابتهال إليه بالسُّؤال[2]. وفي معنى الدُّعاء هنا قولان؛ أحدُهما: الدّعاءُ بمعنى العبادة - وهو المرادُ في هذه الآية - والثّاني: أنَّه بمعنى الاستغاثةِ والسّؤال والطَّلب[3]. ويجوزُ أن يصلحَ معنى الدُّعاء في هذه الآية لِما يلائمُ المعنيَين[4].

2) ﴿دَاخِرِينَ﴾: جذر الكلمة هو (دخر)؛ قال تعالى: ﴿وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ٤٨﴾ [النّحل: 48]؛ أي: أذِلّاءُ مُهانون، والدّاخِرُ: الصّاغرُ المُنْقاد. وهو أن يفعلَ ما تأمره كرهًا على صِغَرٍ ودُخور[5]. يقال: أدْخَرتُه فَدَخَرَ؛ أي: أذلَلْتُهُ فذَلَّ، وعلى هذا المعنى قولُه في هذه الآية: ﴿دَاخِرِينَ﴾[6].

### ❁ المَعنى الإجْماليُّ:

التَّضرُّع إلى اللّه بالدُّعاءِ عبادةٌ، ووعدُ اللّه بالإجابة، وللمستكبِرِ سوءُ العاقبة

في هذه الآيةِ تَفضُّلٌ ونعمةٌ ووَعْدٌ لأمَّةِ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ بالإجابة عند الدّعاء[7]. ونَعْيٌ من اللّه تعالى على الإنسان لِما هو فيه من جُحودٍ ونكران لنِعَمِ خالقه سبحانه؛ إذ أمر اللّه تعالى عباده المؤمنين أن يكثروا من التّضرّع إليه بالدّعاء فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾؛ أي: وقال ربكم: أيُّها المؤمنون، تضرّعوا إليّ بالدّعاء، وتقرّبوا إليّ بالطّاعات أستَجِبْ لكُم، ولا أُخَيِّبْ لكم رجاءً.

ولا تَنافيَ بين تفسير الدّعاء هنا بالسّؤال والتّضرُّعِ إلى اللّه تعالى وبين تفسيره بالعبادة؛ لأنَّ الدّعاءَ هو لونٌ من العبادة، بل هو العبادةُ نفسُها كما جاء في الحديث الشّريف.

(1) ابن سيدة، المُحكم: (دعو).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (دعو).
(3) السيوطيّ، معترك الأقران: 2/ 383.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 181.
(5) الخليل، العين، والزّمخشري، أساس البلاغة، والراغب، المفردات، وابن الأثير، النهاية: (دخر).
(6) الراغب، المفردات: (دخر).
(7) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/ 566.

ثمَّ بيَّنَ سبحانه سوءَ عاقبة الَّذين يتكبَّرون عن طاعة اللّه وعن دعائه فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾؛ أي: إنَّ الَّذين يستكبرون عن طاعتي، وعن التّقرب إليّ بما يرضيني سنُدخِلهم يومَ القيامة نارَ جهنَّمَ حالةَ كونهم أذِلّاءَ صاغرين، فقولُه: ﴿دَاخِرِينَ﴾؛ أي: أذلّاءَ مُهانين[1].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### معنى الواوِ في قوله: ﴿وَقَالَ﴾:

إفـرادُ اللـه بـالـعـبـادةِ والـدُّعـاءِ هو مَنْجاةُ الإنسانِ حـيـنَ قـيـامِ السّاعة

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ تحذيرًا من الإشراك به، والوصلُ بين الجملتين لسبب أنّهما خبريّتان مع وجود العلاقة الّتي تبرِّرُ عطفَ الثّانية منهما على الأولى؛ وهي ارتباطُ الجملتين من حيث المعنى؛ فإنَّ الجملةَ الأولى أثبتت حقيقةَ يوم البعثِ وتحقُّقَ وقوعِهِ حيث يُصارُ إلى جنَّةٍ أو إلى نارٍ، والجملةُ الثّانيةُ إرشادٌ لعباد اللّه إلى الوسيلة للسَّعادةِ الأُخرويَّةِ في دار الخلود، وهي إفراد اللّه تعالى بالعبادة[2].

### معنى (القولِ) ونكتةُ الإتيانِ به ماضيًا:

معنى القولِ دائرٌ بينَ الإرادةِ وبينَ القولِ اللّفظيِّ في الماضي أو في الحال

القولُ المُخبَرُ عنه بفعل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ يجوز أن يُرادَ به ما تعلَّقتْ به إرادةُ اللّه تعلُّقًا صلاحيًّا؛ بأنْ يقوله عندَ إرادة تكوينه، ويجوزُ أن يرادَ القولُ اللّفظيُّ، ويكون التّعبير بـ (قال) الماضي مُخبرًا عن أقوالٍ مَضَتْ في آياتٍ قبل نزول هذه الآية، مثل قوله: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: 14]، ويجوزُ أن يكونَ الماضي مُستعمَلًا في الحال مجازًا؛ أي: يقولُ ربُّكم: ادعوني[3].

(1) طنطاويّ، الوسيط: 1/ 3712 - 3713.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 571.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 181.

**دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ الرُّبوبيَّة، وإضافتِها إلى ضمير المخاطب:**

أمرُ الله لعباده مِن مُنطلَقِ رُبوبيَّتِهِ ورحمتِه

قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ دالٌّ على لطفِ الله تعالى بعباده، ونعمته العظيمة، حيث دعاهم إلى ما فيه صلاحُ دينهم ودُنياهم[1]. "وتعريفُ الله بوصف الرَّبِّ مضافًا إلى ضمير المخاطبين في قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾؛ لِما في هذا الوصفِ وإضافته من الإيماء إلى وجوب امتثال أمره؛ لأنّ مِن حقِّ الرّبوبيِّة امتثالَ ما يأمرُ به موصوفُها؛ لأنَّ المربوبَ محقوقٌ بالطّاعة لربِّه، ولهذا لم يُعَرِّجْ مع هذا الوصف على تذكيرٍ بنعمته، ولا إشارةٍ إلى كمالاتِ ذاته"[2].

**دلالةُ الأمرِ في قوله: ﴿ٱدۡعُونِيٓ﴾:**

الإرشادُ والتَّشويقُ؛ أمّا الإرشادُ فلِلدُّعاءِ، وأمّا التَّشويقُ فلِلاستجابة

الدُّعاءُ في قوله: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ دعاءٌ بمعنى العبادة، وهو كثيرٌ في القرآن[3]، وجاءَ مفرَّعًا عن توبيخِ المشركين بقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ [غافر: 12]، وعلى قوله عقب ذلك: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [غافر: 13][4]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

وجاء بصيغةِ الأمر ﴿ٱدۡعُونِيٓ﴾، وقد خرَجَ هُنا إلى معنًى مجازيٍّ هو الإرشاد؛ إذ أرشَدَ إلى أنّه قريبٌ منّا، يسمعُ دعاءَنا[5]. كما أنّ فيه معنى التّشويق إلى كلِّ خير يمكن أن يصيبَ الإنسانَ وهو يدعو ربَّهُ بعدَ أنْ أشار إليه بالاستجابة إلى دعائه وترغيبه بذلك. فالدّعاءُ هنا هو الطّلبُ والرَّغبةُ، وهذا وعدٌ مقيَّدٌ بالمشيئة، وهي موافقةُ القدرِ لمن أراد أنْ يستجيبَ له[6].

---

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرحمن: 1/ 740.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 182.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 179.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 181.
(5) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 25/ 247.
(6) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 234.

### دلالةُ فعلِ الدُّعاءِ بينَ الحقيقةِ والكنايةِ والمجاز:

الدُّعاءُ والعبادةُ مُتَّحِدانِ في الحقيقة

يُطلَقُ الدُّعاءُ بمعنى النِّداءِ المُستلزِمِ للاعترافِ بالمنادى، ويُطلق على الطَّلبِ، وقد جاء من كلام النَّبيّ ﷺ ما فيه صلاحيةُ معنى الدُّعاءِ الَّذي في هذه الآيةِ لِما يلائم المعنَيَين. ففي الحديث الصّحيح الَّذي رواه النُّعمانُ بنُ بَشيرٍ رضي الله عنه، قالَ: سَمِعْتُ النَّبيَّ ﷺ يَقولُ: «إنَّ الدّعاء هوَ العِبادَةُ»، ثُمَّ قَرَأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾[1]. وما في الحديثِ من توكيدٍ يقتضي اتِّحاد الحقيقتين؛ فإذا كان الدّعاءُ هو العبادةَ كانت العبادة هي الدّعاءَ لا محالة[2]. والدّعاءُ يطلق على سؤالِ العبد من الله حاجتَهُ، وهو ظاهرُ معناه في اللّغة. وهو اعترافٌ بالعبوديَّة والذِّلَّة والمسكنة، فكأنَّه قيل: إنَّ تارك الدّعاءِ إنَّما تركه لأجل أن يستكبرَ عن إظهار العبوديَّة[3].

العبادةُ دعاءٌ للمعبودِ بنداءِ تعظيمِهِ والتَّضرُّعِ إليه

ويُطلَقُ على عبادة اللّه على طريقِ الكناية؛ لأنّ العبادةَ لا تخلو من دعاء المعبود بنداء تعظيمه والتّضرّع إليه، وهذا إطلاقٌ أقلُّ شيوعًا من الأوَّل، ويراد بالعبادة في اصطلاح القرآن إفرادُ اللّه بالعبادة؛ أي: الاعترافُ بوحدانيّته[4].

الدُّعاءُ سببُ العبادة

أمّا المجازُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ فهو مجازٌ مرسل علاقتُهُ السَّببيَّة؛ لأنّ الدّعاء سببُ العبادة[5]، بقرينة قولِه بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، ويؤيِّدُ هذا المجازَ حديثُ النُّعمانِ بن بشير الَّذي ذكرناه آنفًا، أو علاقتُهُ الخصوصُ والعموم؛ فإطلاقُ العبادةِ على الدُّعاءِ مِن إطلاق العامِّ على الخاصِّ مجازًا[6].

(1) الحاكم، المستدرك على الصّحيحين، باب: (إنّ الدّعاء هو العبادة)، رقم الحديث: (1853): 1/ 672.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 181 - 182.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 527.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 182.
(5) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 24/ 265.
(6) الخلوتي، روح البيان: 8/ 152.

### عِلَّةُ إيثارِ لفظِ الدُّعاء دونَ العبادة:

الدّعاءُ صورةٌ مِن صوَرِ العبادةِ أو جزءٌ منها

حقيقةُ الدُّعاء: إظهارُ الافتقار للّه تعالى، واستشعارُ الذِّلَّةِ إليه سبحانه، فضلًا عن أنّ فيه معنى الثّناءِ على اللّه، واعترافِ العبد بخطاياه وتقصيراته تجاهَ خالقه ومولاه، والافتقارِ إليه أمام جودِ وكرم ربِّه سبحانه. يقول اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: 186].

وظاهرُ عبارةِ الحديثِ الشَّريفِ (إنَّ الدُّعاءَ هو العبادةُ) أنَّ العبادةَ والدُّعاءَ شيءٌ واحدٌ، بيد أنّ ثمَّةَ فرقًا بينهما؛ هو أنّ الدّعاء إمّا أن يكونَ صورةً من صور العبادة - وحينئذٍ يكونُ بينَهما علاقةٌ بمثابةِ العلاقةِ بين الخاصِّ والعامّ - وإمّا أن يكونَ جزءًا منها، فتكونُ العلاقة بينهما كعلاقة الجزءِ من الكلّ. أمّا العباداتُ فمُتضمَّنةٌ في تشريعاتٍ محدّدةٍ لا يجوزُ تجاوُزُها.

وأوثِرَ في الآيةِ الشَّريفةِ لفظُ الدُّعاء دون العبادة؛ لأنَّ الدُّعاءَ هو الأُسُّ الَّذي تقومُ عليه العبادة، وللعلّامةِ ابنِ منظورٍ صاحبِ لسان العرب كلامٌ بديعٌ في هذا الشَّأن، قال رحمه اللّه: "وفي الحديثِ: «الدُّعاءُ مُخُّ العبادة»[1]؛ مخُّ الشَّيءِ: خالِصُهُ، وإنَّما كان مُخًّا لأمرين؛ أحدُهما: أنَّه امتثالُ أمرِ اللّه تعالى حيث قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾، فهو مَحْضُ العبادةِ وخالِصُها. الثّاني: أنَّه إذا رَأى نجاحَ الأمور من اللّه قطَعَ أملَهُ عن سِواه، ودَعاهُ لحاجتِهِ وحدَهُ، وهذا هو أصلُ العبادة، ولأنَّ الغرضَ من العبادةِ الثَّوابُ عليها وهو المطلوبُ بالدُّعاء"[2]. فإيثارُ الدُّعاء على العبادةِ في الآيةِ الشَّريفة مِن إيثار الخاصِّ على العامِّ لشَرَفِه.

(1) الترمذي، سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب فضل الدعاء، رقم الحديث: (3371)، وإسناده فيه ضعف.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (مخخ).

### المُشاكَلةُ في جُملةِ الدُّعاء:

إجابةُ الدُّعاءِ إثابةٌ

المُشاكَلة: ذكرُ الشّيءِ بلفظِ غيره؛ لوقوعه في صحبته تحقيقًا أو تقديرًا[1]. وفي قوله تعالى: ﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ مُشاكَلةٌ؛ لأنَّ الإثابةَ مترتِّبةٌ عليها[2].

### الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿أَسۡتَجِبۡ﴾:

ترتُّبُ الاستجابةِ على الدُّعاء يُعلِّمُنا الأخذَ بالأسبابِ في كلِّ شُؤونِنا

قولُه سبحانه: ﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ مضارعٌ مجزومٌ بالطَّلب ﴿ٱدۡعُونِيٓ﴾، و﴿لَكُمۡۚ﴾ متعلّقٌ بـ﴿أَسۡتَجِبۡ﴾. وجملةُ ﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ لا محلَّ لها جوابُ شرطٍ مقدَّرٍ غيرُ مقترنٍ بالفاء؛ أي: إنْ تدعوني أستجبْ لكم[3].

### بلاغةُ الاحتباكِ في قولِه: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ﴾:

أخْصَرُ طريقٍ لنَيلِ ثوابِ الله هو الدُّعاء

جَمَعتِ الآيةُ بين فِعلَي الدُّعاء والاستجابة على تفاوُتٍ بيْنَ شيوع الإطلاق في كليهما، فيكونُ في المعنى المرادِ ما يشبه الاحتباكَ، حيث صرَّحَ بالمعنى المشهور في كلا الفعلين، ثمَّ ذكَرَ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ قرينة دالَّةً على ذلك، فاتَّضَحَ أنَّ المراد هو الدُّعاء والعبادة، وأنّ الاستجابة أُريد بها قبولُ الدّعاء وحصولُ أثر العبادة، قال الزَّمخشريُّ: "الاستجابةُ هي الإثابة"[4]. ففعلُ ﴿ٱدۡعُونِيٓ﴾ مستعملٌ في معنَيَيه بطريقةِ عموم المُشترَك، وفعلُ ﴿أَسۡتَجِبۡ﴾ مستعملٌ في حقيقتِه ومجازِه، وذلك من الإيجازِ والكلام الجامع[5].

### نكتةُ دخولِ السّينِ والتّاء على فعلِ الاستجابة:

استجابةُ الباري عظيمةٌ لِمَن يدعوه مُخلِصًا

وَرَدتِ الإجابةُ في قوله: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ مزيدةً بالسّين والتّاء؛ للدَّلالة على زيادةِ معنى الاستجابة، فالقاعدةُ تقول: (زيادة

---

(1) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 327.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 24/ 265.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 24/ 265.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 179.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 182.

المبنى تدلُّ على زيادة المعنى)؛ فدخولُ حروف الزّيادة على الكلمة تدلُّ على قوَّةِ الكلمةِ ومدلولِها العميق، حيث إنَّها تدلُّ على المعنى الأصليِّ للكلمةِ وعلى معنًى زائدٍ عليه، والمعنى الزّائد هنا هو تعظيمُ أمرِ الدُّعاء؛ "أي: أوجِدُ الإجابةَ إيجادًا عظيمًا، كأنَّه مِمَّن يطلُبُ ذلك بغايةِ الرَّغبةِ فيه"[1].

## دلالةُ فعلِ الاستجابةِ بينَ الحقيقة والمجاز:

قَبولُ الدُّعاءِ والإثابةُ عليه

معنى قوله: ﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾: أُثِبْكُم[2]. والاستجابةُ "تطلق على إعطاء المسؤول لمن سأله، وهو أشهرُ إطلاقِها، وتطلق على أثرِ قبول العبادة؛ بمغفرةِ الشّرك السّابق وبحصول الثّواب على أعمال الإيمان؛ فإفادةُ الآيةِ على معنى طلبِ الحاجة من الله يناسبُ ترتُّبَ الاستجابةِ على ذلك الطّلب معلَّقًا على مشيئة الله أو على استيفاءِ شروط قبول الطّلب، وإعطاءِ خيرٍ منه في الدّنيا، أو إعطاءِ عِوَضٍ منه في الآخرة. وإفادتُها على معنى إفراد الله بالعبادة؛ أي: بأن يتوبوا عن الشّرك، فَتَرتُّبُ الاستجابة هو قبولُ ذلك، فإنَّ قبول التّوبةِ من الشّرك مقطوعٌ به"[3].

الاستجابةُ إثابةٌ لِمَن يعبدُ الله تعالى ولا يَدعو سِواه

وقولُهُ سبحانه: ﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ بمعنى: أنّه سبحانه قريبٌ مِن عباده الصّالحين الّذين يؤمنون به ويدعونه ويرجونه، فدعاؤهم عبادةٌ له سبحانه، فهو يتقبَّلُ منهم أعمالَهم.

و كلمةُ ﴿أَسۡتَجِبۡ﴾ يمكنُ أن تُفهَمَ على الحقيقةِ، وهي تقبُّلُ الدُّعاءِ وتحقيقُ ما يشاء الله تعالى منه، أو يمكن أن تكونَ بمعنى الإثابةِ على العباداتِ والطّاعاتِ على سبيل المجازِ المرسَلِ بعلاقةِ السَّببيَّة.

## معنى اللّامِ في ﴿لَكُمۡۚ﴾:

مَن دَعا الله مُخلِصًا استحقَّ الإجابة

معنى اللّام في قوله: ﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ الاختصاصُ والاستحقاق،

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 99.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 61.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 182.

فمَن دعا اللّه تعالى مؤمِنًا به سبحانه وفْقَ أخلاقِ الدُّعاءِ وشروطِه استحقَّ القبول والإجابة بإذن اللّه.

**نكتةُ حذفِ معمولِ الاستجابة:**

تضمُّنُ الاستجابةِ معنى الإثابة

في قولِه سبحانه: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ حُذِفَ معمولُ ﴿أَسْتَجِبْ﴾، والتَّقدير: (أستجبْ لكم دعاءَكم)، وفي هذا الحذفِ دليلٌ على المعنى المجازيِّ المرادِ بالاستجابة وهو الإثابة؛ لأنَّ المعنى: (أُثِبْكُم)، كما أنَّ الحذف دليلُ العموم، فكأنَّ المعنى: أستجبْ لكم كلَّ أدعيتِكم.

**دلالةُ استعمالِ أُسلوبِ الطَّلبِ دون أُسلوبِ الشَّرط:**

إجابةُ اللهِ لعبادِهِ فوريَّةٌ، لكنْ قد يُؤَخِّرُها لحكمةٍ يعلمُها سبحانه

ورَدَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ بأسلوب الطَّلب، ومعناه الشَّرطُ؛ لأنَّ التَّقديرَ: (إنْ تدعوني أستجبْ لكم)، إلّا أنَّ النَّظم القرآنيَّ آثر أسلوبَ الطَّلب على أسلوب الشَّرطِ لاعتباراتٍ مهمَّةٍ، منها: الحثُّ على الدُّعاء والتَّرغيبُ فيه، فقوله: ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾ إرشادٌ لعبادِ اللّه إلى ما فيه مصلحتُهم في الدُّنيا والآخرة، ولو قال: (إنْ تدعوني أستجبْ) لفاتَ هذا المعنى المراد. ومنها: الدَّلالةُ على سرعةِ تحقُّقِ الإجابة؛ فالطَّلبُ أخصرُ من الشَّرط وأسرعُ في التَّلفُّظِ به، وهذا دليلُ السُّرعةِ في تحقُّقِ المدعوِّ به، حيث قال: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ﴾، وليس هناك أسلوبٌ أخصرُ من هذا يدلُّ على كمالِ المعنى المرادِ وتمامِه، وهذا من بديع النَّظم القرآنيّ.

**نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾:**

الأمرُ بالدُّعاء والتَّحذيرُ من الاستكبار عن عبادة الله

جملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ لا محلَّ لها؛ لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ، أو تعليلٌ للأمرِ بالدّعاء في قوله: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ بتضمينِ الدُّعاءِ معنى العبادة، وهي تفيدُ التَّحذيرَ من الإعراض عن دعاء اللّه حين الإقبال على دعاء الأصنام أو غيرها من الخلقِ، وقد فُصِلَتْ هذه الجملةُ عن سابقتِها؛ لِشبْهِ كمالِ الاتِّصال بينهما.

### فائدةُ تتابعِ المؤكِّداتِ في صدرِ الجملة:

التّأكيدُ على قدرة الله في إذلالِ الجبابرة وعقوبتهم

أفادَ تتابُعُ المُؤكِّدَينِ: ﴿إِنَّ﴾ و(الجملةِ الاسميِّةِ) في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾؛ بيانَ قدرةِ اللّه تعالى في إذلالِ الجبابرة، وإدخالِهم النّارَ أذلَّةً مهما كانت أعدادُهم؛ لأنَّهم أكثرُ النّاس؛ إذ سبَقَ قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

### غرضُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

جميعُ المستكبرينَ في جهنَّمَ داخرين

في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾؛ عُبِّرَ بالموصولِ إيماءً إلى التَّعليل[1]. وقد يكون لإرادةِ العموم، نحو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصّلت: 30]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: 69][2]؛ إذ أرادَ عمومَ الَّذين أشركوا واستكبروا عن عبادة اللّه تعالى.

### دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾:

الإصرارُ على الاستكبارِ مِن صفاتِ الأشرارِ

صيغةُ المضارَعةِ في قولِه: ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ تدلُّ على التّجدُّدِ، وتجدُّدُ الاستكبارِ دالٌّ على الإصرارِ والتَّعنُّتِ وعدمِ قبول الاستجابة للّه بالإيمان به ودعائِه والرّجاءِ منه أن يغفرَ ذنوبَهم وعبادتِه سبحانه.

### نكتةُ دخولِ السّينِ والتّاء على فعل الاستكبار:

النّارُ مصيرُ المُبالِغين في الاستكبار

دخلتِ السّينُ والتّاء في قوله: ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾؛ للدَّلالة على طلبِ الاستكبار والرَّغبة في تجسيدِهِ سلوكًا لا ينفكّون عنه؛ "أي: يوجِدون الكِبرَ"[3]. وفي ذلك دلالةٌ على المبالغةِ في الكبر، قال تعالى: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ [غافر: 56].

### نكتةُ تعديةِ فعل الاستكبار بـ﴿عَنۡ﴾:

غايةُ الذِّلَّةِ والمَهانةِ عبادةُ غيرِ الله

عُدّيَ فعلُ الاستكبار في قوله: ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ بـ﴿عَنۡ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 183.
(2) السيوطيّ، الإتقان: 4/ 1286.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 99.

دون (على) لنكتةٍ بلاغيَّةٍ مُفادُها: أنّ ﴿عَنْ﴾ تفيد المُجاوزة، في حين تفيدُ (على) الاستعلاء، فمهما بلغ النّاسُ من الكبر فإنَّهم لن يبلغوا الاستعلاءَ على اللّه، وإنّما هو مجاوزةٌ ما أمَرَ اللّه به، فهذا هو الاستكبارُ الَّذي بَلَغَهُ المُعارِضون تجاهَ اللّه وعبادته ودعائه سبحانه، إلى عبادةِ غيره ودعائهم. فهم قد تجاوزوا عبادةَ اللّه ودعاءه إلى عبادة غير اللّه ودعائهم، وهذا يجعلُهم في غاية الذِّلَّةِ والمَهانة.

### نكتةُ إضافةِ العبادةِ إلى ضميرِ العظمة:

اللهُ تعالى وحده هو المخصوصُ بالعبادةِ المُستحِقُّ لها

في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ أضافَ العبادةَ إلى ضمير العظمة، ونكتةُ ذلك تخصيصُ العبادة به تعالى، فضلًا عن كونه استمرارًا لأمرِ الدّعاء قبله؛ إذ قال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾، فأتبَعَهُ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ على الطَّريقة نفسِها، وما ذاك إلّا لأنّ الدّعاءَ هو العبادة، وذلك كما ورد في الحديث، فدلَّتْ على أنّ الَّذين يدعون اللّهَ هم الَّذين يعبدونه ﷻ.

### الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾:

تأكيدُ دخولِ هؤلاءِ المستكبرين نارَ جهنَّم

جملةُ ﴿سَيَدۡخُلُونَ﴾ في محلِّ رفعٍ، خبرُ ﴿إِنَّ﴾[1]، فتأكَّدَ دخولُ هؤلاءِ نارَ جهنَّمَ أذِلّاءَ مُرغَمين.

### معنى السّينِ في ﴿سَيَدۡخُلُونَ﴾:

يومُ القيامةِ موعدُ القصاصِ مِن المستكبرين

دلَّت السّينُ في قولِه: ﴿سَيَدۡخُلُونَ﴾ على الاستقبال؛ وذلك يومَ القيامة، ومعناها التَّهديدُ والوعيدُ الشَّديدُ مِن اللّه لكلِّ مَن يتكبَّرُ عن عبادته سبحانه، واستعمَلَ النَّظمُ الحكيمُ السّينَ الدّالَّةَ على المستقبل القريبِ إشارةً إلى قُربِ ذلك اليوم وقرب دُخولِهم النّار.

### توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في ﴿سَيَدۡخُلُونَ﴾:

قَرَأ ابنُ كثيرٍ وأبو بكرٍ بخلفه أبو جعفر ورويس: ﴿سَيُدۡخَلُونَ﴾

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 24/ 265.

بضَمِّ الياءِ التَّحتيَّةِ المُثنّاةِ وفتحِ الخاءِ المعجمة على ما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ أي: سيُدخِلُهم ملائكة العذاب جهنَّمَ، ويكونُ بعدَها في ﴿دَاخِرِينَ﴾ التِفاتٌ من المجهول إلى المعلوم.

سـيـدخـلُ المـسـتـكـبرون جـهـنَّـمَ رَغْـمًـا عنهم مُـهانينَ مُـنـقـاديـنَ بأرجُلِهم

وقرَأ الباقونَ بفتح الياء وضمِّ الخاء إضمارًا عنهم[1]، فهم سيدخلون جهنّم رَغمًا عنهم، منقادين بأرجلِهم الَّتي ستشهد عليهم؛ لأنّهم استحقّوا ذلك بسبب تعنّتهم وإصرارهم على الكفر وعدم الإيمان.

## نكتةُ العدول عن ذكر النّار إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾:

اخـتـيـارُ لـفـظ (جهنَّم) في الآية لـتـهـويـلِ عـذاب الآخرة

عدلَ عن ذكر النّار في الآية إلى ذكر ﴿جَهَنَّمَ﴾؛ وذلك لِما في اسم جهنَّمَ من القوّة والشّدّة، وهو ما يدلّ على التّنكيل بهم، وأنّهم يستحقّون أكثر من النّار، فكانت جهنّم هي مُدخَلَهم، وفي ذلك تخويفٌ وتهويلٌ لمآلِ هؤلاء. هذا فضلًا عن أنّ النّار ذكرت في القرآن الكريم مرّاتٍ عديدةً للدّلالة على نار الدّنيا والانتفاع بها كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ۝﴾ [الواقعة: 71]، أمّا لفظُ (جهنَّم) في القرآن الكريم فلم يَرِدْ إلّا للدّلالة على عذاب الآخرة؛ إذ اختصَّ لفظ (جهنَّم) بالتّعبير عن نار الآخرة ووصف عذاب يوم القيامة حصرًا، فلم يَرِدْ حقيقةً أو مجازًا في التّعبير عن أغراض الدّنيا كما هو وارد في لفظ (النّار).

## الموقعُ النَّحْويُّ لقوله: ﴿دَاخِرِينَ﴾:

الذِّلَّة والمهانة في الآخــرةِ بسبب الاسـتـكـبـار في الدُّنيا

نُصِبَ قولُه: ﴿دَاخِرِينَ﴾ على الحال، والمعنى: يكونون حالَ دخولِهم إلى جهنّم أذلّاءَ؛ أي: يدخلون جهنَّمَ على هيئةِ الذُّلِّ والصَّغار والاحتقارِ، وهذا ما استحقّوه في الآخرة؛ لما اتّصفوا به من الكبر في الدّنيا، قال تعالى: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾.

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 252، وابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 634، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 183.

**دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿دَاخِرِينَ﴾ مادَّةً وصيغةً:**

**الـصَّـغـارُ والاحـتـقـارُ من الصّفات الدّائمة لأهل النّار**

الدّاخِرُ: الصّاغرُ، وهو أن يفعل ما تأمُرُهُ كرهًا على صِغَرٍ ودُخور[1]. ووردت ﴿دَاخِرِينَ﴾ على صيغةِ اسم الفاعل؛ لتدلَّ على الثّبات والاستقرار، فتكونُ صفةُ الصَّغارِ دائمةً فيهم، فهم لا يدخلون جهنَّم فحسب، بل يدخلونها في هيئةِ الصّغار والاحتقار، بسبب استكبارهم في الدّنيا وإعراضهم عن عبادة اللّه، وتكونُ ملازمةً لهم ثابتةً فيهم أبَدَ الآبِدين.

**الطِّباقُ بين ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ و ﴿دَاخِرِينَ﴾:**

**الإذلالُ والمهانة في النّار على قدر الاستكبار**

قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ فيه طباقٌ بين ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ و ﴿دَاخِرِينَ﴾، يَظهَرُ منه انعكاسُ حال الطّغاة المتكبِّرين في الدّنيا وما سيَؤولُ إليه حالُهم من الانقلاب التّامِّ يوم القيامة، فيكونُ إذلالُهم في النّار على قدر استكبارِهم وتعنُّتِهم في الدّنيا.

**بلاغةُ الاحتباكِ في الآية:**

**الـكـلامُ الموجَزُ الـوافي بالمعنى مِن بديعِ النَّظم**

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ احتباكٌ يدلُّ على بديعِ النَّظم القرآنيِّ.

ووجهُ الاحتباكِ: ذكرُ الدُّعاء أوَّلًا دليلًا على حذفه ثانيًا، والعبادة ثانيًا دليلًا على حذفِها أوَّلًا[2]. فكأنّه قال: (وقال ربُّكم ادعوني واعبدوني أستجبْ لكم إنَّ الّذين يستكبرون عن عبادتي ودعائي سيدخلون جهنَّمَ داخرين)، ويترتَّبُ على هذا الاحتباكِ لفٌّ ونشرٌ معكوس.

(1) الخليل، العين: (دخر).
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 100.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١﴾ [غافر: 61]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

أدلَّـةُ استحقاقِ الله للعبادةِ مِن نِعَمِهِ على عبادِه

بعدَ أنْ بيَّنَ في الآيةِ السّابقة خطابَ الرّسول ﷺ للنّاس بأمْرِهم بالدُّعاء والعبادة بقوله: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾، وبيَّنَ مصيرَ الَّذين يستكبرون عن عبادته أتبَعَ ذلك ببيان ألوانٍ من النِّعَم الَّتي أنعم بها على عباده، وبيَّنَ بعضَ أدلّة استحقاق اللّه تعالى لتلك العبادة وذلك الدّعاء، فهو الَّذي سخَّرَ لهم المخلوقاتِ العظيمةَ؛ لتكون أسبابًا ضامنةً للحياة وديمومتِها، فجعل اللَّيلَ والنّهار دائبين؛ ليسكنوا فيه، وجعل النّهار ليبتغوا فيه من فضله، وهذا يقتضي الشّكرَ للّه على ما أنعم.

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِتَسۡكُنُواْ﴾: (سكن) أصلٌ واحدٌ مطَّردٌ، يدلُّ على خلاف الاضطراب والحركة. وخلافُهما هو الاستقرارُ والثَّبات[1]. وورد في القرآن بأكثرَ من معنًى؛ فالواردُ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ بمعنى: لتستقرّوا فيه من التّعب؛ "لأنَّ السُّكون ضدُّ الحركة. والحركة: مظنَّةُ التّعب؛ لأنَّ فيها انتقالاتٍ بالأعضاء وأعمالًا بالجوارح، والنَّهار ظرف ذلك. واللَّيلُ ظرف الرّاحة بها والسُّكون"[2]. ويأتي التّسكين بمعنى الاستئناس، والاطمئنان[3].

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (سكن).
(3) الدّامغانيّ، قاموس القرآن: (سكن).

2) ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾: جذر الكلمة هو (بصر)؛ والبصرُ حسُّ العين، والجمع أبصار، و"أبصره إذا أخبر بالذي وقعت رؤيته عليه"[1]. والبَصَر ومشتقّاته يُقال للجارحة النّاظرة؛ أي: البصرُ بالعين، وللقوّة الَّتي فيها، ويقال لقوَّة القلب المُدركة: البَصيرَةُ والبَصَر، ويُقال للحجّة، والبرهان، ويُطلق على: العلم بالشَّيء، والتأمُّلِ، والتَّعَرُّفِ، والتَّعريفِ، والإيضاح. وأصلُ ذلك كلِّه وضوحُ الشّيء[2]. ومعنى ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ في الآية: مضيئًا، يُبصرُ فيه[3].

3) ﴿فَضۡلٍ﴾: (فضل) أصلٌ صحيح يدلّ على زيادةٍ في شيء. من ذلك الفضل: الخيرُ، والزّيادة عن الاقتصار. والإفضال: الإحسان[4]. ومعناها المحوريُّ "زيادةٌ من مادَّةِ الشّيء متميِّزةٌ عنه"[5]. ومعناها في الآية: ما حَبا اللّه تعالى النّاسَ من الخيراتِ والنِّعَم.

## المَعْنى الإجْماليُّ:

نِعْمتا اللَّيلِ والنَّهارِ آيتان من آياتِ الله

في الآيةِ بيانٌ لنعمتي اللّيل والنّهار اللَّتَينِ أنعَمَ بهما اللّه تعالى على النّاس؛ أي: إنَّ اللّه تعالى هووحده الَّذي جعَلَ لكم - أيُّها النّاسُ - اللَّيلَ لتسكنوا فيه، وتستريحوا من عَناءِ العمل بالنّهار، وهيَّأهُ لهذه الاستراحة؛ بأنْ جعَلَهُ مظلمًا ساكنًا، وجعل لكم بقدرته وفضله النّهارَ مبصرًا؛ أي: جعَلَهُ مضيئًا مسفرًا، بحيث تبصرون فيه ما تريدون إبصارَه من الأشياء المتنوّعة. وهذه من أعظم الآيات الَّتي لا يمكن أن تكون إلّا من خالقٍ عظيم.

ثمَّ بيَّنَ موقفَ أكثرِ النّاس من نعم اللّه تعالى عليهم؛ فاللّه

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 62، وابن سيدة، المُحكم: (بصر).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والدّامغانيّ، قاموس القرآن: (بصر).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (بصر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (فضل).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فضل).

تعالى صاحب فضل عظيم على النّاس جميعًا، ولكنَّ أكثرهم لا يشكرونه على ما أنعَمَ وتفضَّلَ، لغفلتهم وجهلهم واستيلاء الأهواء والشَّهوات عليهم[1].

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

الدَّلالة على قدرةِ الله ونِعَمِهِ الكبرى على النّاس

جملةُ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ استئنافيَّةٌ بيانيَّةٌ ناشئةٌ عن تقوية الأمر بدعائه، وهذا أنسبُ بالتّوقيف على سوء شكرهم، وبمقام تعداد دلائل قدرته، وأفْضالِهِ على النّاس؛ بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾، فالجملةُ واقعةٌ مَوقِعَ التّعليل لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، فبَيْنَ الجملتين شبه كمال الاتِّصال؛ أي: تسبَّبوا لأنفسهم بذلك العقاب؛ لأنّهم كفروا نعمة اللّه؛ إذ جعل لهم اللّيل والنّهار[2]. وهذا سبب الفصل بين الجملتين، فمن عظيم شأنه ومقتضى عبادته سبحانه أنْ جعَلَ السُّنن الكونيّة محافظةً على الحياة، دائرةً في مصلحة الإنسان، فجعل اللّيل سكنًا له، وجعل النّهار للتّمتّع بنعمة الإبصار، والسّير في الأرض، وابتغاء الفضل من اللّه؛ عملًا ورزقًا ومتاعًا وغيرها.

### بلاغةُ الالتفات من التّكلُّم إلى الغَيْبة:

ذكرُ النِّعَمِ والتَّحذيرُ من الاستكبار

قال اللّه تعالى في الآية السّابقة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾، ثمّ التفَتَ هنا بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ من التّكلّم في ﴿عِبَادَتِي﴾ إلى الغيبة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ﴾، وأفاد هذا الالتفاتُ التَّحوُّلَ إلى التّفكّر بعظيم شأن اللّه وعظيم فضله ونعمائه على النّاس الّذين يستكبرون عن عبادته؛ إذ أخبر اللّه

(1) طنطاوي، الوسيط: 1/ 3714.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 183 - 184.

تعالى أنّه جعل اللّيل سكنًا والنّهار معاشًا، وبيّن عجز الآلهة الَّتي تُعبَدُ من دون اللّه عن ذلك، وأنّه لا دليلَ لهم على عبادتها؛ فإنّها لا تملك شيئًا[1]. فحُقَّ عليهم أن يُدخلهم اللّه جهنّم بعد أن أنكروا الإيمان، واستكبروا عن عبادة اللّه، فجعلهم في غاية الذّلّ والهوان.

### الموقعُ النَّحويُّ لِلَفْظِ الجلالةِ والاسم الموصول:

دلالـةُ اسمِ الجلالة على عظمة اللّه وثباتِ نِعَمِهِ الكونيّة

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾؛ اسمُ الجلالة فيه مبتدأٌ والموصولُ صفةٌ له ويكون الخبر قولَه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، وتكونُ جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ معترضةً. ويجوزُ أن يكون اسمُ الجلالة مبتدأً والموصولُ خبرًا[2]، وجملةُ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾ الآيةَ ... استئنافيَّةٌ لا محلّ لها[3]. فتقديم لفظ الجلالة في الجملة الاسميّة دليلٌ على عظيم قدرته وأفْضاله سبحانه، وثباتِ تلك النّعم الَّتي هي سنَنٌ كونيّة عظيمة، فجعَلَها قائمةً إلى يوم القيامة، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: 48].

### غرضُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

بيانُ عظيمِ شأن اللّه في الخلق والتَّقدير

وُصِفَ الاسمُ الأعظم في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾ بالموصولِ وصلته؛ إشارةً إلى بعض صفاته، وإيماءً إلى وجه الأمر بعبادته[4]. وقد ذكره هنا بصفته المعظَّمة فقال: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فاستحقَّ سبحانه العبادةَ والتّعظيم؛ لأنَّه هو وحده القادر على الخلق والتّصوير والجعل والتّقدير.

### نكتةُ المجيءِ باسم الجلالة بعدَ الرُّبوبيَّة في الآية السّابقة:

استحقاقُ الطّاعة والعبادةِ للّه بمقتضى الرّبوبيّة والعبوديّة

يجوزُ أن يكون اسمُ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ الواردُ في هذه الآية بدلًا من ﴿رَبُّكُمُ﴾ في الآية السّابقة ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾، وفائدةُ ذلك:

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 282 و5/ 341.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 184.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 24/ 266.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 183.

بيانُ استحقاقِ اللّه تعالى أنْ يطاعَ بمقتضى الرّبوبيَّة والعبوديَّة، واستحقاقِه الطّاعةَ لصفات كماله الَّتي يجمعُها اسمُ الذّات، ولذلك لم يَذكُر مع ﴿رَبُّكُمْ﴾ شيئًا مِن نعمه ولا كمالاته؛ اجتزاءً بمقتضى حقّ الرّبوبيّة، وذكَرَ مع ﴿ٱللَّهُ﴾ بعضَ نِعَمِه وأفْضاله وبعضَ صفاته؛ إلماحًا لوجهِ الأمر بعبادته[1].

**بلاغةُ الإدماجِ في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ﴾:**

أفـضـالُ الـلـه ووحـدانـيَّـتُـه في الخلق والإنعام

في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ أدمَجَ[2] في التّذكير بالنّعمة استدلالًا على انفراده تعالى بالتّصرُّف بالخلق، والتّدبيرِ الَّذي هو لازمُ حقيقة الإلهيَّة[3].

ومِن لطيفِ الاستعمال الفنّيِّ للفعل والاسم قولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ فاستعمَلَ مع اللّيل الفعلَ ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ ومع النّهار الاسمَ ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ ولم يسوِّ بينهما، فلم يقل: (ساكنًا) و(مبصرًا)، ولا: (لِتَسۡكُنواْ فيه) و(لتبصروا فيه)؛ مع أنَّ الاستعمال الحقيقيَّ هو: (لتبصروا فيه)، فعدل عن الفعل إلى الاسم وعن الحقيقة إلى المجاز، فقدَّمَ أسلوبًا فريدًا في وصف الحقائقِ العلميَّة، أسهَمَ في تبسيطها والتَّعبير عنها بمزيَّةٍ فنّيَّةٍ عالية؛ فقال: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾؛ وذلك أنّ النّهار لا يُبصِرُ هو، بل يُبصِرُ من فيه، فجمع بينَ التّعبير الحقيقيّ والمجازيّ، ودلّ على المقصد الأوَّل من الآية وهو الدّلالة على النّعمةِ بأقرب طريق، وقدَّم حقائق علميَّةً عظيمة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 183.

(2) الإدماج: قال ابن أبي الإصبع: هو أن يُدمِجَ المتكلم غرضًا في غرض أو بديعًا في بديع، بحيث لا يظهر في الكلام إلا أحد الغرضين أو أحد البديعين كقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِى ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [القصص: 70]، أدمجت المبالغة في المطابقة، لأنَّ انفراده تعالى بالحمد في الآخرة - وهي الوقت الَّذي لا يحمد فيه سواه - مبالغةٌ في الوقت بالانفراد بالحمد، وهو وإن خرج مَخرجَ المبالغة في الظاهر، فالأمر فيه حقيقةٌ في الباطن، فإنه رب الحمد والمنفرد به في الدّارين، انتهى ، يُنظر: السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 162.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 184.

## فائدةُ العُدولِ إلى الاسميَّة في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾:

دقَّةُ ألفاظِ الآية في إبراز النِّعم الإلهيَّة

أفادَ العدولُ إلى الاسميَّة في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ معنيين؛ **الأول:** أنّنا نبصرُ فيه، كما قيل: ليلٌ قائم؛ والمقصود: قائمٌ أهلُه. **والمعنى الآخرُ:** أنَّه جعَلَهُ مُبصِرًا أيضًا؛ يُبصِرُ أعمالَنا، ويكونُ شاهدًا علينا بالخير والشّرّ؛ فكأنَّ له عينين تُبصران، فهو يُبصِرُنا كما نُبصِرُ نحن فيه، وهذا من قبيل التَّشخيص، فجعله حيًّا بيننا. وهذا من جمال التّعبير القرآنيِّ وروعته.

وهذا ما أومَأ إليه صاحبُ الكشّاف في تفسير هذه الآية؛ إذ يتساءل: لِمَ قُرِنَ اللّيلُ بالمفعول له والنّهارُ بالحال؟ وهلّا كانا حالين أو مفعولين له فيراعى حقُّ المقابلة؟ ثم يجيبُ قائلًا: هما متقابلان من حيث المعنى؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يؤدّي مؤدّى الآخَرِ، ولأنَّه لو قيل: (لتبصروا فيه) فاتتِ الفصاحةُ الَّتي في الإسناد المجازيِّ. ولو قيل: ساكنًا لم تتميَّزِ الحقيقةُ من المجاز؛ لأنَّ اللَّيل يجوز أن يوصف بالسُّكون على الحقيقة، ألا ترى إلى قولهم: ليلٌ ساجٍ وساكنٌ؟ لا ريحَ فيه(1).

## دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿جَعَلَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

التَّوظيفُ اللُّغويُّ للفعل (جعل)

الفعلُ ﴿جَعَلَ﴾ في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ﴾ فعلٌ ماضٍ بمعنى (خلَقَ)، والعربُ تفرِّقُ بين (جعل) إذا كانت بمعنى (خلق) أو لم تكن بمعناها، فإنْ كانت بمعنى (خلق) عدَّتْها إلى مفعولٍ واحد، وإذا لم تكن بمعنى (خلق) عدَّتْها إلى مفعولين، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ [الزخرف: 3]. و(النّهارَ) عطفٌ عليه، ونُصِبَ ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ على الحال(2).

## معنى اللّامِ في ﴿لَكُمُ﴾:

اللّامُ في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ معناها الاختصاص والاستحقاق؛

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 180، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 184.
(2) النّحّاس، إعراب القرآن: 4/ 30.

أي: يكونُ ما أوجدَهُ اللّه من هاتين الظّاهرتين (اللّيلِ والنّهارِ)، والسُّنَّتينِ الكونيَّتين العظيمتين، وما يندرجُ تحتَهما من نِعَم عظيمة أخرى تتحرَّكُ وتوجد بوجود اللّيل والنّهار وتتابُعِهما مُحقِّقًا لِمصالحِكم داعمًا لِما ترغبون تحقيقه، فقد اختصَّكم اللّه تعالى بهذه النِّعم العظيمة، وهذا ما يقتضي التّفكّرَ بعظيم ما أنعم اللّه والشُّكرَ عليه.

اختصاصُ الله تعالى النّاسَ بالنِّعَمِ يوجِبُ شكرَهُ عليها

**نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملة على المفعول:**

في قولِه: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ﴾ قدَّمَ شِبهَ الجملةِ على المفعول به؛ للتَّأكيد على الاختصاص، ولفائدةِ الاهتمام، فالعربُ مِن شأنِها تقديمُ ما تهتمُّ به - وإنْ كان مُستحِقًّا للتَّأخير - على غيرِه إظهارًا للاهتمام به، فهذه النِّعمُ العظيمة كلُّها جاءتْ لصالح الإنسانِ الَّذي هو خليفةُ اللّه في أرضه، وهذا ما يسمّيه العلماء اليومَ المبدأ الإنسانيَّ، وفي القرآن الكريم يسمّى مبدأ التَّسخير؛ قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣﴾ [الجاثية: 13].

التَّسخيرُ الإلهيُّ للنِّعم مِن مظاهرِ الكرم

**معنى (أل) في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾:**

دلَّتْ (أل) التَّعريف في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ﴾ على الجنسِ، فالمرادُ عمومُ اللَّيل، فكلُّ ليلةٍ آيةٌ عظيمةٌ مسخَّرةٌ لكم حتّى قيامِ السّاعة.

نِعَمُ الله على عباده تَتْرَى ما تتابعتِ اللَّيالي

**معنى اللّامِ في ﴿لِتَسۡكُنُواْ﴾:**

(اللّامُ) في قولِه تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ للتَّعليل، وقيل: هي لامُ التّمكين، ومع هذا يجوزُ في اللّيل غيرُ السّكون. وإنَّما أفادَ الجَعْلُ هُنا وصفَ آيةٍ كونيّةٍ؛ إذ يرقُدُ عمومُ النّاس في اللّيل؛ للسُّكون وطلب الرّاحة.

بيانُ خاصّيَّةِ اللّيلِ مِن تمكينِ النّاس من السُّكونِ فيه

**وجهُ التَّعبيرِ بالفعل (تسكنوا) مضارعًا:**

السُّكونُ في الآية يَحتَمِلُ "الرّاحةَ الظّاهريَّةَ بالنَّوم الَّذي هو الموتُ الأصغر، والرّاحةَ الحقيقيَّةَ بالعبادة الَّتي هي الحياةُ الدّائمة"[1].

اللّيلُ راحةٌ للبدن وظيفيًّا وروحيًّا

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 101.

ودلالةُ المضارعةِ فيه مِن مظاهرِ إتمام النّعمة ودوامِها بتجدُّدِ السُّكون مع دوام حالِ اللّيالي وِفاقَ التَّقديرِ الإلهيِّ على صورةٍ واحدة.

**بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿فِيهِ﴾:**

اللَّيلُ مثلُ بيتٍ تسكنُ فيه النّاسُ وتهدأُ مِن أعباء الحياة

(في) في قوله تعالى: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾؛ ظرفيَّةٌ مجازيَّةٌ دلَّتْ على الإحاطة، وهو ما يمنحُ النّاسَ فرصةَ السَّكنِ عندَ حدوث اللَّيل، ولأنَّ السّكون يحتاج إلى مكان، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنًا﴾ [النّحل: 80]، فصَوَّرَتِ الآيةُ اللَّيلَ كأنَّه هو المكانُ الَّذي يحيطُ بالنّاس ليحقِّقَ لهم السّكينةَ.

**معنى الواو في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾:**

اللَّيلُ والنَّهارُ ظرفان دائمان لسَكَنِ المرءِ ومعاشِه

في قولِه: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾؛ عطَفَ (النّهارَ) على ﴿ٱلَّيۡلَ﴾، و ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ معطوفٌ على (مظلمًا) المقدَّرِ، فقد عطفت (الواوُ) معمولين على معمولين، وعاملُهما واحد، وتقدير الكلام: هو الَّذي جعل لكم اللّيل مظلمًا لتسكنوا فيه والنّهار مبصرًا لتتحرّكوا فيه(1). والجمعُ بينهما بواو العطف إتمامٌ لصورةِ الزَّمانين اللَّذَينِ يقضي فيهما المرءُ حياتَه

**معنى (أل) في ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾:**

إنارةُ النَّهارِ مِن سننِ الله الكونيّةِ الدّائمة

(أل) في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ جنسيَّةٌ؛ أي: جنسَ النّهار، فكلُّ نهار يكون مبصرًا لكم، تتحرّكون فيه وتبتغون العمل والتّحصيل. ودلَّتْ (أل) الجنس كذلك على ما يمكن محاكاته من قِبَلِ الإنسان في إضاءة البيوت والطّرق، فكان في ذلك محاكاةٌ علميَّةٌ لسنَّةٍ كونيَّةٍ، فما نراه اليومَ من اعتياد النّاس على إضاءة المدن والمساكن وغيرها ما هو إلّا تقليدٌ ومحاكاة لقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾.

**بلاغةُ الطِّباقِ بينَ لفظتَي ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و(النّهار):**

اللّيلُ والنّهارُ تكوينان عظيمان، دالّان على عظيم قدرةِ خالقِهما

(1) الخرّاط، المُجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/ 442.

ومُنَظِّمِهما وجاعلِهما متعاقبَين، فنيطَتْ بهما أكثرُ مصالحِ هذا العالمِ ومصالحِ أهلِه.

اللّيلُ والنّهارُ دلالةُ الميزانِ الكونيِّ في تنظيم الحياة البشريّة

وبينَ اللّيل والنّهار في قوله: ﴿ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ طباقُ إيجابٍ، فائدتُه التّنويعُ في البيئة الَّذي تحتاجُه الحياة النّامية؛ فمِن المصلحة سكونُ الإنسان في اللّيل لاسترداد النّشاطِ العصبيِّ الَّذي يُعْيِيه عملُ الحواسِّ والجسد في النّهار، فيعودُ النّشاط إلى المجموع العصبيّ في الجسد كلّه وإلى الحواسِّ، ولولا ظلمةُ اللّيل لكان النّومُ غيرَ كامل فكان عَودُ النّشاطِ بطيئًا وواهنًا، ولعادَ على القوَّة العصبيّة بالانحطاطِ والاضمحلالِ في أقرب وقت، فلم يتمتّع الإنسان بعمرٍ طويل. ولولا النّهارُ لَما تمكّن النّاس من الانتشار والسّعي كما ينبغي، فحاجة النّاس للضّياء ضروريّة، ولولا الضّياءُ لكانت تصرُّفات النّاس مضطربةً متخبِّطةً[1].

## دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ مادَّةً وصيغةً:

النّهارُ المبصرُ إشارةٌ علميَّةٌ إلى فاعليَّةِ الضَّوءِ في عمليَّةِ الإبصار

دلّ التّعبير بـ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ في قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ على إشارةٍ علميّة مهمّة؛ إذ كان النّاس يعتقدون أنّ رؤيةَ الأشياء تكمُنُ بخروج شعاعٍ من العين يسقطُ على الجسم فيراه الإنسان، حتّى جاء الحسنُ بن الهيثم فبرهَنَ على أنّ شعاع الضّوء ينعكس من الأجسام إلى العين فتتحقّقُ الرُّؤية[2]، فقوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ دلَّ على أنّ الشّعاعَ المسبِّبَ للإبصار يكونُ بسببِ النّهار والنّور الَّذي فيه، ولولا ذلك لتمكَّنَ الإنسانُ من الإبصار في الظّلام.

ثمَّ إنَّه قال: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾؛ ليدلَّ كذلك على عموم ذلك الضّياء، فيمكنُكَ أن ترى كلَّ شيءٍ من حولك ما دمتَ في النّهار،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 185.

(2) ابن الهيثم، المناظر، المقالة الأولى: كيفية الإبصار بالجملة - الفصل السادس: كيفية الإبصار، ص: 53.

وهذا على خلاف اللّيل؛ إذ يمكنك رؤيةُ بعض الأجسام الَّتي يأتيها ضياءٌ طارئٌ ينعكسُ عليها.

و صيغةُ ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ اسمُ فاعلٍ مُشتَقَّةٌ من الفعل (أَبْصَرَ)، و(مُبْصِر) تدلُّ على الَّذي يرى أو يُلاحظ جيِّدًا.

وتفيدُ صيغةُ اسم الفاعل الدَّلالةَ على الثُّبوت، وهي ملائمةٌ لوصفِ السُّننِ الكونيّة الدّائمةِ كضوءِ النّهار وظلامِ اللّيل.

### بلاغةُ المجاز في إسنادِ الإبصار إلى النّهار:

عمليَّةُ الإبصار في النَّهارِ مَنْفَذٌ مُهِمٌّ للنّشاط في الحياة

قولُهُ: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ معناه: يُبصَرُ فيه، كما تقول: نهارٌ صائمٌ، وليلٌ قائمٌ[1]. فهو من الإسناد المجازيِّ؛ لأنَّ الإبصارَ في الحقيقة لأهل النّهار[2]. فأسند الإبصار إلى النّهار على طريقة المجاز العقليّ لقوَّةِ الملابسة بين الأفعال وزمانها، فأسند إبصار النّاس إلى نفس النّهار؛ لأنّه زمنُ الإبصار، فعلاقةُ المجاز هي الزَّمانيَّة. والنَّهار كذلك سببُ بعضِ الإبصار، وسببُ كمالِ بعضٍ آخرَ منه[3]، وفيه مبالغةٌ، ولذلك عدَلَ به عن التّعليل إلى الحال فقال: ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فلا يوازيه فضل أبدًا، وللإشعار به لم يقل: لَمُفَضِّلٌ[4].

ذكر الجرجانيُّ في دلائل الإعجاز قوله: "إنَّما كان قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ [يونس: 67] أفصَحَ من أصْلِه الَّذي هو قَوْلُنا: (والنّهار لِتُبْصِروا أنتُمْ فيه، أو مُبصِرًا أنتم فيه)؛ من أجْلِ أنَّه حدَثَ في حروفِ (مُبْصر) - بأنْ جَعَلَ الفِعْلَ للنَّهارِ على سعَةِ الكلامِ - وصفٌ لم يكن"[5].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 566.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 175.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 185.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 62.
(5) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 463.

**بلاغةُ الاحتباكِ في المقابلة بين النِّعمتين:**

الإيجازُ في بيان التَّكامُلِ بينَ نعمتَي اللَّيل والنَّهار

في قولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾؛ دلَّتِ المقابلةُ بينَ تعليلِ خلقِ اللَّيل بعلَّةِ سكونِ النّاس فيه، وبينَ خلقِ النَّهار مُسنَدًا إليه الإبصارُ على طريقةِ المجاز العقليِّ - فالمبصرون هم النّاسُ في النّهار - على احتباكٍ. ووجهُ "الاحتباك: حَذْفُ الظَّلامِ أوَّلًا؛ لكونِهِ ليس من النِّعَمِ المقصودة في أنفُسِها؛ لِما دلَّ عليه من الإبصارِ الَّذي هو المقصودُ من نعمةِ الضّياءِ المقصودِ في نفسه، وحَذْفُ الانتشارِ والتَّحرُّكِ؛ لأنَّه بعضُ ما ينشأُ عن نعمة الإبصار؛ لما دلَّ عليه من السُّكون الَّذي هو المقصودُ الأعظمُ من اللَّيل؛ للرّاحة لمَن أرادها، والعبادةِ لمَن اعتمَدَها واستزادَها"[1].

فيُفهَمُ مِن كليهما: أنَّ اللّيل ساكنٌ أيضًا كما أنَّ النَّهارَ مُبصِرٌ، وأنَّ النّهارَ خُلِقَ لينتشرَ النّاس ويَشتغِلوا فيه بمَصالحِهم كما أنَّ اللَّيلَ خُلِقَ ليسكنوا فيه؛ إذ المِنَّة بهما سواءٌ، فهذا من بديع الإيجاز، مع ما فيه من تفنُّنِ أسلوبَي الحقيقةِ والمجاز العقليِّ. ولم يعكسْ فيقلْ: جعَلَ لكم اللَّيلَ ساكنًا والنَّهارَ لتبصروا فيه، لئلّا تفوتَ صراحة المُراد من السُّكون؛ كي لا يُتوهَّمَ إسنادُ السُّكونِ إلى اللَّيلِ على سبيل الحقيقة، وأنَّ المرادَ شدَّةُ الظَّلام فيه، على حدِّ قولِهم: ليلٌ ساجٍ، لقلَّةِ الأصواتِ فيه[2].

**نكتةُ تنكيرِ ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾:**

آيـةُ الإبـصارِ في النَّـهـار محلُّ تفخيم

أفادَ تنكيرُ ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ التَّفخيمَ والتَّعظيمَ، فهي آيةٌ من آيات اللّه، يعيشُها النّاس ويستمتعون بنعمتها العظيمة، فهي سنَّةٌ كونيّةٌ عظيمة.

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 101.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 185.

### نكتةُ تقديمِ ذكرِ اللّيل على النّهار:

حالةُ عمومِ اللّيل في الكونِ بخلاف النّهار

ورد تقديمُ اللّيل على النّهار في القرآن الكريم مرّاتٍ عديدةً، مع تنوُّعِ سياقاتها، فتارةً يكون مع الجَعْلِ، وتارةً مع التّسبيح أو الاختلاف أو التّكوير؛ وما التّقديمُ إلّا لحقيقةٍ علميَّةٍ مهمَّة، مُفادُها: أنّ اللّيلَ عامٌّ والنّهارَ خاصٌّ، وأنَّ اللّيلَ شاملٌ كُلّيٌّ في هذا الكون، وأنَّ النّهارَ طارئٌ مؤقَّتٌ؛ فيُعرَفُ الوقتُ به.

### نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ﴾:

بيانُ أفضالِ الله على النّاس من خلال ما قدَّرَ ونظَّمَ من السُّنن الكونيّة

فُصلت جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ عن الجملة السّابقة الّتي تضمَّنت الحديث عن سُنَّتين كونيَّتين هما من أعظم أفضال الله على الإنسان، فقال مخاطبًا إيّاهم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾، فكانت الجملتان خبريَّتين، وتناولتا موضوعًا واحدًا هو بيانُ نعم الله على النّاس، فكان بينهما كمالُ الاتِّصال، ممّا اقتضى الفصلَ بينهما.

أو يقال: إنَّ جملةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ تعليلٌ لجملةِ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾[1]، فهي مستأنفةٌ استئنافًا تعليليًّا أو بيانيًّا، وحينئذٍ يكونُ بين الجملتين شبهُ كمالِ الاتِّصال.

### فائدةُ تتابُعِ المؤكِّدات:

إنكارُ نِعَمِ المُتفضِّل مَدْعاةٌ للتَّذكير بالتّوكيد

تتابُعُ المؤكِّداتِ: ﴿إِنَّ﴾ و(اللّامِ) و(الجملةِ الاسميّة) في جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ يفيدُ أنّ المخاطبَ منكِرٌ أو شاكٌّ بمضمونِ الخبر، فهو خبرٌ إنكاريّ، وهو ما يُلقى إلى مخاطبٍ شاكٍّ في تصديقه، فيصبح من اللّازم توكيدُه بأكثرَ من مؤكِّد، فتزيدُ المؤكِّدات في الخبر بزيادةِ الإنكار لدى المخاطب. وإنكارُ فضلِ الله

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 24/ 266.

تعالى ونِعَمِه ههنا هو استكمالٌ لدائرةِ الجحود الابتدائيِّ بإنكارِ السّاعة والاستكبارِ عن عبادة اللّه، ونتيجةٌ طبيعيّةٌ لهما.

### نكتةُ إظهارِ لفظ الجلالة في موضعِ إضماره:

تأكيدُ عظمةِ الله وفضلِه على النّاس

في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أُظهِرَ لفظُ الجلالة في موضعِ إضماره؛ لنكتةِ المبالغة في بيانِ عظيمِ شأنِ اللّه وفضلِه على النّاس، وأنَّه وحده مَن يستحقُّ منهم توحيدَ الألوهيَّةِ والعبادةِ سبحانه.

### فائدةُ ذكرِ (ذو) بمعنى (صاحب):

عظمةُ أفضالِ الله على النّاس وكثرتُها

معنى ﴿لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أنَّه جعَلَ لهم نعمًا عظيمة لتدومَ الحياةُ[1]. فإدخالُ (ذو) هنا يدلّ على عِظَم فَضْله وكثرته[2]. ولم يقل: (لمُتفضِّلٌ)، ولا: (لمُفَضِّلٌ)، بل عدل إلى إضافة (ذو) إلى (فضل) فقال: ﴿لَذُو فَضۡلٍ﴾؛ ليأتيَ التّنكير المشعرُ بالتَّعظيم. وعدَلَ عن نحوِ: (له فضلٌ) إلى ﴿لَذُو فَضۡلٍ﴾ لما يدلُّ عليه (ذو) من شرفِ ما يضاف هو إليه[3].

### نكتةُ تنكيرِ ﴿فَضۡلٍ﴾:

أفضالُ الله على النّاس كثيرةٌ دائمة

وقوله سبحانه: ﴿لَذُو فَضۡلٍ﴾ بالتَّنكيرِ للإشعارِ بأنَّه فضلٌ لا تحيطُ به عبارةٌ أو وصف[4]. ولم يقل: لمُفضِّلٌ أو لمُتفضِّلٌ لأنَّ المراد تنكير الفضل وأنْ يُجعَلَ فضلًا لا يوازيه فضلٌ، وذلك إنَّما يكون بإضافةِ (ذو) إليه مُنكَّرًا[5]. فـ"التّنكيرُ للتّعظيم؛ لأنّ نعم اللّه تعالى عظيمة جليلة"[6]، وأفضالُه على النّاس لا تُعدّ ولا تُحصى، وهي عظيمة في جميع أحوال النّاس.

(1) النّحّاس، إعراب القرآن: 1/ 324.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 181.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 62، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 186.
(4) طنطاوي، الوسيط: 1/ 3714.
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 218.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 186.

**نكتةُ تعديةِ الفضل بحرف الاستعلاء:**

(على) في قوله: ﴿لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ للاستعلاء؛ فاللّٰه تعالى قادرٌ على كلّ شيء، وهو المُهيمن على الأقدار والحياة سبحانه؛ من هنا أتى ذلك الاستعلاء بـ(على)، فهو قادر عليهم، وهو مُتفضّل عليهم في الوقت نفسه.

هيمنةُ الله بأفضالِه على النّاس وديمومةِ الحياة

وكذلك دخلت (على) الدّالّة على الاستعلاء تنبيهًا على معنى الظّهور والوضوح؛ لأنَّ الاستعلاءَ ظهورٌ وإبداء[1]، ونعمُ اللّٰه كذلك وخيراتُه باديةٌ ظاهرة لكلّ النّاس، تشهدها الأبصار وتدركها العقول، ولا ينكرها إلّا جاحدٌ مستكبر.

أفضالُ الله على النّاس ظاهرةٌ لا يُنكِرُها إلّا جاحد

**الموقعُ النَّحويُّ لقولِه: ﴿لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:**

(اللّامُ) هي المزحلقة، وعلامةُ الرّفع في (ذو) الواو؛ لأنّه من الأسماء الخمسة، و(ذو فضل) خبرُ ﴿إِنَّ﴾، وجملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لا محلّ لها في حكم التّعليل[2]؛ لبيانِ النِّعَمِ الإلهيَّة؛ فكلُّها بفضل اللّٰه تعالى ومنِّه وكرمه على خلقه.

**بلاغةُ التَّذييلِ في جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:**

ويجوزُ أن يكون قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ "اعتراضًا هو كالتّذييلِ لجملة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾؛ لأنَّ الفضل يشملُ جَعْلَ اللّيلِ والنّهار وغيرَ ذلك من النّعم، ولأنّ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ بمعنى عمومِ المخاطبين بقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ وغيرِهم من النّاس"[3].

التّأكيدُ على فضلِ الله وتعميمُ نِعَمِهِ على النّاس

**معنى (أل) في ﴿ٱلنَّاسِ﴾:**

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ من قوله تعالى: ﴿لَذُو فَضۡلٍ عَلَى

نِعَمُ الله تعالى عامَّةٌ للنّاس كافّة

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد: 2/ 6.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 24/ 266.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير(بتصرف): 24/ 186.

﴿ٱلنَّاسِ﴾ العمومُ المرادُ به الاستغراقُ؛ أي: (لذو فضل على كلِّ النّاس باختلاف اللَّيل والنَّهار وما يحتويان عليه من المنافع)[1]، فاللّه تعالى تفضّل بهذه النّعم على عموم النّاس، فلا فرق بين مؤمنٍ وغيره فيها؛ فهذه من النّعم العامّة الَّتي هي ضروريّةٌ لديمومةِ حياة النّاس في الأرض على الوجهِ الأفضلِ.

### معنى الواو في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ وفائدةُ الاستدراك:

أكثرُ النّاس يكفُرون النّعم

في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾؛ الواوُ عاطفةٌ، وتُسمّى استدراكيَّةً؛ لاقترانِها بحرفِ الاستدراك (لكنَّ)[2]. وظاهرُ جملةِ الاستدراك أنَّها معطوفةٌ على جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، ولولا أنَّ (لكنَّ) يكثُرُ أنْ تقعَ بعد (واو) العطف؛ لكانت الجملةُ جديرةً بالفصل دون عطفٍ، فهذا العطفُ من باب التَّحليةِ اللَّفظيّة، وهذا الاستدراكُ الَّذي خُتمتِ به الآيةُ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّه يدلُّ على سؤالٍ مقدَّرٍ، فبينَ الجملتين شبهُ كمالِ الاتّصال، ومن حقِّه الفصلُ لا الوصلُ، لكنْ ما سوَّغَ الوصلَ هو اقترانُ (لكنَّ) الاستدراكيَّةِ بالواو كثيرًا.

و"الاستدراكُ بـ(لكنَّ) ناشئٌ عن لازمِ ﴿لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ الشَّأنَ أنْ يشكرَ النّاسُ ربَّهم على فضله، فكان أكثرُهم كافرًا بنعمه، وأيُّ كفرٍ للنّعمة أعظمُ من أن يتركوا عبادةَ خالقِهمُ المُتفضِّلِ عليهم، ويعبدوا ما لا يملك لهم نفعًا ولا ضرًّا؟"[3].

مُنتهى الجحودِ المرورُ بالأدلَّةِ والآياتِ مع الإصرارِ على الإنكارِ

وموقعُ الاستدراك الَّذي في جملةِ الفاصلة هو ما يُثيره توالي المؤكِّدات في جملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ﴾ في سياقِ تعدادِ نِعَمِه على الخلق كافَّةً، فكأنَّ سائلًا سأل: لِمَ أكَّدَ اللّه ثُبوتَ فضله على النّاس؟ فجاء الجوابُ: لأنَّ أكثرَ النّاس منكرون لهذه النِّعَمِ العظيمة، فلا

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 101.
(2) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 1/ 331.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 186.

يشكرون مُنعِمَها ﷻ. والمعنى: ولكنَّ أكثر النّاس يمرّون بالأدلَّة والآيات وهم معرضون عن دلالتها، فلا يتفكَّرون بالنِّعم ولا يشكرون المُنعِمَ بها، لذلك نفى عنهم وصفَ الشّكر.

### نوعُ الإضافة في ﴿أَكۡثَرَ﴾ إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

اختُلف في نوع إضافةِ اسم التَّفضيل لِما بعده: محضةٌ أم غيرُ محضة؟ والجمهورُ على أنَّها محضةٌ، فيكتسبُ اسم التَّفضيل التَّعريف أو التَّخصيص ممّا بعدَه[1].

وفي قوله تعالى: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ الإضافةُ محضةٌ على القول الرّاجح، فاكتسَبَ من ﴿ٱلنَّاسِ﴾ التَّعريف، والمعنى هو الدّلالة على الغالبيَّةِ عمومًا.

### دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ التَّفضيل ﴿أَكۡثَرَ﴾:

يُعرف اسم (التّفضيل) بأنَّه: صفةٌ تؤخذ من المصدرِ؛ لتدلَّ على أنَّ شيئَين اشتركا في صفة، وزاد أحدهما على الآخرِ فيها، فالتّعبيرُ بصيغة المفاضلة ﴿أَكۡثَرَ﴾ يَحمل دلالةَ مقارنة بينَ شيئَين أو أكثرَ، بحيث يُظهر أنَّ الشّيءَ الَّذي يُستخدم فيه ﴿أَكۡثَرَ﴾ يمتلك صفةً معيَّنةً بدرجةٍ أكبرَ أو بكثرةٍ مقارنةً بالآخرين.

**النّاسُ صنفان شاكرٌ لله تعالى وهم الأقلّيَّة، وجاحدٌ لنعمة تعالى وهم الأكثريَّة**

وفي هذه الآية الكريمة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ جعَلَ النّاسَ فريقين: فريقًا شاكرًا وهم الأقلُّ، وفريقًا غيرَ شاكرٍ أو جاحدًا لنعمة اللّه وهم الأكثرُ، فخرج بـ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ الأقلُّ وهم المؤمنون؛ فإنَّهم أقلّ ولو أعجَبَ النّاسَ كثرةُ الخبيث[2].

### نكتةُ نفي الشّكر عن الأكثريّة:

**طبيعةُ البشر إنكارُ النّعمة**

قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ بيانٌ للطَّبيعةِ البشريّة، وأنّ إنكار النّعمة وعدمَ شكرها هو من طبائع النّاس؛ إذ

---

(1) رضي الدين الأستراباذي، شرح الرضي على الكافية: 2/ 247.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 186.

يغلبُ عليهم ذلك. وهذا من الظّلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم: 34]؛ أي: عمومَ النّاس.

### معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ ونكتةُ إظهاره في موضع الإضمار:

تسجيلُ الكفران على النّاس بوجهٍ أصرح

المراد بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ عمومُهم؛ لأن (أل) فيه للجنس؛ أي: أنّ عموم النّاس يكفرون النّعمة ولا يشكرون المُنعم.

وفي وضْعِ الظّاهر مَوضِعَ المُضمَرِ في جملة الفاصلة فوائدُ؛ منها زيادةُ التّقرير والتّمكين[1]؛ إذ مُقتضى السّياقِ أن يُقال: (ولكنَّ أكثرَهم)، فلا يتكرَّرَ ذكرُ (النّاس)، ولكنْ في هذا التّكرير تخصيصٌ لهم بكفرانهم النّعمةَ، وأنّهم هم الَّذين يكفرون فضل اللّه ولا يشكرونه، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾ [الحج: 66]، و﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦﴾ [العاديات: 6]، و﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم: 34][2]. فتكرَّرَ لفظُ النّاس عند ذكر عدم الشّكر كما ذُكر عندَ التَّفضُّل عليهم، فسجَّلَ عليهم الكفرانَ بوجهٍ أصرحَ[3].

وراعى معنى الأكثرِ فجمَعَ ﴿ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ الجَمْعَ أدلُّ على المرادِ وأقعدُ في التَّبكيت[4].

### توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيّ في إظهار ﴿ٱلنَّاسِ﴾ وإضماره:

الإظهارُ والإضمارُ؛ ودلالاتُ التّوازن في التّعبير بين المعنى والمقام

في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ وُضِع الظّاهر موضع المُضمر[5]. فأظهَرَ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في موضع الإضمار في سورة المؤمن، وأضمَرَ في موضع الإظهار في سورة يونس، وهل كان جائزًا وقوعُ هذا مَوضِعَ ذاك؟ لأنَّ "كلَّ موضعٍ يَحتملُ الإضمارَ لقرب الذِّكْرِ ويَحتملُ الإظهارَ لتعظيم الأمر، وذكر أخصِّ الأسماء المقصود

(1) السيوطيّ، الإتقان: 3/ 244.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 218.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 186.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 529.
(5) السيوطيّ، الإتقان: 3/ 244.

بالتَّقريع والتّفنيد؛ فإنَّه يُحمل على ما يلائم الآياتِ المتقدِّمةَ له؛ ليكونَ قد جمع إلى صحَّةِ المعنى واللَّفظ مشاكلةَ ما قبلَهُ مِن الآيِ"[1].

فأمّا قوله تعالى في سورة المؤمن: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فمحمولٌ على الآيات الَّتي قبله، فأظهر ذكر النّاس كما أظهر في الآيتين قبلها للمشاكلة والملائمة، وليس كذلك الأمر في سورة يونس عليه السلام؛ لأنَّ الكلام هناك بني على الإضمار في الآي المتقدِّمة، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥﴾ [يونس: 55]، فأضمَرَ ما أضاف إليه ﴿أَكۡثَرَ﴾، ثم انتهى إلى قوله تعالى بعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾؛ فاقتضى ما بني عليه الكلام في هذه الآيات أن يكون ما بعد الشّرط بلفظ الإضمار كما كان ما تقدَّمَهُ. هذا هو الرّاجح في سبب الإظهار والإضمار في الموضعين[2].

### بيانُ المتشابهِ في استعمال الفعل المضارع المنفيّ:

فضل لله تعالى على النّاس يستلزم تأديةَ حقِّه بالشّكر

المواضع الثّلاثة الّتي جاء فيها ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: 57] وجاء فيها ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ وجاء فيها ﴿لَا يَشۡكُرُونَ﴾ كان كلٌّ منها بمكانه، ولا يُتصوّر وضعُ أحدها موضعَ قرينِه؛ فكلُّ آية اقتضت بانسجامٍ ما خُتمت به.

ففي الأولى قال: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: 57]، ثم نبّه على أن يُعلَمَ أنّ مَن قدَرَ على الأكبر قادر على الأصغر، وهذا موضعٌ يفتقر إلى العلم الّذي نفاه عمّن لم يقرّ به فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: 57].

(1) الخطيب الإسكافي، درة التّنزيل: 1/ 1128 - 1129.
(2) الخطيب الإسكافي، درة التّنزيل: 1/ 1130 - 1131.

وفي الثّانية قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فمن أنكر البعث فهو محتاج إلى الإيمان به، بعدَ علمه بأن القادر على خلق السّموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم.

وأمّا الأخيرةُ فقال فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، ومَن كان للّهِ فضلٌ عليه فهو محتاج إلى أن يؤدّيَ حقّه بالشّكر، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[1].

فوجهُ اختلاف المَنْفيّاتِ في المواضع الثّلاثة أنّه أتبَعَ كلَّ غرضٍ أُريدَ إثباتُهُ بما يناسب حالَ منكريه[2].

### وجهُ التّعبير بالمضارع ﴿يَشْكُرُونَ﴾ ونكتةُ حذف متعلَّقِه:

تجدُّد عدم الشّكر لعميم النّعم دليلُ الإصرار على الجحود والكِبْر

صَوْغُ الفعلِ المنفيِّ ﴿يَشْكُرُونَ﴾ مضارعًا في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ دليلٌ على تجدُّدِ إنكارهم لنعم اللّه عليهم. وحُذِفَ مُتعلَّقُ الشّكر لنكتةِ بيانِ أنّهم لا يشكرون في عموم أحوالهم، فمهما أصابَهم من النّعم والأفضال الإلهيَّة فإنَّهم لا يشكرون اللّه تعالى على تلك النّعم؛ لضعفٍ في إيمانهم، أو لإنكارهم أنّها أفضالُ اللّه تعالى.

### بلاغةُ التّذييل في جملة الفاصلة:

الآيةُ دعوةٌ للتّفكُّرِ في أفضالِ الله وتذكيرِ النّاس بها

سياقُ الآيةِ الكريمة للتّذكير بنعمة اللّه تعالى على الخلق كما اقتضتْهُ لامُ التّعليل في قوله: ﴿لَكُمُ﴾، واقتضاه التّذييلُ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[3].

## الفُروقُ المُعجَميَّة:

### العمل والجعل والخلق:

تحليلُ الفروق بين الجعل والعمل

العَمَل: هوَ إيجاد الأثر في الشَّيء، والجعل: تَغْيِيرٌ بإيجاد الأثر

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/ 1133.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 186.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 184.

فيهِ بِغَيْر ذَلِك، فتَقول: جعل الطّين خزفًا وجعل السّاكِن متحرِّكًا، وتقول: عمل الطّين خزفًا، والجعل أيْضًا يكون بِمَعْنى الإحداث، وهوَ قَوْله تَعالَى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1]، وقَوله تَعالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [الملك: 23]، ويجوز أن يُقال: إن ذَلِك يَقْتَضي أنّه جعلها على هَذِه الصّفة الَّتي هيَ عَلَيْها. كَما تَقول: جعلتُ الطّين خزفًا، وقد يَرِدُ على غير ذلك من المعاني[1]. والخلق في اللُّغَة: التّقدير، يُقال: خلقت الأديم إذا قدَّرتَهُ خُفًّا أو غَيره، وخلق الثَّوْب وأخلق لم يبْق[2].

ولّما كان جعل اللَّيل سكنًا، والنَّهار مبصرًا بمعنى إحداثهما على هذه الهيئة ناسَبَ لفظ (الجعل) دون العمل أو التّقدير.

### الشّكر والحمد:

**اختلافُ الشّكرِ والحمد في القرآن والسّياق اللُّغويّ**

الشّكر لا يكون إلّا على نعْمَة، والنعْمَة لا تكون إلّا لَمَنْفَعَة، أو ما يُؤَدّي إلَى مَنْفَعَة؛ كالمرض يكون نعْمَة لِأَنَّهُ يُؤَدّي إلَى الِانْتِفاع بعوض. والشّكر على النِّعْمَة سمّي شكرًا عَلَيْها وإن لم يكن يوازيها في القدر كشكر العَبْد لنعم اللّه عليه.

أمّا الحَمد فلا يكون إلّا على إحْسانٍ، واللّه حامِد لنَفسِهِ على إحسانه إلَى خلقه، فالحَمْدُ مضمَّنٌ بِالفِعْلِ[3].

ومن هنا ناسَبَ تعدادَ النّعم إيثارُ لفظ الشّكر وإنْ كان في سياق النّفي؛ فالمعنى: أكثر النّاس لا يشكرون نِعَمَ اللّه تعالى.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 36.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 36.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 50.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [غافر: 62]

## ۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ذكَرَ في الآية السّابقة بعضَ ما أنعم اللّه على النّاس، بأنْ جعَلَ لهم اللّيل سكنًا، وجعل النّهار مضيئًا مبصرًا ليسعى الإنسان في الأرض ويبتغيَ من فضل اللّه، وجاءت هذه الآيةُ لتُقرِّرَ أن الَّذي خلَقَ هذه النّعم لكم هو اللّه ربُّكم وخالقكم، وهو الَّذي خلَقَ كلَّ شيء في هذا الوجود، فلا يعقل بعد ذلك الكفرُ به سبحانه والجحود والتّكبّر على عبادته سبحانه، فدلّ على نفسِهِ في هذه الآية فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الَّذي خلق الأرض والسّماء وأحسنَ الخلق ورزَقَ الطّيّبات[1].

**اللّــهُ خــالــقُ الــسّــمــاوات والأرض ورازقُ الطّيّبات**

## ۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُؤْفَكُونَ﴾: (أفك) أصل واحد، يدلّ على قلب الشّيء وصرفه عن جهته. والإفك: أشدُّ الكذب؛ لأنّه كلامٌ قُلِبَ عن الحقّ. وهو: كلُّ مصروفٍ عن وجهِهِ الَّذي يَحِقُّ أن يكونَ عليه. ومنه قيل لمدائن قوم لوط: (المُؤْتَفِكات)، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾ [الحاقّة: 9]؛ لانقلابها. ومنه قول اللّه تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام: 95]؛ أي: من أين تحرمون وتصرفون عن الحقّ[2]؟.

## ۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ذلكم الذّى أعطاكم من النِّعم ما أعطاكم هو اللّه تعالى، ربُّكم

(1) مقاتل، تفسير مقاتل: 3/ 719.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (افك)، وابن قتيبة، غريب القرآن: 1/ 32، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أفك).

التّعجيبُ من انصراف البشر عن عبادة الله بعدما علموا مِن نِعَمِهِ العظيمة

خالقُ كلّ شيءٍ في هذا الوجود؛ لا إله إلّا هو الواحدُ الأحد الَّذي يستحقُّ منكم العبادة. ومن العجيب الانصرافُ بعد هذه النّعم والبيّنات العظيمة عن الحقّ إلى الباطل، وعن الشّكران إلى الكفران؛ فكيف تنقلبون عن عبادته سبحانه إلى عبادة غيره، مع أنّه تعالى هو الخالق لكلِّ شيء، ومنه أتَتْ تلك النّعم الَّتي تتمتّعون بها(1)؟.

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

اتِّصالُ الأدلَّة بالمُستَدَلِّ عليه

اتَّصَلَ الكلام على دلائل التَّفرُّدِ بالإلهيَّةِ من قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ إلى قوله: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ اتِّصالَ الأدلَّة بالمُستدَلِّ عليه(2). فالجملةُ الخبريّةُ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ هي بمثابةِ تأكيدٍ للجملةِ السّابقة، وهذا ما اقتضى الفصلَ باعتبار ما يسمّيه البلاغيّون كمالَ الاتِّصال بين الجملتين.

### سرُّ التَّعبيرِ باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمُ﴾:

في الإشارة تعظيمٌ ودلالةٌ بلاغيّةٌ على التّفرُّدِ الإلهيّ

الإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الدّالِّ على البعيد في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ يدلُّ على التّعظيم. فـ"القولُ مُعظَّمٌ بأداة البُعد وميم الجمع ﴿ذَٰلِكُمُ﴾؛ أي: أيُّها المخاطبون، الواحدُ القهّار العظيمُ الشّأنِ الَّذي عُلِمَ بما ذُكِرَ من أفعاله أنَّه لا يشاركُه أحدٌ"(3). وفي اسمِ الإشارة هذا تعريضٌ بغباوة المخاطبين المُعاندين الرّافضين للإيمان باللّه وحده. فقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾؛ أي: المعلومُ المتميِّزُ بالأفعال الخاصَّة الَّتي لا يشاركه فيها أحدٌ هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾(4).

### وجهُ العدولِ عن الضّمير إلى اسم الجلالة:

قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ عدَلَ فيه عن الضّمير إلى اسم

(1) طنطاوي، الوسيط: 1/ 3714.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 187.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 102.
(4) الزّمخشريّ، الكشاف: 4/ 176.

تميُّزُ أفعالِ الله عن الأصنام، وإبطالُ شُبهةِ ألوهيَّتِهم

الإشارةِ؛ لإفادة أنّه تعالى الملكُ الأعظم المعلومُ لكلِّ أحدٍ، المتميِّزُ عن كلّ شيءٍ بالأفعال، المتفرِّد بها، فلا يشاركُه أحد؛ بحيث إذا ذُكرت أفعالُه تميّز عمّا سواه، فصار كالمُشاهَدِ المُشار إليه، فكيف تلتبس ألوهيَّته بألوهيَّةٍ مزعومةٍ للأصنام؟ فليست للَّذين أشركوا به شبهةٌ تُلبِسُ عليهم ما لا يَفعَلُ مثلَ فعلِه[1].

## غرضُ التَّعبيرِ بلفظ الرُّبوبيّة مضافًا إلى ضمير المُخاطب:

اللـه تعالى محسنٌ إلى عباده بربوبيَّته

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ معناه: ذلِكُمُ المخصوصُ بالأفعال المُقتضية للألوهيَّة والرّبوبيّة[2]. و"لذلك قال: ﴿رَبُّكُمۡ﴾؛ أي: المربّي لكم، والمحسنُ إليكم بقدرته واختياره، المتفرِّدُ بربوبيَّتكم، لا ربَّ لكم سِواه"[3].

## بلاغة التَّرَقّي في سردِ الأخبار:

كلُّ ما في الكونِ دالٌّ على وحدانيَّة الله

أخبَرَ عن اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ بأربعةِ أخبار: ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ ابتُدئ فيها بـ﴿ٱللَّهُ﴾ الاسم الجامع لصفات الألوهيَّة إجمالًا، وأُردف بـ﴿رَبُّكُمۡ﴾؛ أي: الَّذي دبّر خلق النّاس وهيّأ لهم ما به قِوامُ حياتهم، ولمّا كان في معنى الرّبوبيّة مِن معنى الخلق ما هو خلقٌ خاصٌّ بالبشر أردَفَ بأنَّه خالقُ الأشياءِ كلّها كما خلَقَهم، ثمَّ أردَفَ بنفي الألوهيَّة عن غيره، فجاءَتْ مضامينُ هذه الأخبارِ الأربعة مترتِّبةً بطريقةِ التَّرقّي، وكان رابعُها نتيجةً لها[4].

## نكتةُ التّعبير بـ﴿خَٰلِقُ﴾ اسمَ فاعلٍ:

إبداعُ اللـه في الخلق وتأثيرُه على الإنسان

ورد التّعبيرُ بـ﴿خَٰلِقُ﴾ في قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، وهو اسمُ فاعلٍ من الجذر الثّلاثيّ (خَلَقَ)، يدلُّ على مَن يقوم بالفعل، أو يُحدث الخلق، وهو يطابقُ مفهومَ الإبداع أو الإيجاد. فاللّٰه تعالى هو الَّذي يُبدع الشّيءَ مِن العدم.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 102، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 187.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 62.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 187.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 187.

وهذه الدّلالةُ تتفرّدُ عند الإشارة إلى اللّه تعالى باعتباره الخالقَ الأوَّل الَّذي خلق كلّ شيء وقدّر كلّ شيء، ويمكن أن تأتيَ كلمة ﴿خَٰلِقُ﴾ للإشارة إلى كلّ من يبدع شيئًا أو يساهم في خلق شيءٍ ما، قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14]. ولكنْ قولُه تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ دلَّ على أصلِ خَلْقِ كلّ شيء ومادَّته، ولولا خلقُ اللّه لَما تمكّن الإنسانُ من الحياةِ والتّرفُّهِ والخلق والإبداع، فاللّه تعالى خلَقَ العناصر الأوّليَّة لكلِّ مخلوق، فهو خالقُ المادّة بعناصرها الأوّليَّة، أمّا الإنسان فقد منَحَهُ اللّه بما آتاه من العقل والقدرة على التّفكير والابتكار أنْ يتدخَّلَ بإعادة تشكيلِ تلك العناصر والمخلوقات؛ ليقفَ على نتائجَ إيجابيَّةٍ في التّصنيع والإبداع، فهو لا يخرج في خلقه للأشياء عن حيِّزِ التّعامل والارتكاز إلى مخلوقات اللّه نفسها، ولولاها لاستحال على الإنسان إيجادُ شيء من العدم.

ولقيام الدَّليل العقليِّ على أنْ لا خالقَ غيرُ اللّه تعيَّنَ تأويل ما عارضه، فيُؤوَّلُ الخَلْقُ هُنا[1] بالتَّصنيع من العناصر الأوَّليَّة من الجماداتِ والمعدّات الحياتيّة.

**التعبير بـ (خالق) يُظهر الفاعليَّة والقدرة الإبداعيَّة**

والتَّعبيرُ بـ﴿خَٰلِقُ﴾ يتمتّعُ بنكهةٍ بلاغيَّةٍ خاصَّةٍ عند استعماله في قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مُتجاوِزًا الأزمنةَ كلَّها؛ فقوْله: ﴿خَٰلِقُ﴾ أعمّ وأجْمع؛ لِأَنَّهُ يشْتَمل على ما مضى وما يحدث مِمّا هوَ كائِن، ويدلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ [الأنعام: 102][2]، فيُعزِّزُ مفهومَ إحاطته سبحانه بالموجوداتِ الكونيَّةِ كلِّها، ويُظهرُ الفاعليَّة والقدرةَ الإبداعيَّة.

**الإحاطةُ الإلهيَّةُ سِمَةُ الخالقِ وحدَه**

### بيانُ نوعِ الإضافة في قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾:

الإضافة: نِسبةُ اسم إلى اسم آخرَ وإسناده إليه، والإضافةُ في قوله تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ إضافةٌ غيرُ محضةٍ؛ لأنَّه أضافَ

(1) السّيوطي، الإتقان: 3/ 100.
(2) أبو زرعة، حجة القراءات: 1/ 503.

اسم الفاعل ﴿خَٰلِقُ﴾ إلى معمولِه ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ فيكون اسمُ الفاعل مضافًا بنفسِه على قولٍ لا بتقدير حرفٍ[1]. فاللّٰه تعالى هو خالق كلِّ شيء، وليس التَّقدير: خالقٌ لكلِّ شيء، ويكون ﴿خَٰلِقُ﴾ نكرةً بنفسه، معرفةً بمعموله، فعُلم بقوله: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أنّه اللّٰه ﷻ.

**نكتةُ دخولِ لفظِ العموم ﴿كُلِّ﴾:**

تمييزُ الإنسانِ بالخَلْقِ مِن حِكَمِ الخالقِ الحقّ

دلَّ لفظُ العموم في قوله تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على أنّه سبحانه أوجَدَ كلَّ شيء من العدم، وخلق النّاس وأعطاهم قدرةَ الإبداع، فتميَّزوا عن سائر الأحياء بقدراتهم على التّطوير والإبداع والتّخليقِ، لا مِن العدم، بل ممّا خلق اللّٰه تعالى.

**بيانُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ مع سورة الأنعام:**

تقديمُ لفظِ ﴿خَٰلِقُ﴾ يناسبُ خلقَ الموجودات، وجعلَ السُّننِ الكونيّة الضّامنة لديمومةِ الحياة

قدَّمَ في سورة الأنعام ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ على قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، وقدَّم في سورة غافر ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ لأنّ ما في سورة الأنعام جاءَ بعدَ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ [الأنعام: 100]، فلما قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ أتى بعده بما يدفع قولَ مَن جعَلَ للّٰهِ شريكًا، فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، ثم قال: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ فعالجَتِ الآيةُ قضيَّةَ الإشراكِ أوَّلًا، ثم ذكرتْ دليلَ قدرته سبحانه في الخلق. وفي سورة غافر جاء هذا بعد قوله تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: 57]، وسُبقت كذلك بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾، فكان الكلام على خلقِ السّموات والأرض وخلقِ الإنسان، وجَعْلِ السُّنن الكونيّة الضّامنة لديمومةِ الحياة، لا على نفيِ الشّريك عنه كما كان في آية الأنعام، فناسَبَ

(1) الرّضيّ، شرح الرّضيّ: 1/ 297.

أن يقدِّمَ قولَه: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾[1]؛ أي: "لمّا كان الكلام في سياق الامتنانِ بالنِّعم للدَّلالةِ على السّاعة الَّتي ينكرونها ويجادلون في أمرها قدم الخلقَ على التّهليل"[2].

### نكتةُ تنكيرِ ﴿شَيۡءٖ﴾:

شمولُ الخلق لجميع الموجودات صورةً للتَّفرُّد

تنكيرُ ﴿شَيۡءٖ﴾ في قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ لنكتةِ التّعميم[3]، والشّيء: هو ما صحَّ أن يُعلَمَ ويُخبَرَ عنه. وعند كثير من المتكلّمين: اسمٌ مُشترَكُ المعنى، ويقع على الموجود والمعدوم. وعندَ بعضِهم عبارةٌ عن الموجود. وأصله: مصدرُ شاء. والعمومُ المأخوذ من ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يشملُ أيَّ مخلوقٍ يمكنُ أن يخطرَ للإنسان وللعقل البشريّ أن يتجوّل بين مخلوقات اللّه ﷻ، الَّتي يمكنُه أن يتصوَّرَها لتصلُحَ مثالًا لوقوع فعل الخلق عليه، وليكونَ أُنموذَجًا لصنعة اللّه وإبداعه[4].

### نكتةُ فصلِ كلمة التّوحيد:

العمومُ في ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مُنطلَقُ الاستدلالِ على وحدانيَّة الله وإبداعه

جملةُ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ فُصِلَتْ عن سابقتها؛ لأنّ الجملةَ الَّتي سبقتْها خبر عن وحدانيَّة اللّه في الخلق والتّقدير، فجاء الخبرُ في كلمة التّوحيد ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ مؤكّدًا؛ ليبيّن سرّ الوحدانيّة في خلقِ كلِّ شيء والقيّوميَّةِ عليه. وذكر البيضاويُّ أنَّ ﴿خَٰلِقُ﴾ قُرئ بالنَّصبِ على الاختصاص، فيكون ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ استئنافًا بما هو كالنَّتيجة للأوصاف المذكورة[5].

### بلاغةُ (القصرِ) ونوعُه وغرضُه في كلمة التّوحيد:

تخصيص الله بالعبادة والطّاعة ونفيُ الإشراك بالله

قصرُ الألوهيّة على اللّه سبحانه في قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ من قبيلِ قصر الصّفة على الموصوف، وتختصُّ به فلا يتَّصف بها غيره،

(1) الخطيب الإسكافي، درة التّنزيل: 1/ 167.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 102 - 103.
(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 363.
(4) القيعي، مباحث في التّفسير الموضوعي، ص: 122، 149.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 62.

فهو قصرٌ حقيقيٌّ، فيختصُّ المقصورُ بالمقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع، بألّا يتعدّاه إلى غيره أصلًا. والغرضُ من كلمة التّوحيد بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ حصرُ الألوهيَّة على اللّٰه سبحانه، فلا إله إلّا هو؛ وهو الإلهُ الأوحد المستحِقُّ للعبادة، مع نفي أيِّ شريك له فيها، فإنَّ كونَهُ خالقَ كلِّ شيءٍ يَقتضي تخصيصَهُ بالعبادة والطّاعة.

### معنى ﴿لَآ﴾ وتنكيرُ اسمِها ﴿إِلَٰهَ﴾:

نفيُ كلِّ آلهةٍ سوى الله تأكيدٌ للتّوحيد

قولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ ﴿لَآ﴾ فيه نافيةٌ للجنس؛ واسمُها ﴿إِلَٰهَ﴾، وخبرُها محذوفٌ تقديره: (موجود)، ونفيُ جنس الألوهيَّة عن الموجوداتِ أدلُّ على العموم وأقوى من النّفي العام. ورسَّخَ تنكيرُ لفظ ﴿إِلَٰهَ﴾ معنى العموم؛ أي: عموم الآلهة الَّتي تُعبد من دون اللّٰه، فنفاها مُطلقًا عن حقّ الألوهيّة، فلا إله موجود إلّا هو سبحانه.

### نوعُ الاستثناء في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾:

اتِّصالُ الاستثناءِ دليلُ حصرِ الألوهيَّة به سبحانه

الاستثناءُ في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ متّصلٌ على القولِ الرّاجح، وبما أنَّ الكلامَ تامٌّ غيرُ موجَبٍ ففيه إعرابان: النّصبُ على الاستثناء والإتباعُ على البدليّة، واختير هنا الثّاني، وعليه فـ﴿إِلَّا﴾ أداةُ حصرٍ، و﴿هُوَۖ﴾ ضميرُ رفعٍ منفصلٌ في محلِّ رفعٍ بدلٌ من محلّ ﴿لَآ﴾ واسمِها، أو من الضّمير المستتر في خبرها المحذوف بتقدير (موجود)؛ بمعنى: لا إله موجودٌ إلّا اللّٰه.

### نكتةُ التّعبير بضمير الغائب ﴿هُوَۖ﴾:

انسجامُ السّياق والتّأكيدُ على التّوحيد

قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ عبّر فيه بضميرِ الغائب ﴿هُوَۖ﴾ منسجمًا مع السّياق؛ إذ بدأ بقوله: ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ فصرَّح بلفظ الجلالة؛ فاقتضى النّظمُ هنا التّعبيرَ بضمير الغائب ﴿هُوَۖ﴾.

### معنى الفاء في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ﴾:

ترتيبُ الكلام على فسادِ الإعراض عن عبادة الله

قولُه: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ فُرِّعَ عن جملة الأخبار المتقدِّمة، وهو استفهامٌ تعجيبيٌّ من انصرافهم عن عبادته إلى جانب عبادةِ غيره،

مع وضوح فساد إعراضهم عن عبادته[1]. وفائدةُ فاء التّفريعِ أنَّ الكلام بعدها مترتِّبٌ على الكلام الَّذي قبلها.

التّعجيبُ من إعراضِ الكافرين وانصرافِهم عن الحقّ

### معنى (أنّى) وموقعُها الإعرابيّ:

السّياقُ الَّذي جاءت فيه كلمة (أنّى) في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ يدلُّ على أنَّها بمعنى كيف، ففي سياق الآية ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾، والمعنى: كيف تكفرون وقد جاءكم البيّنات والهدى من عند اللّه؟! فمَن آمن بالمسائل العلميَّة الَّتي ذُكرت في الآيات السّابقة؛ من خلقِ الكون والإنسان، وتقديرِ السُّنن الكونيّة كاللّيل والنّهار فعليه أن يؤمنَ باللّه سبحانه؛ الخالقِ لكلِّ شيءٍ، فما قدَّمَتْهُ الآياتُ الكريمة هو نماذجُ محدودةٌ من كلّ شيءٍ موجودٍ في هذا الكون وهذه الحياة.

انصرافُ النّاس عن اللّه علّةُ الإنكار والتّوبيخ

وأصلُ الاستفهام بـ(أنّى) عن المكان، فإذا جعلوا الحالة في معنى الجانب ومثار الشَّيء استفهموا بـ (أنّى) عن الحالة، ويشعر بذلك قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ﴾ [الأنعام: 101][2]. وهو استفهامٌ إنكاريٌّ خرج لمعنى التّوبيخ؛ إذ أنكر على النّاس أن يكونَ حالٌ ينصرفون إليه عن اللّه، أو بعيدًا عن هيمنة اللّه تعالى.

### دلالةُ التّعبيرِ ﴿تُؤۡفَكُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

توبيخٌ إلهيٌّ على انصرافهم عن عبادة اللّه إلى عبادة الأوثان

قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ معناه: فكيف ومِن أيِّ وجهٍ تُصرَفون بأقبح الكذب عن عبادته إلى عبادة الأوثان وقد استنارت جميعُ الجهات؟! والبناءُ للمجهول للإجمال بسبب إعراضهم[3]. و﴿تُؤۡفَكُونَ﴾ معناه: تصرفون على طريق النّظر والهدى، وهذا تقريرٌ بمعنى التّوبيخ والتّقريع[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 187.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 187.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 176، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 187.
(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 567.

﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [غافر: 63]

## ❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

جحودُ النّاس في الإعراض عن الدّلائل الكونيّة والآيات البيّنات

بعدَ أنْ بيّنَ أنّ اللّه تعالى خالقُ كلّ شيء سبحانه، وجاءهم بالدّلائل الكونيّة العظيمة، وأنكر عليهم الكفر بعد هذه الدّلائل وهذه النّعم الّتي أنعم اللّه بها عليهم جاءت هذه الآية لتقرّرَ أنّ مَن يكفرُ باللّه بعد هذه الآيات البيّنات ما هو إلّا جاحدٌ بالبيِّناتِ لا محالةَ، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ﴾؛ أي: على هذه الهيئةِ وبهذه الصّفة صرَفَ اللّه تعالى الكفّارَ الجاحدين بآيات اللّه من الأمم المتقدّمة[1]. فاللّه تعالى غنيٌّ عنكم كما استغنى عن الأممِ الجاحدة من قبلِكم.

الصَّرفُ عن آياتِ اللّه تعالى لا يُقدِمُ عليه عاقل

ولمّا كشَفَ سياق الآيةِ السّابقةِ عن أنّ هذا الصّرفَ أمرٌ لا يُقدِمُ عليه عاقل كان كأنّه قيل: هل وقع لأحدٍ غيرِ هؤلاء مثلُ هذا؟ فأجيب بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثلَ هذا الصَّرفِ الغريبِ البعيد عن مناهجِ العقلاء يُصرَفُ الصّرفَ السّيِّئَ كلُّ جاحد بآيات اللّه من السّابقين[2].

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَجۡحَدُونَ﴾: (جحد) أصلٌ يدلّ على قلّةِ الخير. والجحد: نقيض الإقرار، وجَحَد الرَّجل: إذا أنكر ما عَلَيْه من حقّ. والجحد: القلّة من كلّ شَيْء[3]. فالجحد والجحود هو الإنكار، وسبيلُه: نفيُ ما في القلب إثباتُه، وإثباتُ ما في القلب نفيُه، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النّمل: 14]، وقال: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: 51][4].

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 567.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 104.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيدة، المُحكم والمحيط الأعظم: (جحد).
(4) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ: (جحد).

## المَعنى الإجْماليُّ:

الجحودُ بِنِعَم اللـه وصرفُ القلوب عن الحقّ

الآيةُ بيانٌ لحال الَّذين وقفوا من نِعَم اللّه تعالى موقفَ الجحود والكفران. والمعنى: مثلَ ذلك الصَّرفِ العجيب من الحقّ إلى الباطل ينصرفُ وينقلبُ كلُّ أولئك الَّذين انتكَسَتْ عقولهم، والَّذين كانوا بآياتنا الدّالَّة على وحدانيّتنا وقدرتنا يجحدون ويكفرون(1). ويؤفك هنا بمعنى: يُصرَفُ عن الشّيء، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: 22]؛ أي: لتصرفَنا عن عبادتها.

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### نكتةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

التّعجيبُ وتفسيرُ انصراف النّاس عن عبادة الله

جملةُ ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ﴾ استئنافيَّةٌ بمنزلةِ التّعليل لمضمون الجملة الَّتي قبلها، وهو التّعجيب من انصرافهم عن عبادة ربِّهمُ الَّذي خلقهم، وخلق كلّ شيءٍ في الوجود؛ فإنَّ في تعليل ذلك بيانًا لسبب التّعجيب(2). أو هو استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنّه قيل: هل وقَعَ لأحدٍ غيرِ هؤلاء مثلُ هذا؟ فأجيب بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، فبينَ الجملتين شبهُ كمال الاتِّصال.

### بلاغةُ التّشبيه بالكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

المبالغةُ في جحود آيات الله ونتائجُ الإعراض عنها

(الكافُ) نائبُ مفعولٍ مطلق؛ أي: يؤفكون إفكًا مثلَ ذلك الإفك(3). ويكون التّشبيهُ مبالغةً في أنّ إفكهم بلَغَ في كُنْهِ الإفكِ النّهايةَ، بحيث لو أراد المُقرِّبُ أن يقرّبَهُ للسّامعين بشبيهٍ له لَما وجَدَ شبيهًا له أوضحَ منه وأجلى في ماهيّته، فلا يسعُهُ إلّا أنْ يشبِّهَهُ بنفسه(4). فقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ يعني: أنّ كلَّ مَنْ

(1) طنطاوي، الوسيط: 1/ 3715.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 188.
(3) الخرّاط، المُجتبى: 3/ 1109.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 188.

جحد بآيات اللّه ولم يتأمَّلْها، ولم يكنْ فيه همّةٌ لطلب الحقِّ وخوف العاقبة أُفِكَ كما أُفِكوا(1).

**غرضُ التَّعبير باسم الإشارة البعيد:**

تحقيرُ المكذِّبين بآيات الله

في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ﴾ عبّر باسم الإشارة؛ والأصل في أسماء الإشارة أن يُشارَ بها إلى الأشياء المُشاهدة المحسوسة، واستعمل هُنا في غير ما يدركه الحسُّ مجازًا؛ لتنزيله منزلةَ المحسوس(2). وغرضُ التّعبير باسم الإشارة البعيدِ (ذلك) التَّحقيرُ؛ إذ لا أحقرَ مِن أفعال هؤلاء وهم يكذّبون الحقَّ اليقينيَّ الَّذي لا شكَّ فيه ولا مِراءَ.

**دلالةُ المضارَعةِ في ﴿يُؤۡفَكُ﴾ وبنائِه للمفعول:**

تجهيلُ المكذِّبين بالحقِّ صورةٌ مِن صوَرِ تحقيرهم

في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ﴾ جاء الفعل ﴿يُؤۡفَكُ﴾ مبنيًّا لِما لم يُسمّ فاعله؛ تجهيلًا بأولئك الَّذين كذّبوا بآيات اللّه، وبكفرهم على الرَّغم ممّا يجدونه من أدلّة الخلق وعظمته الدّالّة على الخالق سبحانه وقدرته. والتّعبيرُ عنه بصيغة المضارع دون الماضي للدّلالة على الحاضر، ولاستحضار الحالة(3).

**غرضُ التّعبير بالاسم الموصول وصلته:**

تعليلُ إفكِ المكذِّبين بآيات الله

جيءَ في جانب المأفوكين في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ﴾ بالموصول؛ لإرادة التّهوين من شأنهم، وتحقيرِ ما هم فيه من الغِواية والانصراف عن الحقّ. فاستمرارُهم على الجحود بآيات اللّه مِن دونِ تأمُّلٍ ولا تدبُّرٍ في معانيها ودلائلها يَطبَعُ نفوسَهم على الانصراف عن العلم بوجوب الوحدانيّة له تعالى؛ لأنّ العقول الَّتي تتخلّق بالإنكار والمكابرة قبل التّأمّل في المعلومات تُصرَفُ عن انكشاف الحقائقِ العلميّة، فوجدنا كثيرًا من العلماء الَّذين اختلطت عليهم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 529.
(2) الرّضي، شرح الرّضي على الكافية: 2/ 30، 33.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 188.

الحقائقُ؛ فينصرفون عنها، ولا يميِّزون بين الصّحيح والفاسد؛ إذ أصبح الإنكار عندهم عادةً وتخلُّقًا. وصلةُ الموصول من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ بيانٌ صريحٌ لعلَّةِ إفكِهم[1].

**بلاغةُ الإظهارِ في مَقامِ الإضمار:**

**حالُهم في الإفكِ مثارُ تعجُّبٍ**

في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ يجوز أن يكون المقصود المخاطبين بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾، ويكون الموصول وصلته إظهارًا في مقام الإضمار، والمعنى: (كذلك تؤفكون)؛ أي: مثلَ إفكِكم تؤفكون، وفائدةُ الإظهار التّعجيبُ من حالهم، وتسليطُ الضّوء على أفعالهم، باعتبارها ممّا لا يُعقل، وليس له دليلٌ أو مُسوِّغٌ.

**تعميمُ حالةِ الإفكِ على الجاحدين في كلِّ زمان**

ويجوزُ أن يكون المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ كلَّ مَن جحَدَ بآيات الله من مشركي العرب ومن غيرهم من المشركين والمكذِّبين، فيشملُ عموم المعرضين، فيصيرُ التَّعليلُ المومَأُ إليه بالصِّلة تعليلًا تعريضيًّا؛ وتكونُ عبارةُ ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ كالمَثَلِ الجاري على طريقة الاستعارة التّمثيليّة؛ لأنّه إذا كان الإفكُ شأنَ الَّذين يجحدون بآيات الله كلِّهم فقد شملَ ذلك هؤلاء بحكم المُماثلة[2].

**نكتةُ دخولِ فعل الكون:**

**تأصيلُ الجحودِ بآياتِ الله على أنّها صفةٌ مُتجذِّرةٌ في المكابرين**

ذُكِرَ فعلُ الكون في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ﴾ الآيةَ؛ للدّلالة على أنَّ الجحودَ بآيات الله شأنُهم وهِجّيراهم[3]، فهي صفةٌ متأصّلة فيهم، وأنَّ إيمانهم لا يُرتجى؛ لِما فيهم من الكبر، قال تعالى: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ [غافر: 56].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 188 - 189.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 188.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 188.

### معنى الباء في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾:

التّكذيبُ الدّائمُ والمستمرُّ لآيات الله صفةٌ ملازمة للجاحدين

الباء في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ للإلصاق، وتشيرُ إلى مُلازَمةِ الكفر لهذه الآيات، لِما دلّ عليه السّياق من إصرارِ هؤلاء على التّكذيب بآيات الله البيّنات، فيكون تكذيبُهم بها دائمًا مصاحبًا للآيات كلّما ذُكرت، واستدلَّ بها الرّسل والدُّعاة من بعدهم، وتكذيبُهم ملتصِقٌ بها؛ إذ يدلُّ ذلك على قصدِهم في إنكارها دونَ تحكيم عقولهم، ومراجعةِ فكرهم وما تدلّ عليه الحقائق والبراهين، لكنّهم جعلوا إنكارهم الآياتِ ملتصقًا بها، وما ذاك إلّا كبرٌ منهم.

### نكتةُ جمعِ الآيات وإضافتِها إلى لفظ الجلالة:

شأنُ آيات الله التّكثيرُ والتّعظيم

أفادَ جمع الآيات في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ التَّكثيرَ والتّعظيم، وإضافتُها إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ أحاطَها بالعظمةِ كلِّها؛ لأنّها الآياتُ الَّتي تدلُّ على عظيم شأن الله في خلقه وتقديره.

### نكتةُ تقديم شبهِ الجملة على المُسنَدِ الفعليّ:

اختصاصُ آياتِ الله العظيمةِ بالجحودِ والتّكذيب

تقديمُ شبه الجملة ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾ في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ على الفعل ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ للاختصاص، فهم يُكذّبون بالآيات البيِّنات كلَّما عاينوها أو رَأوها لا بشيء غيرِها. وفي إضافةِ الآيات إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ وتقديمه على الفعل ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ كذلك دلالةٌ على اختصاص آياتِ الله بهذا الجحود والإفك والتّكذيب؛ هذه الآياتِ العظيمة الَّتي حَوَت البَراهينَ، وتضمَّنت الحُجَجَ العظيمة، فهي مختصَّةٌ مقصودةٌ عندهم في التَّكذيبِ والكفرِ بها، وهم يؤمنون بما دونَها من آراءِ النّاس وأقوالهم وحُجَجهم.

### دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

استمراريَّةُ الجحود وتجدُّدُ الإنكار

في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ دلَّ الفعل المضارع على استحضارِ الحالة، فضلًا عن الدّلالة على التَّجدُّد، ممّا يعكسُ حالةَ المراوغة تجاهَ الحقّ، والإنكارِ عنادًا ومكابرةً، فجحودُ المُنكِرين لآيات الله متجدِّدٌ على مَرِّ العصور والقرون؛ يتجدَّدُ بآرائِه وأفكاره، وأساليبِه في الإنكار والمراوغة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٤﴾ [غافر: 64]

### مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

آيـــاتُ الـلـه الكبرى في خلقِ الإنسان وتدبيرِه

يستمرُّ الحِجاج؛ فبعدَ إنكارِ اللّهِ على المُكذّبين تكذيبَهم وإعراضهم عن الإيمان باللّه وعبادته، وبيانِ أفضاله على النّاس وتعداد النّعم الّتي أنعم اللّه بها عليهم تكشفُ الآية الكريمة عن آيةٍ كبرى من آياته تعالى في الخلق والتّقدير؛ أنْ جَعَلَ الأرض مكانًا مناسبًا لحياة الإنسان وأنواع الحياة الأخرى، وجعل لها حمايةً من فوقها، وعدَّدَ نعمًا الأخرى في خلق الإنسان فأحسن تصويره وخلقه، ورزقه من نبات الأرض من الطّيّبات.

### شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَرَارٗا﴾: (قرّ) أصلان صحيحان، يدلّ أحدهما على بَرْدٍ، والآخر على تمكُّنٍ[1]. وأصله الّذي من القُرّ، وهو البرد؛ لأنَّه يقتضي السّكون، والحرّ يقتضي الحركة، أو هو من القرار، وهو الهدوء[2]. وقَرَّ في مكانه يَقِرُّ قرارًا، إذا ثبتَ ثبوتًا جامدًا، واستقرّ؛ أي: أقامَ[3]. والإقامة وجهٌ للتَّمكين. وقولُه تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾ معناه: مُستقَرًّا.

2) ﴿بِنَآءٗ﴾: (بني) أصل واحد، وهو بناء الشّيء بضمّ بعضه إلى بعض. تقول: بنيت البناء أبنيه، والبَنِيَّة يُعبَّرُ بها عن بيت اللّه تعالى[4]. فالبِناءُ: اسمٌ لِما يبنى بناءً، قال تعالى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرّ).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قرّ).
(3) الراغب، المفردات،: (قرّ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بني).

سَبۡعٗا شِدَادٗا ﴿١٢﴾﴾ [النَّبأ: 12]، وقال تعالى: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ [الزُّمر: 20]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ [الذّاريات: 47]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾﴾ [الشَّمس: 5][1].

3) ﴿وَصَوَّرَكُمۡ﴾: (صور)، و"الصّورَةُ: صورة كلّ مخلوق، والجمع صور، وهي هيئةُ خِلْقَتِهِ"[2]. فالصّورةُ: الشَّكْلُ[3]. وهي: ما ينتقش به الأعيان، ويتميّز بها غيرها، وذلك ضربان: أحدهما محسوس يدركه الخاصّة والعامّة، والآخر: معقول يدركه الخاصّة دون العامّة، كالصّورَةِ الَّتي اختصّ الإنسان بها من العقل، والرّويّة، والمعاني[4].

4) ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾: (طيب) أصل واحد صحيح يدلُّ على خلاف الخبيث. وطابَ الشّيءُ يَطيبُ طَيْبًا، فهو طَيِّبٌ. وأصل الطَّيِّب: ما تستلذّه الحواسّ، وما تستلذّه النّفس، والطّعامُ الطَّيِّبُ في الشّرع: هو الحلال، وعلى ذلك قوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾[5].

5) ﴿فَتَبَارَكَ﴾: (برك) أصل واحد، وهو ثبات الشّيء، والبَرَكَةُ: ثبوت الخير الإلهيِّ في الشّيء. قال تعالى: ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: 96]، وسمّي بذلك لثبوتِ الخير فيه ثبوتَ الماء في البِرْكة، وتنبيهًا على ما يفيض عليه من الخيرات الإلهيَّة. وكلُّ موضع ذُكر فيه لفظ (تبارك) فهو تنبيه على اختصاصه تعالى بالخيرات المذكورة مع ذكر (تبارك)، كقوله في هذه الآية: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[6].

### ۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّنَ ﷻ مظاهرَ نعمه عن طريق المكان؛ الأرضِ والسّماء؛ بأن جعل الأرضَ مكانًا لاستقراركم عليها والسّعيِ فيها، وجعل لكم السّماء بمنزلة القبَّة المبنيَّة المضروبة فوق رؤوسكم، فأنتم ترونها بأعينكم مرفوعة فوقكم بغير عمد. وهذا بيان لفضله تعالى المتعلِّق بالمكان بعد بيان فضله المتعلِّقِ بالزّمان، ثمَّ بيَّنَ فضله تعالى المتعلِّقَ بالذَّوات، فهو الَّذي صوّر أشكالكم في أحسنِ تقويم، وأجملِ هيئة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴿٤﴾﴾ [التّين: 4]،

(1) الراغب، المفردات: (بنى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صور).
(3) ابن سيدة، المحكم: (صور).
(4) الراغب، المفردات: (صور).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (طيب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (برك).

فأودع في خلقكم سُنّةَ الإحسان، ثمّ أتمّ نعمه بالرّزق الطّيّب الحلال المستلَذّ، ذلكم الَّذي أعطاكم تلك النِّعمَ المتعلِّقةَ بزمانكم، ومكانكم، وذواتكم، ومَطعَمِكم ومَشرَبِكم هو اللّٰه ربّكم الذّي تولّاكم بتربيته ورعايته في جميع أطوار حياتكم، فتبارك اللّٰه تعالى، وتعاظم في ذاته وفي صفاته، فهو ربّ العالمين ومالكُ أمرهم[1].

نِعَمُ اللّٰه متعدِّدةٌ في الزّمان والمكان والذّات

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### نكتةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ استئنافٌ ثانٍ؛ زاد في تأكيد التّعريف والدّليل؛ أي: جعل لكم الأرضَ مُستقرًّا في حياتكم وبعد موتكم[2]. فلذلك لم تعطف على الَّتي قبلها؛ لأنّ المقام مقامُ تعداد دلائل انفراده تعالى بالتّصرُّف وبالإنعام عليهم، حتّى يُفتضحَ أمر تعنُّتهم في كفران النّعم، فذكّرهم في الآية السّابقة بآثار قدرته في نعمتي الظّلمة والنّور، وفي كليهما نعمٌ عظيمة على النّاس، وذكَّرهم في هذه الآية بِنِعَمِه العظيمة؛ أنْ جَعَلَ الأرضَ مُستقرًّا لحياتهم، وجعل السّماءَ حفظًا لهم من فوقهم، وفي خلق أنفسهم على صور صالحة بهم.

تعدادُ نعمِ اللّٰه على عباده وآياته في خلق الزّمان والمكان

أمّا إنْ جعلنا اسمَ الجلالة في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ بدلًا من (ربِّكم) في ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾ فإنَّ جملة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ تكون مستأنفةً استئنافًا ابتدائيًّا[3]، وهذا ما يسمّيه البلاغيّون كمالَ الاتصال.

### غرضُ التَّعبير بالاسم الموصول وصلته:

الموصولُ وصلتُه في جملةِ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ صفةٌ لاسم الجلالة، فيكون الخبر قولَه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ﴾؛ لأنّ المقصود

إثباتُ ألوهيّة اللّٰه من خلال آياتِ خلقه ونعمته

(1) طنطاوي، الوسيط: 1/ 3715.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 328.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 189.

إثبات ألوهيَّته وحده بدليل ما هو مشاهدٌ من إتقان صنعه المَمزوج بنعمته. ويجوز أن يكون الموصولُ خبرًا، فيكونُ الخبر مستعمَلًا في الامتنان والاعتبار(1).

**دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿جَعَلَ﴾:**

تقديرُ الله للأرض والسّماء، ودورُهما في حياة الإنسان

قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بمعنى: قدَّرَ خَلْقَ الأرضِ أن تكون قرارًا، وقدّر السّماء أن تكون بناءً، وجعل هذا التّقديرَ ينعكس على أشكال الخلق والحياة على هذه الأرض.

الجَعْلُ إقرارٌ للسُّنَنِ الكونيَّة

فالجَعْلُ حالةٌ بعد الخلق، وفيه معنى التّصيير، كإنشاءِ شيءٍ من شيء، أو تصييرِ شيءٍ شيئًا. والجعل عادة يتضمَّن تقديرَ سُنَّةٍ كونيّة كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ [النّحل: 80]، وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ١٣﴾ [النّبأ: 13]. ففي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾ إقرار سنّة كونيّة، حيث جعَلَ الله تلك القوانين الكونيّة سائرةً في فلكها.

**معنى اللّامِ في ﴿لَكُمُ﴾:**

اختصاصُ المُخاطَبين بالنِّعمِ الإلهيّة

معنى اللّام في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ الاختصاصُ والتّمليك؛ أي: يكونُ ما قدّره الله من السُّنن الكونيّة الَّتي ضُمِّنَتْ أنْ تكون الأرض قرارًا لكم، والسّماءُ من فوقكم بناءً حاميًا لكم ولحياتكم، وما يندرجُ فيهما من نعم عظيمة أُخرى تتحرَّكُ وتوجد بوجود القرار الأرضيِّ والبناء السّماويّ؛ يكونُ ذلك كلُّه من أجلكم، ولِما يحقّق مصالحكم، ويضمنُ ديمومةَ حياتِكم وأعمالكم. واختصاصُهم بهذه النّعم العظيمة يقتضي التّفكُّرَ بعظيم ما أنعم الله عليهم والشُّكرَ عليها.

**نكتةُ تقديم شبهِ الجملة على المفعول:**

التّسخيرُ الكونيُّ صنيعٌ إلهيٌّ يحفظُ أنواعَ الحياة على الأرض

قدَّمَ شبهَ الجملة ﴿لَكُمُ﴾ في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾؛ للدَّلالة على الاهتمام وللتَّأكيد على الاختصاص؛ أي: لأنَّكم أشرفُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 189.

المخلوقات اختصَّكم اللّه تعالى بقرار الأرض الَّذي كان منسجمًا مع طبيعة خلقكم وحياتكم، وجعل السّماء قبّة لكم. ومنه: أبنيةُ العرب لَمضارِبهم؛ لأنّ السّماء في منظر العين كقُبَّةٍ مضروبة على وجه الأرض[1]. وما أودَعَ فيها من خواصَّ تحفظُ حياتَكم من المخاطر العُلْويَّة كالأحجار والأشعَّة والنّيازك، وما في ذلك من تسخيرٍ للكون بحفظ أنواع الحياة على الأرض.

### معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ و (السّماء):

خصائص الأرض وقدرتُها على استدامة الحياة، وقدرة السَّماءِ على حفظها

(أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ و (السّماء) للعهدِ الذِّهنيِّ، فالحديثُ عن معلومَين معهودَين؛ الأرضِ الَّتي مُهّدتْ للحياةِ - فقد ظهَرَ للعلماء اليومَ أنّها تتّصفُ بصفاتٍ كثيرةٍ وتختصّ بخصائصَ عظيمةٍ جعلتها تمتلك خاصّيَّةَ استقبالِ الحياة ونموِّها عليها، والقدرةِ على حمايتها، وهذا على خلاف الكواكب الأخرى الَّتي لها خصائصُ قاتلةٌ للحياة أو طاردة لها - والسّماءِ الَّتي تُظِلُّ، وتُرسِلُ الغيثَ، وتحمي من الأجرام بإذن اللّه تعالى، إلى غيرها من المنافع الخفيّة.

### بلاغةُ الطِّباق بين لفظتَي ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ و(السّماء):

تكامُلُ الأرض والسَّماء في حفظ الحياة

في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ بينَ الأرض والسّماء طباق؛ باعتبار أنّ الأرض بالنّسبة للإنسان تحتيَّة، وأنَّ السّماء فوقيَّة، وفائدةُ هذا الطّباق دلالة الشّمول الَّتي تعكس أثرَ السّماء والأرض على حياة الإنسان، وتكامُلَهما في توفير أدواتِ ديمومة الحياة.

### نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ على (السّماء):

لمّا كان المقصودُ الأوَّل من هذه الآية الامتنانَ كما دلّ عليه قوله: ﴿لَكُمُ﴾ قُدِّمَتِ الأرضُ على السّماء؛ لأنّ الانتفاع بها محسوسٌ، وهي

(1) الكشّاف، الزّمخشريّ: 4/ 176.

المواضع الَّتي يستقرّ عليها الإنسان ويسكنُ فيها، فهي أقرب إليه من السّماء. وذكرت السّماء بعدها كما يُستحضَرُ الشّيء بضدّه، مع قصد إيداع دلائلِ علم الفلك لمن فيهم استعدادٌ للنّظرِ فيها وتتبُّع أحوالها، على تفاوُتِ المدارك وتعاقُبِ الأجيال واتّساع العلوم(1)؛ إذ فيها الكثيرُ من النّعم الكافيةِ والمنافع الخفيّة للنّاس، الَّتي اكتشف بعضَها علماءُ الفلك اليوم، وما يزالون يكتشفون ما خَفيَ فيها من النّعم العظيمة.

من أسرارِ حفظ الإنسانِ التّوازنُ الكونيُّ بين الأرض والسّماء

### دلالةُ التَّعبير بـ﴿قَرَارًا﴾ مادَّةً وصيغةً:

القرارُ أصلُهُ: مصدرُ (قَرَّ) إذا سكن. والقرار: الثّبات والدَّوام، وهذا من صفات الأرض؛ لأنَّه في حكم الخبر عن الأرض، فالمعنى يَحتمِلُ: أنَّه جعلها قارَّةً غيرَ مائدةٍ ولا مضطربةٍ، مع كونها في غاية الثّقل. وهذا في معنى قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ [الأنبياء: 31](2). ويَحتمِلُ: أنَّه جعَلَ الأرضَ ذاتَ قرارٍ؛ أي: بسَطَ لكم الأرض وجعلها موضعَ قراركم، كقوله تعالى: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ٥٠﴾ [المؤمنون: 50]؛ أي: خلَقَها على كيفيَّةٍ تلائمُ الاستقرار عليها(3). والتّنكيرُ للعموم، فالأرضُ بكلِّ بقاعِها مُستقَرٌّ لكلِّ شيءٍ على وجهها.

التَّوازُنُ والتّكاملُ والاستقرارُ سِمَةُ خلق الله

### نكتةُ إفرادِ (السَّماء):

في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ أفرَدَ السّماء بالذّكر، فلم يقل: السّمواتِ بناءً؛ تناسبًا مع ذكر الأرض، ثمَّ لأنّ الخطاب جاء للنّاس؛ فقال: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾؛ فيكون المرادُ بالسّماء ما هو في جهةِ السّماء؛ أي: الغلافَ الجوّيَّ وما فوقَهُ ممّا يكون وجودُه ضروريًّا لحياة الإنسان.

المرادُ بالسّماء الغلافُ الجوّيُّ وما فوقه، ممّا هو ضروريٌّ لحياة الإنسان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 189.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 190.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 203.

### بلاغةُ التّشبيه في حال السّماء:

جَعْلُ السّماء كالقُبَّةِ المضروبة سقفًا، وتسخيرُها للإنسان فضلٌ من المنّان

وَصْفُ السّماءِ في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ بالبناءِ جارٍ على طريقة التّشبيه البليغ، فالسّماءُ فوق النّاس هي كالبناء، وهي تشبهُ القُبَّةَ الّتي تُبنى في جهة السّقف. فالسّماءُ مبنيَّةٌ كالقبَّة المضروبة على الأرض، وقيل: مَسَكَ الأرضَ بلا عَمَدٍ حتّى أمكَنَ التّصرُّف عليها ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾؛ أي: قائمًا ثابتًا، وإلّا لوقعتْ علينا[1].

### معنى الواوِ في قوله: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ﴾:

التّرابُطُ بين خلق الأرض وتصوير الإنسان من أمارات دقَّةِ التّقدير والميزان

قوله: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ وفائدةُ العطف بالواو الجمعُ بين خلق الأرض والتَّصوير، وما لِخلقِ الأرض من الأثر على تصوير النّاس؛ إذ تكلَّمَ العلماء في تجرِبةٍ افتراضيّةٍ تكشفُ عن شبكة التّرابطات الَّتي تؤثِّرُ على حياة الإنسان وشكله وتصويره؛ فلو كان كوكب المشتري أقرب إلى الشّمس فسيؤثر ذلك على الأرض حينها، وكان على الأرض أن تكون أكبر حجمًا وأعظم كتلةً، لتستقرَّ في مكانها وعلى حالها، وحينها ستصبح قوى جاذبيَّتها على النّاس أعظمَ، وستكونُ الحياة في تلك الأرض مختلفةً تمامًا عمّا هي عليه؛ فأرضٌ أثقلُ يعني ذلك أجسامًا أقصرَ وأعرَضَ؛ للتّعامل مع الضّغوط العظيمة للجاذبيّة، وعلى العكسِ من ذلك: أرضٌ أصغرُ يعني ذلك جذبًا أرضيًّا أقلَّ، وتكون الأجسام البشريَّة أطولَ وأضعفَ وأخفَّ، فكتلةُ الأرض تحدِّدُ الجاذبيَّةَ الَّتي نعيشها، وبذلك فهي تسيطرُ على كلِّ جانبٍ من جوانب حياتنا، بدءًا بحجمنا وشكلنا، وانتهاءً بالطّريقة الَّتي نتحرّكُ ونأكلُ ونتفاعلُ بها[2].

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 530.

(2) شوبين، الكون داخلنا، ص: 76.

## دلالةُ التَّعبيرِ بـ(صوّركم) مادّةً وصيغةً:

تناغُمُ الخلقِ والتَّقديرِ في تصوير الإنسان

الصّورة في قوله: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾: ما ينتقِش به الأعيان وتتميّز بها من غيرها[1]. وصورة كلّ مخلوق هي هيئة خِلقَته. وفي قوله: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾؛ جاءت لفظةُ (صوّر) فعلًا ماضيًا للدّلالة على مسألةٍ علميّة غايةٍ في الأهمّيّة؛ وهي أنّه سبحانه قدّر صوَرَنا منذ أن جعل الأرض قرارًا، وجعل السّماء بناء؛ فقدّرَ اللّه الأرض والسّماء وتصويرَ البشر والأرزاق في انسجام كونيّ عظيم دلَّ على عظيم شأن اللّه في الخلق والتّقدير، فمنذ أن خُلق آدمُ عليه السلام - وهي الصّورة البشريّة الأولى - كانت تلك الصّورة في انسجام عظيم مع المكان الَّذي قُدّر لآدمَ أن يحيا فيها، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البقرة: 30]؛ فلا تصلح تلك الهيئةُ البشريّة للعيش إلّا على كوكب الأرض.

تصويرُ خلقِ الإنسان مقصودٌ يُشعِر بالعناية

وعبَّرَ عن خلق الإنسان "بفعلِ ﴿وَصَوَّرَكُمۡ﴾؛ لأنَّ التّصوير: خلقٌ على صورةٍ مرادة تُشعر بالعناية، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ [الأعراف: 11]؟ فاقتضى حسنَ الصّور، فلذلك عدَلَ في جانب خلق الإنسان عن فعل الجعل إلى فعل التّصوير بقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ﴾، فهو كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ﴾ [الانفطار: 7 - 8]"[2].

## نكتةُ عطفِ تصوير الخِلْقةِ على جعلِ السّماء والأرض:

تَرَقّي النِّعم من تسخيرِ الأرض والسّماء إلى الإحسان في تصوير الإنسان إظهارٌ لنعم المَنّان

في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ عطَفَ تصويرَ الخلقة على جعلِ السّماء والأرض؛ لأنّ الجعل جاءَ لتسخير الأرض والسّماء لهذا الإنسان، وهي من أعظمِ نعم اللّه تعالى، ثم ترقّى بنعمةِ تصويرِ المُخاطبين - وهم (النّاس)

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 451.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 191.

- وإحسانِه سبحانه في تصويرهم، فكانت هذه نعمةً أعظمَ من سابقتها، فأفاد فنُّ التّرقّي هُنا تعدادَ النّعم، والإيغالَ في بيان أفضال اللّه تعالى على النّاس. وأشَرْنا إلى أثرِ جعل الأرض والسّماء على تصوير النّاس وأشكالهم وحياتهم.

### معنى الفاء في قوله: ﴿فَأَحۡسَنَ﴾:

منذُ أنْ خلق اللّه السّمواتِ والأرضَ أوجدَ صورَ البشر في أحسنِ تقويم

الفاءُ في قوله: ﴿فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ عاطفةٌ جملةً على جملة، ودالَّةٌ على التّعقيب؛ أي: أوجد صورةَ الإنسان فجاءت حسنةً[1]. فدلَّتْ على أنّ اللّه تعالى قد أحسَنَ صورَكم منذ أنْ صوَّرَكم؛ أي: منذ أنْ خلَقَ السّموات والأرض وجعَلَهما على تقاديرَ تضمنُ أن تكون صورُ البشر في أحسن تقويم.

### فائدةُ الجملة الخبريّة ﴿فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾:

خلقُ الإنسان في أحسنِ تقويم مِن نِعَمِ الخالقِ وإحسانه على عباده

تضمَّنت الجملةُ الخبريّةُ ﴿فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ لازمَ الفائدة؛ لأنّ المخاطب يعلم أنّه أفضلُ المخلوقات وأحسنُها في هذا الوجود، وجاء خطاب اللّه له لبيان ذلك مفصّلًا، وليعلم أنّ اللّه تعالى الَّذي خلقه كان قادرًا على أن يخلقه بصورٍ شتّى لا يكون فيها الإحسانُ والجمال والرّقيّ، لكنْ مِن نعمةِ اللّه تعالى وفضلِه على عباده أنَّ خَلَقَهم منتصبُ القامةِ، ظاهرُ البشرةِ، متناسبُ الأعضاءِ والتّخطيطاتِ، متهيِّئٌ لمزاولةِ الصّنائع واكتساب الكمالات[2].

### دلالةُ التَّعبيرِ بـ(أحسن) مادَّةً وصيغةً:

صورةُ خلق الإنسان تدلُّ على الكمال والرُّقيِّ في جميع الصّفات

الفعلُ (أَحۡسَنَ) في قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ مشتقٌّ من الجذر (حسن)، الَّذي يشيرُ إلى الجمال والجودة والإتقان. ويدلّ هنا على الكمال والرّقيّ في جميع الصّفات، فالصّورةُ الّتي خُلق عليها الإنسان هي أفضلُ ما يمكن أن تكون عليها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 191.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 62.

هيئةُ مخلوقٍ هو خليفةٌ في الأرض، وهي صورةٌ أكثرُ إتقانًا وجودةً وملاءمة للبيئة الأرضيَّة والسّماويَّة.

واستعمالُ الفعلِ (أَحۡسَنَ) هنا يعبّر عن كمال الخلق الإلهي للإنسان؛ إذ يتجاوز مجرَّدَ الشّكل الظّاهر إلى الإشارةِ إلى الكمال المُتضمَّنِ في تركيب الإنسان الجسمانيِّ والنّفسيِّ.

**فائدةُ عطف قوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ على ما تقدّمها:**

**تعدادُ نعم الله على الإنسان رفعةٌ له في درجات التّكريم والتّفخيم**

عَطَفَ قولَه: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ على ما تقدّمه من القرار في الأرض، وإحاطة السّماء بها كالبناء الواقي من الأخطار، والتّصوير الحسن، فعدَّدَ عظيمَ النّعم على الإنسان الَّتي تضمنُ له الحياة الكريمة والاستقرار، فيأتي الرّزق من الطّيّبات الَّتي تُفعِّلُ عند الإنسان الشّعورَ بالسَّعادة والبحثَ عن الأفضل، والتَّمييزَ بينها على وفْقِ الأطيبِ منها ممّا تطيبُ له النّفس ويختارُه الذّوق ويتمايزُ به النّاس. فيكتمل أسلوبُ التّرقّي هُنا برسم صورةِ الحياة المتحضّرة الَّتي ترفعُه عن درجات الحيوانيَّة إلى درجات التّكريم والتّفخيم. هذا فضلًا عن أنّ النِّعم السّابقة كلَّها تؤثر تأثيرًا حاسمًا على سُبُلِ الرّزق وطُرُقِ تحصيله وقدرات الإنسان على ذلك، فعطف على هذه المِنِ منّةً أخرى فيها عبرةٌ؛ إذ أمدّكم بأحسنِ الأرزاق، فجمع لكم بين الإيجاد والإمداد. وقولُه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ معناه: من المُستلَذّاتِ طعمًا ولباسًا ومكاسبَ وغيرَ ذلك. ومتى جاء ذكر الطّيّبات بقرينة (رَزَقَكُم) ونحوه فهو المُستلَذُّ[1].

**عطفُ الرِّزق جمعٌ بين الإيجاد والإمداد**

وعطَفَ على هذه العبرةِ والمنَّة - وهي (حسن التّصوير) - منَّةً أخرى فيها عبرةٌ وحكمة، والتّقدير: خلقكم في أحسنِ صورةٍ، ثمَّ أمدَّكم بأحسنِ رزقٍ، فجمع لكم بين الإيجاد والإمداد، اللَّذَينِ تدومُ بهما الحياة[2].

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 567.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 191.

**دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ الرِّزق بصيغة الماضي:**

نعمةُ الرّزق الطّيِّب مِن ضمانِ الأرض إلى إمداد الحياة

دلُّ التّعبيرُ عن الرّزق بالماضي في قوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ على التّقدير المُسبَقِ لعموم الأرزاق الَّتي تضمنُ ديمومة الحياة على الأرض، والمحفوظِ من جهة السّماء، فمِن أهمِّ موجَباتِ الأرض القرارِ أنّها ضامنةٌ للأرزاق والأقوات. ولمّا كانت الغايةُ من الرّزق إمدادَ الجسم بالطّاقة وبوسائلِ تجديد قواه الحيويّة كان في قوله: ﴿وَرَزَقَكُم﴾ إيماءٌ إلى نعمة طول الوجود، وحفظِ حياة الإنسان، فجعل ما به مددُ الحياة وحفظُ نوعها، وما خلق من النّبات والأنعام والطَّير وما أنتجه البحرُ مِن أحسنِ الطّيّبات، فتميّز بذلك عن سائر المخلوقات.

**معنى ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾:**

رزقُ الله من الطَّيِّبات نعمةٌ لا تُعَدُّ ولا تحصى

فائدةُ ﴿مِّنَ﴾ هنا التّبعيض؛ فما خلق اللّه تعالى في هذه الحياة من الطّيّبات لا يُعدّ ولا يُحصى، وهو من نعمه سبحانه على النّاس، لكنّهم لن يحيطوا بالتّمتّع بتلك الطّيّبات كلّها، فيصيبُهم من بعض خيراتها وطيّباتها شيءٌ ممّا خلقَهُ اللّه لهم؛ فتكون لهم داعمًا لديمومة الحياة بطريقةٍ ماتعة ومحفِّزةٍ للنّشاط فيها والعملِ طلبًا لتحقيق الأكثر والأفضل.

**معنى (أل) في ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾:**

نعمةُ الله في تنوُّع أرزاق عباده

(أل) في قوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ للجنس، وفائدتُها الدّلالة على العموم، والكثرةِ الكاثرة من تلك الطّيّبات الَّتي أودعها اللّه في أرزاق العباد.

**الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾:**

إكرامُ البشر بأفضليّتِهم في الرّزق على سائر الأحياء

قوله: ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ جارٌّ ومجرور متعلّق بـ(رزقكم)، والمعنى: جعل رزقكم مختلفًا عن أرزاق سائر الأحياء، فأحلّ اللّه لكم الطّيّبات، وحرّم عليكم الخبائث، وما ذاك إلّا إكرامٌ للبشر، ونعمةٌ تَفوقُ كلَّ ما أنعَمَ به على الأحياء الأخرى.

**نكتةُ فصل قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ﴾:**

توحيدُ الألوهيَّة والرُّبوبيَّة بيانٌ لعظيم شأن الله

قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ﴾ فُصِلَ عن الجمل السّابقة؛ لأنّها بمثابةِ عطفِ بيانٍ من الجملة الأولى، أو خبرٌ لها، فهي متَّحدةٌ معها في بيانِ عظيمِ شأنِ اللّه الرَّبِّ الَّذي استحقَّ منكم توحيدَ الألوهيَّة والرّبوبيّة، فبينَ الجملتين كمالُ الاتِّصال.

**غرضُ التَّعبير باسم الإشارة البعيد:**

تعظيمُ الله تعالى

اسمُ الإشارة في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ﴾ للبعيد؛ لغرض التَّعظيم، وذكر الألوهيَّة والرّبوبيّة بعدَه ترسيخٌ لهذا التّعظيم.

**الموقعُ النّحويّ لِلَفْظِ الجلالة:**

شأنُ الله في الخلق والتّقدير والتّسخير عظيمٌ

قولُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ اسم إشارة مبنيٌّ مبتدأ، و(اللام) للبعد، و(الكاف) للخطاب، و(الميم) علامةٌ لجمع الذُّكور، و﴿ٱللَّهُ﴾ لفظ الجلالة خبر مرفوع، وجملة: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ لا محلَّ لها استئنافيّة، أو في محلٍّ رفعٍ خبريَّة، على حسب إعراب الاسم الموصول في الآية.

وأفاد الموقع الإعرابي لِلَفْظِ الجلالة تمامَ الجملة لبيانِ أفضالِ المنعم عليكم أيُّها النّاس؛ إذ لا منعمَ عليكم إلّا اللّه سبحانه، فاللّه تعالى هو الَّذي قدّر كلّ شيء في هذا الخلق وجعله مُسخّرًا لكم، فجعل أرزاق العباد مضمونة، قال تعالى: ﴿۞قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فُصِّلت: 9 - 11]؛ إذ يبيِّنُ في هذه الآيات عظيمَ شأن الأقوات والأرزاق الَّتي تمّ تقديرها وهو يخلق الأرض سبحانه، ثمّ استدعاءَ السّماء والأرض لتتفعّل السُّنن الكونيّة كلّها، فكانت الأقواتُ والأرزاق مقدّرةً مع بدء خلق الكون.

### غرضُ التّعبير بلفظ الرّبوبيّة مضافًا إلى ضمير المخاطب:

نِعَمُ اللهِ وأفضالُهُ على الإنسان تقتضي الإنابةَ اليه والإخلاصَ في عبادته

لمّا ذكرَ الله تعالى أفضالَهُ ونعماءَهُ على النّاس؛ فجعل لهم الأرض قرارًا لحياتهم ومستقرًّا لهم، وجعل السّماء فوقهم بناءً وسقفًا حافظًا لهم من أخطار ما يأتي من فوقهم، فحافظ على الحياة على الأرض، وذكّرهم بأنّه هو الَّذي خلقهم وصورهم وأحسن صورهم، ورزقهم من الطّيّبات؛ اقتضى ذلك التّعبيرَ بلفظِ الرّبوبيَّة مضافًا إلى ضمير المخاطب، انسجامًا مع ما ذكر من النّعم والأفضال على النّاس، واقتضى ذلك أيضًا الإنابة إلى اللّه، وإخلاص العبادة له سبحانه.

### الموقعُ النّحويُّ لقوله: ﴿رَبُّكُمۡۖ﴾:

خَلَقَ الله تعالى الكونَ للنّاس، وخلقهم لعبادته سبحانه

لفظ ﴿رَبُّكُمۡۖ﴾ في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ﴾ بدلٌ من لفظ الجلالة الخبر، فاللّه تعالى الَّذي يستحق العبادة هو ربُّكم الَّذي خلقكم وقدّر خلْقَ الكون بقوانينه من أجل حياتكم، وخلَقَكم من أجل عبادته فحسب، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذّاريات: 56 - 58].

### فائدةُ الجملة الخبريّة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ﴾:

إثباتُ ربوبيَّةِ الله والتّعريضُ بمن يعبُدُ غيره سبحانه

موقعُ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كموقع نظيره المتقدِّم آنفًا. وإعادة هذا تكريرٌ للتَّوقيف على انحرافِ ما يرونه في عبادةِ غيره على طريقة التّعريض[1]. فإنّ كُلَّ ما سواه مربوبٌ مفتقرٌ بالذّات، معرَّضٌ للزَّوال[2].

### معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ﴾:

الدّوامُ وكثرةُ الخيرات من الله سبحانه

فُرِّعَ قولُهُ تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ عمّا ذَكَرَ من بدائع صنعه وجزيل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 191.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 62.

منِّه؛ فهو ثناءٌ ناشئٌ عن ذكر نعمه الكثيرة على عباده، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾. ومعنى (تبارك): تعاظَمَ خيرُهُ وكثُرتْ بركتُه.

### دلالةُ التَّعبيرِ بـ(تبارك) مادَّةً وصيغةً:

رعايةُ الله سبحانه لعباده بالبركةِ وتزايُدِ الخيرات

فعل (تبارك) في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ "صيغةُ مفاعلةٍ مستعملةٌ مجازًا في قوَّة ما اشتُقَّ منه الفعل. وهو مشتقّ من اسمٍ جامد وهو (البركة)، و(البركة): اسم يدلّ على تزايد الخير"[(1)]. و"ثباته ثباتًا عظيمًا مع اليمن والخير وحسن المدد والفيض"[(2)]. وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، تنبيهٌ على اختصاصه تعالى بالخيرات المذكورة مع ذكر (تبارك)[(3)]، الَّتي توحي بديمومة البركة في جميع ما خلق وقدّر وصوّر ورزق، فذلك كلُّه منسجمٌ في لوحة الشّكر للّه سبحانه.

### الموقعُ النّحويّ لجملة ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾:

تقدير الله مِن الأقوات والأرزاق بُشرى بالخير والزّيادة

جملةُ ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ استئنافيَّةٌ مفرَّعةٌ عن ربوبيَّةِ اللّه لعباده وعن تعدادِ النِّعم والأفضال. وقد أفادتْ معنى البشرى بالخيرِ والزّيادةِ فيما قدّر اللّه من الأقوات والأرزاق؛ وأنّ ما قدّره اللّه - إذ جعل الأرضَ قرارًا والسّماء بناءً - كفيلٌ ببركةِ الحياة على الأرض.

### نكتةُ إظهار لفظ الجلالة:

ذكـرُ اسـمِ (الله) في سياقِ الثّناء لتعظيمِ الأفضال

في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أُظهِرُ اسمُ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ مع الفعل (تبارك) دون الإتيان بضميره، مع تقدّم اسمه؛ لتكون الجملة كلمةَ ثناءٍ مستقلَّةً[(4)]. فضلًا عمّا في الإظهار من التّعظيم، وبيانِ كريم أفضاله عليكم أيّها النّاس، وأنّه وحده المستحقُّ للعبادة وتوحيدِ الألوهيَّة سبحانه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 191.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: (بتصرف يسير): 17/ 104.

(3) الراغب، المفردات، ص: 120.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 192.

### نكتةُ تكرارِ الوصفِ بلفظِ الرّبوبيّة لاسم الجلالة:

دلائلُ الخلقِ وعِظَمِ التّقدير مدعاةٌ للإيمان بوحدانيَّة الله

في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ﴾ وُصِفَ اسمُ الجلالة بلفظِ الرُّبوبيّة للمرّة الثّانية؛ تأكيدًا على مسألةِ أنَّ مَن يرى تلك الأدلَّةَ الباهرةَ على خلق اللّه وتقديره؛ من قرار الأرض وبناء السّماء وفْقَ موازينِ خلقِ الحياة وديمومتها، واستيعابها، وضمان الأرزاق للنّاس عليه أن يؤمنَ بوحدانيَّة اللّه ويؤمنَ بألوهيَّته سبحانه، وهو وحده سبحانه المستحقُّ للعبادة.

### نوعُ الإضافة في قوله: ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

بركةُ الله تشملُ كلَّ ما في الكون من خلق

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إضافةٌ معنويَّةٌ اكتَسَبَ فيها المضافُ التَّعريفَ من المضاف إليه، لذلك كانت كلمةُ ﴿رَبُّ﴾ صفةً للّه تعالى، والإضافة هنا تُفيد عمومَ ربوبيَّته سبحانه لكلِّ ما في الكون من خلق، فدلَّتْ على بركته تعالى، وزيادتِه ونمائه لتلك العوالم الَّتي خلقها سبحانه.

### معنى (أل) في ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

فضلُ الله عامٌّ على خلقه أجمعين

أفاد التّعريفُ بـ(أل) في قوله: ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ العمومَ الاستغراقيّ، فلا يخرجُ أحدٌ من المخلوقين عن هذا العموم، فاللّه سبحانه هو ربّ جميع العوالم؛ لأنّه هو خالق كلّ شيء، فلا يخرج أحد من العوالم المخلوقة عن فضل اللّه العظيم عليه؛ إذ أوجده من العدم وأحسن خلقه ورزقه.

### دلالةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

نعمة الله على جميع خلقه في الإيجاد والإمداد

لفظُ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يدلُّ على العوالم المتعدّدة الَّتي لا يُعلم تعدادَها وأسرارها وخفاياها إلّا اللّه سبحانه؛ فهو خالقُ أجناس العقلاء من النّاس والملائكة والجنِّ. وهذا الوصف من تمام الإنشاء؛ لأنّ في ذكر ربوبيّته للعالمين - وهم أشرف أجناس الموجودات - استحضارًا لِما أفاضه عليهم من خيراتِ الإيجاد والإمداد[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 192.

## ❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### الخلق والتّصوير:

التّقديرُ الإلهيُّ في الخلق والتّصوير في تنظيمِ الكون وحياة الإنسان

(الخلقُ) فيه معنى التّقدير[1]. أمّا (التّصويرُ) فهو مرحلةٌ من مراحل الخلق؛ إذ يقتضي التّصويرُ تشكيلَ ذلك الخلق على هيئات؛ فاللّه تعالى خلَقَ كلّ شيء؛ خلَقَ الأرضَ وجعلها قرارًا للإنسان، وخلق السّماء فجعلها بناءً حافظًا لحياة الإنسان، وصوّر الإنسانَ على وفْقِ ما وضع من قوانينَ وسننٍ كونيّة لتنسجمَ حياته بها وتنمو وتتكاثر. وبهذا فهو أنسبُ لسياق الآية المتضمِّن سردَ النّعم الإلهيّة الَّتي مِنها حسنُ الخلق والتّصوير.

---

(1) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 1/ 185.

﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥﴾ [غافر: 65]

تذكيرُ الإنسانِ بحدودِ وجودِه وأبديَّةِ الوجود الإلهيّ

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعدَ أن بيّن في الآية السّابقة ما أنعم اللّه على الإنسان من نعم عظيمة - ولعلّ أعظمَها أنّه سخَّر له الكونَ لديمومةِ حياته والعناية بها - ناسَبَ هنا أنْ يُذَكِّرَ النّاسَ أنَّ الحياة محدودةٌ قصيرة، وأنّه مهما عاش عمومُ الأحياء وتمتّعوا في حياتهم وكسَبوا وتفوّقوا فإنَّهم لا محالة ميّتون، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ [الزّمر: 30]؛ وأنّ اللّه وحده هو الحيّ حياةً أزليّة لا تنتهي، فهو خالق الحياة سبحانه، وأنّ اللّه وحده هو الحيّ الَّذي لا يموت سبحانه، فلا إله إلّا هو، وهو وحده يستحق العبادة والدّعاء.

## شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَيُّ﴾: جذر الكلمة (حيي)، والحياة تستعمل للدّلالة على القوّة النّامية الموجودة في النّبات والحيوان، ومنه قيل: نبات حَيٌّ، قال تعالى: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾ [ق: 11]، ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء: 30]. أو تدلّ على القوّة الحسّاسة، وبه سمّي الحيوان حيوانًا، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾ [فاطر: 22]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [فُصِّلت: 39]، فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا﴾ [فصلت: 39] إشارةٌ إلى القوّة النّامية، وقوله: ﴿لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾ [فصلت: 39] إشارةٌ إلى القوّة الحسّاسة. أمّا الحياة الَّتي يوصف بها الباري فإنَّه إذا قيل فيه تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ﴾ فمعناه: لا يصحّ عليه الموت، وليس ذلك إلّا للّه ﷻ[1].

(1) الراغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس: (حيي).

## ۞ المَعنى الإجْماليُّ:

(الحيُّ الَّذي لا يموت) دعوةٌ لعبادةٍ خالصةٍ وطاعةٍ لا تردُّد فيها

اللّه تعالى ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ﴾ سبحانه المنفرد بالحياة الدّائمة الباقية، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ إذ لا موجودَ يُدانيه في ذاتِه ولا في صفاته ولا في أفعاله؛ فاعبدوه عبادةً خالصة لوجهه الكريم، وأطيعوه طاعةً لا مكان معها للتَّردُّدِ أو التّكاسل، حالةَ كونكم قائلين: الحمد للّه ربِّ العالمين[1]. فالحمدُ من مُقتضَيات العبادةِ الحقَّة.

## ۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

الحياةُ الكاملةُ لـه إثبـاتُ الألوهيَّة بربوبيَّة الخالق المدبّر

قوله: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ استئنافٌ للارتقاءِ في إثبات ألوهيَّةِ الحقِّ سبحانه بإثبات ما يناسبها وهو الحياة الكاملة، فقوله: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ﴾ بيانٌ لجملة ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ إذ استحقَّ الرّبوبيَّةَ لأنّه هو خالقُ الحياة سبحانه. فأثبت الحياةَ الواجبة لذاته سبحانه؛ فـ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الَّذي أوجدهم على أكملِ الأحوال، وأمدّهم بما به قوامُهم على مرِّ الأزمان، لا جرمَ أنّه موصوفٌ بالحياة الحقّ؛ لأنَّ مدبّر المخلوقات على طول العصور يجبُ أن يكون موصوفًا بالحياة[2].

### نكتةُ العدول عن الاسم الظّاهر إلى الضّمير في قوله: ﴿هُوَ﴾:

تأكيدُ الحياة الأبديَّة لله وحده دلالةٌ على تفرُّد الألوهيَّة

في قوله: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ﴾؛ عدل عن الاسم الظّاهر إلى ضمير الشَّأن؛ لإفادة أن الأمر المذكور فيها عظيمُ الشّأن. وقوله: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ﴾ قصرٌ ادّعائيٌّ لعدم الاعتداد بحياة ما سواه من الأحياء؛ لأنّها عارضةٌ ومعرَّضةٌ للفناء والزّوال[3].

### معنى (أل) في ﴿ٱلۡحَيُّ﴾:

الحياةُ الأزليَّة لله وحده

الحياةُ في قوله: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ﴾ هي الحياة الحقيقيَّة؛ لأنّها غير

(1) طنطاوي، الوسيط: 1/ 3715.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 192.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 193، وابن عادل، اللُّباب: 1/ 4415.

معرّضة للنّقص ولا للزّوال، فلذلك كان الحيُّ حقيقةً هو الله تعالى كما أنبأت عنه صيغةُ الحصر في قوله: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ﴾، بالقصر بـ(أل) التّعريف؛ إذ قصَرَ الحياةَ الدّائمة الأزليَّة عليه سبحانه، فهو الحيّ وحده، وهو خالقُ الحياة وحده سبحانه؛ فدلّ التّعريف بـ(أل) على الكمال، وهو كمال الحياة الّتي لا تصلح أن تكون وصفًا حقيقيًا إلّا للّه وحده سبحانه.

**الموقعُ النّحويُّ لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:**

الحياةُ الأبديَّة والربوبيَّة المطلقة هي لله وحده

جملةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في محلٍّ رفعٍ خبرٌ ثانٍ للمبتدأ (هو)، فموقعُ قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ موقعُ النّتيجة من الدّليل؛ لأنَّ كلَّ مَن سواه لا حياةَ له واجبة، فهو مُعرَّضٌ للزَّوال، فمن كانت حياتُه زائلةً فكيف يكون إلهًا مدبِّرًا للعالم؟! قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠﴾ [النّحل: 20]؛ أي: لا يستطيع أحدُهم التّصرّفَ بالإيجاد والإحياء؛ ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١﴾ [النّحل: 21]؛ فجعل نفيَ الحياة عنهم في الحالِ أو في المآلِ دلالةً على انتفاء ألوهيَّتهم، وجعَلَ نفيَ إدراك بعض المُدرَكات عنهم دلالةً على انتفاء ألوهيَّتهم[1]. ولا زال العلماءُ إلى اليوم لا يعرفون كيف نشأ الحيُّ من غير الحيِّ! ولم يفهموا كيف وُجدت الحياة أصلًا! فأنّى لهم أن يَخلُقوا حياةً أو خليَّةً حيَّة؟!، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾ [سبأ: 52].

**معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَٱدْعُوهُ﴾:**

دعـوةٌ للعبادة الخالصة لله وحده

(الفاء) في ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ استئنافيَّةٌ تفريعيَّةٌ لربطِ المسبَّب بالسّبب؛ فبعد اتّضاح الدّلالة على انفراده تعالى بالإلهيَّة فرَّعَ عليه الأمرَ[2] بدعائِهِ وعبادته وحده لا شريك له؛ لِما عُلِمَ من تفرُّدِهِ وحده لاستحقاق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 193.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 193.

العبادة. أو هي فصيحةٌ واقعةٌ في جوابِ شرطٍ مقدَّر، تقديره: (إذا أيقنتُم بوحدانيَّته وتفرُّدِهِ بالرُّبوبيَّة فادعوه مخلصين).

**دلالةُ الأمرِ ﴿فَٱدۡعُوهُ﴾:**

الدّعاءُ والاستجابةُ توجيهٌ إلهيٌّ للعبادة والإيمان

الأمرُ بقوله: ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۖ﴾ مفرّعٌ عن توبيخ المشركين بقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ [غافر: 12]، وعلى قوله عقب ذلك: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [غافر: 13][1]، وقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ فقد خرج الدّعاء هُنا إلى معنًى مجازيٍّ هو الإرشاد؛ إذ أرشَدَ إلى أنّه قريب منّا، يسمع دعاءَنا[2]. وفيه كذلك معنى التّشويق إلى كلِّ خيرٍ يمكنُ أن يصيبَ الإنسان وهو يدعو ربَّه بعد أنْ أشار إليه بالاستجابة إلى دعائه وترغيبه بذلك. فالدّعاءُ هنا هو الطّلب والرّغبة، وهذا وعدٌ مقيَّدٌ بالمشيئة، وهي موافقةُ القدر لمن أراد أن يستجيب له[3].

**بلاغةُ المجازِ في الأمرِ بالدُّعاء:**

الدّعاءُ جزءُ العبادة؛ وهي نداءُ تعظيمِ الباري والتّضرّع إليه

قال: ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ﴾؛ آمِرًا بالدّعاء؛ والدّعاء يطلق على سؤال النّاس حاجاتِهم من اللّه، ويطلق على عبادة اللّه على طريق الكناية؛ لأنّ العبادة لا تخلو من دعاء المعبود بنداء تعظيمه والتّضرّع إليه، ويراد بالعبادة في اصطلاح القرآن إفرادُ اللّه بالعبادة والاعتراف بوحدانيّته[4]؛ إذ أتبع كلمة التّوحيد بالدّعاء.

أمّا المجازُ في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ﴾ فهو مجازٌ مرسلٌ علاقته السَّببيّة، لأنّ الدّعاء سبب العبادة[5]. والدّعاء مُتضمَّن في العبادة، فتكون علاقةُ المجاز المرسل الجزئيَّةَ، لأنّ الدّعاء جزءٌ من العبادة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 181.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 181.
(3) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 234.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 182.
(5) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 24/ 265.

### نكتةُ العدولِ عن الأمر بالعبادةِ إلى الأمر بالدُّعاء:

الدّعاءُ عنوانُ الإخلاص والخضوع لله سبحانه

في قولِه: ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ﴾ عدَلَ عن الأمرِ بالعبادة إلى الأمر بالدُّعاء؛ لأنَّ الدّعاء يلازمُ السّؤالَ والنِّداءَ في أوَّلِه وفي أثنائه غالبًا، والدُّعاءُ عنوانُ انكسارِ النّفس وخضوعها[1]. والدُّعاءُ مَدْعاةُ قربٍ من اللّه سبحانه وتضرُّعٍ إليه، وتفعيلِ الإيمان.

### الموقعُ النّحويّ لقوله: ﴿مُخۡلِصِينَ﴾:

التّوحيدُ وإخلاص العبادة لله وحده حالُ كلِّ مؤمنٍ حقّ

﴿مُخۡلِصِينَ﴾ في قوله سبحانه: ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ حالٌ من فاعل (ادعوا) منصوبةٌ، و﴿لَهُ﴾ متعلّق بـ﴿مُخۡلِصِينَ﴾، و﴿ٱلدِّينَۗ﴾ مفعول به لاسم الفاعل ﴿مُخۡلِصِينَ﴾، والإخلاص: الإفرادُ وتصفيةُ الشّيء ممّا يُنافيه أو يُفسِدُه[2].

وفي التَّقييدِ بالحالِ دلالةٌ على أنَّ الدُّعاءَ والعبادة المقبولَين إنَّما هما اللَّذانِ يلازمُهما الإخلاص؛ إذ الحالُ قيدٌ وشرطٌ في عاملها، فكأنَّ اللّه يقول: لن أتقبَّلَ منكم دعاءً ولا عبادةً إلّا إذا أخلصتُم لي فيهما.

### معنى اللّام في ﴿لَهُ﴾:

المختصُّ بالعبادة والمستحقُّ لإخلاصِها له هو الله وحده

معنى اللّام في قوله: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ الاختصاصُ بالملكيَّة، ويجوز أنّ يكون معناها الاستحقاقَ[3]، فهو تعالى المختصُّ وحده بالعبادة، والمستحقُّ الأوحدُ للإخلاصِ فيها.

### نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿لَهُ﴾:

تقديمُ القيدِ ﴿لَهُ﴾ المتعلِّقِ بـ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ على مفعول ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ للاهتمام؛ لأنّه الأهمُّ في هذا المقام، ولاختصاصِه بهذا الإخلاص؛ فلا أحدَ يستحقُّ هذا الإخلاصَ في عبادته إلّا هو سبحانه لا شريك له.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 193.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 193.

(3) سيبويه، الكتاب: 2/ 304.

### معنى (أل) في ﴿ٱلدِّينَۗ﴾:

إخلاصُ الدّين للهِ يكون بكمال التّوحيد

(أل) التَّعريف في قوله: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ للعهد الذِّهنيِّ؛ أي: الدّينَ المعهودَ الكاملَ الَّذي أمَرَ به اللّه اللّه ﷻ، وفيها دلالةٌ على الكمال، فهو الدّينُ الكامل بالتّوحيد، والإخلاص يكون للّه وحده لا شريك له.

### نكتةُ فصل قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

الثَّناءُ على الله تعالى استحقاقٌ يوجِبُهُ إخلاصُ العبادة له

قولُه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إنشاءٌ للثّناء على اللّه؛ إذ يجوز أن تكون متَّصلةً بفعلِ ﴿فَٱدۡعُوهُ﴾ على تقديرِ قولٍ محذوفٍ؛ أي: قائلين: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أو قولوا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقرينةُ المحذوف هو أنَّ مثلَ هذه الجملة ممّا يجري على ألْسِنَةِ النّاس كثيرًا، فصارت كالمَثَلِ في إنشاء الثّناء على اللّه. والمعنى: فاعبدوه بالعمل وبالثّناء عليه وشكره. ويجوزُ أن تكون كلامًا مستأنفًا أُريدَ به إنشاءُ الثّناء على اللّه من نفسه تعليمًا للنّاس كيف يحمدونه[1].

### معنى (أل) في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾:

حمدُ الله تعالى على نعمه وأفضاله لا يعادلُه حمد

التّعريفُ بـ(أل) في ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ لفائدة الاستغراق؛ وعلى ذلك المعنى فإنَّ مَن حمد غير اللّه تعالى لا يعتبر قد صرف أمرًا خاصًّا باللّه تعالى لغيره؛ لأنَّ حَمْدَ اللّه على نعمه لا يعادله حمد؛ لأنّ نعم اللّه على النّاس لا تُحصى، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النّحل: 18].

### دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

دلالــةُ كلمةِ الحمد على الشُّكر والتَّمجيد

معنى لفظ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾: الثّناء والشّكر والتّمجيد. وهي بصيغة المصدر دلّت على الشّعور العميق بالامتنان والثّناء للّه على نعمةٍ أو فضل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 194.

### فائدةُ الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾:

الاسمُ الأعظم جامعٌ لمعاني الأسماء الحسنى لذاته سبحانه

في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ أظهَرَ في موضع الإضمار؛ إشارةً إلى أنّ له من الصّفات العليّة ما لا ينحصر، و﴿لِلَّهِ﴾؛ أي: المسمّى بهذا الاسم الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى لذاته[1].

### معنى اللّام في ﴿لِلَّهِ﴾:

الإيمانُ والهداية للتّوحيد نعمتان تستحقّان الحمدَ لله

اللّام في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ هي لامُ المُلك والاستحقاق، فـ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على نعمةِ الإيمان والهداية للتّوحيد لا يصلحُ أن يكون إلّا للّه سبحانه؛ إذ سبقت الحمدَ كلمةُ التّوحيد، فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

### غرضُ التّعبير بالجملة الاسميّة:

استمرارُ الحمد في الدُّنيا والآخرة

شبهُ الجملة ﴿لِلَّهِ﴾ متعلّق بخبر المبتدأ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾، وجملةُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ لا محلّ لها استئنافيّةٌ، أو في محلّ نصبٍ مقولُ القولِ المقدَّرِ. ومجيئُها جملةً اسميَّةً ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ أفادَ الاستمراريَّة والثّبات، فلله الحمد أوّلًا وآخرًا، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [القصص: 70]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ١٨﴾ [الرّوم: 18].

### فائدةُ الجملة الخبريَّة:

العِلمُ بربوبيَّة الله تعالى للعالَمين علمٌ بالفطرة

الجملةُ الخبريّة في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تُحَقِّقُ لازمَ الفائدة؛ لأنّ المخاطبَ عالمٌ بمضمون هذا الخبر؛ ولأنّ الإنسان يعلمُ بالفطرة أنّ اللّه هو ربُّ العالمين، وأنّه هو الأحقُّ بالحمد؛ لأنّه هو الخالق سبحانه، القيّوم المهيمن على أمورِ الحياة كلِّها[2].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 533.
(2) ابن عادل، اللُّباب: 1/ 4415.

### نكتةُ تكرار وصفه بـ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

تفسير شموليَّة الرّبوبيَّة في خلق الله

تكرّرت عبارة ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ للمرّة الثّالثة؛ فقد ذكَرها في هذه الآيةِ، والآيةِ الَّتي قبلها، والآيةِ الثّانية والسِّتّينَ من هذه السّورة؛ وذلك لتوكيد قضيَّةِ العالمين الَّتي هي مجموع (عالَم)، وتأتي كلمة ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ من الجذر (علم)، وتعني: (المخلوقاتِ) أو (الأكوانَ)، وتُستخدم للإشارة إلى كلّ ما في الكون من مخلوقات وجمادات، وهذا يشمل البشرَ، والحيواناتِ، والنّباتَ، والكواكبَ، وكلَّ ما هو موجودٌ في الكون. فقوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يعني: ربَّ كلِّ شيءٍ في الوجود. ويدخل في العالمين الإنسُ والجنُّ والملائكة وكلُّ ما خلق الله تعالى من الأمم والمخلوقات.

ولمّا كان هذا الوجودُ على ما هو عليه من النّظام دالًّا دلالةً قطعيّة على الحمد قال واصفًا بما هو كالعلّة للعلم بمضمون الخبر: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: الَّذي ربّاهم هذه التّربيةَ؛ فإنّه لا يكون إلّا كذلك. وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: مَن قال ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ فليقلْ على أثرها: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

## الفُروقُ المُعجَميَّة:

### الدّين والملّة:

الفرقُ بين الملّة والدّين دلالاتٌ شرعيَّةٌ واعتقاديَّة

الملَّةُ: اسمٌ لجملة الشَّريعَة، والدّين: اسم لما عَلَيْهِ كلُّ واحِد من أهلها؛ ألا ترى أنّه يُقال: فلانٌ حَسَنُ الدّين، ولا يُقال: حَسَنُ الملَّة؛ وإنَّما يُقال: هوَ من أهل الملَّة، ويُقال لخلاف الذِّمّيّ: المِلّيُّ نسبةً إلى جملة الشَّريعَة، فلا يُقال لَهُ: دينيّ؛ لِأَنَّ الملَّة اسمٌ للشّرائع مَعَ الإقرار بِاللّه. والدّين: ما يذهب إليه الإنسان، ويعتقد أنّه يقرِّبُهُ إِلَى اللّه، وإن لم يكن فيهِ شرائعُ، مثل: (دين أهل الشّرك). وكلُّ مِلَّةٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 533.

دين، ولَيْسَ كلُّ دينٍ مِلَّةً، واليهوديّة مِلَّةٌ؛ لِأنّ فيها شرائعَ، ولَيْسَ الشّركُ مِلَّة، وإذا أُطلِقَ الدّين فَهوَ الطّاعَة العامَّة الَّتي يُجازى عَلَيْهِ بالثّواب، مثل قَوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19](1).

وقد أُطلِقَتْ هنا لفظةُ ﴿ٱلدِّينَۗ﴾ في سياقِ الإخلاصِ الجليِّ والخفيِّ من كلِّ شرك، والطّاعةِ العامَّةِ؛ لتناسبَ معناها اللُّغويَّ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 220.

﴿۞قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٦﴾ [غافر: 66]

## مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

خلاصةُ الحِجاجِ تقريرُ الوحدانيَّة وتحقيقُ الإيمان بالله

جاءت هذه الآية الكريمة لتُمَثِّلَ خلاصةَ ما تقدَّمَ من الحِجاج، وما تقدّم ممّا ينبغي أن يستفاد منه في رسوخ الإيمان بالله تعالى والإسلام له سبحانه، فجاء ذلك على لسان رسول الله ﷺ مخاطبًا به النّاسَ جميعًا. فقوله: ﴿۞قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ "جملةٌ معترضةٌ بين أدلّة الوحدانيّة بدلالة الآيات الكونيّة والنّفسيّة؛ ليَجروا على مقتضاها في أنفسهم؛ بأن يعبدوا الله وحده، فانتقَلَ إلى تقريرِ دليل الوحدانيّة بخبرِ الوحي الإلهيّ؛ بإبطال عبادة غير الله على لسان رسوله ﷺ؛ ليَعمَلَ بذلك في نفسه، ويُبلِّغَ ذلك إليهم فيعلموا أنّه حكمُ الله فيهم"[(1)].

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾: جذر الكلمة هو (بين)؛ يقال: بانَ واسْتَبانَ وتَبَيَّنَ، والبَيان: الكشف عن الشّيء، قال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [النحل: 39]، وقوله: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ﴾ [البقرة: 185]. والبَيِّنَة: الدّلالة الواضحة عقليَّةً كانت أو محسوسةً، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: 17]، وسُمّي الكلام بيانًا لكشفه عن المعنى المقصود إظهارُه نحو: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 138][(2)].

## المَعنى الإجماليُّ:

لقَّنَ الله تعالى نبيَّهُ ﷺ الرَّدّ الذي يوبّخ به المشركين؛ إذ يقول

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 195.
(2) الراغب، المفردات: (بين).

رفض عبادةِ الأوثان وتأكيدُ التّوحيد

تعالى لنبيِّه: قلْ - يا محمَّدُ - لهؤلاء المشركين بربّهم من قومِك، العادلين به الأوثانَ والأنداد، الَّذين يطلبون منك مشاركتَهم في عبادة آلهتهم وأوثانهم: إنّ الله ربّي وربَّكم وخالقي وخالقَكم ومالكَ أمورنا نهاني أن أعبدَ الَّذين تدعون من دونه، فلن أتَّبِعَكم على ما تدعونني إليه من ذلك، ولا أوافقُكم عليه، ولا أعطيكم محبَّتَكم وهواكم فيه. وإن فعلتُ ذلك فقد تركتُ محجَّة الحقِّ، وسلكتُ على غير الهدى، فصرتُ ضالًّا مثلَكم على غير استقامة[1]. والسَّببُ في ذلك: أنّ كلّ الدّلائل والبراهين الّتي أكرمني الله بها - وهي دلائل التّوحيد - تشهدُ وتصرِّحُ بأنّ المستحقَّ للعبادة هو الله تعالى وحده. وإنّي بعدَ أن نهاني ربّي عن عبادة غيره أمَرَني بأنْ أُسلِمَ وجهي إليه بالعبادة والطاعة؛ إذ هو وحده ربُّ العالمين ومالكُ أمرهم[2].

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### نكتةُ فصل الآيةِ عن سابقتها:

إخلاص العبادة لله تعالى طرحٌ لِما دونَهُ من معبوداتٍ باطلة

فُصِلَتْ جملةُ ﴿۞قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عن سابقتِها ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾؛ لأنَّ الجملتين متَّفقتان في الإنشاءِ الطَّلبيِّ، ولأنّ الجملةَ الثّانيةَ مؤكِّدةٌ للجملة الأولى، وهذا ما يسمّيه البلاغيّون كمالَ الاتّصال بين الجملتين، ممّا اقتضى الفصلَ بينهما.

### دلالةُ الأمر بـ﴿۞قُلۡ﴾:

عبادةُ غير الله فعلٌ خطيرٌ يوجبُ التّحذير

قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ أمرٌ للنّبيِّ ﷺ بأن يصرِّحَ ويُعلِنَ طرحَهُ لعبادةِ الأوثانِ برسالةٍ من عند الله؛ إبطالًا لعبادة غير الله بالقول الدّالِّ على التّحذير والتّخويف، بعدَ أن أبطَلَ ذلك بدلالةِ الحُجَّة على المقصود. وهذه دلالةٌ كنائيّة؛ لأنّ النّهيَ يستلزم التّحذيرَ[3].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/ 356 - 357.

(2) طنطاوي، الوسيط: 1/ 3715 - 3716.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 195.

السّيرُ على نهج الحقّ في الإيمان والتّوحيد

### بيانُ المخاطَبِ بالأمر:

المخاطَبُ بالأمر في قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ هو رسول الله ﷺ، ويأتي من بعده جميعُ أُمَّتِه السّائرةِ على النّهج الحقّ في الإيمان والتّوحيد.

الإخلالُ بالعبادة يَستوجِبُ التّنبية لخطورة شأنه

### فائدةُ تتابُعِ المؤكِّدات:

أفادَ حشدُ المؤكِّدات (إنّ)، و(الجملةِ الاسميّة)، و(المصدرِ المؤوّل) في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ تعزيزَ المعنى وتقويتَهُ، وتأكيدَ النّهي عن عبادة غير الله تعالى؛ فشأنُ العبادة خطيرٌ يوجبُ التّوكيدَ طلبًا لشدَّةِ التّنبيه.

تنزُّه سيرةِ النّبيّ ﷺ عن عبادة الأصنام

### نكتةُ تقديمِ المسند إليه على المسند الفعليّ:

في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تقدَّمَ المسندُ إليه - وهو ضميرُ ﴿إِنِّي﴾ - على الخبرِ الفعليِّ؛ لتقويةِ الحكم، ولتخصيصِ ذاتِه ﷺ بهذا النّهيِ دونَ تشريكِهم في ذلك الغرضِ الّذي تقدّم، مع العلم بأنّهم منهيّون عن ذلك؛ وإلّا فلا فائدةَ لهم في إبلاغ هذا القول، فكان الرّسول ﷺ من حين نشأتِه لم يسجدْ لصنم قطّ، وكان ذلك مصرفةً من الله تعالى إيّاه عن ذلك إلهامًا إلهيًّا إرهاصًا لنبوّته[1].

التّعريضُ بالمشركينِ للتّفكُّر في عبادتهم

### غرضُ إسنادِ النّهي إلى الرّسول:

في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وقَعَ النَّهيُ له ﷺ لمّا جاءه الوحيُ والهدي من ربِّه تعالى[2]، والمقصودُ مِن إسناد النَّهي إلى الرّسول ﷺ التّعريضُ بنهي المشركين، فالقصدُ من ذلك الأمرِ التّبليغُ لهم، والمعنى: فإذا كنتُ أنا منهيًّا عن ذلك فتأمَّلوا في شأنكم واستعملوا أنظارَكم فيه[3]. وهو في الوقت ذاته

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 195 - 196.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 568.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 196.

تعليمٌ للَّذين يدعون إلى اللّه أنْ يقولوا مثلَ ذلك؛ ليكونَ أسلوبًا ومنهجًا في حِجاج المشركين.

**نكتةُ بناءِ الفعل ﴿نُهِيتُ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعلُه:**

تعظيمُ النَّهي الإلهيِّ وشدَّةُ الاهتمام به

بُني الفعلُ ﴿نُهِيتُ﴾ للنّائبِ للتّعظيم؛ لظهورِ أنّ النّاهي هو اللّه تعالى؛ بقرينة مقام التّبليغ والرّسالة[1]. ونُكتة ذلك تعظيمُ مصدر النّهي؛ والإشعارُ بأنّ الأمر عظيمٌ يقتضي شديدَ الاهتمام. ومعنى ﴿نُهِيتُ﴾: ممّن لا ناهيَ غيرُه - وهو (اللّه) - نهيًا عامًّا ببراهينِ العقل، ونهيًا خاصًّا بأدلَّةِ النّقل[2]؛ أي: صُرِفْتُ وزُجِرْتُ بأدلَّةِ العقل والسّمع عن عبادةِ ما تعبدون من دون اللّه[3].

**دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدر المؤوَّلِ ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ﴾:**

للتَّوحيد أثرٌ بَهيّ في السَّعادةِ والرُّقيّ

دلَّ المصدر المؤوَّلُ ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ﴾ على الاستقبال، فمِن شأن النّاصب أن يُخلِّصَ المضارعَ للاستقبالِ[4]. فمَن جاءتْهُ الرّسالةُ فعليه أن يؤمنَ باللّه وحده، وأنْ لا يعبدَ إلّا اللّه، ومَن أعرَضَ فعبَدَ من دون اللّه ما لا يضرُّ ولا ينفع فإنّما هو من المشركين. فلا بدَّ أنْ يتطلَّعَ النّاسُ إلى مستقبلِ حياتهم على أن تكون مضمونةً بالتّوحيد والاستعانة باللّه وحده، وهذا سرٌّ عظيمٌ من أسرار السّعادة والتّوفيق والرُّقيِّ.

**غرضُ التّعبيرِ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلتِه:**

الَّذين يعبدون الأصنام محلُّ استهجان

التّعبيرُ بالاسم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ للتَّعريف بآلهتِهمُ الَّتي يعبدونها من دون اللّه، أو يدعونها طلبًا للرّزق والعون، حيث أهَّلوهم لأعلى المقامات، فعبَّر عنهم إرخاءً للعنان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 196.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 534.
(3) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/ 508.
(4) المُبرّد، المقتضب: 2/ 11، والسّيوطي، الهمع: 2/ 6.

بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾[1]، فجاء هذا الأسلوبُ استهجانًا للتّصريح بأسمائهم؛ فضلًا عن إرادة عموم ما يدعون؛ ممّن يدعونهم آلهةً من دون اللّه لا يملكون لهم رزقًا ولا نفعًا.

و﴿ٱلَّذِينَ﴾ لجماعة العقلاء، وقد يُستعمل لِما يُنزَّلُ منزلةَ العقلاء كما في هذا الآية؛ إذ أُنزِلَ الأصنام منزلةَ العقلاء. وفيه تعريضٌ بالكافرينَ؛ إذ أنزَلوا ما لا يَعقِلُ منزلةَ العاقل.

**بلاغةُ المجازِ في التّعبير عن العبادةِ بالدُّعاء:**

العلاقةُ بين الدُّعاء والعبادة سببيَّة

الدّعاء: النّداءُ، وطلبُ الخير، أو دفع الضّرّ من الأعلى، وإنّما يكون عبادةً إذا كان في أمرٍ وراءَ الأسباب المسخّرة للعباد الَّتي ينالونها بكسبِهم لها واجتهادهم فيها وتعاونهم عليها، فإنَّ ما نعجزُ عن نيله بالأسباب المسخَّرة لنا لا نطلبه إلّا من الخالقِ المُسخِّر للأسباب[2]. ومن هنا فمعنى الدّعاء في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ يجوزُ أن يكون على ظاهر الدّعاء، وهو القول الَّذي تسأل به حاجةً، ويجوز أن يكون بمعنى (تعبدون) كما تقدَّمَ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾، فيكون العدولُ عن أن يقول: (أن أعبُدَ الذّينَ تعبدون) تفنُّنًا[3]. وفيه مجازٌ مرسلٌ علاقته السَّببيَّة، لأنَّ الدّعاء سببُ العبادة[4]. ويمكن أن تكون العلاقةُ الجزئيَّةَ؛ لأنّه يكون مُضمَّنًا في عبادةٍ وجزءًا منها.

**نكتةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿تَدۡعُونَ﴾:**

المؤمنون لا ينفكّون عن الدُّعاء والعبادة

يفيدُ المضارعُ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الدّلالةَ على الحال والاستقبال مع التَّجدُّدِ والاستمرار، فيكونُ الخطابُ مستمرًّا إلى قيام السّاعة؛ ليشملَ جميع أولئك الَّذين يدعون من دون اللّه.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 534.

(2) رشيد رضا، المنار: 7/ 378.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 196.

(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 24/ 265.

### نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿تَدۡعُونَ﴾:

حُذِفَ مفعولُ ﴿تَدۡعُونَ﴾ في قوله: ﴿نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وهو العائدُ على الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ونكتةُ الحذفِ شمولُ كلِّ دعوةٍ من دون الله مهما كانت؛ لأنَّ التَّوجُّهَ للدّعاء إلى غير الله شركٌ، ثمَّ ما يتبعُ الدّعاءَ من العبادة والرّكوع والسّجود لغير الله. وهناك نكتةٌ أُخرى للحذف، وهي تحقيرُ آلهتهم الَّتي يعبدونها من دون الله وتسفيلُها؛ إذ تعالى النَّظمُ الكريمُ عن أنْ يُكرِّرَ ذكرَها لدناءَتِها وحقارتِها.

توسيعُ مفهومِ الشّركِ والعبادة

### معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ صلةٌ للتّوكيد؛ لتستغرقَ كلَّ موجود، فلا تهاوُنَ في التّوحيد ولا مُسامحةَ في الإشراك بالله، قال تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾ [الحج: 31].

لا مسامحةَ ولا عفوَ في الإشراكِ باللهِ وعبادةِ أحدٍ سواه

وعلى القولِ الرّاجحِ تكونُ ﴿مِن﴾ حرفَ جرٍّ أصليًّا، والجارُّ والمجرور متعلِّقان بمحذوفِ حالٍ من العائدِ المقدَّر، وهو مفعول ﴿تَدۡعُونَ﴾، والتَّقدير: (نُهيتُ أنْ أعبدَ الَّذين تدعونهم معبودين مِن دون الله)، وفي ذلك تحقيرٌ لهم وحَطٌّ من شأنهم؛ بوَصْفِهم بالدّون، وفيه ما فيه من الاستهزاءِ بهم.

### معنى الدّونيّة، ونوعُ الإضافةِ فيها:

قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ معناه: من غير الله، وتُستعمَلُ للإشارةِ إلى غير الله في العبادة والخضوع، فهذا هو الكفر بالله بعبادة غيره؛ لأنّه ليس محلًّا للعبادة أو الاستعانة، فالله وحده هو الرَّبُّ والإله الَّذي يُعبد.

الكفرُ بالله هو عبادةُ غيره والخضوعُ له

وفي سياقِ الآيات القرآنيَّةِ تأتي هذه العبارةُ للإشارة إلى عبادةٍ أو استعانةٍ بغير الله، كالأصنام أو المخلوقات، وهو ما يُعتبَرُ شركًا

باللّه، وتعني كذلك: كلَّ ما هو خارجٌ عن نطاق التّوحيد، سواءٌ أكانت تلك المعبوداتُ آلهةً أم شياطينَ، أم أيَّ مخلوق يُعبَدُ أو يُتَّخذُ شريكًا للّه. وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إضافةٌ حقيقيَّةٌ؛ إذ دلَّ على سفولهم بقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1].

### معنى ﴿لَمَّا﴾:

اقترانُ النَّهي بمجيءِ البيّنات

﴿لَمَّا﴾ كلمةٌ تفيدُ اقترانَ مضمونِ جملتين تشبهان جملتَي الشّرطِ والجزاء؛ إذ اقترَنَ هنا النّهيُ عن عبادة غير اللّه بمجيءِ البيّنات، ولذلك تسمّى (لمّا) التّوقيتيَّةَ، وحصول ذلك في الزّمن الماضي، فقوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ توقيتٌ لنَهْيِه عن عبادة غير اللّه بوقتِ مجيء البيّنات؛ أي: بيّناتِ الوحي فيما مضى، وهو يقتضي أنَّ النّهيَ لم يكن قبلَ وقتِ مجيءِ البيّنات[2].

### نكتةُ تذكيرِ فعل المجيء مع ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾:

المقصودُ ببيّناتِ القرآنِ الأوامرُ والنّواهي

التَّذكير والتّأنيث في قوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ يعتمدان على السّياق لبيانِ دقّة المعنى، فيؤنّثُ إذا كان المرادُ بالبيِّناتِ الآياتِ الدّالَّةَ على صدق النّبوّات، ويُذكَّرُ إذا جاءت في سياق الأمر والنّهي؛ أي: من بعدِما نُهوا عن عبادة غير اللّه. فالبيِّناتُ هنا تأتي بمعنى الدّين بما فيه من الأوامر والنّواهي، وهي دائمًا تأتي في سياق الحديث عن الرّسول وأمَّته؛ لأنّ الرّسول ﷺ آتاه اللّه القرآنَ المتضمِّنَ للتّشريع من الأوامر والنّواهي، فقال: ﴿جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ بالتّذكير.

### نكتةُ الإتيانِ بالمجيء ماضيًا:

اكتمالُ التَّشريع بما يحقِّقَ الإعجاز

عُبّرَ بالماضي (جاء) في قوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ للدَّلالةِ على تحقُّقِ مجيءِ الدّين واكتمالِه بأوامره ونواهيه؛ ممّا نزَلَ على محمَّد ﷺ؛ إذ تضمّن التّشريع ما هو بمثابة المعجزات الّتي لا يأتي بمثلِها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 534.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 196.

البشرُ، وإنْ اجتمعوا وكان بعضهم لبعض ظهيرًا، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ [الإسراء: 88].

### معنى (أل) في ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾:

جميعُ الأوامرِ والنّواهي في الإسلام من البيّنات

دلَّتْ (أل) في لفظةِ البيّنات في قوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ على العموم والشّمول، فالبيّنات الَّتي هي الأوامرُ والنّواهي في الإسلام دلَّتْ جميعُها على الإيمان باللّه وحده وعبادته ودعائِه وسؤالِه، والكفرِ بما سوى ذلك من الآلهة الَّتي أشركوا بها فكانوا يدعونها ويعبدونها. وقولُه: ﴿جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾؛ أي: الآياتُ المؤيِّدةُ لأدلَّةِ العقل المنبِّهةُ عليها؛ فإنَّ الآياتِ التّنزيليَّةَ مُفسِّراتٌ للآيات التّكوينيّة الآفاقيّة والأنفُسيَّة[1].

### بلاغةُ المجاز في إسنادِ المجيء إلى ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾:

البيّناتُ أفعالُ اللّه سبحانه وأقوالُه

في قوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ إذ أسنَدَ المجيءَ إلى غير فاعله ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، والَّذي جاءَ بالبيِّناتِ حقيقةً هو اللّه ﷻ، أنزَلَها على رسول اللّه ﷺ، وعلاقةُ هذا المجازِ السَّببيَّة؛ لأنَّ اللّه هو الَّذي أمر بمجيئِها.

### معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن رَّبِّي﴾:

صدورُ الآياتِ ومبتدؤُها من اللّه سبحانه

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ للابتداء؛ فمصدرُ الآيات ومُبتدَؤُها كلّها من اللّه تعالى، وهي أفعالٌ من أفعاله سبحانه.

### غرضُ التَّعبيرِ بلفظِ الرّبوبيّة وإضافتِه إلى ضمير المتكلِّم:

تربيةُ الرُّسلِ ربّانيَّةٌ تناسبُ علوَّ مقامِهم

قوله تعالى: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ جاءَ على لسانِ رسولِ اللّه ﷺ، فهو المتكلِّمُ، ولذلك عبّرَ بقوله: ﴿مِن رَّبِّي﴾؛ أي: المُربّي لي تربيةً خاصَّةً هي أعلى من تربيةِ كلِّ مخلوقٍ سواي[2].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 336.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 534.

وفي التَّصريحِ بلفظِ ﴿رَّبِّي﴾ إظهارٌ في مقام الإضمارِ على خلاف مقتضى الظّاهر؛ تربيةً للمهابة في نفوس المعرَّض بهم؛ ليعلموا أنّ هذا النّهيَ ومجيءَ البيّنات هو من جانب سيِّدِه وسيِّدهم، فما يَسَعُهم إلّا أنْ يطيعوه، ولذلك عزَّزَهُ بإضافة الرَّبِّ إلى الجميع في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: ربِّكم وربِّ غيركم، فلا مُنصرَفَ لكم عن طاعته[1].

وعمومًا؛ فإنَّ التَّعبير بلفظ الرّبوبيّة اقتضاه ما ذُكر من الآيات البيّنات في الخلق والتّقدير، فالرّبوبيّةُ حقيقتُها: أن تؤمنَ بأفعالِ اللّه مثلِ الخلق، والرّزق، والإحياء والإماتة، ونحو ذلك، وهذا ما تعرَّضَتْ له الآياتُ السّابقة، فذكرتْ خلقَ الأرض والسّماء، وأنَّهما قرارٌ للحياةِ عامَّةً وللنّاس خاصَّةً.

### الموقعُ النّحويُّ لقوله: ﴿مِن رَّبِّي﴾:

إلهيَّةُ البيِّناتِ توجِبُ العملَ بها

قوله: ﴿مِن رَّبِّي﴾ متعلِّقٌ بحالٍ محذوفةٍ من ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾؛ أي: إنَّ تلك البيّناتِ مصدرُها من اللّه ربّي وربّ النّاس جميعًا، فما عليّ إلّا الإيمانُ باللّه والعملُ بما جاءني من البيّنات والهدى.

### توجيهُ العطفِ بالواو في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ﴾:

الإيمانُ باللّه والانقيادُ لشرعه من الواجبات

الواوُ في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ﴾ واوُ العطف، وقد وصَلَ بين هذه الجملة والّتي سبقتها؛ لأنَّ الجملتين خبريَّتان، فحقّقَ هذا الوصلُ الاتِّصالَ بينَهما؛ لأنَّ المقصودَ إشراكُ الثّانية في حكم الأولى، ومن حيث المعنى تصبُّ كلتا الجملتين في غرضٍ واحد هو النَّهيُ عن عبادةِ غيره والأمرُ بعبادته سبحانه، فالنَّهيُ عن عبادة ما يدعون من دون اللّهِ مآلُهُ الأمرُ بوجوب الانقيادِ للّه ربّ العالمين.

### نكتةُ بناء فعلِ الأمر لِما لم يُسمّ فاعلُه:

في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ﴾ جاء فعلُ الأمر لِما لم يُسمَّ فاعلُه، وذلك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 196.

إخفاءُ الفاعل لتعظيم الآمر

لتعظيمِ الآمر، فالآمرُ معروفٌ وهو اللّٰه تعالى، وأُخفيَ ذكرُهُ تعظيمًا لشأنه سبحانه، ولأنّه ذكر قبله: ﴿مِن رَّبِّي﴾، فأخفى التَّصريح بالآمرِ لوجود ما يدلُّ عليه.

### بلاغةُ الطِّباق بينَ ﴿نُهِيتُ﴾ و(أُمرت):

في النَّهي والأمر شمولٌ لتشريعات الإسلام

دلّ طباقُ الإيجابِ بين كلمتي ﴿نُهِيتُ﴾ و(أُمِرْتُ) في قوله: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ ﴿وَأُمِرْتُ﴾ على شمولِ تشريعات الإسلام الَّتي هي البيّنات المذكورةُ في الآية الكريمة بقوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ بينَ أمرٍ ونهيٍ. وإنّما ذكر هذه الأحكامَ من الأمر والنّهي في حقّ نفسه؛ لأنّهم كانوا يعتقدون فيه أنّه في غايةِ العقل والكمال، ومن المعلوم بالضّرورة أنّ كلَّ أحدٍ لا يريدُ لنفسه إلّا الأفضلَ الأكمل، فإذا ذكَرَ أنَّ مصلحته لا تتمُّ إلّا بالإعراض عن غير اللّٰه، والإقبال بالكلّيَّة على طاعة اللّٰه ظهَرَ به أنّ هذا الطّريقَ أكملُ مِن كلِّ ما سواه[1].

### دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿أُسْلِمَ﴾:

الأمر بالإسلام إلى الله والانقياد إلى ما شرّع

دلَّ الفعلُ المضارع المنصوب في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ على الحاضر والمستقبل، فيكون إسلامي مستمرًّا ما دمتُ حيًّا، وهذا أمرٌ للرّسول ولأمَّتِهِ جميعًا. ومعنى الأمرِ بالإسلام: الأمرُ بالاستقامة والانقياد[2]. وفي ذلك تعريضٌ بهم أنّهم ليسوا على استقامة.

### معنى اللّام في قوله: ﴿لِرَبِّ﴾:

إسلامُ النّاس هو للهِ مالكِهم سبحانه

اللّامُ الجارَّةُ في قوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي لامُ الاختصاصِ أو الاستحقاق، فيكون إسلامُ النّاس خالصًا للّٰه تعالى مختصًّا به دون سواه، فهو مالكُهم سبحانه، ومقدِّرُ أقدارِهم وأقواتهم. فلا يكونُ إسلامي إلّا لربِّ العالمين، ولا يصحُّ إسلامُ أحد من الخلق إلّا له سبحانه؛ لأنَّه هو المستحقُّ الأوحدُ للعبادةِ والانقيادِ لأوامره سبحانه.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 74.

(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 219.

**نكتةُ تكرارِ (رَبِّ العالَمِينَ):**

قدرةُ الخالق في تحقيقِ التّكامل الكونيّ وحماية الحياة

تكرارُ صفةِ (رَبِّ العالَمِينَ) لنكتةِ أنّ سياقَ الآية يتناولُ تحقيق البيئةِ الملائمةِ للحياة عمومًا ومنها حياة النّاس وتحقيق حمايتها، وهذا لا يكون إلّا بالتّكامل البيئيّ من جميع الأحياء والمخلوقات النّباتيّة، والحيوانيّة، والعناصر، والجمادات، والمياه، والهواء، والغازات وغيرها، فلفظُ الرَّبِّ دلَّ على أنّه وحده الرّبُّ الخالق الفاطر، الضّامن لديمومةِ هذه الحياة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٦٧﴾ [غافر: 67]

### مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن دلائلِ التّوحيدِ الإجماليَّةِ إلى مظهرٍ تفصيليٍّ لأحدِها

لمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقة مظاهرَ خلق اللّه تعالى في الكونِ العريض؛ مِن جعلِ الأرض قرارًا والسّماءِ بناءً، وتصويرِ الإنسان في أحسنِ صورةٍ وما رزقه من الطَّيِّبات، وكان ذلك على سبيل الإجمال، ثمَّ ذكرت الآياتُ صفات اللّه ﷻ، وما تقتضيه تلك الصّفات من الدّعوةِ إلى التّوحيد، ونبذِ الشّرك؛ ناسَبَ ذلك كلَّهُ الانتقالُ إلى ذكر مظهرٍ من تلك المظاهر الدّالَّة على عجيب خلقه ﷻ، وهو خلق الإنسان، ففصّلت هذه الآيةُ مراحل خلق الإنسان من التّراب إلى الوفاة، وهو كلّه في سياق إقرارِ أدلّة البعث والجزاء، فالآياتُ حَلْقةٌ من حَلَقات السّياق المتعانقِ الدّلالاتِ، والآياتُ هي جزءٌ تفصيليّ مردودٌ على إجمال سابق الذّكر.

### شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُّطْفَةٍ﴾: (نطف) أصل يدلُّ على الماءِ الصّافي[1]، ويُعَبَّرُ بالنُّطْفَةِ عن ماء الرَّجُل. قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ١٣﴾ [المؤمنون: 13]، وقال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: 2]، ويُكْنَى عن اللُّؤْلُؤَة بالنَّطفَة، ومنه: صَبيٌّ مُنَطَّفٌ: إذا كان في أُذُنِهِ لُؤْلُؤَةٌ، والنَّطَفُ: اللُّؤْلُؤ، الواحدةُ: نُطَفَةٌ[2]، واللُّؤْلؤةُ تُشبه القطرةَ من الماءِ الصّافي،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نطف).
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (نطف).

فالنُّطفة في قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ تعني: ماءَ الرّجل الَّذي يَنْطُفُه[1] في رَحِمِ زوجته، فيكونُ منه الولد.

2) ﴿عَلَقَةٍ﴾: (علق) أَصْلٌ كَبِيرٌ صَحِيحٌ يَرْجِعُ إِلَى مَعْنًى واحِدٍ، وهوَ أَنْ يُناطَ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ العالي، ثُمَّ يَتَّسِعُ الكَلامُ فيهِ[2]، وعَلِقَ بالشَّيءِ عَلَقًا وعَلِقَهُ: نَشِبَ فيهِ، والعَلَقُ: الدَّمُ، ما كانَ. وقيلَ: هوَ الدَّمُ الجامِدُ الغَليظُ، وقيلَ: الجامِدُ قَبْلَ أن يَيْبَسَ، وقيلَ: هوَ ما اشْتَدَّتْ حُمْرَتُهُ، والقِطْعَةُ مِنْهُ عَلَقة، وفي التَّنْزِيلِ: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾[3] [المؤمنون: 14]. فالعَلَقة في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ هي قطعةُ الدّم الغليظةُ الحمراء العالقة في رحم المرأة بفعلِ نَطْفِ ماء الرّجل فيه.

3) ﴿طِفْلًا﴾: الطَّفْلُ: البَنان الرَّخْص النّاعِمُ، والجَمْعُ طِفالٌ وطُفول؛ ويُقالُ: جاريَةٌ طَفْلَةٌ إذا كانَتْ رَخْصةً. والطِّفْل: الصَّغيرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، والجَمْعُ: أَطْفالٌ، لا يجمع عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وقَوْلُهُ ﷻ: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ قالَ الزَّجّاجُ: طِفْلًا هُنا في مَوْضِعِ أطفالٍ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ذكرُ الجَماعَةِ، وكأَنَّ مَعْناهُ: ثُمَّ يُخْرِج كلَّ واحِدٍ مِنْكُمْ طِفْلًا. وقالَ تَعالَى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: 31]؛ والعَرَبُ تَقولُ: جاريَةٌ طِفْلَةٌ وطِفْلٌ، ويَكونُ الطِّفْل واحِدًا وجَمْعًا مِثْلَ الجُنُب. وأَطْفَلَتِ المرأةُ والظَّبْيَة والنَّعَم إذا كانَ مَعَها ولدٌ طِفْلٌ[4].

4) ﴿أَشُدَّكُمْ﴾: الشِّدَّةُ: الصَّلابةُ، وهيَ نَقيضُ اللّين. تَكونُ في الجَواهِرِ والأعراض، والجَمْعُ شِدَدٌ، وقَدْ شَدَّه يَشُدُّه ويَشِدُّه شَدًّا فاشْتَدَّ؛ وكلُّ ما أُحْكِمَ، فقَدَ شُدَّ وشُدِّدَ، وشَيْءٌ شَديدٌ: مُشتَدٌّ قَوِيٌّ. وفي الحَديثِ: «لا تَبيعوا الحَبَّ حَتَّى يَشْتَدَّ»[5]، أراد بالحَبِّ الطَّعامَ كالحِنْطَةِ والشَّعير، واشتدادُه قوَّتُه وصلابَتُه[6]، ومادة (ش د د) تدور حول جملةٍ من المعاني، منها: الصّلابة، القوَّة، الوثاقة، الارتباط، الغَلَبة، الإحكام، وتلك الدّلالات ملحوظة في قوله تعالى هنا: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾؛ أي: تصيرون أقوياءِ صِلابًا.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نطف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علق).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (علق).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (طفل).
(5) موطأ مالك، ولفظه: «لا تَبيعوا الحَبَّ فِي سُنْبُلِهِ حَتَّى يَبْيَضَّ»، كِتابُ البُيوعِ، بابُ جامِعِ بَيْعِ الطَّعامِ برقم: (50).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (شدد).

5) ﴿شُيُوخًاۚ﴾: الشّيْخُ: الَّذي استبانَتْ فيهِ السِّنُّ وظَهَرَ عَلَيْهِ الشّيبُ؛ وقيلَ: هوَ شَيْخٌ مِنْ خَمْسينَ إلى آخِرِه؛ وقيلَ: هوَ مِنْ إحدى وخَمْسينَ إلى آخِرِ عُمْرِه؛ وقيلَ: هوَ مِنَ الخَمْسينَ إلى الثَّمانينَ، والجَمْعُ أشياخٌ وشيخانٌ وشُيوخٌ وشيَخَةٌ وشيخةٌ ومَشْيَخَةٌ ومِشْيَخَة[1]، فمعنى ﴿شُيُوخًاۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًاۚ﴾: طاعنين في السّنّ، ضِعافَ البُنَى، وفي بلوغِ ذلك بعد الشّدّة والقوّة دليلُ عظمةِ الخالق تعالى وضعفِ المخلوق.

## المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ مراحلِ خَلْقِ الإنسانِ لعَقْلِ المطلوب والاهتداءِ إلى المقصود

تُبيِّن الكريمة أنَّ الله تعالى هو وحده الَّذي خلَقَ النّاس من ترابٍ، ثمَّ من مَنيٍّ، ثمَّ من قطعةٍ عالقةٍ بجدار الرَّحِم، ثمَّ يُخرِجهم من بطون أمهاتِهم أطفالًا، ثمَّ يَنْسَأُ أعمارَهم ويؤخِّرُها ليبلغوا أشدَّهم من الكمال والقوَّة، ثمَّ يَمُدُّ في آجالهم ليكونوا شيوخًا، وهو وحده الَّذي يُقَلِّبُ النّاسَ في هذه الأطوار، وعن أمره وتدبيره يكونُ ذلك كلُّه[2]؛ ليبلغَ النّاس بعد معرفة هذه الحقائق إلى العقلِ النّافع الموصِلِ إلى التّوحيدِ والعبادةِ فالنَّجاةِ في الآخرة.

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### علَّةُ فَصْلِ الجملةِ عمّا قبلَها:

الخالقُ هو المستحِقُّ للانقيادِ والطّاعةِ دونَ الأغيارِ مِن الخلق

فُصِلت جملة ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ عن جملةِ ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٦﴾ [غافر: 66] لما بينهما من كمالِ الاتِّصال، فالثّانية بيانٌ لقضيَّةِ الخلقِ، والأولى بيان للرُّبوبيَّة، والخالقيَّةُ قرينةُ الرّبوبيّة، فهو الَّذي خلَقَ العالمينَ من ترابٍ، وهو الجديرُ بالاستسلامِ له، وإخلاصِ النَّفْس والعمل والعبادة له دون سواه. وأُقيمت الجملة

(1) ابن منظور، لسان العرب: (شيخ).

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 568، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 661.

الثّانية مُقام التَّعليل للأولى؛ فلِكونِهِ الَّذي خلق النّاس من تراب، وبلغ بهم هذه الرُّتبةَ من البشريَّة والإنسانيَّة هو جديرٌ بتنفيذِ أمره السّابق في جملةِ ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٦﴾ [غافر: 66].

**فائدةُ استعمالِ ضمير الفصل:**

تنبيهُ الغافلين، وتحريكُ سَواكنِ النّائمين، لِما يجبُ أن يكونَ حاضرًا في الأذهان

استعمل النّظم الكريم ضميرَ ﴿هُوَ﴾ في جملة ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾؛ لبيانِ أنَّ الله تعالى هو المختصُّ بالخلق والتَّقدير والإيجاد دون سواه، وإلّا فقد كان يتّسقُ الأسلوبُ بدون الضّمير، فيُقالُ: (وأمرت أن أسلمَ لربِّ العالمين الَّذي خلقكم من تراب)، غيرَ أنَّ الضّميرَ دعَمَ خِصّيصةَ القَصْرِ وهيَّأ لها، ولفَتَ إليها، وأكَّدَ عليها.

ثمَّ إنَّ بناءَ الجملة على التَّعبير بالمسند إليه ضميرًا ممّا يُقرِّرُ نسبةَ المسند ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ إلى المسند إليه ﴿هُوَ﴾ في وضوحٍ وصراحةٍ وقوَّةٍ لا تحتمل الشَّكَّ ولا التّشكيكَ، فهو سبحانه قطعًا خلَقَهم، وقطعًا تفرَّدَ بخلقهم. وفائدةُ القصر تَصُبُّ في تنبيه الغافلين، وتحريكِ سَواكنِ النّائمين، لِما يجب أن يكون حاضرًا في الأذهان، مسموعًا في الآذان.

**غرضُ استعمالِ الاسم الموصول:**

تعليلُ المَعاني، وتقويةُ نظمِ المَباني، لِما يُحقِّقُ المقصودَ من القول المحمود

التَّعبيرُ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في جملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ هيَّأ الأسلوبَ لذكر جملةِ الصّلة ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ المُفعَمة بالدّلالات المقصودة، وهيَّأ لِما عُطف عليها من جُملٍ عديدةٍ، وهو تعليلُ الأمر بالعبادةِ لله تعالى الَّذي خلق النّاس من ترابٍ، فجملةُ الصّلة تعليلٌ مُقنِع وردٌّ مُفحِم لَمن تنكَّبَ طريقَ الحقِّ وآثر الباطلَ عن المسارِ الحقِّ، فكان الاسمُ الموصول بصلته ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ خبرًا عن الضّمير ﴿هُوَ﴾، فقرَّر وحدانيَّته تعالى في القدرة على خلق النّاس من ﴿تُرَابٍ﴾، ثمَّ تدريجيًّا في مراحلِ الخلق إلى اكتمالِ البشريّة السّويّة، وهو ما يقتضي إفرادَه بالعبادة وحده.

### بلاغةُ استعمال مفردةِ (الخَلْقِ):

الخلقُ إبداع الشّيءِ مِن غير أصلٍ ولا احتذاءٍ

تدلُّ مفردة الخَلْق على دقَّةِ تقدير الموجَدِ من عَدَم، ويُستعمل الخلقُ في إبداع الشّيء من غير أصلٍ ولا احتذاءٍ، وليس الخلقُ بمعنى الإبداع إلّا للّه تعالى، ولهذا قال تعالى في الفصل بينه وبين غيره: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النحل: 17][1]، فذكرُ الخلقِ تعليلٌ لِما لا يكون إلّا للخالق المستحِقّ للعبادة بما لا يدّعيه أحدٌ، وتمهيدٌ للإخبار عن تفاصيل الخلقِ بما لا يعلمُهُ على وجه التّحقيقِ أحدٌ.

### نكتةُ التّعبير بصيغةِ الماضي:

خَلْقُ اللهِ تعالى النّاسَ مُتحقِّقٌ في الخلقِ الأوَّلِ الكامنِ في ظَهْرِ آدمَ والخلقِ الفعليّ

جاءتْ جملة الصّلة في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم﴾ فعلًا ماضيًا؛ لِما في صيغة المضيِّ من الإشارة إلى الخلق الأوَّل، المتمثِّل في خَلْق أبينا آدمَ عليه السلام، وخَلْق أولاده نَسَمًا في ظَهْره كما في قوله ﷺ: «أخَذَ اللَّه الميثاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمانَ - يَعْني: بِعَرَفَةَ - فأخْرَجَ مِنْ صُلْبِه كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأها فنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْه كالذَّرِّ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قُبُلًا وقالَ: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: 172] إلَى قَوْلِهِ ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣﴾ [الأعراف: 173]»[2]، فهذا خَلْقٌ كان وتمَّ وتَحقَّقَ في ذلك الزَّمن البعيد، والماضي يُعبِّرُ عنه بدقَّةٍ دقيقةٍ.

ثمَّ يأتي الخلقُ الثّاني، وهو خَلْقُ النّطفةِ فالعَلَقةِ فالولادة، فالماضي بالنِّسبة له يفيدُ الجزمَ بخَلْقِ مَن قدَّرَ اللّه تعالى له أن يُخلَقَ، وهو متحقِّقٌ لِمن وقَعَ له الخطابُ، فكلُّ مَن يقرأ هذه الآيةَ فإنَّ خلقَه قد تحقَّقَ وكان، ومَن لم يولَدْ بعدُ فإنَّ الآيةَ تخاطبه بعد أن يكون، وعليه فالآيةُ متجدِّدةُ الخطابِ بما كان في الخلق الأوَّل، وما هو كائنٌ وسيكونُ في الخلق الثّاني على الحقيقةِ في الأمرين.

---

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز: 2/ 566.

(2) الحاكم، المستدرك على الصحيحين للحاكم، كِتابُ تَوارِيخِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الأَنْبِياءِ والْمُرْسَلِينَ، ذِكر آدم عليه السلام: 2/ 593، برقم: (4000).

**بلاغةُ القصر وغرضُهُ:**

اللهُ سبحانه وحدَهُ القديرُ على الخلق والتَّقدير

يُعطي بناءُ جملة ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم﴾ دلالةَ القصرِ البلاغيِّ، الجازمِ باختصاصه ﷻ بالخلق والتَّقدير، وأنَّ أحدًا غيرَهُ ﷻ لا يُشاركه في ذلك؛ إذ في الخلق إيجادٌ مِن عَدَم، وفي التّقديرِ ضبطٌ للمقاديرِ الَّتي بنى الله تعالى عليها دقائقَ المخلوقات، وقد قال تعالى في موضع آخرَ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54]، فنبَّهَ القصرُ إلى ذلك وأكَّدَهُ.

والقصرُ فاعلٌ في سياقه هنا؛ إذ يكشفُ عن وجهِ الإسلام والاستسلام لربّ العالمين، المذكورِ في الجملة السّابقة ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٦﴾ [غافر: 66]، ويقرِّر بأنَّه ﷻ الحقيقُ بذلك.

**نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالتُها البيانيّة:**

احتمالُ الابتداءِ باعتبارِ الأصلِ، والبيانِ باعتبارِ الحقيقة

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ تَحتمِلُ أن تكون ابتدائيَّةً تدلُّ على أنَّ ابتداءَ خلق الإنسان كان من ﴿تُرَابٖ﴾، وأنَّ التّرابَ كان أصلَ مَنْشَئِهِ ومادَّةِ إيجاده، وأنَّ خلْق كلِّ إنسانٍ كان ترابًا في ضمنِ خلقِ آدمَ ﵇، ثمَّ خلقه الله تعالى خلقًا تفصيليًّا بعدُ[1].

وتَحتمِلُ أن تكون بيانيَّةً، حيث تُبيِّنُ أنَّ خَلْقَ جنسِ الإنسان وجميع أفراده إنَّما هو من ﴿تُرَابٖ﴾، وقد أفصَحَ عن ذلك الإمامُ الرّازيُّ، حيث يرى أنَّ خلْق كلّ إنسانٍ من ترابٍ حقيقةً، يقول: "كلُّ إنسان هو مخلوقٌ من المَنيِّ ومن دم الطّمث، والمنيُّ مخلوق من الدّم فالإنسانُ مخلوقٌ من الدّم، والدّمُ إنَّما يتولَّد من الأغذية، والأغذيةُ إمّا حيوانيّة وإما نباتيَّة، والحال في تكوُّن ذلك الحيوانِ كالحال في تكوُّن الإنسان، فالأغذيةُ بأسْرِها مُنتهيةٌ إلى النّباتيَّة، والنَّباتُ إنَّما يكون من التّراب والماء، فثَبَت أنَّ كلّ إنسان فهو متكوِّن من التّراب"[2].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 7/ 283.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 531.

### نكتةُ اختيار مفردةِ ﴿تُرَابٍ﴾:

معرفةُ ضَعفِ الإنسانِ أدْعى للطّاعة والإذعان

آثر النّظم الكريمُ استعمالَ مفردة ﴿تُرَابٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ ليدلَّ على ضَآلةِ أصلِ الإنسان وضعفِهِ؛ إذ التّرابُ هشٌّ تُطَيِّرُه الرّياح وتَذْروهُ وتُبَعْثِرُهُ، والسّياق في بيان ضعفِ الإنسان حين الخلقِ، فردُّه إلى أصله أدْعى للإذعان والخضوع.

### دلالةُ تنكيرِ مفردةِ ﴿تُرَابٍ﴾:

خَلقَ الإنسانُ من ترابٍ غيرِ مخصوصٍ

نُكِّرتْ كلمةُ ﴿تُرَابٍ﴾؛ للإبهامِ والعموم؛ فلم يُخلَقِ الإنسانُ من ترابٍ مخصوصٍ، بل من عموم التُّراب الَّذي خلقه اللّه تعالى في الأرض، وهو التّراب الَّذي إذا أُطلق عَرَفَهُ النّاس، فهو غير مخصوصٍ بلونٍ أو كثافةٍ أو مِن موضعٍ ما.

### براعةُ استعمالِ حرف التّراخي وتكرارِه:

عنايةُ الخالقِ بالإنسان تفصيلًا من عدمه إلى وجوده

جاء العطفُ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًاۚ﴾ بأداةِ ﴿ثُمَّ﴾، وهي للتَّراخي الرُّتْبيّ، فكلُّ مرحلةٍ تُمثِّل نوعًا من الخلقِ تأتي بعدها مرحلةٌ أخرى، والجانبُ الزَّمنيُّ وإن كان ملحوظًا في سلسلةِ مراحلِ خلق الإنسان، إلّا أنَّه تابعٌ للجانب المَرْحليِّ؛ إذ الغرضُ الامتنان على الإنسان بذكرِ مراحل وصوله إلى درجةِ الإنسانيَّة الَّتي بَلَغَها؛ فكانت ﴿ثُمَّ﴾ الرُّتْبيَّةُ هي الجديرةَ بتلك التّفاصيلِ المُبيِّنةِ عن تعظيم تلك الحِقب، واللَّفْتِ إلى عظيم المِنَّة فيها.

والمعنى الزّمانيُّ في ﴿ثُمَّ﴾ ملحوظٌ في تعهُّدِ العبد في تكوينه وتربيته منذ أنْ كان نسمةً في ظَهْرِ آدمَ عليه السلام في الأزمان الغابرة، حتّى وصل إلى أنْ يكون أهلًا للتَّكليف، وهي تتَّسِعُ لحِقَبِ التّاريخ منذ آدمَ عليه السلام حتّى آخرِ الدّهر، فما أجدرَ الإنسانَ أن يستشعرَ المِنَّةَ عليه

من اللّه تعالى! وأنْ يتحلّى بالحياءِ فلا يَعصيَ ربَّه العظيمَ ﷻ! وهذا المعنى حاضرٌ في العطفِ بحرف التّراخي في جميعِ المعطوفات.

**دلالةُ استعمال مفردةِ ﴿نُّطۡفَةٖ﴾:**

النُّطۡفةُ هي الماءُ القليلُ، المتماسكُ المُجتمِعُ على نفسه، القابلُ للنُّمو

النُّطۡفةُ هي ماءُ الرّجل الَّذي يَنۡطُفُه[1] في رَحِمِ زوجته فيكونُ منه الولد، وفي تسميتها بهذا إضفاءٌ لِظلالِ اللُّؤلؤة الثَّمينة عليها وإيحاءٌ بقيمتها؛ فإنَّه في لغةِ العربِ يُكنَى عن اللُّؤلؤةِ بالنَّطَفَة، ومنه قول العرب: صَبيٌّ مُنَطَّفٌ إذا كان في أذُنِه لُؤلُؤَةٌ، والنَّطَفُ: اللُّؤلؤ، الواحدةُ: نُطَفَةٌ[2]، فالنُّطفَةُ هي الماء القليل المتماسك المجتمع على نفسِه القابلُ للنّموِّ، ففي قوله تعالى: ﴿نُّطۡفَةٖ﴾ "إشارةٌ إلى التّناسل من آدمَ فمَن بعده، والنُّطفة: الماءُ الَّذي خُلِقَ المرء منه"[3]، فالمقصودُ بالنُّطفة أصلُ "الحياة للإنسان، ثمَّ تنتقلُ هذه النّطفة في الرَّحِم، فتكون علقةً، فمُضغةً، فعظامًا، فلحمًا يكسو هذه العظامَ، حتّى إذا اكتمَلَ الجنين في بطن أمِّه وُلِدَ طفلًا، وهو الصّورةُ المصغَّرة لهذا الإنسانِ الَّذي سيكونُه يومَ يكبرُ ويبلغُ أشُدَّه"[4].

**بلاغةُ الإشارةِ في استعمالِ مفردةِ ﴿عَلَقَةٖ﴾:**

الإنسانُ متعلِّقٌ بأسبابِ الحياة في مرحلةِ ما قبلَ الوَعْيِ

العَلَقة في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ هي قطعةُ الدّم الحمراءُ الغليظة، العالقةُ في رحم المرأة، المتحوِّلةُ من نطفة الرّجل الَّتي نَطَفَها في رحمها، واستعمالُ مفردة ﴿عَلَقَةٖ﴾ مصوِّرٌ بطبعِهِ اللُّغويِّ المجرَّد؛ لأنه يُقيمُ في خيال المتلقّي صورةَ قطعةِ دم كثيفةٍ كأنَّها معلَّقةٌ في فراغ، وهذا الفراغُ معدٌّ لاستنباتِها إنسانًا متكاملًا بعد ذلك؛ كما أنَّها توحي بطبيعة الإنسان المتعلِّقِ بأسباب الحياةِ مُذ وُجِدَ أصلُهُ، فتعلَّقَ بجدار الرّحم؛

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نطف).

(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (نطف).

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 568.

(4) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 12/ 1264.

ليكون مُمسِكًا بهذه الصّفة في الرّحم، فملتقِمًا للثّدي، فمصاحبًا لأُمِّه حتّى يقوى فينفصلَ انفصالَ الكارهِ لماضيه، إلّا مَن تولّاه اللّه بالعناية، ورزقه من كريم الأخلاق.

**دلالةُ استعمال مفردة (الإخراج):**

لفظُ (الإخـراجِ) دالٌّ علـــى القـدرةِ المعجزة والمخـلـوقـات العاجزة

استعمل النّظم الكريم مفردةَ (الإخراج) في جملة ﴿يُخۡرِجُكُمۡ﴾؛ لأنَّ الإنسان كان "يعيش في عالم، ثمَّ وُلِدَ فكان في عالَمٍ آخرَ يختلفُ عن عالمه الَّذي كان فيه؛ فكأنَّ هذا الميلادَ إخراجٌ جديد له من وجودٍ إلى وجود، ولهذا جاء التَّعبير القرآنيُّ: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ بالعطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ الَّتي تفيدُ التّراخيَ، ثمَّ بِفِعل الإخراجِ الَّذي يدلّ على المُغايرةِ بينَ ما كان قبلَ هذا الإخراجِ وبعده"[1]، فالتَّعبيرُ بالإخراج اقتَضَتْهُ المُغايَرةُ بينَ أطوارِ خلق الإنسان، وتحوُّلِه من طَوْرٍ إلى آخرَ.

واقتضى الإخراجُ استعمالَ الحرفِ ﴿ثُمَّ﴾ المفيدِ تباعُدَ الزَّمنِ والرُّتبةِ بين الحالِ قبل الإخراج والحالِ بعدها، فمن الَّذي يقدر أن يُصيِّرَ التّرابَ نطفةً، ثمَّ علقةً، ثمَّ يُخرِجَ طفلًا للوجودِ؟ وعليه فيوحي لفظُ الإخراجِ بعُنصُرِ المفاجأةِ الدّالّة على القدرةِ المعجزة.

**فائدةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:**

تحقيقُ الامتنان فـــي ســيـاقِ الاستدلال

جاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع في جملةِ ﴿يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ مُختلفًا عن التَّعبير بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم﴾، وذلك لأنّ المضارع يُصوِّر حالَ الإخراج، ويدعو إلى استحضارِ تجدُّدِ الإخراج في كلِّ مرَّةٍ؛ لتحقيقِ الامتنان في سياق الاستدلال؛ وذلك أنَّ الإخراجَ لا زالَ يتوالى ويتجدَّدُ إلى خروج آخِرِ طفلٍ في هذه الدّنيا؛ فلَمّا كان إخراجُه تعالى الذّرّيَّةَ أطفالًا مُتجدِّدًا في كلِّ لحظةٍ كان التَّعبير بالمضارع ﴿يُخۡرِجُكُمۡ﴾ هو الأنسبَ.

---

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 12/ 1265.

### نكتةُ إفراد لفظ ﴿طِفۡلٗا﴾:

خلقُ جميعِ الأطفالِ في قدرة الله تعالى كطفلٍ واحدٍ

جاء لفظُ ﴿طِفۡلٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ اسمَ جنسٍ[1]، وقد أُفرد هذا لأنَّ مَخرجَهُ مَخرجُ التَّمْييز[2]، والتَّمييزُ تفسير وبيانٌ لِما أُبهم، فالإخراجُ غير معلوم، ففُسِّر بكونه طفلًا؛ لبيانِ الدّلالة على القدرة الإلهيَّة، فيلفتُ النَّظمُ بذلك الإفراد إلى يُسْرِ خلق هؤلاء الأطفال الَّذين لا يُحصَون عددًا، حتّى لكأنَّ خلقَهم جميعًا خَلْقُ (طفلٍ) واحد، كما قال تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٢٨﴾ [لقمان: 28].

### فائدةُ تنكيرِ لفظِ ﴿طِفۡلٗا﴾:

استواءُ جميعِ الأطفالِ في الحقوقِ والواجبات

نُكِّر لفظُ ﴿طِفۡلٗا﴾ للإشارةِ إلى استواء جميع الأطفال في عدم العلم بشيءٍ حالَ طفولتهم؛ واستوائِهم في الحقوق والواجبات، وأنَّ التّكاليفَ بحقِّهم واحدةٌ، والحقوقَ لهم واحدةٌ باعتباراتٍ مختلفة، فالتّنكيرُ أفادَ العمومَ والشُّمول الاستغراقيَّ، حتّى كأنَّهم جميعًا طفلٌ واحد. وفي ذلك إخجالٌ للكافرين وإخزاءٌ لهم، وليٌّ لخطام جموحهم لرَدِّهم إلى واحة الإيمان.

### نوعُ (اللّام) ودلالتُها:

تعليلُ خلق الإنسانِ أطوارًا بيانٌ للحكمة

حرفُ (اللّام) في قولِه تعالى: ﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾، وقولِه: ﴿لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ﴾ لامُ التّعليل، وجَعل بلوغَ الأشُدِّ عِلّةً لأنّه أقوى أطوارِ الإنسان، وأجلى مَظاهرِ مَواهبِه في الجسم والعقل، فجعَلَ الأشُدَّ الغايةَ المقصودة، وهو سنُّ الفُتوَّةِ واستجماعِ القوى[3]، ثمَّ جَعل بلوغَ سنِّ الشّيخوخةِ غايةً بعد غايةٍ؛ لإظهار رحمة اللّه تعالى بعبادِه، ليُرخيَ لمَن شاء منهم الزّمانَ فيأتيَ الصّالحَ من الأعمال، فهو "من

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 568.
(2) المبرِّد، المقتضب: 2/ 173.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 201.

عطفِ علَّةٍ على أُخرى، كأنَّه قيل: ثمَّ يُخرِجُكم طفلًا؛ لِتكبروا شيئًا فشيئًا، ثمَّ لِتبلغوا كمالَكُم في القوَّة والعقل، ثمَّ لِتكونوا شيوخًا"[1].

### نكتةُ حذف متعلَّق اللّام:

خلقُ الإنسانِ أطوارًا متلاحقةً معذوقٌ بحكمةٍ إلهيَّةٍ وإرادةٍ ربّانيّة

تعلّقتِ اللّام في قوله تعالى: ﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ بمحذوفٍ، قدَّرَهُ المفسِّرون بالفعل (يُبقيكم) أو (يُنشِئُكم)؛ أي: "ثمَّ يبقيكم لِتبلغوا"[2]، ولِتصلوا إلى تلك المراحلِ العُمَريَّةِ كلٌّ بحسب أجلِهِ الَّذي كتبه اللّه تعالى له في هذه الحياة الدّنيا، "كأنَّه قيلَ: ثمَّ يُخرِجُكُم طِفْلًا لِتكبروا شيئًا فشيئًا، ثمَّ لِتبلغوا كمالَكُم في القوَّة والعقلِ"[3]. وفي حذف المتعلَّق وجازةٌ تَمنحُ التّركيب تركيزًا، وتَجذِبُ الأذهانَ إلى رؤيةِ مَظهَرٍ من مَظاهرِ عظمةِ الخالق تعالى، مُتمثِّلًا في التَّحوُّلِ بالطِّفلِ الضّعيف الخالي من كلِّ علْمٍ إلى الفُتوَّةِ العقليَّةِ والشِّدَّةِ البدنيَّة.

### بلاغةُ الإيماءِ في استعمالِ مفردة (البلوغ):

لكلِّ شيءٍ إذا ما تَمَّ نُقصانُ فلا يُغَرَّ بطيْبِ العَيْشِ إنسانُ

اصطفى النّظم الكريم مفردةَ البلوغ في قوله تعالى: ﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ﴾؛ لِما تدلُّ عليه مِن معنى الوصولِ والانتهاء إلى الغاية؛ فإنَّ خلق الإنسانِ ما كان إلّا ليبلغَ أشدَّهُ ويكونَ في أعلى درجات العبادة والالتجاء إلى اللّه ﷻ، وهو يومئُ إلى أنَّ الإنسان عندما يصلُ مرحلة الأشدِّ يكونُ قد بلغ القمَّةَ الَّتي ليس مِن ورائها تراجعٌ، وعليه ففي هذه المفردة إيماءٌ إلى أنَّه ليس بعدَ الكمال إلّا النّقصُ، وأنَّ مَن سيبلغُ مرحلةَ الأشدِّ سيرجعُ بعدَها إلى مرحلةٍ دونَها في القوّة والكمال، وهي الَّتي عبّر عنها سبحانه بقوله: ﴿لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ﴾.

### براعةُ اختلافِ إسنادِ الأفعال للفاعلين:

أُسند فعلُ الإخراج إلى ضميرِ العظمةِ في قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُكُمۡ﴾، بينما أُسند فعلُ البلوغ لِضمير المخاطَبين في قوله

(1) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 5/ 150.

(2) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التّنزيل: 4/ 177.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 7/ 283.

تعالى: ﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ﴾؛ وذلك أنَّ الإخراجَ هو للّٰهِ تعالى، وليس للطِّفل حينَ خروجه مِن بطن أُمِّه حولٌ ولا قوَّةٌ، وأمّا البلوغُ فهو وإن كان بأمر اللّٰه تعالى وإرادته إلّا أنَّهم مطالبون في حياتهم القيامَ بمجموعةٍ من التّكاليف والأعمال، فهم لا يبلغون الأشدَّ إلّا وقد قاموا بمجموعةٍ من الأعمال، فلِأجْلِ هذه المُلابَسةِ أُسند فعلُ البلوغ لهم، بخلاف فعل الإخراج، فليس لهم فيه أدنى سببٍ.

الإنسانُ يبدأُ مُخرَجًا من بطنِ أمِّه حتّى يبلغَ أشُدَّهُ ثمَّ يكونَ شيخًا

وأمّا في إسنادِ فعل التّحوُّل إلى مرحلة الشّيخوخة فقد جُعل تَحوُّل الإنسان إليها مجرَّد كوْنٍ في جملةِ ﴿لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ﴾؛ وذلك لأنَّها ليست مرحلةً نَمائيّةً للإنسان، بل هي مرحلةُ تراجُعٍ؛ فلم يُعبَّر فيها بفعل (البلوغ) بحيث يقول: لتبلغوا شيخوختكم؛ وذلك لأنَّ هذه المرحلةَ العُمَريّةَ ليست حبيبةً إلى الإنسان، فجُعِلَ الوصولُ إليها مجرَّدَ كونٍ.

## دلالةُ التَّعبير بصيغةِ المضارع:

جاء التّعبير بصيغة المضارع في فعلَيْ (تبلغوا) و(تكونوا)؛ ليأتيَ على نَسَقِ المضارَعة في جملة ﴿يُخۡرِجُكُمۡ﴾، وفيه تنبيهٌ إلى آيةِ اللّٰه تعالى وفيما يطرَأُ على الإنسان من أغيارٍ وأطوار، واستحضارًا لِتجدُّدِ تلك المراحلِ وتبدُّل أحوالِ الإنسان فيها. كما قال تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾ [الرّوم: 54].

تَبدُّلُ أحوالِ الإنسانِ وتجدُّدُها سنَّةٌ كونيَّةٌ، وهِبَةٌ إلهيَّة

## بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿أَشُدَّكُمۡ﴾ مادّةً وصيغةً:

مفردةُ (الشِّدَّة) في قول اللّٰه تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ "هي حالةُ اجتماعِ القوّةِ وتمامِ العقل"[1]، والصَّلابةِ في بنية الإنسان، والفحولةِ في تفكيره، والمعنى: ثمَّ لِتنتهوا إلى ذِرْوةِ قوَّتِكم وفُحولتِكم،

بلوغُ الإنسانِ أعلى المراحلِ في وقتٍ واحدٍ هي مرحلةُ الأشُدّ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 330.

وتصيروا صِلابًا، وصيغةُ (أشدّ) تدلُّ على ما يوافِقُ المعنى اللُّغويَّ، فهي فترة الذّروة؛ إذ تسبقها مرحلةُ ضَعفٍ، وتتلوها مرحلةُ ضَعفٍ، وهي في صيغةِ الجمع ومعناه، ولم يُسمَعْ لها مُفرد[1].

ويُلمَح في جمودِ جمعِ (أشُدّ) وعدمِ وجود مفردٍ له من صيغته إشارةٌ إلى اجتماعِ القوَّة وتمام الفُتوَّةِ للإنسان في هذه المرحلة؛ حتّى كأنَّه جمعٌ لا واحدٌ، فالإنسانُ لا يبلغ مرحلةً شديدةً واحدةً، بل يبلغ مجموعةً من المراحلِ في وقتٍ واحد، وهي المعبَّرُ عنها بالأشُدِّ.

**نكتةُ استعمالِ لفظِ ﴿شُيُوخًاۚ﴾ وجمعِهِ وتنكيرِه:**

يـوحـي لـفـظُ (شـيـخ) مِـنَ التّكريم والوقار ما يَجبُرُ ضعفَ بِنيتِهِ وعقلِهِ

المرحلةُ الأخيرةُ من عمر الإنسان هي الشّيخوخةُ، وهي مرحلةُ ضَعفِ البدن، وضعفِ العقل غالبًا؛ ففيها تراجُعُ إمكانات البِنْية البدنيَّة والعقليَّة، وقد جاء استعمالها دون الكهولة؛ لأنَّ الأخيرةَ لا تستلزم الضّعفَ، بل قد يبلغُ فيها بعضُ النّاس ذِروةَ قوَّتِهم وشِدَّةَ فحولتهم؛ فهي من الخامسةِ والثّلاثين إلى الخمسين؛ فالتَّعبيرُ بلفظِ ﴿شُيُوخًاۚ﴾ هو الأنسبُ في السّياقِ باعتبارين؛ الأوَّلُ: ضعفُ بِنْية الإنسان، الثّاني: تكريمُ هذا الإنسان الضّعيف، وإضفاءُ صفاتِ الوقار والمهابة وما إليهما عليه، ففي وصفِ ﴿شُيُوخًاۚ﴾ تطييبٌ لِخواطِرِهم، وتعويضٌ لَهم في جانب الوقار ما فاتهم في جانبِ الفتوَّة والقوَّة النّاضح به وصفُ ﴿أَشُدَّكُمۡ﴾؛ لذلك أيضًا جُمِعَ لفظُ ﴿شُيُوخًاۚ﴾ ونُكِّرَ؛ ليُضْفيَ عليهم وقارًا وفخامة.

**بلاغةُ فنِّ الإدماج:**

الامتنانُ بخلقِ الإنـسـانِ من عـدمِ امتنانٌ ذُكِـر في سياق الاستدلالِ على التّوحيد

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ امتنانٌ من الله تعالى على النّاس، وجاءَ الامتنانُ في سياق إثبات الوحدانيَّة للخالق

(1) أبو جيب، القاموس الفقهي، ص: 191.

العظيم، وتقريرِ قدرته المطلقةِ ﷻ، وإلى ذلك يمتنُّ اللّه تعالى على مَن خلَقَهم وأوجَدَهم، وعلى مَن قدَّر لهم بلوغَ الأَشُدِّ، "وهذا الامتنانُ بنعمة الإيجاد، وهو نعمةٌ؛ لأنَّ الموجودَ شَرَفٌ والمعدومَ لا عنايةَ به، وأُدمِجَ فيه الاستدلالُ على الإبداع"(1)؛ فإنَّ ذكرَ مراحلِ الخلق بغرضِ الامتنان سيْقَتْ في سياقِ الاستدلال على الوحدانيَّة.

### نوعُ الواو ومعناها في قوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾:

تحذيرٌ مِنَ الحقِّ سبحانه بالموتِ في سنٍّ مُبكِّرة

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ للاستئناف؛ إذ التَّوفي قبلَ بلوغ سنِّ الشَّيخوخةِ قد يَطرَأُ على كثيرٍ من النّاس، فالمراحلُ ليست مطَّرِدةً، فهي ضِمْنَ السُّنَّةِ الغالبةِ لا اللّازمةِ.

### نوعُ (مِنْ) ودلالتُها في قوله: ﴿وَمِنكُم﴾:

الغالبُ في أعمارِ النّاس بلوغُ سنِّ الشّيخوخةِ، وقليلٌ دون ذلك

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ للتّبعيضِ، وهو يُلمح إلى قِلَّة عدد هؤلاء الَّذين لا يبقَون إلى الشّيخوخة بالنِّسبة إلى عددِ مَن يعيشُ إليها؛ إذ البعضُ جزءٌ مِن الكلِّ، والكلُّ أشملُ مِنَ البعضِ، وفي ذلك بشارةٌ للنّاس أنَّهم سيُعمَّرون إلّا قليلًا، وإنَّما يُقدَّرُ لبعضهم ألّا يعيشوا إلى سنِّ الشّيخوخة؛ لحِكَمٍ لا يعلمها إلّا اللّه تعالى، ففي قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾ "استقراءٌ لأحوالِ الأطوار الدّالَّة على عظيم القدرة والحكمة الإلهيَّة، مع التّنبيهِ على تخلُّلِ الوجود والعدم أطوارَ الإنسانِ بدءًا ونهايةً كما يقتضيه مقامُ الاستدلال على البعث، والمعنى: ومَنكم مَن يُتوفّى قبلَ بلوغ بعضِ الأطوار"(2).

### فائدةُ تقديم (منكم) على المسند إليه:

قُدِّم الجارُّ والمجرور (مِنكم) على المبتدأ ﴿مَّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ وهو متعلِّقٌ بخبرٍ محذوفٍ، والتَّقدير: ومَنْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 197.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 201.

تحذيرُ الإنسان بأنَّ أجلَه مُتوقَّعٌ قبلَ بلوغِه جميعَ مراحلِ عمره

يُتَوَفَّى مِن قبلُ بَعضٌ منكم، فحُذف الخبرُ لتوجيهِ الأنظار للجارِّ والمجرور (منكم)؛ لزيادةِ التّنبيه إلى إمكانيَّةِ نزولِ الموتِ بكلِّ أحدٍ مِن المخاطَبين في أيِّ وقتٍ، ولتحذيرِ المخاطَبين من الغفلةِ والوقوعِ في شَرَك طولِ الأملِ لبلوغ الشّيخوخةِ.

هذا من حيث المعنى، أمّا مِن حيث الصّياغةُ والتَّركيبُ فإنَّ تقديمَ الموصولِ وصلته على الجارِّ والمجرور يُلبِسُ الخبرَ بالحالِ، فيَظُنُّ السّامعُ أنَّ (مِنكم) مُتعلِّقانِ بمحذوفِ حالٍ وأنَّ الخبرَ سيأتي بعدَ ذلك، وليس ذلك مُرادًا مِن نظم الآيةِ الكريمة.

**علّةُ استعمالِ ﴿مَّن﴾ دون (الَّذي):**

المـوتُ في سنٍّ مُـبـكِّـرةٍ ليس محصورًا بفئةٍ مُعيَّنة

جاء التَّعبير بالموصول ﴿مَّن﴾، وهو المسندُ إليه في قوله تعالى: ﴿مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾ دون (الَّذي)؛ للدّلالة على العموم، ولو قال: (ومنكم الَّذي يتوفى) لظُنَّ أنَّ المقصودَ معيَّنٌ.

**موقعُ جملةِ ﴿يُتَوَفَّىٰ﴾ من التّركيب:**

الَّـذي يـموت في مُقتَبَلِ العمرِ لم يَـدَعْ مِـن عمره المقدَّرِ له لحظةً

جملةُ ﴿يُتَوَفَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾ صلةُ ﴿مَّن﴾، فهي تُتَمِّم نقصَ دلالته وتَسُدّ فَقْرَها، وهو ما أتاحَها في الكلام وهيَّأ لها، وإلّا فلو قيل - في غير القرآن الكريم -: (ومنكم أناسٌ لا يُعمَّرون، بل يُفارِقون الحياةَ قبل الشّيخوخة بمرحلةٍ أو أكثرَ - لَما أفاد هذا التّركيبُ - برَغْمِ ما فيه مِن طولٍ - ما تفيدُهُ جملة الصّلة ﴿يُتَوَفَّىٰ﴾؛ إذ فيها معنى التَّوْفيَة، وأنَّ هذا الَّذي مات خلال المراحلِ المتقدِّمة مِن العمر لم يَدَعْ مِن عمره المقدورِ لحظةً، بل يكونُ قد استوفاها على التّمام الَّذي أجَّلَهُ اللّٰه تعالى له.

**بلاغةُ استعمال مفردة ﴿يُتَوَفَّىٰ﴾ مادَّةً وصيغةً:**

لا تـمـوتُ الأنفُسُ إلّا بعدَ الاستيفاءِ التّامِّ للأعْمار

استُعمل لفظُ ﴿يُتَوَفَّىٰ﴾ لإفهامِ النّاس أنَّ الموتَ قبل الشّيخوخة - إنْ وقَعَ - هو موتٌ استوفى صاحبُه به الأجلَ، وفيه ترطيبٌ لنفوسِ مَن يموت له أحدٌ قبل بلوغِ الأشُدِّ أو الشّيخوخة، وتعملُ على إطفاء حُرقةِ قلوبهم.

وجاء التّعبيرُ بصيغة المضارع ﴿يُتَوَفَّىٰ﴾ استحضارًا لتلك الحال؛ فلا تزالُ ماثلةً أمام الأعين، تدعوها إلى اليقظةِ وعدم الغفلة وكمال الاستعداد، فالقرآنُ الكريم يخاطب كلَّ جيلٍ وكلَّ قَبيلٍ، فما زالوا أحياءً يخاطَبون، وموتُهم مُحتمَلٌ في الحال أو الاستقبال.

**نكتةُ بناء الفعل للمفعول:**

توجيهُ الأنظارِ للمقصود؛ ليقعَ التَّنبيهُ ويتحقَّقَ التَّحذير

جاء التّعبيرُ ببناء فعل ﴿يُتَوَفَّىٰ﴾ للمفعولِ في قوله تعالى: ﴿مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾؛ للعلمِ بالفاعل الحقيقيّ وهو اللّه ﷻ، فبِعَدَمِ تعيينِ الفاعل لا يقع اللَّبسُ، ولتوجيه الأنظارِ إلى مضمون الفعل وهو الوفاة، فالمقصودُ هو التّنبيهُ والتّحذير ممّا يقع النّاس فيه من الغفلةِ وإطالةِ أملِ الانتظار، وكثرةِ تسويف الطّاعات.

**دلالةُ ﴿مِن﴾ في القيد:**

عدمُ التَّهاوُنِ في أمرِ الموت؛ فرُبَّما يَفْجأُ الشَّباب

أفاد حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾ تأكيدَ إمكانِ وفاةِ الإنسان خلال مراحلِ حياته، الَّتي تكون قبل بلوغ مرحلة الشّيخوخة؛ لدفع ضعفِ القلوب وتهاوُنها.

**نكتةُ حذفِ المضاف إليه:**

استيعابُ المُحتمَلاتِ عند اتّساعِ الدّلالات مِن بديع النّظم وجمالِ الفهم

آثر النّظم الكريم حذفَ ما أُضيفَتْ إليه ﴿قَبۡلُۖ﴾، على نيَّةِ معنى المضاف إليه؛ إذ التّقدير قبل الحذف: من قبلِ ما ذكر[1]، أو من قبلِ أن يبلغَ أشدَّه، أو مِن قبل أن يصيرَ شيخًا[2]، أو عبارةٌ تتردَّدُ في الأدراج المذكورة كلِّها، فمِن النّاس من يموت قبل أن يخرج طفلًا، وآخرون قبلَ الأشُدِّ، وآخرون قبلَ الشّيخوخة[3]، ونكتةُ الحذف الإيجازُ اللَّفظيُّ، واستيعابُ جميع المعاني المحتمَلةِ في التّقدير، الَّتي يحويها الظّرفُ الدّالُّ على مراحلِ الإنسان كلِّها المتلوَّةِ في السّياق.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 198.

(2) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 213.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 568.

### بلاغةُ الاحتراس:

توضيحُ البدهيِّ الّذي لا يجهله العامّيُّ؛ لدفعِ الأوهامِ ونَحْرِ شرِّ الأفهام

في قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾ "احتراسٌ يُراد به تقييدُ هذا الإطلاقِ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ﴾"[1]؛ فبعضُ النّاس يصلُ إلى مرحلة الشّيخوخة، وبعضهم يوَفَّى عمرَهُ المقدَّرَ له قبلها، فيكون هذا أجلَهُ الَّذي أجَّله اللّه تعالى له. وفائدةُ الاحتراس دفعُ أوهامِ النّفوس، ورغباتِ أصحاب الشّهوات في الطّعن في القرآن، ومعرفةُ أنّ بعض النّاس يُتوفّى قبل بلوغ سنِّ الشّيخوخة مِن البدهيِّ الَّذي لا يجهله العامّيُّ، فذِكْرُ هذا القيدِ مع وضوحِه لإيقافِ الأوهام ودحض المطاعن، فإنَّ العدول عن الواضحات سبيلُ الأفكار المغلوطات.

### تعيينُ المعطوفِ عليه:

تعدُّدُ احتمالاتِ تعيين المعطوفِ عليه جزالةٌ في اللّفظ ورصانةٌ في المعنى

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ﴾ عاطفةٌ، حيث يُحتمَلُ عطفُ جملة (لِتَبْلُغوا أجَلًا مُسَمًّى) أن يكونَ على جملةِ ﴿لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ﴾ - وما بينهما من قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾ جملةٌ اعتراضيَّة احتراسيَّة من تَحَتُّم اطِّراد تلك الحالات كلِّها في البشر - أو أن يكون على جملةِ ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾ بتقديرِ محذوفٍ يدلّ عليه ما قبله؛ أي: ومنكم من يُمَدّ في أجله لتبلغوا الأجلَ المكتوب لكم[2].

### نكتةُ مخالفةِ النّسق بالعطفِ بالواو دون (ثمَّ):

تعدُّدُ الغاياتِ، بمنزلةِ تعدُّدِ الآجال

خالَفَ النّسق الكريم في العطف، فجاء العطف بحرف التّراخي بين الأفعال، إلّا في قوله تعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ فجاء بالواوِ دون (ثمَّ)؛ "لِتَعَلُّقِ قوله تعالى: ﴿لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ﴾ بما يليه خاصَّةً، وهو قوله تعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾، والمعنى: أنَّ اللّه قدّر انقراضَ الأجيال وخلَفَها[3] بأجيالٍ أخرى، فالحيُّ غايته الفناءُ وإن

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 12/ 1265.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 12/ 1265.
(3) في الأصل "خلقها"، والسياق أجود بتعديلها إلى "خلفها"، بقرينة الجارّ والمجرور بعدها "بأجيال أخرى".

طالتْ حياتُه، لمّا خلَقَهُ على حالةٍ تَؤولُ إلى الفناء لا محالة كان عالمًا بأنَّ مِن جملة الغايات في ذلك الخَلق أن يبلغوا أجلًا"[1]، وهذا على جَعْلِ جملةِ ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾ اعتراضيَّةً.

### نوعُ اللّام ومعناها في ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ﴾:

ما كان خلقُ النّاس إلّا لبلوغِ الأجلِ ونفادِ الأمل

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ تَحتَمِلُ أن تكون لامَ التّعليل، والمعنى: "ونَفْعَل ذلك لتبلغوا أجلًا مسمًّى"[2]؛ "أي: هذه الأصناف كلُّها مخلوقةٌ ميسَّرة ليبلغَ كلُّ واحدٍ منها أجلًا مسمًّى لا يتعدّاه ولا يتخطّاه، ولتكون معتبرًا"[3]، وتَحتملُ أن تكون لامَ العاقبة[4]؛ أي: لتكونَ عاقبتُكم الانتهاءَ إلى آجالِكم المحدَّدة؛ لتحاسَبوا ثَمَّ.

### نكتةُ استعمال مفردة البلوغ:

النَّظمُ القرآنيُّ يعالج المقاماتِ بدِقَّةٍ؛ فيوزِّع الأفعالَ على ما يُناسبها

عادَ النّظمُ الكريم إلى التَّعبير بالبلوغ في جملةِ ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ بعد التَّعبير بالكون في جملة ﴿لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ﴾؛ وذلك أنَّ الإنسان يسعى إلى أجله منذ أن يولد، فبلوغُ الأجل غايةُ كلّ حيٍّ سوى الحيِّ ﷻ، وبلوغُ الأشُدِّ غايةُ الإنسان، وبلوغُ الأجل غاية الحياة كلِّها؛ فسبحان من وزَّع البلوغَيْن، ووسَّطَهُما الكونَ شيوخًا!

### بلاغةُ إسناد بلوغ الأجلِ المسمّى إلى واوِ الجماعة:

مهما طالَتِ الأعمارُ فالأجلُ المسمّى سيَبلُغُهُ الجميع

إسنادُ بلوغِ الأجل المسمَّى إلى واو الجماعة في قوله تعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ إسنادٌ مجازيٌّ؛ فإنَّ الإنسان لا يبلغ الأجلَ المسمَّى بنفسِه بل بما كتبه اللّٰه تعالى عليه، ونكتةُ إسناد بلوغ الأجل إلى المخاطَبين وقوعُ التّخويف والتّحذير ممّا يسعى الإنسان إلى بلوغِه بنفسِه وهو عن نهايته في غفلةٍ، كما أنَّ إسنادَ فعل بلوغ الأجل المسمّى إلى المجموعِ - وهو واو الجماعة - توزيعٌ للآجالِ المسمّاة على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 198.
(2) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التّنزيل: 4/ 177.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 568.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 330.

آحادِ أصحابِها؛ "أي: ليبلغ كلُّ واحدٍ منكم أجلًا مسمًّى لا يتعدّاه، وهو أجلُ موته"[1]؛ وبذلك يؤدّي هذا الإسنادُ الدّلالتين دَفعةً؛ ليقومَ مقام إسنادين؛ ففيه إيجازٌ بليغ.

**براعةُ استعمالِ مفردة (أجل) في المعاني المحتمَلة:**

تأجيلُ موتِ الإنسانِ لأقصى زمنٍ مِن مَظاهرِ الرّحمةِ وأدلّةِ الرّأفة

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة (أجل)؛ وذلك لأنَّ منتهى العمر مؤجّلٌ بأجَلٍ ومؤقَّتٌ بوقتٍ، ومحدَّدٌ بدقَّةٍ لا يتجاوزها العمر ولا يسبقُها ألبتة، كما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [الأعراف: 34]، ففي مفردةِ الأجل إيماءٌ إلى أنَّ هذا العمر والزّمن الَّذي يمكث فيه الإنسان حتّى تأتيَ ساعةُ الأجل قد أُجِّل إلى أقصى زمنٍ، فأخَذَ الإنسان حظَّه البالغ فيه، ولم يُسارع إليه الموتُ، إلى أن جاءه الأمرُ بقبض الرّوح، وهذا على القول بأنّ الأجل المسمّى هو موتُ الإنسان، وعلى القولِ بأنّه يوم القيامةِ فإنَّه مؤجَّلٌ لجميعِ الخلقِ، ففيه إشعارٌ بالرّحمة الرّبّانيّة الَّتي جعلها اللّه لعبادِه فيما ضرَبَ عليهم من آجالٍ مفرّقةٍ، وأجلٍ مجموعٍ له النّاسُ جميعًا.

**نكتةُ تنكير ﴿أَجَلٗا﴾:**

ملاءَمةُ الإبهامِ للإخفاء

نُكِّر لفظُ ﴿أَجَلٗا﴾ للإبهام، فيُلائم إخفاءه، ويُعلِمُ الجميعَ بجهلهم به، سواءٌ على القولِ بأنَّه الموتُ لكلِّ حيٍّ، أو يومُ البعث لجميعِ البشر[2]؛ فللدُّنيا أجلٌ، كما أنَّ لكلِّ حيٍّ أجلًا.

**بلاغةُ الكناية في الوصف:**

تسميةُ الأجلِ كنايةٌ عن تعيُّنه بِلَحْظَتِه لكلِّ إنسان

وُصِف ﴿أَجَلٗا﴾ بصفةِ ﴿مُّسَمّٗى﴾ كنايةً عن تعيُّن علمه عند اللّه تعالى، وأنَّ اللّه تعالى سمّاه بوقتٍ محدّدٍ، فكل إنسانٍ يَمضي إلى أجله المسمّى لا يتخطّاه؛ لأنه مسمًّى عند اللّه تعالى، يُطْلِع عليه مَلَكَ الموت حين يشاءُ سبحانه، فتسميتُه تقرِّر ذلك التّحديد، وتنتزع من

(1) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 5/ 150.

(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 661.

نفسِ العبد كلَّ شكّ في أنَّ أجلَهُ محدَّدٌ سلفًا، منذ أنْ كان في بطن أمِّه وأُمِرَ المَلَكُ "بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وأجَلِه، وعَمَلِه، وشَقيٌّ أوْ سَعيدٌ"[1].

### نوعُ الواو ودلالتُها:

غايةُ الغاياتِ بلوغُ العقلِ المطلوبِ منه قبلَ بلوغِ صاحبِهِ الأجلَ المحتوم

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ واوُ العطف، حيث تُبَيِّن الجملةُ المعطوفةُ بها (لعلَّكم تعقلون) سببيَّةَ المعطوف عليه ﴿لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ﴾؛ فغايةُ الغايات مِن ذكرِ هذه المراحلِ المتتابعةِ على الإنسان، وثمرةُ الثّمرات أن يُتوَّجَ الإنسانُ بنعمةِ العقل الرّصينِ، الَّذي يَظفر بواسطته بأسباب الوصول إلى رضوان الخالق العظيم، الَّذي سبق أمرُه تعالى في جملةِ ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٦﴾ [غافر: 66]، وأوَّلُ تلك الأسبابِ امتلاكُ العقل الموفَّق المستنير.

### بلاغةُ استعمال أداة (لعلّ):

مِن أطيبِ ثمارِ العقل السّليم توحيدُ الله تعالى وإخلاصُ العبادة له

تُستعمل (لعلَّ) في الأصل للرَّجاء، والرَّجاءُ لا يجوز على اللّه تعالى؛ فالمعنى هو تَرْجِيَتُهُ سبحانه عبادَه بلوغَ مرادِهِ منهم؛ أي: لتكونوا على رجاءِ بلوغِ درجة العقل، والظَّفَرِ ببَركاتها، والهَناءَةِ بسلامِ نفوسكم وراحةِ بالكم؛ والنَّجاةِ ممّا لا ينبغي الوقوعُ فيه من أسباب غضب اللّه تعالى، فهذا من أجملِ ثمارِ إعمالِ العقل السّليم ونتائجِه.

كما أنَّ أداةَ (لعلّ) تفوحُ بمعنى التّعليل؛ أي: أنه سبحانه قدَّر للإنسان هذه المراحلَ خلال عمره، وبيَّنها له؛ ليعقلَ عن اللّه تعالى، ويستدلَّ بإعمال العقل على وحدانيَّتِهِ وكمالِ قدرته وعظيم حكمته، فيوحِّدَهُ ويخصَّهُ بالعبادة، وهذا طريق الفلاح والوصول.

### دلالةُ التَّعبيرِ بمفردة العقل:

دلَّت مادَّةُ العقل في جملة ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ على طلب حُسن إعمال العقل؛ وذلك يؤدّي حتمًا إلى الإيمان باللّه إلهًا واحدًا لا شريكَ له،

(1) مسلم، صحيح مسلم: كتاب القَدَرِ، بابُ كَيْفِيَّةِ خَلْقِ الآدَمِيِّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وكِتابَةِ رِزْقِهِ...: 4/ 2036 برقم: (2643).

العبرةُ في عَقْلِ السَّليمِ من الأفهام وطَرْدِ السَّقيمِ من الأوهام

والخالقُ ﷻ بدأ الآيةَ الكريمة بالخلق ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ وأكمَلَها بالعقل ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ممّا يدلُّ على أنَّه يريد لعباده أن يُحكِموا التّفكيرَ ويُدَقِّقوا في نتائجه وفْقَ دينه وشريعته، وألّا يَدَعوا أنفسَهم لعشوائيَّة الأفكار؛ فإنَّ الأفهام الصّحيحةَ تأتي للإنسانِ، والأوهامَ الباطلة تُنفى في بعض الأحيان عن الأذهان، لكنَّ العبرةَ ليست في ذلك أو ذاك، بل في عقل السّليم، وطرد السّقيم.

### دلالة التَّعبير بصيغة المضارع:

كمالُ العقلِ في تجدُّدِ الفكر

جاء التَّعبيرُ بالمضارع في فعل ﴿تَعْقِلُونَ﴾ لدعوةِ العباد إلى تجديد التّفكير وإعمال العقل في مراحلِ خلق الإنسان، ممّا يؤدّي إلى الاستدلالِ على وحدانيَّته، وعلى البعث.

### نكتةُ حذف متعلَّقِ فعلِ ﴿تَعْقِلُونَ﴾:

العقلُ المطلوبُ هو الاتّصاف به سلوكًا دائمًا متجدِّدًا

حُذِفَ متعلَّقُ فعلِ ﴿تَعْقِلُونَ﴾ في جملة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إمّا لتنزيلِهِ منزلةَ الفعل اللّازم الَّذي لا يقتضي مفعولًا؛ فيكونُ المعنى: لتتحلَّوا بالعقل، ويَحصُلَ لكم كمالُ العقل الرّصين، وإمّا على إبقائه على تَعَدّيه، ويُقَدَّرُ له مفعولٌ خاصٌّ مناسبٌ للسّياق، فيكون المعنى: لعلَّكم تعقلون أنَّ البعث حقٌّ، كما أنَّ خَلْقَكم حقٌّ، أو مفعولٌ عامٌّ، والمعنى: لعلَّكم تعقلون الحقائقَ إذا نظرتُم في هذا، وتدبَّرتُم حكمة اللّه تعالى[1]، وتعقلون ما في هذه الأحوالِ العجيبةِ من القدرة الباهرة الدّالَّةِ على توحيده وقدرته[2].

### توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ:

المتشابهُ اللَّفظيُّ يتَّسِقُ مع السّياقات، ويثري المقامات، ويدعمُ تحقيق الأغراض

جاءَ في سياق وصف خلقِ الإنسان في سورة الحجّ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 568.
(2) الخازن، لباب التّأويل في معاني التّنزيل: 4/ 80.

﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الحجّ: 5]، فجاء التّفصيلُ في سورة الحجِّ للمراحل السّبع، وذلك أنَّ السّياق صريحٌ في إقامة الحُجّة على المُرتابينَ في أمر البعث، وسَوْقِ الدّليل العقليِّ الكاشف عن إمكانيَّته؛ فكان من الضّروريِّ تفصيلُ المراحل السَّبع لخلق المُرتابين دون إجمال، وقد قال الله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذّاريات: 21].

بينما اختصَّت سورة غافر بذكر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ﴾ فعطَفَ طَوْرَ الشّيخوخة على طورِ الأشُدِّ باعتبار أنَّ الشّيخوخة مقصدٌ للأحياء لحبِّهمُ التّعميرَ، فهذه الآيةُ وردَتْ مَورِدَ الامتنان، فذُكر فيها الطّورُ الَّذي يَتَملَّى المرءُ فيه بالحياة، ولم يُذكَرْ في آية سورة الحجِّ؛ لأنها وردتْ مَورِدَ الاستدلال على الإحياء بعد العدم؛ فلم يُذكر فيها من الأطوار إلّا ما فيه ازديادُ القوَّة ونماءُ الحياة دون الشّيخوخة القريبة من الاضمحلال، ولأنَّ المخاطبين بها فريقٌ معيَّنٌ من المشركين كانوا في طور الأشُدِّ، وقد نُبِّهوا عقب ذلك إلى أنَّ منهم نفرًا يُرَدّون إلى أرذلِ العمر، وهو طور الشّيخوخة بقوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ [الحج: 5][1].

وقال ﷻ في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 12 - 14]. وواضحٌ أنَّ السّياق هنا يركّز على مراحلِ التّخليق الأولى للإنسان في رحم أمِّه قبل الولادة بتفاصيلِها الأدقّ؛ إذ تختصُّ كلُّ مرحلةٍ منها بِخلْقٍ صريح: (﴿خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [المؤمنون: 12]... ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا﴾ ... ﴿فَخَلَقۡنَا﴾ ... ﴿فَخَلَقۡنَا﴾ ... ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾ [المؤمنون: 14]).

أمّا في سورة غافر فيقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ فنصَّ النّظم الكريم هنا على ثلاثِ مراحلَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 201.

قبل الولادة وثلاثٍ بعدَها مِن دونِ الخوضِ في التّفاصيل السّابقة؛ إذ المَقامُ هنا بصددِ تحرير قضيَّة التّوحيدِ لا التّدليلِ على إمكان البعث؛ لذلك ساق النّظم الكريم تلك المراحلَ ضمن أدلَّةٍ أُخرى على وحدانيَّة اللّه تعالى؛ فكان ما ذكر من مراحلِ خلق الإنسان كافيًا ومتَّسقًا مع تلك الدّلائل الأُخرى.

## الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### الخَلْقُ والجَعْلُ:

الخلقُ إبداعٌ وتقديرٌ، والجعلُ تصييرٌ من حالٍ إلى آخر

الخلقُ فيه معنى الإبداعِ والتَّقدير، وفي الجعل معنى التّصيير، كإنشاءِ شيءٍ من شيء، أو تصييرِ شيءٍ شيئًا، أو نقلِهِ من مكانٍ إلى مكان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ [الأعراف: 189]، ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]؛ لأنَّ الظّلماتِ من الأجْرامِ المتكاثفة، والنّورَ من النّار[1].

(1) السمين الحلبي، الدّر المصون في علوم الكتاب المكنون: 4/ 523.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٦٨﴾ [غافر: 68]

القادرُ على خلق الإنسانِ مِن ترابٍ قادرٌ على إحيائه من تراب

## ۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَقَطَ الإمامُ الرّازيُّ الخيطَ الدّقيقَ الرّابطَ بين هذه الآية الكريمة وما قبلها فقال: "لمّا ذكر اللّه تعالى انتقالَ الإنسان من كونه ترابًا إلى كونه نطفةً، ثمَّ إلى كونه علقةً، ثمَّ إلى كونه طفلًا، ثمَّ إلى بلوغِ الأشُدِّ، ثمَّ إلى الشّيخوخة، واستدلَّ بهذه التّغيُّرات على وجود الإله القادر؛ قال بعده: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾؛ يعني: كما أنَّ الانتقالَ من صفةٍ إلى صفةٍ أخرى من الصّفات الَّتي تقدَّم ذِكرُها يدلُّ على الإلهِ القادر، كذلك الانتقالُ من الحياةِ إلى الموت وبالعكس يدلُّ على الإله القادر"[1].

## ۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَضَىٰٓ﴾: القَضاءُ: الحُكْمُ. والجَمْعُ: الأَقْضِيَةُ. والقَضِيَّةُ مِثْلُهُ، والجَمْعُ: القَضايا. وقَضَى، يَقْضِي - بِالكَسْرِ - قَضاءً؛ أَيْ: حَكَمَ. ومِنْهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23][2]، فمعنى الفعل ﴿قَضَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: حَكَمَ حُكمًا لازمًا جازمًا لا يتخلَّفُ.

## ۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

القــادرُ على الإحياءِ والإماتةِ هــو الـقـاضي بجميعِ المُمكِنات

تُبيِّن الآيةُ الكريمة أنَّ اللّهَ تعالى هو وحدَه القادرُ على بثِّ الحياة وإيجادِها في الأموات، وهو وحده القادرُ على سلب الحياة من الأحياء وإنزالِ الموت بهم متى شاء، وتلك هي الإرادة النّافذة،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 532.
(2) الرازي، مختار الصحاح: (قضي).

وتلك هي القدرة المطلقة؛ فإذا تعلَّقتْ إرادته بتنفيذ أمرٍ أو إيجاد شيءٍ تحقَّقَ هذا الأمرُ، ووُجِد هذا الشّيءُ بمجرَّد إرادته سبحانه إيّاه، وبلا حاجة إلى أيِّ معالجةٍ، فهو ﷻ القادرُ على كلّ شيء، الَّذي "لا يَتَعاصَى على قدرته شيءٌ، وإذ يقول للشَّيءِ: ﴿كُن﴾ يكونُ بلا تأخيرٍ"[1]؛ فسبحانه سبحانه آناءَ اللَّيل وأطرافَ النّهار!

## ۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### علَّةُ فصلِ الجملة عمّا قبلها:

عِلْمُ خلقِ الحياةِ عند التّكوينِ، والموتِ عند انتهاء الأجلِ مِن أولى أولويّات العِلم

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۖ﴾؛ لأنَّه استئنافٌ، ومناسبةُ مَوقعِهِ من قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلًا﴾ إلى ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾: أنَّ مِن أوَّل ما يُرجَى أن يَعقلوه هو ذلك التّصرُّف البديع بِخَلْقِ الحياة في الإنسان عند تكوينه بعدَ أن كان جثَّةً لا حياة فيها، وخَلْقِ الموت فيه عند انتهاء أجله بعد أن كان حَيًّا متصرِّفًا بقوَّته وتدبيره[2].

### فائدةُ ذكرِ الضَّميرِ المنفصِلِ وتكرارِه:

إفادةُ قصرِ الأفعالِ على الله تعالى

كُرِّر ضميرُ الجلالةِ ﴿هُوَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ﴾ بعدَ سَبْقِ ذكرِه في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾؛ لقصرِ تلك الأفعال والحقائق على الله تعالى، والقطعِ بأنَّه لا يشاركه أحدٌ فيها؛ وذلك أنَّ تقديم الضّمير يفيدُ تقرير نسبة المسند ﴿ٱلَّذِى يُحۡىِۦ﴾ إليه سبحانه، ويرفعُ كلَّ شكٍّ في ذلك؛ إذ الضّميرُ أعرفُ المعارف، والنِّسبةُ إليه نوعُ تقريرٍ وتوكيدٍ، كما سبَقَ في الضّمير الأوَّل في جملة ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾، ولزيادةِ التّنبيه على القصر؛ أي: هو

(1) الشّنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: 2/ 377.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 199.

الَّذي يقدر على الإحياء والإماتة[1]، ودفعًا لِما قد يُتَوهَّم في عدم ذكرِ الفاعلِ في قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ﴾، مِن أنَّ مَن قَتَلَ غيرَهُ قبلَ الشيخوخةِ يكون هو المُميتَ المُتوفّيَ له؛ فرُفِع ذلك بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾؛ أي: هو لا غيرُه[2]؛ فأفاد القصر.

### بلاغةُ التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِي﴾:

جاء التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ﴾ دون الاسم الظّاهر (المحيي والمميت) لإشباع دلالةِ القصر؛ فإنَّ الاسم الموصول يُشعر بالخصوصيّة؛ أي: الَّذي يحيي هو اللّه تعالى، ولو قيل: هو المحيي لحُمِل على الخبرِ المجرّدِ، وللتّعريضِ بالمشركين الَّذين يعبدون ما لا يُحيي ولا يُميت، فكأنّه قيل: هو الَّذي يُحيي ويُميت لا ما تعبدون من دونه أيُّها الحمقى! ففيه أنَّ الخالقَ هو المستحِقُّ للعبادةِ لا المخلوق.

**التّعريضُ بالمشركين الَّذين يعبدون ما لا يُحيي ولا يُميت**

### دلالةُ التَّعبير بصيغةِ المضارع:

جاءتْ مفردةُ (الإحياء) صلةَ الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ﴾ تنبيهًا على عظمة اللّه تعالى، فهو الَّذي يمتلك الإحياءَ، وهو بَثُّ الحياة في شيءٍ ميِّتٍ لا روح فيه، وتلك خِصّيصةٌ له ﷻ، يَهَبُها مَن يشاء من خلقه.

**بَثُّ الحياةِ في الأمواتِ خِصّيصةٌ يجدِّدُها اللّه تعالى فيمَن يشاء مِن خلقه**

وفي صَوْغِ مفردة الإحياء بصيغةِ المضارعِ في جملة ﴿يُحۡيِۦ﴾ استحضارٌ لهذه الحالة الَّتي تكون للأحياءِ عند بثِّ الرّوح فيهم، كما ورد عن رسول اللّه ﷺ: «يُجْمَعُ خَلْقُ أحَدِكُمْ في بَطْنِ أُمِّهِ أرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ يَكونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذلكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللّهُ ﷻ إلَيْهِ مَلَكًا مِنَ المَلائِكَةِ، فيَقولُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ وأجَلَهُ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 331.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 5/ 150.

ورِزْقَهُ، واكْتُبْهُ شَقيًّا أَوْ سَعيدًا»[1]، كما أنَّ المضارعَ يدلُّ على تجدُّدِ فعلِ الإحياءِ على الدّوام في المخلوقات، فإنَّ الإحياءَ فعلٌ متجدِّدٌ لا يتوقّف ما دام هناك أجلٌ سارٍ في الحياةِ الدُّنيا.

### بلاغةُ القصر بتعريفِ الجزأين:

التَّفرُّدُ بالإحياء والإماتة

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ قصرٌ بتعريفِ طَرَفَيِ الإسناد؛ لقصرِ الإحياء والإماتة عليه دون خَلْقِه، فهو المتفرِّد بذلك، لا يقدر على ذلك أحدٌ سِواه[2].

### نوعُ الواو ودلالتُها التّقابُليّة:

تكميلُ المعاني العقديَّة وتتميمُ الدّلالات المترابطة

الواوُ في قوله تعالى: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ واوُ العطف، معناها تشريكُ جملة (يميت) مع جملة صلة الموصول ﴿يُحْىِۦ﴾، فالإحياءُ والإماتةُ بمجموعِهما يُمَثِّلان صلةَ الموصول، ويُتَمِّمان القصرَ المقصود في جملتِهما الكبرى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، وهو من عطفِ الضِّدِّ على ضدّه، فإنَّ الإحياءَ يُقابل الإماتةَ، وفي العطفِ تكميلٌ للمعاني العقديَّة، وتتميمٌ في ردِّ النّهاية على البداية، فمَن أوجَدَ الإحياءَ هو الَّذي يُنْهي وجودَه.

### نكتةُ تقديمِ الإحياء على الإماتة:

لا إماتةَ إلّا لِحَيٍّ سبَقَتْ فيه الحياة

قَدَّم النّظم الكريم فعل الإحياء ﴿يُحْىِۦ﴾ على فعل الإماتة ﴿وَيُمِيتُ﴾ متابَعَةً لواقع الحال؛ إذ لا إماتةَ إلّا لِحَيٍّ سبق عليه فِعلُ الإحياء، وقد اطَّرد ذلك التّرتيب في الذّكر الحكيم إلّا في سياق ذِكر الابتلاء، حيث يقول ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك: 2]، فالدّنيا دار ابتلاءٍ ونهايتُها الموتُ، والموت غاية الإحياء، وهو قاطع اللَّذّاتِ، وبوّابةُ الحساب إلى التّوفيق أو الإخفاقِ في ذلك الابتلاء.

---

(1) ابن حنبل، مسند أحمد: مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحابَةِ، مُسْنَدُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعودٍ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهُ: 7/ 48 برقم: (3934).

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 157.

### بلاغةُ فنِّ الطِّباق:

الجَمْعُ بين فعلَي الإحياءِ والإماتة دليلٌ على القدرة المُطْلقة

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ طباقٌ بين فعلي: ﴿يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۖ﴾؛ وذلك الجمع يدلُّ على قدرة اللّه تعالى المطلقةِ الَّتي تَقدِر على إجراء الفعلين على النّفس ذاتها؛ والجمعُ بين فعلي الإحياء والإماتة هو الخِصّيصةُ الأدَلُّ على بيان قدرة اللّه تعالى المطلقة؛ إذ من النّاس مَن يَزعُمُ أنَّه يُميتُ ويَقدِر على أنْ يُذهِبَ الحياة بالقتل ونقض البِنية؛ لكن مَن يُعتقَد فيه القدرةُ على الإماتة أعجَزُ عن أن يجمع إليها الإحياء؛ وذلك من أبدع عطاءات الطّباق في هذه الآية، ولذلك لمّا قال إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]، راوَغ الكافر قائلًا: ﴿أَنَا۠ أُحۡىِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: 258] حاكمًا على نفسٍ بالقتل، عافيًا عن أُخرى.

### نكتةُ حذفِ متعلَّقِ فعلَي الإحياء والإماتة:

إبـرازُ المقصـودِ بالخطابِ أولى من ذكر المعلوم

حَذَفَ النّظم الكريم مفعولي فعلِ الإحياء والإماتة، فلم ينصَّ على أيٍّ منهما؛ وذلك لعدم تعلُّق الغرض بالنصّ على مُحيًا معيَّنٍ ولا مُماتٍ محدّد، بل المقصودُ إثبات أصل الفعلين للفاعل جَلَّ جَلَالُهُ، بقطع النّظر عن مفعولٍ مخصوص، وحذفُ متعلَّقِ الفعلين يُقرِّبُ بين الفعلين، ويُصَفّي العبارةَ ممّا يَشغَلُ عن المقصودِ الأساسيِّ مِن متعلَّقاتِ الفعلين.

### نوعُ (الفاء) ودلالتُها:

تـفريـعُ المعنى على المعنى بيانٌ لارتـبـاطِ الـفرعِ بالأصلِ

(الفاءُ) في جملةِ ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ تَحتملُ أن تكونَ استئنافيَّةً - وهي للدّلالة على أنَّ ذلك نتيجةُ ما سبَقَ، من حيث إنَّه يقتضي قدرةً ذاتيَّة غيرَ متوقِّفةٍ على العُدَدِ والموادِّ[1]، فهو يُحيي ويُميت؛ لأنَّه المتَّصِفُ بالقدرة على الإحياءِ والإماتة لا لأمرٍ آخر، وهذا لا يكون إلّا له تعالى - وتَحتمِلُ أن تكونَ تفصيليّةً، وتعليليَّةً[2]، وتفريعيَّةً؛ لتفريعِ

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 5/ 63.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 337.

الإخبارِ بما بعدها على الإخبار بما قبلها[1]؛ ففيها ثراءٌ في الدّلالات، وغزارةٌ في المعاني، ومعاني الفاءِ متقاربةُ الدّلالةِ، مُتآلِفةُ المعاني.

**لطيفةُ إيثارِ التّقييد بـ (إذا) دون (إنْ):**

تطريةُ النُّفوسِ بقضاءِ الله تعالى وحسنِ تدبيره

جاء استعمالُ أداةِ (إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ دون (إنْ)، ودون (لو) بطريق الأَوْلى؛ وذلك أنَّ قضاء الله تعالى أمورَ مخلوقاته وتدبيرَهُ شؤونَهم أمرٌ قطعيّ، فحقُّ الله تعالى في خلقه وتصرُّفُه فيهم وتصريفُه شؤونَهم حقٌّ له مطلَق، كما أنَّ في استعمال (إذا) تنبيهًا للعباد بأنَّ ما يقع لهم، وما يطرأ عليهم من أحوالٍ وأحداث إنَّما هو قضاء الله تعالى، فلْتَطِبْ نفوسُهم ولْتَقَرَّ أعينُهم.

**دلالةُ استعمال مفردةِ ﴿قَضَىٰٓ﴾:**

الإيماءُ إلى سرعةِ القضاء وقطعيَّةِ الإنفاذ

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة القضاء في جملة ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ دون رديفاتها كالحُكم أو التّقدير؛ وذلك لِما في لفظ القضاء من الدّلالةِ على الإرادة الكونيّة، وسرعة الإنجاز وقطعيّة الإنفاذ، وللإيماءِ إلى معنى بروز أمرٍ من الأمور إلى الوجود الخارجيِّ[2] عند القضاءِ، وأنَّ قضاءه ﷻ جاء وفْقَ الحكمة الإلهيّة، فقضاؤه لأمرٍ هو كقضائه لجميعِ الأمور، ولتوريثِ الرّاحة والسّكينة والطُّمأنينة لقضاء الله تعالى.

**علَّةُ التَّعبير بصيغة الماضي:**

تحقُّقُ ما سيقعُ بمنزلةِ ما وقع؛ تنزيلًا للمستقبَلِ منزلةَ الماضي

في صَوْغ فعل القضاء ماضيًا في جملةِ ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ وليس كلُّ ما قضاه الله تعالى وقَعَ عند نزول الآيةِ إشارةٌ إلى تَحقُّق أقْضيَةِ الله تعالى، والفراغ منها ممّا كان وما هو كائن وما سوف يكون؛ فالله تعالى عالمٌ بالعواقب غيرُ جائزٍ عليه البَداءُ[3]، وإنما هي أمور يُبديها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 199.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 336.
(3) الجصاص، أحكام القرآن: 2/ 276.

ولا يَبتَديها[1]، ولمّا سبق في علم اللّه سبحانه أنَّه يوجد ذلك الشّيء، وأنَّه يقول له: كن فيكون؛ كان تحقُّقُ وقوعِه بمنزلةِ وقوعِه، أو لأنَّه أُطلِق عليه اسم الشّيء باعتبار وجوده المستقبليِّ، كَتَسْمِيَةِ العصير خمرًا في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: 36]؛ نظرًا إلى ما يَؤولُ إليه في ثاني حالٍ[2].

**غرضُ تنكير لفظِ ﴿أَمۡرٗا﴾:**

ما شاءَ اللهُ كان

نُكِّرَ لفظ ﴿أَمۡرٗا﴾ لبيانِ العموم، فإنَّ اللّه تعالى إذا قضى أيَّ أمرٍ من الأمور فإنَّه واقعٌ لا محالة، والنَّكرة في سياق الشَّرط تفيد العمومَ.

**نوعُ الفاء ودلالتُها:**

الفاءُ في جواب الشّرط ركيزةٌ يُبنَى عليها ارتباطُهُ بشرطه

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ واقعة في جواب الشّرط ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾؛ فالفاء تُمثِّل ركيزةً تُبنى عليها جملةُ جواب الشّرط، وتربطها بشرطها، وهو أنَّه ﷻ لمّا نقل هذه الأجسام مِن بعض هذه الصّفات إلى صفةٍ أخرى لم يَتْعَبْ في ذلك التّصرُّف، ولم يَحْتَجْ إلى آلةٍ وأداة؛ فعبَّر عن نُفوذِ قدرته في الكائنات والمُحدَثات من غير معارِضٍ ولا مدافِعٍ[3]، فهو إنَّما ﴿يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

**معنى (إنّما) في جملةِ القصر:**

إرادةُ الله تعالى إذا صَدَرَتْ تحقَّقَ الأمرُ وُجودًا

دلَّتِ الأداةُ (إنَّما) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ على القصر؛ أي: فما يكون من اللّه تعالى إلّا إرادةُ ذلك الأمرِ وحصولِه، الَّتي هي بمثابةِ الأمرِ الكلاميِّ ﴿كُن﴾، فلا يتأخَّر حصوله لحظةً، بل (يكون) على وجه الفوريَّة، بلا معاناةٍ ولا معالجة في تحقيق هذا الأمر المقضيِّ مهما عظُمَ، وإنما هو الأمرُ الفوريّ ﴿كُن﴾ لفظًا كان أو إرادةً امتثالًا للقدرة الإلهيَّة المطلقة.

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 18/ 327.
(2) الشّنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: 2/ 377.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 532.

استحضارُ الأمرِ بحكايةِ الحال

**دلالةُ التَّعبير بالمضارع:**

التَّعبير بصيغة المضارع ﴿يَقُولُ﴾ استحضارٌ للأمر حين كان في عالم الأزل؛ إذ إنه ﷻ قدَّر ما كان وما يكون وما هو كائنٌ، وفرَغ من ذلك كلِّه.

أمرُ اللهِ بالغٌ مُحقَّق

**نوع (اللّام) ومعناها في ﴿لَهُۥ﴾:**

(اللّام) في القيد بالجارّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ في جملة ﴿يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ لامُ التّبليغ، فإنَّ أمرَ اللّه تعالى إذا صدَرَ في حقِّ شيءٍ فإنّه يَبلُغُه على التّحقيق والقطع.

صدورُ (كُن) تحقيقٌ للإرادةِ الإلهيَّة وقطعٌ بوجودِها

**غَرَضُ الأمر وبلاغتُه:**

الأمرُ ﴿كُن﴾ جاءَ على بابه من الإلزام والقهر؛ فإرادةُ اللّه تعالى وأمرُه نافذان لا يتأخَّران، والفعلُ ﴿كُن﴾ أوجَزُ الأفعالَ في بابه وأكثرُها اختصارًا؛ فهو مُكوَّنٌ من حرفين: أحدهما للبَدءِ والثّاني للخَتْم، والختمُ ساكنٌ يحكي التَّمامَ، تمامَ الإذعانِ والكون.

ويَحتمِلُ الأمرُ بـ ﴿كُن﴾ احتمالين؛ **الأوّلُ**: الأمرُ اللَّفظيُّ المكوَّن من حرفين، وهذا استعمالٌ حقيقيٌّ، و**الثّاني**: الإرادةُ الإلهيَّةُ الَّتي لا تتعلَّقُ بلفظِ ﴿كُن﴾، والثّاني نتيجةُ الأوَّل، ولا مانعَ من صدورِ ذلك عن اللّه تعالى كما أخبَرَ سبحانه، مع إرادة الإرادة الإلهيّة المتعلقة بما أراد، وقولُه تعالى للأمر: ﴿كُن﴾ "بيَّنَ أنَّه لا يحتاج أنْ يكرّر قوله: ﴿كُن﴾، بل إذا قال للشَّيء: ﴿كُن﴾ مرَّةً واحدةً كانَ وحصَلَ بأسرعَ من لمحِ البصر، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾ [القمر: 50]، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٧٧﴾ [النحل: 77]"(1).

**نكتةُ حذفِ فاعل ﴿كُن﴾:**

فعلُ ﴿كُن﴾ هنا فعلٌ تامٌّ، بمعنى: تَكَوَّنْ وفْقَ إرادةِ آمِرِك سبحانه،

(1) الشّنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: 2/ 377.

وفاعلُه محذوفٌ وجوبًا تقديرُه (أنت)، والمرادُ المخاطَبُ بتوجيهِ الأمرِ له، وحُذِفَ الفاعلُ للتَّأكيدِ على سرعةِ تحقُّقِ ما يريدُهُ اللّه ﷻ.

تأكيدُ سُرعةِ تَحَقُّقِ أمرِ الله

**بلاغةُ استعمالِ مفردة (يكون) مضارعًا:**

التَّعبيرُ بالكون في الفعل المضارع (يَكونُ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ كونٌ تامٌّ، والمعنى: فيوجد ذلك الأمر ويتحقَّقُ، والمضارعة في الفعل (يكون) تعبِّر عن مطابقة تجدُّد الكون، وعن حدوثِ الأوامر المَقْضيَّة في عالم الواقع، وظهورِها في أحايينها للوجود تطبيقًا واقعيًّا؛ فالمضارعةُ حقيقيَّةٌ في الحدوث والتّجدُّد، فإرادة اللّه تعالى الأمرَ وقوله له: ﴿كُن﴾ لَحْظيٌّ، واستجابةُ الأمر له فوريَّةٌ، أمّا كونُ الأمر ووجودُه ونضجُه وتمامُه فقدَّر اللّه تعالى أيضًا أن (يكون) بأسبابه؛ لذلك جاء التَّعبير عنه بالمضارع (يكون)، وفيه مناسبةٌ للسّياقِ؛ فالانتقالُ مِن كونِ الإنسانِ ترابًا إلى كونه نطفةً فعلقةً هي انتقالاتٌ تحصل على التّدريج، وأمّا صيرورةُ الحياة فهي إنَّما تحصل لتعليق جوهر الرّوح النّطقيّة به، وذلك يحدث دَفعةً واحدة؛ فلهذا السّبب وقع التَّعبير عنه بقوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[1].

صدورُ الأمرِ الإلهيِّ لَحْظيٌّ، وتحقيقُهُ فوريٌّ

**نوعُ الفاء ومعناها بحسبِ اختلاف القراءات:**

يختلف معنى (الفاء) في جملةِ ﴿فَيَكُونُ﴾ بناءً على اختلاف القرّاء في قراءتها، فقرأ الجمهورُ بالرفع، على جعل ﴿فَيَكُونُ﴾ خبرًا لمبتدإٍ محذوف تقديره: هو، والفاءُ حينئذٍ تحتمل العطفَ والاستئناف[2]، وقرأ ابنُ عامر: ﴿فَيَكُونَ﴾ بفتح النّون منصوبًا بإضمار (أنْ)، فتكون الفاءُ سببيَّةً[3]. وهي على كِلتا القراءتَين

تعلُّقُ إرادة الله تعالى بحصول الأمر كافٍ لسرعةِ وُجودِه وإيجادِه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 532.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 220، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 515، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 24/ 272.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 515.

أومَأتْ إلى معنى السّرعة والتّعقيب، فبمجرَّدِ صدور الأمر يحصلُ المأمورُ دون مسافةٍ زمانيَّة فاصلة، أو انتظارٍ، أو تعليقٍ، بقطع النّظر عن زمان ظهورِه للواقع، كأنَّه قال: فلذلك مِن الاقتدار إذا قضى أمرًا كان أهونَ شيءٍ وأسرعَه[1]. وفي حذفِ المبتدإ على قراءةِ الرَّفع ما يوحي بسرعة حصول المأمور، وكأنَّ وقتَ حصول الاستجابة لأمرِ اللّهِ يَضيقُ عن ذكر المبتدأ.

إثـراءُ الـدَّلالاتِ البلاغيَّة

**بلاغةُ توجيهِ القراءاتِ القرآنيّة المتواترة في ﴿فَيَكُونُ﴾:**

قرَأ ابنُ عامرٍ: ﴿فَيَكُونَ﴾ بفتح النّون منصوبًا بـ: (أن) مضمرةً بعدَ الفاءِ الواقعةِ في جوابِ الأمر ﴿كُن﴾ على قولِ بعضهم، وعلى قولِ الجمهورِ والمُحقِّقين: نُصِبَ بـ(أن) مضمرةً بعدَ الفاءِ الواقعة بعدَ الحصرِ بـ: (إنَّما)، قال الأشمونيُّ: "قد تُضمَرُ (أنْ) بعدَ الفاءِ الواقعةِ بعدَ حصرٍ بـ: (إنَّما) اختيارًا ... نحو: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونَ ٤٧﴾ [آل عمران: 47] في قراءةِ مَن نصَبَ"[2].

وتوجيهُ ذلك - واللّه أعلم -: أنَّ الحصرَ بـ(إنَّما) نظيرُ الحصرِ بـ(النَّفي وإلّا) فقولي: (إنَّما يسافرُ زيدٌ فيطلبَ الرِّزْقَ) معناه: ما يكونُ مِن زيدٍ إلّا أنْ يسافرَ فيطلبَ الرِّزقَ، وتوجيهُ الآيةِ على ذلك: (إذا قضى أمرًا فما يكونُ مِنه إلّا أنْ يقولَ له: كن فيكونَ).

وقرَأ الباقون بالرَّفع على الاستئناف أو العطف، وهو خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ؛ أي: فهو يكونُ[3].

## ۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

**(حكم) و(قضى):**

القضاءُ يقتضي فصْلَ الأمر على التَّمام، من قولك: قضاه إذا

(1) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التّنزيل: 4/ 178.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 220، والأشموني، شرح الأشموني على الألفيّة: 3/ 229.

(3) الشّنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: 2/ 377.

القضاءُ فَصْلُ الأمر على التَّمام، والحُكْمُ فَصْلُ الأمر على الإحكام

أتمَّه وقطَعَ عملَه، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ﴾ [الأنعام: 2]؛ أي: فصَلَ الحكمَ به، ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: 4]؛ أي: فصَلْنا الإعلامَ به، وقال تعالى: ﴿قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ: 14]؛ أي: فصَلْنا أمرَ موتِه.

والحُكم يقتضي المنعَ عن الخصومة، من قولك: أحكمتُهُ إذا منعتَهُ، ويجوز أن يُقال: الحكم فَصْلُ الأمر على الإحكام بما يقتضيه العقلُ والشَّرع، فإذا قيل: حَكَمَ بالباطل فمعناه: أنه جَعَلَ الباطل موضعَ الحقِّ، ويُستعمل الحُكم في مواضعَ لا يُستعمل فيها القضاء، كقولك: حُكمُ هذا كحُكمِ هذا؛ أي: هما متماثلان في السَّبب أو العلَّة أو نحوِ ذلك[1].

(1) العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 431.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ٦٩ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ٧١ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ٧٢﴾ [غافر: 69 - 72]

## مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من ذكرِ أدلّـة التّوحيدِ إلى ذكرِ العجب ممّن يُجادل فيها

لّما ذكرتِ الآياتُ السّابقة الأدلّةَ على وحدانيَّته سبحانه - ومنها ذِكرُ أطوار خلق الإنسان، وأنَّه سبحانه المتفرّد بالقدرة على الإحياء والإماتة - ناسَبَ ذكرُ سبب ذلك البيان، وهو وجودُ المجادلين في آيات الله تعالى، وأنّ سببَ المجادلةِ وعدم الإذعان هو التّكذيب بالقرآن والرِّسالة، وأنَّ الرَّدَّ على المكذِّبين يكون ببيان الأدلّة الواضحة، والحجج الظّاهرة، ثمَّ بالتَّرهيب والوعيد الشّديد إنْ لم يُذعنوا للحقِّ، ويخضعوا لأمرِ الله ﷻ.

لذلك أعقبَ الآياتِ السّابقةَ هنا بتعجيبِ المخاطَب مِن حال هؤلاء الكافرين المجادِلين، المنصرِفين عن جادّة الحقّ إلى الضّلال، وزجَرَهم عنه وهدّدهم بالوعيد الشّديد بِغَلِّهم بالأغلال، وسحبِهم بالسَّلاسلِ في الحميم، وسَجْرِهم بالنّيران.

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ الجدالُ: المعارضةُ على سبيل المنازعة والمغالبة. وأصله من جَدَل الحَبْل: أحكَمَ فَتْله؛ كأنَّ كلًّا من المتجادلَين يفتِل الآخرَ عن رأيه، وقيل: الأصلُ في الجَدَلِ: الصّراعُ وإسقاط الإنسان صاحبَه على الجَدالة؛ أي: الأرضِ الصَّلبة، والأجدلُ: الصّقر المحكم البِنْية، والمِجْدَل: القصر المحكَمُ البناءِ[1]، ومعنى

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز: (بصيرة في الجدال) مختصرًا.

﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: يعارضونه على سبيل المنازَعة والمغالبة.

2) ﴿يُصۡرَفُونَ﴾ (صرف) معظمُ بابِه يدلّ على رَجْع الشّيء. من ذلك: صرفتُ القومَ صَرفًا وانصرفوا، إذا رَجَعتَهم فرجعوا، والصَّرف في القرآن: التّوبة؛ لأنّه يرجعُ به عن رتبة المذنبين، ومعنى الصّرف عندنا أنَّه شيءٌ صُرِف إلى شيءٍ، كأنَّ الدّينار صُرِف إلى الدّراهم؛ أي: رجع إليها، إذا أخذت بدله. قال أبو عبيد: صرف الكلام: تزيينه والزّيادة فيه، وإنما سُمّي بذلك لأنَّه إذا زُيِّن صَرَف الأسماعَ إلى استماعه. ويقال لحدث الدّهر: صرف، والجمع: صُروف، وسُمّي بذلك لأنَّه يتصرَّفُ بالنّاس؛ أي: يُقَلِّبُهم ويُرَدِّدُهم[1]، ومعنى ﴿يُصۡرَفُونَ﴾: يرجعون ويتحوَّلون عن الحقّ إلى الباطل.

3) ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾: الغَلَلُ أصله: تدرُّع الشّيء وتوسُّطه، وانْغَلَّ فيما بين الشّجر: دخل فيه، فالغُلُّ مختصّ بما يُقيَّدُ به فيجعلُ الأعضاءَ وسطه، وجمعه أغْلالٌ، وغُلَّ فلانٌ: قيّد به. قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠﴾ [الحاقّة: 30]، وقال: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الأعراف: 157]، وقولُهُ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا﴾ [يس: 8] معناه: منَعَهم فعلَ الخير، وذلك نحوُ وصفِهم بالطّبع والختم على قلوبهم، وعلى سمعهم وأبصارهم[2]، ومعنى ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾: القيود والأصفاد الَّتي تُطوِّقُهم، وتقهرهم، وتُذلُّهم في الآخرة.

4) ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾: سَلَّ الشّيءَ من الشّيء: نزَعَهُ، كسلِّ السّيفِ من الغِمد، وسَلِّ الشّيء من البيت على سبيل السّرِقة، وسَلِّ الولد من الأب، ومنه قيل للولد: سَليلٌ. قال تعالى: ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ﴾ [النّور: 63]، ومنه السِّلْسِلَةُ، قال تعالى: ﴿فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا﴾ [الحاقّة: 32]، وقال تعالى: ﴿سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ٤﴾ [الإنسان: 4]، وقال: ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ﴾[3].

و"السِّلسِلَةُ: اتِّصال الشّيء بالشّيء. والسِّلسلةُ: معروفةٌ، دائرةٌ من حديدٍ ونحوِه من الجواهر، مشتقٌّ من ذلك. وسلاسلُ البرق: ما تسلسَلَ منه في السّحاب، واحدته سِلسِلةٌ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرف).
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (غلل).
(3) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (سل).

وكذلك سلاسلُ الرّمل، واحدتُها سِلسِلةٌ وسِلسِلٌ"[1]. ومعنى ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾: حِلَقُ الحديد المتَّصلِ بعضُها ببعض، تطوِّق أعناقَ الجرمين في الآخرة؛ إهانةً لهم وتعذيبًا.

5) ﴿يُسۡحَبُونَ﴾: أصلُ السَّحْب: الجَرُّ، كسحب الذَّيْل والإنسانِ على الوجه، ومنه: السَّحابُ، إمّا لجرِّ الرّيح له، أو لجرِّه الماءَ، أو لانجرارِهِ في مَرِّهِ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ [القمر: 48]، وقال تعالى: ﴿يُسۡحَبُونَ ۞ فِي ٱلۡحَمِيمِ﴾، وقيل: فلان يَتَسَحَّبُ على فلان، كقولك: ينجرُّ، وذلك إذا تجرَّأ عليه، والسَّحابُ: الغيمُ سواءٌ كان فيها ماءٌ أو لم يكن، ولهذا يقال: سحابٌ جَهامٌ، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ [النّور: 43]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا﴾ [الأعراف: 57]، وقال: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢﴾ [الرّعد: 12][2]، ومعنى ﴿يُسۡحَبُونَ﴾: يُجَرّون مُنكَفِئينَ على وجوههم؛ إمعانًا في الإهانة والتّعذيب.

6) ﴿يُسۡجَرُونَ﴾: السَّجْر: تهييجُ النّار. وقد سَجَرْتُ التَّنّورَ، ومنه: ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾ [الطّور: 6]. وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦﴾ [التّكوير: 6]؛ أي: أُضرِمتْ نارًا، وقيل غيضت مياهُها، وإنَّما يكونُ كذلك لتسجيرِ النّار فيها. وقولُهُ: ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ هو نحوُ قولِه سبحانه: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [البقرة: 24]. وسَجَرَتِ النّاقةُ سَجْرًا وسجَّرَتْ تسجيرًا: مَدَّتْ حنينَها في أثَر ولدها، وملأت به فاها[3]، ومعنى ﴿يُسۡجَرُونَ﴾: تُلْهَبُ فيهم النّار، وتُضرَم، وتُهيَّج؛ إمعانًا في معاقبتهم جزاءً وفاقًا.

## المَعْنى الإجْماليُّ:

تُخاطِبُ الآياتُ الكريمة رسولَ اللّه ﷺ قائلةً له: انظر إلى حال هؤلاء الكافرين، الَّذين يناوِئونك ويخاصمونك في جميع آيات اللّه تعالى البيِّنات؛ يحاولون بذلك إعاقةَ نشر الدّين وتبليغِه إلى العالمين؛ فهو ممّا يُثير عَجَب العقلاء؛ فتأمَّل كيف يُخدَعون عن الحقِّ، وكيف يُبْعدون عنه[4] ويذهبون في طريق الضّلال، مُتَعامين عمّا في تلك الآيات من الحُجَج والبراهينِ الدّالّة على صدق نسبته إلى اللّه تعالى، و"كيفَ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سلسل).
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (سحب).
(3) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز: (بصيرة في السجر): 3/ 191.
(4) حجازي، التّفسير الواضح: 3/ 317.

يُصرفونَ عنها معَ تعاضدِ الدَّواعي إلى الإقبالِ عليها وانتفاءِ الصّوارفِ عنها بالكُلّيَّةِ"(1).

إطلاعُ العبادِ على مصيرِ الكافرينَ في النّارِ من تمامِ الرّحمة وعظيم المنّة

هؤلاء كذبوا بالقرآن الكريم وبالكتب السّماويَّة كلِّها تبعًا لذلك، وكذبوا بما أوحينا إليك من التّوحيد وتفاصيلِ الدّين؛ فاستحقوا الوعيد، الَّذي سيرونه عاجلًا في الدّنيا وآجلًا في الآخرة، يومَ تُغَلُّ أعناقهم بأغلال الحديد، ويُجَرّون بالسلاسلِ في الماء المتناهي حَرُّه، ثمَّ يكونون وقودًا للنّار الَّتي تُشعَل فيهم.

## الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### علَّةُ فصلِ الجملة عمّا قبلها:

الاستئنافُ بغرضِ إنشاءِ التّعجُّب من صنيع المكذِّبين

فُصِلَتْ جملةُ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها مستأنفةٌ، أنشَأتْ غرضَ التّعجيب من حال انصرافهم عن التّصديق بالقرآنِ بعد تلك الدّلائل البيِّنة(2)، ولِما بينهما من اختلاف الأسلوب، فالأولى خبريَّةٌ ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾، وهذه إنشائيَّةٌ استفهاميَّةٌ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾.

### معنى الهمزةِ في جملةِ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾، وغرضُها:

الجدالُ في الحقِّ الجليِّ يُثيرُ العَجَبَ، ويوجِبُ الذَّمَّ والعقوبة

الهمزةُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ استفهاميَّةٌ، جاءت لغرض التّعجيب مِن حال هؤلاء المجادلين في آيات اللّه تعالى وصَرْفِهم إيّاها عن وجهها، ومحاولةِ طمس أنوارها، واللّهُ سبحانه متمٌّ نورِه ولو كره الكافرون، كذلك يتضمَّن الاستفهامُ هنا معنى التّقرير على الإثبات(3)، والتَّعجيبُ "ذمٌّ لهم على أنْ جادلوا في آيات اللّه تعالى وعلى دَفْعِها والتَّكذيبِ بها"(4).

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 7/ 284.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 200.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 200.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 532.

شِدَّةُ جُرم المجادلين في الحقِّ تكادُ تتجسَّدُ فتُرَى بالعين

### نوعُ الرُّؤية ودلالتُها:

الرّؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ هي الرّؤية العِلميَّة، وفيها أنَّ العِلمَ بهذا الجدالِ - إبطالًا للحقِّ بعدَ تبيُّنِه، وصَرْفًا له عن وجهِه - موجِبٌ للعَجَب، وفي ذلك إيحاءٌ بأنَّ شدَّةَ جُرمهم في كيدهم الحقَّ وجدالِهم فيه كادت أن تتجسّد فتُرَى بالعين الباصرة، والمعنى: "ألم تعلم سَفَهَ الَّذين يجادلون في آيات اللّه، أو جَهْلَ الَّذين يجادلون في آيات اللّه؟"(1).

مَنْ رأى أحوالَ المجادلين عَلِمَ ثباتَهم على الباطلِ وبقاءَهم عليه

### نكتةُ التّعبير بصيغة المضارع ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

جاء التّعبير بصيغة المضارع لفعل الرّؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لتصويرِ اجتهاد المشركين في المجادلة على الدّوام في مدافعة الحقِّ، وعدم توانيهم عن تجديد الكيد له، ومحاولة التِماسِ العيوب له، فمن رأى تلك الأحوالَ مرّةً تلوَ الأخرى علم وثبت له أنَّهم لا ينصرفون عمّا هم عليه من الباطل.

في الخطابِ القرآنيِّ خصّيصةُ التَّجدُّدِ وإمكان الذّيوع

### تعيينُ مرجع ضمير الخطاب:

المخاطبُ بالضَّمير في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ يرجعُ إلى رسول اللّه ﷺ؛ إذ هو المتلقّي لهذا الوحي الشّريف، ثمَّ يُخاطَبُ بهذا الضَّمير كلُّ من وراءَهُ ممَّن يتلقّاه من أُمَّته ومِن غير أُمَّته إلى يوم الدّين. وهذا الاحتمالُ للعموم يَمنح حياةً متجدِّدة لفهم واقع المكذّبين في كلّ حينٍ وفي كلّ جيل، وإلى ذلك فشيوعُ هذا الخطابِ يدعمُ التّعجيب، ويصبُّ على هؤلاء المجادلين مزيدًا من الإنكار والزَّجر.

### نكتةُ استعمالِ الحرفِ ﴿إِلَى﴾:

لمّا كانتْ رؤية ذواتِ المجادِلين في آيات اللّه تعالى ليست مقصودةً، وحُثَّ المخاطَبُ على النّظر إليهم بـ ﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ كان في تعدية فِعل الرّؤية العِلميَّة بحرف ﴿إِلَى﴾

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 50.

تضمينُهُ معنى الفعل (تلتفتْ)، والمعنى: ألم تلتفتْ إلى شناعة جُرم المجادلين في آيات اللّه تعالى بالباطل؟ مع بيانِ بُعْدِهم بأداة النِّهاية ﴿إِلَى﴾، فقال: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ بالباطل[1].

تضمينُ معنى الالتفاتِ؛ زيادةً في التّنبيهِ على موضع التّعجُّب

## علَّةُ التَّعبير بالاسم الموصول الجَمْعيّ:

تهيئةُ العبارةِ لذِكْرِ حيثيّات الحُكم

التَّعبيرُ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ يهيِّئُ لذِكر ما لا يُتيحه ذكرُهم بالاسم الصّريح، وذلك لبيانِ أنّهم قومٌ مخصوصون بهذه الصّفاتِ وهذا العنادِ على الكفر، فكانت المجادلةُ في دفع آيات اللّه سبحانه من رؤساء الكفرة وأكابرهم، كانوا يُمَوِّهون بمجادلتهم في دفع آيات اللّه تعالى والطَّعنِ فيها على أتباعهم وسَفَلتهم؛ لتبقى لهم الرّياسة والمأكلة الَّتي كانت لهم، لم يزل الأكابرُ منهم والرُّؤساء يطعنون في آيات اللّه تعالى ويدفعونها، يريدون التّمويهَ والتَّلبيس على أتباعهم وسفلتهم؛ ليبقى لهم العِزُّ والشَّرفُ الَّذي كان لهم، ويُبطلوا به الحقّ ويطفئوا نوره[2]، مع الاستشهاد عليهم بما في حيّز الصّلة من ذمِّهم على المجادلة بالباطل بعد بيان الحقّ، وفي التّعبير عنهم بالجماعةِ تنبيهٌ على أنَّ الكفّار يتآزَرون على تحقيق أغراضِهمُ الخبيثة.

## بلاغةُ استعمال مفردة ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾:

المشركون يَحسَبون جدالَهم حجَّةً وعنادَهم حقًّا

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة الجدال لِما فيه من الدّلالةِ على شدَّةِ الإحكام في العنادِ على الحجَّة الموهومة الَّتي يحسَبُها المشركون حجّةً، فمادَّةُ المجادلة مأخوذةٌ من جدْلِ الحبل، وجدلُه يحتاجُ إلى إحكام وقوَّةِ فَتْلٍ ليتحمَّلَ الشّدَّ به، فاستُعير الفتلُ هنا لقوَّةِ إحكام ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ كلامَهم، وإحكامِهم التّمويهَ على الدّهماء الَّذين ينطلي عليهم الخداعُ بالباطل.

(1) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 112.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 42.

### دلالةُ صيغةِ المضارع ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾:

تدلُّ صيغة المضارعة في الفعل ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ على تصوير أولئك المجادلين بأنّهم في كلِّ أحوالِهم ومواقفِهم يُجادلون بالباطل، فهم لا يتوقَّفون عن تشويهِ ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بجُرأةٍ وسوءِ أدبٍ، ولا يدَّخرون جهدًا في تحقيق ذلك، ولا يتوقّفون عن تجديد أساليبِ المكر في الإيقاع بأمثالِهم من الدّهماءِ، ولا يتورَّعون عن الافتراء على الحقّ كلَّما أمكن.

الكافرُ المُجادِلُ عنيدٌ في إيجادِ أسبابِ الجدالِ بالباطلِ في كلِّ حين

### بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيّة:

تعدّى فعل المجادلة ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ بحرف الظّرفيَّة ﴿فِيٓ﴾؛ لبيانِ أنَّ المجادلين يعيشون في ظلِّ آيات اللّه تعالى، ويكتسبون النِّعمَ الوفيرةَ، والخيراتِ الجليلةَ، فهم في الآيات يعيشون، كما أنّهم يسمعون آياتِ اللّه تعالى الَّتي جَلَّلَتْ آذانهم وعقولهم، وهم في وسط هذه الآيات - الَّتي لا تخفى على أعمى فضلًا عن بصير، ولا يغفلُ عنها صغيرٌ فضلًا عن كبير - يجادلون ويكذِّبون، ففيه تأكيدٌ على معنى التّعجُّبِ وشديدِ الإنكار، مع ما فيه من تضمين معنى الخوض[1]، فهم بجدالهم في آيات اللّه تعالى يخوضون في الآيات تكذيبًا وافتراءً.

المُجادِلُ في الآياتِ كالسّابحِ المُجادِلِ في وجودِ الماءِ

### دلالةُ التَّعبير بلفظةِ الآيات:

آثر النّظم الكريم استعمال لفظ ﴿ءَايَٰتِ﴾ - وهو جمعُ آيةٍ، وهي العَلامةُ والحُجَّة - لبيانِ أنَّ هذه الحججَ البيِّنةَ والبراهينَ الظّاهرة آياتٌ منصوبةٌ لمعرفةِ الحقِّ والوقوفِ على الصّدق، واختير هذا اللَّفظ لمزيد التَّعجُّب على المشركين المجادلين، ولمزيد الإنكار والذّم لجدالهم في الحقّ الظّاهر الواضح، ولتشمل كلَّ ما يَصدُقُ عليه اسمُ آية.

الحَجَجُ لوضوحِها والبراهينُ لظهورِها سُمّيَتْ آيات

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 12/ 1267.

كثرةُ الآيات دليلُ وفرة الدّلالات

### نكتةُ استعمال ﴿ءَايَٰتِ﴾ بصيغة الجمع:

يُفيد جَمْعُ الآيات كثرتَها وتَنَوُّعَها وغزارةَ العِبَر الَّتي فيها لمن أراد الاعتبار، وأنَّها لا تكاد تتناهى؛ ففي آحادها تناسبٌ لِقناعات آحادِ النّاس إنْ لم تكن كلُّها مقنعةً لِكلّهم، وكلٌّ يَقْبِسُ مِن أنوارها بقدرِ إيمانه إنْ كان قابلًا للإيمان، فكان يتوجّب على المرسَل إليهم التّصديقُ بها، لا مناهضتُها ومحاولة تشويهها؛ لذا كان الجدال فيها حقيقًا بالتَّعجُّب، وكان صاحبه حقيقًا بالتَّأديب.

عظمةُ الآياتِ من عظمة المضافة إليه

### فائدةُ إضافةِ الآيات إلى الاسم الجليل:

التَّعبير بالآيات وحده كافٍ في الدّلالة على عظمتها وأنَّها مُبْهِرَة، وأنَّها من الغرابة والعَجب بما يَضْمن لها التّأثيرَ في النّفوس، ومع ذلك دَعَم النّظمُ الكريم تلك الدّلالاتِ العظيمةَ بإضافة الآيات إلى اسم اللّه تعالى؛ فأضفَى عليها عظمةً إلى عظمتها، وقوَّةَ تأثيرٍ إلى قوَّتها، وزادَها عظمةً وألَقًا، ومنحَها تَميُّزًا عمّا ألِفَهُ المجادلون فيها، وأنَّها ﴿ءَايَٰتِ﴾ تليق بجلال اللّه ﷻ، فنبَّه "على ما في هذه الآيات من عظمته الَّتي لا نهايةَ لها بإعادة الاسم الجامع فقال: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: المَلِكِ الأعظم"[1].

انصرافُ المشركين عن الحقِّ إلى الباطل حالٌ عجيب ومسلكٌ غريب

### بلاغةُ الاستفهام في استعمالِ ﴿أَنَّىٰ﴾:

تَحتمِلُ أداةُ الاستفهام ﴿أَنَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ﴾ معنى (كيف)؛ أي: كيف يُصرَفون عن دين اللّه الحقِّ إلى الباطل؟[2] وكيف تُصرَفُ عقولُهم عن الهدى إلى الضّلال؟[3].

وتَحتمِلُ أن تكون بمعنى (أين)؛ أي: ألا تعجَبُ من أين يَصرِفُهم صارفٌ عن الإيمان حتّى جادلوا في آيات اللّه؟ مع أنَّ شُبَهَ انصرافِهم عن الإيمان مُنتفيةٌ بما تكرّر من دلائل الآفاق وأنفسِهم، وبما شاهدوا

(1) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 112.

(2) الواحدي، التّفسير الوسيط: 4/ 21.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 157.

من عاقبة الَّذين جادلوا في آيات الله ممّن سبقهم، وهذا كما يقول المتعجِّب من فعل أحد: "أين يذهب بك؟"[1]، والصّارف على الوجهين هو أنفسُهم، فهي الَّتي أورَدَتهم المهالِكَ، ومعنى التَّعجُّب حاضرٌ في الاحتمالين، ولا مانع من اجتماع الدّلالتينِ الحاليَّةِ والمكانيَّة.

**بلاغةُ اختيارِ مفردةِ الصَّرْفِ:**

الانصرافُ عن الحقِّ من حيث يجبُ الإقبالُ عليه هو موضعُ التَّعجُّب

استعمل النّظم الكريم مفردة الصَّرْف في قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ﴾، ومعناه التّحوُّل والرُّجوع عن الوِجهة المُثْلَى إلى غيرها، وهو في الكلام "تزيينُه والزّيادة فيه، وإنما سُمّيَ بذلك لأنّه إذا زُيِّن صَرَفَ الأسماعَ إلى استماعه. ويُقال لحدث الدّهر: صرف، والجمع: صُروف، وسمّي بذلك لأنَّه يتصرَّفُ بالنّاس؛ أي: يُقَلِّبُهم ويُرَدِّدُهم"[2].

فانتقاءُ مفردة الصّرف في هذا السّياق باعتبار موضع العجب من حالِهم، والصّرف إنّما يكون في صرفِ الأسماع إلى الاستماع إلى الجيّد من الأقوالِ، وهؤلاء المشركون قد عكسوا الأمر فانصرفوا عن الحقِّ من حيث يجب أن يُقبلوا عليه؛ فوقعوا في التّعكيس، وهنا موضع التّعجُّب، فكان لفظ الصّرف رافدًا لمعنى التّعجُّب.

**دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع ﴿يُصۡرَفُونَ﴾ مبنيًّا للمفعول:**

العَقلُ السّديدُ لا يَصرِفُ أصحابَ العقولِ عن الانقياد للحقِّ

آثر النّظم الكريم التّعبير بفعل ﴿يُصۡرَفُونَ﴾ بصيغةِ المضارع؛ لتصوير حال التَّعجُّب أثناء انصرافِهم عن الحقِّ، فهو لاستحضارِ جريمة الجدال في الحقِّ، وفضحِ خَزايَة أهل الباطل.

وجاء الفعل مبنيًّا للمفعول، وذلك لتسليط الضّوء على الفعل بقطع النّظر عن فاعله، والصّرف لا يكون إلّا من أنفسِهم، وموضعُ الأنفُسِ من الغَوايةِ معلومٌ معهود، ولذلك كان إظهارُ شناعة الفعل بالبناءِ للمفعول هو الأولى في سياق التّعجُّب.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 201.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرف).

**نكتةُ حذفِ متعلّق فعلِ ﴿يُصۡرَفُونَ﴾:**

حُذِفَ متعلّق فعل ﴿يُصۡرَفُونَ﴾؛ إذ لم ينصَّ النّظم الكريم على مصروفٍ عنه معيَّنٍ وإنْ كان معروفًا بتوجيه السّياق، وأنَّهم لا شكَّ ﴿يُصۡرَفُونَ﴾ "عن الآياتِ الحقَّةِ الواضحة الَّتي سَبَقَتْ بالفطرة الأولى إلى جذور قلوبهم، فلا حُجَّة يوردون، ولا عذابَ عن أنفسهم يَردّون"(1)، فحَذْفُ المتعلّقِ إنَّما هو لتسليط الضّوء على الفعل، وتنزيه ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تعالى عن أن يُصرَف عنها مصروفٌ؛ إيحاءً بقوَّة سلطانها، وأنَّها أخّاذة للعقول السّليمة، آسِرَةٌ للنُّفوس القويمة، والفِطَر المستقيمة، أمّا هؤلاء المجادلون فيها فمخذولون عنها، والعياذ باللّه من شؤم الحال وسوء المآل.

**الانـصـرافُ عن آيـات الله إنَّما هو فعلُ الباطلِ لا ضعفُ الحقِّ**

**براعةُ التّعبير بالاسم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾:**

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أو خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره: هم الَّذين كذَّبوا بالكتاب، وجاء استعمال الاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ ليقعَ مزيدٌ من ذمٍّ أولئك المجادلين، فهم المشركون الَّذين كذّبوا بالكتابِ، وهم معروفون معهودون، ولتسجيل علَّة الذّمِّ عليهم بما وقع منهم من التّكذيبِ بالكتاب مع وضوح براهينه وحُجَجه، فهو استشهادٌ عليهم بما في حيّز الصِّلة، فالذّمُّ لَحِقَهم حين الجدال، ثمَّ لَحِقَهم حين التّكذيب، فالاسمُ الموصول يُعيِّن أنّ الجدال في آيات اللّه ينتهي إلى التّكذيب بالكتاب، فمَن جادَلَ في آيات اللّه الكونيّة كذَّب في آيات اللّه القرآنيّة.

**المجادلُ في آياتِ الـلـه الكـونيَّة، مكذِّبٌ في آياتِ الله القرآنيَّة**

**براعةُ الانتقالِ من ذِكر الجدالِ إلى ذكرِ التَّكذيب:**

جاءَ ذكر التّكذيب في جملة الصّلة ﴿كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ بعد ذكر الجدال؛ لتقريرِ أنَّ جدالهم قادهم إلى التّكذيب بالكتابِ، وإنَّما كان

(1) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 112.

ذكرُ آيات اللّه لتكون مقدِّمةً موصلة إلى الإيمانِ بالقرآن، والقوم إنّما جادلوا بآيات اللّه كي ينصرفوا عن الحقِّ، وما كان منهم إلّا أن كذّبوا بالقرآن، فهم جادلوا في المقدمات الموصلة إلى الحقِّ، وهي مقدّمات قطعيّة لأصحاب العقولِ السّويّة، فكذّبوا في الكتاب الدّالِّ على الحقِّ، وهو كتابٌ قطعيٌّ لأصحاب القلوب النّقيّة.

الجدالُ في المقدّمات القطعيَّةِ سببُ التّكذيب في الكتاب القطعيّ

**نوعُ الباء ودلالتُها:**

جاءت (الباء) في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ للتَّأكيد والمبالغة في التّكذيب، وضَمَّنتِ (الباءُ) فِعلَ التّكذيب معنى فعل الكفر؛ أي: كفروا بالكتاب جملةً، وبكونه كلامَ اللّه تعالى أصلًا، وتحتمل (الباء) أن تكون سببيَّةً؛ أي: كذَّبوا "بسببه في جميع ما له من الشُّؤون الَّتي تُفَوِّتُ الحصرَ والعظمةَ في كلِّ أمرٍ كان"[(1)].

المكذِّبون بالكتابِ كافرون بِنُزوله، معاندون لمضمونه

**معنى تعريفِ لفظِ (الكتاب):**

تعريفُ لفظ (الكتاب) للعهد الذّهنيِّ، فالمقصودُ بالكتاب القرآنُ الكريم، وتَحتَمِلُ أن تكون جنسيَّةً، والمعنى: أنَّهم كذّبوا بـ "بجنس الكتب السّماويَّة"[(2)]؛ وذلك أنَّ من كذَّب بالقرآن الكريم في حُكْم مَن كذَّب بجميع الكتب السّماويَّة؛ فكلُّها تدعو إلى توحيد اللّه تعالى وإخلاص العبادة له، وإن اختلفت فيما بينها في بعض التّشريعات الحياتيّة، وهي دالّة على معنى الكمال؛ "فلِكماله كأنَّه لا كتابَ غيرُه؛ لأنَّ مَن سمِعَهُ فكأنَّما سمعه من النَّبيّ ﷺ لإعجازه، فمَن كذَّبَ بِحَرْفٍ منه فقد كذَّب بكلِّ كُتُب اللّه ﷻ"[(3)].

القرآنُ الكريم أكملُ كتاب؛ فيُغني عمّا سِواهُ كأنَّه لا كتابَ غيرُه

**دلالةُ واو العطفِ:**

حرفُ الواو في قوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ﴾ للعطفِ، فهو لتعديدِ جرائمهم، وتقبيحِ جدالهم وتكذيبهم الحقَّ؛ إذ لم يكتفوا

التّكذيب بالقرآن تكذيبٌ لسائرِ الرّسالات

(1) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 112.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 5/ 63.
(3) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 113.

بالتَّكذيب بالكتاب، بل كفروا ضاربين إلى أعماق التّاريخ تكذيبًا لِجميع الرِّسالات السّماويَّة، وفي ذلك كناية عن احتمالِهمُ الإثمَ العظيم، واستحقاقِهمُ العقوبةَ الشّديدة. ويجوز أن يكون من عطف المُرادف، وفائدته التّوكيد[1]؛ أي: الَّذي أرسله اللّه تعالى هو القرآن الكريم، والأولى إيقاعُ دلالة التّغاير بين المتعاطفين.

### علَّةُ التَّعبير بالموصول (ما):

التَّـكـذيـبُ بالسُّنَّةِ داخلٌ في مضمونِ ما أُرسِلَ به المرسَلون

آثر النّظم الكريم استعمالَ الاسم الموصول (ما) في قوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ﴾ دون الذّي؛ ليعمَّ جميعَ ما أُرسِلَ به المرسَلون، فيشملُ التّكذيبُ التّوحيدَ والأمرَ والنَّهيَ[2]، والهدى والبيانَ[3]، والبعثَ، فلمّا جاءهم النَّبيُّ محمَّدٌ ﷺ بإثباتِ البعث سألوا عنه أهلَ الكتاب فأثبتوه؛ فأنكَر المشركون جميعَ الشّرائع لذلك[4]، ولِزيادة التّشنيع على هؤلاء المكذِّبين لم يقل: الَّذين كذَّبوا بالكتاب وبالكتب السّابقة، فذكرُ الرُّسل يَلفت إلى أنَّ تكذيب الرِّسالات هو تكذيبٌ للرُّسل.

ومن مزايا الموصول هنا إفساح الدّلالة لـ"جميع ما يوحَى إلى الرُّسل مِن غير كتابٍ إنْ كانت اللّام في الكتاب للجنس، أو سائرِ الكتب إنْ كان المرادُ بالكتاب القرآنَ"[5]، وإنَّ "مما جاء به الرَّسول ﷺ مواعظَ وإرشادًا كثيرًا ليس من القرآن"[6]، فتدخلُ السُّنّة في مضمون ما أُرسِلَ به المرسَلون، وقد ورد عن الرَّسول ﷺ أنه قال: «ألا إنّي أوتيتُ الكِتابَ ومِثْلَهُ مَعَهُ، ألا إنّي أوتيتُ القُرْآنَ ومِثْلَهُ مَعَهُ»[7].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 201.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 213.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 157.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 201.
(5) الشّوكاني، فتح القدير: 4/ 574.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 201.
(7) أحمد، مسند أحمد، مسند الشّاميين، حديث المقدام بن معدي كرب: 28/ 410، برقم: (17174).

تكذيبُ خاتَمِ الأنبياء وغيرِه مِن الرُّسُلِ سواء

### نوعُ الباء ومعناها:

(الباءُ) في قوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ﴾ مثلُ الباء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ في دلالتهما على الرّجوع إلى التّكذيب، والكفرِ بأصل إنزال الكتب والشَّرائع.

لفظُ الإرسالِ يومِئُ إلى المُرسِلِ، وهذا أشدُّ في الإنكارِ على المُكذِّبين

### دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ الإرسال دون البعث:

استعمل النّظم الكريم مفردةَ الإرسال في قوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ﴾، وذلك أنَّ الإرسالَ يقتضي حملَ الرَّسول رسالةً وما يَجري مَجراها[1]، وموضعُ الذّمِّ في كونهم كذّبوا الرُّسلَ والرِّسالات، وللإلماحِ إلى تكذيب المرسِلِ ﷻ دون التّصريح به، فإنَّه يلزم عن وجود الإرسال وجودُ المُرسِل، فالتَّعبير بالإرسال دون البعث أشدُّ تشنيعًا عليهم.

تكذيبُ الرِّسالات شنيعٌ باعتبارِ أنَّ المُرسِلَ هو العظيمُ سبحانه

### نكتةُ إسنادِ فعلِ الإرسال:

أُسند فعلُ الإرسالِ لنون العظمةِ في قوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ﴾؛ لتشريفِ أمر الرّسالة، وأنَّ شأنَها عظيمٌ عند اللّه تعالى، وبناءً عليه فتكذيبُ الرُّسل والرِّسالات مقامٌ خطيرٌ يقتضي التّهويل والتَّفظيع؛ وذلك لِعظيم شأن الكتاب العزيز، وعظيم شأن الرُّسُل الكرام جميعًا؛ فكان إسنادُ فعل الإرسال أبرَّ بالمقام، وأملَأ للسّياق، وأشدَّ في تأكيد الوعيد الآتي بعدُ ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٧٠ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾.

### نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على المفعول في جملة ﴿أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ﴾؛ لِلَفْتِ الانتباه إلى أهمّيَّة ما أُرسِل به الرُّسُلُ عليهم السلام، وتنويهٌ بشأنه، وتنبيهٌ إلى أنّ التّكذيب به من الجُرم بمكانٍ، ولأنَّ التّقديم

(1) العسكري، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 103.

واقعٌ في سياق الإنكار التّوبيخيّ للمكذِّبين؛ فهو عنصرُ استثارةٍ للعَجَبِ في نفوس مَن يَتلقَّى هذا الخطابَ الإلهيَّ مِمَّن يَفقه بلاغة اللِّسان؛ فكيف يتأتَّى لأحدٍ أن يُكذِّب (بِما أرسلنا به رسلنا)؟! إنّ هذا عجيبٌ مستنكرٌ باعتبار أنَّ المرسِل هو اللّه ﷻ، وباعتبار المرسَلين ﷺ، وباعتبار ما أُرسِلَ به من الكتب السّماويَّة.

تنبيهُ المخاطَبين إلى عظيمِ شأنِ تكذيبِ الرِّسالات

**نكتةُ جمعِ لفظِ ﴿رُسُلَنَا﴾:**

لفظ ﴿رُسُلَنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ جاءَ بصيغةِ الجمع؛ فيدخل جميعُ الرُّسلِ الَّذين أرسلهم اللّه تعالى، وذلك العمومُ أنسبُ وأبرُّ بمقام تفظيع التّكذيب ﴿بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ ﷺ، ويحتمل أن يكون المراد بـ ﴿رُسُلَنَا﴾ محمَّدًا ﷺ، وذلك كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشّعراء: 105]؛ يعني: الرَّسولَ نوحًا ﷺ[1]، فيكون إطلاقُ الجمعِ وإرادةُ المفرد مجازًا أُريد به التّفخيمُ، والأوَّل أولى بالقبول.

آحادُ الرُّسلِ الكرامِ في مقامِ جميعهم ﷺ

**نكتةُ إضافةِ الرُّسُلِ إلى ضميرِ العظمة:**

في إضافةِ لفظ الرُّسل إلى ضمير العظمة في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ مزيدُ تجريمٍ لهؤلاء المكذِّبين بآيات اللّه؛ فتكذيبُ الرُّسل بدون إضافةٍ جُرمٌ عظيمٌ، ويزدادُ التّشنيع عليه في إضافة الرّسل إلى العظيم سبحانه؛ لأنَّه يرفعَ رتبةَ شرفِهم، ويمنحُهم مِن الحصانة ويُضفي عليهم مِن الهيبةِ ما يوجب لهم التّوقيرَ، ولرسالاتهم التّصديقَ، لا التّكذيبَ والكفر، وهكذا يظفرُ كلُّ مَن يتَّصِلُ بربِّه تعالى برفيع الشّرف، ويستمدُّ من إيمانه متينَ الحصانة.

اتصالُ العبدِ بربِّه سبحانه يرفعُ رُتبته ويمنحُه الشَّرف

**نوعُ الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾:**

حرفُ الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ للتَّعليل؛ أي: إنَّهم سوف يُعاقَبون عقابًا شديدًا بسبب تكذيبهم ﴿بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 201.

تعليلُ الوعيدِ متفرِّعٌ عن التّكذيب، والتّكذيبُ علّةُ الوعيدِ وسببُه

﴿أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ﴾، وإنَّ هذا العقابَ المفهوم من هذا التّهديد في جملة ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ مترتِّبٌ على ذلك التّكذيب، ومسبَّبٌ عنه، ومَنوطٌ به؛ فلا ظُلم فيه، وإنَّهم بتذوُّقِه ومعاناته لَحَقيقون. وتَحتمِلُ (الفاء) أن تكون تفريعيَّةً؛ حيث "تفرع على تكذيبهم وعيدَهم بما سيلقونه يوم القيامة، فقيل: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ سوف يجدون العذابَ الَّذي كانوا يجادلون فيه فيعلمونه"(1)، والتّفريع والتّعليل يلتقيان في عمومِ الدّلالة.

### دلالةُ استعمال (سوف):

الإرخاء المخيف بحرف التّسويف

استعمل النّظم الكريم حرف التّسويف في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾؛ لتهديدِ هؤلاء المكذّبين للرِّسالات الإلهيَّة، فإنَّ الوعيدَ - وإن طال في نظرِهم - لاحِقُهم، وهو في انتظارهم، فهو إرخاءٌ للعنانِ الجامعِ لشديد الوعيد، فإنَّ ظنونَ المكذِّبين كثيرةٌ، ومنها إنكار العذاب واستبعاد وقوعه، فأجرى القرآن الكلامَ على ما يظنّون في بعدِه، لكنَّه أتى بما يدلُّ على قطعيَّةِ وقوعه، وهذا من الإرخاء المخيف، بحرف التّسويف.

### بلاغةُ الكناية في استعمال لفظِ العلم:

التّهكُّمُ بالمكذِّبين بوقوع العلم الّذي لا تكذيبَ به ولا جدالَ فيه

استعمل النّظم الكريم لفظَ العِلْم في جملة ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ كنايةً عن الوعيد والوقوع في العذاب؛ أي: فسوف يعلمون الحقَّ حين يلاقون أهوال العذاب في الآخرة، فلا يُقصد به مجرَّدُ العلم؛ إذ لا يكون مجرَّدُ العلم عقوبةً حتى يُصطَلَى بمعلوم، وآثر النّظم هذا الاستعمالَ الكنائيَّ دون الصّريح - كأن يُقال: فسوف يُعاقبون - لمزيدِ تخويفٍ من ذلك المعلوم المجهول؛ وإيحاءً بأنّ التّهديد بمجرّد العِلم بالعقوبة أمرٌ؛ فما ظنُّهم بمُقاساتِها فعلًا؟ لا شكَّ أنَّها ستكون أنكى وأشدَّ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 201.

### نكتةُ حذفِ معمولِ الفعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

طيُّ المفعول في مقام التَّرهيب يزيدُهُ ترهيبًا

ممّا يزيدُ وعيد المكذّبين ترهيبًا طَيُّ مفعول فعلِ العِلم من قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، فلم يقل مثلًا: فسوف يعلمون عاقبة أمرهم، فحُذِفَ المفعولُ لزيادة التّرهيب منه؛ إذ بحذفه يذهب الذِّهنُ في تقديره وتصوُّر خطورته مذاهبَهُ الَّتي يصوِّرها له هذا التّهديد، ممّا قد يكون له الأثرُ في رجوعِهم إلى الحقِّ، والتَّوبةِ من الكفر.

### براعةُ الاستعارةِ في استعمال الظَّرف ﴿إِذِ﴾:

إخبارُ القرآنِ عمّا سيكونُ كمشاهدةِ العيان لما كان

استعمل النّظم الكريم الأداة ﴿إِذِ﴾، وهي ظرفٌ للزَّمن الماضي كما في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ﴾ [البقرة: 131]، وقولِه: ﴿إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [البقرة: 133]، ولمّا كانت ﴿إِذِ﴾ كذلك، وكان قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ حديثًا عن المستقبل وهو يوم القيامة دلَّ استعمالها على معاملة الإخبار عمّا سيكون يوم القيامة من حسابِ المكذِّبين معاملةَ ما كان في الماضي ووقع وتحقَّق، فهي "استعارة تبعيَّة للزَّمن المستقبل المحقَّقِ الوقوعِ تشبيهًا بالزَّمن الماضي"(1)؛ وذلك لتصوير مشهد المستقبل بخبر الماضي كنايةً عن تحقُّقه، وأنّه أمر واقع حتمًا، وإخبارُ القرآنِ بما سيكون في المستقبل كإخبار الصّادق من البشر بما كان في الماضي.

### معنى تعريف لفظِ ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾:

الأغلالُ يومَ القيامةِ ذاتُ نوعٍ مَخْصوص، وذاتُ عذابٍ مَرْصوص

﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾ "جمع غُلّ بضمِّ العين، وهو حَلْقةٌ من قِدٍّ أو حديدٍ تُحيط بالعنق، تناط بها سلسلةٌ من حديد، أو سَيْرٌ من قِدٍّ يُمسَكُ بها المجرم والأسير"(2)، "وأصلُه الإدخال، يُدخَلُ فيه العنقُ واليدُ فيجمعان به"(3)، والأغلال معلومةٌ لدى النّاس في الدّنيا، لكنّها في الآخرةِ ذاتُ نوعٍ مختلف، وعلى التّحقيق لا يعلم حقيقتَها إلّا اللّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 202.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 202.
(3) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 114 بتصرُّف.

تعالى، فيكون التّعريف للنّوعِ، وهي النّوع الكامل في وصف الغُلّ، البالغة في الخطورة مبلغًا لا يُزاد عليه ثِقَلًا، وإحكامًا، وإطباقًا، والتهابًا، وما إلى ذلك من أعباءٍ مُهلِكةٍ.

### بلاغةُ استعمالِ حرف الظّرفيّة:

تصويرُ قوّةِ الإحاطةِ وشديدِ الالتباس

الأعناقُ هي الَّتي توضع في الأغلالِ، وقد جاء التّركيب على طريقِ القلب، فقال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾، ونكتةُ ذلك بيانُ شدّة تلبُّس الأغلال بالأعناق، بحيث إذا رآهم أحدٌ من بعيدٍ أيقَنَ أنّه لشدّة التِصاقِ الأغلال بالأعناقِ فهي فيها، والأغلالُ إنّما أحاطت بالأعناق، فأصبحت فيها، ولمّا كانت الأغلال والأعناق جمعًا ناسَبَ ذكرُ الظّرفيّة.

### نكتةُ التَّصريح بالقيد:

تقييدُ الأعناقِ في الآخرةِ إذلالٌ معنويٌّ للكفّار وإرهاقٌ حسّيٌّ

الأغلالُ تكونُ في الأعناق عادةً، وقد جاء التَّصريحُ بذلك ﴿فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ لإظهارِ الإذلال والإهانة لأولئك المجادلين، ولبيان انقلاب الحال، فبعد أن كانوا في الدُّنيا رافعي أعناقِهم يَلْوونها عن الحقِّ صاروا في الآخرة مجرورين من أعناقهم، وهذا في غايةِ الإذلال؛ إذ البهائم والكلاب هي الَّتي تُجَرُّ وتُسحَب مِن أعناقها، فإذا سُحب الإنسانُ من عنقه بغُلٍّ وسِلسلةٍ كان في نهاية الذّل والحقارة، وفي القيد - إضافةً إلى العذابِ المعنويِّ الحاصل بذُلِّ جَرِّهم منه - عذابٌ حسّيٌّ فاتكٌ؛ حيثُ يُقاسي الكافرُ المجادل حرارةَ الغُلّ والتهابَهُ، وثِقَلَ وزنه بما لا يمكن تصوُّرُه، وليستِ الأعناق من مخافةِ الهروب، بل لتحقيقِ العذاب، كما "قال الحسن بن أبي الحسن: لم تُجعَلِ السّلاسلُ في أعناق أهل النّار؛ لأنَّهم أعجزوا الرَّبَّ هَرَبًا؛ لكن لِتُرْسِبَهم إذا أطفاهم اللهبُ إلى الأعلى"[1].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 569.

### نوعُ الواو ودلالتُها الرّابطة:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ عاطفةٌ على ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾، و﴿فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ في نيَّةِ التّأخيرِ، وقيل: مبتدأٌ حُذف خبرُه لدلالةِ خبرِ الأوّل عليه[1]، والتَّقدير: إذ الأغلالُ والسَّلاسلُ في أعناقهم، و﴿يُسۡحَبُونَ﴾ حالٌ؛ أي: إذ الأغلالُ والسَّلاسلُ في أعناقهم مسحوبين بهما في الحميم، وذلك يُبيِّن صعوبةَ ما يُقاسيه المجادلون المكذِّبون في الآخرة من صنوف العذاب المُذلّ الأليم، فالمعنى: أنَّ (السَّلاسِلَ) "متَّصلةٌ بالأغلالِ بأيدي الزّبانيَةِ يسحبونهم على وجوههم، تارةً إلى الحميم وتارةً إلى الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿يُسۡحَبُونَ ٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾، كما قال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٤٣ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ٤٤﴾ [الرحمن: 43 - 44]"[2].

سحبُ المكذِّبين بالسَّلاسلِ المتَّصلة بالأغلالِ وهي في أعناقهم

### معنى تعريفِ لفظِ (السَّلاسِل):

(السَّلاسِلُ) "جمعُ سِلْسِلةٍ بكسر السّينين، وهي مجموعُ حِلَقٍ غليظةٍ من حديدٍ متَّصلٍ بعضُها ببعضٍ"[3]، و"السِّلسلة مِن: تَسَلْسَلَ الشّيء؛ أي: اضطرب، قال الرّاغب: كأنَّه تُصوِّرَ منه تَسَلْسُلٌ مُتردِّدٌ، فردَّدَ لفظَهُ تنبيهًا على تردُّد معناه، وما سُلسِل متردِّدٌ في مقرِّه حتّى صفا"[4]، والسَّلاسِلُ معهودةٌ في الدّنيا، لكنّها في الآخرةِ ذات نوع مختلف، وهي على التّحقيق لا يَعلم حقيقتَها إلّا اللّه تعالى، فيكون التّعريف للنّوعِ، وهي النّوع الكامل في وصف السّلاسل.

سلاسلُ العذابِ يُعرَفُ منها الوجهُ الرّهيبُ في أثره الكامن في حقيقته

### غرضُ جمعِ (السَّلاسِل):

جاءتِ (السَّلاسِلُ) بصيغةِ الجمعِ للدَّلالة على كثرتها وتنوُّعها، في شدّتها، وطولها، وثقلها، وحرّها، ممّا لا قِبَلَ لأحدٍ باحتمالِهِ وشدَّةِ سخونته، والعياذ باللّه تعالى من حال أهل النّار.

التَّنوُّعُ المُنبِئُ عن عظيمِ عذابِ الله

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 7/ 284.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 157.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 202.
(4) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 114.

**السَّحبُ للبهائمِ، فإذا انحطَّ الإنسانُ عن رُتْبتِها استحقَّ دونَ معاملتها**

### بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿يُسۡحَبُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

جاء استعمالُ مفردةِ السّحب في جملة ﴿يُسۡحَبُونَ﴾ لتصويرِ مَظهرِ الهَوانِ الَّذي يكون فيه المكذِّبون بالرِّسالات والرُّسل يوم القيامة، "والسَّحبُ: الجَرُّ بِعُنْفٍ"[1]، "وهو يَجمَعُ بين الإيلام والإهانةِ"[2]، والَّذي يُسحَبُ ويُجرُّ في الدُّنيا هو الحيوان، فعومِلَ المكذِّبون في الآخرة معاملةَ الحيوان في الدّنيا؛ لأنّه دونه في مسلكِ العبادة والتَّسبيح، فهم أضلُّ من الأنعام، فكان إذلالُهم في الآخرة مناسبًا لحالهم، فالمجادلةُ في آيات اللّه تعالى لدحضها - ودَحْضُها مُحالٌ - تستَوْجبُ الإهانة والإذلال، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ [الحجّ: 18].

وصَوْغُ الفعل ﴿يُسۡحَبُونَ﴾ مضارعًا يُفيد تجديد السّحب، كما أنه يَستحضِرُ صورتَهُ، ويُقيمُها أمامَ النّواظر كأنَّها مشهدٌ حيٌّ يُبصَر، تهديدًا وزجرًا عن مُقارَفةِ أسبابه واستيجابه.

**لا يَستحِقُّ المكذِّبون كرامة ذكرِ الملائكة**

### لطيفةُ بناءِ فعل ﴿يُسۡحَبُونَ﴾ للمفعول:

جاء فعلُ ﴿يُسۡحَبُونَ﴾ مبنيًّا للمفعولِ، مع أنَّه من المعلوم أنَّ ملائكة العذاب هم الَّذين يَسحبون المكذِّبين بآيات اللّه تعالى في الحميم يوم القيامة؛ لِما في ذلك من إهانةٍ تُضاف إلى إهانة السَّحب أصلًا؛ ذلك أنَّ البناء للمفعول يوحي بأنَّهم دون أن يُذكر فاعلُ سحبِهم؛ كي لا يأخذوا من كرامةِ ذكرِه كرامةً.

**المجادلون المكذِّبون يُغطّون في الحميم، ويُغرَقون فيه إغراقًا**

### فائدةُ حرفِ الظّرفيّة:

قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ﴾ متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿يُسۡحَبُونَ﴾؛ أي: يسحبون بالأغلال الَّتي في أعناقهم في الحميم، والحميمُ هو ما

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 114.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 203.

يُغلَى مِن السّوائلِ[1]. وأفاد حرفُ الظّرفيّة أنّهم يُسحبون في الحميم، والعذابُ يحيط بهم من كلّ جانب؛ فلا تخفيفَ عنهم، ولا مهربَ لهم.

**معنى تعريفِ لفظ ﴿ٱلۡحَمِيمِ﴾:**

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلۡحَمِيمِ﴾ للمعهودِ من وصف السّائل البالغ حَرُّه الدّرجةَ القُصوى، وهو الَّذي لا يُطاق، ولا يتحمَّله أحد، وهو معهودٌ ممّا جاء ذكره في القرآن الكريم عن سوائلِ النّار الَّتي تغلي، وهو "المسخَّنُ بنارِ جهنَّمَ"[2]، فـ"يُشرَب منه وقد انتهى حَرُّه غايتَه"[3].

**السّائلُ الَّذي يَغلي في النّار ممّا لا وقوفَ لأحدٍ على مثله**

**نوعُ التّراخي ودلالتُه في قوله: ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾:**

تدلُّ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ على التّراخي الزَّمنيِّ والرُّتبي معًا، فالتَّراخي الزَّمنيُّ مستفادٌ من التَّصريح بأنَّ العذاب هنالك لهؤلاء المجادلين المكذِّبين تعذيبٌ بالماء المغليِّ البالغ في وصف ﴿ٱلۡحَمِيمِ﴾ ما لا مزيدَ عليه، وتعذيبٌ بالنّار، فـ﴿ثُمَّ﴾ قائلةٌ بتطاوُلِ أحقاب العذاب عليهم.

**عذابُ المكذِّبين دَرَكاتُهُ شديدةٌ ومراحلُهُ أليمة**

وأمّا التّراخي الرُّتَبيُّ فمستفادٌ من أنَّ درجة العذاب بالنّار أشدُّ إيلامًا من درجة الحميم، وإن كان كلاهما شديدًا؛ فـ"لمّا أخبر عن تعذيبهم بالماء الحارِّ الَّذي من شأنه أن يُضَيِّق الأنفاسَ، ويُضعِف القوَى، ويُخفق القلوب أخبر بما هو فوق ذلك فقال: ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: عذابِها خاصَّةً ﴿يُسۡجَرُونَ﴾"[4].

و"شأن ﴿ثُمَّ﴾ إذا عَطَفتِ الجملَ أن تكونَ للتَّراخي الرُّتَبيِّ؛ وذلك أنَّ احتراقَهم بالنّار أشدُّ في تعذيبهم من سَحْبِهم على النّار، فهو ارتقاءٌ في وصف التّعذيب الَّذي أُجمِل بقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، والسَّجرُ بالنّار حاصلٌ عقب السّحب، سواءٌ كان بتراخٍ أم بدونه"[5].

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 12/ 1268.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 532.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 51.
(4) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 17/ 115.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 203.

### دلالةُ حرفِ الظّرفيّة:

أوديةُ النّار عميقةٌ يُغرَقُ فيها المكذِّبون، وهي لهم كالظَّرف للمظروف

دلَّ حرفُ الظّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ على أنّ المرحلة التّالية لسحب المكذِّبين هي السّجر في النّار؛ فأودية النّارِ عميقةٌ، والمكذِّبون يُغرقون فيها بحيث تلفُّهم لفًّا، وتكون لهم ظرفًا تشتملُ عليهم، فمعنى ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾: أنّها "محيطة بهم، وهم مسجورون بالنّار، مملوءة بها أجوافهم"[1].

### معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلنَّارِ﴾:

أخبارُ نارِ الآخرة في الوحيين الشَّريفين معهودةٌ، وأوديَتُها عديدةٌ معروفة

تعريفُ لفظ ﴿ٱلنَّارِ﴾ للعهد، وهي الَّتي تواردت أخبارها وأوصافها في الوحيين الشّريفين، وعُرِفت بتنوُّع أوديتها وصنوف عذابها، فإذا جاء ذكرها في القرآن الكريم بادرت الأذهان إلى استحضارها وتصوُّرها، و(أل) تزيد ﴿ٱلنَّارِ﴾ خطورةً، وتوحي بأنَّها ﴿ٱلنَّارِ﴾ التّامَّةُ النّاريَّةِ، الَّتي جاء وصفُها: "عَنْ أبي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ: أوقِدَ عَلَى النّارِ ألفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّت، ثُمَّ أوقِدَ عَلَيْها ألفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّت، ثُمَّ أوقِدَ عَلَيْها ألفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّت، فهيَ سَوْداءُ مُظْلِمَةٌ"[2]، فهي تلك ﴿ٱلنَّارِ﴾ الجديرة بالتَّعريف.

### نكتةُ تقديمِ شبه الجملة على الفعل:

إقامةُ اليأسِ في القلوبِ وشديدِ البـأس على الأبدان

قُدِّم الجارّ والمجرور ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ على متعلَّقه ﴿يُسۡجَرُونَ﴾ لإفادة القصر؛ إذ لا مكان لهم ولا مستقرَّ إلّا في جوف ﴿ٱلنَّارِ﴾، ولا فِكاكَ لهم من عذابها أينما قُلِّبوا وتَقَلَّبوا، ونكتةُ التّقديم إقامةُ معنى اليأس، والمناداةُ على البأس والبؤس لأهل النّار.

### موقعُ جملةِ ﴿يُسۡجَرُونَ﴾ في التّركيب:

جملةُ ﴿يُسۡجَرُونَ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿يُسۡحَبُونَ﴾، فيكونُ ترتيب الجملة قبل ذلك التّصرُّف المعبِّر: يسحبون في الحميم ثمَّ يسجرون

---

(1) النسفي، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 3/ 221.

(2) التّرمذي، سنن التّرمذي، أبْوابُ صِفَةِ جَهَنَّمَ عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ، باب منه: 4/ 291 برقم: (2591).

في النّار، فيُغَلّون في الأغلال والقيود، الَّتي توصَل بها السّلاسل، فيسحبون في الماء المغليِّ غاية الغَلَيانِ، ثمَّ يَستقِرّون في أعماق النّار. و"المرادُ أنَّهم يُعذَّبون بأنواعٍ من العذاب ويُنقَلون من بعضها إلى بعضٍ"(1)، فهم "يُعذَّبون مرَّةً بهذا ومرَّةً بهذا، وقيل: يُعذَّبون بالماء، وقيل: يُعذَّبون بالماءِ الحارِّ ثُمَّ يُحرقون بالنّار"(2)، والمعنى: أنّهم ينتقلون بين أنواع العذابِ سحبًا وسجرًا، كلّما انتهى وقتُ مرحلةٍ بدأتْ أُخرى، كما أفاده حرفُ التّراخي.

المكذِّبون يُعَذَّبون بأنواعِ العذاب ويُنقَلون من بعضِها إلى بعضٍ

### دلالةُ استعمالِ مفردة السَّجْر:

تدلُّ مادَّةُ السّجر على الاشتعال والتأجُّج، وإيقاد النّيران في أجسام المكذِّبين ممّا لا يطيقه مجرَّدُ التّخيُّل، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾ [البقرة: 24]، فهؤلاء المكذّبون يصيرون بشحومهم ولحومهم مادَّةَ الإشعالِ والتَّأجيجِ ووقودَ ﴿ٱلنَّارِ﴾، وبذِكر ﴿يُسۡجَرُونَ﴾ يكون النّظم الكريم قد "ذَكر ما يُسقَون فيها - وهو الحميم - وذَكر ما يُحرقون به؛ يقال: سُجِرَتْ؛ أي: أوقِدَتْ فيه"(3)، فهم "يُطرَحون فيها فيكونون وقودًا لها"(4). وبه يتبيّن أنّهم يُحمَّون في الحميمِ قبلَ الإلقاء في النّار لتأجيجها وإشعالها، وقد جمَعَ لفظُ السَّجْرِ بين كونهم يُحرقون في النّار، وبين كونهم وقودًا لها.

المكذِّبون يصيرون يومَ القيامة وقودَ اشتعالِ النّيران ومادَّةَ تأجيجها

### دلالةُ صيغة المضارع:

في صَوْغِ الفعل ﴿يُسۡجَرُونَ﴾ مضارعًا دلالةٌ على تجدُّد إيقادِ النّيران بأجسام المجادلين، المكذِّبين بالكتاب وبما جاء به الرُّسل الكرام، وتقرّر تطاوُلَه وتنوُّعَه وتصاعُدَه إلى غير غايةٍ أو نهاية؛ اتِّساقًا مع قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [البقرة: 162]. وتدلُّ صيغةُ

إيقادُ النّيران في المجادلين المكذِّبين يَتَجدَّدُ بلا انقطاعٍ ولا توقُّف

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 5/ 63.
(2) الكرماني، لباب التّفاسير، ص: 2629.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 51.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 333.

المضارعة على الاستقبال واستحضار صورته، وتُقيمُها في الخيال كأنّها مُبصَرةٌ الآنَ وفي كلِّ آنٍ تُقرأ فيه الآيةُ الكريمة؛ فعطاءُ المضارَعةِ فاعِلٌ في مقام التّهديد والوعيد والزَّجر، كما أنّه مصوِّرٌ بِطبعه تصعُّدَ السَّجْر فيهم.

### بلاغةُ الإسناد المجازيّ:

سَجْرُ النّارِ يَعُمُّ المكانَ والحالّينَ فيه

في إسناد فعل ﴿يُسۡجَرُونَ﴾ إلى الضّمير دون المكان "إسنادٌ مجازيٌّ؛ لأنَّ الَّذي يُسجَر هو مكانُهم من جهنَّمَ، فأُريدَ بإسناد المسجور إليهم المبالغةُ في تعلُّق السّجر بهم، أو هو استعارةٌ تبعيَّةٌ بتشبيهِهم بالتَّنّور في استقرارِ النّار بباطنهم، كما قال تعالى: ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠﴾ [الحجّ: 20]"(1). وحَمْلُ السَّجْرِ على المكان ابتداءً، وعليهم عند سَحْبِهم إلى النّار ليكونوا وقودَها هو الأولى بظاهرِ النّظم، والأولى بدلالةِ العموم.

### لطيفةُ بناءِ فعل ﴿يُسۡجَرُونَ﴾ للمفعول:

تهويلُ مصيرِهم وتلوينُ أنواعِ عذابِهم

في بناءِ الفعل ﴿يُسۡجَرُونَ﴾ للمفعول - مع العلم بأنَّ فاعله خزنةُ جهنَّمَ والملائكةُ الموكَّلون بالتَّعذيب - إيحاءٌ بهولِ المصير وتكاثُرِ أسباب الهموم مِن كلِّ جانبٍ، وبُغْضِ عناصرِ الكون هنالك لهؤلاء المشؤومين، وما إلى ذلك ممّا يُفسِح له حذفُ الفاعل.

## ❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### الجِدالُ والحِجاجُ والمِراءُ:

الحِجاجُ لإظهارِ الحُجَّة، والجِدالُ للإرجاعِ عن المذهب، والمِراءُ مُخاصَمةٌ في الحقِّ

المطلوبُ بالحِجاج إظهارُ الحُجَّة، والمطلوبُ بالجدال الرّجوعُ عن المذهب، فإنَّ أصله من الجَدْل، وهو شِدَّة الفَتْل، ومنه الأجدلُ؛ لِشِدَّة قوَّتِه من بين الجوارح، ويؤيِّدُهُ قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]. هذا، وقد يراد بالجدال مطلق المخاصمة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 203.

ومنه قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[1] [النّساء: 109]. أمّا المِراءُ فمذمومٌ؛ لأنَّه مخاصمةٌ في الحقّ بعد ظهوره، وليس كذلك الجدال[2].

### الصَّرْفُ والإفكُ:

الإفكُ هو الكذبُ الصّارِفُ عن الحقِّ، والصَّرْفُ أعمُّ منه

الصّرف: الرّدّ والإرجاع، وصَرْفُ شيءٍ إلى شيء: رَجْعُهُ إليه، وصَرْفُ الكلام: تزيينه والزّيادة فيه، وإنَّما سُمّي بذلك لأنَّه إذا زُيِّن صَرَفَ الأسماعَ إلى استماعه. ويقال لحدث الدّهر: صرف، والجمع: صروف، وسُمّي بذلك لأنَّه يتصرَّفُ بالنّاس؛ أي: يُقَلِّبُهم ويُرَدِّدُهم[3]، والإفْكُ: الكَذِبُ، أفِكَ يَأْفَكُ أفكًا، ومنه قولُه ﷻ: ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ٩﴾ [الذّاريات: 9]. والأفّاكُ: الَّذي يَأْفِكُ النّاسَ عن الحَقِّ بالباطِل والكَذِب. وقَوْلُه ﷻ: ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠﴾ [التّوبة: 30]، أي: يُحَدّوْنَ. والمَأفوكُ: المَحْدودُ عن الخَيْر. والأفْكُ: مَجْمَعُ الخَطْم، ومَجْمَعُ الفكَّيْن، ويُقال: أُفِكْتُ أنْ أفْعَلَ كذا؛ أي: صُدِدْتُ عن أنْ أفْعَلَه[4]، فالإفكُ هو الكذبُ الَّذي يَصرِفُ النّاس عن الحقِّ، والصَّرفُ أعمُّ منه.

### التَّسجيرُ والتَّسعير:

التَّسعيرُ بدايةُ الإحماء، والتَّسجيرُ غايةُ الإلهاب

السّجر من سَجَرْتُ التَّنّورَ أسْجُرُهُ سَجْرًا، إذا أحْمَيْتَه. والسَّجورُ: ما يُسَجَر به التَّنّورُ. والسّاجِرُ: الموضع الَّذي يأتي عليه السّيل فيملؤه[5]. والسَّجْرُ: تهييج النّار، يقال: سَجَرْتُ التَّنّور، ومنه: ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ٦﴾ [الطّور: 6]، وقولُه: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ٦﴾ [التّكوير: 6] أي: أُضرِمَتْ[6].

(1) معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 158.
(2) معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 159.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرف).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللغة: (إفك).
(5) الجوهري، الصحاح تاج اللُّغة وصحاح العربية: (سجر).
(6) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (سجر).

أمّا السَّعْرُ فمن قولنا: سَعَرْتُ النّارَ والحربَ: هيَّجْتُهما وألهبْتُهما، وسَعَرْناهُمْ بالنَّبْلِ؛ أي: أحرقناهم وأمضَضْناهم. والمِسْعَرُ والمِسْعارُ: الخشبُ الَّذي تُسْعَرُ به النّار. ومنه قيل للرَّجل: إنَّه لمِسْعَرُ حربٍ؛ أي: تُحْمَى به الحربُ[1]، والمفردتان متقاربتا الدّلالة، لا سيَّما على قاعدةِ الاشتقاق الأكبر، إلّا أنّ دلالةَ السّجر أوضحُ في الامتلاء، وستمتلئُ بهم النّارُ، فهو امتلاءٌ بعد تسعيرٍ، فالتّسعيرُ ملحوظٌ فيه البدايةُ، أمّا السّجر فيكون غايةً مرادةً.

(1) الجوهري، الصحاح تاج اللُّغة وصحاح العربية: (سعر).

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ٧٥ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٦﴾ [غافر: 73 - 76]

## مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لمّا توعَّدت الآياتُ السّابقةُ المكذِّبين بالكتاب وبما أرسَلَ اللّه تعالى به الرُّسُل الكرام - عليهم أفضل الصّلاة والسّلام - الّذين يجادلون في آيات اللّه سبحانه؛ توعَّدتهم بجَرِّهم بالسَّلاسلِ في الحميم وقد غُلَّت أعناقهم بالأغلال، وبِسَجْر النّيران في أجسامهم؛ ناسَبَ ذلك ذكرُ تتمَّةِ الجدالِ الَّذي بدأ في الدُّنيا، المزوجِ بعذاب الآخرة المعنويِّ، فتُكمل الآياتُ حكايةَ عذابهم، وأنَّهم يواجَهون بسؤالٍ يَزيدهم حسرةً وندامة، ويُذَكِّرهم بمعبوداتهم الباطلة الّتي عبدوها في الدّنيا؛ هل وجدوها يومَئذٍ كما كانوا يحسبون أنَّها ستُغني عنهم شيئًا؟ وجاءت إجابتهم بفِقدانها، والاعترافِ بِخطئهم في عبادتها؛ فيؤمرون بِدخولِ أبواب جهنَّمَ؛ جزاءً لِرضاهم وسعادتهم في الدّنيا بها، وتكبُّرهم هناك على الحقّ وأهله.

سيُكمل المكذِّبون جدالَهم في نارِ جهنَّمَ لتتضاعفَ الحسرات

## شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَلُّواْ﴾: ضلَّ الشّيءُ يضِلّ ضلالًا؛ أي: ضاع وهلَك. والاسم الضُّلّ بالضَّمّ. ومنه قولهم: هو ضُلُّ بنُ ضُلٍّ، إذا كانَ لا يُعْرفُ ولا يُعْرَفُ أبوه. والضالّةُ: ما ضَلَّ من البهيمة للذَّكر والأنثى، والضَّلالُ والضَّلالَةُ: ضدُّ الرّشاد. وقد ضَلَلْتُ أضِلُّ. قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن

﴿ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ﴾ [سبأ: 50]، فهذه لغةُ نجدٍ، وهي الفصيحة. وأهل العاليةِ يقولون: ضَلِلْتُ بالكسر أضِلّ، وأضَلَّهُ: أضاعَهُ وأهلكه[1]، ومعنى ﴿ضَلُّواْ﴾ في جملةِ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾: ضاعوا، وتاهوا، ولا نهتدي لمكانهم، ولا سبيل لنا إليهم.

2) ﴿تَفۡرَحُونَ﴾: (فرح) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الحُزْنِ، يُقالُ: فَرِحَ يَفْرَحُ فَرَحًا، فهوَ فَرِحٌ. قالَ اللَّه تَعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾. والمِفْراحُ: نَقِيضُ المِحْزانِ[2]، ومعنى ﴿تَفۡرَحُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾: ادخلوا نارَ جهنَّم بسبب فرحكم بغير أسبابه المشروعة لكم في دار الدّنيا.

3) ﴿تَمۡرَحُونَ﴾: (مرح) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مَسَرَّةٍ لا يكادُ يَسْتَقِرُّ مَعَها طَرَبًا[3]، فالمرح: شِدَّةُ الفرح والنَّشاط حتّى يُجاوزَ قَدْرَهُ، وقيل: المَرَحُ: التَّبَخْتُرُ والاختيال. وفي التّنزيل: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ [الإسراء: 37]؛ أي: متبخترًا مختالًا؛ وقيل: المرحُ: الأشَرُ والبَطَرُ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾. وقَدْ مَرِحَ مَرَحًا ومراحًا، ورَجُلٌ مَرِحٌ مَنْ قَوْمٍ مَرْحى ومَراحى؛ ومِرّيحٌ، بِالتَّشْدِيدِ، مِثْلُ سِكّيرٍ، مَنْ قَوْمٍ مِرّيحينَ، ولا يُكَسَّرُ؛ ومَرِحَ، بِالكَسْرِ مَرَحًا: نَشِطَ، والمَروحُ الخمر، سمّيت بذلك لأنَّها تمرح في الإناءِ[4].

ومعنى ﴿تَمۡرَحُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾: اصطلوا النّار بسبب ما كنتم تطربون، وتتبخترون، وتختالون.

4) ﴿مَثۡوَى﴾: الثَّواء: الإقامة مع الاستقرار، يقال: ثَوَى يَثْوِي ثَواءً، قال اللّه ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: 45]، وقال: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ٦٠﴾ [الزُّمر: 60]، وقال: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾ [الزُّمر: 72]، وقال: ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [الأنعام: 128]، والثَّويَّة: مأوى الغنم[5]، ومعنى ﴿مَثۡوَى﴾ في قوله تعالى: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾: مكانُ إقامتهم ومُستقرُّهم الأخيرُ في جهنَّمَ.

---

(1) الجوهري، الصحاح تاج اللّغة وصحاح العربية: (ضلل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرح).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (مرح).
(5) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (ثوى).

## ❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سيَعترِفُ الكفّار يومَ القيامة بأنّهم كانوا على الباطلِ في الدّنيا، ولن ينفعَهم شيئًا

تُبيِّن الآيات الكريمة حالَ المكذِّبين بعد أن يُجَرّوا ويُغمَسوا في الحميم، وتُسْجَرَ في أجسامهم النّيرانُ، ويذوقوا ما أُعِدَّ لهم من العذاب، بعدَ ذلك يُسألون على وجه التّقريع والتَّبكيت: هل وجدتُم هنا أصنامَكم الَّتي عبدتُموها، وفضَّلتموها على عبادة اللّٰه تعالى، وعلى اتِّباع دينه الحقِّ لِتُنجيَكم ممّا حلَّ بكم من العذاب؟ و"تدفعَ عنكم شيئًا من العذاب الأليم الَّذي نزل بكم؟"(1)، فيأتي الجواب من قِبَلِهم بالاعترافِ بأنّهم لم يكونوا في الدّنيا على شيءٍ، بل لم يعبدوا شيئًا يستحقُّ العبادةَ، ثمَّ تُبيِّن الآيات أنَّ سببَ ما وصلوا إليه هو فرحُهم في الدّنيا بكفرهم، وتبختُرُهم وتكبُّرُهم على الحقّ والدّين، وبسبب "ما كنتم تُظهرون في الدّنيا مِن السّرور بالمعاصي وكثرة المال والأتباع والصِّحَّة"(2)؛ فادخلوا جهنَّمَ من أبوابها السّبعة، مُقدَّرًا عليكم الخلودُ فيها.

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### نوعُ ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتُها:

الإهانةُ النّفسيَّة والإذلالُ الرّوحيُّ أشقُّ من العذاب البدنيّ

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾ تفيدُ التّراخيَ الزَّمنيَّ؛ إذ يُطرح عليهم هذا السّؤالُ بعد مكابدة الأغلال والسَّلاسل والحميم والنّار؛ فيجتمع عليهم بذلك كلِّه الحسرةُ النّفسيَّةُ والإهانة الرّوحيَّةُ إلى العذاب الحسّيِّ والإيلام البدنيّ.

وكذلك تفوحُ ﴿ثُمَّ﴾ بالتَّراخي الرُّتَبيِّ؛ إذ الإهانةُ النّفسيَّة والإذلالُ الرّوحيُّ أشقُّ على أصحابِ الكرامة ودعاةِ العِزّة - من الكفّار المكذِّبين - من العذابِ البدنيِّ، و﴿ثُمَّ﴾ تحكي تصعيدَ الإيذاءِ عليهم رُتبةً فوقَ رُتبةٍ، وهكذا "لا يُكتفى بالعذاب الجسديِّ الَّذي

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 12/ 312.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 273.

سَبَقَتْ صورته البشعة، بل يُضمُّ إليه عذابٌ نفسيٌّ، وهو سؤالهم على سبيل التّقريع والتَّأنيب: أين ما كنتم تعبدون من دون اللّه؟ هل نفعكم هؤلاء الشُّرَكاءُ؟"[1].

### نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي:

ما أخبَرَ القرآنُ بوقوعِه ممّا سيأتي له حكمُ ما وقع ومَضَى

سَبَقَتِ الأفعالُ في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، ﴿يُسۡحَبُونَ﴾، ﴿يُسۡجَرُونَ﴾ بصيغةِ المضارعة؛ استحضارًا لتلك الصّورة الَّتي ستكون في المستقبل؛ وكأنَّها حاصلةٌ مُشاهَدةٌ وقت ترتيل هذه الآيات الكريمات، ثمَّ جاء قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهُمۡ﴾ متحوِّلًا إلى صيغة الماضي، فلم يقل: (ثمَّ يُقال)؛ لأنَّ ما سيُقال لهم ممّا أخبر به القرآن، فكأنَّه قد قيل؛ "وذلك لِتقرير وقوعه وتوكيده، ثمَّ ليَسْمَعَ هؤلاء المشركون ما قيل لِمن سبقوهم من أهل الضّلال، فهذا خبرٌ من أخبارهم، وأنَّهم إنَّما يُسألون عن معبوداتهم الَّتي عبدوها من دون اللّه سبحانه، فيلتفتون فلا يجدون لهم ظِلًّا، فيقولون: لقد ضلّوا عنّا؛ أي: تاهوا في هذا المُزدحَم"[2].

### نكتةُ بناء فعل ﴿قِيلَ﴾ للمفعول:

لفتُ الأنظارِ إلى القولِ لا إلى قائلِه فيقعَ الاهتمامُ بتأمُّله

جاء بناء فعل ﴿قِيلَ﴾ لغير فاعله؛ ليقعَ الاهتمام بالقول لا بالقائل، مع العلم بأنَّ "القائلَ لهم ناطقٌ بإذن اللّه"[3]، وهو وإنْ كان غيرَ محدَّدٍ فالغالبُ أنَّ القائل هم "الخزنة"[4]، وليقعَ اللَّفْتُ إلى الفعلِ لا إلى القائل، ففي ذلك البِناء تصفيةٌ لِلسّياق ممّا قد يشغلُ المكذِّبين عن المقول، ويوفِّرُ عنايتهم على القول.

### نوعُ اللّامِ ودلالتُها:

(اللّام) في القيد بالجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ في جملة: ﴿ثُمَّ قِيلَ

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 665.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 12/ 1268.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 204.
(4) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 214.

﴿لَهُمْ﴾ لامُ التّبليغ؛ لأنَّ هذا القولَ يبلغ أسماعَهم؛ ليَعوا مضمونه، فيُنادوا بالحسراتِ على الكفر والتّكذيب والجدال. واللّامُ ومجرورُها في محلِّ رفعٍ نائبُ فاعلٍ للفعل ﴿قِيلَ﴾، وفي ذلك نكتةٌ لطيفةٌ، حيث إنَّ القصَّةَ كلَّها تدورُ عليهم، وتتحدَّثُ عنهم وعن عذابهم، حتّى إنَّ ضميرَهم المجرور باللّام قد أُقيم مُقامَ الفاعل.

في نيابةِ الجارِّ والمجرورِ عن الفاعلِ مبالغةٌ في وصفِ سوءِ حالِهم

**نكتةُ ذكرِ القيدِ ﴿لَهُمْ﴾:**

ذُكِر قيد ﴿لَهُمْ﴾ في جملة ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾؛ لبيانِ أنَّ القول قد وُجِّه لهم بشديدِ اهتمام وكبيرِ اعتناءٍ، مع ما فيه من اللَّوم الكبير، والتَّوبيخ الشّديد على ما كان منهم من اتّخاذ الشّركاء في الدُّنيا؛ أي: قيل لهم على وجهِ الخصوص، وفي ذلك الموقف والمشهد لن يكون سِواهم ليُقال لهم ما قد قيل، إلّا أنَّ وجهَ الخصوصيّة كامنٌ في إبراز غرض التّوبيخ والتّقريع الآتي ذكرُه في الاستفهام.

التّبكيتُ بالقولِ المُهين في الآخرة يخصُّ الكافرين

**نكتةُ استعمالِ أداة الاستفهام ﴿أَيْنَ﴾ في تحقيق الأغراض:**

أداة الاستفهام ﴿أَيْنَ﴾ تأتي للاستفهام عن المكانِ المجهولِ للشَّيءِ، وفي جملةِ ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ أغراضٌ كثيفةٌ للاستفهام، منها: التّأنيبُ، والتَّبكيت، والتَّقريع، والتَّنديم، والتَّحسير، والقهر، والتَّعجيز؛ إذ قد فاتت الفرصةُ، واستحالت الاستعانةُ بغير الله تعالى، كما أنَّ الاستفهامَ يُحَقِّقُ على المستفهَم مِنه الإنكارَ التّوبيخيَّ؛ الجديرَ بإسقاط مُزَع اللّحم عن الوجوه يوم القيامة؛ فهو أسلوبٌ مفعَمٌ بأسباب التّحزين والإذلال.

كثرةُ أغراضِ الاستفهامِ وفرةٌ في المعاني وغزارةٌ في الدَّلالات

**فائدةُ استعمالِ ﴿مَا﴾:**

﴿مَا﴾ في جملةِ ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ موصولةٌ، والمعنى: أين الَّذين كنتم تشركونهم مع الله تعالى في الألوهيَّة؟، و"معبوداتُكم الَّتي كنتم تعبدونها من دون الله؟"[1]، فاصطفاءُ النّظم الكريم ﴿مَا﴾

الإيجازُ اللَّفظيُّ، والمناداةُ على المعاني الكثيرةِ والعمومِ الشُّموليِّ

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 664.

لهذا الموقع حقَّقَ الإيجازَ، وأدَّى المعنى على أتمِّ وجهٍ، وحقَّقَ غرضَ العُمومِ المشتملِ على جميعِ المعبودات، لا سيَّما بذكر ﴿كُنتُمۡ﴾.

**دلالةُ ذكرِ فعل الكون الماضي:**

الإيماءُ إلى أنّ شركَ المكذّبين كان أسلوبَ حياةٍ ومنهجَ وجود

آثر النَّظمُ الكريم ذكرَ فعلِ الكون الماضي في جملة ﴿مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾، دون أن يقول: (أين ما تشركون)؛ وذلك لبيانِ أنَّ ديدَنَهم في الحياة الدُّنيا هو الإشراكُ باللّه تعالى، وأنَّ شركهم لم يكن عابرًا، أو عن جهلٍ يسيرٍ، بل هو عن إصرارٍ وعنادٍ ومعرفةٍ للحقِّ، بدليل ما جاء في السّياق من ذكر المجادلة بآيات اللّه تعالى، والتّكذيب بالكتاب، وهو ما يُبرهن على أنَّ عذابَهم عذابٌ يستحقّونه، وما كان اللّه ليظلمَهم فيما انتهَوا إليه من التّسجير في النّار.

**دلالةُ استعمالِ مفردةِ الشِّرك:**

الشِّركُ هو اللَّفظُ الأنسبُ في سياق التَّوبيخ والتَّقريع

المقصودُ بالشِّرك في جملةِ ﴿تُشۡرِكُونَ﴾: تعبدون[1]، واستعمالُ مفردة الشّرك دون الكفر مع دلالةِ العموم والاتِّساع في لفظ الكفر باعتبارِ أنَّ السّؤالَ كان متَّجهًا نحوَ المعبودات الَّتي اتّخذها المشركون من دون اللّه تعالى، فحقَّقَ اللَّفظُ على هؤلاء المجادلين المكذِّبين جُرمَهم، وأُخزاهم، وعرّاهم أمام أنفسِهم؛ ففي الشِّركِ إعلانٌ لتسويتهم بين اللّه تعالى وبين غيره في استحقاق العبادة، وذلك هو الظّلم العظيم الَّذي لأجلِه أُدخلوا النّارَ، فكان ذكر لفظ الشّرك هو الأولى بالمقام.

**دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:**

كلُّ معصيةٍ تزولُ إلّا الشِّركَ، فسيبقى عقابُه حاضرًا في جهنَّم

من مَزايا التَّعبير بالمضارع في الفعل ﴿تُشۡرِكُونَ﴾ أنَّه يَستحضرُ الماضيَ البعيد، ويُقيمُه ماثلًا لَحظةَ التّعنيف والتَّبكيت بهذا السّؤال ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾؛ فيحقِّقُ على هؤلاء المكذِّبين جُرمَهم،

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 214.

ويشعرهم أنَّ شركهم لا يزالُ وسيظلُّ يطاردُهم في دار العقاب أبدَ الآبدين؛ لأنَّه الخطيئة الَّتي لا تُغفر، بل تُخَلِّد صاحبَها في الجحيم، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النِّساء: 48]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النِّساء: 116].

### نكتةُ حذفِ عائدِ الموصول:

الشِّركُ هو المعصيةُ الكبرى بغضِّ النَّظرِ عن الشُّركاءِ المُتَّخذينَ من دون الله

في قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾ آثر النَّظمُ الحكيم حذفَ الضَّمير العائد على الاسم الموصول، والتَّقدير: أين ما كنتم تشركونهم؛ للاهتمام بقضيَّةِ الشِّركِ بغضِّ النَّظر عن الشُّركاءِ المعبودين من دون الله، فالشِّركُ هو المعصيةُ الكبرى الَّتي لا يغفرها الله، وبمجرَّدِ حصولِهِ يَخرُجُ صاحبُه عن مظلَّةِ التَّوحيد.

### نكتةُ التَّقييدِ بالجارِّ والمجرور ﴿مِن دُونِ﴾ ودلالتُهما:

استيعابُ كلِّ معبودٍ باطلٍ؛ ليقعَ التّوبيخُ على جميعِ المشركين

جاءَ قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ قيدًا لفعل ﴿تُشۡرِكُونَ﴾؛ أي: تشركون من دونه المعبوداتِ الباطلةَ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الحقَّ يقتضي أنْ يَتَّخذوا الله إلهًا؛ إذ بذلك تقرَّر الاعتقادُ الحقُّ من مبدإ الخليقة، وعليه دلَّتِ العقول الرّاجحة[1]، وحرفُ ﴿مِن﴾ دلَّ على الابتداء، ولفظ ﴿دُونِ﴾ دلَّ على أنَّ كلّ معبودٍ هو دون الله تعالى، فالله أكبرُ وأعظمُ وأجلُّ وأكرم، فيكون هذا القيدُ دالًّا على الشُّمول؛ ومستوعبًا لكلِّ معبودٍ باطلٍ وُبِّخوا بسببِ اتّخاذه إلهًا.

### علَّة فصلِ جملةِ الجوابِ عن السُّؤال:

الجُمل في باب المقاولةِ تتلاحق بلا واسطةٍ لفظيَّة

فُصلت جملةُ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ عن جملة ﴿قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ للاستئنافِ البيانيِّ؛ لأنَّه من باب التّقاوُل الَّذي تتلاحق الجملُ فيه بلا واسطةٍ لفظيَّة، إضافةً إلى أنَّ الجملةَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 16/ 163.

الثّانية ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ جوابُ السّؤال الصّريح السّابق: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾، ولا يعطف الجواب على سؤاله؛ لِما بينَ الجملتين من الارتباط القويِّ.

### براعةُ استعمال مفردةِ الضّلال:

الضَّلالُ في الدّنيا يَستلزِمُ الضَّلال في الآخرة، كما أنّ الهُدى ثمرةُ الهدى

آثرَ النّظم الكريم استعمالَ مفردة الضّلال في جواب المشركين عند الإخبارِ عن معبوداتهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ بقولهم: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾، مع ما فيه من المعنى اللُّغويّ، وهو الضّياع والتّيْهُ، وفِقدانُ الوِجهة، إلّا أنَّ فيه إيماءً إلى أمرٍ آخرَ، وهو الاعتراف بالضّلال الَّذي وقعوا هم فيه ضمنيًّا، فإذا أثبتوا الضّلالَ للمعبودِ فقد أثبتوه لزومًا للعابد.

فالتَّعبيرُ بمفردة (الضَّلال) في قولهم: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ مفردةٌ معبِّرةٌ في مقامها، ومتَّسِقةٌ مع ما كانوا عليه من ضلالٍ عن الحقِّ في دار الاختيار، فبسببِ هذه المعبودات المختلَقة أنطَقَهم بمفردة (الضَّلال) عمقُ أسَفِهم، وتغلغُلُ النّدامة في أنفسهم على ما فاتهم من نورِ الهدى والتَّوفيقِ إلى توحيد اللّه تعالى، والتَّصديقِ بكتابه العزيز، وبما أرسل به رسله الكرام؛ وهكذا عوقبوا بضلالهم في الدّنيا ضلالَ آلهتهم المكذوبة عنهم في الآخرة، وكذلك الضّلال يستلزم الضّلال، كما أنَّ الهُدى يُثمر الهدى.

### بلاغةُ التّضمين وفائدتُه:

غـيـابُ الآلـهـةِ المزعومةِ ضلالٌ عن العابدين؛ لـعـدم الـنّـفـع واضـمـحـلالِ الوهم

عُدّي الفعل (ضلَّ) في قول المكذِّبين عن معبوداتهم الباطلة: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ لأنَّه مضمَّنٌ معنى الفعل (غاب)، والمعنى: "غابوا عنا. من: ضلَّت دابتُه: إذا لم يَعرِفْ مكانها"[1]، وهو ما يجمع بين هذه الآيةِ وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: 98] الدّالِّ على أنّهم مقرونون بآلهتهم، "فيجوز أن

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 664.

يَضِلّوا عنهم إذا وُبِّخوا وقيل لهم: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ فيغيثوكم ويشفعوا لكم؟ وأَنْ يكونوا معهم في سائر الأوقات، وأن يكونوا معهم في جميع أوقاتهم، إلّا أنّهم لَمّا لم ينفعوهم فكأنّهم ضالّون عنهم"[1]، وعلى ذلك فإنَّ "للنّار طبقاتٍ، ولهم فيها مواقف؛ فيجوز غَيْبَتُهم عنهم في بعضِها واقترانُهم بهم في بعضٍ آخرَ، ويجوز أن يكون ضلالُهم استعارةً لعدم النّفع، فحضورُهم كالعدم، فذُكِرَ على حقيقته في موضعٍ، وعلى مجازه في آخرَ"[2].

**نوعُ ﴿بَل﴾ ودلالتُها:**

احتمالُ حرفِ الإضراب للانتقالِ أو الإبطال

﴿بَل﴾ في قولهم: ﴿بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ تَحتمِلُ أن تكون حرفَ إضرابٍ، يُفيد الإبطالَ، فالمشركون مرتبكون لا ثَباتَ لهم، كما قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ [إبراهيم: 27]، فبعدَ أنِ اعترفوا بشركهم في جملة ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ انتكسوا إلى الكذبِ الّذي اعتادوه في الدّنيا، ولم يزجُرهم ما عاينوه من أهوال الآخرة، فقالوا: ﴿بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ﴾، و"هذا يدلُّ على أنَّ الآيةَ لا تضطَرُّ أهلَها إلى قبول الآيات والتَّصديق لها؛ لأنَّهم أنكروا أن يكونوا مشركين بعدما عاينوا العذابَ وظهَرَ لهم خطَؤُهم وكونُهم على الباطل، ثمَّ لم يمنعهم ما عاينوا من الكذب"[3].

ويَحتمِلُ حرفُ الإضراب أن يكون للانتقال، والمعنى: "ضاعت عبادتُنا لها، فكأنّا ﴿لَّمۡ﴾ نكنْ ندعو من قبلُ شيئًا"[4]، فيقولون: "تبيَّنَ لنا اليومَ أنّا لم نكن نعبدُ في الدّنيا شيئًا يُعتَدُّ به، وهو إضرابٌ عن كون الآلهة الباطلة ليست بموجودةٍ عندهم أو ليست بنافعةٍ إلى أنَّها

(1) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التّنزيل: 4/ 179.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 338.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 51.
(4) الخازن، لباب التّأويل في معاني التّنزيل: 4/ 80.

ليست شيئًا يُعتَدُّ به. وفي ذلك اعترافٌ بخطئهم وندمٌ على قبيح فعلهم حيث لا ينفعُ ذلك"[1].

**دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع:**

عند وقوع العذاب تضمَحِلُّ الغفلةُ وتتلاشى

تعبيرُ هؤلاء المشركين بالكون المضارع منفيًّا، والدّعاءِ المضارع في سياق النّفي ﴿لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ﴾ جاءَ بإزاء الكون الماضي والشِّرك المستحضَر في السّؤال ﴿كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾، وفي ذلك أمارةُ الانتباهِ والتَّركيزِ والتَّخلُّص من مظاهر الغفلة الَّتي كانت تلفُّهم في الدّنيا ومن أسبابها؛ فما عادَ للغفلة مكانٌ؛ فقد حلَّ بهم ما لا قِبَلَ لأحدٍ على احتماله.

**لطيفةُ إيثارِ لفظ ﴿نَّدۡعُواْ﴾ دون (نُشرِكُ):**

لا جدوى في المُحايَلة ولا نفعَ بالمُلاينَة

آثرَ المشركون التَّعبير بالفعل ﴿نَّدۡعُواْ﴾ مع أنَّ السّؤال بـ ﴿تُشۡرِكُونَ﴾ في جملة ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾، وفي ذلك مُجانَبةٌ لِلَفظِ الشِّرك؛ فالشِّركُ جريمةُ الجرائم، وهم يحاولون التّهرُّب منها، فجانبوها، وأدخلوا النَّفيَ على دعاء غير الله تعالى قائلين: ﴿لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ﴾، وهذا منهم محايلةٌ لا جدوى منها، وملاينةٌ غيرُ نافعة.

**فائدةُ تقديم الجارّ والمجرور على المفعولِ:**

العناية باستغراقِ النَّفي للزَّمانِ كلِّه

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿مِن قَبۡلُ﴾ على المفعولِ ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾ في قولهم: ﴿لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ﴾؛ لتأكيدِ خلوِّ الزَّمنِ السّابق كلِّه من دعائهم وعبادتهم شيئًا، سواءٌ جاء ذلك منهم على وجه الكذِب، أو جاء على وجه الاعتراف بخطئهم والإقرارِ بعدم أهليَّة معبوداتهم الباطلة للعبادة، وأنَّها ليست بشيءٍ، والتّقديمُ يدلُّ على العنايةِ باستغراقِ النّفي للزّمانِ كلِّه.

**دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾ وتنكيرِه:**

يَنْفي الكفّار دعوتَهم أيَّ (شيء) في قولهم: ﴿لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 339.

هـول الموقف يَستدعي التَّبرُّؤَ مِن الإشراك بعمومه

﴿مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ﴾، فعبَّروا بالشَّيئيَّة، ونكَّروها؛ فجمعوا عليها تنكيرين: تنكيرَ معناها؛ فهي (شيء) مُبهَم لا وجود له، وتنكيرَ مبناها؛ فهي (شيء) مجهولٌ منكورٌ غيرُ محدَّدٍ؛ ففيها معنى العموم والاستغراق لكلِّ شيءٍ يُتصوَّر معه عبادةُ غير اللّه تعالى.

**علَّةُ فصلِ جملةِ الفاصلةِ عمّا قبلَها:**

الاتّعاظُ بالوقوفِ على مصائبِ المشركين والاعتبارُ من أحوالِهم

فُصِلَتْ جملةُ ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ عن جملةِ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ﴾؛ لاختلاف مصدرَي الخبرين؛ إذ إنّ جملة ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ كلامٌ مستأنفٌ جاء إخبارًا من اللّه تعالى، والجملة السّابقة كانت مِن كلام المشركين، يتبرَّؤون فيها من عبادة شيءٍ قبل يوم القيامة، وهي موضعُ الاعتبار وموقعُ الاتّعاظ.

**وظيفة (الكاف) الرّابطة:**

أداةُ التّشبيهِ بمثابةِ الرّابطِ الَّذي يُغني عن حروف العطف

الأداةُ الرّابطة بين الجملتين هي أداة التّشبيه في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ إذ جَعَلَتْ ما قبلَها ملخَّصًا في اسم الإشارة (ذا) مُشبَّهًا به، وجَعَلَتْ ما بعدهما مُشبَّهًا، وكانت بينهما جامعةً؛ فاستغنى التّركيب عن حروف العطف، والمعنى: "كما أضلَّ اللّه تعالى أعمالَ هؤلاء، وأبطل ما كانوا يؤمِّلونه؛ كذلك يفعل بأعمالِ جميع مَن يتديَّن بالكفر، فلا ينتفعون بشيء منها، فإضلالُ الكافرين على معنى إضلالِ أعمالِهم؛ أي: إبطالِها"(1).

**بلاغةُ التَّشبيهِ وغرضُه:**

سُنَّةُ اللّه تعالى ماضيةٌ في الكافرين باستحقاقِ الضَّلالِ المبين

يعودُ اسمُ الإشارة في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إلى مضمونِ السّابق؛ أي: مثلَ ذلك الضَّلالِ الَّذي وقع به المشركون في المجادلة في آيات اللّه والتّكذيب بالكتاب، فاستحقّوا الضّلالَ والعذابَ في الآخرة يكونُ الضّلالُ لعمومِ الكافرين؛ أي: "مثلَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 339.

ضلالهم ذلك يضلُّ اللّه الكافرين، والمراد بالكافرين: عمومُ الكافرين، فليس هذا من الإظهار في مقام الإضمار"[1].

فالتَّشبيهُ هو إلحاقُ حالِ كلِّ كافرٍ إلى يوم الدّين، وما يكونُ له في الدّنيا من الضّلال، وفي الآخرةِ من العذاب؛ بحال هؤلاء المشركين المتقدِّمِ ذكرُهم، وغرضُ التّشبيه بيانُ الحال، والكشفُ عن خطورة اختيارِ الكفر، ومضرّةِ الجدال في آيات اللّه تعالى والتَّكذيبِ بها في كلِّ أمَّةٍ وفي كلِّ جيل؛ فَسُنَّةُ اللّه تعالى في الكافرين لا تتخلَّفُ ولا تتبدَّلُ ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

**نكتةُ الإشارةِ بالبعيد:**

مصيرُ المكذِّبين بالحقِّ الطَّرْدُ والإبعادُ عن ساحة الطُّهْر والرَّحَمات

في إيثارِ الإشارةِ الَّتي للبعيدِ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ مع قربِ ذكرِ المشبّه به إيحاءٌ ببُعْدِ المشارِ إليه في الخطورة على مَن يتورَّطُ فيه، وتخويفٌ مِن المصير إلى مثل مصير هؤلاء المكذِّبين، فالبُعدُ هو باعتبار معنى الحال الَّذي تمثَّلَ به المشركون من الجدال والتّكذيب، فإنّه حقيقٌ بالإبعادِ، لا باعتبار الذّكر في السّياق، وعليه فتكون الإشارةُ للبعيدِ بغرضِ إبعاد مَن هذه حالُهُ، ففيه إيحاءٌ بِطَردِ أصحابه وإبعادهم عن ساحة الطُّهر والرَّحَمات.

**فائدةُ استعمالِ مفردة الضَّلال:**

الضَّلالُ لفظٌ جامعٌ لكلِّ مَن ينتهي به الحالُ إلى مخالفةِ الإسلام

استعمَلَ النّظم الكريم مفردةَ الضّلال في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ لاستحضار معنى الإضلال الَّذي وقع به المشركون، فحصل لهم ما حصل من العذاب الأليم في الجحيم، وللتَّحذير من الاستمرار في الكفر، ولبيان أنَّ ما عليه الكافرون بجميعِ أنواعهم واتِّجاهاتهم ومبادئهم واعتقاداتهم مصيرُهُ إلى ما صار إليه المشركون؛ ففيه دفعُ اختصاص المشركين بهذا الضّلال،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 205.

بل هو ضلالٌ عامٌّ في الجميعِ؛ فيدخلُ أهلُ الكتاب، والملاحدةُ، وعمومُ الوَثَنيّين، وكلُّ اعتقادٍ طارئٍ إلى يوم الدّين؛ فاللَّفظ الجامع لهؤلاء جميعًا مع المشركين هو الضّلال.

### نكتةُ التَّعبير بصيغةِ المضارع:

الإضلالُ مستمرٌّ متجدِّدٌ بتجدُّدِ الكفرِ واستمرارِه

جاء التّعبيرُ بصيغة المضارع في الفعل ﴿يُضِلُّ﴾؛ لبيانِ أنَّ الضَّلالَ متجدِّدٌ في النّاس، وأنَّه أمرٌ لا يتوقَّفُ، فكلَّما استجدَّ كفرٌ استجدَّ إضلالٌ.

### لطيفةُ إسنادِ فعلِ الإضلال إلى الاسم الجليل:

جـمـيـعُ مـا في الوجود إنَّما هو بإذن الله تعالى ومشيئته

أسنَدَ النّظمُ الكريم فِعلَ الإضلال إلى الاسم الجليل في جملة ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ مع أنَّهم هم الَّذين ضَلّوا، وهم الَّذين اختاروا الضّلال؛ وذلك لبيان أنَّ الأفعال كلَّها للّه تعالى، فهو الَّذي يُقْدِرُ العبادَ على الإتيان بها، ففي إسنادِ فِعلِ الإضلالِ إلى الاسم الجليل تنبيهٌ إلى أنَّ جميعَ ما يجري في هذا الوجود إنَّما هو بإذن اللّه تعالى وواقعٌ بمشيئته، حتّى ما هو خارجٌ عن دائرةِ مرضاتِه، فهو الَّذي سمَحَ بوقوعه، وإلّا لم يقع.

### معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

الكفرُ ضلالٌ بكلِّ أشكالِهِ وصُنوفِه

لفظُ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ جاء جمعًا معرَّفًا بـ(أل)؛ لاستغراقِ كلِّ من يتَّصِفُ بالكفرِ على اختلاف مِلَلِه ونِحَلِه، وتُدخِلُ كلَّ كافرٍ ضالٍّ رضيَ بالكُفر واختارَهُ على الإسلام.

### بلاغةُ الكنايةِ في التّشبيه:

المجادلةُ في آيات الله تعالى أشدُّ الكفر

التّشبيهُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ "كنايةٌ عن كون إضلالِ الَّذين يجادلون في آيات اللّه بلَغَ قوَّةَ نوعِه؛ بحيث يُنْظَرُ به كلُّ ما خفي مِن أصناف الضَّلال، وهو كنايةٌ عن كون مجادلةِ هؤلاءِ في آيات اللّه أشدَّ الكفر"(1).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 205.

### فائدةُ اختيارِ لفظِ الكفر دون الشِّرك:

دفعُ توهُّمِ تخصيص الشِّرك بالذَّمِّ دونَ سائرِ أنواعِ الكفر

آثر النّظم الكريم استعمال لفظ (الشِّرك) في قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾ دون لفظ (الكفر)، ثمَّ استعملَ لفظَ (الكفر) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ ليدخلَ فيه عمومُ الكافرين من أهل الشّركِ والإلحاد وأهل الكتاب وغيرهم؛ أي: فكذلك يضلُّ اللّه الكافرين بكلِّ أنواعهم ومِلَلِهم، ولو أتى بلفظ الشِّرك لتُوهِّمَ أنّ المرادَ المشركون على وجهِ الخصوص، فكان اختيارُ لفظ (الكفر) لدفعِ هذا الوهم.

### نكتةُ حذفِ متعلِّق فعل الإضلال:

الإضلالُ عامٌّ في كلِّ خيرٍ دينيّ

حُذف متعلِّقُ فعلِ ﴿يُضِلُّ﴾ من قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، والتَّقدير: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ "عن الإيمان، وعن طريق الجنَّة"(1)، "وعن الصّراط المستقيم"(2)، ولطيفةُ حذف المتعلِّق إفادةُ عمومه، وأنَّ إضلالَهم كان إضلالًا عامًّا عن كلِّ خيرٍ يَنفعُهم، ممّا يقرِّر أنَّهم مشؤومون. نَعَمْ، إنَّه تعالى قد يوَفِّقُهم إلى خيرٍ عاجل لا يَنفعُهم، بل قد يكون استدراجًا مُهلِكًا فاتكًا بهم، وهذا من أكبرِ الخِذْلان، والعياذ باللّه تعالى.

### توجيهُ الفَصْلِ بين جملةِ مقولِ القولِ وما قبلها:

التَّراكيبُ القرآنيَّةُ مُتَعانِقةُ الارتباطِ والدَّلالات

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ مقولُ قولٍ محذوفٍ، والتَّقدير: "تقول لهم الملائكة: هذا الَّذي أنتم فيه جزاءٌ على فَرَحِكم في الدّنيا بغير الحقِّ، ومَرَحِكم وأشَرِكم وبَطَرِكم"(3)، وهو تكملةٌ للمتقدّم ذكرُه؛ أي: ﴿قِيلَ لَهُمۡ﴾، ثمَّ جاء الجوابُ ﴿قَالُواْ﴾، وهنا جاء الرّدُّ عليهم على تقدير: (قيل لهم): ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾،

---

(1) الكرماني، لباب التّفاسير، ص: 2630.

(2) حجازي، التّفسير الواضح: 3/ 318.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 158.

فيكونُ الفصلُ من المحاورة والمقاولة بين الملائكة والمشركين، فهم "يقال لهم، ويقولون"[1]، فقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ "تكملةُ القيل الَّذي يقال لهم ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾"[2].

### نكتةُ حذفِ فعلِ القول:

رُبَّ حذفٍ ورَّثَ فهمًا لا يَستدعيه اللَّفظ

بناءً على المتقدِّم ذكرُهُ في النُّكتةِ السّابقةِ؛ يُسألُ عن نكتةِ حذفِ القول المقدَّر المحذوف (قيل لهم)؛ فلم يأتِ على غِرارِ المتقدِّم، والجواب: أنَّ جملة ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ جاءتْ على طريق المباغَتة لهم بعدَ أنْ صدَرَ عنهم ما صدر، وكان المناسبُ لهذه المباغتة حذفَ فعل القول؛ ليَتصوَّرَ المتلقّي بوساطةِ الحذفِ سرعةَ المباغتة، وقوَّةَ المفاجأة، فلا يتَّضحُ ذلك إلّا بالحذفِ، ورُبَّ حذفٍ ورّث فهمًا لا يَستدعيه اللَّفظ.

### تعيينُ مرجعِ اسمِ الإشارة:

المعنى المتقدِّمُ بجملتِه مقصودُ اسمِ الإشارة

الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تعودُ إلى مضمون السّابقِ من الضّلال المؤدّي إلى العذابِ الشّديد في النّار؛ مِن سحْبِهم في السّلاسل والأغلال، وتسجيرِهم في النّار، وتوبيخِهم بالسُّؤال[3]، فهو عائدٌ إلى الإضلالِ والعذابِ معًا لتلازُمِ العلاقةِ بينهما، وناسَبَ ذلك الإشارةُ بالبعيد.

### غَرَضُ خطابِ المشركين:

توبيخُ المكذِّبين وقتَ العذابِ عقابٌ أليم

يُقال للمشركين: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على وجهِ الخطاب؛ "للمبالغة في التّوبيخ؛ لأنَّ ذمَّ المرء في وجهه تشهيرٌ له، ولذا قيل: النُّصْحُ بينَ الملأ تقريعٌ"[4]؛ "أي: إنَّما نالَكُم هذا بما

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 338.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 206.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 533، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 333، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 575.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 339.

كنتم تُظهِرون في الدّنيا من السّرور بالمعصية، وكثرةِ المال والأتباعِ والصِّحَّة. وقيل: إنَّ فرحَهم بها عندهم أنَّهم قالوا للرُّسل ﷺ: نحن نعلمُ أنّا لا نُبعَثُ ولا نُعذَّبُ"[1]، وللإيماءِ إلى تعاضُدِهم في نُصرةِ الباطلِ ومحاربةِ الحقِّ أيّامَ أنْ مُنِحوا حرّيَّةَ الاختيار، فاختاروا لأنفسِهم الكفرَ والتَّكذيب بالدّين.

عقابُ المُكذِّبين مُسبَّبٌ عن اختيارِهم وعنادِهم

### نوعُ الباء ودلالتُها:

(الباءُ) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ للسَّببيَّة؛ أي: بسببِ فرحِكم في الدّنيا، ومرحِكم وتقلُّبِكم في الأرض خلّاكم الله تعالى إلى الضّلال، ولم يوفِّقكم إلى الهُدى، لا بظُلمٍ منه سبحانه، بل بعنادِكم واختيارِكم؛ فلا تلومُنَّ إلّا أنفسَكم.

اجتماعُ معنى المصدريَّةِ والموصوليَّةِ يُحقِّقُ الإيجازَ

### نوعُ (ما) ودلالتُها:

(ما) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تحتملُ المصدريَّةَ وتحتملُ الموصوليَّة، والمعنى على المصدريَّة: ذلكم بِكَوْنِكم فَرِحينَ في الأرض بغير الحقّ وبِكونكم مَرِحينَ، والمعنى على الموصوليَّة: ذلكم بسبب ارتكابكم الشّركَ الَّذي كنتم به تفرحون في الأرض وبسبب الَّذي كنتم به تمرحون.

وكِلا التَّقديرَينِ يؤدّي المعنى المرادَ، إلّا أنَّ بينَهما فرقًا دقيقًا، فعلى المصدريَّةِ يكونُ العذابُ مُسبَّبًا عن الفرحِ والمرحِ أنفُسِهما، وعلى الموصوليَّةِ يكونُ العذابُ مُسبَّبًا عن الشِّركِ المؤدّي إلى فرحِهم ومرحِهم، وفي النَّتيجة: الشِّركُ والفرحُ بالشِّركِ شيءٌ واحدٌ يَستَحِقُّ به صاحبُه العذاب.

وفي إيثار النَّظم الكريم استعمالَ (ما) تحقيقٌ للدَّلالتين دَفعةً، ومنحُ التَّركيبِ وجازةً ووَثاقةً لا تَتأتَّيانِ معًا إلّا به.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 333.

### دلالةُ التَّصريح بفعلِ الكون الماضي:

في التَّعبير بالكون الماضي في جملة ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ حكايةُ ماضٍ بعيدٍ انقضَتْ لَذَّتُهُ وبَقيَتْ حسرتُه، أيّامَ أنْ كانوا في الدّنيا يتلذَّذون بتكذيب آيات اللّه تعالى، ومناهَضةِ رُسله الكرام، ومَن خَلَفوهم في الدّعوة إلى اللّه سبحانه من الدّعاة؛ ففي التّذكيرِ بالكون الماضي هنا تعنيفٌ شديدٌ، وتحسيرٌ أليمٌ يضاف إلى ما يَفوحُ من عناصرِ التّركيب الأخرى من تحسيرٍ وتحزينٍ، وإقامةٍ للحجّةِ عليهم بأنّ فرحَهم في الدّنيا الَّذي صرفَهم عن الإيمانِ والهداية كان ديدَنَهم، وكان دوامَ حالِهم الَّتي تتجدَّد في كلِّ وقت وحين، فلم يدخلوا النّار إلّا بما كان من دوامِ حالِهم وبؤسِ مَقامِهم.

في تذكيرِ الكافرِ بماضيهِ القبيحِ تَحسيرٌ بِلَذّاتٍ انقَضَتْ وتعظيمٌ لحسراتٍ بَقيَتْ

### فائدةُ استعمالِ مفردةِ الفرح:

التَّعبيرُ بالفرح في مقام تعذيب المكذِّبين في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ لبيانِ أنَّ الفرحَ المُلهيَ عن ذكر اللّه تعالى هو فرحٌ مذمومٌ، ولم يأتِ بمفردةِ اللّهو أو الغفلة ونحو ذلك؛ لتحذير المخاطَبين بأنَّ الفرح هو أقربُ إلى دائرة الذَّمِّ منه إلى دائرة المدح والقبول، والفرحُ هو "المَسَرَّةُ، ورِضا الإنسان على أحواله، فهو انفِعالٌ نفسانيٌّ"[1]، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ العاقل لا ينبغي له أن يُكثر من مجالسِ الفرح، بل يجعلُها خفيفةً يسيرةً بقدر الحاجة، والمؤمن إنَّما يفرح بفضل اللّه تعالى وبرحمته كما أمَرَنا اللّه تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: 58]، وهؤلاء جعلوا الفرح أصلًا يَنطلِقون منه في حياتِهم كلِّها، ويُحيط بهم من كلِّ جانب.

الفرحُ المحمودُ ما كان وسيلةً للطّاعةِ، والمذمومُ ما كان دَيْدَنًا في الحياةِ

### دلالةُ التَّعبير بصيغةِ المضارع:

تَحكي صيغةُ المضارعة عن هؤلاء المشركين في قولِه تعالى:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 206.

الـفـرحُ الـدّائـم المتـجـدِّد سِـمَـةُ أهــل الـغُـرور وعــنــوانُ أهـلِ التَّرَف

﴿تَفۡرَحُونَ﴾، وقولِه: ﴿تَمۡرَحُونَ﴾ أنَّهم كانوا في الدّنيا يتمادَون في فرحهم ومرحهم، حتَّى أصبح منهجَ حياةٍ مُتجدِّدًا، ويبالغون في تبختُرِهم وبطَرِهم بغير الحقّ حتى خرجوا عن منهج الحقّ إلى منهجِ (غير الحق)، والمنهجُ القويم يأبى الإكثارَ من مظاهر الفرح والمرح، وقد تعدَّى هؤلاء ذلك حتّى ارتكبوا كثيرًا من أنواع الخطايا في فرحهم ومرحهم، واتَّخَذوه منهجَ حياةٍ مُتجدِّدًا، وتربَّصوا بِرُسُل اللّه تعالى الدّوائرَ، وفَرِحوا بما يُصيب أنبياءَ اللّه تعالى وأولياءَه من المكارِه[1]، فالفرحُ باعتناقِ الباطل، وبنصرته وانتصاره، وبالكيد له ولدُعاتِهِ الصّالحين المصلحين شديدُ الحُرمة، فظيعُ الجُرم.

### دلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة مُقيِّدًا للفعل:

تـمـكـينُ الـلـه تعالى للكفّارِ في الأرض يَقتضي مـنـهـم شـكـرَ المُنعِم لا جُحودَ فضلِه

في قوله تعالى: ﴿تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جاء حرفُ الظّرفيَّة ﴿فِي﴾ في مقيِّدًا لفعلِ الفرحِ بكونه في الأرض، و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ تعني (الدّنيا)، وهم إنّما كانوا يفرحون ويمرحون (على) الأرض لا فيها، غير أنَّ النّظم الكريم دَرَج على ذِكر الظّرفيَّة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ في أغلب مواضعِ وُرودِهِ في القرآن الكريم، حيث ورد ذكرُ ذلك في نحو مائةٍ وسبعين موضعًا، ولم يُذكر حرفُ الاستعلاء مع الأرض صراحةً (على الأرض) إلّا في أربعة مواضعَ، ولها مقاماتُها الخاصّة، الجليّة في سياقاتها.

فحرفُ الظّرفيَّة يُبيِّن تمكُّنَهم في الأرض، حتّى كأنّهم مُتَغلغِلون فيها مُتَمكِّنون منها؛ ممّا يقتضي منهم شكرَ اللّه تعالى، ومع ذلك بَطِروا الحقَّ، وجَحَدوا الفضلَ، وتكبَّروا وتجبَّروا؛ فاستوجَبوا الأغلالَ والسَّلاسِلَ والحميمَ والجحيم.

يضاف إلى ذلك: أنَّ في القيدِ بالظَّرفيَّة وجهَ إعجازٍ؛ ذلك أنَّ مجالَ الأرض أوسعُ من سطحها الَّذي نعيش عليه؛ إذ إنَّ طبقاتِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 339.

الغازات المحيطةَ بالأرض تجعلُ هذا الفضاء الَّذي يحيط بنا من الأرض، فنحن ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بهذا الاعتبار، ولسنا عليها.

**نوعُ (الباء) ودلالتُها:**

العبد مؤاخَذٌ بسببِ ما يلتصقُ به من مخالفةِ الحقِّ

(الباء) في القيد بالجارِّ والمجرور ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ للإلصاق، فهم ملتصقون بفرحهم بغير الحقِّ، وملتبسون بمرحهم بغير الحقّ، وفيها معنى السّببيَّة؛ أي: أنّ فرحَكم المُتجدِّدَ المتطاول هذا كان بسببِ (غيرِ الحقِّ)؛ ممّا أوجَبَ لكم الحميمَ والنّار، وعلى ذلك فالعبدُ مُؤاخَذٌ بتصرُّفاته جميعِها، حتّى بفرحه ومرحه؛ فيجب أن يضبطَهما بضوابطِ ﴿ٱلْحَقِّ﴾، وأن يتحاشى ما سِواه.

**نكتةُ تقييدِ الأفعال:**

دفعُ توهُّمِ حُرمةِ الفرحِ على المؤمنين

جاءَ تقييدُ فعل الفرح ﴿تَفْرَحُونَ﴾ بقيدِ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ لبيانِ أنَّ الفرحَ المقصودَ في الآيةِ هو ما كان بغير الحقِّ، وهو البغيضُ المحظور؛ وهو كما قال قوم قارونَ له: ﴿لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: 76]، ويقول تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٖ فَخُورٍ ٢٣﴾ [الحديد: 23]. وفائدةُ القيدِ هي دفعُ توهُّمِ أنَّ الفرحَ محرَّمٌ على المؤمنين.

**معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْحَقِّ﴾:**

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلْحَقِّ﴾ يدلُّ على الجنس، وتُقرِّر أنَّ كلَّ صورِ الاستقامة تنضوي تحت جنسٍ واحد، وأنَّ كلَّ فتائلِ الهُدى تستمدُّ أنوارَها، وتستقي بركاتِها من مِشكاةٍ واحدة.

**فائدةُ إيثارِ التّركيب الإضافيّ على اللّفظ المفرد:**

ذكرُ الحقِّ زيادةٌ في التّحسيرِ على تركه والتّنويه بمكانتِه العليّة

آثر النّظم الكريم استعمالَ التّركيب الإضافيِّ (غيرِ الحق) دون المعنى المُراد وهو الباطل، فيُسأل عن نكتة ذكر التّركيب الإضافيِّ دون اللّفظ المفرد مع وجازتِه اللّفظيَّة، والجوابُ: أنّ ذكر هذا التّركيبِ (غير الحقِّ) يومِئُ إلى أمرين؛ أنَّ فرحَهم كان بالباطل،

وأنّهم تركوا الحقَّ الَّذي كان نجاةً لهم، فهو المقصود الأهمّ، وفي ذِكره تنويهٌ بعظمته، وتنبيهٌ إلى وجوب اتّباعه؛ ففائدةُ ذكرِهِ زيادة التّحسير، والتّنويه بمكانته العليّة.

للمعطوفِ حكم المعطوفِ عليه في المُتعلّقات والقُيود

### دلالةُ واو العطف:

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾ واوُ العطف، عطفت ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾ على المتعلِّق ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾؛ فكلاهما متعلّق بمقدَّرٍ واحد، وتقديرُ الكلام: قيل لكم: ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحقِّ، وبما كنتم تمرحون في الأرض بغير الحق.

المرحُ عنوانٌ آخرُ من عناوين الانشغال عن التّصديق بيوم الدّين

### نوعُ (الباء) ونكتةُ تكرارِها:

(الباءُ) في قوله تعالى: ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾ باءُ السّببيَّة؛ أي: إنَّ ما صِرتُم إليه من العذابِ، وغَلِّكم بتلك الأغلالِ وسَلۡسَلَتِكُم بتلك السّلاسلِ، وسَحۡبِكم فيها، وسَجۡرِكم في النّار، كلُّ ذلك بسببِ (ما كنتم تمرحون)، لا بظلم وقع عليكم. وفي تكرار (الباء) بعد سبْق ذِكرها في جملة ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ مزيدُ تبكيتٍ وتوبيخ، وتنبيهٍ إلى أنَّ مرحَهم هو الآخَرُ جديرٌ بعذابٍ نفسيٍّ مستقلٍّ، فضلًا عن العذابِ البدنيِّ اللّائق بجُرمهم.

### نوعُ (ما) ودلالتُها:

ما قيل في (ما) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ هو نفسُه ما يُقال في قوله تعالى: ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾، فهو محمولٌ على المصدريّةِ والموصوليّةِ بمعناهما العامِّ والدَّقيقِ المتقدِّم بغرضِ الإيجاز.

### بلاغةُ استعمالِ مفردة المرح:

جاء استعمالُ مفردةِ المرح في جملة ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾ ليُمثِّلَ مظاهرَ الخفَّةِ والطَّربِ النّاتجة عن الفرح، فالفرحُ أمرٌ قلبيٌّ روحيٌّ

مستورٌ، والمرحُ مظهَرٌ بدنيٌّ منظورٌ، ومن المرح "البطرُ والخُيَلاءُ"[1]، و"ما يَظهَرُ على الفَرِحِ من الحركاتِ في مشْيِه، ونَظره، ومعاملته مع النّاس، وكلامِه، وتكبُّره؛ فهو هيئةٌ ظاهريَّةٌ"[2]، ومنه الـ"فرح بِعُدوانٍ، كالبطَرِ والأشَرِ"[3]، ومنه "التَّكبُّر؛ وهو كقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: 37]؛ أي: تكبُّرًا"[4].

المــرحُ نتيجةُ الفرحِ والبطرِ، وهو أشدُّ الفرح

**بلاغةُ فنِّ الجناس:**

بين الفعلين ﴿تَفْرَحُونَ﴾، و﴿تَمْرَحُونَ﴾ جناس مُحَرَّف؛ إذ الفرق بينهما محصور في اختلافهما في تغييرِ حرفٍ واحد، فجاء بدلًا من (الفاء) في الأوَّل (الميمُ) في الثّاني، فالأوَّل يدلُّ على انتعاشةِ الرّوح وطرَب النَّفْس، والثّاني يدلُّ على خِفَّة البدن وحركات الجوارح، فالجناسُ حقَّق عنصرَ المخادَعة، وجاء على ما طَلَبَه المعنى واستَدْعاهُ، وساقَهُ نحوَهُ بلا أدنى كُلْفة.

الـجـمـعُ بـينَ الحالةِ النّفسيَّةِ والبدنيَّة بجناسٍ لطيف

**بلاغةُ الإيجازِ بالاكتفاء:**

اكتفى النَّظمُ الكريم بِذِكر القيدَين ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ في جملةِ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ عن إعادتِهما في جملةِ ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾؛ إذ إنَّ ذِكْرَهما قبلًا يُحقِّقُ الوَجازةَ مع تمامِ البرِّ بالمعنى والوفاءِ بتحقيق الغرض.

الاكتفاءُ القرآنيُّ يُـحـقِّـقُ إيـجـازَ اللَّفظِ مع تمام المعنى

**علَّةُ فَصْلِ جُملةِ ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ عمّا قبلها:**

جملةُ ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ "يجوزُ أن تكون استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّهم لمّا سمعوا التّقريع والتَّوبيخ، وأيقنوا بانتفاء الشّفيع؛ ترقَّبوا ماذا سيؤمر به في حقِّهم، فقيل لهم: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾، ويجوز أن تكون بدلَ اشتمالٍ من جملة ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ﴾؛ فإنَّ

الدّخولُ في النّار نتيجةُ الفرحِ بـالـبـاطـلِ في الدّنيا

(1) الواحدي، التّفسير الوسيط: 4/ 21.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 206.

(3) حجازي، التّفسير الواضح: 3/ 317.

(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 52.

مدلولَ اسم الإشارة العذابُ المشاهَدُ لهم، وهو يشتملُ على إدخالِهم أبوابَ جهنَّمَ والخلودِ فيها"[1].

فهي على الوجهينِ مفصولةٌ عن السّابق؛ وبينَ الجملتينِ على تقديرِ الاستئنافِ البيانيِّ شبهُ كمال الاتّصال، وعلى تقديرِ البَدَليَّةِ كمالُ الاتِّصال.

تبكيتُ المكذِّبين بإعلامِهم بمصيرِ حالِهم

**غرضُ الأمرِ ودلالتُه:**

الأمرُ بالدّخول في قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ محمولٌ على الإهانةِ والتَّحقير والتَّبكيت، وهو تحصيلُ حاصلٍ، وليس أحدٌ يدخلُ النّارَ باختيارِه، فهو إجبارٌ يكون بجرِّهم بالسَّلاسلِ حتّى يدخلوها، وينزلوا منازلَهم الَّتي أُعِدَّتْ لهم؛ ففيه مِن الإياس من النّجاة من العذاب ما يُسَوِّد مصيرَهم الأليم؛ فإنَّه أمرُ مَن لا يُرَدُّ له أمرٌ، مَن إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون. وفيه تقريعٌ وتوبيخٌ هما من جملة عذابهم، وإلّا لزُجّوا فيها مباشرةً مِن دونِ توجيه الأمر إليهم، فلِكلّ جماعةٍ بابُها الَّذي تدخلُ منه إلى منزلها المُعَدِّ لها في جهنَّمَ، كما يقول اللّه سبحانه: ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ٤٤﴾ [الحجر: 44][2].

الإيماءُ إلى فِقْدانِ الاختيارِ بدخولِ أبواب النّار

**لطيفةُ إسنادِ الدُّخولِ إلى الكفّار:**

لا يدخلُ أحدٌ أبوابَ جهنَّمَ مِن تلقاءِ نفسه إلّا مضطرًّا مجبورًا على دخولها، والأمرُ صادرٌ ممَّن إذا أراد شيئًا فإنَّما يقولُ له: كن فيكون، فإسنادُ فعل الدّخول إليهم في جملةِ ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ يَعكِسُ ما يتجرَّعونه من الخوف، وما يرون هنالك من أسباب الاضطرار والضَّغط؛ بحيث يَدخُلون بأنفسِهم أبوابَ جهنَّمَ.

يُضافُ إلى ذلك أنَّ إسنادَ دخول هذه الأبواب إلى ضميرهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 206.

(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 12/ 1270.

يُذكِّرُ باختيارِهم أسبابَ الدُّخول؛ حتّى كأنَّ دخولَهم إيّاها بمحضِ إرادتهم، وأنّهم يفعلونه اختيارًا، فهو باعتبارِ ما سيكون من وُلوجِ النّار، لا باعتبارِ إرادة الفعل.

أبـــوابُ الـنّـارِ مـعـدودة، وأجزاءُ داخِليها مقسومة

**دلالةُ جمعِ ﴿أَبۡوَٰبَ﴾:**

وَرَدَتْ كلمةُ ﴿أَبۡوَٰبَ﴾ بصيغةِ الجمعِ إشارةً إلى عددها المحدَّد في قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ﴾ [الحجر: 44]، إلّا أنْ يُرادَ بالعددِ ﴿سَبۡعَةُ﴾ [الحجر: 44] الكنايةُ عن كثرتها جريًا على عادة القرآن الكريم في استعمال هذا العددِ الّذي لا يَعلَمُ سرَّه إلّا اللّه تعالى، وفي ذلك إشارةٌ إلى سَعَتِها سَعةً تكفي لأكثرِ النّاس، وإنَّ أكثرَ النّاس عن الحقِّ لناكِبون.

دخـــولُ أبــواب جهنَّمَ مقدِّمةٌ موحيةٌ بإعدادِ النّار وتَهْيِئَتِها

**بلاغةُ الكنايةِ في استعمالِ لفظِ الدُّخول:**

الأمرُ بدخول أبواب النّار في قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ "كنايةٌ عن الكون في جهنَّمَ؛ لأنَّ الأبوابَ إنّما جُعلت ليُسلَكَ منها إلى البيتِ ونحوه"[(1)]، فدخولُ أبواب الشّيء دليلُ دُخولِه وتجاوُزِه إلى داخله، فالمقصودُ بأبوابِ جهنَّمَ جهنَّمُ نفسُها؛ بقرينة الخلود فيها. وفي التَّعبير بدخولِهم أبوابَ جهنَّمَ دون التّصريح بدخولها نفسِها إشعارٌ بفظاعةِ خَطَرِها؛ إذ كان دخولُ أبوابِها عقوبةً تُكافِئُ شِرْكَهم، فكيف بدخولِها نفسِها؟ فهو يَطوي من العقاب ما لا يُتصوَّر.

قـيَـمُ الـهـدايـةِ مـبـثـوثـةٌ في التَّرهيبِ كما هي في التَّرغيب

**بلاغةُ المجازِ في استعمالِ لفظ الأبواب:**

البابُ نفسُه لا يُدخَلُ، وإنّما يُدخَلُ ما وُضِع له البابُ، وقولُه تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ يرادُ به دخولُ جهنَّم، وذكرُ البابِ مجازٌ مرسلٌ علاقتُه الجزئيّة، حيث أطلَقَ الجزءَ وأراد الكلَّ، أو الحاليَّة، حيث أطلق الحالَّ في مداخلِ جهنَّمَ - وهو الباب - وأراد محلَّ الدُّخول، ونكتةُ ذلك الإعلامُ بوجودِ أبوابٍ لجهنّم، يكون الدُّخول منها أمرًا، ولا يخرجُ أحدٌ إلّا بأمر اللّه تعالى، ففيه مزيدُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 206.

عذابٍ نفسيٍّ؛ إذ عندَ علمِ استحالة النّجاة يقعُ العبد في اليأس والعجز؛ فيُقبِلُ على تخليصِ نفسِه - إنْ كان عاقلًا - من مداخلِ العذاب وأسبابِه.

### نكتةُ التَّعبير باسم الفاعل:

دخولُ الكافرين أبوابَ جهنَّمَ مقدَّرٌ بِخُلودهم فيها

جاءَ التّعبير باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ﴾، وهي حالٌ مقدَّرةٌ من الفاعل، وهو ضميرُ الجماعة في جملة ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ﴾، وهم مُخَلَّدون فيها راغِمين، لا خالدون فيها راغبين؛ لكنَّهم لمّا استوجبوها بأعمالِهم الَّتي اختاروها أحرارًا مختارين كانوا كأنَّهم يَخلُدون فيها مُختارين الخلودَ فيها برغبتهم، وفي ذلك تنبيهٌ لهم وتحذيرٌ قد يرُدُّهم عن كفرهم.

### نكتةُ تقييدِ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ بالجارِّ والمجرور:

جهنَّمُ واسعةٌ عميقةٌ سحيقةٌ لا قرارَ لقَعْرِها

قُيِّد خلودُ المشركين في جهنَّمَ بالجارِّ والمجرور ﴿فِيهَاۖ﴾؛ ليقتضيَ تغلغُلَهم في أعماقِ أوديةِ جهنَّمَ، ومكابدتَهم صنوفَ العذاب في أحشائها، وقد صارتْ ظرفًا يشتملُ عليهم، وهم يتلظّوْن ﴿فِيهَاۖ﴾، والعياذُ باللّه من العذاب كلِّه.

كما أنَّ الجارَّ والمجرور ﴿فِيهَاۖ﴾ يوحي بأنَّها واسعةٌ عميقة سحيقةٌ؛ بحيث يَهوي ﴿فِيهَاۖ﴾ الكفّار هويًّا سحيقًا؛ اتِّساقًا مع قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ٣٢﴾ [الحاقة: 30 - 32].

### نوعُ (الفاء) ودلالتُها:

عاقبةُ التَّكبُّرِ عن طاعةِ الله ذميمة

(الفاءُ) في جملةِ ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ تفريعيَّةٌ على ﴿خَٰلِدِينَ﴾، حيث فرَّعَتْ ذمَّ مَثوى المتكبرين على خلودِهم في جهنَّمَ بعدَ وُلوجِهم أبوابَها واستقرارِهم في أعماقِها.

### دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ (بئس) بصيغةِ التَّذكير:

(بئس) فعلٌ يدلُّ على الذَّمِّ، والمخصوصُ بالذَّمِّ هنا محذوفٌ

وهو (جهنَّمُ)؛ وهي مؤنَّثٌ بدليلِ عَوْدِ الضّمير المؤنَّث عليها في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾؛ فكان حقُّ الفعل (بئس) - في الظّاهرِ - أن يتَّصلَ بِتاء التّأنيث، لكن "لم يتَّصلْ فعلُ (بئس) بتاء التّأنيث؛ لأنَّ فاعله في الظّاهر هو ﴿مَثْوَى﴾؛ لأنَّ العبرةَ بإسناد فِعل الذّمِّ والمدح إلى الاسم المذكور بعدهما، وأمّا اسم المخصوص فهو بمنزلةِ البيان بعد الإجمال، فهو مبتدأٌ خبرُهُ محذوفٌ، أو خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ؛ ولذلك عُدَّ بابُ نِعم وبِئس مِن طُرُق الإطناب"[1].

العِبرةُ في باب المدحِ والذَّمِّ إسنادُ فِعْلِهما إلى المذكورِ لا المقدَّرِ المخصوص

### نكتةُ حذفِ المخصوصِ بالذَّمِّ:

حُذِف المخصوصُ بالذَّمِّ في جملة ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ لأنّه يدلُّ عليه ذِكرُ جهنَّمَ في قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾؛ أي: فبئس مثوى المتكبِّرين جهنَّمُ[2]. ويُلمَحُ في حذفِ المخصوص بالذَّمِّ ﴿جَهَنَّمَ﴾ وطَيِّه من الذِّكر دعوةٌ إلى التّوبة، وتلويحٌ بفتْح باب الرّحمة لِمَن أدرك فرصةَ وجودِهِ هنا في الحياة الدّنيا فرجَعَ إلى الحقِّ؛ فما أرحَمَ الرَّحمنَ الرَّحيمَ! سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

دعـوةٌ للتَّوبة، وتلويحٌ بفَتْحِ بابِ الرَّحمة

### بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿مَثۡوَى﴾ دون (مَدْخل):

المَثْوى: هو المستقَرُّ ومحلُّ الثَّواء، والثَّواء: الإقامةُ الدّائمة، وأوثر لفظُ مثوى دون (مدخل) المناسِبِ لـ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ﴾؛ لأنَّ المَثوى أدلُّ على الخلود؛ فهو أولى بِمَساءتهم[3]، وأشدُّ تخويفًا لهم ولغيرهم في باب التَّهديد والوعيد، ودلَّ لفظ الخلودِ على الثَّواء الدّائم؛ فجاء التّركيبُ: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾، فكان العدولُ عن (فبئس مدخلُ المتكبِّرين) لأنَّ نَفْس الدُّخولِ لا يَدومُ ولا يَستلزِمُ الخلودَ، فلم يُبالَغْ في ذمِّه، بخلاف الثَّواءِ الدّائم[4] المناسبِ لِلَفْظِ الخلود؛ فلذلك

مخالفةُ مقتضى الظّاهرِ لموافقةِ مقتضى الحالِ مِـن دقيقِ التَّعبير وجزالةِ اللَّفظ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 207.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 207.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 207.
(4) أبو حيان، البحر المحيط في التّفسير: 9/ 273.

أوثِر في الذَّمِّ ذِكرُ الثَّواء على الدّخول. على أنّ الخلودَ لا يكون مُقارِنًا للدُّخول، وإنما يكون لاحقًا بعدَ الدّخول؛ لذلك كان المعنى: "خالدين فيها مُقدَّرًا خلودُكم فيها"(1).

كما أنَّ مِن أسباب العدول انتقالَ الكلامِ عن ذكر الأبواب إلى ذكر جهنَّمَ نفسِها، وذلك من خلال تقييد ﴿خَٰلِدِينَ﴾ بالجارّ والمجرور ﴿فِيهَاۖ﴾، ومن المعلوم بداهةً أنَّ الكافرين لا يُخلّدون في أبواب جهنَّمَ، بل يخلَّدون في أعماقها وسحيقِ أوديتِها، الَّتي جاء الخبر فيها: «إنَّ الحَجَرَ لَيَزِنُ سَبْعَ خَلِفاتٍ(2) يُرْمَى بِهِ في جَهَنَّمَ، فيَهْوِي سَبْعِينَ خَرِيفًا، ما يَبْلُغُ قَعْرَها»(3).

**بلاغةُ استعمالِ مفردةِ التَّكبُّر:**

الكِبْرُ علّةُ الكفرِ وداعيةُ الشِّركِ وأصلُ الدّاء

استعمل النّظمُ الكريم مفردة التّكبُّر في جملة الذّمِّ: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ التّكبُّر مذمومٌ عند الله تعالى، وعلى أنّه مِن أكبرِ الجرائم الَّتي تستحقُّ الذّمَّ، وأنَّه داعيةُ الجدالِ في آيات الله تعالى، والتَّكذيبِ بالكتابِ وبما أرسل الله تعالى به الرُّسُل عليهم السلام، وأنَّه بوّابة الكُفر؛ فيؤدّي بأصحابه إلى المثوى الذّميم، فانتقى وصفَ التّكبُّر دون الشّرك أو الكفر؛ للنَّصِّ على العلّة الدّاعية لهما، وأنَّ الكبر أصلُ كلِّ ذميم، ولا علاجَ له إلّا النّار.

**معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾:**

كلُّ متكبِّرٍ لا يُؤمِنُ بيوم الحساب فموعدُه جهنَّم

جُمِع لفظُ ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ وعُرِّف بـ(أل) لبيانِ استغراق أفراد الجنس، وهي تقضي بأنَّ جميع المتكبِّرين داخلون في الوعيدِ؛ ففي الحديث القدسيِّ قالَ اللّه ﷻ: «الكِبْرِياءُ رِدائي، والعَظَمَةُ إزاري، فمَنْ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 285.

(2) "عن الأَصْمَعِي: ناقةٌ عاقِدٌ تَعْقِدُ بِذَنَبِها عِنْد اللِّقاحِ، فَإِذا ثَبَت اللِّقاحَ وهوَ حَمْلُها فَهِيَ خَلِفَة، جمعُها خَلِفات"، ينظر: ابن سيده، المخصص، كتاب الإبل - حَمْل الإبل ونَتاجها.

(3) الطبراني، المعجم الكبير، بابُ الباءِ، بُرَيْدَةُ بْنُ الحُصَيْبِ الأَسْلَمِيُّ يُكْنَى أَبا عَبْدِ اللهِ: 2/ 21، برقم: (1158).

نازَعَني واحِدًا مِنْهُما قَذَفْتُهُ في النّارِ»(1)، و"المراد بـ ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ هنا هم المخاطَبون ابتداءً؛ لأنَّهم جادلوا في آيات اللّه تعالى عن كِبْرٍ في صدورهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ [غافر: 56]، ولأنَّ تكبُّرهم من فَرَحهم"(2)، وهؤلاء المجادلون المكذِّبون تكبَّروا على الرَّسول ﷺ، بل حَمَلَهم الكبرُ والحسد على منازلته ما استحقّوا به الذَّمَّ والوعيد.

**نكتةُ العدولِ عن ضميرهم إلى ذكرهم بوصف التَّكبُّر:**

لـكـلِّ مـتـكـبِّرٍ نصيبٌ من النّار ولو كان من أهلِ الإيمان

آثر النّظم الكريم ذكرَ المشركين بإظهارِ أحد أوصافهم - وهو التّكبُّر - دون الإضمار، حيث إنَّ مقتضى الظّاهر أن يُقال: (ادخلوا أبواب جهنَّم خالدين فيها فبئس المثوى مثواكم)، لكنَّ النّظم الكريم عدل إلى الاسم الظّاهر ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ وذلك للإيماءِ إلى أنَّ من "أسباب وقوعهم في النّار تكبُّرَهم على الرّسل، وليكونَ لكلِّ موصوف بالكبر حظٌّ مِن استحقاقِ العقاب إذا لم يتُبْ ولم تَغلب حسناتُه على سيِّئاته إنْ كان من أهل الإيمان"(3)، وللانصراف عن مخاطبتهم، وإشعارهم بعدم أهليَّتِهم للخطاب؛ فجاء بالوصف المتضمِّن الغَيْبَةَ، وللنَّصِّ على موجِبٍ خطيرٍ من موجِبات معاقبتهم بهذا المصير الذَّميم، وهو التّكبُّر الَّذي حالَ بينهم وبين الإيمان، إلى ما في التّكبُّر من انتحال صفةٍ هي للّه تعالى خالصةً، لا يجوز لأحدٍ أن ينازعه فيها؛ لقول اللّه ﷻ في الحديث القدسيِّ: «الكِبْرياءُ رِدائي، والعَظَمَةُ إزاري، فمَنْ نازَعَني واحِدًا مِنْهُما قَذَفْتُهُ في النّارِ»(4)، وللإشارةِ إلى مَن يتّصف بهذه الصّفة من عصاة المؤمنين؛ ليحذروا العناد عليها، ويتّجهوا إلى التّوبة الصّادقة.

---

(1) أبو داود، سنن أبي داود، كتاب اللباس، بابُ ما جاءَ فِي الكِبْرِ: 4/ 59، برقم: (4090).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 207.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 207.

(4) أبو داود، سنن أبي داود، كتاب اللباس، بابُ ما جاءَ فِي الكِبْرِ: 4/ 59، برقم: (4090).

### دلالةُ التّعبير باسم الفاعل:

الكبرُ مَتَغلغِلٌ في نفوسِ الكفّار متمكّنٌ منهم

في صياغةِ ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ إشارةٌ إلى تغلغُلِ الكبر في نفوس كفّار قريش، وأنَّ الكِبر تمكّن منهم، وصار صفةً لازمةً قائمة فيهم، وفي ذلك تلويحٌ بمصيرهم الذّميم؛ ممّا قد يزجُرُهم عن الكبر، وعن التَّجرُّؤِ على الحقِّ. وتلك حقيقةٌ ثابتة؛ يدلُّ عليها اختصاصُ أغلبِ مواضعِ وصف العذاب بالمُهين في الذّكر الحكيم بكفّار قريش، وتلك ظاهرةٌ قرآنيَّةٌ تتَّسِقُ مع ما كان لهم من أنفة وكبرياء كان الملائمُ لعقوبتهما توعُّدَهم بالعذاب المُهين[1].

### لطيفةُ حذفِ متعلّق ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾:

التَّكبُّرُ بالإطلاقِ مـذمـومٌ على الإطلاقِ

حُذِفَ متعلّق لفظِ التّكبُّر في قوله تعالى: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ لأنَّه معروفٌ مفهوم من السّياق، وتقديرُ الكلام قبل الحذف: "مَثْوَى المُتَكَبِّرينَ عن الحقِّ، المستخِفّين به"[2]، "المتكبِّرين عن الإيمان"[3]، فضلًا عمّا يوحي به حذفُهُ مِن عموم الذَّمِّ جميعَ مَن فيه تكبُّرٌ، سواء كان تكبُّرًا على الدّين، أو تكبُّرًا على أحدٍ من النّاس، أو تكبُّرًا عن كلِّ حقٍ تبيَّنَ له، أو غيرَ ذلك مِن صنوف التّكبُّر.

## ۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

### المثوى والمأوى:

المَـثـوى مـكـانُ الإقـــامـــةِ والمُـسـتـقَـرُّ، والمَــأوى مـكـانُ الإيــواءِ بلا قيدِ الإقامةِ

الثَّواء: الإقامةُ مع الاستقرار، قال اللّه ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: 45]، وقال: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ٦٠﴾ [الزُّمر: 60]، وقال: ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [الأنعام: 128][4]. فالمَثْوى مكان الإقامة والمستقرّ.

(1) يراجع في هذا بحث: (من وجوه الملاءمة بين المقال والمقام في وصفَي العذاب «المهين والأليم» في الذّكر الحكيم) للدكتور أحمد محمد محمود سعيد، وهو بحثٌ منشور في مجلة قطاع كليات اللُّغة العربية والأقسام المناظرة لها - جامعة الأزهر الشّريف بالقاهرة عام 2008م.

(2) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التّنزيل: 4/ 179.

(3) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 214.

(4) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (ثوى).

والمَأوى مصدرٌ: أوَى يَأْوي أويًّا ومَأوًى، قال ﷻ: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ [الكهف: 10]، وقال تعالى: ﴿جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥﴾ [النَّجم: 15]، وقوله تعالى: ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ [آل عمران: 197] اسمٌ للمكان الَّذي يأوي إليه(1).

وممّا تقدَّمَ يتبيَّنُ: أنَّ المثوى يُذكَرُ على سبيل الاستقرارِ والإقامةِ الدّائمة، أمّا المأوى فقد يُراد به الدَّيمومةُ وقد يُراد به المكثُ فترةً ثمَّ الانتقالُ إلى غيره، وهذا سببُ إيثارِ لفظةِ المثوى هنا.

### الفرح والمرح:

الفـرَحُ انفعالٌ قـلبـيٌّ وروحـيٌّ مستور، والمـرَحُ مَـظْـهَـرٌ بـدنيٌّ منظور

الفرحُ قد يكون بحقٍّ فيُحمَدُ عليه، وقد يكون بالباطل فيُذَمُّ عليه، والمرحُ لا يكون إلّا بالباطل، ويُبَيِّنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾ حيث قيَّدَ الأوَّلَ بغير الحقِّ، وأطلَقَ الثّاني فلم يقيِّده(2)، والفرحُ انفعالٌ داخليٌّ، والمرحُ طَرَبٌ ظاهريٌّ، والمرحُ: "الفرح الشّديد، الَّذي يصحَبُه عبثٌ ولهو"(3)، وفي "الفرح: السّرور، وفي المرح: البطرُ، فَسُرّوا بالإمهالِ وبَطِروا بالنِّعَم"(4)، وفي "الفرح: الشِّرك، وفي المرح: العُدوان"(5)، "والفرح: المسرَّةُ ورضا الإنسان على أحواله، فهو انفعال نفسانيّ. والمرح: ما يظهر على الفَرِحِ من الحركات في مشيه ونظره ومعاملته مع النّاس وكلامه وتكبُّره، فهو هيئةٌ ظاهريَّة"(6).

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (أوى).
(2) العسكري، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 492.
(3) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 12/ 1270.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 165.
(5) الكرماني، لباب التّفاسير، ص: 2630.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 24/ 206.

# المحتويات